2377 -
-5 1A

فصل) لا تصح الطهارات بالماء المستعمل القليل في رفع الحدث ولا إزالة النجس فلو أدخل المتوضي يده في الماء القليل بعد غسل وجهه غير ناو للاغتراف صار الماء الباقي مستعملا والمستعمل في طهر مسنون كالغسلة الثانية والثالثة تصح به الطهارات

4 (فصل) ينجس الماء القليل وغيره من المائعات بملاقاة النجاسة

فصل فروض الوضوء ستة (الأول) نية رفع الحدث وطهارة الصلاة أو نحو ذلك عند غسل الوجه وينوي سلس البول

(تمت)

(فهرست كتاب الهجرتين الموضوع بهامش كتاب اغاثة اللهفان)

(تمت)

هذا كتاب اغاثة اللهفان في مصايد الشيطان

تأليف الامام العلامه الحجة الفهامه

شمس الدين محمد بن أبي بكر الحنبلي

المعروف بابن قيم الجوزية

نفع الله به

آمين

قد صار هذا الكتاب في حوزة الحقير الفقير

الى الله غالب بن سعيد بن عبد القادر البحيصي

١٤ رجب ١٣٣٧

(وبهامشه كتاب طريق الهجرتين وباب السعادتين

تأليف الامام المذكور ضاعف الله له الأجور

آمين)

ليعلم الناظر في هذا الكتاب الجليل ان الموقف له غالب بن سعيد بن عبد القادر

البحسي خالصاً لوجه الله تعالى على طلبة العلم ممن اراد الانتفاع به وشرط

الواقف ان من هو عنده المستعير اذا اراد الانتفاع به او المطالعه

لكل طالب علم اذا اراده عند غير من ينتفع به ان يأخذه ويجعله عند من

ينتفع به وقد وقفه وقفاً صحيحاً شرعياً لا يباع ولا يرهن ولا يوهب فمن بدله

بعد ما سمعه فانما اثمه على الذين يبدلونه والله خير شاهداً ووكيل

بتاريخ ١٠ محرم الحرام سنة ١٣٣٨

(طبع بالمطبعة الميمنية بمصر)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى ظهر لاوليائه بنعوت جلاله * وأنار قلوبهم بمشاهدة صفات كماله * وتعرف اليهم بما أسداه اليهم من انعامه وافضاله * فعلموا أنه الواحد الاحد الفرد الصمد الذى لا شريك له فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله * بل هو كما وصف به نفسه وفوق ما يصفه به أحد من خلقه فى اكثاره واقلاله * لا يحصى أحد ثناء عليه بل هو كما أثنى على نفسه على لسان من أكرمهم بارساله * الاول الذى ليس قبله شئ والآخر الذى ليس بعده شئ والباطن الذى ليس دونه شئ ولا يحجب المخلوق عنه تستره بسرباله الحى القيوم الواحد الاحد الفرد الصمد المنفرد بالبقاء وكل مخلوق منتهى الى زواله * السميع الذى يسمع ضجيج الاصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات فلا يشغله سمع عن سمع ولا تغلطه المسائل ولا يتبرم بالحاح الملحين فى سؤاله * البصير الذى يرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء حيث كانت من سهله أو جباله * وألطف من ذلك رؤيته لتقلب قلب عبده ومشاهدته لاختلاف أحواله فان أقبل اليه تلقاه وانما اقبال العبد عليه من اقباله وان أعرض عنه لم يكله الى عدوه ولم يدعه فى اهماله * بل يكون أرحم به من الوالدة بولدها الرفيقة به فى حمله ورضاعه وفصاله * فان تاب فهو أفرح بتوبته من الفاقد لراحلته التى عليها طعامه وشرابه فى الارض الدوية المهلكة اذا وجدها وقد تهيأ لموته وانقطاع أوصاله * وان أصر على الاعراض ولم يتعرض لاسباب الرحمة بل أصر على العصيان فى ادباره واقباله * وصالح عدو الله وقاطع سيده فقد استحق الهلاك ولا يهلك على الله الا الشقى الهالك لعظيم رحمته وسعة افضاله * وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إلها واحدا أحدا فردا صمدا

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(وبه نستعين)

الحمد لله الذى نصب الكائنات على ربوبيته ووحدانيته حججا وحجب العقول والابصار ان تجد الى تكييفه منهجا وأوجب الفوز بالنجاة لمن شهد له بالوحدانية شهادة لم يبغ لها عوجا وجعل لمن اتقاه من كل ضائقة مخرجا ومن ضيق الشدائد وضنك ... توكل عليه فرجا ... قلوب أوليائه منتقلة فى منازل عبوديته من الصبر والتوكل والانابة والتفويض والمحبة والخوف والرجا فسبحان من أفاض على خلقه النعمة وكتب على نفسه الرحمة وضمن الكتاب الذى كتبه ان رحمته تغلب غضبه واسبغ على عباده نعمه فرادى وتوأم وسخر لهم البر والبحر والشمس والقمر والليل والنهار والعيون والانهار والضياء والظلام وأرسل اليهم رسله وأنزل عليهم كتبه يدعوهم الى جواره فى دار السلام فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا فسبحان من أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ورفع لمن ائتم به فاحل حلاله وحرم حرامه وعمل بمحكمه وآمن بمتشابهه فى مراقى السعادة درجا ووضع قهره على من أعرض عنه ولم يرفع به رأسه ونبذه وراء ظهره وابتغى الهدى من غيره فجعله فى دركات الجحيم متولجا فانه الذكر الحكيم

جل عن الاشباه والامثال * وتقدس عن الاضداد والانداد والشركاء والاشكال
لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع ولا راد لحكمه ولا معقب لامره (واذا أراد الله بقوم
سوأ فلا مرد له ومالهم من دونه من وال) وأشهد أن محمدا عبده ورسوله القائم له بحقه
وأمينه على وحيه وخيرته من خلقه * أرسله رحمة للعالمين واماما للمتقين وحسرة على
الكافرين وحجة على العباد أجمعين بعثه على حين فترة من الرسل فهدى به الى أقوم الطرق
وأوضح السبل وافترض على العباد طاعته ومحبته وتعظيمه وتوقيره والقيام بحقوقه وسد
الى جنته جميع الطرق فلم يفتح لاحد الا من طريقه فشرح له صدره ووضع عنه وزره
ورفع له ذكره وجعل الذل والصغار على من خالف أمره وأقسم بحياته فى كتابه المبين
وقرن اسمه باسمه فلا يذكر الا ذكر معه كما فى التشهد والخطب والتأذين فلم يزل صلى الله
عليه وسلم قائما بأمر الله لا يرده عنه راد مشمرا فى مرضاة الله لا يصده عن ذلك صاد الى أن
أشرقت الدنيا برسالته ضياء وابتهاجا ودخل الناس فى دين الله أفواجا أفواجا وسارت
دعوته مسير الشمس فى الاقطار وبلغ دينه القيم ما بلغ الليل والنهار ثم استأثر الله به
لينجز له ما وعده به فى كتابه المبين بعد أن بلغ الرسالة وأدى الامانة ونصح الامة وجاهد
فى الله حق الجهاد وأقام الدين وترك أمته على البيضاء الواضحة البينة للسالكين وقال
هذه سبيلى أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين
(أما بعد) فان الله سبحانه لم يخلق خلقه سدى مهملا بل جعلهم موردا للتكليف
ومحلا للامر والنهى وألزمهم فهم ما أرشدهم اليه مجملا ومفصلا وقسمهم الى شقى وسعيد
وجعل لكل واحد من الفريقين منزلا وأعطاهم مواد العلم والعمل من القلب والسمع
والبصر والجوارح نعمة منه وتفضلا فمن استعمل ذلك فى طاعته وسلك به طريق معرفته
على ما أرشد اليه ولم يبغ عنه عدولا فقد قام بشكر ما أوتيه من ذلك وسلك به الى مرضاة
الله سبيلا ومن استعمله فى ارادته وشهواته ولم يرع حق خالقه يخسر اذا سئل عن ذلك ويحزن
حزنا طويلا فانه لابد من الحساب على حق هذه الاعضاء لقوله ان السمع والبصر والفؤاد كل
أولئك كان عنه مسؤلا ولما كان القلب لهذه الاعضاء كالملك المتصرف فى الجنود الذى
تصدر كلها عن أمره ويستعملها فيما شاء فكلها تحت عبوديته وقهره وتكتسب منه
الاقامة والزيغ وتتبعه فيما يعقده من العزم أو يحله قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم
الا وان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله فهو ملكها وهى المنفذة لما يأمرها به
القابلة لما يأتيها من هديته ولا يستقيم لها شئ من أعمالها حتى يصدر عن قصده
ونيته وهو المسؤل عنها كلها لان كل راع مسؤل عن رعيته كان الاهتمام بتصحيحه
وتسديده أولى ما اعتمد عليه السالكون والنظر فى أمراضه وعلاجها أهم ما تنسك به
الناسكون ولما علم عدو الله ابليس أن المدار على القلب والاعتماد عليه أجلب عليه
بالوساوس وأقبل بوجوه الشهوات اليه وزين له من الاحوال والاعمال ما يصده به عن
الطريق وأمده من أسباب الغى بما يقطعه عن أسباب التوفيق ونصب له من المصايد
والحبائل ما ان سلم من الوقوع فيها لم يسلم من أن يحصل له بها التعويق فلا نجاة من مصايده
ومكايده الا بدوام الاستعانة بالله تعالى والتعرض لاسباب مرضاته والتجاء القلب اليه

والصراط المستقيم والنبأ العظيم
وحبل الله المتين الممدود بينه وبين
خلقه وعهده الذى من استمسك به
فاز ونجا وأشهد أن لا اله الا الله
وحده لا شريك له ولا سمى له ولا
كفو له ولا صاحبة له ولا والد له ولا
شبيه له ولا يحصى أحد ثناء عليه
بل هو كما أثنى على نفسه وفوق
ما يثنى عليه خلقه شهادة من أصبح
قلبه بالايمان بالله وأسمائه
وصفاته مبتهجا ولم يزغ الى شبه
الجاحدين المعطلين معرجا وأشهد
أن محمدا عبده ورسوله وخيرته من
خلقه وأمينه على وحيه وسفيره
بينه وبين عباده أرسله رحمة للعالمين
وقدوة للعاملين ومحجة للسالكين
وحجة على العباد أجمعين أرسله على
حين فترة من الرسل فهدى به الى
أقوم الطرق وأوضح السبل
وافترض على العباد طاعته ومحبته
وتعزيره وتوقيره والقيام بحقوقه
وسد الى جنته جميع الطرق فلم
يفتح لاحد الا من طريقه فشرح
له صدره ورفع له ذكره ووضع عنه
وزره وجعل الذلة والصغار على
من خالف أمره فهدى به من
الضلالة وعلم به من الجهالة وكثر به
بعد القلة وأعز به بعد الذلة وأغنى
به بعد العيلة وبصر به من العمى
وأرشد به من الغى وفتح برسالته
أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا فبلغ
الرسالة وأدى الامانة ونصح الامة
وجاهد فى الله حق جهاده وعبد الله
حتى أتاه اليقين فلم يدع خيرا
الا دل أمته عليه ولا شرا الا حذرهم منه
ونهى عن سلوك الطريق الموصلة
اليه ففتح القلوب بالايمان والقرآن
وجاهد أعداء الله باليد والقلب

واقباله عليه فى حركاته وسكناته والتحقق بذل العبودية الذى هو أولى ما تلبس به الانسان ليحصل له الدخول فى ضمان ان عبادى ليس لك عليهم سلطان فهذه الاضافة هى القاطعة بين العبد وبين الشياطين وحصولها سبب تحقيق مقام العبودية لرب العالمين واشعار القلب اخلاص العمل ودوام اليقين فاذا أشرب القلب العبودية والاخلاص صار عند الله من المقربين وشمله استثناء الا عبادك منهم المخلصين ولما من الله الكريم بلطفه بالاطلاع على ما أطلع عليه من أمراض القلوب وأدوائها وما يعرض لها من وساوس الشياطين أعدائها وما يثمرها تلك الوساوس من الاعمال وما يكتسب القلب بعدهما من الاحوال فان العمل السيئ مصدره عن فساد قصد القلب ثم يعرض للقلب من فساد العمل قسوة فيزداد مرضا على مرضه حتى يموت و يبقى لا حياة فيه ولا نور له وكل ذلك من انفعاله لوسوسة الشيطان وركونه الى عدوه الذى لا يفلح الا من جهره بالعصيان أردت أن أقيد ذلك فى هذا الكتاب لاستذكره معترفا فيه لله بالفضل والنعمة و ينتفع به من نظر فيه داعيا لمؤلفه بالمغفرة والرحمة (وسميته) اغاثة اللهفان فى مصايد الشيطان ورتبته ثلاثة عشر بابا (الباب الاول) فى انقسام القلوب الى صحيح وسقيم وميت (الباب الثانى) فى ذكر حقيقة مرض القلب (الباب الثالث) فى انقسام أدوية أمراض القلب الى طبعية وشرعية (الباب الرابع) فى أن حياة القلب واشراقه مادة كل خير فيه وموته وظلمته مادة كل شر وفتنة فيه (الباب الخامس) فى أن حياة القلب وصحته لا تحصل الا بأن يكون مدركا للحق مريدا له مؤثرا له على غيره (الباب السادس) فى أنه لا سعادة للقلب ولا لذة ولا نعيم ولا صلاح الا بأن يكون الهه وفاطره وحده هو معبوده وغاية مطلوبه وأحب اليه من كل ما سواه (الباب السابع) فى أن القرآن الكريم متضمن لادوية القلب وعلاجه من جميع أمراضه (الباب الثامن) فى زكاة القلب (الباب التاسع) فى طهارة القلب من ادرانه وانجاسه (الباب العاشر) فى علامات مرض القلب وصحته (الباب الحادى عشر) فى علاج مرض القلب من استيلاء النفس عليه (الباب الثانى عشر) فى علاج مرض القلب بالشيطان (الباب الثالث عشر) فى مكايد الشيطان التى يكيد بها ابن آدم وهو الباب الذى لاجله وضع الكتاب وفيه فصول جمة الفوائد حسنة المقاصد والله تعالى يجعله خالصا لوجهه مؤمنا من الكرة الخاسرة وينفع به مصنفه وكاتبه والناظر فيه فى الدنيا والآخرة انه سميع عليم ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

(الباب الاول فى انقسام القلوب الى صحيح وسقيم وميت)

لما كان القلب يوصف بالحياة وضدها انقسم بحسب ذلك الى هذه الاحوال الثلاثة فالقلب الصحيح هو القلب السليم الذى لا ينجو يوم القيامة الا من أتى الله به كما قال تعالى (يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم) والسليم هو السالم وجاء على هذا المثال لانه للصفات كالطويل والقصير والظريف فالسليم القلب الذى قد صارت السلامة صفة ثابتة له كالعليم والقدير وأيضا فانه ضد المريض والسقيم والعليل وقد اختلفت عبارات الناس فى معنى القلب السليم والامر الجامع لذلك أنه الذى قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه ومن كل شبهة تعارض خبره فسلم من عبودية ما سواه وسلم من تحكيم غير رسوله فسلم من

والعيان فدعا الى الله على بصيرة وسار فى الامة بالعدل والاحسان وبخلقه العظيم أحسن سيرة الى أن أشرقت برسالته الارض بعد ظلماتها وتألفت به القلوب بعد شتاتها وسارت دعوته مسير الشمس فى الاقطار وبلغ دينه القيم ما بلغ الليل والنهار واستجابت لدعوته الحق القلوب طوعا واذعانا وامتلأت بعد خوفها وكفرها أمنا وايمانا فجزاه الله عن أمته أفضل الجزا وصلى عليه صلاة تملأ أقطار الارض والسما وسلم تسليما كثيرا (أما بعد) فان الله سبحانه غرس شجرة محبته ومعرفته وتوحيده فى قلوب من اختارهم لربوبيته واختصهم بنعمته وفضلهم على سائر خليقته فهى كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين باذن ربها فكذلك شجرة الايمان أصلها ثابت فى القلب وفروعها الكلام الطيب والعمل الصالح فى السماء فلا تزال هذه الشجرة تخرج ثمرها كل وقت باذن ربها من طيب القول وصالح العمل ما تقر به عيون صاحب الاصل وعيون حفظته وعيون أهله وأصحابه ومن قرب منه فان من قرت عينه بالله سبحانه قرت به كل عين وأنس به كل مستوحش وطاب به كل خبيث وفرح به كل حزين وأمن به كل خائف وشهد به كل غائب وذكرت رؤيته بالله فاذا رؤى ذكر الله قد اطمأن قلبه الى الله وسكنت نفسه الى الله وخلصت محبته لله وقصر خوفه من الله وجعل رجاءه كله لله فان سمع سمع بالله وان أبصر أبصر بالله وان بطش بطش بالله وان مشى مشى بالله فبه يسمع وبه يبصر وبه يبطش وبه يمشى فاذا أحب فلله واذا أبغض فلله واذا أعطى فلله واذا منع فلله قد اتخذ الله وحده معبوده ومرجوه ومخوفه وغاية قصده ومنتهى طلبه واتخذ

محبة

محبة غير الله معه ومن خوفه ورجائه والتوكل عليه والانابة اليه والذل له وإيثار مرضاته فى كل حال والتباعد من سخطه بكل طريق وهذا هو حقيقة العبودية التى لا تصلح الا لله وحده فالقلب السليم هو الذى سلم من أن يكون لغير الله فيه شرك بوجه مّا بل قد خلصت عبوديته لله تعالى إرادة ومحبة وتوكلا وإنابة واخباتا وخشية ورجاء وخلص عمله لله فان أحب أحب فى الله وان أبغض أبغض فى الله وان أعطى أعطى لله وان منع منع لله ولا يكفيه هذا حتى يسلم من الانقياد والتحكيم لكل من عدا رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم فيعقد قلبه معه عقدا محكما على الائتمام والاقتداء به وحده دون كل أحد من الاقوال والاعمال بأقوال القلب وهى العقائد وأقوال اللسان وهى الخبر عما فى القلب وأعمال القلب وهى الارادة والمحبة والكراهة وتوابعها وأعمال الجوارح فيكون الحاكم عليه فى ذلك كله دقه وجله هو ما جاء به الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فلا يتقدم بين يديه بعقيدة ولا قول ولا عمل كما قال تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله أى لا تقولوا حتى يقول ولا تفعلوا حتى يأمر قال بعض السلف ما من فعلة وان صغرت الا ينشر لها ديوانان لم وكيف أى لم فعلت وكيف فعلت فالاول سؤال عن علة الفعل وباعثه وداعيه هل هو حظ عاجل من حظوظ العامل وغرض من اغراض الدنيا فى محبة المدح من الناس أو خوف ذمهم أو استجلاب محبوب عاجل أو دفع مكروه عاجل أم الباعث على الفعل القيام بحق العبودية وطلب التودد والتقرب الى الرب سبحانه وابتغاء الوسيلة اليه ومحل هذا السؤال انه هل كان عليك أن تفعل هذا الفعل لمولاك أم فعلته لحظك وهواك والثانى سؤال عن متابعة الرسول عليه السلام فى ذلك التعبد أى هل كان ذلك العمل مما شرعته لك على لسان رسولى أم كان عملا لم أشرعه ولم أرضه فالاول سؤال عن الاخلاص والثانى عن المتابعة فان الله سبحانه لا يقبل عملا الا بهما فطريق التخلص من السؤال الاول بتجريد الاخلاص وطريق التخلص من السؤال الثانى بتحقيق المتابعة وسلامة القلب من ارادة تعارض الاخلاص وهوى يعارض الاتباع فهذه حقيقة سلامة القلب الذى ضمنت له النجاة والسعادة

(فصل) والقلب الثانى ضد هذا وهو القلب الميت الذى لا حياة به فهو لا يعرف ربه ولا يعبده بأمره وما يحبه ويرضاه بل هو واقف مع شهواته وارادته ولو كان فيها سخط ربه وغضبه فهو لا يبالى اذا فاز بشهوته وحظه رضى ربه أم سخط فهو متعبد لغير الله حبا وخوفا ورجاء ورضا وسخطا وتعظيما وذلا ان أحب أحب لهواه وان أبغض أبغض لهواه وان أعطى أعطى لهواه وان منع منع لهواه فهواه آثر عنده وأحب اليه من رضا مولاه فالهوى امامه والشهوة قائده والجهل سائقه والغفلة مركبه فهو بالفكر فى تحصيل اغراضه الدنيوية مغمور وبسكر الهوى وحب العاجلة مخمور ينادى الى الله والى الدار الآخرة من مكان بعيد فلا يستجيب للناصح ويتبع كل شيطان مريد الدنيا تسخطه وترضيه والهوى يصمه عما سوى الباطل ويعميه فهو فى الدنيا كما قيل فى ليلى شعر

عدو لمن عادت وسلم لاهلها * ومن قربت ليلى أحب وقربا

فمخالطة صاحب هذا القلب سقم ومعاشرته سم ومجالسته هلاك

رسوله وحده دليله وامامه وقائده وسائقه فوحد الله بعبادته ومحبته وخوفه ورجائه وأفرد رسوله بمتابعته والاقتداء به والتخلق بأخلاقه والتأدب بآدابه وله فى كل وقت هجرتان هجرة الى الله بالطلب والمحبة والعبودية والتوكل والانابة والتسليم والتفويض والخوف والرجا والاقبال عليه وصدق اللجا والافتقار فى كل نفس اليه وهجرة الى رسوله فى حركاته وسكناته الظاهرة والباطنة بحيث تكون موافقة لشرعه الذى هو تفصيل محاب الله ومرضاته ولا يقبل الله من أحد دينا سواه وكل عمل سواه فعيش النفس وحظها لا زاد المعاد وقد قال شيخ الطريقة وامام الطائفة الجنيد بن محمد قدس الله روحه الطرق كلها مسدودة الا طريق من اقتفى آثار النبى صلى الله عليه وسلم فان الله عز وجل يقول وعزتى وجلالى لو أتونى من كل طريق واستفتحوا من كل باب لما فتحت لهم حتى يدخلوا خلفك وقال بعض العارفين كل عمل بلا متابعة فهو عيش النفس ولما كانت السعادة دائرة نفيا واثباتا مع ما جاء به كان جديرا بمن نصح نفسه أن يجعل لحظات عمره وقفا على معرفته وارادته مقصورة على محابه وهذا أعلى همة شمر اليها السابقون وتنافس فيها المتنافسون فلا جرم ضمنا هذا الكتاب قواعد من سلوك الهجرة المحمدية (وسميناه طريق الهجرتين وباب السعادتين) وابتدأناه بباب الفقر والعبودية اذ هو باب السعادة وطريقها الاقوم الذى لا سبيل الى دخولها الا منه وختمناه بذكر طبقات المكلفين من الجن والانس فى الآخرة ومراتبهم فى دار السعادة والشقاوة فجاء بحمد الله كتابا غريبا فى معناه عجيبا فى مغزاه لكل قوم منه نصيب ولكل وارد منه مشرب وما

(فصل) والقلب الثالث قلب له حياة وبه علة فله مادتان تمده هذه مرة وهذه أخرى وهو لما غلب عليه منهما ففيه من محبة الله تعالى والايمان به والاخلاص له والتوكل عليه ما هو مادة حياته وفيه من محبة الشهوات وايثارها والحرص على تحصيلها والحسد والكبر والعجب وحب العلو في الارض بالرياسة ما هو مادة هلاكه وعطبه وهو ممتحن بين داعيين داع يدعوه الى الله ورسوله والدار الآخرة وداع يدعوه الى العاجلة وهو انما يجيب أقربهما منه بابا وأدناه اليه جوارا فالقلب الاول حي مخبت لين واع والثاني يابس ميت والثالث مريض فاما الى السلامة أدنى واما الى العطب أدنى وقد جمع سبحانه بين هذه القلوب الثلاثة في قوله وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وان الظالمين لفي شقاق بعيد وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وان الله لهادي الذين آمنوا الى صراط مستقيم فجعل سبحانه وتعالى القلوب في هذه الآيات ثلاثة قلبين مفتونين وقلبا ناجيا فالمفتونان القلب الذي فيه مرض والقلب القاسي والناجي القلب المؤمن المخبت الى ربه وهو المطمئن اليه الخاضع له المستسلم المنقاد وذلك ان القلب وغيره من الاعضاء يراد منه أن يكون صحيحا سليما لا آفة به يتأتى منه ما هيئ له وخلق لاجله وخروجه عن الاستقامة اما ليبسه وقساوته وعدم التأتي لما يراد منه كاليد الشلاء واللسان الأخرس والأنف الأخشم وذكر العنين والعين لا تبصر شيأ واما بمرض وآفة فيه يمنعه من كمال هذه الافعال ووقوعها على السداد فلذلك انقسمت القلوب الى هذه الاقسام الثلاثة فالقلب الصحيح السليم ليس بينه وبين قبول الحق ومحبته وايثاره سوى ادراكه فهو صحيح الادراك للحق تام الانقياد والقبول له والقلب الميت القاسي لا يقبله ولا ينقاد له والقلب المريض ان غلب عليه مرضه التحق بالميت القاسي وان غلبت عليه صحته التحق بالسليم فما يلقيه الشيطان في الاسماع من الالفاظ وفي القلوب من الشبه والشكوك فتنة لهذين القلبين وقوة للقلب الحي السليم لانه يرد ذلك ويكرهه ويبغضه ويعلم ان الحق في خلافه فيخبت للحق قلبه ويطمئن وينقاد ويعلم بطلان ما ألقاه الشيطان فيزداد ايمانا بالحق ومحبة له وكفرا بالباطل وكراهة له فلا يزال القلب المفتون في مرية من القاء الشيطان وأما القلب الصحيح السليم فلا يضره ما يلقيه الشيطان أبدا قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم تعرض الفتن على القلوب كعرض الحصير عودا عودا فأي قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء حتى تعود القلوب على قلبين قلب أسود مرباد كالكوز مجخيا لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا الا ما أشرب من هواه وقلب أبيض فلا تضره فتنة ما دامت السموات والارض فشبه عرض الفتن على القلوب شيأ فشيأ كعرض عيدان الحصير وهي طاقاتها شيئا فشيئا وقسم القلوب عند عرضها عليها الى قسمين قلب اذا عرضت عليه فتنة أشربها كما يشرب السفنج الماء فينكت فيه نكتة سوداء فلا يزال يشرب كل فتنة تعرض عليه حتى يسود وينتكس وهو معنى قوله كالكوز مجخيا أي مكبوبا منكوسا فاذا اسود وانتكس عرض له من هاتين

كان فيه من حق وصواب فمن الله هو المان به فان التوفيق بيده وما كان فيه من زلل فمني ومن الشيطان والله ورسوله منه بريء فيا أيها القارئ له والناظر فيه هذه بضاعة صاحبها المزجاة مسوقة اليك وهذا فهمه وعقله معروض عليك لك غنمه وعلى مؤلفه غرمه ولك ثمرته وعليه عائدته فان عدم منك حمدا وشكرا فلا يعدم منك عذرا وان أبيت الا الملام فبابه مفتوح وقد استأثر الله بالثناء وبالحمد وولي الملامة الرجلاء والله المسؤول أن يجعله لوجهه خالصا وينفع به مؤلفه وقارئه وكاتبه في الدنيا والآخرة انه سميع الدعاء وأهل الرجاء وهو حسبنا ونعم الوكيل

فصل قال الله تعالى سبحانه يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله والله هو الغني الحميد بين سبحانه في هذه الآية ان فقر العباد اليه أمر ذاتي لهم لا ينفك عنهم كما ان كونه غنيا حميدا ذاتي له فغناه وحمده ثابت له لذاته لا لامر أوجبه وفقر من سواه اليه ثابت له لذاته لا لامر أوجبه فلا يعلل هذا الفقر بحدوث ولا امكان بل هو ذاتي للفقير فحاجة العبد الى ربه لذاته لا لعلة أوجبت تلك الحاجة كما ان غنى الرب سبحانه لذاته لا لامر أوجب غناه كما قال شيخ الاسلام ابن تيمية والفقر لي وصف ذات لازم أبدا كما الغنى أبدا وصف له ذاتي فالخلق فقير محتاج الى ربه بالذات لا بعلة وكل ما يذكر ويقرر من أسباب الفقر والحاجة فهي أدلة على الفقر والحاجة لا علل لذلك اذ ما بالذات لا يعلل فالفقير بذاته محتاج الى الغني بذاته فما يذكر من امكان وحدوث واحتياج فهي أدلة على الفقر لا أسباب له ولهذا كان الصواب في مسألة علة احتياج العالم الى الرب سبحانه غير القولين الذين تذكرهما الفلاسفة

الآفتين

الا ٓفتين مرضان خطران متراميان الى الهلاك أحدهما اشتباه المعروف عليه بالمنكر فلا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا وربما استحكم فيه هذا المرض حتى يعتقد المعروف منكرا والمنكر معروفا والسنة بدعة والبدعة سنة والحق باطلا والباطل حقا الثاني تحكيمه هواه على ما جاء به الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم وانقياده للهوى واتباعه له وقلب أبيض قد أشرق فيه نور الايمان وأزهر فيه مصباحه فاذا عرضت عليه الفتنة أنكرها وردها فازداد نوره واشراقه وقوته والفتن التى تعرض على القلوب هى أسباب مرضها وهى فتن الشهوات وفتن الشبهات فتن الغى والضلال فتن المعاصى والبدع فتن الظلم والجهل فالاولى توجب فساد القصد والارادة والثانية توجب فساد العلم والاعتقاد وقد قسم الصحابة رضى الله تعالى عنهم القلوب الى أربعة كما صح عن حذيفة بن اليمان قوله القلوب أربعة قلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن وقلب أغلف فذلك قلب الكافر وقلب منكوس فذاك قلب المنافق عرف ثم أنكر وأبصر ثم عمى وقلب تمده مادتان مادة ايمان ومادة نفاق وهو لما غلب عليه منهما فقوله قلب أجرد أى متجرد مما سوى الله ورسوله فقد تجرد وسلم مما سوى الحق وفيه سراج يزهر فيه وهو مصباح الايمان فأشار بتجرده الى سلامته من شبهات الباطل وشهوات الغى وبحصول السراج فيه الى اشراقه واستنارته بنور العلم والايمان وأشار بالقلب الاغلف الى قلب الكافر لانه داخل فى غلافه وغشائه فلا يصل اليه نور العلم والايمان كما قال تعالى حاكيا عن اليهود وقالوا قلوبنا غلف وهو جمع أغلف وهو الداخل فى غلافه كقلف وأقلف وهذه الغشاوة هى الاكنة التى ضربها الله على قلوبهم عقوبة لهم على رد الحق والتكبر عن قبوله فهى أكنة على القلوب ووقر فى الاسماع وعمى فى الابصار وهى الحجاب المستور عن العيون فى قوله تعالى واذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا فاذا ذكر لهذه القلوب تجريد التوحيد وتجريد المتابعة ولى أصحابها على أدبارهم نفورا وأشار بالقلب المنكوس وهو المكبوب الى قلب المنافق كما قال تعالى فما لكم فى المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا أى نكسهم وردهم فى الباطل الذى كانوا فيه بسبب كسبهم وأعمالهم الباطلة وهذا شر القلوب وأخبثها فانه يعتقد الباطل حقا ويوالى أصحابه والحق باطلا ويعادى أهله فالله المستعان وأشار بالقلب الذى له مادتان الى القلب الذى لم يتمكن فيه الايمان ولم يزهر فيه سراجه حيث لم يتجرد للحق المحض الذى بعث الله به رسوله بل فيه مادة منه ومادة من خلافه فتارة يكون للكفر أقرب منه للايمان وتارة يكون للايمان أقرب منه للكفر والحكم للغالب واليه يرجع

(الباب الثانى فى ذكر حقيقة مرض القلب)

قال الله تعالى عن المنافقين (فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا) وقال تعالى (ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض) وقال (يا نساء النبى لستن كأحد من النساء ان اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض) أمرهن أن لا يلن فى كلامهن كما تلين المرأة المعطية الليان فى منطقه فيطمع من فى قلبه مرض الشهوة ومع ذلك فلا يخشن فى

والمتكلمون فان الفلاسفة قالوا علة الحاجة الامكان والمتكلمون قالوا علة الحاجة الحدوث والصواب ان الامكان والحدوث متلازمان وكلاهما دليل الحاجة والافتقار وفقر العالم الى الله سبحانه أمر ذاتى لا يعلل فهو فقير بذاته الى ربه الغنى بذاته ثم يستدل بامكانه وحدوثه وغير ذلك من الادلة على هذا الفقر والمقصود انه سبحانه أخبر عن حقيقة العباد وذواتهم بانها فقيرة اليه سبحانه كما أخبر عن ذاته المقدسة وحقيقته انه غنى حميد فالفقر المطلق من كل وجه ثابت لذواتهم وحقائقهم من حيث هى والغنى المطلق من كل وجه ثابت لذاته تعالى وحقيقته من حيث هى فيستحيل أن يكون العبد الا فقيرا ويستحيل أن يكون الرب سبحانه الا غنيا كما انه يستحيل أن يكون العبد الا عبدا والرب الا ربا اذا عرف هذا فالفقر فقران فقر اضطرار وهو فقر عام لا خروج لبر ولا فاجر عنه وهذا الفقر لا يقتضى مدحا ولا ذما ولا ثوابا ولا عقابا بل هو بمنزلة كون المخلوق مخلوقا ومصنوعا والفقر الثانى فقر اختيارى هو نتيجة علمين شريفين أحدهما معرفة العبد بربه والثانى معرفته بنفسه فمتى حصلت له هاتان المعرفتان أنتجتا فقرا هو عين غناه وعنوان فلاحه وسعادته وتفاوت الناس فى هذا الفقر بحسب تفاوتهم فى هاتين المعرفتين فمن عرف ربه بالغنى المطلق عرف نفسه بالفقر المطلق ومن عرف ربه بالقدرة التامة عرف نفسه بالعجز التام ومن عرف ربه بالعز التام عرف نفسه بالمسكنة التامة ومن عرف ربه بالعلم التام والحكمة عرف نفسه بالجهل فالله سبحانه أخرج العبد من بطن أمه لا يعلم شيأ ولا يقدر على شئ ولا يملك شيأ ولا يقدر على عطاء ولا منع ولا ضر ولا نفع ولا شئ البتة فكان فقره فى تلك الحال الى ما به

القول بحيث يلتحق بالفحش بل يقلن قولا معروفا وقال تعالى (لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم) وقال تعالى (وما جعلنا أصحاب النار الا ملائكة وما جعلنا عدتهم الا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا ايمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا) أخبر الله سبحانه عن الحكمة التي جعل لاجلها عدة الملائكة الموكلين بالنار تسعة عشر فذكر سبحانه خمس حكم فتنة الكافرين فيكون ذلك زيادة في كفرهم وضلالهم وقوة يقين أهل الكتاب فيقوى يقينهم بموافقة الخبر بذلك لما عندهم عن أنبيائهم من غير تلق من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عنهم فتقوم الحجة على معاندهم وينقاد للايمان من يرد الله أن يهديه وزيادة ايمان الذين آمنوا بكمال تصديقهم بذلك والاقرار به وانتفاء الريب عن أهل الكتاب لجزمهم بذلك وعن المؤمنين لكمال تصديقهم به فهذه أربعة حكم فتنة الكفار ويقين أهل الكتاب وزيادة ايمان المؤمنين وانتفاء الريب عن المؤمنين وأهل الكتاب الخامسة حيرة الكافر ومن في قلبه مرض وعمى قلبه عن المراد بذلك فيقول ماذا أراد الله بهذا مثلا وهذا حال القلوب عند ورود الحق المنزل عليها قلب يفتتن به كفرا وجحودا وقلب يزداد به ايمانا وتصديقا وقلب يتيقنه فيقوم عليه به الحجة وقلب يوجب له حيرة وعمى فلا يدري ما يراد به واليقين وعدم الريب في هذا الموضع ان رجعا الى شئ واحد كان ذكر عدم الريب مقررا لليقين ومؤكدا له ونافيا عنه ما يضاده بوجه من الوجوه وان رجعا الى شيئين بان يكون اليقين راجعا الى الخبر المذكور عن عدة الملائكة وعدم الريب عائدا الى عموم ما أخبر الرسول به لدلالة هذا الخبر الذي لا يعلم الا من جهة الرسل على صدقه فلا يرتاب من قد عرف صحته بعد في صدق الرسول ظهرت فائدة ذكره والمقصود ذكر مرض القلب وحقيقته وقال تعالى يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين فهو شفاء لما في الصدور من مرض الجهل والغي فان الجهل مرض شفاؤه العلم والهدى والغي مرض شفاؤه الرشد وقد نزه الله سبحانه نبيه عن هذين الداءين فقال والنجم اذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى ووصف رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم خلفاءه بضدهما فقال عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي وجعل كلامه سبحانه موعظة للناس عامة وهدى ورحمة لمن آمن به خاصة وشفاء تاما لما في الصدور فمن استشفى به صح وبرئ من مرضه ومن لم يستشف به فهو كما قيل

اذا قل من دائه ظن انه نجا * وبه الداء الذي هو قاتله

وقال تعالى وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا والأظهر أن من ههنا لبيان الجنس فالقرآن جميعه شفاء ورحمة للمؤمنين

(فصل) ولما كان مرض البدن خلاف صحته وصلاحه وهو خروجه عن اعتداله الطبيعي لفساد يعرض له يفسد به ادراكه وحركته الطبيعية فاما أن يذهب ادراكه بالكلية كالعمى والصمم والشلل واما أن ينقص ادراكه لضعف في آلات الادراك مع استقامة ادراكه واما أن يدرك الاشياء على خلاف ما هي عليه كما يدرك الحلو مرا والخبيث

كماله أمرا مشهودا محسوسا لكل أحد ومعلوم ان هذا له من لوازم ذاته وما بالذات دائم بدوامها وهو لم ينتقل من هذه الرتبة الى رتبة الربوبية والغنى بل لم يزل عبدا فقيرا بذاته الى بارئه وفاطره فلما أسبغ عليه نعمته وأفاض عليه رحمته وساق اليه أسباب كمال وجوده ظاهرا وباطنا وخلع عليه ملابس انعامه وجعل له السمع والبصر والفؤاد وعلمه وأقدره وصرفه وحركه ومكنه من استخدام بني جنسه وسخر له الخيل والابل وسلطه على دواب الماء واستنزال الطير من الهواء وقهر الوحش العادية وحفر الانهار وغرس الاشجار وشق الارض وتعلية البناء والتحيل على مصالحه والتحرز والتحفظ مما يؤذيه ظن المسكين ان له نصيبا من الملك وادعى لنفسه ملكا مع الله سبحانه ورأى نفسه بغير تلك العين الاولى ونسي ما كان فيه من حالة الاعدام والفقر والحاجة حتى كأنه لم يكن هو ذلك الفقير المحتاج بل كان ذلك شخصا آخر غيره كما روى الامام أحمد في مسنده من حديث بشر بن جحاش القرشي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بصق يوما في كفه فوضع عليها أصبعه ثم قال قال الله تعالى بني آدم اني تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه حتى اذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللارض منك وئيد فجمعت ومنعت حتى اذا بلغت التراقي قلت أتصدق وأنى أوان الصدقة ومن ههنا خذل من خذل ووفق من وفق فحجب المخذول عن حقيقته ونسي نفسه فنسي فقره وحاجته وضرورته الى ربه فطغى وعتا فحقت عليه الشقوة قال تعالى كلا ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى وقال فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى فأكمل الخلق أكملهم عبودية

طبيبا والطبيب خبيثا وأما فساد حركته الطبيعية فمثل أن تضعف قوته الهاضمة أو الماسكة أو الدافعة أو الجاذبة فيحصل له من الألم بحسب خروجه عن الاعتدال ولكن مع ذلك لم يصل الى حد الموت والهلاك بل فيه نوع قوة على الادراك والحركة وسبب هذا الخروج عن الاعتدال اما فساد في الكمية أو في الكيفية فالاول إما نقص في المادة فيحتاج الى زيادتها وإما زيادة فيها فيحتاج الى نقصانها والثاني إما زيادة الحرارة أو البرودة أو الرطوبة أو اليبوسة أو نقصانها عن القدر الطبيعي فيداوى بمقتضى ذلك ومدار الصحة على حفظ القوة والحمية عن المؤذي واستفراغ المواد الفاسدة ونظر الطبيب دائر على هذه الاصول الثلاثة وقد تضمنها الكتاب العزيز وأرشد اليها من أنزله شفاء ورحمة فأما حفظ القوة فانه سبحانه أمر المسافر والمريض أن يفطرا في رمضان ويقضي المسافر اذا قدم والمريض اذا برئ حفظا للقوة عليهما فان الصوم يزيد المريض ضعفا والمسافر محتاج الى توفير قوته عليه لمشقة السفر فالصوم يضعفها وأما الحمية عن المؤذي فانه سبحانه حمى المريض عن استعمال الماء البارد في الوضوء والغسل اذا كان يضره وأمره بالعدول الى التيمم حمية له عن ورود المؤذي عليه من ظاهر بدنه فكيف بالمؤذي له في باطنه وأما استفراغ المادة الفاسدة فانه سبحانه أباح للمحرم الذي به أذى من رأسه أن يحلقه فيستفرغ الحلق الابخرة المؤذية له وهذا من أسهل أنواع الاستفراغ وأخفها فنبه به على ما هو أحوج اليه منه وذاكرت مرة بعض رؤساء الطب بمصر بهذا فقال والله لو سافرت الى الغرب في معرفة هذه الفائدة لكان سفرا قليلا أو كما قال واذا عرف هذا فالقلب محتاج الى ما يحفظ عليه قوته وهو الايمان وأوراد الطاعات والى حمية عن المؤذي الضار وذلك باجتناب الآثام والمعاصي وأنواع المخالفات والى استفراغه من مادة فاسدة تعرض له وذلك بالتوبة النصوح واستغفار غافر الخطيئات ومرضه هو نوع فساد يحصل له يفسد به تصوره للحق وارادته له فلا يرى الحق حقا أو يراه على خلاف ما هو عليه أو ينقص ادراكه له ويفسد به ارادته له فيبغض الحق النافع أو يحب الباطل الضار أو يجتمعان له وهو الغالب ولهذا يفسر المرض الذي يعرض له تارة بالشك والريب كما قال مجاهد وقتادة في قوله تعالى في قلوبهم مرض أي شك وتارة بشهوة الزنا كما فسر به قوله تعالى فيطمع الذي في قلبه مرض فالاول مرض الشبهة والثاني مرض الشهوة والصحة تحفظ بالمثل والشبه والمرض يدفع بالضد والخلاف وهو يقوى بمثل سببه ويزول بضده والصحة تحفظ بمثل سببها وتضعف أو تزول بضده ولما كان البدن المريض يؤذيه ما لا يؤذي الصحيح من يسير الحر والبرد والحركة ونحو ذلك كذلك القلب اذا كان فيه مرض آذاه أدنى شيء من الشبهة أو الشهوة حيث لا يقدر على دفعهما اذا وردا عليه والقلب الصحيح القوي يطرقه أضعاف ذلك وهو يدفعه بقوته وصحته وبالجملة فاذا حصل للمريض مثل سبب مرضه زاد مرضه وضعفت قوته وترامى الى التلف ما لم يتدارك ذلك بأن يحصل له ما يقوي قوته ويزيل مرضه

(الباب الثالث في انقسام أدوية أمراض القلب الى قسمين طبعية وشرعية)

مرض القلب نوعان نوع لا يتألم به صاحبه في الحال وهو النوع المتقدم كمرض الجهل ومرض الشبهات والشكوك ومرض الشهوات وهذا النوع أعظم النوعين ألما ولكن لفساد

وأعظمهم شهود الفقر وضرورته وحاجته الى ربه وعدم استغنائه عنه طرفة عين ولهذا كان من دعائه صلى الله عليه وسلم أصلح لي شأني كله ولا تكلني الى نفسي طرفة عين ولا الى أحد من خلقك وكان يدعو يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك يعلم صلى الله عليه وسلم ان قلبه بيد الرحمن عز وجل لا يملك منه شيأ وان الله سبحانه يصرفه كما يشاء كيف وهو يتلو قوله تعالى ولولا ان ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيأ قليلا فضرورته صلى الله عليه وسلم الى ربه وفاقته اليه بحسب معرفته به وحسب قربه منه ومنزلته عنده وهذا أمر انما بدا لمن بعده ما رشح من ظاهر الوعاء ولهذا كان أقرب الخلق الى الله وسيلة وأعظمهم عنده جاها وأرفعهم عنده منزلة لتكميله مقام العبودية والفقر الى ربه وكان يقول لهم أيها الناس ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي انما أنا عبد وكان يقول لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم انما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله وذكره الله سبحانه بسمة العبودية في أشرف مقاماته مقام الاسراء ومقام الدعوة ومقام التحدي فقال سبحان الذي أسرى بعبده ليلا وقال وأنه لما قام عبد الله يدعوه وقال وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا وفي حديث الشفاعة ان المسيح يقول لهم اذهبوا الى محمد عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فنال ذلك المقام بكمال عبوديته لله وبكمال مغفرة الله له فتأمل قوله تعالى في الآية أنتم الفقراء الى الله باسم الله دون اسم الربوبية ليؤذن بنوعي الفقر فانه كما تقدم نوعان فقر الى ربوبيته وهو فقر المخلوقات بأسرها وفقر الى ألوهيته وهو فقر أنبيائه ورسله وعباده الصالحين وهذا هو الفقر النافع والذي يشير اليه

القلب لا يحس بالالم ولان سكرة الجهل والهوى تحول بينه وبين ادراك الألم والا فالمه حاضر فيه حاصل له وهو متوار عنه باشتغاله بضده وهذا أخطر المرضين وأصعبهما وعلاجه الى الرسل واتباعهم فهم أطباء هذا المرض والنوع الثانى مرض مؤلم له فى الحال كالهم والغم والحزن والغيظ وهذا المرض قد يزول بادوية طبعية كازالة أسبابه أو المداواة بما يضاد تلك الاسباب ويدفع موجبها مع قيامها وهذا كما ان القلب قد يتألم بما يتألم به البدن ويشقى بما يشقى به البدن فكذلك البدن يتألم كثيرا بما يتألم به القلب ويشقيه ما يشقيه فأمراض القلب التى تزول بالأدوية الطبعية من جنس أمراض البدن وهذه لا توجب وحدها شقاءه وعذابه بعد الموت وأما أمراضه التى لا تزول الا بالادوية الايمانية النبوية فهى التى توجب له الشقاء والعذاب الدائم ان لم يتداركها بأدويتها المضادة لها فاذا استعمل تلك الادوية حصل له الشفاء ولهذا يقال شفى غيظه فاذا استولى عليه عدوه آلمه ذلك فاذا انتصف منه اشتفى قلبه قال تعالى قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء فأمرهم بقتال عدوهم وأعلمهم ان فيه ست فوائد فالغيظ يؤلم القلب ودواؤه فى شفاء غيظه فان شفاه بحق اشتفى وان شفاه بظلم وباطل زاده مرضا من حيث ظن انه يشفيه وهو كمن شفى مرض العشق بالفجور بالمعشوق فان ذلك يزيد مرضه ويوجب له أمراضا أخر أصعب من مرض العشق كما سيأتى ان شاء الله تعالى وكذلك الغم والهوى والحزن أمراض للقلب وشفاؤها باضدادها من الفرح والسرور فان كان ذلك بحق اشتفى القلب وصح وبرأ من مرضه وان كان بباطل توارى ذلك واستتر ولم يزل وأعقبه أمراضا هى أصعب وأخطر وكذلك الجهل مرض يؤلم القلب فمن الناس من يداويه بعلوم لا تنفع ويعتقد انه قد صح من مرضه بتلك العلوم وهى فى الحقيقة انما تزيده مرضا الى مرضه لكن اشتغل القلب بها عن ادراك الألم الكامن فيه بسبب جهله بالعلوم النافعة التى هى شرط فى صحته وبرئه قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى الذين أفتوا بالجهل فهلك المستفتى بفتواهم قتلوه قتلهم الله ألا سألوا اذ لم يعلموا فانما شفاء العى السؤال فجعل الجهل مرضا وشفاؤه سؤال أهل العلم وكذلك الشاك فى الشئ المرتاب فيه يتألم قلبه حتى يحصل له العلم واليقين ولما كان ذلك يوجب له حرارة قيل لمن حصل له اليقين ثلج صدره وحصل له برد اليقين وكذلك يضيق بالجهل والضلال عن طريق رشده وينشرح بالهدى والعلم قال تعالى فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء وسيأتى ذكر مرض ضيق الصدر وسببه وعلاجه ان شاء الله تعالى والمقصود ان من أمراض القلوب ما تزول بالادوية الطبعية ومنها ما لا يزول الا بالادوية الشرعية الايمانية والقلب له حياة وموت ومرض وشفاء وذلك أعظم مما للبدن

﴿ الباب الرابع فى أن حياة القلب واشراقه مادة كل خير فيه وموته وظلمته مادة كل شر فيه ﴾

أصل كل خير وسعادة للعبد بل لكل حى ناطق كمال حياته ونوره فالحياة والنور مادة الخير كله قال تعالى (أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن

الفقراء الذين يتكلمون عليه ويشيرون اليه هو الفقر الخاص لا العام وقد اختلفت عباراتهم عنه ووصفهم له وكل أخبر عنه بقدر ذوقه وقدرته على التعبير قال شيخ الاسلام الانصارى الفقر اسم للبراءة من رؤية الملكة وهو على ثلاث درجات الدرجة الاولى فقر الزهاد وهو نفض اليدين من الدنيا ضبطا أو طلبا واسكات اللسان عنها ذما أو مدحا والسلامة منها طلبا أو تركا وهذا هو الفقر الذى تكلموا فى شرفه الدرجة الثانية الرجوع الى السبق بمطالعة الفضل وهو يورث الخلاص من رؤية الاعمال ويقطع شهوة الاحوال ويمحص من أدناس مطالعات المقامات والدرجة الثالثة صحة الاضطرار والوقوع فى يد التقطع الوحدانى والاحتباس فى قيد التجريد وهذا فقر الصوفية فقوله الفقر اسم للبراءة من رؤية الملكة يعنى ان الفقير هو الذى يجرد رؤية الملك لمالكه الحق فيرى نفسه مملوكة لله لا يرى نفسه مالكا بوجه من الوجوه ويرى أعماله مستحقة عليه بمقتضى كونه مملوكا عبدا مستعملا فيما أمره به سيده فنفسه مملوكة وأعماله مستحقة بموجب العبودية فليس مالكا لنفسه ولا لشئ من ذراته ولا لشئ من أعماله بل كل ذلك مملوك عليه مستحق عليه كرجل اشترى عبدا بخالص ماله ثم علمه بعض الصنائع فلما تعلمها قال له اعمل وأد الى فليس لك فى نفسك ولا فى كسبك شئ فلو حصل بيد هذا العبد من الاموال والاسباب ما حصل لم ير له فيها شيأ بل يراه كالوديعة فى يده وانها أموال أستاذه وخزائنه ونعمه بيد عبده مستودعا متصرفا فيها لسيده لا لنفسه كما قال عبد الله ورسوله وخيرته من خلقه والله انى لا أعطى أحدا ولا أمنع أحدا وانما أنا قاسم أضع حيث أمرت فهو

مثله

مثله فى الظلمات ليس بخارج منها) فجمع بين الأصلين الحياة والنور فبالحياة تكون قوته وسمعه وبصره وحياؤه وعفته وشجاعته وصبره وسائر أخلاقه الفاضلة ومحبته للحسن وبغضه للقبيح فكلما قويت حياته قويت فيه هذه الصفات واذا ضعفت حياته ضعفت فيه هذه الصفات وحياؤه من القبائح هو بحسب حياته فى نفسه فالقلب الصحيح الحى اذا عرضت عليه القبائح نفر منها بطبعه وأبغضها ولم يلتفت اليها بخلاف القلب الميت فانه لا يفرق بين الحسن والقبيح كما قال عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه هلك من لم يكن له قلب يعرف به المعروف والمنكر وكذلك القلب المريض بالشهوة فانه لضعفه يميل الى ما يعرض له من ذلك بحسب قوة المرض وضعفه وكذلك اذا قوى نوره واشراقه انكشفت له صور المعلومات وحقائقها على ما هى عليه فاستبان حسن الحسن بنوره وآثره بحياته وكذلك قبح القبيح وقد ذكر سبحانه وتعالى هذين الأصلين فى مواضع من كتابه قال تعالى وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا فجمع بين الروح الذى يحصل به الحياة والنور الذى يحصل به الاضاءة والاشراق وأخبر أن كتابه الذى أنزله على رسوله متضمن للأمرين فهو روح تحيا به القلوب ونور تستضىء وتشرق به كما قال أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس أى أومن كان كافرا ميت القلب مغمورا فى ظلمة الجهل فهديناه لرشده ووفقناه للايمان وجعلنا قلبه حيا بعد موته مشرقا مستنيرا بعد ظلمته فجعل الكافر لانصرافه عن طاعته وجهله بمعرفته وتوحيده وشرائع دينه وترك الأخذ بنصيبه من رضاه والعمل بما يؤديه الى نجاته وسعادته بمنزلة الميت الذى لا ينفع نفسه بنافعة ولا يدفع عنها من مكروه فهديناه للاسلام وانعشناه به فصار يعرف مضار نفسه ومنافعه ويعمل فى خلاصها من سخط الله تعالى وعقابه فأبصر الحق بعد عماه عنه وعرفه بعد جهله به واتبعه بعد اعراضه عنه وحصل له نور وضياء يستضىء به فيمشى بنوره بين الناس وهم فى سدف الظلام كما قيل

ليلى بوجهك مشرق * وظلامه فى الناس سارى
الناس فى سدف الظلا * م ونحن فى ضوء النهار

ولهذا يضرب سبحانه وتعالى المثلين المائى والنارى لوحيه ولعباده أما الاول فكما قال فى سورة الرعد أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الأمثال فضرب لوحيه المثل بالماء لما يحصل به من الحياة وبالنار لما يحصل بها من الاضاءة والاشراق وأخبر سبحانه أن الأودية تسيل بقدرها فواد كبير يسع ماء كثيرا وواد صغير يسع ماء قليلا كذلك القلوب مشبهة بالأودية فقلب كبير يسع علما كبيرا وقلب صغير انما يسع بقدره وشبه ما تحتمله القلوب من الشبهات والشهوات بسبب مخالطة الوحى لها وأماراته لما فيها من ذلك بما يحتمله السيل من الزبد وشبه بطلان تلك الشبهات باستقرار العلم النافع فيها بذهاب الزبد والقاء الوادى له وانما يستقر فيه الماء الذى به النفع وكذلك فى المثل الذى بعده يذهب الخبث الذى فى ذلك الجوهر ويستقر صفوه وأما ضرب هذين

متصرف فى تلك الخزائن بالامر المحض تصرف العبد المحض الذى وظيفته تنفيذ أوامر سيده فالله هو المالك الحق وفى أيدى خلقه هو من أمواله وأملاكه وخزائنه أفاضها عليهم ليمتحنهم فى البذل والامساك وهل يكون ذلك منهم على شاهد العبودية لله عز وجل فيبذل أحدهم الشئ رغبة فى ثواب الله ورهبة من عقابه وتقربا اليه وطلبا لمرضاته أم يكون البذل والامساك منهم صادرا عن مراد النفس وغلبة الهوى وموجب الطبع فيعطى لهواه ويمنع لهواه فيكون متصرفا تصرف المالك لا المملوك فيكون مصدر تصرفه الهوى ومراد النفس وغايته الرغبة فيما عند الخلق من جاه أو رفعة أو منزلة أو مدح أو حظ من الحظوظ أو الرهبة من فوت شئ من هذه الاشياء واذا كان مصدر تصرفه وغايته هو هذه الرغبة والرهبة رأى نفسه لا محالة مالكا فادعى الملك وخرج عن حد العبودية ونسى فقره ولو عرف نفسه حق المعرفة لعلم انما هو مملوك ممتحن فى صورة ملك متصرف كما قال تعالى ثم جعلناكم خلائف فى الارض من بعدهم لننظر كيف تعملون وحقيق بهذا الممتحن ان يوكل الى ما ادعته نفسه من الحالات والملكات مع المالك الحق سبحانه فان من ادعى لنفسه حالة مع الله سبحانه وكل اليها ومن وكل الى شئ غير الله فقد فتح له باب الهلاك والعطب وأغلق عنه باب الفوز والسعادة فان كل شئ ما سوى الله باطل ومن وكل الى الباطل بطل عمله وضل سعيه ولم يحصل الا على الحرمان فكل من تعلق بغير الله انقطع به أحوج ما كان اليه كما قال تعالى اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الاسباب فالاسباب التى تقطعت بهم هى العلائق التى بغير الله ولغير الله

المثلين للعباد فكما قال فى سورة البقرة مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما اضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون صم بكم عمى فهم لا يرجعون فهذا المثل النارى ثم قال أو كصيب من السماء الى آخره فهذا المثل المائى وقد ذكرنا الكلام على أسرار هذين المثلين و بعض ما تضمناه من الحكم فى كتاب المعالم وغيره والحق أن صلاح القلب وسعادته وفلاحه موقوف على هذين الأصلين قال تعالى ان هو الا ذكر وقرآن مبين لينذر من كان حيا فأخبر أن الانتفاع بالقرآن والانذار به انما يحصل لمن هو حى القلب كما قال تعالى فى موضع آخر ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب وقال تعالى يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم فأخبر سبحانه وتعالى ان حياتنا انما هى بما يدعونا اليه الرسول من العلم والايمان فعلم أن موت القلب وهلاكه بفقد ذلك وشبه سبحانه من لا يستجيب لرسوله بأصحاب القبور وهذا من أحسن التشبيه فان أبدانهم قبور لقلوبهم فقد ماتت قلوبهم وقبرت فى أبدانهم فقال الله تعالى ان الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من فى القبور ولقد أحسن القائل شعر

وفى الجهل قبل الموت موت لاهله * وأجسامهم قبل القبور قبور
وأرواحهم فى وحشة من جسومهم * وليس لهم حتى النشور نشور

ولهذا جعل سبحانه وحيه الذى يلقيه الى الانبياء روحا كما قال تعالى يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده فى موضعين من كتابه وقال وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا لان حياة الارواح والقلوب به وهذه الحياة الطيبة التى خص بها سبحانه من قبل وحيه وعمل به فقال من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون فخصهم سبحانه وتعالى بالحياة الطيبة فى الدارين ومثله قوله تعالى وأن استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يمتعكم متاعا حسنا الى أجل مسمى و يؤت كل ذى فضل فضله ومثله قوله تعالى للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ومثله قوله تعالى للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين فبين سبحانه انه يسعد المحسن باحسانه فى الدنيا وفى الآخرة كما أخبر انه يشقى المسىء باساءته فى الدنيا والآخرة قال تعالى ومن أعرض عن ذكرى فانه له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى وقال تعالى وجمع بين النوعين فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون فأهل الهدى والايمان لهم شرح الصدر واتساعه وانفساحه وأهل الضلال لهم ضيق الصدر والحرج وقال تعالى أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه فأهل الايمان فى النور وانشراح الصدر وأهل الضلال فى الظلمة وضيق الصدر وسيأتى فى باب طهارة القلب مزيد تقرير لهذا ان شاء الله تعالى والحق أن حياة القلب واضاءته مادة كل خير فيه وموته وظلمته مادة كل شر فيه

(الباب الخامس فى أن حياة القلب وصحته لا تحصل الا بأن يكون مدركا للحق مريدا له مؤثرا له على غيره)

انقطعت بهم أحوج ما كانوا اليها وذلك لان تلك غايات لما اضمحلت و بطلت اضمحلت أسبابها و بطلت فان الاسباب تبطل ببطلان غاياتها وتضمحل باضمحلالها وكل شئ هالك الا وجهه سبحانه وكل عمل باطل الا ما أريد به وجهه وكل سعى لغيره باطل ومضمحل وهذا كما يشاهده الناس فى الدنيا من اضمحلال السعى والعمل والكد والخدمة التى يفعلها العبد لمتول أو أمير أو صاحب منصب أو مال فاذا زال ذلك الذى عمل له عدم ذلك العمل و بطل ذلك السعى ولم يبق فى يده سوى الحرمان ولهذا يقول الله تعالى يوم القيامة أليس عدلا منى انى أولى كل رجل منكم ما كان يتولى فى الدنيا فيتولى عباد الاصنام والاوثان أصنامهم وأوثانهم فيتساقط بهم فى النار و يتولى عابدو الشمس والقمر والنجوم آلهتهم فاذا كورت الشمس وانتثرت النجوم اضمحلت تلك العبادة و بطلت وصارت حسرة عليهم كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ولهذا كان المشرك من أخسر الناس صفقة وأغبنهم يوم معاده فانه يحال على مفلس كل الافلاس بل على عدم والموحد حوالته على الملئ الكريم فيا بعد ما بين الحوالتين وقوله البراءة من رؤية الملكة ولم يقل من الملكة لان الانسان قد يكون فقيرا لا ملكة له فى الظاهر وهو عرى عن التحقق بنعت الفقر الممدوح أهله الذين لا يرون ملكة الا لمالكها الحق ذى الملك والملكوت وقد يكون العبد قد فوض اليه من ذلك شئ وجعل كالخازن فيه كما كان سليمان بن داود أوتى ملكا لا ينبغى لاحد من بعده وكذلك الخليل وشعيب والاغنياء من الانبياء وكذلك أغنياء الصحابة فهؤلاء لم يكونوا

لما

لما كان في القلب قوتان قوة العلم والتمييز وقوة الارادة والحب كان كماله وصلاحه باستعمال هاتين القوتين فيما ينفعه ويعود بصلاحه وسعادته فكماله باستعمال قوة العلم في ادراك الحق ومعرفته والتمييز بينه وبين الباطل واستعمال قوة الارادة والمحبة في طلب الحق ومحبته وايثاره على الباطل فمن لم يعرف الحق فهو ضال ومن عرفه وآثر غيره عليه فهو مغضوب عليه ومن عرفه واتبعه فهو منعم عليه وقد أمرنا الله سبحانه وتعالى أن نسأله في صلاتنا أن يهدينا صراط الذين أنعم عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ولهذا كانت النصارى أخص بالضلال لانهم أمة جهل واليهود أخص بالغضب لانهم أمة عناد وهذه الامة هم المنعم عليهم ولهذا قال سفيان بن عيينة من فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى ومن فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود لان النصارى عبدوا بغير علم واليهود عرفوا الحق وعدلوا عنه وفي المسند والترمذي من حديث عدي بن حاتم عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون وقد جمع سبحانه بين هذين الاصلين في غير موضع من كتابه فمنها قوله تعالى واذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون فجمع سبحانه بين الاستجابة له والايمان به ومنها قوله عن رسوله فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون وقال تعالى الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة الى قوله هم المفلحون وقال في وسط السورة ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة الى آخر الآية وقال تعالى والعصر ان الانسان لفي خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر فأقسم سبحانه وتعالى بالدهر الذي هو زمن الاعمال الرابحة والخاسرة على أن كل واحد في خسر الا من كمل قوته العلمية بالايمان بالله وقوته العملية بالعمل بطاعته فهذا كماله في نفسه ثم كمل غيره بوصيته له بذلك وأمره اياه به وبملاك ذلك وهي الصبر فكمل في نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح وكمل غيره بتعليمه اياه ذلك ووصيته له بالصبر عليه ولهذا قال الشافعي رحمه الله لو فكر الناس في سورة والعصر لكفتهم وهذا المعنى في القرآن في مواضع كثيرة يخبر سبحانه أن أهل السعادة هم الذين عرفوا الحق واتبعوه وان أهل الشقاوة هم الذين جهلوا الحق وضلوا عنه أو خالفوه واتبعوا غيره وينبغي أن يعرف ان هاتين القوتين لا تتعطلان في القلب بل ان استعمل قوته العلمية في معرفة الحق وادراكه والا استعملت بمعرفة ما يليق به ويناسبه من الباطل وان استعمل قوته الارادية العملية في العمل به والا استعملها في ضده فالانسان حارث همام بالطبع كما قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أصدق الاسماء حارث وهمام فالحارث الكاسب العامل والهمام المريد فان النفس متحركة بالارادة وحركتها الارادية لها من لوازم ذاتها والارادة تستلزم مرادا يكون متصورا لها متميزا عندها فان لم تتصور الحق وتطلبه وتريده تصورت الباطل وطلبته وأرادته ولا بد وهذا يتبين بالباب الذي بعده فنقول

(الباب السادس أنه لا سعادة للقلب ولا لذة ولا نعيم ولا صلاح الا بأن يكون الهه وفاطره وحده هو معبوده وغاية مطلوبه وأحب اليه من كل ماسواه)

بريئين من الملكة في الظاهر وهم بريئون من رؤية الملكة لنفوسهم فلا يرون لها ملكا حقيقيا بل يرون ما في أيديهم لله عارية ووديعة في أيديهم ابتلاهم به لينظر هل يتصرفون فيه تصرف العبيد أو تصرف الملاك الذين يعطون لهواهم ويمنعون لهواهم فوجود المال في يد الفقير لا يقدح في فقره انما يقدح في فقره رؤيته الملكة فمن عوفي من رؤية الملكة لم يتلوث باطنه بأوساخ المال وتعبه وتدبيره واختياره وكان كالخازن لسيده الذي ينفذ أوامره في ماله فهذا لو كان بيده من المال أمثال جبال الدنيا لم يضره ومن لم يعاف من ذلك ادعت نفسه الملكة وتعلقت به النفس تعلقها بالشيء المحبوب المعشوق فهو أكبر همه ومبلغ علمه ان أعطى رضي وان منع سخط فهو عبد الدينار والدرهم يصبح مهموما ويمسي كذلك يبيت مضاجعا له تفرح نفسه اذا ازداد وتحزن وتأسف اذا فات منه شيء بل يكاد يتلف اذا توهمت نفسه الفقر وقد يؤثر الموت على الفقر والاول مستغن بمولاه المالك الحق الذي بيده خزائن السموات والارض واذا أصاب المال الذي في يده نائبة رأى ان المالك الحق هو الذي أصاب مال نفسه فما للعبد وما للجزع والهلع وانما تصرف مالك المال في ملكه الذي هو وديعة في يد مملوكه فله الحكم في ماله ان شاء أبقاه وان شاء ذهب به وأفناه فلا يتهم مولاه في تصرفه في ملكه ويرى تدبيره هو موجب الحكمة فليس لقلبه بالمال تعلق ولا له به اكتراث لصعوده عنه وارتفاع همته الى المالك الحق فهو غني به وبحبه ومعرفته وقربه منه عن كل ماسواه وهو فقير اليه دون ماسواه فهذا هو البريء عن رؤية الملكة الموجبة للطغيان كما قال تعالى كلا ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى ولم يقل ان استغنى بل

معلوم أن كل حي سوى الله سبحانه من ملك أو انس أو جن أو حيوان فهو فقير الى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره ولا يتم له الا بتصوره النافع والضار والمنفعة من جنس النعم واللذة والمضرة من جنس الالم والعذاب فلابد له من أمرين أحدهما هو المحبوب المطلوب الذي ينتفع به ويلتذ بادراكه والثاني المعين الموصل المحصل لذلك المقصود وبازاء ذلك أمران آخران أحدهما مكروه بغيض ضار والثاني معين دافع له عنه فهذه أربعة أشياء أحدها أمر هو محبوب مطلوب الوجود الثاني أمر مكروه مطلوب العدم الثالث الوسيلة الى حصول المطلوب المحبوب الرابع الوسيلة الى دفع المكروه فهذه الامور الاربعة ضرورية للعبد بل ولكل حيوان لا يقوم وجوده وصلاحه الا بها فاذا تقرر ذلك فالله تعالى هو الذي يجب أن يكون هو المقصود المدعو المطلوب الذي يراد وجهه ويبتغى قربه ويطلب رضاه وهو المعين على حصول ذلك وعبودية ما سواه والالتفات اليه والتعلق به هو المكروه الضار وهو المعين على دفعه فهو سبحانه الجامع لهذه الامور الاربعة دون ما سواه فهو المعبود المحبوب المراد وهو المعين لعبده على وصوله اليه وعبادته له والمكروه البغيض هو بمشيئته وقدرته وهو المعين لعبده على دفعه عنه كما قال أعرف الخلق به أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بعفاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك وقال اللهم اني أسلمت نفسي اليك ووجهت وجهي اليك وفوضت أمري اليك وألجأت ظهري اليك رغبة ورهبة اليك لا ملجأ ولا منجا منك الا اليك فمنه المنجا واليه الملجا وبه الاستعاذة من شر ما هو كائن بمشيئته وقدرته فالاعاذة فعله والمستعاذ منه فعله أو مفعوله الذي خلقه بمشيئته فالامر كله له والحمد كله له والملك كله له والخير كله في يديه لا يحصي أحد من خلقه ثناء عليه بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يثني عليه كل أحد من خلقه ولهذا اصلاح العبد وسعادته في تحقيق معنى اياك نعبد واياك نستعين فان العبودية تتضمن المقصود المطلوب لكن على أكمل الوجوه والمستعان هو الذي يستعان به على المطلوب فالاول من معنى ألوهيته والثاني من معنى ربوبيته فان الاله هو الذي تألهه القلوب محبة وانابة واجلالا واكراما وتعظيما وذلا وخضوعا وخوفا ورجاء وتوكلا والرب هو الذي يربي عبده فيعطيه خلقه ثم يهديه الى مصالحه فلا اله الا هو ولا رب الا هو فكما أن ربوبية ما سواه أبطل الباطل فكذلك الهية ما سواه وقد جمع سبحانه بين هذين الاصلين في مواضع من كتابه كقوله فاعبده وتوكل عليه وقوله عن نبيه شعيب وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه أنيب وقوله وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وقوله وتبتل اليه تبتيلا رب المشرق والمغرب لا اله الا هو فاتخذه وكيلا وقوله قل هو ربي لا اله الا هو عليه توكلت واليه متاب وقوله عن الحنفاء اتباع ابراهيم عليه السلام ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا فهذه سبعة مواضع تنتظم هذين الاصلين الجامعين لمعنى التوحيد اللذين لا سعادة للعبد بدونهما ألبتة الوجه الثاني ان الله سبحانه وتعالى خلق الخلق لعبادته الجامعة لمعرفته والانابة اليه ومحبته والاخلاص له فبذكره تطمئن قلوبهم وتسكن نفوسهم وبرؤيته في الآخرة تقر عيونهم ويتم نعيمهم فلا يعطيهم في الآخرة شيئا هو أحب اليهم ولا أقر لعيونهم ولا أنعم لقلوبهم من النظر اليه وسماع كلامه منه بلا واسطة ولم يعطهم في الدنيا شيئا خيرا لهم ولا أحب اليهم ولا أقر لعيونهم من الايمان به ومحبته والشوق

الى

ليجعل الطغيان ناشئا عن رؤيته غنى نفسه ولم يذكر هذه الرؤية في سورة الليل بل قال وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى وهذا والله أعلم لانه ذكر موجب طغيانه وهو رؤيته غنى نفسه وذكر في سورة الليل موجب هلاكه وعدم تيسيره لليسرى وهو استغناؤه عن ربه بترك طاعته وعبوديته فانه لو افتقر اليه لتقرب اليه بما أمره من طاعته فعل المملوك الذي لا غنى له عن مولاه طرفة عين ولا يجد بدا من امتثال أوامره ولذلك ذكر معه بخله وهو تركه اعطاء ما وجب عليه من الاقوال والاعمال واداء المال وجمع الى ذلك تكذيبه بالحسنى وهي التي وعد بها أهل الاحسان بقوله للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ومن فسرها بشهادة أن لا اله الا الله فلانها أصل الاحسان وبها تنال الحسنى ومن فسرها بالخلف في الانفاق فقد هضم المعنى حقه وهو أكبر من ذلك وان كان الخلف جزأ من أجزاء الحسنى والمقصود ان الاستغناء عن الله سبب هلاك العبد وتيسيره لكل عسرى ورؤيته غنى نفسه سبب طغيانه وكلاهما مناف للفقر والعبودية قوله الدرجة الاولى فقر الزهاد وهو نفض اليدين من الدنيا ضبطا أو طلبا أو تركا وهذا هو الفقر الذي تكلموا في شرفه فحاصل هذه الدرجة فراغ اليد والقلب من الدنيا والذهول عن الفقر منها والزهد فيها وعلامة فراغ اليد نفض اليدين من الدنيا ضبطا أو طلبا فهو لا يضبط يده مع وجودها شحا وضنا بها ولا يطلبها مع فقدها سؤالا والحافا وحرصا فهذا الاعراض والنفض دال على سقوط منزلتها من القلب اذ لو كان لها في القلب منزلة لكان الامر بضد ذلك وكان يكون حاله الضبط مع الوجود لغناه بها

الى لقائه والأنس بقربه والتنعم بذكره وقد جمع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بين هذين الامرين فى الدعاء الذى رواه النسائى والامام أحمد وابن حبان فى صحيحه وغيرهم من حديث عمار بن ياسر أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كان يدعو به اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحينى ما علمت الحياة خيرا لى وتوفنى اذا كانت الوفاة خيرا لى وأسألك خشيتك فى الغيب والشهادة وأسألك كلمة الحق فى الغضب والرضا وأسألك القصد فى الفقر والغنا وأسألك نعيما لا ينفد وأسألك قرة عين لا تنقطع وأسألك الرضا بعد القضاء وأسألك برد العيش بعد الموت وأسألك لذة النظر الى وجهك وأسألك الشوق الى لقائك فى غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة اللهم زينا بزينة الايمان واجعلنا هداة مهتدين فجمع فى هذا الدعاء العظيم القدر بين أطيب شئ فى الدنيا وهو الشوق الى لقائه سبحانه وأطيب شئ فى الآخرة وهو النظر الى وجهه سبحانه ولما كان كمال ذلك وتمامه موقوفا على عدم ما يضر فى الدنيا ويفتن فى الدين قال من غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة ولما كان كمال العبد فى أن يكون عالما بالحق متبعا له معلما لغيره مرشدا له قال اجعلنا هداة مهتدين ولما كان الرضا النافع المحصل للمقصود هو الرضا بعد وقوع القضاء لا قبله فان ذلك عزم على الرضا فاذا وقع القضاء انفسخ ذلك العزم سأل الرضا بعده فان المقدور يكتنفه أمران الاستخارة قبل وقوعه والرضا بعد وقوعه فمن سعادة العبد أن يجمع بينهما كما فى المسند وغيره عنه صلى الله تعالى عليه وسلم ان من سعادة ابن آدم استخارة الله ورضاه بما قضى الله وان من شقاوة ابن آدم ترك استخارة الله وسخطه بما قضى الله تعالى ولما كانت خشية الله عز وجل رأس كل خير فى المشهد والمغيب سأله خشيته فى الغيب والشهادة ولما كان أكثر الناس انما يتكلم بالحق فى رضاه فاذا غضب أخرجه غضبه الى الباطل وقد يدخله أيضا رضاه فى الباطل سأل الله عز وجل ان يوفقه لكلمة الحق فى الغضب والرضا ولهذا قال بعض السلف لا تكن ممن اذا رضى أدخله رضاه فى الباطل واذا غضب أخرجه غضبه من الحق ولما كان الفقر والغنا بليتين ومحنتين يبتلى الله بهما عبده ففى الغنا يبسط يده وفى الفقر يقبضها سأل الله عز وجل القصد فى الحالين وهو التوسط الذى ليس معه اسراف ولا تقتير ولما كان النعيم نوعين نوعا للبدن ونوعا للقلب وهو قرة العين وكماله بدوامه واستمراره جمع بينهما فى قوله أسألك نعيما لا ينفد وقرة عين لا تنقطع ولما كانت الزينة زينتين زينة البدن وزينة القلب وكانت زينة القلب أعظمهما قدرا وأجلهما خطرا واذا حصلت حصلت زينة البدن على أكمل حال فى العقبى سأل ربه الزينة الباطنة فقال زينا بزينة الايمان ولما كان العيش فى هذه الدار لا يبرد لأحد كائنا من كان بل هو محشو بالغصص والنكد ومحفوف بالآلام الباطنة والظاهرة سأل برد العيش بعد الموت والمقصود أنه جمع فى هذا الدعاء بين أطيب ما فى الدنيا وأطيب ما فى الآخرة فان حاجة العباد الى ربهم فى عبادتهم اياه وتألههم له كحاجتهم اليه فى خلقه لهم ورزقه اياهم ومعافاة أبدانهم وستر عوراتهم وامن روعاتهم بل حاجتهم الى تألهه ومحبته وعبوديته أعظم فان ذلك هو الغاية المقصودة لهم ولا صلاح لهم ولا نعيم ولا فلاح ولا لذة ولا سعادة بدون ذلك بحال ولهذا كانت لا إله إلا الله أحسن الحسنات وكان توحيد الالهية رأس الامر وأما توحيد الربوبية

ولكان يطلبها مع فقدها الفقره اليها وأيضا من أقسام الفراغ اسكات اللسان عنها ذما ومدحا لان من اهتم بأمر وكانت له فى قلبه موقع اشتغل اللسان بما فاض على القلب من أمره مدحا أو ذما فانه ان حصلت له مدحها وان فاتته ذمها ومدحها وذمها علامة موضعها من القلب وخطرها فحيث اشتغل اللسان بذمها كان ذلك لخطرها فى القلب لان الشئ انما يذم على قدر الاهتمام به والاعتناء وشفاء الغيظ منه بالذم وكذلك تعظيم الزهد فيها انما هو على قدر خطرها فى القلب اذ لولا خطرها وقدرها لما صار للزهد فيها خطر وكذلك مدحها دليل على خطرها وموقعها من قلبه فان من أحب شيأ أكثر من ذكره وصاحب هذه الدرجة لا يضبطها مع وجودها ولا يطلبها مع عدمها ولا يفيض من قلبه على لسانه مدح لها يدل على محبتها ولا يفيض من القلب على اللسان ذم يدل على موقعها وخطرها فان الشئ اذا صغر أعرض القلب عنه مدحا أو ذما وكذلك صاحب هذه الدرجة فان عن النظر الى تركها وهو الذى تقدم من ذكر خطر الزهد فيها لان نظر العبد الى كونه تاركها زاهدا فيها تتشرف نفسه بالترك وذلك من خطرها وقدرها ولو صغرت فى القلب لصغر تركها والزهد فيها ولو اهتم القلب بمهم من المهمات المطلوبة التى هى مذاقات أهل القلوب والارواح لذهل عن النظر الى نفسه بالزهد والترك فصاحب هذه الدرجة معافى من هذه الامراض كلها من مرض الضبط والطلب والذم والمدح والترك فهى بأسرها وان كان بعضها ممدوحا فى العلم مقصودا يستحق المتحقق به الثواب والمدح لكنها آثار وأشكال مشعرة بان صاحبها لم ينته الى حال الخلو والتجريد الباطن فضلا عن أن يتحقق من

الذي أقر به المسلم والكافر وقرره أهل الكلام في كتبهم فلا يكفي وحده بل هو الحجة عليهم كما بين ذلك سبحانه في كتابه في عدة مواضع ولهذا كان حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا كما في الحديث الصحيح الذي رواه معاذ بن جبل رضي الله عنه عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال أتدري ما حق الله على عباده قلت الله ورسوله أعلم قال حقه على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيأ أتدري ما حق العباد على الله اذا فعلوا ذلك قلت الله ورسوله أعلم قال حقهم عليه أن لا يعذبهم بالنار ولذلك يحب سبحانه عباده المؤمنين الموحدين ويفرح بتوبتهم كما أن في ذلك أعظم لذة العبد وسعادته ونعيمه فليس في الكائنات شئ غير الله عز وجل يسكن القلب اليه ويطمئن به ويأنس به ويتنعم بالتوجه اليه ومن عبد غيره سبحانه وحصل له به نوع منفعة ولذة فمضرته بذلك اضعاف اضعاف منفعته وهو بمنزلة أكل الطعام المسموم اللذيذ وكما أن السموات والارض لو كان فيهما آلهة غيره سبحانه فسدتا كما قال تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فكذلك القلب اذا كان فيه معبود غير الله تعالى فسد فسادا لا ترجى صلاحه الا بأن يخرج ذلك المعبود من قلبه ويكون الله تعالى وحده الهه ومعبوده الذي يحبه ويرجوه ويخافه ويتوكل عليه وينيب اليه (الوجه الثالث) أن فقر العبد الى أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا ليس له نظير فيقاس به لكن يشبه من بعض الوجوه حاجة الجسد الى الغذاء والشراب والنفس فيقاس به لكن بينهما فروق كثيرة فان حقيقة العبد قلبه وروحه ولا صلاح له الا بالهه الحق الذي لا اله الا هو فلا يطمئن الا بذكره ولا يسكن الا بمعرفته وحبه وهو كادح اليه كدحا فملاقيه ولا بد له من لقائه ولا صلاح له الا بتوحيد محبته وعبادته وخوفه ورجائه ولو حصل له من اللذات والسرور بغيره ما حصل فلا يدوم له ذلك بل ينتقل من نوع الى نوع ومن شخص الى شخص ويتنعم بهذا في حال وبهذا في حال وكثيرا ما يكون ذلك الذي يتنعم به هو أعظم أسباب ألمه ومضرته وأما الهه الحق فلا بد له منه في كل وقت وكل حال وأينما كان فنفس الايمان به ومحبته وعبادته واجلاله وذكره هو غذاء الانسان وقوته وصلاحه وقوامه كما عليه أهل الايمان ودلت عليه السنة والقرآن وشهدت به الفطرة والجنان لا كما يقوله من قل نصيبه من التحقيق والعرفان وبخس حظه من الاحسان أن عبادته وذكره وشكره تكليف ومشقة لمجرد الابتلاء والامتحان أو لاجل مجرد التعويض بالثواب المنفصل كالمعاوضة بالاثمان أو لمجرد رياضة النفس وتهذيبها لترتفع عن درجة البهيم من الحيوان كما هي مقالات لمن بخس حظه من معرفة الرحمن وقل نصيبه من ذوق حقائق الايمان وفرح بما عنده من زبد الافكار وزبالة الاذهان بل عبادته ومعرفته وتوحيده وشكره قرة عين الانسان وأفضل لذة الروح والقلب والجنان وأطيب نعيم ناله من كان أهلا لهذا الشان والله المستعان وعليه التكلان وليس المقصود بالعبادات والاوامر المشقة والكلفة بالقصد الاول وان وقع ذلك ضمنا وتبعا في بعضها لاسباب اقتضته لا بد منها هي من لوازم هذه النشأة فأوامره سبحانه وحقه الذي أوجبه على عباده وشرائعه التي شرعها لهم هي قرة العيون ولذة القلوب ونعيم الارواح وسرورها وبه سعادتها وفلاحها وكمالها في معاشها ومعادها بل

الحقائق المتوقعة المتنافس فيها صاحب هذه الدرجة متوسط بينه وبين الداخل بكليته في الدنيا فقد ركن اليها واطمأن اليها واتخذها وطنا وجعلها له سكنا وبين من نفضها بالكلية من قلبه ولسانه وتخلص من قيودها ورعوناتها وآثارها وارتقى الى ما يسبي القلب ويحييه ويفرحه ويبهجه من جذبات العزة فهو في البرزخ كالحامل المقرب ينتظر ولادة الروح والقلب صباحا ومساء فان من لم تولد روحه وقلبه ويخرج من مشيمة نفسه ويتخلص من ظلمات طبعه وهواه وارادته فهو كالجنين في بطن أمه الذي لم ير الدنيا وما فيها فهكذا هذا الذي بعد في مشيمة النفس والظلمات الثلاث هي ظلمة النفس وظلمة الطبع وظلمة الهوى فلا بد من الولادة مرتين كما قال المسيح للحواريين انكم لن تلجوا ملكوت السماء حتى تولدوا مرتين ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم أبا للمؤمنين كما في قراءة أبي النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم ولهذا تفرع على هذه الابوة أن أزواجه أمهاتهم فان أرواحهم وقلوبهم ولدت به ولادة أخرى غير ولادة الامهات فانه أخرج أرواحهم وقلوبهم من ظلمات الجهل والضلال والغي الى نور العلم والايمان وفضاء المعرفة والتوحيد فشاهدت حقائق أخر وأمورا لم يكن لها بها شعور قبله قال تعالى الر كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم وقال هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين وقال لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي

لاسرور لها ولا فرح ولا لذة ولا نعيم في الحقيقة الا بذلك كما قال تعالى يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون قال أبو سعيد الخدري فضل الله القرآن ورحمته ان جعلكم من أهله وقال هلال بن يساف بالاسلام الذي هداكم اليه وبالقرآن الذي علمكم اياه هو خير مما تجمعون من الذهب والفضة وكذلك قال ابن عباس والحسن وقتادة فضله الاسلام ورحمته القرآن وقالت طائفة من السلف فضله القرآن ورحمته الاسلام والتحقيق ان كلا منهما فيه الوصفان الفضل والرحمة وهما الأمران اللذان امتن بهما على رسوله عليه السلام فقال وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان والله سبحانه انما رفع من رفع بالكتاب والايمان ووضع من وضع بعدمهما فان قيل فقد وقع تسمية ذلك تكليفا في القرآن كقوله لا يكلف الله نفسا الا وسعها وقوله ولا نكلف نفسا الا وسعها قيل نعم انما جاء ذلك في جانب النفي ولم يسم سبحانه أوامره ووصاياه وشرائعه تكليفا قط بل سماها روحا ونورا وشفاء وهدى ورحمة وحياة وعهدا ووصية ونحو ذلك الوجه الرابع ان أفضل نعيم الآخرة وأجله وأعلاه على الاطلاق هو النظر الى وجه الرب عز وجل وسماع خطابه كما في صحيح مسلم عن صهيب رضي الله عنه عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم اذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناديا أهل الجنة ان لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه فيقولون ما هو ألم يبيض وجوهنا ويثقل موازيننا ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار قال فيكشف الحجاب فينظرون اليه فما أعطاهم شيئا أحب اليهم من النظر اليه وفي حديث آخر فلا يلتفتون الى شئ من النعيم ما داموا ينظرون اليه فبين عليه السلام انهم مع كمال تنعمهم بما أعطاهم ربهم في الجنة لم يعطهم شيئا أحب اليهم من النظر اليه وانما كان ذلك أحب اليهم لان ما يحصل لهم به من اللذة والنعيم والفرح والسرور وقرة العين فوق ما يحصل لهم من التمتع بالاكل والشرب والحور العين ولا نسبة بين اللذتين والنعيمين ألبتة ولهذا قال سبحانه وتعالى في حق الكفار كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم انهم لصالوا الجحيم فجمع عليهم نوعي العذاب عذاب النار وعذاب الحجاب عنه سبحانه كما جمع لاوليائه نوعي النعيم نعيم التمتع بما في الجنة ونعيم التمتع برؤيته وذكر سبحانه هذه الانواع الاربعة في هذه السورة فقال في حق الابرار ان الابرار لفي نعيم على الارائك ينظرون وهضم معنى الآية من قال ينظرون الى أعدائهم يعذبون و ينظرون الى قصورهم و بساتينهم أو ينظر بعضهم الى بعض وكل هذا عدول عن المقصود الى غيره وانما المعنى ينظرون الى وجه ربهم ضد حال الكفار الذين هم عن ربهم لمحجوبون ثم انهم لصالوا الجحيم وتأمل كيف قابل سبحانه ما قاله الكفار في أعدائه في الدنيا وسخروا منهم بضده في القيامة فان الكفار كانوا اذا مر بهم المؤمنون يتغامزون و يضحكون منهم واذا رأوهم قالوا ان هؤلاء لضالون قال تعالى فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون مقابلة لتغامزهم وضحكهم منهم ثم قال على الارائك ينظرون فاطلق النظر ولم يقيده بمنظور دون منظور وأعلى ما نظروا اليه وأجله وأعظمه هو الله سبحانه والنظر اليه أجل أنواع النظر وأفضلها وهو أعلى مراتب الهداية فقابل بذلك قولهم ان

ضلال مبين والمقصود أن القلوب في هذه الولادة ثلاثة قلب لا يولد ولم يأن له بل هو جنين في بطن الشهوات والغي والجهل والضلال وقلب قد ولد وخرج الى فضاء التوحيد والمعرفة وتخلص من مشيمة الطباع وظلمات النفس والهوى فقرت عينه بالله وقرت عيون به وقلوب وأنست بقربه الارواح وذكرت رؤيته بالله فاطمأن بالله وسكن اليه وعكف بهمته عليه وسافرت همته وعزائمه الى الرفيق الاعلى لا يقر بشئ غير الله ولا يسكن الى شئ سواه ولا يطمئن بغيره يجد من كل شئ سوى الله عوضا وحبه قوته لا يجد من الله عوضا أبدا فذكره حياة قلبه ورضاه نهاية مطلبه ومحبته قوته ومعرفته أنيسه عدوه من جذب قلبه عن الله وان كان القريب المصافيا ووليه من رده الى الله وجمع قلبه عليه وان كان البعيد المناويا فهذان قلبان متباينان غاية التباين وقلب ثالث في البرزخ ينتظر الولادة صباحا ومساء قد أصبح على فضاء التجريد وآنس من خلال الديار أشعة التوحيد تأبى غلبات الحب والشوق الا تقربا الى من السعادة كلها بقربه والحظ كل الحظ في طاعته وحبه وتأبى غلبات الطباع الا جذبه وايقافه وتعويقه فهو بين الداعيين تارة وتارة قد قطع عقبات وآفات وبقي عليه مغاوز وفلوات والمقصود أن صاحب هذا المقام اذا تحقق به ظاهرا وباطنا وسلم عن نظر نفسه الى مقامه واشتغاله به ووقوفه عنده فهو فقير حقيقي ليس فيه قادح من القوادح التي تحطه عن درجة الفقر واعلم انه يحسن اعمال اللسان في ذم الدنيا في موضعين أحدهما في موضع التزهيد فيها للراغب والثاني عندما يرجع به داعي الطبع والنفس

هؤلاء لضالون فالنظر الى الرب سبحانه مراد من هذين الموضعين ولابد اما بخصوصه وإما بالعموم والاطلاق ومن تأمل السياق لم يجد الآيتين يحتملان غير ارادة ذلك خصوصا أو عموما

(فصل) وكما أنه لا نسبة لنعيم ما فى الجنة الى نعيم النظر الى وجهه الأعلى سبحانه فلا نسبة لنعيم الدنيا الى نعيم محبته ومعرفته والشوق اليه والأنس به بل لذة النظر اليه سبحانه تابعة لمعرفتهم به ومحبتهم له فان اللذة تتبع الشعور والمحبة فكلما كان المحب أعرف بالمحبوب وأشد محبة له كان التذاذه بقربه ورؤيته ووصوله اليه أعظم الوجه الخامس ان المخلوق ليس عنده للعبد نفع ولا ضر ولا عطاء ولا منع ولا هدى ولا ضلال ولا نصر ولا خذلان ولا خفض ولا رفع ولا عز ولا ذل بل الله وحده هو الذي يملك له ذلك كله قال الله تعالى ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم وقال تعالى وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم وقال تعالى ان ينصركم الله فلا غالب لكم وان يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وقال تعالى عن صاحب يس أأتخذ من دونه آلهة ان يردني الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيأ ولا ينقذون وقال تعالى يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم وقال تعالى أمّن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن ان الكافرون الا فى غرور أمّن هذا الذي يرزقكم ان أمسك رزقه بل لجوا فى عتو ونفور فجمع سبحانه بين النصر والرزق فان العبد مضطر الى من يدفع عنه عدوه بنصره ويجلب له منافعه برزقه فلا بد له من ناصر ورازق والله وحده هو الذي ينصر ويرزق فهو الرزاق ذو القوة المتين ومن كمال فطنة العبد ومعرفته ان يعلم انه اذا مسه بسوء لم يرفعه عنه غيره واذا ناله بنعمة لم يرزقه اياها سواه ويذكر ان الله تعالى أوحى الى بعض أنبيائه أدرك لى لطيف الفطنة وخفى اللطف فانى أحب ذلك قال يارب وما لطيف الفطنة قال ان وقعت عليك ذبابة فاعلم انى أوقعها فاسألنى أرفعها قال وما خفى اللطف قال ان أتتك حبة فاعلم انى ذكرتك بها وقد قال تعالى عن السحرة وما هم بضارين به من أحد الا باذن الله فهو سبحانه وحده الذي يكفي عبده وينصره ويرزقه قال الامام أحمد حدثنا عبد الرزاق أنبأنا عمران قال سمعت وهبا يقول قال الله تعالى عز وجل فى بعض كتبه بعزتى انه من اعتصم بى فان كادته السموات بمن فيهن والارضون بمن فيهن فانى أجعل له من ذلك مخرجا ومن لم يعتصم بى فانى أقطع يديه من أسباب السماء وأخسف به من تحت قدميه الارض فأجعله فى الهواء ثم أكله الى نفسه كفى بى لعبدى مالا اذا كان عبدى فى طاعتى أعطيه قبل أن يسألنى وأستجيب له قبل أن يدعونى فانا أعلم بحاجته التى ترفق به منه قال أحمد وحدثنا هاشم بن القاسم ثنا أبو سعيد المؤدب ثنا من سمع عطاء الخراسانى قال لقيت وهب بن منبه وهو يطوف بالبيت فقلت له حدثنى حديثا أحفظه عنك فى مقامى هذا وأوجز قال نعم أوحى الله تعالى الى داود يا داود أما وعزتى وعظمتى لا يعتصم بى عبد من عبيدى دون خلقى أعرف ذلك من نيته فيكيده السموات السبع ومن فيهن والارضون السبع ومن فيهن الا جعلت له من بينهن مخرجا أما

الحظ منها ولا يأمن اجابة الداعى فيستحضر فى نفسه قلة وفائها وكثرة جفائها وخسة شركائها فانه ان تم عقله وحضر رشده زهد فيها ولابد

فصل وقوله الدرجة الثانية الرجوع الى السبق بمطالعة الفضل وهو يورث الخلاص من رؤية الاعمال ويقطع شهود الاحوال ويمحص من أدناس مطالعات المقامات فهذه الدرجة أرفع من الاولى وأعلى والاولى كالوسيلة اليها لان فى الدرجة الاولى يتخلى بفقره عن ان يتأله غير مولاه الحق وأن يضيع أنفاسه فى غير مرضاته وأن يفرق همومه فى غير محابه وأن يؤثر عليه فى حال من الاحوال فيوجب له هذا الخلق وهذه المعاملة صفاء العبودية وعمارة السر بينه وبين الله وخلوص الود فيصبح ويمسى ولا هم له غير ربه قد قطع همه بربه عنه جميع الهموم وعطلت ارادته جميع الارادات ونسخت محبته له من قلبه كل محبة لسواه كما قيل

لقد كان يسبى القلب فى كل ليلة
ثمانون بل تسعون نفسا وأرجح
يهيم بهذا ثم يألف غيره
ويسلوهم من فوره حين يصبح
وقد كان قلبى ضائعا قبل حبكم
فكان بحب الخلق يلهو ويمرح
فلما دعا قلبى هواك أجابه
فلست أراه عن خبائك يبرح
حرمت منائى منك ان كنت كاذبا
وان كنت فى الدنيا بغيرك أفرح
وان كان شئ فى الوجود سواكم
يقر به القلب الجريح ويفرح
اذا لعبت أيدى الهوى بمحبكم
فليس له عن بابكم متزحزح
فان أدركته غربة عن دياركم
فحبكم بين الحشا ليس يبرح
وكم مشتر فى الخلق قد سام قلبه
فلم يره الا لحبك يصلح
هوى غيركم نار تلظى ومحبس * وحبكم الفردوس أو هو أفسح
فيا ضيم قلب قد تعلق غيركم * ويا رحمة مما يجول ويكدح

أما وعزتي وعظمتي لا يعتصم مني عبد من عبادي بمخلوق دوني أعرف ذلك من نيته الا قطعت أسباب السماء من يده وأسخت الارض من تحت قدميه ثم لا أبالي بأي واد هلك وهذا الوجه أظهر للعامة من الذي قبله ولهذا خوطبوا به في القرآن أكثر ومنه دعت الرسل الى الوجه الاول واذا تدبر اللبيب القرآن وجد الله سبحانه يدعو عباده بهذا الوجه الى الوجه الاول وهذا الوجه يقتضي التوكل على الله تعالى والاستعانة به ودعاءه ومسألته دون ما سواه ويقتضي أيضا محبته وعبادته لاحسانه الى عبده واسباغ نعمه عليه فاذا عبدوه وأحبوه وتوكلوا عليه من هذا الوجه دخلوا منه الى الوجه الاول ونظير ذلك من ينزل به بلاء عظيم أو فاقة شديدة أو خوف مقلق فجعل يدعو الله سبحانه ويتضرع اليه حتى فتح له من لذيذ مناجاته وعظيم الايمان به والانابة اليه ما هو أحب اليه من تلك الحاجة التي قصدها أولا ولكنه لم يكن يعرف ذلك أولا حتى يطلبه ويشتاق اليه وفي نحو ذلك قال القائل

جزى الله يوم الروع خيرا فانه * أرانا على علاته أم ثابت

أرانا مصونات الحجال ولم يكن * نراهن الا عند نعت النواعت

(الوجه السادس) ان تعلق العبد بما سوى الله تعالى مضرة عليه اذا أخذ منه فوق القدر الزائد على حاجته غير مستعين به على طاعته فاذا نال من الطعام والشراب والنكاح واللباس فوق حاجته ضره ذلك ولو أحب سوى الله ما أحب فلا بد أن يسلبه ويفارقه فان أحبه لغير الله فلا بد ان تضره محبته ويعذب بمحبوبه اما في الدنيا واما في الآخرة والغالب انه يعذب به في الدارين قال تعالى والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون وقال تعالى فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم انما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ولم يصب من قال ان الآية على التقديم والتأخير كالجرجاني حيث ينتظم قوله في الحياة الدنيا بعد فصل آخر ليس بموضعه على تأويل فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا انما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة وهذا القول يروى عن ابن عباس رضي الله عنه وهو منقطع واختاره قتادة وجماعة وكأنهم لما اشكل عليهم وجه تعذيبهم بالاموال والاولاد في الدنيا وان سرورهم ولذتهم ونعيمهم بذلك فروا الى التقديم والتأخير وأما الذين رأوا أن الآية على وجهها ونظمها فاختلفوا في هذا التعذيب فقال الحسن البصري يعذبهم بأخذ الزكاة منها والانفاق في الجهاد واختاره ابن جرير وأوضحه فقال العذاب بها الزامهم بما أوجب الله عليهم فيها من حقوقه وفرائضه اذ كان يؤخذ منه ذلك وهو غير طيب النفس ولا راج من الله جزاء ولا من الآخذ منه حمدا ولا شكرا بل على صغر منه وكره وهذا أيضا عدول عن المراد بتعذيبهم في الدنيا بها وذهاب عن مقصود الآية وقالت طائفة تعذيبهم بها انهم يرضون بكفرهم لغنيمة أموالهم وسبي أولادهم فان هذا حكم الكافر وهم في الباطن كذلك وهذا أيضا من جنس ما قبله فان الله سبحانه أقر المنافقين وعصم أموالهم وأولادهم بالاسلام الظاهر وتولى سرائرهم فلو كان

فهو اناء واحد والاشربة متعددة فأي شراب ملأه لم يبق فيه موضع لغيره وانما تملأ الاناء بأعلى الاشربة اذا صادفه خاليا فأما اذا صادفه ممتلئا من غيره لم يساكنه حتى يخرج ما فيه ثم يسكن موضعه كما قال بعضهم

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى
فصادف قلبا خاليا فتمكنا

ففقر صاحب هذه الدرجة تفريغه اناءه من كل شراب غير شراب المحبة والمعرفة لان كل شراب فمسكر ولا بد وما أسكر كثيره فقليله حرام وأين سكر الهوى والدنيا من سكر الخمر وكيف يوضع شراب التسنيم الذي هو أعلى أشربة المحبين في اناء ملآن بخمر الدنيا والهوى ولا يفيق من سكره ولا يستفيق ولو فارق هذا السكر القلب لطار بأجنحة الشوق الى الله والدار الآخرة ولكن رضي المسكين بالدون وباع حظه من قرب الله ومعرفته وكرامته بأخس الثمن صفقة خاسر مغبون فسيعلم أي حظ أضاع اذا فاز المحبون وخسر المبطلون

(فصل) واذا كان التلوث بالاعراض قيدا يقيد القلوب عن سفرها الى بلد حياتها ونعيمها الذي لا سكن لها غيره ولا راحة لها الا فيه ولا سرور لها الا في منازله ولا أمن لها الا بين أهله فكذلك الذي باشر قلبه روح التأله وذاق طعم المحبة وآنس نار المعرفة له أغراض دقيقة حالية تقيد قلبه عن مكافحة صريح الحق وصحة الاضطرار اليه والغناء التام به والبقاء الدائم بنوره الذي هو المطلوب من السير والسلوك وهو الغاية التي شمر اليها السالكون والعلم الذي أمه العابدون ودندن حوله العارفون فجميع ما يحجب عنه أو يقيد القلب نظره وهمه يكون حجابا يحجب

المراد ماذ كره هؤلاء لوقع مراده سبحانه من غنيمة أموالهم وسبي أولادهم فان الارادة ههنا كونية بمعني المشيئة وماشاء الله كان ولابد ومالم يشالم يكن والصواب والله أعلم أن يقال تعذيبهم بها هو الامر المشاهد من تعذيب طلاب الدنيا ومحبيها ومؤثريها على الآخرة بالحرص على تحصيلها والتعب العظيم في جمعها ومقاساة أنواع المشاق في ذلك فلا تجد أتعب ممن الدنيا أكبر همه وهو حريص بجهده على تحصيلها والعذاب هنا هو الألم والمشقة والنصب كقوله صلى الله تعالى عليه وسلم السفر قطعة من العذاب وقوله ان الميت يعذب ببكاء أهله عليه أي يتألم ويتوجع لا انه يعاقب باعمالهم وهكذا من الدنيا كل همه أو أكبر همه كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره من حديث أنس رضي الله عنه من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله وأتته الدنيا وهي راغمة ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه وفرق عليه شمله ولم يأته من الدنيا الا ماقدر له ومن أبلغ العذاب في الدنيا تشتيت الشمل وتفرق القلب وكون الفقر نصب عيني العبد لا يفارقه ولولا سكرة عشاق الدنيا بحبها لاستغاثوا من هذا العذاب على أن أكثرهم لا يزال يشكو ويصرخ منه وفي الترمذي أيضا عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال يقول الله تبارك وتعالى ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى وأسد فقرك وان لا تفعل ملأت يدك شغلا ولم أسد فقرك وهذا أيضا من أنواع العذاب اشتغال القلب والبدن بتحمل انكاد الدنيا ومحاربة أهلها اياه ومقاساة معاداتهم كما قال بعض السلف من أحب الدنيا فليوطن نفسه على تحمل المصائب ومحب الدنيا لا ينفك من ثلاث هم لازم وتعب دائم وحسرة لا تنقضي وذلك أن محبها لا ينال منها شيأ الا طمحت نفسه الى مافوقه كما في الحديث الصحيح عن النبي عليه السلام لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى لهما ثالثا وقد مثل عيسى بن مريم عليه السلام محب الدنيا بشارب البحر كلما ازداد شربا ازداد عطشا وذكر ابن أبي الدنيا أن الحسن البصري كتب الى عمر بن عبد العزيز أما بعد فان الدنيا دار ظعن ليست بدار اقامة انما أنزل اليها آدم عليه السلام عقوبة فاحذرها ياأمير المؤمنين فان الزاد منها تركها والغنى فيها فقرها لها في كل حين قتيل تذل من أعزها وتفقر من جمعها هي كالسم يأكله من لا يعرفه وهو حتفه فكن فيها كالمداوي جراحه يحتمي قليلا مخافة ما يكره طويلا ويصبر على شدة الدواء مخافة طول البلاء فاحذر هذه الدار الغرارة الخداعة الخيالة التي قد تزينت بخدعها وفتنت بغرورها وخيلت بآمالها وتشوقت لخطابها فأصبحت كالعروس المجلوة فالعيون اليها ناظرة والقلوب عليها والهة والنفوس لها عاشقة وهي لأزواجها كلهم قاتلة فعاشق لها قد ظفر منها بحاجته فاغتر وطغى ونسي المعاد فشغل بها لبه حتى زالت عنها قدمه فعظمت ندامته وكثرت حسرته واجتمعت عليه سكرات الموت وألمه وحسرات الفوت وعاشق لم ينل منها بغيته فعاش بغصته وذهب بكمده ولم يدرك منها ماطلب ولم تسترح نفسه من التعب يخرج بغير زاد وقدم على غير مهاد فكن أسر ماتكون فيها أحذر ماتكون لها فان صاحب الدنيا كلما اطمأن منها الى سرور أشخصته الى مكروه

الواصل و وقف السالك و ينكس الطالب فالزهد فيه على أصحاب الهمم العلية متعين تعين الواجب الذي لابد منه وهو كزهد السالك الى الحج في الظلال والمياه التي يمر بها في المنازل فالاول مقيد عن الحقائق برؤية الاعراض والثاني مقيد عن النهايات برؤية الاحوال فتقيد كل منهما عن الغاية المطلوبة وترتب على هذا القيد عدم النفوذ وذلك موقف وتخلف واذا عرف العبد هذا وانكشف له علمه تعين عليه الزهد في الاحوال والفقر منها كما تعين عليه الزهد في المال والشرف وخلو قلبه منهما ولما كان موجب الدرجة الاولى من الفقر الرجوع الى الآخرة فأوجب الاستغراق في هم الآخرة نفض اليدين من الدنيا ضبطا أو طلبا واسكات اللسان عنها مدحا أو ذما وكذلك كان موجب هذه الدرجة الثانية الرجوع الى فضل الله سبحانه ومطالعة سبقه الاسباب والوسائط فبفضل الله ورحمته وجدت منه الاقوال الشريفة والمقامات العلية وبفضله ورحمته وصلوا الى رضاه ورحمته وقربه وكرامته وموالاته وكان سبحانه هو الاول في ذلك كله كما أنه الاول في كل شئ وكان هو الآخر في ذلك كما هو الآخر في كل شئ فمن عبده باسمه الاول والآخر حصلت له حقيقة هذا الفقر فان انضاف الى ذلك عبوديته باسمه الظاهر الباطن فهذا هو العارف الجامع لمتفرقات التعبد ظاهرا و باطنا فعبوديته باسمه الاول تقتضي التجرد من مطالعة الاسباب والوقوف أو الالتفات اليها وتجريد النظر الى مجرد سبق فضله ورحمته وانه هو المبتدئ بالاحسان من غير وسيلة من العبد اذ لا وسيلة له في العدم قبل وجوده وأي وسيلة كانت هناك وانما هو عدم محض وقد أتى عليه حين من الدهر

وصل الرخاء منها بالبلاء وجعل البقاء فيها الى فناء سرورها مشوب بالحزن أمانيها كاذبة وآمالها باطلة وصفوها كدر وعيشها نكد فلو كان ربها لم يخبر عنها خبرا ولم يضرب لها مثلا لكانت قد أيقظت النائم ونبهت الغافل فكيف وقد جاء من الله فيها واعظ وعنها زاجر فما لها عند الله قدر ولا وزن وما نظر اليها منذ خلقها ولقد عرضت على نبينا بمفاتيحها وخزائنها لا ينقصه عند الله جناح بعوضة فأبى أن يقبلها كره أن يحب ما أبغض خالقه أو يرفع ما وضع مليكه فزواها عن الصالحين اختيارا وبسطها لاعدائه اغترارا فيظن المغرور بها المقتدر عليها أنه أكرم بها ونسي ما صنع الله عز وجل برسوله حين شد الحجر على بطنه * وقال الحسن أيضا ان قوما أكرموا الدنيا فصلبتهم على الخشب فأهينوها فأهنأ ما يكونون اذا أهنتموها وهذا باب واسع وأهل الدنيا وعشاقها أعلم بما يقاسونه من العذاب وأنواع الألم في طلبها ولما كانت هي أكبر هم من لا يؤمن بالآخرة ولا يرجو لقاء ربه كان عذابه بها بحسب حرصه عليها وشدة اجتهاده في طلبها واذا أردت أن تعرف عذاب أهلها فتأمل حال عاشق فان في حب معشوقه وكلما رام قربا من معشوقه نأى عنه ولا يفي له ويهجره ويصل عدوه فهو مع معشوقه في أنكد عيش يختار الموت دونه فمعشوقه قليل الوفاء كثير الجفاء كثير الشركاء سريع الاستحالة عظيم الخيانة كثير التلون لا يأمن عاشقه معه على نفسه ولا على ماله مع أنه لا صبر له عنه ولا يجد سبيلا الى سلوة تريحه ولا وصال يدوم له فلو لم يكن لهذا العاشق عذاب الا هذا العاجل لكفى به فكيف اذا حيل بينه وبين لذاته كلها وصار معذبا بنفس ما كان ملتذا به على قدر لذته به التي شغلته عن سعيه في طلب زاده ومصالح معاده وسنعود الى تمام الكلام في هذا الباب في باب ذكر علاج مرض القلب بحب الدنيا ان شاء الله تعالى اذ المقصود بيان أن من أحب شيأ سوى الله تعالى ولم تكن محبته له لله تعالى ولا لكونه معينا له على طاعة الله تعالى عذب به في الدنيا قبل اللقاء كما قيل

أنت القتيل بكل من أحببته * فاختر لنفسك في الهوى من تصطفي

فاذا كان يوم المعاد ولى الحكم العدل سبحانه كل محب ما كان يحبه في الدنيا معه اما منعما أو معذبا ولهذا يمثل لصاحب المال ماله شجاعا أقرع يأخذ بلهزمتيه يقول أنا مالك أنا كنزك ويصفح له صفائح من نار يكوى بها جبينه وجنبه وظهره وكذلك عاشق الصور اذا اجتمع هو ومعشوقه على غير طاعة الله تعالى جمع بينهما في النار وعذب كل منهما بصاحبه قال تعالى الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين وأخبر سبحانه ان الذين توادوا في الدنيا على الشرك يكفر بعضهم ببعض يوم القيامة ويلعن بعضهم بعضا ومأواهم النار وما لهم من ناصرين فالمحب مع محبوبه دنيا وأخرى ولهذا يقول الله تعالى يوم القيامة للخلق أليس عدلا مني أن أولي كل رجل منكم ما كان يتولى في الدنيا وقال صلى الله تعالى عليه وسلم المرء مع من أحب وقال ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا يا ويلتا ليتني لم أتخذ فلانا خليلا لقد أضلني عن الذكر بعد اذ جاءني وكان الشيطان للانسان خذولا وقال تعالى احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا

أخرى فمن نزل اسمه الاول على هذا المعنى أوجب له فقرا خاصا وعبودية خاصة وعبوديته باسمه الآخر تقتضي أيضا عدم ركونه ووثوقه بالاسباب والوقوف معها فانها تعدم لا محالة وتنقضي بالآخرية ويبقى الدائم الباقي بعدها فالتعلق بها تعلق بما يعدم وينقضي والتعلق بالآخر سبحانه تعلق بالحي الذي لا يموت ولا يزول فالمتعلق به حقيق أن لا يزول ولا ينقطع بخلاف التعلق بغيره مما له آخر يفنى به كما نظر العارف اليه بسبق الاولية حيث كان قبل الاسباب كلها فكذلك نظره اليه ببقاء الآخرية حيث يبقى بعد الاسباب كلها فكان الله ولم يكن شيء غيره وكل شيء هالك الا وجهه فتأمل عبودية هذين الاسمين وما يوجبانه من صحة الاضطرار الى الله وحده ودوام الفقر اليه دون كل شيء سواه وأن الامر ابتدأ منه واليه يرجع فهو المبتدئ بالفضل حيث لا سبب ولا وسيلة واليه تنتهي الاسباب والوسائل فهو أول كل شيء وآخره وكما انه رب كل شيء وفاعله وخالقه وبارئه فهو الهه وغايته التي لا صلاح له ولا فلاح ولا كمال الا بأن يكون وحده غايته ونهايته ومقصوده فهو الاول الذي ابتدأت منه المخلوقات والآخر الذي انتهت اليه عبودياتها وارادتها ومحبتها فليس وراء الله شيء يقصد ويعبد ويتأله كما انه ليس قبله شيء يخلق ويبرئ فكما كان واحدا في ايجادك فاجعله واحدا في تألهك اليه لتصح عبوديتك كما ابتدأ وجودك وخلقك منه فاجعله نهاية حبك وارادتك وتألهك اليه لتصح لك عبوديته باسمه الاول والآخر وأكثر

يعبدون من دون الله فاهدوهم الى صراط الجحيم وقفوهم انهم مسؤلون مالكم لا تناصرون قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه أزواجهم أشباههم ونظراؤهم وقال تعالى واذا النفوس زوجت فقرن كل شكل الى شكله وجعل معه قرينا وزوجا البر مع البر والفاجر مع الفاجر والمقصود أن من أحب شيأ سوى الله عز وجل فالضرر حاصل له بمحبوبه ان وجد وان فقد فانه ان فقده عذب بفواته وتألم على قدر تعلق قلبه به وان وجده فان ما يحصل له من الألم قبل حصوله ومن النكد في حال حصوله ومن الحسرة عليه بعد فوته اضعاف اضعاف ما في حصوله له من اللذة

فما في الارض أشقى من محب * وإن وجد الهوى حلو المذاق
تراه باكيا في كل حال * مخافة فرقة أو لاشتياق
فيبكي ان نأوا شوقا اليهم * ويبكي ان دنوا حذر الفراق
فتسخن عينه عند التلاقي * وتسخن عينه عند الفراق

وهذا أمر معلوم بالاستقراء والاعتبار والتجارب ولهذا قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في حديث رواه الترمذي وغيره الدنيا ملعونة ملعون ما فيها الا ذكر الله وما والاه فذكره جميع أنواع طاعته فكل من كان في طاعته فهو ذاكره وان لم يتحرك لسانه بالذكر وكل من والاه الله فقد أحبه وقربه فاللعنة لا تنال ذلك بوجه وهي نائلة كل ما عداه (الوجه السابع) أن اعتماد العبد على المخلوق وتوكله عليه يوجب له الضرر من جهته هو ولا بد بعكس ما أمله منه فلابد أن يخذل من الجهة التي قدر أن ينصر منها ويذم من حيث قدر أن يحمد وهذا أيضا كما أنه ثابت بالقرآن والسنة فهو معلوم بالاستقراء والتجارب قال تعالى واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا وقال تعالى واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون أي يغضبون لهم ويحاربون كما يغضب الجند ويحارب أصحابه وهم لا يستطيعون نصرهم بل هم كل عليهم وقال تعالى وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شئ لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب أي غير تخسير وقال تعالى فلا تدع مع الله الها آخر فتكون من المعذبين وقال لا تجعل مع الله الها آخر فتقعد مذموما مخذولا فان المشرك يرجو بشركه النصر تارة والحمد والثناء تارة فأخبر سبحانه ان مقصوده ينعكس عليه ويحصل له الخذلان والذم والمقصود أن هذين الوجهين في المخلوق ضدهما في الخالق فصلاح القلب وسعادته وفلاحه في عبادة الله تعالى والاستعانة به وهلاكه وشقاؤه وضرره العاجل والآجل في عبادة المخلوق والاستعانة به (الوجه الثامن) ان الله سبحانه غني كريم عزيز رحيم فهو محسن الى عبده مع غناه عنه يريد به الخير ويكشف عنه الضر لا لجلب منفعة اليه من العبد ولا لدفع مضرة بل رحمة منه واحسانا فهو سبحانه لم يخلق خلقه ليتكثر بهم من قلة ولا ليتعزز بهم من ذلة ولا ليرزقوه ولا لينفعوه ولا ليدفعوا عنه كما قال تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين وقال وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن

الخلق تعبد وإله باسمه الأول وإنما الشأن في التعبد له باسمه الآخر فهذه عبودية الرسل وأتباعهم فهو رب العالمين وإله المرسلين سبحانه وبحمده وأما عبوديته باسمه الظاهر فكما فسره النبي صلى الله عليه وسلم بقوله وأنت الظاهر فليس فوقك شئ وأنت الباطن فليس دونك شئ فاذا تحقق العبد علوه المطلق على كل شئ بذاته وأنه ليس فوقه شئ البتة وأنه قاهر فوق عباده يدبر الامر من السماء الى الارض ثم يعرج اليه اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه صار لقلبه أمما يقصده وربا يعبده والها يتوجه اليه بخلاف من لا يدري أين ربه فانه ضائع مشتت القلب ليس لقلبه قبلة يتوجه نحوها ولا معبود يتوجه اليه قصده وصاحب هذه الحال اذا سلك وتأله وتعبد طلب قلبه الها يسكن اليه ويتوجه اليه وقد اعتقد انه ليس فوق العرش شئ الا العدم وأنه ليس فوق العالم اله يعبد ويصلى له ويسجد وأنه ليس على العرش من يصعد اليه الكلم الطيب ولا يرفع اليه العمل الصالح جال قلبه في الوجود جميعه فوقع في الاتحاد ولابد وتعلق قلبه بالوجود المطلق السارى في المعينات فاتخذ الهه من دون اله الحق وظن أنه قد وصل الى عين الحقيقة وانما تأله وتعبد لمخلوق مثله ولخيال نحته بفكره واتخذه الها من دون الله سبحانه واله الرسل وراء ذلك كله ان ربكم الله الذي خلق السموات والارض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الامر ما من شفيع الا من بعد اذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون اليه مرجعكم جميعا وعد الله حقا انه يبدؤا الخلق ثم يعيده ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا

له

له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل فهو سبحانه لا يوالى من يواليه من الذل كما يوالى المخلوق المخلوق وانما يوالى أولياءه احسانا ورحمة ومحبة لهم وأما العباد فانهم كما قال تعالى (والله الغنى وأنتم الفقراء) فهم لفقرهم وحاجتهم انما يحسن بعضهم الى بعض لحاجته الى ذلك وانتفاعه به عاجلا أو آجلا ولولا تصور ذلك النفع لما أحسن اليه فهو فى الحقيقة انما أراد الاحسان الى نفسه وجعل احسانه الى غيره وسيلة وطريقا الى وصول نفع ذلك الاحسان اليه فانه اما أن يحسن اليه لتوقع جزائه فى العاجل فهو محتاج الى ذلك الجزاء أو معاوض باحسانه أو لتوقع حمده وشكره فهو أيضا انما أحسن اليه ليحصل منه ماهو محتاج اليه من الثناء والمدح فهو محسن الى نفسه باحسانه الى الغير واما أن يريد الجزاء من الله تعالى فى الآخرة فهو أيضا محسن الى نفسه بذلك وانما أخر جزاءه الى يوم فقره وفاقته فهو غير ملوم فى هذا القصد فانه فقير محتاج وفقره وحاجته أمر لازم له من لوازم ذاته فكماله أن يحرص على ما ينفعه ولا يعجز عنه وقال تعالى ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وقال وما تفعلوا من خير يوف اليكم وقال تعالى فيما رواه عنه رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ياعبادى انكم لن تبلغوا نفعى فتنفعونى ولن تبلغوا ضرى فتضرونى ياعبادى انما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم اياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ الا نفسه فالمخلوق لا يقصد منفعتك بالقصد الاول بل انما يقصد انتفاعه بك والرب تعالى انما يريد نفعك لا انتفاعه بك وذلك منفعة محضة لك خالصة من المضرة بخلاف ارادة المخلوق نفعك فانه قد يكون فيه مضرة عليك ولو بتحمل منته فتدبر هذا فان ملاحظته تمنعك أن ترجو المخلوق أو تعامله دون الله أو تطلب منه نفعا أو دفعا أو تعلق قلبك به فانه انما يريد انتفاعه بك لا محض نفعك وهذا حال الخلق كلهم بعضهم مع بعض وهو حال الولد مع والده والزوج مع زوجه والمملوك مع سيده والشريك مع شريكه فالسعيد من عاملهم لله تعالى لا لهم وأحسن اليهم لله تعالى وخاف الله تعالى فيهم ولم يخفهم مع الله تعالى ورجا الله تعالى بالاحسان اليهم ولم يرجهم مع الله وأحبهم لحب الله ولم يحبهم مع الله تعالى كما قال أولياء الله عز وجل انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا (الوجه التاسع) ان العبد لا يعلم مصلحتك حتى يعرفه الله تعالى اياها ولا يقدر على تحصيلها لك حتى يقدره الله تعالى عليها ولا يريد ذلك حتى يخلق الله فيه ارادة ومشيئة فعاد الامر كله لمن ابتدأ منه وهو الذى بيده الخير كله واليه يرجع الامر كله فتعلق القلب بغيره رجاء وخوفا وتوكلا وعبودية ضرر محض لا منفعة فيه وما يحصل بذلك من المنفعة فهو وحده الذى قدرها ويسرها وأوصلها اليك (الوجه العاشر) ان غالب الخلق انما يريدون قضاء حاجاتهم بك وان أضر ذلك بدينك ودنياك فهم انما غرضهم قضاء حوائجهم ولو بمضرتك والرب تبارك وتعالى انما يريدك لك ويريد الاحسان اليك لك لا لمنفعته ويريد دفع الضرر عنك فكيف تعلق أملك ورجاءك وخوفك بغيره وجماع هذا أن تعلم أن الخلق لو اجتمعوا كلهم على أن ينفعوك لم ينفعوك الا بشئ كتبه الله لك ولو اجتمعوا كلهم على أن يضروك لم يضروك الا بشئ كتبه الله تعالى عليك قال الله تعالى قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون

يكفرون وقال الله الذى خلق السموات والارض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون يدبر الامر من السماء الى الارض ثم يعرج اليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم الذى أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الانسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ثم سوّاه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والابصار والافئدة قليلا ما تشكرون فقد تعرف سبحانه الى عباده بكلامه معرفة لا يجحدها الا من أنكره سبحانه وان زعم أنه مقر به والمقصود أن التعبد باسمه الظاهر يجمع القلب على المعبود ويجعل له ربا يقصده وصمدا يصمد اليه فى حوائجه وملجأ يلجأ اليه فاذا استقر ذلك فى قلبه وعرف ربه باسمه الظاهر استقامت له عبوديته وصار له معقل وموئل يلجأ اليه ويهرب اليه ويفر كل وقت اليه وأما تعبده باسمه الباطن فأمر يضيق نطاق التعبير عن حقيقته ويكل اللسان عن وصفه وتصطلم الاشارة اليه وتجفو العبارة عنه فانه يستلزم معرفة بريئة من شوائب التعطيل مخلصة من فرث التشبيه منزهة عن رجس الحلول والاتحاد وعبارة مؤدّية للمعنى كاشفة عنه وذوقا صحيحا سليما من أذواق أهل الانحراف فمن رزق هذا فهم معنى اسمه الباطن وصح له التعبد به وسبحان الله كم زلت فى هذا المقام أقدام وضلت فيه افهام وتكلم فيه الزنديق بلسان الصديق واشتبه فيه اخوان النصارى بالحنفاء المخلصين لنبو الافهام عنه وعزة تخلص الحق من الباطل فيه والتباس ما فى الذهن بما فى الخارج الا على من رزقه الله بصيرة فى الحق ونورا يميز به بين الهدى والضلال وفرقانا يفرق به بين

(خاتمة) لهذا الباب لما كان الانسان بل وكل حي متحرك بالارادة لا ينفك عن علم وارادة وعمل بتلك الارادة وله مراد مطلوب وطريق وسبب يوصل اليه معين عليه وتارة يكون السبب منه وتارة من خارج منفصل عنه وتارة منه ومن الخارج فصار الحي مجبولا على أن يقصد شيأ ويريده ويستعين بشئ ويعتمد عليه في حصول مراده والمراد قسمان أحدهما ماهو مراد لنفسه والثاني ماهو مراد لغيره والمستعان قسمان أحدهما ماهو مستعان بنفسه والثاني ماهو تبع له فهذه أربعة أمور مراد لنفسه ومراد لغيره ومستعان بنفسه ومستعان بكونه آلة وتبعا للمستعان بنفسه فلابد للقلب من مطلوب يطمئن اليه وتنتهي اليه محبته ولابد له من شئ يتوصل به ويستعين به في حصول مطلوبه والمستعان مدعو ومسؤل والعبادة والاستعانة كثيرا ما يتلازمان فمن اعتمد القلب عليه في رزقه ونصره ونفعه خضع له وذل له وانقاد وأحبه من هذه الجهة وان لم يحبه لذاته لكن قد يغلب عليه حكم الحال حتى يحبه لذاته وينسى مقصوده منه وأما من أحبه القلب وأراده وقصده فقد لا يستعين به ويستعين بغيره عليه كمن أحب مالا أو منصبا أو امرأة فان علم أن محبوبه قادر على تحصيل غرضه استعان به فاجتمع له محبته والاستعانة به فالاقسام أربعة محبوب لنفسه وذاته مستعان بنفسه فهذا أعلى الاقسام وليس ذلك الا الله وحده وكل ما سواه فانما ينبغي أن يحب تبعا لمحبته ويستعان به لكونه آلة وسببا الثاني محبوب لغيره ومستعان به أيضا كالمحبوب الذي هو قادر على تحصيل غرض محبه الثالث محبوب مستعان عليه بغيره الرابع مستعان به غير محبوب في نفسه فاذا عرف ذلك تبين من أحق هذه الاقسام الاربعة بالعبودية والاستعانة وان محبة غيره واستعانته ان لم تكن وسيلة الى محبته واستعانته والا كانت مضرة على العبد ومفسدتها أعظم من مصلحتها والله المستعان وعليه التكلان

(الباب السابع في أن القرآن متضمن لادوية القلب وعلاجه من جميع أمراضه)

قال الله عز وجل (يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور) وقال تعالى (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) وقد تقدم أن جماع أمراض القلب هي أمراض الشبهات والشهوات والقرآن شفاء للنوعين ففيه من البينات والبراهين القطعية ما يبين الحق من الباطل فتزول أمراض الشبه المفسدة للعلم والتصور والادراك بحيث يرى الاشياء على ما هي عليه وليس تحت أديم السماء كتاب متضمن للبراهين والآيات على المطالب العالية من التوحيد واثبات الصفات واثبات المعاد والنبوات ورد النحل الباطلة والآراء الفاسدة مثل القرآن فانه كفيل بذلك كله متضمن له على أتم الوجوه وأحسنها وأقربها الى العقول وأفصحها بيانا فهو الشفاء على الحقيقة من أدواء الشبه والشكوك ولكن ذلك موقوف على فهمه ومعرفة المراد منه فمن رزقه الله تعالى ذلك أبصر الحق والباطل عيانا بقلبه كما يرى الليل والنهار وعلم أن ما عداه من كتب الناس وآرائهم ومعقولاتهم بين علوم لا ثقة بها وانما هي آراء وتقليد وبين ظنون كاذبة لا تغني من الحق شيأ وبين أمور صحيحة لا منفعة للقلب فيها وبين علوم صحيحة قد وعروا الطريق الى تحصيلها وأطالوا الكلام في اثباتها مع قلة نفعها فهي لحم

جمل

الحق والباطل ورزق مع ذلك اطلاعا على أسباب الخطأ وتفرق الطرق ومثار الغلط وكان له بصيرة في الحق والباطل وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم وباب هذه المعرفة والتعبد هو معرفة احاطة الرب سبحانه بالعالم وعظمته وان العوالم كلها في قبضته وان السموات السبع والارضين السبع في يده كخردلة في يد العبد قال تعالى واذ قلنا لك ان ربك أحاط بالناس وقال والله من ورائهم محيط ولهذا يقرن سبحانه بين هذين الاسمين الدالين على هذين المعنيين اسم العلو الدال على أنه الظاهر وانه لا شئ فوقه واسم العظمة الدال على الاحاطة وأنه لا شئ دونه كما قال تعالى وهو العلي العظيم وقال وهو العلي الكبير وقال ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ان الله واسع عليم وهو تبارك وتعالى كما انه العالي على خلقه بذاته فليس فوقه شئ فهو الباطن بذاته فليس دونه شئ بل ظهر على كل شئ فكان فوقه وبطن فكان أقرب الى كل شئ من نفسه وهو محيط به حيث لا يحيط الشئ بنفسه وكل شئ في قبضته وليس شئ في قبضة نفسه فهذا أقرب بالاحاطة العامة وأما القرب المذكور في القرآن والسنة فقرب خاص من عابديه وسائليه وداعيه وهو من ثمرة التعبد باسمه الباطن قال تعالى واذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداع اذا دعان فهذا قرب من داعيه وقال ان رحمة الله قريب من المحسنين فذكر الخبر وهو قريب عن لفظ الرحمة وهي مؤنثة ايذانا بقربه تعالى من المحسنين فكأنه قال ان الله برحمته قريب من المحسنين وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد وأقرب ما يكون الرب من عبده في جوف الليل فهذا قرب خاص

جل غث على رأس جبل وعر لا سهل فيرتقى ولا سمين فينتقل وأحسن ما عند المتكلمين وغيرهم فهو في القرآن أصح تقدير وأحسن تفسير فليس عندهم الا التكليف والتطويل والتعقيد كما قيل

لولا التنافس في الدنيا لما وضعت * كتب التناظر لا المغنى ولا العمد
يحللون بزعم منهم عقـــدا * وبالذى وضعوه زادت العقد

فهم يزعمون انهم يدفعون بالذى وضعوه الشبه والشكوك والفاضل الزكى يعلم أن الشبه والشكوك زادت بذلك ومن المحال أن لا يحصل الشفاء والهدى والعلم واليقين من كتاب الله تعالى وكلام رسوله ويحصل من كلام هؤلاء المتحيرين المتشككين الشاكين الذين أخبر الواقف على نهايات أقدامهم بما انتهى اليه من مرامهم حيث يقول

نهاية أقدام العقول عقال * وأكثر سعى العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا * وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا * سوى ان جمعنا فيه قيل وقال

لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفى عليلا ولا تروى غليلا ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن اقرأ في الاثبات الرحمن على العرش استوى اليه يصعد الكلم الطيب واقرأ في النفي ليس كمثله شئ ولا يحيطون به علما ومن جرب مثل تجربتى عرف مثل معرفتى فهذا انشاده وألفاظه في آخر كتبه وهو أفضل أهل زمانه على الاطلاق في علم الكلام والفلسفة وكلام أمثاله في مثل ذلك كثير جدا قد ذكرناه في كتاب الصواعق وغيره وذكرنا قول بعض العارفين بكلام هؤلاء آخر أمر المتكلمين الشك وآخر أمر المتصوفين الشطح والقرآن يوصلك الى نفس اليقين في هذه المطالب التى هى أعلى مطالب العباد وبذلك أنزله من تكلم به وجعله شفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين وأما شفاؤه لمرض الشهوات فذلك بما فيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب والتزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة والامثال والقصص التى فيها أنواع العبر والاستبصار فيرغب القلب السليم اذا أبصر ذلك فيما ينفعه في معاشه ومعاده ويرغب عما يضره فيصير القلب محبا للرشد مبغضا للغى فالقرآن مزيل للامراض الموجبة للارادات الفاسدة فيصلح القلب فتصلح ارادته ويعود الى فطرته التى فطر عليها فتصلح افعاله الاختيارية الكسبية كما يعود البدن بصحته وصلاحه الى الحال الطبيعى فيصير بحيث لا يقبل الا الحق كما أن الطفل لا يقبل الا اللبن

وعاد الفتى كالطفل ليس بقابل * سوى الحق شيأ واستراحت عواذله

فيغتذى القلب من الايمان والقرآن بما يزكيه ويقويه ويؤيده ويفرحه ويسره وينشطه ويثبت ملكه كما يغتذى البدن بما ينميه ويقويه وكل من القلب والبدن محتاج الى أن يتربى فينمو ويزيد حتى يكمل ويصلح فكما أن البدن محتاج الى أن يزكى بالاغذية المصلحة له والحمية عما يضره فلا ينمو الا باعطاء ما ينفعه ومنع ما يضره فكذلك القلب لا يزكو ولا ينمو ولا يتم صلاحه الا بذلك ولا سبيل له الى الوصول الى ذلك الا من القرآن وإن وصل الى شئ منه من غيره فهو نزر يسير لا يحصل تمام المقصود وكذلك

فبرقرب الاحاطة وقرب البطون وفي الصحيح من حديث أبي موسى انهم كانوا مع النبي في سفر فارتفعت أصواتهم بالتكبير فقال أيها الناس اربعوا على أنفسكم فانكم لا تدعون أصم ولا غائبا ان الذى تدعونه سميع قريب أقرب الى أحدكم من عنق راحلته فهذا قربه من داعيه وذاكره يعنى فأى حاجة بكم الى رفع الاصوات وهو لقربه يسمعها وان خفضتها كما يسمعها اذا رفعت فانه سميع قريب وهذا القرب هو من لوازم المحبة فكلما كان الحب أعظم كان القرب أكثر وقد استولى محبة المحبوب على قلب محبه بحيث يفنى بها عن غيرها ويغلب محبوبه على قلبه حتى كأنه يراه ويشاهده فان لم يكن عنده معرفة صحيحة بالله وما يجب له وما يستحيل عليه والا طرق باب الحلول ان لم يلجه وسببه ضعف تمييزه وقوة سلطان المحبة واستيلاء المحبوب على قلبه بحيث يغيب عن ملاحظة ما سواه وفي مثل هذه الحال يقول سبحانى أو ما في الجبة الا الله ونحو هذا من الشطحات التى نهايتها أن يغفر له ويعذر لسكره وعدم تمييزه في تلك الحال فالتعبد بهذا الاسم هو التعبد بخالص المحبة وصفو الوداد وأن يكون الاله أقرب اليه من كل شئ وأقرب اليه من نفسه مع كونه ظاهرا ليس فوقه شئ ومن كثف ذهنه وغلظ طبعه عن فهم هذا فليضرب عنه صفحا الى ما هو أولى به فقد قيل

اذا لم تستطع شيأ فدعه
وجاوزه الى ما تستطيع

فمن لم يكن له ذوق من قرب المحبة ومعرفة بقرب المحبوب من محبه غاية القرب وان كان بينهما غاية المسافة ولا سيما اذا كانت المحبة من الطرفين وهى محبة بريئة من العلل والشوائب والاعراض القادحة فيها فان المحب كثيرا ما يستولى محبوبه على قلبه وذكره

الزرع لا يتم الا بهذين الامرين فحينئذ يقال زكا الزرع وكمل ولما كانت حياته ونعيمه لا يتم الا بزكاته وطهارته لم يكن بد من ذكر هذا وهذا فنقول

﴿ الباب الثامن فى زكاة القلب ﴾

الزكاة فى اللغة هى النماء والزيادة فى الصلاح وكمال الشئ يقال زكى الشئ اذا نما وقال تعالى خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها فجمع بين الامرين الطهارة والزكاة لتلازمهما فان نجاسة الفواحش والمعاصى فى القلب بمنزلة الاخلاط الرديئة فى البدن وبمنزلة الدغل فى الزرع وبمنزلة الخبث فى الذهب والفضة والنحاس والحديد فكما ان البدن اذا استفرغ من الاخلاط الرديئة تخلصت القوة الطبيعية منها فاستراحت فعملت عملها بلا معوق ولا ممانع فنمى البدن فكذلك القلب اذا تخلص من الذنوب بالتوبة فقد استفرغ من تخليطه فتخلصت قوة القلب وارادته للخير فاستراح من تلك الجواذب الفاسدة والمواد الرديئة زكا ونما وقوى واشتد وجلس على سرير ملكه ونفذ حكمه فى رعيته فسمعت له وأطاعت فلا سبيل له الى زكاته الا بعد طهارته كما قال تعالى قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم ان الله خبير بما يصنعون فجعل الزكاة بعد غض البصر وحفظ الفرج ولهذا كان غض البصر عن المحارم يوجب ثلاث فوائد عظيمة الخطر جليلة القدر احداها حلاوة الايمان ولذته التى هى أحلى وأطيب والذ مما صرف بصره عنه وتركه لله تعالى فان من ترك شيأ لله عوضه الله عز وجل خيرا منه والنفس مولعة بحب النظر الى الصور الجميلة والعين رائد القلب فتبعث رائده لينظر ما هناك فاذا أخبره بحسن المنظور اليه وجماله تحرك اشتياقا اليه وكثيرا ما يتعب ويتعب رسوله ورائده كما قيل

وكنت متى أرسلت طرفك رائدا * لقلبك يوما أتعبتك المناظر
رأيت الذى لا كله أنت قادر * عليه ولا عن بعضه أنت صابر

فاذا كف الرائد عن الكشف والمطالعة استراح القلب من كلفة الطلب والارادة فمن أطلق لحظاته دامت حسراته فان النظر يولد المحبة فتبدأ علاقة يتعلق بها القلب بالمنظور اليه ثم تقوى فتصير صبابة ينصب اليه القلب بكليته ثم يقوى فيصير غراما يلزم القلب كلزوم الغريم الذى لا يفارق غريمه ثم يقوى فيصير عشقا وهو الحب المفرط ثم يقوى فيصير شغفا وهو الحب الذى قد وصل الى شغاف القلب وداخله ثم يقوى فيصير تتيما والتتيم التعبد ومنه تيمه الحب اذا عبده وتيم الله عبد الله فيصير القلب عبدا لمن لا يصلح أن يكون هو عبدا له وهذا كله جناية النظر فحينئذ يقع القلب فى الاسر فيصير أسيرا بعد ان كان ملكا ومسجونا بعد ان كان مطلقا يتظلم من الطرف ويشكوه والطرف يقول أنا رائدك ورسولك وأنت بعثتنى وهذا انما تبتلى به القلوب الفارغة من حب الله والاخلاص له فان القلب لا بد له من التعلق بمحبوب فمن لم يكن الله وحده محبوبه والهه ومعبوده فلا بد ان يتعبد قلبه لغيره قال تعالى عن يوسف الصديق عليه السلام كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين فامرأة العزيز لما كانت مشركة وقعت فيما وقعت فيه مع كونها ذات زوج ويوسف عليه السلام لما كان مخلصا لله تعالى نجا من ذلك مع كونه

بعين عن غيره ويرى قلبه وتفرد بنفسه فيشاهد محبوبه كالحاضر معه القريب اليه وبينهما من البعد ما بينهما وفى هذه الحال يكون فى قلبه وجوده العلمى وفى لسانه وجوده اللفظى فيستولى هذا الشهود عليه ويغيب به فيظن ان فى عينه وجوده الخارجى لغلبة حكم القلب والروح كما قيل

خيالك فى عينى وذكرك فى فمى
ومثواك فى قلبى فأين تغيب

هذا ويكون ذلك المحبوب بعينه بينه وبين عدوه وما بينهما من البعد وان قربت الابدان وتلاصقت الديار والمقصود ان المثال العلمى غير الحقيقة الخارجية وان كان مطابقا لها لكن المثال العلمى محله القلب والحقيقة الخارجية محلها الخارج فمعرفة هذه الاسماء الاربعة وهى الاول والآخر والظاهر والباطن هى أركان العلم والمعرفة فحقيق بالعبد ان يبلغ فى معرفتها الى حيث ينتهى به قواه وفهمه واعلم ان لك أنت أولا وآخرا وظاهرا وباطنا بل كل شئ فله أول وآخر وظاهر وباطن حتى الخطرة واللحظة والنفس وأدنى من ذلك وأكثره فأولية الله عز وجل سابقة على أولية كل ما سواه وآخريته ثابتة بعد آخرية كل ما سواه فأوليته سبقه لكل شئ وآخريته بقاؤه بعد كل شئ وظاهريته سبحانه فوقيته وعلوه على كل شئ ومعنى الظهور يقتضى العلو وظاهر الشئ هو ما علا منه وأحاط بباطنه وبطونه سبحانه احاطته بكل شئ بحيث يكون أقرب اليه من نفسه وهذا قرب غير قرب المحب من حبيبه هذا لون وهذا لون فمدار هذه الاسماء الاربعة على الاحاطة وهى احاطتان زمانية ومكانية فاحاطة أوليته وآخريته بالقبل والبعد فكل سابق انتهى الى أوليته وكل آخر انتهى الى آخريته فاحاطت أوليته وآخريته بالاوائل والاواخر

شابا عزبا غريبا مملوكا (الفائدة الثانية) فى غض البصر نور القلب وصحة الفراسة قال أبو شجاع الكرمانى من عمر ظاهره باتباع السنة وباطنه بدوام المراقبة وكف نفسه عن الشهوات وغض بصره عن المحارم واعتاد أكل الحلال لم تخط له فراسة وقد ذكر سبحانه قصة قوم لوط وما ابتلوا به ثم قال بعد ذلك ان فى ذلك لآيات للمتوسمين وهم المتفرسون الذين سلموا من النظر المحرم والفاحشة وقال تعالى عقيب أمره للمؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم الله نور السموات والارض وسر هذا أن الجزاء من جنس العمل فمن غض بصره عما حرمه الله عز وجل عليه عوضه الله تعالى من جنسه ما هو خير منه فكما أمسك نور بصره عن المحرمات أطلق الله نور بصيرته وقلبه فرأى به ما لم يره من أطلق بصره ولم يغضه عن محارم الله تعالى وهذا أمر يحسه الانسان من نفسه فان القلب كالمرآة والهوى كالصدأ فيها فاذا خلصت من الصدأ انطبعت فيها صور الحقائق كما هى عليه واذا صديت لم ينطبع فيها صور المعلومات فيكون علمه وكلامه من باب الخرص والظنون (الفائدة الثالثة) قوة القلب وثباته وشجاعته فيعطيه الله تعالى بقوته سلطان النصرة كما أعطاه بنوره سلطان الحجة فيجمع له بين السلطانين ويهرب الشيطان منه كما فى الأثر ان الذى يخالف هواه يفرق الشيطان من ظله ولهذا يوجد فى المتبع هواه من ذل النفس وضعفها ومهانتها ما جعله الله لمن عصاه فانه سبحانه جعل العز لمن أطاعه والذل لمن عصاه قال الله تعالى ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين وقال تعالى ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون ان كنتم مؤمنين وقال تعالى من كان يريد العزة فلله العزة جميعا أى من كان يطلب العزة فليطلبها بطاعة الله بالكلم الطيب والعمل الصالح وقال بعض السلف الناس يطلبون العز بأبواب الملوك ولا يجدونه الا فى طاعة الله وقال الحسن وان هملجت بهم البراذين وطقطقت بهم النعال ان ذل المعصية لفى قلوبهم أبى الله عز وجل الا أن يذل من عصاه وذلك أن من أطاع الله تعالى فقد والاه ولا يذل من والاه ربه كما فى دعاء القنوت انه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت والمقصود أن زكاة القلب موقوفة على طهارته كما أن زكاة البدن موقوفة على استفراغه من أخلاطه الردية الفاسدة قال تعالى ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكى من يشاء والله سميع عليم ذكر ذلك سبحانه عقيب تحريم الزنا والقذف ونكاح الزانية فدل على ان التزكى هو باجتناب ذلك وكذلك قوله تعالى فى الاستئذان على أهل البيوت وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم فانهم اذا أمروا بالرجوع لئلا يطلعوا على عورة لم يحب صاحب المنزل أن يطلع عليها كان ذلك أزكى لهم كما ان رد البصر وغضه أزكى لصاحبه وقال تعالى قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى وقال تعالى عن موسى عليه السلام فى خطابه لفرعون هل لك الى أن تزكى وقال تعالى فويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة قال أكثر المفسرين من السلف ومن بعدهم هى التوحيد شهادة أن لا إله إلا الله والايمان الذى به يزكو القلب فانه يتضمن نفى الهية ما سوى الحق من القلب وذلك طهارة واثبات الهيته سبحانه وهو أصل كل زكاة ونماء فان التزكى وان كان أصله النماء والزيادة والبركة فانما يحصل بازالة الشر فلهذا صار التزكى ينتظم الامرين جميعا فأصل ما يزكوا به

واحاطة ظاهريته وباطنيته بكل ظاهر وباطن فما من ظاهر الا والله فوقه وما من باطن الا والله دونه وما من أول الا والله قبله وما من آخر الا والله بعده فالاول قدمه والآخر دوامه وبقاؤه والظاهر علوه وعظمته والباطن قربه ودنوه فسبق كل شئ بأوليته وبقى بعد كل شئ بآخريته وعلا على كل شئ بظهوره ودنا من كل شئ ببطونه فلا توارى منه سماء سماء ولا أرض أرضا ولا يحجب عنه ظاهر باطنا بل الباطن له ظاهر والغيب عنده شهادة والبعيد منه قريب والسر عنده علانية فهذه الاسماء الاربعة تشتمل على أركان التوحيد فهو الاول فى آخريته والآخر فى أوليته والظاهر فى بطونه والباطن فى ظهوره لم يزل أولا وآخرا وظاهرا وباطنا والتعبد بهذه الاسماء رتبتان الرتبة الاولى أن تشهد الاولية منه تعالى فى كل شئ والآخرية بعد كل شئ والعلو والفوقية فوق كل شئ والقرب والدنو دون كل شئ فالمخلوق يحجبه مثله عما هو دونه فيصير الحاجب بينه وبين المحجوب والرب جل جلاله ليس دونه شئ أقرب الى الخلق منه والمرتبة الثانية من التعبد أن يعامل كل اسم بمقتضاه فيعامل سبقه تعالى بأوليته لكل شئ وسبقه بفضله واحسانه الاسباب كلها بما يقتضيه ذلك من افراده وعدم الالتفات الى غيره والوثوق بسواه والتوكل على غيره فمن ذا الذى شفع لك فى الازل حيث لم تكن شيئا مذكورا حتى سماك باسم الاسلام ووسمك بسمة الايمان وجعلك من أهل قبضة اليمين وأقطعك فى ذلك الغيب عمالات المؤمنين فعصمك عن العبادة للعبيد وأعتقك من التزام الرق لمن له شكل ونديد ثم وجه وجهة قلبك اليه سبحانه دون ما سواه فاضرع الى الذى عصمك من السجود للصنم وقضى لك بقدم الصدق فى القدم أن

القلوب والارواح هو التوحيد والتزكية جعل الشئ زكيا اما في ذاته وإما في الاعتقاد والخبر عنه كما يقال عدلته وفسقته اذا جعلته كذلك في الخارج أو في الاعتقاد والخبر وعلى هذا فقوله تعالى فلا تزكوا أنفسكم هو على غير معنى قد أفلح من زكاها أى لا تخبروا بزكاتها وتقولوا نحن زاكون صالحون متقون ولهذا قال عقيب ذلك هو أعلم بمن اتقى وكان اسم زينب برة فقال تزكى نفسها فسماها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم زينب وقال الله أعلم باهل البر منكم وكذلك قوله ألم تر الى الذين يزكون أنفسهم أى يعتقدون زكاءها ويخبرون به كما يزكى المزكى الشاهد فيقول عن نفسه ما يقول المزكى فيه ثم قال الله تعالى بل الله يزكى من يشاء أى هو الذى يجعله زاكيا ويخبر بزكاته وهذا بخلاف قوله قد أفلح من زكاها فانه من باب قوله هل لك الى أن تزكى أى تعمل بطاعة الله تعالى فتصير زاكيا ومثل قوله قد أفلح من تزكى وقد اختلف في الضمير المرفوع في قوله زكاها فقيل هو لله أى أفلحت نفس من زكاها الله عز وجل وخابت نفس دساها وقيل ان الضمير يعود على فاعل أفلح وهو من سواء كانت موصولة أو موصوفة فان الضمير لو عاد على الله سبحانه لقال قد أفلح من زكاه وقد خاب من دساه والاولون يقولون من وان كان لفظها مذكرا فاذا وقعت على مؤنث جاز اعادة الضمير عليها بلفظ المؤنث مراعاة للمعنى وبلفظ المذكر مراعاة للفظ وكلاهما من الكلام الفصيح وقد وقع في القرآن اعتبار لفظها ومعناها فالاول كقوله ومنهم من يستمع اليك فأفرد الضمير والثانى كقوله ومنهم من يستمعون اليك قال المرجحون للقول الاول يدل على صحة قولنا ما رواه أهل السنن من حديث ابن أبى مليكة عن عائشة رضى الله عنها قالت أتيت ليلة فوجدت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول رب أعط نفسى تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها - فهذا الدعاء كالتفسير لهذه الآية وان الله تعالى هو الذى يزكى النفوس فتصير زاكية فالله هو المزكى والعبد هو المتزكى والفرق بينهما فرق ما بين الفاعل والمطاوع قالوا والذى جاء في القرآن من اضافة الزكاة الى العبد انما هو بالمعنى الثانى دون الاول كقوله قد أفلح من تزكى وقوله هل لك الى أن تزكى أى تقبل تزكية الله تعالى لك فتزكى قالوا وهذا هو الحق فانه لا يفلح الا من زكاه الله تعالى قالوا وهذا اختيار ترجمان القرآن ابن عباس فانه قال في رواية على بن أبى طلحة وعطاء والكلبى قد أفلح من زكى الله تعالى نفسه وقال ابن زيد قد أفلح من زكى الله نفسه واختاره ابن جرير قالوا ويشهد لهذا القول أيضا قوله في أول السورة فألهمها فجورها وتقواها قالوا أيضا فانه سبحانه وتعالى أخبر أنه خالق النفس وصفاتها وذلك هو معنى التسوية قال أصحاب القول الآخر ظاهر الكلام ونظمه الصحيح يقتضى أن يعود الضمير على من أى أفلح من زكى نفسه هذا هو المفهوم المتبادر الى الفهم بل لا يكاد يفهم غيره كما اذا قلت هذه جارية قد ربح من اشتراها وصلاة قد سعد من صلاها وضالة قد خاب من أواها ونظائر ذلك قالوا والنفس مؤنثة فلو عاد الضمير على الله سبحانه لكان وجه الكلام قد أفلحت نفس من زكاها أو أفلحت من زكاها لوقوع من على النفس قالوا وان جاز تفريغ الفعل من الهاء لاجل لفظ من كما تقول أفلح من قامت منكن فذاك حيث لا يقع اشتباه والتباس فاذا وقع

ثم عليك بنعمته وان كانت أوليتها منه لا بسبب منك واسم بهمتك عن ملاحظة الاغيار ولا تركن الى الرسوم والا... ولا تقنع بالخسيس الدون وعليك بالمطالب العالية والمراتب السامية التى لا تنال الا بطاعة الله فان الله سبحانه قضى أن لا ينال ما عنده الا بطاعته ومن كان لله كما يريد كان الله له فوق ما يريد فمن أقبل اليه تلقاه من بعيد ومن تصرف بحوله وقوته ألان له الحديد ومن ترك لاجله أعطاه فوق المزيد ومن أراد مراده الدينى أراد ما يريد ثم اسم بسرك الى المطلب الاعلى واقصر حبك وتقربك على من سبق فضله واحسانه اليك كل سبب منك بل هو الذى جاد عليك بالاسباب وهيأ لك وصرف عنك موانعها وأوصلك بها الى غايتك المحمودة فتوكل عليه وحده وعامله وحده وآثر رضاه وحده واجعل حبه ومرضاته هو كعبة قلبك التى لا تزال طائفا بها مستلما لاركانها واقفا بملتزمها فيا فوزك ويا سعادتك ان اطلع سبحانه على ذلك من قلبك ماذا يفيض عليك من ملابس نعمه وخلع افضاله اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد سبحانك وبحمدك ثم تعبد له باسمه الآخر بان تجعله وحده غايتك التى لا غاية لك سواه ولا مطلوب لك وراءه فكما انتهت اليه الاواخر وكان بعد كل آخر فكذلك اجعل نهايتك اليه فان الى ربك المنتهى اليه انتهت الاسباب والغايات فليس وراءه مرمى ينتهى اليه وقد تقدم التنبيه على ذلك وعلى التعبد باسمه الظاهر وأما التعبد باسمه الباطن فاذا شهدت احاطته بالعوالم وقرب العبيد منه وظهور البواطن له وبدو السرائر وانه لا شئ بينه وبينها فعامله بمقتضى هذا الشهود وطهر له سريرتك فانها عنده علانية وأصلح

الاشتباه

الاشتباه لم يكن بد من ذكر ما يزيله قالوا ومن موصولة بمعنى الذى ولو قيل قد أفلح الذى زكاها الله لم يكن جائزا لعود الضمير المؤنث على الذى وهو مذكر قالوا وهو سبحانه قصد نسبة الفلاح الى صاحب النفس اذا زكى نفسه ولهذا فرغ الفعل من الهاء وأتى بمن التى هى بمعنى الذى وهذا الذى عليه جمهور المفسرين حتى أصحاب ابن عباس رضى الله عنه وقال قتادة قد أفلح من زكاها من عمل خيرا زكاها بطاعة الله عز وجل وقال أيضا قد أفلح من زكى نفسه بعمل صالح وقال الحسن قد أفلح من زكى نفسه فأصلحها وحملها على طاعة الله تعالى وقد خاب من أهلكها وحملها على معصية الله تعالى قال ابن قتيبة يريد أفلح من زكى نفسه أى أنماها وأعلاها بالطاعة والبر والصدقة واصطناع المعروف وقد خاب من دساها أى نقصها وأخفاها بترك عمل البر وركوب المعاصى والفاجر أبدا خفى المكان زمن المروءة غامض الشخص ناكس الرأس فرتكب الفواحش قد دس نفسه وقمعها ومصطنع المعروف شهر نفسه ورفعها وكانت أجواد العرب تنزل الربى وبقاع الارض لتشهر أماكنها للمعتفين وتوقد النيران فى الليل للطارقين وكانت اللئام تنزل الاولاج والاطراف والاهضام لتخفى أماكنها على الطالبين فأولئك أعلوا أنفسهم وزكوها وهؤلاء أخفوا أنفسهم ودسوها وأنشد

وبوأت بيتك فى معلم * رحيب المباءة والمسرح
كفيت العفاة طلاب القرى * ونبح الكلاب لمستنبح

فهذان قولان مشهوران فى الآية وفيها قول ثالث أن المعنى خاب من دس نفسه مع الصالحين وليس منهم حكاه الواحدى قال ومعنى هذا انه أخفى نفسه فى الصالحين يرى الناس أنه منهم وهو منطو على غير ما ينطوى عليه الصالحون وهذا وان كان حقا فى نفسه لكن فى كونه هو المراد بالآية نظر وانما يدخل فى الآية بطريق العموم فان الذى يدس نفسه بالفجور اذا خالط أهل الخير دس نفسه فيهم والله تعالى أعلم

﴿ الباب التاسع فى طهارة القلب من ادرانه ونجاساته ﴾

هذا الباب وان كان داخلا فيما قبله كما بينا ان الزكاة لا تحصل الا بالطهارة فأفردناه بالذكر لبيان معنى طهارته وشدة الحاجة اليها ودلالة القرآن والسنة عليها قال الله تعالى سبحانه (يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر) وقال تعالى أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم وجمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم على أن المراد بالثياب ههنا القلب والمراد بالطهارة اصلاح الاخلاق والاعمال قال الواحدى اختلف المفسرون فى معناه فروى عطاء عن ابن عباس رضى الله عنه قال يعنى من الاثم ومما كانت الجاهلية تجيزه وهذا قول قتادة ومجاهد قالا نفسك فطهر من الذنب ونحوه قول الشعبى وابراهيم والضحاك والزهرى وعلى هذا القول الثياب عبارة عن النفس والعرب تكنى بالثياب عن النفس ومنه قول الشماخ

رموها بأثواب خفاف فلا ترى * لها شبها الا النعام المنفرا

رموها يعنى الركاب بأبدانهم وقال عنترة

له غيبك فانه عنده شهادة وزك له باطنك فانه عنده ظاهر فانظر كيف كانت هذه الاسماء الاربعة جماع المعرفة بالله وجماع العبودية له فهنا وقفت شهادة العبد مع فضل خالقه ومنته فلا يرى لغيره شيأ الا به وبحوله وقوته وغاب بفضل مولاه الحق عن جميع ما منه هو مما كان يستند اليه أو يتحلى به أو يتخذه عقده أو يراه ليوم فاقته أو يعتمد عليه فى مهم من مهماته فكل ذلك من قصور نظره وانعكاسه عن الحقائق والاصول الى الاسباب والفروع كما هو شأن الطبيعة والهوى وموجب الظلم والجهل والانسان ظلوم جهول فمن جلى الله سبحانه صدأ بصيرته وكمل فطرته وأوقفه على مبادى الامور وغاياتها ومناطها ومصادرها ومواردها أصبح كالمفلس حقا من علومه وأعماله وأحواله وأذواقه يقول أستغفر الله من علمى ومن عملى أى من انتسابى اليهما وغيبتى بهما عن فضل من ذكرنى بهما وابتدأنى باعطائهما من غير تقدم سبب منى يوجب ذلك فهو لا يشهد غير فضل مولاه وسبق منته ودوامه فيثيبه مولاه على هذه الشهادة العالية بحقيقة الفقر الاوسط بين الفقر الادنى والاعلى ثوابين أحدهما الخلاص من رؤية الاعمال حيث كان يراها ويتمدح بها ويستكثرها فيستغرق بمطالعة الفضل غائبا عنها ذاهبا عنها فانيا عن رؤيتها الثواب الثانى أن يقطعه عن شهود الاحوال أى عن شهود نفسه فيها متكثرة بها فان الحال محله الصدر والصدر بيت القلب والنفس فاذا نزل العطاء فى الصدر للقلب ثبتت النفس لتأخذ نصيبها من العطاء فتتمدح به وتدل به وتزهو وتستطيل وتقرر انيتها لانها جاهلة ظالمة وهذا مقتضى الجهل والظلم فاذا وصل الى القلب نور صفة المنة وشهد معنى اسمه المنان وتجلى سبحانه على قلب عبده بهذا الاسم

مع انه به الاول ذهل القلب والنفس به وصار العبد فقيرا الى مولاه بمطالعة سبق فضله الاول فصار مقطوعا عن شهود أمر أو حال

فشككت بالرمح الاصم ثيابه * ليس الكريم على القنا بمحرم

يعنى نفسه وقال فى رواية الكلبى يعنى لاتغدر فتكون غادرا دنس الثياب وقال سعيد بن جبير كان الرجل اذا كان غادرا قيل دنس الثياب وخبيث الثياب وقال عكرمة لا تلبس ثوبك على معصية ولا على فجر وروى ذلك عن ابن عباس واحتج بقول الشاعر

وانى بحمد الله لاثوب غادر * لبست ولا من خزية أتقنع

وهو رواية منصور عن مجاهد وأبى روق وقال السدى يقال للرجل اذا كان صالحا انه لطاهر الثياب واذا كان فاجرا انه لخبيث الثياب قال الشاعر

لاهم ان عامر بن جهم * أورم حجا فى ثياب دسم

يعنى انه متدنس بالخطايا وكما وصفوا الغادر الفاجر بدنس الثوب وصفوا الصالح بطهارة الثوب قال امرؤ القيس * ثياب بنى عوف طهارى نقية * تريد أنهم لايغدرون بل يفون وقال الحسن خلقك فحسنه وهذا قول القرظى وعلى هذا الثياب عبارة عن الخلق لان خلق الانسان يشتمل على أحواله اشتمال ثيابه على نفسه وروى العوفى عن ابن عباس فى هذه الآية لاتكن ثيابك التى تلبس من مكسب غير طائل والمعنى طهرها من أن تكون مغصوبة أومن وجه لايحل اتخاذها منه وروى عن سعيد بن جبير وقلبك ونيتك فطهر قال أبو العباس الثياب اللباس ويقال القلب وعلى هذا ينشد

فسلى ثيابك من ثيابك تغسلى * وذهب بعضهم فى تفسير هذه الآية الى ظاهرها وقال انه أمر بتطهير ثيابه من النجاسات التى لايجوز معها الصلاة وهو قول ابن سيرين وابن زيد وذكر أبو اسحق وثيابك فقصر قال لان تقصير الثوب أبعد من النجاسة فانه اذا انجر على الارض لم يؤمن أن يصيبه ماينجسه وهذا قول طاوس وقال ابن عرفة معناه نساءك طهرهن وقد يكنى عن النساء بالثياب واللباس قال تعالى أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم هن لباس لكم ويكنى عنهن بالازار ومنه قول الشاعر

ألا أبلغ أباحفص رسولا * فدًى لك من أخى ثقة ازارى

أى أهلى ومنه قول البراء بن معرور للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم ليلة العقبة لنمنعنك مما نمنع منه أُزُرَنا أى نساءنا قلت الآية تعم هذا كله وتدل عليه بطريق التنبيه واللزوم ان لم تتناول ذلك لفظا فان المأمور به ان كان طهارة القلب فطهارة الثوب وطيب مكسبه تكميل لذلك فان خبث الملبس يكسب القلب هيئة خبيثة كما أن خبث المطعم يكسبه ذلك ولذلك حرم لبس جلود النمور والسباع بنهى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عن ذلك فى عدة أحاديث صحاح لامعارض لها لما تكسب القلب من الهيئة المشابهة لتلك الحيوانات فان الملابسة الظاهرة تسرى الى الباطن ولذلك حرم لبس الحرير والذهب على الذكور لما يكتسب القلب من الهيئة التى تكون لمن ذلك لبسه من النساء وأهل الفجور والخيلاء والمقصود أن طهارة الثوب وكونه من مكسب طيب هو من تمام طهارة القلب وكمالها فان كان المأمور به ذلك فهو وسيلة مقصودة لغيرها فالمقصود لنفسه

ينسبه الى نفسه بحيث يكون بشهادته لحاله مفصوما مقطوعا عن رؤية عزة مولاه وفاطره وملاحظة صغاره فصاحب شهود الاحوال منقطع عن رؤية منة خالقه وفضله ومشاهدة سبق الاولية للاسباب كلها وغائب بمشاهدة عزة نفسه عن عزة مولاه فينعكس هذا الامر فى حق هذا العبد الفقير ويشغله رؤية عزة مولاه ومنته ومشاهدة سبقه بالاولية عن حال يعتز بها العبد أو يشرف بها وكذلك الرجوع الى السبق بمطالعة الفضل يمحص من أدناس مطالعات المقامات فالمقام ما كان راسخا فيه والحال ما كان عارضا لايدوم فمطالعات المقامة وتشوفه بها وكونه يرى نفسه صاحب مقام قد حققه وكمله فاستحق أن ينسب اليه ويوصف به مثل أن يقال زاهد صابر خائف راج محب راض فكونه يرى نفسه مستحقا بان تضاف المقامات اليه وبان يوصف بها على وجه الاستحقاق لها خروج عن الفقر الى الغنى وتعد لطور العبودية وجهل بحق الربوبية فالرجوع الى السبق بمطالعة الفضل يستغرق همة العبد ويمحصه ويطهره من مثل هذه الادناس فيصير مصفى بنور الله سبحانه عن رذائل هذه الارجاس قوله والدرجة الثالثة صحة الاضطرار والوقوع فى يد التقطع الوحدانى والاحتباس فى قيد التجريد وهذا فقر الصوفية هذه الدرجة فوق الدرجتين السابقتين عند أرباب السلوك وهى الغاية التى شمروا اليها وحاموا حولها فان الفقر الاول

ثيابك تغسلى

فقر عن الاعراض الدنياوية والفقر الثانى فقر عن رؤية المقامات والاحوال وهذا الفقر الثالث فقر عن ملاحظة

أولى أن يكون مأموراً به وان كان المأمور به طهارة القلب وتزكية النفس فلا يتم الا بذلك فيتبين دلالة القرآن على هذا وهذا وقوله أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم عقيب قوله سماعون للكذب الى قوله يحرفون الكلم عن مواضعه مما يدل على أن العبد اذا اعتاد سماع الباطل وقبوله أكسبه ذلك تحريفاً للحق عن مواضعه فانه اذا قبل الباطل أحبه ورضيه فاذا جاء الحق بخلافه رده وكذبه ان قدر على ذلك والا حرفه كما تصنع الجهمية بآيات الصفات وأحاديثها يردون هذه بالتأويل الذى هو تكذيب بحقائقها وهذه بكونها أخبار آحاد لا يجوز الاعتماد عليها فى باب معرفة الله تعالى وأسمائه وصفاته فهؤلاء واخوانهم من الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم فانها لو طهرت لما تعرضت بالباطل عن كلام الله تعالى ورسوله كما أن المنحرفين من أهل الارادة لما لم تطهر قلوبهم تعرضوا بالسماع الشيطانى عن السماع القرآنى الايمانى قال عثمان بن عفان رضى الله عنه لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله فالقلب الطاهر بكمال حياته ونوره وتخلصه من الادران والخبائث لا يشبع من القرآن ولا يتغذى الا بحقائقه ولا يتداوى الا بأدويته بخلاف القلب الذى لم يطهره الله تعالى فانه يتغذى من الاغذية التى تناسبه بحسب ما فيه من النجاسة فان القلب النجس كالبدن العليل المريض لا تلايمه الاغذية التى تلايم الصحيح ودلت الآية على أن طهارة القلب موقوفة على ارادة الله تعالى والله سبحانه لما لم يرد أن يطهر قلوب القائلين بالباطل المحرفين للحق لم يحصل لها الطهارة ولا يصح أن تفسر الارادة ههنا بالارادة الدينية وهى الامر والمحبة فانه سبحانه قد أراد ذلك لهم أمراً ومحبة ولم يرده منهم كوناً فأراد الطهارة لهم ولم يرد وقوعها منهم لما له فى ذلك من الحكمة التى فواتها أكره اليه من فوات الطهارة منهم وقد أشبعنا الكلام فى ذلك فى كتابنا الكبير فى القدر ودلت الآية على أن من لم يطهر الله قلبه فلا بد أن يناله الخزى فى الدنيا والعذاب فى الآخرة بحسب نجاسة قلبه وخبثه ولهذا حرم الله سبحانه الجنة على من فى قلبه نجاسة وخبث ولا يدخلها الا بعد طيبه وطهارته فانها دار الطيبين ولهذا يقال لهم طبتم فادخلوها خالدين أى ادخلوها بسبب طيبكم والبشارة عند الموت لهؤلاء دون غيرهم كما قال تعالى الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون فالجنة لا يدخلها خبيث ولا من فيه شئ من الخبث فمن تطهر فى الدنيا ولقى الله طاهراً من نجاساته دخلها بغير معوق ومن لم يتطهر فى الدنيا فان كانت نجاسته عينية كالكافر لم يدخلها بحال وان كانت نجاسته كسبية عارضة دخلها بعد ما يتطهر من تلك النجاسة ثم يخرج منها حتى ان أهل الايمان اذا جازوا الصراط حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار فيهذبون وينقون من بقايا بقيت عليهم قصرت بهم عن الجنة ولم توجب لهم دخول النار حتى اذا هذبوا ونقوا أذن لهم فى دخول الجنة والله سبحانه بحكمته جعل الدخول عليه موقوفاً على الطهارة فلا يدخل المصلى عليه حتى يتطهر وكذلك جعل الدخول الى جنته موقوفاً على الطيب والطهارة فلا يدخلها الا طيب طاهر فهما طهارتان طهارة البدن وطهارة القلب ولهذا شرع للمتوضئ أن يقول عقيب وضوئه أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله اللهم اجعلنى من التوابين

الموجود الساتر للعبد عن مشاهدة الوجود فيبقى الوجود الحادث فى قبضة الحق سبحانه كالهباء المنثور فى الهواء يتقلب بتقليبه اياه ويسير فى شاهد العبد كما هو فى الخارج فتمحو رؤية التوحيد عن العبد شواهد استبداده واستقلاله بأمر من الامور ولو فى النفس واللمحة والطرفة والهمة والخاطر والوسوسة الا بارادة المريد الحق سبحانه وتدبيره وتقديره ومشيئته فيبقى العبد كالكرة الملقاة بين صولجانات القضاء والقدر يقلبها كيف شاءت بصحة شهادة وميسة من له الخلق والامر وتفرده بذلك دون ما سواه وهذا الامر لا يدرك بمجرد العلم ولا يعرفه الا من تحقق با أو لاح له منه بارق وربما ذهل صاحب هذا المشهد عن الشعو بوجوده لغلبة شهود وجو القيوم عليه فهنالك يصح من مثل هذا العبد الاضطرار الى الحى القيوم وشهد فى كل ذرة من ذرا الظاهرة والباطنة فقراً تاماً الي من جهة كونه رباً ومن جهة كونه الهاً معبوداً لا غنى له عنه ك لا وجود له بغيره فهذا هو الفقر الاعلى الذى دارت عليه رحى القوم بل هو قطب تلك الرحى وانما يصح له هذا بمعرفتين لا بد منهما معرفة حقيقة الربوبية والالهية ومعرفة حقيقة النفس والعبودية فهنالك تتم له معرفة هذا الفقر فان أعطى هاتين المعرفتين حقهما من العبودية اتصف بهذا الفقر حالاً فما أغناه حينئذ من فقير وما أعزه من ذليل وما أقواه من ضعيف وما آنسه من وحيد فهو الغنى بلا مال القوى بلا سلطان العزيز بلا عشيرة المكفى بلا عتاد قد قرت عينه بالله فقرت به كل عين واستغنى بالله فافتقر اليه الاغنياء والملوك ولا يتم له ذلك الا بالبراءة من فرث الجبر ودمه فانه ان طرق باب الجبر انحل عنه نظام العبودية وخلع ربقة الاسلام

واجعلنى من المتطهرين فطهارة القلب بالتوبة وطهارة البدن بالماء فلما اجتمع له الطهور ان صلح للدخول على الله تعالى والوقوف بين يديه ومناجاته وسألت شيخ الاسلام عن معنى دعاء النبى صلى الله عليه وسلم اللهم طهرنى من خطاياى بالماء والثلج والبرد كيف تطهر الخطايا بذلك وما فائدة التخصيص بذلك وقوله فى لفظ آخر والماء البارد والحار أبلغ فى الانقاء فقال الخطايا توجب للقلب حرارة ونجاسة وضعفا فيرتخى القلب وتضرم فيه نار الشهوة وتنجسه فان الخطايا والذنوب له بمنزلة الحطب الذى يمد النار ويوقدها ولهذا كلما كثرت الخطايا اشتدت نار القلب وضعفه والماء يغسل الخبث ويطفى النار فان كان باردا أورث الجسم صلابة وقوة فان كان معه ثلج وبرد كان أقوى فى التبريد وصلابة الجسم وشدته فكان أذهب لاثر الخطايا هذا معنى كلامه وهو محتاج الى مزيد بيان وشرح فاعلم أن ههنا أربعة أمور أمران حسيان وأمران معنويان فالنجاسة التى تزول بالماء هى ومزيلها حسيان وأثر الخطايا التى تزول بالتوبة والاستغفار هى ومزيلها معنويان وصلاح القلب وحياته ونعيمه لا يتم الا بهذا وهذا فذكر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم من كل شطر قسما نبه به على القسم الآخر فتضمنت كلماته الاقسام الاربعة فى غاية الاختصار وحسن البيان كما فى حديث بعد الوضوء اللهم اجعلنى من التوابين واجعلنى من المتطهرين فانه يتضمن ذكر الاقسام الاربعة ومن كمال بيانه صلى الله تعالى عليه وسلم وتحقيقه لما يخبر به ويأمر به تمثيل الامر المطلوب المعنوى بالامر المحسوس وهذا كثير فى كلامه كقوله فى حديث على بن أبى طالب سل الله الهدى والسداد وافكر بالهدى هدايتك الطريق وبالسداد سداد السهم وهذا من أبلغ التعليم والنصح حيث أمره أن يذكر اذا سأل الله الهدى الى طريق رضاه وجنته كونه مسافرا وقد ضل عن الطريق ولا يدرى أين يتوجه فطلع له رجل خبير بالطريق عالم بها فسأله أن يدله على الطريق فهكذا شأن طريق الآخرة تمثيلا لها بالطريق المحسوس للمسافر وحاجة المسافر الى الله سبحانه الى أن يهديه تلك الطريق أعظم من حاجة المسافر الى بلد الى من يدله على الطريق الموصل اليها وكذلك السداد وهو اصابة القصد قولا وعملا فمثله مثل رامى السهم اذا وقع سهمه فى نفس الشئ الذى رماه فقد سدد سهمه وأصاب ولم يقع باطلا فهكذا المصيب للحق فى قوله وعمله بمنزلة المصيب فى رميه وكثيرا ما يقرن فى القرآن هذا وهذا فمنه قوله تعالى وتزودوا فان خير الزاد التقوى أمر الحاج بأن يتزودوا لسفرهم ولا يسافروا بغير زاد ثم نبههم على زاد سفر الآخرة وهو التقوى فكما انه لا يصل المسافر الى مقصده الا بزاد يبلغه اياه فكذلك المسافر الى الله تعالى والدار الآخرة لا يصل الا بزاد من التقوى فجمع بين الزادين ومنه قوله تعالى يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير فجمع بين الزينتين زينة البدن باللباس وزينة القلب بالتقوى زينة الظاهر والباطن وكمال الظاهر والباطن ومنه قوله تعالى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى فنفى عنه الضلال الذى هو عذاب القلب والروح والشقاء الذى هو عذاب البدن والروح أيضا فهو منعم القلب والبدن بالهدى والفلاح ومنه قول امرأة العزيز عن يوسف عليه السلام لما أرته النسوة اللائمات لها فى حبه فذلكن

يرى ... وشهد أفعاله كلها طاعات للحكم القدرى الكونى وأنشد أصبحت منفعلا لما يختاره * منى ففعلى كله طاعات

وأذا قيل له اتق الله ولا تعصه يقول ان كنت عاصيا الامر فأنا مطيع لحكمه وارادته فهذا منسلخ من الشرائع برىء من دعوة الرسل شقيق لعدو الله ابليس بل وظيفة الفقير فى هذا الموضع وفى هذه الضرورة مشاهدة الامر والشرع ورؤية قيامه بالافعال وصدورها منه كسبا واختيارا وتعلق الامر والنهى بها طلبا وتركا وترتب الذم والمدح عليها شرعا وعقلا وتعلق الثواب والعقاب بها آجلا وعاجلا فاذا اجتمع له هذا الشهود الصحيح الى شهود الاضطرار فى حركاته وسكناته والفاقة التامة الى مقلب القلوب ومن بيده أزمة الاختيار ومن اذا شاء شيأ وجب وجوده واذا لم يشأ امتنع وجوده وانه لا هادى لمن أضله ولا مضل لمن هداه وانه هو الذى يحرك القلوب بالارادات والجوارح بالاعمال وانها مدبرة تحت تسخيره مذللة تحت قهره وانها أعجز وأضعف أن تتحرك بدون مشيئة نافذة فيها كما هى نافذة فى حركات الافلاك والمياه والاشجار وانه حرك كلا منها بسبب اقتضى تحريكه وهو خالق السبب المقتضى وخالق السبب خالق للمسبب فخالق الارادة الجازمة التى هى سبب الحركة والفعل الاختيارى خالق لهما وحدوث الارادة بلا خالق محدث محال وحدوثها بالعبد بلا ارادة منه محال وان كان بارادة فارادته للارادة كذلك ويستحيل بها التسلسل فلابد من فاعل أوجد تلك الارادة التى هى سبب الفعل وهنا يتحقق الفقر والفاقة والضرورة التامة الى ملك الارادات ورب القلوب ومصرفها كيف شاء فما شاء أن يزيغه منها أزاغه وما شاء أن يقيمه

الذى

الذى لمتنى فيه فارتهن جماله الظاهر ثم قالت ولقد راودته عن نفسه فاستعصم فأخبرت عن جماله الباطن بعفته فأخبرتهن بجمال باطنه وأرتهن جمال ظاهره فنبه صلى الله تعالى عليه وسلم بقوله اللهم طهرنى من خطاياى بالماء والثلج والبرد على شدة حاجة البدن والقلب الى ما يطهرهما و يبردهما و يقويهما وتضمن دعاءه سؤال هذا وهذا والله تعالى أعلم وقريب من هذا انه صلى الله تعالى عليه وسلم كان اذا خرج من الخلاء قال غفرانك وفى هذا من السر والله أعلم ان النجو يثقل البدن ويؤذيه باحتباسه والذنوب تثقل القلب وتؤذيه باحتباسها فيه فهما مؤذيان مضران بالبدن والقلب فحمد الله عند خروجه على خلاصه من هذا المؤذى لبدنه وخفة البدن وراحته وسأل أن يخلصه من المؤذى الآخر ويريح قلبه منه ويخففه وأسرار كلماته وأدعيته فوق ما يخطر بالبال

(فصل) وقد وسم الله سبحانه الشرك والزنا واللواطة بالنجاسة والخبث فى كتابه دون سائر الذنوب وان كان مشتملا على ذلك لكن الذى وقع فى القرآن قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا انما المشركون نجس وقوله تعالى فى حق اللوطية ولوطا آتيناه حكما وعلما ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث انهم كانوا قوم سوء فاسقين وقالت اللوطية أخرجوا آل لوط من قريتكم انهم أناس يتطهرون فأقروا مع شركهم وكفرهم انهم هم الاخابث الانجاس وان لوطا وآله مطهرون من ذلك باجتنابهم له وقال تعالى فى حق الزناة الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات فأما نجاسة الشرك فهى نوعان نجاسة مغلظة ونجاسة مخففة فالمغلظة الشرك الاكبر الذى لا يغفره الله عز وجل فان الله لا يغفر أن يشرك به والمخففة الشرك الاصغر كيسير الرياء والتصنع للمخلوق والحلف به وخوفه ورجائه ونجاسة الشرك عينية ولهذا جعل سبحانه الشرك نجسا بفتح الجيم ولم يقل انما المشركون نجس بالكسر فان النجس عين النجاسة والنجس بالكسر المتنجس فالثوب اذا أصابه بول أو خمر نجس والبول والخمر نجس فأنجس النجاسة الشرك كما انه أظلم الظلم فان النجس فى اللغة والشرع هو المستقذر الذى يطلب مباعدته والبعد منه بحيث لا يلمس ولا يشم ولا يرى فضلا أن يخالط و يلابس لقذارته ونفرة الطباع السليمة منه وكلما كان الحى أكمل حياة وأصح حياء كان ابعاده لذلك أعظم ونفرته منه أقوى فالاعيان النجسة اما أن تؤذى البدن أو القلب أو تؤذيهما معا والنجس قد يؤذى برائحته وقد يؤذى بملابسته وان لم يكن له رائحة كريهة والحق أن النجاسة تارة تكون محسوسة ظاهرة وتارة تكون معنوية باطنة فيغلب على الروح والقلب الخبث والنجاسة حتى ان صاحب القلب الحى ليشم من تلك الروح والقلب رائحة خبيثة يتأذى بها كما يتأذى من شم رائحة النتن ويظهر ذلك كثيرا فى عرقه حتى يجد لرائحة عرقه نتنا فان نتن الروح والقلب يتصل بباطن البدن أكثر من ظاهره والعرق يفيض من الباطن ولهذا كان الرجل الصالح طيب العرق وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أطيب الناس عرقا قالت أم سليم وقد سألها رسول الله عليه السلام عنه وهى تلتقطه هو من أطيب الطيب فالنفس النجسة الخبيثة يقوى خبثها ونجاستها حتى يبدو على الجسد والنفس الطيبة بضدها فاذا تجردت وخرجت من البدن وجد لهذه كاطيب نفحة مسك وجدت على وجه

تمتها آقامه ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب فهذا هو الفقر الصحيح المطابق للعقل والفطرة والشرع ومن خرج عنه وانحرف الى أحد الطرفين زاغ قلبه عن الهدى وعطل ملك الملك الحق وانفراده بالتصرف والربوبية عن أوامره وشرعه وثوابه وعقابه وحكم هذا الفقير المضطر الى خالقه فى كل طرفة عين وكل نفس انه ان حرك بطاعة أو نعمة شكرها وقال هذا من فضل الله ومنه وجوده فله الحمد وان حرك بمبادى معصيته صرخ ولجأ واستغاث وقال أعوذ بك منك يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك يا مصرف القلوب صرف قلبى على طاعتك فان تم تحريكه بالمعصية التجا التجاء أسير قد أسره عدوه وهو يعلم أنه لا خلاص له من أسره الا بأن يفتكه سيده من الاسر ففكاكه فى يد سيده ليس فى يده منه شئ ألبتة ولا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا فهو فى أسر العدو ناظر الى سيده وهو قادر قد اشتدت ضرورته اليه وصار اعتماده كله عليه قال سهل انما يكون الالتجاء على معرفة الابتلاء يعنى وعلى قدر الابتلاء تكون المعرفة بالمبتلى ومن عرف قوله صلى الله عليه وسلم وأعوذ بك منك وقام بهذه المعرفة شهودا وذوقا وأعطاها حقها من العبودية فهو الفقير حقا ومدار الفقر الصحيح على هذه الكلمة فمن فهم سر هذا الفقر المحمدى فهو سبحانه الذى ينجى من قضائه بقضائه وهو الذى يعيذ بنفسه من نفسه وهو الذى يدفع ما منه بما منه فالخلق كله له والامر كله له والحكم كله له وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وما شاء لم يستطع أن يصرفه الا مشيئته وما لم يشا لم يكن ان يجلبه الا مشيئته فلا ياتى بالحسنات الا هو ولا يذهب بالسيئات الا هو

الارض ولتلك كانت ريح جيفة وجدت على وجه الارض والمقصود ان الشرك لما كان أظلم الظلم وأقبح القبائح وأنكر المنكرات كان أبغض الاشياء الى الله تعالى وأكرهها له وأشدها مقتا لديه ورتب عليه من عقوبات الدنيا والآخرة ما لم يرتبه على ذنب سواه وأخبر أنه لا يغفره وان أهله نجس ومنعهم من قربان حرمه وحرم ذبائحهم ومناكحتهم وقطع الموالاة بينهم وبين المؤمنين وجعلهم أعداء لهم سبحانه ولملائكته ورسله وللمؤمنين وأباح لاهل التوحيد أموالهم ونساءهم وأبناءهم وان يتخذوهم عبيدا وهذا لان الشرك هضم لحق الربوبية وتنقيص لعظمة الالهية وسوء ظن برب العالمين كما قال تعالى ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا فلم يجمع على أحد من الوعيد والعقوبة ما جمع على أهل الشرك فانهم ظنوا به ظن السوء حتى أشركوا به ولو أحسنوا به الظن لوحدوه حق توحيده ولهذا أخبر سبحانه عن المشركين انهم ما قدروه حق قدره في ثلاث مواضع من كتابه وكيف يقدره حق قدره من جعل له عدلا وندا يحبه ويخافه ويرجوه ويذل له ويخضع له ويهرب من سخطه ويؤثر مرضاته قال تعالى ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله وقال تعالى الحمد لله الذى خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون أى يجعلون له عدلا فى العبادة والمحبة والتعظيم وهذه هى التسوية التى أثبتها المشركون بين الله وبين آلهتهم وعرفوا وهم فى النار انها كانت ضلالا وباطلا فيقولون لآلهتهم وهى فى النار معهم تالله ان كنا لفى ضلال مبين اذ نسويكم برب العالمين ومعلوم انهم ما ساووهم فى الذات والصفات والافعال ولا قالوا ان آلهتهم خلقت السموات والارض وانها تحيى وتميت وانما ساووها به فى محبتهم لها وتعظيمهم لها وعبادتهم اياها كما ترى عليه أهل الاشراك ممن ينتسب الى الاسلام ومن العجب انهم ينسبون أهل التوحيد الى التنقص بالمشايخ والانبياء والصالحين وما ذنبهم الا أن قالوا انهم عبيد لا يملكون لانفسهم ولا لغيرهم ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا وانهم لا يشفعون لعابديهم أبدا بل قد حرم الله شفاعتهم لهم ولا يشفعون لاهل التوحيد الا بعد ان أذن الله لهم فى الشفاعة فليس لهم من الامر شئ بل الامر كله لله والشفاعة كلها له سبحانه والولاية له فليس لخلقه من دونه ولى ولا شفيع فالشرك والتعطيل مبنيان على سوء الظن بالله تعالى ولهذا قال امام الحنفاء لخصمائه من المشركين أإفكا آلهة دون الله تريدون فما ظنكم برب العالمين وان كان المعنى ما ظنكم به أن يعاملكم ويجازيكم به وقد عبدتم معه غيره وجعلتم له ندا فأنت تجد تحت هذا التهديد ما ظننتم بربكم من السوء حتى عبدتم معه غيره فان المشرك اما يظن أن الله سبحانه يحتاج الى من يدبر أمر العالم معه من وزير أو ظهير أو عون وهذا من أعظم التنقيص لمن هو غنى عن كل ما سواه بذاته وكل ما سواه فقير اليه بذاته واما أن يظن انه سبحانه انما يتم قدرته بقدرة الشريك واما أن يظن بانه لا يعلم حتى يعلمه الواسطة أو لا يرحم حتى يجعله الواسطة يرحم أو لا يكفى عبده أو لا يفعل ما يريد العبد حتى يشفع عنده الواسطة كما يشفع المخلوق عند المخلوق فيحتاج أن يقبل شفاعته لحاجته الى الشافع وانتفاعه به وتكثره به من القلة

ولا يهدى لأحسن الأعمال والأخلاق الا هو ولا يصرف سيئها الا هو وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله والتحقق بمعرفة هذا يوجب صحة الاضطرار وكمال الفقر والفاقة ويحول بين العبد وبين رؤية أعماله وأحواله والاستغناء بها والخروج عن ربقة العبودية الى دعوى ما ليس له وكيف يدعى مع الله حالا أو ملكة أو مقاما من قلبه وارادته وحركاته الظاهرة والباطنة بيد ربه ومليكه لا يملك هو منها شيأ وانما هى بيد مقلب القلوب ومصرفها كيف يشاء فالايمان بهذا والتحقق به نظام التوحيد ومتى انحل من القلب انحل نظام التوحيد فسبحان من لا يوصل اليه الا به ولا يطاع الا بمشيئته ولا ينال ما عنده من الكرامة الا بطاعته ولا سبيل الى طاعته الا بتوفيقه ومعونته فعاد الامر كله اليه كما ابتدأ الامر كله منه فهو الاول والآخر وان الى ربك المنتهى ومن وصل الى هذا الحال وقع فى يد التقطع والتجريد وأشرف على مقام التوحيد الخاصى فان التوحيد نوعان عامى وخاصى كما ان الصلاة نوعان والذكر نوعان وسائر القرب كذلك خاصية وعامية فالخاصية ما بذل فيها العامل نصحه وقصده بحيث يوقعها على أحسن الوجوه وأكملها والعامية ما لم يكن كذلك فالمسلمون كلهم مشتركون فى اتيانهم بشهادة أن لا اله الا الله وتفاوتهم فى معرفتهم بمضمون هذه الشهادة وقيامهم بحقها باطنا وظاهرا أمر لا يحصيه الا الله عز وجل وقد ظن كثير من الصوفية ان التوحيد الخاص أن يشهد العبد المحرك له ويغيب عن المتحرك وعن الحركة فيغيب بشهوده عن حركته ويشهد نفسه شبحا فانيا يجرى على تصاريف المشيئة كمن غرق فى البحر فامواجه ترفعه

وتعزه

وتعززه به من الذلة أولا يجيب دعاء عباده حتى يسألوا الواسطة أن ترفع تلك الحاجات اليه كما هو حال ملوك الدنيا وهذا أصل شرك الخلق أو يظن انه لا يسمع دعاءهم لبعده عنهم حتى يرفع الوسائط اليه ذلك أو يظن أن للمخلوق عليه حقا فهو يقسم عليه بحق ذلك المخلوق عليه و يتوسل اليه بذلك المخلوق كما يتوسل الناس الى الاكابر والملوك بمن يعز عليهم ولا يمكنهم مخالفته وكل هـذا تنقص للربوبية وهضم لحقها ولو لم يكن فيه الا نقص محبة الله تعالى وخوفه ورجائه والتوكل عليه والانابة اليه من قلب المشرك بسبب قسمه ذلك بينه سبحانه و بين من أشرك به فينقص و يضعف أو يضمحل ذلك التعظيم والمحبة والخوف والرجاء بسبب صرف أكثره أو بعضه الى من عبده من دونه فالشرك ملزوم لتنقص الرب سبحانه والتنقص لازم له ضرورة شاء المشرك أم أبى ولهـذا اقتضى حمده سبحانه وكمال ربوبيته أن لا يغفره وأن يخلد صاحبه فى العذاب الاليم و يجعله أشقى البرية فلا تجـد مشركا قط الا هو متنقص لله سبحانه وان زعم أنه يعظمه بذلك كما انك لا تجد مبتدعا الا وهو متنقص للرسول وان زعم انه معظم له بتلك البدعة فانه يزعم انها خير من السنة وأولى بالصواب و يزعم أنها هى السنة ان كان جاهلا مقلدا وان كان مستبصرا فى بدعته فهو مشاق لله ورسوله فالمتنقصون المنقوصون عنـد الله تعالى ورسوله وأوليائه هم أهل الشرك والبدعة ولا سيما من بنى دينه على أن كلام الله و رسوله أدلة لفظية لا تفيد اليقين ولا تغنى من اليقين والعلم شيأ فيا لله وللمسلمين أى شئ فات من التنقص وكذلك من نفى صفات الكمال عن الرب تعالى خشية ما يتوهمه من التشبيه والتجسيم فقد جاء من التنقص بضـد ما وصف الله سبحانه به نفسه من الكمال والحق أن هاتين الطائفتين هم أهل التنقص فى الحقيقة بل هم أعظم الناس تنقصا لبس عليهم الشيطان حتى ظنوا أن تنقصهم هو الكمال ولهذا كانت البدعة قرينة الشرك فى كتاب الله تعالى قال تعالى قل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون فالاثم والبغى قرينان والشرك والبدعة قرينان

(فصل) وأما نجاسة الذنوب والمعاصى فانها بوجه آخر فانها لا تستلزم تنقيص الربوبية ولا سوء الظن بالله عز وجل ولهـذا لم يرتب الله سبحانه عليها من العقوبات والاحكام ما رتبه على الشرك وهكذا استقرت الشريعة على أنه يعفى عن النجاسة المخففة كالنجاسة فى محل الاستجمار وأسفل الخف والحذاء أو بول الصبى الرضيع وغير ذلك ما لا يعفى عن المغلظة وكذلك يعفى عن الصغائر ما لا يعفى عن الكبائر و يعفى لاهل التوحيد المحض الذى لم يشوبوه بالشرك ما لا يعفى لمن ليس كذلك فلو لقى الموحد الذى لم يشرك بالله شيئا ألبتة ربه بقراب الارض خطايا أتاه بقرابها مغفرة ولا يحصل هذا لمن نقص توحيده وشابه بالشرك فان التوحيد الخالص الذى لا يشوبه شرك لا يبقى معه ذنب فانه يتضمن من محبة الله تعالى واجلاله وتعظيمه وخوفه ورجائه وحده ما يوجب غسل الذنوب ولو كانت قراب الارض فالنجاسة عارضة والدافع لها قوى فلا يثبت معه ولكن نجاسة الزنا واللواطة أغلظ من غيرها من النجاسات من جهة انها تفسد القلب وتضعف توحيده جدا

يطور او تخفضه طورا فهو غائب بما عن ملاحظة حركته فى نفسه بل قد اندرجت حركته فى ضمن حركة الموج وكأنه لا حركة له بالحقيقة وهذا وان ظنه كثير من القوم غاية وظنه بعضهم لازما من لوازم التوحيد فالصواب ان من ورائه ما هو أجل منه وغاية هذا الفناء فى توحيد الربوبية وهو أن لا يشهد ربا وخالقا ومدبرا الا الله وهـذا هو الحق ولكن توحيد الربوبية وحده لا يكفى فى النجاة فضلا عن أن يكون شهوده والفناء فيه هو غاية الموحدين ونهاية مطالبهم فالغاية التى لا غاية وراءها ولا نهاية بعدها الفناء فى توحيد الالهية وهو أن يفنى بمحبة ربه عن محبة كل ما سواه وبتألهه عن تأله ما سواه و بالشوق اليه والى لقائه عن الشوق الى ما سواه و بالذل له والفقر اليه من جهة كونه معبوده والهه ومحبوبه عن الذل الى كل ما سواه وكذلك يفنى بخوفه ورجائه عن خوف ما سواه ورجائه فيرى انه ليس فى الوجود ما يصلح له ذلك الا الله ثم يتصف بذلك حالا و ينصبغ به قلبه صبغة ثم يفنى بذلك عما سواه فهـذا هو التوحيد الخاص الذى شمر اليه العارفون والورد الصافى الذى حام حوله المحبون ومتى وصل اليه العبد صار فى يد التقطع والتجريد واشتمل بلباس الفقر الحقيقى وفرق حب الله من قلبه كل محبة وخوفه كل خوف ورجاؤه كل رجاء فصار حبه وخوفه ورجاؤه وذله وايثاره وارادته ومعاملته كل ذلك واحدا للواحد فلم ينقسم طلبه ولا مطلوبه فتعدد المطلوب وانقسامه قادح فى التوحيد والاخلاص وانقسام الطلب قادح فى الصدق والارادة فلا بد من توحيد الطلب والارادة وتوحيد المطلوب المراد فاذا غاب بمحبوبه عن حب غيره وبمذكوره عن ذكر غيره وبمألوهه عن تأله غيره صار من أهل التوحيد الخاص وصاحبه

ولهذا أحظى الناس بهذه النجاسة أكثرهم شركا فكلما كان الشرك في العبد أغلب كانت هذه النجاسة والخبائث فيه أكثر وكلما كان أعظم اخلاصا كان منها أبعد كما قال تعالى عن يوسف الصديق عليه السلام كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين فان عشق الصور المحرمة نوع تعبد لها بل هو من أعلى أنواع التعبد ولا سيما اذا استولى على القلب وتمكن منه صار تتيما والتتيم التعبد فيصير العاشق عابدا لمعشوقه وكثيرا ما يغلب حبه وذكره والشوق اليه والسعي في مرضاته وايثار محابه على حب الله وذكره والسعي في مرضاته بل كثيرا ما يذهب ذلك من قلب العاشق بالكلية ويصير متعلقا بمعشوقه من الصور كما هو مشاهد فيصير المعشوق هو الهه من دون الله عز وجل يقدم رضاه وحبه على رضا الله وحبه ويتقرب اليه ما لا يتقرب الى الله وينفق في مرضاته ما لا ينفقه في مرضاة الله ويتجنب سخطه ما لا يتجنب من سخط الله تعالى فيصير آثر عنده من ربه حبا وخضوعا وذلا وسمعا وطاعة ولهذا كان العشق والشرك متلازمين وانما حكى الله سبحانه العشق عن المشركين من قوم لوط وعن امرأة العزيز وكانت اذ ذاك مشركة فكلما قوي شرك العبد بلي بعشق الصور وكلما قوي توحيده صرف ذلك عنده والزنا واللواطة كمال لذته انما يكون مع العشق ولا يخلو صاحبهما منه وانما لتنقله من محل الى محل لا يبقى عشقه مقصورا على محل واحد بل ينقسم على سهام كثيرة لكل محبوب نصيب من تألهه وتعبده فليس في الذنوب أفسد للقلب والدين من هاتين الفاحشتين ولهما خاصية في تبعيد القلب من الله فانهما من أعظم الخبائث فاذا انصبغ القلب بهما بعد ممن هو طيب لا يصعد اليه الا طيب وكلما ازداد خبثا ازداد من الله بعدا ولهذا قال المسيح فيما رواه الامام أحمد في كتاب الزهد لا يكون البطالون من الحكماء ولا يلج الزناة ملكوت السماء ولما كانت هذه حال الزنا كان قريبا للشرك في كتاب الله تعالى قال الله تعالى الزاني لا ينكح الا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها الا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين والصواب القول بان هذه الآية محكمة يعمل بها لم ينسخها شيء وهي مشتملة على خبر وتحريم ولم يأت من ادعى نسخها بحجة ألبتة والذي أشكل منها على كثير من الناس واضح بحمد الله تعالى فانهم أشكل عليهم قوله الزاني لا ينكح الا زانية أو مشركة هل هو خبر أو نهي أو اباحة فان كان خبرا فقد رأينا كثيرا من الزناة ينكح عفيفة وان كان نهيا فيكون قد نهي الزاني أن يتزوج الا زانية أو مشركة فيكون نهيا له عن نكاح المؤمنات العفائف واباحة له نكاح المشركات والزواني والله سبحانه لم يرد ذلك قطعا فلما أشكل عليهم ذلك طلبوا للآية وجها يصح حملها عليه فقال بعضهم المراد من النكاح الوطء والزنا فكأنه قال الزاني لا يزني الا بزانية أو مشركة وهذا فاسد فانه لا فائدة فيه ويصان كلام الله تعالى عن حمله على مثل ذلك فانه من المعلوم أن الزاني لا يزني الا بزانية فأي فائدة في الاخبار بذلك ولما رأى الجمهور فساد هذا التأويل أعرضوا عنه ثم قالت طائفة هذا عام اللفظ خاص المعنى والمراد به رجل واحد وامرأة واحدة وهي عناق البغي وصاحبها فانه أسلم واستأذن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في نكاحها فنزلت هذه الآية وهذا أيضا فاسد فان هذه الصورة المعينة وان كانت سبب النزول فالقرآن لا يقتصر

به

تجرد عن ملاحظة سوى محبوبه أو ايثاره أو معاملته أو خوفه أو رجائه وصاحب توحيد الربوبية في قيد التجريد عن ملاحظة فاعل غير الله وهو مجرد عن ملاحظة وجوده وهو كما كان صاحب الدرجة الاولى مجردا عن أمواله وصاحب الثانية مجردا عن أعماله وأحواله وصاحب الفناء في توحيد الالهية تجرد عن سوى مراضي محبوبه وأوامره فقد فني بحبه وابتغاء مرضاته عن حب غيره وابتغاء مرضاته وهذا هو التجريد الذي سمت اليه همم السالكين فمن تجرد عن ماله وحاله وكسبه وعمله ثم تجرد عن شهود تجريده فهو المجرد عندهم حقا وهذا تجريد القوم الذي عليه يحومون واياه يقصدون ونهايته عندهم التجريد بفناء وجوده وبقائه بوجوده بحيث يفنى من لم يكن ويبقى من لم يزل ولا غاية عندهم وراء هذا ولعمر الله ان وراءه تجريدا أكمل منه ونسبته اليه كتفلة في بحر وشعرة في ظهر بعير وهو تجريد الحب والارادة عن الشوائب والعلل والحظوظ فيتوحد حبه كما توحد محبوبه ويتجرد عن مراده من محبوبه بمراد محبوبه منه بل يبقى مراد محبوبه هو من نفس مراده وهنا يعقل الاتحاد الصحيح وهو اتحاد المراد فيكون عين مراد المحبوب هو عين مراد المحب وهذا هو غاية الموافقة وكمال العبودية ولا تتجرد المحبة عن العلل والحظوظ التي تفسدها الا بهذا فالفرق بين محبة حظك ومرادك من المحبوب وانك انما تحبه لذلك وبين محبة مراد المحبوب منك ومحبتك له لذاته انه أهل أن يحب وأما الاتحاد في الارادة فمحال كما أن الاتحاد في المريد محال فالارادتان متباينتان وأما مراد المحب والمحبوب اذا خلصت المحبة من العلل والحظوظ فواحد فالفقر والتجريد والغنا من واد واحد وقد جعله

به على محال أسبابه ولو كان كذلك لبطل الاستدلال به على غيرها وقالت طائفة بل الآية منسوخة بقوله وأنكحوا الايامى منكم وهذا أفسد من الكل فانه لا تعارض بين هاتين الآيتين ولا تناقض احداهما الاخرى بل أمر سبحانه بانكاح الايامى وحرم نكاح الزانية كما حرم نكاح المعتدة والمحرمة وذوات المحارم فأين الناسخ والمنسوخ فى هذا فان قيل فما وجه الآية قيل وجهها والله أعلم أن المتزوج أمر ان يتزوج المحصنة العفيفة وانما أبيح له نكاح المرأة بهذا الشرط كما ذكر ذلك سبحانه فى سورتى النساء والمائدة والحكم المعلق على الشرط ينتفى عند انتفائه والاباحة قد علقت على شرط الاحصان فاذا انتفى الاحصان انتفت الاباحة المشروطة به فالمتزوج اما أن يلتزم حكم الله وشرعه الذى شرعه على لسان رسوله أولا يلتزمه فان لم يلتزمه فهو مشرك لا يرضى بنكاحه الا من هو مشرك مثله وان التزمه وخالفه ونكح ما حرم عليه لم يصح النكاح فيكون زانيا فظهر معنى قوله لا ينكحها الا زانية أو مشركة وتبين غاية البيان وكذلك حكم المرأة وكما أن هذا الحكم هو موجب القرآن وصريحه فهو موجب الفطرة ومقتضى العقل فان الله سبحانه حرم على عبده أن يكون قرنانا ديوثا زوج بغى فان الله تعالى فطر الناس على استقباح ذلك واستهجانه ولهذا اذا بالغوا فى سب الرجل قالوا زوج قحبة فحرم الله على المسلم أن يكون كذلك فظهرت حكمة التحريم وبان معنى الآية والله الموفق ومما يوضح التحريم وانه هو الذى يليق بهذه الشريعة الكاملة أن هذه الجناية من المرأة تعود بفساد فراش الزوج وفساد النسب الذى جعله الله تعالى بين الناس لتمام مصالحهم وعدوه من جملة نعمه عليهم فالزنا يفضى الى اختلاط المياه واشتباه الانساب فمن محاسن الشريعة تحريم نكاح الزانية حتى تتوب وتستبرأ وأيضا فان الزانية خبيثة كما تقدم بيانه والله سبحانه جعل النكاح سببا للمودة والرحمة والمودة خالص الحب فكيف تكون الخبيثة مودودة للطيب زوجا له والزوج سمى زوجا من الازدواج فالزوجان الاثنان المتشابهان والمنافرة ثابتة بين الطيب والخبيث شرعا وقدرا فلا يحصل معها الازدواج والتراحم والتواد فلقد أحسن كل الاحسان من ذهب الى هذا المذهب ومنع الرجل أن يكون زوج قحبة فأين هذا من قول من جوز أن يتزوجها ويطأها الليلة وقد وطئها الزانى البارحة وقال ماء الزانى لا حرمة له فهب ان الامر كذلك فماء الزوج له حرمة فكيف يجوز اجتماعه مع ماء الزانى فى رحم واحد والمقصود أن الله سبحانه سمى الزوانى والزناة خبيثين وخبيثات وجنس هذا الفعل قد شرعت فيه الطهارة وان كان حلالا وسمى فاعله جنبا لبعده عن قراءة القرآن وعن الصلاة وعن المساجد فمنع من ذلك كله حتى يتطهر بالماء فكذلك اذا كان حراما يبعد القلب عن الله تعالى وعن الدار الآخرة بل يحول بينه وبين الايمان حتى يحدث طهرا كاملا بالتوبة وطهرا لبدنه بالماء وقول اللوطية أخرجوهم من قريتكم انهم أناس يتطهرون من جنس قوله سبحانه فى أصحاب الاخدود وما نقموا منهم الا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد وقوله تعالى قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا الا أن آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل من قبل وهكذا المشرك انما ينقم على الموحد تجريده للتوحيد وانه لا يشوبه بالاشراك وهكذا المبتدع انما ينقم على السنى تجريده متابعة الرسول وانه لم يشبها بآراء

تجريد الكشف عن كسب اليقين والثانية تجريد عين الجمع عن درك العلم والثالثة تجريد الخلاص من شهود التجريد فقوله فى الاولى تجريد الكشف عن كسب اليقين يريد كشف الايمان ومكاشفته للقلب وهذا وان حصل باكتساب اليقين من أدلته وبراهينه فالتجريد أن يشهد سبق الله بمنته لكل سبب ينال به اليقين أو الايمان فيتجرد كشفه لذلك عن ملاحظة سبب أو وسيلة بل يقطع الاسباب والوسائل وينتهى نظره الى المسبب وهذا ان أريد تجريدها عن كونها أسبابا فتجريد باطل وصاحبه ضال وان أريد تجريدها عن الوقوف عندها ورؤية انتسابها اليه وصدورها منه وان اليقين انما كان به وحده فهذا تجريد صحيح ولكن على صاحبه اثبات الاسباب فان نفاها عن كونها أسبابا فسد تجريده وقوله فى الدرجة الثانية تجريد عين الجمع عن درك العلم لما كانت الدرجة الاولى تجريدا عن الكسب وانتهاء الى عين الجمع الذى هو الغيبة بتفرد الرب بالحكم عن اثبات وسيلة أو سبب اقتضت تجريدا آخر أكمل من الاول وهو تجريد هذا الجمع عن علم العبد به فالاولى تجريد عن رؤية السبب والفعل والثانية تجريد عن العلم والادراك وهذا يقتضى أيضا تجريدا ثالثا أكمل من الثانى وهو تجريد التخلص من شهود التجريد وصاحب هذا التجريد الثالث فى عين الجمع قد اجتمعت همته على الحق وشغل به عن ملاحظة جمعه وذكره وعلمه به فقد استغرق ذلك قلبه فلا سعة فيه لشهود علمه بتجريده ولا شعوره به فلا التفات له الى تجريده ولو بقى له التفات اليه لم يكمل تجريده

الرجال ولا بشئ مما خالفها فصبر الموحد المتبع للرسول على ما ينقمه عليه أهل الشرك والبدعة خير له وأنفع وأسهل عليه من صبره على ما ينقمه الله ورسوله عليه من موافقة أهل الشرك والبدعة

اذا لم يكن بد من الصبر فاصطبر * على الحق ذاك الصبر تحمد عقباه

(الباب العاشر فى علامات مرض القلب وصحته)

كل عضو من أعضاء البدن خلق لفعل خاص به كماله فى حصول ذلك الفعل منه ومرضه ان يتعذر عليه الفعل الذى خلق له حتى لا يصدر منه أو يصدر مع نوع من الاضطراب فمرض اليد أن يتعذر عليها البطش ومرض العين أن يتعذر عليها النظر والرؤية ومرض اللسان أن يتعذر عليه النطق ومرض البدن أن يتعذر عليه حركته الطبيعية أو يضعف ومرض القلب أن يتعذر عليه ما خلق له من المعرفة بالله ومحبته والشوق الى لقائه والانابة اليه وايثار ذلك على كل شهوة فلو عرف العبد كل شئ ولم يعرف ربه فكأنه لم يعرف شيأ ولو نال كل حظ من حظوظ الدنيا ولذاتها وشهواتها ولم يظفر بمحبة الله والشوق اليه والانس به فكأنه لم يظفر بلذة ولا نعيم ولا قرة عين بل اذا كان القلب خاليا عن ذلك عادت تلك الحظوظ واللذات عذابا له ولا بد فيصير معذبا بنفس ما كان منعما به من جهتين من جهة حسرة فوته وانه حيل بينه وبينه مع شدة تعلق روحه به ومن جهة فوت ما هو خير له وأنفع وأدوم حيث لم يحصل له فالمحبوب الحاصل فات والمحبوب الأعظم لم يظفر به وكل من عرف الله أحبه واخلص العبادة له ولا بد ولم يؤثر عليه شيأ من المحبوبات فمن آثر عليه شيأ من المحبوبات فقلبه مريض كما ان المعدة اذا اعتادت أكل الخبيث وآثرته على الطيب سقطت عنها شهوة الطيب وتعوضت بمحبة غيره وقد يمرض القلب ويشتد مرضه ولا يعرف به صاحبه لاشتغاله وانصرافه عن معرفة صحته وأسبابها بل قد يموت وصاحبه لا يشعر بموته وعلامة ذلك انه لا تؤلمه جراحات القبائح ولا يوجعه جهله بالحق وعقائده الباطلة فان القلب اذا كان فيه حياة تألم بورود القبيح عليه وتألم بجهله بالحق بحسب حياته وما يوجد بميت ايلام وقد يشعر بمرضه ولكن يشتد عليه تحمل مرارة الدواء والصبر عليها فيؤثر بقاء ألمه على مشقة الدواء فان دواءه فى مخالفة الهوى وذلك أصعب شئ على النفس وليس لها أنفع منه وتارة يوطن نفسه على الصبر ثم ينفسخ عزمه ولا يستمر معه لضعف علمه وبصيرته وصبره كمن دخل فى طريق مخوف مفض الى غاية الامن وهو يعلم انه ان صبر عليه انقضى الخوف وأعقبه الامن فهو محتاج الى قوة صبر وقوة يقين بما يصير اليه ومتى ضعف صبره ويقينه رجع من الطريق ولم يتحمل مشقتها ولا سيما ان عدم الرفيق واستوحش من الوحدة وجعل يقول أين ذهب الناس فلى بهم اسوة وهذه حال أكثر الخلق وهى التى أهلكتهم فالبصير الصادق لا يستوحش من قلة الرفيق ولا من فقده اذا استشعر قلبه مرافقة الرعيل الاول الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا فتفرد العبد فى طريق طلبه دليل على صدق الطلب ولقد سئل اسحق بن راهويه عن مسألة فاجاب عنها فقيل له ان أخاك أحمد بن حنبل يقول فيها بمثل ذلك فقال ما ظننت ان أحدا يوافقنى عليها ولم يستوحش بعد ظهور الصواب له من

ووراء هذا كله تجريد نسبة هذا التجريد اليه كشعرة من ظهر بعير الى جملته وهو تجريد الحب والارادة عن تعلقه بالسوى وتجريده عن العلل والشوائب والحظوظ التى هى مراد النفس فيتجرد الطلب والحب عن كل تعلق يخالف مراد المحبوب فهذا تجريد الحنيفية والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة الا به (فصل) ولما كان الفقر الى الله سبحانه هو عين الغنى به فأفقر الناس الى الله أغناهم به وأذلهم له أعزهم وأضعفهم بين يديه أقواهم وأجهلهم عند نفسه أعلمهم بالله وأمقتهم لنفسه أقربهم الى مرضاة الله كان ذكر الغنى بالله مع الفقر اليه متلازمين متناسبين فنذكر فصلا نافعا فى الغنى العالى واعلم ان الغنى على الحقيقة لا يكون الا بالله الغنى بذاته عن كل ما سواه وكل ما سواه فموسوم بسمة الفقر كما هو موسوم بسمة الخلق والصنع وكما أن كونه مخلوقا أمر ذاتى له فكونه فقيرا أمر ذاتى له كما تقدم بيانه وغناه أمر نسبى اضافى عارض له فانه انما استغنى بأمر خارج عن ذاته فهو غنى به فقير اليه ولا يوصف بالغنى على الاطلاق الا من غناه من لوازم ذاته فهو الغنى بذاته عما سواه وهو الاحد الصمد الغنى الحميد والغنى قسمان غنى سافل وغنى عال فالغنى السافل الغنى بالعوارى المستردة من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث وهذا أضعف الغنى فانه غنى بظل زائل وعارية ترجع عن قريب الى أربابها فاذا الفقر باجمعه بعد ذهابها وكأن الغنى بها كان حلما فانقضى ولا همة أضعف من همة من رضى بهذا الغنى الذى هو ظل زائل وهذا غنى أرباب الدنيا الذى فيه يتنافسون واياه يطلبون وحوله يحومون ولا أحب الى الشيطان وأبعد من الرحمن من

عدم

عدم الموافقة فان الحق اذا لاح وتبين لم يحتج الى شاهد يشهد به والقلب يبصر الحق كما تبصر العين الشمس فاذا رأى الرائى الشمس لم يحتج فى علمه بها واعتقاده انها طالعة الى من يشهد بذلك و يوافقه عليه وما أحسن ما قال أبو محمد عبد الرحمن بن اسماعيل المعروف بابى شامة فى كتاب الحوادث والبدع حيث جاء الامر بلزوم الجماعة فالمراد به لزوم الحق واتباعه وان كان المتمسك به قليلا والمخالف له كثيرا لان الحق هو الذى كانت عليه الجماعة الاولى من عهد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه ولا تنظر الى كثرة أهل الباطل بعدهم قال عمرو بن ميمون الاودى صحبت معاذا باليمن فما فارقته حتى واريته فى التراب بالشام ثم صحبت بعده أفقه الناس عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فسمعته يقول عليكم بالجماعة فان يد الله على الجماعة ثم سمعته يوما من الايام وهو يقول سيلى عليكم ولاة يؤخرون الصلاة عن مواقيتها فصلوا الصلاة لميقاتها فهى الفريضة وصلوا معهم فانها لكم نافلة قال قلت يا أصحاب محمد ما أدرى ما تحدثونا قال وما ذاك قلت تأمرنى بالجماعة وتحضنى عليها ثم تقول صل الصلاة وحدك وهى الفريضة وصل مع الجماعة وهى نافلة قال يا عمرو بن ميمون قد كنت أظنك من أفقه أهل هذه القرية تدرى ما الجماعة قلت لا قال ان جمهور الجماعة الذين فارقوا الجماعة الجماعة ما وافق الحق وان كنت وحدك وفى طريق أخرى فضرب على فخذى وقال ويحك ان جمهور الناس فارقوا الجماعة وان الجماعة ما وافق طاعة الله عز وجل قال نعيم بن حماد يعنى اذا فسدت الجماعة فعليك بما كانت عليه الجماعة قبل ان تفسد وان كنت وحدك فانك أنت الجماعة حينئذ ذكره البيهقى وغيره وقال أبو شامة عن مبارك عن الحسن البصرى قال السنة والذى لا إله الا هو بين الغالى والجافى فاصبروا عليها رحمكم الله فان أهل السنة كانوا أقل الناس فيما مضى وهم أقل الناس فيما بقى الذين لم يذهبوا مع أهل الاتراف فى اترافهم ولا مع أهل البدع فى بدعهم وصبروا على سنتهم حتى لقوا ربهم فكذلك ان شاء الله فكونوا وكان محمد بن أسلم الطوسى الامام المتفق على امامته مع رتبته أتبع الناس للسنة فى زمانه حتى قال ما بلغنى سنة عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الا عملت بها ولقد حرصت على أن أطوف بالبيت راكبا فما مكنت من ذلك فسئل بعض أهل العلم فى زمانه عن السواد الاعظم الذى جاء فيهم الحديث اذا اختلف الناس فعليكم بالسواد الاعظم فقال محمد بن أسلم الطوسى هو السواد الاعظم وصدق والله فان العصر اذا كان فيه عارف بالسنة داع اليها فهو الحجة وهو الاجماع وهو السواد الاعظم وهو سبيل المؤمنين التى من فارقها واتبع سواها ولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيرا والمقصود أن من علامات أمراض القلوب عدولها عن الاغذية النافعة الموافقة لها الى الاغذية الضارة وعدولها عن دوائها النافع الى دائها الضار فهنا أربعة أمور غذاء نافع ودواء شاف وغذاء ضار وداء مهلك فالقلب الصحيح يؤثر النافع الشافى على الضار المؤذى والقلب المريض بضد ذلك وانفع الاغذية غذاء الايمان وأنفع الادوية دواء القرآن وكل منهما فيه الغذاء والدواء ومن علامات صحته أيضا أن يرتحل عن الدنيا حتى ينزل بالآخرة و يحل فيها حتى يبقى كأنه من أهلها وأبنائها جاء الى هذه الدار غريبا يأخذ منها حاجته و يعود الى وطنه كما قال عليه السلام

قلبه فلا أن يحب هذا الغنى والخوف من فقده قال بعض السلف اذا اجتمع ابليس وجنوده لم يفرحوا بشئ كفرحهم بثلاثة أشياء مؤمن قتل مؤمنا ورجل يموت على الكفر وقلب فيه خوف الفقر وهذا الغنى محفوف بفقرين فقر قبله وفقر بعده وهو كالغفوة بينهما فحقيق لمن نصح نفسه أن لا يغتر به ولا يجعله نهاية مطلبه بل اذا حصل له جعله سببا للغناء الاكبر ووسيلة اليه و يجعله خادما من خدمه لا مخدوما له وتكون نفسه أعز عليه أن يعبدها الغير مولاه الحق أو يجعلها خادمة لغيره

(فصل)

وأما الغنى العالى فقال شيخ الاسلام هو على ثلاث درجات الدرجة الاولى غنى القلب وهو سلامته من السبب ومسالمته للحكم وخلاصه من الخصومة والدرجة الثانية غنى النفس وهو استقامتها على المرغوب وسلامتها من المسخوط وبراءتها من المراآة والدرجة الثالثة الغنى بالحق وهو ثلاث مراتب الاولى شهود ذكره اياك والثانية دوام مطالعة أوليته والثالثة الفوز بوجوده قلت ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس ومتى استغنت النفس استغنى القلب ولكن الشيخ قسم الغنى الى هذه الدرجات بحسب متعلقه فقال غنى القلب سلامته من السبب ومسالمته للحكم وخلاصه من الخصومة ومعلوم ان هذا شرط فى الغنى لا أنه نفس الغنى بل وجود المنازعة والمخاصمة وعدم المسالمة مانع من الغنى فهذه السلامة والمسالمة دليل على غنى القلب لان غناه بها نفسها وانما غنى القلب بالدرجة الثالثة فقط كما سيأتى بيانه ان شاء الله فالغنى انما يصير غنيا بحصول ما يسد فاقته و يدفع حاجته وفى القلب فاقة عظيمة وضرورة تامة وحاجة شديدة لا يسدها

لعبد الله بن عمر كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعد نفسك من أهل القبور وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه ان الدنيا قد ترحلت مدبرة وان الآخرة قد ترحلت مقبلة ولكل منهما بنون فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا فان اليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل وكلما صح القلب من مرضه ترحل الى الآخرة وقرب منها حتى يصير من أهلها وكلما مرض القلب واعتل آثر الدنيا واستوطنها حتى يصير من أهلها ومن علامات صحة القلب أنه لا يزال يضرب على صاحبه حتى ينيب الى الله ويخبت إليه ويتعلق به تعلق المحب المضطر الى محبوبه الذى لا حياة له ولا فلاح ولا نعيم ولا سرور الا برضاه وقربه والأنس به فبه يطمئن واليه يسكن واليه يأوى وبه يفرح وعليه يتوكل وبه يثق واياه يرجو وله يخاف فذكره قوته وغذاؤه ومحبته والشوق اليه حياته ونعيمه ولذته وسروره والالتفات الى غيره والتعلق بسواه داؤه والرجوع اليه دواؤه فاذا حصل له ربه سكن اليه واطمأن به وزال ذلك الاضطراب والقلق وانسدت تلك الفاقة فان فى القلب فاقة لا يسدها شئ سوى الله تعالى أبدا وفيه شعث لا يلمه غير الاقبال عليه وفيه مرض لا يشفيه غير الاخلاص له وعبادته وحده فهو دائما يضرب على صاحبه حتى يسكن ويطمئن الى الهه ومعبوده فحينئذ يباشر روح الحياة ويذوق طعمها ويصير له حياة أخرى غير حياة الغافلين المعرضين عن هذا الامر الذى له خلق الخلق ولاجله خلقت الجنة والنار وله أرسلت الرسل ونزلت الكتب ولو لم يكن جزاء الا نفس وجوده لكفى به جزاء وكفى بفوته حسرة وعقوبة قال بعض العارفين مساكين أهل الدنيا خرجوا من الدنيا وماذاقوا أطيب ما فيها قيل وما أطيب ما فيها قال محبة الله والأنس به والشوق الى لقائه والتنعم بذكره وطاعته وقال آخر انه ليمر بى أوقات أقول فيها ان كان أهل الجنة فى مثل هذا انهم لفى عيش طيب وقال آخر والله ما طابت الدنيا الا بمحبته وطاعته ولا الجنة الا برؤيته ومشاهدته وقال أبو الحسين الوراق حياة القلب فى ذكر الحى الذى لا يموت والعيش الهنى الحياة مع الله تعالى لا غير ولهذا كان الفوت عند العارفين بالله أشد عليهم من الموت لان الفوت انقطاع عن الحق والموت انقطاع عن الخلق فكم بين الانقطاعين وقال آخر من قرت عينه بالله تعالى قرت به كل عين ومن لم تقر عينه بالله تقطع قلبه على الدنيا حسرات وقال يحيى بن معاذ من سر بخدمة الله سرت الاشياء كلها بخدمته ومن قرت عينه بالله قرت عيون كل أحد بالنظر اليه ومن علامات صحة القلب أن لا يفتر من ذكر ربه ولا يسأم من خدمته ولا يأنس بغيره الا بمن يدله عليه ويذكره به ويذاكره بهذا الامر ومن علامات صحته أنه اذا فاته ورده وجد لفواته ألما أعظم من تألم الحريص بفوات ماله وفقده ومن علامات صحته أنه يشتاق الى الخدمة كما يشتاق الجائع الى الطعام والشراب ومن علامات صحته أنه اذا دخل فى الصلاة ذهب عنه همه وغمه بالدنيا واشتد عليه خروجه منها ووجد فيها راحته ونعيمه وقرة عينه وسرور قلبه ومن علامات صحته أن يكون همه واحدا وأن يكون فى الله ومن علامات صحته أن يكون أشح بوقته أن يذهب ضائعا من أشد الناس شحا بماله ومنها أن يكون اهتمامه بتصحيح العمل أعظم منه بالعمل فيحرص على الاخلاص فيه والنصيحة والمتابعة والاحسان ويشهد مع ذلك منة الله عليه فيه

الا قوة به بحصول الغنى الحميد الذى ان حصل للعبد حصل له كل شئ وان فاته فاته كل شئ فكما انه سبحانه الغنى على الحقيقة ولا غنى سواه فالغنى به هو الغنى فى الحقيقة ولا غنى بغيره ألبتة فمن لم يستغن به عما سواه تقطعت نفسه على السوى حسرات ومن استغنى به زالت عنه كل حسرة وحضره كل سرور وفرح والله المستعان وانما قدم شيخ الاسلام الكلام على غنى القلب على الكلام على غنى النفس لان كمال صلاح النفس غناها بالاستقامة من جميع الوجوه وبلوغها الى درجة الطمأنينة لا يكون الا بعد صلاح القلب وصلاح النفس متقدم على اصلاحها هكذا قيل وفيه ما فيه لان صلاح كل واحد منهما مقارن لصلاح الآخر ولكن لما كان القلب هو الملك وكان صلاحه صلاح جميع رعيته كان أولى بالتقديم وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم ان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح لها سائر الجسد واذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهى القلب والقلب اذا استغنى بما فاض عليه من مواهب ربه وعطاياه السنية خلع على الامراء والرعية خلعا تناسبها فخلع على النفس خلع الطمأنينة والسكينة والرضا والاخبات فأدت الحقوق سماحة لا كظما بانشراح ورضا ومبادرة وذلك لانها جانست القلب حينئذ ووافقته فى أكثر أموره واتحد مرادهما غالبا فصارت له وزير صدق بعد أن كانت عدوا مبارزا بالعداوة فلا تسأل عما أحدثت هذه الموازرة والموافقة من طمأنينة ولذة عيش ونعيم هو دقيقة من نعيم أهل الجنة هذا ولم تضع الحرب أوزارها فيما بينهما بل عدتها وسلاحها كامن متوار لولا قدرة سلطان القلب وقهره لحاربت بكل سلاح فالمرابطة على ثغرى الظاهر والباطن فرض متعين مدة

وتقصيره

وتقصيره في حق الله فهذه ست مشاهد لا يشهدها الا القلب الحي السليم وبالجملة فالقلب الصحيح هو الذي همه كله في الله وحبه كله له وقصده له وبدنه له وأعماله له ونومه له ويقظته له وحديثه والحديث عنه أشهى اليه من كل حديث وأفكاره تحوم على مراضيه ومحابه الخلوة به آثر عنده من الخلطة الاحيث تكون الخلطة أحب اليه وأرضى له قرة عيشه به وطمأنينته وسكونه اليه فهو كلما وجد من نفسه التفاتا الى غيره تلا عليها يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية فيردد عليها الخطاب بذلك ليسمعه من ربه يوم لقائه فينصبغ القلب بين يدى الهه ومعبوده الحق بصبغة العبودية فتصير العبودية صفة وذوقا لا تكلفا فيأتي بها توددا وتحببا وتقربا كما يأتي المحب المقيم في محبة محبوبه بخدمته وقضاء أشغاله فكلما عرض له أمر من ربه أو نهي أحس من قلبه ناطقا ينطق لبيك وسعديك اني سامع مطيع ممتثل ولك على المنة في ذلك والحمد فيه عائد اليك واذا أصابه قدر وجد من قلبه ناطقا يقول أنا عبدك ومسكينك وفقيرك وأنا عبدك الفقير العاجز الضعيف المسكين وأنت ربي العزيز الرحيم لا صبر لي ان لم تصبرني ولا قوة لي ان لم تحملني وتقوني لا ملجأ لي منك الا اليك ولا مستعان لي الا بك ولا انصراف لي عن بابك ولا مذهب لي عنك فينطرح بمجموعه بين يديه ويعتمد بكليته فان أصابه بما يكره قال رحمة أهديت الى ودواء نافع من طبيب مشفق وان صرف عنه ما يحب قال شرا صرف عني

وكم رمت أمرا خرت لي في انصرافه * وما زلت بي مني أبر وأرحما

فكل ما مسه به من السراء والضراء اهتدى بها طريقا اليه وانفتح له منه باب يدخل منه عليه كما قيل

ما مسني قدر بكره أو رضا * الا اهتديت به اليك طريقا

أمضى القضاء على الرضا مني به * اني وجدتك في البلاء رفيقا

ولله هاتيك القلوب وما انطوت عليه من الضمائر وماذا أودعته من الكنوز والذخائر ولله طيب أسرارها ولا سيما يوم تبلى السرائر

سيبدو لها طيب ونور وبهجة * وحسن ثناء يوم تبلى السرائر

بالله لقد رفع لها علم عظيم فشمرت اليه واستبان لها صراط مستقيم فاستقامت عليه ودعاها ما دون مطلوبها الاعلى فلم تستجب له واختارته على ما سواه وآثرت ما لديه

﴿الباب الحادي عشر في علاج مرض القلب من استيلاء النفس عليه﴾

هذا الباب كالاساس والاصل لما بعده من الابواب فان سائر أمراض القلب انما ينشأ من جانب النفس فالمواد الفاسدة كلها اليها تنصب ثم تنبعث منها الى الاعضاء وأول ما ينال القلب وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في خطبة الحاجة الحمد لله نستعينه ونستهديه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيآت أعمالنا وفي المسند والترمذي من حديث حصين بن المنذر ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال له يا حصين كم تعبد قال سبعة ستة في الارض وواحد في السماء قال فمن تعد لرغبتك ورهبتك قال الذي في السماء قال أسلم حتى أعلمك كلمتين ينفعك الله تعالى بهما فأسلم فقال له قل اللهم ألهمني رشدي وقني شر نفسي وقد استعاذ النبي صلى الله عليه وسلم من شرها عموما

وتخلع على الجوارح خلع الخشوع والوقار وعلى الوجه خلعة المهابة والنور والبهاء وعلى اللسان خلعة الصدق والقول السديد الثابت والحكمة النافعة وعلى العين خلعة الاعتبار في النظر والغض عن المحارم وعلى الاذن خلعة استماع النصيحة واستماع القول النافع استماعه للعبد في معاشه ومعاده وعلى اليدين والرجلين خلعة البطش في الطاعات أين كانت بقوة وأيد وعلى الفرج خلعة العفة والحفظ فيغدو العبد ويروح ويرفل في هذه الخلع ويجر لها في الناس أذيالا وأردانا فغنى النفس مشتق من غنى القلب وفرع عليه فاذا استغنى سرى الغنى منه الى النفس وغنى القلب ما يناسبه من تحقيقه بالعبودية المحضة التي هي أعظم خلعة تخلع عليه فيستغني حينئذ بما توجبه هذه العبودية له من المعرفة الخاصة والمحبة الناصحة الخالصة وبما يحصل له من آثار الصفات المقدسة وتقتضيه من الاحكام والعبوديات المتعلقة بكل صفة على الانفراد وبمجموعها قائمة بالذات وهذا أمر تضيق عن شرحه عدة أسفار بل حظ العبد منه علما وارادة كما يدخل اصبعه في اليم بل الامر أعظم من ذلك والله سبحانه أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاذا استغنى القلب بهذا الغنى الذي هو غاية فقره استغنت النفس غنى يناسبها وذهب عنها البرودة التي توجب ثقلها وكسلها واخلادها الى الارض وصارت لها حرارة توجب حركتها وخفتها في الاوامر وطلبها الرفيق الاعلى وصارت برودتها في شهواتها وحظوظها ورعوناتها وذهبت عنها أيضا اليبوسة المضادة للينها وسرعة

ومن شر ما يتولد منها من الاعمال ومن شر ما يترتب على ذلك من المكاره والعقوبات وجمع بين الاستعاذة من شر النفس وسيآت الاعمال وفيه وجهان أحدهما انه من باب اضافة النوع الى جنسه أى أعوذ بك من هذا النوع من الاعمال والثانى ان المراد به عقوبات الاعمال التى تسوء صاحبها فعلى الاول يكون قد استعاذ من صفة النفس وعملها وعلى الثانى يكون قد استعاذ من العقوبات وأسبابها ويدخل العمل السيئ فى شر النفس فهل المعنى ما يسوءنى من جزاء عملى أو من عملى السيئ وقد يترجح الاول بأن الاستعاذة من العمل السيئ بعد وقوعه انما هى استعاذة من جزائه وموجبه والا فالموجود لا يمكن رفعه بعينه وقد اتفق السالكون الى الله عز وجل على اختلاف طرقهم وتباين سلوكهم على ان النفس قاطعة بين القلب وبين الوصول الى الرب وانه لا يدخل عليه سبحانه ولا يوصل اليه إلا بعد تركها واماتتها بمخالفتها والظفر بها فان الناس على قسمين قسم ظفرت به نفسه فملكته وأهلكته وصار طوعا لها تحت أوامرها وقسم ظفروا بنفوسهم فقهروها فصارت طوعا لهم منقادة لاوامرهم كما قال بعض العارفين انتهى سفر الطالبين الى الظفر بأنفسهم فمن ظفر بنفسه أفلح وأنجح ومن ظفرت به نفسه خسر وهلك قال تعالى فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هى المأوى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى فالنفس تدعو الى الطغيان وايثار الحياة الدنيا والرب تعالى يدعو العبد الى خوفه ونهى النفس عن الهوى والقلب بين الداعيين يميل الى هذا الداعى مرة والى هذا مرة وهذا موضع المحنة والابتلاء وقد وصف سبحانه النفس فى القرآن بثلاث صفات المطمئنة والامارة بالسوء واللوامة فاختلف الناس هل النفس واحدة وهذه أوصاف لها أم للعبد ثلاثة أنفس نفس مطمئنة ونفس لوامة ونفس أمارة والاول قول الفقهاء والمتكلمين وجمهور أهل التفسير وقول محققى الصوفية والثانى قول كثير من أهل التصوف والتحقيق انه لا نزاع بين الفريقين فانها واحدة باعتبار ذاتها وثلاثة باعتبار صفاتها فاذا اعتبرت بنفسها فهى واحدة وان اعتبرت مع كل صفة دون الاخرى فهى متعددة وما أظنهم يقولون ان لكل أحد ثلاثة أنفس كل نفس قائمة بذاتها مساوية للاخرى فى الحد والحقيقة وانه اذا قبض العبد قبضت له ثلاثة أنفس كل واحدة مستقلة بنفسها وحيث ذكر سبحانه النفس وأضافها الى صاحبها فانما ذكرها بلفظ الافراد وهكذا فى سائر الاحاديث ولم يجئ فى موضع واحد نفوسك ونفوسه ولا أنفسك وانفسه وانما جاءت مجموعة عند ارادة العموم كقوله واذا النفوس زوجت أو عند اضافتها الى الجمع كقوله انما أنفسنا بيد الله ولو كانت فى الانسان ثلاثة أنفس لجاءت مجموعة اذا أضيفت اليه ولو فى موضع واحد فالنفس اذا سكنت الى الله تعالى واطمأنت بذكره وأنابت اليه واشتاقت الى لقائه وأنست بقربه فهى مطمئنة وهى التى يقال لها عند الموافاة يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية قال ابن عباس يا أيتها النفس المطمئنة يقول المصدقة وقال قتادة هو المؤمن اطمأنت نفسه الى ما وعد الله وقال الحسن المطمئنة بما قال الله والمصدقة بما قال وقال مجاهد هى المنيبة المخبتة التى أيقنت أن الله تعالى ربها وضربت جأشا لامره وطاعته وأيقنت بلقائه وحقيقة الطمأنينة

السكون

انفعالها وقبولها فانها اذا كانت يابسة قاسية كانت بطيئة الانفعال بعيدة القبول لا تكاد تنقاد فاذا صارت يبوستها حرارة وبرودتها رطوبة وسقيت بماء الحياة الذى أنزله الله عز وجل على قلوب أنبيائه وجعلها قرارا ومعينا له ففاض منها على قلوب اتباعهم فأنبتت من كل زوج كريم فحينئذ انقادت بزمام المحبة الى مولاها الحق مؤدية لحقوقه قائمة بأوامره راضية عنه مرضية له بكمال طمأنينتها يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية فلنرجع الى كلامه فقوله فى الدرجة الاولى وهى غنى القلب انه سلامته من السبب أى من الفقر الى السبب وشهوده والاعتماد عليه والركون اليه والثقة به فمن كان معتمدا على سبب غناه واثقا به لم يطلق عليه اسم الغنى لانه فقير الى الوسائط بل لا يسمى صاحبه غنيا الا اذا سلم من علة السبب استغناء بالمسبب بعد الوقوف على رحمته وحكمته وتصرفه وحسن تدبيره فلذلك يصير صاحبه غنيا بتدبير الله سبحانه فمن كملت له السلامة من علة الاسباب ومن علة المنازعة للحكم بالاستسلام له والمسالمة أى بالانقياد لحكمه الذى حصل الغنى للقلب بوقوفه على حسن تدبيره ورحمته وحكمته فاذا وقف العبد على حسن تدبيره واستغنى القلب به لم يتم له الاستغناء بمجرد هذا الوقوف وان لم ينضم اليه المسالمة للحكم وهو الانقياد له فان المنازعة للحكم الى حكم آخر دليل على وجود رعونة الاختيار وذلك دال على فقر صاحب الاختيار الى ذلك الشئ المختار ومن كان فقيرا الى شئ لم يرده الله لم يطلق عليه اسم الغنى بتدبير الله فلا يتم الغنى بتدبير الله سبحانه لعبده الا بالمسالمة لحكمه بعد الوقوف على حسن تدبيره

السكون والاستقرار فهى التى قد سكنت الى ربها وطاعته وأمره وذكره ولم تسكن الى سواه فقد اطمأنت الى محبته وعبوديته وذكره واطمأنت الى أمره ونهيه وخبره واطمأنت الى لقائه ووعده واطمأنت الى التصديق بحقائق أسمائه وصفاته واطمأنت الى الرضا به ربا وبالاسلام دينا وبمحمد رسولا واطمأنت الى قضائه وقدره واطمأنت الى كفايته وحسبه وضمانه واطمأنت بأنه وحده ربها والاهها ومعبودها ومليكها ومالك أمرها كله وان مرجعها اليه وانها لاغنى لها عنه طرفة عين واذا كانت بضد ذلك فهى أمارة بالسوء تأمر صاحبها بما تهواه من شهوات الغى واتباع الباطل فهى مأوى كل سوء ان أطاعها قادته الى كل قبيح وكل مكروه وقد أخبر سبحانه انها أمارة بالسوء ولم يقل آمرة لكثرة ذلك منها وانه عادتها ودأبها الا اذا رحمها الله وجعلها زاكية تأمر صاحبها بالخير فذلك من رحمة الله عز وجل لا منها فانها بذاتها أمارة بالسوء لانها خلقت فى الاصل جاهلة ظالمة والعلم والعدل طارئ عليها بالهام ربها وفاطرها لها ذلك فاذا لم يلهمها رشدها بقيت على ظلمها وجهلها فلم تكن الا أمارة بموجب الجهل والظلم فلولا فضل الله ورحمته على المؤمنين ما زكت منهم نفس واحدة فاذا أراد الله سبحانه وتعالى بها خيرا جعل فيها ما تزكو به وتصلح من الارادات والتصورات واذا لم يرد بها ذلك تركها على حالها التى خلقت عليها من الجهل والظلم وسبب الظلم اما جهل واما حاجة وهى فى الاصل جاهلة والحاجة لازمة لها فلذلك كان أمرها بالسوء أمرا لازما لها ان لم تدركها رحمة الله وفضله وبهذا يعلم ان ضرورة العبد الى ربه فوق كل ضرورة ولا يشبهها ضرورة يقاس بها فانه ان أمسك عنه رحمته وتوفيقه وهدايته طرفة عين خسر وهلك

(فصل) وأما اللوامة فاختلف فى اشتقاق هذه اللفظة هل هو من التلوم وهو التلون والتردد أو من اللوم وعبارات السلف تدور على هذين المعنيين قال سعيد بن جبير قلت لابن عباس رضى الله عنه ما اللوامة قال هى النفس تلوم وقال مجاهد هى التى تندم على ما فات وتلوم عليه وقال قتادة هى الفاجرة وقال عكرمة تلوم على الخير والشر وقال عطاء عن ابن عباس كل نفس تلوم نفسها يوم القيامة يلوم المحسن نفسه أن لا يكون ازداد احسانا ويلوم المسىء نفسه أن لا يكون رجع عن اساءته وقال الحسن ان المؤمن والله ما تراه الا يلوم نفسه على كل حالاته يستقصرها فى كل ما تفعل فيندم ويلوم نفسه وان الفاجر يمضى قدما لا يعاتب نفسه فهذه عبارات من ذهب الى أنها من اللوم وأما من جعلها من التلوم فلكثرة ترددها وتلومها وانها لا تستقر على حال واحدة والاول أظهر فان هذا المعنى لو أريد لقيل المتلومة كما قيل المتلونة والمترددة ولكن هو من لوازم القول الاول والنفس قد تكون أمارة وتكون لوامة وتارة مطمئنة بل فى اليوم الواحد والساعة الواحدة يحصل فيها هذا وهذا والحكم للغالب عليها من أحوالها فكونها مطمئنة وصف مدح لها وكونها أمارة بالسوء وصف ذم لها وكونها لوامة ينقسم الى المدح والذم بحسب ما تلوم عليه والمقصود ذكر علاج مرض القلب باستيلاء النفس الامارة عليه وله علاجان محاسبتها ومخالفتها وهلاك القلب من اهمال محاسبتها ومن موافقتها واتباع هواها وفى الحديث الذى رواه أحمد وغيره من حديث شداد بن أوس رضى الله تعالى عنه

ثم يبقى عليه الخلاص من معنى آخر وهو مخاصمة الخلق بعد الخلاص من منازعة الرب سبحانه فان منازعة الخلق دليل على فقره الى الامر الذى وقعت فيه الخصومة من الحظوظ العاجلة ومن كان فقيرا الى حظ من الحظوظ يسخط لفوته ويخاصم الخلق عليه لا يطلق عليه اسم الغنى حتى يسلم الخلق من خصومته بكمال تفويضه الى وليه وقيومه ومتولى تدبيره فمتى سلم العبد من علة فقره الى السبب ومن علة منازعته لاحكام الله سبحانه ومن علة مخاصمته للخلق على حظوظ استحق أن يكون غنيا بتدبير مولاه مفوضا اليه لا يفتقر قلبه الى غيره ولا يسخط شيأ من أحكامه ولا يخاصم عباده الا فى حقوق ربه فيكون مخاصمته لله وبالله ومحاكمته الى الله كما كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول فى استفتاح صلاة الليل اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت واليك أنبت وبك خاصمت واليك حاكمت فتكون مخاصمة هذا العبد لله لا لهواه وحظه ومحاكمته خصمه الى أمر الله وشرعه لا الى شئ سواه فمن خاصم لنفسه فهو ممن اتبع هواه وانتصر لنفسه وقد قالت عائشة ما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه قط وهذا لتكميل عبوديته ومن حاكم خصمه الى غير الله ورسوله فقد حاكم الى الطاغوت وقد أمر أن يكفر به ولا يكفر العبد بالطاغوت حتى يجعل الحكم لله وحده كما هو كذلك فى نفس الامر والحكم نوعان حكم كونى قدرى وحكم أمرى دينى فهذا الذى ذكره الشيخ فى منازل السائرين وشرحه عليه الشارحون انما مراده به الحكم الكونى القدرى وحينئذ فلابد من تفصيل ما أجملوه من مسالمة الحكم والاستسلام له وترك المنازعة له فان هذا الاطلاق غير مأمور به ولا

قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله تعالى دان نفسه أي حاسبها وذكر الامام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه قال حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا فانه أهون عليكم في الحساب غدا أن تحاسبوا أنفسكم وتزينوا للعرض الاكبر يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية وذكر أيضا عن الحسن قال لا تلقى المؤمن الا يحاسب نفسه ما أردت بكلمتي ماذا أردت بأكلتي ماذا أردت بشربتي والفاجر يمضي قدما قدما لا يحاسب نفسه وقال قتادة في قوله تعالى وكان أمره فرطا أضاع نفسه وغبن مع ذلك تراه حافظا لماله مضيعا لدينه وقال الحسن رحمه الله ان العبد لا يزال بخير ما كان له واعظ من نفسه وكانت المحاسبة من همته وقال ميمون بن مهران لا يكون العبد تقيا حتى يكون لنفسه أشد محاسبة من الشريك لشريكه ولهذا قيل النفس كالشريك الخوان ان لم تحاسبه ذهب بمالك وقال ميمون بن مهران أيضا ان التقي أشد محاسبة لنفسه من سلطان لعاص ومن شريك شحيح وذكر الامام أحمد عن وهب قال مكتوب في حكمة آل داود عليه السلام حق على العاقل أن لا يغفل عن أربع ساعات ساعة يناجي فيها ربه وساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يخلو فيها مع اخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ويصدقونه عن نفسه وساعة يخلي فيها بين نفسه وبين لذتها فيما يحل ويجمل فان في هذه الساعة عونا على تلك الساعات واجماما للقلوب وقد روي هذا مرفوعا من كلام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم رواه أبو حاتم بن حبان وغيره وكان الاحنف بن قيس يجيء الى المصباح فيضع أصبعه فيه ثم يقول حس يا حنيف ما حملك على ما صنعت يوم كذا ما حملك على ما صنعت يوم كذا ويبكي وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه الى بعض عماله حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة فان من حاسب نفسه في الرخاء قبل حساب الشدة عاد أمره الى الرضا والغبطة ومن ألهته حياته وشغلته أهواؤه عاد أمره الى الندامة والحسرة وقال الحسن المؤمن قوام على نفسه يحاسب نفسه لله وانما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا وانما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الامر من غير محاسبة ان المؤمن يفجأه الشيء يعجبه فيقول والله اني لأشتهيك وانك لمن حاجتي ولكن والله ما من صلة اليك هيهات حيل بيني وبينك ويفرط منه الشيء فيرجع الى نفسه فيقول ما أردت الى هذا ما لي ولهذا والله لا أعود الى هذا أبدا ان المؤمنين قوم أوقفهم القرآن وحال بينهم وبين هلكتهم ان المؤمن أسير في الدنيا يسعى في فكاك رقبته لا يأمن شيأ حتى يلقى الله يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه وفي بصره وفي لسانه وفي جوارحه مأخوذ في ذلك كله وقال مالك بن دينار رحم الله عبدا قال لنفسه ألست صاحبة كذا ألست صاحبة كذا ثم زمها ثم خطمها ثم ألزمها كتاب الله عز وجل وكان لها قائدا وقد مثلت النفس مع صاحبها بالشريك في المال فكما أنه لا يتم مقصود الشركة من الربح الا بالمشارطة على ما يفعل الشريك أولا ثم بمطالعة ما يعمل والاشراف عليه ومراقبته ثانيا ثم بمحاسبته ثالثا ثم بمنعه من الخيانة ان اطلع عليها رابعا فكذلك النفس يشارطها أولا على حفظ الجوارح السبعة التي حفظها هو رأس المال والربح بعد ذلك فمن ليس له

تمكن العبد في نفسه بل الاحكام ثلاثة حكم شرعي ديني فهذا حقه أن يتلقى بالمسالمة والتسليم وترك المنازعة بل بالانقياد المحض وهذا تسليم العبودية المحضة فلا يعارض بذوق ولا وجد ولا سياسة ولا قياس ولا تقليد ولا يرى الى خلافه سبيلا البتة وانما هو الانقياد المحض والتسليم والاذعان والقبول فاذا تلقى بهذا التسليم والمسالمة اقرارا وتصديقا بقي هناك انقياد آخر وتسليم آخر له ارادة وتنفيذا وعملا فلا تكون له شهوة تنازع مراد الله من تنفيذ حكمه كما لم يكن له شبهة تعارض ايمانه واقراره وهذا حقيقة القلب السليم الذي سلم من شبهة تعارض الحق وشهوة تعارض الامر فلا استمتع بخلاقه كما استمتع به الذين يتبعون الشهوات ولا خاض في الباطل خوض الذين يتبعون الشبهات بل اندرج خلاقه تحت الامر واضمحل خوضه في معرفته بالحق فاطمأن الى الله معرفة به ومحبة له وعلما بأمره وارادة لمرضاته فهذا حق الحكم الديني

* الحكم الثاني الحكم الكوني القدري الذي للعبد فيه كسب واختيار وارادة والذي حكم به يسخطه ويبغضه ويذم عليه فهذا حقه أن ينازع ويدافع بكل ممكن ولا يسالم ألبتة بل ينازع بالحكم الكوني أيضا فينازع حكم الحق بالحق للحق فيدافع به وله كما قال شيخ العارفين في وقته عبد القادر الجيلي الناس اذا دخلوا الى القضاء والقدر أمسكوا وأنا انفتحت لي روزنة فنازعت أقدار الحق بالحق للحق والعارف من يكون منازعا للقدر لا واقفا مع القدر انتهى فان ضاق ذرعك عن هذا الكلام وفهمه فتأمل قول عمر بن الخطاب وقد عوتب على فراره من الطاعون فقيل له أتفر من قدر الله فقال نفر من قدر

رأس مال فكيف يطمع في الربح وهذه الجوارح السبعة وهي العين والاذن والفم واللسان والفرج واليد والرجل هي مركب العطب والنجاة فمنها عطب من عطب باهمالها وعدم حفظها ونجا من نجا بحفظها ومراعاتها فحفظها أساس كل خير واهمالها أساس كل شر قال تعالى قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم و يحفظوا فروجهم وقال تعالى ولا تمش في الارض مرحا انك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولا وقال تعالى ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا وقال وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن وقال يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا وقال يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد فاذا شارطها على حفظ هذه الجوارح انتقل منها الى مطالعتها والاشراف عليها ومراقبتها فلا يهملها فانه ان أهملها لحظة رتعت في الخيانة ولابد فان تمادى على الاهمال تمادت في الخيانة حتى تذهب رأس المال كله فتى أحس بالنقصان انتقل الى المحاسبة فحينئذ يتبين له حقيقة الربح والخسران فاذا أحس بالخسران وتيقنه استدرك منها ما يستدركه الشريك من شريكه من الرجوع عليه بما مضى والقيام بالحفظ والمراقبة في مراقبته ومحاسبته وليحذر من اهماله ويعينه على هذه المراقبة والمحاسبة معرفته انه كلما اجتهد فيها اليوم استراح منها غدا اذا صار الحساب الى غيره وكلما أهملها اليوم اشتد عليه الحساب غدا ويعينه عليها أيضا معرفته ان ربح هذه التجارة سكنى الفردوس والنظر الى وجه الرب سبحانه وخسارتها دخول النار والحجاب عن الرب تعالى فاذا تيقن هذا هان عليه الحساب اليوم فحق على الحازم المؤمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها وخطواتها فكل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا خطر لها يمكن أن يشترى به كنز من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآباد فاضاعة هذه الانفاس أو اشتراء صاحبها بها ما يجلب هلاكه خسران عظيم لا يسمح بمثله الا أجهل الناس وأحمقهم وأقلهم عقلا وانما يظهر له حقيقة هذا الخسران يوم التغابن يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها و بينه أمدا بعيدا

(فصل) ومحاسبة النفس نوعان نوع قبل العمل ونوع بعده فاما النوع الاول فهو أن يقف عند أول همه وارادته ولا يبادر بالعمل حتى يتبين له رجحانه على تركه قال الحسن رحم الله عبدا وقف عند همه فان كان لله مضى وان كان لغيره تأخر وشرح هذا بعضهم فقال اذا تحركت النفس لعمل من الاعمال وهم به العبد وقف أولا ونظر هل ذلك العمل مقدور له أم غير مقدور ولا مستطاع فان لم يكن مقدورا لم يقدم عليه وان كان مقدورا وقف وقفة أخرى ونظر هل فعله خير له من تركه أو تركه خير من فعله فان كان الثاني تركه ولم يقدم عليه وان كان الاول وقف وقفة ثالثة ونظر هل الباعث عليه ارادة وجه الله عز وجل وثوابه أم ارادة الجاه والثناء والمال من المخلوق فان كان الثاني لم يقدم عليه وان أفضى به الى مطلوبه لئلا تعتاد النفس الشرك ويخف عليها العمل لغير الله فبقدر ما يخف عليها ذلك يثقل عليها العمل لله تعالى حتى يصير أثقل شئ عليها وان كان الاول وقف وقفة أخرى ونظر هل هو معان عليه وله أعوان يساعدونه

الله الى قدر ثم كيف ينكر هذا الكلام من لا بقاء له في هذا العالم الا به ولا يتم له مصلحة الا بمجموعه فانه اذا جاءه قدر من الجوع والعطش أو البرد نازعه وترك الانقياد له ومسالمته ودفعه بقدر آخر من الاكل والشرب واللباس فقد دفع قدر الله بقدره وهكذا اذا وقع الحريق في داره فهو بقدر الله فما باله لا يستسلم له ويسالمه ويتلقاه بالاذعان بل ينازعه ويدافعه بالماء والتراب وغيره حتى يطفئ قدر الله بقدر الله وما خرج في ذلك عن قدر الله وهكذا اذا أصابه مرض بقدر الله دافع هذا القدر ونازعه بقدر آخر يستعمل فيه الادوية الدافعة للمرض فحق هذا الحكم الكوني ان يحرص العبد على مدافعته ومنازعته بكل ما يمكنه فان غلبه وقهره حرص على دفع آثاره وموجباته بالاسباب التي نصبها الله لذلك فيكون قد دفع القدر بالقدر ونازع الحكم بالحكم وبهذا أمر بل هذا حقيقة الشرع والقدر ومن لم يستبصر في هذه المسئلة ويعطها حقها لزمه التعطيل للقدر أو الشرع شاء أو أبى فما للعبد ينازع اقدار الرب باقداره في حظوظه وأسباب معاشه ومصالحه الدنيوية ولا ينازع اقداره في حق مولاه وأوامره ودينه وهل هذا الا خروج عن العبودية ونقص في العلم بالله وصفاته واحكامه ولو ان عدوا للاسلام قصده لكان هذا بقدر الله ويجب على كل مسلم دفع هذا القدر بقدر يحبه الله وهو الجهاد باليد أو المال أو القلب دفعا لقدر الله بقدره فالاستسلام والمسالمة هنا مدخل في العبودية اللهم الا اذا بذل العبد جهده في المدافعة والمنازعة وخرج الامر عن يده فحينئذ يبقى من أهل الحكم الثالث وهو الحكم القدري الكوني الذي يجري على العبد بغير اختياره ولا طاقة له بدفعه ولا حيلة له في منازعته فهذا حقه أن يتلقى بالاستسلام والمسالمة وترك المخاصمة وان يكون

ويتصرونه اذا كان العمل محتاجا الى ذلك أم لا فان لم يكن له أعوان أمسك عنه كما أمسك النبى صلى الله تعالى عليه وسلم عن الجهاد بمكة حتى صار له شوكة وأنصار وان وجده معانا عليه فليقدم عليه فانه منصور ولا يفوت النجاح الا من فوات خصلة من هذه الخصال والا فمع اجتماعها لا يفوته النجاح فهذه أربع مقامات يحتاج الى محاسبة نفسه عليها قبل العمل فما كل ما يريد العبد فعله يكون مقدورا له ولا كل ما يكون مقدورا له يكون فعله خيرا له من تركه ولا كل ما يكون فعله خيرا من تركه يفعله لله ولا كل ما يفعله لله يكون معانا عليه فاذا حاسب نفسه على ذلك تبين له ما يقدم عليه وما يحجم عنه

(فصل) النوع الثانى محاسبة النفس بعد العمل وهو ثلاثة أنواع أحدها محاسبتها على طاعة قصرت فيها من حق الله تعالى فلم توقعها على الوجه الذى ينبغى وحق الله تعالى فى الطاعة ستة أمور تقدمت وهى الاخلاص فى العمل والنصيحة لله فيه ومتابعة الرسول فيه وشهود مشهد الاحسان فيه وشهود منة الله عليه وشهود تقصيره فيه بعد ذلك كله فيحاسب نفسه هل وفى هذه المقامات حقها وهل أتى بها فى هذه الطاعة الثانى أن يحاسب نفسه على عمل كان تركه خيرا له من فعله الثالث أن يحاسب نفسه على أمر مباح أو معتاد لم فعله وهل أراد به الله والدار الآخرة فيكون رابحا أو أراد به الدنيا وعاجلها فيخسر ذلك الربح ويفوته الظفر به

(فصل) وأضر ما عليه الاهمال وترك المحاسبة والاسترسال وتسهيل الامور وتمشيتها فان هذا يؤل به الى الهلاك وهذه حال أهل الغرور يغمض عينيه عن العواقب ويمشى الحال ويتكل على العفو فيهمل محاسبة نفسه والنظر فى العاقبة واذا فعل ذلك سهل عليه مواقعة الذنوب وأنس بها وعسر عليه فطامها ولو حضره رشده لعلم أن الحمية أسهل من الفطام وترك المألوف والمعتاد قال ابن أبى الدنيا حدثنى رجل من قريش ذكر انه من ولد طلحة بن عبيد الله قال كان توبة بن الصمة بالرقة وكان محاسبا لنفسه فحسب يوما فاذا هو ابن ستين سنة فحسب أيامها فاذا هى احد وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم فصرخ وقال يا ويلتا ألقى ربى باحد وعشرين ألف ذنب كيف وفى كل يوم آلاف من الذنوب ثم خر مغشيا عليه فاذا هو ميت فسمعوا قائلا يقول يا لك ركضة الى الفردوس الأعلى وجماع ذلك أن يحاسب نفسه أولا على الفرائض فان تذكر فيها نقصا تداركه اما بقضاء أو اصلاح ثم يحاسبها على المناهى فان عرف انه ارتكب منها شيأ تداركه بالتوبة والاستغفار والحسنات الماحية ثم يحاسب نفسه على الغفلة فان كان قد غفل عما خلق له تداركه بالذكر والاقبال على الله تعالى ثم يحاسبها بما تكلم به أو مشت اليه رجلاه أو بطشت يداه أو سمعته أذناه ماذا أرادت بهذا ولمن فعلته وعلى أى وجه فعلته ويعلم أنه لا بد أن ينشر لكل حركة وكلمة منه ديوانان ديوان لمن فعلته وكيف فعلته فالاول سؤال عن الاخلاص والثانى سؤال عن المتابعة قال تعالى فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون وقال تعالى فلنسألن الذين أرسل اليهم ولنسألن المرسلين فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين وقال تعالى ليسأل الصادقين عن صدقهم فاذا سئل الصادقون وحوسبوا على صدقهم فما الظن بالكاذبين قال مقاتل يقوله تعالى أخذنا ميثاقهم لكى يسأل الله

الصادقين

فهو كالميت بين يدى الغاسل وكمن انكسر به المركب فى لجة البحر وعجز عن السباحة وعن سبب يدنيه من النجاة فههنا يحسن الاستسلام والمسالمة مع ان عليه فى هذا الحكم عبوديات أخر سوى التسليم والمسالمة وهى ان يشهد عزة الحاكم فى حكمه وعدله فى قضائه وحكمته فى جريانه عليه وان ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه وان الكتاب الاول سبق بذلك قبل بدء الخليقة فقد جف القلم بما يلقاه كل عبد فمن رضى فله الرضا ومن سخط فله السخط ويشهد ان القدر ما أصابه الا لحكمة اقتضاها اسم الحكيم جل جلاله وصفته الحكمة وان القدر قد أصاب مواقعه وحل فى المحل الذى ينبغى له ان ينزل به وان ذلك أوجبه عدل الله وحكمته وعزته وعلمه وملكه العادل فهو موجب أسمائه الحسنى وصفاته العلى فله عليه أكمل حمد وأتمه كما له الحمد على جميع أفعاله وأوامره وان كان حظ العبد من هذا القدر الذم فحق الرب تعالى منه الحمد والمدح لانه موجب كماله وأسمائه الحسنى وصفاته العلى وهو موجب نقص العبد وجهله وظلمه وتفريطه فاقتسم الرب والعبد الخطين فى هذا القدر وكان للرب سبحانه فيه الحمد والنعمة والفضل والثناء الحسن وللعبد حظه الذم واللوم والاساءة واستحقاق العقوبة

استأثر الله بالمحامد والفضل * وولى الملامة الرجلا

ويشفيه فى هذا المقام أربع آيات احداها قوله تعالى ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك الثانية قوله تعالى أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم انى هذا قل هو من عند أنفسكم ان الله على كل شئ قدير الثالثة قوله تعالى وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير

الصادقين يعني به النبيين عن تبليغ الرسالة وقال مجاهد يسأل المبلغين المؤدين عن الرسل يعني هل بلغوا عنهم كما يسأل الرسل هل بلغوا عن الله والتحقيق ان الآية تتناول هذا وهذا فالصادقون هم الرسل والمبلغون عنهم فيسأل الرسل عن التبليغ ويسأل المبلغين عنهم عن تبليغ ما بلغهم الرسل ثم يسأل الذين بلغتهم الرسالة ماذا أجابوا المرسلين كما قال تعالى ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين قال قتادة كلمتان يسأل عنهما الاولون والآخرون ماذا كنتم تعبدون وماذا أجبتم المرسلين فيسأل عن المعبود وعن العبادة وقال تعالى ولتسألن يومئذ عن النعيم قال محمد بن جرير يقول تعالى ثم ليسألنكم الله عز وجل عن النعيم الذي كنتم فيه في الدنيا ماذا عملتم فيه وأين وصلتم اليه وفيم أصبتموه وماذا عملتم به وقال قتادة ان الله تعالى سائل كل عبد عما استودعه من نعمته وحقه والنعيم المسؤل عنه نوعان نوع أخذ من حله وصرف في حقه فيسأل عن شكره ونوع أخذ بغير حله وصرف في غير حقه فيسأل عن مستخرجه ومصرفه فاذا كان العبد مسؤلا ومحاسبا على كل شئ حتى على سمعه وبصره وقلبه كما قال تعالى ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا فهو حقيق أن يحاسب نفسه قبل أن يناقش الحساب وقد دل على وجوب محاسبة النفس قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد يقول تعالى لينظر أحدكم ما قدم ليوم القيامة من الاعمال أمن الصالحات التي تنجيه أم من السيآت التي توبقه قال قتادة ما زال ربكم يقرب الساعة حتى جعلها كغد والمقصود ان صلاح القلب بمحاسبة النفس وفساده باهمالها والاسترسال معها

(فصل) وفي محاسبة النفس عدة مصالح منها الاطلاع على عيوبها ومن لم يطلع على عيب نفسه لم يمكنه ازالته فاذا اطلع على عيبها مقتها في ذات الله تعالى وقد روى الامام أحمد عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس في جنب الله ثم يرجع الى نفسه فيكون لها أشد مقتا وقال مطرف بن عبد الله لولا ما أعلم من نفسي لقليت الناس وقال مطرف في دعائه بعرفة اللهم لا ترد الناس لاجلي وقال بكر بن عبد الله المزني لما نظرت الى أهل عرفات ظننت انهم قد غفر لهم لولا اني كنت فيهم وقال أيوب السختياني اذا ذكر الصالحون كنت عنهم بمعزل ولما احتضر سفيان الثوري دخل عليه أبو الاشهب وحماد بن سلمة فقال له حماد يا أبا عبد الله أليس قد أمنت مما كنت تخافه وتقدم على من ترجوه وهو أرحم الراحمين فقال يا أبا سلمة أتطمع لمثلي أن ينجو من النار قال اي والله اني لأرجو ذلك وذكر عن مسلم بن سعيد الواسطي قال أخبرني حماد ابن جعفر بن زيد ان أباه اخبره قال خرجنا في غزوة الى كابل وفي الجيش صلة بن أشيم فنزل الناس عند العتمة فصلوا ثم اضطجع فقلت لأرمقن عمله فالتمس غفلة الناس حتى اذا قلت هدأت العيون وثب فدخل غيضة قريبا منا فدخلت على أثره فتوضأ ثم قام يصلي وجاء أسد حتى دنا منه فصعدت في شجرة فتراه التفت أو عده جروا فلما سجد قلت الآن يفترسه فجلس ثم سلم ثم قال أيها السبع اطلب الرزق من مكان آخر فولى وان له لزئيرا أقول تصدع الجبال منه قال فما زال كذلك يصلي حتى كان عند الصبح جلس فحمد الله تعالى بمحامد لم أسمع بمثلها ثم قال اللهم اني أسألك أن تجيرني من النار ومثلي يجترئ أن

الرابعة قوله تعالى وانا اذا أذقنا الانسان منا رحمة فرح بها وان تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فان الانسان كفور فمن نزل هذه الآيات على هذا الحكم علما ومعرفة وقام بموجبها ارادة وعزما وتوبة واستغفارا فقد أدى عبودية الله في هذا الحكم وهذا قدر زائد على مجرد التسليم والمسالمة والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة الا بالله

(فصل) قوله في غنى النفس انه استقامتها على المرغوب وسلامتها من المسخوط وبراءتها من المراياة يريد استقامتها على الامر الديني الذي يحبه الله ويرضاه وتجنبها لمناهيه التي يسخطها ويبغضها وان تكون هذه الاستقامة على الفعل والترك تعظيما لله سبحانه وأمره وايمانا به واحتسابا لثوابه وخشية من عقابه لا طلبا لتعظيم المخلوقين له ومدحهم وهربا من ذمهم وازدرائهم وطلبا للجاه والمنزلة عندهم فان هذا دليل على غاية الفقر من الله والبعد منه وانه أفقر شئ الى المخلوق فسلامة النفس من ذلك واتصافها بضده دليل غناها لانها اذا أذعنت منقادة لامر الله طوعا واختيارا ومحبة وايمانا واحتسابا بحيث تصير لذتها وراحتها ونعيمها وسرورها في القيام بعبوديته كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول يا بلال أرحنا بالصلاة وقال صلى الله عليه وسلم حبب الي من دنياكم النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة فقرة العين فوق المحبة فجعل النساء والطيب مما يحبه وأخبر ان قرة العين التي يطمئن القلب بالوصول اليها ومحض لذته وفرحه وسروره وبهجته انما هو في الصلاة التي هي صلة بالله وحضور بين يديه ومناجاة له واقتراب منه فكيف لا تكون قرة العين وكيف تقر عين المحب بسواها فاذا حصل للنفس هذا الحظ الجليل فاي فقر يخشى معه واي غنى فاتها حتى تلتفت اليه ولا

يسألك الجنة قال ثم رجع وأصبح كأنه بات على الحشايا وأصبحت وبي من الفترة شئ الله به عالم وقال يونس بن عبيد اني لاجد مائة خصلة من خصال الخير ما أعلم ان في نفسي منها واحدة وقال محمد بن واسع لو كان للذنوب ريح ماقدر أحد أن يجلس الي وذكر ابن أبي الدنيا عن الخلد بن أيوب قال كان راهب في بني اسرائيل في صومعة منذ ستين سنة فأتى في منامه فقيل له ان فلانا الاسكافي خير منك ليلة بعد ليلة فأتى الاسكافي فسأله عن عمله فقال اني رجل لا يكاد يمر بي أحد الا ظننت انه في الجنة وأنا في النار ففضل على الراهب بازرائه على نفسه وذكر داود الطائي عند بعض الامراء فأثنوا عليه فقال لو يعلم الناس بعض مانحن فيه ماذل لنا لسان بذكر خير أبدا وقال أبو حفص من لم يتهم نفسه على دوام الاوقات ولم يخالفها في جميع الاحوال ولم يجرها الى مكروهها في سائر أوقاته كان مغرورا ومن نظر اليها باستحسان شئ منها فقد أهلكها فالنفس داعية الى المهالك معينة للاعداء طامحة الى كل قبيح متبعة لكل سوء فهي تجري بطبعها في ميدان المخالفة فالنعمة التي لا خطر لها الخروج منها والتخلص من رقها فانها أعظم حجاب بين العبد وبين الله تعالى وأعرف الناس بها أشدهم ازراء عليها ومقتا لها قال ابن أبي حاتم في تفسيره حدثنا علي بن الحسين المقدمي حدثنا عامر بن صالح عن أبيه عن ابن عمر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال اللهم اغفر لي ظلمي وكفري فقال قائل يا أمير المؤمنين هذا الظلم فما بال الكفر قال ان الانسان لظلوم كفار قال وحدثنا يونس بن حبيب حدثنا أبو داود عن الصلت بن دينار حدثنا عقبة ابن صهبان الهنائي قال سألت عائشة رضي الله عنها عن قول الله عز وجل ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه الآية فقالت يا بني هؤلاء في الجنة اما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم شهد له رسول الله بالجنة والرزق وأما المقتصد فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق به وأما الظالم لنفسه فمثلي ومثلكم فجعلت نفسها معنا وقال الامام أحمد حدثنا حجاج حدثنا شريك عن عاصم عن أبي وائل عن مسروق قال دخل عبد الرحمن على أم سلمة رضي الله عنها فقالت سمعت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يقول ان من أصحابي لمن لا يراني بعد أن أموت أبدا فخرج عبد الرحمن من عندها مذعورا حتى دخل على عمر رضي الله عنه فقال له اسمع ما تقول أمك فقام عمر رضي الله عنه حتى أتاها فدخل عليها فسألها ثم قال أنشدك بالله أمنهم أنا قالت لا ولن أبرئ بعدك أحدا فسمعت شيخنا يقول انما أرادت اني لا أفتح عليها هذا الباب ولم ترد انك وحدك البرئ من ذلك دون سائر الصحابة ومقت النفس في ذات الله تعالى من صفات الصديقين ويدنو العبد به من الله سبحانه في لحظة واحدة اضعاف أضعاف مايدنو بالعمل ذكر ابن أبي الدنيا عن مالك بن دينار قال ان قوما من بني اسرائيل كانوا في مسجد لهم في يوم عيد فجاء شاب حتى قام على باب المسجد فقال ليس مثلي يدخل معكم أنا صاحب كذا أنا صاحب كذا يزري على نفسه فأوحى الله عز وجل الى نبيهم ان فلانا صديق وقال الامام أحمد حدثنا محمد بن الحسن بن أنس حدثنا منذر عن وهب ان رجلا سائحا عبد الله عز وجل سبعين سنة ثم خرج يوما فقلل عمله وشكى الى الله تعالى منه واعترف بذنبه فأتاه آت من الله فقال ان مجلسك هذا أحب

يحصل لها هذا حتى ينقلب طبعها وتصير مجانسة لطبيعة القلب فتصير بذلك مطمئنة بعد ان كانت لوامة وانما تصير مطمئنة بعد تبدل صفاتها وانقلاب طبعها لاستغناء القلب بما وصل اليه من نور الحق سبحانه فجرى أثر ذلك النور في سمعه وبصره وشعره وبشره وعظمه ولحمه ودمه وسائر مفاصله وأحاط بجهاته من فوقه وتحته وعن يمينه ويساره وخلفه وامامه وصارت ذاته نورا وصار عمله نورا وقوله نورا ومدخله نورا ومخرجه نورا وكان في مبعثه ممن انبهر له نوره فقطع به الجسر واذا وصلت النفس الى هذه الحال استغنت بها عن التطاول الى الشهوات التي توجب اقتحام الحدود المسخوطة والتقاعد عن الامور المطلوبة المرغوبة فان فقرها الى الشهوات هو الموجب لها التقاعد عن المرغوب المطلوب وأيضا فتقاعدها عن المطلوب بينهما موجب لفقرها الى الشهوات فكل منهما موجب للآخر وترك الاوامر أقوى لها في افتقارها الى الشهوات فانه بحسب قيام العبد بالامر تدفع عنه جيوش الشهوة كما قال تعالى ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وقال تعالى ان الله يدافع عن الذين آمنوا وفي القراءة الاخرى يدفع فكمال الدفع والمدافعة بحسب قوة الايمان وضعفه واذا صارت النفس حرة طيبة مطمئنة غنية بما أغناها به مالكها وفاطرها من النور الذي وقع في القلب ففاض منه اليها استقامت بذلك الغنى على الامر المرهوب وسلمت به عن الامر المسخوط وبرئت من المراياة ومدار ذلك كله على الاستقامة باطنا وظاهرا ولهذا كان الدين كله في قوله تعالى فاستقم كما أمرت وقال سبحانه ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون

﴿فصل﴾ وهذه الاستقامة ترقيها الى الدرجة الثالثة من الغنى وهو الغنى بالحق

اللفظة من اللجأ الى الشئ والاقتراب منه ومن كلام العرب أطيب اللحم عوذه أى الذى قد عاذ بالعظم واتصل به وناقة عائذ يعوذ بها ولدها وجمعها عوذ كحمر ومنه فى حديث الحديبية معهم العوذ المطافيل والمطافيل جمع مطفل وهى الناقة التى معها فصيلها قالت طائفة منهم صاحب جامع الاصول استعار ذلك للناس أى معهم النساء وأطفالهم ولا حاجة الى ذلك بل اللفظ على حقيقته أى قد خرجوا اليك بدوابهم ومراكبهم حتى أخرجوا معهم النوق التى معها أولادها فأمر سبحانه بالاستعاذة به من الشيطان عند قراءة القرآن وفى ذلك وجوه منها أن القرآن شفاء لما فى الصدور يذهب لما يلقيه الشيطان فيها من الوساوس والشهوات والارادات الفاسدة فهو دواء لما أمره فيها الشيطان فأمر أن يطرد مادة الداء ويخلى منه القلب ليصادف الدواء محلا خاليا فيتمكن منه ويؤثر فيه كما قيل

أتانى هواها قبل ان أعرف الهوى * فصادف قلبا خاليا فتمكنا

فيجىء هذا الدواء الشافى الى القلب قد خلا من مزاحم ومضاد له فينجع فيه ومنها ان القرآن مادة الهدى والعلم والخير فى القلب كما ان الماء مادة النبات والشيطان نار يحرق النبات أولا فأولا فكلما أحس بنبات الخير فى القلب سعى فى افساده واحراقه فأمر أن يستعيذ بالله عز وجل منه لئلا يفسد عليه ما يحصل له بالقرآن والفرق بين هذا الوجه والوجه الذى قبله أن الاستعاذة فى الوجه الاول لاجل حصول فائدة القرآن وفى الوجه الثانى لاجل بقائها وحفظها وثباتها وكان من قال ان الاستعاذة بعد القراءة لاحظ هذا المعنى وهو لعمر الله ملحظ جيد الا ان السنة وآثار الصحابة انما جاءت بالاستعاذة قبل الشروع فى القراءة وهو قول جمهور الامة من السلف والخلف وهو محصلة للامرين ومنها أن الملائكة تدنو من قارئ القرآن وتستمع لقراءته كما فى حديث أسيد بن حضير لما كان يقرأ ورأى مثل الظلة فيها مثل المصابيح فقال عليه السلام تلك الملائكة والشيطان ضد الملك وعدوه فأمر القارئ أن يطلب من الله تعالى مباعدة عدوه عنه حتى يحضره خاصة ملائكته فهذه منزلة لا يجتمع فيها الملائكة والشياطين ومنها ان الشيطان يجلب على القارئ بخيله ورجله حتى يشغله عن المقصود بالقرآن وهو تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد به المتكلم به سبحانه فيحرص بجهده على ان يحول بين قلبه وبين مقصود القرآن فلا يكمل انتفاع القارئ به فأمر عند الشروع أن يستعيذ بالله عز وجل منه ومنها ان القارئ مناج لله تعالى بكلامه والله تعالى أشد أذنا للقارئ الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة الى قينته والشيطان انما قراءته الشعر والغناء فأمر القارئ أن يطرده بالاستعاذة عند مناجاته لله تعالى واستماع الرب قراءته ومنها أن الله سبحانه أخبر أنه ما أرسل من رسول ولا نبى الا اذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته والسلف كلهم على أن المعنى اذا تلا ألقى الشيطان فى تلاوته قال الشاعر فى عثمان

تمنى كتاب الله أول ليله * وآخره لاقى حمام المقادر

فاذا كان هذا فعله مع الرسل عليهم السلام فكيف بغيرهم ولهذا يغلط القارئ تارة ويخبط عليه القراءة ويشوشها عليه فيخبط عليه لسانه أو يشوش عليه فهمه وقلبه فاذا

شهود أوليته سبحانه حيث كان ولا شئ غيره وهو الاله الحق الكامل فى أسمائه وصفاته الغنى بذاته عما سواه الحميد المجيد قبل ان يخلق من يحمده ويعبده ويمجده فهو معبود محمود حى قيوم له الملك وله الحمد فى الازل والابد لم يزل ولا يزال موصوفا بصفات الجلال منعوتا بنعوت الكمال وكل شئ سواه فانما كان به وهو سبحانه بنفسه ليس بغيره فهو القيوم الذى قيام كل شئ به ولا حاجة به فى قيوميته الى غيره بوجه من الوجوه فاذا شهد العبد سبقه تعالى بالاولية ودوام وجوده الحق وغاب بهذا عما سواه من المحدثات فنى فى وجوده من لم يكن وبقى من لم يزل واضمحلت الممكنات فى وجوده الازلى الدائم بحيث صارت كالظلال التى يبسطها ويمدها ويقبضها فيستغنى العبد بهذا المشهد العظيم ويتغذى بها عن فاقاته وحاجاته وانما كان هذا عندهم أفضل مما قبله لان الشهود الذى قبله فيه شائبة مشيرة الى وجود العبد وهذا الشهود الثانى سائر الموجودات كلها سوى الاول تعالى قد اضمحلت وفنيت فيه وصارت كأوليتها وهو العدم فافنتها أولية الحق سبحانه فبقى العبد محوا صرفا وعدما محضا وان كانت أزليته مشخصة مشارا اليها لكنها لما نسبت الى أولية الحق عز وجل اضمحلت وفنيت وبقى الواحد الحق الذى لم يزل باقيا فاضمحل ما دون الحق تعالى فى شهود العبد كما هو مضمحل فى نفسه وشهد العبد حينئذ ان كل شئ ما سواه باطل وان الحق المبين هو الله وحده ولا ريب ان الغنى بهذا الشهود ثمن الغنى بالذى قبله وليس هذا مختصا بشهود أوليته تعالى فقط بل جميع ما يبدو للقلوب من صفات الرب سبحانه يستغنى العبد بها بقدر حظه وقسمه من

حضر عند القراءة لم يعدم منه القارئ هذا أو هذا وربما جمعهما له فكان من أهم الامور استعاذته بالله تعالى منه ومنها ان الشيطان أحرص ما يكون على الانسان عندما يهم بالخير أو يدخل فيه فهو يشتد عليه حينئذ ليقطعه عنه وفى الصحيح عنه صلى الله تعالى عليه وسلم ان شيطانا تفلت على البارحة فاراد أن يقطع على صلاتى الحديث وكلما كان الفعل أنفع للعبد وأحب الى الله تعالى كان اعتراض الشيطان له أكثر وفى مسند الامام أحمد من حديث سبرة بن أبى الفاكه أنه سمع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يقول ان الشيطان قعد لابن آدم باطرقه فقعد له بطريق الاسلام فقال أتسلم وتذر دينك ودين آبائك فعصاه فاسلم ثم قعد له بطريق الهجرة فقال أتهاجر وتذر أرضك وسماءك وانما مثل المهاجر كالفرس فى الطول فعصاه وهاجر ثم قعد له بطريق الجهاد وهو جهد النفس والمال فقال تقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال فالشيطان بالرصد للانسان على طريق كل خير وقال منصور عن مجاهد رحمه الله ما من رفقة تخرج الى مكة الا جهز معهم ابليس مثل عدتهم رواه ابن أبى حاتم فى تفسيره فهو بالرصد ولا سيما عند قراءة القرآن فأمر سبحانه العبد أن يحارب عدوه الذى يقطع عليه الطريق ويستعيذ بالله تعالى منه أولا ثم يأخذ فى السير كما ان المسافر اذا عرض له قاطع طريق اشتغل بدفعه ثم اندفع فى سيره ومنها ان الاستعاذة قبل القراءة عنوان واعلام بان المأتى به بعدها القرآن ولهذا لم تشرع الاستعاذة بين يدى كلام غيره بل الاستعاذة مقدمة وتنبيه للسامع ان الذى يأتى بعدها هو التلاوة فاذا سمع السامع الاستعاذة استعد لاستماع كلام الله تعالى ثم شرع ذلك للقارئ وان كان وحده لما ذكرنا من الحكم وغيرها فهذه بعض فوائد الاستعاذة وقد قال أحمد فى رواية حنبل لا يقرأ فى صلاة ولا غير صلاة الا استعاذ لقوله عز وجل فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم وقال فى رواية ابن مشيش كلما قرأ يستعيذ وقال عبد الله بن أحمد سمعت أبى اذا قرأ استعاذ يقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ان الله هو السميع العليم وفى المسند والترمذى من حديث أبى سعيد الخدرى قال كان النبى صلى الله عليه وسلم اذا قام الى الصلاة استفتح ثم يقول أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه وقال ابن المنذر جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم انه كان يقول قبل القراءة أعوذ بالله من الشيطان الرجيم واختار الشافعى وأبو حنيفة والقاضى فى الجامع انه كان يقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم وهو رواية عن أحمد لظاهر الآية وحديث ابن المنذر وعن أحمد من رواية عبد الله أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم لحديث أبى سعيد وهو مذهب الحسن وابن سيرين ويدل عليه ما رواه أبو داود فى قصة الافك أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم جلس وكشف عن وجهه وقال أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم وعن أحمد رواية أخرى انه يقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ان الله هو السميع العليم وبه قال سفيان الثورى ومسلم بن يسار واختاره القاضى فى المجرد وابن عقيل لان قوله فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ظاهره أنه يعقب قوله أعوذ بالله بقوله من الشيطان الرجيم وقوله فى الآية الاخرى فاستعذ بالله انه هو السميع العليم يقتضى أن يلحق بالاستعاذة وصفه بانه هو السميع العليم فى جملة

معرفتهم او قيامه بتدبيره دينها الى شهد مشهد علوه على خلقه وفوقيته لعباده واستوائه على عرشه كأنه خبير به أعرف الخلق واعلمهم به الصادق المصدوق وتعبد بمقتضى هذه الصفة بحيث يصير لقلبه صمد يعرج القلب اليه مناجيا له مطرقا واقفا بين يديه وقوف العبد الذليل بين يدى الملك العزيز فيشعر بان كلمه وعمله صاعد اليه معروض عليه مع أوفى خاصته وأوليائه فيستحى ان يصعد اليه من كلمه ما يخزيه ويفضحه هنالك ويشهد نزول الامر والمراسيم الالهية الى أقطار العوالم كل وقت بانواع التدبير والتصرف من الاماتة والاحياء والتولية والعزل والخفض والرفع والعطاء والمنع وكشف البلاء وارساله وتقلب الدول ومداولة الايام بين الناس الى غير ذلك من التصرفات فى المملكة التى لا يتصرف فيها سواه فمراسيمه نافذة فيها كما يشاء يدبر الامر من السماء الى الارض ثم يعرج اليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون فمن أعطى هذا المشهد حقه معرفة وعبودية استغنى به وكذلك من شهد مشهد العلم المحيط الذى لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الارض ولا فى السموات ولا فى قرار البحار ولا تحت أطباق الجبال بل أحاط بذلك علمه علما تفصيليا ثم تعبد بمقتضى هذا الشهود من حراسة خواطره وارادته وجميع أحواله وعزماته وجوارحه علم ان حركاته الظاهرة والباطنة وخواطره وارادته وجميع أحواله ظاهرة مكشوفة لديه علانية بادية لا يخفى عليه منها شئ وكذلك اذا أشعر قلبه صفة سمعه سبحانه لاصوات عباده على اختلافها وجهرها وخفائها وسواء عنده من أسر القول ومن جهر به لا يشغله جهر من جهر عن سمعه لصوت من أسر ولا يشغله سمع عن سمع ولا تغلطه الاصوات على كثرتها

مستقلة بنفسها موكدة بحرف ان لانه سبحانه هكذا ذكره قال اسحق الذى اختاره
ما ذكر عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم اللهم انى أعوذبك من الشيطان الرجيم من
همزه ونفخه ونفثه وقد جاء فى الحديث تفسير ذلك قال وهمزه الموتة ونفخه الكبر ونفثه
الشعر وقال تعالى وقل رب أعوذبك من همزات الشياطين وأعوذبك رب أن يحضرون
والهمزات جمع همزة كثمرات وثمرة وأصل الهمز الدفع قال أبو عبيد عن الكسائى همزته
ولمزته ولهزته ونهزته اذا دفعته والتحقيق انه دفع بنخز وغمز يشبه الطعن فهو دفع خاص
فهمزات الشياطين دفعهم الوساوس والاغواء الى القلب قال ابن عباس والحسن
همزات الشياطين نزغاتهم ووساوسهم وفسرت همزاتهم بنفخهم ونفثهم هذا قول مجاهد
وفسرت بخنقهم وهو الموتة التى تشبه الجنون وظاهر الحديث أن الهمز نوع غير النفخ
والنفث وقد يقال وهو الاظهر أن همزات الشياطين اذا أفردت دخل فيها جميع اصاباتهم
لابن آدم واذا اقترنت بالنفخ والنفث كانت نوعا خاصا كنظائر ذلك ثم قال وأعوذبك رب أن
يحضرون قال ابن زيد فى أمورى وقال الكلبى عند تلاوة القرآن وقال عكرمة عند
النزع والسياق فأمره أن يستعيذ من نوعى شرهم اصابتهم له بالهمز وقربهم ودنوهم منه
فتضمنت الاستعاذة أن لا يمسوه ولا يقربوه وذكر ذلك سبحانه عقب قوله ادفع بالتى هى
أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون فأمره أن يحترز من شر شياطين الانس بدفع اساءتهم
اليه بالتى هى أحسن وان يدفع شر شياطين الجن بالاستعاذة منهم ونظير هذا قوله فى
الاعراف خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين فامره بدفع شر الجاهلين بالاعراض
عنهم ثم أمره بدفع شر الشيطان بالاستعاذة منه فقال واما ينزغنك من الشيطان نزغ
فاستعذ بالله انه سميع عليم ونظير ذلك قوله فى سورة فصلت ولا تستوى الحسنة ولا
السيئة ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم فهذا لدفع شر
شيطان الانس ثم قال واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه هو السميع العليم
وقال ههنا انه هو السميع العليم فأكد بان وبضمير الفصل وأتى باللام فى السميع العليم
وقال فى الاعراف انه سميع عليم وسر ذلك والله أعلم انه حيث اقتصر على مجرد الاسم ولم
يؤكده أريد اثبات مجرد الوصف الكافى فى الاستعاذة والاخبار أنه سبحانه يسمع ويعلم
استعاذتك فيجيبك ويعلم ما تستعيذ منه فيدفعه عنك فالتسميع لكلام المستعيذ والعلم
لفعل المستعاذ منه وبذلك يحصل مقصود الاستعاذة وهذا المعنى شامل للوصفين وامتاز
المذكور فى فصلت بمزيد التأكيد والتعريف والتخصيص لان سياق ذلك بعد انكاره
سبحانه على الذين شكوا فى سمعه لقولهم وعلمه به كما ثبت فى الصحيحين من حديث ابن
مسعود رضى الله عنه قال اجتمع عند البيت ثلاثة نفر قرشيان وثقفى أو ثقفيان وقرشى
كثير شحم بطونهم قليل فقه قلوبهم فقالوا أترون الله يسمع ما نقول فقال أحدهم يسمع
ان جهرنا ولا يسمع ان أخفينا فقال الآخر ان سمع بعضه سمعه كله فأنزل الله عز وجل وما
كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله
لا يعلم كثيرا مما تعملون الى قوله من الخاسرين فجاء التأكيد فى قوله انه هو السميع
العليم فى سياق هذا الانكار أى هو وحده الذى له كمال قوة السمع واحاطة العلم لا كما يظن به

والاختلاف ولا السبقة اسمائها بل هى عنده كلها كنفس واحدة كانت خلق الخلائق وبعثهم بمنزلة نفس واحدة وكذلك اذا شهد
معنى اسمه البصير جل جلاله الذى يرى
دبيب النملة السوداء على الصخرة
الصماء فى حندس الظلماء ويرى
تفاصيل خلق الذرة الصغيرة ومخها
وعروقها ولحمها وحركتها ويرى
مد البعوضة جناحها فى ظلمة الليل
وأعطى هذا المشهد حقه من
العبودية بحرس حركاته وسكناته
وتيقن انها بمرأى منه سبحانه
ومشاهدة لا يغيب عنه منها شئ
وكذلك اذا شهد مشهد القيومية
الجامع لصفات الافعال وانه قائم
على كل شئ وقائم على كل نفس وانه
تعالى هو القائم بنفسه المقيم لغيره
القائم عليه بتدبيره وربوبيته
وقهره وايصال جزاء المحسن اليه
وجزاء المسئ اليه وانه بكمال
قيوميته لا ينام ولا ينبغى له ان ينام
يخفض القسط ويرفعه يرفع اليه
عمل الليل قبل النهار وعمل النهار
قبل الليل لا تأخذه سنة ولا نوم
ولا يضل ولا ينسى وهذا المشهد
من ارفع مشاهد العارفين وهو
مشهد الربوبية وأعلى منه مشهد
الالهية الذى هو مشهد الرسل
واتباعهم الحنفاء وهو شهادة أن
لا اله الا هو وان الهية ما سواه باطل
ومحال كما ربوبية ما سواه كذلك فلا
أحد سواه يستحق ان يؤله ويعبد
ويصلى له ويسجد ويستحق نهاية
الحب مع نهاية الذل لكمال أسمائه
وصفاته وأفعاله فهو المطاع
وحده على الحقيقة والمألوه وحده
وله الحكم وحده فكل عبودية
لغيره باطلة وعناء وضلال وكل
محبة لغيره عذاب لصاحبها وكل
غنى لغيره فقر وفاقة وكل عز بغيره
ذل وصغار وكل تكثر بغيره قلة
وذلة فكما استحال ان يكون للخلق
رب غيره فكذلك استحال ان يكون لهم اله غيره فهو الذى انتهت اليه الرغبات وتوجهت نحوه الطلبات ويستحيل أن يكون معه اله آخر

أعداؤه الجاهلون انه لا يسمع ان أخفوا وانه لا يعلم كثيرا مما يعملون وحسن ذلك أيضا ان المأمور به في سورة فصلت دفع اساءتهم اليه باحسانه اليهم وذلك أشق على النفوس من مجرد الاعراض عنهم ولهذا عقبه بقوله وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم فحسن التأكيد لحاجة المستعيذ وأيضا فان السياق هاهنا لاثبات صفات كماله وأدلة ثبوتها وآيات ربوبيته وشواهد توحيده ولهذا عقب ذلك بقوله ومن آياته الليل والنهار وقوله ومن آياته انك ترى الارض خاشعة فأتى باداة التعريف الدالة على ان من أسمائه السميع العليم كما جاءت الاسماء الحسنى كلها معرفة والذى فى الاعراف فى سياق وعيد المشركين واخوانهم من الشياطين ووعد المستعيذ بان له ربا يسمع ويعلم وآلهة المشركين الذين عبدوها من دونه ليس لهم أعين يبصرون بها ولا آذان يسمعون بها فالله سميع عليم وآلهتهم لا تسمع ولا تبصر ولا تعلم فكيف تسوونها به فى العبادة فعلمت أنه لا يليق بهذا السياق غير التنكير كما لا يليق بذلك غير التعريف والله أعلم باسرار كلامه ولما كان المستعاذ منه فى سورة حم المؤمن هو شر مجادلة الكفار فى آياته وما يترتب عليها من أفعالهم المرئية بالبصر قال ان الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم ان فى صدورهم الا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله انه هو السميع البصير فانه لما كان المستعاذ منه كلامهم وأفعالهم المشاهدة عيانا قال انه هو السميع البصير وهناك المستعاذ منه غير مشاهد انما فانه يراناهو وقبيله من حيث لا نراه بل هو معلوم بالايمان واخبار الله تعالى ورسوله

(فصل) فالقرآن أرشد الى دفع هذين العدوين باسهل الطرق بالاستعاذة والاعراض عن الجاهلين ودفع اساءتهم بالاحسان وأخبر عن عظم حظ من كفاه ذلك فانه ينال بذلك كف شر عدوه وانقلابه صديقا ومحبة الناس له وثناءهم عليه وقهر هواه وسلامة قلبه من الغل والحقد وطمأنينة الناس حتى عدوه اليه هذا غير ما يناله من كرامة الله تعالى وحسن ثوابه ورضاه عنه وهذا غاية الحظ عاجلا وآجلا ولما كان ذلك لا ينال الا بالصبر قال وما يلقاها الا الذين صبروا وانا النزق الطائش لا يصبر عن المقابلة ولما كان الغضب مركب الشيطان فتتعاون النفس الغضبية والشيطان على النفس المطمئنة التى تأمر بدفع الاساءة بالاحسان أمر ان يعاونها بالاستعاذة منه فتمد الاستعاذة النفس المطمئنة فتقوى على مقاومة جيش النفس الغضبية ويأتى مدد الصبر الذى يكون النصر معه وجاء مدد الايمان والتوكل فابطل سلطان الشيطان فانه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون قال مجاهد وعكرمة والمفسرون ليس له حجة والصواب أن يقال ليس له طريق يتسلط به عليهم لا من جهة الحجة ولا من جهة القدرة فالقدرة داخلة فى مسمى السلطان وانما سميت الحجة سلطانا لان صاحبها يتسلط بها تسلط صاحب القدرة بيده وقد أخبر سبحانه أنه لا سلطان لعدوه على عباده المخلصين المتوكلين فقال فى سورة الحجر قال رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الارض ولأغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين قال هذا صراط على مستقيم ان عبادى ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين وقال فى سورة النحل انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون انما سلطانه على الذين يتولونه

وليس قيامه بغيره ومن المحال ان يحصل فى الوجود اثنان كذلك ولو كان فى الوجود الهان لفسد نظامه أعظم فساد واختل أعظم اختلال كما يستحيل ان يكون له فاعلان متساويان كل منهما مستقل بالفعل فان استقلالهما ينافى استقلالهما واستقلال أحدهما يمنع ربوبية الآخر فتوحيد الربوبية أعظم دليل على توحيد الالهية ولذلك وقع الاحتجاج به فى القرآن أكثر مما وقع بغيره لصحة دلالته وظهورها وقبول العقول والفطر لها ولاعتراف أهل الارض بتوحيد الربوبية وكذلك كان عباد الاصنام يقرون به وينكرون توحيد الالهية ويقولون أجعل الآلهة الها واحدا مع اعترافهم بان الله وحده هو الخالق لهم وللسموات والارض وما بينهما وانه المنفرد بملك ذلك كله فارسل الله تعالى يذكرهم فى فطرهم الاقرار به من توحيده وحده لا شريك له وانهم لو رجعوا الى فطرهم وعقولهم لدلتهم على امتناع اله آخر معه واستحالته وبطلانه فشهد الالوهية هو مشهد الحنفاء وهو مشهد جامع للاسماء والصفات وحظ العباد بحسب حظهم من معرفة الاسماء والصفات ولذلك كان الاسم الدال على هذا المعنى هو اسم الله جل جلاله فان هذا الاسم هو الجامع ولهذا تضاف الاسماء الحسنى كلها اليه فيقال الرحمن الرحيم العزيز الغفار القهار من أسماء الله ولا يقال الله من أسماء الرحمن قال الله تعالى ولله الاسماء الحسنى فهذا المشهد تجتمع فيه المشاهد كلها وكل مشهد سواه فانما هو مشهد لصفة من صفاته فمن اتسع قلبه لشهد الالهية وقام بحقه من التعبد الذى هو كمال الحب بكمال الذل والتعظيم والقيام

يتولونه والذين هم به مشركون فتضمن ذلك أمرين أحدهما نفى سلطانه على أهل التوحيد والاخلاص والثانى اثبات سلطانه على أهل الشرك وعلى من تولاه ولما علم عدو الله ان الله تعالى لا يسلطه على أهل التوحيد والاخلاص قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين فعلم عدو الله أن من اعتصم بالله عز وجل وأخلص له وتوكل عليه لا يقدر على اغوائه واضلاله وانما يكون له السلطان على من تولاه وأشرك مع الله فهؤلاء رعيته فهو وليهم وسلطانهم ومتبوعهم فان قيل فقد أثبت له السلطان على أوليائه فى هذا الموضع فكيف ينفيه فى قوله ولقد صدق عليهم ابليس ظنه فاتبعوه الا فريقا من المؤمنين وما كان له عليهم من سلطان الا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك قيل ان كان الضمير فى قوله وما كان له عليهم من سلطان عائدا على المؤمنين فالسؤال ساقط ويكون الاستثناء منقطعا أى لكن امتحناهم بابليس لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك وان كان عائدا على ما عاد عليه فى قوله ولقد صدق عليهم ابليس ظنه فاتبعوه وهو الظاهر ليصلح الاستثناء المنقطع بوقوعه بعد النفى ويكون المعنى وما سلطناه عليهم الا لنعلم من يؤمن بالآخرة قال ابن قتيبة ان ابليس لما سأل الله تعالى النظرة فأنظره قال لأغوينهم ولأضلنهم ولآمرنهم بكذا ولأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا وليس هو فى وقت هذه المقالة مستيقنا أن ما قدره فيه يتم وانما قال ظنا فلما اتبعوه وأطاعوه صدق عليهم ما ظنه فيهم فقال تعالى وما كان تسليطنا اياه الا لنعلم المؤمنين من الشاكين يعنى نعلمهم موجودين ظاهرين فيحق القول ويقع الجزاء وعلى هذا فيكون السلطان ههنا على من لم يؤمن بالآخرة وشك فيها وهم الذين تولوه وأشركوا به فيكون السلطان ثابتا لا منفيا فتتفق هذه الآية مع سائر الآيات فان قيل فما تصنع بالتى فى سورة ابراهيم حيث يقول لاهل النار وما كان لى عليكم من سلطان الا ان دعوتكم فاستجبتم لى وهذا وان كان قوله فالله سبحانه أخبر به عنه مقررا له لا منكرا فدل على انه كذلك قيل هذا سؤال جيد وجوابه ان السلطان المنفى فى هذا الموضع هو الحجة والبرهان أى ما كان لى عليكم من حجة وبرهان أحتج به عليكم كما قال ابن عباس ما كان لى من حجة أحتج بها عليكم أى ما أظهرت لكم حجة الا أن دعوتكم فاستجبتم لى وصدقتم مقالتى واتبعتمونى بلا برهان ولا حجة وأما السلطان الذى أثبته فى قوله انما سلطانه على الذين يتولونه فهو تسلطه عليهم بالاغواء والاضلال وتمكنه منهم بحيث يؤزهم الى الكفر والشرك ويزعجهم اليه ولا يدعهم يتركونه كما قال تعالى ألم تر انا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا قال ابن عباس تغريهم اغراء وفى رواية تشليهم اشلاء وفى لفظ تحرضهم تحريضا وفى آخر تزعجهم الى المعاصى ازعاجا وفى آخر توقدهم أى تحركهم كما يحرك الماء بالايقاد تحته قال الاخفش توهجهم وحقيقة ذلك أن الأز هو التحريك والتهييج ومنه يقال لغليان القدر الازيز لان الماء يتحرك عند الغليان ومنه الحديث لجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء قال أبو عبيدة الازيز الالتهاب والحركة كالتهاب النار فى الحطب يقال أز قدرك أى ألهب تحتها بالنار وأزت القدر اذا اشتد غليانها فقد حصل للازّ معنيان أحدهما التحريك والثانى الايقاد والالهاب وهما متقاربان فانه تحريك خاص بازعاج والهاب

ولكن الغنى لتعالى عن الخلق ... فيا له من غنى ما أعظم خطره وأجل قدره تضاءلت دونه الممالك فما دونها وصارت بالنسبة اليه كالظل من الحامل له والطيف الموافى المنام الذى يأتى به حديث النفس ويطرده الانتباه من النوم (فصل) الدرجة الثالثة من درجات الغنى بالرب سبحانه الفوز بوجوده هذا الغنى أعلى درجات الغنى لان الغنى الاول والثانى كانا من آثار ذكر الله والتوجه فافاض على القلب من صدق التوجه أنوار الصفات المقدسة واستغنى القلب بذلك وجعل له أيضا أنوار الشعور بكفاية الله وكفايته لعبده وحسن وكالته وقيوميته تدبيره وحسن تدبيره فاستغنت النفس بذلك أيضا وأما هذا الغنى الثالث الذى هو الغنى بالحق فهو من آثار وجود الحقيقة وهو انما يكون بعد ترقيه من آثار الصفات الى آثار وجود الذات وانما يكون هذا الوجود بعد مكاشفة عين اليقين عندما يطلع فجر التوحيد فهذا أوله وكماله عند طلوع شمسه فينقطع ضباب الوجود الفانى وتشرق شمس الوجود الباقى فيقطع لها كل ضباب وهذا عبارة عن نور يقذف فى القلب يكشف له بذلك النور عن عظمة الذات كما كشف له بالنور الذى قبله عن عظمة الصفات فاذا كان أثرا من آثار صفات الذات أو صفات الافعال يعنى القلب والنفس وباطنك بما تسكن به الارواح من أنوار قدس الذات المتصفة بالجلال والاكرام فهذا غنى لا يناله الوصف ولا يدخل تحت الشرح يستغنى العبد الفقير بوجود

وبزينها فى أعينهم وصح عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال ولم يقل من فوقهم لانه علم أن الله من فوقهم قال الشعبى فالله عز وجل أنزل الرحمة عليهم من فوقهم وقال قتادة أتاك الشيطان يا ابن آدم من كل وجه غير أنه لم يأتك من فوقك لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله قال الواحدى وقول من قال الايمان كناية عن الحسنات والشمائل كناية عن السيئات حسن لان العرب تقول اجعلنى فى يمينك ولا تجعلنى فى شمالك تريد اجعلنى من المقدمين عندك ولا تجعلنى من المؤخرين وأنشد لابن الدمنة

أبنى أفى يمنى يديك جعلتنى * فافرح أم صيرتنى فى شمالك

وروى أبو عبيد عن الاصمعى هو عندنا باليمين أى بمنزلة حسنة وبضد ذلك هو عندنا بالشمال وأنشد

رأيت بنى العلات لما تظافروا * يحوزون سهمى بينهم فى الشمائل

أى ينزلونى بالمنزلة السيئة وحكى الازهرى عن بعضهم فى هذه الآية لاغوينهم حتى يكذبوا بما تقدم من امور الامم السالفة ومن خلفهم بأمر البعث وعن ايمانهم وعن شمائلهم أى لاضلنهم فيما يعملون لان الكسب يقال فيه ذلك بما كسبت يداك وان كانت اليدان لم يجنيا شيأ لانهما الاصل فى التصرف فجعلتا مثلا لجميع ما يعمل بغيرهما وقال آخرون منهم أبو اسحاق والزمخشرى واللفظ لابى اسحاق ذكر هذه الوجوه للمبالغة فى التوكيد أى لآتينهم من جميع الجهات والحقيقة والله أعلم أتصرف لهم فى الاضلال من جميع جهاتهم وقال الزمخشرى ثم لآتينهم من الجهات الاربع التى يأتى منها العدو فى الغالب وهذا مثل لوسوسته اليهم وتسويله ما أمكنه وقدر عليه كقوله واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وهذا يوافق ما حكيناه عن قتادة أتاك من كل وجه غير أنه لم يأتك من فوقك وهذا القول أعم فائدة ولا يناقض ما قال السلف فان ذلك على جهة التمثيل لا التعيين قال شقيق ما من صباح الا قعد لى الشيطان على أربعة مراصد من بين يدى ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى فيقول لا تخف فان الله غفور رحيم فأقرأ وانى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى وأما من خلفى فيخوفنى الضيعة على من أخلفه فاقرأ وما من دابة فى الارض الا على الله رزقها ومن قبل يمينى يأتينى من قبل النساء فاقرأ والعاقبة للمتقين ومن قبل شمالى فيأتينى من قبل الشهوات فاقرأ وحيل بينهم وبين ما يشتهون (قلت) السبل التى يسلكها الانسان أربعة لا غير فانه تارة يأخذ على جهة يمينه وتارة على شماله وتارة أمامه وتارة يرجع خلفه فاى سبيل سلكها من هذه وجد الشيطان عليها رصدا له فان سلكها فى طاعة وجده عليها يثبطه عنها ويقطعه أو يعوقه ويبطئه وان سلكها لمعصية وجده عليها حاملا له وخادما ومعينا ومنيا ولو اتفق له الهبوط الى أسفل لاتاه من هنالك ومما يشهد لصحة أقوال السلف قوله تعالى وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم قال الكلبى ألزمناهم قرناء من الشياطين وقال مقاتل هيأنا لهم قرناء من الشياطين وقال ابن عباس ما بين أيديهم من أمر الدنيا وما خلفهم من أمر الآخرة والمعنى زينوا لهم الدنيا حتى آثروها ودعوهم الى التكذيب بالآخرة والاعراض عنها

هو عين الفقر اليه وهما عبارتان عن معنى واحد لان كمال الغنى به هو كمال عبوديته وحقيقة العبودية كمال الافتقار اليه من كل وجه وهذا الافتقار هو عين الغنى به فليس هنا شيئان يطلب تفضيل أحدهما على الآخر وانما يتوهم كونهما شيئين بحسب المستغنى عنه والمفتقر اليه فهى حقيقة واحدة ومقام واحد يسمى غنى بالنسبة الى فراغه عن الموجودات الفانية وفقرا بالنسبة الى قصر همته وجمعها على الله سبحانه فهى همة سافرت عن شئ واتصلت بغيره فسفرها عن الغير غنى وسفرها الى الله فقر فاذا وصلت اليه استغنت به بكمال فقرها اليه اذ يصير لها بعد الوصول فقر آخر غير فقرها الاول وانما يكمل فقرها بهذا الوصول وسئل رويم عن الفقر فقال ارسال النفس فى أحكام الله تعالى قلت ان أراد الحكم الدينى فصحيح وان أراد الحكم الكونى القدرى فلا يصح هذا الاطلاق بل لا بد فيه من التفصيل كما تقدم بيانه وارسال النفس فى أحكامه التى يسخطها ويبغضها وارسالها فى احكامه التى يحب منازعتها ومدافعتها باحكامه خروج عن العبودية وقيل نعت الفقير ثلاثة أشياء حفظ سره وأداء فرضه وصيانة فقره قلت حفظ السر كتمانه صيانة له من الاغيار وغيرة عليه ان ينكشف لمن لا يعرفه ولا يؤمن عليه واداء الفرض قيام بحق العبودية وصيانة الفقر حفظه عن لوث مساكنة الاغيار وحفظه عن كل سبب يفسده وكتمانه ما استطاع وقال ابراهيم بن أدهم طلبنا الفقر فاستقبلنا الغنى وطلب الناس الغنى فاستقبلهم الفقر وسئل يحيى بن معاذ عن الغنى فقال هو الامن بالله عز وجل وسئل أبو حفص بماذا ينبغى ان يقدم الفقير على ربه فقال ما ينبغى للفقير ان يقدم على ربه بشئ

وقال الكلبي زينوا لهم ما بين أيديهم من أمر الآخرة أنه لا جنة ولا نار ولا بعث وما خلفهم من أمر الدنيا ما هم عليه من الضلالة وهذا اختيار الفراء وقال ابن زيد زينوا لهم ما مضى من خبث أعمالهم وما يستقبلون منها والمعنى على هذا زينوا لهم ما عملوه فلم يتوبوا منه وما يعزمون عليه فلا ينوون تركه فقول عدو الله تعالى ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم يتناول الدنيا والآخرة وقوله وعن أيمانهم وعن شمائلهم فان ملك الحسنات عن اليمين يستحث صاحبه على فعل الخير فيأتيه الشيطان من هذه الجهة يثبطه عنه وان ملك السيئات عن الشمال ينهاه عنها فيأتيه الشيطان من تلك الجهة يحرضه عليها وهذا يفصل ما أجمله في قوله فبعزتك لأغوينهم أجمعين وقال تعالى ان يدعون من دونه الا اناثا وان يدعون الا شيطانا مريدا لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الانعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان الا غرورا قال الضحاك مفروضا أي معلوما وقال الزجاج أي نصيبا افترضه على نفسي قال الفراء يعني ما جعل له عليه السبيل من الناس فهو كالمفروض قلت حقيقة الفرض هو التقدير والمعنى أن من اتبع الشيطان وأطاعه فهو من نصيبه المفروض وحظه المقسوم فكل من أطاع عدو الله فهو من مفروضه فالناس قسمان نصيب الشيطان ومفروضه وأولياء الله وحزبه وخاصته وقوله ولأضلنهم يعني عن الحق ولأمنينهم قال ابن عباس يريد تعويق التوبة وتأخيرها وقال الكلبي أمنيهم أنه لا جنة ولا نار ولا بعث وقال الزجاج أجمع لهم مع الاضلال ان أوهمهم انهم ينالون مع ذلك حظهم من الآخرة وقيل لأمنينهم ركوب الاهواء الداعية الى العصيان والبدع وقيل أمنيهم طول البقاء في نعيم الدنيا فأطيل لهم الامل ليؤثروها على الآخرة وقوله ولآمرنهم فليبتكن آذان الانعام البتك القطع وهو في هذا الموضع قطع آذان البحيرة عن جميع المفسرين ومن ههنا كره جمهور أهل العلم تثقيب أذني الطفل للحلق ورخص بعضهم في ذلك للانثى دون الذكر لحاجتها الى الحلية واحتجوا بحديث أم زرع وفيه أناس من حلي أذني وقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كنت لك كأبي زرع لام زرع ونص أحمد رحمه الله على جواز ذلك في حق البنت وكراهته في حق الصبي وقوله ولآمرنهم فليغيرن خلق الله قال ابن عباس يريد دين الله وهو قول ابراهيم ومجاهد والحسن والضحاك وقتادة والسدي وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير ومعنى ذلك هو أن الله تعالى فطر عباده على الفطرة المستقيمة وهي ملة الاسلام كما قال تعالى فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون منيبين اليه واتقوه ولهذا قال صلى الله تعالى عليه وسلم ما من مولود الا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء فهل تحسون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها ثم قرأ أبو هريرة فطرة الله التي فطر الناس عليها الآية متفق عليه فجمع عليه السلام بين الامرين تغيير الفطرة بالتهويد والتنصير وتغيير الخلقة بالجدع وهما الامران اللذان أخبر ابليس أنه لابد أن يغيرهما فغير فطرة الله بالكفر وهو تغيير الخلقة التي خلقوا عليها وغير

الفقر ان يدخله فيفسد عليه غناه وقال بشر بن الحارث أفضل المقامات اعتقاد الصبر على الفقر الى القبر قلت ومن ههنا قال القائل

قالوا غدا العيد ماذا أنت لابسه
فقلت خلعة ساق حبه جرعا
فقر وصبر هما ثوبان تحتهما
قلب يرى ألفه الاعياد والجمعا
الدهر لي مأتم ان غبت يا أملي
والعيد ما دمت لي مرأى ومستمعا

وسئل ابن الجلاء متى يستحق الفقير اسم الفقر فقال اذا لم يبق عليه بقية منه فقيل له كيف ذلك فقال اذا كان له فليس له واذا لم يكن له فهو له قلت معنى هذا انه لا يبقى عليه بقية من نفسه فاذا كان لنفسه فليس لها بل قد أضاع حقه وضيع سعادتها وكمالها واذا لم يكن لنفسه بل كان كله لربه فقد احرز كل حظ له وحصل لنفسه سعادتها فانه اذا كان لله كان الله له واذا لم يكن لله لم يكن الله له فكيف تكون نفسه له فهذا من الذين خسروا أنفسهم وقيل حقيقة الفقر ان لا يستغني الفقير في فقره بشيء الا بمن اليه فقره وقال أبو حفص أحسن ما توسل به العبد الى مولاه دوام الفقر اليه على جميع الاحوال وملازمة السنة في جميع الافعال وطلب القوت من وجه حلال وقال بعضهم ينبغي للفقير ان لا تسبق همته خطوته قلت يشير الى تعلق همته بواجب وقته وانه لا يتخطى همته واجب الوقت قبل اكماله وأيضا يشير الى قصر أمله وان همته غير متعلقة بوقت لا يحدث نفسه ببلوغه وأيضا يشير الى جمع الهمة على حفظ الوقت ولا يضعفها بتقسيمها على الاوقات وقيل أقل ما يلزم الفقير في فقره أربعة أشياء علم يسوسه وورع

الصورة

الصورة بالجدع والبتك فغير الفطرة الى الشرك والخلقة الى البتك والقطع فهذا تغيير خلقة الروح وهذا تغيير خلقة الصورة ثم قال يعدهم ويمنيهم فوعده ما يصل الى قلب الانسان نحو سيطول عمرك وتنال من الدنيا لذتك وستعلو على أقرانك وتظفر بأعدائك والدنيا دول ستكون لك كما كانت لغيرك ويطول أمله ويعده بالحسنى على شركه ومعاصيه ويمنيه الامانى الكاذبة على اختلاف وجوهها والفرق بين وعده وتمنيه أنه يعد الباطل ويمنى المحال والنفس المهينة التى لا قدر لها تغتذى بوعده وتمنيته كما قال القائل * منى ان تكن حقا تكن أحسن المنى * والا فقد عشنا بها زمنا رغدا فالنفس المبطلة الخسيسة تلتذ بالامانى الباطلة والوعود الكاذبة وتفرح بها كما يفرح بها النساء والصبيان ويتحركون لها فالاقوال الباطلة مصدرها وعد الشيطان وتمنيته فان تمنى الشيطان بالحق وادراكه ويعدهم الوصول اليه من غير طريقه فكل مبطل فله نصيب من قوله يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان الا غرورا ومن ذلك قوله تعالى الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا قيل يعدكم الفقر يخوفكم به يقول ان أنفقتم أموالكم افتقرتم ويأمركم بالفحشاء قالوا هى البخل فى هذا الموضع خاصة ويذكر عن مقاتل والكلبى كل فحشاء فى القرآن فهى الزنا الا فى هذا الموضع فانها البخل والصواب ان الفحشاء على بابها وهى كل فاحشة فهى صفة لموصوف محذوف فحذف موصوفها ارادة للعموم أى بالفعلة الفحشاء والخلة الفحشاء ومن جملتها البخل فذكر سبحانه وعد الشيطان وأمره يأمر بالشر ويخوف من فعل الخير وهذان الامران هما جماع ما يطلبه الشيطان من الانسان فانه اذا خوفه من فعل الخير تركه واذا أمره بالفحشاء وزينها له ارتكبها وسمى سبحانه تخويفه وعد الانتظار الذى خوفه اياه كما ينتظر الموعود ما وعد به ثم ذكر سبحانه وعده على طاعته وامتثال أوامره واجتناب نواهيه وهى المغفرة والفضل فالمغفرة وقاية الشر والفضل اعطاء الخير وفى الحديث المشهور ان للملك بقلب ابن آدم لمة وللشيطان لمة فلمة الملك ايعاد بالخير وتصديق بالوعد ولمة الشيطان ايعاد بالشر وتكذيب بالوعد ثم قرأ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء الآية فالملك والشيطان يتعاقبان على القلب تعاقب الليل والنهار فمن الناس من يكون ليله أطول من نهاره وآخر بضده ومنهم من يكون زمنه نهارا كله وآخر بضده نستعيذ من الله تعالى من شر الشيطان

(فصل) ومن كيده للانسان أنه يورده الموارد التى يخيل اليه أن فيها منفعته ثم يصدره المصادر التى فيها عطبه ويتخلى عنه ويسلمه ويقف يشمت به ويضحك منه فيأمره بالسرقة والزنا والقتل ويدل عليه ويفضحه قال تعالى واذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وانى جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال انى برىء منكم انى أرى ما لا ترون انى أخاف الله والله شديد العقاب فانه تراءى للمشركين عند خروجهم الى بدر فى صورة سراقة بن مالك وقال أنا جار لكم من بنى كنانة أن يقصدوا أهلكم وذراريكم بسوء فلما رأى عدو الله جنود الله تعالى من الملائكة نزلت لنصر رسوله فر عنهم وأسلمهم كما قال حسان

بفقر ويقين يحمله وذكر يؤنسه وقال أبو سهل الخشاب المتصوف المغربى اسمه هو فقر وذل فقال منصور بل فقر وعز فقال أبو سهل فقر وثرى فقال منصور بل فقر وعرش قلت أشار أبو سهل الى البداية ومنصور الى الغاية وقال الجنيد اذا لقيت الفقير فالقه بالرفق ولا تلقه بالعلم فان الرفق يؤنسه والعلم يوحشه فقلت يا أبا القاسم كيف يكون فقير يوحشه العلم فقال نعم الفقير اذا كان صادقا فى فقره فطرحت عليه العلم ذاب كما يذوب الرصاص فى النار وقال أبو المظفر القرميسينى الفقير هو الذى لا يكون له الى الله حاجة قال أبو القاسم القشيرى وهذا اللفظ فيه أدنى غموض على من سمعه على وصف الغفلة عن مرمى القوم وانما أشار قائله الى سقوط المطالبات وانتفاء الاختيارات والرضى بما يجريه الحق سبحانه قلت وبعد فهو كلام مستدرك خطأ فان حاجات هذا العبد الى الله بعدد الانفاس اذ حاجاته ليست كحاجات غيره من أصحاب الحظوظ والاقسام بل حاجات هؤلاء فى حاجة هذا العبد كتفلة فى بحر فان حاجته الى الله فى كل طرفة عين ان يحفظ عليه حاله ويثبت قلبه ويرقيه فى مقامات العبودية ويصرف عنه ما يفسدها عليه ويعرفه منازل الطريق ومكامنها وأوقاتها ويعرفه مواقع رضاه ليفعلها ويعزم عليها ومواقع سخطه ليعزم على تركها ويجتنبها فأى حاجات أكثر وأعظم من هذه فالصواب ان يقال الفقير هو الذى حاجاته الى الله بعدد أنفاسه أو أكثر فالعبد له فى كل نفس ولحظة وطرفة عين عدة حوائج الى الله لا يشعر بكثير منها فأفقر الناس الى الله من شعر بهذه الحاجات وطلبها من معدنها بطريقها وان كان لا بد من اطلاق تلك العبارة على ان منها كل بد فيقال هو الذى لا حاجة له الى الله تخالف مرضاته وتحطه عن مقام العبودية

ولاهم بغرور ثم أسلمهم * ان الخبيث لمن والاه غرار

وكذلك فعل بالراهب الذى قتل المرأة وولدها أمره بالزنا ثم بقتلها ثم دل أهلها عليه وكشف أمره لهم ثم أمره بالسجود له فلما فعل فرعنه وتركه وفيه أنزل الله سبحانه كمثل الشيطان اذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال انى برىء منك انى أخاف الله رب العالمين وهذا السياق لا يختص بالذى ذكرت عنه هذه القصة بل هو عام فى كل من أطاع الشيطان فى أمره له بالكفر لينصره و يقضى حاجته فانه يتبرأ منه و يسلمه كما يتبرأ من أوليائه جملة فى النار و يقول لهم انى كفرت بما أشركتمونى من قبل فأوردهم شر الموارد وتبرأ منهم كل البراءة وتكلم الناس فى قول عدو الله انى أخاف الله فقال قتادة وابن اسحق صدق عدو الله فى قوله انى أرى مالا ترون وكذب فى قوله انى أخاف الله والله ما به مخافة الله ولكن علم أنه لا قوة له ولا منعة فأوردهم وأسلمهم وكذلك عادة عدو الله بمن أطاعه وقالت طائفة انما خاف بطش الله تعالى به فى الدنيا كما يخاف الكافر والفاجر أن يقتل أو يؤخذ بجرمه لا أنه خاف عقابه فى الآخرة وهذا أصح وهذا الخوف لا يستلزم ايمانا ولا نجاة قال الكلبى خاف أن يأخذه جبريل فيعرفهم حاله فلا يطيعونه وهذا فاسد فانه انما قال لهم ذلك بعد أن فر ونكص على عقبيه الا أن يريد أنه اذا عرف المشركين أن الذى أجارهم وأوردهم ابليس لم يطيعوه فيما بعد ذلك وقد أبعد النجعة ان أراد ذلك وتكلف غير المراد وقال عطاء انى أخاف الله أن يهلكنى فيمن يهلك وهذا خوف هلاك الدنيا فلا ينفعه وقال الزجاج وابن الانبارى ظن أن الوقت الذى أنظر اليه قد حضر زاد ابن الانبارى قال أخاف أن يكون الوقت المعلوم الذى يزول معه انظارى قد حضر فيقع بى العذاب فانه لما عاين الملائكة خاف أن يكون وقت الانظار قد انقضى فقال ما قال اشفاقا على نفسه

(فصل) ومن كيد عدو الله تعالى انه يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه فلا يجاهدونهم ولا يأمرونهم بالمعروف ولا ينهونهم عن المنكر وهذا من أعظم كيده باهل الايمان وقد أخبرنا الله تعالى سبحانه عنه بهذا فقال انما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافونى ان كنتم مؤمنين المعنى عند جميع المفسرين يخوفكم باوليائه قال قتادة يعظمهم فى صدوركم ولهذا قال فلا تخافوهم وخافونى ان كنتم مؤمنين فكلما قوى ايمان العبد زال من قلبه خوف أولياء الشيطان وكلما ضعف ايمانه قوى خوفه منهم ومن مكايده أنه يسحر العقل دائما حتى يكيده ولا يسلم من سحره الا من شاء الله فيزين له الفعل الذى يضره حتى يخيل اليه انه من أنفع الاشياء وينفره من الفعل الذى هو أنفع الاشياء له حتى يخيل له انه يضره فلا اله الا الله كم فتن بهذا السحر من انسان وكم حال به بين القلب و بين الاسلام والايمان والاحسان وكم جلا الباطل وأبرزه فى صورة مستحسنة وشنع الحق وأخرجه فى صورة مستهجنة وكم بهرج من الزيوف على الناقدين وكم روج من الزغل على العارفين فهو الذى سحر العقول حتى ألقى أربابها فى الاهواء المختلفة والآراء المتشعبة وسلك بهم من سبل الضلال كل مسلك وألقاهم من المهالك فى مهلك بعد مهلك وزين لهم عبادة الاصنام وقطيعة الارحام ووأد البنات ونكاح الامهات ووعدهم الفوز بالجنان

[illegible] الاستغناء وأما التبرؤ الملاحظة له الى الله فشطح قبيح وأما حمل أبى القاسم لكلامه على اسقاط المطالبات وانتفاء الاختيار والرضى بمجارى الاقدار فانما يحسن فى بعض الحالات وهو فى القدر الذى يجرى عليه بغير اختياره ولا يكون مأمورا بدفعه ومنازعته بقدر آخر كما تقدم واما اذا كان مأمورا بدفعه ومنازعته بقدر هو أحب الى الله منه وهو مأمور به أمر ايجاب أو استحباب فاسقاط المطالبات وانتفاء الاختيار فيه والسعى عين العجز والله سبحانه يلوم على العجز وقال ابن خفيف الفقر عدم الاملاك والخروج عن احكام الصفات قلت يريد عدم اضافة شئ اليه اضافة ملك وان يخرج عن أحكام صفات نفسه و يبدلها باحكام صفات مالكه وسيده مثاله ان يخرج عن حكم صفة قدرته واختياره التى توجب له دعوة الملك والتصرف والاضافات و يبقى بأحكام صفة القدرة الازلية التى توجب له العجز والفقر والفاقة كما فى دعاء الاستخارة اللهم انى استخيرك بعلمك واستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فانك تقدر ولا اقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب فهذا اتصاف باحكام الصفات العلى فى العبد وخروج عن احكام صفات النفس وقال أبو حفص لا يصح لاحد الفقر حتى يكون العطاء أحب اليه من الاخذ وليس السخاء أن يعطى الواجد المعدم وانما السخاء ان يعطى المعدم الواجد وقال بعضهم الفقير الذى لا يرى لنفسه حاجة الى شئ من الاشياء سوى ربه تبارك وتعالى وسئل سهل بن عبد الله متى يستريح الفقير فقال اذا لم ير لنفسه غير الوقت الذى هو فيه وقال أبو بكر بن طاهر من حكم الفقير ان لا يكون له رغبة وان كان لا بد فلا تجاوز رغبته كفايته وسئل بعضهم عن الفقير

بالجنان مع الكفر والفسوق والعصيان وأبرزلهم الشرك فى صورة التعظيم والكفر بصفات الرب تعالى وعلوه وتكلمه بكتبه فى قالب التنزيه وترك الامر بالمعروف والنهى عن المنكر فى قالب التودد الى الناس وحسن الخلق معهم والعمل بقوله عليكم أنفسكم والاعراض عما جاء به الرسول عليه السلام فى قالب التقليد والاكتفاء بقول من هو أعلم منهم والنفاق والادهان فى دين الله فى قالب العقل المعيشى الذى يندرج به العبد بين الناس فهو صاحب الابوين حين أخرجهما من الجنة وصاحب قابيل حين قتل أخاه وصاحب قوم نوح حتى أغرقوا وقوم عاد حين أهلكوا بالريح العقيم وصاحب قوم صالح حين أهلكوا بالصيحة وصاحب الامة اللوطية حين خسف بهم واتبعوا بالرجم بالحجارة وصاحب فرعون وقومه حين أخذوا الاخذة الرابية وصاحب عباد العجل حين جرى عليهم ما جرى وصاحب قريش حتى دعوا يوم بدر وصاحب كل هالك ومفتون

(فصل) وأول كيده ومكره انه كاد الابوين بالايمان الكاذبة انه ناصح لهما وانه انما يريد خلودهما فى الجنة قال تعالى فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما ووري عنهما من سوآتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين وقاسمهما انى لكما لمن الناصحين فدلاهما بغرور فالوسوسة حديث النفس والصوت الخفى وبه سمى صوت الحلى وسواسا ورجل موسوس بكسر الواو ولا يفتح فانه لحن وانما قيل له موسوس لان نفسه توسوس اليه قال تعالى ونعلم ما توسوس به نفسه وعلم عدو الله انهما اذا أكلا من الشجرة بدت لهما عوراتهما فانها معصية والمعصية تهتك ستر ما بين الله وبين العبد فلما عصيا انهتك ذلك الستر فبدت لهما سوآتهما فالمعصية تبدى السوأة الباطنة والظاهرة ولهذا رأى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى رؤياه الزناة والزوانى عراة بادية سوآتهم وهكذا اذا رؤى الرجل أو المرأة فى منامه مكشوف السوأة فانه يدل على فساد فى دينه قال الشاعر

انى كانى أرى من لاحياء له * ولا أمانة وسط الناس عريانا

فان الله سبحانه أنزل لباسين لباسا ظاهرا يوارى العورة ويسترها ولباسا باطنا من التقوى يجمل العبد ويستره فاذا زال عنه هذا اللباس انكشفت عورته الباطنة كما تنكشف عورته الظاهرة بنزع ما يسترها ثم قال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أى الا كراهة أن تكونا ملكين وكراهة أن تخلدا فى الجنة ومن ههنا دخل عليهما لما عرف أنهما يريدان الخلود فيها وهذا باب كيده الاعظم الذى يدخل منه على ابن آدم فانه يجرى منه مجرى الدم حتى يصادف نفسه ويخالطه ويسألها عما تحبه وتؤثره فاذا عرفه استعان بها على العبد ودخل عليه من هذا الباب وكذلك علم اخوانه وأولياءه من الانس اذا أرادوا اغراضهم الفاسدة من بعضهم بعضا أن يدخلوا عليهم من الباب الذى يحبونه ويهوونه فانه باب لا يخذل عن حاجته من دخل منه ومن رام الدخول من غيره فالباب عليه مسدود وهو عن طريق مقصده مصدود فشام عدو الله الابوين فأحس منهما ايناسا وركونا الى الخلد فى تلك الدار فى النعيم المقيم فعلم أنه لا يدخل عليهما من غير هذا الباب فقاسمهما بالله انه لهما لمن الناصحين وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا

الصادق فقال الذى لا علائق ولا علائق وقال ذو النون دوام الفقر الى الله مع التخليط أحب الى من دوام الصفاء مع العجب والله أعلم

(فصل) فى جملة نعت الفقير حقا انه المتخلى من الدنيا تطرفا والمتجافى عنها تعففا لا يستغنى بها تكثرا ولا يستكثر منها تملكا وان كان مالكا لها بهذا الشرط لم تضره بل هو فقير غناه فى فقره وغنى فقره فى غناه ومن نعته أيضا أن يكون فقيرا من حاله وهو خروجه عن الحال تبريا وترك الالتفات اليه تسليا وترك مساكنة الاحوال والرجوع عن موافقتها فلا يستغنى بها اعتمادا عليها ولا يفتقر اليها مساكنة لها ومن نعته انه يعمل على موافقة الله فى الصبر والرضى والتوكل والانابة فهو عامل على مراد الله منه لا على موافقة هواه وهو تحصيل مراده من الله فالفقير خالص بكليته لله سبحانه ليس لنفسه ولا لهواه فى أحواله حظ لله ونصيب بل عمله بقيام شاهد الحق وفناء شاهد نفسه قد غيبه شاهد الحق عن شاهد نفسه فهو يريد الله بمراد الله فعموله على الله وهمته لا تقف دون شئ سواه قد فنى بحبه عن حب ما سواه وبأمره عن هواه وبحسن اختياره له عن اختياره لنفسه فهو فى واد والناس فى واد خاضع متواضع سليم القلب سلس القياد للحق سريع القلب الى ذكر الله برىء من الدعاوى لا يدعى بلسانه ولا بقلبه ولا بحاله زاهد فى كل ما سوى الله راغب فى كل ما يقرب الى الله قريب من الناس ابعد شئ منهم يأنس بما يستوحشون منه ويستوحش مما يأنسون به منفرد فى طريق طلبه لا تقيده الرسوم ولا تملكه الفوائد ولا يفرح بموجود ولا يأسف على مفقود من جالسه قرت عينه به ومن رآه ذكرته رؤيته بالله سبحانه قد حمل كله ومؤنته عن الناس واحتمل اذاهم وكف أذاه عنهم وبذل لهم نصيحته

ان تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين وكان عبد الله بن عباس يقرؤها ملكين بكسر اللام ويقول لم يطمعا أن يكونا من الملائكة ولكن استشرفا أن يكونا ملكين فأتاهما من جهة الملك ويدل على هذه القراءة قوله في الآية الاخرى قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى وأما على القراءة المشهورة فيقال كيف أطمع عدو الله آدم عليه السلام أن يكون بأكله من الشجرة من الملائكة وهو يرى الملائكة لا تأكل ولا تشرب وكان آدم عليه السلام أعلم بالله وبنفسه وبالملائكة من أن يطمع أن يكون منهم بأكله ولا سيما نهاه الله عز وجل عنه فالجواب ان آدم وحواء عليهما السلام لم يطمعا في ذلك أصلا وانما كذبهما عدو الله وغرهما وخدعهما بأن سمى تلك الشجرة شجرة الخلد فهذا أول المكر والكيد ومنه ورث اتباعه تسمية الامور المحرمة بالاسماء التي تحب النفوس مسمياتها فسموا الخمر أم الافراح وسموا أخاها بلقيمة الراحة وسموا الربا بالمعاملة وسموا المكوس بالحقوق السلطانية وسموا أقبح الظلم وأفحشه شرع الديوان وسموا أبلغ الكفر وهو جحد صفات الرب تنزيها وسموا مجالس الفسوق مجالس الطيبة فلما سماها شجرة الخلد قال ما نهاكما عن هذه الشجرة الا كراهة أن تأكلا منها فتخلدا في الجنة ولا تموتا فتكونان مثل الملائكة الذين لا يموتون ولم يكن آدم عليه السلام قد علم أنه يموت بعد واشتهى الخلود في الجنة وحصلت الشبهة من قول العدو واقسامه بالله جهد ايمانه أنه ناصح لهما فاجتمعت الشبهة والشهوة وساعد القدر فأخذتهما سنة الغفلة واستيقظ لهما العدو كما قيل

واستيقظوا وأراد الله غفلتكم * لينفذ القدر المحتوم في الازل

الا أن هذا الجواب يعترض عليه قوله أو تكونا من الخالدين فيقال الماكر المخادع لا بد أن يكون فيما يمكر به ويكيد من التناقض والباطل ما يدل على مكره وكيده ولا حاجة بنا الى تصحيح كلام عدو الله والاعتذار عنه وانما يعتذر عن الاب في كون ذلك راج عليه وولج سمعه فهو لم يجزم لهما بانهما ان أكلا منها صارا ملكين وانما ردد الامر بين أمرين أحدهما ممتنع والآخر ممكن وهذا من أبلغ أنواع الكيد والمكر ولهذا لما أطمعه في الامر الممكن جزم له به ولم يردده فقال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى فلم يدخل أداة الشك ههنا كما أدخلها في قوله الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين فتأمله ثم قال وقاسمهما اني لكما لمن الناصحين فتضمن هذا الخبر أنواعا من التأكيد أحدها تأكيده بالقسم الثاني تأكيده بأن الثالث تقديم المعمول على العامل ايذانا بالاختصاص أي نصيحتي مختصة بكما وفائدتها فائدة اليكما الا الى الرابع اتيانه باسم الفاعل الدال على الثبوت واللزوم دون الفعل الدال على التجدد أي النصح صفتي وسجيتي ليس أمرا عارضا لي الخامس اتيانه بلام التأكيد في جواب القسم السادس أنه صور نفسه لهما ناصحا من جملة الناصحين فكأنه قال لهما الناصحون لكما في ذلك كثير وأنا واحد منهم كما تقول لمن يأمره بشئ كل أحد معي على هذا وأنا من جملة من يشير عليك به

وكم فارتابت ولوشاء قللا * وورث عدو الله هذا المكر لاوليائه وحزبه عند خداعهم للمؤمنين كما كان المنافقون يقولون لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اذا

[illegible] وصمته لا لمداومة ولا لذة وعز لا يدخل فيما لا يعنيه ولا يخل بما لا يتقصه وصفه الصدق والعفة والايثار والتواضع والحلم والوقار والاحتمال لا يتوقع لما يبذله للناس منهم عوضا ولا مدحة لا يعاتب ولا يخاصم ولا يطالب ولا يرى له على أحد حقا ولا يرى له على أحد فضلا مقبل على شانه مكرم لاخوانه بخيل بزمانه حافظ للسانه مسافر في ليله ونهاره ويقظته ومنامه لا يضع عصا السير عن عاتقه حتى يصل الى مطلبه قد رفع له علم الحب فشمر اليه وناداه داعي الاشتياق فاقبل بكليته عليه أجاب منادي المحبة اذ دعاه حي على الفلاح ووصل السرى في بيداء الطلب فحمد عند الوصول مسراه وانما يحمد القوم السرى عند الصباح

فحي على جنات عدن فانها
منازلك الاولى وفيها المخيم
ولكننا سبي العدو فهل ترى
نعود الى أوطاننا ونسلم
وحي على روضاتها وخيامها
وحي على عيش بها ليس يسأم
وحي على يوم المزيد وموعد الـ
محبين طوبى للذي هو منهم
وحي على واديها هو أفيح
وتربته من أذفر المسك أعظم
ومن حولها كثبان مسك مقاعد
لمن دونهم هذا الفخار المعظم
يرون به الرحمن جل جلاله
كرؤية بدر التم لا يتوهم
أو الشمس صحوا ليس من دون افقها
ضباب ولا غيم هناك يغيم
وبيناهم في عيشهم وسرورهم
وأرزاقهم تجري عليهم وتقسم
اذا هم بنور ساطع قد بدا لهم
فقيل ارفعوا أبصاركم فاذا هم
بربهم من فوقهم وهو قائل
سلام عليكم طبتم وسلمتم

فيا عجبا ما عذر من هو مؤمن * بهذا ولا يسعى له ويقدم فبادر اذا ما دام في العمر فسحة

جاؤه نشهد انك لرسول الله فأكدوا خبرهم بالشهادة وبان وبلام التأكيد وكذلك قوله سبحانه ويحلفون بالله انهم لمنكم وماهم منكم ثم قال تعالى فدلاهما بغرور قال أبو عبيدة حذلهما وخلاهما من تدلية الدلو وهو ارسالها فى البئر وذكر الازهرى لهذه اللفظة أصلين أحدهما قال أصله الرجل العطشان يتدلى فى البئر ليروى من الماء فلا يجد فيها ماء فيكون قد تدلى فيها بالغرور فوضعت التدلية موضع الاطماع فيما لا يجدى نفعا فيقال دلاه اذا أطمعه ومنه قول أبى جندب الهذلى

أحص فلا أجير ومن أجره * فليس كمن تدلى بالغرور

احص أى اقطع الثانى فدلاهما بغرور أى جرأهما على أكل الشجرة وأصله دللهما من الدلال والدالة وهى الجراءة قال شمر يقال ما دللك على أى ما جرأك على وأنشد لقيس بن زهير

أظن الحلم دل على قومى * وقد يستجهل الرجل الحليم

قلت أصل التدلية فى اللغة الارسال والتعليق يقال دلى الشئ فى مهواة اذا أرسله بتعليق ويدلى الشئ بنفسه ومنه قوله تعالى فارسلوا واردهم فأدلى دلوه قال عامة أهل اللغة يقال أدلى دلوه اذا أرسلها فى البئر ودلاها بالتخفيف اذا نزعها من البئر فأدلى دلوه يدليه ادلاء اذا أرسلها ودلاها يدلوها دلوا اذا نزعها وأخرجها ومنه الادلاء وهو التوصل الى الرجل برحم منه وبشاركه فى الاشتقاق الاكبر الدلال وهى التوصل الى الشئ بابانته وكشفه ومنه الدل وهو ما يدل على العبد من أفعاله وكان عبد الله بن مسعود يشبه برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى هديه ودله وسمته فالهدى الطريقة التى عليها العبد من أخلاقه وأقواله وأعماله والدل ما يدل من ظاهره على باطنه والسمت هيأته ووقاره ورزانته والمقصود ذكر كيد عدو الله ومكره بالابوين قال مطرف بن عبد الله قال لهما انى خلقت قبلكما وأنا أعلم منكما فاتبعانى أرشدكما وحلف لهما وانما يخدع المؤمن بالله قال قتادة وكان بعض أهل العلم يقول من خادعنا بالله خدعنا فالمؤمن غر كريم والفاجر خب لئيم وفى الصحيح أن عيسى ابن مريم عليه السلام رأى رجلا يسرق فقال سرقت فقال لا والله الذى لا اله الا هو فقال المسيح آمنت بالله وكذبت بصرى وقد تأوله بعضهم على أنه لما حلف له جوز أن يكون قد أخذ ماله فظنه المسيح سرقة وهذا تكلف وانما كان الله سبحانه وتعالى فى قلب المسيح عليه السلام أجل وأعظم من أن يحلف به أحد كاذبا فلما حلف له السارق دار الامر بين تهمته وتهمة بصره فرد التهمة الى بصره لما اجتهد له فى اليمين كما ظن آدم عليه السلام صدق ابليس لما حلف له بالله عز وجل وقال ما ظننت أحدا يحلف بالله تعالى كاذبا

(فصل) ومن كيده العجيب أنه يشام النفس حتى يعلم أى القوتين تغلب عليها قوة الاقدام والشجاعة أم قوة الانكفاف والاحجام والمهانة فان رأى الغالب على النفس المهانة والاحجام أخذ فى تثبيطه واضعاف همته وارادته عن المأمور به وثقله عليه فهون عليه تركه حتى يتركه جملة أو يقصر فيه ويتهاون به وان رأى الغالب عليه قوة الاقدام وعلو الهمة أخذ يقلل عنده المأمور ويوهمه أنه لا يكفيه وأنه يحتاج معه الى مبالغة

وعد التمقبول وصرفك قيم   فما فرحت بالوصل نفس مهينة * ولا فاز قلب بالبطالة ينعم   فجد وسارع واغتنم ساعة السرى

ففى زمن الامكان تسعى وتغنم
وسر مسرعا فالسير خلفك مسرع
وهيهات ما منه مفر ومهزم
فهن المنايا أى واد نزلته
عليها القدوم أو عليك ستقدم
وان تك قد عاقتك سعدى فقلبك الـ
معنى رهين فى يديها مسلم
وقد ساعدت بالوصل غيرك فالهوى
لها منك والواشى بها يتنعم
فدعها وسل النفس عنها بجنة
من الفقر فى روضاتها الدر يبسم
ومن تحتها الانهار تخفق دائما
وطير الامانى فوقها يترنم
وقد ذللت منها القطوف فمن يرد
جناها ينله كيف شاء وينعم
وقد فتحت أبوابها وتزينت
لخطابها فالحسن فيها مقسم
أقام على أبوابها داعى الهدى
هلموا الى دار السعادة تغنموا
وقد طاب منها نزلها ومقيلها
فطوبى لمن حلوا بها وتنعموا
وقد غرس الرحمن فيها غراسه
من الناس والرحمن بالغرس أعلم
فمن كان من غرس الاله فانه
سعيد والا فالشقا متحتم
فيا مسرعين السير بالله ربكم
قفوا بى على تلك الربوع وسلوا
وقولوا محب قاده الشوق نحوكم
قضى نحبه فيكم تعيشوا وتسلموا
قضى الله رب العالمين قضية
بان الهوى يعمى القلوب ويبكم
وحبكم أصل الهدى ومداره
عليه وفوز للمحب ومغنم
وتفنى عظام الصب بعد مماته
واشواقه وقف عليه محرم
فيا أيها القلب الذى ملك الهوى
أعنته حتام هذا التلوم

وحتام لا تصحوا وقد قرب المدى * ودقت كؤس السير والناس نوم   بلى سوف تصحو حين ينكشف الغطا * ويبدو لك الامر الذى

و زيادة ينقص بالاول ويتجاوز بالثاني كما قال بعض السلف ما أمر الله تعالى بأمر الا وللشيطان فيه نزغتان اما الى تفريط وتقصير واما الى مجاوزة وغلو ولا يبالي بأيهما ظفر وقد اقتطع أكثر الناس الا أقل القليل في هذين الواديين وادي التقصير ووادي المجاوزة والتعدي والقليل منهم جدا الثابت على الصراط الذي كان عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه فقوم قصر بهم عن الاتيان بواجبات الطهارة وقوم تجاوز بهم الى مجاوزة الحد بالوسواس وقوم قصر بهم عن اخراج الواجب من المال وقوم تجاوز بهم حتى أخرجوا جميع ما في أيديهم وقعدوا كلا على الناس مستشرفين الى ما بأيديهم وقوم قصر بهم عن تناول ما يحتاجون اليه من الطعام والشراب واللباس حتى أضروا بأبدانهم وقلوبهم وقوم تجاوز بهم حتى أخذوا فوق الحاجة فأضروا بقلوبهم وأبدانهم وكذلك قصر قوم في حق الانبياء وورثتهم حتى قتلوهم وتجاوز بآخرين حتى عبدوهم وقصر بقوم في خلطة الناس حتى اعتزلوهم في الطاعات كالجمعة والجماعات والجهاد وتعلم العلم وتجاوز بقوم حتى خالطوهم في الظلم والمعاصي والآثام وقصر بقوم حتى امتنعوا من ذبح عصفور أو شاة ليأكله وتجاوز بآخرين حتى جرأهم على الدماء المعصومة وكذلك قصر بقوم حتى منعهم من الاشتغال بالعلم الذي ينفعهم وتجاوز بآخرين حتى جعلوا العلم وحده هو غايتهم دون العمل به وقصر بقوم حتى أطعمهم من العشب ونبات البرية دون غذاء بني آدم وتجاوز بآخرين حتى أطعمهم الحرام الخالص وقصر بقوم حتى زين لهم ترك سنة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من النكاح فرغبوا عنه بالكلية وتجاوز بآخرين حتى ارتكبوا ما وصلوا اليه من الحرام وقصر بقوم حتى جفوا الشيوخ من أهل الدين والصلاح وأعرضوا عنهم ولم يقوموا بحقهم وتجاوز بآخرين حتى عبدوهم مع الله تعالى وكذلك قصر بقوم حتى منعهم قبول أقوال أهل العلم والالتفات اليها بالكلية وتجاوز بآخرين حتى جعلوا الحلال ما حللوه والحرام ما حرموه وقدموا أقوالهم على سنة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الصحيحة الصريحة وقصر بقوم حتى قالوا ان الله سبحانه لا يقدر على أفعال عباده ولا شاءها منهم ولكنهم يعملونها بدون مشيئة الله تعالى وقدرته وتجاوز بآخرين حتى قالوا انهم لا يفعلون شيأ البتة وانما الله سبحانه هو فاعل تلك الافعال حقيقة فهي نفس فعله لا أفعالهم والعبيد ليس لهم قدرة ولا فعل البتة وقصر بقوم حتى قالوا ان الله سبحانه لا يشفع أحدا في أحد البتة ولا يرحم أحدا بشفاعة أحد وتجاوز بآخرين حتى زعموا أن المخلوق يشفع عنده بغير اذنه كما يشفع ذو الجاه عند الملوك ونحوهم وقصر بقوم حتى قالوا ايمان أفسق الناس وأظلمهم كايمان جبريل وميكائيل فضلا عن أبي بكر وعمر وتجاوز بآخرين حتى أخرجوا من الاسلام بالكبيرة الواحدة وقصر بقوم حتى نفوا حقائق أسماء الرب تعالى وصفاته وعطلوه منها وتجاوز بآخرين حتى شبهوه بخلقه ومثلوه بهم وقصر بقوم حتى عادوا أهل بيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقاتلوهم واستحلوا من حرمتهم وتجاوز بقوم حتى ادعوا فيهم خصائص النبوة من العصمة وغيرها وربما ادعوا فيهم الالهية وكذلك قصر باليهود في المسيح حتى كذبوه ورموه وأمه بما برأه الله

تعلم ويا موقدا نار الغي ضوءها * وحولك هاب بن جنبيك يضرم
أهذا جنى العلم الذي قد غرسته * وهذا الذي قد كنت ترجوه تطعم
وهذا هو الحظ الذي قد رضيته
لنفسك في الدارين لو كنت تفهم
وهذا هو الربح الذي قد كسبته
لعمرك لا ربح ولا الاصل يسلم
بخلت بشئ لا يضرك بذله
وجدت بشئ مثله لا يقوم
وبعت نعيما لا انقضاء له ولا
نظير ببخس عن قليل سيعدم
فهلا عكست الامر ان كنت حازما
ولكن أضعت الحزم ان كنت تعلم
وتهدم ما تبني بكفك جاهدا
فانت مدى الايام تبني وتهدم
وعند مراد الحق تغني كميت
وعند مراد النفس تسدى وتلحم
وعند خلاف الامر تحتج بالقضا
ظهيرا على الرحمن للجبر تزعم
تنزه تلك النفس عن سوء فعلها
وتعتب اقدار الاله وتظلم
وتزعم مع هذا بانك عارف
كذبت يقينا في الذي أنت تزعم
وما أنت الا جاهل ثم ظالم
وانك بين الجاهلين مقدم
اذا كان هذا نصح عبد لنفسه
فمن ذا الذي منه الهدى يتعلم
وفي مثل هذا كان قد قال من مضى
وأحسن فيما قاله المتكلم
فان كنت لا تدري فتلك مصيبة
وان كنت تدري فالمصيبة أعظم
ولو تبصر الدنيا وراء ستورها
رأيت خيالا في منام سيصرم
كحلم بطيف زار في النوم وانقضى الـ
ـمنام وراح الطيف والصب مغرم
وظل أرته الشمس عند طلوعها
سيقلص في وقت الزوال ويفصم
ومزنة صيف طاب منها مقيلها
فولت سريعا والحرور تضرم
مجزها ثمر الامتزاو كن بها
غريبا تعش فيها حميدا وتسلم
أو ابن سبيل قال في ظل دوحة * وراح وخلاها يتقسم

الله تعالى منه وتجاوز بالنصارى حتى جعلوه ابن الله وجعلوه الها يعبد مع الله وقصر بقوم حتى نفوا الاسباب والقوى والطبائع والغرائز وتجاوز بآخرين حتى جعلوها أمرا لازما لايمكن تغييره ولا تبديله وربما جعلها بعضهم مستقلة بالتأثير وقصر بقوم حتى تعبدوا بالنجاسات وهم النصارى وأشباههم وتجاوز بقوم حتى أفضى بهم الوسواس الى الآصار والاغلال وهم أشباه اليهود وقصر بقوم حتى تزينوا للناس وأظهروا لهم من الاعمال والعبادات مايحمدونهم عليه وتجاوز بقوم حتى أظهروا لهم من القبائح ومن الاعمال السيئة مايسقطون به جاههم عندهم وسموا أنفسهم الملامتية وقصر بقوم حتى أهملوا أعمال القلوب ولم يلتفتوا اليها وعدوها فضلا أو فضولا وتجاوز بآخرين حتى قصروا نظرهم وعملهم عليها ولم يلتفتوا الى كثير من أعمال الجوارح وقالوا العارف لايسقط وارده لورده وهذا باب واسع جدا لو تتبعناه لبلغ مبلغا كثيرا وانما أشرنا اليه أدنى اشارة ومن حيله ومكايده الكلام الباطل والآراء المتهافتة والخيالات المتناقضة التى هى زبالة الاذهان ونحاتة الافكار والزبد الذى يقذف به القلوب المظلمة المتحيرة التى تعدل الحق بالباطل والخطأ بالصواب قد تقاذفت بها أمواج الشبهات ورانت عليها غيوم الخيالات فركبها القيل والقال والشك والتشكيك وكثرة الجدال ليس لها حاصل من اليقين يعول عليه ولا معتقد مطابق للحق يرجع اليه يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا فقد اتخذ والاجل ذلك القرآن مهجورا وقالوا من عند أنفسهم فقالوا منكرا من القول وزورا فهم فى شكهم يعمهون وفى حيرتهم يترددون نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لايعلمون واتبعوا ماتلته الشياطين على ألسنة اسلافهم من أهل الضلال فهم اليه يحاكمون وبه يخاصمون فارقوا الدليل واتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل ومن كيده بهم وتحيله على اخراجهم من العلم والدين ان ألقى على ألسنتهم ان كلام الله ورسوله ظواهر لفظية لاتفيد اليقين وأوحى اليهم أن القواطع العقلية والبراهين اليقينية فى المناهج الفلسفية والطرق الكلامية فحال بينهم وبين اقتباس الهدى واليقين من مشكاة القرآن وأحالهم على منطق يونان وعلى ماعندهم من الدعاوى الكاذبة العرية عن البرهان وقال لهم تلك علوم قديمة صقلتها العقول والاذهان ومرت عليها القرون والازمان فانظر كيف تلطف بكيده ومكره حتى أخرجهم من الايمان كاخراج الشعرة من العجين

(فصل) ومن كيده ما ألقاه الى جهال المتصوفة من الشطح والطامات وأبرزه لهم فى قالب الكشف من الخيالات فاوقعهم فى أنواع الاباطيل والترهات وفتح لهم أبواب الدعاوى الهائلات وأوحى اليهم ان وراء العلم طريقا ان سلكوه أفضى بهم الى كشف العيان وأغناهم عن التقيد بالسنة والقرآن فحسن لهم رياضة النفوس وتهذيبها وتصفية الاخلاق والتجافى عما عليه أهل الدنيا وأهل الرياسة والفقهاء وأرباب العلوم والعمل على تفريغ القلب وخلوه من كل شئ حتى ينتقش فيه الحق بلا واسطة تعلم فلما خلا من صورة العلم الذى جاء به الرسول نقش فيه الشيطان بحسب ماهو مستعد له من أنواع الباطل وخيله للنفس حتى جعله كالمشاهد كشفا وعيانا فاذا أنكره عليهم ورثة الرسل

أخا طمع لا يستقر قراره * الى ان يرى أوطانه ويسلم
فياعجبا كم مصرع عطبوا به * بنوها ولكن عن مصارعها عموا
سقتهم بكاس الحب حتى اذا انتشوا
سقتهم كؤس السم والقوم قد ظموا
وأعجب مافى العبد رؤية هذه الـ
عظائم منها وهو فيها متيم
وأعجب من ذا أن أحبابها الالى
تهين وللاعدا تراعى وتكرم
وذلك برهان على ان قدرها
جناح بعوض أو أدق والأم
وحسبك ماقال الرسول ممثلا
لها ولدار الخلد والحق يفهم
كما يدخل الانسان فى اليم أصبعا
وينزعها منه فماذا الذ يغنم
ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة
على حذر منها وامرى محكم
وهل أردن ماء الحياة وارتوى
على ظمأ من خوضه وهو مفعم
وهل تبدون اعلامهم بعدما سفت
عليها السوافى تستبين وتعلم
وهل افرشن خدى ثرى عتباتهم
خضوعا لهم كيما يرقوا ويرحموا
وهل ارين نفسى طريحا ببابهم
وطير أمانى الحب فوقى تحوم
فوا أسفى تفنى الحياة وتنقضى
وعتبكم باق بقيتم وعشتم
فمامنكم بد ولاعنكم غنى
ومالى من صبر فاسلو عنكم
فمن شاء فليغضب سواكم فلا أذى
اذا كنتم عن عبدكم قد رضيتم
وعقبى اصطبارى فى رضاكم هولكم
حميد ولكنه عقاب ومغرم
وما أنا بالشاكى لما ترتضونه
ولكننى أرضى به وأسلم
وحسبى انتسابى من بعيد اليكم
وذلك حظ مثله يتيمم
اذا قيل هذا عبدهم ومحبهم
تهلل بشرا ضاحكا يتبسم
وهاهو قد ابدى الضراعة قائلا
لكم بلسان الحال والحال يعلم
احبتنا عطفا علينا فاننا
بنا ظمأ والمورد العذب أنتم
فياساهيا فى غمرة الجهل والهوى * صريع الامانى عن قليل سيندم

قالوا لكم العلم الظاهر ولنا الكشف الباطن ولكم ظاهر الشريعة وعندنا باطن الحقيقة ولكم القشور ولنا اللباب فلما تمكن هذا من قلوبهم سلخها من الكتاب والسنة والآثار كما ينسلخ الليل من النهار ثم أحالهم في سلوكهم على تلك الخيالات وأوهمهم انها من الآيات البينات وانها من قبل الله سبحانه الهامات وتعريفات فلا تعرض على السنة والقرآن ولا تعامل الا بالقبول والاذعان فلغير الله لا له سبحانه ما يفتحه عليهم الشيطان من الخيالات والشطحات وأنواع الهذيان وكلما ازدادوا بعدا واعراضا عن القرآن وما جاء به الرسول كان هذا الفتح على قلوبهم أعظم

(فصل) ومن أنواع مكايده ومكره أن يدعو العبد بحسن خلقه وطلاقته وبشره الى أنواع من الآثام والفجور فيلقاه من لا يخلصه من شره الا تجهمه والتعبيس في وجهه والاعراض عنه فيحسن له العدو أن يلقاه ببشره وطلاقة وجهه وحسن كلامه فيتعلق به فيروم التخلص منه فيعجز فلا يزال العدو يسعى بينهما حتى يصيب حاجته فيدخل على العبد بكيده من باب حسن الخلق وطلاقة الوجه ومن ههنا وصى أطباء القلوب بالاعراض عن أهل البدع وأن لا يسلم عليهم ولا يريهم طلاقة وجهه ولا يلقاهم الا بالعبوس والاعراض وكذلك أوصوا عند لقاء من يخاف الفتنة بلقائه من النساء والمردان وقالوا متى كشفت للمرأة أو الصبي بياض أسنانك كشفا لك عما هنالك ومتى لقيتهما بوجه عابس وقيت شرهما ومن مكايده انه يأمرك أن تلقى المساكين وذوي الحاجات بوجه عبوس ولا تريهم بشرا ولا طلاقة فيطمعوا فيك ويتجرؤا عليك وتسقط هيبتك من قلوبهم فيحرمك صالح أدعيتهم وميل قلوبهم اليك ومحبتهم لك فيأمرك بسوء الخلق ومنع البشر والطلاقة مع هؤلاء وبحسن الخلق والبشر مع أولئك ليفتح لك باب الشر ويغلق عنك باب الخير

(فصل) ومن مكايده أنه يأمرك باعزاز نفسك وصونها حيث يكون رضى الرب تعالى في اذلالها وابتذالها كجهاد الكفار والمنافقين وأمر الفجار والظلمة بالمعروف ونهيهم عن المنكر فيخيل اليك ان ذلك تعريض لنفسك الى مواطن الذل وتسليط الاعداء وطعنهم فيك فيزول جاهك فلا يقبل منك بعد ذلك ولا يسمع منك ويأمرك باذلالها وامتهانها حيث تكون مصلحتها في اعزازها وصيانتها كما يأمرك بالتبذل لذوي الرياسات واهانة نفسك لهم ويخيل اليك انك تعزها بهم وترفع قدرها بالذل لهم ويذكرك قول الشاعر

أهين لهم نفسي لارفعها بهم * ولن تكرم النفس التي لا تهينها

وغلط هذا القائل فان ذلك لا يصلح الا لله وحده فانه كلما أهان العبد نفسه له أكرمه وأعزه بخلاف المخلوق فانك كلما أهنت نفسك له ذللت عند الله وعند أوليائه وهنت عليه

(فصل) ومن كيده وخداعه أنه يأمر الرجل بانقطاعه في مسجد أو رباط أو زاوية أو تربة ويحبسه هنالك وينهاه عن الخروج ويقول له متى خرجت تبذلت للناس وسقطت من أعينهم وذهبت هيبتك من قلوبهم وربما ترى في طريقك منكرا وللعدو في ذلك مقاصد خفية يريدها منه منها الكبر واحتقار الناس وحفظ الناموس وقيام الرياسة

ليس تفصم
تمسك بها مسك البخيل بماله
وعض عليها بالنواجذ تسلم
واياك مما أحدث الناس بعدها
فمرتع هاتيك الحوادث أوخم
وهيئ جوابا عندما تسمع الندا
من الله يوم العرض ماذا أجبتم
به رسلي لما أتوكم فمن يجب
سواهم سيخزى عند ذاك ويندم
وخذ من تقى الرحمن أسبغ جنة
ليوم به تبدو عيانا جهنم
وينصب ذاك الجسر من فوق متنها
فهاو ومخدوش وناج مسلم
ويأتي اله العالمين لوعده
فيفصل ما بين العباد ويحكم
ويأخذ للمظلوم اذ ذاك حقه
فياويح من قد كان للخلق يظلم
وينشر ديوان الحساب وتوضع الـ
موازين بالقسط الذي ليس يظلم
فلا مجرم يخشى هنالك ظلامة
ولا محسن من أجره الذر يهضم
وتشهد أعضاء المسيء بما جنى
لذاك على فيه المهيمن يختم
ويا ليت شعري كيف حالك عندما
تطاير كتب العالمين وتقسم
أتأخذ باليمنى كتابك أم ترى
بيسراك خلف الظهر منك يسلم
وتقرأ فيه كل شيء عملته
فيشرق منك الوجه أو هو يظلم
تقول كتابي هاؤم فاقرؤه لي
تبشر بالجنات حقا وتعلم
وان تكن الاخرى فانك قائل
ألا ليتني لم أوته فهو مغرم
فلا والذي شق القلوب وأودع الـ
محبة فيها حيث لا تتصرم
وحملها قلب المحب وانه
ليضعف عن حمل القميص ويألم
وذللها حتى استكانت لصولة الـ
محبة لا تلوي ولا تتلعثم
وذلل فيها أنفسا دون ذلها * حياض المنايا فوقها هي حوم

ومخالطة

ومخالطة الناس تذهب ذلك وهو يريد أن يزار ولا يزور ويقصده الناس ولا يقصدهم ويفرح بمجيء الامراء اليه واجتماع الناس عنده وتقبيل يده فيترك من الواجبات والمستحبات والقربات ما يقربه الى الله ويتعوض عنه بما يقرب الناس اليه وقد كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يخرج الى السوق قال بعض الحفاظ وكان يشترى حاجته ويحملها بنفسه ذكره أبو الفرج ابن الجوزي وغيره وكان أبو بكر رضى الله عنه يخرج الى السوق يحمل الثياب فيبيع ويشترى ومر عبد الله بن سلام رضى الله عنه وعلى رأسه حزمة حطب فقيل له ما يحملك على هذا وقد أغناك الله عز وجل فقال أردت أن ادفع به الكبر فانى سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول لا يدخل الجنة عبد في قلبه مثقال ذرة من الكبر وكان أبو هريرة رضى الله تعالى عنه يحمل الحطب وغيره من حوائج نفسه وهو أمير على المدينة ويقول افسحوا لاميركم افسحوا لاميركم وخرج عمر ابن الخطاب رضى الله عنه يوما وهو خليفة في حاجة له ماشيا فاعيا فرأى غلاما على حمار له فقال يا غلام احملني فقد اعييت فنزل الغلام عن الدابة وقال اركب يا أمير المؤمنين فقال لا اركب أنت وانا خلفك فركب خلف الغلام حتى دخل المدينة والناس يرونه

(فصل) ومن كيده أنه يغرى الناس بتقبيل يده والتمسح به والثناء عليه وسؤاله الدعاء ونحو ذلك حتى يرى نفسه ويعجبه شأنها فلو قيل له انك من أوتاد الارض وبك يدفع البلاء عن الخلق ظن ذلك حقا وربما قيل له انه يتوسل به الى الله تعالى ويسأل الله تعالى به وبحرمته فيقضى حاجتهم فيقع ذلك في قلبه ويفرح به ويظنه حقا وذلك كل الهلاك فاذا رأى من أحد من الناس تجافيا عنه أو قلة خضوع له تذمر لذلك ووجد في باطنه وهذا أشر من أرباب الكبائر المصرين عليها وهم أقرب الى السلامة منه

(فصل) ومن كيده أنه يحسن الى أرباب التخلي والزهد والرياضة العمل بهاجسهم وواقعهم دون تحكيم أمر الشارع ويقولون القلب اذا كان محفوظا مع الله كانت هواجسه وخواطره معصومة من الخطأ وهذا من أبلغ كيد العدو فيهم فان الخواطر والهواجس ثلاثة أنواع رحمانية وشيطانية ونفسانية كالرؤيا فلو بلغ العبد من الزهد والعبادة ما بلغ فمعه شيطانه ونفسه لا يفارقانه الى الموت والشيطان يجرى منه مجرى الدم والعصمة انما هي للرسل صلوات الله وسلامه عليهم الذين هم وسائط بين الله عز وجل وبين خلقه في تبليغ أمره ونهيه ووعده ووعيده ومن عداهم يصيب ويخطئ وليس بحجة على الخلق وقد كان سيد المحدثين الملهمين عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول الشئ فيرده عليه من هو دونه فيتبين له الخطأ فيرجع اليه وكان يعرض هواجسه وخواطره على الكتاب والسنة ولا يلتفت اليها ولا يحكم بها ولا يعمل بها وهؤلاء الجهال يرى أحدهم أدنى شئ فيحكم هواجسه وخواطره على الكتاب والسنة ولا يلتفت اليهما ويقول حدثني قلبي عن ربي ونحن أخذنا عن الحي الذى لا يموت وأنتم أخذتم عن الوسائط ونحن أخذنا بالحقائق وأنتم اتبعتم الرسوم وأمثال ذلك من الكلام الذى هو كفر والحاد وغاية صاحبه أن يكون جاهلا يعذر بجهله حتى قيل لبعض هؤلاء ألا تذهب فتسمع الحديث من عبد الرزاق فقال ما يصنع بالسماع من عبد الرزاق من يسمع من الملك الخلاق وهذا

(قاعدة شريفة عظيمة القدر حاجة العبد اليها أعظم من حاجته الى الطعام والشراب والنفس بل والى الروح التي بين جنبيه) اعلم ان كل حي سوى الله فهو فقير الى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره والمنفعة للحي من جنس النعيم واللذة والمضرة من جنس الالم والعذاب فلا بد من أمرين أحدهما هو المطلوب المقصود المحبوب الذى ينتفع به ويتلذذ به والثاني هو المعين الموصل المحصل لذلك المقصود والمانع لحصول المكروه والدافع له بعد وقوعه فههنا أربعة أشياء أمر محبوب مطلوب الوجود والثاني أمر مكروه مطلوب العدم والثالث الوسيلة الى حصول المحبوب والرابع الوسيلة الى دفع المكروه فهذه الامور الاربعة ضرورية للعبد بل ولكل حي سوى الله لا يقوم صلاحه الا بها اذا عرف هذا فالله سبحانه هو المطلوب المعبود المحبوب وحده لا شريك له وهو وحده المعين للعبد على حصول مطلوبه فلا معبود سواه ولا معين على المطلوب غيره وما سواه هو المكروه المطلوب بعده وهو المعين على دفعه فهو سبحانه الجامع للامور الاربعة دون ما سواه وهذا معنى قول العبد اياك نعبد واياك نستعين فان العبادة تتضمن المقصود المطلوب على أكمل الوجوه والمستعان هو الذى يستعان به على حصول المطلوب ودفع المكروه فالاول من مقتضى ألوهيته والثاني من مقتضى ربوبيته لان الاله هو الذى يؤله فيعبد محبة وانابة واجلالا واكراما والرب هو الذى يرب عبده فيعطيه خلقه ثم يهديه الى جميع أحواله ومصالحه التي بها كماله ويهديه الى اجتناب المفاسد التي بها فساده

غاية الجهل فان الذى سمع من الملك الخلاق موسى بن عمران كليم الرحمن وأما هذا وأمثاله فلم يحصل لهم السماع من بعض ورثة الرسول وهو يدعى انه يسمع الخطاب من مرسله فيستغنى به عن ظاهر العلم ولعل الذى يخاطبهم هو الشيطان أو نفسه الجاهلة أوهما مجتمعين ومنفردين ومن ظن أنه يستغنى عما جاء به الرسول بما يلقى فى قلبه من الخواطر والهواجس فهو من أعظم الناس كفرا وكذلك ان ظن انه يكتفى بهذا تارة وبهذا تارة فما يلقى فى القلوب لا عبرة به ولا التفات اليه ان لم يعرض على ما جاء به الرسول ويشهد له بالموافقة والا فهو من القاء النفس والشيطان وقد سئل عبد الله بن مسعود عن مسئلة المفوضة شهر فقال بعد الشهر أقول فيها برأى فان يكن صوابا فمن الله وان يكن خطأ فمنى ومن الشيطان والله برىء منه ورسوله وكتب كاتب لعمر رضى الله عنه بين يديه هذا ما أرى الله عمر فقال لا امحه واكتب هذا ما رأى عمر وقال عمر رضى الله عنه أيضا أيها الناس اتهموا الرأى على الدين فلقد رأيتنى يوم أبى جندل ولو أستطيع ان أرد أمر رسول الله عليه السلام لرددته واتهام الصحابة لآرائهم كثير مشهور وهم أبر الامة قلوبا وأعمقها علما وأبعدها من الشيطان فكانوا أتبع الامة للسنة وأشدهم اتهاما لآرائهم وهؤلاء ضد ذلك وأهل الاستقامة منهم سلكوا على الجادة ولم يلتفتوا الى شىء من الخواطر والهواجس والالهامات حتى يقوم عليها شاهدان قال الجنيد قال أبو سليمان الدارانى ربما يقع فى قلبى النكتة من نكت القوم أياما فلا أقبلها الا بشاهدين عدلين من الكتاب والسنة وقال أبو يزيد لو نظرتم الى رجل أعطى من الكرامات حتى يتربع فى الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الامر والنهى وحفظ الحدود وقال أيضا من ترك قراءة القرآن ولزوم الجماعات وحضور الجنائز وعيادة المرضى وادعى بهذا الشأن فهو مدع وقال سرى السقطى من ادعى باطن علم ينقضه ظاهر حكم فهو غالط وقال الجنيد مذهبنا هذا مقيد بالاصول بالكتاب والسنة فمن لم يحفظ الكتاب ويكتب الحديث ويتفقه لا يقتدى به وقال أبو بكر الدقاق من ضيع حدود الامر والنهى فى الظاهر حرم مشاهدة القلب فى الباطن وقال أبو الحسين النورى من رأيته يدعى مع الله حالة تخرجه عن حد العلم الشرعى فلا تقربه ومن رأيته يدعى حالة لا يشهد لها حفظ ظاهر فاتهمه على دينه وقال الجريرى أمرنا هذا كله مجموع على فصل واحد ان تلزم قلبك المراقبة ويكون العلم على ظاهرك قائما وقال أبو حفص الكبير الشان من لم يزن أحواله وأفعاله بالكتاب والسنة ولم يتهم خواطره فلا تعدوه فى ديوان الرجال وما أحسن ما قال أبو أحمد الشيرازى كان الصوفية يسخرون من الشيطان والآن الشيطان يسخر منهم ونظير هذا ما قاله بعض أهل العلم كان الشيطان فيما مضى يهب من الناس واليوم الرجل الذى يهب من الشيطان

(فصل) ومن كيده أمرهم بلزوم زى واحد ولبسة واحدة وهيئة ومشية معينة وشيخ معين وطريقة مخترعة ويفرض عليهم لزوم ذلك بحيث يلزمونه كلزوم الفرائض فلا يخرجون عنه ويقدحون فيمن خرج عنه ويذمونه وربما يلزم أحدهم موضعا معينا للصلاة لا يصلى الا فيه وقد نهى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يوطن الرجل

وهلا كه وفى القرآن سبعة مواضع تنظم هذين الاصلين أحدها قوله اياك نعبد واياك نستعين الثانى قوله عليه توكلت واليه أنيب الثالث قوله فاعبده وتوكل عليه الرابع قوله عليك توكلنا واليك أنبنا الخامس قوله وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده السادس قوله عليه توكلت واليه متاب السابع قوله واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلا رب المشرق والمغرب لا اله الا هو فاتخذه وكيلا ومما يقرر هذا ان الله خلق الخلق لعبادته الجامعة لمعرفته والانابة اليه ومحبته والاخلاص له فبذكره تطمئن قلوبهم وبرؤيته فى الآخرة تقر عيونهم ولا شىء يعطيهم فى الآخرة أحب اليهم من النظر اليه ولا شىء يعطيهم فى الدنيا أحب اليهم من الايمان به ومحبتهم له ومعرفتهم به وحاجتهم اليه فى عبادتهم له وتألههم له كحاجتهم اليه بل أعظم فى خلقه وربوبيته لهم ورزقه لهم فان ذلك هو الغاية المقصودة التى بها سعادتهم وفوزهم وبها ولاجلها يصيرون عاملين متحركين ولا صلاح لهم ولا فلاح ولا نعيم ولا لذة ولا سرور بدون ذلك بحال فمن أعرض عن ذكر ربه فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ولهذا لا يغفر الله ان يشرك به شيئا ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ولهذا كانت لا اله الا الله أفضل الحسنات وكان توحيد الالهية الذى كلمته لا اله الا الله رأس الامر فاما توحيد الربوبية الذى أقر به كل المخلوقات فلا يكفى وحده وان كان لا بد منه وهو حجة على من أنكر توحيد الالوهية فحق الله على العباد ان يعبدوه ولا يشركوا به شيأ وحقهم عليه اذا فعلوا ذلك ان لا يعذبهم وان يكرمهم اذا قدموا عليه وهذا كما أنه غاية محبوب العبد ومطلوبه وبه سروره ولذته ونعيمه فهو أيضا محبوب الرب

المكان للصلاة كما يوطن البعير وكذلك ترى أحدهم أن لا يصلى الا على سجادة ولم يصل عليه السلام على سجادة قط ولا كانت السجادة تفرش بين يديه بل كان يصلى على الارض وربما أسجد فى الطين وكان يصلي على الحصير فيصلي على ما اتفق بسطه فان لم يكن ثمة شئ صلى على الارض وهؤلاء اشتغلوا بحفظ الرسوم عن الشريعة والحقيقة فصاروا واقفين مع الرسوم المبتدعة ليسوا مع أهل الفقه ولا مع أهل الحقائق فصاحب الحقيقة أشد شئ عليه التقيد بالرسوم الوضعية وهي من أعظم الحجب بين قلبه و بين الله فتى تقيد بها حبس قلبه عن سيره وكان أخس أحواله الوقوف معها ولا وقوف فى السير بل اما تقدم واما تأخر كما قال تعالى لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر فلا وقوف فى الطريق انما هو ذهاب وتقدم أو رجوع وتأخر ومن تأمل هدى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وسيرته وجده مناقضا لهدى هؤلاء فانه كان يلبس القميص تارة والقباء تارة والجبة تارة والازار والرداء تارة ويركب البعير وحده ومردفا لغيره ويركب الفرس مسرجا وعريانا ويركب الحمار ويأكل ما حضر و يجلس على الارض تارة وعلى الحصير تارة وعلى البساط تارة ويمشي وحده تارة ومع أصحابه تارة وهديه عدم التكلف والتقيد بما أمره به ربه فبين هديه وهدى هؤلاء بون بعيد

(فصل) ومن كيده الذى بلغ به الجهال ما بلغ الوسواس الذى كادهم به فى أمر الطهارة والصلاة عند عقد النية حتى ألقاهم فى الآصار والاغلال وأخرجهم عن اتباع سنة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وخيل الى أحدهم ان ما جاءت به السنة لا يكفي حتى يضم اليه غيره فجمع لهم بين هذا الظن الفاسد والتعب الحاضر وبطلان الاجر أو تنقيصه ولا ريب أن الشيطان هو الداعي الى الوسواس فأهله قد أطاعوا الشيطان ولبوا دعوته واتبعوا أمره ورغبوا عن اتباع سنة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وطريقته حتى ان أحدهم ليرى أنه اذا توضأ وضوء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أو اغتسل كاغتساله لم يطهر ولم يرتفع حدثه ولولا العذر بالجهل لكان هذا مشاقة للرسول فقد كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يتوضأ بالمد وهو قريب من ثلث رطل بالدمشقي و يغتسل بالصاع وهو نحو رطل وثلث والموسوس يرى أن ذلك القدر لا يكفيه لغسل يديه وصح عنه عليه السلام أنه توضأ مرة مرة ولم يزد على ثلاث بل أخبر أن من زاد عليها فقد أساء وتعدى وظلم فالموسوس مسيء متعد ظالم بشهادة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فكيف يتقرب الى الله بما هو مسيء به متعد فيه لحدوده وصح عنه أنه كان يغتسل هو وعائشة رضي الله عنها من قصعة بينهما فيها أثر العجين ولو رأى الموسوس من يفعل هذا لانكر عليه غاية الانكار وقال ما يكفي هذا القدر لغسل اثنين كيف والعجين يحلله الماء فيغيره هذا والرشاش ينزل فى الماء فينجسه عند بعضهم و يفسده عند آخرين فلا تصح به الطهارة وكان صلى الله تعالى عليه وسلم يفعل ذلك مع غير عائشة مثل ميمونة وأم سلمة وهذا كله فى الصحيح وثبت أيضا فى الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنه أنه قال كان الرجال والنساء على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يتوضؤن من اناء واحد والآنية التى كان عليه السلام وأزواجه وأصحابه ونساؤهم يغتسلون منها لم تكن من كبار الآنية

من عبده ومطلوبه الذى يرضى به و يفرح بتوبة عبده اذا رجع اليه والى عبوديته وطاعته أعظم من فرح من وجد راحلته التى عليها طعامه وشرابه فى أرض مهلكة بعد ان فقدها وأيس منها وهذا أعظم فرح يكون وكذلك العبد لا فرح له أعظم من فرحه بوجود ربه وأنسه به وطاعته له واقباله عليه وطمأنينته بذكره وعمارة قلبه بمعرفته والشوق الى لقائه فليس فى الكائنات ما يسكن العبد اليه و يطمئن به و يتنعم بالتوجه اليه الا الله سبحانه ومن عبد غيره وأحبه وان حصل له نوع من اللذة والمودة والسكون اليه والفرح والسرور بوجوده ففساده به ومضرته وعطبه أعظم من فساد أكل الطعام المسموم اللذيذ الشهي الذى هو عذب فى مبدئه عذاب فى نهايته كما قال القائل

ما رب كانت فى الشباب لاهلها
عذبا فصارت فى المشيب عذابا

لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون فان قوام السموات والارض والخليقة بان تأله الاله الحق فلو كان فيهما اله آخر غير الله لم يكن الها حقا اذ الاله الحق لا شريك له ولا سمي له ولا مثل له فلو تألهت غيره لفسدت كل الفساد بانتفاء ما به صلاحها اذ صلاحها بتأله الاله الحق كما انها لا توجد الا باستنادها الى الرب الواحد القهار و يستحيل ان تستند فى وجودها الى ربين متكافئين فكذلك يستحيل ان تستند فى بقائها وصلاحها الى الهين متساويين اذا عرف هذا فاعلم ان حاجة العبد الى أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيأ فى محبته ولا فى خوفه ولا فى رجائه ولا فى التوكل عليه ولا فى العمل له ولا فى الحلف به ولا فى النذر له ولا فى الخضوع له ولا فى التذلل والتعظيم والسجود والتقرب أعظم من حاجة الجسد الى روحه والعين الى نورها بل ليس لهذه

ولا كانت لها مادة تمدها كانبوب الحمام ونحوه ولم يكونوا يراعون فيضانها حتى يجرى الماء من حافاتها كما يراعيه جهال الناس ممن بلى بالوسواس فى جرن الحمام فهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى من رغب عنه فقد رغب عن سنته جواز الاغتسال من الحياض والآنية وان كانت ناقصة غير فائضة ومن انتظر الحوض حتى يفيض ثم استعمله وحده ولم يمكن أحدا ان يشاركه فى استعماله فهو مبتدع مخالف للشريعة قال شيخنا ويستحق التعزير البليغ الذى يزجره وأمثاله عن أن يشرعوا فى الدين مالم يأذن به الله ويعبدوا الله بالبدع لا بالاتباع ودلت هذه السنن الصحيحة على أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه لم يكونوا يكثرون صب الماء ومضى على هذا التابعون لهم باحسان قال سعيد بن المسيب انى لاستنجى من كوز الحب وأتوضأ وأفضل منه لاهلى وقال الامام أحمد من فقه الرجل قلة ولوعه بالماء وقال المروزى وضأت أبا عبد الله بالعسكر فسترته من الناس لئلا يقولوا انه لا يحسن الوضوء لقلة صبه الماء وكان أحمد يتوضأ فلا يكاد يبل الثرى وثبت عنه فى الصحيح انه توضأ من اناء فادخل يده فيه ثم تمضمض واستنشق وكذلك كان فى غسله يدخل يده فى الاناء ويتناول الماء منه والموسوس لا يجوز ذلك ولعله ان يحكم بنجاسة الماء أو يسلبه طهوريته بذلك وبالجملة فلا تطاوعه نفسه لاتباع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وان يأتى بمثل ما أتى به أبدا وكيف يطاوع الموسوس نفسه ان يغتسل هو وامرأته من اناء واحد قدر الفرق قريبا من خمسة أرطال بالدمشقى يغمسان أيديهما فيه ويفرغان عليهما فالموسوس يشمئز من ذلك كما يشمئز المشرك اذا ذكر الله وحده قال أصحاب الوسواس انما حملنا على ذلك الاحتياط لديننا والعمل بقوله صلى الله تعالى عليه وسلم دع ما يريبك الى مالا يريبك وقوله من اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه وقوله الاثم ما حاك فى الصدر وقال بعض السلف الاثم حواز القلوب وقد وجد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم تمرة فقال لولا انى أخشى أن تكون من الصدقة لاكلتها أفلا يرى انه ترك أكلها احتياطا وقد أفتى مالك رحمه الله فيمن طلق امرأته وشك هل هى واحدة أم ثلاث بانها ثلاث احتياطا للفرج وأفتى من حلف بالطلاق أن فى هذه اللوزة حبتين وهو لا يعلم ذلك فبان الامر كما حلف عليه انه حانث لانه حلف على مالا يعلم وقال فيمن طلق واحدة من نسائه ثم أنسيها يطلق عليه جميع نسائه احتياطا وقطعا للشك وقال أصحاب مالك فيمن حلف بيمين ثم نسيها انه يلزمه جميع ما يحلف به عادة فيلزمه الطلاق والعتاق والصدقة بثلث المال وكفارة الظهار وكفارة اليمين بالله تعالى والحج ماشيا ويقع الطلاق فى جميع نسائه ويعتق عليه جميع عبيده واماؤه وهذا أحد القولين عندهم ومذهب مالك أيضا انه اذا حلف ليفعلن كذا انه على حنث حتى يفعله فيحال بينه وبين امرأته ومذهبه أيضا اذا قال اذا جاء رأس الحول فانت طالق ثلاثا انها تطلق فى الحال وهذا كله احتياط وقال الفقهاء من خفى عليه موضع النجاسة من الثوب وجب عليه غسله كله وقالوا اذا كان معه ثياب طاهرة وتنجس منها ثياب وشك فيها صلى فى ثوب بعد ثوب بعدد النجس وزاد صلاة لتيقن براءة ذمته وقالوا اذا اشتبهت الاوانى الطاهرة بالنجسة أراق الجميع وتيمم وكذلك اذا اشتبهت عليه القبلة فلا يدرى فى أى جهة فانه يصلى أربع

الحاجة نظير تقاس به فان حقيقة العبد روحه وقلبه ولا صلاح لها الا بالهها الذى لا اله الا هو فلا تطمئن فى الدنيا الا بذكره وهى كادحة اليه كدحا فملاقيته ولا بد لها من لقائه ولا صلاح لها الا بمحبتها وعبوديتها له ورضاه واكرامه لها ولو حصل للعبد من اللذات والسرور بغير الله ما حصل لم يدم له ذلك بل ينتقل من نوع الى نوع ومن شخص الى شخص ويتنعم بهذا فى وقت ثم يعذب به ولا بد فى وقت آخر وكثيرا ما يكون ذلك الذى يتنعم به ويلتذ به غير منعم له ولا ملذ بل قد يؤذيه اتصاله به ووجوده عنده ويضره ذلك وانما يحصل له بملابسته من جنس ما يحصل للجرب من لذة الاظفار التى تحكه فهى تدمى الجلد وتخرقه وتزيد فى ضرره وهو يؤثر ذلك لماله فى حكها من اللذة وهكذا ما يتعذب به القلب من محبة غير الله هو عذاب عليه ومضرة وألم فى الحقيقة لا تزيد لذته على لذة حك الجرب والعاقل يوازن بين الامرين ويؤثر أرجحهما وأنفعهما والله الموفق المعين وله الحجة البالغة كما له النعمة السابغة والمقصود ان اله العبد الذى لا بد له منه فى كل حالة وكل دقيقة وكل طرفة عين فهو الاله الحق الذى كل ما سواه باطل الذى أينما كان فهو معه وضرورته وحاجته اليه لا تشبهها ضرورة ولا حاجة بل هى فوق كل ضرورة وأعظم من كل حاجة ولهذا قال امام الحنفاء لا أحب الآفلين والله أعلم

(فصل) وهذا مبنى على أصلين أحدهما ان نفس الايمان بالله وعبادته ومحبته واخلاص العمل له وافراده بالتوكل عليه هو غذاء الانسان وقوته وصلاحه وقوامه كما عليه أهل الايمان وكما دل عليه القرآن لا كما يقوله من يقول ان عبادته تكليف ومشقة على خلاف مقصود القلب ولذته

صلوات عند بعض الائمة لتبرأ ذمته بيقين وقالوا من ترك صلاة من يوم ثم نسيها وجب عليه أن يصلى خمس صلوات وقد أمر عليه السلام من شك فى صلاته أن يبنى على اليقين وحرم أكل الصيد اذا شك صاحبه هل مات بسهمه أو بغيره كما اذا وقع فى الماء وحرم أكله اذا خالط كلبه كلبا آخر للشك فى تسمية صاحبه عليه وهذا باب يطول تتبعه فالاحتياط والاخذ باليقين غير مستنكر فى الشرع وان سميتموه وسواسا وقد كان عبد الله بن عمر يغسل داخل عينيه فى الطهارة حتى عمى وكان أبو هريرة اذا توضأ أشرع فى العضد واذا غسل رجليه أشرع فى الساقين فنحن اذا احتطنا لانفسنا وأخذنا باليقين وتركنا ما يريب الى ما لا يريب وتركنا المشكوك فيه للمتيقن المعلوم وتجنبنا محل الاشتباه لم نكن بذلك عن الشريعة خارجين ولا فى البدعة والجين وهل هذا الاخير من التسهيل والاسترسال حتى لا يبالى العبد بدينه ولا يحتاط له بل يسهل الاشياء ويمشى حالها ولا يبالى كيف توضأ ولا بأى ماء توضأ ولا بأى مكان صلى ولا يبالى ما أصاب ذيله وثوبه ولا يسأل عما عهد بل يتغافل ويحسن ظنه فهو مهمل لدينه لا يبالى ما شك فيه ويحمل الامور على الطهارة وربما كانت أفحش النجاسة ويدخل بالشك ويخرج بالشك فأين هذا ممن استقصى فى فعل ما أمر به واجتهد فيه حتى لا يخل بشئ منه وان زاد على المأمور فانما قصده بالزيادة تكميل المأمور وأن لا ينقص منه شيأ قالوا وجماع ما ينكرونه علينا احتياط فى فعل مأمور واحتياط فى اجتناب محظور وذلك خير وأحسن عاقبة من التهاون بهذين فانه يفضى غالبا الى النقص من الواجب والدخول فى المحرم واذا وازنا بين هذه المفسدة ومفسدة الوسواس كانت مفسدة الوسواس أخف هذا ان ساعدناكم على تسميته وسواسا وانما نسميه احتياطا واستظهارا فلستم بأسعد منا بالسنة ونحن حولها ندندن وتكميلها نريد قال أهل الاقتصاد والاتباع قال الله تعالى سبحانه لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وقال تعالى قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله وقال تعالى واتبعوه لعلكم تهتدون وقال تعالى وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون وهذا الصراط المستقيم الذى وصانا باتباعه هو الصراط الذى كان عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه وهو قصد السبيل وما خرج عنه فهو من السبل الجائرة قاله من قال لكن الجور قد يكون جورا عظيما عن الصراط وقد يكون يسيرا وبين ذلك مراتب لا يحصيها الا الله وهذا كالطريق الحسى فان السالك قد يعدل عنه ويجور جورا فاحشا وقد يجور دون ذلك فالميزان الذى يعرف به الاستقامة على الطريق والجور عنه هو ما كان رسول الله وأصحابه عليه والجائر عنه اما مفرط ظالم أو مجتهد أو متأول أو مقلد أو جاهل فمنهم المستحق للعقوبة ومنهم المغفور له ومنهم المأجور أجرا واحدا بحسب نياتهم ومقاصدهم واجتهادهم فى طاعة الله تعالى ورسوله أو تفريطهم ونحن نسوق من هدى رسول الله وهدى أصحابه ما يبين أى الفريقين أولى باتباعه ثم نجيب عما احتجوا به بعون الله وتوفيقه ونقدم قبل ذلك ذكر النهى عن الغلو وتعدى الحدود والاسراف وان الاقتصاد والاعتصام بالسنة عليهما مدار الدين قال الله تعالى يا أهل الكتاب لا تغلوا فى

بل لمجرد الامتحان والابتلاء كما يقوله منكر والحكمة والتعليل أو لاجل التعويض بالاجل الى ايصاله اليه دون معاوضة منه تكدره أو لاجل تهذيب النفس ورياضتها واستعدادها لقبول العقليات كما يقوله من يتقرب الى النبوات من الفلاسفة بل الامر أعظم من ذلك كله وأجل بل أوامر المحبوب قرة العيون وسرور القلوب ونعيم الارواح ولذات النفوس وبها كمال النعيم فقرة عين المحب فى الصلاة والحج وفرح قلبه وسروره ونعيمه فى ذلك وفى الصيام والذكر والتلاوة واما الصدقة فعجب من العجب وأما الجهاد والامر بالمعروف والنهى عن المنكر والدعوة الى الله والصبر على أعداء الله سبحانه فاللذة بذلك أمر آخر لا يناله الوصف ولا يدركه من ليس له نصيب منه وكل من كان به أقوم كان نصيبه من الالتذاذ به أعظم ومن غلظ فهمه وكثف طبعه عن ادراك هذا فليتأمل اقدام القوم على قتل آبائهم وأبنائهم وأحبابهم ومفارقة أوطانهم وبذل نحورهم لاعدائهم ومحبتهم للقتل وايثارهم له على البقاء وايثار لوم اللائمين وذم المخالفين على مدحهم وتعظيمهم ووقوع هذا من البشر بدون أمر يذوقه قلبه من حلاوته ولذته وسروره ونعيمه ممتنع والواقع شاهد بذلك بل ما قام بقلوبهم من اللذة والسرور والنعيم أعظم مما يقوم بقلب العاشق الذى يتحمل ما يتحمله فى موافقة رضى معشوقه فهو يلتذ به ويتنعم به لما يعلم من سرور معشوقه به

فيا منكرا هذا تأخر فانه
حرام على الخفاش ان يبصر الشمسا

فمن كان مراده وحبه الله وحبائه فى معرفته ومحبته ونعيمه فى التوجه اليه وذكره وطمانينته به وسكونه اليه وحده عرف هذا وأقربه * الاصل الثانى كمال النعيم فى الدار

دينكم وقال تعالى ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين وقال تعالى ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين وقال ابن عباس رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم غداة العقبة وهو على ناقته القط لى حصا فلقطت له سبع حصيات من حصا الحذف فجعل ينفضهن فى كفه و يقول أمثال هؤلاء فارموا ثم قال يا أيها الناس اياكم والغلو فى الدين فانما أهلك الذين من قبلكم الغلو فى الدين رواه الامام أحمد والنسائى وقال أنس رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لا تشددوا على أنفسكم فيشدد الله عليكم فان قوما شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم فتلك بقاياهم فى الصوامع والديار رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم فنهى عليه السلام عن التشدد فى الدين وذلك بالزيادة على المشروع وأخبر ان تشديد العبد على نفسه هو السبب لتشديد الله عليه اما بالقدر واما بالشرع فالتشديد بالشرع كما يشدد على نفسه بالنذر الثقيل فيلزمه الوفاء به و بالقدر كفعل أهل الوسواس فانهم شددوا على أنفسهم فشدد عليهم القدر حتى استحكم ذلك وصار صفة لازمة لهم قال البخارى وكره أهل العلم الاسراف فيه يعنى الوضوء وان يجاوزوا فعل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وقال ابن عمر رضى الله عنه اسباغ الوضوء الانقاء فالفقه كل الفقه الاقتصاد فى الدين والاعتصام بالسنة قال أبى بن كعب عليكم بالسبيل والسنة فانه ما من عبد على السبيل والسنة ذكر الله عز وجل فاقشعر جلده من خشية الله تعالى الا تحاتت عنه خطاياه كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها وان اقتصادا فى سبيل وسنة خير من اجتهاد فى خلاف سبيل وسنة فاحرصوا اذا كانت أعمالكم اقتصادا ان تكون على منهاج الانبياء وسنتهم قال الشيخ أبو محمد المقدسى فى كتابه ذم الوسواس الحمد لله الذى هدانا بنعمته وشرفنا بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم و برسالته ووفقنا للاقتداء به والتمسك بسنته ومن علينا باتباعه الذى جعله علما على محبته ومغفرته وسببا لكتابة رحمته وحصول هدايته فقال سبحانه قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله و يغفر لكم ذنوبكم وقال تعالى و رحمتى وسعت كل شئ فسأكتبها للذين يتقون الى قوله يتبعون الرسول النبى الامى ثم قال فآمنوا بالله و رسوله النبى الامى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون أما بعد فان الله سبحانه جعل الشيطان عدوا للانسان يقعد له الصراط المستقيم و يأتيه من كل جهة وسبيل كما أخبر الله تعالى عنه قال لاقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين وحذرنا الله عز وجل من متابعته وأمرنا بمعاداته ومخالفته فقال سبحانه ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا وقال يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة وأخبرنا بما صنع بأبوينا تحذيرا لنا من طاعته وقطعا للعذر فى متابعته وأمرنا الله تعالى باتباع صراطه المستقيم ونهانا عن اتباع السبل فقال سبحانه وان هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله وسبيل الله وصراطه المستقيم هو الذى كان عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وصحابته بدليل قوله عز وجل يس والقرآن الحكيم انك لمن المرسلين على صراط مستقيم وقال وانك لعلى هدى مستقيم وقال انك لتهدى الى صراط مستقيم فمن اتبع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى قوله وفعله فهو

الآخرة أيضا به سبحانه برؤيته وسماع كلامه وقربه ورضوانه لا كما زعم من زعم انه لا لذة فى الآخرة الا بالمخلوق من المأكول والمشروب والملبوس والمنكوح بل اللذة والنعيم التام فى حظهم من الخالق تعالى أعظم مما يخطر بالبال أو يدور فى الخيال وفى دعاء النبى صلى الله عليه وسلم الذى رواه الامام أحمد فى مسنده وابن حبان والحاكم فى صحيحيهما وأسألك لذة النظر الى وجهك والشوق الى لقائك فى غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة ولهذا قال تعالى فى حق الكفار كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم انهم لصالوا الجحيم فعذاب الحجاب من أعظم أنواع العذاب الذى يعذب به أعداءه ولذة النظر الى وجه الله الكريم أعظم أنواع اللذات التى ينعم بها أولياءه ولا تقوم حظوظهم من سائر المخلوقات مقام حظهم من رؤيته وسماع كلامه والدنو منه وقربه وهذان الاصلان ثابتان بالكتاب والسنة وعليهما أهل العلم والايمان ويتكلم فيهما مشايخ الطريق العارفون وعليهما أهل السنة والجماعة وهما من فطرة الله التى فطر الناس عليها ويحتجون على من ينكرهما بالنصوص والآثار تارة وبالذوق والوجد تارة وبالفطرة تارة وبالقياس والامثال تارة وقد ذكرنا مجموع هذه الطرق فى كتابنا الكبير فى المحبة الذى سميناه المورد الصافى والظل الضافى فى المحبة وأقسامها وأنواعها وأحكامها وبينا تعلقها بالاله الحق دون ما سواه وذكرنا من ذلك ما يزيد على مائة وجه ومما يوضح ذلك و يزيده تقريرا ان المخلوق ليس عنده للعبد نفع ولا ضر ولا عطاء ولا منع بل ربه سبحانه الذى خلقه ورزقه و بصره وهداه وأسبغ عليه نعمه وتحبب اليه بها مع غناه عنه ومع تبغض

فهو على صراط الله المستقيم وهو ممن يحبه الله ويغفر له ذنوبه ومن خالفه في قوله أو فعله فهو مبتدع متبع لسبيل الشيطان غير داخل فيمن وعد الله بالمحبة والمغفرة والاحسان

(فصل) ثم ان طائفة الموسوسين قد تحقق منهم طاعة الشيطان حتى اتصفوا بوسوسته وقبلوا قوله وأطاعوه ورغبوا عن اتباع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وصحابته حتى ان أحدهم ليرى أنه اذا توضأ وضوء رسول الله عليه السلام أو صلى كصلاته فوضوؤه باطل وصلاته غير صحيحة ويرى أنه اذا فعل مثل فعل رسول الله عليه السلام في مواكلة الصبيان وأكل طعام عامة المسلمين أنه قد صار نجسا يجب عليه تسبيع يده وفيه كما لو ولغ فيهما كلب أو بال عليهما هر ثم انه بلغ من استيلاء ابليس عليهم أنهم أجابوه الى ما يشبه الجنون ويقارب مذهب السوفسطائية الذين ينكرون حقائق الموجودات والامور المحسوسات وعلم الانسان بحال نفسه من الامور الضروريات اليقينيات وهؤلاء يغسل أحدهم عضوه غسلا يشاهده ببصره ويكبر ويقرأ بلسانه بحيث يسمعه أذناه ويعلمه بقلبه بل يعلمه غيره منه ويتيقنه ثم يشك هل فعل ذلك أم لا وكذلك يشككه الشيطان في نيته وقصده التي يعلمها من نفسه يقينا بل يعلمها غيره منه بقرائن أحواله ومع هذا يقبل قول ابليس في أنه ما نوى الصلاة ولا أرادها مكابرة منه لعيانه ويجحد اليقين نفسه حتى تراه متلددا متحيرا كأنه يعالج شيئا يجتذبه أو يجد شيئا في باطنه يستخرجه كل ذلك مبالغة في طاعة ابليس وقبول وسوسته ومن انتهت طاعته لابليس الى هذا الحد فقد بلغ النهاية في طاعته ثم انه يقبل قوله في تعذيب نفسه ويطيعه في الاضرار بجسده تارة بالغوص في الماء البارد وتارة بكثرة استعماله واطالة الفرك وربما فتح عينيه في الماء البارد وغسل داخلهما حتى يضر ببصره وربما افضى الى كشف عورته للناس وربما صار الى حال يسخر منه الشيطان ويستهزئ به من يراه قلت ذكر أبو الفرج بن الجوزي عن أبي الوفا بن عقيل أن رجلا قال له أنغمس في الماء مرارا كثيرة وأشك هل صح لي الغسل أم لا فما ترى في ذلك فقال له الشيخ اذهب فقد سقطت عنك الصلاة قال وكيف قال لان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال رفع القلم عن ثلاثة المجنون حتى يفيق والنائم حتى يستيقظ والصبي حتى يبلغ ومن ينغمس في الماء مرارا ويشك هل أصابه الماء أم لا فهو مجنون قال وربما شغله بوسواسه حتى تفوته الجماعة وربما فاته الوقت ويشغله بوسوسته في النية حتى تفوته التكبيرة الاولى وربما فوت عليه ركعة أو أكثر ومنهم من يحلف أنه لا يزيد على هذه ويكذب قلت وحكى لي من أثق به عن موسوس عظيم رأيته أنا يكرر عقد النية مرارا عديدة فيشق على المأمومين مشقة كبيرة فعرض له أن حلف بالطلاق أنه لا يزيد على تلك المرة فلم يدعه ابليس حتى زاد ففرق بينه وبين امرأته فأصابه لذلك غم شديد واقاما متفرقين دهرا طويلا حتى تزوجت تلك المرأة برجل آخر وجاءه منها ولد ثم أنه حنث في يمين حلفها ففرق بينهما وردت الى الاول بعد ان كاد يتلف لمفارقتها وبلغني عن آخر كان شديد التنطع في التلفظ بالنية والتقعر في ذلك فاشتد به التنطع والتقعر يوما الى أن قال أصلي أصلي مرارا صلاة كذا وكذا وأراد أن يقول أداء فأعجم الدال وقال اذاء لله فقطع الصلاة رجل الى جانبه فقال ولرسوله وملائكته وجماعة المصلين قال ومنهم من

يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم فالعبد لا ينفع ولا يضر ولا يعطي ولا يمنع الا باذن الله فالامر كله لله أولا وآخرا وظاهرا وباطنا وهو مقلب القلوب ومصرفها كيف يشاء المتفرد بالضر والنفع والعطاء والمنع والخفض والرفع ما من دابة الا هو آخذ بناصيتها ألا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين وهذا الوجه أعظم لعموم الناس من الوجه الاول ولهذا خوطبوا به في القرآن أكثر من الاول لكن من تدبر طريقة القرآن تبين له ان الله سبحانه يدعو عباده بهذا الوجه الى الاول فهذا الوجه يقتضي التوكل على الله والاستعانة والدعاء له ومسالته دون ما سواه ويقتضي أيضا محبته وعبادته لاحسانه الى عبده واسباغ نعمه عليه فاذا عبده وأحبه وتوكل عليه من هذا الوجه دخل في الوجه الاول وهكذا من نزل به بلاء عظيم وفاقة شديدة أو خوف مقلق فجعل يدعو الله ويتضرع اليه حتى فتح له من لذيذ مناجاته له وباب الايمان به والانابة اليه ما هو أحب اليه من تلك الحاجة التي قصدها أولا لكنه لم يكن يعرف ذلك أولا حتى يطلبه ويشتاق اليه فعرفه اياه بما أقامه له من الاسباب التي أوصلته اليه والقرآن مملوء من ذكر حاجة العبد الى الله دون ما سواه ومن ذكر نعمائه عليهم ومن ذكر ما وعدهم به في الآخرة من صنوف النعيم واللذات وليس عند المخلوق شيء من هذا فهذا الوجه يحقق التوكل على الله

يتوسوس فى اخراج الحروف حتى يكرره مرارا قال فرأيت منهم من يقول الله أ ككككبر قال وقال لى انسان منهم قد عجزت عن قول السلام عليكم فقلت له قل مثل ما قد قلت الآن وقد استرحت وقد بلغ الشيطان منهم أن عذبهم فى الدنيا والآخرة وأخرجهم عن اتباع الرسول وأدخلهم فى جملة أهل التنطع والغلو وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا فمن أراد التخلص من هذه البلية فليستشعر أن الحق فى اتباع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلام فى قوله وفعله وليعزم على سلوك طريقته عزيمة من لا يشك أنه على الصراط المستقيم وأن ما خالفه من تسويل ابليس ووسوسته ويوقن أنه عدو له لا يدعوه الى خير انما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير وليترك التعريج على كل ما خالف طريقة رسول الله عليه السلام كائنا ما كان فانه لا شك أن رسول الله عليه السلام كان على الصراط المستقيم ومن شك فى هذا فليس بمسلم ومن علمه قال أين العدول عن سنته وأى شئ يبتغى العبد غير طريقته ويقول لنفسه ألست تعلمين أن طريقة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هى الصراط المستقيم فاذا قالت له بلى قال لها فهل كان يفعل هذا فستقول لا فقل لها فماذا بعد الحق الا الضلال وهل بعد طريق الجنة الا طريق النار وهل بعد سبيل الله وسبيل رسوله الا سبيل الشيطان فان اتبعت سبيله كنت قرينه وستقولين ياليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ولينظر أحوال السلف فى متابعتهم لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فليقتد بهم وليختر طريقهم فقد روينا عن بعضهم أنه قال لقد تقدمنى قوم لولم يتجاوزوا بالوضوء الظفر ما تجاوزته قلت هو ابراهيم النخعى وقال زين العابدين يوما لابنه يابنى اتخذ لى ثوبا ألبسه عند قضاء الحاجة فانى رأيت الذباب يسقط على الشئ ثم يقع على الثوب ثم أتيته فقال ما كان للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه الا ثوب واحد فتركه وكان عمر رضى الله تعالى عنه يهم بالامر ويعزم عليه فاذا قيل له لم يفعله رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم انتهى حتى انه قال لقد هممت أن انهى عن لبس هذه الثياب فانه بلغنى أنها تصبغ ببول العجائز فقال له أبى مالك أن تنهى فان رسول الله عليه السلام قد لبسها ولبست فى زمانه ولو علم الله أن لبسها حرام لبينه لرسوله فقال عمر صدقت ثم ليعلم أن الصحابة ما كان فيهم موسوس ولو كانت الوسوسة فضيلة لما ادخرها الله عن رسوله وصحابته وهم خير الخلق وأفضلهم ولو أدرك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الموسوسين لمقتهم ولو أدركهم عمر رضى الله تعالى عنه لضربهم وأدبهم ولو أدركهم الصحابة لبدعوهم وها أنا أذكر ما جاء فى خلاف مذهبهم على ما يسره الله تعالى مفصلا

(الفصل الاول فى النية فى الطهارة والصلاة) النية هى القصد والعزم على فعل الشئ ومحلها القلب لا تعلق لها باللسان أصلا ولذلك لم ينقل عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ولا عن أصحابه فى النية لفظ بحال ولا سمعنا عنهم ذكر ذلك وهذه العبارات التى أحدثت عند افتتاح الطهارة والصلاة قد جعلها الشيطان معتركا لاهل الوسواس يحبسهم عندها ويعذبهم فيها ويوقعهم فى طلب تصحيحها فترى أحدهم يكررها ويجهد نفسه فى التلفظ بها وليست من الصلاة فى شئ وانما النية قصد فعل الشئ فكل عازم على فعل فهو ناويه

ومحبته على احسانه ومما يوضح ذلك ويقويه ان تعلق العبد بما سوى الله مضرة عليه اذا أخذ منه القدر الزائد على حاجته المعينة له على عبودية الله ومحبته وتفريغ قلبه له فانه ان نال من الطعام والشراب فوق حاجته ضره أو أهلكه وكذلك من النكاح واللباس وان أحب شيئا بحيث يخالله فلابد أن يسأمه أو يفارقه فالضر حاصل له ان وجد أو فقد فان فقد تعذب بالفراق وتألم وان وجد فانه يحصل له من الالم أكثر مما يحصل له من اللذة وهذا أمر معلوم بالاعتبار والاستقراء ان كل من أحب شيأ دون الله لغير الله فان مضرته أكثر من منفعته وعذابه أعظم من نعيمه يزيد ذلك ايضاحا ان اعتماده على المخلوق وتوكله عليه يوجب له الضرر من جهته فانه يخذل من تلك الجهة وهذا أيضا معلوم بالاعتبار والاستقراء فانه ما علق العبد رجاءه وتوكله بغير الله الا خاب من تلك الجهة ولا استنصر بغيره الا خذل قال تعالى واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا وقال واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون وقال عن امام الحنفاء انه قال للمشركين انما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحيوة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ولما كان غاية صلاح العبد فى عبادة الله وحده واستعانته وحده كان فى عبادة غيره والاستعانة بغيره غاية مضرته ومما يوضح الامر فى ذلك ويبينه ان الله سبحانه غنى حميد كريم رحيم فهو محسن الى عبده مع غناه عنه يريد به الخير ويكشف عنه الضر لا لجلب منفعة اليه سبحانه ولا لدفع مضرة بل رحمة واحسانا وجودا محضا فانه

لا

لا يتصور انفكاك ذلك عن النية فانه حقيقتها فلا يمكن عدمها في حال وجودها ومن قعد ليتوضأ فقد نوى الوضوء ومن قام ليصلي فقد نوى الصلاة ولا يكاد العاقل يفعل شيأ من العبادات ولا غيرها بغير نية فالنية أمر لازم لافعال الانسان المقصودة لا يحتاج الى تعب ولا تحصيل ولو أراد اخلاء أفعاله الاختيارية عن نيته لعجز عن ذلك ولو كلفه الله عز وجل الصلاة والوضوء بغير نية لكلفه ما لا يطيق ولا يدخل تحت وسعه وما كان هكذا فما وجه التعب في تحصيله وان شك في حصول نيته فهو نوع جنون فان علم الانسان بحال نفسه أمر يقيني فكيف يشك فيه عاقل من نفسه ومن قام ليصلي صلاة الظهر خلف الامام فكيف يشك في ذلك ولو دعاه داع الى شغل في تلك الحال لقال اني مشتغل أريد صلاة الظهر ولو قال له قائل في وقت خروجه الى الصلاة أين تمضي لقال أريد صلاة الظهر مع الامام فكيف يشك عاقل في هذا من نفسه وهو يعلمه يقينا بل أعجب من هذا أن غيره يعلم بنيته بقرائن الاحوال فانه اذا رأى انسانا جالسا في الصف في وقت الصلاة عند اجتماع الناس علم انه ينتظر الصلاة واذا رآه قد قام عند اقامتها ونهوض الناس اليها علم أنه انما قام ليصلي فان تقدم بين يدي المأمومين علم أنه يريد امامتهم فان رآه في الصف علم أنه يريد الائتمام قال فاذا كان غيره يعلم نيته الباطنة بما ظهر من قرائن الاحوال فكيف يجهلها من نفسه مع اطلاعه هو على باطنه فقبوله من الشيطان انه ما نوى تصديق له في جحد العيان وانكار الحقائق المعلومة يقينا ومخالفة للشرع ورغبة عن السنة وعن طريق الصحابة ثم ان النية الحاصلة لا يمكن تحصيلها والموجودة لا يمكن ايجادها الان من شرط ايجاد الشئ كونه معدوما فان ايجاد الموجود محال واذا كان كذلك فما يحصل له بوقوفه شئ ولو وقف ألف عام قال ومن العجب أنه يتوسوس حال قيامه حتى يركع الامام فاذا خشي فوات الركوع كبر سريعا وأدركه فمن لم يحصل النية في الوقوف الطويل حال فراغ باله كيف يحصلها في الوقت الضيق مع شغل باله بفوات الركعة ثم ما يطلبه اما أن يكون سهلا أو عسرا فان كان سهلا فكيف يعسره وان كان عسيرا فكيف تيسره عند ركوع الامام سواء وكيف خفي ذلك على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وصحابته من أولهم الى آخرهم والتابعين ومن بعدهم وكيف لم يبينه له سوى من استحوذ عليه الشيطان أفيظن بجهله ان الشيطان ناصح له أما علم أنه لا يدعو الى هدى ولا يهدي الى خير وكيف يقول في صلاة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وسائر المسلمين الذين لم يفعلوا فعل هذا الموسوس أهي ناقصة عنده مفضولة أم هي التامة الفاضلة فما دعاه الى مخالفتهم والرغبة عن طريقهم فان قال هذا مرض بليت به قلنا نعم سببه قبولك من الشيطان ولم يعذر الله تعالى أحدا بذلك ألا ترى أن آدم وحواء لما وسوس لهما الشيطان فقبلا منه أخرجا من الجنة ونودي عليهما بما سمعت وهما أقرب الى العذر لانهما لم يتقدم قبلهما من يعتبران به وأنت فقد سمعت وحذرك الله تعالى من فتنته وبين لك عداوته وأوضح لك الطريق فما لك عذر ولا حجة في ترك السنة والقبول من الشيطان قلت قال شيخنا ومن هؤلاء من يأتي بعشر بدع لم يفعل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ولا أحد من أصحابه واحدة منها فيقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم نويت أصلي صلاة الظهر فريضة الوقت اداء لله

وحيم لذاته محسن لذاته جواد لذاته كريم لذاته كما انه غني لذاته قادر لذاته حي لذاته فاحسانه وجوده وبره وحنته من لوازم ذاته لا يكون الا كذلك كما ان قدرته وغناه من لوازم ذاته فلا يكون الا كذلك واما العباد فلا يتصور ان يحسنوا الا لحظوظهم فأكثر ما عندهم للعبد أن يحبوه ويعظموه ليجلبوا له منفعة ويدفعوا عنه مضرة وذلك من تيسير الله واذنه لهم به فهو في الحقيقة ولي هذه النعمة ومسديها ومجريها على أيديهم ومع هذا فانهم لا يفعلون ذلك الا لحظوظهم من العبد فانهم اذا أحبوه طلبوا ان ينالوا غرضهم من محبته سواء أحبوه لجماله الباطن أو الظاهر فاذا أحبوا الانبياء والاولياء فطلبوا لقاءهم فهم يحبون التمتع برؤيتهم وسماع كلامهم ونحو ذلك وكذلك من أحب انسانا لشجاعته أو رياسته أو جماله أو كرمه فهو يحب ان ينال حظه من تلك المحبة ولولا التذاذه بها لما أحب ذلك وان جلبوا له منفعة أو دفعوا عنه مضرة كمرض وعدو ولو بالدعاء فهم يطلبون العوض اذا لم يكن العمل لله فاجناد الملوك وعبيد المماليك واجراء المستأجر وأعوان الرئيس كلهم انما يسعون في نيل أغراضهم به لا يعرج أكثرهم على قصد منفعة المخدوم الا أن يكون قد علم وهذب من جهة أخرى فيدخل ذلك في الجهة الدينية أو يكون فيه طبع عدل واحسان من باب المكافاة والرحمة والا فالمقصود بالقصد الاول هو منفعة نفسه وهذا من حكمة الله التي أقام بها مصالح خلقه اذ قسم بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفع بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا

(فصل) اذا تبين هذا ظهر ان أحدا من المخلوقين لا يقصد منفعتك بالقصد الاول بل انما يقصد منفعته بك وقد يكون عليك في ذلك ضرر اذا

تعالى اماما أو مأموما أربع ركعات مستقبل القبلة ثم يزعج أعضاءه ويحني جبهته ويقيم عروق عنقه ويصرخ بالتكبير كانه يكبر على العدو فلو مكث أحدهم عمر نوح عليه السلام يفتش هل فعل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أو أحد من أصحابه شيأ من ذلك لما ظفر به الا أن يجاهر بالكذب البحت فلو كان في هذا خير لسبقونا اليه ولدلونا عليه فان كان هذا هدى فقد ضلوا عنه وان كان الذي كانوا عليه هو الهدى والحق فماذا بعد الحق الا الضلال قال ومن أصناف الوسواس ما يفسد الصلاة مثل تكرير بعض الكلمة كقوله في التحيات ات التحي التحي وفي السلام اس اس وقوله في التكبير اككبر ونحو ذلك فهذا الظاهر بطلان الصلاة به وربما كان اماما فأفسد صلاة المأمومين وصارت الصلاة التي هي أكبر الطاعات أعظم ابعاداله عن الله من الكبائر وما لم تبطل الصلاة من ذلك فمكروه وعدول عن السنة ورغبة عن طريقة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهديه وما كان عليه أصحابه وربما رفع صوته بذلك فآذى سامعيه وأغرى الناس بذمه والوقيعة فيه فجمع على نفسه طاعة ابليس ومخالفة السنة وارتكاب شر الامور ومحدثاتها وتعذيب نفسه واضاعة الوقت والاشتغال بما ينقص أجره وفوات ماهو أنفع له وتعريض نفسه لطعن الناس فيه وتغرير الجاهل بالاقتداء به فانه يقول لولا ان ذلك فضل لما اختاره لنفسه واساءة الظن بما جاءت به السنة وانه لا يكفي وحده وانفعال النفس وضعفها للشيطان حتى يشتد طمعه فيه وتعريضه نفسه للتشديد عليه بالقدر عقوبة له واقامته على الجهل ورضاه بالخبل في العقل كما قال أبو حامد الغزالي وغيره الوسوسة سببها اما جهل بالشرع واما خبل في العقل وكلاهما من أعظم النقائص والعيوب فهذه نحو خمسة عشر مفسدة في الوسواس ومفاسده أضعاف ذلك بكثير وقد روى مسلم في صحيحه من حديث عثمان بن أبي العاص قال قلت يارسول الله ان الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي يلبسها علي فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ذاك شيطان يقال له خنزب فاذا أحسسته فتعوذ بالله منه واتفل على يسارك ثلاثا ففعلت ذلك فأذهب الله تعالى عني فأهل الوسواس قرة عين خنزب وأصحابه نعوذ بالله عز وجل منه

﴿فصل﴾ ومن ذلك الاسراف في ماء الوضوء والغسل وقد روى أحمد في مسنده من حديث عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مر بسعد وهو يتوضأ فقال لا تسرف فقال يارسول الله أو في الماء اسراف قال نعم وان كنت على نهر وفي جامع الترمذي من حديث أبي بن كعب ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال للوضوء شيطان يقال له الولهان فاتقوا وسواس الماء وفي المسند والسنن من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال جاء اعرابي الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يسأله عن الوضوء فأراه ثلاثا ثلاثا وقال هذا الوضوء فمن زاد على هذا فقد أساء وتعدى وظلم وفي كتاب الشافي لابي بكر عبد العزيز من حديث أم سعد قالت قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يجزئ من الوضوء مد والغسل صاع وسيأتي قوم يستقلون ذلك فاولئك خلاف أهل سنتي والآخذ بسنتي في حظيرة القدس منزه أهل الجنة وفي سنن الاثرم من حديث سالم بن أبي الجعد عن جابر بن عبد الله قال يجزئ من الوضوء المد ومن الغسل من الجنابة

منفعة لك محضة لا ضرر فيها فتدبر هذا حق التدبر وراعه حق المراعاة فملاحظته تمنعك ان ترجو المخلوق أو تطلب منه منفعته لك فانه لا يريد ذلك البتة بالقصد الاول بل انما يريد انتفاعه بك عاجلا أو آجلا فهو يريد نفسه لا يريدك ويريد نفع نفسه بك لا نفعك بنفسه فتأمل ذلك فان فيه منفعة عظيمة وراحة ويأسا من المخلوقين وسد الباب عبوديتهم وفتحا لباب عبودية الله وحده فما أعظم حظ من عرف هذه المسألة ورعاها حق رعايتها ولا يحملنك هذا على جفوة الناس وترك الاحسان اليهم واحتمال اذاهم بل أحسن اليهم لله لا لرجائهم فكما لا تخافهم لا ترجوهم ومما يبين ذلك ان غالب الخلق يطلبون ادراك حاجتهم بك وان كان ذلك ضررا عليك فان صاحب الحاجة لا يرى الا قضاءها فهم لا يبالون بضررك اذا أدركوا منك حاجتهم بل لو كان فيها هلاك دنياك وآخرتك لم يبالوا بذلك وهذا اذا تدبره العاقل علم انه عداوة في صورة صداقة وانه لا أعدى للعاقل اللبيب من هذه العداوة فهم يريدون ان يصيروك كالكير ينفخ بطنك ويعصر أضلاعك في نفعهم ومصالحهم بل لو أبيح لهم أكلك لجزروك كما يجزرون الشاة وكم يذبحونك كل وقت بغير سكين لمصالحهم وكم اتخذوك جسرا ومعبرا لهم الى أوطارهم وأنت لا تشعر وكم بعت آخرتك بدنياهم وأنت لا تعلم وربما علمت وكم بعت حظك من الله بحظوظهم منك وربحت صفر اليدين وكم فوتوا

الصاع فقال رجل ما يكفيني فغضب جابر حتى تربد وجهه ثم قال قد كفى من هو خير منك وأكثر شعرا وقد رواه الامام في مسنده مرفوعا ولفظه عن جابر قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يجزئ من الغسل الصاع ومن الوضوء المد وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله تعالى عنها انها كانت تغتسل هي والنبي صلى الله تعالى عليه وسلم في اناء واحد يسع ثلاثة أمداد أو قريبا من ذلك وفي سنن النسائي عن عبيد بن عمير ان عائشة رضي الله عنها قالت لقد رأيتني أغتسل أنا ورسول الله من هذا فاذا تور موضوع مثل الصاع أو دونه نشرع فيه جميعا فأفيض بيدي على رأسي ثلاث مرات وما أنقض لي شعرا وفي سنن أبي داود والنسائي عن عباد بن تميم عن أم عمارة بنت كعب أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم توضأ فأتي بماء في اناء قدر ثلثي المد وقال عبد الرحمن بن عطاء سمعت سعيد بن المسيب يقول ان لي ركوة أو قدحا ما يسع الا نصف المد أو نحوه أبول ثم أتوضأ منه وأفضل منه فضلا قال عبد الرحمن فذكرت ذلك لسليمان بن يسار فقال وأنا يكفيني مثل ذلك قال عبد الرحمن فذكرت ذلك لابي عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر فقال وهكذا سمعنا من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم رواه الاثرم في سننه وقال ابراهيم النخعي كانوا أشد استبقاء للماء منكم وكانوا يرون ان ربع المد يجزئ من الوضوء وهذا مبالغة عظيمة فان ربع المد لا يبلغ أوقية ونصفا بالدمشقي وفي الصحيحين عن أنس كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يتوضأ بالمد ويغتسل بالصاع الى خمسة أمداد وفي صحيح مسلم عن سفينة كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يغسله الصاع من الجنابة ويوضئه المد وتوضأ القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق بقدر نصف المد أو أزيد بقليل وقال ابراهيم النخعي اني لاتوضأ من كوز الحب مرتين وقال محمد بن عجلان الفقه في دين الله اسباغ الوضوء وقلة اهراق الماء وقال الامام أحمد كان يقال من قلة فقه الرجل ولعه بالماء وقال الميموني كنت أتوضأ بماء كثير فقال أحمد يا أبا الحسن أترضى ان تكون كذا فتركته وقال عبد الله بن أحمد قلت لابي اني لاكثر الوضوء فنهاني عن ذلك وقال يا بني يقال ان للوضوء شيطانا يقال له الولهان قال لي ذلك غير مرة ينهاني عن كثرة صب الماء وقال لي اقلل من هذا الماء يا بني وقال اسحق بن منصور قلت لاحمد تزيد على ثلاث في الوضوء فقال لا والله الا رجل مبتلى وقال أسود بن سالم الرجل الصالح شيخ الامام أحمد كنت مبتلى بالوضوء فنزلت دجلة أتوضأ فسمعت هاتفا يقول يا أسود يحكى عن سعيد الوضوء ثلاث ما كان أكثر لم يرفع فالتفت فلم أر أحدا وقد روى أبو داود في سننه من حديث عبد الله بن مغفل قال سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول سيكون في هذه الامة قوم يعتدون في الطهور والدعاء فاذا قرنت هذا الحديث بقوله ان الله لا يحب المعتدين وعلمت ان الله يحب عبادته أنتج لك من هذا ان وضوء الموسوس ليس بعبادة يقبلها الله تعالى وان أسقطت الغرض عنه فلا يفتح أبواب الجنة الثمانية لوضوئه يدخل من أيها شاء ومن مفاسد الوسواس انه تشغل ذمته بالزائد على حاجته اذا كان الماء مملوكا لغيره كماء الحمام فيخرج منه وهو مرتهن الذمة بما زاد على حاجته ويتطاول عليه الدين حتى يرتهن من ذلك بشئ كثير جدا يتضرر به في البرزخ ويوم القيامة

وقالوا نحن أحبابك وخدمك وشيعتك وأعوانك والساعون في مصالحك وكذبوا والله انهم لاعداء في صورة أولياء وحرب في صورة مسالمين وقطاع طريق في صورة أعوان فواغوثاه ثم واغوثاه بالله الذي يغيث ولا يغاث يا أيها الذين آمنوا ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون فالسعيد الرابح من عامل الله فيهم ولم يعاملهم في الله وخاف الله فيهم ولم يخفهم في الله وأرضى الله بسخطهم ولم يرضهم بسخط الله وراقب الله فيهم ولم يراقبهم في الله وآثر الله عليهم ولم يؤثرهم على الله وأمات خوفهم ورجاءهم وحبهم من قلبه وأحيى حب الله وخوفه ورجاءه فيه فهذا هو الذي يكتب عليهم وتكون معاملته لهم كلها ربحا بشرط ان يصبر على أذاهم ويتخذه مغنما لا مغرما وربحا لا خسرانا ومما يوضح الامر ان الخلق لا يقدر أحد منهم ان يدفع عنك مضرة البتة الا باذن الله ومشيئته وقضائه وقدره فهو في الحقيقة الذي لا يأتي بالحسنات الا هو ولا يذهب بالسيئات الا هو وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله قال النبي لعبد الله بن عباس واعلم ان الخليقة لو اجتمعوا على ان ينفعوك لم ينفعوك الا بشئ كتبه الله لك ولو اجتمعوا على ان يضروك لم يضروك الا بشئ كتبه الله عليك واذا كانت هذه حال الخليقة فتعليق الخوف والرجاء بهم ضار غير نافع والله أعلم

(فصل) وجماع هذا انك اذا كنت غير عالم بمصلحتك ولا قادر عليها ولا مريد لها كما ينبغي فغيرك أولى ان لا يكون عالما بمصلحتك ولا قادرا عليها ولا مريدا لها والله سبحانه هو يعلم ولا تعلم ويقدر ولا

(فصل) ومن ذلك الوسواس فى انتقاض الطهارة لا يلتفت اليه وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اذا وجد أحدكم فى بطنه شيأ فاشكل عليه أخرج منه شئ أم لا فلا يخرج من المسجد حتى يسمع صوتا أو يجد ريحا وفى الصحيحين عن عبد الله بن زيد قال شكى الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الرجل يخيل اليه انه يجد الشئ فى الصلاة قال لا ينصرف حتى يسمع صوتا أو يجد ريحا وفى المسند وسنن أبى داود عن أبى سعيد الخدرى ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال ان الشيطان يأتى أحدكم وهو فى الصلاة فيأخذ من شعرة من دبره فيمدها فيرى انه قد أحدث فلا ينصرف حتى يسمع صوتا أو يجد ريحا ولفظ أبى داود اذا أتى الشيطان أحدكم فقال له انك قد أحدثت فليقل له كذبت الا ما وجد ريحا بأنفه أو سمع صوتا باذنه فامر عليه السلام بتكذيب الشيطان فيما يحتمل صدقه فيه فكيف اذا كان كذبه معلوما متيقنا كقوله للموسوس لم يفعل كذا وقد فعله قال الشيخ أبو محمد ويستحب للانسان ان ينضح فرجه وسراويله بالماء اذا بال ليدفع عن نفسه الوسوسة فتى وجد بللا قال هذا من الماء الذى نضحته لما روى أبو داود باسناده عن سفيان بن الحكم الثقفى والحكم بن سفيان قال كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم اذا بال توضأ وينتضح وفى رواية رأيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بال ثم نضح فرجه وكان ابن عمر ينضح فرجه حتى يبل سراويله وشكى الى الامام أحمد بعض أصحابه انه يجد البلل بعد الوضوء فامره أن ينضح فرجه اذا بال قال ولا تجعل ذلك من همتك واله عنه وسئل الحسن أو غيره عن مثل هذا فقال اله عنه فاعاد عليه المسألة فقال أتستدره لا أبالك اله عنه

(فصل) ومن هذا ما يفعله كثير من الموسوسين بعد البول وهو عشرة أشياء السلت والنتر والنحنحة والمشى والقفز والحبل والتفقد والوجور والحشو والعصابة والدرجة أما السلت فيسلته من أصله الى رأسه على أنه قد روى فى حديث غريب لا يثبت ففى المسند وسنن ابن ماجه عن عيسى بن داود عن أبيه قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اذا بال أحدكم فليمسح ذكره ثلاث مرات وقال جابر بن زيد اذا بلت فامسح أسفل ذكرك فانه ينقطع رواه سعيد عنه قالوا ولانه بالسلت والنتر يستخرج ما يخشى عوده بعد الاستنجاء قالوا وان احتاج الى مشى خطوات لذلك ففعل فقد أحسن والنحنحة تستخرج الفضلة وكذلك القفز يرتفع عن الارض شيأ ثم يجلس بسرعة والحبل يتخذ بعضهم حبلا يتعلق به حتى يكاد يرتفع ثم ينخرط فيه حتى يقعد والتفقد يمسك الذكر ثم ينظر فى المخرج هل بقى فيه شئ أم لا والوجور يمسكه ثم يفتح الثقب ويصب فيه الماء والحشو يكون معه ميل وقطن يحشوه به كما يحشو الدمل بعد فتحها والعصابة يعصبه بخرقة والدرجة يصعد فى سلم قليلا ثم ينزل بسرعة والمشى يمشى خطوات ثم يعيد الاستجمار قال شيخنا وذلك كله وسواس وبدعة فراجعته فى السلت والنتر فلم يره وقال لم يصح الحديث قال والبول كاللبن فى الضرع ان تركته قر وان حلبته در قال ومن اعتاد ذلك ابتلى منه بما عوفى منه من لها عنه قال ولو كان هذا سنة لكان أولى الناس به رسول الله عليه السلام وأصحابه وقد قال اليهود لسلمان لقد علمكم نبيكم كل شئ حتى الخرأة فقال أجل فقد علمنا نبينا صلى

تقدر وعطاؤك من فضله لا لمعاوضة ولا لمنفعة يرجوها منك ولا لتكثر بك ولا لتعزز بك ولا يخاف الفقر ولا تنقص خزائنه على سعة الانفاق ولا يحبس فضله عنك لحاجة منه اليك واستغنائه بحيث اذا أخرجه أثر ذلك فى غناه وهو يحب الجود والبذل والعطاء والاحسان أعظم مما تحب أنت الاخذ والانتفاع بما سألته فاذا حبسه عنك فاعلم ان هناك أمرين لا ثالث لهما أحدهما ان تكون أنت الواقف فى طريق مصالحك وأنت المعوق لوصول فضله اليك وأنت حجر فى طريق نفسك وهذا هو الاغلب على الخليقة فان الله سبحانه قضى فيما قضى به ان ما عنده لا ينال الا بطاعته وانه ما استجلبت نعم الله بغير طاعته ولا استديمت بغير شكره ولا عوقت وامتنعت بغير معصيته وكذلك اذا أنعم عليك ثم سلبك النعمة فانه لم يسلبها لبخل منه ولا استئثار بها عليك وانما أنت المسبب فى سلبها عنك فان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم ذلك بان الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بانفسهم وان الله سميع عليم فما أزيلت نعم الله بغير معصيته

اذا كنت فى نعمة فارعها
فان المعاصى تزيل النعم

فآفتك من نفسك وبلاؤك من نفسك وانت فى الحقيقة الذى بالغت فى عداوتك وبلغت من معاداة نفسك ما لا يبلغ العدو منك كما قيل

ما يبلغ الاعداء من جاهل * ما يبلغ الجاهل من نفسه

ومن العجب ان هذا شانك مع نفسك وأنت تشكو المحسن البرىء عن الشكاية وتتهم اقداره وتعاتبها وتلومها فقد ضيعت فرصتك وفرطت فى حظك وعجز رأيك عن معرفة أسباب سعادتك وارادتها ثم قعدت تعاتب القدر بلسان الحال والقال فانت المعنى بقول القائل

الله تعالى عليه وسلم ذلك أو شيأ منه بل علم المستحاضة أن تتلجم وعلى قياسها من به سلس البول أن يتحفظ و يشد عليه خرقة

(فصل) ومن ذلك أشياء سهل فيها المبعوث بالحنيفية السمحة فشدد فيها هؤلاء فمن ذلك المشي حافيا في الطرقات ثم يصلي ولا يغسل رجليه فقد روى أبو داود في سننه عن امرأة من بني عبد الاشهل قالت قلت يارسول الله ان لنا طريقا الى المسجد منتنة فكيف نفعل اذا مطرنا قال أوليس بعدها طريق أطيب منها قالت قلت بلى قال فهذه بهذه وقال عبد الله بن مسعود كنا لا نتوضأ من موطئ وعن علي رضي الله عنه انه خاض في طين المطر ثم دخل المسجد فصلى ولم يغسل رجليه وسئل ابن عباس رضي الله عنه عن الرجل يطأ العذرة قال ان كانت يابسة فليس بشئ وان كانت رطبة غسل ما أصابه وقال حفص أقبلت مع عبد الله بن عمر عامدين الى المسجد فلما انتهينا عدلت الى المطهرة لأغسل قدمي من شئ أصابها فقال عبد الله لا تفعل فانك تطأ الموطئ الردئ ثم تطأ بعده الموطئ الطيب أو قال النظيف فيكون ذلك طهورا فدخلنا المسجد جميعا فصلينا وقال أبو الشعثاء كان ابن عمر يمشي بمنى في الفروث والدماء اليابسة حافيا ثم يدخل المسجد فيصلي فيه لا يغسل قدميه وقال عمران بن حدير كنت أمشي مع أبي مجلز الى الجمعة وفي الطريق عذرات يابسة فجعل يتخطاها ويقول ما هذه الا سودات ثم جاء حافيا الى المسجد فصلى ولم يغسل قدميه وقال عاصم الاحول أتينا أبا العالية فدعونا بوضوء فقال مالكم ألستم متوضئين قلنا بلى ولكن هذه الاقذار التي مررنا بها قال هل وطئتم على شئ رطب تعلق بأرجلكم قلنا لا فقال فكيف بأشد من هذه الاقذار يجف فينسفها الريح في رؤسكم ولحاكم

(فصل) ومن ذلك أن الخف والحذاء اذا أصابت النجاسة أسفله أجزأ دلكه بالارض مطلقا وجازت الصلاة فيه بالسنة الثابتة نص عليه أحمد واختاره المحققون من أصحابه قال أبو البركات ورواية أجزأ الدلك مطلقا هي الصحيحة عندي لما روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال اذا وطئ أحدكم بنعله الاذى فان التراب له طهور وفي لفظ اذا وطئ أحدكم الاذى بخفيه فطهورهما التراب رواهما أبو داود وروى أبو سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم صلى فخلع نعليه فخلع الناس نعالهم فلما انصرف قال لم خلعتم قالوا يارسول الله رأيناك خلعت فخلعنا فقال ان جبريل أتاني فأخبرني أن بهما خبثا فاذا جاء أحدكم المسجد فليقلب نعليه ثم لينظر فان رأى خبثا فليمسحه بالارض ثم ليصل فيهما رواه الامام أحمد وتأويل ذلك على ما يستقذر من مخاط أو نحوه من الطاهرات لا يصح لوجوه أحدها ان ذلك لا يسمى خبثا الثاني ان ذلك لا يوقت بمسحه عند الصلاة فانه لا يبطلها الثالث انه لا يخلع النعل لذلك في الصلاة فانه عمل لغير حاجة فاقل أحواله الكراهة الرابع ان الدارقطني روى في سننه في حديث الخلع من رواية ابن عباس ان النبي عليه السلام قال ان جبريل أتاني فأخبرني ان فيهما دم حلمة والحلم كبار القراد ولانه محل يتكرر ملاقاته النجاسة غالبا فأجزأ مسحه بالجامد كمحل الاستنجاء بل أولى فان محل الاستجمار يلاقي النجاسة في اليوم مرتين أو ثلاثا

وعاجز الرأي مضياع لفرصته * حتى اذا فات أمر عاتب القدرا

ولو شعرت برأيك وعلمت من أين دهيت ومن أين أصبت لأمكنك تدارك ذلك ولكن قد فسدت الفطرة وانتكس القلب وأطفأ الهوى مصابيح العلم والايمان منه فأعرضت عن أصل بلائك ومصيبتك منه وأقبلت تشكو من كل احسان دقيق أو جليل وصل اليك فمنه فاذا شكوته الى خلقه كنت كما قال بعض العارفين وقد رأى رجلا يشكو الى آخر ما أصابه ونزل به فقال يا هذا تشكو من يرحمك الى من لا يرحمك

وإذا أتتك مصيبة فاصبر لها * صبر الكريم فانه بك أرحم
وإذا شكوت الى ابن آدم انما * تشكو الرحيم الى الذي لا يرحم

واذا علم العبد حقيقة الامر وعرف من أين أتي ومن أي الطرق أغير على سرحه ومن أي ثغرة سرق متاعه وسلب استحى من نفسه ان لم يستحي من الله ان يشكو أحدا من خلقه أو يتظلمهم أو يرى مصيبته وآفته من غيره قال تعالى وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير وقال أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم هذا ومن المخاطب بهذا الخطاب وقال ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك فان أصررت على اتهام القدر وقلت فالسبب الذي أصبت منه وأتيت منه ودهيت منه قد سبق به القدر والحكم وكان في الكتاب مسطورا فلا بد منه على الرغم مني وكيف لي أن أنفك منه وقد أودع الكتاب الاول قبل برء الخليقة والكتاب الثاني قبل خروجي الى هذا العالم وأنا في ظلمات الاحشاء حين أمر الملك بكتب الرزق والاجل والسعادة والشقاوة فلو جريت الى سعادتي ما جريت حتى بقي بيني وبينها شبر لغلب

(فصل) وكذلك ذيل المرأة على الصحيح وقالت امرأة لأبي سلمة انى أطيل ذيلى وأمشى فى المكان القذر فقال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يطهره ما بعده رواه أحمد وأبو داود وقد رخص عليه السلام للمرأة أن ترخى ذيلها ذراعا ومعلوم أنه يصيب القذر ولم يأمرها بغسل ذلك بل أفتاهن بأنه تطهره الارض

(فصل) ومما لا تطيب به قلوب الموسوسين الصلاة فى النعال وهى سنة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه فعلا منه وأمرا فروى أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كان يصلى فى نعليه متفق عليه وعن شداد بن أوس قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خالفوا اليهود فانهم لا يصلون فى خفافهم ولا نعالهم رواه أبو داود وقيل للامام أحمد أيصلى الرجل فى نعليه فقال اى والله ويرى أهل الوسواس اذا بلى أحدهم بصلاة الجنازة فى نعليه قام على عقبيهما كانه واقف على الجمر حتى لا يصلى فيهما وفى حديث أبى سعيد الخدرى اذا جاء أحدكم المسجد فلينظر فان رأى على نعليه قذرا فليمسحه وليصل فيهما

(فصل) ومن ذلك ان سنة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الصلاة حيث كان وفى أى مكان اتفق سوى ما نهى عنه من المقبرة والحمام وأعطان الابل فصح عنه عليه السلام انه قال جعلت لى الارض مسجدا وطهورا فحيثما أدركت رجلا من أمتى الصلاة فليصل وكان يصلى فى مرابض الغنم وأمر بذلك ولم يشترط حائلا قال ابن المنذر أجمع كل من يحفظ عنه من أهل العلم على اباحة الصلاة فى مرابض الغنم الا الشافعى فانه قال أكره ذلك الا اذا كان سليما من أبعارها وقال أبو هريرة رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم صلوا فى مرابض الغنم ولا تصلوا فى أعطان الابل رواه الترمذى وقال حديث صحيح وروى الامام أحمد من حديث عقبة بن عامر قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم صلوا فى مرابض الغنم ولا تصلوا فى أعطان الابل أو مبارك الابل وفى المسند أيضا من حديث عبد الله بن المغفل قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم صلوا فى مرابض الغنم ولا تصلوا فى أعطان الابل فانها خلقت من الشياطين وفى الباب عن جابر ابن سمرة والبراء بن عازب وأسيد بن حضير وذى الغرة كلهم رووا عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم صلوا فى مرابض الغنم وفى بعض ألفاظ الحديث صلوا فى مرابض الغنم فان فيها بركة وقال الارض كلها مسجد الا المقبرة والحمام رواه أهل السنن كلهم الا النسائى فأين هذا الهدى من فعل من لا يصلى الا على سجادة تفرش فوق البساط فوق الحصير ويوضع عليها المنديل ولا يمشى على الحصير ولا على البساط بل يمشى عليها نقرا كالعصفور فما أحق هؤلاء بقول ابن مسعود لانتم أهدى من أصحاب محمد أو انتم على شعبة ضلالة وقد صلى عليه السلام على حصير قد اسود من طول ما لبس فنضح له بالماء وصلى عليه ولم يفرش له فوقه سجادة ولا منديل وكان يسجد على التراب تارة وعلى الحصباء تارة وفى الطين تارة حتى يرى أثره على جبهته وأنفه وقال ابن عمر كانت الكلاب تقبل وتدبر وتبول فى المسجد ولم يكونوا يرشون شيأ من ذلك رواه البخارى ولم يقل وتبول وهو عند أبى داود باسناد صحيح بهذه الزيادة

شاء ان يزيغه أزاغه وهو الذى يحول بين المرء وقلبه وهو الذى يثبت قلب العبد اذا شاء ويزلزله اذا شاء فالقلب مربوب مقهور تحت سلطانه لا يتحرك الا باذنه ومشيئته قال اعلم الخلق بربه صلى الله عليه وسلم ما من قلب الا وهو بين اصبعين من أصابع الرحمن ان شاء أن يقيمه أقامه وان شاء ان يزيغه ازاغه ثم قال اللهم مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك وكان أكثر يمينه لا ومقلب القلوب وقال بعض السلف مثل القلب مثل ريشة فى أرض فلاة تقلبها الرياح ظهرا لبطن فما حيلة قلب هو بيد مقلبه ومصرفه وهل له مشيئة بدون مشيئته كما قال تعالى وما تشاؤن الا أن يشاء الله رب العالمين وروى عن عبد العزيز بن أبى حازم عن أبيه عن سهل بن سعد قال تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله عز وجل أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها وغلام جالس عند رسول الله فقال بلى والله يا رسول الله ان عليها الاقفالها ولا يفتحها الا الذى أقفلها فلما ولى عمر بن الخطاب طلبه ليستعمله وقال لم يقل ذلك الا من عقل وقال طاوس ادركت ثلثمائة من أصحاب رسول الله يقولون كل شئ بقدر وقال أيوب السختيانى أدركت الناس وما كلامهم الا ان قضى ان قدر وقال عطاء عن ابن عباس فى قوله تعالى انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون قال كتب الله أعمال بنى آدم وما هم عاملون الى يوم القيامة قال والملائكة تستنسخ ما يعمل بنو آدم يوما بيوم فذلك قوله انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون وفى الآية قول آخر ان استنساخ الملائكة هو كتابتهم لما يعمل بنو آدم بعد ان يعملوه وقد يقال

فصل

(فصل) ومن ذلك ان الناس في عصر الصحابة والتابعين ومن بعدهم كانوا يأتون المساجد حفاة في الطين وغيره قال يحيى بن وثاب قلت لابن عباس الرجل يتوضأ يخرج الى المسجد حافيا قال لا بأس به وقال كميل بن زياد رأيت عليا رضي الله عنه يخوض طين المطر ثم دخل المسجد فصلى ولم يغسل رجليه وقال ابراهيم النخعي كانوا يخوضون الماء والطين الى المسجد فيصلون وقال يحيى بن وثاب كانوا يمشون في ماء المطر وينتضح عليهم رواها سعيد بن منصور في سننه وقال ابن المنذر وطئ ابن عمر بمنى وهو حاف في ماء وطين ثم صلى ولم يتوضأ قال وممن رأى ذلك علقمة والاسود وعبد الله بن معقل وسعيد بن المسيب والشعبي والامام أحمد وأبو حنيفة ومالك وأحد الوجهين للشافعية قال وهو قول عامة أهل العلم ولان تنجيسها فيه مشقة عظيمة منتفية بالشرع كما في أطعمة الكفار وثيابهم وثياب الفساق شربة المسكر وغيرهم قال أبو البركات ابن تيمة وهذا كله يقوى طهارة الارض بالجفاف لان الانسان في العادة لا يزال يشاهد النجاسات في بقعة بقعة من طرقاته التي يكثر فيها تردده الى سوقه ومسجده وغيرهما فلو لم يطهر اذا أذهب الجفاف أثرها للزمه تجنب ما شاهده من بقاع النجاسة بعد ذهاب أثرها ولما جاز له التحفي بعد ذلك وقد علم ان السلف الصالح لم يحترزوا من ذلك ويعضده أمره عليه السلام بمسح النعلين بالارض لمن أتى المسجد ورأى فيهما خبثا ولو تنجست الارض بذلك نجاسة لا تطهر بالجفاف لأمر بصيانة طريق المسجد عن ذلك لانه يسلكه الحافي وغيره قلت وهذا اختيار شيخنا رحمه الله وقال أبو قلابة جفاف الارض طهورها

(فصل) ومن ذلك أن النبي عليه السلام سئل عن المذي فأمر بالوضوء منه فقال كيف ترى بما أصاب ثوبي منه قال تأخذ كفا من ماء فتنضح به حيث ترى انه أصابه رواه أحمد والترمذي والنسائي فجوز نضح ما أصابه المذي كما أمر بنضح بول الغلام قال شيخنا وهذا هو الصواب لان هذه نجاسة يشق الاحتراز منها لكثرة ما يصيب الشاب العزب فهي أولى بالتخفيف من بول الغلام ومن أسفل الخف والحذاء ومن ذلك اجماع المسلمين على ما سنه لهم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من جواز الاستجمار بالاحجار في زمن الشتاء والصيف مع ان المحل يعرق فينضح الى الثوب ولم يأمر بغسله ومن ذلك انه يعفى عن يسير أرواث البغال والحمير والسباع في احدى الروايتين عن أحمد اختارها شيخنا لمشقة الاحتراز قال الوليد بن مسلم قلت للاوزاعي فأبوال الدواب مما لا يؤكل لحمه كالبغل والحمار والفرس فقال قد كانوا يبتلون بذلك في مغازيهم فلا يغسلونه من جسد ولا ثوب ومن ذلك نص أحمد على ان الودي يعفى عن يسيره كالمذي وكذلك يعفى عن يسير القيء نص عليه أحمد وقال شيخنا لا يجب غسل الثوب ولا الجسد من المدة والقيح والصديد قال ولم يقم دليل على نجاسته وذهب بعض أهل العلم الى أنه طاهر حكاه أبو البركات وكان ابن عمر رضي الله عنه لا ينصرف منه من الصلاة وينصرف من الدم وعن الحسن نحوه وسئل أبو مجلز عن القيح يصيب البدن والثوب فقال ليس بشئ انما ذكر الله الدم ولم يذكر القيح وقال اسحق بن راهويه كل ما كان سوى الدم فهو عندي مثل العرق المنتن وشبهه ولا يوجب وضوءا وسئل أحمد رحمه الله الدم والقيح عندك سواء فقال لا الدم لم يختلف الناس فيه والقيح قد اختلف

وهو الاطهران الآية ثم الامرين فيأمر الله ملائكته فتستنسخ من أم الكتاب أعمال بني آدم ثم يكتبونها عليهم اذا عملوها فلا تزيد على ما نسخوه من أم الكتاب ذرة ولا تنقصها وقال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى انا كل شئ خلقناه بقدر خلق الله الخلق كلهم بقدر وخلق الخير والشر فخير الخير السعادة وشر الشر الشقاوة وفي صحيح مسلم عن أبي الاسود الدؤلي قال قال لي عمران بن حصين أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون أشئ قضي عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم وثبتت به الحجة قال فقلت لا بل فيما قضي عليهم ومضى قال أفيكون ذلك ظلما قال ففزعت فزعا شديدا وقلت انه ليس شئ الا خلقه وملكه ولا يسئل عما يفعل وهم يسئلون فقال سددك الله انما سألتك لاحزر عقلك ان رجلا من مزينة أو جهينة أتى النبي فقال يارسول الله أرأيت ما يعمل الناس ويتكادحون فيه أشئ قضي عليهم ومضى أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم قال فيما قضي عليهم ومضى فقال الرجل ففيم العمل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان خلقه الله لاحدى المنزلتين فسيستعمله لها وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها وقال مجاهد في قوله تعالى اني أعلم ما لا تعلمون قال علم من ابليس المعصية وخلقه لها وقال تعالى فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة قال ابن عباس ان الله سبحانه بدأ خلق ابن آدم مؤمنا وكافرا ثم قال هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأ خلقهم مؤمن وكافر وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى واعلموا أن الله يحول بين

الناس فيه وقال مرة القيح والصديد والمدة عندي أسهل من الدم ومن ذلك ما قاله أبو حنيفة انه لو وقع بعر الفار في حنطة فطحنت أو في دهن مائع جاز أكله مالم يتغير لانه لايمكن صونه عنه قال فلو وقع في الماء نجسه وذهب بعض أصحاب الشافعي الى جواز أكل الحنطة التي أصابها بول الحمير عند الدياس من غير غسل قال لان السلف لم يحترزوا من ذلك وقالت عائشة رضي الله عنها كنا نأكل اللحم والدم خطوط على القدر وقد أباح الله عز وجل صيد الكلب وأطلق ولم يأمر بغسل موضع فيه من الصيد ومعضه ولا تقويره ولا أمر به رسوله ولا أفتى به أحد من الصحابة ومن ذلك ما أفتى به عبد الله بن عمرو وعطاء بن أبي رباح وسعيد ابن المسيب وطاوس وسالم ومجاهد والشعبي وابراهيم النخعي ويحيى بن سعيد الانصاري والحكم والاوزاعي ومالك واسحق بن راهويه وأبو ثور والامام أحمد في أصح الروايتين وغيرهم ان الرجل اذا رأى على بدنه أو ثوبه نجاسة بعد الصلاة لم يكن عالما بها أو كان يعلمها لكنه نسيها أولم ينسها لكنه عجز عن ازالتها ان صلاته صحيحة ولا اعادة عليه ومن ذلك أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان يصلي وهو حامل امامة بنت ابنته زينب فاذا ركع وضعها واذا قام حملها متفق عليه ولابي داود أن ذلك كان في احدى صلاتي العشي وهو دليل على جواز الصلاة في ثياب المربية والمرضع والحائض والصبي مالم يتحقق نجاستها وقال أبو هريرة كنا مع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في صلاة العشاء فلما سجد وثب الحسن والحسين على ظهره فلما رفع رأسه أخذهما بيديه من خلفه أخذا رفيقا ويضعهما على الارض فاذا عاد عادا حتى قضى صلاته رواه الامام أحمد وقال شداد بن الهاد عن أبيه خرج علينا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهو حامل الحسن أو الحسين فوضعه ثم كبر للصلاة فصلى فسجد بين ظهراني صلاته سجدة أطالها فلما قضى الصلاة قال ان بني ارتحلني فكرهت أن أعجله رواه أحمد والنسائي وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يصلي بالليل وأنا الى جنبه وأنا حائض وعلي مرط وعليه بعضه رواه أبو داود وقالت كنت أنا ورسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم نبيت في الشعار الواحد وأنا طامث حائض فان أصابه مني شئ غسل مكانه ولم يعده وصلى فيه رواه أبو داود ومن ذلك أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان يلبس الثياب التي نسجها المشركون ويصلي فيها وتقدم قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهمه أن ينهى عن ثياب بلغه أنها تصبغ بالبول وقول أبي له مالك ان تنهى عنها فان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لبسها ولبست في زمانه ولو علم الله أنها حرام لبينه لرسوله قال صدقت قلت وعلى قياس ذلك الجوخ بل أولى بعدم النجاسة من هذه الثياب فتجنبه من باب الوسواس ولما قدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه الجابية استعار ثوبا من نصراني فلبسه حتى خاطوا له قميصه وغسلوه وتوضأ من جرة نصرانية وصلى سلمان وأبو الدرداء رضي الله عنهما في بيت نصرانية فقال لها أبو الدرداء هل في بيتك مكان طاهر نصلي فيه فقالت طهرا قلوبكما ثم صليا أين أحببتما فقال له سلمان خذها من غير فقيه ومن ذلك أن الصحابة والتابعين كانوا يتوضؤن من الحياض والاواني المكشوفة ولا يسألون هل اصابتها نجاسة أو وردها كلب أو سبع ففي الموطأ عن يحيى بن سعيد أن عمر رضي الله عنه خرج في ركب فيهم عمرو بن

العاص

المرء وقلبه قال يحول بين المؤمن والكفر ومعاصي الله ويحول بين الكافر والايمان وطاعة الله وقال ابن عباس ومالك وجماعة من السلف في قوله تعالى ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم قالوا خلق أهل الرحمة للرحمة وأهل الاختلاف للاختلاف وقال تعالى ولو شاء الله ما اقتتلوا ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعا ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ولو شاء ربك ما فعلوه وقال تعالى فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب أي نصيبهم مما كتب لهم وقال كذلك سلكناه في قلوب المجرمين قال الحسن وغيره الشرك والتكذيب وقال سبحانه كلا ان كتاب الفجار لفي سجين قال محمد بن كعب القرظي رقم الله سبحانه كتاب الفجار في أسفل الارض فهم عاملون بما قد رقم عليهم في ذلك الكتاب ورقم كتاب الابرار فجعله في عليين فهم يؤتى بهم حتى يعملوا ما قد رقم عليهم في ذلك الكتاب وقال ابن عباس تبت يدا أبي لهب بما جرى من القلم في اللوح المحفوظ وقال مجاهد في قوله وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا قال عن الحق وفي قوله وجعلنا على قلوبهم أكنة قال كالجعبة فيها السهام وقال ابن عباس في قوله تعالى وأضله الله على علم قال أضله في سابق علمه وقال في قوله تعالى حكاية عن عدوه ابليس فبما أغويتني قال أضللتني وقال في قوله ما أنتم عليه بفاتنين الا من هو صال الجحيم قال من قضيت له انه صال الجحيم وقال عمر بن عبد العزيز لو أراد الله أن لا يعصى لم يخلق ابليس وقد فصل لكم وبين لكم ما أنتم عليه بفاتنين الا من قدر أن يصلى الجحيم وقال وهيب بن خالد نبأنا خالد قال قلت للحسن ألهذه خلق آدم يعني السماء

العاص حتى وردوا حوضا فقال عمرو ياصاحب الحوض هل يرد حوضك السباع فقال عمر رضى الله عنه لاتخبرنا فانا نرد على السباع وترد علينا وفى سنن ابن ماجه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سئل أنتوضأ بما أفضلت الحمر قال نعم وبما أفضلت السباع ومن ذلك أنه لوسقط عليه شئ من ميزاب لايدرى هل ماء أو بول لم يجب عليه أن يسأل عنه فلو سأل لم يجب على المسؤل أن يجيبه ولو علم أنه نجس ولا يجب عليه غسل ذلك ومر عمر ابن الخطاب رضى الله عنه يوما فسقط عليه شئ من ميزاب ومعه صاحب له فقال ياصاحب الميزاب ماؤلك طاهر أو نجس فقال عمر رضى الله عنه ياصاحب الميزاب لاتخبرنا ومضى ذكره أحمد قال شيخنا وكذلك اذا أصاب رجله أو ذيله بالليل شئ رطب لا يعلم ماهو لم يجب عليه أن يشمه و يتعرف ماهو واحتج بقصة عمر رضى الله عنه فى الميزاب وهذا هو الفقه فان الاحكام انما تترتب على المكلف بعد علمه باسبابها وقبل ذلك هى على العفو فما عفا الله عنه فلا ينبغى البحث عنه ومن ذلك الصلاة مع يسير الدم ولا يعيد قال البخارى قال الحسن رحمه الله مازال المسلمون يصلون فى جراحاتهم قال وعصر ابن عمر رضى الله عنه بثرة فخرج منها دم فلم يتوضأ و بصق ابن أبى أوفى دما ومضى فى صلاته وصلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه وجرحه يثعب دما ومن ذلك ان المراضع من عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم والى الآن يصلين فى ثيابهن والرضعاء يتقيؤن ويسيل لعابهم على ثياب المرضعة وبدنها فلا يغسلن شيأ من ذلك لان ريق الرضيع مطهر لفمه لاجل الحاجة كما ان ريق الهر مطهر لفمها وقد قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم انها ليست بنجس انها من الطوافين عليكم والطوافات وكان يصغى لها الاناء حتى تشرب وكذلك فعل أبو قتادة مع العلم اليقينى انها تأكل الفار والحشرات والعلم القطعى انه لم يكن بالمدينة حياض فوق القلتين تردها السنانير فكلاهما معلوم قطعا ومن ذلك ان الصحابة ومن بعدهم كانوا يصلون وهم حاملو سيوفهم وقد أصابها الدم وكانوا يمسحونها و يجترسون بذلك وعلى قياس هذا مسح المرآة الصقيلة اذا أصابتها النجاسة فانه يطهرها وقد نص أحمد على طهارة سكين الجزار بمسحها ومن ذلك انه نص على حبل الغسال انه ينشر عليه الثوب النجس ثم تجففه الشمس فينشر عليه الثوب الطاهر فقال لا بأس به وهذا كقول أبى حنيفة ان الارض النجسة يطهرها الريح والشمس وهو وجه لاصحاب أحمد حتى انه يجوز التيمم بها وحديث ابن عمر رضى الله عنه كالنص فى ذلك وهو قوله كانت الكلاب تقبل وتدبر وتبول فى المسجد ولم يكونوا يرشون شيأ من ذلك وهذا لا يتوجه الا على القول بطهارة الارض بالريح والشمس ومن ذلك ان الذى دلت عليه سنة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وآثار أصحابه ان الماء لا يتنجس الا بالتغير وان كان يسيرا وهذا قول أهل المدينة وجمهور السلف وأكثر أهل الحديث وبه أفتى عطاء بن رباح وسعيد بن المسيب وجابر بن زيد والاوزاعى وسفيان الثورى ومالك بن أنس وعبد الرحمن بن مهدى واختاره ابن المنذر وبه قال أهل الظاهر ونص عليه أحمد فى احدى رواياته واختاره جماعة من أصحابنا منهم ابن عقيل فى مفرداته وشيخنا أبو العباس وشيخه ابن أبى عمر وقال ابن عباس رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الماء لا ينجسه شئ رواه الامام أحمد وفى المسند

أم للارض فقال لا بل للارض قال قلت أرأيت لو اعتصم من الخطيئة فلم يعملها أكان يترك فى الجنة قال سبحان الله أكان له بد من أن يعملها وقال تعالى وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وقال وجعلناهم أئمة يدعون الى النار وقال واجعلنا للمتقين اماما أى أئمة يهتدى بنا ولا تجعلنا أئمة ضالين يدعون الى النار وقال ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وقال ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة وقال ولو اننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شئ قبلا ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله وقال زيد بن أسلم والله ما قالت القدرية كما قال الله ولا كما قالت رسله ولا كما قال أهل الجنة ولا كما قال اهل النار ولا كما قال أخوهم ابليس قال الله وما تشاؤن الا أن يشاء الله وقالت الملائكة لا علم لنا الا ما علمتنا وقال شعيب وما يكون لنا أن نعود فيها الا أن يشاء الله وقال اهل الجنة الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله وقال أهل النار غلبت علينا شقوتنا وقال أخوهم ابليس رب بما أغويتنى وقال مجاهد فى قوله وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه قال مكتوب فى عنقه شقى أو سعيد وقال ابن عباس فى قوله ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيأ يقول ومن يرد الله ضلالته لم تغن عنه شيأ وذكر الطبرى وغيره من حديث سويد بن سعد عن سوار ابن مصعب عن أبى حمزة عن مقسم عن ابن عباس صعد النبى صلى الله عليه وسلم المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم بسط يده اليمنى فقال بسم الله الرحمن الرحيم كتاب من الله الرحمن الرحيم لاهل الجنة باسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم وعشائرهم فجمل أولهم على آخرهم لا ينقص منهم ولا يزاد فيهم فرغ ربكم وقد يسلك باهل السعادة طريق الشقاء حتى يقال كأنهم منهم بل هم هم ما أشبههم بهم بل هم هم

والسنن عن أبي سعيد قال قيل يارسول الله أنتوضأ من بئر بضاعة وهي بئر يلقى فيها الحيض ولحوم الكلاب والنتن فقال الماء طهور لا ينجسه شئ قال الترمذي هذا حديث حسن وقال الامام أحمد حديث بئر بضاعة صحيح وفي لفظ للامام أحمد انه يستقى لك من بئر بضاعة وهي بئر يطرح فيها محايض النساء ولحم الكلاب وعذر الناس فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ان الماء طهور لا ينجسه شئ وفي سنن ابن ماجه من حديث أبي امامة مرفوعا الماء لا ينجسه شئ الا ما غلب على ريحه وطعمه ولونه وفيها من حديث أبي سعيد ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سئل عن الحياض التي بين مكة والمدينة تردها السباع والكلاب والحمر وعن الطهارة بها فقال لها ما حملت في بطونها ولنا ما غبر طهور ٧ وان كان في اسناد هذين الحديثين مقال فانا ذكرناهما للاستشهاد لا للاعتماد قال الزهري لا بأس بالماء مالم يتغير منه طعم أو ريح أو لون وقال الزهري أيضا اذا ولغ الكلب في الاناء ليس له وضوء غيره يتوضأ به ثم يتيمم قال سفيان هذا الفقه بعينه يقول الله تعالى فلم تجدوا ماء فتيمموا وهذا ماء وفي النفس منه شئ يتوضأ به ويتيمم ونص أحمد رحمه الله في جب زيت ولغ فيه كلب فقال يؤكل

(فصل) ومن ذلك أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان يجيب من دعاه فيأكل من طعامه وأضافه يهودي بخبز شعير واهالة سنخة وكان المسلمون يأكلون من أطعمة أهل الكتاب وشرط عمر رضي الله تعالى عنه ضيافة من مر بهم من المسلمين وقال أطعموهم مما تأكلون وقد أحل الله عز وجل ذلك في كتابه ولما قدم عمر رضي الله عنه الشام صنع له أهل الكتاب طعاما فدعوه فقال أين هو قالوا في الكنيسة فكره دخولها وقال لعلي رضي الله عنه اذهب بالناس فذهب علي بالمسلمين فدخلوا وأكلوا وجعل علي رضي الله عنه ينظر الى الصورة وقال ما على أمير المؤمنين لو دخل وأكل وكان عليه السلام يقبل ابني ابنته في أفواههما ويشرب من موضع في عائشة رضي الله عنها ويتعرق العرق فيضع فاه على موضع فيها وهي حائض وحمل أبو بكر رضي الله عنه الحسن على عاتقه ولعابه يسيل عليه وأتى رسول الله عليه السلام بصبي فوضعه في حجره فبال عليه فدعا بماء فنضحه ولم يغسله وكان يؤتى بالصبيان فيضعهم في حجره يبرك عليهم ويدعو لهم وهذا الذي ذكرناه قليل من كثير من السنة ومن له اطلاع على ما كان عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه لا يخفى عليه حقيقة الحال وقد روى الامام أحمد في مسنده عنه صلى الله تعالى عليه وسلم بعثت بالحنيفية السمحة فجمع بين كونها حنيفية وكونها سمحة فهي حنيفية في التوحيد سمحة في العمل وضد الامرين الشرك وتحريم الحلال وهما اللذين ذكرهما النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى انه قال اني خلقت عبادي حنفاء وانهم أتتهم الشياطين فاحتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي مالم أنزل به سلطانا فالشرك وتحريم الحلال قرينان وهما اللذان عابهما الله تعالى في كتابه على المشركين في سورة الانعام والاعراف وقد ذم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم المتنطعين في الدين وأخبر بهلكتهم حيث يقول ألا هلك المتنطعون الا هلك المتنطعون الا هلك المتنطعون وقال ابن أبي شيبة حدثنا أبو اسامة عن مسعر

فيردهم ماسبق لهم من الله من السعادة فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها قبل موته بفواق ناقة وقد يسلك باهل الشقاء طريق السعادة حتى يقال كأنهم هم بل هم هم ما أشبههم بهم بل هم هم فيردهم ماسبق لهم من الله فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ولو قبل موته بفواق ناقة فصاحب الجنة مختوم له بعمل أهل الجنة وان عمل عمل أهل النار وصاحب النار مختوم له بعمل أهل النار وان عمل بعمل أهل الجنة ثم قال رسول الله الاعمال بخواتيمها وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى ان الذين كفروا سواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون وفي قوله ولو شاء الله لجمعهم على الهدى وفي قوله فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا وفي قوله ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله وفي قوله ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها وقوله ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعا وقوله انا جعلنا في أعناقهم أغلالا وقوله ولا تطع من اغفلنا قلبه عن ذكرنا ونحو هذا من القرآن وان رسول الله كان يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى فاخبره الله أنه لا يؤمن الا من سبق له من الله السعادة في الذكر الاول ثم قال لنبيه لعلك باخع نفسك أن لا يكونوا مؤمنين ويقول ان نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين ثم قال ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده ويقول ليس لك من الامر شئ وفي صحيح مسلم عن طاوس ادركت ناسا من اصحاب رسول الله يقولون كل شئ بقدر وسمعت عبد الله بن عمر يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل شئ بقدر حتى العجز والكيس وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال

قال أخرج الى معن بن عبد الرحمن كتابا وحلف بالله انه خط أبيه فاذا فيه قال عبد الله والذى لا اله غيره ما رأيت أحدا كان أشد على المتنطعين من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ولا رأيت بعده أشد خوفا عليهم من أبى بكر وانى لاظن عمر رضى الله عنه كان أشد أهل الارض خوفا عليهم وكان عليه السلام يبغض المتعمقين حتى انه لما واصل بهم ورأى الهلال قال لو تأخر الهلال لواصلت وصالا يدع المتعمقون تعمقهم كالمنكل بهم وكان الصحابة أقل الامة تكلفا اقتداء بنبيهم صلى الله تعالى عليه وسلم قال الله تعالى قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه من كان منكم مستنا فليستن بمن قد مات فان الحى لا تؤمن عليه الفتنة أولئك أصحاب محمد كانوا أفضل هذه الامة أبرها قلوبا وأعمقها علما وأقلها تكلفا اختارهم الله تعالى لصحبة نبيه ولاقامة دينه فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم على أثرهم وسيرتهم فانهم كانوا على الهدى المستقيم وقال أنس رضى الله عنه كنا عند عمر رضى الله عنه فسمعته يقول نهينا عن التكلف وقال مالك قال عمر بن عبد العزيز سن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وولاة الامور بعده سننا الاخذ بها تصديق لكتاب الله واستكمال لطاعة الله وقوة على دين الله ليس لاحد تبديلها ولا تغييرها ولا النظر فيما خالفها من اقتدى بها فهو مهتد ومن استنصر بها فهو منصور ومن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيرا وقال مالك بلغنى أن عمر بن الخطاب كان يقول سنت لكم السنن وفرضت لكم الفرائض وتركتم على الواضحة الا أن تميلوا بالناس يمينا وشمالا وقال صلى الله تعالى عليه وسلم يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين فأخبر أن الغالين يحرفون ما جاء به والمبطلون ينتحلون بباطلهم غير ما كان عليه والجاهلون يتأولونه على غير تأويله وفساد الاسلام من هؤلاء الطوائف الثلاثة فلولا أن الله تعالى يقيم لدينه من ينفى عنه ذلك لجرى عليه ما جرى على أديان الانبياء قبله من هؤلاء

(فصل) ومن ذلك الوسوسة فى مخارج الحروف والتنطع فيها ونحن نذكر ما ذكره العلماء بألفاظهم قال أبو الفرج بن الجوزى قد لبس ابليس على بعض المصلين فى مخارج الحروف فتراه يقول الحمد الحمد فيخرج باعادة الكلمة عن قانون أدب الصلاة وتارة يلبس عليه فى تحقيق التشديد فى اخراج ضاد المغضوب قال ولقد رأيت من يخرج بصاقه مع اخراج الضاد لقوة تشديده والمراد تحقيق الحرف حسب وابليس يخرج هؤلاء بالزيادة عن حد التحقيق ويشغلهم بالمبالغة فى الحروف عن فهم التلاوة وكل هذه الوساوس من ابليس وقال محمد بن قتيبة فى مشكل القرآن وقد كان الناس يقرؤن بلغاتهم ثم خلف من بعدهم قوم من أهل الامصار وأبناء العجم ليس لهم طبع اللغة ولا علم التكلف فهفوا فى كثير من الحروف وذلوا وأخلوا ومنهم رجل ستر الله عليه عند العوام بالصلاح وقربه من القلوب بالدين فلم أر فيمن تتبعت فى وجوه قراءته أكثر تخليطا ولا أشد اضطرابا منه لانه يستعمل فى الحرف ما يدعه فى نظيره ثم يؤصل أصلا ويخالف الى غيره بغير علة ويختار فى كثير من الحروف ما لا مخرج له الا على طلب الحيلة

يقول كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والارض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء وفى صحيحه أيضا عن أبى هريرة قال قال رسول الله المؤمن القوى خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير فاحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز وان أصابك شئ فلا تقل لو أنى فعلت كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء الله فعل فان لو تفتح عمل الشيطان وفى صحيحه أيضا عن أبى هريرة قال قال رسول الله ان النذر لا يقدر لابن آدم شيأ لم يكن الله قدره ولكن النذر يوافق القدر فيخرج ذلك من البخيل ما لم يكن يريد أن يخرجه وفى حديث جبريل وسؤاله النبى عن الايمان قال الايمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشره وفى الصحيحين حديث ابن مسعود فى التخليق وفيه فوالذى لا اله غيره ان أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار وان أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها ذكر الطبرى عن الحسن بن على الطوسى نبأنا محمد بن يزيد الاسفاطى البصرى محدث البصرة قال رأيت رسول الله فى النوم فقلت يا رسول الله حديث عبد الله بن مسعود حدثنى الصادق المصدوق أعنى حديث القدر فقال اى والله الذى لا اله الا هو حدثت به رحم الله عبد الله بن مسعود حيث حدث به ورحم الله زيد بن وهب حيث حدث به ورحم الله الاعمش حيث حدث به ورحم الله من حدث به قبل الاعمش ورحم الله من يحدث به بعد الاعمش وفى صحيح مسلم عن ابن مسعود الشقى من شقى فى بطن أمه والسعيد من وعظ بغيره وقد روى حديث تقدير السعادة والشقاوة فى

الضعيفة هذا الى نبذه فى قراءته مذاهب العرب وأهل الحجاز بافراطه فى المد والهمز والاشباع وافحاشه فى الاضجاع والادغام وحمله المتعلمين على المذهب الصعب وتعسيره على الامة ما يسره الله تعالى وتضييقه ما فسحه ومن العجب أنه يرى الناس بهذه المذاهب ويكره الصلاة بها ففى أى موضع يستعمل هذه القراءة ان كانت الصلاة لا يجوز بها وكان ابن عيينة يرى لمن قرأ فى صلاته بحرفه أو ائتم بامام بقراءته أن يعيد ووافقه على ذلك كثير من خيار المسلمين منهم بشر بن الحارث وأحمد بن حنبل وقد شغف بقراءته عوام الناس وسوقتهم وليس ذلك الا لما يرونه من مشقتها وصعوبتها وطول اختلاف المتعلم الى المقرى فيها فاذا رأوه قد اختلف فى أم الكتاب عشرا وفى مائة آية شهرا وفى السبع الطول حولا ورأوه عند قراءته مائل الشدقين دار الوريدين راشح الجبين توهموا ان ذلك لفضله فى القراءة وحذقه بها وليس هكذا كانت قراءة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ولا خيار السلف ولا التابعين ولا القراء العالمين بل كانت سهلة وقال الخلال فى الجامع عن أبى عبد الله انه قال لا أحب قراءة فلان يعنى هذا الذى أشار اليه ابن قتيبة وكرهها كراهة شديدة وجعل يعجب من قراءته وقال لا يعجبنى فان كان رجل يقبل منك فانهه وحكى عن المبارك عن الربيع بن أنس انه نهاه عنها وقال الفضيل بن زياد ان رجلا قال لابى عبد الله فما أترك من قراءته قال الادغام والكسر ليس يعرف فى لغة من لغات العرب وسأله عبد الله ابنه عنها فقال أكره الكسر الشديد والاضجاع وقال فى موضع آخر ان لم يدغم ولم يضجع ذلك الاضجاع فلا بأس وسأله الحسن بن محمد بن الحارث أيكره أن يتعلم الرجل تلك القراءة قال أكرهه أشد كراهة انما هى قراءة محدثة وكرهها شديدا حتى غضب وروى عنه ابن سندى أنه سئل عنها فقال أكرهها أشد الكراهة قيل له ما تكره منها قال هى قراءة محدثة ما قرأ بها أحد وروى جعفر بن محمد عنه أنه سئل عنها فكرهها وقال كرهها ابن ادريس قال وعبد الرحمن بن مهدى وقال ما أدرى ايش هذه القراءة ثم قال وقراءتهم ليست تشبه كلام العرب وقال عبد الرحمن ابن مهدى لو صليت خلف من يقرأ بها لأعدت الصلاة ونص أحمد رحمه الله على أنه يعيد وعنه رواية أخرى أنه لا يعيد والمقصود أن الائمة كرهوا التنطع والغلو فى النطق بالحرف ومن تأمل هدى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم واقراره أهل كل لسان على قراءتهم تبين له أن التنطع والتشدق والوسوسة فى اخراج الحرف ليس من سنته

(فصل) فى الجواب عما احتج به أهل الوسواس أما قولهم ان ما نفعله احتياط لا وسواس قلنا سموه ما شئتم فنحن نسألكم هل هو موافق لفعل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأمره وما كان عليه أصحابه أو مخالف فان زعمتم أنه موافق فبهت وكذب صريح فاذا لا بد من الاقرار بعدم موافقته وانه مخالف له فلا ينفعكم تسمية ذلك احتياطا فهذا نظير من ارتكب محظورا وسماه بغير اسمه كما يسمى الخمر بغير اسمها والربا معاملة والتحليل الذى لعن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فاعله نكاحا ونقر الصلاة الذى أخبر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ان فاعله لم يصل وانه لا تجزيه صلاته ولا يقبلها

بطن الام من حديث عبد الله بن مسعود وأنس بن مالك وعبد الله بن عمر وعائشة أم المؤمنين وحذيفة بن أسيد وأبى هريرة وقال أبو الحسن على بن عبيد الحافظ سمعت أبا عبد الله بن أبى خيثمة يقول سمعت عمرو بن على الفلاس يقول انحدرت من سر من رأى الى بغداد فى حاجة لى فبينما أنا أمشى فى بعض الطريق اذا عجمجمة قد نخرت فأخذتها فاذا على الجبهة مكتوب شقى والياء مكسورة الى خلف وهؤلاء كلهم أئمة حفاظ ذكره الطبرى فى السنة وفى الصحيحين حديث على عن النبى ما منكم من أحد الا كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة فقالوا يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل فقال اعملوا فكل ميسر لما خلق له أما من كان من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة وأما من كان من أهل الشقاوة فييسر لعمل أهل الشقاوة ثم قرأ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى وفى الصحيحين عن عمران ابن حصين أن النبى سئل أعلم أهل الجنة من أهل النار قال نعم قيل ففيم يعمل العاملون قال نعم كل ميسر لما خلق له وفى صحيح مسلم عن عائشة قالت دعى رسول الله الى جنازة غلام من الانصار فقلت يا رسول الله طوبى لهذا عصفور من عصافير الجنة لم يدرك السوء ولم يعمله قال أو غير ذلك ان الله تعالى خلق للجنة أهلا خلقهم لها وهم فى أصلاب آبائهم وخلق للنار أهلا خلقهم لها وهم فى أصلاب آبائهم وفى الصحيحين عن ابن عباس عن أبى بن كعب عن النبى قال الغلام الذى قتله الخضر طبع يوم طبع كافرا ولو عاش لارهق أبويه طغيانا وكفرا وفى مسند الامام أحمد عن ابنه

الله تعالى منه تخفيفها فهكذا تسمية الغلو فى الدين والتنطع احتياطا و ينبغى أن يعلم أن الاحتياط الذى ينفع صاحبه و يثيبه الله عليه الاحتياط فى موافقة السنة وترك مخالفتها فالاحتياط كل الاحتياط فى ذلك والا فما احتاط لنفسه من خرج عن السنة بل ترك حقيقة الاحتياط فى ذلك وكذلك المتسرعون الى وقوع الطلاق فى موارد النزاع الذى اختلف فيه الائمة كطلاق المكره وطلاق السكران والبتة و جمع الثلاث والطلاق بمجرد النية والطلاق المؤجل المعلوم مجىء أجله واليمين بالطلاق وغير ذلك مما تنازع فيه العلماء اذا أوقعه المفتى تقليدا بغير برهان وقال ذلك احتياط للفروج فقد ترك معنى الاحتياط فانه يحرم الفرج على هذا و يبيحه لغيره فأين الاحتياط ههنا بل لو أبقاه على حاله حتى تجمع الامة على تحريمه واخراجه عمن هو حلال له أو يأتى برهان من الله و رسوله على ذلك لكان قد عمل بالاحتياط ونص على مثل ذلك الامام أحمد فى طلاق السكران فقال فى رواية أبى طالب والذى لا يأمر بالطلاق فانما أتى خصلة واحدة والذى يأمر بالطلاق فقد أتى خصلتين حرمها عليه وأحلها لغيره فهذا خير من هذا فلا يمكن الاحتياط فى وقوع الطلاق الاحيث أجمعت الامة أو كان هناك نص عن الله ورسوله يجب المصير اليه قال شيخنا والاحتياط حسن مالم يفض بصاحبه الى مخالفة السنة فاذا أفضى الى ذلك فالاحتياط ترك هذا الاحتياط وبهذا خرج الجواب عن احتجاجهم بقوله من ترك الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه وقوله دع ما يريبك الى مالا يريبك وقوله الاثم ما حاك فى الصدر فهذا كله من أقوى الحجج على بطلان الوسواس فان الشبهات ما اشتبه فيه الحق بالباطل والحلال بالحرام على وجه لا يكون فيه دليل على أحد الجانبين أو تتعارض الامارتان عنده فلا تترجح فى ظنه احداهما فيشتبه عليه هذا بهذا فأرشده النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى ترك المشتبه والعدول الى الواضح الجلى ومعلوم أن غاية الوسواس أن يشتبه على صاحبه هل هو طاعة وقربة أم معصية وبدعة هذا أحسن أحواله والواضح الجلى هو اتباع طريق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وما سنه للامة قولا وعملا فمن أراد ترك الشبهات عدل عن ذلك المشتبه الى هذا الواضح فكيف ولا شبهة بحمد الله هناك اذ قد ثبت بالسنة أنه تنطع وغلو فالمصير اليه ترك للسنة وأخذ بالبدعة ترك لما يحبه الله تعالى ويرضاه وأخذ بما يكرهه و يبغضه ولا يتقرب به اليه البتة فانه لا يتقرب اليه الا بما شرع لا بما يهواه العبد و يفعله من تلقاء نفسه فهذا هو الذى يحيك فى الصدر و يتردد فى القلب وهو حواز القلوب وأما التمرة التى ترك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أكلها وقال أخشى أن تكون من الصدقة فذلك من باب اتقاء الشبهات وترك ما اشتبه فيه الحلال بالحرام فان التمرة كانت قد وجدها فى بيته وكان يؤتى بتمر الصدقة يقسمه على من تحل له الصدقة و يدخل بيته تمر يقتات منه أهله فكان فى بيته النوعان فلما وجد تلك التمرة لم يدر عليه السلام من أى النوعين هى فامسك عن أكلها فهذا الحديث أصل فى الورع واتقاء الشبهات فما لاهل الوسواس وماله وأما قولكم ان مالكا أفتى فيمن طلق ولم يدر أواحدة طلق أم ثلاثا انها ثلاث احتياطا فنعم هذا قول مالك فكان ماذا أفجعة هو على الشافعى وأبى حنيفة وأحمد وعلى كل من خالفه فى هذه المسألة حتى يجب عليهم

عبدالله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله يقول ان الله خلق الخلق فى ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره وفى لفظ فجعلهم فى ظلمة واحدة فأخذ من نوره فألقاه على تلك الظلمة فمن أصابه النور اهتدى ومن أخطاه ضل فلذلك أقول جف القلم على علم الله وذكر راشد بن سعد عن أبى عبد الرحمن ابن أبى قتادة السلمى سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول خلق الله آدم وأخرج الخلق من ظهره فقال هؤلاء فى الجنة ولا أبالى وهؤلاء فى النار ولا أبالى قال قيل على ماذا نعمل قال على مواقع القدر وذكر أبو داود فى كتاب القدر عن عبد الله بن مسعود أنه مر على رجل فقالوا هذا هذا ونالوا منه فقال عبد الله أرأيتم لو قطعتم يده كنتم تستطيعون أن تخلقوا له يدا قالوا لا قال فلو قطع رأسه أكنتم تستطيعون أن تخلقوا له رأسا قالوا لا قال فكذلك لا تستطيعون أن تغيروا خلقه لا تستطيعون أن تغيروا خلقه ان النطفة اذا وقعت فى الرحم بعث الله ملكا فكتب أجله وعمله ورزقه وشقى أو سعيد وذكر فيه عن ابن مسعود مرفوعا انما هما اثنتان الهدى والكلام فأحسن الكلام كلام الله وأحسن الهدى هدى محمد وشر الامور محدثاتها وان كل بدعة ضلالة وان كل ما هو آت قريب وان الشقى من شقى فى بطن أمه والسعيد من وعظ بغيره وقال ابن وهب أخبرنى يونس عن ابن شهاب ان عبد الرحمن بن هنيدة حدثه ان عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله اذا أراد الله أن يخلق النسمة قال ملك الارحام تعرفا يارب أذكر أم أنثى فيقضى الله أمره ثم يقول يارب أشقى أم سعيد فيقضى الله أمره ثم يكتب بين عينيه ما هو لاق حتى النكبة ينكبها وقال الليث عن عقيل عن ابن شهاب أخبرنى أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ان رسول الله قال فذكره سواء

أن يتركوا قولهم لقوله وهذا القول مما يحتج له لا مما يحتج به على أن هذا ليس من باب الوسواس فى شئ وانما حجة هذا القول ان الطلاق يوجب تحريم الزوجة والرجعة ترفع ذلك التحريم فهو يقول قد تيقن سبب التحريم وهو الطلاق وشك فى رفعه بالرجعة فانه يحتمل أن يكون رجعيا فترجعه الرجعة ويحتمل أن يكون ثلاثا فلا ترفعه الرجعة فقد تيقن سبب التحريم وشك فيما يرفعه والجمهور يقولون النكاح متيقن والقاطع له المزيل لحل الفرج مشكوك فيه فانه يحتمل أن يكون المأتى به رجعيا فلا يزيل النكاح ويحتمل أن يكون بائنا فيزيله فقد تيقنا يقين النكاح وشككنا فيما يزيله فالاصل بقاء النكاح حتى يتيقن بما يرفعه فان قلتم فقد تيقن التحريم وشك فى التحليل قلنا الرجعية ليست بحرام عندكم ولهذا يجوز وطؤها ويكون رجعة اذا نوى به الرجعة فان قلتم بل هى حرام والرجعة حصلت بالنية حال الوطء قلنا لا ينفعكم ذلك أيضا فانه انما تيقن تحريما يزول بالرجعة ولم يتيقن تحريما لا تؤثر فيه الرجعة وليس المقصود تقرير هذه المسئلة والمقصود أنه لا راحة فى ذلك لاهل الوسواس

(فصل) وأما من حلف بالطلاق ان فى هذه اللوزة حبتين ونحو ذلك مما لا يتيقنه الحالف فبان كما حلف عليه فهذا لا يحنث عند الاكثرين وكذلك لو لم يتبين الحال واستمر مجهولا فان النكاح ثابت بيقين فلا يزيله بالشك فى الحنث وايقاعه بالشك فى عدده كما تقدم وايقاعه بالشك فى المطلقة كما لو طلق واحدة من نسائه ثم أنسيها ووقف الحال مدة الايلاء ولم يتبين طلق عليه الجميع وكما لو حلف فى ان هذا فلان أو حيوان وهو غير متيقن له بل هو شاك حال الحلف فتبين أن الامر كما حلف عليه فانه يحنث عنده وتطلق امرأته فمن حلف على رجل أنه زيد فتبين أنه غيره أو لم يتبين أهو المحلوف عليه أم لا حنث عنده وان تبين انه المحلوف عليه وكان حال اليمين لا يعلم حقيقته ولا يغلب على ظنه ولا طريق له الى العلم به فى العادة فانه يحنث عنده لشكه حال الحلف فالحالف يحنث بالمخالفة لما حلف عليه اما فى الطلب فبأن يفعل ما حلف على تركه وأما فى الخبر فبأن تبين كذبه وعند مالك يحنث بأمر آخر وهو الشك حال اليمين سواء تبين صدقه أم لا وأبلغ من هذا انه يحنث من حلف بالطلاق على انسان الى جانبه انسان أو حجر انه حجر ونحو ذلك مما لا شك فيه وعمدته فى الموضعين ان الحالف هازل فان من قال أنت طالق ان لم تكونى امرأة أو ان لم أكن رجلا لا معنى لكلامه الا الهزل فان هذا مما لا غرض للعقلاء فيه قالوا وان لم يكن هذا هزلا فان الهزل لا حقيقة له وربما عللوا الحنث بأنه أراد أن يجزم الطلاق ثم ندم فوصله بما لا يفيد لرفعه وأما فى القسم الاول فاصله فيه تغليب الحنث بالشك كمن حلف ثم شك هل حنث أم لا فانهم يأمرونه بفراق زوجته وهل هو للوجوب أم للاستحباب على قولين الاول لابن القاسم والثانى لمالك فمالك يراعى بقاء النكاح وقد شككنا فى زواله والاصل البقاء وابن القاسم يقول قد صار حل الوطء مشكوكا فيه فيجب عليه مفارقتها والاكثرون يقولون لا يجب عليه مفارقتها ولا يستحب له فان قاعدة الشريعة ان الشك لا يقوى على ازالة الاصل المعلوم ولا يزول اليقين الا بيقين أقوى منه أو مساوله

ويروى عن أبى عبد الرحمن بن أذينة عن ابن عمر مثل ذلك وذكر أبو داود أيضا عن عائشة يرفعه ان الله حين يريد أن يخلق الخلق يبعث ملكا فيدخل على الرحم فيقول أى رب ماذا فيقول غلام أو جارية أو ما شاء الله أن يخلق فى الرحم فيقول أى رب أشقى أم سعيد فيقول شقى أو سعيد فيقول أى رب ما أجله فيقول كذا وكذا فيقول أى رب ما خلقه فيقول كذا وكذا قال فيقول يارب ما خلائقه فيقول كذا وكذا قال فما من شئ الا وهو يخلق معه فى الرحم وذكر ابن وهب عن ابن لهيعة عن بكر بن سوادة عن أبى تميم الجيشانى عن أبى ذر أن المنى اذا مكث فى الرحم أربعين ليلة أتاه ملك النفوس فعرج به الى الرب سبحانه فى راحته فيقول يارب عبدك ذكر أم أنثى فيقضى الله ما هو قاض أشقى أم سعيد فيكتب ما هو لاق بين عينيه قال أبو تميم وزاد أبو ذر من فاتحة سورة التغابن خمس آيات وقال ابن وهب أخبرنى ابن لهيعة عن كعب بن علقمة عن عيسى بن هلال عن عبد الله بن عمرو ابن العاص أنه قال اذا مكثت النطفة فى رحم المرأة أربعين يوما جاءها ملك فاختلجها ثم عرج بها الى الرحمن عز وجل فقال اخلق يا أحسن الخالقين فيقضى الله فيها بما يشاء من أمره ثم يدفع الى الملك فيسأل الملك عن ذلك فيقول يارب سقط أم تم فيبين له ثم يقول يارب أواحد أو توأم فيبين له ثم يقول يارب أذكر أم أنثى فيبين له فيقول يارب أناقص الاجل أم تام الاجل فيبين له ذلك ثم يقول يارب أشقى أم سعيد فيبين له ثم يقول يارب اقطع رزقه مع خلقه فيهبط بهما جميعا فوالذى نفسى بيده ما ينال من الدنيا الا ما قسم له فاذا أكل رزقه قبض وفى صحيح مسلم عن حذيفة بن أسيد يبلغ به النبى قال يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر فى الرحم

فصل

(فصل) وأما من طلق واحدة من نسائه ثم أنسيها أو طلق واحدة مبهمة ولم يعينها فقد اختلف الفقهاء في حكم هذه المسألة على أقوال فقال أبو حنيفة والشافعي والثوري وحماد يختار أيتهن شاء فيوقع عليها الطلاق في المبهمة وأما في المنسية فيمسك عنهن وينفق عليهن حتى ينكشف الامر فان مات الزوج قبل أن يقرع فقال أبو حنيفة يقسم بينهن كلهن ميراث امرأة وقال الشافعي يوقف ميراث امرأة حتى يصطلحن وقالت المالكية اذا طلق واحدة منهن غير معلومة عنده بأن قال أنت طالق ولا يدري من هي طلق الجميع وان طلق واحدة معلومة ثم أنسيها وقف عنهن حتى يتذكر فان طال ذلك ضرب له مدة المولى فان تذكرها والا طلق عليه الجميع ولو قال احداكن طالق ولم يعينها بالنية طلق الجميع وقال أحمد يقرع بينهن في الصورتين نص على ذلك في رواية جماعة من أصحابه وحكاه عن على وابن عباس وظاهر المذهب الذي عليه جل الاصحاب أنه لا فرق بين المبهمة والمنسية وقال صاحب المغني يخرج المبهمة بالقرعة وأما المنسية فانه يحرم عليه الجميع حتى تتبين المطلقة ويؤخذ بنفقة الجميع فان مات أقرع بينهن للميراث قال وقد روى اسماعيل بن سعيد عن أحمد ما يدل على أن القرعة لا تستعمل في المنسية لمعرفة الحل وانما تستعمل لمعرفة الميراث فانه قال سألت أحمد عن الرجل يطلق امرأة من نسائه ولا يعلم أيتهن طلق قال أكره أن أقول في الطلاق بالقرعة قلت أرأيت ان مات هذا قال أقول بالقرعة وذلك لانه تصير القرعة على المال قال وجماعة من روى عنه القرعة في المطلقة المنسية انما هو في التوريث وأما في الحل فلا ينبغي أن تثبت القرعة قال وهذا قول أكثر أهل العلم واحتج الشيخ لصحة قوله بأنه اشتبهت عليه زوجته بأجنبية فلم تحل له احداهما بالقرعة كما لو اشتبهت عليه بأجنبية لم يكن له عليها عقد ولان القرعة لا تزيل التحريم من المطلقة ولا ترفع الطلاق عمن وقع عليه ولا احتمال كون المطلقة غير من خرجت عليها القرعة ولهذا لو ذكر أن المطلقة غيرها حرمت عليه ولو ارتفع التحريم أو زال بالطلاق لما عاد بالذكر فيجب بقاء التحريم بعد القرعة كما كان قبلها قال وقد قال الخرقي فيمن طلق امرأته فلم يدر واحدة طلق أم ثلاثا ومن حلف بالطلاق لا يأكل تمرة فوقعت في تمر فأكل منه واحدة لا تحل له امرأته حتى يعلم أنها ليست التي وقعت اليمين عليها فحرمها مع أن الاصل بقاء النكاح ولم يعارضه نفس التحريم فههنا أولى قال وهكذا الحكم في كل موضع وقع الطلاق على امرأة بعينها ثم اشتبهت بغيرها مثل أن يرى امرأة في روزنة أو مولية فيقول أنت طالق ولا يعلم عينها من نسائه وكذلك اذا وقع الطلاق على امرأة من نسائه في مسألة الطائر وشبهها فانه يحرم عليه جميع نسائه حتى تتبين المطلقة ويؤخذ بنفقة الجميع لانهن محبوسات عليه وان اقرع بينهن لم تفد القرعة شيأ ولا يحل لمن وقعت عليها القرعة التزويج لانه يجوز أن تكون غير المطلقة ولا يحل للزوج غيرها لاحتمال أن تكون المطلقة وقال أصحابنا اذا اقرع بينهن فخرجت القرعة على احداهن ثبت حكم الطلاق فيها فحل لها النكاح بعد قضاء عدتها وحل للزوج من سواها كما لو كان الطلاق في واحدة غير معينة وقال شيخنا الصحيح استعمال القرعة في الصورتين قلت وهو منصوص أحمد في رواية الجماعة وأما رواية الشالنجي فانه توقف وكره أن يقول في الطلاق بالقرعة ولم يعين

بأربعين أو خمس وأربعين ليلة فيقول يارب أشقي أم سعيد فيكتبان فيقول يارب أذكر أم أنثى فيكتبان ويكتب عمله وأثره ورزقه ثم تطوى الصحف ولا يزاد فيها ولا ينقص وفي الصحيحين عن أنس بن مالك ورفع الحديث قال ان الله وكل بالرحم ملكا فيقول أي رب نطفة أي رب علقة أي رب مضغة فاذا أراد الله أن يقضي خلقا قال الملك أي رب ذكر أو أنثى شقي أو سعيد فما الرزق فما الاجل فيكتب ذلك في بطن أمه وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود عن النبي ان أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم ينفخ فيه الروح ويبعث اليه الملك فيؤمر بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد وفي حديث ابن مسعود ان هذا التقدير وهذه الكتابة في الطور الرابع من أطوار التخليق عند نفخ الروح فيه وفي الاحاديث التي ذكرت أيضا آنفا ان ذلك في الاربعين الاولى قبل كونه علقة ومضغة وفي رواية صحيحة اذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله اليها ملكا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها وفي رواية ان ذلك يكون في بضع وأربعين ليلة والله أعلم

(فصل) الجمع بين هذه الروايات ان للملك ملازمة ومراعاة بحال النطفة وانه يقول يارب هذه نطفة هذه علقة هذه مضغة في أوقاتها فكل وقت يقول فيه ما صارت اليه بأمر الله وهو أعلم بها منه ولكلام الملك فتصرفه في أوقات أحدها حين يخلقها الله نطفة ثم ينقلها علقة وهو أول أوقات علم الملك بانه ولد لانه ليس كل نطفة تصير ولدا وذلك بعد الاربعين الاولى في أول الطور الثاني وهذا والله أعلم توقعت الاشارة اليه في أول سورة أنزلها

المنسية ولا المبهمة وأ كثر نصوصه على القرعة فى الصورتين قال فى رواية الميمونى فيمن له أربع نسوة طلق واحدة منهن ولم يدر يقرع بينهن وكذلك فى الاعبد فان أقرع بينهن فوقعت القرعة على واحدة ثم ذكر التى طلق رجعت هذه التى وقعت عليها القرعة ويقع الطلاق على التى ذكر فان تزوجت فذاك شئ قد مر وكذلك نقل أبو الحرث عنه فى رجل له أربع نسوة طلق احداهن ولم يكن له نية فى واحدة بعينها يقرع بينهن فايتهن أصابتها القرعة فهى المطلقة وكذلك ان قصد الى واحدة بعينها اونسيها فنص على القرعة فى الصورتين مسويا بينهما والذى أفتى به على رضى الله عنه هو فى المنسية وبه احتج أحمد رحمه الله قال وكيع سمعت عبد الله قال سألت أبا جعفر عن رجل كان له أربع نسوة وطلق احداهن لا يدرى أيتهن طلق قال على رضى الله عنه يقرع بينهن والادلة الدالة على القرعة تتناول الصورتين والمنسية قد صارت كالمجهولة شرعا فلا فرق بينها وبين المبهمة المجهولة ولان فى الايقاف والامساك حتى يتذكر وتحريم الجميع عليه وايجاب النفقة على الجميع عنده مفاسد له وللزوجات مندفعة شرعا ولان القرعة أقرب الى مقاصد الشرع ومصلحة الزوج والزوجات من تركهن معلقات لاذوات زوج ولا أيامى وتركه هو معلقا لاذا زوج ولا عزبا وليس فى الشريعة نظير ذلك بل ليس فيها وقف الاحكام بل الفصل وقطع الخصومات باقرب الطرق فاذا ضاقت الطرق ولم يبق الا القرعة تعينت طريقا كما عينها الشارع فى عدة قضايا حيث لم يكن هناك غيرها ولم يوقف الامر الى وقت الانكشاف فانه اذا علم أنه لا سبيل له الى انكشاف الحال كان ايقاف الامر الى آخر العمر من أعظم المفاسد التى لا تأتى بها الشريعة وغاية ما يقدر أن القرعة تصيب التى لم يقع عليها الطلاق وتخطئ المطلقة وهذا لا يضرها هنا فان المجهول كونها هى التى وقع عليها الطلاق صار المجهول كالمعدوم وكل ما يقدر من المفسدة فى ذلك فمثلها فى العتق سواء وقد دلت سنة رسول الله عليه السلام الصحيحة الصريحة على اخراج المعتق من غيره بالقرعة وقد نص أحمد على حل البضع بالقرعة فقال فى رواية ابن منصور وحنبل اذا زوجها الوليان من رجلين ولم يعلم السابق منهما أقرع بينهما فمن خرجت له القرعة حكم أنه الاول فاذا قويت القرعة على تعيين الزوج فى حل البضع له فلأن تقوى على تعيين المطلقة فى تحريم بضعها عنه أولى فان الطلاق مبنى على التغليب والسراية وهو أسرع نفوذا وثبوتا من النكاح من وجوه كثيرة وقول الشيخ أبى محمد قدس الله تعالى روحه ان اشتبهت عليه زوجته باجنبية فلم يحل له أحدهما بالقرعة كما لو اشتبهت باجنبية لم يكن عليها عقد جوابه بالفرق بين حالتى الدوام والابتداء فان هناك شك فى هذه الاجنبية هل حصل عليها عقد أم لا والاصل فيها التحريم فاذا اشتبهت بها الزوجة لم يقدم على واحدة منهما وههنا ثبت الحل والنكاح وحصل الشك بعده هل يزول فى هذه أو فى هذه فاما أن يحرما جميعا أو يحلا جميعا أو يقال له اختر من ينزل عليه التحريم أو يوقف الامر أبدا أو يستعمل القرعة والاقسام الاربعة الاول باطلة لا أصل لها فى السنة ولم يعتبرها الشارع بخلاف القرعة وبالجملة فلا يصح الحاق احدى الصورتين بالاخرى اذ هناك تحريم متيقن ونحن نشك فى حله وهنا حل متيقن نشك فى تحريمه بالنسبة الى كل واحدة واحدة قوله ولان القرعة لا تزيل

على رسوله اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق اذ خلقه من علقة هو أول مبدأ الانسانية وحينئذ يكتب رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته ثم للملك فيه تصرف آخر فى وقت آخر وهو تصوير وتخليق سمعه وبصره وجلده وعظمه ولحمه وذكوريته وأنوثيته وهذا انما يكون فى الاربعين الثالثة قبل نفخ الروح فيها فان نفخ الروح لا يكون الا بعد تمام تصويره فههنا تقديران وكتابان التقدير الاول عند ابتداء تعليق التخليق فى النطفة وهو اذا مضى عليها أربعون ودخلت فى طور العلقة وانهذا فى احدى الروايات اذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة والتقدير الثانى الكتابة اذا كمل تصويره وتخليقه وتقدير أعضائه وكونه ذكرا أو أنثى فالتقدير الاول تقدير لما يكون للنطفة بعد الاربعين والتقدير الثانى تقدير لما يكون للجنين بعد تصويره ثم اذا ولد قدر مع ولادته كل سنة ما يلقاه فى تلك السنة وهو ما يقدر ليلة القدر من العام الى العام فهذا التقدير أخص من التقدير الثانى والثانى أخص من الاول ونظير هذا أيضا ان الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والارض بخمسين ألف سنة ثم قدر مقادير هذا الخلق حين خلقهم وأوجدهم ثم يقدر فى كل سنة فى ليلة القدر ما يكون فى ذلك العام وهكذا تقدير أمر النطفة وشأنها يقع بعد تعلقها بالرحم وبعد كمال تصوير الجنين وقد تقدم ذلك تقدير شأنها قبل خلق السموات والارض فهو تقدير بعد تقدير ونظير هذا أيضا رفع الاعمال وعرضها على الله فان عمل العام يرفع فى شعبان كما أخبر به الصادق المصدوق انه شهر يرفع فيه الاعمال فقال فاحب أن يرفع عملى وأنا صائم ويعرض عمل الاسبوع يوم الاثنين والخميس كما ثبت

التحريم من المطلقة ولا ترفع الطلاق على من وقع عليه فيقال اذا جهلت المطلقة ولم يكن له سبيل الى تعيينها قامت القرعة مقام الشاهد والمخبر بانها المطلقة للضرورة حيث تعينت طريقا فالمطلقة المجهولة قد صار طلاقها بعينها كالمعدوم ولو كانت مطلقة فى نفس الامر فان الشارع لم يكلف بما فى نفس الامر بل بما ظهر و بدا ولهذا لو نسي الطلاق بالكلية وأقام على وطئها حتى توفى كانت أحكامه أحكام الزوج والنسب لاحق به والميراث ثابت وهى مطلقة فى نفس الامر ولكن ليست مطلقة فى حكم الله كما لو طلع الهلال فى نفس الامر ولم يره أحد من الناس أو كان تحت الغيم فانه لا يترتب عليه حكم الشهر ولا يكون طالعا فى حكم الله تعالى وان كان طالعا فى نفس الامر ونظائر هذا كثيرة جدا فغاية الامر ان هذه مطلقة فى نفس الامر ولا علم له بطلاقها فلا تكون مطلقة فى الحكم كما لو نسى طلاقها قوله ولهذا لو ذكر أن المطلقة غيرها حرمت عليه ولو ارتفع التحريم أو الطلاق لما عاد بالذكر جوابه أن القرعة انما عملت مع استمرار النسيان فاذا زال النسيان بطل عمل القرعة كما ان المتيمم اذا قدر على استعمال الماء بطل حكم تيممه فان التراب انما يعمل عند العجز عن الماء فاذا قدر عليه بطل حكمه ونظائر ذلك كثيرة منها ان الاجتهاد انما يعمل عند عدم النص فاذا تبين النص فلا اجتهاد الا فى ابطال ما خالفه قوله وقد قال الخرقى فيمن طلق امرأته ولم يدر واحدة طلق أم ثلاثا يلزمه الثلاث ومن حلف بالطلاق أن لا يأكل تمرة فوقعت فى تمر فأكل منه لا تحل له امرأته حتى يعلم انها ليست التى وقعت اليمين عليها فحرمها مع ان الاصل بقاء النكاح ولم يعارضه يقين التحريم فههنا أولى فيقال الخرقى نص على المسئلتين مفرقا بينهما فى مختصره فقال واذا طلق واحدة من نسائه وأنسيها أخرجت بالقرعة وقالت ما حكاه الشيخ عنه فى الموضعين فأما من شك هل طلق واحدة أم ثلاثا فاكثر النصوص انه انما يلزمه واحدة وهو ظاهر المذهب والخرقى اختار الرواية الاخرى وهى مذهب مالك وقد تقدم مأخذ القولين وبيان الراجح منهما وعلى القول بلزوم الثلاث فالفرق بين ذلك و بين اخراج المنسية بالقرعة ان المجهول فى الشرع كالمعدوم فقد جهلنا وقوع الطلاق بأى الزوجين فلم يتحقق تحريم احداهما ولم يكن لنا سبيل الى تحريمهما ولا اباحتهما والوقف مفسدة ظاهرة فتعينت القرعة بخلاف من أوقع على زوجته طلاقا وشك فى عدده فانه قد شك هل يرتفع ذلك الطلاق بالرجعة أو لا يرتفع بها فألزمه بالثلاث فظهر الفرق بينهما على هذا القول وأما على المشهور من المذهب فلا اشكال وأما من حلف بالطلاق لا يأكل تمرة فوقعت فى تمر فأكل منه واحدة فقد قال الخرقى انه يمنع من وطء زوجته حتى يتيقن وهذا يحتمل الكراهة والتحريم ومذهب الشافعى وأبى حنيفة أنه لا يحنث ولا يحرم عليه وطء زوجته واختيار أبى الخطاب وهو الصحيح وان أراد به التحريم فهو يشبه ما قاله هو ومالك فيمن طلق وشك هل طلق واحدة أم ثلاثا

(فصل) وأما من حلف على يمين ثم نسيها وقولهم يلزمه جميع ما يحلف به فقول شاذ جدا وليس عن مالك انما قاله بعض أصحابه وسائر أهل العلم على خلافه وأنه لا يلزمه شئ حتى يتيقن كما لو شك هل حلف أو لا فان قيل فينبغي أن يلزمه كفارة يمين لانها الاقل

ذلك من النبي صلى الله عليه وسلم و يعرض عمل اليوم فى آخره والليلة فى آخرها كما فى حديث أبى موسى الذى رواه البخارى عن النبى ان الله لا ينام ولا ينبغى له أن ينام يخفض القسط ويرفعه يرفع اليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل فهذا الرفع والعرض اليومى أخص من العرض يوم الاثنين والخميس والعرض فيهما أخص من العرض فى شعبان ثم اذا انقضى الاجل رفع العمل كله وعرض على الله وطويت الصحف وهذا عرض آخر وهذه المسائل العظيمة القدر هى من أهم مسائل الايمان بالقدر فصلوات الله وسلامه على كاشف الغمة وهادى الامة محمد صلى الله عليه وسلم فان قيل ما تقولون فى قوله اذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله اليها ملكا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظمها ثم قال يا رب أذكر أم انثى فيقضى ربك ما شاء و يكتب الملك ثم يقول يا رب أجله فيقول ربك ما شاء و يكتب الملك وهذه بعض ألفاظ مسلم فى الحديث وهذا يوافق الرواية الاخرى يدخل الملك على النطفة بعدما تستقر فى الرحم باربعين أو خمس وأربعين ليلة فيقول يا رب أشقى أو سعيد ويوافق الرواية الاخرى ان النطفة تقع فى الرحم أربعين ليلة ثم يتسور عليها الملك وهذا يدل على ان تصويرها عقيب الاربعين الاولى قيل لا ريب ان التصوير المحسوس وخلق الجلد والعظم واللحم انما يقع فى الاربعين الثالثة لا يقع عقيب الاولى هذا أمر معلوم بالضرورة فاما ان يكون المراد بالاربعين فى هذه الالفاظ الاربعين الثالثة وسمى المضغة فيها نطفة اعتبارا بأول أحوالها وما كانت عليه أو يكون المراد بها الاربعين الاولى وسمى كتابة تصويره وتقديره تخليقا اعتبارا بما يؤول فيكون قوله صورها وخلق سمعها

قيل موجب الايمان مختلف فما من يمين الا وهي مشكوك فيها هل حلف بها أم لا وعلى قول شيخنا يلزمه كفارة يمين حسب لان ذلك موجب الايمان كلها عنده

(فصل) وأما من حلف ليفعلن كذا ولم يعين وقتا فعند الجمهور هو على التراخي الى آخر عمره الا أن يعين بنيته وقتا فيتقيد به فان عزم على الترك بالكلية حنث حالة عزمه نص عليه أحمد وقال مالك هو على حنث حتى يفعل فيحال بينه وبين امرأته الى أن يأتي بالمحلوف عليه وهذا صحيح على أصله في سد الذرائع فانه اذا كان على التراخي الى وقت الموت لم يكن لليمين فائدة وصار لا فرق بين الحلف وعدمه والحمل في ذلك على القرينة والعرف ان لم تكن نية ولا يكاد اليمين يتجرد عن هذه الثلاثة وأما تعليق الطلاق بوقت يجيء لا محالة كرأس الشهر والسنة وآخر الشهر ونحوه فللفقهاء في ذلك أربعة أقوال أحدها انها لا تطلق بحال وهذا مذهب ابن حزم واختيار أبي عبد الرحمن الشافعي وهو من أجل أصحاب الوجوه وحجتهم أن الطلاق لا يقبل التعليق بالشرط كما لا يقبله النكاح والبيع والاجارة والابراء قالوا والطلاق لا يقع في الحال ولا عند مجيء الوقت أما في الحال فلانه لم يوقعه منجزا واما عند مجيء الوقت فلانه لم يصدر منه طلاق حينئذ ولم يتجدد سوى مجيء الزمان ومجيء الزمان لا يكون طلاقا وقابل هذا القول آخرون وقالوا يقع الطلاق في الحال وهذا مذهب مالك وجماعة من التابعين وحجتهم ان قالوا لو لم يقع في الحال لحصل منه استباحة وطء موقت وذلك غير جائز في الشرع لان استباحة الوطء فيه لا تكون الا مطلقا غير موقت ولهذا حرم نكاح المتعة لدخول الاجل فيه وكذلك وطء المكاتبة ألا ترى أنه لو عرى من الاجل بأن يقول ان جئتني بألف درهم فأنت حرة لم يمنع ذلك الوطء قال الموقعون عند الاجل لا يجوز أن يؤخذ حكم الدوام من حكم الابتداء فان الشريعة فرقت بينهما في مواضع كثيرة فان ابتداء عقد النكاح في الاحرام فاسد دون دوامه وابتداء عقده على المعتدة فاسد دون دوامه وابتداء عقده على الامة مع الطول وعدم خوف العنت فاسد دون دوامه وابتداء عقده على الزانية فاسد عند أحمد ومن وافقه دون دوامه ونظائر ذلك كثيرة جدا قالوا والمعنى الذي حرم لاجله نكاح المتعة كون العقد موقتا من أصله وهذا العقد مطلق وانما عرض له ما يبطله ويقطعه فلا يبطل كما لو علق الطلاق بشرط وهو يعلم انها تفعله أو يفعله هو ولا بد ولكن يجوز تخلفه والقول الثالث انه ان كان الطلاق المعلق بمجيء الوقت المعلوم ثلاثا وقع في الحال وان كان رجعيا لم يقع قبل مجيئه وهذا احدى الروايتين عن الامام أحمد نص عليه في رواية مهنا اذا قال أنت طالق ثلاثا قبل موتي بشهر هي طالق الساعة كان سعيد بن المسيب والزهري لا يوقتون في الطلاق قال مهنا فقلت له أفتتزوج هذه التي قال لها أنت طالق قبل موتي بشهر قال لا ولكن يمسك عن الوطء أبدا حتى يموت هذا لفظه وهو في غاية الاشكال فانه قد أوقع عليها الطلاق منجزا فكيف يمنعها من التزويج وقوله يمسك عن الوطء أبدا يدل على انها زوجته الا أنه لا يطأها وهذا لا يكون مع وقوع الطلاق فان الطلاق اذا وقع زالت أحكام الزوجية كلها فقد قال أخذ بالاحتياط فأوقع الطلاق ومنعها من التزويج للخلاف في ذلك فحرم وطأها وهو أثر الطلاق ومنعها من التزويج لان النكاح لم ينقطع باجماع

وبصرها أي قدر ذلك وكتبه وأعلم به ثم فعله به بعد الاربعين الثالثة ويكون المراد به أي الاربعين الاربعين الاولى وحقيقة التصوير فيها فيتعين حمله على تصوير خفي لا يدركه احساس البشر فان النطفة اذا جاوزت الاربعين انتقلت علقة وحينئذ يكون أول مبدأ التخليق فيكون مع هذا المبدأ مبدأ التصوير الخفي الذي لا يناله الحس ثم اذا مضت الاربعون الثالثة صورت التصوير المحسوس المشاهد فأحد التقديرات الثلاثة يتعين ولا بد ولا يجوز غير هذا البتة اذ العلقة لا سمع فيها ولا بصر ولا جلد ولا عظم وهذا التقدير الثالث أليق بألفاظ الحديث وأشبه وأدل على القدر والله أعلم بمراد رسوله غير انا لا نشك ان التخليق المشاهد والتقسيم الى الجلد والعظم واللحم انما يكون بعد الاربعين الثالثة والمقصود ان كتابة الشقاوة والسعادة وما هو لاق عند أول تخليقه ويحتمل وجها رابعا وهو أن النطفة في الاربعين الاولى لا يتعرض اليها ولا يعتنى بشأنها فاذا جاوزتها وقعت في أطوار التخليق طورا بعد طور ووقع حينئذ التقدير والكتابة فحديث ابن مسعود صريح بأن وقوع ذلك بعد الطور الثالث عند تمام كونها مضغة وحديث حذيفة بن أسيد وغيره من الاحاديث المذكورة انما فيه وقوع ذلك بعد الاربعين ولم يوقت فيها البعدية بل أطلقها وقد قيدها ووقتها في حديث ابن مسعود والمطلق في مثل هذا يحمل على المقيد بلا ريب فأخبر بما تكون النطفة بعد الطور الاول من تفاصيل شأنها وتخليقها وما يقدر لها وعليها وذلك يقع في أوقات متعددة وكله بعد الاربعين الاولى وبعضه متقدم على بعض كما أن كونها علقة متقدم على كونها مضغة وكونها مضغة متقدم على تصويرها والتصوير متقدم على نفخ الروح مع ولا

ولانص ووجه هذا انه اذا كان الطلاق ثلاثا لم يحل وطؤها بعد الاجل فيصير حال الوطء مؤقتا وان كان رجعيا جاز له وطؤها بعد الاجل فلا يصير الحال مؤقتا وهذا أفقه من القول الاول والقول الرابع أنها لاتطلق الا عند مجيء الاجل وهو قول الجمهور وانما تنازعوا هل هو مطلق في الحال ومجيء الوقت شرط لنفوذ الطلاق كما لو وكله في الحال وقال لا يتصرف الى رأس الشهر فمجيء الشهر شرط لنفوذ تصرفه لا لحصول الوكالة بخلاف ما اذا قال اذا جاء رأس الشهر فقد وكلتك ولهذا يفرق الشافعي بينهما فيصحح الاولى ويبطل الثانية أو يقال ليس مطلقا في الحال وانما هو مطلق عند مجيء الاجل فيقدر حينئذ أنه قال أنت طالق فيكون حصول الشرط وتقدير حصول أنت طالق معا فعلى التقدير الاول السبب تقدم وتأخر شرط تأثيره وعلى التقدير الثاني نفس السبب تأخر تقديرا الى مجيء الوقت وكأنه قال اذا جاء رأس الشهر فحينئذ أنا قائل لك أنت طالق فاذا جاء رأس الشهر قدر قائلا لذلك اللفظ المتقدم فذهب الحنفية ان الشرط يمتنع به وجود العلة فاذا وجد الشرط وجدت العلة فيصير وجودها مضافا الى الشرط وقبل تحققه لم يكن المعلق عليه علة بخلاف الوجوب فانه ثابت قبل مجيء الشرط فاذا قال ان دخلت الدار فأنت طالق فالعلة للوقوع التلفظ بالطلاق والشرط الدخول وتأثيره في امتناع وجود العلة قبله فاذا وجد وجدت وأصحاب الشافعي يقولون أثر الشرط في تراخي الحكم والعلة قد وجدت وانما تراخى تأثيرها الى وقت مجيء الشرط فالمتقدم علة قد تأخر تأثيرها الى مجيء الشرط

(فصل) وأما ما أفتى به الحسن وابراهيم ومالك في احدى الروايتين عنه ان من شك هل انتقض وضوءه أم لا وجب عليه أن يتوضأ احتياطا ولا يدخل في الصلاة بطهارة مشكوك فيها فهذه مسألة نزاع بين الفقهاء وقد قال الجمهور ومنهم الشافعي وأحمد وأبو حنيفة وأصحابهم ومالك في الرواية الاخرى عنه أنه لايجب عليه الوضوء وله أن يصلي بذلك الوضوء الذي تيقنه وشك في انتقاضه واحتجوا بما رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اذا وجد أحدكم في بطنه شيأ فأشكل عليه أخرج منه شيء أم لا فلا يخرج من المسجد حتى يسمع صوتا أو يجد ريحا وهذا يعم المصلي وغيره وأصحاب القول الاول يقولون الصلاة ثابتة في ذمته بيقين وهو يشك في براءة الذمة منها بهذا الوضوء فانه على تقدير بقائه هي صحيحة وعلى تقدير انتقاضه باطلة فلم يتيقن براءة ذمته ولانه شك في شرط الصلاة هل هو ثابت أم لا فيدخل فيها بالشك والآخرون يجيبون عن هذا بانها صلاة مستندة الى طهارة معلومة قد شك في بطلانها فلا يلتفت الى الشك ولا يزيل اليقين به كما لو شك هل أصاب ثوبه أو بدنه نجس فانه لايجب عليه غسله وقد دخل في الصلاة بالشك ففرقوا بينهما بفرقين أحدهما ان اجتناب النجاسة ليس بشرط ولهذا لايجب نيته وانما هو مانع والاصل عدمه بخلاف الوضوء فانه شرط وقد شك في ثبوته فأين هذا من هذا الثاني انه قد كان قبل الوضوء محدثا وهو الاصل فيه فاذا شك في بقائه كان ذلك رجوعا الى الاصل وليس الاصل فيه النجاسة حتى نقول اذا شك في حصوله رجعنا الى أصل النجاسة فههنا يرجع الى أصل الطهارة وهنالك

ذلك فيه ص ان يقال ان النطفة بعد الاربعين تكون علقة ومضغة ويصور وتخلقها وتركب فيها العظام والجلد ويشق لها السمع والبصر وينفخ فيها الروح ويكتب شقاوتها وسعادتها وهذا لا يقتضي وقوع ذلك كله عقب الاربعين الاولى من غير فصل وهذا وجه حسن جدا والمقصود ان تقدير الشقاوة والسعادة والخلق والرزق سبق خروج العبد الى دار الدنيا فاسكنه الجنة أو النار وهو في بطن أمه وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال قال رسول الله ان الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة الحديث وفي صحيح البخاري عن أبي سعيد عن النبي قال ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة الا كان له بطانتان بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه والمعصوم من عصمه الله وفي سنن ابن ماجه عن عدي بن حاتم انه قال أتيت النبي فقال يا عدي اسلم تسلم قلت وما الاسلام قال تشهد أن لا اله الا الله واني رسول الله وتؤمن بالاقدار كلها خيرها وشرها وحلوها ومرها وفي صحيح البخاري من حديث عمرو بن تغلب قال أتى النبي صلى الله عليه وسلم مال فاعطى قوما ومنع آخرين فبلغه انهم عتبوا فقال اني أعطي الرجل وأدع الرجل والذي أدع أحب الي من الذي أعطي أعطي أقواما لما في قلوبهم من الجزع والهلع وأكل أقواما الى ما جعل الله في قلوبهم من القناعة والخير الحديث وفي الصحيحين من حديث عمران بن حصين عن النبي صلى الله عليه وسلم كان الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء وخلق السموات والارض وكتب في الذكر كل شيء وفي الصحيح عن ابن عباس أن النبي قال للاشج عبد القيس ان فيك لخلقين يحبهما الله الحلم والاناة قال يا رسول الله خلقين تخلقت بهما أم جبلت عليهما قال بل جبلت عليهما

ترجع الى أصل الحدث قال الآخرون أصل الحدث قد زال بيقين الطهارة فصارت هي الاصل فاذا شككنا في الحدث رجعنا اليه فأين هذا من الوسواس المذموم شرعا وعقلا وعرفا

(فصل) وأما قولكم ان من خفي عليه موضع النجاسة من الثوب وجب عليه غسله كله فليس هذا من باب الوسواس وانما ذلك من باب مالا يتم الواجب الا به فانه قد وجب عليه غسل جزء من ثوبه ولا يعلمه بعينه ولا سبيل الى العلم بأداء هذا الواجب الا بغسل جميعه

(فصل) وأما مسألة الثياب التي اشتبه الطاهر منها بالنجس فهذه مسألة نزاع فذهب مالك في رواية عنه وأحمد الى أنه يصلي في ثوب بعد ثوب حتى يتيقن أنه صلى في ثوب طاهر وقال الجمهور ومنهم أبو حنيفة والشافعي ومالك في الرواية الاخرى يتحرى فيصلي في واحد منها صلاة واحدة كما يتحرى في القبلة وقال المزني وأبو ثور بل يصلي عريانا ولا يصلي في شئ منها لان الثوب النجس في الشرع كالمعدوم والصلاة فيه حرام وقد عجز عن السترة بثوب طاهر فسقط فرض السترة وهذا أضعف الاقوال والقول بالتحري هو الراجح الظاهر سواء كثر عدد الثياب أو قل وهو اختيار شيخنا وابن عقيل يفصل فيقول ان كثر عدد الثياب تحرى رفعا للمشقة وان قل عمل باليقين قال شيخنا اجتناب النجاسة من باب المحظور فاذا تحرى وغلب على ظنه طهارة ثوب منها فصلى فيه لم يحكم ببطلان صلاته بالشك فان الاصل عدم النجاسة وقد شك فيها في هذا الثوب فيصلي فيه كما لو استعار ثوبا أو اشتراه ولا يعلم حاله وقول أبي ثور في غاية الفساد فانه لو تيقن نجاسة الثوب لكانت صلاته فيه خيرا وأحب الى الله من صلاته متجردا بادي السوأة للناظرين وبكل حال فليس هذا من الوسواس المذموم

(فصل) وأما مسألة اشتباه الاواني فكذلك ليست من باب الوسواس وقد اختلف فيها الفقهاء اختلافا متباينا فقال أحمد يتيمم ويتركهما وقال مرة يريقهما و يتيمم ليكون عادما للماء الطهور بيقين وقال أبو حنيفة ان كان عدد الاواني الطاهرة أكثر تحرى وان تساوت أو كثرت النجسة لم يتحر وهذا اختيار أبي بكر وابن شاقلا والنجاد من أصحاب أحمد وقال الشافعي و بعض المالكية يتحرى بكل حال وقال عبد الملك بن الماجشون يتوضأ بكل واحد منهما وضوأ و يصلي وقال محمد بن مسلمة من المالكية يتوضأ من أحدهما و يصلي ثم يغسل ما أصابه منه ثم يتوضأ من الآخر و يصلي وقالت طائفة منهم شيخنا يتوضأ من أيهما شاء بناء على ان الماء لا ينجس الا بالتغير فتستحيل المسألة وليس هذا موضع ذكر حجج هذه الاقوال وترجيح راجحها

(فصل) وأما اذا اشتبهت عليه القبلة فالذي عليه أهل العلم كلهم انه يجتهد ويصلي صلاة واحدة وشذ بعض الناس فقال يصلي أربع صلوات الى أربع جهات وهذا قول شاذ مخالف للسنة وانما التزمه قائله في مسألة اشتباه الثياب وهذا ونحوه من وجوه الالزامات عند المضايق طرد الدليل المستدل بما لا يلتفت اليها ولا يعول عليها ونظيره التزام من التزم اشتراط النية لازالة النجاسة لما ألزمهم أصحاب أبي حنيفة بذلك قال بعضهم نقول به

البخاري تعليقا وذكر البخاري أيضا عن ابن عباس في قوله تعالى أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون قال سبقت لهم السعادة وفي سنن أبي داود وابن ماجه من حديث عبد الله بن مسعود وحذيفة ابن اليمان وأبي بن كعب و زيد بن ثابت ان الله لو عذب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ولو رحمهم كانت رحمته لهم خيرا لهم من أعمالهم ولو أنفقت مثل أحد ذهبا في سبيل الله ماقبله الله منك حتى تؤمن بالقدر وتعلم ان ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك ولو مت على غير هذا لدخلت النار وقاله زيد بن ثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم وفي سنن أبي داود عن أبي حفص الشامي قال قال عبادة بن الصامت يابني انك لن تجد طعم الايمان حتى تعلم ان ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك سمعت رسول الله قال ان أول ما خلق الله القلم فقال له اكتب قال يارب وما أكتب قال اكتب مقادير كل شئ حتى تقوم الساعة يابني سمعت رسول الله يقول من مات على غير هذا فليس مني وفي الصحيحين عن علي قال كنا في جنازة نبهار سول الله ببقيع الغرقد فجاء رسول الله فجلس ومعه مخصرة فجعل ينكت بالمخصرة في الارض ثم رفع رأسه فقال مامنكم من أحد من نفس منفوسة الا قد كتب مكانها في النار أو في الجنة الا قد كتبت شقية أو سعيدة قال فقال رجل من القوم يانبي الله أولا نتكل على كتابنا وندع العمل فمن كان من أهل السعادة ليكونن الى السعادة ومن كان من أهل الشقاوة ليكونن الى الشقاوة قال اعملوا فكل ميسر أما أهل السعادة فييسرون للسعادة وأما أهل الشقاوة فييسرون

وتطيره ادراك الجمعة بادراك تكبيرة مع الامام لما ألزمت الحنيفية من نازعها فى ذلك بالتسوية بين الجمعة والجماعة التزمه بعضهم وقال نقول به

(فصل) وأما من ترك صلاة من يوم لا يعلم عينها فاختلف الفقهاء فى هذه المسئلة على أقوال أحدها انه يلزمه خمس صلوات نص عليه أحمد وهو قول مالك والشافعى وأبى حنيفة واسحق لانه لاسبيل له الى العلم ببراءة ذمته يقينا الا بذلك القول الثانى انه يصلى رباعية ينوى بها ما عليه ويجلس عقيب الثانية والثالثة والرابعة وهذا قول الاوزاعى وزفر بن الهذيل ومحمد بن مقاتل من الحنفية بناء على انه يخرج من الصلاة بدون الصلاة على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وبدون السلام وان نية الفرضية تكفى من غير تعيين كما فى الزكاة ولا يضر جلوسه عقيب الثالثة ان كانت المنسية رباعية لانه زيادة من جنس الصلاة لاعلى وجه العمد القول الثالث انه يجزيه أن يصلى فجرا أو مغربا ورباعية ينوى ما عليه وهذا قول سفيان الثورى ومحمد بن الحسن ويخرج على المذهب اذا قلنا بأن نية المكتوبة تكفى من غير تعيين وقد قال عبد الله بن أحمد سمعت أبى يسأل ما تقول فى رجل ذكر أن عليه صلاة لم يعينها فصلى ركعتين وجلس وتشهد ونوى بها الغداة ولم يسلم ثم قام فأتى بركعة وجلس فتشهد ونوى بها المغرب وقام ولم يسلم فأتى برابعة ثم جلس فتشهد ونوى بها ظهرا أو عصرا أو عشاء الآخرة ثم سلم فقال له أبى هذا يجزيه ويقضى عنه على مذهب العراقيين لانهم اعتمدوا فى التشهد على خبر ابن مسعود اذا قلت هذا فقد تمت صلاتك وأما على مذهب صاحبنا أبى عبد الله الشافعى ومذهبنا الا يجزئ عنه لانا نذهب الى قوله تحريمها التكبير وتحليلها التسليم ونذهب الى الصلاة على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فهاهنا لفظه قال أبو البركات هذا من أحمد يبين ان قضاء الواحدة لا يجزيه لتعذر التحليل المعتبر لا لفوت نية التعيين فاذا قضى ثلاثا كما قال الثورى اندفع المفسد بكل حال فليس فى هذا راحة للوسوسين

(فصل) وأما من شك فى صلاته فانه يبنى على اليقين لانه لا تبرأ ذمته منه بالشك وأما تحريم أكل الصيد اذا شك صاحبه هل مات بالجرح أو بالماء وتحريم أكله اذا خالط كلابه كلبا من غيره فهو الذى أمر به رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لانه قد شك فى سبب الحل والاصل فى الحيوان التحريم فلا يستباح بالشك فى شرط حله بخلاف ما اذا كان الاصل فيه الحل فانه لا يحرم بالشك فى سبب تحريمه كما لو اشترى ماء أو طعاما أو ثوبا لا يعلم حاله جاز شربه وأكله ولبسه وان شك هل تنجس أم لا فان الشرط متى شق اعتباره أو كان الاصل عدم المانع لم يلتفت الى ذلك فالاول كما اذا أتى بلحم لا يعلم هل سمى ذابحه أم لا وهل ذكاه فى الحلق واللبة واستوفى شروط الذكاة أم لا لم يحرم أكله لمشقة التفتيش عن ذلك وقد قالت عائشة رضى الله عنها يا رسول الله ان ناسا من الاعراب يأتوننا باللحم لا ندرى أذكروا اسم الله عليه أم لا فقال سموا انتم وكلوا مع انه قد نهى عن أكل ما لم يذكر عليه اسم الله تعالى والثانى كما ذكرنا من الماء والطعام واللباس فان الاصل فيها الطهارة وقد شك فى وجود المنجس فلا يلتفت اليه

(فصل) وأما ما ذكرتموه عن ابن عمر وأبى هريرة رضى الله عنهما فشئ تفردا به دون

للشقاوة ثم قرأ نبى الله فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى وفى السنن الاربعة عن مسلم بن يسار الجهنى ان عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم الآية فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سئل عنها فقال رسول الله خلق الله آدم ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون قال رجل يا رسول الله ففيم العمل فقال رسول الله ان الله تعالى اذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة واذا خلق العبد للنار [illegible] أهل النار [illegible] أعمال أهل النار فيدخله به النار وفى الترمذى عن أبى موسى الاشعرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الارض فجاء بنو آدم على قدر الارض جاء منهم الاحمر والابيض والاسود وبين ذلك والسهل والحزن والخبيث والطيب قال الترمذى حديث حسن صحيح وذكر الطبرى من حديث مالك ابن عبد ان رسول الله قال لابن مسعود لا يكثر همك [illegible] وما ترزق يأتك وذ[illegible] ابن شهاب عن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [illegible] ومبلغا وليس الى من [illegible] وخلق ابليس مزينا وليس [illegible] الضلالة شئ وقال ابن وهب أنبأنا عبد الرحمن بن سليمان عن عقيل عن عكرمة عن ابن عباس قال خرج النبى فسمع ناسا من أصحابه يذكرون القدر فقال انكم قد أخذتم فى شعبتين بعيدتى الغور فيهما هلك أهل الكتاب من قبلكم ولقد أخرج[illegible]

الصحابة ولم يوافق ابن عمر على ذلك أحد منهم وكان ابن عمر رضي الله عنه يقول ان بي وسواسا فلا تقتدوا بي وظاهر مذهب الشافعي وأحمد ان غسل داخل العينين في الوضوء لا يستحب وان أمن الضرر لانه لم ينقل عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم انه فعله قط ولا أمر به وقد نقل وضوءه جماعة كعثمان وعلي وعبد الله بن زيد والربيع بنت معوذ وغيرهم فلم ينقل أحد منهم انه غسل داخل عينيه وفي وجوبه في الجنابة روايتان عن أحمد أصحهما أنه لا يجب وهو قول الجمهور وعلى هذا فلا يجب غسلهما من النجاسة وأولى لان المضرة به أغلب لزيادة التكرار والمعالجة وقالت الشافعية والحنفية يجب لان اصابة النجاسة لهما تندر فلا يشق غسلهما منها وغالا بعض الفقهاء من أصحاب أحمد فأوجب غسلهما في الوضوء وهو قول لا يلتفت اليه ولا يعرج عليه والصحيح انه لا يجب غسلهما في وضوء ولا جنابة ولا من نجاسة وأما فعل أبي هريرة رضي الله عنه فهو شيء تأوله وخالفه فيه غيره وكانوا ينكرونه عليه وهذه المسئلة تلقب بمسئلة اطالة الغرة وان كانت الغرة في الوجه خاصة وقد اختلف الفقهاء في ذلك وفيها روايتان عن الامام أحمد احداهما يستحب اطالتهما وبها قال أبو حنيفة والشافعي واختارها أبو البركات ابن تيمية وغيره والثانية لا يستحب وهي مذهب مالك وهي اختيار شيخنا أبي العباس والمستحبون يحتجون بحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنتم الغر المحجلون يوم القيامة من أثر الوضوء فمن استطاع منكم فليطل غرته وتحجيله متفق عليه ولان الحلية تبلغ من المؤمن حيث يبلغ الوضوء قال النافون للاستحباب قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ان الله حد حدودا فلا تعتدوها والله سبحانه قد حد المرفقين والكعبين فلا ينبغي تعديهما ولان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لم ينقل من نقل عنه وضوءه انه تعداهما ولان ذلك أصل الوسواس ومادته ولان فاعله انما يفعله قربة وعبادة والعبادات مبناها على الاتباع ولان ذلك ذريعة الى الغسل الى الفخذ والكتف وهذا مما يعلم ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه لم يفعلوه ولا مرة واحدة ولان هذا من الغلو وقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم اياكم والغلو في الدين ولانه تعمق وهو منهي عنه ولانه عضو من أعضاء الطهارة فكره مجاوزته كالوجه وأما الحديث فراويه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه نعيم المجمر وقد قال لا أدري قوله فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل من قول رسول الله عليه السلام أو من قول أبي هريرة رضي الله عنه روى ذلك عنه الامام أحمد في المسند وأما حديث الحلية فالحلية المزينة ما كان في محله فاذا جاوز محله لم يكن زينة

(فصل) وأما قولكم ان الوسواس خير مما عليه أهل التفريط والاسترسال وتمشية الامر كيف اتفق الى آخره فلعمر الله انهما لطرفا افراط وتفريط وغلو وتقصير وزيادة ونقصان قد نهى الله سبحانه عن الامرين في غير موضع كقوله ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط وقوله وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا وقوله والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما وقوله وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين فدين الله بين الغالي فيه والجافي عنه وخير

كتابا فقال هذا كتاب من الله الرحمن الرحيم فيه تسمية أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم وعشائرهم فجمل على آخرهم لا ينقص منهم أحد فريق في الجنة وفريق في السعير وفي الترمذي عن ابن عباس قال ردفت رسول الله يوما فقال يا غلام ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده أمامك تعرف الى الله في الرخاء يعرفك في الشدة اذا سألت فاسأل الله واذا استعنت فاستعن بالله رفعت الاقلام وجفت الصحف لو جهدت الامة على ان ينفعوك بشيء لم ينفعوك الا بشيء قد كتبه الله لك ولو جهدت الامة على ان يضروك بشيء لم يضروك الا بشيء قد كتبه الله عليك واعلم ان النصر مع الصبر وان الفرج مع الكرب وان مع العسر يسرا وفي بعض روايات الحديث في غير الترمذي فلو ان الناس اجتمعوا على ان يعطوك شيأ لم يعطه الله لم يقدروا عليه ولو ان الناس اجتمعوا على ان يمنعوك شيأ قدره الله لك ما استطاعوا فاعبد الله مع الصبر على اليقين وقال علي ابن الجعد أنبأنا عبد الواحد ابن سليم البصري عن عطاء بن أبي رباح قال سألت عبادة بن الصامت كيف كانت وصية أبيك حين حضره الموت قال جعل يقول يا بني اتق الله واعلم انك لن تتقي الله وان تبلغ العلم حتى تعبد الله وحده وتؤمن بالقدر خيره وشره قلت يا أبت كيف لي ان أؤمن بالقدر خيره وشره قال تعلم ان ما أصابك لم يكن ليخطئك وان ما أخطأك لم يكن ليصيبك فان مت على غير هذا دخلت النار سمعت رسول الله يقول ان أول ما خلق الله القلم فقال له اكتب فقال ما أكتب فجرى تلك الساعة بما كان وما هو كائن الى الابد وذكر الطبري من حديث بقية نبأنا أبو بكر العبسي عن زيد بن أم حبيب ومحمد بن يزيد قالا ثنا نافع عن ابن عمر قال قالت أم سلمة يا رسول الله لا تزال نفسك في كل ....

الناس النمط الاوسط الذين ارتفعوا عن تقصير المفرطين ولم يلحقوا بغلو المعتدين وقد جعل الله سبحانه هذه الامة وسطا وهي الخيار العدل لتوسطها بين الطرفين المذمومين والعدل هو الوسط بين طرفي الجور والتفريط والآفات انما تتطرق الى الاطراف والاوساط محمية بأطرافها فخيار الامور أوساطها قال الشاعر

كانت هي الوسط المحمي فاكتنفت * بها الحوادث حتى أصبحت طرفا

(فصل) ومن أعظم مكايده التي كاد بها أكثر الناس وما نجا منها الا من لم يرد الله تعالى فتنته ما أوحاه قديما وحديثا الى حزبه وأوليائه من الفتنة بالقبور حتى آل الامر فيها الى ان عبد أربابها من دون الله وعبدت قبورهم واتخذت أوثانا وبنيت عليها الهياكل وصورت صور أربابها فيها ثم جعلت تلك الصور أجسادا لها ظل ثم جعلت أصناما وعبدت مع الله تعالى وكان أول هذا الداء العظيم في قوم نوح كما أخبر سبحانه عنهم في كتابه حيث يقول قال نوح رب انهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده الا خسارا ومكروا مكرا كبارا وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا وقد أضلوا كثيرا قال ابن جرير وكان من خبر هؤلاء فيما بلغنا ما حدثنا ابن حميد حدثنا مهران عن سفيان عن موسى عن محمد بن قيس ان يغوث ويعوق ونسرا كانوا قوما صالحين من بني آدم وكان لهم أتباع يقتدون بهم فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم لو صورناهم كان أشوق لنا الى العبادة اذا ذكرناهم فصوروهم فلما ماتوا وجاء آخرون دب اليهم ابليس فقال انما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم قال سفيان عن أبيه عن عكرمة قال كان بين آدم ونوح عليهما السلام عشرة قرون كلهم على الاسلام حدثنا ابن عبد الأعلى حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن قتادة في هذه الآية قال كانت آلهة يعبدها قوم نوح ثم عبدتها العرب بعد ذلك فكان ود لكلب بدومة الجندل وكان سواع لهذيل وكان يغوث لبني غطيف من مراد وكان يعوق لهمدان وكان نسر لذي الكلاع من حمير وقال الوالبي عن ابن عباس هذه أصنام كانت تعبد في زمان نوح عليه السلام وقال البخاري حدثنا ابراهيم بن موسى حدثنا هشام عن ابن جريج قال عطاء عن ابن عباس صارت الاوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد أما ود فكانت لكلب بدومة الجندل وأما سواع فكانت لهذيل وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجرف عند سبا وأما يعوق فكانت لهمدان وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان الى قومهم أن انصبوا الى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابا وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى اذا هلك أولئك ونسي العلم عبدت وقال غير واحد من السلف كان هؤلاء قوما صالحين في قوم نوح عليه السلام فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين فتنة القبور وفتنة التماثيل وهما الفتنتان اللتان أشار اليهما رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في الحديث المتفق على صحته عن عائشة رضي الله عنها ان أم سلمة رضي الله عنها ذكرت لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كنيسة رأتها بأرض الحبشة يقال لها مارية فذكرت له ما رأت فيها

علم وجمع من ثلث الشاة المسمومة التي أكلتها قال ما أصابني شيء منها الا وهو مكتوب علي وآدم في طينته وفي صحيح مسلم من حديث ابن عباس في خطبة النبي الحمد لله نحمده ونستعينه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وان محمدا عبده ورسوله وفي صحيحه أيضا عن زيد ابن أرقم كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها وفي صحيحه أيضا عن علي عن النبي صلى الله عليه وسلم في دعاء الاستفتاح اللهم اهدني لأحسن الاخلاق لا يهدي لأحسنها الا أنت واصرف عني سيئ الاخلاق لا يصرف عني سيئها الا أنت وفي الترمذي والمسند من حديث عمران بن حصين ان النبي صلى الله عليه وسلم علم أباه هذا الدعاء اللهم ألهمني رشدي وقني شر نفسي وروى سفيان الثوري عن خالد الحذاء عن عبد الله بن الحرث قال قام عمر بن الخطاب خطيبا فقال في خطبته من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وعنده الجاثليق يسمع ما يقول فقال فنفض ثوبه كهيئة المنكر فقال عمر ما تقولوا قالوا يا أمير المؤمنين يزعم ان الله لا يضل أحدا قال كذبت يا عدو الله بل الله خلقك وهو أضلك وهو يدخلك النار ان شاء الله أما والله لولا عهد لك لضربت عنقك ان الله خلق الخلق فخلق أهل الجنة وما هم عاملون وخلق أهل النار وما هم عاملون قال هؤلاء لهذه وهؤلاء لهذه وذكر الطبري عن أبي بكر الصديق قال خلق الله الخلق فكانوا في قبضته فقال لمن في يمينه ادخلوا الجنة بسلام وقال لمن في يده الاخرى ادخلوا النار ولا أبالي فذهبت الى يوم القيامة وقال ابن عمر جاء رجل الى أبي بكر فقال أرأيت الزنا بقدر الله فقال

من الصور فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أولئك قوم اذا مات فيهم العبد الصالح أو الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله تعالى وفي لفظ آخر في الصحيحين ان أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأينها فجمع في هذا الحديث بين التماثيل والقبور وهذا كان سبب عبادة اللات فروى ابن جرير باسناده عن سفيان عن منصور عن مجاهد أفرأيتم اللات والعزى قال كان يلت لهم السويق فمات فعكفوا على قبره وكذلك قال أبو الجوزاء عن ابن عباس رضي الله عنه كان يلت السويق للحاج فقد رأيت ان سبب عبادة يغوث ويعوق ونسرا واللات انما كانت من تعظيم قبورهم ثم اتخذوا لها التماثيل وعبدوها كما أشار اليه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال شيخنا وهذه العلة التي لاجلها نهى الشارع عن اتخاذ المساجد على القبور هي التي أوقعت كثيرا من الامم اما في الشرك الاكبر أو فيما دونه من الشرك فان النفوس قد أشركت بتماثيل القوم الصالحين وتماثيل يزعمون انها طلاسم للكواكب ونحو ذلك فان الشرك بقبر الرجل الذي يعتقد صلاحه أقرب الى النفوس من الشرك بخشبة أو حجر ولهذا تجد أهل الشرك كثيرا يتضرعون عندها ويخشعون ويخضعون ويعبدون بقلوبهم عبادة لا يفعلونها في بيوت الله ولا وقت السحر ومنهم من يسجد لها وأكثرهم يرجون من بركة الصلاة عندها والدعاء ما لا يرجونه في المساجد فلاجل هذه المفسدة حسم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم مادتها حتى نهى عن الصلاة في المقبرة مطلقا وان لم يقصد المصلي بركة البقعة بصلاته كما يقصد بصلاته بركة المساجد كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس وغروبها لانها أوقات يقصد المشركون الصلاة فيها للشمس فنهى أمته عن الصلاة حينئذ وان لم يقصد ما قصده المشركون سدا للذريعة قال وأما اذا قصد الرجل الصلاة عند القبور متبركا بالصلاة في تلك البقعة فهذا عين المحادة لله ورسوله والمخالفة لدينه وابتداع دين لم يأذن به الله تعالى فان المسلمين قد أجمعوا على ما علموه بالاضطرار من دين رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ان الصلاة عند القبور منهي عنها وانه لعن من اتخذها مساجد فمن أعظم المحدثات وأسباب الشرك الصلاة عندها واتخاذها مساجد وبناء المساجد عليها فقد تواترت النصوص عن النبي عليه السلام بالنهي عن ذلك والتغليظ فيه فقد صرح عامة الطوائف بالنهي عن بناء المساجد عليها متابعة منهم للسنة الصحيحة الصريحة وصرح أصحاب أحمد وغيرهم من أصحاب مالك والشافعي بتحريم ذلك وطائفة أطلقت الكراهة والذي ينبغي أن تحمل على كراهة التحريم احسانا للظن بالعلماء وأن لا يظن بهم ان يجوزوا فعل ما تواتر عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لعن فاعله والنهي عنه ففي صحيح مسلم عن جندب بن عبد الله البجلي قال سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قبل أن يموت بخمس وهو يقول اني أبرأ الى الله أن يكون لي منكم خليل فان الله تعالى قد اتخذني خليلا كما اتخذ ابراهيم خليلا ولو كنت متخذا من أمتي خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ألا وان من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فاني أنهاكم عن ذلك وعن عائشة وعبد الله بن عباس قالا لما نزل برسول الله

ذكر عنده القدر يوما فأدخل أصبعيه السبابة والوسطى في فيه فرقم بهما باطن يده فقال اشهد ان هاتين الرقمتين كانتا في أم الكتاب وذكر عنه أيضا انه قال ان أحدكم لن يخلص الايمان الى قلبه حتى يستيقن يقينا غير ظن ان ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه ويقر بالقدر كله وذكر البخاري عن ابن مسعود انه قال في خطبته الشقي من شقي في بطن أمه والسعيد من وعظ بغيره وقال ابن مسعود لان أعض على جمرة أو ان أقبض عليها حتى تبرد في يدي أحب الى من أن أقول لشيء قضاه الله ليته لم يكن وقال لا يطعم رجل طعم الايمان حتى يؤمن بالقدر ويعلم انه ميت وانه مبعوث من بعد الموت وقال الاعمش عن ابن مسعود ان العبد ليهم بالامر من التجارة والامارة حتى يتيسر له نظر الله اليه من فوق سبع سموات فيقول للملائكة اصرفوا عنه فاني ان يسرته له أدخلته النار قال فيصرفه الله عنه قال فيقول من أين دهيت أو نحو هذا وما هو الا فضل الله سبحانه وذكر الزهري عن ابراهيم ابن عبد الرحمن بن عوف ان عبد الرحمن بن عوف مرض مرضا شديدا أغمي عليه وأفاق فقال أغمي علي قالوا نعم قال انه أتاني رجلان غليظان فأخذا بيدي فقالا انطلق نحاكمك الى العزيز الامين فانطلقا بي فلقاهما رجل فقال أين تريدان به قالا نحاكمه الى العزيز الامين فقال دعاه فان هذا ممن سبقت له السعادة وهو في بطن أمه وقال ابن جريج عن ابن طاوس عن أبيه قال اشهد لسمعت ابن عباس يقول

صلى الله تعالى عليه وسلم طفق يطرح خميصة له على وجهه فاذا اغتم كشفها فقال وهو كذلك لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما صنعوا متفق عليه وفي الصحيحين أيضا عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال قاتل الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد وفي رواية مسلم لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد فقد نهى عن اتخاذ القبور مساجد في آخر حياته ثم انه لعن وهو في السياق من فعل ذلك من أهل الكتاب ليحذر أمته أن يفعلوا ذلك قالت عائشة رضي الله عنها قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في مرضه الذي لم يقم منه لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ولولا ذلك لابرز قبره غير انه خشي أن يتخذ مسجدا متفق عليه وقولها خشي هو بضم الخاء تعليلا لمنع ابراز قبره وروى الامام أحمد في مسنده باسناد جيد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال ان من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء والذين يتخذون القبور مساجد وعن زيد بن ثابت ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد رواه الامام أحمد وعن ابن عباس قال لعن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج رواه الامام أحمد وأهل السنن وفي صحيح البخاري ان عمر بن الخطاب رأى أنس بن مالك يصلي عند قبر فقال القبر القبر وهذا يدل على انه كان من المستقر عند الصحابة رضي الله عنهم ما نهاهم عنه نبيهم من الصلاة عند القبور وفعل أنس رضي الله عنه يدل على اعتقاده جوازه فانه لعله لم يره أو لم يعلم انه قبر اوذهل عنه فلما نبهه عمر رضي الله تعالى عنه تنبه وقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الارض كلها مسجد الا المقبرة والحمام رواه الامام أحمد وأهل السنن الاربعة وصححه أبو حاتم بن حبان وأبلغ من هذا انه نهى عن الصلاة الى القبر فلا يكون بين المصلي وبين القبلة فروى مسلم في صحيحه عن أبي مرثد الغنوي رحمه الله أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا اليها وفي هذا ابطال قول من زعم ان النهي عن الصلاة فيها لاجل النجاسة فهذا أبعد شئ عن مقاصد الرسول وهو باطل من عدة أوجه منها ان الاحاديث كلها ليس فيها فرق بين المقبرة الحديثة والمنبوشة كما يقوله المعللون بالنجاسة ومنها أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لعن اليهود والنصارى على اتخاذ قبور أنبيائهم مساجد ومعلوم قطعا ان هذا ليس لاجل النجاسة فان ذلك لا يختص بقبور الانبياء ولان قبور الانبياء من أطهر البقاع وليس للنجاسة عليها طريق البتة فان الله حرم على الارض ان تأكل أجسادهم فهم في قبورهم طريون ومنها أنه نهى عن الصلاة اليها ومنها انه أخبر ان الارض كلها مسجد الا المقبرة والحمام ولو كان ذلك لاجل النجاسة لكان ذكر الحشوش والمجازر ونحوها أولى من ذكر القبور ومنها أن موضع مسجده صلى الله تعالى عليه وسلم كان مقبرة للمشركين فنبش قبورهم وسواها واتخذه مسجدا ولم ينقل ذلك التراب بل سوى الارض ومهدها وصلى فيه كما ثبت في الصحيحين عن أنس بن مالك قال لما قدم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم المدينة فنزل بأعلى

سعر أحدهم لانصونه ٧ ان الله عز وجل كان على عرشه قبل أن يخلق شيأ فخلق القلم فكتب ما هو كائن الى يوم القيامة فانما يجري الناس على أمر قد فرغ منه وقال ابن عباس أيضا القدر نظام التوحيد فمن وحد الله ولم يؤمن بالقدر كان كفره بالقضاء نقضا للتوحيد ومن وحد الله وآمن بالقدر كانت العروة الوثقى لا انفصام لها وقال عطاء بن أبي رباح كنت عند ابن عباس فجاءه رجل فقال يا ابن عباس أرأيت من صدني عن الهدى وأوردني دار الضلالة والردا ألا تراه قد ظلمني فقال ان كان الهدى شيأ كان لك عنده فمنعكه فقد ظلمك وان كان الهدى هو له يؤتيه من يشاء فلا يظلمك قم فلا تجالسني وقال عكرمة عن ابن عباس كان الهدهد يدل سليمان على الماء فقلت له فكيف ذلك الهدهد ينصب له الفخ عليه التراب فقال أعضك الله بهن أبيك اذا جاء القضاء ذهب البصر وقال الامام أحمد أنبأنا اسمعيل نبأ أبو هرون الغنوي نبأ سليمان الازدي عن أبي يحيي مولى بني عفراء قال أتيت ابن عباس ومعي رجلان من الذين يذكرون القدر أو ينكرونه فقلت يا ابن عباس ما تقول في القدر فان هؤلاء يسألونك عن القدر ان زنى وان شرب وان سرق قال فحسر قميصه حتى أخرج منكبيه وقال يا يحيي لعلك من الذين ينكرون ويكذبون به والله لو أعلم انك منهم أو هذين معك لجاهدتكم ان زنى فبقدر وان سرق فبقدر وان شرب الخمر فبقدر وصح عن ابن عمر أن يحيي بن يعمر قال له ان ناسا يقولون لا قدر وان الامر أنف فقال اذا لقيت أولئك فاخبرهم ان ابن عمر برئ منهم وانهم برآء منه وقد تقدم قول أبي بن كعب وحذيفة وابن مسعود وزيد بن ثابت لو أنفقت مثل جبل أحد ذهبا في سبيل الله ما قبل منك حتى تؤمن بالقدر وتعلم ان ما أصابك لم يكن ليخطئك وما

المدينة في حي يقال لهم بنو عمرو بن عوف فأقام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فيهم أربع عشرة ليلة ثم أرسل الى ملأ بني النجار فجاؤا متقلدين السيوف كأني أنظر الى النبي عليه السلام على راحلته وأبو بكر ردفه وملأ بني النجار حوله حتى ألقى بفناء أبي أيوب وكان يحب أن يصلي حيث أدركته الصلاة ويصلي في مرابض الغنم وانه أمر ببناء المسجد فأرسل الى ملأ بني النجار فقال يابني النجار ثامنوني بحائطكم هذا قالوا لا والله لا نطلب ثمنه الا الى الله فكان فيه ما أقول لكم قبور المشركين وغيره وأما المكان فكما روى أبو داود في سننه أن رجلا قال يارسول الله اني نذرت أن أنحر ببوانة فقال أبها وثن من أوثان المشركين أو عيد من أعيادهم قال لا قال فأوف بنذرك ولقوله لاتجعلوا قبري عيدا والعيد مأخوذ من المعاودة والاعتياد فاذا كان اسما للمكان فهو المكان الذي يقصد الاجتماع فيه واتيانه للعبادة أو لغيرها كما ان المسجد الحرام ومنى ومزدلفة وعرفة والمشاعر جعلها الله تعالى عيدا للحنفاء ومثابة كما جعل أيام التعيد فيها عيدا وكان للمشركين أعياد زمانية ومكانية فلما جاء الله بالاسلام أبطلها وعوض الحنفاء منها عيد الفطر وعيد النحر وأيام منى كما عوضهم عن أعياد المشركين المكانية بالكعبة البيت الحرام وعرفة ومنى والمشاعر فاتخاذ القبور عيدا هو من أعياد المشركين التي كانوا عليها قبل الاسلام وقد نهى عنه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في سيد القبور منبها به على غيره فقال أبو داود حدثنا أحمد بن صالح قال قرأت على عبد الله بن نافع أخبرني ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لاتجعلوا بيوتكم قبورا ولاتجعلوا قبري عيدا وصلوا علي فان صلاتكم تبلغني حيث كنتم صلى الله تعالى عليه وسلم وهذا اسناد حسن رواته كلهم ثقات مشاهير وقال أبو يعلى الموصلي في مسنده حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا زيد بن الحباب حدثنا جعفر بن ابراهيم من ولد ذي الجناحين حدثنا علي بن الحسين انه رأى رجلا يجيء الى فرجة كانت عند قبر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فيدخل فيها فيدعو فنهاه وقال ألا أحدثكم حديثا سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال لا تتخذوا قبري عيدا ولا بيوتكم قبورا فان تسليمكم يبلغني أينما كنتم رواه أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي في مختارته وقال سعيد بن منصور في السنن حدثنا حبان بن علي حدثني محمد بن عجلان عن أبي سعيد مولى المهري قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لاتتخذوا بيتي عيدا ولا بيوتكم قبورا وصلوا علي حيثما كنتم فان صلاتكم تبلغني وقال سعيد حدثنا عبد العزيز بن محمد أخبرني سهيل بن أبي سهيل قال رآني الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عند القبر فناداني وهو في بيت فاطمة يتعشى فقال هلم الى العشاء فقلت لا أريده فقال مالي رأيتك عند القبر فقلت سلمت على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقال اذا دخلت المسجد ثم قال ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال لاتتخذوا بيتي عيدا ولا تتخذوا بيوتكم مقابر لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد وصلوا علي فان صلاتكم تبلغني حيثما كنتم ما أنتم ومن بالاندلس الا سواء فهذان المرسلان من هذين الوجهين المختلفين يدلان على ثبوت الحديث لاسيما

وقد

أخطأك لم يكن ليصيبك وانك ان مت على غير ذلك دخلت النار وتقدم قول عبادة بن الصامت لن تؤمن حتى تؤمن بالقدر خيره ونشره وتعلم ان ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك وقال قتادة عن أبي السوار عن الحسن بن علي قال قضي القضاء وجف القلم وأمور بقضاء في كتاب قد خلا وقال عمرو ابن العاص انتهى عجبي الى ثلاث المرء يفر من القدر وهو لاقيه ويرى في عين أخيه القذا فيعيبها ويكون في عينيه مثل الجذع فلا يعيبها ويكون في دابته الظلع فيقومها جهده ويكون في نفسه الظلع فلا يقومها قال أبو الدرداء ذروة الايمان أربع الصبر للحكم والرضا بالقدر والاخلاص للتوكل والاستسلام للرب وقال الحجاج الازدي سألنا سلمان ما الايمان بالقدر فقال ان تعلم ان ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك وقال سلمان أيضا ان الله لما خلق آدم مسح ظهره فأخرج منه ذراري الى يوم القيامة وكتب الآجال والاعمال والارزاق والشقاوة والسعادة فمن علم السعادة فعل الخير ومجالس الخير ومن علم الشقاوة عمل الشر ومجالس الشر وقال جابر بن عبد الله لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر كله خيره وشره وما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه وقال هشام عن أبيه عن عائشة ان العبد ليعمل الزمان بعمل أهل الجنة وانه عند الله مكتوب من أهل النار والآثار في ذلك أكثر من أن تذكر وانما أشرنا الى بعضها اشارة

(فصل) فالجواب ان ههنا مقامين مقام ايمان وهدى ونجاة ومقام ضلال وردى وهلاك زلت فيه أقدام فهوت بأصحابها الى دار الشقاء فأما مقام الايمان والهدى والنجاة فمقام اثبات القدر والايمان به واسناد جميع الكائنات الى مشيئة

وقد احتج من أرسله به وذلك يقتضي ثبوته عنده هذا لو لم يكن روى من وجوه مسندة غير هذين فكيف وقد تقدم مسندا قال شيخ الاسلام قدس الله روحه ووجه الدلالة ان قبر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أفضل قبر على وجه الارض وقد نهى عن اتخاذه عيدا فقبر غيره أولى بالنهي كائنا من كان ثم انه قرن ذلك بقوله ولا تتخذوا بيوتكم قبورا أي لا تعطلوها من الصلاة فيها والدعاء والقراءة فتكون بمنزلة القبور فأمر بتحري النافلة في البيوت ونهى عن تحري العبادة عند القبور وهذا ضد ما عليه المشركون من النصارى وأشباههم ثم انه عقب النهي عن اتخاذه عيدا بقوله وصلوا علي فان صلاتكم تبلغني حيثما كنتم يشير بذلك الى أن ما ينالني منكم من الصلاة والسلام يحصل مع قربكم من قبري و بعدكم فلا حاجة الى اتخاذه عيدا وقد حرف هذه الاحاديث بعض من أخذ شبها من النصارى بالشرك وشبها من اليهود بالتحريف فقال هذا أمر بملازمة قبره والعكوف عنده واعتياد قصده وانتيابه ونهى ان يجعل كالعيد الذي انما يكون في العام مرة أو مرتين فكأنه قال لا تجعلوه بمنزلة العيد الذي يكون من الحول الى الحول واقصدوه كل ساعة وكل وقت وهذا مراغمة ومحادة ومناقضة لما قصده الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم وقلب للحقائق ونسبة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم الى التدليس والتلبيس بعد التناقض فقاتل الله أهل الباطل أنى يؤفكون ولا ريب ان من أمر الناس باعتياد أمر وملازمته وكثرة انتيابه فقوله لا تجعلوه عيدا فهو الى التلبيس وضد البيان أقرب منه الى الدلالة والبيان فان لم يكن هذا تنقيصا فليس للتنقيص حقيقة فينا كمن يرى أنصار الرسول وحزبه بداية ومصابة ٧وينسل كأنه بريء ولا ريب ان ارتكاب كل كبيرة بعد الشرك أسهل اثما وأخف عقوبة من تعاطي مثل ذلك في دينه وسنته وهكذا غيرت ديانات الرسل ولولا ان الله أقام لدينه الانصار والاعوان الذابين عنه لجرى عليه ما جرى على الاديان قبله ولو أراد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما قاله هؤلاء الضلال لم ينه عن اتخاذ قبور الانبياء مساجد ويلعن فاعل ذلك فانه اذا لعن من اتخذها مساجد يعبد الله فيها فكيف يأمر بملازمتها والعكوف عندها وان يعتاد قصدها وانتيابها ولا تجعل كالعيد الذي يجيء من الحول الى الحول وكيف يسأل ربه أن لا يجعل قبره وثنا يعبد وكيف يقول اعلم الخلق بذلك ولولا ذلك لابرز قبره ولكن خشي أن يتخذ مسجدا وكيف يقول لا تجعلوا قبري عيدا وصلوا علي حيثما كنتم وكيف لم يفهم أصحابه وأهل بيته من ذلك ما فهمه هؤلاء الضلال الذين جمعوا بين الشرك والتحريف وهذا أفضل التابعين من أهل بيته علي بن الحسين رضي الله عنهما نهى ذلك الرجل أن يتحرى الدعاء عند قبره صلى الله تعالى عليه وسلم واستدل بالحديث وهو الذي رواه وسمعه من أبيه الحسين عن جده علي رضي الله عنه وهو أعلم بمعناه من هؤلاء الضلال وكذلك ابن عمه الحسن بن الحسن شيخ أهل بيته كره أن يقصد الرجل القبر اذا لم يكن يريد المسجد ورأى ان ذلك من اتخاذه عيدا قال شيخنا فانظر هذه السنة كيف مخرجها من أهل المدينة وأهل البيت الذين لهم من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قرب النسب وقرب الدار لانهم الى ذلك أحوج من غيرهم وكانوا له أضبط

(فصل) ثم ان في اتخاذ القبور أعيادا من المفاسد العظيمة التي لا يعلمها الا الله تعالى

ربهم او بارئهم او فاطرهم او ان ما شاء كان وان لم يشأ الناس وما لم يشأ لم يكن وان شاء الناس وهذه الآثار التي كانها تحقق هذا المقام وتبين ان من لم يؤمن بالقدر فقد انسلخ من التوحيد ولبس جلباب الشرك بل لم يؤمن بالله ولم يعرفه وهذا في كل كتاب أنزله الله على رسوله وأما المقام الثاني وهو مقام الضلال والردى والهلاك فهو الاحتجاج به على الله وحمل العبد ذنبه على ربه وتنزيه نفسه الجاهلة الظالمة الامارة بالسوء وجعل أرحم الراحمين وأعدل العادلين وأحكم الحاكمين وأغنى الاغنياء أضر على العباد من ابليس كما صرح به بعضهم واحتج عليه بما خصمه فيه من لا تدحض حجته ولا تطاق مغالبته حتى يقول قائل هؤلاء

ألقاه في اليم مكتوفا وقال له
اياك اياك أن تبتل بالماء

و يقول قائلهم

دعاني وسد الباب دوني فهل الى
دخولي سبيل بينوا لي قصتي

و يقول الآخر

وضعوا اللحم للبزاة على ذروتي عدن
ثم لاموا البزاة اذ خلعوا عنهم الرسن
لو أرادوا صيانتي
ستروا وجهك الحسن

وقال بعضهم وقد ذكر له من يخاف من افساده فقال لي خمس بنات لا أخاف على افسادهن غيره وصعد رجل يوما على سطح داره فأشرف على غلام له يفجر بجاريته فنزل وأخذهما ليعاقبهما فقال الغلام ان القضاء والقدر لم يدعانا حتى فعلنا ذلك فقال لعلمك بالقضاء والقدر أحب الي من كل شيء أنت حر لوجه الله ورأى آخر يفجر بامرأته فبادر ليأخذه فهرب فاقبل يضرب المرأة وهي تقول القضاء والقدر فقال يا عدوة الله أتزني وتعتذري بمثل هذا فقالت أوه تركت السنة وأخذت بمذهب ابن عباس فتنبه ورمى بالسوط من يده واعتذر اليها وقال لولا ذلك

ما يغضب لاجله كل من فى قلبه وقار لله تعالى وغيرة على التوحيد وتهجين وتقبيح للشرك ولكن ما لجرح بميت ايلام فمن مفاسد اتخاذها اعيادا الصلاة اليها والطواف بها وتقبيلها واستلامها وتعفير الخدود على ترابها وعبادة أصحابها والاستغاثة بهم وسؤالهم النصر والرزق والعافية وقضاء الديون وتفريج الكربات واغاثة اللهفات وغير ذلك من أنواع الطلبات التى كان عباد الاوثان يسألونها أوثانهم فلو رأيت غلاة المتخذين لها عيدا وقد نزلوا عن الاكوار والدواب اذا رأوها من مكان بعيد فوضعوا لها الجباه وقبلوا الارض وكشفوا الرؤس وارتفعت أصواتهم بالضجيج وتباكوا حتى تسمع لهم النشيج ورأوا انهم قد أربوا فى الربح على الحجيج فاستغاثوا بمن لا يبدى ولا يعيد ونادوا ولكن من مكان بعيد حتى اذا دنوا منها صلوا عند القبر ركعتين ورأوا أنهم قد أحرزوا من الاجر ولا أجر من صلى الى القبلتين فتراهم حول القبر ركعا سجدا يبتغون فضلا من الميت ورضوانا وقد ملؤا أكفهم خيبة وخسرانا فلغير الله بل للشيطان ما يراق هناك من العبرات ويرتفع من الاصوات ويطلب من الميت من الحاجات ويسأل من تفريج الكربات واغناء ذوى الفاقات ومعافاة أولى العاهات والبليات ثم انثنوا بعد ذلك حول القبر طائفين تشبيها له بالبيت الحرام الذى جعله الله مباركا وهدى للعالمين ثم أخذوا فى التقبيل والاستلام أرأيت الحجر الاسود وما يفعل به وفد البيت الحرام ثم عفروا لديه تلك الجباه والخدود الذى يعلم الله انها لم تعفر كذلك بين يديه فى السجود ثم كملوا مناسك حج القبر بالتقصير هنالك والحلاق واستمتعوا بخلاقهم من ذلك الوثن اذ لم يكن لهم عند الله من خلاق وقربوا لذلك الوثن القرابين وكانت صلاتهم ونسكهم وقربانهم لغير الله رب العالمين فلو رأيتهم يهنئ بعضهم بعضا ويقول أجزل الله لنا ولكم أجرا وافرا وحظا فاذا رجعوا سألهم غلاة المتخلفين أن يبيع أحدهم ثواب حجة القبر بحج المتخلف الى البيت الحرام فيقول لا ولو لم تحج كل عام هذا ولم نتجاوز فيما حكيناه عنهم ولا استقصينا جميع بدعهم وضلالهم اذ هى فوق ما يخطر بالبال أو يدور فى الخيال وهذا كان مبدأ عبادة الاصنام فى قوم نوح كما تقدم وكل من شم أدنى رائحة من العلم والفقه يعلم ان من أهم الامور سد الذريعة الى هذا المحذور وان صاحب الشرع أعلم بعاقبة ما نهى عنه وما يؤل اليه وأحكم فى نهيه عنه وتوعده عليه وان الخير والهدى فى اتباعه وطاعته والشر والضلال فى معصيته ومخالفته ورأيت لابى الوفاء بن عقيل فى ذلك فصلا حسنا فذكرته بلفظه قال لما صعبت التكاليف على الجهال والطغام عدلوا عن أوضاع الشرع الى تعظيم أوضاع وضعوها لانفسهم فسهلت عليهم اذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم قال وهم عندى كفار مثل تعظيم القبور والزامها بما نهى عنه الشرع من ايقاد النيران وتقبيلها وتخليقها وخطاب الموتى بالحوائج وكتب الرقاع فيها يا مولاى افعل بى كذا وكذا وأخذ تربتها تبركا وافاضة الطيب على القبور وشد الرحال اليها والقاء الخرق على الشجر اقتداء بمن عبد اللات والعزى والويل عندهم لمن لم يقبل مشهد الكف ولم يتمسح بآجرة مسجد المأموسة يوم الاربعاء ولم يقل الحمالون على جنازته الصديق أبو بكر أو محمد وعلى أو لم يعقد على قبر أبيه أزجا بالجص والآجر ولم يخرق ثيابه الى الذيل ولم يرق ماء الورد على القبر انتهى ومن جمع بين سنة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم

أضللت ورأى آخر رجلا يفجر بامرأته فقال ما هذا فقالت هذا قضاء الله وقدره فقال الخيرة فيما قضى الله فلقب بالخيرة فيما قضى الله وكان اذا دعى به غضب وقيل لبعض هؤلاء أليس هو يقول ولا يرضى لعباده الكفر فقال دعنا من هذا رضيه وأحبه وأراده وما أفسدنا غيره ولقد بالغ بعضهم فى ذلك حتى قال القدر عذر لجميع العصاة وانما مثلنا فى ذلك كما قيل

اذا مرضنا أتيناكم نعودكم
وتذنبون فنأتيكم فنعتذر

وبلغ بعض هؤلاء ان عليا مر بقتلى النهروان فقال بؤسا لكم لقد ضركم من غركم فقيل من غرهم فقال الشيطان والنفس الامارة بالسوء والامانى فقال هذا القائل كان على قدريا والا فالله غرهم وفعل بهم ما فعل وأوردهم تلك الموارد واجتمع جماعة من هؤلاء يوما فتذاكروا القدر فجرى ذكر الهدهد وقوله وزين لهم الشيطان أعمالهم فقال كان الهدهد قدريا أضاف العمل اليهم والتزيين الى الشيطان وجميع ذلك فعل الله وسئل بعض هؤلاء عن قوله تعالى لابليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى أمنعه ثم يسأله ما منعه قال نعم قضى عليه فى السر ما منعه فى العلانية ولعنه عليه قال له فما معنى قوله وماذا عليهم لو آمنوا بالله اذا كان هو الذى منعهم قال استهزاء بهم قال فما معنى قوله ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم قال قد فعل ذلك بهم من غير ذنب جنوه بل ابتدأهم بالكفر ثم عذبهم عليه وليس للآية معنى وقال بعض هؤلاء وقد عوتب على ارتكابه معاصى الله فقال ان كنت عاصيا لامره فانا مطيع لارادته وجرى عند بعض هؤلاء ذكر ابليس وابائه وامتناعه من السجود لآدم فاخذ الجماعة يلعنونه ويذمونه

وسلم فى القبور وما أمر به ونهى عنه وما كان عليه أصحابه وبين ما عليه أكثر الناس اليوم رأى أحدهما مضادا للآخر مناقضا له بحيث لا يجتمعان أبدا فنهى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن الصلاة الى القبور وهؤلاء يصلون عندها ونهى عن اتخاذها مساجد وهؤلاء يبنون عليها المساجد ويسمونها مشاهد مضاهاة لبيوت الله تعالى ونهى عن ايقاد السرج عليها وهؤلاء يوقفون الوقوف على ايقاد القناديل عليها ونهى أن يتخذ عيدا وهؤلاء يتخذون أعيادا ومناسك ويجتمعون لها كاجتماعهم للعيد أو أكثر وأمر بتسويتها كما روى مسلم فى صحيحه عن أبى الهياج الاسدى قال قال على بن أبى طالب رضى الله عنه ألا أبعثك على ما بعثنى عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن لا أدع تمثالا الا طمسته ولا قبرا مشرفا الا سويته وفى صحيحه أيضا عن ثمامة بن شفى قال كنا مع فضالة بن عبيد بأرض الروم برودس فتوفى صاحب لنا فأمر فضالة بقبره فسوى ثم قال سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يأمر بتسويتها وهؤلاء يبالغون فى مخالفة هذين الحديثين ويرفعونها من الارض كالبيت ويعقدون عليها القباب ونهى عن تجصيص القبر والبناء عليه كما روى مسلم فى صحيحه عن جابر قال نهى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن تجصيص القبر وأن يقعد عليه وان يبنى عليه بناء ونهى عن الكتابة عليها كما روى أبو داود فى سننه عن جابر رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم نهى أن تجصص القبور وان يكتب عليها قال الترمذى حديث حسن صحيح وهؤلاء يتخذون عليها الالواح ويكتبون عليها القرآن وغيره ونهى أن يزاد عليها غير ترابها كما روى أبو داود من حديث جابر أيضا ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم نهى أن يجصص القبر أو يكتب عليه أو يزاد عليه وهؤلاء يزيدون عليه سوى التراب الآجر والاحجار والجص ونهى عمر بن عبد العزيز أن يبنى القبر بآجر وأوصى أن لا يفعل ذلك بقبره وأوصى الاسود بن يزيد أن لا تجعلوا على قبرى آجرا وقال ابراهيم النخعى كانوا يكرهون الآجر على قبورهم وأوصى أبو هريرة حين حضرته الوفاة أن لا يضربوا على فسطاطا وكره الامام أن يضرب على القبر فسطاط والمقصود ان هؤلاء المعظمين للقبور والمتخذينها أعيادا الموقدين عليها السرج الذين يبنون عليها المساجد والقباب مناقضون لما أمر به رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم محادون لما جاء به وأعظم ذلك اتخاذها مساجد وايقاد السرج عليها وهو من الكبائر وقد صرح الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم بتحريمه قال أبو محمد المقدسى ولو أبيح اتخاذ السرج عليها لم يلعن من فعله ولان فيه تضييعا للمال فى غير فائدة وافراطا فى تعظيم القبور أشبه تعظيم الاصنام قال ولا يجوز اتخاذ المساجد على القبور لهذا الخبر ولان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما صنعوا متفق عليه ولان تخصيص القبور بالصلاة عندها يشبه تعظيم الاصنام بالسجود لها والتقرب اليها وقد روينا ان ابتداء عبادة الاصنام تعظيم الاموات باتخاذ صورهم والتمسح بها والصلاة عندها انتهى وقد آل الامر بهؤلاء الضلال المشركين الى أن شرعوا للقبور حجا ووضعوا له مناسك حتى صنف بعض غلاتهم فى ذلك كتابا وسماه مناسك حج المشاهد مضاهاة منه بالقبور للبيت الحرام ولا يخفى ان هذا مفارقة لدين

فقال الى متى هذا اللوم ولو خلى لسجد ولكن منع وأخذ يقيم عذره فقال بعض الحاضرين تبا لنساك اليوم أتذنب عن الشيطان وتلوم الرحمن وجاء جماعة الى منزل رجل من هؤلاء فلم يجدوه فلما رجع قال كنت أصلح بين قوم فقيل له وأصلحت بينهم قال أصلحت ان لم يغلب الله فقيل له بؤسا لك أتحسن الثناء على نفسك وتسىء الثناء على ربك ومر بلص مقطوع اليد على بعض هؤلاء فقال مسكين مظلوم أجبره على السرقة ثم قطع يده عليها وقيل لبعضهم أترى انه كلف عباده مالا يطيقون ثم يعذبهم عليه قال والله قد فعل ذلك ولكن لا نجسر أن نتكلم وأراد رجل من هؤلاء السفر فودع أهله وبكى فقيل استودعهم الله واستحفظهم اياه فقال ما أخاف عليهم غيره وقال بعض هؤلاء ذنبنا أذنبها أحب الى من عبادة الملائكة قيل ولم قال لعلمى بان الله قضاها على وقدرها ولم يقضها الا والخيرة لى فيها وقال بعض هؤلاء العارف لا ينكر منكرا لاستبصاره بسر الله فى القدر ولقد دخل شيخ من هؤلاء بلدا فاول ما بدأ به من الزيارات زيارة المواخير المشتملة على البغايا والخمور فجعل يقول كيف أنتم فى قدر الله وسمعت شيخ الاسلام ابن تيمية يقول عاتبت بعض شيوخ هؤلاء فقال لى المحبة نار تحرق من القلب ما سوى مراد المحبوب والكون كله مراده فاى شىء أبغض منه قال فقلت له اذا كان المحبوب قد أبغض بعض من فى الكون وعاداهم ولعنهم فأحببتهم أنت وواليتهم أكنت وليا للمحبوب أو عدوا له قال فكانما ألقم حجرا وقرأ قارئ بحضرة بعض هؤلاء قال يا ابليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى فقال هو والله منعه ولو قال ابليس ذلك لكان صادقا وقد أخطأ ابليس الحجة ولو كنت حاضرا لقلت له أنت منعته وسمع بعض هؤلاء قارئا يقرأ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى

الاسلام ودخول فى دين عبادة الاصنام فانظر الى هذا التباين العظيم بين ماشرعه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقصده من النهى عما تقدم ذكره فى القبور وبين ماشرعه هؤلاء وقصدوه ولاريب ان فى ذلك من المفاسد مايعجز العبد عن حصره فمنها تعظيمها الموقع فى الافتتان بها ومنها اتخاذها عيدا ومنها السفر اليها ومنها مشابهة عباد الاصنام بما يفعل عندها من العكوف عليها والمجاورة عندها وتعليق الستور عليها وسدانتها وعبادتها يرجحون المجاورة عندها على المجاورة عند المسجد الحرام ويرون سدانتها أفضل من خدمة المساجد والويل عندهم لقيمها ليلة تطفئ القنديل المعلق عليها ومنها النذر لها ولسدنتها ومنها اعتقاد المشركين بها أن بها يكشف البلاء وينصر على الاعداء ويستنزل غيث السماء ويفرج الكروب ويقضى الحوائج وينصر المظلوم ويجار الخائف الى غير ذلك ومنها الدخول فى لعنة الله تعالى ورسوله باتخاذ المساجد عليها وايقاد السرج عليها ومنها الشرك الاكبر الذى يفعل عندها ومنها ايذاء أصحابها بما يفعله المشركون بقبورهم فانهم يؤذيهم مايفعل عند قبورهم ويكرهونه غاية الكراهة كما ان المسيح يكره ماتفعله النصارى عند قبره وكذلك غيره من الانبياء والاولياء والمشايخ يؤذيهم مايفعله أشباه النصارى عند قبورهم ويوم القيامة يتبرؤن منهم كما قال تعالى ويوم نحشرهم ومايعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل قالوا سبحانك ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا قال الله للمشركين فقد كذبوكم بما تقولون وقال تعالى واذ قال الله ياعيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله قال سبحانك مايكون لى أن أقول ماليس لى بحق الآية وقال تعالى ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن اكثرهم بهم مؤمنون ومنها مشابهات اليهود والنصارى فى اتخاذ المساجد والسرج عليها ومنها محادة الله ورسوله ومناقضة ماشرعه فيها ومنها التعب العظيم مع الوزر الكثير والاثم العظيم ومنها اماتة السنن واحياء البدع ومنها تفضيلها على خير البقاع وأحبها الى الله فان عباد القبور يقصدونها من التعظيم والاحترام والخشوع ورقة القلب والعكوف بالهمة على الموتى بما لايفعلونه فى المساجد ولايحصل لهم فيها نظيره ولاقريب منه ومنها ان ذلك يتضمن عمارة المشاهد وخراب المساجد ودين الله الذى بعث به رسوله بضد ذلك ولهذا لما كانت الرافضة من أبعد الناس عن العلم والدين عمروا المشاهد وأخربوا المساجد ومنها ان الذى شرعه الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم عند زيارة القبور انما هو تذكر الآخرة والاحسان الى المزور بالدعاء له والترحم عليه والاستغفار له وسؤال العافية له فيكون الزائر محسنا الى نفسه والى الميت فقلب هؤلاء المشركون الامر وعكسوا الدين وجعلوا المقصود بالزيارة الشرك بالميت ودعاءه والدعاء به وسؤالهم حوائجهم واستنزال البركات منه ونصره لهم على الاعداء ونحو ذلك فصاروا مسيئين الى نفوسهم والى الميت ولو لم يكن الا حرمانه بركة ماشرعه الله تعالى من الدعاء له والترحم عليه والاستغفار له فاسمع الآن زيارة أهل الايمان التى شرعها الله تعالى على

...الهدى فقال ليس من هذا شئ بل أضلهم وأعماهم قالوا فما معنى الآية قال خرقة يخرق بها فيه فقال الله أكبر على الملاحدة أعداء الله حقا الذين ماقدروا الله حق قدره ولاعرفوه حق معرفته ولاعظموه حق تعظيمه ولانزهوه عما لايليق به وبغضوه الى عباده وبغضوهم اليه سبحانه وأساؤا الثناء عليه جهدهم وطاقتهم وهؤلاء خصماء الله حقا الذين جاء فيهم الحديث يقال يوم القيامة أين خصماء الله فيؤمر بهم الى النار قال شيخ الاسلام ابن تيمية فى تائيته

ويدعى خصوم الله يوم معادهم
الى النار طرا فرقة القدرية
سواء نفوه أوسعوا ليخاصموا
به الله أوماروا به للشريعة

وسمعته يقول القدرية المذمومون فى السنة وعلى لسان السلف هم هؤلاء الفرق الثلاثة نفاته وهم القدرية المجوسية والمعارضون به للشريعة الذين قالوا لوشاء الله ماأشركنا وهم القدرية المشركية والمخاصمون به للرب سبحانه وهم أعداء الله وخصومه وهم القدرية الابليسية وشيخهم ابليس وهو أول من احتج على الله بالقدر فقال بما أغويتنى ولم يعترف بالذنب ويبوء به كما اعترف به آدم فمن أقر بالذنب وباء به ونزه ربه فقد أشبه أباه آدم ومن أشبه أباه فما ظلم ومن برأ نفسه واحتج على ربه بالقدر فقد أشبه ابليس ولاريب ان هؤلاء القدرية الابليسية والمشركية شر من القدرية النفاة لان النفاة انما نفوه تنزيها للرب وتعظيما له أن يقدر الذنب ثم يلوم عليه ويعاقب ونزهوه ان يعاقب العبد على مالاصنع للعبد فيه البتة بل هو بمنزلة طوله وقصره وسواده وبياضه ونحو ذلك كما يحكى عن بعض الجبرية انه حضر مجلس بعض الولاة فأتى بطرار أحول فقال له الوالى ماترى فيه فقال اضربه خمسة عشر يعنى لسان

لسان رسوله ثم وازن بينها وبين زيارة أهل الاشراك التي شرعها لهم الشيطان واختر لنفسك قالت عائشة رضي الله عنها كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اذا كان ليلتي منه يخرج من آخر الليل الى البقيع فيقول السلام عليكم دار قوم مؤمنين وأتاكم ماتوعدون غدا مؤجلون وانا ان شاء الله بكم لاحقون اللهم اغفر لاهل بقيع الغرقد رواه مسلم وفي صحيحه عنها أيضا أن جبريل أتاه فقال ان ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم قالت قلت كيف أقول يارسول الله قال قولي السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين وانا ان شاء الله لاحقون وفي صحيحه أيضا عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يعلمهم اذا خرجوا الى المقابر أن يقولوا السلام على أهل الديار وفي لفظ السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وانا ان شاء الله بكم لاحقون نسأل الله لنا ولكم العافية وعن بريدة قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كنت نهيتكم عن زيارة القبور فمن أراد أن يزور فليزر ولا تقولوا هجرا رواه أحمد والنسائي وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد نهى الرجال عن زيارة القبور سدا للذريعة فلما تمكن التوحيد في قلوبهم أذن لهم في زيارتها على الوجه الذي شرعه ونهاهم أن يقولوا هجرا فمن زارها على غير الوجه المشروع الذي يحبه الله ورسوله فان زيارته غير مأذون فيها ومن أعظم الهجر الشرك عندها قولا وفعلا وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم زوروا القبور فانها تذكر الموت وعن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال اني كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فانها تذكر الآخرة رواه الامام أحمد وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنه قال مر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بقبور المدينة فاقبل عليهم بوجهه فقال السلام عليكم يا أهل القبور يغفر الله لنا ولكم ونحن بالاثر رواه أحمد والترمذي وحسنه وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروا القبور فانها تزهد في الدنيا وتذكر الآخرة رواه ابن ماجه وروى الامام أحمد عن أبي سعيد رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فان فيها عبرة فهذه الزيارة التي شرعها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لامته وعلمهم اياها هل تجد فيها شيأ مما يعتمده أهل الشرك والبدع أم تجدها مضادة لما هم عليه من كل وجه وما أحسن ما قال مالك بن أنس رحمه الله لن يصلح آخر هذه الامة الا ما أصلح أولها ولكن كلما ضعف تمسك الامم بعهود أنبيائهم عوضوا عن ذلك بما أحدثوه من البدع والشرك ولقد جرد السلف الصالح التوحيد وحموا جانبه حتى كان أحدهم اذا سلم على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ثم أراد الدعاء استقبل القبلة وجعل ظهره الى جدار القبر ثم دعا فقال سلمة بن وردان رأيت أنس بن مالك رضي الله عنه يسلم على النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ثم يسند ظهره الى جدار القبر ثم يدعو ونص على ذلك الائمة الاربعة انه يستقبل القبلة وقت الدعاء حتى لا يدعو عند القبر فان الدعاء عبادة وفي الترمذي وغيره مرفوعا الدعاء هو العبادة فجرد السلف العبادة لله ولم يفعلوا عند القبور منها الا ما أذن

سوطا فقال له بعض الحاضرين ممن ينفي الجبر بل ينبغي أن يضرب الاثنين سوطا خمسة عشر لطره ومثلها لحوله فقال [illegible] كيف يضرب على الحول ولا [illegible] فيه فقال كما يضرب على [illegible] ولا صنع له فيه عندك فبهت [illegible] وأما القدرية الابليسية والمشركية فكثير منهم منسلخ عن الشرع عدو لله ورسله لا يقر بأمر ولا نهي وتلك وراثة عن شيوخه الذين قال الله فيهم سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن وان أنتم الا تخرصون وقال تعالى وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل الا البلاغ المبين وقال تعالى وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم ان هم الا يخرصون وقال واذا قيل لهم انفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ان أنتم الا في ضلال مبين فهذه أربعة مواضع في القرآن بين سبحانه فيها ان الاحتجاج بالقدر من فعل المشركين المكذبين للرسل وقد افترق الناس في الكلام على هذه الآيات أربع فرق الفرقة الاولى جعلت هذه الحجة صحيحة وان للمحتج بها الحجة على الله ثم افترق هؤلاء فرقتين فرقة كذبت بالامر والوعد والوعيد وزعمت ان الامر والنهي [illegible] بعد هذا يكون ظلما [illegible] أحد [illegible] والوعيد وقالت [illegible] الا صنع له فيه بل يعذبه على ليس ذلك بظلم وانه يتصرف في ملكه كيف يشاء ويعذب

فيه رسول الله عليه السلام على أصحابها والاستغفار لهم والترحم عليهم وبالجملة فالميت قد انقطع عمله فهو محتاج الى من يدعو له و يشفع له ولهذا شرع في الصلاة عليه من الدعاء له وجوبا واستحبابا مالم يشرع مثله في الدعاء للحي قال عوف بن مالك صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على جنازة فحفظت من دعائه وهو يقول اللهم اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه وأكرم نزله ووسع مدخله واغسله بالماء والثلج والبرد ونقه من الخطايا كما نقيت الثوب الابيض من الدنس وأبدله دارا خيرا من داره وأهلا خيرا من أهله و زوجا خيرا من زوجه وأدخله الجنة وأعذه من عذاب القبر أو من عذاب النار حتى تمنيت أن أكون أنا الميت لدعاء رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على ذلك الميت رواه مسلم وقال أبو هريرة رضي الله تعالى عنه سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول في صلاته على الجنازة اللهم أنت ربها وأنت خلقتها وأنت هديتها للاسلام وأنت قبضت روحها وأنت أعلم بسرها وعلانيتها جئنا شفعاء فاغفر له رواه الامام أحمد وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال اذا صليتم على الميت فاخلصوا له الدعاء وقالت عائشة وأنس عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ما من ميت يصلي عليه أمة من المسلمين يبلغون مائة كلهم يشفعون له الا شفعوا فيه رواه مسلم وعن ابن عباس رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلا لا يشركون بالله شيأ الا شفعهم الله فيه رواه مسلم فهذا مقصود الصلاة على الميت وهو الدعاء له والاستغفار والشفاعة فيه ومعلوم انه في قبره أشد حاجة منه على نعشه فانه حينئذ معرض للسؤال وغيره وقد كان عليه السلام يقف على القبر بعد الدفن فيقول سلوا له التثبيت فانه الآن يسأل فعلم انه أحوج الى الدعاء له بعد الدفن فاذا كنا على جنازته ندعو له لا ندعو به ونشفع له لا نشفع به فبعد الدفن أولى وأحرى فبدل أهل البدع والشرك قولا غير الذي قيل لهم بدلوا الدعاء له بدعائه نفسه والشفاعة له بالاستشفاع به وقصدوا بالزيارة التي شرعها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم احسانا الى الميت واحسانا الى الزائر وتذكيرا بالآخرة سؤال الميت والاقسام به على الله وتخصيص تلك البقعة بالدعاء الذي هو مخ العبادة وحضور القلب عندها وخشوعه أعظم منه في المساجد وأوقات الاسحار ومن المحال أن يكون دعاء الموتى أو الدعاء بهم أو الدعاء عندهم مشروعا وعملا صالحا ويصرف عنه القرون الثلاثة المفضلة بنص رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ثم يرزقه الخلوف الذين يقولون مالا يفعلون و يفعلون مالا يؤمرون فهذه سنة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في أهل القبور بضعا وعشرين سنة حتى توفاه الله تعالى وهذه سنة خلفائه الراشدين وهذه طريقة جميع الصحابة والتابعين لهم باحسان هل يمكن بشرا على وجه الارض أن يأتي عن أحد منهم بنقل صحيح أو حسن أو ضعيف أو منقطع انهم كانوا اذا كان لهم حاجة قصدوا القبور فدعوا عندها وتمسحوا بها فضلا أن يصلوا عندها أو يسألوا الله بأصحابها أو يسألوهم حوائجهم فليوقفونا على أثر واحد أو حرف واحد في ذلك بل يمكنهم أن يأتوا عن الخلوف التي خلفت بعدهم بكثير من ذلك وكلما تأخر الزمان وطال العهد كان ذلك أكثر حتى لقد وجد في ذلك عدة مصنفات

فان هو سبحانه لا على نعل عبده اذا العبد لا فعل له والملك ملكه ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون فان هؤلاء الكفار انما قالوا هذه المقالة التي حكاها الله عنهم استهزاء منهم ولو قالوا اعتقادا للقضاء والقدر واسنادا لجميع الكائنات الى مشيئته وقدرته لم ينكر عليهم ومضمون قول هذه الفرقة أن هذه حجة صحيحة اذا قالوها على وجه الاعتقاد لا على جهة الاستهزاء فيكون للمشركين على الله الحجة وكفى بهذا القول فسادا و بطلانا الفرقة الثانية جعلت هذه الآيات حجة لها في ابطال القضاء والقدر والمشيئة العامة اذ لو صحت المشيئة العامة وكان الله قد شاء منهم الشرك والكفر وعبادة الاوثان لكانوا قد قالوا الحق وكان الله يصدقهم عليه ولم ينكر عليهم فحيث وصفهم بالخرص الذي هو الكذب ونفى عنهم العلم دل على ان هذا الذي قالوه ليس بصحيح وانهم كاذبون فيه اذ لو كان علما لكانوا صادقين في الاخبار به ولم يقل لهم هل عندكم من علم وجعلت هذه الفرقة هذه الآيات حجة لها على التكذيب بالقضاء والقدر وزعمت بها أن يكون في ملكه مالا يشاء و يشاء مالا يكون وانه لا قدرة له على افعال عباده من الانس والجن والملائكة ولا على افعال الحيوانات وانه لا يقدر أن يضل أحدا ولا يهديه ولا يوفقه أكثر مما فعل به ولا يعصمه من الذنوب والكفر ولا يلهمه رشده ولا يجعل في قلبه الايمان ولا هو الذي جعل المصلي مصليا والبر برا والفاجر فاجرا والمؤمن مؤمنا والكافر كافرا بل هم الذين جعلوا انفسهم كذلك فهذه الفرقة شاركت الفرقة التي قبلها في القاء الحرب والعداوة بين الشرع والقدر فالاولى تحيزت الى القدر وحاربت الشرع والثانية تحيزت

ليس فيها عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ولا عن خلفائه الراشدين ولا عن أصحابه حرف واحد من ذلك بل فيها من خلاف ذلك كثير كما قدمناه من الاحاديث المرفوعة وأما آثار الصحابة فأكثر من أن يحاط بها وقد ذكرنا انكار عمر رضي الله عنه على أنس رضي الله عنه صلاته عند القبر وقوله له القبر القبر وقد ذكر محمد بن اسحاق في مغازيه من زيادات يونس بن بكير عن أبي خلدة خالد بن دينار قال حدثنا أبو العالية قال لما فتحنا تستر وجدنا في بيت مال الهرمزان سريرا عليه رجل ميت عند رأسه مصحف له فأخذنا المصحف فحملناه الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فدعا له كعبا فنسخه بالعربية فانا أول رجل من العرب قرأه قرأته مثل ما أقرأ القرآن فقلت لابي العالية ما كان فيه قال سيرتكم وأموركم ولحون كلامكم وما هو كائن بعد قلت فما صنعتم بالرجل قال حفرنا بالنهار ثلاثة عشر قبرا متفرقة فلما كان الليل دفناه وسوينا القبور كلها لنعميه على الناس لا ينبشونه فقلت وما يرجون منه قال كانت السماء اذا حبست عنهم أبرزوا السرير فيمطرون فقلت من كنتم تظنون الرجل قال رجل يقال له دانيال فقلت مذ كم وجدتموه مات قال مذ ثلثمائة سنة قلت ما كان يغير منه شئ قال لا الا شعيرات من قفاه ان لحوم الانبياء لا تبليها الارض ولا تأكلها السباع ففي هذه القصة ما فعله المهاجرون والانصار من تعمية قبره لئلا يفتتن به الناس ولم يبرزوه للدعاء عنده والتبرك به ولو ظفر به المتأخرون لجالدوا عليه بالسيوف ولعبدوه من دون الله فهم قد اتخذوا من القبور أوثانا من لا يداني هذا ولا يقاربه وأقاموا لها سدنة وجعلوها معابد أعظم من المساجد فلو كان الدعاء عند القبور والصلاة عندها والتبرك بها فضيلة أو سنة أو مباحا لنصب المهاجرون والانصار هذا القبر علما لذلك ودعوا عنده وسنوا ذلك لمن بعدهم ولكن كانوا أعلم بالله ورسوله ودينه من الخلوف التي خلفت بعدهم وكذلك التابعون لهم باحسان راحوا على هذا السبيل وقد كان عندهم من قبور أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالامصار عدد كثير وهم متوافرون فما منهم من استغاث عند قبر صاحب ولا دعاه ولا دعا به ولا عنده ولا استشفى به ولا استنصر به ومن المعلوم ان مثل هذا مما تتوفر الهمم والدواعي على نقله بل على نقل ما هو دونه وحينئذ فلا يخلو اما أن يكون الدعاء عندها والدعاء بأربابها أفضل منه في غير تلك البقعة أو لا يكون فان كان أفضل فكيف خفي علما وعملا عن الصحابة والتابعين وتابعيهم فتكون القرون الثلاثة الفاضلة جاهلة بهذا الفضل العظيم وتظفر به الخلوف علما وعملا ولا يجوز أن يعلموه ويزهدوا فيه مع حرصهم على كل خير لا سيما الدعاء فان المضطر يتشبث بكل سبب وان كان فيه كراهة ما فكيف يكونون مضطرين في كثير من الدعاء وهم يعلمون فضل الدعاء عند القبور ثم لا يقصدونه هذا محال طبعا وشرعا فتعين القسم الآخر وهو انه لا فضل للدعاء عندها ولا هو مشروع ولا مأذون فيه بقصد الخصوص بل تخصيصها بالدعاء عندها ذريعة الى ما تقدم من المفاسد ومثل هذا مما لا يشرعه الله ورسوله البتة بل استحباب الدعاء عندها شرع عبادة لم يشرعها الله ولم ينزل بها سلطانا وقد أنكر الصحابة ما هو دون هذا بكثير فروى غير واحد عن المعرور بن سويد قال صليت مع عمر بن الخطاب رضي

الى الشرع وكذبت القدر والطائفتان ضالتان واحداهما أجهل من الأخرى والفرقة الثالثة آمنت بالقضاء والقدر وأقرت بالامر والنهي ونزلوا كل واحد منزلته فالقضاء والقدر يؤمن به ولا يحتج به والامر والنهي يمتثل ويطاع فالايمان بالقضاء والقدر عندهم من تمام التوحيد وشهادة أن لا اله الا الله والقيام بالامر والنهي موجب شهادة أن محمدا رسول الله وقالوا من لم يقر بالقضاء والقدر ويقم بالامر والنهي فقد كذب بالشهادتين وان نطق بهما بلسانه ثم افترقوا في وجه هذه الآيات فرقتين فرقة قالت انما أنكر عليهم استدلالهم بالمشيئة العامة والقضاء والقدر على رضاه ومحبته لذلك فجعلوا مشيئته له وتقديره دليلا على رضاه به ومحبته له اذ لو كرهه وأبغضه لحال بينه وبينهم فان الحكيم اذا كان قادرا على دفع ما يكرهه ويبغضه دفعه ومنع من وقوعه واذا لم يمنع من وقوعه لزم اما عدم قدرته واما عدم حكمته وكلاهما ممتنع في حق الله فعلم محبته لما نحن عليه من عبادة غيره ومن الشرك به وقد وافق هؤلاء من قال ان الله يحب الكفر والفسوق والعصيان ويرضى بها ولكن خالفهم في أنه نهى عنها وأمر باضدادها ويعاقب عليها فوافقهم في نصف قولهم وخالفهم في الشطر الآخر وهذه الآيات من أكبر الحجج على بطلان قول الطائفتين وان مشيئة الله تعالى العامة وقضاءه وقدره لا تستلزم محبته ورضاه لكل ما شاءه وقدره وهؤلاء المشركون لما استدلوا بمشيئته على محبته ورضاه كذبهم وأنكر عليهم وأخبر أنه لا علم لهم بذلك وانهم خارصون مفترون فان محبة الله الشيء ورضاه به انما يعلم بأمره به على لسان رسوله لا بمجرد خلقه فانه خلق ابليس وجنوده وهم أعداؤه وهو سبحانه يبغضهم

الله عنه فى طريق مكة صلاة الصبح فقرأ فيها ألم تر كيف فعل ربك ولئلاف قريش ثم رأى الناس يذهبون مذاهب فقال أين يذهب هؤلاء فقيل يا أمير المؤمنين مسجد صلى فيه عليه السلام فهم يصلون فيه فقال انما هلك من كان قبلكم بمثل هذا كانوا يتبعون آثار أنبيائهم و يتخذونها كنائس و بيعا فمن أدركته الصلاة منكم فى هذه المساجد فليصل ومن لا فليمض ولا يتعمدها وكذلك أرسل عمر رضى الله تعالى عنه فقطع الشجرة التى بايع تحتها أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بل قد أنكر رسول الله عليه السلام على الصحابة لما سألوه أن يجعل لهم شجرة يعلقون عليها أسلحتهم ومتاعهم بخصوصها فروى البخارى فى صحيحه عن أبى واقد الليثى قال خرجنا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قبل حنين ونحن حديثو عهد بكفر وللمشركين سدرة يعكفون حولها و ينوطون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط فمررنا بسدرة فقلنا يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الله أكبر هذا كما قالت بنو اسرائيل اجعل لنا الها كما لهم آلهة قال انكم قوم تجهلون لتركبن سنن من كان قبلكم فاذا كان اتخاذ هذه الشجرة لتعليق الاسلحة والعكوف حولها اتخاذ اله مع الله تعالى مع انهم لا يعبدونها ولا يسألونها فما الظن بالعكوف حول القبر والدعاء به ودعائه والدعاء عنده فأين من يشبه الفتنة بشجرة الى الفتنة بالقبر لو كان أهل الشرك والبدعة يعلمون قال بعض أهل العلم من أصحاب مالك فانظروا رحمكم الله أينما وجدتم سدرة أو شجرة يقصدها الناس و يعظمونها و يرجون البرء والشفاء من قبلها و يضربون بها المسامير والخرق فهى ذات أنواط فاقطعوها ومن له خبرة بما بعث الله تعالى به رسوله و بما عليه أهل الشرك والبدع اليوم فى هذا الباب وغيره علم أن بين السلف و بين هؤلاء الخلوف من البعد أبعد مما بين المشرق والمغرب وانهم على شئ والسلف على شئ كما قيل

سارت مشرقة وسرت مغربا ✱ شتان بين مشرق ومغرب

والامر والله أعظم مما ذكرنا وقد ذكر البخارى فى الصحيح عن أم الدرداء رضى الله عنها قالت دخل على أبو الدرداء مغضبا فقلت له مالك فقال والله ما أعرف فيهم شيأ من أمر محمد صلى الله تعالى عليه وسلم الا انهم يصلون جميعا وروى مالك فى الموطأ عن عمه أبى سهيل ابن مالك عن أبيه انه قال ما أعرف شيأ مما أدركت عليه الناس الا النداء بالصلاة يعنى الصحابة رضى الله عنهم وقال الزهرى دخلت على أنس بن مالك بدمشق وهو يبكى فقلت له ما يبكيك فقال ما أعرف شيأ مما أدركت الا هذه الصلاة وهذه الصلاة قد ضيعت ذكره البخارى وفى لفظ آخر ما كنت أعرف شيأ على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الا قد أنكرته اليوم وقال الحسن البصرى سأل رجل أبا الدرداء رضى الله عنه فقال رحمك الله لوان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بين أظهرنا هل كان ينكر شيأ مما نحن عليه فغضب واشتد غضبه وقال وهل كان يعرف شيأ مما أنتم عليه وقال المبارك بن فضالة صلى الحسن الجمعة وجلس فبكى فقيل له ما يبكيك يا أبا سعيد فقال تلوموننى على البكاء ولو أن رجلا من المهاجرين اطلع من باب مسجدكم ما عرف شيأ مما كان عليه على

ويفهم بنوعم نطقه فهكذا فى الافعال خلق خيرها وشرها وهو يحب خيرها و يأمر به و يثيب عليه و يبغض شرها و ينهى عنه و يعاقب عليه وكلاهما خلقه ولله الحكمة البالغة التامة فى خلقه ما يبغضه و يكرهه من الذوات والصفات والافعال كل صادر عن حكمته وعلمه كما هو صادر عن قدرته ومشيئته وقالت الفرقة الثانية انما أنكر عليهم معارضة الشرع بالقدر ودفع الامر بالمشيئة فلما قامت عليهم حجة الله ولزمهم أمره ونهيه دفعوه بقضائه وقدره فجعلوا القضاء والقدر ابطالا لدعوة الرسل ودفعا لما جاؤا به وشاركهم فى ذلك اخوانهم وذريتهم الذين يحتجون بالقضاء والقدر على المعاصى والذنوب فى نصف أقوالهم وخالفوهم فى النصف الآخر وهو اقرارهم بالامر والنهى فانظر كيف انقسمت هذه المواريث على هذه السهام وورث كل قوم أئمتهم واسلافهم اما فى جميع تركتهم واما فى كثير منها واما فى جزء منها وهدى الله بفضله ورثة أنبيائه ورسله لميراث نبيهم وأصحابه فلم يؤمنوا ببعض الكتاب و يكفروا ببعض بل آمنوا بقضاء الله وقدره ومشيئته العامة النافذة وانه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وانه مقلب القلوب ومصرفها كيف أراد وانه هو الذى جعل المؤمن مؤمنا والمصلى مصليا والمتقى متقيا وجعل أئمة الهدى يهدون بأمره وأئمة الضلالة يدعون الى النار وانه ألهم كل نفس فجورها وتقواها وانه يهدى من يشاء بفضله ورحمته و يضل من يشاء بعدله وحكمته وانه هو الذى وفق أهل الطاعة لطاعته فأطاعوه ولو شاء لخذلهم فعصوه وانه حال بين الكفار وقلوبهم فانه يحول بين المرء وقلبه فكفروا به ولو شاء لوفقهم فآمنوا

عهد

عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنتم اليوم عليه الا قبلتكم هذه وهذه هى الفتنة العظمى التى قال فيها عبد الله بن مسعود رضى الله عنه كيف أنتم اذا لبستكم فتنة يهرم فيها الكبير و ينشأ فيها الصغير تجرى على الناس يتخذونها سنة اذا غيرت قيل غيرت السنة أو هذا منكر وهذا مما يدل على ان العمل اذا جرى بخلاف السنة فلا عبرة به ولا التفات اليه فان العمل قد جرى على خلاف السنة منذ زمن أبى الدرداء وأنس كما تقدم وذكر أبو العباس أحمد بن يحيى حدثنى محمد بن عبيد بن ميمون حدثنى عبد الله بن اسحق الجعفرى قال كان عبد الله بن حسن يكثر الجلوس الى ربيعة قال فتذاكروا يوما السنن فقال رجل كان فى المجلس ليس العمل على هذا فقال عبد الله أرأيت ان كثر الجهال حتى يكونوا هم الحكام فهم الحجة على السنة فقال ربيعة أشهد أن هذا كلام أبناء الانبياء

(فصل) ومن أعظم مكايده ما نصبه للناس من الانصاب والازلام التى هى من عمله وقد أمر تعالى باجتناب ذلك. وعلق الفلاح باجتنابه فقال يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون فالانصاب كل ما نصب يعبد من دون الله من حجر أو شجر أو وثن أو قبر وهى جمع واحدها نصب كطنب واطناب قال مجاهد وقتادة وابن جريج كانت حول البيت أحجار كان أهل الجاهلية يذبحون عليها و يشرحون اللحم عليها وكانوا يعظمون هذه الحجارة و يعبدونها قالوا وليست بأصنام انما الصنم ما يصور و ينقش وقال ابن عباس هى الاصنام التى تعبد من دون الله تعالى وقال الزجاج حجارة كانت لهم يعبدونها وهى الاوثان وقال الفراء هى الالهة التى كانت تعبد من أحجار وغيرها وأصل اللفظة الشئ المنصوب الذى يقصده من رآه ومنه قوله تعالى يوم يخرجون من الاجداث سراعا كأنهم الى نصب يوفضون قال ابن عباس الى غاية أو علم يسرعون وهو قول أكثر المفسرين وقال الحسن يعنى الى نصابهم أيهم يستلمها أولا قال الزجاج وهذا على قراءة من قرأ نصب بضمتين كقوله وما ذبح على النصب قال ومعناه أصنام لهم والمقصود ان النصب كل شئ نصب من خشبة أو حجر أو علم والايفاض الاسراع وأما الازلام فقال ابن عباس رضى الله عنه هى اقداح كانوا يستقسمون بها الامور أى يطلبون بها علم قسم لهم وقال سعيد بن جبير كانت لهم حصيات اذا أراد أحدهم أن يغزو أو يجلس استقسم بها وقال أيضا هى القدحان اللذان كان يستقسم بهما أهل الجاهلية فى أمورهم أحدهما عليه مكتوب أمرنى ربى والآخر نهانى ربى فاذا أرادوا أمرا ضربوا بها فان خرج الذى عليه أمرنى فعلوا ما هموا به وان خرج الذى عليه نهانى تركوه وقال أبو عبيد الاستقسام طلب القسمة وقال المبرد الاستقسام أخذ كل واحد قسمه وقيل الاستقسام الزام أنفسهم بما تأمرهم به القداح كقسم اليمين وقال الازهرى وان تستقسموا بالازلام أى تطلبوا من جهة الازلام ما قسم لكم من أحد الامرين وقال أبو اسحاق الزجاج وغيره الاستقسام بالازلام حرام ولا فرق بين ذلك و بين قول المنجم لا تخرج من أجل نجم كذا واخرج من أجل طلوع نجم كذا لان الله تعالى يقول وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وذلك دخول فى علم الله عز وجل الذى هو غيب عنا فهو

به وأطاعوه وانه من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له وانه لو شاء لآمن من فى الارض كلهم جميعا ايمانا يثابون عليه ويقبل منهم ويرضى به عنهم وانه لو شاء ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون والقضاء والقدر عندهم أربع مراتب جاء بها نبيهم وأخبر بها عن ربه تعالى الاولى علمه السابق بما هم عاملوه قبل ايجادهم الثانية كتابة ذلك فى الذكر عنده قبل خلق السموات والارض الثالثة مشيئته المتناولة لكل موجود فلا خروج لكائن عن مشيئته كما لا خروج له عن علمه الرابعة خلقه له وايجاده وتكوينه فانه لا خالق الا الله والله خالق كل شئ فالخالق عندهم واحد وما سواه فمخلوق ولا واسطة عندهم بين الخالق والمخلوق و يؤمنون مع ذلك بحكمته وانه حكيم فى كل ما فعله وخلقه وان مصدر ذلك جميعه عن حكمة تامة هى التى اقتضت صدور ذلك وخلقه وان حكمته حكمة حق عائدة اليه قائمة به كسائر صفاته وليست عبارة عن مطابقة علمه لمعلومه وقدرته لمقدوره كما تقوله نفاة الحكمة الذين يقرون بلفظها دون حقيقتها بل هى أمر وراء ذلك وهى الغاية المحبوبة له المطلوبة التى هى متعلق محبته وحمده ولاجلها خلق فسوى وقدر فهدى وأمات وأحيى وأسعد وأشقى وأضل وهدى ومنع وأعطى وهذه الحكمة هى الغاية والفعل وسيلة اليها فاثبات الفعل مع نفيها اثبات للوسائل ونفى للغايات وهو محال اذ نفى الغاية مستلزم لنفى الوسيلة فنفى الوسيلة وهى الفعل لازم لنفى الغاية وهى الحكمة ونفى قيام الفعل والحكمة به نفى لهما فى الحقيقة اذ فعل لا يقوم بفاعله وحكمة لا تقوم بالحكيم شئ لا يعقل وذلك يستلزم انكار ربوبيته والهيته وهذا

حرام كالازلام التي ذكرها الله تعالى والمقصود ان الناس قد ابتلوا بالانصاب والازلام فالانصاب للشرك والعبادة والازلام للتكهن وطلب علم ما استأثر الله به هذه للعلم وتلك للعمل ودين الله تعالى سبحانه مضاد لهذا وهذا والذي جاء به رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ابطالهما وكسر الانصاب والازلام فمن الانصاب ما قد نصبه الشيطان للمشركين من شجرة أو عمود أو وثن أو قبر أو خشبة أو عين ونحو ذلك والواجب هدم ذلك كله ومحو أثره كما أمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عليا رضى الله عنه بهدم القبور المشرفة وتسويتها بالارض كما روى مسلم في صحيحه عن أبي الهياج الاسدي قال قال لي علي رضى الله عنه ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن لا أدع تمثالا الا طمسته ولا قبرا مشرفا الا سويته وعمى الصحابة بأمر عمر رضى الله عنه قبر دانيال واخفوه عن الناس ولما بلغه ان الناس ينتابون الشجرة التي بايع تحتها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أصحابه أرسل فقطعها رواه ابن وضاح في كتابه فقال سمعت عيسى بن يونس يقول أمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه بقطع الشجرة التي بويع تحتها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقطعها لان الناس كانوا يذهبون فيصلون تحتها فخاف عليهم الفتنة قال عيسى بن يونس وهو عندنا من حديث ابن عون عن نافع ان الناس كانوا يأتون الشجرة فقطعها عمر رضى الله عنه فاذا كان هذا فعل عمر رضى الله عنه بالشجرة التي ذكرها الله تعالى في القرآن وبايع تحتها الصحابة لرسول الله فماذا حكمه فيما عداها من هذه الانصاب والاوثان التي قد عظمت الفتنة بها واشتدت البلية بها وأبلغ من ذلك أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هدم مسجد الضرار ففي هذا دليل على هدم ما هو أعظم فسادا منه كالمساجد المبنية على القبور فان حكم الاسلام فيها ان تهدم كلها حتى تسوى بالارض وهي أولى بالهدم من مسجد الضرار وكذلك القباب التي على القبور يجب هدمها كلها لانها أسست على معصية الرسول لانه قد نهى عن البناء على القبور كما تقدم فبناء أسس على معصيته ومخالفته بناء غير محترم وهو أولى بالهدم من بناء الغاصب قطعا وقد أمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بهدم القبور المشرفة كما تقدم فهدم القباب والبناء والمساجد التي بنيت عليها أولى وأحرى لانه لعن متخذي المساجد عليها ونهى عن البناء عليها فيجب المبادرة والمسارعة الى هدم ما لعن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فاعله ونهى عنه والله عز وجل يقيم لدينه وسنة رسوله من ينصرهما ويذب عنهما فهو أشد غيرة وأسرع تغييرا وكذلك يجب ازالة كل قنديل أو سراج على قبر وطفيه فان فاعل ذلك ملعون بلعنة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ولا يصح هذا الوقف ولا يحل اثباته وتنفيذه قال الامام أبو بكر الطرطوشي انظروا رحمكم الله أينما وجدتم سدرة أو شجرة يقصدها الناس ويعظمونها ويرجون البرء والشفاء من قبلها ويضربون بها المسامير والخرق فهي ذات أنواط فاقطعوها وقال الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن اسماعيل المعروف بأبي شامة في كتاب الحوادث والبدع ومن هذا القسم أيضا ما قد عم به الابتلاء من تزيين الشيطان للعامة تخليق الحيطان والعمد وشرح مواضع مخصوصة من كل بلد يحكي لهم حاك انه رأى في منامه بها أحدا ممن شهر بالصلاح والولاية فيفعلون ذلك ويحافظون عليه مع

لازم لمن نفى ذلك ولا محيد له عنه وان أبى التزامه وأما من أثبت حكمته وأفعاله على الوجه المطابق للعقل والفطرة وما جاءت به الرسل لم يلزم من قوله محذور البتة بل قوله حق ولازم الحق حق كائنا ما كان والمقصود ان ورثة الرسل وخلفاءهم لكمال ميراثهم لنبيهم آمنوا بالقضاء والقدر والحكم والغايات المحمودة في أفعال الرب وأوامره وقاموا مع ذلك بالامر والنهي وصدقوا بالوعد والوعيد فآمنوا بالخلق الذي من تمام الايمان به اثبات القدر والحكمة وبالامر الذي من تمام الايمان به الايمان بالوعد والوعيد وحشر الاجساد والثواب والعقاب فصدقوا بالخلق والامر ولم ينفوهما بنفي لوازمهما كما فعلت القدرية المجوسية والقدرية المعارضة للامر بالقدر وكانوا أسعد الناس بالحق وأقربهم عصبة في هذا الميراث النبوي وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم واعلم ان الايمان بحقيقة القدر والشرع والحكمة لا يجتمع الا في قلوب خواص الخلق ولب العالم وليس الشأن في الايمان بألفاظ هذه المسميات وجحد حقائقها كما يفعل كثير من طوائف الضلال فان القدرية تؤمن بلفظ القدر ومنهم من يرده الى العلم ومنهم من يرده الى الامر الديني ويجعل قضاءه وقدره هو نفس أمره ونهيه ونفس مشيئة الله لافعال عباده بأمره لهم بها وهذا حقيقة انكار القضاء والقدر وكذلك الحكمة فان الجبرية تؤمن بلفظها ويجحدون حقيقتها فانهم يجعلونها مطابقة علمه تعالى لمعلومه تعالى وارادته لمراده تعالى فهي عندهم وقوع الكائنات على وفق علمه وارادته والقدرية النفاة لا يرضون بهذا بل يرفعون عنه طبقة ويثبتون حكمة زائدة على ذلك لكنهم

تضييعهم

تضييعهم فرائض الله وسنته ويظنون أنهم متقربون بذلك ثم يتجاوزون هذا الى أن يعظم وقع تلك الاماكن في قلوبهم فيعظمونها ويرجون الشفاء لمرضاهم وقضاء حوائجهم بالنذر لها وهي من بين عيون وشجر وحائط وحجر وفي مدينة دمشق من ذلك مواضع متعددة كعوينة الحمى خارج باب توما والعمود المخلق داخل باب الصغير والشجرة الملعونة اليابسة خارج باب النصر في نفس قارعة الطريق سهل الله قطعها واجتثاثها من أصلها فما أشبهها بذات أنواط التي في الحديث ثم ساق حديث أبي واقد انهم مروا مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بشجرة عظيمة خضراء يقال لها ذات أنواط فقالوا يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال عليه السلام الله أكبر هذا كما قالوا لموسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة قال انكم قوم تجهلون لتركبن سنن من كان قبلكم قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح ثم ذكر ماصنعه بعض أهل العلم ببلاد افريقية انه كان الى جانبه عين تسمى عين العافية كان العامة قد افتتنوا بها يأتونها من الآفاق فمن تعذر عليه نكاح أو ولد قال امضوا بي الى العافية فيعرف فيها الفتنة فخرج في السحر فهدمها وأذن للصبح عليها ثم قال اللهم اني هدمتها لك فلا ترفع لها رأسا قال فما رفع لها رأس الى الآن وقد كان بدمشق كثير من هذه الانصاب فيسر الله سبحانه كسرها على يد شيخ الاسلام وحزب الله الموحدين كالعمود المخلق والنصب الذي كان بمسجد النارنج عند المصلى يعبده الجهال والنصب الذي كان تحت الطاحون الذي عنده مقابر النصارى ينتابه الناس للتبرك به وكان صورة صنم في نهر القلوط ينذرون له ويتبركون به وقطع الله سبحانه النصب الذي كان عند الرحبة يسرج عنده ويتبرك به المشركون وكان عمودا طويلا على رأسه حجر كالكرة وعند مسجد درب الحجر نصب قد بني عليه مسجد صغير يعبده المشركون يسر الله كسره فما أسرع أهل الشرك الى اتخاذ الاوثان من دون الله ولو كانت ما كانت ويقولون ان هذا الحجر وهذه الشجرة وهذه العين يقبل النذر أي يقبل العبادة من دون الله تعالى فان النذر عبادة وقربة يتقرب بها الناذر الى المنذور له ويتمسحون بذلك النصب ويستلمونه ولقد أنكر السلف التمسح بحجر المقام الذي أمر الله تعالى أن يتخذ منه مصلى كما ذكر الازرقي في كتاب مكة عن قتادة في قوله تعالى واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى قال انما أمروا ان يصلى عنده ولم يؤمروا بمسحه ولقد تكلفت هذه الامة شيأ ما تكلفته الامم قبلها ذكر لنا من رأى أثره واصابعه فما زالت هذه الامة تمسحه حتى اخلولق وأعظم الفتنة بهذه الانصاب فتنة انصاب القبور وهي أصل فتنة عبادة الاصنام كما قاله السلف من الصحابة والتابعين وقد تقدم ومن اعظم كيد الشيطان انه ينصب لاهل الشرك قبر معظم يعظمه الناس ثم يجعله وثنا يعبد من دون الله ثم يوحي الى اوليائه ان من نهى عن عبادته واتخاذه عيدا وجعله وثنا فقد تنقصه وهضم حقه فيسعى الجاهلون المشركون في قتله وعقوبته ويكفرونه وذنبه عند اهل الاشراك امره بما امر الله به ورسوله ونهيه عما نهى الله عنه ورسوله من جعله وثنا وعيدا وايقاد السرج عليه وبناء المساجد والقباب عليه وتجصيصه واسادته وتقبيله واستلامه ودعائه أو الدعاء به أو السفر اليه أو الاستعانة به من دون الله مما قد علم بالاضطرار من دين الاسلام انه مضاد

يثبتون قيامها بالفاعل الحكيم ويجعلونها مخلوقة من مخلوقاته كما قالوا في كلامه وارادته فهؤلاء كلهم أقروا بلفظ الحكمة وجحدوا معناها وحقيقتها وكذلك الامر والشرع فان من أنكر كلام الله وقال ان الله لم يتكلم ولا يتكلم ولا قال ولا يقول ولا يحب شيأ ولا يبغض شيأ وجميع الكائنات محبوبة له ومالم يكن فهو مكروه له ولا يحب ولا يرضى ولا يغضب ولا فرق في نفس الامر بين الصدق والكذب والفجور والسجود للاصنام والشمس والقمر والسجود له ولم يكلف أحدا ما يقدر عليه بل كل تكاليفه تكليف مالا يطاق ولا قدرة للمكلف عليه البتة ويجوز أن يعذب رجالا اذ لم يكونوا نساء ويعذب نساء اذ لم يكونوا رجالا وسودا حيث لم يكونوا بيضا وبيضا حيث لم يكونوا سودا ويجوز أن يظهر المعجزة على أيدي الكذابين ويرسل رسولا يدعو الى الباطل وعبادة الاوثان ويأمر بقتل النفوس وأنواع الفجور ولا ريب ان هذا يرفع الشرائع والامر والنهي بالكلية ولولا تناقض القائلين به لكانوا منسلخين من دين الرسل ولكن مشى الحال بعض المشي بتناقضهم وهو خير لهم من طرد أصولهم والقول بموجبها والمقصود انه لم يؤمن بالقضاء والقدر والحكمة والامر والنهي والوعد والوعيد حقيقة الايمان الا أتباع الرسل وورثتهم والقضاء والقدر منشؤه عن علم الرب وقدرته ولهذا قال الامام أحمد القدر قدرة الله واستحسن ابن عقيل هذا الكلام من أحمد غاية الاستحسان وقال انه شفى بهذه الكلمة وأفصح بها عن حقيقة القدر ولهذا كان المنكرون للقدر فرقتين فرقة كذبت بالعلم السابق ونفته وهم غلاتهم الذين كفرهم السلف والائمة وتبرأ منهم الصحابة وفرقة جحدت كمال القدرة وأنكرت

ما بعث الله به رسوله من تجريد التوحيد لله وأن لا يعبد إلا الله فإذا نهى الموحد عن ذلك غضب المشركون واشمأزت قلوبهم وقالوا قد تنقص اهل الرتب العالية وزعم انهم لا حرمة لهم ولا قدر وسرى ذلك فى نفوس الجهال والطغام وكثير ممن ينسب الى العلم والدين حتى عادوا اهل التوحيد وذموهم بالعظائم ونفروا الناس عنهم ووالوا أهل الشرك وعظموهم وزعموا انهم هم اولياء الله وانصار دينه ورسوله ويأبى الله ذلك فما كانوا أولياءه ان أولياؤه الا المتبعون له الموافقون له العارفون بما جاء به الداعون اليه لا المتشبعون بما لم يعطوا لابسو ثياب الزور الذين يصدون الناس عن سنة نبيهم ويبغونها عوجا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا

(فصل) ولا تحسب أيها المنعم عليه باتباع صراط الله المستقيم صراط أهل نعمته ورحمته وكرامته ان النهى عن اتخاذ القبور أوثانا واعيادا وانصابا والنهى عن اتخاذها مساجد أو بناء المساجد عليها او ايقاد السرج عليها والسفر اليها والنذر لها واستلامها وتقبيلها وتعفير الجباه فى عرصاتها غض من أصحابها الا تنقيص لهم ولا تنقص كما يحسبه أهل الاشراك والضلال بل ذلك من اكرامهم وتعظيمهم واحترامهم ومتابعتهم فيما يحبونه وتجنب ما يكرهونه فانت والله وليهم ومحبهم وناصر طريقتهم وسنتهم وعلى هديهم ومنهاجهم وهؤلاء المشركون أعصى الناس لهم وأبعدهم من هديهم ومتابعتهم كالنصارى مع المسيح واليهود مع موسى عليهما السلام والرافضة مع على رضى الله عنه فأهل الحق أولى باهل الحق من أهل الباطل فالمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض والمنافقون والمنافقات بعضهم من بعض فاعلم أن القلوب اذا اشتغلت بالبدع أعرضت عن السنن فتجد أكثر هؤلاء العاكفين على القبور معرضين عن طريقة من فيها وهديه وسنته مشتغلين بقبره عما أمر به ودعا اليه وتعظيم الانبياء والصالحين ومحبتهم انما هى باتباع ما دعوا اليه من العلم النافع والعمل الصالح واقتفاء آثارهم وسلوك طريقتهم دون عبادة قبورهم والعكوف عليها واتخاذها أعيادا فان من اقتفى آثارهم كان متسببا الى تكثير أجورهم باتباعه لهم ودعوته الناس الى اتباعهم فاذا اعرض عما دعوا اليه واشتغل بضده حرم نفسه وحرمهم ذلك الاجر فاى تعظيم لهم واحترام فى هذا وانما اشتغل كثير من الناس بأنواع من العبادات المبتدعة التى يكرهها الله ورسوله لاعراضهم عن المشروع أو بعضه وان قاموا بصورته الظاهرة فقد هجروا حقيقته المقصودة منه والا فمن أقبل على الصلوات الخمس بوجهه وقلبه عارفا بما اشتملت عليه من الكلم الطيب والعمل الصالح مهتما بها كل الاهتمام أغنته عن الشرك وكل من قصر فيها أو فى بعضها تجد فيه من الشرك بحسب ذلك ومن أصغى الى كلام الله بقلبه وتدبره وتفهمه أغناه عن السماع الشيطانى الذى يصد عن ذكر الله وعن الصلاة وينبت النفاق فى القلب وكذلك من أصغى اليه والى حديث الرسول بكليته وحدث نفسه باقتباس الهدى والعلم منه لا من غيره أغناه عن البدع والآراء والتخرصات والشطحات والخيالات التى هى وساوس النفوس وتخيلاتها ومن بعد عن ذلك فلا بد له أن يتعوض عنه بما لا ينفعه كما ان من عمر قلبه بمحبة الله تعالى وذكره وخشيته والتوكل عليه والانابة اليه أغناه ذلك عن محبة غيره وخشيته

وتكون أفعال العباد مقدورة له تعالى وصرحت بأن الله لا يقدر عليها فانكر هؤلاء كمال قدرة الرب وانكر هؤلاء حكمته

[...] عله وقابلهم الجبرية نفاة [...] اثبات القدرة والعلم [...] نكرت الحكمة والرحمة ولهذا [...] مصدر الخلق والامر والقضاء [...] لشرع عن علم الرب وعزته [...] كمته ولهذا يقرن تعالى بين [...] سمين والصفتين من هذه الثلاثة [...] يرا كقوله وانك لتلقى القرآن [...] لدن حكيم عليم وقال تنزيل [...] كتاب من الله العزيز الحكيم وقال [...] م تنزيل الكتاب من الله العزيز [...] لحكيم وقال فى حم فصلت بعد ذكر [...] لق العالم ذلك تقدير العزيز [...] عليم وذكر نظير هذا فى الانعام [...] ال فالق الاصباح وجاعل الليل [...] كنا والشمس والقمر حسبانا ذلك [...] دير العزيز العليم فارتباط الخلق [...] قدرته التامة يقتضى أن لا يخرج [...] وجود عن قدرته وارتباطه بعلمه [...] تام يقتضى احاطته به وتقدمه [...] ليه وارتباطه بحكمته يقتضى [...] قوعه على أكمل الوجوه وأحسنها [...] اشتماله على الغاية المحمودة [...] لمطلوبة للرب سبحانه وكذلك أمره [...] علمه وحكمته وعزته فهو عليم بخلقه [...] أمره حكيم فى خلقه وامره ولهذا [...] كان الحكيم من أسمائه الحسنى [...] الحكمة من صفاته العلى والشريعة الصادرة عن أمره مبناها على الحكمة والرسول المبعوث بها مبعوث بالكتاب والحكمة والحكمة هى سنة الرسول وهى تتضمن العلم بالحق والعمل به والخبر عنه والامر به فكل هذا يسمى حكمة وفى الاثر الحكمة ضالة المؤمن وفى الحديث ان من الشعر حكمة فكما لا يخرج مقدور عن علمه وقدرته ومشيئته فهكذا لا يخرج عن حكمته وحمده وهو محمود على جميع ما فى الكون من خير وشر حمدا استحقه لذاته وصدر عنه خلقه وأمره فصدر ذلك كله عن الحكمة فانكار الحكمة انكار لحمده والتوكل

والتوكل عليه وأغناه أيضا عن عشق الصور واذا خلا من ذلك صار عبد هواه أي شئ استحسنه ملكه واستعبده فالمعرض عن التوحيد مشرك شاء أم أبى والمعرض عن السنة مبتدع ضال شاء أم أبى والمعرض عن محبة الله وذكره عبد الصور شاء أم أبى والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم فان قيل فما الذي أوقع عباد القبور في الافتتان بها مع العلم بان ساكنيها أموات لايملكون لهم ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا قيل أوقعهم في ذلك امور منها الجهل بحقيقة مابعث الله به رسوله بل جميع الرسل من تحقيق التوحيد وقطع اسباب الشرك فقل نصيبهم جدا من ذلك ودعاهم الشيطان الى الفتنة ولم يكن عندهم من العلم ما يبطل دعوته فاستجابوا له بحسب ماعندهم من الجهل وعصموا بقدر مامعهم من العلم ومنها أحاديث مكذوبة مختلقة وضعها أشباه عباد الاصنام من المقابرية على رسول الله عليه السلام تناقض دينه وماجاء به كحديث اذا أعيتكم الامور فعليكم بأصحاب القبور وحديث لو أحسن أحدكم ظنه بحجر نفعه وأمثال هذه الاحاديث التي هي مناقضة لدين الاسلام وضعها المشركون وراجت على اشباههم من الجهال الضلال والله بعث رسوله بقتل من حسن ظنه بالاحجار وجنب امته الفتنة بالقبور بكل طريق كما تقدم ومنها حكايات حكيت لهم عن تلك القبور ان فلانا استغاث بالقبر الفلاني في شدة فخلص منها وفلان دعاه أو دعا به في حاجة فقضيت له وفلان نزل به ضر فاسترجى صاحب ذلك القبر فكشف ضره وعند السدنة والمقابرية من ذلك شئ كثير يطول ذكره وهم من أكذب خلق الله تعالى على الاحياء والاموات والنفوس مولعة بقضاء حوائجها وازالة ضروراتها وتسمع بأن قبر فلان ترياق مجرب والشيطان له تلطف في الدعوة فيدعوه أولا الى الدعاء عنده فيدعو العبد عنده بحرقة وانكسار وذلة فيجيب الله دعوته لما قام بقلبه لا لاجل القبر فانه لو دعاه كذلك في الحانة والخمارة والحمام والسوق أجابه فيظن الجاهل أن للقبر تأثيرا في اجابة تلك الدعوة والله سبحانه يجيب دعوة المضطر ولو كان كافرا وقد قال تعالى كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا وقد قال الخليل وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر فقال الله سبحانه ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره الى عذاب النار وبئس المصير فليس كل من أجاب دعاءه يكون راضيا عنه ولا محبا له ولا راضيا بفعله فانه يجيب البر والفاجر والمؤمن والكافر وكثير من الناس يدعو دعاء يعتدي فيه أو يشرك في دعائه أو يكون مما لايجوز أن يسأل فيحصل له ذلك أو بعضه فيظن أن عمله صالح مرضي لله ويكون بمنزلة من أملى له وأمد بالمال والبنين وهو يظن أن الله يسارع له في الخيرات وقد قال تعالى فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شئ فالدعاء قد يكون عبادة فيثاب عليه الداعي وقد يكون مسألة تقضى به حاجته ويكون مضرة عليه اما أن يعاقب بما يحصل له أو ينقص به درجته فيقضي حاجته ويعاقبه على ماجرأ عليه من اضاعة حقوقه وارتكاب حدوده والمقصود أن الشيطان يلطف كيده بحسن الدعاء عند القبر وانه أرجح منه في بيته ومسجده وأوقات الاسحار فاذا تقرر ذلك عنده نقله درجة اخرى من الدعاء عنده الى الدعاء به والاقسام على الله به وهذا أعظم من الذي قبله فان شأن الله

في الحقيقة والله أعلم (فصل) وانما يتبين هذا ببيان وجود الحكمة في كل ماخلقه الله وأمره وبيان أنه كله خير من جهة اضافته اليه سبحانه وانه من تلك الاضافة خير وحكمة وان جهة الشر منه من جهة اضافته الى العبد كما قال صلى الله عليه وسلم في دعاء الاستفتاح لبيك وسعديك والخير في يديك والشر ليس اليك فهذا النفي يقتضي امتناع اضافة الشر اليه تعالى بوجه فلا يضاف الى ذاته ولا صفاته ولا أسمائه ولا افعاله فان ذاته منزهة عن كل شر وصفاته كذلك اذ كلها صفات كمال ونعوت جلال لانقص فيها بوجه من الوجوه وأسماؤه كلها حسنى ليس فيها اسم ذم ولا عيب وأفعاله كلها حكمة ورحمة ومصلحة واحسان وعدل لاتخرج عن ذلك البتة وهو المحمود على ذلك كله فيستحيل اضافة الشر اليه وتحقيق ذلك ان الشر ليس هو الا الذنوب وعقوباتها كما في خطبته صلى الله عليه وسلم الحمد لله نستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا فتضمن ذلك الاستعاذة من شرور النفوس ومن سيئات الاعمال وهي عقوباتها وعلى هذا فالاضافة على معنى اللام من باب اضافة المتغايرين أو يقال المراد السيئات من الاعمال فعلى هذا الاضافة بمعنى من وهي من باب اضافة النوع الى جنسه ويدل على الاول قوله تعالى وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته قال شيخنا وهذا أشبه لانه اذا أريد السيئات من الاعمال فان أريد ماوقع منها فالاستعاذة انما تكون من عقوباتها اذ الواقع من شر النفس وأيضا فلا يقال في هذه التي لم توجد بعد سيئات أعمالنا فانما لم تكن بعد أعمالا فضلا عن أن تكون سيئات واضافة الاعمال لبيان تقتضي وجودها اذ مالم

أعظم من أن يقسم عليه أو يسأل بأحد من خلقه وقد أنكر أئمة الاسلام ذلك فقال أبو الحسين القدوري فى شرح كتاب الكرخى قال بشر بن الوليد سمعت أبا يوسف يقول قال أبو حنيفة لا ينبغى لاحد أن يدعو الله الا به قال وأكره أن يقول أسألك بمعقد العز من عرشك وأكره أن يقول بحق فلان وبحق أنبيائك ورسولك وبحق البيت الحرام قال أبو الحسن أما المسئلة بغير الله فمنكرة فى قولهم لانه لا حق لغير الله عليه وانما الحق لله على خلقه وأما قوله بمعقد العز من عرشك فكرهه أبو حنيفة ورخص فيه أبو يوسف قال وروى أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم دعا بذلك قال ولأن معقد العز من العرش انما يراد به القدرة التى خلق الله بها العرش مع عظمته فكأنه سأله بأوصافه وقال ابن بلدجى فى شرح المختار ويكره أن يدعو الله تعالى الا به فلا يقول أسألك بفلان أو بملائكتك أو بأنبيائك ونحو ذلك لانه لا حق للمخلوق على خالقه أو يقول فى دعائه أسألك بمعقد العز من عرشك وعن أبى يوسف جوازه وما يقول فيه أبو حنيفة وأصحابنا أكره كذا هو عند محمد حرام وعند أبى حنيفة وأبى يوسف هو الى الحرام أقرب وجانب التحريم عليه أغلب وفى فتاوى أبى محمد بن عبد السلام انه لا يجوز سؤال الله سبحانه بشئ من مخلوقاته لا الانبياء ولا غيرهم وتوقف فى نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم لاعتقاده ان ذلك جاء فى حديث وانه لم يعرف صحة الحديث فاذا قرر الشيطان عنده ان الاقسام على الله به والدعاء به أبلغ فى تعظيمه واحترامه وأنجع فى قضاء حاجته نقله درجة أخرى الى دعائه نفسه من دون الله ثم ينقله بعد ذلك درجة أخرى الى أن يتخذ قبره وثنا يعكف عليه ويوقد عليه القناديل ويعلق عليه الستور ويبنى عليه المسجد ويعبده بالسجود له والطواف به وتقبيله واستلامه والحج اليه والذبح عنده ثم ينقله درجة أخرى الى دعاء الناس الى عبادته واتخاذه عيدا ومنسكا وان ذلك أنفع لهم فى دنياهم وآخرتهم قال شيخنا قدس الله روحه وهذه الامور المبتدعة عند القبور مراتب أبعدها عن الشرع أن يسأل الميت حاجته ويستغيث به فيها كما يفعله كثير من الناس قال وهؤلاء من جنس عباد الاصنام ولهذا قد يتمثل لهم الشيطان فى صورة الميت أو الغائب كما يتمثل لعباد الاصنام وهذا يحصل للكفار من المشركين وأهل الكتاب يدعو أحدهم من يعظمه فيتمثل له الشيطان أحيانا وقد يخاطبهم ببعض الامور الغائبة وكذلك السجود للقبر والتمسح به وتقبيله المرتبة الثانية أن يسأل الله عز وجل به وهذا يفعله كثير من المتأخرين وهو بدعة باتفاق المسلمين الثالثة أن يسأله نفسه الرابعة أن يظن ان الدعاء عند قبره مستجاب أو انه أفضل من الدعاء فى المسجد فيقصد زيارته والصلاة عنده لاجل طلب حوائجه فهذا أيضا من المنكرات المبتدعة باتفاق المسلمين وهى محرمة وما علمت فى ذلك نزاعا بين أئمة الدين وان كان كثير من المتأخرين يفعل ذلك ويقول بعضهم قبر فلان ترياق مجرب والحكاية المنقولة عن الشافعى انه كان يقصد الدعاء عند قبر أبى حنيفة من الكذب الظاهر

ويجد بعد ما ليس هو من أعمالنا الآن يقال من سيئات الاعمال التى اذا عملناها كانت سيئات ولمن رجح التقدير الثانى أن يقول العقوبات ليست لجميع الاعمال بل للمحرمات منها والاعمال أعم وحملها على المحرمات خاصة خلاف ظاهر اللفظ بخلاف ما اذا كانت الاضافة على معنى من فتكون الاعمال على عمومها والسيئات بعضها فتكون السيئات على عمومها ويترجح أيضا ان الاستعاذة تكون قد اشتملت على أصول الشر كله وهى شر النفس الكامن فيها الذى لم يخرج الى العمل وشر العمل الخارج الذى سولته النفس فالاول شر الطبيعة والصفة التى فى النفس والثانى شر العمل المتعلق بالكسب والارادة ويلزم من المعافاة من هذين الشرين المعافاة من موجبهما وهو العقوبة فتكون الاستعاذة قد شملت جميع أنواع الشر بالمطابقة واللزوم وهذا هو اللائق بمن أوتى جوامع الكلم فان هذا من جوامع كلمه البديعة العظيمة الشأن التى لا يعرف قدرها الا أهل العلم والايمان واذا عرف هذا وانه ليس فى الوجود شر الا الذنوب وموجباتها وكونها ذنوبا تاتى من نفس العبد فان سبب الذنب الظلم والجهل وهما من نفس العبد كما ان سبب الخير الحمد والعلم والحكمة والغنى وهى أمور ذاتية للرب وذات الرب سبحانه مستلزمة للحكمة والخير والجود وذات العبد مستلزمة للجهل والظلم وما فيه من العلم والعدل فانما حصل له بفضل الله عليه وهو أمر خارج عن نفسه فمن أراد الله به خيرا أعطاه هذا الفضل فصدر منه من الاحسان والبر والطاعة ومن أراد به شرا أمسكه عنه وخلاه ودواعى نفسه وطبعه وموجبها فصدر منه موجب الجهل والظلم من كل شر وقبيح وليس منعه لذلك ظلما منه سبحانه فانه فضله وليس من منع فضله ظالما لاسيما اذا منعه عن محل لا يستحقه ولا يليق به وأيضا فان هذا الفضل هو توفيقه وارادته من نفسه أن يلطف بعبده ويوفقه ويعينه ولا

فصل

يخلي بينه وبين نفسه وهذا محض فعله وفضله وهو سبحانه أعلم بالمحل الذي يصلح له هذا الفضل ويليق به ويثمر به ويزكو به وقد أشار تعالى الى هذا المعنى بقوله وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين

(فصل) في الفرق بين زيارة الموحدين للقبور وزيارة المشركين أما زيارة الموحدين فمقصودها ثلاثة أشياء أحدها تذكير الآخرة والاعتبار والاتعاظ وقد أشار عليه السلام الى ذلك بقوله زوروا القبور فانها تذكركم الآخرة الثاني الاحسان الى الميت وأن لا يطول عهده به فيهجره ويتناساه كما اذا ترك زيارة الحي مدة طويلة تناساه فاذا زار الحي فرح بزيارته وسر بذلك فالميت أولى لانه قد صار في دار قد هجر أهلها اخوانهم وأهلهم ومعارفهم فاذا زاره وأهدى اليه هدية من دعاء أو صدقة أو أهدى قربة ازداد بذلك سروره وفرحه كما يسر الحي بمن يزوره ويهدي له ولهذا شرع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم للزائر أن يدعو لهم ولا يدعوهم ولا يصلي عندهم الثالث احسان الزائر الى نفسه باتباع السنة والوقوف عند ما شرعه الرسول عليه السلام فيحسن الى نفسه والى المزور وأما الزيارة الشركية فأصلها مأخوذ من عباد الاصنام قالوا الميت المعظم الذي لروحه قرب ومنزلة ومزية عند الله تعالى لا يزال تأتيه الالطاف من الله تعالى ويفيض على روحه الخيرات فاذا علق الزائر روحه به وأدناها منه فاض من روح المزور على روح الزائر من تلك الالطاف بواسطتها كما ينعكس الشعاع من المرآة الصافية والماء ونحوه على الجسم المقابل له قالوا فتمام الزيارة أن يتوجه الزائر بروحه وقلبه الى الميت ويعكف بهمته عليه ويوجه قصده كله واقباله عليه بحيث لا يبقى فيه التفات الى غيره وكلما كان جمع الهمة والقلب عليه أعظم كان أقرب الى انتفاعه به وقد ذكر هذه الزيارة على هذا الوجه ابن سينا والفارابي وغيرهما وصرح بها عباد الكواكب في عبادتها وقالوا اذا تعلقت النفس الناطقة بالارواح العلوية فاض عليها منها النور وبهذا السر عبدت الكواكب واتخذت لها الهياكل وصنفت لها الدعوات واتخذت الاصنام المجسدة لها وهذا بعينه هو الذي أوجب لعباد القبور اتخاذها أعيادا وتعليق الستور عليها وايقاد السرج عليها وبناء المساجد عليها وهو الذي قصد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ابطاله ومحوه بالكلية وسد الذرائع المفضية اليه فوقف المشركون في طريقه وناقضوه في قصده وكان صلى الله تعالى عليه وسلم في شق وهؤلاء في شق وهذا الذي ذكره هؤلاء المشركون في زيارة القبور هو الشفاعة التي ظنوا ان آلهتهم تنفعهم بها وتشفع لهم عند الله تعالى قالوا فان العبد اذا تعلقت روحه بروح الوجيه المقرب عند الله وتوجه بهمته اليه وعكف بقلبه صار بينه وبينه اتصال يفيض به عليه منه نصيب مما يحصل له من الله وشبهوا ذلك بمن يخدم ذا جاه وحظوة وقرب من السلطان فهو شديد التعلق به فما يحصل لذلك من السلطان من الانعام والافضال ينال ذلك المتعلق به بحسب تعلقه به فهذا سر عبادة الاصنام وهو الذي بعث الله رسله وأنزل كتبه بابطاله وتكفير أصحابه ولعنهم وأباح دماءهم وأموالهم وسبى ذراريهم وأوجب لهم النار والقرآن من أوله الى آخره مملوء من الرد على أهله وابطال مذهبهم قال تعالى أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لا يملكون شيأ ولا يعقلون قل لله الشفاعة جميعا له ملك السموات والارض فأخبر أن الشفاعة لمن له ملك السموات

فأخبر سبحانه انه أعلم بمن يعرف قدر هذه النعمة ويشكره عليها فان أصل الشكر هو الاعتراف بانعام المنعم على وجه الخضوع له والذل والمحبة فمن لم يعرف النعمة بل كان جاهلا بها لم يشكرها ومن عرفها ولم يعرف المنعم بها لم يشكرها أيضا ومن عرف النعمة والمنعم لكن جحدها كما يجحد المنكر لنعمة المنعم عليه بها فقد كفرها ومن عرف النعمة والمنعم وأقر بها ولم يجحدها ولكن لم يخضع له ويحبه ويرض به وعنه لم يشكرها أيضا ومن عرفها وعرف المنعم بها وخضع للمنعم بها وأحبه ورضي به وعنه واستعملها في محابه وطاعته فهذا هو الشاكر لها فلا بد في الشكر من علم القلب وعمل يتبع العلم وهو الميل الى المنعم ومحبته والخضوع له كما في صحيح البخاري عن شداد بن أوس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سيد الاستغفار أن يقول العبد اللهم أنت ربي لا اله الا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي فانه لا يغفر الذنوب الا أنت من قالها اذا أصبح موقنا بها فمات من يومه دخل الجنة ومن قالها اذا أمسى موقنا بها فمات من ليلته دخل الجنة فقوله أبوء لك بنعمتك علي يتضمن الاقرار والانابة الى الله بعبوديته فان المباءة هي التي يبوء اليها الشخص أي يرجع اليها رجوع استقرار والمباءة هي المستقر ومنه قوله من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار أي ليتخذ مقعده من النار مباءة يلزمه ويستقر فيه لا كالمنزل الذي ينزله ثم يرحل عنه فالعبد يبوء الى الله بنعمته عليه ويبوء بذنبه ويرجع اليه بالاعتراف بهذا وبهذا رجوع مطمئن الى

وبه منيب اليه ليس رجوع من أقبل عليه ثم أعرض عنه بل رجوع من لا يعرض عن ربه بل لا يزال مقبلا عليه اذا كان لابد له منه فهو معبوده وهو مستغاثه لا صلاح له الا بعبادته فان لم يكن معبوده هلك وفسد ولا يمكن أن يعبده الا باعانته وفي الحديث مثل المؤمن

والارض وهو الله وحده فهو الذي يشفع بنفسه الى نفسه ليرحم عبده فيأذن هو لمن يشاء أن يشفع فيه فصارت الشفاعة في الحقيقة انما هي له والذي يشفع عنده انما يشفع باذنه له وأمره بعد شفاعته سبحانه وهي ارادته من نفسه أن يرحم عبده وهذا ضد الشفاعة الشركية التي أثبتها هؤلاء المشركون ومن وافقهم وهي التي أبطلها سبحانه في كتابه بقوله واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيأ ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة وقوله يا أيها الذين آمنوا انفقوا مما رزقنا كم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة وقال تعالى وانذر به الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلهم يتقون وقال الله الذي خلق السموات والارض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولي ولا شفيع فأخبر سبحانه انه ليس للعباد شفيع من دونه بل اذا أراد الله سبحانه رحمة عبده أذن هو لمن شفع فيه كما قال تعالى مامن شفيع الا من بعد اذنه وقال من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه فالشفاعة باذنه ليست شفاعة من دونه ولا الشافع شفيع من دونه بل شفيع باذنه والفرق بين الشفيعين كالفرق بين الشريك والعبد المأمور فالشفاعة التي أبطلها شفاعة الشريك فانه لا شريك له والتي أثبتها شفاعة العبد المأمور الذي لا يشفع ولا يتقدم بين يدي مالكه حتى يأذن له ويقول اشفع في فلان ولهذا كان أسعد الناس بشفاعة سيد الشفعاء يوم القيامة أهل التوحيد الذين جردوا التوحيد وخلصوه من تعلقات الشرك وشوائبه وهم الذين ارتضى الله سبحانه قال تعالى لا يشفعون الا لمن ارتضى وقال يومئذ لا تنفع الشفاعة الا من أذن له الرحمن ورضي له قولا فأخبر أنه لا يحصل يومئذ شفاعة تنفع الا بعد رضاه قول المشفوع له واذنه للشافع فيه فأما المشرك فانه لا يرتضيه ولا يرضى قوله فلا يأذن للشفعاء أن يشفعوا فيه فانه سبحانه علقها بأمرين رضاه عن المشفوع له واذنه للشافع فما لم يوجد مجموع الامرين لم توجد الشفاعة وسر ذلك ان الامر كله لله وحده فليس لاحد معه من الامر شيء وأعلى الخلق وأفضلهم وأكرمهم عنده هم الرسل والملائكة المقربون وهم عبيد محض لا يسبقونه بالقول ولا يتقدمون بين يديه ولا يفعلون شيأ الا بعد اذنه لهم وأمرهم ولا سيما يوم لا تملك نفس لنفس شيأ فهم مملوكون مربوبون أفعالهم مقيدة بأمره واذنه فاذا أشرك بهم المشرك واتخذهم شفعاء من دونه ظنا منه انه اذا فعل ذلك تقدموا وشفعوا له عند الله فهو من أجهل الناس بحق الرب سبحانه وما يجب له ويمتنع عليه فان هذا ممتنع شبيه قياس الرب تعالى على الملوك والكبراء حيث يتخذ الرجل من خواصهم وأوليائهم من يشفع له عندهم في الحوائج وبهذا القياس الفاسد عبدت الاصنام واتخذ المشركون من دون الله الشفيع والولي والفرق بينهما هو الفرق بين المخلوق والخالق والرب والعبد والمالك والمملوك والغني والفقير والذي لا حاجة به الى أحد قط والمحتاج من كل وجه الى غيره فالشفعاء عند المخلوقين هم شركاؤهم فان قيام مصالحهم بهم وهم أعوانهم وأنصارهم الذين قيام الملوك والكبراء بهم ولولاهم لما انبسطت أيديهم وألسنتهم في الناس فلحاجتهم اليهم يحتاجون الى قبول شفاعتهم وان لم يأذنوا فيها

مثل الفرس في اخيته يجول ثم يرجع الى اخيته كذلك المؤمن يجول ثم يرجع الى الايمان فقوله أبوء يتضمن اني وان جلت كما يجول الفرس اما بالذنب واما بالتقصير في الشكر فاني راجع منيب أواب اليك رجوع من لا غنى له عنك وذكر النعمة والذنب لان العبد دائما يتقلب بينهما فهو بين نعمة من ربه وذنب منه هو كما في الاثر الالهي ابن آدم خيري اليك نازل وشرك الي صاعد أتحبب اليك بالنعم وأنا غني عنك وكم تتبغض الي بالمعاصي وأنت فقير الي ولا يزال الملك الكريم يعرج الي منك بعمل قبيح وكان في زمن الحسن البصري شاب لا يرى الا وحده فسأله الحسن عن ذلك فقال اني أجدني بين نعمة من الله وذنب مني فاريد أن أحدث للنعمة شكرا وللذنب استغفارا فذلك الذي شغلني عن الناس أو كما قال فقال له أنت أفقه من الحسن فالخير كله من الله كما قال تعالى وما بكم من نعمة فمن الله وقال ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه في قلوبكم وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون فضلا من الله ونعمة وقال يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي اسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان ان كنتم صادقين وقال اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم وهؤلاء المنعم عليهم هم المذكورون في قوله ومن يطع الله والرسول فاولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا فالنعم كلها من نعم الله وفضله على عبده وهو سبحانه وان كان أجود الاجودين وأرحم الراحمين وأكرم الاكرمين فانه أحكم الحاكمين وأعدل العادلين

ولم

ولم يرضوا عن الشافع لانهم يخافون أن يردوا شفاعتهم فتنقص طاعتهم لهم ويذهبون الى غيرهم فلا يجدون بدا من قبول شفاعتهم على الكره والرضا فأما الغني الذي غناه من لوازم ذاته وكل ما سواه فقير اليه بذاته وكل من في السموات والارض عبيد له مقهورون بقهره مصرفون بمشيئته لو أهلكهم جميعا لم ينقص من عزه وسلطانه وملكه وربوبيته والهيته مثقال ذرة قال تعالى لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح بن مريم قل فمن يملك من الله شيأ ان أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن في الارض جميعا ولله ملك السموات والارض وما بينهما والله على كل شئ قدير وقال سبحانه في سيدة آي القرآن آية الكرسي له ما في السموات وما في الارض من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه وقال قل لله الشفاعة جميعا له ملك السموات والارض فأخبر ان حال ملكه للسموات والارض يوجب أن تكون الشفاعة كلها له وحده وان أحدا لا يشفع عنده الا باذنه فانه ليس شريك بل مملوك محض بخلاف شفاعة أهل الدنيا بعضهم عند بعض فتبين ان الشفاعة التي نفاها الله سبحانه في القرآن هي هذه الشفاعة الشركية التي يعرفها الناس ويفعلها بعضهم مع بعض ولهذا يطلق نفيها تارة بناء على أنها هي المعروفة المتعاهدة عند الناس ويقيدها تارة بأنها لا تنفع الا بعد اذنه وهذه الشفاعة في الحقيقة هي منه فانه الذي أذن والذي قبل والذي رضي عن المشفوع والذي وفقه لفعل ما يستحق به الشفاعة وقوله فمتخذ الشفيع مشرك لا تنفعه شفاعته ولا يشفع فيه ومتخذ الرب وحده الهه ومعبوده ومحبوبه ومرجوه ومخوفه الذي يتقرب اليه ويطلب رضاه ويتباعد من سخطه هو الذي يأذن الله سبحانه للشفيع أن يشفع فيه قال تعالى أم اتخذوا من دون الله شفعاء الى قوله قل لله الشفاعة جميعا وقال تعالى ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبؤن الله بما لا يعلم في السموات ولا في الارض سبحانه وتعالى عما يشركون فبين سبحانه ان المتخذين شفعاء مشركون وان الشفاعة لا تحصل باتخاذهم وانما تحصل باذنه للشافع ورضاه عن المشفوع له وسر الفرق بين الشفاعتين ان شفاعة المخلوق للمخلوق وسؤاله للمشفوع عنده لا يفتقر فيها الى المشفوع عنده لا خلقا ولا أمرا ولا اذنا بل هو سبب محرك له من خارج كسائر الاسباب التي تحرك الاسباب وهذا السبب المحرك قد يكون عند المتحرك لاجله ما يوافقه كمن يشفع عنده في أمر يحبه ويرضاه وقد يكون عنده ما يخالفه كمن يشفع اليه في أمر يكرهه ثم قد يكون سؤاله وشفاعته أقوى من المعارض فيقبل شفاعة الشافع وقد يكون المعارض الذي عنده أقوى من شفاعة الشافع فيردها ولا يقبلها وقد يتعارض عنده الامران فيبقى مترددا بين ذلك المعارض الذي يوجب الرد وبين الشفاعة التي تقتضي القبول فيتوقف الى أن يترجح عنده أحد الامرين بمرجح فشفاعة الانسان عند المخلوق مثله هي سعي في سبب منفصل عن المشفوع اليه يحركه به ولو على كره منه فمنزلة الشفاعة عنده منزلة من يأمر غيره أو يكرهه على الفعل اما بقوة وسلطان واما بما يرغبه فلابد أن يحصل للمشفوع اليه من الشافع اما رغبة ينتفع بها واما رهبة منه تندفع عنه

لا يضع الاشياء الا في مواضعها اللائقة بها ولا يناقض جوده ورحمته وفضله حكمته وعدله ولو رأى العقلاء واحدا منهم قد وضع المسك في الحشوش والاخلية ووضع النجاسات والقاذورات في مواضع الطيب والنظافة لاشتد نكيرهم عليه والقدح في عقله ونسبوه الى السفه وخلاف الحكمة وكذلك لو وضع العقوبة موضع الاحسان والاحسان موضع العقوبة لسفهوه وقدحوا في عقله كما قال القائل

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا
مضر كوضع السيف في موضع الندى

وكذلك لو وضع الدواء موضع الغذاء والغذاء موضع الدواء والاستفراغ حيث يكون اللائق به عدمه والامساك حيث يليق الاستفراغ وكذلك وضع الماء موضع الطعام والطعام موضع الماء وامثال ذلك مما يخل بالحكمة بل لو أقبل على الحيوان البهيم يريد تعليمه مالم يخلق له من العلوم والصنائع فمن بهرت حكمته العقول والالباب كيف ينبغي له أن يضع الاشياء في غير مواضعها اللائقة بها ومن المعلوم ان أجل نعمه على عبده نعمة الايمان به ومعرفته ومحبته وطاعته والرضا به والانابة اليه والتوكل عليه والتزام عبوديته ومن المعلوم أيضا ان الارواح منها الخبيث الذي لا أخبث منه ومنها الطيب وبين ذلك وكذلك القلوب منها القلب الشريف الزكي والقلب الخسيس الخبيث وهو سبحانه خلق الاضداد كما خلق الليل والنهار والبرد والحر والداء والدواء والعلو والسفل وهو أعلم بالقلوب الزاكية والارواح الطيبة التي تصلح لاستقرار هذه النعم فيها وايداعها عندها ويذكو بذرها فيها فيكون تخصيصه لها بهذه النعمة كتخصيص الارض الطيبة القابلة للبذر بالبذر فليس من الحكمة أن يبذر البر في الصخور والرمال والسباخ وفاعل ذلك غير حكيم فما الظن ببذر الايمان والقرآن والحكمة ونور المعرفة والبصيرة في المحل التي هي أخبث المحال فالله سبحانه أعلم حيث يجعل رسالاته

بشفاعته وهذا بخلاف الشفاعة عند الرب سبحانه فانه مالم يخلق شفاعة الشافع ويأذن له فيها ويحبها منه ويرضى عن الشافع لم يمكن أن توجد والشافع لا يشفع عنده لحاجة الرب اليه ولا لرهبته منه ولا لرغبته فيما لديه وانما يشفع عنده مجرد امتثال لامره وطاعة له فهو مأمور بالشفاعة مطيع بامتثال الامر فان أحدا من الانبياء والملائكة وجميع المخلوقات لا يتحرك بشفاعة ولا غيرها الا بمشيئة الله تعالى وخلقه فالرب تعالى هو الذي يحرك الشفيع حتى يشفع والشفيع عند المخلوق هو الذي يحرك المشفوع اليه حتى يقبل والشافع عند المخلوق مستغن عنه في أكثر أموره وهو في الحقيقة شريكه ولو كان مملوكه وعبده فالمشفوع عنده محتاج اليه فيما يناله منه من النفع بالنصر والمعاونة وغير ذلك كما ان الشافع محتاج اليه فيما يناله منه من رزق أو نصر أو غيره فكل منهما محتاج الى الآخر ومن وفقه الله تعالى لفهم هذا الموضع ومعرفته تبين له حقيقة التوحيد والشرك والفرق بين ما أثبته الله تعالى من الشفاعة وبين ما نفاه وأبطله ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور

(فصل) ومن مكايد عدو الله ومصايده التي كادبها من قل نصيبه من العلم والعقل والدين وصاد بها قلوب الجاهلين والمبطلين سماع المكاء والتصدية والغناء بالآلات المحرمة الذي يصد القلوب عن القرآن ويجعلها عاكفة على الفسوق والعصيان فهو قرآن الشيطان والحجاب الكثيف عن الرحمن وهو رقية اللواط والزنا وبه ينال العاشق الفاسق من معشوقه غاية المنى كادبه الشيطان النفوس المبطلة وحسنه لها مكرا منه وغرورا وأوحى اليها الشبه الباطلة على حسنه فقبلت وحيه واتخذت لاجله القرآن مهجورا فلو رأيتهم عند ذياك السماع وقد خشعت منهم الاصوات وهدأت منهم الحركات وعكفت قلوبهم بكليتها عليه وانصبت انصبابة واحدة اليه فتمايلوا له ولا كتمايل النشوان وتكسروا في حركاتهم ورقصهم أرأيت تكسر المخانيث والنسوان ويحق لهم ذلك وقد خالط خماره النفوس ففعل فيها أعظم ما يفعله حميا الكؤس فلغير الله بل للشيطان قلوب هناك تمزق وأثواب تشقق وأموال في غير طاعة الله تنفق حتى اذا عمل السكر فيهم عمله وبلغ الشيطان منهم أمنيته وأمله واستفزهم بصوته وحيله وأجلب عليهم بخيله ورجله وخز في صدورهم وخزا وأزهم الى ضرب الارض بالاقدام أزا فطورا يجعلهم كالحمير حول المدار وتارة كالدباب ترقص وسط الديار فيارحمتا للسقوف والارض من دك تلك الاقدام ويا سوأتا من اشباه الحمير والانعام ويا شماتة أعداء الاسلام بالذين يزعمون أنهم خواص الاسلام قضوا حياتهم لذة وطربا واتخذوا دينهم لهوا ولعبا مزامير الشيطان أحب اليهم من استماع سور القرآن لو سمع أحدهم القرآن من أوله الى آخره لما حرك له ساكنا ولا أزعج له قاطنا ولا أثار فيه وجدا

ولا

أصلا وميراثا فهو أعلم بمن يصلح لتحمل رسالته فيؤديها الى عباده بالامانة والنصيحة وتعظيم المرسل والقيام بحقه والصبر على أوامره والشكر لنعمه والتقرب اليه ومن لا يصلح لذلك وكذلك هو سبحانه أعلم بمن يصلح من الامم لوراثة رسله والقيام بخلافتهم وحمل ما بلغوه عن ربهم قال عبد الله بن مسعود ان الله نظر في قلوب العباد فرأى قلب محمد صلى الله عليه وسلم خير قلوب أهل الارض فاختصه برسالته ثم نظر في قلوب العباد فرأى قلوب أصحابه خير قلوب العباد فاختارهم لصحبته وفي أثر بني اسرائيل ان الله تعالى قال لموسى أتدري لم اخترتك بكلامي قال لا يارب قال اني نظرت في قلوب العباد فلم أر فيها أخضع من قلبك لي أو نحو هذا فالرب سبحانه اذا علم من محل أهلية لفضله ومحبته ومعرفته وتوحيده حبب اليه ذلك ووضعه فيه وكتبه في قلبه ووفقه له وأعانه عليه ويسر له طرقه وأغلق دونه الابواب التي تحول بينه وبين ذلك ثم تولاه بلطفه وتدبيره وتيسيره وتربيته أحسن من تربية الوالد الشفيق الرحيم المحسن لولده الذي هو أحب شئ اليه فلا يزال يعامله بلطفه ويختصه بفضله ويؤثره برحمته ويمده بمعونته ويؤيده بتوفيقه ويريه مواقع احسانه اليه وبره به فيزداد العبد به معرفة وله محبة واليه انابة وعليه توكلا ولا يتولى معه غيره ولا يعبد معه سواه وهذا هو الذي عرف قدر النعمة وعرف المنعم وأقر بنعمته وصرفها في مرضاته واقتضت حكمة الرب وجوده وكرمه واحسانه ان بذر في هذا القلب بذر الايمان والمعرفة وسقاه ماء العلم النافع والعمل الصالح وأطلع عليه من نوره شمس الهداية وصرف عنه الآفات المانعة من حصول الثمرة فانبتت أرضه الزاكية من كل زوج كريم كما في الصحيح من حديث أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال مثل ما بعثني الله من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء فانبتت الكلأ والعشب الكثير وكان منها طائفة أجادب أمسكت الماء فسقى الناس وزرعوا وأصاب منها طائفة أخرى انما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في

ولا قدح فيه من لواعج الشوق الى الله زندا حتى اذا تلي عليه قراءة الشيطان وولج مرموزه سمعه تفجرت ينابيع الوجد من قلبه على عينه فجرت وعلى أقدامه فرقصت وعلى يديه فصفقت وعلى سائر أعضائه فاهتزت وطربت وعلى أنفاسه فتصاعدت وعلى زفراته فتزايدت وعلى نيران أشواقه فاشتعلت فيا أيها الفاتن المفتون والبائع حظه من الله بنصيبه من الشيطان صفقة خاسر مغبون هلا كانت هذه الاشجان عند سماع القرآن وهذه الاذواق والمواجيد عند قراءة القرآن المجيد وهذه الاحوال السنيات عند السور والآيات ولكن كل امرئ يصبو الى ما يناسبه ويميل الى ما يشاكله والجنسية علة الضم قدرا وشرعا والمشاكلة سبب الميل عقلا وطبعا فمن أين هذا الاخاء والنسب لولا التعلق من الشيطان بأقوى سبب ومن أين هذه المصالحة التي أوقعت في عقد الايمان وعهد الرحمن خللا أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا ولقد أحسن القائل

تلي الكتاب فأطرقوا لاخيفة * لكنه اطراق ساه لاهي
وأتى الغناء فكالحمير تناهقوا * والله ما رقصوا لاجل الله
دف ومزمار ونغمة شادن * فتى رأيت عبادة بملاهي
ثقل الكتاب عليهم لما رأوا * تقييده بأوامر ونواهي
سمعوا له رعدا وبرقا اذ حوى * زجرا وتخويفا بفعل مناهي
ورأوه أعظم قاطع للنفس عن * شهواتها يا ذبحها المتناهي
وأتى السماع موافقا أغراضها * فلأجل ذاك غدا عظيم الجاه
أين المساعد للهوى من قاطع * أسبابه عند الجهول الساهي
ان لم يكن خمر الجسوم فانه * خمر العقول مماثل ومضاهي
فانظر الى النشوان عند شرابه * وانظر الى النسوان عند ملاهي
وانظر الى تمزيق ذا أثوابه * من بعد تمزيق الفؤاد اللاهي
واحكم بأي الخمرتين أحق بالتحريم والتأثيم عند الله

وقال آخر

برئنا الى الله من معشر * بهم مرض من سماع الغنا
وكم قلت ياقوم أنتم على * شفا جرف ما به من بنا *
شفا جرف تحته هوة * الى درك كم به من عنا *
وتكرار ذا النصح منا لهم * لنعذر فيهم الى ربنا *
فلما استهانوا بتنبيهنا * رجعنا الى الله في أمرنا *
فعشنا على سنة المصطفى * وماتوا على تنتنا تنتنا *

دين الله ونفعه بما بعثني الله به ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به فمثل القلوب بالارض التي هي محل النبات والثمار ومثل الوحي الذي وصل اليها من بارئها وفاطرها بالماء الذي ينزله على الارض فمن الارض أرض طيبة قابلة للماء والنبات فلما أصابها الماء أنبتت ما انتفع به الآدميون والبهائم وأقوات المكلفين وغيرهم وهذه بمنزلة القلب القابل لهدى الله ووحيه المستعد له كائنه فيه وثمرته ونماؤه وهذا خير قلوب العالمين ومن الارض أرض صلبة منخفضة غير مرتفعة ولا رابية قابلة لحفظ الماء واستقراره فيها ففيها قوة الحفظ وليس فيها قوة النبات فلما حصل فيها الماء أمسكته وحفظته فورده الناس لشربهم وشرب مواشيهم وسقوا منه زروعهم وهذا بمنزلة القلب الذي حفظ الوحي وضبطه وأداه الى من هو أفهم له منه وأفقه منه وأعرف بمراده وهذا في الدرجة الثانية ومن الارض أرض قيعان وهي المستوية التي لا تنبت اما لكونها سبخة أو رملا ولا يستقر فيها الماء فاذا وقع عليها الماء ذهب ضائعا لم تمسكه لشرب الناس ولم تنبت به كلأ لانها غير قابلة لحفظ الماء ولا لنبات الكلأ والعشب وهذا حال أكثر الخلق وهم الاشقياء الذين لم يقبلوا هدى الله ولم يرفعوا به رأسا ومن كان بهذه المثابة فليس من المسلمين بل لابد لكل مسلم ان يزكو الوحي في قلبه فينبت من العمل الصالح والكلم الطيب ونفع نفسه وغيره بحسب قدرته فمن لم ينبت قلبه شيأ من الخير البتة فهذا من أشقى الاشقياء فصلوات الله وسلامه على من الهدى والبيان والشفاء والعصمة في كلامه وفي أمثاله والمقصود ان الله سبحانه أعلم بمواقع فضله ورحمته وتوفيقه ومن يصلح لها ومن لا يصلح وان حكمته تأبى أن يضع ذلك عند غير أهله كما تأبى أن يمنعه من يصلح له وهو سبحانه الذي جعل المحل صالحا وجعله أهلا وقابلا فمنه الاعداد والامداد ومنه السبب والمسبب ومن اعترض بقوله فهلا جعل المحال كلها كذلك وجعل القلوب على قلب واحد فهو من أجهل الناس وأضلهم وأسفههم وهو بمنزلة من يقول لم خلق الاضداد وهلا جعلها كلها سببا واحدا فلم خلق الليل والنهار والفوق والتحت والحر والبرد والدواء والداء والشياطين

ولم يزل أنصار الاسلام وأئمة الهدى تصيح بهؤلاء من أقطار الارض وتحذر من سلوك سبيلهم واقتفاء آثارهم من جميع طوائف الملة قال الامام أبو بكر الطرطوشي في خطبة كتابه في تحريم السماع الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ولا عدوان الا على الظالمين ونسأله أن يرينا الحق حقا فنتبعه والباطل باطلا فنجتنبه وقد كان الناس فيما مضى يستتر أحدهم بالمعصية اذا واقعها ثم يستغفر الله ويتوب اليه منها ثم كثر الجهل وقل العلم وتناقص الامر حتى صار أحدهم يأتي بالمعصية جهارا ثم ازداد الامر ادبارا حتى بلغنا أن طائفة من اخواننا المسلمين وفقنا الله واياهم استذلهم الشيطان واستغوى عقولهم في حب الاغاني واللهو وسماع الطقطقة والنقير واعتقدوه من الدين الذي يقربهم الى الله وجاهرت به جماعة المسلمين وشاقت سبيل المؤمنين وخالفت الفقهاء والعلماء وحملة الدين ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا فرأيت أن أوضح الحق وأكشف عن شبه أهل الباطل بالحجج التي تضمنها كتاب الله وسنة رسوله وابدأ بذكر أقاويل العلماء الذين تدور الفتيا عليهم في أقاصي الارض ودانيها حتى تعلم هذه الطائفة انها قد خالفت علماء المسلمين في بدعتها والله ولي التوفيق ثم قال أما مالك فانه نهى عن الغناء وعن استماعه وقال اذا اشترى جارية فوجدها مغنية كان له أن يردها بالعيب وسئل مالك رحمه الله عما يرخص فيه أهل المدينة من الغناء فقال انما يفعله عندنا الفساق قال وأما أبو حنيفة فانه يكره الغناء ويجعله من الذنوب وكذلك مذهب أهل الكوفة سفيان وحماد وابراهيم والشعبي وغيرهم لا اختلاف بينهم في ذلك ولا نعلم خلافا أيضا بين أهل البصرة في المنع منه قلت مذهب أبي حنيفة في ذلك من أشد المذاهب وقوله فيه أغلظ الاقوال وقد صرح أصحابه بتحريم سماع الملاهي كلها كالمزمار والدف حتى الضرب بالقضيب وصرحوا بانه معصية يوجب الفسق وترد به الشهادة وأبلغ من ذلك قالوا ان السماع فسق والتلذذ به كفر هذا لفظهم ورووا في ذلك حديثا لا يصح رفعه قالوا ويجب عليه أن يجتهد في أن لا يسمعه اذا مر به أو كان في جواره وقال أبو يوسف في دار يسمع منها صوت المعازف والملاهي أدخل عليهم بغير اذنهم لان النهي عن المنكر فرض فلو لم يجز الدخول بغير اذن لامتنع الناس من اقامة الفرض قالوا ويتقدم اليه الامام اذا سمع ذلك من داره فان أصر حبسه أو ضربه سياطا وان شاء أزعجه عن داره وأما الشافعي فقال في كتاب أدب القضاء ان الغناء لهو مكروه يشبه الباطل والمحال ومن استكثر منه فهو سفيه ترد شهادته وصرح أصحابه العارفون بمذهبه بتحريمه وأنكروا على من نسب اليه حله كالقاضي أبي الطيب الطبري والشيخ أبي اسحق وابن الصباغ قال الشيخ أبو اسحق في التنبيه ولا تصح يعني الاجارة على منفعة محرمة كالغناء والزمر وحمل الخمر ولم يذكر فيه خلافا وقال في المهذب ولا يجوز على المنافع المحرمة لانه

محرم

والملائكة والروائح الطيبة والكريهة والحلو والمر والحسن والقبيح وهل يسمح خاطر من له أدنى مسكة من عقل بمثل هذا السؤال الدال على حمق سائله وفساد عقله وهل ذلك الا موجب ربوبيته والهيته وملكه وقدرته ومشيئته وحكمته ويستحيل أن يتخلف موجب صفات كماله عنها وهل حقيقة الملك الا باكرام الاولياء واهانة الاعداء وهل تمام الحكمة وكمال القدرة الا بخلق المتضادات والمختلفات وترتيب آثارها عليها وايصال ما يليق بكل منها اليه وهل ظهور آثار أسمائه وصفاته في العالم الا من لوازم ربوبيته وملكه فهل يكون رزاقا وغفارا وغفورا ورحيما وحليما ولم يوجد من يرزقه ولا من يغفر له ويعفو عنه ويحلم عنه ويرحمه وهل انتقامه الا من لوازم ربوبيته وملكه فمن ينتقم ان لم يكن له أعداء ينتقم منهم ويري أولياءه كمال نعمته عليهم واختصاصه اياهم دون غيرهم بكرامته وثوابه وهل في الحكمة الالهية تعطيل الخير الكثير لاجل شر جزئي يكون من لوازمه فهذا الغيث الذي يحيي به الله البلاد والعباد والشجر والدواب كم يحبس من مسافر ويمنع من قصار ويهدم من بناء ويعوق من مصلحة ولكن أين هذا مما يحصل به من المصالح وهل هذه المفاسد في جنب مصالحه الا كتفلة في بحر وهل تعطيله لئلا تحصل به هذه المفاسد الا موجبا لاعظم المفاسد والهلاك وهذه الشمس التي سخرها الله لمنافع عباده وانضاج ثمارهم وأقواتهم وتربية أبدانهم وأبدان الحيوانات والطير وفيها من المنافع والمصالح ما فيها كم تؤذي مسافرا وغيره بحرها وكم تجفف رطوبة وكم تعطش حيوانا وكم تحبس عن مصلحة وكم تنشف من مورد وتحرق من زرع ولكن أين نفع هذا في جنب ما فيها من المنافع والمصالح الضرورية والمكملة فتعطيل الخير الكثير لاجل الشر اليسير شر كثير وهو خلاف موجب الحكمة الذي تنزه الله سبحانه عنه قلت لشيخ الاسلام فقد كان من الممكن خلق هذه الامور مجردة عن المفاسد مشتملة على المصلحة الخالصة فقال خلق هذه الطبيعة بدون لوازمها ممتنع فان وجود الملزوم بدون لازمه محال ولو خلقت على غير هذا الوجه لكانت غير هذه ولكان عالما آخر غير

محرم فلا يجوز أخذ العوض عنه كالميتة والدم فقد تضمن كلام الشيخ أمورا أحدها ان منفعة الغناء بمجرده منفعة محرمة الثاني ان الاستئجار عليها باطل الثالث ان أكل المال به أكل مال باطل بمنزلة أكله عوضا عن الميتة والدم الرابع أنه لا يجوز للرجل بذل ماله للمغنى ويحرم عليه ذلك فانه بذل ماله في مقابلة محرم وأن بذله في ذلك كبذله في مقابلة الدم والميتة الخامس أن الزمر حرام واذا كان الزمر الذي هو أخف آلات اللهو حراما فكيف بما هو أشد منه كالعود والطنبور واليراع ولا ينبغي لمن شم رائحة العلم أن يتوقف في تحريم ذلك فأقل ما فيه أنه من شعائر الفساق وشاربي الخمور وكذلك قال أبو زكريا النووي في روضته القسم الثاني أن يغني ببعض آلات الغناء بما هو من شعائر شاربي الخمر وهو مطرب كالطنبور والعود والصنج وسائر المعازف والاوتار يحرم استعماله واستماعه قال وفي اليراع وجهان صحح البغوي التحريم ثم ذكر عن الغزالي الجواز قال والصحيح تحريم اليراع وهو الشبابة وقد صنف أبو القاسم الدولعي كتابا في تحريم اليراع وقد حكى أبو عمرو بن الصلاح الاجماع على تحريم السماع الذي جمع الدف والشبابة فقال في فتاويه وأما اباحة هذا السماع وتحليله فليعلم ان الدف والشبابة والغناء اذا اجتمعت فاستماع ذلك حرام عند أئمة المذاهب وغيرهم من علماء المسلمين ولم يثبت عن أحد ممن يعتد بقوله في الاجماع والاختلاف انه أباح هذا السماع والخلاف المنقول عن بعض أصحاب الشافعي انما نقل في الشبابة مفردة والدف منفردا فمن لا يحصل أولا يتأمل ربما اعتقد خلافا بين الشافعيين في هذا السماع الجامع هذه الملاهي وذلك وهم بين من الصائر اليه تنادي عليه أدلة الشرع والعقل مع انه ليس كل خلاف يستروح ويعتمد عليه ومن يتبع ما اختلف فيه العلماء وأخذ بالرخص من أقاويلهم تزندق أو كاد قال وقولهم في السماع المذكور انه من القربات والطاعات قول مخالف لاجماع المسلمين ومن خالف اجماعهم فعليه ما في قوله تعالى ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا وأطال الكلام في الرد على هاتين الطائفتين اللتين جلاء الاسلام منهم المحللون لما حرم الله والمتقربون الى الله بما يباعدهم عنه والشافعي وقدماء أصحابه والعارفون بمذهبه من أغلظ الناس قولا في ذلك وقد تواتر عن الشافعي أنه قال خلفت ببغداد شيأ أحدثته الزنادقة يسمونه التغبير يصدون به الناس عن القرآن فاذا كان هذا قوله في التغبير وتعليله انه يصد عن القرآن وهو شعر يزهد في الدنيا يغني به مغن فيضرب بعض الحاضرين بقضيب على نطع أو مخدة على توقيع غناه فليت شعري ما يقول في سماع التغبير عنده كتفلة في بحر قد اشتمل على كل مفسدة وجمع كل محرم فالله بين دينه وبين كل متعلم مفتون وعابد جاهل قال سفيان بن عيينة كان يقال احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل فان فتنتهما فتنة لكل مفتون ومن تأمل الفساد الداخل على

هذا قال ومن الاشياء ما تكون ذاته مستلزمة لنوع من الامور لا ينفك عنه كالحركة مثلا المستلزمة لكونها لا تبقى فاذا قيل لم تخلق الحركة المعينة باقية قيل لان ذات الحركة تتضمن النقلة من مكان الى مكان والتحول من حال الى حال فاذا قدر ما ليس كذلك لم يكن حركة ونفس الانسان هي في ذاتها جاهلة عاجزة فقيرة كما قال تعالى والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيأ وانما يأتيها العلم والقدرة والغنى من الله بفضله ورحمته فما حصل لها من كمال وخير فمن الله وما حصل لها من عجز وفقر وجهل يوجب الظلم والشر فهو منها ومن حقيقتها وهذه أمور عدمية وليس لها من نفسها وجود ولا كمال والامور العدمية من لوازم وجودها ولو جعلت على غير ذلك لم تكن هي هذه النفس الانسانية بل مخلوقا آخر فحقيقة نفس الانسان جاهلة ظالمة فقيرة محتاجة والشر الذي يحصل لها نوعان عدم ووجود فالاول كعدم العلم والايمان والصبر وارادة الخيرات وعدم العمل بها وهذا العدم ليس له فاعل اذ العدم المحض لا يكون له فاعل لان تأثير الفاعل انما هو في أمر وجودي وكذلك عدم استعدادها للخيرات والكمالات هو عدم محض ليس له فاعل فان العدم ليس بشيء أصلا وما ليس بشيء لا يقال انه مفعول لفاعل فلا يقال انه من الله انما يحتاج الى الفاعل الامور الوجودية ولهذا من قول المسلمين كلهم ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن فكل كائن فبمشيئته كان وما لم يكن فلعدم مشيئته والعدم يعلل بعدم السبب أو الشرط تارة وبوجود المانع أخرى وقد يقال علة العدم عدم العلة وبعض الناس يقول الممكن لا يترجح أحد طرفيه الا بمرجح فلا يوجد الا بسبب ولا يعدم الا بسبب قال والتحقيق في هذا ان العدم ليس له فاعل ولا علة فاعلة أصلا اذا أضيف الى عدم السبب أو عدم الشرط فمعناه الملازمة أي عدم العلة استلزم عدم المعلول وعدم الشرط استلزم عدم المشروط فاذا قيل عدم لعدم علة مستلزمة لعدمه والنفس تطلب سبب العدم فتقول لم لم يوجد كذا فيقال لعدم كذا فيضاف عدم المعلول الى عدم علته لا اضافة تأثير ولكن اضافة استلزام وتعريف وأما التعليل بالمانع فلا يكون الا مع قيام السبب اذا

الامة وجده من هذين المفتونين وأما مذهب الامام أحمد فقال عبد الله ابنه سألت أبي عن الغناء فقال الغناء ينبت النفاق في القلب لا يعجبني ثم ذكر قول مالك انما يفعله عندنا الفساق قال عبد الله وسمعت أبي يقول سمعت يحيى القطان يقول لو أن رجلا عمل بكل رخصة بقول أهل الكوفة في النبيذ وأهل المدينة في السماع وأهل مكة في المتعة لكان فاسقا قال أحمد وقال سليمان التيمي لو أخذت برخصة كل عالم أو زلة كل عالم اجتمع فيك الشر كله ونص على كسر آلات اللهو كالطنبور وغيره اذا رآها مكشوفة وأمكنه كسرها وعنه في كسرها اذا كانت مغطاة تحت ثيابه وعلم بها روايتان منصوصتان ونص في أيتام ورثوا جارية مغنية وأرادوا بيعها فقال لا تباع الا على انها ساذجة فقالوا اذا بيعت مغنية ساوت عشرين ألفا أو نحوها واذا بيعت ساذجة لا تساوي ألفين فقال لا تباع الا على انها ساذجة ولو كانت منفعة الغناء مباحة لما فوت هذا المال على الايتام

(فصل) وأما سماعه من المرأة الاجنبية أو الامرد فمن أعظم المحرمات وأشدها فسادا للدين قال الشافعي رحمه الله وصاحب الجارية اذا جمع الناس لسماعها فهو سفيه ترد شهادته وغلظ القول فيه وقال هو دياثة فمن فعل ذلك كان ديوثا قال القاضي أبو الطيب وانما جعل صاحبها سفيها لانه دعا الناس الى الباطل ومن دعا الناس الى الباطل كان سفيها فاسقا قال وكان الشافعي يكره التغبير وهو الطقطقة بالقضيب ويقول وضعته الزنادقة ليشغلوا به عن القرآن قال وأما العود والطنبور وسائر الملاهي فحرام ومستمعه فاسق واتباع الجماعة أولى من اتباع رجلين مطعون عليهما قلت يريد بهما ابراهيم بن سعد وعبيد الله بن الحسن فانه قال وما خالف في الغناء الا رجلان ابراهيم بن سعد فان الساجي حكى عنه انه كان لا يرى به باسا والثاني عبيد بن الحسن العنبري قاضي البصرة وهو مطعون فيه قال أبو بكر الطرطوشي وهذه الطائفة مخالفة لجماعة المسلمين لانهم جعلوا الغناء دينا وطاعة ورأت اعلانه في المساجد والجوامع وسائر البقاع الشريفة والمشاهد الكريمة وليس في الامة من رأى هذا الرأي قلت ومن أعظم المنكرات تمكينهم من اقامة هذا الشعار الملعون هو وأهله في المسجد الأقصى عشية عرفة ويقيمونه أيضا في مسجد الخيف أيام منى وقد أخرجناهم منه بالضرب والنفي مرارا ورأيتهم يقيمونه بالمسجد الحرام نفسه والناس في الطواف فاستدعيت حزب الله وفرقنا شملهم ورأيتهم يقيمونه بعرفات والناس في الدعاء والتضرع والابتهال والضجيج الى الله وهم في هذا السماع الملعون [illegible] والدف والغناء فاقرار هذه الطائفة على ذلك فسق يقدح في عدالة من أقرهم [illegible] الديني وما أحسن ما قال بعض العلماء وقد شاهد أفعالهم

ألا

يجعل المانع مقتضيا للعدم وأما اذا أريد قياس الدلالة فوجود المانع يستلزم عدم الحكم سواء كان المقتضي موجودا أو لم يكن والمقصود ان ما عدمته النفس من كمالها فنهايتها ألا تقتضي الا العدم أي عدم استعداد نفسها وقوتها هي السبب في عدم هذا الكمال فانه كما يكون أحد الوجودين سببا للآخر فكذلك أحد العدمين يكون سببا لعدم الآخر والموجود الحادث يضاف الى السبب المقتضي لايجاده وأما المعدوم فلا يحتاج استمراره على العدم الى فاعل يحدث العدم بل يكفي في استمراره عدم مشيئة الفاعل المختار له فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن لانتفاء مشيئته فانتفاء مشيئة كونه سبب عدمه وهذا معنى قولهم عدم علة الوجود علة العدم وبهذا الاعتبار الممكن القابل للوجود والعدم لا يترجح أحد طرفيه على الآخر الا بمرجح فرجح عدمه عدم مرجحه ومعنى الترجيح والسببية ههنا الاستلزام لا التأثير كما تقدم فظهر استحالة اضافة هذا الشر الى الله عز وجل وأما الشر الثاني وهو الشر الوجودي كالعقائد الباطلة والارادات الفاسدة فهو من لوازم ذلك العدم فانه متى عدم ذلك العلم النافع والعمل الصالح من النفس لزم أن يخلفه الشر والجهل وموجبهما ولا بد لان النفس لا بد لها من أحد الضدين فاذا لم تشتغل بالضد النافع الصالح اشتغلت بالضد الضار الفاسد وهذا الشر الوجودي هو من خلقه تعالى اذ لا خالق سواه وهو خالق كل شئ لكن كل ما خلقه الله فلا بد أن يكون له في خلقه حكمة لاجلها خلقه فلو لم يخلقه فاتت تلك الحكمة وليس في الحكمة تفويت هذه الحكمة التي هي أحب اليه سبحانه من الخير الحاصل بعدمها فان في وجودها من الحكمة والغايات التي يحمد عليها سبحانه اضعاف ما في عدمها من ذلك ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنع وليس في الحكمة تفويت هذه الحكمة العظيمة لاجل ما يحصل للنفس من الشر مع ما حصل من الخيرات التي لم تكن تحصل بدون هذا الشر ووجود الشئ لا يكون الا مع وجود لوازمه وانتفاء أضداده فانتفاء لوازمه يكون ممتنعا لغيره وحينئذ فقد يكون هدى هذه النفوس الفاجرة وشهادتها امتنع وطا بلوازم لم تحصل أو بانتفاء أضداد لم تنتف فان قيل فهلا

حصلت تلك اللوازم وانتفت تلك الاضداد فهذا هو السؤال الاول وقد بينا ان لوازم هذا الخلق وهذه النشأة وهذا العالم لابد منها فلو قدر عدمها لم يكن هذا العالم بل عالما آخر ونشأة أخرى وخلقا آخر وبينا ان هذا السؤال بمنزلة أن يقال هلا تجرد الغيث والانهار عما يحصل به من تغريق وتخريب وأذى وهلا تجردت الشمس عما يحصل منها من حر وسموم وأذى وهلا تجردت طبيعة الحيوان عما يحصل له من ألم وموت وغير ذلك وهلا تجردت الولادة عن مشقة الحمل والطلق وألم الوضع وهلا تجرد بدن الحيوان عن قبوله للآلام والاوجاع واختلاف الطبائع الموجبة لتغير أحواله وهلا تجرد فصول العالم عما فيها من البرد الشديد القاتل والحر الشديد المؤذي فهل يقبل عاقل هذا السؤال أو يورده وهل هذا الا بمنزلة أن يقال لم كان المخلوق فقيرا محتاجا والفقر والحاجة صفة نقص فهلا تجرد منها وخلعت عليه خلعة الغنى المطلق والكمال المطلق فهل يكون مخلوقا اذا كان غنيا غنى مطلقا ومعلوم ان لوازم الخلق لابد منها فيه ولابد العلو من سفل والسفل من مركز ولوازم العلو من السعة والاضاءة والبهجة والخيرات وما هنالك من الارواح العلوية النيرة المناسبة لمحلها وما يليق بها ويناسبها من الابتهاج والسرور والفرح والقوة والتجرد من علائق المواد العلية لابد منها ولوازم السفل والمركز من الضيق والحصر ولوازم ذلك من الظلمة والغلظ والشر وما هنالك من الارواح السفلية المظلمة الشريرة وأعمالها وآثارها لابد منه فهما عالمان علوي وسفلي ومحلان وساكنان تناسبهما مساكنهما وأعمالهما وطبائعهما وقد خلق كلا من المحلين معمورا بأهليه وساكنيه حكمة بالغة وقدرة قاهرة وكل من هذه الارواح لا يليق بها غير ما خلقت له مما يناسبها ويشاكلها قال تعالى قل كل يعمل على شاكلته أي على ما يشاكله ويناسبه ويليق به كما يقول الناس كل اناء بالذي فيه ينضح فمن أرادت من الارواح الخبيثة السفلية أن تكون مجاورة للارواح الطيبة العلوية في مقام الصدق بين الملأ الاعلى فقد أرادت ما تأباه حكمة أحكم الحاكمين ولو أن ملكا من ملوك الدنيا جعل خاصته وحاشيته سفلة الناس وسقطهم وغرتهم الذين تناسب

ألا قل لهم قول عبد نصوح * وحق النصيحة أن تستمع
متى علم الناس في ديننا * بان الغناء سنة تتبع
وان يأكل المرء أكل الحما * ر ويرقص في الجمع حتى يقع
وقالوا سكرنا بحب الاله * وما أسكر القوم الا القصع
كذاك البهائم ان أشبعت * يرقصها ريها والشبع
ويسكره الناي ثم الغنا * ويس لو تليت ما انصدع
فيا للعقول ويا للنهى * الا منكر منكم للبدع
تهان مساجدنا بالسماع * وتكرم عن مثل ذاك البيع

وقال آخر وأحسن ما شاء

ذهب الرجال وحال دون مجالهم * زمر من الأوباش والأنذال
زعموا بأنهم على آثارهم * ساروا ولكن سيرة البطال
لبسوا الدلوق مرقعا وتقشفوا * كتقشف الاقطاب والابدال
قطعوا طريق السالكين وغوروا * سبل الهدى بجهالة وضلال
عمروا ظواهرهم بأثواب التقى * وحشوا بواطنهم من الادغال
ان قلت قال الله قال رسوله * همزوك همز المنكر المتغال
أو قلت قد قال الصحابة والأُلى * تبعوهم في القول والاعمال
أو قلت قال الآل آل المصطفى * صلى عليه الله أفضل آل
أو قلت قال الشافعي وأحمد * وأبو حنيفة والامام العال
أو قلت قال صحابهم من بعدهم * فالكل عندهم كشبه خيال
ويقول قلبي قال لي عن سره * عن سر سري عن صفا أحوالي
عن حضرتي عن فكرتي عن خلوتي * عن شاهدي عن واردي عن حالي
عن صفووقتي عن حقيقة مشهدي * عن سر ذاتي عن صفات فعالي
دعوى اذا حققتها ألفيتها * ألقاب زور لفقت بمحال
تركوا الحقائق والشرائع واقتدوا * بظواهر الجهال والضلال
جعلوا المرا فتحا وألفاظ الخطا * شطحا وصالوا صولة الادلال
نبذوا كتاب الله خلف ظهورهم * نبذ المسافر فضلة الاكال
جعلوا السماع مطية لهواهم * وغلوا فقالوا فيه كل محال
هو طاعة هو قربة هو سنة * صدقوا لذاك الشيخ ذي الاضلال
شيخ قديم صادهم بتحيل * حتى أجابوا دعوة المحتال
هجروا له القرآن والاخبار والـ * آثار اذ شهدت لهم بضلال

أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم فى القبح والرداءة والدناءة لقدح الناس فى ملكه وقالوا لا يصلح للملك سالظن بمجاورى الملك الاعظم مالك
الملوك فى داره وتنعمهم برؤيته وجهه وسماع كلامه ومرافقتهم للملأ الاعلى الذين هم أطيب خلقه وأزكاهم وأشرفهم أفيليق بذلك
الرفيق الاعلى والمحل الاسنى والدرجات العلى روح سفلية أرضية قد أخلدت الى الارض وعكفت على ما يقتضيه طبائعها مما
تشاركها فيه بل قد تزيد على
الحيوان البهيم وقصرت همتها
عليه وأقبلت بكليتها عليه لا ترى
نعيما ولا لذة ولا سرورا الا ما وافق
طباعها من كل مأكل ومشرب
ومنكح من أين كان وكيف اتفق
فالفرق بينها وبين الحمير والكلاب
والبقر بانتصاب القامة ونطق
اللسان والاكل باليد والا فالقلب
والطبع على قلوب هذه الحيوانات
وطباعها وربما كانت طباع
الحيوانات خيرا من طباع هؤلاء
وأسلم وأقبل للخير ولهذا جعلهم
الله سبحانه شر الدواب فقال تعالى
ان شر الدواب عند الله الصم البكم
الذين لا يعقلون ولو علم الله فيهم خيرا
لاسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم
معرضون فهل يليق بحكمة
العزيز الحكيم ان يجمع بين خير
البرية وأزكى الخلق وبين شر
البرية وشر الدواب فى دار واحدة
يكونون فيها على حال واحدة
من النعيم أو العذاب قال الله تعالى
أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم
كيف تحكمون فانكر عليهم الحكم
بهذا وأخرج ... الانكار
لا مخرج الاخبار لينبه العقول
على ان هذا مما تحيله الفطر وتاباه
العقول السليمة وقال تعالى
لا يستوى أصحاب النار وأصحاب
الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون
وقال أم نجعل الذين آمنوا وعملوا
الصالحات كالمفسدين فى الارض
أم نجعل المتقين كالفجار وقال
قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر أولو الالباب بل الواحد من الخلق لا تستوى
أعاليه وأسافله فلا يستوى عقبه وعينه ولا رأسه ورجلاه ولا يصلح أحدهما لما يصلح له الآخر فالله عز وجل قد خلق الخبيث والطيب
والسهل والحزن والضار والنافع وهذه أجزاء الارض منها ما يصلح جلاء للعين ومنها ما يصلح للاتون والنار وبهذا ونحوه يعرف كمال القدرة وكمال

ورأوا سماع الشعر أنفع للفتى * من أوجه سبع لهم بتوال
تالله ما ظفر العدو بمثلها * من مثلهم واخيبة الآمال
نصب الحبال لهم فلم يقعوا بها * فأتى بذا الشرك المحيط الغالى
فاذا بهم وسط العرين ممزقى الـ * أثواب والاديان والاحوال
لا يسمعون سوى الذى يهوونه * شغلا به عن سائر الاشغال
ودعوا الى ذات اليمين فأعرضوا * عنها وسار القوم ذات شمال
خروا على القرآن عند سماعه * صما وعميانا ذوى اهمال
واذا تلا القارى عليهم سورة * فأطالها عدوه فى الاثقال
ويقول قائلهم أطلت وليس ذا * عشرا نخفف أنت ذو املال
هذا وكم لغو وكم صخب وكم * ضحك بلا أدب ولا اجمال
حتى اذا قام السماع لديهم * خشعت له الاصوات بالاجلال
وامتدت الاعناق تسمع وحى ذا * لك الشيخ من مترنم قوال
وتحركت تلك الرؤس وهزها * طرب وأشواق لنيل وصال
فهنالك الاشواق والاشجان والـ * أحوال لا أهلا بذى الاحوال
تالله لو كانوا صحاة أبصروا * ماذا دهاهم من قبيح فعال
لكنما سكر السماع أشد من * سكر المدام وذا بلا إشكال
فاذا هما اجتمعا لنفس مرة * نالت من الخسران كل منال
يا أمة لعبت بدين نبيها * كتلاعب الصبيان فى الاوحال
أشمتمو أهل الكتاب بدينكم * والله لن يرضوا بذى الافعال
كم ذا نعير منهم تفريقكم * سرا وجهرا عند كل جدال
قالوا انا دين عبادة أهله * هذا السماع فذاك دين محال
بل لا تجيء شريعة بجوازه * فسلوا الشرائع تكتفوا بسؤال
لو قلتم فسق ومعصية وتـ * ـزيين من الشيطان للانذال
ليصد عن وحى الاله ودينه * وينال فيه حيلة المحتال
كنا شهدنا ان ذا دين أتى * بالحق دين الرسل لا بضلال
والله منهم قد سمعنا ذا الى الـ * آذان من أفواههم بمقال
وتمام ذاك القول بالحيل التى * فسخت عقود الدين فسخ فصال
جعلته كالثوب المهلهل نسجه * فيه تفصله من الاوصال
ما شئت من مكر ومن خدع ومن * حيل وتلبيس بلا اقلال
فاحتل على اسقاط كل فريضة * وعلى حرام الله بالاحلال
واحتل

واحتل على المظلوم يقلب ظالما * وعلى الظلوم بضد تلك الحال
واقلب وحول فالتحيل كله * فى القلب والتحويل ذو اعمال
ان كنت تفهم ذا ظفرت بكل ما * تبغى من الافعال والاقوال
واحتل على شرب المدام وسمها * غير اسمها واللفظ ذو اجمال
واحتل على اكل الربا واهجر شنا * عة لفظه واحتل على الانذال
واحتل على الوطء الحرام ولا تقل * هذا زنا وانكح رخى البال
واحتل على حل العقود وفسخها * بعد اللزوم و ذاك ذو اشكال
الا على المحتال فهو طبيبها * يا محنة الاديان بالمحتال
واحتل على نقض الوقوف وعودها * طلقا ولا تستحى من ابطال
فكر وقدر ثم فصل بعدذا * فاذا غلبت فلج فى الاشكال
واحتل على الميراث فانزعه من الـ * ـورّاث ثم ابلع جميع المال
قد أثبتوا نسبا وحصرا فيكم * حتى تحوزوا الارث للاموال
واعمد الى تلك الشهادة واجعل الـ * ـابطال همك تحظ بالابطال
فالحصر اثبات ونفى غير معـ * ـلوم وهذا موضع الاشكال
واحتل على مال اليتيم فانه * رزق هنى من ضعيف الحال
لا سوطه يخشى ولا من سيفه * والقول قولك فى نفاد المال
واحتل على أكل الوقوف فانها * مثل السوائب ربة الاهمال
فأبو حنيفة عنده هى باطل * فى الاصل لم يحتج الى ابطال
فالمال مال ضائـ * ـع أربابه * هلكوا نخذ منه بلا مكيال
واذا تصح بحكم قاض عادل * فشروطها صارت الى اضمحلال
قد عطل الناس الشروط وأهملوا * مقصودها فالكل فى اهمال
وتمام ذاك قضاتنا وشهودنا * فاسأل بهم ذا خبرة بالحال
أما الشهود فهم عدول عن طريـ * ـق العدل فى الاقوال والافعال
زورا وتميما وكتمانا وتلـ * ـبيسا واسرافا بأخذ نوال
ينسى شهادته ويحلف أنه * ناس لها والقلب ذو اغفال
فاذا رأى المنقوش قال ذكرتها * يا للمذكر جئت بالآمال
ويقول قائلهم أخوض النار فى * نزر يسير ذاك عين خبال
ثقل لى الميزان انى خائض * للمنكبين أجر بالاغلال
أما القضاة فقد تواتر عنهم * ما قد سمعت فلا تفه بمقال
ماذا يقول اذا يقول حكمت ا * نك فاسق أو كافر فى الحال

الحكمة فكمال القدرة بخلق الاضداد وكمال الحكمة تنزيلها منازلها و وضع كل منها فى موضعه والعالم من لا يلقى الحرب بين قدرة الله وحكمته فان آمن بالقدرة قدح فى الحكمة وعطلها وان آمن بالحكمة قدح فى القدرة ونقصها بل يربط القدرة بالحكمة و يعلم شمولهما لجميع ما خلقه الله و يخلقه فكما انه لا يكون الا بقدرته ومشيئته فكذلك لا يكون الا بحكمته واذا كان لا سبيل للعقول البشرية الى الاحاطة بهذا تفصيلا فيكفيها الايمان بما تعلم وتشاهد منه ثم تستدل على الغائب بالشاهد وتعتبر ما علمت بما لم تعلم وقد ضرب الله الامثال لعباده فى كتابه وبين لهم ما فى لوازم ما خلقه لهم وأنزله عليهم من الغيث الذى به حياتهم وأقواتهم وحياة الارض والدواب وما خلقه لهم من المعادن التى بها اصلاح أبدانهم وأقواتهم وصنائعهم من الشر والخير وبين المغمور بالاضافة الى الخير الحاصل بذلك فقال تعالى أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فاما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض كذلك يضرب الله الامثال فاخبر سبحانه ان الماء بمخالطته بسبب الارض اذا سال فلا بد من أن يحمل السيل من الغثاء والوسخ وغيره زبدا عاليا على وجه السيل فالذى لا يعرف ما تحت الزبد يقصر نظره عليه ولا يرى الا الغثاء والوسخ ونحو ذلك ولا يرى ما تحته من مادة الحياة وكذلك ما يستخرج من المعادن من الذهب والفضة والحديد والنحاس وغيرها اذا أوقد عليها فى النار ليتهيأ الانتفاع بها خرج منها خبث ليس من جوهرها ولا ينتفع به وهذا لا بد منه فى هذا وهذا يجاوزه ببصره وقد ذم تعالى من ضعفت بصيرته من المنافقين وعمى عما فى القرآن مما به ينال كل سعادة وعلم وهدى وصلاح وخير فى الدنيا والآخرة لمن لم يجاوز ببصره وسمعه رعوده وعيده و بروقها وصواعقها وما أعدا له لاعدائه من عذابه ونكاله وخزيه وعقابه الذى هو بالاضافة الى ما فيه من حياة القلوب والارواح ومن المعارف الالهية وتبين طريق العبودية التى هى غاية كمال العبد وهو مقصود لتكميل

ذلك وتمامه قال تعالى مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون صم بكم عمى فهم لا يرجعون أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه واذا أظلم عليهم قاموا فهكذا حال كل من قصر نظره فى بعض مخلوقات الرب سبحانه على ما لا بد منه من شر جزئى جدا بالاضافة الى الخير الكثير ولو لم تكن فى هذه النشأة الانسانية الا خاصته وأولياؤه من رسله وأنبيائه وأتباعهم لكفى بهم خيرا ومصلحة ومن عاداهم وان كانوا اضعاف اضعاف اضعافهم فهم كالغش والزبالة وغثاء السيل لا يعبأ بكثرتهم ولا يقدح فى الحكمة الالهية بل وجود الواحد الكامل من هذا النوع يغتفر معه لآلاف مؤلفة من النوع الآخر فانه اذا وجد واحد يوازن البرية ويرجح عليها كان الخير الحاصل بوجوده والحكمة والمصلحة اضعاف الشر الحاصل من وجود أضداده وأنبت وأنفع وأحب الى الله من فواته بتفويت ذلك الشر المقابل له وهذا كالشمس فان الخير الحاصل بها أنفع للخلق وأكثر وأثبت وأصلح من تفويته بتفويت الشر المقابل له بها وأين نفع الشمس وصلاح النبات والحيوان بها من نفع الرسل وصلاح الوجود بهم بل أين ذلك من نفع سيد ولد آدم وصلاح الابدان والدين والدنيا والآخرة به وقد ضرب للنفس الانسانية وما فيها من الخير والشر مثل بدولاب أو طاحون شديد الدوران أى شئ خطفه ألقاه تحته وأفسده وعنده قيمه الذى يديره وقد احكم أمره لينتفع به ولا يضر أحدا فرعاه الغر الذى لا يعرف فيتقرب منه فيخرق ثوبه أو بدنه أو يؤذيه فاذا قيل لصاحبه لم لم تجعله ساكنا لا يؤذى من اقترب منه قال نعم هذه صفته اللازمة الذى كان بها دولابا وطاحونا ولو جعل على غير هذه الصفة لم تحصل به الحكمة المطلوبة منه وكذلك اذا أوقدنا نار الاتون التى تحرق ما وقع فيها وعندها وقاد حاذق يحشيها فاذا غفل عنها أفسدت واذا أراد احد ان يقرب منها نهاه وحذره فاذا استغفله من قرب منها

واذا استغثت أغثت بالجلد الذى * قد طرقوه كمثل طرق نعال
فيقول طق فتقول قط فتعارضا * ويكون قول الجلد ذا اعمال
فأجارك الرحمن من ضرب ومن * عرض ومن كذب وسوء مقال
هـذا ونسبة ذاك أجمعه الى * دين الرسول وذا من الاهوال
حاشا رسول الله يحكم بالهوى * والجهل تلك حكومة الضلال
والله لو عرضت عليه كلها * لاجتثها بالنقص والابطال
الا التى منها يوافق حكمه * فهو الذى يلقاه بالاقبال
أحكامه عدل وحق كلها * فى رحمة ومصالح وخلال
شهدت عقول الخلق قاطبة بما * فى حكمه من صحة وكمال
فاذا أتت أحكامه ألفيتها * وفق العقول تزيل كل عقال
حتى يقول السامعون لحكمه * مابعد هـذا الحق غير ضلال
لله أحكام الرسول وعدلها * بين العباد ونورها المتلالى
كانت بها فى الارض أعظم رحمة * والناس فى سعد وفى اقبال
أحكامهم تجرى على وجه السدا * د وحالهم فى ذاك أحسن حال
أمنا وعزا فى هـدى وتراحم * وتواصل ومحبة وجلال
فتغيرت أوضاعها حتى غدت * منكورة بتلوث الاعمال
فتغيرت أعمالهم وتبدلت * أحوالهم بالنقص بعد كمال
لو كان دين الله فيهم قائما * لرأيتهم فى أحسن الاحوال
واذا هم حكموا بحكم جائر * حكموا لمنكره بكل وبال
قالوا أتنكر حكم شرع محمد * حاشا لذا الشرع الشريف العالى
عجت فروج الناس ثم حقوقهم * لله بالبكرات والآصال
كم تستحل بكل حكم باطل * لا يرتضيه ربنا المتعالى
والكل فى قعر الجحيم سوى الذى * يقضى بدين الله لا لنوال
أو ما سمعت بان ثلثيهم غدا * فى النار فى ذاك الزمان الخالى
وزماننا هـذا فربك عالم * هل فيه ذاك الثلث أم هو خال
يا باغى الاحسان يطلب ربه * ليفوز منه بغاية الآمال
انظر الى هدى الصحابة والذى * كانوا عليه فى الزمان الخالى
واسلك طريق القوم أين تيمموا * خذ يمنة ما الدرب ذات شمال
تالله ما اختاروا لانفسهم سوى * سبل الهدى فى القول والافعال
درجوا على نهج الرسول وهديه * وبه اقتدوا فى سائر الاحوال

نعم الرفيق لطالب يبغي الهدى * فمآله في الحشر خير مآل
القانتين المخبتين لربهم * الناطقين بأصدق الاقوال
التاركين لكل فعل سيئ * والعاملين بأحسن الاعمال
أهواؤهم تبع لدين نبيهم * وسواهم بالضد في ذي الحال
ماشابهم في دينهم نقص ولا * في قولهم شطح الجهول الغالي
عملوا بما علموا ولم يتكلفوا * فلذاك ماشابوا الهدى بضلال
وسواهم بالضد في الامرين قد * تركوا الهدى ودعوا الى الضلال
فهم الادلة للحيارى من يسر * بهداهم لم يخش من اضلال
وهم النجوم هداية واضاءة * وعلو منزلة وبعد منال
يمشون بين الناس هونا نطقهم * بالحق لا بجهالة الجهال
حلما وعلما مع تقى وتواضع * ونصيحة مع رتبة الافضال
يحيون ليلهم بطاعة ربهم * بتلاوة وتضرع وسؤال
وعيونهم تجري بفيض دموعهم * مثل انهمال الوابل الهطال
في الليل رهبان وعند جهادهم * لعدوهم من أشجع الابطال
واذا بدا علم الرهان رأيتهم * يتسابقون بصالح الاعمال
بوجوههم أثر السجود لربهم * وبها أشعة نوره المتلالي
ولقد أبان لك الكتاب صفاتهم * في سورة الفتح المبين العالي
وبرابع السبع الطوال صفاتهم * قوم يحبهم ذو اذلال *
وبراءة والحشر فيها وصفهم * وبهل أتى وبسورة الانفال

(فصل) هذا السماع الشيطاني المضاد للسماع الرحماني له في الشرع بضعة عشر اسما اللهو واللغو والباطل والزور والمكاء والتصدية ورقية الزنا وقرآن الشيطان ومنبت النفاق في القلب والصوت الاحمق والصوت الفاجر وصوت الشيطان ومزمور الشيطان والسمود أسماؤه دلت على أوصافه تبا لذي الاسماء والاوصاف فنذكر مجاري هذه الاسماء ووقوعها في كلام الله ورسوله والصحابة ليعلم أصحابه وأهله بما به ظفروا وأي تجارة رابحة خسروا

فدع صاحب المزمار والدف والغنا * وما اختاره عن طاعة الله مذهبا
ودعه يعش في غيه وضلاله * على تاتنا يحيا ويبعث أشيبا
وفي تنتنا يوم المعاد نجاته * الى الجنة الحمراء يدعى مقربا
سيعلم يوم العرض أي بضاعة * أضاع وعند الوزن ماخف أوربا
ويعلم ماقد كان فيه حياته * اذا حصلت أعماله كلها هبا

حتى أحرقته لم يقل لصاحب النار هلا قلت حرها لئلا تفسد من يقرب منها وتحرقه فانه يقول هذه صفتها التي لا يحصل المقصود منها الا بها ولو جعلتها دون ذلك لم تحرق أحجار الكلس ولم تطبخ الآجر ولم تنضج الاطعمة الغليظة ونحو ذلك فما يحصل من الدولاب والطاحون ومن النار من نفعها هو من فضل الله ورحمته وما يحصل بها من شر هو من طبيعتها التي خلقت عليها التي لا تكون نارا الا بها فلو خرجت عن تلك الطبيعة لم تكن نارا وكذلك النفس فما يحصل لها من شر فهو منها ومن طبيعتها ولوازم نقصها وعدمها وما حصل لها من خير فهو من فضل الله ورحمته والله خالقها وخالق كل شئ قام بها من قدرة وارادة وعلم وعمل وغير ذلك فاما الامور العدمية فهي باقية على ما كانت عليه من العدم والانسان جاهل ظالم بالضرورة كما قال تعالى وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا فان الله أخرجه من بطن أمه لا يعلم شيأ وهي ظالمة نفسها فهي الظالمة المظلومة اذ كانت منقوصة من كمالها بعدم بعض الكمالات أو أكثرها وتلك الكمالات التي عدمت كان وجودها سببا لكمالات أخرى فصار عدمها مستلزما لعدم تلك الكمالات التي لا سعادة لها بدونها فان أحد الموجودين قد يكون مشروطا بالآخر فيستحيل وجوده بدونه لان عدم الشرط يستلزم عدم المشروط فاذا عدمت النفس هذا الكمال المستلزم لكمال آخر مثله أو أعلى منه وهي موصوفة بالنقص الذي هو الظلم والجهل ولوازمهما من أصل الخلقة صارت مستلزمة للشر وقوة شرها وضعفه بحسب قوتها وضعفها في ذاتها وتأمل أول نقص دخل على ابي البشر وسرى الى أولاده كيف كان من عدم العلم والعزم قال تعالى ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما والنسيان سواء كان عدم العلم أو عدم الصبر كما فسر بهما ههنا فهو أمر عدمي ولهذا قال آدم لما رأى ما دخل عليه من ذلك ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين فانه اذا اعترف بنقصه خسر نفسه بما حصل لها من عدم العلم والصبر بالنسيان الذي أوجب فوات حظه من الجنة ثم قال وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين فانه سبحانه ان لم يغفر السيآت الموجودة فيمنع أثرها وعقابها او يقي العبد من ذلك والا

دعاه الهدى والغي من ذا يجيبه * فقال لداعى الغي أهلا ومرحبا
واعرض عن داعى الهدى قائلاله * هواى الى صوت المعازف قدصبا
يراع ودف بالصنوج وشاهد * وصوت مغن صوته يقنص الظبا
اذا ماتغنى فالظباء تجيبه * الى ان تراها حوله تشبه الدبا
فماشئت من صيد بغير تطارد * ووصل حبيب كان بالهجر عذبا
فيا آمرى بالرشد لو كنت حاضرا * لكان الى المنهى عندك أقربا

(فصل) فالاسم الاول اللهو ولهو الحديث قال تعالى ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم و يتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين واذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كان لم يسمعها كان فى أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم قال الواحدى وغيره أكثر المفسرين على أن المراد بلهو الحديث الغناء قاله ابن عباس فى رواية سعيد بن جبير ومقسم عنه وقاله عبد الله بن مسعود فى رواية أبى الصهباء عنه وهو قول مجاهد وعكرمة و روى ثور بن أبى فاختة عن أبيه عن ابن عباس فى قوله تعالى ومن الناس من يشترى لهو الحديث قال هو الرجل يشترى الجارية تغنيه ليلا ونهارا وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد هو اشتراء المغنى والمغنية بالمال الكثير والاستماع اليه والى مثله من الباطل وهذا قول مكحول وهذا اختيار أبى اسحق أيضا وقال أكثر ما جاء فى التفسير ان لهو الحديث ههنا هو الغناء لانه يلهى عن ذكر الله تعالى قال الواحدى قال أهل المعانى و يدخل فى هذا كل من اختار اللهو والغناء والمزامير والمعازف على القرآن وان كان اللفظ قد ورد بالشراء فلفظ الشراء يذكر فى الاستبدال والاختيار وهو كثير فى القرآن قال و يدل على هذا ما قاله قتادة فى هذه الآية لعله أن لا يكون أنفق مالا قال و بحسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق قال الواحدى وهذه الآية على هذا التفسير تدل على تحريم الغناء ثم ذكر كلام الشافعى فى رد الشهادة باعلان الغناء قال وأما غناء القينات فذلك أشد ما فى الباب وذلك لكثرة الوعيد الوارد فيه وهو ماروى أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال من استمع الى قينة صب فى أذنيه الآنك يوم القيامة الآنك الرصاص المذاب وقد جاء تفسير لهو الحديث بالغناء مرفوعا الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ففى مسند الامام أحمد ومسند عبد الله ابن الزبير الحميدى وجامع الترمذى من حديث أبى امامة والسياق للترمذى أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال لا تبيعوا القينات ولا تشتروهن ولا تعلموهن ولا خير فى تجارة فيهن وثمنهن حرام فى مثل هذا نزلت هذه الآية ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله وهذا الحديث وان كان مداره على عبيد الله بن زحر عن على بن يزيد عن القاسم فعبيد الله بن زحر ثقة والقاسم ثقة وعلى ضعيف الا أن للحديث شواهد

ومتابعات

ضربه آثارها ولابد كآثار الطعام المسموم ان لم يتداركه المداوى بشرب الترياق ونحوه والاضره ولابد وان لم يرحمه سبحانه بايجاد ما يصلح به النفس وتصير عالمة بالحق عاملة به والاخسر والمغفرة تمنع الشر والرحمة توجب الخير والرب سبحانه ان لم يغفر للانسان فيقيه السيئات ويرحمه فيؤتيه الحسنات والاهلك ولابد اذا كان ظالما لنفسه ظلوما بنفسه فان نفسه ليس عندها خير يحصل لها منها وهى متحركة بالذات فان لم تتحرك الى الخير تحركت الى الشر فضرت صاحبها وكونها متحركة بالذات من لوازم كونها نفسا لان ماليس حساسا متحركا بالارادة فليس نفسا فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أصدق الاسماء حارث وهمام فالحارث الكاسب العامل والهمام الكثير الهم والهم مبدأ الارادة فالنفس لا تكون الا مريدة عاملة فان لم توفق للارادة الصالحة والا وقعت فى الارادة الفاسدة والعمل الضار وقد قال تعالى ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا الا المصلين فاخبر سبحانه ان الانسان خلق على هذه الصفة وان من كان على غيرها فلاجل ما زكاه الله به من فضله واحسانه وقال تعالى وخلق الانسان ضعيفا قال طاوس ومقاتل وغيرهما لا يصبر عن النساء وقال الحسن هو خلقه من ماء مهين وقال الزجاج ضعف عزمه عن قهر الهوى والصواب ان ضعفه يعم هذا كله وضعفه أعظم من هذا وأكثر فانه ضعيف البنية ضعيف القوة ضعيف الارادة ضعيف العلم ضعيف الصبر والآفات اليه مع هذا الضعف أسرع من السيل فى صبب الحرود فبالاضطرار لابد له من حافظ معين يقويه و يعينه و ينصره و يساعده فان تخلى عنه هذا المساعد المعين فالهلاك أقرب اليه من نفسه وخلقه على هذه الصفة هو من الامور التى يحمد عليها الرب سبحانه ويثنى عليه بها وهو موجب حكمته وعزته فكل ما يحدث من هذه الخلقة و يلزم عنها فهو بالنسبة الى الخالق سبحانه خير وعدل وحكمة اذ مصدر هذه الخلقة عن صفات كماله من غناه وعلمه وعزته وحكمته ورحمته و بالنسبة الى العبد تنقسم الى خير وشر وحسن وقبيح كما يكون بالنسبة اليه طاعة ومعصية و برا وفجورا بل أخص من ذلك مثل كونه صلاة وصياما وحجا وزنا وسرقة وأكلا وشربا اذ ذاك موجب حاجته وظلمه وجهله وفقره وضعفه وموجب أمر

ومتابعات سنذكرها ان شاء الله تعالى ويكفي تفسير الصحابة والتابعين للهو الحديث بانه الغناء فقد صح ذلك عن ابن عباس وابن مسعود قال أبو الصهباء سألت ابن مسعود عن قوله تعالى ومن الناس من يشتري لهو الحديث فقال والله الذي لا اله غيره هو الغناء يرددها ثلاث مرات وصح عن ابن عمر رضي الله عنه أيضا انه الغناء قال الحاكم أبو عبد الله في التفسير من كتاب المستدرك ليعلم طالب هذا العلم أن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل عند الشيخين حديث مسند وقال في موضع آخر من كتابه هو عندنا في حكم المرفوع وهذا وان كان فيه نظر فلا ريب انه أولى بالقبول من تفسير من بعدهم فهم أعلم الامة بمراد الله عز وجل من كتابه فعليهم نزل وهم أول من خوطب به من الامة وقد شاهدوا تفسيره من الرسول علما وعملا وهم العرب الفصحاء على الحقيقة فلا يعدل عن تفسيرهم ما وجد اليه سبيل ولا تعارض بين تفسير لهو الحديث بالغناء وتفسيره بأخبار الاعاجم وملوكها وملوك الروم ونحو ذلك مما كان النضر بن الحارث يحدث به أهل مكة يشغلهم به عن القرآن فكلاهما لهو الحديث ولهذا قال ابن عباس لهو الحديث الباطل والغناء فمن الصحابة من ذكر هذا ومنهم من ذكر الآخر ومنهم من جمعهما والغناء أشد لهوا وأعظم ضررا من أحاديث الملوك وأخبارهم فانه رقية الزنا ومنبت النفاق وشرك الشيطان وخمرة العقل وصده عن القرآن أعظم من صد غيره من الكلام الباطل لشدة ميل النفوس اليه ورغبتها فيه اذا عرف هذا فأهل الغناء ومستمعوه لهم نصيب من هذا الذم بحسب اشتغالهم بالغناء عن القرآن وان لم ينالوا جميعه فان الآيات تضمنت ذم من استبدل لهو الحديث بالقرآن ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا واذا تتلى عليه القرآن ولى مستكبرا كأن لم يسمعه كأن في أذنيه وقرا وهو الثقل والصمم واذا علم منه شيأ استهزأ به فمجموع هذا لا يقع الا من أعظم الناس كفرا وان وقع بعضه للمغنين ومستمعيهم فلهم حصة ونصيب من هذا الذم يوضحه انك لا تجد أحدا عني بالغناء وسماع آلاته الا وفيه ضلال عن طريق الهدى علما وعملا وفيه رغبة عن استماع القرآن الى استماع الغناء بحيث اذا عرض له سماع الغناء وسماع القرآن عدل عن هذا الى ذاك وثقل عليه سماع القرآن وربما حمله الحال على أن يسكت القارئ ويستطيل قراءته ويستزيد المغني ويستقصر نوبته وأقل ما في هذا أن يناله نصيب وافر من هذا الذم ان لم يحظ به جميعه والكلام في هذا مع من في قلبه بعض حياة يحس بها فأما من مات قلبه وعظمت فتنته فقد سد على نفسه طريق النصيحة ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيأ أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم

(فصل) الاسم الثاني والثالث الزور واللغو قال تعالى والذين لا يشهدون الزور واذا

الله وثمره ولله سبحانه الحكمة البالغة والنعمة السابغة والحمد المطلق على جميع ما خلقه وأمر به وعلى ما لم يخلقه مما لو شاء لخلقه وعلى توفيقه الموجب لطاعته وعلى خذلانه الموقع في معصيته وهو سبحانه سبقت رحمته غضبه وكتب على نفسه الرحمة وأحسن كل شيء خلقه وأتقن كل ما صنع وما يحصل للنفوس البشرية من الضرر والاذى فله في ذلك سبحانه أعظم حكمة مطلوبة وتلك الحكمة انما تحصل على الوجه الواقع المقدر بما خلق لها من الاسباب التي لا تنال غاياتها الا بها فوجود هذه الاسباب بالنسبة الى الخالق الحكيم سبحانه هو من الحكمة ولهذا يقرن سبحانه في كتابه بين اسمه الحكيم واسمه العليم تارة وبين اسمه العزيز تارة كقوله والله عليم حكيم والله عزيز حكيم وقوله وكان الله عزيزا حكيما وكان الله عليما حكيما وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم فان العزة تتضمن القوة ولله القوة جميعا يقال عز يعز بفتح العين اذا اشتد وقوي ومنه الارض العزاز الصلبة الشديدة وعز يعز بكسر العين اذا امتنع ممن يرومه وعز يعز بضم العين اذا غلب وقهر فاعطوا أقوى الحركات وهي الضمة لاقوى المعاني وهو الغلبة والقهر للغير واضعفها وهي الفتحة لاضعف هذه المعاني وهو كون الشيء في نفسه صلبا ولا يلزم من ذلك ان يمتنع عمن يرومه والحركة المتوسطة وهي الكسرة للمعنى المتوسط وهو القوي الممتنع عن غيره ولا يلزم منه أن يقهر غيره ويغلبه فاعطوا الاقوى للاقوى والاضعف للاضعف والمتوسط للمتوسط ولا ريب أن قهر المربوب عما يريده من أقوى أوصاف القادر فان قهره عن ارادته وجعله غير مريد كان أقوى أنواع القهر والعز ضد الذل والذل أصله الضعف والعجز فالعز يقتضي كمال القدرة ولهذا يوصف به المؤمن ولا يكون ذما له بخلاف الكبر قال رجل للحسن البصري انك متكبر فقال لست بمتكبر ولكني عزيز وقال تعالى ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين وقال ابن مسعود ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر وقال النبي صلى الله عليه وسلم اللهم أعز الاسلام بأحد هذين الرجلين عمر بن الخطاب أو أبي جهل بن هشام وفي بعض الآثار ان الناس يطلبون العزة في أبواب الملوك ولا يجدونها الا في طاعة الله عز وجل وفي

مروا باللغو مروا كراما قال محمد بن الحنفية الزور ههنا الغناء وقاله ليث عن مجاهد وقال الكلبي لا يحضرون مجالس الباطل واللغو في اللغة كل ما يلغى ويطرح والمعنى لا يحضرون مجالس الباطل واذا مروا بكل ما يلغى من قول وعمل أكرموا نفوسهم أن يقفوا عليه أو يميلوا اليه ويدخل في هذا أعياد المشركين كما فسرها به السلف والغناء وأنواع الباطل كلها قال الزجاج لا تجالسوا أهل المعاصي ولا تمالؤهم عليها ومروا مر الكرام الذين لا يرضون باللغو لانهم يكرمون أنفسهم عن الدخول فيه والاختلاط بأهله وقد روى أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مر بلهو فأعرض عنه فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ان أصبح ابن مسعود لكريما وقد أثنى سبحانه على من أعرض عن اللغو اذا سمعه فقال واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم وهذه الآية وان كان سبب نزولها خاصا فمعناها عام متناول لكل من سمع لغوا فأعرض عنه وقال بلسانه أو بقلبه لاصحابه لنا أعمالنا ولكم أعمالكم وتأمل كيف قال سبحانه لا يشهدون الزور ولم يقل بالزور لان يشهدون بمعنى يحضرون فمدحهم على ترك حضور مجالس الزور فكيف بالتكلم به وفعله والغناء من أعظم الزور والزور يقال على الكلام الباطل وعلى العمل الباطل وعلى العين نفسها كما في حديث معاوية لما أخذ قصة من شعر يوصل به فقال هذا الزور فالزور القول والفعل والمحل وأصل اللفظ من الميل ومنه الزور بالفتح ومنه زرت فلانا اذا ملت اليه وعدلت اليه فالزور ميل عن الحق الثابت الى الباطل الذي لا حقيقة له

(فصل) الاسم الرابع الباطل والباطل ضد الحق يراد به المعدوم الذي لا وجود له والموجود الذي مضرة وجوده أكثر من منفعته فمن الاول قول الموحد كل اله سوى الله باطل ومن الثاني قوله السحر باطل والكفر باطل قال تعالى قل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا فالباطل اما معدوم لا وجود له واما موجود لا نفع له فالكفر والفسوق والعصيان والسحر والغناء واستماع الملاهي كله من النوع الثاني قال ابن وهب أخبرني سليمان بن بلال عن كثير بن زيد أنه سمع عبيد الله يقول للقاسم بن محمد كيف ترى في الغناء فقال له القاسم هو باطل فقال قد عرفت أنه باطل فكيف ترى فيه فقال القاسم أرأيت الباطل أين هو قال في النار قال فهو ذاك وقال رجل لابن عباس رضي الله عنه ما تقول في الغناء أحلال هو أم حرام فقال لا أقول حراما الا ما في كتاب الله قال أفحلال هو فقال ولا أقول ذلك ثم قال له أرأيت الحق والباطل اذا جاء يوم القيامة فأين يكون الغناء فقال الرجل يكون مع الباطل فقال له ابن عباس اذهب فقد أفتيت نفسك فهذا جواب ابن عباس رضي الله عنه عن غناء الاعراب الذي ليس فيه مدح الخمر والزنا واللواط والتشبيب بالاجنبيات وأصوات المعازف والآلات المطربات

الحديث اللهم أعزنا بطاعتك ولا تذلنا بمعصيتك وقال بعضهم من أراد عزا بلا سلطان وكثرة بلا عشيرة وغنى بلا مال فلينتقل من ذل المعصية الى عز الطاعة فالعزة من جنس القدرة والقوة وقد ثبت في الصحيح عن النبي انه قال المؤمن القوي خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير فالقدرة ان لم يكن معها حكمة بل كان القادر يفعل ما يريده بلا نظر في العاقبة ولا حكمة محمودة يطلبها بارادة ويقصدها بفعله كان فعلها فسادا كصاحب شهوات الغي والظلم الذي يفعل بقوته ما يريده من شهوات الغي في بطنه وفرجه ومن ظلم الناس فان هذا وان كان له قوة وعزة لكن لما لم يقترن بها حكمة كان ذلك معونة على شره وفساده وكذلك العلم كله ان تقترن به الحكمة والا فالعالم الذي لا يريد ما تقتضيه الحكمة وتوجبه بل يريد ما يهواه سفيه غاو وعلمه عون له على الشر والفساد هذا اذا كان عالما قادرا مريدا له ارادة من غير حكمة وان قدر انه لا ارادة له بحال فهذا أولا ممتنع من الحي فان وجود الشعور بدون حب ولا بغض ولا ارادة ممتنع كوجود ارادة بدون الشعور وأما القدرة والقوة اذا قدر وجودها بدون ارادة فهي كقوة الجماد فان القوة الطبيعية التي هي مبدأ الفعل والحركة ٧ وقد قال بعض الناس ان تحملها شعورا يليق به واحتج بقوله تعالى وان من الحجارة لما يشقق فيخرج منه الماء وان منها لما يهبط من خشية الله وبقوله جدارا يريد أن ينقض وهذه مسئلة كبيرة تحتاج الى كلام يليق بهذا الموضع والمقصود ان العلم والقدرة المجردين عن الحكمة لا يحصل بهما الكمال والصلاح وانما يحصل ذلك بالحكمة معهما واسمه سبحانه الحكيم يتضمن حكمته في خلقه وأمره في ارادته الدينية والكونية وهو حكيم في كل ما خلقه وأمر به

والناس في هذا المقام أربع طوائف الطائفة الاولى الجاحدة لقدرته وحكمته فلا يثبتون له سبحانه قدرة ولا حكمة كما يقوله من ينفي كونه تعالى فاعلا مختارا وان صدور العالم عنه بالايجاب الذاتي لا بالقدرة والاختيار وهؤلاء يثبتون حكمة يسمونها عناية الهية وهم من أشد الناس تناقضا اذ لا يعقل حكيم لا قدرة له ولا اختيار وانما يسمون ما في العالم من المصالح والمنافع عناية فان

فان غناء القوم لم يكن فيه شئ من ذلك ولو شاهدوا هذا الغناء لقالوا فيه أعظم قول فان مضرته وفتنته فوق مضرة شرب الخمر بكثير وأعظم من فتنته فمن أبطل الباطل أن تأتي شريعة باباحته فمن قاس هذا على غناء القوم فقياسه من جنس قياس الربا على البيع والميتة على الذكاة والتحليل الملعون فاعله على النكاح الذي هو سنة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهو أفضل من التخلي لنوافل العبادة فلو كان نكاح التحليل جائزا في الشرع لكان أفضل من قيام الليل وصيام التطوع فضلا أن يلعن فاعله

(فصل) وأما اسم المكاء والتصدية فقال تعالى عن الكفار وما كان صلاتهم عند البيت الا مكاء وتصدية قال ابن عباس وابن عمر وعطية ومجاهد والضحاك والحسن وقتادة المكاء الصفير والتصدية التصفيق وكذلك قال أهل اللغة المكاء الصفير يقال مكا يمكو مكاء اذا جمع يديه ثم صفر فيهما ومنه مكت است الدابة اذا خرجت منها الريح بصوت ولهذا جاء على بناء الاصوات كالرغاء والغواء والغثاء قال ابن السكيت الاصوات كلها مضمومة الاحرف الا النداء والغناء وأما التصدية ففي اللغة التصفيق يقال صدى يصدي تصدية اذا صفق بيديه قال حسان بن ثابت يعيب المشركين بتصفيرهم وتصفيقهم

اذا قام الملائكة انبعثتم * صلاتكم التصدي والمكاء

وهكذا الاشباه يكون المسلمون في الصلوات الفرض والتطوع وهم في التصفير والتصفيق قال ابن عباس كانت قريش يطوفون في البيت عراة ويصفرون ويصفقون وقال مجاهد كانوا يعارضون النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في الطواف ويصفرون ويصفقون يخلطون عليه طوافه وصلاته ونحوه عن مقاتل ولا ريب انهم كانوا يفعلون هذا وهذا فالمتقربون الى الله بالصفير والتصفيق اشباه النوع الاول واخوانهم والمخلطون به على أهل الصلاة والذكر والقراءة اشباه النوع الثاني قال ابن عرفة وابن الانبارى المكاء والتصدية ليسا بصلاة ولكن الله تعالى أخبر انهم جعلوا مكان الصلاة التي أمروا بها المكاء والتصدية فألزمهم ذلك عظيم الاوزار وهذا كقولك زرته فجعل جفائي صلتي أي أقام الجفاء مقام الصلة والمقصود أن المصفقين والصفارين في يراع أو مزمار ونحوه فيهم شبه من هؤلاء ولو أنه مجرد الشبه الظاهر فلهم قسط من الذم بحسب تشبههم بهم وان لم يتشبهوا بهم في جميع مكائهم وتصديتهم والله سبحانه لم يشرع التصفيق للرجال وقت الحاجة اليه في الصلاة اذا نابهم أمر بل أمروا بالعدول عنه الى التسبيح لئلا يتشبهوا بالنساء فكيف اذا فعلوه لا لحاجة وقرنوا به أنواعا من المعاصي قولا وفعلا

الهية من غير أن [illegible] منها الرب سبحانه ارادة ولا حكمة وهؤلاء كما انهم مكذبون لجميع الرسل والكتب فهم مخالفون لصريح العقل والفطرة قد نسبوا الرب سبحانه الى أعظم النقص وجعلوا كل قادر مريد مختارا أكمل منه وان كان من كان بل سلبهم القدرة والاختيار والفعل عن رب العالمين أشر من شرك عباد الاصنام به بكثير وشر من قول النصارى انه تعالى عن قولهم ثالث ثلاثة وان له صاحبة وولدا فان هؤلاء أثبتوا له قدرة وارادة واختيارا وحكمة ووصفوه مع ذلك بما لا يليق به وأما أولئك فنفوا ربوبيته وقدرته بالكلية واثبتوا أسماء لا حقائق لها ولا معنى والطائفة الثانية اقرت بقدرته وعموم مشيئته للكائنات وجحدت حكمته وماله في خلقه من الغايات المحمودة المطلوبة له سبحانه التي يفعل لاجلها ويامر لاجلها فاقطت على القدر وجحدت الحكمة وهؤلاء هم النفاة للتعليل والاسباب والقوي والطبائع في المخلوقات فعندهم لا يفعل لشئ ولا لاجل شئ وليس في القرآن عندهم لام تعليل ولا باء تسبب وكل لام توهم التعليل فهي عندهم لام العاقبة وكل باء تشعر بالتسبب فهي عندهم باء المصاحبة وهؤلاء سلطوا نفاة القدر عليهم بما نفوه من الحكمة والتعليل والاسباب فاستطالوا عليهم بذلك ووجدوا مقالا واسعا بالشناعة فقالوا وشنعوا ولعمر الله انهم لمحقون في أكثر ما شنعوا عليهم به اذ نفي الحكمة والتعليل والاسباب له لوازم في غاية الشناعة والتزامها مكابرة ظاهرة عند عامة العقلاء والطائفة الثالثة أقرت بحكمته واثبتت الاسباب والعلل والغايات في أفعاله وأحكامه وجحدت كمال قدرته فنفت قدرته على شطر العالم وهو أشرف ما فيه من أفعال الملائكة والجن والانس وطاعاتهم بل عندهم هذه كلها لا تدخل تحت مقدوره سبحانه ولا يوصف بالقدرة عليها ولا هي داخلة تحت مشيئته ولا ملكه وليس في مقدوره عندهم أن يجعل المؤمن مؤمنا والمصلي مصليا والموفق موفقا بل هو الذي جعل نفسه كذلك وعندهم ان أفعال العباد من الملائكة والجن والانس كانت بغير مشيئته واختياره فتعالى الله عن قولهم وهؤلاء سلطوا عليهم نفاة الحكمة والتعليل والاسباب فمزقوهم كل ممزق ووجدوا طريقا واسعا الى الشناعة عليهم وابدوا تناقضهم فقالوا

وشتموا وراموهم بكل داهية ونفى قدرة الرب سبحانه على شطر المملكة له لوازم فى غاية الشناعة والقبح والفساد والتزامها مكابرة ظاهرة عند عامة العقلاء ونفى التزامها تناقض بين فصاروا بذلك بين التناقض وهو أحسن حالهم وبين التزام تلك العظائم التى تخرج عن الايمان كما كان نفاة الحكمة والاسباب والغايات

كذلك فهدى الله الطائفة الرابعة لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم فآمنوا بالكتاب كله وأقروا بالحق جميعه ووافقوا كل واحدة من الطائفتين على ما معها من الحق وخالفوهم فيما قالوه من الباطل فآمنوا بخلق الله وأمره بقدره وشرعه وانه سبحانه المحمود على خلقه وأمره وانه له الحكمة البالغة والنعمة السابغة وانه على كل شئ قدير فلا يخرج عن مقدوره شئ من الموجودات أعيانها وأفعالها وصفاتها كما لا يخرج عن علمه فكل ما تعلق به علمه من العالم تعلقت به قدرته ومشيئته وآمنوا مع ذلك بان له الحجة على خلقه وانه لا حجة لاحد عليه بل لله الحجة البالغة وانه لو عذب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم بل كان تعذيبهم منه عدلا منه وحكمة لا بمحض المشيئة المجردة عن السبب والحكمة كما يقوله الجبرية ولا يجعلون القدر حجة لانفسهم ولا لغيرهم بل يؤمنون به ولا يحتجون به ويعلمون ان الله سبحانه أنعم عليهم بالطاعات وانها من نعمته عليهم وفضله واحسانه وان المعاصى من نفوسهم الظالمة الجاهلة وانهم هم جناتها وهم الذين اجترحوها ولا يحملونها على القضاء والقدر مع علمهم بشمول قضائه وقدره لما فى العالم من خير وشر وطاعة وعصيان وكفر وايمان وان مشيئة الله سبحانه محيطة بذلك كاحاطة علمه به وانه لو شاء لا يعصى لما عصى وانه تعالى أعز وأجل من أن يعصى قسرا وان العباد أقل من ذلك وأهون وانه ما شاء الله كان وكل كائن فهو بمشيئته وما لم يشأ لم يكن وما لم يكن فلعدم مشيئته فله الخلق والامر وله الملك والحمد وله القدرة التامة والحكمة الشاملة البالغة فهذه الطائفة هم أهل البصر التام والاولى لهم العمى المطلق والثانية والثالثة كل طائفة منهما له عين عين ومع هذا فسرى العمى

(فصل) وأما تسميته رقية الزنا فهو اسم موافق لمسماه ولفظ مطابق لمعناه فليس فى رقى الزنا أنجع منه وهذه التسمية معروفة عن الفضيل بن عياض قال ابن أبى الدنيا أخبرنا الحسين بن عبد الرحمن قال قال فضيل بن عياض الغناء رقية الزنا قال وأخبرنا ابراهيم ابن محمد المروزى عن أبى عثمان الليثى قال يزيد بن الوليد يا بنى أمية اياكم والغناء فانه ينقص الحياء ويزيد فى الشهوة ويهدم المروءة وانه لينوب عن الخمر ويفعل ما يفعل السكر فان كنتم لابد فاعلين فجنبوه النساء فان الغناء داعية الزنا قال وأخبرنا محمد بن الفضل الازدى قال نزل الحطيئة برجل من العرب ومعه ابنته مليكة فلما جنه الليل سمع غناء فقال لصاحب المنزل كف هذا عنى فقال وما تكره من ذلك فقال ان الغناء رائد من رادة الفجور ولا أحب أن تسمعه هذه يعنى ابنته فان كففته والا خرجت عنك ثم ذكر عن خالد بن عبد الرحمن قال كنا فى عسكر سليمان بن عبد الملك فسمع غناء من الليل فأرسل اليهم بكرة فجىء بهم فقال ان الفرس ليصهل فتستودق له الرمكة وان الفحل ليهدر فتضبع له الناقة وان التيس لينب فتستحرم له العنز وان الرجل ليتغنى فتشتاق اليه المرأة ثم قال اخصوهم فقال عمر بن عبد العزيز هذه مثلة ولا تحل فخل سبيلهم قال وأخبرنا الحسين بن عبد الرحمن قال أبو عبيدة معمر بن المثنى جاور الحطيئة قوما من بنى كليب فمشى ذوو الدين منهم بعضهم الى بعض وقالوا يا قوم انكم قد رميتم بداهية هذا الرجل شاعر والشاعر يظن فيحقق ولا يستأنى فيتثبت ولا يأخذ الفضل فيعفو فأتوه وهو فى فناء خبائه فقالوا يا أبا مليكة انه قد عظم حقك علينا بتخطيك القبائل الينا وقد أتيناك لنسألك عما تحب فنأتيه وعما تكره فنزجر عنه فقال جنبوا ندى مجلسكم ولا تسمعونى أغانى شبيبتكم فان الغناء رقية الزنا فاذا كان هذا الشاعر المفتوق اللسان الذى هابت العرب هجاءه خاف عاقبة الغناء وان تصل رقيته الى حرمته فما الظن بغيره ولا ريب أن كل غيور يجنب أهله سماع الغناء كما يجنبهن أسباب الريب ومن طرق أهله الى سماع رقية الزنا فهو أعلم بالاثم الذى يستحقه ومن الامر المعلوم عند القوم ان المرأة اذا استصعبت على الرجل اجتهد على أن يسمعها صوت الغناء فحينئذ تعطى الليان وهذا لان المرأة سريعة الانفعال للاصوات جدا فاذا كان الصوت بالغناء صار انفعالها من وجهين من جهة الصوت ومن جهة معناه ولهذا قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لانجشة حاديه يا أنجشه رويدا رفقا بالقوارير يعنى النساء فأما اذا اجتمع الى هذه الرقية الدف والشبابة والرقص بالتخنث والتكسر فلو حبلت المرأة من غناء لحبلت من هذا الغناء فلعمر الله كم من حرة صارت بالغناء من البغايا وكم من حر أصبح به عبدا للصبيان أو الصبايا وكم من غيور تبدل به اسما قبيحا بين البرايا وكم من ذى غنى وثروة أصبح بسببه على الارض بعد المطارف والحشايا وكم من معافى تعرض له فأمسى وقد حلت به أنواع البلايا وكم أهدى

للمشغوف

للمشغوف به من أشجان وأحزان فلم يجد بدا من قبول تلك الهدايا وكم جرع من غصته وأزال من نعمة وجلب من نقمة وذلك منه من احدى العطايا وكم خبأ لاهله من آلام منتظرة وغموم متوقعة وهموم مستقبلة شعر

فسل ذا خبرة ينبئك عنه * لتعلم كم خبايا فى الزوايا
وحاذر ان شغفت به سهاما * مريشة بأهداب المنايا
اذا ما خالطت قلبا كئيبا * تمزق بين أطباق الرزايا
ويصبح بعد ان قد كان حرا * عفيف الفرج عبدا للصبايا
ويعطى من به يغنى غناء * وذلك منه من شر العطايا

(فصل) وأما تسميته منبت النفاق فقال على بن الجعد حدثنا محمد بن طلحة عن سعيد بن كعب المروزى عن محمد بن عبد الرحمن بن يزيد عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه قال الغناء ينبت النفاق فى القلب كما ينبت الماء الزرع وقال شعبة حدثنا الحكم عن حماد عن ابراهيم قال قال عبد الله بن مسعود الغناء ينبت النفاق فى القلب وهو صحيح عن ابن مسعود من قوله وقد روى عن ابن مسعود مرفوعا رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب ذم الملاهى أخبرنا عصمة بن الفضل حدثنا حرمى بن عمارة حدثنا سلام بن مسكين حدثنا شيخ عن أبى وائل عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الغناء ينبت النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل وقد تابع حرمى بن عمارة عليه بهذا الاسناد والمتن مسلم بن ابراهيم قال أبو الحسين بن المنادى فى كتاب أحكام الملاهى حدثنا محمد بن على بن عبد الله بن حمدان المعروف بحمدان الوراق حدثنا مسلم بن ابراهيم حدثنا سلام ابن مسكين فذكر الحديث فداره على هذا الشيخ المجهول وفى رفعه نظر والموقوف أصح فان قيل فما وجه انباته للنفاق فى القلب من بين سائر المعاصى قيل هذا من أدل شئ على فقه الصحابة فى أحوال القلوب وأعمالها ومعرفتهم بأدويتها وأدوائها وانهم هم أطباء القلوب دون المنحرفين عن طريقتهم الذين داووا أمراض القلوب بأعظم أدوائها فكانوا كالمداوى من السقم بالسم القاتل وهكذا والله فعلوا بكثير من الادوية التى ركبوها أو باكثرها فاتفق قلة الاطباء وكثرة المرضى وحدوث أمراض مزمنة لم تكن فى السلف والعدول عن الدواء النافع الذى ركبه الشارع وميل المريض الى ما يقوى مادة المرض فاشتد البلاء وتفاقم الامر وامتلأت الدور والطرقات والاسواق من المرضى وقام كل جهول يطب الناس فاعلم أن للغناء خواص لها تأثير فى صبغ القلب بالنفاق ونباته فيه كنبات الزرع بالماء فمن خواصه انه يلهى القلب ويصده عن فهم القرآن وتدبره والعمل بما فيه فان القرآن والغناء لا يجتمعان فى القلب أبدا لما بينهما من التضاد فان القرآن ينهى عن اتباع الهوى ويأمر بالعفة ومجانبة شهوات النفوس وأسباب الغى وينهى عن اتباع

من العين العمياء الى العين الصحيحة فاعماها ولا استكثرته كرا وهذه الكلمات من يعلم شدة الحاجة اليها وضرورة النفوس اليها فلو تكررت ما تكررت فالحاجة اليها فى محل الضرورة والله المستعان (فصل) ويجمع هذين الاصلين العظيمين أصل ثالث هو عقد نظامهما وجامع شملهما وبتحقيقه واثباته على وجهه يتم بناء هذين الاصلين وهو اثبات الحمد كله لله رب العالمين فانه المحمود على ما خلقه وأمر به ونهى عنه فهو المحمود على طاعات العباد ومعاصيهم وايمانهم وكفرهم وهو المحمود على خلق الابرار والفجار والملائكة والشياطين وعلى خلق الرسل وأعدائهم وهو المحمود على عدله فى أعدائه كما هو المحمود على فضله وانعامه على أوليائه فكل ذرة من ذرات الكون شاهدة بحمده ولهذا سبح بحمده السموات السبع والارض ومن فيهن وان من شئ الا يسبح بحمده وكان فى قول النبى صلى الله عليه وسلم عند الاعتدال من الركوع ربنا ولك الحمد ملء السماء وملء الارض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شئ بعد فله سبحانه الحمد حمدا يملأ المخلوقات والفضاء الذى بين السموات والارض ويملأ ما يقدر بعد ذلك مما يشاء الله أن يملأه بحمده وذلك يحتمل أمرين أحدهما ان يملأ ما يخلقه الله بعد السموات والارض والمعنى ان الحمد ملء ما خلقته وملء ما تخلقه بعد ذلك الثانى ان يكون المعنى ملء ما شئت من شئ بعد يملؤه حمدك أى يقدر مملوأ بحمدك وان لم يكن موجودا ولكن يقال المعنى الاول أقوى لان قوله ما شئت من شئ بعد يقتضى انه شئ يشاؤه وما شاء كان والمشيئة متعلقة بعينه لا بمجرد ملء الحمد له فتأمله لكنه اذا شاء كونه فله الحمد ملأه فالمشيئة راجعة الى المملوء بالحمد فلا بد أن يكون شيأ موجودا يملؤه حمده وأيضا فان قوله من شئ بعد يقتضى انه شئ يشاؤه سبحانه بعد هذه المخلوقات كما يخلقه بعد ذلك من مخلوقاته من القيامة وما بعدها ولو أريد تقدير خلقه لقيل وملء ما شئت من شئ مع ذلك لان المقدر يكون مع المحقق وأيضا فانه لم يقل ملء ما شئت أن يملأه الحمد بل قال ما شئت والعبد قد حمد حمدا أخبر به وان شاءه ووصفه بانه يملأ ما خلقه الرب سبحانه وما يشاء بعد ذلك وأيضا فقوله وملء ما شئت من شئ

خطوات الشيطان والغناء يأمر بضد ذلك كله ويحسنه ويهيج النفوس الى شهوات الغي فيثير كامنها ويزعج قاطنها ويحركها الى كل قبيح ويسوقها الى وصل كل مليحة ومليح فهو والخمر رضيعا اللبان وفي تهييجها على القبائح فرسا رهان فانه صنو الخمر ورضيعه ونائبه وخليفه وحديثه وصديقه عقد الشيطان بينهما عقد الاخاء الذي لا يفسخ وأحكم بينهما شريعة الوفاء التي لا تنسخ وهو جاسوس القلب وسارق المروءة وسوس العقل يتغلغل في مكامن القلوب ويطلع على سرائر الافئدة ويدب الى محل التخييل فيثير مافيه من الهوى والشهوة والسخافة والرقاعة والرعونة والحماقة فبينا ترى الرجل وعليه سمة الوقار وبهاء العقل وبهجة الايمان ووقار الاسلام وحلاوة القرآن فاذا استمع الغناء ومال اليه نقص عقله وقل حياؤه وذهبت مروءته وفارقه بهاؤه وتخلى عنه وقاره وفرح به شيطانه وشكا الى الله تعالى ايمانه وثقل عليه قرآنه وقال يارب لا تجمع بيني وبين قرآن عدوك في صدر واحد فاستحسن ما كان قبل السماع يستقبحه وأبدى من سره ما كان يكتمه وانتقل من الوقار والسكينة الى كثرة الكلام والكذب والزهزهة والفرقعة بالاصابع فيميل برأسه ويهز منكبيه ويضرب الارض برجليه ويدق على أم رأسه بيديه ويثب وثبات الدباب ويدور دوران الحمار حول الدولاب ويصفق بيديه تصفيق النسوان ويخور من الوجد ولا كخوار الثيران وتارة يتأوه تأوه الحزين وتارة يزعق زعقات المجانين ولقد صدق الخبير به من أهله حيث يقول شعر

أتذكر ليلة وقد اجتمعنا * على طيب السماع الى الصباح
ودارت بيننا كأس الأغاني * فأسكرت النفوس بغير راح
فلم تر فيهم الا نشاوى * سرورا والسرور هناك صاحي
اذا نادى أخو اللذات فيه * أجاب اللهو حي على السماح
ولم نملك سوى المهجات شيأ * أرقناها لألحاظ الملاح

وقال بعض العارفين السماع يورث النفاق في قوم والعناد في قوم والتكذيب في قوم والفجور في قوم والرعونة في قوم وأكثر ما يورث عشق الصور واستحسان الفواحش وادمانه يثقل القرآن على القلب ويكرهه الى سماعه بالخاصة وان لم يكن هذا نفاقا فما للنفاق حقيقة وسر المسألة أنه قرآن الشيطان كما سيأتي فلا يجتمع هو وقرآن الرحمن في قلب أبدا وأيضا فان أساس النفاق أن يخالف الظاهر الباطن وصاحب الغناء بين أمرين اما أن ينهتك فيكون فاجرا أو يظهر النسك فيكون منافقا فانه يظهر الرغبة في الله والدار الآخرة وقلبه يغلي بالشهوات ومحبة ما يكرهه الله ورسوله من أصوات المعازف وآلات اللهو وما يدعو اليه الغناء ويهيجه فقلبه بذلك معمور وهو من محبة ما يحبه الله ورسوله وكراهة ما يكرهه قفر وهذا محض النفاق وأيضا فان الايمان قول وعمل قول الحق وعمل

بعد يقتضي اثبات مشيئة تتعلق بشيء بعد شيء وعلى الوجه الثاني قد تتعلق المشيئة بل ء المقدر وقد لا تتعلق وأيضا فاذا قيل ما شئت من شيء بعد ذلك كان الحمد مالئا لما هو موجود يشاؤه الرب دائما ولا ريب انه الحمد دائما في الاولى والآخرة وأما اذا قدر ما يملأ ه الحمد وهو غير موجود فالمقدرات لا حد لها وما من شيء منها الا يمكن تقدير شيء بعده وتقدير ما لا نهاية له لتقدير الاعداد ولو أريد هذا المعنى لم يحتج الى تعليقه بالمشيئة بل قيل ملء ما لا يتناهى فأما ما يشاؤه الرب فلا يكون الا موجودا مقدرا وان كان لا آخر لنوع الحوادث أو بقاء ما يبقى منها فهذا كله مما يشاؤه بعد وأيضا فالحمد هو الاخبار بمحاسن المحمود على وجه الحب له ومحاسن المحمود تعالى اما قائمة بذاته واما ظاهرة في مخلوقاته فأما المعدوم المحض الذي لم يخلق ولا خلق قط فذلك ليس فيه محاسن ولا غيرها فلا محامد فيه ألبتة فالحمد لله الذي يملأ المخلوقات ما وجد منها وما يوجد هو حمد يتضمن الثناء عليه بكماله القائم بذاته والمحاسن الظاهرة في مخلوقاته وأما ما لا وجود له فلا محامد فيه ولا مذام فجعل الحمد مالئا له جعله مالئا لما لا حقيقة له وقد اختلف الناس في معنى كون حمده يملأ السموات والارض وما بينهما فقالت طائفة على جهة التمثيل أي لو كان اجساما لملأ السموات والارض وما بينهما قالوا فان الحمد من قبيل المعاني والاعراض التي لا تملأ بها الاجسام ولا تملأ الاجسام الا بالاجسام والصواب انه لا يحتاج الى هذا التكلف البارد فان ملء كل شيء يكون بحسب المالئ والمملوء فاذا قيل امتلأ الاناء ماء وامتلأت الجفنة طعاما فهذا الامتلاء نوع واذا قيل امتلأت الدار رجالا وامتلأت المدينة خيلا ورجالا فهذا نوع آخر واذا قيل امتلأ الكتاب سطورا فهذا نوع آخر واذا قيل امتلأت مسامع الناس حمدا أو ذما لفلان فهذا نوع آخر كما في أثر معروف أهل الجنة من امتلأت مسامعه من ثناء الناس عليه وأهل النار من امتلأت مسامعه من ذم الناس له وقال عمر بن الخطاب في عبد الله بن مسعود كنيف ملئ علما ويقال فلان علمه قد ملأ الدنيا وكان يقال ملأ ابن أبي الدنيا الدنيا علما ويقال صيت فلان قد ملأ الدنيا وضيق الآفاق وحبه قد ملأ القلوب وبغض فلان

وعمل بالطاعة وهذا ينبت على الذكر وتلاوة القرآن والنفاق قول الباطل وعمل البغي وهذا ينبت على الغناء وأيضا فمن علامات النفاق قلة ذكر الله والكسل عند القيام الى الصلاة ونقر الصلاة وقل أن تجد مفتونا بالغناء الا وهذا وصفه وأيضا فان النفاق مؤسس على الكذب والغناء من أكذب الشعر فانه يحسن القبيح ويزينه ويأمر به ويقبح الحسن ويزهد فيه وذلك عين النفاق وأيضا فان النفاق غش ومكر وخداع والغناء مؤسس على ذلك وأيضا فان المنافق يفسد من حيث يظن انه يصلح كما أخبر الله سبحانه بذلك عن المنافقين وصاحب السماع يفسد قلبه وحاله من حيث يظن انه يصلحه والمغني يدعو القلوب الى فتنة الشهوات والمنافق يدعوها الى فتنة الشبهات قال الضحاك الغناء مفسدة للقلب مسخطة للرب وكتب عمر بن عبد العزيز الى مؤدب ولده ليكن أول ما يعتقدون من أدبك بغض الملاهي التي بدؤها من الشيطان وعاقبتها سخط الرحمن فانه بلغني عن الثقات من أهل العلم ان صوت المعازف واستماع الاغاني واللهج بهما ينبت النفاق في القلب كما ينبت العشب على الماء فالغناء يفسد القلب واذا فسد القلب هاج فيه النفاق وبالجملة فاذا تأمل البصير حال أهل الغناء وحال أهل الذكر والقرآن تبين له صدق الصحابة ومعرفتهم بأدواء القلوب وأدويتها وبالله التوفيق

(فصل) وأما تسميته قرآن الشيطان فمأثور عن التابعين وقد روي في حديث مرفوع قال قتادة لما أهبط ابليس قال يارب لعنتني فما عملي قال السحر قال فما قرآني قال الشعر قال فما كتابي قال الوشم قال فما طعامي قال كل ميتة ومالم يذكر اسم الله عليه قال فما شرابي قال كل مسكر قال فأين مسكني قال الاسواق قال فما صوتي قال المزامير قال فما مصايدي قال النساء هذا والمعروف في هذا وقفه وقد رواه الطبراني في معجمه من حديث أبي امامة مرفوعا الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وقال ابن أبي الدنيا في كتاب مكايد الشيطان وحيله حدثنا أبو بكر التميمي حدثنا ابن أبي مريم حدثنا يحيى بن أيوب قال حدثنا ابن زحر عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي امامة عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال ان ابليس لما أنزل الى الارض قال يارب أنزلتني الى الارض وجعلتني رجيما فاجعل لي بيتا قال الحمام قال فاجعل لي مجلسا قال الاسواق ومجامع الطرق قال فاجعل لي طعاما قال كل مالم يذكر اسم الله عليه قال فاجعل لي شرابا قال كل مسكر قال اجعل لي مؤذنا قال المزمار قال اجعل لي قرآنا قال الشعر قال فاجعل لي كتابا قال الوشم قال اجعل لي حديثا قال الكذب قال اجعل لي رسلا قال الكهنة قال اجعل لي مصايد قال النساء وشواهد هذا الاثر كثيرة فكل جملة منه لها شاهد من السنة أو من القرآن فكون السحر من عمل الشيطان شاهده قوله تعالى واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان الى قوله وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وأما

قد يملأ القلوب وامتلأ قلبه رعبا وهذا أكثر من أن يستوعب شواهده وهو حقيقة في بابه وجعل الملء والامتلاء حقيقة للاجسام خاصة تحكم باطل ودعوى لادليل عليها البتة والاصل الحقيقة الواحدة والاشتراك المعنوي هو الغالب على اللغة والافهام والاستعمال فالمصير اليه أولى من المجاز والاشتراك وليس هذا موضع تقرير المسألة والمقصود ان الرب أسماؤه كلها حسنى ليس فيها اسم سوء وأوصافه كلها كمال ليس فيها صفة نقص وافعاله كلها حكمة ليس فيها فعل خال عن الحكمة والمصلحة وله المثل الاعلى في السموات والارض وهو العزيز الحكيم موصوف بصفة الكمال مذكور بنعوت الجلال منزه عن الشبيه والمثال ومنزه عما يضاد صفات كماله فنزه عن الموت المضاد للحياة وعن السنة والنوم والسهو والغفلة المضاد للقيومية وموصوف بالعلم منزه عن أضداده كلها من النسيان والذهول وعزوب شئ عن علمه موصوف بالقدرة التامة منزه عن ضدها من العجز واللغوب والاعياء موصوف بالعدل منزه عن الظلم موصوف بالحكمة منزه عن العبث موصوف بالسمع والبصر منزه عن اضدادهما من الصمم والبكم موصوف بالعلو والفوقية منزه عن اضداد ذلك موصوف بالغنى التام منزه عما يضاده بوجه من الوجوه ومستحق الحمد كله فيستحيل أن يكون غير محمود كما يستحيل أن يكون غير قادر ولا خالق ولا حي وله الحمد كله واجب لذاته فلا يكون الا محمودا كما لا يكون الا الها وربا وقادرا فاذا قيل الحمد كله لله فهذا له معنيان أحدهما انه محمود على كل شئ وبكل ما يحمد به المحمود التام وان كان بعض خلقه يحمد أيضا كما يحمد رسله وأنبياؤه واتباعهم فذلك من حمده تبارك وتعالى بل هو المحمود بالقصد الاول وبالذات وما نالوه من الحمد فانما نالوه بحمده فهو المحمود أولا وآخرا وظاهرا وباطنا وهذا كما انه بكل شئ عليم وقد علم غيره من علمه مالم يكن يعلمه بدون تعليمه وفي الدعاء المأثور اللهم لك الحمد كله ولك الملك كله وبيدك الخير كله واليك يرجع الامر كله أسألك من الخير كله وأعوذ بك من الشر كله وهو سبحانه له الملك وقد آتى من الملك بعض خلقه وله الحمد وقد آتى غيره من الحمد ما شاء وكما ان ملك المخلوق داخل في ملكه فحمده أيضا داخل في حمده

كون الشعر قرآنه فشاهده ما رواه أبو داود في سننه من حديث جبير بن مطعم انه رأى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يصلي فقال الله أكبر كبيرا الله أكبر كبيرا الله أكبر كبيرا الحمد لله كثيرا الحمد لله كثيرا الحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا ثلاثا أعوذ بالله من الشيطان من نفخه ونفثه وهمزه قال نفثه الشعر ونفخه الكبر وهمزة الموتة ولما علم الله رسوله القرآن وهو كلامه صانه عن تعليم قرآن الشيطان وأخبر أنه لا ينبغي له فقال وما علمناه الشعر وما ينبغي له وأما كون الوشم كتابه فانه من عمله وتزيينه ولهذا لعن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الواشمة والمستوشمة فلعن الكاسبة والمكسوب عليها وأما كون الميتة ومتروك التسمية طعامه فان الشيطان يستحل الطعام اذا لم يذكر عليه اسم الله ويشارك آكله والميتة لا يذكر عليها اسم الله تعالى فهي وكل طعام لا يذكر عليه اسم الله عز وجل من طعامه ولهذا لما سأل الجن الذين آمنوا برسول الله الزاد قال لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه فلم يبح لهم طعام الشياطين وهو متروك التسمية وأما كون المسكر شرابه فقال تعالى يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فهو مشرب من الشراب الذي عمله أولياؤه بأمره وشاركهم في عمله فيشاركهم في عمله وشربه واثمه وعقوبته وأما كون الاسواق مجلسه ففي الحديث الآخر انه يركز رايته بالسوق ولهذا يحضره اللغو واللغط والصخب والخيانة والغش وكثير من عمله وفي صفة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في الكتب المتقدمة أنه ليس صخابا بالاسواق وأما كون الحمام بيته فشاهده كونه غير محل للصلاة وفي حديث أبي سعيد الارض كلها مسجد الا المقبرة والحمام ولانه محل كشف العورات وهو بيت مؤسس على النار وهي مادة الشيطان التي خلق منها وأما كون المزمار مؤذنه ففي غاية المناسبة فان الغناء قرآنه والرقص والتصفيق هما المكاء والتصدية صلاته فلا بد لهذه الصلاة من مؤذن وامام ومأموم فالمؤذن المزمار والامام المغني والمأموم الحاضرون وأما كون الكذب حديثه فهو الكاذب الآمر بالكذب المزين له فكل كذب يقع في العالم فهو من تعليمه وحديثه وأما كون الكهنة رسله فلأن المشركين يهرعون اليهم ويفزعون اليهم في أمورهم العظام ويصدقونهم ويتحاكمون اليهم ويرضون بحكمهم كما يفعل أتباع الرسل بالرسل فانهم يعتقدون انهم يعلمون الغيب ويخبرون عن المغيبات التي لا يعرفها غيرهم فهم عند المشركين بهم بمنزلة الرسل فالكهنة رسل الشيطان حقيقة أرسلهم الى حزبه من المشركين وشبههم بالرسل الصادقين حتى استجاب لهم حزبه ومثل رسل الله بهم لينفر عنهم ويجعل رسله هم الصادقين العالمين الغيب ولما كان بين النوعين أعظم التضاد قال عليه السلام من أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد فان الناس قسمان أتباع الكهنة وأتباع رسل الله

فمن محمود يحمد على شيء ما دق أو جل الا وانه المحمود عليه بالذات والاولوية أيضا واذا قال اللهم لك الحمد فالمراد به انك المستحق لكل حمد ليس المراد به الحمد الخارجي فقط المعنى الثاني أن يقال لك الحمد كله أي الحمد التام الكامل فهذا مختص بانه ليس لغيره فيه شركة والتحقيق انه له الحمد بالمعنيين جميعا فله عموم الحمد وكماله وهذا من خصائصه سبحانه فهو المحمود على كل حال وعلى كل شيء أكمل حمد وأعظمه كما ان له الملك التام العام فلا يملك كل شيء الا هو وليس الملك التام الكامل الا له وأتباع الرسل يثبتون له كمال الملك وكمال الحمد فانهم يقولون انه خالق كل شيء وربه ومليكه لا يخرج عن خلقه وقدرته ومشيئته شيء البتة فله الملك كله والقدرية المجوسية يخرجون من ملكه افعال العباد ويخرجون سائر حركات الملائكة والجن والانس عن ملكه واتباع الرسل يجعلون ذلك كما داخلا في ملكه وقدرته ويثبتون كمال الحمد أيضا وانه المحمود على جميع ذلك وعلى كل ما خلقه ويخلقه لماله فيه من الحكم والغايات المحمودة المقصودة بالفعل وامانفاة الحكمة والاسباب من مثبتي القدر فهم في الحقيقة لا يثبتون له حمدا كما لا يثبتون له الحكمة فان الحمد من لوازم الحكمة والحكمة انما تكون في حق من يفعل شيأ لشيء فيريد بما يفعله الحكمة الناشئة من فعله فأما من لا يفعل شيأ لشيء ألبتة فلا يتصور في حقه الحكمة وهؤلاء يقولون ليس في أفعاله وأحكامه لام تعليل وما اقترن بالمفعولات من قوى وطبائع ومصالح فانما اقترنت بها اقترانا عاديا لأن هذا كان لاجل هذا ولا نشأ السبب لاجل المسبب بل لا سبب عندهم ولا مسبب البتة ان هو الا محض المشيئة وصرف الارادة التي ترجح مثلا على مثل بل لا مرجح أصلا وليس عندهم في الاجسام طبائع وقوى تكون أسبابا لحركاتها ولا في العين قوة امتازت بها على الرجل يبصر بها ولا في القلب قوة يعقل بها امتاز بها عن الظهر بل خص سبحانه أحد الجسمين بالرؤية والعقل والذوق تخصيصا لمثل على مثل بلا سبب أصلا ولا حكمة فهؤلاء لم يثبتوا له كمال الحمد كما لم يثبت له أولئك كمال الملك وكلا القولين منكر عند السلف وجمهور الامة ولهذا كان منكر

فلا

فلايجتمع فى العبد أن يكون من هؤلاء وهؤلاء بل يبعد عن رسول الله بقدر قربه من الكاهن ويكذب الرسول بقدر تصديقه للكاهن وقوله اجعل لى مصايد قال مصايدك النساء فالنساء أعظم شبكة له يصطاد بهن الرجال كما سيأتى ان شاء الله تعالى فى الفصل الذى بعد هذا فالمقصود ان الغناء المحرم قرآن الشيطان ولما أراد عدو الله ان يجمع عليه نفوس المبطلين قرنه بما يزينه من الالحان المطربة وآلات الملاهى والمعازف وأن يكون من امرأة جميلة أو صبى جميل ليكون ذلك أدعى الى قبول النفوس لقراءته ويعوضها به عن القرآن المجيد

(فصل) وأما تسميته بالصوت الاحمق والصوت الفاجر فهى تسمية الصادق المصدوق الذى لا ينطق عن الهوى فروى الترمذى من حديث ابن أبى ليلى عن عطاء عن جابر رضى الله عنه قال خرج رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مع عبد الرحمن بن عوف الى النخل فاذا ابنه ابراهيم يجود بنفسه فوضعه فى حجره ففاضت عيناه فقال عبد الرحمن أتبكى وأنت تنهى الناس قال انى لم أنه عن البكاء وانما نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين صوت عند نغمة لهو ولعب ومزامير شيطان وصوت عند مصيبة خمش وجوه وشق جيوب ورنة وهذا هو رحمة ومن لا يرحم لا يرحم لولا انه أمر حق ووعد صدق وان آخرنا سيلحق أولنا لحزنا عليك حزنا هو أشد من هذا وانا بك لمحزونون تبكى العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب قال الترمذى هذا حديث حسن فانظر الى هذا النهى المؤكد بتسميته صوت الغناء صوتا أحمق ولم يقتصر على ذلك حتى وصفه بالفجور ولم يقتصر على ذلك حتى سماه من مزامير الشيطان وقد أقر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أبا بكر الصديق على تسمية الغناء مزمور الشيطان فى الحديث الصحيح كما سيأتى فان لم يستفد التحريم من هذا لم نستفده من نهى أبدا وقد اختلف فى قوله لا تفعل وقوله نهيت عن كذا أيهما أبلغ فى التحريم والصواب بلا ريب ان صيغة نهيت أبلغ فى التحريم لان لا تفعل يحتمل النهى وغيره بخلاف الفعل الصريح فكيف يستجيز العارف اباحة ما نهى عنه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وسماه صوتا أحمق فاجرا ومزمور الشيطان وجعله والنياحة التى لعن فاعلها أخوين وأخرج النهى عنهما مخرجا واحدا ووصفهما بالحمق والفجور وصفا واحدا وقال الحسن صوتان ملعونان مزمار عند نغمة ورنة عند مصيبة وقال أبو بكر الهذلى قلت للحسن أكان نساء المهاجرات يصنعن ما يصنع النساء اليوم قال لا ولكن ههنا خمش وجوه وشق جيوب ونتف أشعار ولطم خدود ومزامير شيطان صوتان قبيحان فاحشان عند نغمة ان حدثت وعند مصيبة ان نزلت ذكر الله المؤمنين فقال وفى أموالهم حق للسائل والمحروم وجعلتم أنتم فى أموالكم حقا معلوما للمغنية عند النغمة والنائحة عند المصيبة

الاسباب والقوى والطبائع يقولون العقل نوع من العلوم الضرورية كما قاله القاضيان أبو بكر بن الطيب وأبو يعلى بن الفراء واتباعهما وقد نص أحمد على انه غريزة وكذلك الحارث المحاسبى وغيرهما وأولئك لا يثبتون غريزة ولا قوة ولا طبيعة ولا سببا وأبطلوا مسميات هذه الاسماء جملة وقالوا ان ما فى الشريعة من المصالح والحكم لم يشرع الرب سبحانه (١٣٧) ما شرع من الاحكام لاجلها بل اتفق اقترانها بها أمرا اتفاقيا كما قالوا نظير ذلك فى المخلوقات سواء والعلل عندهم أمارات محضة لمجرد الاقتران الاتفاقى وهم فريقان أحدهما لا يعرجون على المناسبات ولا يثبتون العلل بها البتة وانما يعتمدون على تأثير العلة بنص أو اجماع فان فقدا فزعوا الى الاقيسة الشبهية والفريق الثانى أصلحوا المذهب بعض الاصلاح وقربوه بعض الشئ وأزالوا تلك النفرة عنه وأثبتوا الاحكام بالعلل والعلل بالمناسبات والمصالح ولم يمكنهم الكلام فى الفقه الا بذلك ولكن جعلوا اقتران أحكام تلك العلل والمناسبات بها اقترانا عاديا غير مقصود فى نفسه والعلل والمناسبات أمارات ذلك الاقتران وهؤلاء يستدلون على اثبات علم الرب بما فى مخلوقاته من الاحكام والاتقان والمصالح وهذا تناقض بين منهم فان ذلك انما يدل اذا كان الفاعل يقصد ان يفعل الفعل على وجه مخصوص لاجل الحكمة المطلوبة منه وأما من لم يفعل لاجل ذلك الاحكام والاتقان وانما اتفق اقترانه بفعوله عادة فان ذلك الفعل لا يدل على العلم ففى افعال الحيوانات من الاحكام والاتقان والحكم ما هو معروف لمن تأمله ولكن لما لم تكن تلك الحكم والمصالح مقصودة لها لم تدل على علمها والمقصود ان هؤلاء اذا قالوا انه تعالى لا يفعل لحكمة امتنع عندهم ان تكون الاحكام دليلا على العلم وأيضا فعلى قولهم يمتنع أن يحمد على ما فعله لامر ما حصل للعباد من نفع فهو سبحانه لم يقصد بما خلقه نفعهم ولا خلقه لنفعهم ومصالحهم بل انما أراد مجرد وجوده لا لاجل كذا ولا لنفع أحد ولا لضره فكيف يتصور فى حق من يكون فعله ذلك حمد فلا يحمد على فعل عدل ولا على ترك ظلم لان الظلم عندهم هو الممتنع الذى

(فصل) وأما تسميته صوت الشيطان فقد قال تعالى للشيطان وحزبه اذهب فمن تبعك منهم فان جهنم جزاؤكم جزاء موفورا واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الاموال والاولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان الاغرورا قال ابن أبي حاتم في تفسيره حدثنا أبي أخبرنا أبو صالح كاتب الليث حدثني معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس واستفزز من استطعت منهم بصوتك كل داع الى معصية ومن المعلوم ان الغناء من أعظم الدواعي الى المعصية ولهذا فسر صوت الشيطان به قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي أخبرنا يحيى بن المغيرة أخبرنا جرير عن ليث عن مجاهد واستفزز من استطعت منهم بصوتك قال استزل منهم من استطعت قال وصوته الغناء والباطل وبهذا الاسناد الى جرير عن منصور عن مجاهد قال صوته هو المزامير ثم روى باسناده عن الحسن البصري قال صوته هو الدف وهذه الاضافة اضافة تخصيص كما ان اضافة الخيل والرجل اليه كذلك فكل متكلم بغير طاعة الله وبصوت يراع أو مزمار أو دف حرام أو طبل فذلك صوت الشيطان وكل ساع في معصية الله على قدميه فهو من رجله وكل راكب في معصية الله فهو من خيالته كذلك قال السلف كما ذكر ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال رجله كل رجل مشت في معصية الله وقال مجاهد كل رجل يقاتل في غير طاعة الله فهو من رجله وقال قتادة ان له خيلا ورجلا من الجن والانس

(فصل) وأما تسميته مزمور الشيطان ففي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت دخل على النبي عليه السلام وعندي جاريتان تغنيان بغناء بعاث فاضطجع على الفراش وحول وجهه ودخل أبو بكر رضي الله عنه فانتهرني وقال مزمار الشيطان عند النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فأقبل عليه رسول الله عليه السلام فقال دعهما فلما غفل غمزتهما فخرجتا فلم ينكر رسول الله عليه السلام على أبي بكر تسمية الغناء مزمار الشيطان وأقرهما لانهما جاريتان غير مكلفتين تغنيان بغناء الاعراب الذي قيل في يوم حرب بعاث من الشجاعة والحرب وكان اليوم يوم عيد فتوسع حزب الشيطان في ذلك الى صوت امرأة جميلة أجنبية أو صبي أمرد صوته فتنة وصورته فتنة يغني بما يدعو الى الزنا والفجور وشرب الخمور مع آلات اللهو التي حرمها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في عدة أحاديث كما سيأتي مع التصفيق والرقص وتلك الهيئة المنكرة التي لا يستحلها أحد من أهل الاديان فضلا عن أهل العلم والايمان ويحتجون بغناء جويريتين غير مكلفتين بنشيد الاعراب في الشجاعة ونحوها في يوم عيد بغير شبابة ولا دف ولا رقص ولا تصفيق ويدعون المحكم الصريح لهذا المتشابه وهذا شأن كل مبطل نعم نحن لا نحرم ولا نكره مثل ما كان في بيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على ذلك الوجه وانما نحرم نحن وسائر أهل العلم

[illegible] فهو عبارة عن الممتنع المستحيل لذاته الذي لا يدخل تحت المقدور ولا يتصور فيه ترك اختياري فلا يتعلق به حمد واخباره تعالى عن نفسه بقيامه بالقسط حقيقته عندهم مجرد كونه فاعلا لا ان هناك شيأ هو قسط في نفسه يمكن وجود ضده وكذلك قوله وما ربك بظلام للعبيد نفي عندهم لما هو مستحيل في نفسه لا حقيقة له كجعل الجسم في مكانين في آن واحد وجعله موجودا معدوما في آن واحد فهذا ونحوه عندهم هو الظلم الذي تنزه عنه وكذلك قوله ياعبادي اني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا فالذي حرمه على نفسه هو المستحيل الممتنع لذاته كالجمع بين النقيضين وليس هناك ممكن يكون ظلما في نفسه وقد حرمه على نفسه ومعلوم انه لا يمدح الممدوح بترك مالو أراده لم يقدر عليه وأيضا فانه قال وجعلته محرما بينكم فالذي حرمه على نفسه هو الذي جعله محرما بين عباده وهو الظلم المقدور والذي يستحق تاركه الحمد والثناء والذي أوجب لهم هذا مناقضة القدرية المجوسية ورد أصولهم وهدم قواعدهم ولكن ردوا باطلا بباطل وقابلوا بدعة ببدعة وسلطوا عليهم خصومهم بما التزموه من الباطل فصارت الغلبة بينهم وبين خصومهم سجالا مرة يغلبون ومرة يغلبون لم يستقر لهم نصرة وانما النصرة الثابتة لاهل السنة المحضة الذين لم يتحيزوا الى فئة غير رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يلتزموا غير ما جاء به ولم يؤصلوا أصلا ببدعة يسلطون عليهم به خصومهم بل أصلهم ما دل عليه كتاب الله وكلام رسوله وشهدت به الفطر والعقول

(فصل) والمقصود بيان شمول حمده سبحانه وحكمته لكل ما يحدثه من احسان ونعمة وامتحان وبلية وما يقضيه من طاعة ومعصية والله تعالى محمود على ذلك مشكور حمد المدح وحمد الشكر أما حمد المدح فالله محمود على كل ما خلق اذ هو رب العالمين والحمد لله رب العالمين وأما حمد الشكر فلان ذلك كله نعمة في حق المؤمن اذا اقترن بواجبه والاحسان والنعمة اذا اقترنت والايمان

والايمان السماع المخالف لذلك وبالله التوفيق

(فصل) وأما تسميته بالسمود فقد قال تعالى أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون قال عكرمة عن ابن عباس السمود الغناء في لغة حمير يقال اسمدي لنا أي غني لنا وقال أبو زبيد

وكأن العزيف فيها غناء * للندامى من شارب مسمود

قال أبو عبيدة المسمود الذي غني له وقال عكرمة كانوا اذا سمعوا القرآن تغنوا فنزلت هذه الآية وهذا لا يناقض ما قيل في هذه الآية من أن السمود الغفلة والسهو عن الشئ قال المبرد هو الاشتغال لهم أو فرح يتشاغل به وأنشد

رمى الحدثان نسوة آل حرب * بمقدار سمدن له سمودا

وقال ابن الانباري السامد اللاهي والسامد الساهي والسامد المتكبر والسامد القائم وقال ابن عباس في الآية وأنتم مستكبرون وقال الضحاك أشرون بطرون وقال مجاهد غضاب مبرطمون وقال غيره لاهون غافلون معرضون فالغناء يجمع هذا كله ويوجبه فهذه أربعة عشر اسما سوى اسم الغناء

(فصل) في بيان تحريم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الصريح لآلات اللهو والمعازف وسياق الاحاديث في ذلك عن عبد الرحمن بن غنم قال حدثني أبو عامر أو أبو مالك الاشعري رضي الله عنهما سمع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يقول ليكونن من أمتي قوم يستحلون الخز والحرير والخمر والمعازف هذا حديث صحيح أخرجه البخاري في صحيحه محتجا به وعلقه تعليقا مجزوما به فقال باب ما جاء فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه وقال هشام بن عمار حدثنا صدقة بن خالد حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر حدثنا عطية بن قيس الكلابي حدثني عبد الرحمن بن غنم الاشعري حدثني أبو عامر أو أبو مالك الاشعري والله ما كذبني سمع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يقول ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الخز والحرير والخمر والمعازف ولينزلن أقوام الى جنب علم يروح عليهم بسارحة لهم يأتيهم لحاجة فيقولوا ارجع الينا غدا فيبيتهم الله تعالى ويضع العلم ويمسخ آخرين قردة وخنازير الى يوم القيامة ولم يصنع من قدح في صحة هذا الحديث شيأ كابن حزم نصرة لمذهبه الباطل في اباحة الملاهي وزعم انه منقطع لان البخاري لم يصل سنده به وجواب هذا الوهم من وجوه أحدها أن البخاري قد لقي هشام بن عمار وسمع منه فاذا قال قال هشام فهو بمنزلة قوله عن هشام الثاني انه لو لم يسمع منه فهو لم يستجز الجزم به عنه الا وقد صح عنه انه حدث به وهذا كثيرا ما يكون لكثرة من رواه عنه عن ذلك الشيخ وشهرته فالبخاري أبعد خلق الله من التدليس الثالث انه دخل في كتابه المسمى بالصحيح محتجا به فلولا صحته عنده لما نقل ذلك الرابع انه علقه بصيغة الجزم دون صيغة التمريض فانه اذا

بالشكر صارت نعمة والامتحان والبلية اذا اقترنا بالصبر كان نعمة والطاعة من أجل نعمة وأما المعصية فاذا اقترنت بواجبها من التوبة والاستغفار والانابة والذل والخضوع فقد ترتب عليها من الآثار المحمودة والغايات المطلوبة ما هو نعمة أيضا وان كان سببها مسخوطا مبغوضا للرب سبحانه ولكنه يحب ما يترتب عليها من التوبة والاستغفار وهو سبحانه أفرح بتوبة عبده من الرجل اذا أضل راحلته بأرض دوية مهلكة عليها طعامه وشرابه فأيس منها ومن الحياة فنام ثم استيقظ فاذا بها قد تعلق خطامها في أصل شجرة فجاء حتى أخذها فالله أفرح بتوبة العبد حين يتوب اليه من هذا براحلته فهذا الفرح العظيم الذي لا يشبهه شئ أحب اليه سبحانه من عدمه وله أسباب ولوازم لا بد منها وما يحصل بتقدير عدمه من الطاعات وان كان محبوبا له فهذا الفرح أحب اليه بكثير ووجوده بدون لازمه ممتنع فله من الحكمة في تقدير أسبابه وموجباته حكمة بالغة ونعمة سابغة هذا بالاضافة الى الرب سبحانه وأما بالاضافة الى العبد فانه قد يكون كمال عبوديته وخضوعه موقوفا على أسباب لا تحصل بدونها فتقدير الذنب عليه اذا اتصل به التوبة والانابة والخضوع والذل والانكسار ودوام الافتقار كان من النعم باعتبار غايته وما يعقبه وان كان من الابتلاء والامتحان باعتبار صورته ونفسه والرب سبحانه محمود على الامرين فان اتصل بالذنب الآثار المحبوبة للرب سبحانه من التوبة والانابة والذل والانكسار فهو عين مصلحة العبد والاعتبار بكمال النهاية لا بنقص البداية وان لم يتصل به ذلك فهذا لا يكون الا من خبث نفسه وشره وعدم استعداده لجوار ربه بين الارواح الزكية الطاهرة في الملأ الاعلى ومعلوم ان هذه النفس فيها من الشر والخبث ما فيها فلا بد من خروج ذلك منها من القوة الى الفعل ليترتب على ذلك الآثار المناسبة لها ومساكنة من تليق مساكنته ومجاورة الارواح الخبيثة في المحل الاسفل فان هذه النفوس اذا كانت مهيأة لذلك فمن الحكمة أن تستخرج منها الاسباب التي توصلها الى ما هي مهيأة له ولا يليق بها سواه والرب سبحانه محمود على ذلك أيضا كما هو محمود على انعامه واحسانه على أهل الاحسان والانعام القابلين له

توقف فى الحديث أولم يكن على شرطه يقول و يروى عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ويذكر عنه ونحو ذلك فاذا قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقد جزم وقطع باضافته اليه الخامس انا لو أضربنا عن هذا كله صفحا فالحديث صحيح متصل عند غيره قال أبو داود فى كتاب اللباس حدثنا عبد الوهاب بن نجدة ثنا بشر بن بكر عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر ثنا عطية بن قيس قال سمعت عبد الرحمن بن غنم الاشعرى قال ثنا أبو عامر أو أبو مالك فذكره مختصرا و رواه أبو بكر الاسماعيلى فى كتابه الصحيح مسندا فقال أبو عامر ولم يشك و وجه الدلالة منه ان المعازف هى آلات اللهو كلها لاخلاف بين أهل اللغة فى ذلك ولو كانت حلالا لما ذمهم على استحلالها ولما قرن استحلالها باستحلال الخمر والخز فان كان بالحاء والراء المهملتين فهو استحلال الفروج الحرام وان كان بالخاء والزاى المعجمتين فهو نوع من الحرير غير الذى صح عن الصحابة لبسه اذ الخز نوعان أحدهما من حرير والثانى من صوف وقد روى هذا الحديث بالوجهين وقال ابن ماجه فى سننه حدثنا عبد الله بن سعيد عن معاوية بن صالح عن حاتم بن حريث عن ابن أبى مريم عن عبد الرحمن بن غنم الاشعرى عن أبى مالك الاشعرى رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ليشربن ناس من أمتى الخمر يسمونها بغير اسمها يعزف على رؤسهم بالمعازف والمغنيات يخسف الله بهم الارض و يجعل منهم قردة وخنازير وهذا اسناد صحيح وقد توعد مستحل المعازف فيه بان يخسف الله بهم الارض و يمسخهم قردة وخنازير وان كان الوعيد على جميع هذه الافعال فلكل واحد قسط فى الذم والوعيد وفى الباب عن سهل بن سعد الساعدى وعمران بن حصين وعبد الله بن عمرو وعبد الله بن عباس وأبى هريرة وأبى امامة الباهلى وعائشة أم المؤمنين وعلى بن أبى طالب وأنس ابن مالك وعبد الرحمن بن سابط والغاز بن ربيعة ونحن نسوقها لتقربها عيون أهل القرآن وتشجى بها حلوق أهل سماع الشيطان فأما حديث سهل بن سعد فقال ابن أبى الدنيا أخبرنا الهيثم بن خارجة حدثنا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبى حازم عن سهل بن سعد الساعدى قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يكون فى أمتى خسف وقذف ومسخ قيل يارسول الله متى قال اذا ظهرت المعازف والقينات واستحلت الخمرة وأما حديث عمران بن حصين فرواه الترمذى من حديث الاعمش عن هلال بن يساف عن عمران بن حصين قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يكون فى أمتى قذف وخسف ومسخ فقال رجل من المسلمين متى ذلك يارسول الله قال اذا ظهرت القيان والمعازف وشربت الخمور قال الترمذى هذا حديث غريب وأما حديث عبد الله بن عمرو فروى أحمد فى مسنده وأبو داود عنه ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال ان الله حرم الخمر والميسر والكوبة والغبيراء وكل مسكر حرام وفى لفظ آخر لاحمد ان الله حرم على أمتى الخمر والميسر

والمزر

فيما كل أحد قابلا لنعمته تعالى فحمده وحكمته تقتضى أن لا يودع نعمه الا من هو أهلها وكونها فى محل غير قابل لها ولا يبقى الآن يقال فما الحكمة فى خلق هذه الارواح التى هى غير قابلة لنعمته فقد تقدم من الجواب عن ذلك مافيه كفاية وان خلق الاضداد والمقابلات وترتب آثارها عليها موجب ربوبيته وحكمته وعلمه وعزته وان تقدير عدم ذلك هضم من جانب الربوبية وأيضا فان هذه الحوادث نعمة فى حق المؤمن فانها اذا وقعت فهو مامور أن ينكرها بقلبه و يده ولسانه أو بقلبه ولسانه فقط أو بقلبه فقط ومامور أن يجاهد أربابها بحسب الامكان فيترتب له على الانكار والجهاد من مصالح قلبه ونفسه وبدنه ومصالح دنياه وآخرته مالم يكن ينال بدون ذلك والمقصود بالقصد الاول اتمام نعمته تعالى على أوليائه ورسله وخاصته فاستعمال أعدائه فيما تكمل به النعمة على أوليائه غاية الحكمة وكان فى تمكين أهل الكفر والفسوق والعصيان من ذلك ايصال الى الكمال الذى يحصل لهم بمعاداة هؤلاء وجهادهم والانكار عليهم والموالاة فيه والمعاداة فيه وبذل نفوسهم وأموالهم وقواهم له فان تمام العبودية لا تحصل الا بالمحبة الصادقة وانما تكون المحبة صادقة اذا بذل فيها المحب ما يملكه من مال ورياسة وقوة فى مرضاة محبوبه والتقرب اليه فان بذل له روحه كان هذا أعلى درجات المحبة ومن المعلومات من لوازم ذلك التى لا يحصل الا بها أن يخلق ذواتا وأسبابا وأعمالا وأخلاقا وطبائع تقتضى معاداة من يحبه و يؤثر مرضاته لها وعند ذلك تحقق المحبة الصادقة من غيرها فكل أحد يحب الاحسان والراحة والدعة واللذة ويحب من يوصل اليه ذلك و يحصله له ولكن الشان فى أمر وراء هذا وهو محبته سبحانه ومحبة ما يحبه مما هو أكره شئ الى النفوس وأشق شئ عليها مما لا يلائمها فعند حصول أسباب ذلك يتبين من يحب الله لذاته و يحب ما يحب ممن يحبه لاجل مخلوقاته فقط من المآكل والمشرب والمنكح والرياسة فان أعطى منها رضى وان منعها سخط وعتب على ربه وربما شكاه وربما ترك عبادته فلولا خلق الاضداد وتسليط أعدائه وامتحان أوليائه لم يستخرج

والمزر والكوبة والقنين وأما حديث ابن عباس ففي المسند أيضا عنه ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال ان الله حرم الخمر والميسر والكوبة وكل مسكر حرام والكوبة الطبل قاله سفيان وقيل البربط والقنين هو الطنبور بالحبشية والتقنين الضرب به قاله ابن الاعرابي وأما حديث أبي هريرة رضي الله عنه فرواه الترمذي عنه قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اذا اتخذ الفيء دولا والامانة مغنما والزكاة مغرما وتعلم لغير الدين وأطاع الرجل امرأته وعق أمه وأدنى صديقه وأقصى أباه وظهرت الاصوات في المساجد وساد القبيلة فاسقهم وكان زعيم القوم أرذلهم وأكرم الرجل مخافة شره وظهرت القيان والمعازف وشربت الخمور ولعن آخر هذه الامة أولها فليرتقبوا عند ذلك ريحا حمراء وزلزلة وخسفا ومسخا وقذفا وآيات تتابع كنظام بال قطع سلكه فتتابع قال الترمذي هذا حديث حسن غريب وقال ابن أبي الدنيا حدثنا عبد الله بن عمر الجشمي ثنا سليمان بن سالم أبو داود ثنا حسان بن أبي سنان عن رجل عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يمسخ قوم من هذه الامة في آخر الزمان قردة وخنازير قالوا يا رسول الله أليس يشهدون أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله قال بلى ويصومون ويحجون قيل فما بالهم قال اتخذوا المعازف والدفوف والقينات فباتوا على شربهم ولهوهم فأصبحوا وقد مسخوا قردة وخنازير وأما حديث أبي امامة الباهلي فهو في مسند أحمد والترمذي عنه عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال يبيت طائفة من أمتي على أكل وشرب ولهو ولعب ثم يصبحون قردة وخنازير ويبعث على أحياء من أحيائهم ريح فينسفهم كما نسف من كان قبلكم باستحلالهم الخمر وضربهم بالدفوف واتخاذهم القينات في اسناده فرقد السبخي وهو من كبار الصالحين ولكن ليس بقوي في الحديث وقال الترمذي تكلم فيه يحيى بن سعيد وقد روى عنه الناس وقال ابن أبي الدنيا حدثنا عبد الله بن عمر الجشمي ثنا جعفر بن سليمان ثنا فرقد السبخي ثنا قتادة عن سعيد بن المسيب قال حدثني عاصم بن عمرو البجلي عن أبي امامة عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال يبيت قوم من هذه الامة على طعم وشرب ولهو فيصبحون وقد مسخوا قردة وخنازير وليصيبهم خسف وقذف حتى يصبح الناس فيقولون خسف الليلة بدار فلان خسف الليلة ببني فلان وليرسلن عليهم حجارة من السماء كما أرسلت على قوم لوط على قبائل فيها وعلى دور فيها وليرسلن عليهم الريح العقيم التي أهلكت عادا بشربهم الخمر وأكلهم الربا واتخاذهم القينات وقطيعتهم الرحم وفي مسند أحمد من حديث عبيد الله بن زحر عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي امامة عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال ان الله بعثني رحمة وهدى للعالمين وأمرني أن أمحق المزامير والكبارات يعني البرابط والمعازف والاوثان التي كانت تعبد في الجاهلية قال البخاري عبيد الله بن زحر ثقة وعلي بن يزيد ضعيف والقاسم بن

ناض العبود بمن عبيده الذين هم عبيده ولم يحصل لهم عبودية الموالاة فيه والمعاداة فيه والحب فيه والبغض فيه والعطاء له والمنع له ولا عبودية بذل الارواح والاموال والاولاد والقوى في جهاد أعدائه ومضرته ولا عبودية مفارقة الناس أحوج ما يكون اليهم عنده لاجله في مرضاته ولا يتحيز اليهم وهو يرى محاب نفسه وملاذها بايديهم فيرضى بمفارقتهم ومشاقتهم وايثار موالاة الحق عليهم فلولا الاضداد والاسباب التي توجب ذلك لم تحصل هذه الآثار وأيضا فلولا تسليط الشهوة والغضب ودواعيهما على العبد لم تحصل له فضيلة الصبر وجهاد النفس ومنعها من حظوظها وشهواتها محبة لله وايثار المرضاته وطلبا للزلفى لديه والقرب منه وأيضا فلولا ذلك لم تكن هذه النشأة الانسانية انسانية بل كانت ملكية فان الله سبحانه خلق خلقه أطوارا فخلق الملائكة عقولا لا شهوات لها ولا طبيعة تتقاضى منها خلاف ما يراد منها من مادة نورية لا تقتضي شيأ من الآثار والطبائع المذمومة وخلق الحيوانات ذوات شهوات لا عقول لها وخلق الثقلين الجن والانس وركب فيهم العقول والشهوات والطبائع المختلفة لآثار مختلفة بحسب موادها وصورها وتركيبها وهؤلاء هم أهل الامتحان والابتلاء وهم المعرضون للثواب والعقاب ولو شاء سبحانه لجعل خلقه على طبيعة وخلق واحد ولم يفاوت بينهم لكن ما فعله سبحانه هو محض الحكمة وموجب الربوبية ومقتضى الالهية ولو كان الخلق كله طبيعة واحدة ونمطا واحدا لوجد الملحد مقالا وقال هذا مقتضى الطبيعة ولو كان فاعلا بالاختيار لتنوعت أفعاله ومفعولاته ولفعل الشيء وضده والشيء وخلافه ولذلك لولا شهود هذه الحوادث المشهودة لوجد الملحد أيضا مقالا وقال لو كان لهذا العالم خالق مختار لوجدت فيها الحوادث على حسب ارادته واختياره كما روى الحسن أو غيره قال كان أصحاب محمد يقولون جل ربنا القديم انه لو لم يتغير هذا الخلق لقال الشاك في انه لو كان لهذا العالم خالق لاحدثه بينا هو ليل اذ جاء نهار وبينا هو نهار اذ جاء ليل هو صحو اذ جاء غيم وبينا هو غيم اذ جاء صحو ونحو هذا من الكلام ولهذا يستدل سبحانه في كتابه بالحوادث تارة وباختلافها

ثار وانه هذا وهذا يستلزم ربوبيته وقدرته واختياره ووقوع كل الكائنات على وفق مشيئته فتنوع أفعاله ومفعولاته من أعظم الادلة
على ربوبيته وحكمته وعلمه ولهذا خلق سبحانه النوع الانسانى أربعة أقسام أحدها لا من ذكر ولا أنثى وهو خلق أبيهم وأصلهم آدم الثانى
خلقه من ذكر بلا أنثى كخلق أمهم حواء من ضلع من أضلاع آدم من غير أن تحمل بها أنثى أو يشتمل عليها بطن الثالث خلقه من
أنثى بلا ذكر كخلق المسيح عيسى ابن مريم الرابع خلق سائر النوع الانسانى من ذكر وأنثى وكل هذا ليدل عباده على كمال قدرته ونفوذ مشيئته وكمال حكمته وان الامر ليس كما يظنه أعداؤه الجاحدون له الكافرون به من ان ذلك أمر طبيعى لم يزل هكذا ولا يزال وانه ليس للنوع أب ولا أم وانه ليس الا أرحام تدفع وأرض تبلع وطبيعة تفعل ما يرى ويشاهد ولم يعلم هؤلاء الجهال الضلال ان الطبيعة قوة وصفة فقيرة الى محلها محتاجة الى حامل لها وانها من أدل الدلائل على وجود أمر طبعها وخلقها وأودعها الاجسام وجعل فيها هذه الاسرار العجيبة فالطبيعة مخلوق من مخلوقاته ومملوك من ممالكه وعبيده مسخرة لامره تعالى منقادة لمشيئته ودلائل الصنعة وأمارات الخلق والحدوث وشواهد الفقر والحاجة شاهدة عليها بانها مخلوقة مصنوعة لا تخلق ولا تفعل ولا تتصرف فى ذاتها ونفسها فضلا عن اسناد الكائنات اليها والمقصود ان تنويع المخلوقات واختلافها من لوازم الحكمة والربوبية والملك وهو أيضا من موجبات الحمد فله الحمد على ذلك كله أكمل حمد وأتمه وأيضا فان مخلوقاته هو موجبات أسمائه وصفاته فلكل اسم وصفة أثر لا بد من ظهوره فيه واقتضائه له فيمتنع تعطيل آثار أسمائه وصفاته كما يمتنع تعطيل ذاته عنها
وهذه الآثار لها متعلقات ولوازم يمتنع ان لا توجد كما تقدم التنبيه عليه وأيضا فان تنويع أسباب على
الحمد أمر مطلوب للرب محبوب له فكما تنوع أسباب الحمد تنوع الحمد بتنوعها وكثر بكثرتها ومعلوم انه سبحانه محمود على انتقامه من أهل
الاجرام والاساءة كما هو محمود على اكرامه لاهل العدل والاحسان فهو محمود على هذا وعلى هذا مع ما يتبع ذلك من حمده على حلمه وعفوه

عبد الرحمن أبو عبد الرحمن ثقة وفى الترمذى ومسند أحمد بهذا الاسناد بعينه ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال لا تبيعوا القينات ولا تشتروهن ولا تعلموهن ولا خير فى تجارة فيهن وثمنهن حرام وفى مثل هذا نزلت هذه الآية ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله الآية وأما حديث عائشة رضى الله عنها فقال ابن أبى الدنيا حدثنا الحسن بن محبوب حدثنا أبو النضر هاشم بن القاسم حدثنا أبو معشر عن محمد بن المنكدر عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يكون فى أمتى خسف ومسخ وقذف قالت عائشة يا رسول الله وهم يقولون لا اله الا الله فقال اذا ظهرت القيان وظهر الربا وشربت الخمر ولبس الحرير كان ذا عند ذا وقال ابن أبى الدنيا أيضا ثنا محمد بن ناصح ثنا بقية بن الوليد عن يزيد بن عبد الله الجهنى حدثنى أبو العلاء عن أنس ابن مالك أنه دخل على عائشة رضى الله عنها ورجل معه فقال لها الرجل يا أم المؤمنين حدثينا عن الزلزلة فقالت اذا استباحوا الزنا وشربوا الخمر وضربوا بالمعازف غار الله فى سمائه فقال تزلزلى بهم فان تابوا ونزعوا والا هدمها عليهم قال قلت يا أم المؤمنين أعذاب لهم قالت بل موعظة ورحمة وبركة للمؤمنين ونكال وعذاب وسخط على الكافرين قال أنس ما سمعت حديثا بعد رسول الله أنا أشد به فرحا منى بهذا الحديث وأما حديث على فقال ابن أبى الدنيا أيضا حدثنا الربيع بن ثعلب ثنا فرج بن فضالة عن يحيى بن سعيد عن محمد ابن على عن على رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اذا عملت أمتى خمس عشرة خصلة حل بها البلاء قيل يا رسول الله وما هن قال اذا كان المغنم دولا والامانة مغنما والزكاة مغرما وأطاع الرجل زوجته وعق أمه وبر صديقه وجفا أباه وارتفعت الاصوات فى المساجد وكان زعيم القوم أرذلهم وأكرم الرجل مخافة شره وشربت الخمور ولبس الحرير واتخذت القيان ولعن آخر هذه الامة أولها فليرتقبوا عند ذلك ريحا حمراء وخسفا ومسخا حدثنا عبد الجبار بن عاصم أبو طالب ثنا اسمعيل بن عياش عن عبد الرحمن التميمى عن عباد بن أبى على عن على رضى الله عنه عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال يمسخ طائفة من أمتى قردة وطائفة خنازير ويخسف بطائفة ويرسل على طائفة الريح العقيم بأنهم شربوا الخمر ولبسوا الحرير واتخذوا القيان وضربوا بالدفوف وأما حديث أنس رضى الله عنه فقال ابن أبى الدنيا ثنا أبو عمرو هرون بن عمر القرشى ثنا الخصيب بن كثير عن أبى بكر الهذلى عن قتادة عن أنس رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ليكونن فى هذه الامة خسف وقذف ومسخ وذلك اذا شربوا الخمور واتخذوا القينات وضربوا بالمعازف قال وأنبأنا أبو اسحق الازدى ثنا اسمعيل بن أبى أويس حدثنى عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أحد ولد أنس بن مالك وعن غيره عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ليبيتن رجال على أكل وشرب وعزف فيصبحون

على أرائكهم ممسوخين قردة وخنازير وأما حديث عبد الرحمن بن سابط فقال ابن أبي الدنيا ثنا اسحق بن اسمعيل ثنا جرير عن أبان بن ثعلب عن عمرو بن مرة عن عبد الرحمن بن سابط قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يكون في أمتي خسف وقذف ومسخ قالوا فتى ذلك يارسول الله قال اذا أظهروا المعازف واستحلوا الخمور وأما حديث الغار ابن ربيعة فقال ابن أبي الدنيا ثنا عبد الجبار بن عاصم ثنا اسمعيل بن عياش عن عبيد الله بن عبيد عن أبي العباس الهمداني عن عمارة بن راشد عن الغار بن ربيعة رفع الحديث قال ليمسخن قوم وهم على أريكتهم قردة وخنازير بشربهم الخمر وضربهم بالبرابط والقيان قال ابن أبي الدنيا وثنا عبد الجبار بن عاصم قال حدثني المغيرة بن المغيرة عن صالح بن خالد رفع ذلك الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم انه قال ليستحلن ناس من أمتي الحرير والخمر والمعازف وليأتين الله على أهل حاضر منهم عظيم بجبل حتى ينبذه عليهم ويمسخ آخرون قردة وخنازير قال ابن أبي الدنيا ثنا هرون بن عبيد الله ثنا يزيد بن هرون ثنا أشرس أبو شيبان الهذلي قال قلت لفرقد السبخي أخبرني يا أبا يعقوب من تلك الغرائب التي قرأت في التوراة فقال يا أبا شيبان والله ما أكذب على ربي مرتين أو ثلاثا لقد قرأت في التوراة ليكونن مسخ وقذف وخسف في أمة محمد في أهل القبلة قال قلت يا أبا يعقوب ما أعمالهم قال باتخاذهم القينات وضربهم بالدفوف ولباسهم الحرير والذهب ولئن بقيت حتى ترى أعمالا ثلاثة فاستيقن واستعد واحذر قال قلت ماهي قال اذا تكافأ الرجال بالرجال والنساء بالنساء ورغبت العرب في آنية العجم فعند ذلك قلت له العرب خاصة قال لا بل أهل القبلة ثم قال والله ليقذفن رجال من السماء بحجارة يشدخون بها في طرقهم وقبائلهم كما فعل بقوم لوط وليمسخن آخرون قردة وخنازير كما فعل ببني اسرائيل وليخسفن بقوم كما خسف بقارون وقد تظاهرت الاخبار بوقوع المسخ في هذه الامة وهو مقيد في أكثر الاحاديث بأصحاب الغناء وشراب الخمر وفي بعضها مطلق قال سالم بن أبي الجعد ليأتين على الناس زمان يجتمعون فيه على باب رجل ينتظرون أن يخرج اليهم فيطلبوا اليه حاجة فيخرج اليهم وقد مسخ قردا أو خنزيرا وليمرن الرجل على الرجل في حانوته يبيع فيرجع اليه وقد مسخ قردا أو خنزيرا وقال أبو هريرة رضي الله عنه لا تقوم الساعة حتى يمشي الرجلان الى الامر يعملانه فيمسخ أحدهما قردا أو خنزيرا فلا يمنع الذي نجا منهما ما رأى بصاحبه أن يمضي الى شأنه ذلك حتى يقضي شهوته وحتى يمشي الرجلان الى الامر يعملانه فيخسف بأحدهما فلا يمنع الذي نجا منهما ما رأى بصاحبه أن يمشي لشأنه ذلك حتى يقضي شهوته منه وقال عبد الرحمن بن غنم سيكون حيان متجاورين فيشق بينهما نهر فيستقيان منه قبسهم واحد يقبس بعضهم من بعض فيصبحان يوما من الايام قد خسف بأحدهما والآخر حي وقال عبد الرحمن بن غنم

ومغفرته وترك حقوقه ومسامحة خلقه بها والعفو عن كثير من جنايات العبيد فنبههم باليسير من عقابه وانتقامه على الكثير الذي عفا عنه وانه لو عاجلهم بعقوبته وأخذهم بحقه لقضي اليهم أجلهم ولما ترك على ظهرها من دابة ولكنه سبقت رحمته غضبه وعفوه انتقامه ومغفرته عقابه فله الحمد على عفوه وانتقامه وعلى عدله واحسانه ولا سبيل الى تعطيل أسباب حمده ولا بعضها فليتدبر اللبيب هذا الموضع حق التدبر وليعطه حقه يطالعه على أبواب عظيمة من أسرار القدر ويهبط به على رياض منه معشبة وحياض مترعة والله الموفق الهادي للصواب وأضعافات الله سبحانه نوع الادلة الدالة عليه والتي تعرف عبادة به غاية التنوع وصرف الآيات وضرب الامثال ليقيم عليهم حجته البالغة ويتم عليهم بذلك نعمته السابغة ولا يكون لاحد بعد ذلك حجة عليه سبحانه بل الحجة كلها له والقدرة كلها له فأقام عليهم حجته ولو شاء لسوى بينهم في الهداية كما قال تعالى فلله الحجة البالغة ولو شاء لهداكم أجمعين فأخبر أن له الحجة البالغة وهي التي بلغت الى صميم القلب وخالطت العقل واتحدت به فلا يمكن العقل دفعها ولا جحدها ثم أخبر انه سبحانه قادر على هداية خلقه كلهم ولو شاء ذلك لفعله لكمال قدرته ونفوذ مشيئته ولكن حكمته تأبى ذلك وعدله يأبى تعذيب أحد وأخذه بلا حجة فأقام الحجة وصرف الآيات وضرب الامثال ونوع الادلة ولو كان الخلق كلهم على طريقة واحدة من الهداية لما حصلت هذه الامور ولا تنوعت هذه الادلة والامثال ولا ظهرت عزته سبحانه في انتقامه من أعدائه ونصر أوليائه عليهم ولا حججه التي أقامها على صدق أنبيائه ورسله ولا كان للناس آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين ولا كان للخلق آية باقية ما بقيت الدنيا في شأن موسى وقومه وفرعون وقومه وفلق البحر لهم ودخولهم جميعا فيه ثم انجاء موسى وقومه ولم يغرق أحد منهم وأغرق فرعون وقومه ولم ينج منهم أحد فهذا التعرف الى عباده وهذه الآيات وهذه العزة والحكمة لا سبيل الى تعطيلها البتة ولا توجد بدون لوازمها وأيضا فان حقيقة الملك انما تتم بالعطاء والمنع

يوشك أن يقعد اثنان على رحا يطحنان فيمسخ أحدهما والآخر ينظر وقال مالك ابن دينار بلغني أن ريحا تكون في آخر الزمان وظلم فيفزع الناس الى علمائهم فيجدونهم قد مسخوا قال بعض أهل العلم اذا اتصف القلب بالمكر والخديعة والفسق وانصبغ بذلك صبغا تاما صار صاحبه على خلق الحيوان الموصوف بذلك من القردة والخنازير وغيرهما ثم لا يزال يتزايد ذلك الوصف فيه حتى يبدو على صفحات وجهه بدوا خفيا ثم يقوى ويتزايد حتى يصير ظاهرا على الوجه ثم يقوى حتى يقلب الصورة الظاهرة كما قلب الهيئة الباطنة ومن له فراسة تامة يرى على صور الناس مسخا من صور الحيوانات التي تخلقوا بأخلاقها في الباطن فقل أن ترى محتالا مكارا مخادعا ختارا الا وعلى وجهه مسخة قرد وقل أن ترى رافضيا الا وعلى وجهه مسخة خنزير وقل أن ترى شرها نهما نفسه نفس كلبية الا وعلى وجهه مسخة كلب فالظاهر مرتبط بالباطن أتم ارتباط فاذا استحكمت الصفات المذمومة في النفس قويت على قلب الصورة الظاهرة ولهذا خوف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من سابق الامام في الصلاة بان يجعل الله صورته صورة حمار لمشابهته للحمار في الباطن فانه لم يستفد بمسابقة الامام الا فساد صلاته وبطلان أجره فان لا يسلم قبله فهو شبيه الحمار في البلادة وعدم الفطنة اذا عرف هذا فأحق الناس بالمسخ هؤلاء الذين ذكروا في هذه الاحاديث فهم أسرع الناس مسخا قردة وخنازير لمشابهتهم لهم في الباطن وعقوبات الرب تعالى نعوذ بالله منها جارية على وفق حكمته وعدله وقد ذكرنا شبه المغنين والمفتونين بالسماع الشيطاني ونقضناها نقضا وابطالا في كتابنا الكبير في السماع وذكرنا الفرق بين ما يحرك سماع الابيات وما يحركه سماع الآيات وذكرنا الشبه التي دخلت على كثير من العباد في حضوره حتى عدوه من القرب فمن أحب الوقوف على ذلك فهو مستوفى في ذلك الكتاب وانما أشرنا ههنا الى نبذة يسيرة في كونه من مكايد الشيطان وبالله التوفيق

(فصل) ومن مكايده التي بلغ فيها مراده مكيدة التحليل الذي لعن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فاعله وشبهه بالتيس المستعار وعظم بسببه العار والشنار وعير المسلمين به الكفار وحصل بسببه من الفساد ما لا يحصيه الا رب العباد واستكريت له التيوس المستعارات وضاقت به ذرعا النفوس الابيات ونفرت منه أشد من نفارها من السفاح وقالت لو كان هذا نكاحا صحيحا لم يلعن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من أتى بما شرعه من النكاح فالنكاح سنته وفاعل السنة مقرب غير ملعون والمحلل مع وقوع اللعنة عليه بالتيس المستعار مقرون فقد سماه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالتيس المستعار وسماه السلف بمسمار النار فلو شاهدت الحرائر المصونات على حوانيت المحللين متبذلات تنظر المرأة الى التيس نظر الشاة الى شفرة الجازر وتقول ليتني قبل هذا كنت

والاكرام والاهانة والاثابة والعقوبة والغضب والرضا والتولية والعزل واعزاز من يليق به العز واذلال من يليق به الذل قال تعالى قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شئ قدير تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب وقال تعالى يسأله من في السموات والارض كل يوم هو في شان يغفر ذنبا ويفرج كربا ويكشف غما وينصر مظلوما ويأخذ ظالما ويفك عانيا ويغني فقيرا ويجبر كسيرا ويشفي مريضا ويقيل عثرة ويستر عورة ويعز ذليلا ويذل عزيزا ويعطي سائلا ويذهب بدولة ويأتي باخرى ويداول الايام بين الناس ويرفع أقواما ويضع آخرين يسوق المقادير التي قدرها قبل خلق السموات والارض بخمسين ألف عام الى مواقيتها فلا يتقدم شئ منها عن وقته ولا يتاخر بل كل منها قد أحصاه كما أحصاه كتابه وجرى به قلمه ونفذ فيه حكمه وسبق به علمه فهو المتصرف في الممالك كلها وحده تصرف ملك قادر قاهر عادل رحيم تام الملك لا ينازعه في ملكه منازع ولا يعارضه فيه معارض فتصرفه في المملكة دائر بين العدل والاحسان والحكمة والمصلحة والرحمة فلا يخرج تصرفه عن ذلك وفي تفسير الحافظ أبي بكر أحمد بن موسى بن مردويه من حديث الحماني ثنا اسحق بن سليمان عن معاوية بن يحيى عن يونس بن ميسرة عن أبي ادريس عن أبي الدرداء انه سئل عن قوله تعالى كل يوم هو في شان فقال سئل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال من شانه أن يغفر ذنبا ويفرج كربا ويرفع قوما ويضع آخرين وفيه أيضا من حديث حماد بن سلمة ثنا الزبير أبو عبد السلام عن أيوب بن عبد الله بن مكرز عن أبيه قال قال عبد الله بن مسعود ان ربكم عز وجل ليس عنده ليل ولا نهار نور السموات من نور وجهه أيامكم عنده ثنتا عشرة ساعة تعرض عليه أعمالكم بالامس ثلاث ساعات من أول النهار فيطلع منها على ما يكره فيغضب فيكون أول من يعلم بغضبه حملة العرش فتسبح حملة العرش وسرادقات العرش والملائكة

من

من أهل المقابر حتى اذا تشارطا على ما يجلب اللعنة والمقت نهض واستتبعها خلفه للوقت بلا زفاف ولا اعلان بل بالتخفي والكتمان فلا جهاز ينقل ولا فراش الى بيت الزوج يحول ولا صواحب تهدينها اليه ولا مصلحات يجلينها عليه ولا مهر مقبوض ولا مؤخر ولا نفقة وكسوة تقدر ولا وليمة ولا نثار ولا دف ولا اعلان ولا شعار والزوج يبذل المهر وهذا التيس يطأ بالاجر حتى اذا خلا بها وأرخى الحجاب والمطلق والولي واقفان على الباب دنا ليطهرها بمائه النجس الحرام ويطيبها بلعنة الله ورسوله عليه السلام حتى اذا قضيا عرس التحليل ولم يحصل بينهما المودة والرحمة التي ذكرها الله تعالى في التنزيل فانها لا تحصل باللعن الصريح ولا يوجبها الا النكاح الجائز الصحيح فان كان قد قبض أجرة ضرابه سلفا وتعجيلا والا حبسها حتى تعطيه أجره طويلا فهل سمعتم زوجا لا يأخذ بالساق حتى يأخذ أجرته بعد الشرط والاتفاق حتى اذا طهرها وطيبها وخلصها بزعمه من الحرام وجنبها قال لها اعترفي بما جرى بيننا ليقع عليك الطلاق فيحصل بعد ذلك بينكما الالتئام والاتفاق فتأتي المصخمة الى حضرة الشهود فيسألونها هل كان ذلك فلا يمكنها الجحود فيأخذون منها أو من المطلق أجرا وقد أرهقوهما من أمرهما عسرا هذا وكثير من هؤلاء المستأجرين للضراب يحلل الأم وابنتها في عقدين ويجمع ماءه في أكثر من أربع وفي رحم أختين واذا كان هذا من شأنه وصفته فهو حقيق بما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال لعن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم المحلل والمحلل له رواه الحاكم في الصحيح والترمذي وقال حديث حسن صحيح قال والعمل عليه عند أهل العلم منهم عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعبد الله بن عمر رضي الله عنهم وهو قول الفقهاء من التابعين ورواه الامام أحمد في مسنده والنسائي في سننه باسناد صحيح ولفظهما لعن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الواشمة والموتشمة والواصلة والموصولة والمحلل والمحلل له وآكل الربا وموكله وفي مسند الامام أحمد وسنن النسائي أيضا عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال آكل الربا وموكله وشاهداه وكاتبه اذا علموا به والواصلة والمستوصلة ولاوي الصدقة والمعتدي فيها والمرتد على عقبيه اعرابيا بعد هجرته والمحلل والمحلل له ملعونون على لسان محمد صلى الله تعالى عليه وسلم يوم القيامة وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه لعن المحلل والمحلل له رواه الامام أحمد وأهل السنن كلهم غير النسائي وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لعن الله المحل والمحلل له رواه الامام أحمد باسناد رجاله كلهم ثقات وثقهم ابن معين وغيره وقال الترمذي في كتاب العلل سألت أبا عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري عن هذا الحديث فقال هو حديث حسن وعبد الله بن جعفر المخزومي صدوق ثقة وعثمان بن محمد الاخنسي ثقة وقال أبو عبد الله ابن ماجه في سننه حدثنا محمد بن بشار حدثنا أبو عامر عن زمعة بن

المقربون وسائر الملائكة وينفخ جبريل في القرن فلا يبقى خلق لله في السموات ولا في الأرض الا سمعه الا الثقلين ويسبحونه لذلك حتى تمتلئ الرحمن رحمة فتلك ست ساعات ثم يدعو بالارحام فينظر فيها ثلاث ساعات يصوركم في الارحام كيف يشاء لا اله الا هو العزيز الحكيم يهب لمن يشاء اناثا ويهب لمن يشاء الذكور فتلك تسع ساعات ثم يدعو بالارزاق فينظر فيها ثلاث ساعات فيبسط الرزق لمن يشاء ويقدر فتلك ثنتا عشرة ساعة ثم قرأ عبد الله كل يوم هو في شأن ثم قال هذا شأنكم وشأن ربكم عز وجل وذكره الطبري في المعجم الكبير من وجه آخر وهذا من تمام تصرفه في ملكه سبحانه فلو قدر تصرفه على وجه واحد ونمط واحد لم يكن تصرفا تاما والمقصود أن الملك والحمد في حقه متلازمان فكل ما شمله ملكه وقدرته شمله حمده فهو محمود في ملكه وله الملك والقدرة مع حمده فكما يستحيل خروج شيء من الموجودات عن ملكه وقدرته يستحيل خروجها عن حمده وحكمته ولهذا يحمد سبحانه نفسه عند خلقه وأمره لينبه عباده على ان مصدر خلقه وأمره عن حمده فهو محمود على كل ما خلقه وأمر به حمد شكر وعبودية وحمد ثناء ومدح ويجمعهما التبارك فتبارك الله يشمل ذلك كله ولهذا ذكر هذه الكلمة عقب قوله ألا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين فالحمد أوسع الصفات وأعم المدائح والطرق الى العلم به في غاية الكثرة والسبيل الى اعتباره في ذرات العالم وجزئياته وتفاصيل الامر والنهي واسعة جدا لان جميع أسمائه تبارك وتعالى حمد وصفاته حمد وأفعاله حمد وأحكامه حمد وعدله حمد وانتقامه من أعدائه حمد وفضله في احسانه الى أوليائه حمد والخلق والامر انما قام بحمده ووجد بحمده وظهر بحمده وكان الغاية هي حمده فحمده سبب ذلك وغايته ومظهره وحامله فحمده روح كل شيء وقيام كل شيء بحمده وسريان حمده في الموجودات وظهور آثاره فيه أمر مشهود بالابصار والبصائر فمن الطرق الدالة على شمول معنى الحمد وانبساطه على جميع المعلومات معرفة أسمائه وصفاته واقرار العبد بان للعالم الها حيا جامعا لكل صفة كمال واسم حسن وثناء جميل وفعل كريم وانه سبحانه له القدرة التامة والمشيئة

الكافية والعلم المحيط والسمع الذي وسع الاصوات والبصر الذي أحاط بجميع المبصرات والرحمة التي وسعت جميع المخلوقات والملك الاعلى الذي لا يخرج عنه ذرة من الذوات والغنى التام المطلق من جميع الجهات والحكمة البالغة المشهود آثارها في الكائنات والعزة الغالبة بجميع الوجوه والاعتبارات والكلمات التامات النافذات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من جميع البريات واحد لا شريك له في ربوبيته ولا في الهيته ولا شبيه له في ذاته ولا في صفاته ولا في افعاله وليس له من يشركه في ذرة من ذرات ملكه أو يخلفه في تدبير خلقه أو يحجبه عن داعيه أو مؤمليه أو سائليه أو يتوسط بينهم وبينه بتلبيس أو فرية أو كذب كما يكون بين الرعايا وبين الملوك ولو كان كذلك لفسد نظام الوجود وفسد العالم بأسره فلو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا ولو كان معه آلهة أخرى كما يقوله أعداؤه المبطلون لوقع من النقص في التدبير وفساد الامر كله مالا يثبت معه حال ولا يصلح عليه وجود ومن أعظم نعمه علينا وما استوجب حمد عباده له ان يجعلنا عبيدا له خاصة ولم يجعلنا ربنا منقسمين بين شركاء متشاكسين ولم يجعلنا عبيدا لاله نحتته الافكار لا يسمع أصواتنا ولا يبصر أفعالنا ولا يعلم أحوالنا ولا يملك لعابديه ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ولا تكلم قط ولا يتكلم ولا يأمر ولا ينهى ولا ترفع اليه الايدي ولا تعرج الملائكة والروح اليه ولا يصعد اليه الكلم الطيب ولا يرفع اليه العمل الصالح وانه ليس داخل العالم ولا خارجه ولا فوقه ولا عن يمينه ولا عن يساره ولا خلفه ولا أمامه ولا متصلا به ولا منفصلا عنه ولا محايثا له ولا مباينا ولا هو مستو على عرشه ولا هو فوق عباده وحظ العرش منه حظ الحشوش والاخلية ولا تنزل الملائكة من عنده بل لا ينزل من عنده شئ ولا يصعد اليه شئ ولا يقرب منه شئ ولا يحب ولا يحب يخادع ولا يلتذ المؤمنون بالنظر الى وجهه الكريم في دار الثواب بل ليس له وجه يرى ولا له يد يقبض بها السموات وأخرى يقبض بها الارض ولا فعل يقوم به ولا حكمة تقوم به ولا كلم موسى تكليما ولا تجلى للجبل فجعله دكا هشيما ولا يجيء يوم القيامة لفصل القضاء ولا ينزل كل

صالح عن سلمة بن وهرام عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه قال لعن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم المحلل والمحلل له وعن ابن عباس أيضا قال سئل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن المحلل فقال لا الا نكاح رغبة لا نكاح دلسة ولا استهزاء بكتاب الله ثم يذوق العسيلة رواه أبو اسحق الجوزجاني في كتاب المترجم أخبرنا ابراهيم بن اسماعيل ابن أبي حنيفة عن داود بن حصين عن عكرمة عنه وهؤلاء كلهم ثقات الا ابراهيم فان كثيرا من الحفاظ يضعفه والشافعي حسن الرأي فيه ويحتج بحديثه وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الا أخبركم بالتيس المستعار قالوا بلى يا رسول الله قال هو المحلل لعن الله المحلل والمحلل له رواه ابن ماجه باسناد رجاله كلهم موثقون لم يجرح واحد منهم وعن عمرو بن دينار وهو من أعيان التابعين أنه سئل عن رجل طلق امرأته فجاء رجل من أهل القرية بغير علمه ولا علمها فأخرج شيأ من ماله فتزوجها ليحلها له فقال لا ثم ذكر أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم سئل عن مثل ذلك فقال لا حتى ينكح مرتغبا لنفسه فاذا فعل ذلك لم يحل له حتى يذوق العسيلة ورواه أبو بكر ابن أبي شيبة في المصنف باسناد جيد وهذا المرسل قد احتج به من أرسله فدل على ثبوته عنده وقد عمل به أصحاب رسول الله عليه السلام كما سيأتي وهو موافق لبقية الاحاديث الموصولة ومثل هذا حجة باتفاق الائمة وهو والذي قبله نص في التحليل المنوي وكذلك حديث نافع عن ابن عمر رضي الله عنه أن رجلا قال له امرأة تزوجتها أحلها لزوجها لم يأمرني ولم يعلم قال لا الا نكاح رغبة ان أعجبتك أمسكتها وان كرهتها فارقتها وان كنا نعد هذا على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم سفاحا ذكره شيخ الاسلام في ابطال التحليل

(فصل) وأما الآثار عن الصحابة ففي كتاب المصنف لابن أبي شيبة وسنن الاثرم والاوسط لابن المنذر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال لا أوتى بمحلل ولا محلل له الا رجمتهما ولفظ عبد الرزاق وابن المنذر لا أوتى بمحلل ولا محلل له الا رجمتهما وهو صحيح عن عمر وقال عبد الرزاق عن معمر والزهري عن عبد الملك بن المغيرة قال سئل ابن عمر رضي الله عنه عن تحليل المرأة لزوجها فقال ذلك السفاح ورواه ابن أبي شيبة وقال عبد الرزاق أخبرنا الثوري عن عبد الله بن شريك العامري قال سمعت ابن عمر رضي الله تعالى عنه سئل عن رجل طلق ابنة عم له ثم رغب فيها وندم فأراد أن يتزوجها رجل يحللها له فقال ابن عمر رضي الله عنه كلاهما زان وان مكث عشرين سنة أو نحو ذلك اذا كان الله يعلم أنه يريد أن يحلها له قال وأخبرنا معمر عن الثوري عن الاعمش عن مالك بن الحارث عن ابن عباس رضي الله عنه وسأله رجل فقال ان عمي طلق امرأته ثلاثا فقال ان عمك عصى الله فأندمه وأطاع الشيطان فلم يجعل له مخرجا قال كيف ترى في رجل يحللها قال من

يخادع الله يخدعه وعن سليمان بن يسار قال رفع الى عثمان رضى الله عنه رجل تزوج امرأة ليحلها ففرق بينهما وقال لا ترجع اليه الا بنكاح رغبة غير دلسة رواه أبو اسحق الجوزجانى فى كتاب المترجم وذكره ابن المنذر فى كتاب الاوسط وفى المهذب لابى اسحق الشيرازى عن أبى مرزوق التجيبى أن رجلا أتى عثمان رضى الله عنه فقال ان جارى طلق امرأته فى غضبه ولقى شدة فأردت ان أحتسب نفسى ومالى فأتزوجها ثم أبنى بها ثم أطلقها فترجع الى زوجها الاول فقال له عثمان رضى الله عنه لا تنكحها الا نكاح رغبة وذكر أبو بكر الطرطوشى فى خلافه عن يزيد بن أبى حبيب عن على بن أبى طالب رضى الله عنه فى المحلل لا ترجع اليه الا بنكاح رغبة غير دلسة ولا استهزاء بكتاب الله وعلى رضى الله عنه هو ممن روى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم انه لعن المحلل فقد جعل هذا من التحليل وروى ابن أبى شيبة فى مصنفه عن ابن عباس رضى الله عنه قال لعن المحلل والمحلل له وهو ممن روى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لعن المحلل وقد فسره بما قصد به التحليل وان لم تعلم به المرأة فكيف بما اتفقا عليه وتراوضا وتعاقدا على انه نكاح لعنة لا نكاح رغبة وذكر ابن أبى شيبة عن ابن عمر رضى الله عنه قال لعن الله المحلل والمحلل له وروى الجوزجانى باسناد جيد عن ابن عمر رضى الله عنه انه سئل عن رجل تزوج امرأة ليحلها لزوجها وقال لعن الله الحال والمحلل له وقال شيخ الاسلام وهذه الآثار عن عمر وعثمان وعلى وابن عباس وابن عمر رضى الله عنهم مع انها نصوص فيما اذا قصد التحليل ولم يظهره ولم يتواطآ عليه فهى مبينة ان هذا هو التحليل وهو المحلل الملعون على لسان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فان أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أعلم بمراده ومقصوده لاسيما اذا رووا حديثا وفسروه بما يوافق الظاهر هذا مع انه لم يعلم ان أحدا من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فرق بين تحليل وتحليل ولا رخص فى شئ من أنواعه مع ان المطلقة ثلاثا مثل امرأة رفاعة القرظى قد كانت تختلف اليه المدة الطويلة والى خلفائه لتعود الى زوجها فيمنعونها من ذلك ولو كان التحليل جائزا لدلها صلى الله تعالى عليه وسلم على ذلك فانها لم تكن تعدم من يحللها لو كان التحليل جائزا قال والادلة الدالة على ان هذه الاحاديث النبوية قصد بها التحليل وان لم يشترط فى العقد كثيرة جدا ليس هذا موضع ذكرها انتهى * ذكر الآثار عن التابعين قال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة قال اذا نوى الناكح أو المنكح أو المرأة أو أحد منهم التحليل فلا يصلح أخبرنا ابن جريج قال قلت لعطاء المحلل عامدا هل عليه عقوبة قال ما علمت وانى لارى أن يعاقب قال وكلهم ان تمالؤا على ذلك مسيئون وان أعظموا الصداق أخبرنا معمر عن قتادة قال ان طلقها المحلل فلا يحل لزوجها الاول ان يقربها اذا كان نكاحه على وجه التحليل أخبرنا ابن جريج قال قلت لعطاء فطلق المحلل فراجعها زوجها قال يفرق بينهما أخبرنا معمر عن

ليلة الى سماء الدنيا فيقول أسأل عن عبادى غيرى ولا يفرح بتوبة عبده اذا تاب اليه ويجوز فى حكمته تعذيب أنبيائه ورسله وملائكته وأهل طاعته أجمعين من أهل السموات والارضين وتنعيم أعدائه من الكفار به والمحاربين له والمكذبين له ولرسله والكل بالنسبة اليه سواء ولا فرق البتة الا انه أخبر انه لا يفعل ذلك فامتنع للخبر بانه لا يفعله لا لانه فى نفسه مناف لحكمته ومع ذلك فرضاه عين غضبه وغضبه عين رضاه ومحبته كراهته وكراهته محبته ان هو الا ارادة محضة ومشيئة صرفة يشاء بها لا لحكمة ولا لغاية ولا لاجل مصلحة ومع ذلك يعذب عباده على مالم يعملوه ولا قدرة لهم عليه بل يعذبهم على نفس فعله الذى فعله هو ونسبه اليهم ويعذبهم اذا لم يفعلوا فعله ويلومهم عليه ويجوز فى حكمته ان يعذب رجالا اذا لم يكونوا نساء ونساء حيث لم يكونوا رجالا وطوالا حيث لم يكونوا قصارا وبالعكس وسودا اذ لم يكونوا بيضا وبالعكس بل تعذيبه لهم على مخالفته هو من هذا الجنس اذ لا قدرة لهم البتة على فعل ما أمروا به ولا ترك ما نهوا عنه فله الحمد والمنة والثناء الحسن الجميل اذ لم يجعلنا عبيدا لمن هذا شأنه فنكون مضيعين ليس لنا رب نقصده ولا صمد نتوجه اليه ونعبده ولا اله نعول عليه ولا رب نرجع اليه بل قلوبنا تنادى فى طرق الحيرة من دلنا وجمع علينا بإضائة لا هو داخل العالم ولا خارجه ولا مباين له ولا محاذ له ولا متصل به ولا منفصل عنه ولا ينزل من عنده شئ ولا يصعد اليه شئ ولا كلم أحدا ولا يكلمه أحد ولا ينبغى له أن يعاقب بالقيل أو الضرب والحبس من ذكرها أو أخبر عنه بها أو أثبتها له أو نسبها اليه أو عرفه بها بل التوحيد الصرف جحدها وتعطيله عنها ونفى قيامها به واتصافه بها ومالم تدركه عقولنا من ذلك فالواجب نفيه وجحده وتكفير من اثبته واستحلال دمه وماله أو تبديعه وتضليله وتفسيقه وكما كان النفى أبلغ كان التوحيد أتم فليس كذا وليس كذا أبلغ فى التوحيد من قولنا هو كذا وهو كذا فالله العظيم أعظم حمد وأتمه وأكمله على ما من به من معرفته وتوحيده والاقرار بصفاته العليا وأسمائه الحسنى واقرار قلوبنا بانه الله الذى لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة رب العالمين قيوم السموات والارضين اله

سمع الحسن يقول فى رجل تزوج امرأة يحللها ولا يعلمها فقال الحسن اتق الله ولا تكن مسمار نار فى حدود الله قال ابن المنذر وقال ابراهيم النخعى اذا كان نية احد الثلاثة الزوج الاول أو الزوج الآخر أو المرأة انه محلل فنكاح الآخر باطل ولا يحل للاول قال وقال الحسن البصرى اذا هم أحد الثلاثة بالتحليل فقد أفسد قال وقال بكر بن عبد الله المزنى فى الحال والمحلل له أولئك كانوا يسمون فى الجاهلية التيس المستعار قال وقال ابن ابى نجيح عن مجاهد فى قوله ان ظنا أن يقيما حدود الله قال ان ظنا أن نكاحهما على غير دلسة ورواه ابن أبى حاتم فى التفسير عنه وقال هشيم أخبرنا سيار عن الشعبى انه سئل عن رجل تزوج امرأة كان زوجها طلقها ثلاثا قبل ذلك أيطلقها لترجع الى زوجها الاول فقال لا حتى يحدث نفسه انه يعمر معها وتعمر معه رواه الجوزجانى و روى عن النفيلى حدثنا يحيى بن عبد الملك ابن أبى عتبة حدثنا عبد الملك عن عطاء فى الرجل يطلق المرأة فينطلق الرجل الذى يتحزن له فيتزوجها من غير مؤامرة منه فقال ان كان تزوجها ليحلها له لم يحل له وان كان تزوجها يريد امساكها فقد حلت له وقال سعيد بن المسيب فى رجل تزوج امرأة ليحلها لزوجها الاول ولم يشعر بذلك زوجها الاول ولا المرأة قال ان كان انما نكحها ليحلها فلا يصلح ذلك لهما فلا يحل رواه حرب فى مسائله وعنه أيضا قال ان الناس يقولون حتى يجامعها وأنا أقول اذا تزوجها تزويجا صحيحا لا يريد بذلك احلالها فلا بأس أن يتزوجها الاول رواه سعيد ابن منصور عنه فهؤلاء الائمة الاربعة أركان التابعين وهم الحسن وسعيد بن المسيب وعطاء بن أبى رباح وابراهيم النخعى وقال أبو الشعثاء جابر بن زيد فى رجل تزوج امرأة ليحلها لزوجها الاول وهو لا يعلم قال لا يصلح ذلك اذا كان تزوجها ليحلها * ذكر الآثار عن تابعى التابعين ومن بعدهم قال ابن المنذر وممن قال ان ذلك لا يصلح الا نكاح رغبة مالك ابن أنس والليث بن سعد وقال مالك رحمه الله يفرق بينهما على كل حال وتكون الفرقة فسخا بغير طلاق وقال سفيان الثورى اذا تزوجها وهو يريد أن يحلها لزوجها ثم بدا له أن يمسكها لا يعجبنى الا أن يفارق و يستقبل نكاحا جديدا قال أحمد بن حنبل جيد وقال اسحق لا يحل له أن يمسكها لان المحلل لم تتم له عقدة النكاح وكان أبو عبيد يقول بقول الحسن والنخعى وقال الجوزجانى حدثنا اسماعيل بن سعيد قال سألت أحمد بن حنبل عن الرجل يزوج المرأة وفى نفسه أن يحللها لزوجها الاول ولم تعلم المرأة بذلك فقال هو محلل واذا أراد بذلك الاحلال فهو ملعون قال الجوزجانى و به قال أبو أيوب وقال ابن أبى شيبة لست أرى أن ترجع بهذا النكاح الى زوجها الاول قال الجوزجانى وأقول ان الاسلام دين الله الذى اختاره واصطفاه وطهره حقيق بالتوقير والصيانة مما لعله يشينه و ينزه مما أصبح أفناء الملل من أهل الذمة يعيرون به المسلمين على ما تقدم فيه من

الاولين والآخرين ولا يزال موصوفا بصفات الجلال منعوتا بنعوت الكمال منزها عن أضدادها من النقائص والتشبيه والمثال فهو الحى القيوم الذى لكمال حياته وقيوميته لا تأخذه سنة ولا نوم مالك السموات والارض الذى لكمال ملكه لا يشفع عنده أحد الا باذنه العالم بكل شئ الذى لكمال علمه يعلم ما بين أيدى الخلائق وما خلفهم فلا تسقط ورقة الا بعلمه ولا تتحرك ذرة الا باذنه يعلم دبيب الخواطر فى القلوب حيث لا يطلع عليها الملك و يعلم ما سيكون منها حيث لا يطلع عليه القلب البصير الذى لكمال بصره يرى تفاصيل خلق الذرة الصغيرة وأعضائها ولحمها ودمها ومخها وعروقها و يرى دبيبها على الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء و يرى ما تحت الارضين السبع كما يرى ما فوق السموات السبع السميع الذى قد استوى فى سمعه سر القول وجهره وسع سمعه الاصوات فلا تختلف عليه أصوات الخلق ولا تشتبه عليه ولا يشغله منها سمع عن سمع ولا تغلطه المسائل ولا يبرمه كثرة السائلين قالت عائشة الحمد لله الذى وسع سمعه الاصوات لقد جاءت المجادلة تشكو الى رسول الله وانى ليخفى على بعض كلامها فأنزل الله عز وجل قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى الى الله والله يسمع تحاوركما ان الله سميع بصير القدير الذى لكمال قدرته يهدى من يشاء و يضل من يشاء و يجعل المؤمن مؤمنا والكافر كافرا والبر برا والفاجر فاجرا وهو الذى جعل ابراهيم وآله أئمة يدعون اليه و يهدون بامره وجعل فرعون وقومه أئمة يدعون الى النار ولكمال قدرته لا يحيط أحد بشئ من علمه الا بما شاء سبحانه ان يعلمه اياه ولكمال قدرته خلق السموات والارض وما بينهما فى ستة أيام وما مسه من لغوب ولا يعجزه أحد من خلقه ولا يفوته بل هو فى قبضته أين كان فان فر منه فانما يطوى المراحل فى يديه كما قيل

وكيف يفر المرء عنك بذنبه * اذا كان يطوى فى يديك المراحلا

ولكمال غناه استحال اضافة الولد والصاحبة والشريك والشفيع بدون اذنه اليه ولكمال عظمته وعلوه وسع كرسيه السموات والارض ولم تسعه أرضه ولا سمواته ولم تحط به مخلوقاته بل هو العالى على كل

النهى

النهي عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ولعنه عليه ثم ساق الاحاديث المرفوعة في ذلك والآثار

(فصل) ومن العجائب معارضة هذه الاحاديث والآثار عن الصحابة بقوله تعالى فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره والذي أنزلت عليه هذه الآية هو الذي لعن المحلل والمحلل له وأصحابه أعلم الناس بكتاب الله تعالى فلم يجعلوه زوجا وأبطلوا انكاحه ولعنوه وأعجب من هذا قول بعضهم نحن نحتج بكونه سماه محللا فلولا انه أثبت الحل لم يكن محللا فيقال هذه من العظائم فان هذا يتضمن أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لعن من فعل السنة التي جاء بها وفعل ما هو جائز صحيح في شريعته وانما سماه محللا لانه أحل ما حرم الله فاستحق اللعنة فان الله سبحانه حرمها على المطلق حتى تنكح زوجا والنكاح اسم في كتاب الله وسنة رسوله للنكاح الذي يتعارفه الناس بينهم نكاحا وهو الذي شرع اعلانه والضرب عليه بالدف والوليمة فيه وجعل للايواء والسكن وجعله الله مودة ورحمة وجرت العادة فيه بضد ما جرت به في نكاح المحلل فان المحلل لم يدخل على نفقة ولا كسوة ولا سكنى ولا اعطاء مهر ولا يحصل به نسب وصهر ولا قصد المقام مع الزوجة وانما دخل عارية كالتيس المستعار للضراب ولهذا شبهه به النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ثم لعنه فعلم قطعا لا شك فيه انه ليس هو الزوج المذكور في القرآن ولا نكاحه هو النكاح المذكور في القرآن وقد فطر الله سبحانه قلوب الناس على ان هذا ليس بنكاح ولا المحلل زوج وان هذا منكر قبيح تعير به المرأة والزوج والمحلل والولي فكيف يدخل هذا في النكاح الذي شرعه الله ورسوله وأحبه وأخبر أنه سنته ومن رغب عنه فليس منه وتأمل قوله تعالى فان طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا أي فان طلقها هذا الثاني فلا جناح عليها وعلى الاول أن يتراجعا أي ترجع اليه بعقد جديد فأي بحرف ان الدالة على انه يمكنه أن يطلق وان يقيم والتحليل الذي يفعله هؤلاء لا يتمكن الزوج فيه من الامرين بل يشرطون عليه انه متى وطئها فهي طالق ثم لما علموا انه قد يخبر بوطئها ولا يقبل قولها في وقوع الطلاق انتقلوا الى أن جعلوا الشرط أخبار المرأة بانه دخل بها فبمجرد اخبارها بذلك تطلق عليه والله سبحانه شرع النكاح للوصلة الدائمة والاستمتاع وهذا النكاح جعله أصحابه سببا لانقطاعه ولوقوع الطلاق فيه فانه متى وطئ كان وطؤه سببا لانقطاع النكاح وهذا ضد شرع الله وأيضا فان الله سبحانه جعل نكاح الثاني وطلاقه واسمه كنكاح الاول وطلاقه واسمه فهذا زوج وهذا زوج وهذا نكاح وذلك نكاح وكذلك الطلاق ومعلوم ان نكاح المحلل وطلاقه واسمه لا يشبه نكاح الاول ولا طلاقه ولا اسمه كاسمه ذلك زوج راغب قاصد للنكاح باذل للمهر ملتزم للنفقة والسكنى والكسوة وغير ذلك من خصائص النكاح والمحلل بريء من ذلك كله غير ملتزم لشيء

شيء وهو بكل شيء محيط ولا تنفد كلماته ولا تبديل لوان البحر يمده من بعده سبعة أبحر مدادا وأشجار الارض أقلاما فكتب بذلك المداد وبتلك الاقلام لنفد المداد وفنيت الاقلام ولم تنفد كلماته اذ هي غير مخلوقة ويستحيل أن يفنى غير المخلوق بالمخلوق ولو كان كلامه مخلوقا كما قاله من لم يقدره حق قدره ولا أثنى عليه بما هو أهله لكان أحق بالفناء من هذا المداد وهذه الاقلام لانه اذا كان مخلوقا فهو نوع من أنواع مخلوقاته ولا يحتمل المخلوق افناء هذا المداد وهذه الاقلام وهو باق غير فان وهو سبحانه يحب رسله وعباده المؤمنين ويحبونه بل لا شيء أحب اليهم منه ولا أشوق اليهم من لقائه ولا أقر لعيونهم من رؤيته ولا أحظى عندهم من قربه وانه سبحانه له الحكمة البالغة في خلقه وأمره وله النعمة السابغة على خلقه وكل نعمة منه فضل وكل نقمة منه عدل وانه أرحم بعباده من الوالدة بولدها وانه أفرح بتوبة عبده من واجد راحلته التي عليها طعامه وشرابه في الارض المهلكة بعد فقدها واليأس منها وانه سبحانه لم يكلف عباده الا وسعهم وهو دون طاقتهم فقد يطيقون الشيء ويضيق عليهم بخلاف وسعهم فانه ما يسعونه ويسهل عليهم ويفضل قدرهم عنه كما هو الواقع وانه سبحانه لا يعاقب أحدا بغير فعله ولا يعاقبه على فعل غيره ولا يعاقبه بترك ما لا يقدر على فعله ولا على فعل ما لا قدرة له على تركه وانه حكيم كريم جواد ماجد محسن ودود صبور شكور يطاع فيشكر ويعصى فيغفر لا أحد أصبر على أذى سمعه منه ولا أحب اليه المدح منه ولا أحب اليه العذر منه ولا أحد أحب اليه الاحسان منه فهو محسن يحب المحسنين شكور يحب الشاكرين جميل يحب الجمال طيب يحب كل طيب نظيف يحب النظافة عليم يحب العلماء من عباده كريم يحب الكرماء قوي والمؤمن القوي أحب اليه من المؤمن الضعيف بر يحب الابرار عدل يحب أهل العدل حيي ستير يحب أهل الحياء والستر عفو غفور يحب من يعفو عن عباده ويغفر لهم صادق يحب الصادقين رفيق يحب الرفق جواد يحب الجود وأهله رحيم يحب الرحماء وتر يحب الوتر يحب أسماءه وصفاته ويحب المتعبدين له بها

منه واذا كان الله تعالى ورسوله قد حرم نكاح المتعة مع ان قصد الزوج الاستمتاع بالمرأة وأن يقيم معها زمانا وهو ملتزم لحقوق النكاح فالمحلل الذي ليس له غرض أن يقيم مع المرأة الاقدر ما ينزو عليها كالتيس المستعار لذلك ثم يفارقها أولى بالتحريم وسمعت شيخ الاسلام يقول نكاح المتعة خير من نكاح التحليل من عشرة أوجه أحدها ان نكاح المتعة كان مشروعا في أول الاسلام ونكاح التحليل لم يشرع في زمن من الازمان الثاني ان الصحابة تمتعوا على عهد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ولم يكن في الصحابة محلل قط الثالث ان نكاح المتعة مختلف فيه بين الصحابة فأباحه ابن عباس وان قيل انه رجع عنه وأباحه ابن مسعود ففي الصحيحين عنه قال كنا نغزو مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ليس لنا نساء فقلنا ألا نستخصي فنهانا عن ذلك ثم رخص لنا ان ننكح المرأة بالثوب الى أجل ثم قرأ عبد الله يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم وفتوى ابن عباس بها مشهورة قال عروة قام عبد الله بن الزبير بمكة فقال ان ناسا أعمى الله قلوبهم كما أعمى أبصارهم يفتون بالمتعة يعرض بعبد الله بن عباس فناداه فقال انك لجلف جاف فلعمري لقد كانت المتعة تفعل على عهد امام المتقين يريد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال له ابن الزبير فجرب نفسك فوالله لئن فعلتها لارجمنك بأحجارك فهذا قول ابن مسعود وابن عباس في المتعة وذلك قولهما وروايتهما في نكاح التحليل الرابع أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لم يجئ عنه في لعن المستمتع والمستمتع بها حرف واحد وجاء عنه في لعن المحلل والمحلل له وعن الصحابة ما قد تقدم الخامس ان المستمتع له غرض صحيح في المرأة ولها غرض أن تقيم معه مدة النكاح فغرضه المقصود بالنكاح مدة والمحلل لا غرض له سوى انه مستعار للضراب كالتيس فنكاحه غير مقصود له ولا للمرأة ولا للولي وانه هو كما قال الحسن مسمار نار في حدود الله وهذه التسمية مطابقة للمعنى قال شيخ الاسلام يريد الحسن ان المسمار هو الذي يثبت الشيء المسمور فكذلك هذا ثبت تلك المرأة لزوجها وقد حرمها الله عليه السادس ان المستمتع لم يحتل على تحليل ما حرم الله فليس من المخادعين الذين يخادعون الله كأنما يخادعون الصبيان بل هو ناكح ظاهرا وباطنا والمحلل ماكر مخادع متخذ آيات الله هزوا ولذلك جاء في وعيده ولعنه ما لم يجئ في وعيد المستمتع مثله ولا قريب منه السابع ان المستمتع يريد المرأة لنفسه وهذا هو سر النكاح ومقصوده فيريد بنكاحه حلها له ولا يطؤها حراما والمحلل لا يريد حلها لنفسه وانما يريد حلها لغيره ولهذا سمي محللا فأين من يريد أن يحل له وطء امرأة يخاف أن يطأها حراما الى من لا يريد ذلك وانما يريد بنكاحها أن يحل وطأها لغيره فهذا اضد شرع الله ودينه وضد ما وضع له النكاح الثامن ان الفطر السليمة والقلوب التي لم يتمكن منها مرض الجهل والتقليد تنفر من التحليل أشد نفار وتعير به أعظم تعيير حتى ان كثيرا من النساء تعير المرأة به

ويحب من يسأله ويدعوه بها ويحب من يعرفها ويعقلها ويثني عليه بها ويحمده ويمدحه بها كما في الصحيح عن النبي لا أحد أحب اليه المدح من الله من أجل ذلك أثنى على نفسه ولا أحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا أحد أحب اليه العذر من الله من أجل ذلك أرسل الرسل   مبشرين ومنذرين وفي حديث آخر صحيح لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله يجعلون له ولدا وهو يرزقهم ويعافيهم ولمحبته لاسمائه وصفاته أمر عباده بموجبها ومقتضاها فأمرهم بالعدل والاحسان والبر والعفو والجود والصبر والمغفرة والرحمة والصدق والعلم والشكر والحلم والاناة والتثبت ولما كان سبحانه يحب أسماءه وصفاته كان أحب الخلق من اتصف بالصفات التي يحبها وأبغضهم اليه من اتصف بالصفات التي يكرهها فانما أبغض من اتصف بالكبر والعظمة والجبروت لان اتصافه بها ظلم اذ لا يليق به هذه الصفات ولا تحسن منه لمنافاتها الصفات العبيد وخروج من اتصف بها من ربقة العبودية ومفارقته لمنصبه ومرتبته وتعديه طوره وحده وهذا خلاف ما تقدم من الصفات كالعلم والعدل والرحمة والاحسان والصبر والشكر فانها لا تنافي العبودية بل اتصاف العبد بها من كمال عبوديته اذ المتصف بها من العبيد لم يتعد طوره ولم يخرج بها من دائرة العبودية والمقصود انه سبحانه لكمال أسمائه وصفاته موصوف بكل صفة كمال منزه عن كل نقص له كل ثناء حسن ولا يصدر عنه الا كل فعل جميل ولا يسمى الا بأحسن الاسماء ولا يثنى عليه الا بأكمل الثناء وهو المحمود المحبوب المعظم ذو الجلال والاكرام على كل ما قدره وخلقه وعلى كل ما أمر به وشرعه ومن كان له نصيب من معرفة أسمائه الحسنى واستقرأ آثارها في الخلق والامر رأى الخلق والامر منتظمين بها أكمل انتظام ورأى سريان آثارها   اكثر فيهما وعلم بحسب معرفته بها ما يليق بكماله وجلاله أن يفعله وما لا يليق فاستدل بأسمائه على ما يفعله وما لا يفعله فانه لا يفعل خلاف موجب حمده وحكمته وكذلك يعلم ما يليق به ان يأمر به ويشرعه مما لا يليق به فيعلم أنه لا يأمر بخلاف موجب حمده وحكمته فاذا رأى في

أكثر مما تعير بالزنا ونكاح المتعة لا تنفر منه الفطر والعقول ولو نفرت منه لم يبح في أول الاسلام التاسع ان نكاح المتعة يشبه اجارة الدابة مدة للركوب واجارة الدار مدة للانتفاع بالسكنى واجارة العبد للخدمة مدة ونحو ذلك مما للباذل فيه غرض صحيح ولكن لما دخله التوقيت أخرجه عن مقصود النكاح الذي شرع بوصف الدوام والاستمرار وهذا بخلاف نكاح المحلل فانه لا يشبه شيأ من ذلك ولهذا شبهه الصحابة بالسفاح وشبهوه باستعارة التيس للضراب العاشر ان الله سبحانه نصب هذه الاسباب كالبيع والاجارة والهبة والنكاح مفضية الى أحكام جعلها مسببات لها ومقتضيات فجعل البيع سببا لملك الرقبة والاجارة سببا لملك المنفعة والاتهاب والنكاح سببا لملك البضع وحل الوطء والمحلل مناقض معاكس لشرع الله تعالى ودينه فانه جعل نكاحه سببا لتمليك المطلق البضع واحلاله له ولم يقصد بالنكاح ما شرعه الله له من ملكه هو البضع وحله له ولا له غرض في ذلك ولا دخل عليه وانما قصد به أمرا آخر لم يشرع له ذلك السبب ولم يجعل طريقا له الحادي عشر ان المحلل من جنس المنافق فان المنافق يظهر انه مسلم ملتزم لعقد الاسلام ظاهرا وباطنا وهو في الباطن غير ملتزم له وكذلك المحلل يظهر انه زوج وانه يريد النكاح ويسمي المهر ويشهد على رضا المرأة وفي الباطن بخلاف ذلك لا يريد أن يكون زوجا ولا ان تكون المرأة زوجة له ولا يريد بذل الصداق ولا القيام بحقوق النكاح وقد أظهر خلاف ما أبطن وانه مريد لذلك والله يعلم والحاضرون والمرأة وهو والمطلق ان الامر كذلك وانه غير زوج على الحقيقة ولا هي امرأته على الحقيقة الثاني عشر ان نكاح المحلل لا يشبه نكاح أهل الجاهلية ولا نكاح أهل الاسلام فكان أهل الجاهلية يتعاطون في أنكحتهم أمورا منكرة ولم يكونوا يرضون نكاح التحليل ولا يفعلونه ففي صحيح البخاري عن عروة ابن الزبير أن عائشة رضي الله عنها أخبرته ان النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء فنكاح منها نكاح الناس اليوم يخطب الرجل الى الرجل وليته أو ابنته فيصدقها ثم ينكحها والنكاح الآخر كان الرجل يقول لامرأته اذا طهرت من طمثها أرسلي الى فلان فاستبضعي منه فيعتزلها زوجها ولا يمسها أبدا حتى يتبين حملها من ذلك الرجل تستبضع منه فاذا تبين حملها أصابها زوجها اذا أحب وانما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع ونكاح آخر يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها فاذا حملت ووضعت ومر ليالي بعد ان تضع حملها أرسلت اليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها فتقول لهم قد عرفتم الذي كان من أمركم وقد ولدت فهو ابنك يا فلان تسمي من أحبت باسمه فيلحق به ولدها لا يستطيع أن يمتنع ونكاح رابع يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة فلا تمتنع ممن جاءها وهن البغايا كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علما فمن أرادهن دخل عليهن فاذا حملت احداهن

بعض الاحكام جورا أو ظلما أو سفها وعبثا ومفسدة أو ما لا يوجب حمدا وثناء فليعلم أنه ليس من أحكامه ولا دينه وانه بريء منه ورسوله فانه انما أمر بالعدل لا بالظلم وبالمصلحة لا بالمفسدة وبالحكمة لا بالعبث والسفه وانما بعث رسوله بالحنيفية السمحة لا بالغلظة والشدة وبعثه بالرحمة لا بالقسوة فانه أرحم الراحمين ورسوله رحمة مهداة الى العالمين ودينه كله رحمة وهو نبي الرحمة وأمته الامة المرحومة وذلك كله موجب أسمائه الحسنى وصفاته العليا وأفعاله الحميدة فلا يخبر عنه الا بحمده ولا يثنى عليه الا بأحسن الثناء كما لا يسمى الا بأحسن الاسماء وقد نبه سبحانه على شمول حمده لخلقه وأمره بأن حمد نفسه في أول الخلق وآخره وعند الامر والشرع وحمد نفسه على ربوبيته للعالمين وحمد نفسه على تفرده بالالهية وعلى حياته وحمد نفسه على امتناع اتصافه بما لا يليق بكماله من اتخاذ الولد والشريك وموالاة أحد من خلقه لحاجته اليه وحمد نفسه على علوه وكبريائه وحمد نفسه في الاولى والآخرة وأخبر عن سريان حمده في العالم العلوي والسفلي ونبه على هذا كله في كتابه وحمد نفسه عليه فتنوع حمده وأسباب حمده وجمعها تارة وفرقها أخرى ليتعرف الى عباده ويعرفهم كيف يحمدونه وكيف يثنون عليه وليتحبب اليهم بذلك ويحبهم اذا عرفوه وأحبوه وحمدوه قال تعالى الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين وقال الحمد لله الذي خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون وقال الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين وقال الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الارض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير وقال الحمد لله فاطر السموات والارض جاعل الملائكة رسلا أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء ان الله على كل شيء قدير وقال وهو الله لا اله الا هو له الحمد في الاولى والآخرة وله الحكم واليه ترجعون وقال هو الحي لا اله الا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين وقال فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السموات والارض وعشيا وحين تظهرون وأخبر عن حمد خلقه له بعد فصله بينهم والحكم لاهل طاعته

فوضعت حملها جمعوا لها ودعوا لهم القافة ثم ألحقوا ولدها بالذى يرون القافة ودعي ابنه لا يمتنع من ذلك فلما بعث الله تعالى محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم بالحق هدم نكاح الجاهلية كله الا نكاح الناس اليوم ومعلوم ان نكاح المحلل ليس من نكاح الناس الذى أشارت اليه عائشة رضى الله عنها ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أقره ولم يهدمه ولا كان أهل الجاهلية يرضون به فلم يكن من أنكحتهم فان الفطر والامم تنكره وتعير به

(فصل) وسبب هذا كله معصية الله ورسوله وطاعة الشيطان فى ايقاع الطلاق على غير الوجه الذى شرعه الله والله سبحانه يبغض الطلاق فى الاصل كما روى أبو داود من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أبغض الحلال الى الله الطلاق وفى سنن ابن ماجه من حديث أبى موسى رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ما بال قوم يلعبون بحدود الله يقول قد طلقتك قد راجعتك قد طلقتك وفى صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ان ابليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فأدناهم منزلة أعظمهم فتنة يجىء أحدهم فيقول فعلت كذا وكذا فيقول ما صنعت شيأ قال ويجىء أحدهم فيقول ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله قال فيدنيه أو قال فيلتزمه ويقول نعم أنت فالشيطان وحزبه قد أغروا بايقاع الطلاق والتفريق بين المرء وزوجه وكثيرا ما يندم المطلق ولا يصبر عن امرأته ولا تطاوعه نفسه أن يصبر عنها الى أن تتزوج زواج رغبة تبقى فيه مع الزوج الى أن يموت عنها أو يفارقها اذا قضى منها وطره ولا بد له من المرأة فيهرع الى التحليل وهو حيلة من عشر حيل نصبوها للناس أحدها التحيل على عدم وقوع الطلاق وهو نوعان يحتال على عدم وقوعه مع صحة النكاح بالتسريح فيأمرونه أن يقول لها اذا طلقتك أو اذا وقع عليك طلاقى فأنت طالق قبله ثلاثا فلا يمكن أن يقع عليها الطلاق بعد هذا لا مطلقا ولا مقيدا عند المسرحين فسدوا باب الطلاق وجعلوا المرأة كالغل فى عنق الزوج لا سبيل له الى طلاقها أبدا الحيلة الثانية التحيل على عدم وقوع الطلاق بكون النكاح فاسدا فلا يقع فيه الطلاق ويتحيلون لبيان فساده من وجوه منها ان عدالة الولى شرط فى صحته فاذا كان فى الولى ما يقدح فى عدالته فالنكاح باطل فلا يقع فيه الطلاق والقوادح كثيرة فلا تكاد تفتش فيمن شئت الا وجدت فيه قادحا ومنها ان عدالة الشهود شرط والشاهد يفسق بجلوسه على مقعد حرير أو استناده الى مسند حرير أو جلوسه تحت مركاة حرير أو بجمره بجمر فضة ونحو ذلك مما لا يكاد يخلو البيت منه وقت العقد ونحو ذلك فيا للعجب يكون الوطء حلالا والنسب لاحقا والنكاح صحيحا حتى يقع الطلاق فحينئذ يطلب وجه افساده الحيلة الثالثة التحيل بالمخالعة حتى يفعل المحلوف عليه فاذا فعله تزوجها بعقد

بثوابه وكرامته والحكم لاهل معصيته بعقابه واهانته وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين وأخبر عن حمد أهل الجنة له وانهم لم يدخلوها الا بحمده كما ان أهل النار لم يدخلوها الا بحمده فقال أهل الجنة الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا ان هدانا الله ودعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين وقال عن أهل النار ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون ونزعنا من كل أمة شهيدا فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا ان الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون وقال فاعترفوا بذنبهم فسحقا لاصحاب السعير وشهدوا على أنفسهم بالكفر والظلم وعلموا انهم كانوا كاذبين فى الدنيا مكذبين بآيات ربهم مشركين به جاحدين لالهيته مفترين عليه وهذا اعتراف منهم بعدله فيهم وأخذهم ببعض حقه عليهم وانه غير ظالم لهم وانهم انما دخلوا النار بعدله وحمده وانما عوقبوا بافعالهم وبما كانوا قادرين على فعله وتركه لا كما يقول الجبرية وتفصيل هذه الحكمة مما لا سبيل للعقول البشرية الى الاحاطة به ولا الى التعبير عنه ولكن بالجملة فكل صفة عليا واسم حسن وثناء جميل وكل حمد ومدح وتسبيح وتنزيه وتقديس وجلال واكرام فهو لله عز وجل على أكمل الوجوه وأتمها وأدومها وجميع ما يوصف به يذكر به ويخبر عنه به فهو محامد له وثناء وتسبيح وتقديس فسبحانه وبحمده لا يحصى أحد من خلقه ثناء عليه بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يثنى به عليه خلقه فله الحمد أولا وآخرا حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه كما ينبغى لكرم وجهه وعز جلاله ورفيع مجده وعلو جده فهذا تنبيه على أحد نوعى حمده وهو حمد الصفات والاسماء والنوع الثانى حمد النعم والآلاء وهذا مشهود للخليقة برها وفاجرها مؤمنها وكافرها من جزيل مواهبه وسعة عطاياه وكريم أياديه وجميل صنائعه وحسن معاملته لعباده جديد وسعة رحمته لهم وبره ولطفه وحنانه واجابته لدعوات المضطرين وكشف كربات المكروبين واغاثة الملهوفين ورحمته للعالمين وابتدائه بالنعم قبل السؤال ومن غير استحقاق بل ابتداء منه بمجرد فضله وكرمه واحسانه ودفع المحن والبلايا بعد انعقاد أسبابها وصرفها بعد وقوعها ولطفه

جديد الحيلة الرابعة اذا وقع القياس في الرأس وحنث ولا بد اشترى غلاما دون البلوغ و زوجه بها وأمرها أن تمكنه من ايلاج الحشفة هناك فاذا فعل وهبها اياه فانفسخ نكاحها بملكه فتعتد وترد الى المطلق فان عجزوا عن ذلك وأعوزهم انتقلوا الى الحيلة الخامسة وهي استكراء التيس الملعون المستعار لينزو عليها ويحلها بزعمه خمس حيل للخاصة وأما جهال العامة فلما رأوا أن المقصود التحيل على ردها الى المطلق باى طريق اتفق قالوا المقصود هو الرجوع والحيلة مقصودة لغيرها وأعيان الحيل ليست مقصودة فاستنبطوا لهم خمس حيل أخرى أحدها أن يأمروا المحلل بان يطأها برجله فيطأها وهي قاعدة أو مضطجعة برجله ثم يخرج ورأوا ان الوطء بالرجل أسهل عليهم وأقل مفسدة من الوطء بالآلة فانه اذا كان كلاهما غير مقصود فما كان أقل فسادا كان أقرب الى المقصود الحيلة الثانية أن تكون حاملا فتلد ذكرا وكأنهم قاسوا الذكر الذي شقها خارجا على الذكر الذي يشقها داخلا وهذا من جنس قياس التيس الملعون على الزوج المقصود الحيلة الثالثة أن يصب المحلل عليها دهنا يشربه جسدها ولا يطأها وكأنهم قاسوا شرب جسدها الدهن وسريانه فيه على شربه للنطفة وسريانها فيه الحيلة الرابعة السفر عنها أو سفرها عنه فاذا قدم ظن أن ذلك كاف عن الزوج ولا أدري من أين ألقى اليهم الشيطان ذلك وكأنهم ظنوا انهم قد التقوا من الآن وان السفر قطع حكم ما مضى رأسا الحيلة الخامسة ان يجتمعا على عرفات فاذا وقف بها على الجبل لم يحتج بعد ذلك الى زوج آخر عندهم وقد سئلنا نحن وغيرنا عن ذلك وسمعناه منهم

(فصل) واعلم أنه من اتقى الله في طلاقه فطلق كما أمره الله ورسوله وشرعه له أغناه عن ذلك كله ولهذا قال تعالى بعد ان ذكر حكم الطلاق المشروع ومن يتق الله يجعل له مخرجا فلو اتقى الله عامة المطلقين لاستغنوا بتقواه عن الآصار والاغلال والمكر والاحتيال فان الطلاق الذي شرعه الله سبحانه أن يطلقها طاهرا من غير جماع ويطلقها واحدة ثم يدعها حتى تنقضي عدتها فان بدا له أن يمسكها في العدة أمسكها وان لم يراجعها حتى انقضت عدتها أمكنه ان يستقبل العقد عليها من غير زوج آخر وان لم يكن له غرض لم يضره أن تتزوج بزوج غيره فمن فعل هذا لم يندم ولم يحتج الى حيلة ولا تحليل ولهذا سئل ابن عباس عن رجل طلق امرأته مائة فقال عصيت ربك وفارقت امرأتك لم تتق الله فيجعل لك مخرجا وقال سعيد بن جبير جاء رجل الى ابن عباس فقال اني طلقت امرأتي ألفا فقال اما ثلاث فتحرم عليك امرأتك وبقيتهن وزر اتخذت آيات الله هزوا وقال مجاهد كنت عند ابن عباس فجاءه رجل فقال انه طلق امرأته ثلاثا فسكت حتى ظننت انه رادها اليه ثم قال ينطلق أحدكم فيركب الاحموقة ثم يقول يا ابن عباس يا ابن عباس وان الله تعالى قال ومن يتق الله يجعل له مخرجا وانك لم تتق الله فلا أجد لك مخرجا عصيت

تعالى في ذلك باتصاله الى من أراده باحسن الالطاف وتبليغه من ذلك الى ما لا تبلغه الآمال وهدايته خاصته وعباده الى سبيل دار السلام ومدافعته عنهم أحسن الدفاع وحمايتهم عن مراتع الآثام وحبب اليهم الايمان وزينه في قلوبهم وكره اليهم الكفر والفسوق والعصيان وجعلهم من الراشدين وكتب في قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه

وسماهم المسلمين قبل أن يخلقهم وذكرهم قبل أن يذكروه وأعطاهم قبل أن يسألوه وتحبب اليهم بنعمه مع غناه وتبغضهم اليه بالمعاصي وفقرهم اليه ومع هذا كله فاتخذ لهم دارا وأعد لهم فيها من كل ما تشتهيه الانفس وتلذ الاعين وملأها من جميع الخيرات وأودعها من النعيم والحبرة والسرور والبهجة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ثم أرسل اليهم الرسل يدعونهم اليها ثم يسر لهم الاسباب التي توصلهم اليها وأعانهم عليها ورضي منهم باليسير في هذه المدة القصيرة جدا بالاضافة الى بقاء دار النعيم وضمن لهم ان أحسنوا أن يثيبهم بالحسنة عشرا وان أساؤا واستغفروه أن يغفر لهم ووعدهم أن يمحو ما جنوه من السيآت بما يفعلونه بعدها من الحسنات وذكرهم بآلائه وتعرف اليهم بأسمائه وأمرهم بما أمرهم به رحمة منه بهم واحسانا لا حاجة منه اليهم ونهاهم عما نهاهم عنه حماية وصيانة لهم لا بخلا منه عليهم وخاطبهم بالطف الخطاب وأحلاه ونصحهم بأحسن النصائح ووصاهم بأكمل الوصايا وأمرهم بأشرف الخصال ونهاهم عن أقبح الاقوال والاعمال وصرف لهم الآيات وضرب لهم الامثال ووسع لهم طرق العلم به ومعرفته وفتح لهم أبواب الهداية وعرفهم الاسباب التي تدنيهم من رضاه وتبعدهم عن غضبه ويخاطبهم بالطف الخطاب ويسميهم باحسن أسمائهم كقوله يا أيها الذين آمنوا وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم قل لعبادي واذا سألك عبادي عني فيخاطبهم بخطاب الوداد والمحبة والتلطف كقوله يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذي جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء

ربك وبانت منك امرأتك ذكره أبوداود وقدروى النسائى عن محمود بن لبيد قال اخبر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن رجل طلق امراته ثلاث تطليقات جميعا فقام غضبان ثم قال أيلعب بكتاب الله وانا بين اظهركم حتى قام رجل فقال يارسول الله ألا أقتله وهذه الآثار موافقة لما دل عليه القرآن فان الله سبحانه انما شرع الطلاق مرة بعد مرة ولم يشرعه جملة واحدة اصلا قال تعالى الطلاق مرتان والمرتان فى لغة العرب بل وسائر لغات الناس انما تكون لما يأتى مرة بعد مرة فهذا القرآن من اوله الى آخره وسنة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وكلام العرب قاطبة شاهد بذلك كقوله تعالى سنعذبهم مرتين وقوله أولا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة اومرتين وقوله ياايها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات ثم فسرها بالاوقات الثلاثة وشواهد هذا اكثر من ان تحصى ثم قال سبحانه فان طلقها فلاتحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره فهذه هى المرة الثالثة فهذا هو الطلاق الذى شرعه الله تعالى سبحانه مرة بعد مرة بعد مرة فهذا شرعه من حيث العدد وأما شرعه من حيث الوقت فشرع الطلاق للعدة وقد فسره عليه السلام بان يطلقها طاهرا من غير جماع فلم يشرع جمع ثلاث ولا تطليقتين ولم يشرع الطلاق فى حيض ولا فى طهر وطئ فيه وكان المطلق فى زمن رسول الله عليه السلام كله و زمن ابى بكر كله وصدرا من خلافة عمر رضى الله عنهما اذا طلق ثلاثا يحسب له واحدة وفى ذلك حديثان صحيحان احدهما رواه مسلم فى صحيحه والثانى رواه الامام احمد فى مسنده فأما حديث مسلم فرواه من طريق ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس رضى الله عنه قال كان الطلاق على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وابى بكر وسنتين من خلافة عمر طلاق الثلاث واحدة فقال عمر رضى الله عنه ان الناس قد استعجلوا فى أمر كانت لهم اناة فلو أمضيناه عليهم فأمضاه عليهم وفى صحيحه ايضا عن طاوس ان ابا الصهباء قال لابن عباس هات من هنياتك ألم يكن الطلاق الثلاث على عهد رسول الله عليه السلام وابى بكر واحدة فقال قد كان ذلك فلما كان فى عهد عمر تتايع الناس فى الطلاق فأجازه عليهم وفى لفظ لابى داود ان رجلا يقال له ابو الصهباء كان كثير السؤال لابن عباس قال اما علمت ان الرجل كان اذا طلق امرأته ثلاثا قبل ان يدخل بها جعلوها واحدة على عهد رسول الله وابى بكر رضى الله عنه وصدرا من امارة عمر رضى الله عنه فقال ابن عباس بلى كان الرجل اذا طلق امرأته ثلاثا قبل ان يدخل بها جعلوها واحدة على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وابى بكر وصدرا من امارة عمر فلما رأى الناس قد تتابعوا فيها قال اجروهن عليهم هكذا فى هذه الرواية قبل ان يدخل بها وبها اخذ اسحق بن راهويه وخلق من السلف جعلوا الثلاث واحدة فى غير المدخول بها وسائر الروايات الصحيحة ليس فيها قبل الدخول ولهذا لم يذكر مسلم منها شيأ وهذا

فاخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والارض لا اله الا هو فانى تؤفكون يا أيها الناس ان وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فالف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يالونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول واياكم ان تؤمنوا بالله ربكم ان كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى تسرون اليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وانه اليه تحشرون واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا ان الله شديد العقاب واذكروا اذ أنتم قليل مستضعفون فى الارض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ماقدروا الله حق قدره ان الله لقوى عزيز واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا فتحت هذا الخطاب انى عاديت ابليس وطردته من سمائى وباعدته من قربى

وهذا الحديث قد رواه عن ابن عباس ثلاثة نفر طاوس وهو أجل من رواه عنه وابو الصهباء العدوى وابو الجوزاء وحديثه عند الحاكم في المستدرك ولفظه ان ابا الجوزاء اتى ابن عباس فقال أتعلم ان الثلاث كن يرددن على عهد رسول الله عليه السلام الى واحدة قال نعم قال الحاكم هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه ورواية طاوس نفسه عن ابن عباس ليس في شئ منها قبل الدخول وانما حكى ذلك طاوس عن سؤال ابى الصهباء لابن عباس فأجابه ابن عباس بما سأله عنه ولعله انما بلغه جعل الثلاث واحدة في حق مطلق قبل الدخول فسأل عن ذلك ابن عباس وقال كانوا يجعلونها واحدة فقال له ابن عباس نعم اى الامر على ماقلت وهذا لا مفهوم له فان التقييد في الجواب وقع في مقابلة تقييد السؤال ومثل هذا لا يعتبر مفهومه نعم لو لم يكن السؤال مقيدا فقيد المسؤل الجواب كان مفهومه معتبرا وهذا كما اذا سئل عن فارة وقعت في سمن فقال اذا وقعت الفارة في السمن فالقوها وما حولها وكلوه لم يدل ذلك على تقييد الحكم بالسمن خاصة وبالجملة فغير المدخول بها فرد من أفراد النساء فذكر النساء مطلقا في أحد الحديثين وذكر بعض أفرادهن في الحديث الآخر فلا تعارض بينهما وأما الحديث الآخر فقال أبو داود في سننه حدثنا أحمد بن صالح حدثنا عبد الرزاق أخبرنا ابن جريج قال أخبرني بعض بني أبي رافع مولى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عن عكرمة عن ابن عباس قال طلق عبد يزيد بن ركانة واخوته أم ركانة ونكح امرأة من مزينة فجاءت الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقالت مايغني عني الا كما تغني هذه الشعرة لشعرة أخذتها من رأسها ففرق بيني وبينه فأخذت النبي عليه السلام حمية فدعا ركانة واخوته ثم قال لجلسائه أترون فلانا نسبه منه كذا وكذا من عبد يزيد وفلانا كذا وكذا قالوا نعم فقال عليه السلام طلقها ففعل فقال راجع امرأتك أم ركانة فقال انى طلقتها ثلاثا يارسول الله قال قد علمت راجعها وتلا يا أيها الذين آمنوا اذا طلقتم النساء الآية فأمره أن يراجعها وقد طلقها ثلاثا وتلا الآية التى هى وما بعدها صريحة في كون الطلاق الذى شرعه لعباده هو الطلاق الذى يكون للعدة ماذا شارفت انقضاءها فاما أن يمسكها بمعروف او يفارقها بمعروف وانه سبحانه شرعه على وجه التوسعة والتيسير فلعل المطلق أن يندم فيكون له سبيل الى الرجعة وهو قوله لاتدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا فأمره بالمراجعة وتلاوته الآية كاف في الاستدلال على ما كان عليه الحال فان قيل فهذا الحديث فيه مجهول وهو بعض بني رافع والمجهول لا يقوم به حجة فالجواب من ثلاثة أوجه أحدها ان الامام احمد قد قال في المسند حدثنا سعد بن ابراهيم حدثنا أبي عن محمد بن اسحق قال حدثني داود بن الحصين عن عكرمة مولى ابن عباس عن ابن عباس قال طلق ركانة بن عبد يزيد أخو المطلب امرأته ثلاثا في مجلس واحد فحزن عليها حزنا شديدا فسأله رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كيف

ادم يسجد لابيكم آدم ثم أنتم يا بنيه تتولونه وذريته من دوني وهم أعداء لكم فليتأمل اللبيب مواقع هذا الخطاب وشدة لصوقه بالقلوب والتباسه بالارواح واكثر القرآن جاء على هذا النمط من خطابه لعباده بالتودد والتحنن واللطف والنصيحة البالغة واعلم عباده انه لا يرضى لهم الا أكرم الوسائل وأفضل المنازل وأجل العلوم والمعارف قال تعالى ان تكفروا فان الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وان تشكروا يرضه لكم وقال اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا وقال يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر وقال والله يريد أن يتوب عليكم يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم يريد الله أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا ويتنصل سبحانه الى عباده من مواضع الظنة والتهمة التى نسبها اليه من لم يعرفه حق معرفته ولا قدره حق قدره من تكليف عباده مالا يقدرون عليه ولا طاقة لهم بفعله البتة وتعذيبهم ان شكروه وآمنوا به وخلق السموات والارض وما بينهما لا لحكمة ولا لغاية وانه لم يخلق خلقه لحاجة منه اليهم ولا ليتكثر بهم من قلة ولا ليتعزز بهم كما قال وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون فاخبر انه لم يخلق الجن والانس لحاجة منه اليهم ولا ليربح عليهم لكن خلقهم جودا واحسانا ليعبدوه فيربحوا هم عليه كل الارباح كقوله ان أحسنتم أحسنتم لانفسكم ومن عمل صالحا فلانفسهم يمهدون ولما أمرهم بالوضوء وبالغسل من الجنابة الذى يحط عنهم أوزارهم ويدخلون به عليه ويرفع به درجاتهم قال تعالى ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون وقال في الاضاحى والهدايا لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم وقال عقيب أمرهم بالصدقة ونهيهم عن اخراج الردىء من المال ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه الا ان تغمضوا فيه

طلقتها قال طلقتها ثلاثا فى مجلس واحد قال فانما تلك واحدة فارجعها ان شئت قال فراجعها قال وكان ابن عباس يرى ان الطلاق عند كل طهر ورواه الحافظ أبو عبد الله محمد ابن عبد الواحد المقدسى فى مختاراته التى هى أصح من صحيح الحاكم فهذا موافق للاول وكلاهما موافق لحديث طاوس وأبى الصهباء وأبى الجوزاء عن ابن عباس وطاوس وعكرمة أعلم أصحاب ابن عباس فان عكرمة كان مولاه مصاحباله وكان يقيده على العلم وكان طاوس خاصا عنده يجتمع به كثيرا ويدخل عليه مع الخاصة وكان طاوس وعكرمة يفتيان بان الثلاث واحدة وكذلك ابن اسحق لما صح عنده هذا الحديث أفتى بموجبه وكان يقول جهل السنة فيرد اليها فرواة هذا الحديث أفتوا به وعملوا به وعن ابن عباس فيه روايتان احداهما موافقة عمر رضى الله عنه تأديبا وتعزيرا للمطلقين والثانية الافتاء بموجبه روى حماد بن زيد عن أيوب عن عكرمة عن ابن عباس وحسبك بهذا السند صحة وجلالة اذا قال أنت طالق ثلاثا بفم واحد فهى واحدة ذكره أبو داود فى السنن الوجه الثانى ان هذا المجهول هو من التابعين من أبناء مولى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ولم يكن الكذب مشهورا فيهم والقصة معروفة محفوظة وقد تابعه عليها داود بن الحصين وهذا يدل على انه حفظها الثالث ان روايته لم يعتمد عليها وحدها فقد ذكرنا رواية داود ابن الحصين وحديث أبى الصهباء فهب ان وجود روايته وعدمها سواء ففى حديث داود كفاية وقد زالت تهمة تدليس ابن اسحق بقوله حدثنى وقد احتج الائمة بهذا السند بعينه فى حديث تقدير العرايا بخمسة أوسق أو دونها وأخذوا به وعملوا بموجبه مع مخالفة عمومات الاحاديث الصحيحة فى منع بيع الرطب بالتمر له والقول بهذه الاحاديث موافق لظاهر القرآن ولاقوال الصحابة وللقياس ومصالح بنى آدم أما ظاهر القرآن فان الله سبحانه شرع الرجعة فى كل طلاق الا طلاق غير المدخول بها والمطلقة طلقة ثالثة بعد الاولتين وليس فى القرآن طلاق بائن قط الا فى هذين الموضعين واحداهما بائن غير محرم والثانى بائن محرم وقال تعالى الطلاق مرتان والمرتان ما كان مرة بعد مرة كما تقدم وأما القياس فان الله سبحانه قال والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء الا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله ثم قال ويدرأ عنها العذاب أن تشهد اربع شهادات بالله فلو قال أشهد بالله أربع شهادات انى صادق أو قالت اشهد بالله اربع شهادات انه كاذب كانت شهادة واحدة ولم تكن اربعا فكيف يكون قوله انت طالق ثلاثا ثلاث تطليقات وأى قياس أصح من هذا وهكذا كل ما يعتبر فيه العدد من الاقرار ونحوه ولهذا لو قال المقر بالزنا انى أقر بالزنا أربع مرات كان ذلك مرة واحدة وقد قال الصحابة لماعز ان أقررت أربعا رجمك رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فلو قال أقر به اربع مرات كانت مرة واحدة فهكذا الطلاق سواء فهذا القياس وتلك الآثار وذاك ظاهر القرآن واما أقوال

الصحابة

واعلموا أن الله غنى حميد يقول سبحانه انى غنى عما تنفقون ان ينالنى منه شئ حميد مستحق المحامد كلها فانفاقكم لا يسد منه حاجة ولا يوجب له حمدا بل هو الغنى بنفسه الحميد بنفسه وأسمائه وصفاته وانفاقكم انما نفعه لكم وعائدته عليكم ومن المتعين على من لم يباشر قلبه حلاوة هذا الخطاب وجلالته ولطف موقعه وجذبه للقلوب والارواح ومخالطته لها أن يعالج قلبه بالتقوى وان يستفرغ منه المواد الفاسدة التى حالت بينه وبين حظه من ذلك ويتعرض الى الاسباب التى يناله بها من صدق الرغبة واللجا الى الله أن يحيى قلبه ويزكيه ويجعل فيه الايمان والحكمة فالقلب الميت لا يذوق طعم الايمان ولا يجد حلاوته ولا يتمتع بالحياة الطيبة لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ومن أراد مطالعة أصول النعم فليسم سرح الذكر فى رياض القرآن وليتأمل ما عدد الله فيه من نعمه وتعرف بها الى عباده من أول القرآن الى آخره حين خلق أهل النار وابتلاهم بابليس وحزبه وتسليط اعدائهم عليهم وامتحانهم بالشهوات والارادات والهوى لتعظم النعمة عليهم بمخالفتها ومحاربته فلله على أوليائه وعباده أتم نعمة وأكملها فى كل ما خلقه من محبوب ومكروه ونعمة ومحنة وفى كل ما أحدثه فى الارض من وقائعه بأعدائه واكرامه لاوليائه وفى كل ما قضاه وقدره وتفصيل ذلك لا تفى به أقلام الدنيا وأوراقها ولا قوى العباد وانما هو التنبيه والاشارة ومن استقرى الاسماء الحسنى وجدها مدائح وثناء تقصر بلاغات الواصفين عن بلوغ كنهها وتعجز الاوهام عن الاحاطة بالواحد منها ومع ذلك فلله سبحانه محامد ومدائح وأنواع من الثناء لم تتحرك بها الخواطر ولا هجست فى الضمائر ولا لاحت لمتوسم ولا سنحت فى فكر ففى دعاء أعرف الخلق بربه وأعلمهم باسمائه وصفاته ومحامده أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك ان تجعل القرآن ربيع قلبى ونور صدرى وجلاء حزنى وذهاب همى وغمى وفى الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم فى حديث الشفاعة لما يسجد بين يدى ربه قال فيفتح على من

الصحابة فيكفي كون ذلك على عهد الصديق ومعه جميع الصحابة لم يختلف عليه منهم أحد ولا حكى في زمانه القولان حتى قال بعض أهل العلم إن ذلك اجماع قديم وانما حدث الخلاف في زمن عمر رضي الله عنه واستمر الخلاف في المسألة الى وقتنا هذا كما سنذكره قالوا فقد صح بلا شك انهم كانوا في زمن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأبي بكر مدة خلافته كلها وصدرا من خلافة عمر رضي الله عنه يوقعون على من طلق ثلاثا واحدة قالوا فنحن أحق بدعوى الاجماع منكم لانه لا يعرف في عهد الصديق أحد رد ذلك ولا خالفه فان كان اجماع فهو من جانبنا أظهر ممن يدعيه من نصف خلافة عمر رضي الله عنه وهلم جرا فانه لم يزل الاختلاف فيه قائما وذكره أهل العلم في مصنفاتهم قديما وحديثا فممن ذكر الخلاف في ذلك داود وأصحابه واختاروا ان الثلاث واحدة وممن حكى الخلاف الطحاوي في كتابه اختلاف العلماء وفي كتاب تهذيب الآثار وابو بكر الرازي في كتاب احكام القرآن وحكاه ابن المنذر وحكاه ابن حزم وحكاه الموزج في تفسيره وحكى حجة القولين ثم قال وهي مسألة خلاف بين العلماء وحكاه محمد بن نصر المروزي واختار القول الثالث انها واحدة في حق البكر ثلاث في حق المدخول بها وحكاه من المتأخرين المازري في كتاب المعلم وحكاه عن محمد بن مقاتل من أصحاب أبي حنيفة وهو من أجل أصحابهم من الطبقة الثالثة من أصحاب أبي حنيفة فهو أحد القولين في مذهب أبي حنيفة وحكاه التلمساني في شرح التفريع في مذهب مالك قولا في مذهبه بل رواية عن مالك وحكاه غيره قولا في المذهب وهو أحد القولين في مذهب مالك وأبي حنيفة وحكاه شيخ الاسلام عن بعض أصحاب أحمد وهو اختياره وأثبت أحواله ان يكون كبعض أصحاب الوجوه في مذهبه كالقاضي وابي الخطاب وهو اجل من ذلك فهو قول في مذهب احمد بلا شك واما التابعون قال ابن المنذر كان سعيد بن جبير وطاوس وابو الشعثاء وعطاء وعمرو بن دينار يقولون من طلق البكر ثلاثا فهي واحدة قال واخذوا في هذا الباب عن الحسن وروى عنه انه ثلاث وذكر قتادة وحميد ويونس عنه انه رجع عن قوله بعد ذلك وقال واحدة بائنة وقال محمد بن نصر في كتاب اختلاف العلماء اجمع اهل العلم ان الرجل اذا طلق امرأته تطليقة ولم يدخل بها انها بانت منه وليس عليها عدة واختلفوا في غير المدخول بها اذا طلقها الزوج ثلاثا بلفظ واحد فقال الاوزاعي ومالك واهل المدينة لا تحل له حتى تنكح زوجا غيره وروى عن ابن عباس وغير واحد من التابعين انهم قالوا اذا طلقها ثلاثا قبل ان يدخل بها فهي واحدة واكثر اهل الحديث على القول الاول قال وكان اسحق يقول طلاق الثلاث للبكر واحدة وتأول حديث طاوس عن ابن عباس كان الطلاق الثلاث على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وابي بكر وعمر رضي الله عنهم يجعل واحدة على هذا قلت هذا تأويل اسحق وأما أبو داود فجعله منسوخا فقال في كتاب

محامده بشيء لا أحصيه الآن وكان يقول في سجوده أعوذ برضاك من سخطك وبعفوك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك فلا يحصي أحد من خلقه ثناء عليه البتة وله أسماء وأوصاف وحمد وثناء لا يعلمه ملك مقرب ولا نبي مرسل ونسبة ما علم العباد من ذلك الى مالا يعلمونه كنقرة عصفور في بحر فان قيل فكيف يصنعون بما يشاهد من أنواع الابتلاء والامتحان والآلام للاطفال والحيوانات ومن هو خارج عن التكليف ومن لا ثواب ولا عقاب عليه وما يقولون في الاسماء الدالة على ذلك من المنتقم والقابض والخافض ونحوها قيل قد تقدم من الكلام في ذلك ما يكفي بعضه لذي الفطرة السليمة والعقل المستقيم واما من فسدت فطرته وانتكس قلبه وضعفت بصيرة عقله فلو ضرب له من الامثال ما ضرب فانه لا يزيده الا عمى وتحيرا ونحن نزيد ما تقدم ايضاحا وبيانا اذ بسط هذا المقام أولى من اختصاره فنقول قد علمت ان جميع أسماء الرب سبحانه حسنى وصفاته كمال وأفعاله حكمة ومصلحة وله كل ثناء وكل حمد ومدحة وكل خير فمنه وله وبيده والشر ليس اليه بوجه من الوجوه لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ولا في أسمائه وان كان في مفعولاته فهو خير باضافته اليه وشر باضافته الى من صدر عنه ووقع به فتمسك بهذا الاصل ولا تفارقه في كل دقيق وجليل وحكمه على كل ما يرد عليك وحاكم اليه واجعله آخيتك التي ترجع اليها وتعتمد عليها واعلم ان لله خصائص في خلقه ورحمة وفضلا يختص به من يشاء وذلك موجب ربوبيته والهيته وحمده وحكمته فاياك ثم اياك أن تصغي الى وسوسة شياطين الانس والجن والنفس الجاهلة الظالمة انه هلا سوى بين عباده في تلك الخصائص وقسمها بينهم على السواء فان هذا عين الجهل والسفه من المعترض به وقد بينا فيما تقدم ان حكمته تأبى ذلك وتمنع منه ولكن اعلم ان الامر قسمه بين فضله وعدله فيختص برحمته من يشاء ويقصد بعذابه من يشاء وهو المحمود على هذا فالطيبون من خلقه مخصوصون بفضله ورحمته والخبيثون مقصودون بعذابه ولكل واحد قسطه من الحكمة والابتلاء والامتحان وكل مستعمل فيما هو له مهيأ وله مخلوق

السنن باب نسخ المراجعة بعد التطليقات الثلاث ثم ساق حديث ابن عباس رضي الله عنه ان الرجل كان اذا طلق امرأته فهو أحق برجعتها وان طلقها ثلاثا ثم نسخ ذلك بقوله تعالى الطلاق مرتان ثم ذكر في أثناء الباب حديث أبي الصهباء وكأنه اعتقد ان حكمه كان ثابتا لما كان الرجل يراجع امرأته كلما طلقها وهذا وهم لوجهين أحدهما ان المنسوخ هو ثبوت الرجعة بعد الطلاق ولو بلغ مابلغ كما كان في أول الاسلام الثاني ان النسخ لا يثبت بعد موت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وكون الثلاث واحدة قد عمل به في خلافة الصديق كلها وأول خلافة عمر رضي الله عنه فمن المستحيل أن ينسخ بعد ذلك وأما ابن المنذر فقال لم يكن ذلك عن علم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ولا عن أمره قال غير جائز أن يظن بابن عباس انه يحفظ عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم شيأ ثم يفتي بخلافه فلما لم يجز ذلك دل فتيا ابن عباس رضي الله عنه على ان ذلك لم يكن عن علم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ولا عن أمره اذ لو كان ذلك عن علم النبي عليه السلام مااستحل ابن عباس أن يفتي بخلافه أو يكون ذلك منسوخا استدلالا بفتيا ابن عباس وهذا المسلك ضعيف جدا لوجوه أحدها ان حديث عكرمة عن ابن عباس في رد النبي عليه السلام امرأة ركانة عليه بعد الطلاق الثلاث يبطل هذا التأويل رأسا الثاني ان هذا لو كان صحيحا لقال ابن عباس لابي الصهباء ماأدرى أبلغ ذلك رسول الله عليه السلام أولم يبلغه فلما أقره على ذلك اقرارا دل ذلك على أنه مما بلغه الثالث أنه لو كان ذلك صحيحا لم يقل ان الناس قد استعجلوه في شئ كانت لهم فيه أناة بل كان الواجب أن يبين السنة عن رسول الله عليه السلام في خلاف ذلك وان هذا العمل من الناس خلاف دين الاسلام وشرع محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ولا يقول فلو انا أمضيناه عليهم فان هذا انما يكون أيضا من الله تعالى ورسوله لا من عمر الرابع انه من الممتنع أو المستحيل أن يكون خيار الخلق يطلقون في عهد رسول الله عليه عليه السلام وعهد خليفته من بعده ويراجعون على خلاف دينه فيطلقون طلاقا محرما ويراجعون رجعة محرمة ولا يعلمون بذلك رسول الله عليه السلام وهو بين أظهرهم ثم حديث ابن عباس الذي رواه أحمد يرد ذلك ثم يرده فتوى ابن عباس في احدى الروايتين عنه وهي ثابتة عنه بأصح اسناد كما ان الرواية الاخرى ثابتة عنه كيف يستمر جهل خيار الامة بالطلاق والرجعة مدة حياته عليه السلام ومدة حياة الصديق كلها وشطرا من خلافة عمر رضي الله عنه ثم يظهر لهم بعد ذلك الطلاق والرجعة الجائزان وكيف يصح قول عمر رضي الله عنه ان الناس قد استعجلوا في شئ كانت لهم فيه اناة وكيف يصح قوله فلو أمضيناه عليهم فهذا المسلك كما ترى وأما الامام أحمد فانما رده بفتوى ابن عباس بخلافه وهو راوي الحديثين قال الأثرم سألت أبا عبد الله عن حديث ابن عباس كان الطلاق الثلاث على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما طلاق

الثلاث

وكل ذلك خير ونفع ورحمة للمؤمنين فانه تعالى خلقهم للغيرات فهم لها عاملون واستعملهم فيها فلم يتذكروا ذلك الا ولا سبقوه الا بما سبق لهم من مشيئته وقدرته فكذلك لا تضرهم الادواء ولا السموم بل متى وسوس لهم العدو واغتالهم بشئ من كيده أومسهم بشئ من طيفه تذكروا فاذا هم مبصرون واخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون واذا واقعوا معصية صغيرة أو كبيرة عاد ذلك عليهم رحمة وانقلب في حقهم دواء وبدل حسنة بالتوبة النصوح والحسنات الماحية لانه سبحانه عرفهم بنفسه وبفضله وبان قلوبهم بيده وعصمتهم اليه حيث نقض عزماتهم وقد عزموا أن لا يعصوه وأراهم عزته في قضائه وبره واحسانه في عفوه ومغفرته وأشهدهم نفوسهم ومافيها من النقص والظلم والجهل وأشهدهم حاجتهم اليه وافتقارهم وذلهم وانه ان لم يعف عنهم ويغفر لهم فليس لهم سبيل الى النجاة أبدا فانهم لما أعطوا من أنفسهم العزم أن لا يعصوه وعقدوا عليه قلوبهم ثم عصوه بمشيئته وقدرته عرفوا بذلك عظيم اقتداره وجميل ستره اياهم وكريم حلمه عنهم وسعة مغفرته لهم وبرد عفوه وحنانه وعطفه ورأفته وانه حليم ذو اناة لا يعجل ورحيم سبقت رحمته غضبه وانهم متى رجعوا اليه بالتوبة وجدوه غفورا رحيما حليما كريما يغفر لهم السيآت ويقيلهم العثرات ويودهم بعد التوبة ويحبهم فتضرعوا اليه حينئذ بالدعاء وتوسلوا اليه بذل العبودية وعز الربوبية فتعرف سبحانه اليهم بحسن اجابته وجميل عطفه وحسن امتنانه في ان ألهمهم دعاءه ويسرهم للتوبة والانابة وأقبل بقلوبهم اليه بعد اعراضها عنه ولم تمنعه معاصيهم وجناياتهم من عطفه عليهم وبره لهم واحسانه اليهم فتاب عليهم قبل أن يتوبوا اليه وأعطاهم قبل أن يسألوه فلما تابوا اليه واستغفروه وأنابوا اليه تعرف اليهم تعرفا آخر فعرفهم رحمته وحسن عائدته وسعة مغفرته وكريم عفوه وجميل صفحه وبره وامتنانه وكرمه وشرعه ومبادرته قبولهم بعد ان كان منهم ماكان من طول الشرور وشدة النفور والايضاع في طرق معاصيه وأشهدهم مع ذلك حمده

الثلاث واحدة باي شئ تدفعه قال برواية الناس عن ابن عباس بوجوه خلافه وكذلك نقل عنه ابن منصور وهذا المسلك انما يجيء على احدى الروايتين ان الصحابي اذا عمل بخلاف الحديث لم يحتج به وانتفى عمل الصحابي والمشهور عنه ان العبرة بما رواه الصحابي لا بقوله اذا خالف الحديث ولهذا أخذ برواية ابن عباس في حديث بريدة وان بيع الامة لا يكون طلاقا لها لان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خيرها ولو انفسخ النكاح ببيعها لم يخيرها مع ان مذهب ابن عباس ان بيع الامة طلاقها واحتج بظاهر القرآن والمحصنات من النساء الا ما ملكت أيمانكم فاباح وطء مملوكته المزوجة ولو كان النكاح باقيا لم ينفسخ لم يبح له وطؤها والجمهور وأحمد معهم خالفوه في ذلك وقالوا لا يكون بيعها طلاقا واحتجوا بحديث بريدة وتركوا رأيه لروايته فان روايته معصومة ورأيه غير معصوم والمشهور من مذهب الشافعي ان الاخذ بروايته دون رأيه والمشهور من مذهب أبي حنيفة عكس ذلك وعن أحمد روايتان فهذا المسلك في رد الحديث لا يقوى وسلك آخرون في رد الحديث مسلكا آخر فقالوا هو حديث مضطرب لا يصح ولذلك أعرض عنه البخاري وترجم في صحيحه على خلافه فقال باب في جواب الثلاث في كلمة لقوله تعالى الطلاق مرتان ثم ذكر حديث اللعان وفيه فطلقها ثلاثا قبل أن يأمره رسول الله عليه السلام ولم يغير عليه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وهو لا يقر على باطل قالوا ووجه اضطرابه تارة يروى عن طاوس عن ابن عباس وتارة عن طاوس عن أبي الصهباء عن ابن عباس وتارة عن أبي الجوزاء عن ابن عباس فهذا اضطرابه من جهة السند وأما المتن فان أبا الصهباء تارة يقول ألم تعلم ان الرجل كان اذا طلق امرأته ثلاثا قبل أن يدخل بها جعلوها واحدة وتارة يقول ألم يكن الطلاق الثلاث على عهد رسول الله عليه السلام وأبي بكر وصدرا من خلافة عمر واحدة فهذا يخالف اللفظ الآخر وهذا المسلك من أضعف المسالك ورد الحديث فيه ضرب من التعنت ولا يعرف أحد من الحفاظ قدح في هذا الحديث ولا ضعفه والامام أحمد لما قيل له باي شئ ترده فقال برواية الناس عن ابن عباس خلافه ولم يرده بتضعيف ولا قدح في صحته وكيف يتهيأ القدح في صحته ورواته كلهم أئمة حفاظ حدث به عبد الرزاق وغيره عن ابن جريج بصيغة الاخبار وحدث به كذلك ابن جريج عن طاوس وحدث به ابن طاوس عن ابيه وهذا اسناد لا مطعن فيه لطاعن وطاوس من أخص أصحاب ابن عباس ومذهبه ان الثلاث واحدة وقد رواه حماد بن زيد عن أيوب عن غير واحد عن طاوس فلم ينفرد به عبد الرزاق ولا ابن جريج ولا عبد الله بن طاوس والحديث من أصح الاحاديث وترك رواية البخاري لا يوهنه وله حكم أمثاله من الاحاديث الصحيحة التي تركها البخاري لئلا يطول كتابه فانه سماه الجامع المختصر الصحيح ومثل هذا العذر لا يقوله من له حظ من العلم وأما روايته من رواه عن أبي الجوزاء قال كانت محفوظة

العظيم وبره العميم وكرمه في ان خلى بينهم وبين المعصية فنالوها بنعمته واعانته ثم لم يخل بينهم وبين ما توجبه من الهلاك والفساد الذي لا يرجى معه فلاح بل تداركهم بالدواء الثاني الشافي فاستخرج منهم داء لو استمر معهم لافضى الى الهلاك ثم تداركهم بروح الرجاء فقذفه في قلوبهم وأخبر انه عند ظنونهم به ولو أشهدهم عظم الجناية وقبح المعصية وغضبه (١٥٩) ومقته على من عصاه فقط لاورثهم ذلك المرض القاتل أو الداء العضال من اليأس من روحه والقنوط من رحمته وكان ذلك عين هلاكهم ولكن رحمهم قبل البلاء وجعل تلك الآثار التي توجبها المعصية من المحن والبلاء والشدائد رحمة لهم وسببا الى علو درجاتهم ونيل الزلفى والكرامة عنده فاشهدهم بالجناية عزة الربوبية وذل العبودية ورقاهم بآثارها الى منازل قربه ونيل كرامته فهم على كل حال يربحون عليه ويتقلبون في كرمه واحسانه وكل قضاء يقضيه للمؤمن فهو خير له يسوقه الى كرامته وثوابه وكذلك عطاياه الدنيوية نعم منه عليهم فاذا استرجعها أيضا منهم وسلبهم اياها انقلبت من عطايا الآخرة كما قيل

ان الله ينعم على عباده بالعطايا الفاخره
فاذا استرجعها كانت عطايا الآخره

والرب سبحانه قد تجلى لقلوب المؤمنين العارفين وظهر لها بقدرته وجلاله وكبريائه ومضى مشيئته وعظيم سلطانه وعلو شأنه وكرمه وبره واحسانه وسعة مغفرته ورحمته وما ألقاه في قلوبهم من الايمان باسمائه وصفاته الى حيث احتملته القوى البشرية ووراء هذا مما لم تحتمله قواهم ولا يخطر ببال ولا يدخل في خلد مما لا نسبة لما عرفوه اليه فاعلم ان الذين كان قسمهم أنواع المعاصي والفجور وفنون الكفر والشرك والتقلب في غضبه وسخطه وقلوبهم وأرواحهم شاهدة عليهم بالمعاصي والكفر مقرة بان له الحجة عليهم وان حقه قبلهم ولا يذكر أحد منهم النار الا وهو شاهد بذلك مقر به معترف اعتراف طائع لا مكره مضطهد فهذه شهادتهم على أنفسهم وشهادة أوليائه عليهم والمؤمنون يشهدون فيهم بشهادة أخرى لا يشهدها أعداؤه ولو شهدوها باؤابها لكانت رحمته أقرب اليهم من عقوبته فيشهدون أنهم

فهي مما تزيد الحديث قوة وان لم تكن محفوظة وهو الظاهر فهي وهم في الكنية انتقل فيها عبد الله بن المؤمل عن ابن أبي مليكة من أبي الصهباء الى ابي الجوزاء فانه سيئ الحفظ والحفاظ قالوا ابو الصهباء وهذا لا يوهن الحديث وهذه الطريق عند الحاكم في المستدرك وأما رواية من رواه مقيدا قبل الدخول فانه تقدم انها لا تناقض رواية الآخرين على انها عند أبي داود عن ايوب عن غير واحد ورواية الاطلاق عن معمر عن ابن جريج عن ابن طاوس عن أبيه فان تعارضا فهذه الرواية اولى وان لم يتعارضا فالامر واضح وحديث داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم صريح في كون الثلاث واحدة في حق المدخول بها وعامة ما يقدر في حديث أبي الصهباء أن قوله قبل الدخول زيادة من نفسه فيكون الاخذ بها أولى وحينئذ فيدل أحد حديثي ابن عباس على ان هذا الحكم ثابت في حق البكر وحديثه الآخر ثابت في حكم الثيب أيضا فأحد الحديثين يقوي الآخر ويشهد بصحته وبالله التوفيق وقد رده آخرون بمسلك أضعف من هذا كله فقالوا هذا حديث لم يروه عن رسول الله الا ابن عباس وحده ولا عن ابن عباس الا طاوس وحده قالوا فاين أكابر الصحابة وحفاظهم عن رواية مثل هذا الامر العظيم الذي الحاجة اليه شديدة جدا فكيف خفي هذا على جميع الصحابة وعرفه ابن عباس وحده وخفي على أصحاب ابن عباس كلهم وعلمه طاوس وحده وهذا أفسد من جميع ما تقدم ولا ترد أحاديث الصحابة وأحاديث الائمة الثقاة بمثل هذا فكم من حديث تفرد به واحد من الصحابة لم يروه غيره وقبله الامة كلهم فلم يرده أحد منهم وكم من حديث تفرد به من هو دون طاوس بكثير ولم يرده أحد من الائمة ولا نعلم أحدا من أهل العلم قديما ولا حديثا قال ان الحديث اذا لم يروه الا صحابي واحد لم يقبل وانما يحكى عن أهل البدع ومن تبعهم في ذلك أقوال لا يعرف لها قائل من الفقهاء وقد تفرد الزهري بنحو ستين سنة لم يروها غيره وعملت بها الامة ولم يردوها بتفرده هذا مع ان عكرمة روى عن ابن عباس رضي الله عنه حديث ركانة وهو موافق لحديث طاوس عنه فان قدح في عكرمة أبطل وتناقض فان الناس احتجوا بعكرمة وصحح أئمة الحفاظ حديثه ولم يلتفتوا الى قدح من قدح فيه فان قيل فهذا هو الحديث الشاذ وأقل أحواله أن يتوقف فيه ولا يجزم بصحته عن رسول الله عليه السلام قيل ليس هذا هو الشاذ وانما الشذوذ أن تخالف الثقات فيما رووه فيسد عنهم بروايته فأما اذا روى الثقة حديثا منفردا به لم يرو الثقات خلافه فان ذلك لا يسمى شاذا وان اصطلح على تسميته شاذا بهذا المعنى لم يكن هذا الاصطلاح موجبا لرده ولا مسوغا له قال الشافعي رحمه الله وليس الشاذ أن ينفرد الثقة برواية الحديث بل الشاذ أن يروي خلاف ما رواه الثقات قاله في مناظرته بعض من رد الحديث بتفرد الراوي فيه ثم ان هذا القول لا يمكن أحدا من أهل العلم ولا من الائمة ولا من أتباعهم طرده ولو طردوه ابطل

عبيده وملائكته وأوليائه أوجدهم ليظهر بهم مجده وينفذ فيهم حكمه ويمضي فيهم عدله ويحق عليهم كلمته ويصدق فيهم وعيده ويبين فيهم سابق علمه ويعمر بهم ديارهم ومساكنهم التي هي محل عدله وحكمته وشهد أولياؤه عظيم ملكه وعز سلطانه وصدق رسله وكمال حكمته وتمام نعمته عليهم وقدر ما اختصهم (١٦٠) به ومن أي شيء حماهم وصانهم وأي شيء صرف عنهم وانه لم يكن لهم اليه وسيلة قبل وجودهم يتوسلون بها اليه أن لا يجعلهم من أصحاب الشمال وان يجعلهم من أصحاب اليمين وشهدوا له سبحانه بان ما كان منه اليهم وفيهم مما يقتضيه اتمام كلماته الصدق والعدل وصدق قوله وتحقق مقتضى أسمائه فهو محض حقه وكل ذلك منه حسن جميل له عليه أتم حمد وأكمله وأفضله وهو حكم عدل وقضاء فصل وانه المحمود على ذلك كله فلا يلحقه منه ظلم ولا جور ولا عبث بل ذلك عين الحكمة ومحض الجد وكمال أظهره في حقه وعز أبداه وملك أعلنه ومراد له أنفذه كما فعل بالبدن وضروب الانعام أتم بها مناسك أوليائه وقرابين عباده وان كان ذلك بالنسبة الى الانعام هلاكا واتلافا فاعداؤه الكفار المشركون به الجاحدون أولى أن يكون دماؤهم قرابين أوليائه وضحايا المجاهدين في سبيله كما قال حسان ابن ثابت

يتطهرون يرونه قربانهم
بدماء من علقوا به من الكفار

وكذلك لما ضحى خالد بن عبد الله القسري بشيخ المعطلة الفرعونية جعد بن درهم فانه خطبهم في يوم أضحى فلما أكمل خطبته قال أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم فاني مضح بالجعد بن درهم انه زعم ان الله لم يكلم موسى تكليما ولم يتخذ ابراهيم خليلا تعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيرا ثم نزل فذبحه فكان ضحيته ذكر ذلك البخاري في كتاب خلق الافعال فهذا شهود أوليائه من شان كثير أعدائه ولكن أعداؤه في غفلة عن هذا لا يشهدونه ولا يقرون به ولو شهدوه وأقروا به لادركهم حنانه ورحمته ولكن لما حجبوا عن معرفته ومحبته وتوحيده واثبات أسمائه الحسنى وصفاته العلا ووصفه بما يليق به وتنزيهه عما لا يليق به صاروا أسوأ حالا من الانعام وضربوا

كثير من أقوالهم وفتاويهم والعجب أن الرادين لهذا الحديث بمثل هذا الكلام قد بنوا كثيرا من مذاهبهم على أحاديث ضعيفة انفرد بها رواتها لا تعرف عن سواهم وذلك أشهر وأكثر من أن يعد ولما رأى بعضهم ضعف هذه المسالك وأنها لا تجدي شيأ استروح الى تأويله فقال معنى الحديث أن الناس كانوا يطلقون على عهد رسول الله وأبي بكر وعمر واحدة ولا يوقعون الثلاث فلما كان في أثناء خلافة عمر رضي الله عنه أوقعوا الثلاث وأكثروا من ذلك فأمضاه عليهم عمر رضي الله عنه كما أوقعوه فقوله كان الثلاث على عهد رسول الله عليه السلام واحدة أي في حق التطليق وايقاع المطلقين لا في حكم الشرع قال هذا القائل وهذا من أقوى ما يجاب به وبه يزول الاشكال ولعمر الله لو سكت هذا كان خيرا له وأستر فان هذا المسلك من أضعف ما قيل في الحديث وسياقه يبين بطلانه بيانا ظاهرا لا اشكال فيه وكان قائله أحب الترويج على قوم ضعفاء العلم مخلدين الى حضيض التقليد فروج عليهم مثل هذا وهذا القائل كأنه لم يتأمل ألفاظ الحديث ولم يعن بطرقه فقد ذكرنا من بعض ألفاظه قول أبي الصهباء لابن عباس أما علمت أن الرجل كان اذا طلق امرأته ثلاثا قبل أن يدخل بها جعلوها واحدة على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأبي بكر رضي الله عنه وصدرا من امارة عمر رضي الله عنه فأقر ابن عباس بذلك وقال نعم وأيضا فقول هذا المتأول انهم كانوا يطلقون على عهد رسول الله عليه السلام قد نقضه هو بعينه وأبطله حيث احتج على وقوع الثلاث بحديث الملاعن وحديث محمود بن لبيد أن رجلا طلق امرأته على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ثلاثا فغضب عليه السلام وقال أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم ثم زاد هذا القائل في الحديث زيادة من عنده فقال وأمضاه عليه ولم يرده وهذه اللفظة موضوعة لا مروية في شئ من طرق هذا الحديث البتة وليست في شئ من كتب الحديث وانما هي من كيس هذا القائل حمله عليها فرط التقليد ومحمود بن لبيد لم يذكر ما جرى بعد ذلك من امضاء أورد الى واحدة والمقصود أن هذا القائل تناقض وتأول الحديث تأويلا نعلم بطلانه من سياقه ومن بعض ألفاظه أن الطلاق الثلاث على عهد رسول الله وأبي بكر وصدر من خلافة عمر يرد الى الواحدة وهذا موافق للفظ الآخر كان اذا طلق امرأته ثلاثا جعلوها واحدة وجميع ألفاظه متفقة على هذا المعنى يفسر بعضها بعضا فجعل هذا وأمثاله المحكم متشابها والواضح مشكلا وكيف يصنع بقوله فلو أمضيناه عليهم فان هذا يدل على انه رأى من عمر رضي الله عنه رآه أن يمضيه عليهم لتتابعهم فيه وشدهم على أنفسهم ما وسعه الله تعالى عليهم وجمعهم ما فرقه وتطليقهم على غير الوجه الذي شرعه وتعديهم حدوده ومن كمال علمه رضي الله عنه علم ان الله سبحانه وتعالى لم يجعل المخرج الا لمن اتقاه وراعى حدوده وهؤلاء لم يتقوه في الطلاق ولا راعوا حدوده فلا يستحقون المخرج

بالحجاب وأبعدوا عنه بأقصى البعد وأخرجوا من نوره الى الظلمات وغيبت قلوبهم في الجهل به وبكماله وجلاله وعظمته في غايات ليتم عليهم أمده وينفذ فيهم حكمه والله عليم حكيم والله أعلم

(فصل)

والله سبحانه مع كونه خالق كل شئ فهو موصوف بالرضا والغضب والعطاء والمنع والخفض والرفع والرحمة والانتقام فاقتضت حكمته سبحانه أن خلق دار الطالبي رضاه العاملين بطاعته المؤثرين لامره القائمين بمحابه وهي الجنة وجعل فيها كل شئ مرضي وملأها من كل محبوب ومرغوب ومشتهى ولذيذ وجعل الخير بحذافيره فيها وجعلها محل كل طيب من الذوات والصفات والاقوال وخلق دارا أخرى لطالبي أسباب غضبه وسخطه المؤثرين لاغراضهم وحظوظهم على مرضاته العاملين بانواع مخالفته القائمين بما يكره من الاعمال والاقوال الواصفين له بما لا يليق به الجاحدين لما أخبرت به رسله من صفات كماله ونعوت جلاله وهي جهنم وأودعها كل شئ مكروه وسجنها مليء من كل شئ مؤذ ومؤلم وجعل الشر بحذافيره فيها وجعلها محل كل خبيث من الذوات والصفات والاقوال والاعمال فهاتان الداران هما دارا القرار وخلق دارا ثالثة هي كالميناء لهاتين الدارين ومنها يتزود المسافرون اليهما وهي دار الدنيا ثم أخرج اليها من أثمار الدارين بعض ما اقتضته أعمال أربابهما وما يستدل به عليهما حتى كأنهما رأى عين لبصير الايمان بالدارين وان كان غيبا وجه شهادة تستأنس به النفوس وتستدل به فأخرج سبحانه الى هذه الدار من آثار رحمته من الثمار والفواكه والطيبات والملابس الفاخرة والصور الجميلة وسائر ملاذ النفوس ومشتهاها ما هو نفحة من نفحات الدار التي جعل ذلك كله فيها على وجه الكمال فاذا رآه المؤمنون ذكرهم بما هنالك من الخير والسرور والعيش الرخي كما قيل

فاذا رآك المسلمون تيقنوا * حور الجنان لدى النعيم الخالد

فشمروا اليه وقالوا اللهم لا عيش الا عيش الآخرة وأحدثت لهم رؤيته عزمات وهمما وجدا وتشميرا لان النعيم يذكر بالنعيم والشئ يذكر بجنسه فاذا رأى أحدهم ما يعجبه

الذى ضمنه لمن اتقاه ولو كان الثلاث يقع ثلاثا على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهو دينه الذى بعثه الله تعالى به لم يضف عمر رضى الله عنه امضاءه الى نفسه ولا كان يصح هذا القول منه وهو بمنزلة أن يقول فى الزنا وقتل النفس وقذف المحصنات لو حرمناه عليهم لحرمه عليهم و بمنزلة أن يقول فى وجوب الظهر والعصر ووجوب صوم رمضان والغسل من الجنابة فلو فرضناه عليهم ففرضه عليهم فدعوى هذه التأويلات المستكرهة التى كلما نظر فيها طالب العلم ازداد بصيرة فى المسألة وقوى جانبها عنده فانه يرى ان الحديث لا يرد بمثل هذه الاشياء وقد سلك أبو عبد الرحمن النسائى فى سننه مسلكا آخر وقوى جانبها عنده فقال باب طلاق الثلاث المتفرقة قبل الدخول بالزوجة ثم ساقه فقال حدثنا أبو داود حدثنا ابو عاصم عن ابن جريج عن ابن طاوس عن أبيه ان ابا الصهباء جاء الى ابن عباس رضى الله عنه فقال يا ابن عباس ألم تعلم أن الثلاث كانت على عهد رسول الله عليه السلام وابى بكر وصدرا من خلافة عمر ترد الى الواحدة قال نعم وانت اذا طابقت بين هذه الترجمة و بين لفظ الحديث وجدتها لا يدل عليها ولا يشعر بها بوجه من الوجوه بل الترجمة لون والحديث لون آخر وكأنه لما أشكل عليه وجه الحديث حمله على ما اذا قال لغير المدخول بها أنت طالق أنت طالق أنت طالق طلقت واحدة ومعلوم ان هذا الحكم يزل ولا يزال كذلك ولا يتقيد ذلك بزمان رسول الله عليه السلام وأبى بكر وصدرا من خلافة عمر رضى الله عنه لم يتغير فى خلافة عمر رضى الله عنه و يمضى الثلاث بعد ذلك على المطلق فالحديث لا يندفع بمثل هذا البتة وسلك آخرون فى الحديث مسلكا آخر وقالوا هذا حديث يخالف أصول الشرع فلا يلتفت اليه قالوا لان الله سبحانه ملك الزوج ثلاث تطليقات وجعل ايقاعها اليه فان قلنا بقول الشافعى ومن وافقه أن جمع الثلاث جائز فقد فعل ما أبيح له وان قلنا جمع الثلاث حرام وهو طلاق بدعى فالشارع انما ملكه تفريق الثلاث فسحة له فاذا جمعها فقد جمع ما فسح له فى تفريقه فلزمه حكمه كما لو فرقه قالوا وهذا كما أنه يملك تفريق المطلقات و جمعهن فكذلك يملك تفريق الطلاق و جمعه فهذا قياس الاصول فلا نبطله بخبر الواحد قال الآخرون هذا القياس لا يصلح أن يثبت به هذا الحكم لو لم يعارض بنص فضلا عن أن يقدم على النص وهو قياس مخالف لاصول الشرع وسنة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وعمل الصحابة فى عهد الصديق فاما مخالفته لاصول الشرع فان الله سبحانه انما ملك المطلق بعد الدخول طلاقا يملك فيه الرجعة و يكون مخيرا فيه بين الامساك بالمعروف و بين التسريح باحسان ما لم يكن بعوض أو يستوفى فيه العدد والقرآن قد بين ذلك كله فبين أن الطلاق قبل الدخول تبين به المرأة ولا عدة عليها و بين أن المعتدة تملك نفسها ولا رجعة لزوجها عليها و بين أن المطلقة الطلقة المسبوقة بطلقتين قبلها تبين منه وتحرم عليه فلا تحل له حتى تنكح زوجا غيره و بين أن ما عدا ذلك

ورتبوا لاجلها البنية قال موعد الجنة واحلها هى عشية او ضحاها فوجود تلك المشتهيات والملذوذات فى هذه الدار رحمة من الله يسوق بها عباده المؤمنين الى تلك الدار التى هى أكمل منها وزاد لهم من هذه الدار اليها فهى زاد وعبرة ودليل وأثر من آثار رحمته التى أودعها تلك الدار فالمؤمن يتزود بها الى ما أمامه و يثير ساكن عزماته الى تلك فنفسه ذواقة تواقة اذا ذاقت شيأ منها تاقت الى ما هو أكمل منه حتى تتوق الى النعيم المقيم فى جوار الرب الكريم وأخرج سبحانه الى هذه الدار أيضا من آثار غضبه ونقمته من العقوبات والآلام والمحن والمكروهات من الاعيان والصفات ما يستدل بجنسه على ما فى دار الشقاء من ذلك مع ان ذلك من آثار النفسين الشتاء والصيف اللذين أذن الله سبحانه بحكمته لجهنم أن تتنفس بهما فاقتضى ذانك النفسان آثارا ظهرت فى هذه الدار كانت دليلا وعبرة عليها وقد أشار تعالى الى هذا المعنى ونبه عليه بقوله فى نار الدنيا نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين تذكرة يذكر بها الآخرة ومنفعة للنازلين بالقواء وهم المسافرون يقال أقوى الرجل اذا نزل بالقى والقوى وهى الارض الخالية وخص المقوين بالذكر وان كانت منفعتها عامة للمسافرين والمقيمين تنبيها لعباده والله أعلم بمراده من كلامه على انهم كلهم مسافرون وانهم فى هذه الدار على جناح سفر ليسوا هم مقيمين ولا مستوطنين وانهم عابرو سبيل وأبناء سفر والمقصود انه سبحانه أشهد فى هذه ما أعد لاوليائه وأعدائه فى دار القرار وأخرج الى هذه الدار من آثار رحمته وعقوبته ما هو عبرة ودلالة على ما هناك من خير وشر وجعل هذه العقوبات والآلام والمحن والبلايا سياطا يسوق بها عباده المؤمنين فاذا رأوها حذروا كل الحذر واستدلوا بما رأوه منها وشاهدوه على ما فى تلك الدار من المكروهات من العقوبات وكان وجودها فى هذه الدار واشهادهم اياها وامتحانهم باليسير منها رحمة منه بهم واحسانا اليهم وتذكرة وتنبيها ولما كانت هذه الدار ممزوجا خيرها بشرها وأذاها براحتها ونعيمها بعذابها اقتضت حكمة أحكم الحاكمين ان خلص خيرها من شرها وخصه بدار

من الطلاق فللزوج فيه الرجعة وهو مخير بين الامساك بالمعروف والتسريح باحسان وهذا كتاب الله عز وجل قد تضمن هذه الانواع الاربعة وأحكامها وجعل سبحانه وتعالى أحكامها من لوازمها التي لا تنفك عنها فلا يجوز أن تتغير أحكامها البتة فكما لا يجوز في الطلاق قبل الدخول أن يثبت فيه الرجعة ويجب به العدة ولا في الطلقة المسبوقة بطلقتين أن يثبت فيها الرجعة وان تباح بغير زوج واصابة ولا في طلاق الفدية أن يثبت فيه الرجعة فكذلك لا يجوز في النوع الآخر من الطلاق أن يتغير فيقع على وجه لا يثبت فيه الرجعة فانه مخالف لحكم الله تعالى الذي حكم به فيه وهذا صفة لازمة له فلا يكون على خلافها البتة ومن تأمل القرآن وجده لا يحتمل غير ذلك فما شرع الله سبحانه الطلاق الا وشرع فيه الرجعة الا الطلاق قبل الدخول وطلاق الخلع والطلقة الثالثة فبيننا وبينكم كتاب الله فان كان فيه شئ غير هذا فاوجدونا اياه ومما يوضح ذلك أن جمهور الفقهاء من الطوائف الثلاثة احتجوا على الشافعي في تجويزه جمع الثلاث بالقرآن وقالوا ما شرع الله سبحانه جمع الطلاق الثلاث وما شرع الطلاق بعد الدخول بغير عوض الا شرع فيه الرجعة ما لم يستوف واحتجوا عليه بقوله تعالى الطلاق مرتان قالوا ولا يعقل في لغة من لغات الامم المرتان الا مرة بعد مرة فعارضهم بعض أصحابه بقوله تعالى ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين فأجابهم الآخرون بان المرتين والمرات يراد بها الافعال تارة والاعيان تارة وأكثر ما يستعمل في الافعال وأما الاعيان فكقوله في الحديث انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مرتين أى شقين وفلقتين ولما خفي هذا على من لم يحط به علما زعم ان الانشقاق وقع مرة بعد مرة في زمانين وهذا مما يعلم أهل الحديث ومن له خبرة باحوال الرسول عليه السلام وسيرته انه غلط وانه لم يقع الانشقاق الا مرة واحدة ولكن هذا وأمثاله فهموا من قوله مرتين المرة الزمانية اذا عرف هذا فقوله نؤتها أجرها مرتين وقوله بل يؤتون أجورهم مرتين أى ضعفين فيؤتون أجرهم مضاعفا وهذا يمكن اجتماع المرتين منه في زمان واحد وأما المرتان من الفعل فمحال اجتماعهما في زمن واحد فانهما مثلان واجتماع المثلين محال وهو نظير اجتماع حرفين في آن واحد من متكلم واحد وهذا مستحيل قطعا فيستحيل أن يكون مرتا الطلاق في ايقاع واحد ولهذا جعل مالك وجمهور العلماء رمي الجمار بسبع حصيات جملة انه غير مؤد للواجب عليه وانما يحتسب له رمي حصاة واحدة فهي رمية لا سبع رميات واتفقوا كلهم على أنه لو قال في اللعان أشهد بالله أربع شهادات انى صادق كانت شهادة واحدة وفي الحديث الصحيح من قال في يوم سبحان الله وبحمده مائة مرة حطت عنه خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر فلو قال سبحان الله وبحمده مائة مرة هذا اللفظ لم يستحق الثواب

أخرى هي دار الحسرات المحضة ودار السرور المحضة فكتب على هذه الدار حكم الامتزاج والاختلاط وخلط فيها بين الفريقين وابتلى بعضهم ببعض وجعل بعضهم لبعض فتنة حكمة بالغة بهرت العقول وعزة قاهرة فقام بهذا الاختلاط سوق العبودية كما يحبه ويرضاه ولم يكن تقوم عبوديته التي يحبها ويرضاها الا على هذا الوجه بل العبد الواحد جمع فيه بين أسباب الخير والشر وسلط بعضه على بعض ليستخرج منه ما يحبه من العبودية التي لا تحصل الا بذلك فلما حصلت الحكمة المطلوبة من هذا الامتزاج والاختلاط أعقبه بالتمييز والتخليص فميز بينهما بدارين ومحلين وجعل لكل دار ما يناسبها واسكن فيهما من يناسبها وخلق المؤمنين المتقين المخلصين لرحمته وأعداءه الكافرين لنقمته والمخلطين للامرين فهؤلاء أهل الرحمة وهؤلاء أهل النقمة وهؤلاء أهل النقمة والرحمة وقسم آخر لا يستحقون ثوابا ولا عقابا ورتب على كل قسم من هذه الاقسام الخمسة حكمها الا لائق به وأظهر فيه حكمته الباهرة ليعلم العباد كمال قدرته وحكمته وانه يخلق ما يشاء ويختار من خلقه من يصلح للاختيار وانه يضع ثوابه موضعه وعقابه موضعه ويجمع بينهما في المحل المقتضى لذلك ولا يظلم أحدا ولا يبخسه شيأ من حقه ولا يعاقبه بغير جنايته هذا مع ما في ضمن هذا الابتلاء والامتحان من الحكم الراجعة الى العبيد أنفسهم من استخراج صبرهم وشكرهم وتوكلهم وجهادهم واستخراج كمالاتهم الكامنة في نفوسهم من القوة الى الفعل ودفع الاسباب بعضها ببعض وكسر كل شئ بمقابلته ومصادمته بضده لتظهر عليه آثار القهر وسمات الضعف والعجز ويتيقن العبد ان القهار لا يكون الا واحدا وانه يستحيل أن يكون له شريك بل القهر والوحدة متلازمان فالملك والقدرة والقوة والعزة كلها لله الواحد القهار ومن سواه مربوب مقهور له ضد ومناف ومشارك فخلق الرياح وسلط بعضها على بعض تصادمها وتكسر سورتها وتذهب بها وخلق الماء وسلط عليه الرياح تصرفه وتكسره وخلق النار وسلط عليها الماء يكسرها ويطفئها وخلق الحديد وسلط عليه النار تذيبه وتكسر قوته وخلق الحجارة وسلط عليها الحديد يكسرها

المذكور وكانت تسبيحة واحدة وكذلك قوله يسبحون الله دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين ويحمدون ثلاثا وثلاثين ويكبرون أربعا وثلاثين لوقال سبحان الله ثلاثا وثلاثين لم يكن مسبحا هذا العدد حتى يأتي به واحدة بعد واحدة ونظائر ذلك فى الكتاب والسنة أكثر من أن يذكر قالوا فقوله تعالى الطلاق مرتان اما أن يكون خبرا فى معنى الامر أى اذا طلقتم فطلقوا مرتين واما أن يكون ذلك عن حكمه الشرعى الدينى أى الطلاق الذى شرعته لكم وشرعت فيه الرجعة مرتان وعلى التقديرين اما أن يكون ذلك مرة بعد مرة فلا يكون موقعا للطلاق الذى شرع الا اذا طلق مرة بعد مرة ولا يكون موقعا للمشروع بقوله أنت طالق ثلاثا ولا مرتين قالوا ويوضح ذلك انه حصر الطلاق المشروع فى مرتين فلو شرع جمع الطلاق فى دفعة واحدة لم يكن الحصر صحيحا ولم يكن الطلاق كله مرتان بل كان منه مرتان ومنه مرة واحدة تجمعه وهذا خلاف ظاهر القرآن وانه لا طلاق للمدخول بها الا مرتان وينفى الثلاثة المحرمة بعد ذلك قالوا ويدل عليه ان الطلاق اسم محلى باللام وليست للعهد بل للعموم فالمراد بالآية كل الطلاق مرتان والمرة الثالثة التى تحرمها عليه وتسقط رجعته وهذا صريح فى ان الطلاق المشروع هو المتفرق لان المرات لا تكون الا متفرقة كما تقدم قالوا ويدل عليه قوله تعالى واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أوسرحوهن بمعروف واذا من أدوات العموم كأنه قال أى طلاق منكم فى أى وقت فحكمه هذا الا انه أخرج من هذا العموم الطلقة المسبوقة باثنتين فبقى ماعداها داخلا فى لفظ الآية نصا أوظاهرا قالوا ويدل عليه أيضا قوله سبحانه واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن فهذا عام فى كل طلاق غير الثالثة المسبوقة باثنتين والقرآن يقتضى ان ترجع الى زوجها اذا أرادت فى كل طلاق ماعدا الثالثة قالوا ويدل عليه أيضا قوله تعالى يا أيها النبى اذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن الا ان يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا فاذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أوفارقوهن بمعروف ووجه الاستدلال بالآية من وجوه أحدها انه سبحانه وتعالى انما شرع ان تطلق لعدتها أى لاستقبال عدتها فيطلق طلاقا يتعقبه شروعها فى العدة ولهذا أمر عليه السلام عبد الله بن عمر رضى الله عنه لما طلق امرأته أن يراجعها وتلا هذه الآية تفسيرا للمراد بها وان المراد بها الطلاق فى قبل العدة وكذلك كان يقرؤها عبد الله بن عمر ولهذا قال كل من قال بتحريم جمع الثلاث أنه لا يجوز له أن يردف الطلقة بأخرى فى ذلك الطهر لانه غير مطلق للعدة فان العدة قد استقبلت من حين الطلقة الاولى فلا تكون الثانية للعدة ثم قال الامام أحمد فى ظاهر مذهبه ومن وافقه اذا أراد أن يطلقها ثانية طلقها بعد عقد

ويفتنها وخلق آدم وذريته وسلط عليهم ابليس وذريته وخلق ابليس وذريته وسلط عليهم الملائكة يشردونهم كل مشرد ويطردونهم كل مطرد وخلق الحر والبرد والشتاء والصيف وسلط كلا منهما على الآخر يذهبه ويقهره وخلق الليل والنهار وقهر كلا منهما بالآخر وكذلك الحيوان على اختلاف ضروبه من حيوان البر والبحر لكل منهم مضاد ومغالب فاستبان للعقول والفطر ان القاهر الغالب لذلك كله واحد وانه من تمام ملكه ايجاد العالم على هذا الوجه وربط بعضه على بعض واحواج بعضه الى بعض وقهر بعضه ببعض وابتلاء بعضه ببعض وامتزاج خيره بشره وجعل شره بخيره الفداء ولهذا يدفع الى كل مؤمن يوم القيامة كافر فيقال له هذا فداؤك من النار وهكذا المؤمن فى الدنيا يسلط عليه من الابتلاء والامتحان والمصائب مايكون فداه من عذاب الله وقد تكون تلك الاسباب فداء له من شرور أكثر منها فى هذا العالم أيضا فليعط اللبيب هذا الموضع حقه من التدبر يتبين له حكمة اللطيف الخبير

(فصل) وقد تقرر ان الله سبحانه كامل الصفات له الاسماء الحسنى ولا يكون عن الكامل فى ذاته وصفاته الا الفعل المحكم وهو سبحانه خلق عباده على الفطرة وكل مولود فانما يولد على الفطرة ويعدلون بهم عنها ولو تركوهم لما اختاروا عليها غيرها ولكن أخرجوهم عن سنن الحنيفية وأفسدوا فطرهم وقلوبهم وهكذا بالاضداد والاغيار يخرج بعض المخلوقات عن سنن الاتقان والحكمة ولولا تلك الاضداد والاغيار لكانت فى مرتبتها كالمولود فى فطرته ولذلك امثلة المثال الاول ان الماء خلقه الله طاهرا مطهرا فلو ترك على حالته التى خلق عليها ولم يخالطه مايزيل طهارته لم يكن الا طاهرا ولكن بمخالطة أضداده من الانجاس والاقذار تغيرت أوصافه وخرج عن الخلقة التى خلق عليها فكانت تلك النجاسات والقاذورات بمعنى أبوى الطفل وكافليه الذين يهودونه وينصرونه ويمجسونه ويشركونه كما ان الماء اذا فسد بمخالطته الانجاس والقاذورات لم يصلح للطهارة فكذلك القلوب اذا فسدت فطرها بالاغيار لم تصلح لحظيرة القدس المثال الثانى الشراب

أو رجعة لان العدة تنقطع بذلك فاذا طلقها بعد ذلك أخرى طلقها للعدة وقال في رواية أخرى عنه له أن يطلقها الثانية في الطهر الثاني و يطلقها الثالثة في الطهر الثالث وهو قول أبي حنيفة فيكون مطلقا للعدة أيضا لا يبتني على ما مضى والصحيح هو الاول وانه ليس له أن يردف الطلاق قبل الرجعة والعقد لان الطلاق الثاني لم يكن لاستقبال العدة بل هو طلاق لغير العدة فلا يكون مأذونا فيه فان العدة انما تحسب من الطلقة الاولى لانها طلاق للعدة بخلاف الثانية والثالثة ومن جعله مشروعا قال هو الطلاق لتمام العدة والطلاق لتمامها كالطلاق لاستقبالها وكلاهما طلاق للعدة وأصحاب القول يقولون المراد بالطلاق للعدة الطلاق لاستقبالها كما في القراءة الاخرى التي تفسر القراءة المشهورة فطلقوهن في قبل عدتهن قالوا فاذا لم يشرع ارداف الطلاق للطلاق قبل الرجعة أو العقد فان لا يشرع جمعه معه أولى وأحرى فارداف الطلاق أسهل من جمعه ولهذا شرع الارداف في الاطهار من لا يجوز الجمع في الطهر الواحد وقد احتج عبد الله بن عباس على تحريم جمع الثلاث بهذه الآية قال مجاهد كنت عند ابن عباس فجاء رجل فقال انه طلق امرأته ثلاثا فسكت حتى ظننت انه رادها ثم قال ينطلق أحدكم فيركب الاحموقة ثم يقول يا ابن عباس وان الله عز وجل قال ومن يتق الله يجعل له مخرجا فما أجد لك مخرجا عصيت ربك وبانت منك امرأتك وان الله عز وجل قال يا أيها النبي اذا طلقتم النساء فطلقوهن في قبل عدتهن وهذا حديث صحيح ففهم ابن عباس من الآية ان جمع الثلاث محرم وهذا فهم من دعا له النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يفقهه الله في الدين و يعلمه التأويل وهو من أحسن الفهوم كما تقرر الوجه الثاني من الاستدلال بالآية قوله تعالى لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن وهذا انما هو في الطلاق الرجعي فأما البائن فلا سكنى لها ولا نفقة لسنة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الصحيحة التي لا يطعن في صحتها الصريحة التي لا شبهة في دلالتها فدل على أن هذا حكم كل طلاق شرعه الله تعالى مالم تسبقه طلقتان قبله ولهذا قال الجمهور انه لا يشرع له ولا يملك ابانتها بطلقة واحدة بدون العوض وأبو حنيفة قال يملك ذلك لان الرجعة حقه وقد أسقطها والجمهور يقولون ثبوت الرجعة وان كان حقا له فلها عليه حقوق الزوجية فلا يملك اسقاطها الا بمخالعة أو باستيفاء العدد كما دل عليه القرآن الوجه الثالث انه قال وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه فاذا طلقها ثلاثا جملة واحدة فقد تعدى حدود الله فيكون ظالما الوجه الرابع أنه سبحانه قال لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا وقد فهم أعلم الامة بالقرآن وهم الصحابة أن الامر ههنا هو الرجعة قالوا وأي أمر يحدث بعد الثلاث الوجه الخامس قوله تعالى فاذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف فهذا حكم كل طلاق شرعه الا أن يسبق بطلقتين قبله وقد احتج ابن عباس على تحريم جمع الثلاث بقوله تعالى يا أيها النبي اذا

المعتصر من العنب فانه طيب يصلح للدواء ولاصلاح الغذاء والمنافع التي يصلح لها فلو خلي على حاله لم يكن الا طاهرا طيبا ولكن أفسد بتهيئته للسكر واتخاذه مسكرا فخرج بذلك عن خلقته التي خلق عليها من الطهارة والطيب فصار أخبث شئ وأنجسه فلو انقلب خلا أو زال تغير الماء كان بمنزلة رجوع الكافر الى فطرته الاولى فان الحكم اذا ثبت لعلة زال بزوالها والله أعلم

المثال الثالث الاغذية الطيبة النافعة اذا خالطت باطن الحيوان واستقرت هنالك خرجت عن حالتها التي خلقت عليها واكتسبت بهذه المخالطة والمجاورة خبثا وفسادا لم يكن فيها بسلوكها في غير طرقها التي بها كمالها ولما أنزل الله الماء طاهرا نافعا فازوج الارض وسالت به أوديتها أوجد جل جلاله بينهما بسبب هذه المخالطة والممازجة أنواع الثمار والفواكه والزروع والنخيل والزيتون وسائر الاغذية والاقوات وأوجد مع ذلك المر والشوك والحنظل وغير ذلك واللقاح واحد ولكن الام مختلفة قال تعالى وفي الارض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الاكل ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون ثم انه سبحانه يصرف ما أخرجه من هذا الماء ويقلبه ويحيل بعضه الى بعض وينقل بعضه بالمخالطة والمجاورة عن طبيعته الى طبيعة أخرى وهذا كما خلق كل دابة من ماء ثم خالف بين صورها وقواها ومنافعها وأوصافها وما يصلح لها وأمشى بعضا على بطنه وبعضا على رجلين وبعضا على أربع حكمة بالغة وقدرة باهرة وكذلك سبحانه يقلب الليل والنهار ويقلب ما يوجد فيهما ويقلب أحوال العالم كما يشاء ويسلك بذلك مسالك الحكمة البالغة التي بها يتم مراده و يظهر ملكه ألا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين وهذا القرآن المجيد عمدته ومقصوده الاخبار عن صفات الرب سبحانه وأسمائه وأفعاله وأنواع حمده والثناء عليه والانباء عن عظمته وعزته وحكمته وأنواع صنعه والتقدم الى عباده بأمره ونهيه على ألسنة رسله وتصديقهم بما أقامه من الشواهد والدلالات على صدقهم وبراهين ذلك ودلائله وتبيين

طلقتم النساء فطلقوهن فى قبل عدتهن كما تقدم وهـذا حق فان الآية اذا دلت على منع ارداف الطلاق فى طهر أو اطهار قبل رجعة أو عقد كما تقدم لانه يكون مطلقا فى غير قبل العدة فلان تدل على تحريم الجمع أولى وأحرى قالوا والله سبحانه شرع الطلاق على أيسر الوجوه وأرفقها بالزوج والزوجة لئلا يتسارع العبد فى وقوعه ومفارقة حبيبه وقد وقت للعدة أجلا لاستدراك ألفاظه بالرجعة فلم يبح له أن يطلق المرأة فى حال حيضها لانه وقت نفرته عنها وعدم قدرته على استمتاعه بها ولا عقيب جماعها لانه قد قضى غرضه منها وربما فترت رغبته فيها ويزهد فى امساكها القضاء وطره فاذا طلقها فى هاتين الحالتين ربما يندم بعد هذا مع ما فى الطلاق من تطويل العدة وعقيب الجماع من بعلها لانه ربما قد اشتمل رحمها على ولد منه فلا يريد فراقها فاما اذا حاضت ثم طهرت فنفسه تشوق اليها لطول عهده بجماعه فلا يقدم على طلاقها فى هذه الحالة الا لحاجته اليه فلم يبح له الشارع أن يطلقها الا فى هذه الحال أو فى حال استبانة حملها لان اقدامه أيضا على طلاقها فى هذه الحال دليل على حاجته الى الطلاق وقد أكد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم هذا بمنعه لعبد الله ابن عمر أن يطلق فى الطهر الذى يلى الحيضة التى طلق فيها بل أمره أن يراجعها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ان بدا له أن يطلقها فليطلقها وفى ذلك عدة حكم منها ان الطهر المتصل بالحيضة هو وهى حكم القرء الواحد فاذا طلقها فى ذلك الطهر فكأنه طلقها فى الحيضة لاتصاله بها وكونه معها كالشئ الواحد الثانية انه لو أذن له فى طلاقها فى ذلك الطهر فيصير كأنه راجع لاجل الطلاق وهـذا ضد مقصود الرجعة فان الله تعالى انما شرعها للامساك ولمنفعة النكاح وعود الفراش فلا يكون لاجل الطلاق فيكون كأنه راجع ليطلق وانما شرعت الرجعة ليمسك وبهـذا بعينه أبطلنا نكاح المحلل فان الله سبحانه وتعالى شرع النكاح للامساك والمعاشرة والمحلل تزوج ليطلق فهو مضاد لله تعالى فى شرعه ودينه الثالثة انه اذا صبر عليها حتى تحيض ثم تطهر ثم تحيض ثم تطهر زال ما فى نفسه من الغضب الحامل له على الطلاق وربما صلحت الحال بينهما وأقلعت عما يدعوه الى الطلاق فيكون تطويل هذه المدة رحمة به وبها واذا كان الشارع ملتفتا الى مثل هذه الرحمة والشفقة على الزوج وشرع الطلاق على هـذا الوجه الذى هو أبعد شئ عن الندم فكيف يليق بشرعه أن يشرع ابانتها وتحريمها عليه بكلمة واحدة يجمع فيها ما شرعه متفرقا بحيث لا يكون له سبيل اليها وكيف يجتمع فى حكمة الشارع وحكمه هذا وهذا فهذه الوجوه ونحوها مما بين بها الجمهور ان جمع الثلاث غير مشروع هى بعينها تعين عدم الوقوع وانه انما يقع المشروع وحده وهى الواحدة قالوا فتبين لنا بأصول الشرع وقواعده اننا أسعد منكم وان قياس الاصول وقواعد الشرع من جانبنا وقد تأيدت بالسنة الصحيحة التى ذكرناها وقولكم ان المطلق ثلاثا قد جمع ما فسح له فى تفرقه

مراده من ذلك كله وكان من تمام ذلك الاخبار عن الكافرين والمكذبين وذكر ما أجابوا به رسلهم وقابلوا رسالات ربهم ووصف كفرهم وعنادهم وكيف كذبوا على الله وكذبوا رسله وردوا أمره ومصالحه فكان فى اجتلاب ذلك من العلوم والمعارف والبيان ووضوح شواهد الحق وقيام أدلته وتنوعها وكان موقع هذا من خلقه موقع تسبيحه تعالى وتنزيهه من الثناء عليه وان أسماءه الحسنى وصفاته العليا هى موضع الحمد ومن تمام حمده تسبيحه وتنزيهه عما وصفه به أعداؤه والجاهلون به بما لا يليق به وكان فى تنوع تنزيهه عن ذلك من العلوم والمعارف وتقرير صفات الكمال وتكميل أنواع الحمد ما فى بيان محاسن الشئ وكماله عند معرفة ما يضاده ويخالفه ولهذا كان تسبيحه تعالى من تمام حمده وحمده من تمام تسبيحه ولهذا كان التسبيح والتحميد قرينتين وكان ما نسبه اليه اعداؤه والمعطلون لصفات كماله من علوه على خلقه وانزاله كلامه الذى تكلم به على رسله وغير ذلك مما نزه عنه نفسه وسبح به نفسه وكان فى ذلك ظهور حمده بخلقه وتنوع أسبابه وكثرة شواهده وسعة طرق الثناء عليه به وتقرير عظمته ومعرفته فى قلوب عباده فلولا معرفة الاسباب التى يسبح وينزه ويتعالى عنها وخلق من يضيفها اليه ويصفه بها لما قامت حقيقة التسبيح ولا ظهر لقلوب أهل الايمان عن أى شئ يسبحونه وعماذا ينزهونه فلما رأوا فى خلقه من قد نسبه الى ما لا يليق به وجحد من كماله ما هو أولى به سبحوه حينئذ تسبيح مجل له معظم له منزه له عن أمر قد نسبه اليه أعداؤه والمعطلون لصفاته ونظير هـذا اشتمال كلمة الاسلام وهى شهادة أن لا اله الا الله على النفى والاثبات فكان فى الاتيان بالنفى فى صدر هذه الكلمة من تقرير الاثبات وتحقيق معنى الالهية وتجريد التوحيد الذى يقصد بنفى الالهية عن كل ما ادعيت فيه سوى الاله الحق وهو تبارك وتعالى فتجرد بهـذا التوحيد من العقد واللسان بتصور اثبات الالهية لغير الله كما قاله أعداؤه المشركون ونفيه وابطاله من القلب واللسان من تمام التوحيد وكماله وتقريره وظهور اعلامه ووضوح شواهده وصدق براهينه ونظير ذلك أيضا ان تكذيب أعداء الرسل

وردهم ما جاؤهم به كان من الاسباب الموجبة ظهور براهين صدق الرسل ودفع ما احتج به أعداؤهم عليهم من الشبه الداحضة ودحض حججهم الباطلة وتقرير طرق الرسالة وايضاح أدلتها فان الباطل كلما ظهر فساده وبطلانه أسفر وجه الحق واستنارت معالمه ووضحت سبله وتقررت براهينه فكسر الباطل ودحض حججه واقام الدليل على بطلانه من أدلة الحق

وبراهينه فتأمل كيف اقتضى الحق وجود الباطل وكيف تم ظهور الحق بوجود الباطل وكيف كان كفر أعداء الرسل بهم وتكذيبهم لهم ودفعهم ما جاؤا به وهو من تمام صدق الرسل وثبوت رسالات الله وقيام حجته على العباد ولنضرب لذلك مثالا يتبين به وهو ملك له عبد قد توحد في العالم بالشجاعة والبسالة والناس بين مصدق ومكذب فمن قائل هو كذلك ومن قائل هو بخلاف ما يظن به فانه لم يقابل الشجعان ولا واجه الاقران ولو بارز الاقران وقابل الشجعان لظهر أمره وانكشف حاله فسمع به شجعان العالم وأبطالهم فقصدوه من كل أوب وأتوه من كل قطر فأراد الملك أن يظهر لرعيته ما هو عليه من الشجاعة فمكن تلك الشجعان من منازلته ومقاومته وقال دونكم واياه وشأنكم به فهل تسليط الملك لاولئك على عبده ومملوكه الا لاعلاء شانه واظهار شجاعته في العالم وتخويف اعدائه به وقضاء الملك اوطاره به وكما يترتب على هذا اظهار شجاعة عبده وقوته وحصول مقصوده بذلك فكذلك يترتب عليه ظهور كذب من ادعى مقاومته وظهور عجزهم وفضيحتهم وخزيهم وانهم ليسوا ممن يصلح لمهمات الملك وحوائجه فاذا عدل بهم عن مهماته وولايته وعدل بهاعنهم كان ذلك مقتضى حكمة الملك وحسن تصرفه في ملكه وانه لو استعملهم في تلك المهمات لتشوش امر المملكة وحصل الخلل والفساد والله اعلم بالشاكرين والمقصود ان خلق الاسباب المضادة للحق واظهارها في مقابلة الحق من ابين دلالاته وشواهده فكان في خلقها من الحكمة مالو فاتت تلك الحكمة وهي أحب الى الله من تفويتها بتقدير تفويت هذه الاسباب والله أعلم

(فصل) وللناس في دخول الشر في القضاء الالهي طرق فنذكرها ونذكر أصولهم التي تفرعت عليها هذه الطرق قبل ذلك فنقول الناس

هي الى أن تكون حجة عليكم أقرب فانه انما أذن له فيه وملكه مفرقا لا مجموعا فاذا جمع ما أمر بتفريقه فقد تعدى حدود الله وخالف ما شرعه ولهذا قال من قال من السلف رجل أخطأ السنة فيرد اليها فهذا أحسن من كلامكم وأبين وأقرب الى الشرع والمصلحة ثم هذا ينتقض عليكم بسائر ما ملكه الله تعالى العبد واذن فيه مفرقا فأراد أن يجمعه كرمي الجمار الذي انما شرع له مفرقا واللعان الذي شرع كذلك وايمان القسامة التي شرعت كذلك ونظير قياسكم هذا أن له أن يؤخر الصلاة كلها ويصليها في وقت واحد لانه جمع ما أمر بتفريقه على أن هذا قد فهمه كثير من العوام يؤخرون صلاة اليوم الى الليل ويصلون الجميع في وقت واحد ويحتجون بمثل هذه الحجة بعينها ولو سكتم عن نصرة المسألة بمثل ذلك لكان أقوى لها

(فصل) فاستروح بعضهم الى مسلك آخر غير هذه المسالك لما تبين له فسادها فقال هذا حديث واحد والاحاديث الكثيرة عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم دالة على خلافه وذكروا أحاديث منها ما في الصحيحين عن فاطمة بنت قيس أن أبا حفص بن المغيرة طلقها البتة وهو غائب فأرسل اليها وكيله بشعير فسخطته فجاءت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فذكرت له ذلك فقال ليس لك عليه نفقة وقد جاء تفسير هذه البتة في الحديث الآخر الصحيح انه طلقها ثلاثا فلم يجعل لها النبي صلى الله تعالى عليه وسلم سكنى ولا نفقة فقد أجاز عليه الثلاث وأسقط بذلك نفقتها وسكناها وفي المسند ان هذه الثلاث كانت جميعا فروى من حديث الشعبي ان فاطمة خاصمت أخا زوجها الى النبي عليه السلام لما أخرجها من الدار ومنعها النفقة فقال مالك ولابنة قيس قال يا رسول الله ان أخي طلقها ثلاثا جميعا وذكر الحديث ومنها ما في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن رجلا طلق امرأته ثلاثا فتزوجت فطلقت فسئل عليه السلام أتحل للاول قال لا حتى يذوق عسيلتها كما ذاق الاول ووجه الدليل انه لم يستفصل هل طلقها ثلاثا مجموعة أو متفرقة ولو اختلف الحال لوجب الاستفصال ومنها ما اعتمد عليه الشافعي في قصة الملاعنة أن عويمرا العجلاني أتى رسول الله عليه السلام فقال يا رسول الله أرأيت رجلا وجد مع امرأته رجلا فيقتله فتقتلونه أو كيف يفعل فقال عليه السلام قد أنزل فيك وفي صاحبتك فاذهب فأت بها قال سهل فتلاعنا وأنا مع الناس عند رسول الله فلما فرغا من تلاعنهما قال عويمر كذبت عليها يا رسول الله ان أمسكتها فطلقها ثلاثا قبل أن يأمره رسول الله عليه السلام قال الزهري وكانت تلك سنة المتلاعنين متفق على صحته قال الشافعي فقد أقره عليه السلام على الطلاق ثلاثا ولو كان حراما ما أقره عليه ومنها ما رواه النسائي عن محمود بن لبيد قال أخبر رسول الله عليه السلام عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعا فقام غضبان ثم قال أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم حتى قام رجل فقال يا رسول الله ألا أقتله ولم يقل انه

لم يقع عليه الا واحدة بل الظاهر انه أجازها عليه اذ لو كانت زوجته ولم يقع عليه الا واحدة لبين له ذلك لانه انما طلقها ثلاثا يعتقد لزومها فلو لم يلزمه لقال هي زوجتك بعد وتأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز ومنها ما رواه ابن ماجه عن ركانة أنه طلق امرأته البتة فاتى رسول الله عليه السلام قال ما أردت قال واحدة قال آلله ما أردت بها الا واحدة ورواه الترمذي وفيه فقال يا رسول الله اني طلقت امرأتي البتة فقال ما أردت بها قلت واحدة قال والله قلت والله قال فهو ما أردت قال أبو داود وهذا أصح من حديث ابن جريج ان ركانة طلق امرأته ثلاثا وقال ابن ماجه سمعت أبا الحسن علي بن محمد الطنافسي يقول ما أشرف هذا الحديث قال أبو عبد الله بن ماجه أبو عبيد تركه ناحية وأحمد جبن عنه ووجه الدلالة انه حلفه ما أراد بها الا واحدة وهذا يدل على أنه لو أراد بها أكثر من واحدة لالزمه ذلك ولو كانت واحدة مطلقا لم يفترق الحال بين أن يريد واحدة أو أكثر واذا كان هذا في الكناية فكيف في الطلاق الصريح اذا صرح فيها بالثلاث ومنها ما رواه الدارقطني من حديث عمار بن زيد حدثنا عبد العزيز بن صهيب عن أنس قال سمعت أنس بن مالك يقول سمعت معاذ بن جبل يقول سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول يا معاذ من طلق للبدعة واحدة أو اثنين أو ثلاثا ألزمناه بدعته ومنها ما رواه الدارقطني من حديث ابراهيم بن عبد الله بن عبادة بن الصامت عن أبيه عن جده قال طلق بعض آبائي امرأته ألفا فانطلق بنوه الى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقالوا يا رسول الله ان أبانا طلق امرأته ألفا فهل له من مخرج فقال ان أباكم لم يتق الله فيجعل له مخرجا بانت منه ثلاث على غير السنة وتسعمائة وسبعة وتسعون اثم في عنقه ومنها ما رواه الدارقطني أيضا من حديث زاذان عن علي رضي الله عنه سمع النبي صلى الله تعالى عليه وسلم رجلا طلق البتة فغضب وقال تتخذون آيات الله هزوا أو دين الله هزوا ولعبا من طلق البتة ألزمناه ثلاثا لا تحل له حتى تنكح زوجا غيره ومنها ما رواه الدارقطني من حديث الحسن البصري قال حدثنا عبد الله بن عمر أنه طلق امرأته وهي حائض ثم أراد أن يتبعها بتطليقتين أخريين عند القرأين فبلغ ذلك رسول الله عليه السلام فقال يا ابن عمر ما هكذا أمرك الله تعالى انك قد أخطأت السنة والسنة أن تستقبل الطهر فتطلق عند ذلك أو امسك فقلت يا رسول الله أرأيت لو طلقتها ثلاثا أكان يحل لي أن أراجعها قال لا كانت تبين منك ويكون معصية ومنها ما رواه أبو داود والنسائي عن حماد بن زيد قال قلت لايوب هل علمت أحدا قال في امرك بيدك انها ثلاث غير الحسن قال لا ثم قال اللهم غفرا الا ما حدثني قتادة عن كثير مولى سمرة عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال ثلاث فلقيت كثيرا فسألته فلم يعرفه فرجعت الى قتادة فأخبرته فقال نسي ورواه الترمذي وقال لا نعرفه الا من حديث سليمان بن حرب

عن

قالان أحدهما قول أهل الاسلام وأتباع المرسلين كلهم ان الله سبحانه فعال لما يريد يفعل باختياره وقدرته ومشيئته فما شاء كان ومالم يشأ لم يكن وهو الذي يعبر عنه متأخرو المتكلمين بكونه فاعلا بالاختيار والفريق الثاني قول من نفى ذلك وقال صدر العالم عنه صدورا ذاتيا كصدور النور عن الشمس والحرارة عن النار والتبريد عن الماء و يسمى المتكلمون هذا الايجاب الذاتي ومصدره موجبات الذات وهذا قول الفلاسفة المشائين وهو الذي يذكره ابن الخطيب وغيره عن الفلاسفة ولا يحكى عنهم غيره وانما هو قول المشائين وقربه متأخرهم وفاضلهم ابن سينا الى الاسلام بعض التقريب مع مباينته لما جاءت به الرسل ولما دل عليه صريح العقل والفطرة والفريقان متفقون على ان مصدر الكائنات باسرها خير محض من جميع الوجوه وكمال صرف ووجود الشر في العالم مشهود والخير لا يصدر عنه الا خير ولاجرم اختلفت طرقهم في كيفية دخول الشر في القضاء الالهي وتنوعت الى أربعة طرق الطريق الاولى طريق نفاة التعليل والحكمة والاسباب فانهم سدوا على أنفسهم هذا الباب وأثبتوا مشيئة محضة لاغاية لها ولاسبب ولاحكمة تفعل لاجلها ولا يتوقف فعل المختار بها على مصلحة ولاحكمة ولاغاية لها تفعل بل كل مقدور يحسن منه فعله ولاحقيقة عندهم للقبيح لولا المستحيل لذاته الذي لا يوصف بالقدرة عليه وهؤلاء نفوا مسمى الرحمة والحكمة وان أقروا بلفظ لاحقيقة له وكان شيخهم الجهم بن صفوان يقف بأصحابه على المجذمين وهم يتقلبون في بلائهم فيقول أرحم الراحمين يفعل مثل هذا يعني انه ليس في الحقيقة رحمة وانما هو محض مشيئة وصرف ارادة مجردة عن الحكمة والرحمة وهؤلاء قابلوا أصحاب الطريق الثاني وهم الذين أثبتوا له حكمة وغاية وقالوا لا يفعل شيئا الا لحكمة وغاية مطلوبة ولكن حجروا عليه سبحانه في ذلك وشرعوا له شريعة وضعوها بعقولهم وظنوا ان ما يحسن من خلقه يحسن منه وما يقبح منهم يقبح منه فعلوا ما أثبتوه له من الحكمة والرحمة من جنس ما هو للخلق ولهذا كانوا مشبهة الافعال كان من شبهه بخلقه في صفاته

عن حماد بن زيد وحسبك بسليمان بن حرب وحماد بن زيد ثقتين ثبتين ومنها مارواه البيهقي من حديث سويد بن غفلة عن الحسن انه طلق عائشة الخثعمية ثلاثا ثم قال لولا أني سمعت جدي أو حدثني أبي انه سمع جدي يقول أيما رجل طلق امرأته ثلاثا عند الاقراء أو ثلاثا مبهمة لم تحل له حتى تنكح زوجا غيره لراجعها ورواه من حديث أبي حميد حدثنا سلمة بن الفضل عن عمرو بن أبي قيس عن ابراهيم بن عبد الاعلى عن سويد وهذا مرفوع قالوا فهذه الاحاديث أكثر وأشهر وعامتها أصح من حديث أبي الصهباء وحديث ابن جريج عن عكرمة عن ابن عباس فيجب تقديمها عليه ولاسيما على قاعدة الامام أحمد فانه يقدم الاحاديث المتعددة على الحديث الفرد عند التعارض وان كان الحديث الفرد متأخرا كما قدم في احدى الروايتين أحاديث تحريم الاوعية على حديث بريرة لكونها كثيرة متعددة وحديث بريرة في اباحتها فرد وهو متأخر فانه قال كنت نهيتكم عن الانتباذ في الأوعية فاشربوا فيما بدا لكم غير أن لاتشربوا مسكرا مع انه حديث صحيح رواه مسلم ولا يعرف له علة وقال الآخرون هذه الاحاديث التي ذكرتموها ولم تدعوا بعدها شيأ هي بين أحاديث صحيحة لا مطعن فيها ولا حجة فيها وبين أحاديث صريحة الدلالة لكنها باطلة أو ضعيفة لا يصح شيء منها ونحن نذكر ما فيها ليتبين الصواب ويزول الاشكال أما حديث فاطمة بنت قيس فمن أصح الاحاديث مع ان أكثر المنازعين لها في هذه المسئلة قد خالفوه ولم يأخذوا به فأوجبوا للمبتوتة النفقة والسكنى ولم يلتفتوا الى هذا الحديث ولا عملوا به وهذا قول أبي حنيفة وأصحابه وأما الشافعي ومالك فأوجبوا لها السكنى والحديث قد صرح فيه بأنه لانفقة لها ولا سكنى فخالفوه ولم يعملوا به فان كان الحديث صحيحا فهو حجة عليكم وان لم يكن محفوظا بل هو غلط كما قال بعض المتقدمين فليس حجة علينا في جمع الثلاث فأما أن يكون حجة لكم على منازعكم وليس حجة لهم عليكم فبعيد من الانصاف والعدل هذا مع انا نتنزل عن هذا المقام ونقول الاحتجاج بهذا الحديث فيه نوع سهو من المحتج به ولو تأمل طرق الحديث وكيف وقعت القصة لم يحتج به فان الثلاث المذكورة فيه لم تكن مجموعة وانما كان قد طلقها تطليقتين قبل ذلك ثم طلقها آخر الثلاث هكذا جاء مصرحا به في الصحيح فروى مسلم في صحيحه عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة ان أبا عمرو بن حفص بن المغيرة خرج مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه الى اليمن فأرسل الى امرأته فاطمة بنت قيس بتطليقة كانت بقيت من طلاقها وأمر لها الحارث بن هشام وعياش بن أبي ربيعة بنفقة فقالا لها والله مالك نفقة الا أن تكوني حاملا فأتت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فذكرت له قولهما فقال لانفقة لك وساق الحديث بطوله فهذا المفسر يبين ذلك المجمل وهو قوله طلقها ثلاثا وقال الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن أبي سلمة عن فاطمة بنت قيس انها أخبرته انها

فهو مشبهة الصفات فاقتسموا التشبيه نصفين هؤلاء في أفعاله واخوانهم في صفاته وقالوا انه تعالى لو خص بعض عبيده عن بعض باعطائه توفيقا وقدرة وارادة ولم يعطها الآخر لكان ظالما للذي منعه وقالوا لو شاء من عباده أفعال المعاصي لكان يتنزه عنه كما في الشاهد ولو شاء منهم الكفر والفسوق والعصيان ثم عذبهم عليه لكان ظالما في الشاهد أيضا فان السيد اذا أراد من عبده شيأ ففعل العبد ما أراد سيده فانه اذا عذبه عده الناس ظالما له وجعلوا العدل في حقه من جنس العدل في حق عباده والظلم الذي تنزه عنه كالظلم الذي يتنزهون عنه وجعلوا ما يحسن منه من جنس ما يحسن منهم وما يقبح منه من جنس ما يقبح منهم وقالوا لو أراد الشر لكان شريرا كما في المشاهد فان مريد الشر شرير وقالوا لو ختم على قلوب أعدائه واسماعهم وحال بينهم وبين قلوبهم وأضلهم عن الايمان وجعل على أبصارهم غشاوة وجعل من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا ثم عذبهم لكان ظالما لهم لان أحدنا لو فعل ذلك بعبده ثم عذبه لكان ظالما له فهؤلاء المشبهة حقا في الافعال فعدلهم تشبيه وتوحيدهم تعطيل فجمعوا بين التشبيه والتعطيل وهؤلاء قسموا الشر الواقع في العالم الى قسمين أحدهما شرور هي أفعال العباد وما تولد منها فهذه لا تدخل عندهم في القضاء الالهي تنزيها للرب عن نسبتها اليه ولا تدخل عندهم تحت قدرته ولا مشيئته ولا تكوينه والثاني الشرور التي لا تتعلق بافعال العباد كالسموم والامراض وأنواع الآلام وكابليس وجنوده وغير ذلك من شرور المخلوقات كايلام الاطفال وذبح الحيوان فهذا النوع هو الذي كدر على القدرية أصولهم وشوش عليهم قواعدهم وقالوا ذلك كله حسن لما فيه من اللطف والمصلحة العاجلة والآجلة قالوا أما الآلام والامراض فمفعولة لغرض صحيح وهو ماضمن الرب سبحانه لمن أصابه بها من العوض الوافي قالوا وذلك يجري مجرى استئجار أجير في فعل شاق فانه بفرض الاستئجار أخرج الاستئجار عن كونه عبثا وبالاجرة عن كونه ظلما فكان حسنا قالوا فان قيل اذا كان الله قادرا على التفضل بالعوض وباضعافه بدون توسط الالم فأي حاجة الى

كانت عند أبي حفص بن المغيرة وان اباحفص بن المغيرة طلقها آخر ثلاث تطليقات وساق الحديث ذكره أبو داود ثم قال وكذلك رواية صالح بن كيسان وابن جريج وشعيب ابن أبي حمزة كلهم عن الزهري ثم ساق من طريق عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن عبيد الله قال أرسل مروان الى فاطمة فسألها فأخبرته أنها كانت عند أبي حفص وكان عليه السلام أمر علي بن أبي طالب رضي الله عنه على بعض اليمن فخرج معه زوجها فبعث اليها بتطليقة كانت بقيت لها وذكر الحديث بتمامه والواسطة بين مروان وبينها هو قبيصة بن ذؤيب كذلك ذكره أبو داود في طريق أخرى فهذا بيان حديث فاطمة قالوا ونحن أخذنا به جميعه ولم نخالف شيأ منه اذ كان صحيحا صريحا لامطعن فيه ولا معارض له فمن خالفه فهو محتاج الى الاعتذار وقد جاء هذا الحديث بخمسة ألفاظ طلقها ثلاثا وطلقها البتة وطلقها آخر ثلاث تطليقات وأرسل اليها بتطليقة كانت بقيت لها وطلقها ثلاثا جميعا هذه جملة ألفاظ الحديث وبالله التوفيق وأما اللفظ الخامس وهو قوله طلقها ثلاثا فهذا أولا من حديث مجالد عن الشعبي ولم يقل ذلك عن الشعبي غيره مع كثرة من روى هذه القصة عن الشعبي فتفرد مجالد على ضعفه من بينهم بقوله ثلاثا جميعا وعلى تقدير صحته فالمراد به انه اجتمع لها التطليقات الثلاث لا انها وقعت بكلمة واحدة فاذا طلقها آخر ثلاث صح ان يقال طلقها ثلاثا جميعا قال هذه اللفظة يراد بها تأكيد العدد وهو الاغلب عليها لا الاجتماع في الآن الواحد لقوله تعالى ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعا فالمراد حصول الايمان من الجميع لا ايمانهم في آن واحد سابقهم ولاحقهم

(فصل) وكذلك ماذكروه من حديث عائشة رضي الله عنها أن رجلا طلق امرأته ثلاثا فسئل النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أيحل للاول فقال لا الحديث هو حق يجب المصير اليه لكن ليس فيه انه طلقها ثلاثا بفم واحد فلا يدخلوا فيه ماليس فيه قولكم ولم يستفصل جوابه ان الحال قد كان عندهم معلوما وان الثلاث انما تكون ثلاثا واحدة بعد واحدة وهذا مقتضى اللغة والقرآن والشرع والعرف كما بينا فخرج الكلام على المفهوم المتعارف من لغة القوم

(فصل) وأما ما اعتمد عليه الشافعي من طلاق الملاعن ثلاثا بحضرة رسول الله عليه السلام ولم ينكره فلا دليل فيه لان الملاعنة يحرم عليه امساكها وقد حرمت تحريما مؤبدا فما زاد الطلاق الثلاث بهذا التحريم الذي هو مقصود اللعان الا تأكيدا وقوة هذا جواب شيخنا وقال ابن المنذر وقد ذكر الادلة على تحريم جمع الطلاق الثلاث وانه بدعة ثم قال وأما ما اعتل به من رأى ان مطلق الثلاث في مرة واحدة مطلق للسنة بحديث العجلاني فانما اوقع الطلاق عنده على اجنبية علم الزوج الذي طلق ذلك أو لم يعلم لان قائله يوقع الفرقة بالتعان الرجل قبل أن تلتعن المرأة فغير جائز ان يحتج بمثل هذه الحجة من يرى

توسطه وايضا فاذا حسن الايلام لاجل العوض فهل يحسن منا ان يولم احدا بغير اذنه لتعوض عليه فالجواب انه ...
لامن يعلم من حاله انه لو أطلعه على الاعواض التي تصل اليه لرضي بالالم ولرغب فيه لوفور الاعواض وعظمها وليس كذلك في الشاهد استئجار الاجير من غير اختياره قالوا وليس كذلك ايلام أحدنا لغيره لاجل التعويض فان من قطع يد غيره أو رجله ليعوضه بمهام يحسن ذلك منه لان العوض ... إليه وهو مقطوع اليد ... الرجل وليس من العقلاء من يختار ... الدنيا مع ذلك والله يوصل الاعواض في الآخرة الى الاحياء ... وهم أكمل شئ خلقه وأتمه أعضاء فلذلك افترق الشاهد والغائب في هذا قالوا فان فرضتموه في ضرب ... وجلد مع سلامة الاعضاء قبح لانه تعذيب فان فرض فيه مصلحة ورضي المضروب بذلك وعظمت الاعواض عنه فهو حسن في العقل لا محالة قالوا وسر الامران بالعوض يخرج الالم عن كونه ظلما لانه نفع موقوف على مضرة الالم وباعتبار كونه لطفا في الدين يخرج عن كونه عبثا قالوا وقد رأينا في الشاهد حسن الالم للنفع فانه يحسن في الشاهد ايلام أنفسنا واتعابها في طلب ... الارباح التي لا تصل اليها ... الا بعد من التعب والمشقة قالوا وهذا الوجه هو الذي حسن لاجله ايلام الاطفال والبهائم فانه ايلام للنفع فان أبدان الاطفال لا تستقيم الا على الاسباب الجالبة للآلام وكذلك نفوسهم انما تكمل بذلك وايلام الحيوان لنفع الآدمي به غير قبيح قالوا واما الالم المستحق للعقوبة فانه حسن في الشاهد ولكنه غير متحقق في الغائب بالنسبة الى الاطفال والبهائم لعدم تكليفها ولكن لابد في ايلامها من مصلحة ترجع اليها وهي ما يحصل لهم من العوض في الآخرة قالوا ويجب اعادتها للاستيفاء ذلك الحق الذي لها وهي العوض على الآلام التي حصلت لها قالوا وبقاؤها بعد الاعادة ... ان موقوف ... ونعيم الاطفال والمجانين دائم واختلفوا في البهائم فقال بعضهم يدوم عوضهم وقال آخرون بانقطاعه فانهم يصيرون ترابا قالوا فان لم يكن للبهائم عوض يجب لاجله أن تعاد لم تجب اعادتها عقلا وتحسن اعادتها ومايحسن قد يفعله الله وقد لا يفعله ... بياض بالاصل

ان الفرقة تقع بالتعان الزوج وحده انتهى وحينئذ فنقول اما أن تقع الفرقة بالتعان الزوج وحده كما يقوله الشافعي او بالتعانهما كما يقوله احمد او يقف على تفريق الحاكم فان وقعت بالتعانه او التعانهما فالطلاق الذى وقع منه لغو لم يفد شيأ البتة بل هو طلاق فى اجنبية وان وقفت الفرقة على تفريق الحاكم فهو يفرق بينهما تفريقا يحرمها عليه تحريما مؤبدا فالطلاق الثلاث أكد هذا التحريم الذى هو موجب اللعان ومقصود الشارع فكيف يلحق به طلاق غير ملاعنة وبينهما اعظم فرق

(فصل) وأما حديث محمود بن لبيد فى قصة المطلق ثلاثا فالاحتجاج به على الجواز من باب قلب الحقائق والاحتجاج بأعظم مايدل على التحريم لا الاباحة والاستدلال به على الوقوع من باب التكهن والحرص والزيادة فى الحديث ماليس فيه ولا يدل عليه بشئ من وجوه الدلالات البتة ولكن المقلد لايبالى بنصرة تقليده بما اتفق له وكيف يظن برسول الله عليه السلام انه اجاز عمل من استهزأ بكتاب الله وصححه واعتبره فى شرعه وحكمه ونفذه وقد جعله مستهزئا بكتاب الله تعالى وهذا صريح فى ان الله سبحانه وتعالى لم يشرع جمع الثلاث ولا جعله فى أحكامه

(فصل) وأما حديث ركانة انه طلق امرأته البتة وان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم استحلفه ما اراد بها الا واحدة فحديث لايصح قال أبو الفرج بن الجوزى فى كتاب العلل له قال أحمد حديث ركانة ليس بشئ وقال الخلال فى كتاب العلل عن الأثرم قلت لابى عبد الله حديث ركانة البتة فضعفه وقال شيخنا الائمة الكبار العارفون بعلل الحديث كالامام احمد والبخارى وابى عبيد وغيرهم ضعفوا حديث البتة وكذلك أبو محمد بن حزم وقالوا ان رواته قوم مجاهيل لاتعرف عدالتهم وضبطهم قال وقال الامام احمد حديث ركانة أنه طلق امرأته البتة لا يثبت وقال ايضا حديث ركانة ليس بشئ لان ابن اسحق يرويه عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس ان ركانة طلق امرأته ثلاثا وأهل المدينة يسمون من طلق امرأته ثلاثا ألبتة فان قيل فقد قال ابو داود حديث ألبتة اصح من حديث ابن جريج ان ركانة طلق امرأته ثلاثا لان اهل بيته اعلم يعنى وهم الذين رووا حديث البتة فقال شيخنا فى الجواب ابو داود انما رجح حديث البتة على حديث ابن جريج لانه روى حديث ابن جريج من طريق فيها مجهول فقال حدثنا أحمد بن صالح حدثنا عبد الرزاق عن ابن جريج أخبرنى بعض ولد أبى رافع عن عكرمة عن ابن عباس طلق عبد يزيد أبو ركانة واخوته أم ركانة ثلاثا الحديث ولم يرو الحديث الذى رواه أحمد فى مسنده عن ابراهيم بن سعد حدثنى أبى عن محمد بن اسحق حدثنا داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنه طلق ركانة بن يزيد امرأته ثلاثا فى مجلس واحد ولهذا رجح أبو داود حديث البتة على حديث ابن جريج ولم يتعرض لهذا الحديث ولا رواه

وهل تجوز الآلام للتعويض المجرد فيه قولان لهم مبنيان على أصل اختلفوا فيه وهو انه هل يحسن منه سبحانه التفضل بمثل العوض ابتداء فصار بعضهم الى امتناعه كما يمتنع التفضل بمثل الثواب ابتداء عندهم وهم مجمعون على امتناعه لئلا يستوى بين العامل وغيره وصار من ينتمى الى التحصيل منهم الى أن التفضيل بمقدار الاعواض ممكن غير ممتنع فمن قال بامتناع التفضل بمقدار العوض جوز وقوع الآلام للتعويض المجرد ومن جوز التفضل بامثال الاعواض لم يحسن عنده الآلام بمجرد التعويض بل قالوا انما يحسن لوجهين لابد من اقترانهما أحدهما التزام التعويض والثانى اعتبار غير المؤلم بتلك الآلام وكونها الطافا فى زجر غاو عن غوايته اذا شاهدها فى غيره وذهب عباد الصيمرى منهم الى أن الآلام تحسن لمجرد الاعتبار من غير تعويض لمن أصابته ورد عليه جماهير القدرية ذلك قالوا والآلام التى يفعلها سبحانه اما أن تكون مستحقة كعقوبات الدنيا وعذاب الآخرة واما للتعويض واما للمصلحة الراجحة قالوا وما يفعله فى الآخرة منها فكله للاستحقاق وما يفعله فى الدنيا فالعوض والمصلحة وقد يفعله عقوبة وأما ما شرعه من أسباب الالم فعقوبات محضة وأما مشايخ القوم فقالوا انما يحسن منه سبحانه الايلام لانه المنعم بالصحة والحياة ولانه فى حكم من أعار تلك المنفعة لمن لايملكها فله قطعها اذا شاء ولانه قادر على التعويض عالم بقدره وليس كذلك الواحد من الخلق قالوا فاذا استرجع عارية الصحة والحياة خلفها الالم ولابد واطالوا الكلام فى الآلام وأسبابها وما يحسن منها وما يقبح وعلى أى وجه يقع وحصروا أنفسهم غاية الحصر فاستطالت عليهم الجبرية بالاسئلة والمضايقات وألجؤهم الى مضايق تضايق عنها ان تولجها الابر وأضحكوا العقلاء منهم بابداء تناقضهم وألزموهم الزامات لابد من التزامها أو ترك المذهب وسأل أبو الحسن الاشعرى أبا على الجبائى عن ثلاثة اخوة لاب وأم مات أحدهم صغيرا و بلغ الآخر فاختار الاسلام وبلغ الآخر فاختار الكفر فاجتمعوا عند رب العالمين فرفع درجة البالغ المسلم فقال اخوه الصغير يارب ارفع درجتى حتى أبلغ منزلة أخى فقال انك لاتستحق ان أخاك بلغ فعمل أعمالا

فى سننه ولا ريب انه أصح من الحديثين وحديث ابن جريج شاهد له وعاضد فاذا انضم حديث أبى الصهباء الى حديث ابن اسحق الى حديث ابن جريج مع اختلاف مخارجها وتعدد طرقها أفادت العلم فانها أقوى من حديث البتة بلا شك ولا يمكن من شم روائح الحديث ولو على بعد أن يرتاب فى ذلك فكيف يقدم الحديث الضعيف الذى ضعفه الائمة ورواته مجاهيل على هذه الاحاديث

(فصل) وأما حديث معاذ بن جبل فلقد وهت مسألة يحتج فيها بمثل هذا الحديث الباطل والدارقطنى انما رواه للمعرفة وهو أجل من أن يحتج به وفى اسناده اسماعيل ابن أمية الدارع يرويه عن حماد قال الدارقطنى بعد روايته اسماعيل بن أمية متروك الحديث

(فصل) وأما حديث عبادة بن الصامت الذى رواه الدارقطنى فقال عقيب اخراجه رواته مجهولون وضعفاء الا شيخنا وابن عبد الباقى

(فصل) وأما حديث زاذان عن على رضى الله عنه فيرويه اسماعيل بن أمية القرشى قال الدارقطنى اسماعيل بن أمية هذا كوفى ضعيف الحديث قلت وفى اسناده مجاهيل وضعفاء

(فصل) وأما حديث الحسن بن عمر فهو مثل هذه الاحاديث الضعاف قال الدارقطنى حدثنا محمد بن عبد الحافظ حدثنا محمد بن ساذ الجوهرى حدثنا يحيى بن منصور حدثنا شعيب بن رزيق ان عطاء الخراسانى حدثهم عن الحسن حدثنا عبد الله بن عمر فذكره وشعيب وثقه الدارقطنى وقال أبو الفتح الازدى فيه لين وقال البيهقى وقد روى هذا الحديث وهذه الزيادات انفرد بها شعيب وقد تكلموا فيه انتهى ولا ريب ان الثقات الاثبات الائمة رووا حديث ابن عمر هذا ولم يأت أحد منهم بما أتى به شعيب البتة ولهذا لم يرو حديثه هذا أحد من أصحاب الصحيح ولا السنن وأما حديث كثير مولى سمرة عن أبى سلمة عن أبى هريرة فقد انكره كثير لما سئل عنه ومثل هذا بعيد ان ينسى وقد أعل البيهقى هذا الحديث وقال كثير لم يثبت من معرفته ما يوجب الاحتجاج به قال وقول العامة بخلاف روايته وقد ضعفه عبد الحق فى أحكامه وابن حزم فى كتابه وأما حديث سويد بن غفلة عن الحسن فمن رواية محمد بن حميد الرازى قال أبو زرعة الرازى كذاب وقال صالح بن حرزة ما رأيت أحذق بالكذب منه ومن رواية سلمة بن الفضل قال أبو حاتم منكر الحديث وان كان فى الامر شئ فقد ضعفه ابن راهويه وغيره

(فصل) فلما رأى آخرون ضعف هذا المسلك استروحوا الى مسلك آخر وظنوا أنهم قد استراحوا به من كلفة التأويل ومشقته فقالوا الاجماع قد انعقد على لزوم الثلاث وهو أكثر من خبر الواحد كما قال الشافعى رحمه الله الاجماع أكثر من الخبر المنفرد وذلك ان

استحق بها تلك الدرجة فقال يارب فهلا أحييتنى حتى أبلغ فاعمل له فقال كانت تلك المصلحة تقتضى اخترامك قبل البلوغ لانى علمت انك لو بلغت لاخترت الكفر فكانت المصلحة فى قبضك صغيرا قال فصاح الثالث بين اطباق النار وقال يارب لم تمتنى صغيرا فما جواب هذا أيها الشيخ فلم يرد اليه جوابا قالوا واذا علم سبحانه من بعض العبيد انه لا يختار الا الاسلام وانه لا يكون الا كافرا مفسدا فى الارض فأى مصلحة لهذا العبد فى ايجاده قالوا وأى مصلحة لابليس وذريته الكفار فى ايجادهم فان قلتم عرضهم للثواب قيل لكم كيف يعرضهم لامر قد يعلم انهم لا يفعلونه ولا يقع منهم البتة ومن هنا انكر غلاتهم العلم القديم وكفرهم السلف على ذلك ومن أقر به منهم فاقراره به مبطل لمذهبه وأصله فى وجوب مراعاة الصلاح والاصلح وهذا معنى قول السلف ناظروا القدرية بالعلم فان جحدوه كفروا وان أقروا به خصموا قالوا وأما حديث العوض على الآلام فالرب سبحانه قادر على ايصال تلك المنافع بدون توسط الآلام قالوا وهذا بخلاف المستأجر فانه له منفعة وحاجة فى توسط تعب الاجير واستيفاء منفعته فاما من تعالى عن الانتفاع بخلقه ولا يحتاج الى أحد منهم البتة فلا يعقل فى حقه ذلك قالوا وأما وقوع الآلام على وجه العقوبات فذلك انما يحسن فى الشاهد لحصول التشفى من الجناة واطفاء نار الغيظ والغضب بالانتقام منهم وذلك لحاجة المعاقب الى العقاب وانتفاعه به وقياس الغائب على الشاهد فى ذلك ممتنع قالوا وأما الايلام للاعتبار بان يعتبر الغير بالالم الواقع بغيره فيكون ذلك أدعى له الى الاذعان والانقياد فلا ريب ان الصبى اذا شاهد المعلم يضرب غيره على لعبه وتفريطه كان ذلك مصلحة واعتبارا له ولعله ان ينتفع بضرب ذلك الغير أكثر من انتفاع المضروب أو حيث لا ينتفع المضروب ولكن انما يحسن ذلك اذا كان المضروب مستحقا للضرب فاين استحقاق الاطفال والبهائم قالوا وكذلك تمكينه تعالى عباده ان يؤلم بعضهم بعضا ويضر بعضهم بعضا مع قدرته على منع المؤلم المضر أى مصلحة لمن مكن من ذلك وأقدر عليه وهل كانت مصلحته الا تعجيزه وان يحال بينه وبين القدرة على الاذى وصون

الخبر

الخبر يجوز الخطأ والوهم على راويه بخلاف الاجماع فانه معصوم قالوا ونحن نسوق عن الصحابة والتابعين ما يبين ذلك فثبت فى صحيح مسلم أن عمر رضى الله عنه أمضى عليهم الثلاث ووافقه الصحابة قال سعيد بن منصور حدثنا سفيان عن شقيق سمع أنسا يقول قال عمر فى الرجل يطلق ثلاثا قبل أن يدخل بها قال هى ثلاث لا تحل له حتى تنكح زوجا غيره وكان اذا أتى به أوجعه وروى البيهقى من حديث ابن أبى ليلى عن على رضى الله عنه فيمن طلق ثلاثا قبل الدخول قال لا تحل له حتى تنكح زوجا غيره وروى أبو نعيم عن الاعمش عن حبيب بن أبى ثابت عن بعض أصحابه جاء رجل الى على رضى الله عنه قال طلقت امرأتى ألفا فقال ثلاث تحرمها عليك واقسم سائرها بين نسائك وقال علقمة بن قيس أتى رجل ابن مسعود رضى الله عنه فقال ان رجلا طلق امرأته البارحة مائة قال قلتها مرة واحدة قال قلتها مرة واحدة قال نعم قال تريد ان تبين منك امرأتك قال نعم قال هو كما قلت وأتاه رجل فقال انه طلق امرأته البارحة عدد النجوم فقال له مثل ذلك ثم قال بين الله سبحانه أمر الطلاق فمن طلق كما أمره الله تعالى فقد بين له ومن لبس جعلنا به لبسه والله لا تلبسون على أنفسكم ونتحمله عنكم هو كما تقولون وروى مالك فى الموطأ عن ابن شهاب عن محمد بن عبد الرحمن بن ثوبان عن محمد بن اياس بن بكير قال طلق رجل امرأته ثلاثا قبل أن يدخل بها ثم بدا له أن ينكحها فجاء يستفتى فذهبت معه أسال له فسأل أبا هريرة وابن عباس عن ذلك فقالا لا نرى أن تنكحها حتى تنكح زوجا غيرك قال انما كان طلاقى اياها واحدة فقال ابن عباس انك قد أرسلت من يدك ما كان لك من فضل وفى الموطأ أيضا فى هذه القصة ان ابن البكير سأل عنها ابن الزبير فقال ان هذا أمر ما لنا فيه قول اذهب الى ابن عباس وأبى هريرة فانى تركتهما عند عائشة فاسألهما ثم ائتنا فاخبرنا فذهب فسألهما فقال ابن عباس لابى هريرة افته يا أبا هريرة قد جاءتك معضلة فقال أبو هريرة الواحد تبينها والثلاث تحرمها حتى تنكح زوجا غيره وقال ابن عباس مثل ذلك فهذه عائشة لم تنكر عليهما ولا ابن الزبير وفى الموطأ أيضا عن النعمان بن أبى عياش عن عطاء بن يسار قال جاء رجل يستفتى عبد الله بن عمرو عن رجل طلق امرأته ثلاثا فقال عطاء فقلت انما هى قال لا قالت البكر واحدة فقال لى عبد الله انما أنت قاص لواحدة تبينها والثلاث تحرمها حتى تنكح زوجا غيره وروى عبيد الله عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنه اذا طلق امرأته ثلاثا قبل أن يدخل بها لم تحل له حتى تنكح زوجا غيره وروى البيهقى من حديث معاذ حدثنا شعبة عن طارق بن عبد الرحمن سمعت قيس ابن أبى عاصم قال سأل رجل المغيرة وأنا شاهد عن رجل طلق امرأته مائة فقال ثلاثة تحرم وسبع وتسعون فضل وروى البيهقى عن سويد بن غفلة قال كانت عائشة الخثعمية عند الحسن فلما قتل على رضى الله عنه قالت لتهنك الخلافة فقال بقتل على تظهرين

العباد قالوا فهذه الشريعة التى وضعتموها لرب العباد وأوجبتم عليه ما أوجبتم وحرمتم عليه ما حرمتم وحجرتم عليه فى تصرفه فى ملكه بغير ما أصلتم وفرعتم بعقولكم وآرائكم تشبيها له وتمثيلا بخلقه فيما يحسن منهم ويقبح مع انها شريعة باطلة ما أنزل الله بها من سلطان فانكم لم تطردوها بل أنتم متناقضون فيها غاية التناقض خارجون فيها عما يوجبه كل عقل صحيح وفطرة سليمة فلا التشبيه والتمثيل طردتم ولا بالتعويض قلتم ولا على حقيقة الحكمة والحمد وقفتم بل أثبتم إله نوع حكمة لا تقوم به ولا ترجع اليه بل هى قائمة بالخلق فقط وقد حجرتم بها فى تمام ملكه كما أثبت له اخوانكم من الجبرية قدرة مجردة عن حكمة وحمد وغاية يفعل لاجلها بل جعلوا حمده وحكمته اقتران أفعاله بما اقترن به من المصالح عادة ووقوعها مطابقة لمشيئته وعلمه فقط فقدحوا بذلك فى تمام حمده وقام حزب الله وحزب رسوله وأنصار الحق بلا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير حق القيام ورعوا هذه الكلمة حق رعايتها علما ومعرفة وبصيرة ولم يلقوا الحرب بين حمده وملكه بل أثبتوا له الملك التام الذى لا يخرج عنه شئ من الموجودات أعيانها وأفعالها والحمد التام الذى وسع كل معلوم وشمل كل مقدور وقالوا انه فى كل ما خلقه وشرعه حكمة بالغة ونعمة سابغة لاجلها خلق وأمر ويستحق أن يثنى عليه ويحمد لاجلها كما يثنى عليه ويحمد لاسمائه الحسنى ولصفاته العليا فهو المحمود على ذلك كله أتم حمد وأكمله لما اشتملت عليه صفاته من الكمال وأسماؤه من الحسن وأفعاله من الحكم والغايات المقتضية لحمده المطابقة لحكمته الموافقة لمحابه فانه سبحانه كامل الذات كامل الاسماء والصفات لا يصدر عنه الا كل فعل كريم مطابق للحكمة موجب للحمد يترتب عليه من محابه ما فعل لاجله وهذا أمر ذهب عن طائفتى الجبرية والقدرية وحال بينهم وبينه أصول فاسدة أصلوها وقواعد باطلة أسسوها من تعطيل بعض صفات كماله كما عطل الفريقان حقيقة محبته عند الجبرية مشيئته وارادته ومحبة العباد له ارادتهم لما يخلقه من النعيم فى دار الثواب فالمحبة عندهم انما تعلقت بمخلوقاته لا بذاته وحقيقة محبته

الشماتة اذهبي فانت طالق يعني ثلاثا فتلفعت بثيابها حتى قضت عدتها فبعث لها ببقية بقيت لها من صداقها وعشرة آلاف صدقة فقالت لما جاءها الرسول متاع قليل من حبيب مفارق فلما بلغه قولها بكى وقال لولا اني سمعت جدي أو حدثني أبي أنه سمع جدي يقول أيما رجل طلق امرأته ثلاثا عند الاقراء أو ثلاثة مبهمة لم تحل له حتى تنكح زوجا غيره لراجعتها وقال الامام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن عطاء بن السائب عن علي رضي الله عنه أنه قال في الحرام والبتة والبائن والخلية والبرية ثلاثا ثلاثا قال شعبة فلقيت عطاء فقلت من حدثك عن هذا قال أبو البختري قال أحمد وأنا أهابها لا أجيب فيها لانه يروى عن عامة الناس وسعيد بن جبير وعطاء بن أبي رباح وعمرو بن دينار ومالك بن الحارث ومحمد بن اياس بن البكير ومعاوية بن أبي عياش وغيرهم انه ألزم بالثلاث من أوقعها جملة قال الامام أحمد وقد سأله الاثرم بأي شئ ترد حديث ابن عباس كان الطلاق على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأبي بكر وعمر طلاق الثلاث واحدة بأي شئ تدفعه قال برواية الناس عن ابن عباس من وجوه خلافه ثم ذكر عن عدة عن ابن عباس انها ثلاث والى هذا نذهب وذكر البيهقي أن رجلا أتى عمران بن حصين وهو في المسجد فقال رجل طلق امرأته ثلاثا في مجلس فقال اثم بربه وحرمت عليه امرأته فانطلق الرجل فذكر ذلك لابي موسى يريد بذلك عيبه فقال ألا ترى ان عمران قال كذا وكذا فقال أبو موسى أكثر الله فينا مثل أبي نجيد قالوا فهذا عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وعمران بن حصين والمغيرة بن شعبة والحسن بن علي رضوان الله تعالى عليهم أجمعين وأما التابعون فاكثر من أن يذكروا والاجماع يثبت بدون هذا ولهذا حكاه غير واحد منهم أبو بكر بن العربي وأبو بكر الرازي وهو ظاهر كلام الامام أحمد فانه قال في رواية الاثرم وذكر قول من قال اذا خالف السنة يرد الى السنة أنه ليس بشئ وقال هذا مذهب الرافضة وظاهر هذا ان القول بالوقوع اجماع أهل السنة وقال الآخرون قد عرفتم ما في دعوى الاجماع الذي لم يعلم له مخالف انه راجع الى عدم العلم لا الى العلم بانتفاء المخالف وعدم العلم ليس بعلم حتى يحتج به ويقدم على النصوص الثابتة هذا اذا لم يعلم مخالف فكيف اذا علم المخالف وحينئذ فتكون المسألة مسألة نزاع يجب ردها الى الله تعالى ورسوله ومن أبى ذلك فهو اما جاهل مقلد واما متعصب صاحب هوى عاص لله تعالى ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم متعرض للحوق الوعيد به فان الله تعالى يقول فان تنازعتم في شئ فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر فاذا ثبت ان هذه المسألة مسألة نزاع وجب قطعا ردها الى كتاب الله وسنة رسوله وهذه المسألة مسألة نزاع بلا نزاع بين أهل العلم الذين هم أهله والنزاع فيها من عهد الصحابة الى وقتنا هذا وبيان هذا من وجوه أحدها ما رواه أبو داود

وغيره

وكرامته عقلاء القدرية أمره ونهيه وبحثتة العباد له محبتهم لثوابه المنفصل وأصل الفريقان انه لا يقوم بذاته حكمة ولا غاية يفعل لاجلها ثم اختلفوا فقالت الجبرية لا يفعل لغاية ولا لحكمة أصلا وتكايست القدرية بعض التكايس فقالت يفعل لغاية وحكمة لا ترجع اليه ولا تقوم به ولا يعود اليه منها وصف وأصل (١٧٤) الفريقان أيضا انه لا يقوم بذاته فعل البتة بل فعله عين مفعوله فعطلوا أفعاله القائمة به وجعلوها نفس المخلوقات المشاهدة التي لا تقوم به فلم يقم به عندهم فعل البتة كما عطل غلاة الجهمية صفاته فلم يثبتوا له صفة تقوم به وان تناقضوا وكما عطلت السينائية اتباع ابن سينا ذاته فلم يثبتوا له ذاتا زائدة على وجود مجرد لا يقارن ماهية ولا حقيقة واصلت الجبرية أنه تعالى لا ينزه عن فعل مقدور يكون قبيحا بالنسبة اليه بل كل مقدور ممكن فهو جائز عليه وان علم عدم فعله فبالسمع والا فالعقل يقضي بجوازه عليه فلا ينزه عن ممكن مقدور الا ما دل عليه بالسمع فيكون تنزيهه عنه لا لقبحه في نفسه بل لان وقوعه يتضمن الخلف في خبره وخبر رسوله ووقوع الامر على خلاف علمه ومشيئته فهذا حقيقة التنزيه عند القوم واصلت القدرية ان ما يحسن من عباده يحسن منه وما يقبح منهم يقبح منه مع تناقضهم في ذلك غاية التناقض فاقتضت هذه الاصول الفاسدة والقواعد الباطلة فروعا ولوازم كثيرة منها مخالف لصريح العقل ولسليم الفطرة كما هو مخالف لما أخبرت به الرسل عن الله فجعل أرباب هذه القواعد والاصول قواعدهم وأصولهم محكمة وما جاء به الرسول متشابها ثم أصلوا أصلا في رد هذا المتشابه الى المحكم وقالوا الواجب فيما خالف هذه القواطع العقلية بزعمهم من الظواهر الشرعية أحد أمرين اما يخرجها على ما يعلم العقلاء ان المتكلم لم يرده بكلامه من المجازات البعيدة والالغاز المعقدة ووحشي اللغات والمعاني المهجورة التي لا يعرف أحد من العرب عبر عنها بهذه العبارة ولا يحتملها لغة القوم البتة وانما هي محامل انشؤها هم ثم قالوا نحمل اللفظ عليها فانشؤا محامل من تلقاء أنفسهم وحكموا على الله ورسوله بارادتها بكلامه فانشؤا منكرا وقالوا زورا

فاذا اتت علمهم الجهال وتعليهم النصوص بجمهرتهم شواهدا لحقيقة من [illegible] وعدم [illegible] سواها وتجيء [illegible] دة وتنوع الالفاظ الدالة على الحقيقة واختلافها بقرائن من السياق والتاكيد وغير ذلك يقطع كل سامع بان المراد حقيقتها وما دلت عليه قالوا الواجب ردها وان لا يشتغل بها وان احسنوا العبارة والظن قالوا الواجب تفويضها وان نكل علمها الى الله من غير

وغيره من حديث حماد بن زيد عن أيوب عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه اذا قال أنت طالق ثلاثا بفم واحد فهي واحدة وهذا الاسناد على شرط البخاري وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن أيوب قال دخل الحكم بن عيينة على الزهري بمكة وأنا معهم فسألوه عن البكر تطلق ثلاثا فقال سئل عن ذلك ابن عباس وأبو هريرة وعبد الله بن عمر فكلهم قالوا لا تحل له حتى تنكح زوجا غيره قال فخرج الحكم وأنا معه فاتى طاوسا وهو في المسجد فأكب عليه فسأله عن قول ابن عباس فيها وأخبره بقول الزهري قال فرأيت طاوسا رفع يديه تعجبا من ذلك وقال والله ما كان ابن عباس يجعلها الا واحدة اخبرنا ابن جريج قال اخبرني حسن بن مسلم عن ابن شهاب ان ابن عباس قال اذا طلق الرجل امرأته ثلاثا ولم يجمع كن ثلاثا قال فاخبرت طاوسا فقال اشهد ما كان ابن عباس يراهن الا واحدة فقوله اذا طلق ثلاثا ولم يجمع كن ثلاثا اي اذا كن متفرقات فدل على انه اذا جمعهن كانت واحدة وهذا هو الذي حلف عليه طاوس ان ابن عباس كان يجعله واحدة ونحن لا نشك ان ابن عباس صح عنه خلاف ذلك وانها ثلاث وهما روايتان ثابتتان عن ابن عباس بلا شك الوجه الثاني ان هذا مذهب طاوس قال عبد الرزاق أخبرنا ابن جريج عن ابن طاوس عن أبيه انه كان لا يرى طلاقا ما خالف وجه الطلاق ووجه العدة وانه كان يقول يطلقها واحدة ثم يدعها حتى تنقضي عدتها وقال ابو بكر بن ابي شيبة حدثنا اسمعيل بن علية عن ليث عن طاوس وعطاء انهما قالا اذا طلق الرجل امرأته ثلاثا قبل ان يدخل بها فهي واحدة الوجه الثالث انه قول عطاء بن أبي رباح قال ابن أبي شيبة حدثنا محمد بن بشر حدثنا اسمعيل عن قتادة عن طاوس وعطاء وجابر بن زيد انهم قالوا اذا طلقها ثلاثا قبل أن يدخل بها فهي واحدة الوجه الرابع انه قول جابر بن زيد كما تقدم الوجه الخامس ان هذا مذهب محمد بن اسحق عن داود بن الحصين حكاه عنه الامام أحمد في رواية الأثرم ولفظه حدثنا سعيد بن ابراهيم عن ابيه عن ابن اسحق عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس ان ركانة طلق امرأته ثلاثا فجعلها عليه السلام واحدة قال ابو عبد الله وكان هذا مذهب ابن اسحق يقول خالف السنة ويرد الى السنة الوجه السادس انه مذهب اسحق بن راهويه في البكر قال محمد بن نصر المروزي في كتاب اختلاف العلماء له وكان اسحق يقول طلاق الثلاث للبكر واحدة وتأول حديث طاوس عن ابن عباس كان الطلاق الثلاث على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأبي بكر وعمر يجعل واحدة على هذا قال فان قال لها ولم يدخل بها أنت طالق أنت طالق أنت طالق فان سفيان وأصحاب الرأي والشافعي وأحمد واباعبيد قالوا بانت منه بالاولى وليست الثنتان بشيء لان غير المدخول بها تبين بواحدة ولا عدة عليها وقال مالك وربيعة واهل المدينة والاوزاعي وابن ابي ليلى اذا قال لها ثلاث مرات أنت طالق نسقا

أن يحصل لنا بها هدى أو علم أو معرفة بالله وأسمائه وصفاته أو ننتفع بها في باب واحد من أبواب الايمان بالله وما وصف به وما ينزه عنه بل تجري ألفاظها على ألسنتنا ولا [illegible] حقيقتها لمخالفتها القواطع العقلية فسموا أصولهم الفاسدة وشبههم الباطلة التي هي كبيت العنكبوت وكما قال فيها القائل

شعر

شبه تهافت كالزجاج تخالها * حقا وكل كاسر مكسور

قواطع عقلية مع اختلافهم فيها وتناقضهم فيها ومناقضتها لصريح المعقول وصريح المنقول فسموا كلام الله ورسوله ظواهر سمعية ازالة لحرمته من القلوب ومنعا للتعلق به والتمسك بحقيقته في باب الايمان والمعرفة بالله وأسمائه وصفاته فعبروا عن كلامهم بانه قواطع عقلية فيظن الجاهل بحقيقته انه اذا خالفه فقد خالف صريح المعقول وخرج عن حد العقلاء وخالف القاطع وعبروا عن كلام الله ورسوله بانه ظواهر فلا جناح على من صرفه عن ظاهره وكذب بحقيقته واعتقد بطلان الحقيقة بل هذا عندهم هو الواجب وأشهد الله عباده الذين أوتوا العلم والايمان ان الامر بعكس ما قالوه وان كلامه وكلام رسوله هو الشفاء والعصمة والنور والهادي والعلم المطابق لمعلومه وانه هو المشتمل على القواطع العقلية السمعية والبراهين اليقينية وان كلام هؤلاء المتهوكين الحيارى المتضمن بخلاف ما أخبر به عن نفسه وأخبر به عنه رسوله هو الشبهات الفاسدة والخيالات الباطلة وانه كالسراب الذي يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيأ ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب وهؤلاء هم أهل العلم حقا الذين شهد الله لهم به فقال ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل اليك من ربك هو الحق ويهدي الى

متتابعة حرمت عليه حتى تنكح زوجاً غيره فان هو سكت بين التطليقتين بانت بالاولى ولم تلحقه الثانية فصار في وقوع الطلاق بغير المدخول بها ثلاثة مذاهب للصحابة والتابعين ومن بعدهم احدها انها واحدة سواء قالها بلفظ واحد أو بثلاثة ألفاظ والثاني انها واحدة سواء اوقع الثلاث بلفظ واحد او بثلاثة الفاظ والثالث انه ان اوقعها بلفظ واحد فهي ثلاث وان اوقعها بثلاثة الفاظ فهي واحدة الوجه السابع ان هذا مذهب عمرو ابن دينار في الطلاق قبل الدخول قال ابن المنذر في كتابه الاوسط وكان سعيد بن جبير وطاوس وأبو الشعثاء وعطاء وعمرو بن دينار يقولون من طلق البكر ثلاثاً فهي واحدة الوجه الثامن انه مذهب سعيد بن جبير كما حكاه ابن المنذر وغيره عنه وحكاه الثعلبي عن سعيد بن المسيب وهو غلط عليه انما هو مذهب سعيد بن جبير الوجه التاسع انه مذهب الحسن البصري الذي استقر عليه قال ابن المنذر واختلف في هذا الباب عن الحسن وروى عنه كما رويناه عن أصحاب النبي عليه السلام وذكر قتادة وحميد ويونس عنه انه رجع عن قوله بعد ذلك فقال واحدة بائنة وهذا الذي ذكره ابن المنذر رواه عبد الرزاق في المصنف فقال أخبرنا معمر عن قتادة قال سألت الحسن عن الرجل يطلق البكر ثلاثاً فقال الحسن وما بعد الثلاث فقلت صدقت وما بعد الثلاث فأفتى الحسن بذلك زمناً ثم رجع فقال واحدة تبينها ويخطبها ٧ مقاله جناية الوجه العاشر انه مذهب عطاء ابن يسار قال عبد الرزاق أخبرنا بذلك يحيى بن سعيد عن بكير عن معمر بن أبي عياش قال سأل رجل عطاء بن يسار عن الرجل يطلق البكر ثلاثاً فقال انما طلاق البكر واحدة فقال له عبد الله بن عمرو بن العاص أنت قاص الواحدة تبينها والثلاث تحرمها حتى تنكح زوجاً غيره فذكر عطاء مذهبه وعبد الله بن عمرو مذهبه الوجه الحادي عشر انه مذهب جلاس بن عمرو حكاه بشر بن الوليد عن أبي يوسف عنه الوجه الثاني عشر أنه مذهب مقاتل الرازي حكاه عنه المازري في كتابه المعلم بفوائد مسلم قال الخطيب حدث عن عبد الله بن المبارك وعباد بن العوام ووكيع بن الجراح وأبي عاصم النبيل روى عنه الامام أحمد والبخاري في صحيحه وكان ثقة الوجه الثالث عشر انه احدى الروايتين عن مالك حكاها عنه جماعة من المالكية منهم التلمساني صاحب شرح الجلاب وعزاها الى ابن أبي زيد انه حكاها رواية عن مالك وحكاها غيره قولاً في مذهب مالك وجعله شاذاً الوجه الرابع عشر ان ابن مغيث المالكي حكاها في كتاب الوثائق وهو مشهور عند المالكية عن بضعة عشر فقيهاً من فقهاء طليطلة المفتيين على مذهب مالك هكذا قال واحتج لهم بان قوله أنت طالق ثلاثاً كذب لانه لم يطلق ثلاثاً ولم يطلق الا واحدة كما لو قال حلفت ثلاثاً كانت يميناً واحدة ثم ذكر حججهم من الحديث الوجه الخامس عشر ان أبا الحسن علي بن عبد الله بن ابراهيم اللخمي المتيطي صاحب كتاب الوثائق الكبير الذي لم يصنف في الوثائق

[illegible] من تواه من الصم البكم الذين قال الله فيهم وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير وقال تعالى أفمن يعلم انما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى انما يتذكر أولوا الالباب وكان ما شهدوه من ذلك بالعقل والفطرة لا بمجرد الخبر بل جاء اخبار الرب واخبار رسوله مطابقاً لما في فطرهم السليمة وعقولهم المستقيمة فتظافر على ايمانهم به الشريعة المنزلة والفطرة المكملة والعقل الصريح فكانوا هم العقلاء حقاً وعقولهم هي المعيار فمن خالفها فقد خالف صريح المعقول والقواطع العقلية ومن أراد معرفة هذا فليقرأ كتاب شيخنا وهو بيان موافقة العقل الصريح للنقل الصحيح فانه كتاب لم يطرق العالم له نظير في بابه فانه هدم فيه قواعد أهل الباطل من أسها فخرت عليهم سقوفه من فوقهم وشيد فيه قواعد أهل السنة والحديث وأحكمها ورفع أعلامها وقررها بمجامع الطرق التي تقرر بها الحق من العقل والنقل والفطرة والاعتبار فجاء كتاباً لا يستغني من نصح نفسه من أهل العلم عنه فجزاه الله عن أهل العلم والايمان أفضل الجزاء وجزى العلم والايمان عنه كذلك

(فصل) عدنا الى تمام الكلام في كيفية دخول الشر في القضاء الالهي وبيان طرق الناس في ذلك واختلافهم في ايلام الاطفال والبهائم وقالت البكرية وهم أتباع بكر ابن أخت عبد الواحد بن زيد البصري ان البهائم والاطفال لا تألم البتة والذي حملهم على هذا موجب التعليل والحكمة ولم يرتضوا ما قالت الجبرية من نفي ذلك ولا ما قالت المعتزلة من حديث الاعواض وما فرعوه عليه ولم يمكنهم القول بمذهب التناسخية القائلين بان الارواح الفاجرة الظالمة تودع في الحيوانات التي تناسبها فينالها من ألم الضرب والعذاب بحسبها ولا بمذاهب المجوس من اسناد الشر والخير الى الهين مستقلين كل منهما يذهب بخلقه ولا بقول من يقول ان البهائم مكلفة مأمورة منهية مثابة معاقبة وانه في كل أمة منها رسول ونبي منها وهذه الآلام والعقوبات الدنياوية جزاء على مخالفتها رسولها ونبيها فلم يجدوا بداً من التزام ما ذهبوا اليه من انكار وقوع الآلام بها ووصولها

مثله

مثله حكى الخلاف فيها عن السلف والخلف حتى عن المالكية أنفسهم فقال وأما من قال أنت طالق ثلاثا فقد بانت منه قال البتة أولم يقل قال وقال بعض الموثقين يريد المصنفين في الوثائق اختلف أهل العلم بعد اجماعهم على انه يطلق كم يلزمه من الطلاق فالجمهور من العلماء على انه يلزمه الثلاث وبه القضاء وعليه الفتوى وهو الحق الذي لاشك فيه وقال بعض السلف يلزمه من ذلك واحدة وتابعهم على ذلك قوم من الخلف من المفتين بالاندلس قال واحتجوا على ذلك بحجج كثيرة وأحاديث مسطورة أضربنا عنها واقتصرنا على الصحيح منها فمنها مارواه داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس ان ركانة طلق زوجته عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ثلاثا في مجلس واحد فقال له النبي عليه السلام انما هي واحدة فان شئت فدعها وان شئت فارتجعها ثم ذكر حديث أبي الصهباء وذكر بعض تأويلاته التي ذكرناها الوجه السادس عشر ان أبا جعفر الطحاوي حكى القولين في كتابه تهذيب الآثار فقال باب الرجل يطلق امرأته ثلاثا معا ثم ذكر حديث أبي الصهباء ثم قال فذهب قوم الى ان الرجل اذا طلق امرأته ثلاثا فقد وقعت عليها واحدة اذا كانت في وقت سنة وذلك ان تكون طاهرا في غير جماع واحتجوا في ذلك بهذا الحديث وقالوا لما كان الله عزوجل انما أمر عباده ان يطلقوا لوقت على صفة فطلقوا على غير ما امرهم به لم يقع طلاقهم ألا ترى لو ان رجلا امر رجلا أن يطلق امرأته في وقت فطلقها في غيره او أمره ان يطلقها على شريطة وطلقها على غير تلك الشريطة ان طلاقه لا يقع اذا كان قد خالف ما امر به ثم ذكر حجج الآخرين والجواب عن حجج هؤلاء على عادة اهل العلم والدين في انصاف مخالفيهم والبحث معهم ولم يسلك طريق جاهل ظالم مبعد يبرك على ركبتيه ويفجر عينيه ويصول بمنصبه لا بعلمه وبسوء قصده لا بحسن فهمه ويقول القول بهذه المسألة كفر يوجب ضرب العنق ليبهت خصمه ويمنعه عن بسط لسانه والجري معه في ميدانه والله تعالى عند لسان كل قائل وهو له يوم الوقوف بين يديه عما قاله سائل الوجه السابع عشر ان شيخنا حكى عن جده ابي البركات أنه كان يفتي بذلك احيانا سرا وقال في بعض مصنفاته هذا قول بعض اصحاب مالك وأبي حنيفة واحمد قلت اما المالكية فقد حكينا الخلاف عنهم واما اصحاب ابي حنيفة فانه محمد بن مقاتل من الطبقة الثالثة من اصحاب ابي حنيفة واما اصحاب احمد فان كان اراد افتاء جده بذلك أحيانا والا فلم اقف على نقل لاحد منهم الوجه الثامن عشر قال ابو الحسن النسفي في وثائقه وقد ذكر الخلاف في المسألة ثم قال ومن بعض حججه ايضا في ذلك ان الله سبحانه وتعالى امر بتفريق الثلاث بقوله تعالى الطلاق مرتان واذا جمع الانسان ذلك في كلمة كان واحدة وكان ما زاد عليها لغوا كما جعل مالك رحمه الله رمي السبع جمرات في مرة واحدة جمرة واحدة وبنى عليها أن الطلاق عندهم مثله قال وممن نصر هذا القول من اهل

اليها وقد رد عليهم الناس با[redacted]وا الحس وجحدوا الضرورة وان الغ[redacted]ما ذهبوا اليه ضرورة وقال من أنصف القوم لاسبيل الى نسبة هؤلاء الى جحد الضرورة مع كثرتهم ولكنهم ربما رأوا ان الطفل والبهيمة تدرك الآلام حسبما يدركها العقلاء فان العاقل اذا أدرك تألم جوارحه وأحس به تألم قلبه وطال حزنه وكثر همه وحزنه وغمها واشتدت (١٧٧) فكرته في ذلك وفي الاسباب الجالبة له والاسباب الدافعة له وهذه الآلام زائدة على مجرد ألم الطبيعة ولا ريب ان البهائم والاطفال لاتحصل لها تلك الآلام كما يحصل للعاقل المميز فان أراد القوم هذا فهم مصيبون وان أرادوا انه لاشعور لها بالآلام البتة وانها لاتحس بها فكابرة ظاهرة فان الواحد منا يعلم باضطرار انه كان يتألم في طفوليته بمس النار له وبالضرب وغير ذلك وقالت طائفة كل ما يتألم به الطفل والبهيمة ليس من قبل الله ولا فعل الله فيه الالم لما ثبت من حكمته وهذا يشبه قولهم في أفعال الحيوان انها ليست من خلق الله ولا كانت بمشيئته لكن هذا أشد فسادا من ذلك فان هذه الآلام حوادث لاتتعلق باختيار من قامت به ولا بارادته فلا بد لها من محدث اذ وجود حادث بلا محدث محال والله خالقها باسبابها المفضية اليها فخالق السبب خالق للمسبب فان أراد هؤلاء نفي فعلها عن الله مباشرة من غير توسط بسبب أصلا فهذا قد يكون حقا وان أرادوا انها غير منسوبة الى قدرته ومشيئته البتة فباطل وذهبت طائفة الى ان في كل نوع من أنواع الحيوانات أنبياء ورسلا وانها مستحقة للثواب والعقاب وان ما ينزل بها من الآلام جزاء لها وعقوبات على معاصيها ومخالفتها واحتجوا بقوله وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم وقال تعالى وان من أمة الا خلا فيها نذير وقالت طائفة من التناسخية ان [illegible]ـقه كلهم جملة واحدة بصفة واحدة ثم أمرهم ونهاهم فمن عصى منهم نسخ روحه في جسد بهيمة تبتلى بالذبح والقتل كالدجاج [illegible] والبراغيث والقمل فما سلط على هذه البهائم من الآلام فهو للارواح الآدمية التي أودعت هذه الاجساد فمن كان منهم

القتيا بالاندلس اصبغ بن الحباب ومحمد بن تقي ومحمد بن عبد السلام الحسني وابن زنباع مع غيرهم من نظرائهم هذا لفظه الوجه التاسع عشر ان ابا الوليد هشام بن عبد الله بن هشام الازدي القرطبي صاحب كتاب مفيد الحكام فيما يعرض لهم من النوازل والاحكام ذكر الخلاف بين السلف والخلف في هذه المسألة حتى ذكر الخلاف فيها في مذهب مالك نفسه وذكر من كان يفتي بها من المالكية والكتاب مشهور معروف عند اصحاب مالك كثير الفوائد جدا ونحن نذكر نصه فيه بلفظه فنذكر ما ذكره عن ابي مغيث ثم نتبع كلامه ليعلم ان النقل بذلك معلوم متداول بين أهل العلم وان من قصر في العلم باعه وطال في الجهل والظلم ذراعه يبادر الى التكفير والعقوبة جهلا منه وظلما ويحق له وهو الدعي في العلم وليس منه أقرب رحما قال ابن هشام قال ابن مغيث الطلاق ينقسم على ضربين طلاق السنة وطلاق البدعة فطلاق السنة هو الواقع على الوجه الذي ندب الشرع اليه وطلاق البدعة نقيضه وهو ان يطلقها في حيض او نفاس او ثلاثا في كلمة واحدة فان فعل لزمه الطلاق ثم اختلف اهل العلم بعد اجماعهم على انها تطلق كم يلزمه من الطلاق فقال علي بن ابي طالب وابن مسعود يلزمه طلقة واحدة وقاله ابن عباس وقال قوله ثلاثا لا معنى له لانه لم يطلق ثلاث مرات وانما يجوز قوله في ثلاث اذا كان مخبرا عما مضى فيقول طلقت ثلاثا يخبر عن ثلاثة أفعال كانت منه في ثلاث أوقات كرجل قال قرأت أمس سورة كذا ثلاث مرات فذلك يصح ولو قرأها مرة واحدة فقال قرأتها ثلاث مرات لكان كاذبا وكذلك لو حلف بالله تعالى ثلاثا يردد الحلف كانت ثلاثة ايمان ولو قال أحلف بالله ثلاثا لم يكن حلف الا يمينا واحدة فالطلاق مثله ومثله قال الزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه روينا ذلك كله عن ابن وضاح وبه قال من شيوخ قرطبة ابن زنباع شيخ هدى ومحمد بن تقي بن مخلد ومحمد بن عبد السلام الحسني فقيه عصره وأصبغ بن الحباب وجماعة سواهم من فقهاء قرطبة وكان من حجة ابن عباس ان الله تعالى فرق في كتابه لفظ الطلاق فقال الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان يريد أكثر الطلاق الذي يمكن بعده الامساك بالمعروف وهو الرجعة في العدة ومعنى قوله أو تسريح باحسان يريد تركها بلا ارتجاع حتى تنقضي عدتها وفي ذلك احسان اليهما ان وقع ندم منهما قال الله تعالى لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا يريد الندم على الفرقة والرغبة في المراجعة وموقع الثلاث غير محسن لانه ترك المندوحة التي وسع الله تعالى بها ونبه عليها فذكر الله سبحانه وتعالى لفظ الطلاق مفرقا فدل على انه اذا جمع أنه لفظ واحد فتدبره وقد يخرج من غير ما مسألة من الديانة ما يدل على ذلك من ذلك قول الرجل مالي صدقة في المساكين ان الثلث من ذلك يجزيه هذا كله لفظ صاحب الكتاب بحروفه أفترى الجاهل الظالم المعتدي يجعل هؤلاء كلهم كفارا مباحة دماؤهم سبحانك هذا

بهتان

زانيا أو زانية كوفئ بان جعل في بدن حيوان ما يمكنه الجماع كالبغال ومن كان منهم عفيفا عن الزنا مع [illegible] وقسمه كوفئ بان جعل في بدن تيس أو عصفور أو ديك ومن كان منهم جبارا عنيدا كوفئ بان جعل في بدن قملة أو قرادة ونحوهما الى أن يقتص منهم ثم يردون فمن عصى منهم بعد كذبه كرر أيضا عليه ذلك التناسخ هكذا أبدا حتى يطيع طاعة لا معصية بعدها أبدا فينتقل الى الجنة من وقته وقد ذهب الى هذا المذهب من المنتسبين الى الاسلام رجل يقال له أحمد بن حائط طرد الاصول القدرية وشريعتهم التي شرعوها فاوجبوا عليه وحرموا وذهب المجوس الى أن هذه الآلام والشرور من الاله الشرير المظلم فلا تضاف الى الاله الخير العادل ولا تدخل تحت قدرته ولهذا كان أشبه أهل البدع بهم القدرية النفاة وقالت الزنادقة والدهرية كل ذلك من تصرف الطبيعة وفعلها وليس لذلك فاعل مختار مدبر بمشيئته وقدرته ولا بد في النار من احراق ونفع وفي الماء من اغراق ونفع وليس وراء ذلك شيء فهذه مذاهب أهل الارض في هذا المقام ولما انتهى أبو عيسى الوراق الى حيث انتهت اليه أرباب المقالات طاش عقله ولم يتسع لحكمة ايلام الحيوان وذبحه صنف كتابا سماه النوح على البهائم فاقام عليها المأتم وناح وباح بالزندقة الصراح وممن كان على هذا المذهب أعمى البصر والبصيرة كلب معرة النعمان المكنى بابي العلاء المعري فانه امتنع من أكل الحيوان زعم لظلمه بالايلام والذبح وأما ابن خطيب الري فانه سلك في ذلك طريقة مركبة من طريقة المتكلمين وطريقة الفلاسفة المشائين وهذبها ونقحها واعترف في آخرها بانه لا سبيل الى الخلاص عن الشبه التي أوردها على نفسه الا بالتزام انه تعالى موجب بالذات لا فاعل بالقصد والاختيار فاقر على نفسه بالعجز عن أجوبة تلك المطالبات الا بانكار قدرة الله ومشيئته وفعله الاختياري وذلك جحد لربوبيته فزعم انه لا يمكنه تقرير حكمته الا بجحد ربوبيته ونحن نذكر كلامه بالفاظه قال في مباحثه المشرقية

(الفصل) في كيفية دخول الشر في القضاء الالهي وقبل الخوض فيه لا بد من تقديم مقدمتين المقدمة الاولى الامور التي يقال لها انها

بهتان عظيم بل هؤلاء من أكابر أهل العلم والدين ودينهم عند اهل العمى أهل التقليد كونهم لم يرضوا لانفسهم بما رضى به المقلدون فرد واما تنازع فيه المسلمون الى الله ورسوله * وتلك شكاة ظاهر عنك عارها الوجه العشرون ان هذا مذهب أهل الظاهر داود وأصحابه ودينهم عند كثير من الناس أخذهم بكتاب ربهم وسنة نبيهم ونبذهم القياس وراء ظهورهم فلم يعبؤا به شيأ وخالفهم ابو محمد بن حزم فى ذلك فأباح جمع الثلاث وأوقعها فهذه عشرون وجها فى اثبات النزاع فى هذه المسألة بحسب بضاعتنا المزجاة والا فالذى لم نقف عليه من ذلك كثير وقد حكى ابن وضاح وابن مغيث ذلك عن على وابن مسعود والزبير وعبد الرحمن بن عوف وابن عباس ولعله احدى الروايتين عنهم والا فقد صح بلا شك عن ابن مسعود وعلى وابن عباس الالزام بالثلاث ان اوقعها جملة وصح عن ابن عباس انه جعلها واحدة ولم نقف على نقل صحيح عن غيرهم من الصحابة بذلك فلذلك لم نعد ما حكى عنهم فى الوجوه المبينة للنزاع وانما نعد ما وقفنا عليه فى مواضعه ونعزوه اليها وبالله التوفيق فان قيل فقد ذكرتم اعذار الائمة الملزمين بالثلاث عن ذلك الاحاديث المخالفة لقولهم فما عذركم انتم عن امير المؤمنين وثانى الخلفاء الراشدين المحدث الملهم الذى امر باتباع سنته والاقتداء به أفتظنون به انه كان يرى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وخليفته من بعده والصحابة فى عهده يجعلون الثلاث واحدة مع انها يسر على الامة واسهل وأبعد من الحرج ثم يعمد الى مخالفة ذلك برأيه ويلزم الامة بالثلاث من قبل نفسه فيضيق عليهم ما وسعه الله تعالى ويعسر ما سهله ثم يتابعه على ذلك أكابر الصحابة ويوافقونه ولا يخالفونه ثم هب انهم خافوا منه فى حياته وكلا فانه كان أتقى لله سبحانه وتعالى من ذلك وكان اذا بينت له المرأة ما خفى عليه من الحق رجع اليه وكان الصحابة اتقى لله تعالى وأعلم به ان يأخذهم لومة لائم فى الحق وان يسكتوا عنه خوفا من عمر رضى الله عنه فقد دار الامر بين القدح فى عمر رضى الله عنه والصحابة معه وبين رد تلك الاحاديث اما لضعفها واما لنسخها وخفى علينا الناسخ واما بتأويلها وحملها على محمل يصح ولا ريب ان هذا اولى لتوفية حق الصحابة الذين هم اعلم بالله تعالى ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم من جميع من بعدهم قيل لعمر الله ان هذا سؤال يورد مثله أهل العلم وانه ليحتاج الى جواب شاف كاف فنقول الناس هنا طائفتان طائفة اعتذرت عن هذه الاحاديث لاجل عمر ومن وافقه وطائفة اعتذرت عن عمر رضى الله عنه ولم ترد الاحاديث فقالوا الاحكام نوعان نوع لا يتغير عن حالة واحدة هو عليها لا بحسب الازمنة ولا الامكنة ولا اجتهاد الائمة كوجوب الواجبات وتحريم المحرمات والحدود المقدرة بالشرع على الجرائم ونحو ذلك فهذا لا يتطرق اليه تغيير ولا اجتهاد يخالف ما وضع عليه والنوع الثانى ما يتغير بحسب اقتضاء المصلحة له زمانا ومكانا وحالا كمقادير التعزيرات وأجناسها وصفاتها فان الشارع يتنوع فيها بحسب المصلحة فشرع التعزير

أمور عدمية أو أمور وجودية فان كانت أمورا عدمية فهى على أقسام ثلاثة لانها اما أن تكون عدما لامور ضرورية للشئ فى وجوده مثل عدم الحياة واما أن تكون عدما لامور نافعة قريبة من الضرورة كالاعمى وان لا تكون كذلك كعدم العلم بالفلسفة والهندسة وأما الامور الوجودية التى يقال انها شرور وهى كالحرارة المفرقة لاتصال العضو واعلم ان الشر بالذات هو عدم ضروريات الشئ وعدم منافعه مثل عدم الحياة وعدم البصر فان الموت والعمى لا حقيقة لهما الا انهما عدم الحياة وعدم البصر وهما من حيث هما كذلك شر فاذن ليس لهما اعتبار آخر بحسبه يكونان شرين وأما عدم الفضائل المستغنى عنها مثل عدم العلم بالفلسفة فظاهر ان ذلك ليس بشر وأما الامور الوجودية فانها ليست شرورا بالذات بل بالعرض من حيث انها تتضمن عدم أمور ضرورية أو نافعة ويدل عليه انا لا نجد شيأ من الافعال التى يقال لها شر الا وهو كمال بالنسبة الى الفاعل وأما شريته فبالقياس الى شئ آخر فالظلم مثلا يصدر عن قوة طلامة للغلبة وهى القوة الغضبية والغلبة هى كمالها وفائدة خلقتها فهذا الفعل بالقياس اليها خير لانها ان ضعفت عنه فهو بالقياس اليها شر وانما كان شرا للمظلوم لفوات المال وغيره عنه والنفس الناطقة كمالها الاستيلاء على هذه القوة فعند قهر القوة الغضبية يفوت النفس ذلك الاستيلاء ولا جرم كان شرا لها وكذلك النار اذا أحرقت فان الاحراق كمالها ولكنها شر بالنسبة الى من زالت سلامته بسببها وكذلك القتل وهو استعمال الآلة القطاعة فى قطع رقبة انسان فان كون الانسان قويا على استعمال الآلة ليس شرا له بل خيرا وكذلك كون الآلة قطاعة هو خير لها وكذلك كون الرقبة قابلة للانقطاع كل ذلك خيرات ولكن القتل شر من حيث انه متضمن لزوال الحياة فثبت بما ذكرنا ان الامور الوجودية ليست شرا بالذات بل بالعرض والله أعلم المقدمة الثانية ان الاشياء اما ان تكون مادية أولا تكون فان لم تكن مادية لم يكن فيها ما بالقوة فلا يكون فيها شر أصلا وان كانت مادية كانت فى معرض الشر وعروض الشر لها اما أن يكون فى ابتداء تكونها أو

بعد تكونها اما الاول فهو اما أن تكون المادة التى تتكون انسانا أو فرسا يعرض لها من الأسباب ما يجعلها رديئة المزاج رديئة الشكل والخلقة فرداءة مزاج ذلك الشخص و رداءة خلقه ليس لان الفاعل حرم بل لان المنفعل له لم يقبل وأما الثانى وهو ان يعرو الشئ للشئ وطرو طارئ عليه بعد تكونه فكذلك الطارئ

اما شئ يمنع المكمل من الاكمال مثل تراكم السحب واظلال الجبال الشاهقات اذ

بالقتل لمدمن الخمر فى المرة الرابعة وعزم على التعزير بتحريق البيوت على المتخلف عن حضور الجماعة لو مامنعه من تعدى العقوبة الى غير من يستحقها من النساء والذرية وعزر بحرمان النصيب المستحق من السلب وأخبر عن تعزير مانع الزكاة بأخذ شطر ماله وعزر بالعقوبات المالية فى عدة مواضع وعزر من مثل بعبده باخراجه عليه واعتاقه عليه وعزر بتضعيف الغرم على سارق ما لا قطع فيه وكاتم الضالة وعزر بالهجر ومنع قربان النساء ولم يعرف أنه عزر بدرة ولا حبس ولا سوط وانما حبس فى تهمة ليتبين حال المتهم وكذلك أصحابه تنوعوا فى التعزيرات بعده فكان عمر رضى الله عنه يحلق الرأس وينفى ويضرب ويحرق حوانيت الخمارين والقرية التى تباع فيها الخمر وحرق قصر سعد بالكوفة لما احتجب فيه عن الرعية وكان له رضى الله تعالى عنه فى التعزير اجتهاد وافقه عليه الصحابة بكمال نصحه ووفور علمه وحسن اختياره للامة وحدوث أسباب اقتضت تعزيره لهم بما يردعهم لم يكن مثلها على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أو كانت ولكن زاد الناس وبالغوا فيها فمن ذلك انهم لما زادوا فى شرب الخمر وتتابعوا فيه وكان قليلا على عهد رسول الله جعله عمر رضى الله عنه ثمانين ونفى فيه ومن ذلك اتخاذه درة يضرب بها من يستحق الضرب ومن ذلك اتخاذه دارا للسجن ومن ذلك ضربه للنوائح حتى بدا شعرها وهذا باب واسع اشتبه فيه على كثير من الناس الاحكام الثابتة اللازمة التى لا تتغير بالتعزيرات التابعة للمصالح وجودا وعدما ومن ذلك انه رضى الله عنه لما رأى الناس قد أكثروا من الطلاق الثلاث رأى انهم لا ينتهون عنه الا بعقوبة فرأى الزامهم بها عقوبة لهم ليكفوا عنها وذلك اما من التعزير العارض الذى يفعل عند الحاجة كما كان يضرب فى الخمر ثمانين ويحلق فيها الرأس وينفى عن الوطن وكما منع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الثلاثة الذين خلفوا عنه عن الاجتماع بنسائهم فهذا وجه واما ظنا ان جعل الثلاث واحدة كان مشروعا بشرط وقد زال كما ذهب الى ذلك فى متعة الحج اما مطلقا واما متعة الفسخ فهذا وجه آخر واما القيام مانع قام فى زمنه منع من جعل الثلاث واحدة كما قام عنده مانع من بيع أمهات الاولاد ومانع من أخذ الجزية من نصارى بنى تغلب وغير ذلك فهذا وجه ثالث فان الحكم ينتفى لانتفاء شروطه أو لوجود مانعه والالزام بالفرقة فسخا لا طلاقا لمن لم يقم بالواجب مما يسوغ فيه الاجتهاد لكن بان يكون حقا للمرأة كما فى العنة والايلاء والعجز عن النفقة والغيبة الطويلة عند من يرى ذلك وتارة يكون حقا للزوج كالعيوب المانعة له من استيفاء المعقود عليه أو كماله وتارة يكون حقا لله تعالى كما فى تفريق الحكمين بين الزوجين عند من يجعلهما وكيلين وهو الصواب وكما وقع الطلاق بالمولى اذا لم يف فى مدة التربص عند كثير من السلف والخلف وكما قال بعض السلف ووافقهم عليه بعض أصحاب أحمد رحمه الله انهما اذا تطاوعا على الاتيان فى الدبر فرق بينهما

صار مانعا من تأثير الشمس فى النبات واما شئ يفسد مثل البرد الذى يصل الى النبات فيفسد بسبب ذلك استعداده للنشو والنمو واذا عرفت ذلك فنقول قد بينا ان الشر بالحقيقة اما عدم ضروريات الشئ واما عدم منافعه فنقول الموجود اما أن يكون خيرا من كل الوجوه أو شرا من كل الوجوه أو خيرا من وجه وشرا من وجه وهذا على تقدير أقسام فانه اما أن يكون خيره غالبا على شره أو يكون شره غالبا على خيره أو متساويا خيره وشره فهذه أقسام خمسة اما الذى يكون خيرا من كل الوجوه وهو موجود اما الذى يكون كذلك لذاته فهو الله تبارك وتعالى واما الذى يكون لغيره فهو العقول والافلاك لان هذه الامور ما فاتها شئ من ضروريات ذاتها ولا من كمالاتها والذى كله شر او الغالب فيه أو المساوى فهو غير موجود لان كلامنا فى الشئ بمعنى عدم الضروريات والمنافع لا بمعنى عدم الكمال الزائد فلا شك ان ذلك مغلوب والخير غالب لان الامراض وان كثرت الا أن الصحة أكثر منها فالحرق والغرق والخسف وان كانت قد تكثر الا أن السلامة أكثر منها فاما الذى يكون خيره غالبا على شره فالاولى فيه ان يكون موجودا لوجهين الاول انه ان لم يوجد فلا بد وان يفوت الخير الغالب وفوت الخير الغالب شر غالب فاذا فى عدمه يكون الشر أغلب من الخير وفى وجوده يكون الخير أغلب من الشر ويكون وجود هذا القسم أولى وقريب مثاله النار فى وجودها منافع كثيرة وأيضا مفاسد كثيرة مثل احراق الحيوانات ولكنا اذا قابلنا منافعها بمفاسدها كانت مصالحها أكثر بكثير من مفاسدها ولو لم توجد لفاتت تلك المصالح وكانت مفاسدها عدمها أكثر من مصالحها فلا جرم وجب ايجادها وخلقها الثانى وهو الذى يكون

وقريب من ذلك ان الاب الصالح اذا أمر ابنه بالطلاق لما يراه من مصلحة الولد فعليه ان يطيعه كما قال أحمد رحمه الله وغيره واحتجوا بان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أمر عبد الله بن عمر ان يطيع أباه لما أمره بطلاق زوجته فالالزام اما من الشارع واما من الامام بالفرقة اذا لم يقم الزوج بالواجب هو من موارد الاجتهاد وأصل هذا ان الله سبحانه وتعالى لما كان يبغض الطلاق لما فيه من كسر الزوجة وموافقة رضى عدوه ابليس حيث يفرح بذلك ويكرم من يكون على يديه من أولاده ويدنيه منه ويفارق طاعته بالنكاح الذى هو واجب أو مستحب وتعريض كل من الزوجين للفجور والمعصية وغير ذلك من مفاسد الطلاق وكان مع ذلك قد يحتاج اليه الزوج أو الزوجة وتكون المصلحة فيه شرعه على وجه يحصل به المصلحة وتندفع به المفسدة وحرمه على غير ذلك الوجه فشرعه على أحسن الوجوه وأقربها لمصلحة الزوج والزوجة فشرع له أن يطلقها طاهرا من غير جماع طلقة واحدة ثم يدعها حتى تنقضى عدتها فان زال الشر بينهما وحصلت الموافقة كان له سبيل الى لم الشعث واعادة الفراش كما كان والا تركها حتى انقضت عدتها فان تبعتها نفسه كان له سبيل الى خطبتها وتجديد العقد عليها برضاها وان لم تتبعها نفسه تركها فنكحت من شاءت وجعل العدة ثلاثة قروء ليطول زمن المهلة والاختيار فهذا هو الذى شرعه وأذن فيه ولم يأذن فى ابانتها بعد الدخول الا بالتراضى بالفسخ والافتداء فاذا طلقها مرة بعد مرة تبقى له طلقة واحدة فاذا طلقها الثالثة حرمها عليه عقوبة له ولم يحل له أن ينكحها حتى تنكح زوجا غيره ويدخل بها ثم يفارقها بموت أو طلاق فاذا علم أن حبيبه يصير الى غيره فيحظى به دونه أمسك عن الطلاق فلما رأى أمير المؤمنين ان الله سبحانه عاقب المطلق ثلاثا بأن حال بينه وبين زوجته وحرمها عليه حتى تنكح زوجا غيره علم ان ذلك لكراهته الطلاق المحرم وبغضه له فوافقه أمير المؤمنين فى عقوبته لمن طلق ثلاثا جميعا بان ألزمه بها وأمضاها عليه فان قيل كان أسهل من ذلك أن يمنع الناس من ايقاع الثلاث ويحرمه عليهم ويعاقب بالضرب والتأديب من فعله لئلا يقع المحذور الذى يترتب عليه قيل نعم لعمر الله كان يمكنه ذلك ولذلك ندم عليه فى آخر أيامه وودانه كان فعله قال الحافظ أبو بكر الاسماعيلى فى مسند عمر أخبرنا أبو يعلى حدثنا صالح ابن مالك حدثنا خالد بن يزيد بن أبى مالك عن أبيه قال قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه ما ندمت على شئ ندامتى على ثلاث أن لا أكون حرمت الطلاق وعلى أن لا أكون انكحت الموالى وعلى أن لا أكون قتلت النوائح ومن المعلوم أنه رضى الله عنه لم يكن مراده تحريم الطلاق الرجعى الذى أباحه الله تعالى وعلم من دين رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم جوازه ولا الطلاق المحرم الذى اجمع المسلمون على تحريمه كالطلاق فى الحيض وفى الطهر المجامع فيه ولا الطلاق قبل الدخول الذى قال الله تعالى فيه لا جناح عليكم ان طلقتم النساء

خيره مثر وجابا بالشر ليس الا الامور التى تحت كرة القمر فلاشك انها معلولات العلل العالية فلو لم يوجد هذا القسم لكان يلزم من عدمها عدم عللها الموجبة لها وهى خيرات محضة فيلزم من عدمها عدم الخيرات المحضة وذلك شر محض فاذا لا بد من وجود هذا القسم فان قيل فلم لم يخلق الخالق هذه الاشياء عرية عن كل الشرور فنقول لانه لو جعلها كذلك لكان هذا هو القسم الاول وذلك مما قد فرغ منه وبقى فى العقل قسم آخر وهو الذى يكون خيره غالبا على شره وقد بينا ان الاولى بهذا القسم ان يكون موجودا قال وهذا الجواب لا يعجبنى لان لقائل ان يقول ان جميع هذه الخيرات والشرور انما توجد باختيار الله وارادته مثلا الاحتراق الحاصل عقيب النار ليس موجبا من النار بل الله اختار خلقه عقيب مماسة النار واذا كان حصول الاحتراق عقيب مماسة النار باختيار الله وارادته فكان يمكنه أن يختار خلق الاحراق عندما يكون خيرا ولا يختار خلقه عندما يكون شرا ولا خلاص عن هذه المطالبة الا ببيان كونه سبحانه فاعلا بالذات لا بالقصد والاختيار ويرجع الكلام فى هذه المسئلة الى مسئلة القدم والحدوث قلت لما لم يكن عند الرازى الا مذهب الفلاسفة المشائين القائلين بوجوب رعاية الصلاح أو الاصلح أو مذهب الجبرية نفاة الاسباب والعلل والحكم وكان الحق عنده مترددا بين هذه المذاهب الثلاثة فتارة يرجح مذهب المتكلمين وتارة مذهب المشائين وتارة يلقى الحرب بين الطائفتين ويقف فى النظارة وتارة يتردد بين الطائفتين وانتهى الى هذا المضيق ورأى أنه لا خلاص له منه الا بالتزام طريق الجبرية وهى غير مرضية عنده وان كان فى كتبه الكلامية يعتمد عليها ويرجع فى مباحثه اليها وطريق المعتزلة القائلين برعاية الصلاح وهى متناقضة غير مطردة لم يجد بدا من تحيزه الى أعداء الملة القائلين بان الله لا قدرة له ولا مشيئة ولا اختيار ولا فعل يقوم به ومعلوم ان هذه المذاهب باسرها باطلة متناقضة وان كان بعضها أبطل من بعض وانما ألجأه الى التزام القول بانكار الفاعل المختار فى هذا المقام تسليمه لهم الاصول الفاسدة والقواعد الباطلة التى قادت الى التزام بعض أنواع الباطل ولو أعطى الدليل حقه وضم ما مع

مالم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة هذا كله من ابين المحال أن يكون عمر رضي الله عنه اراده فتعين قطعا انه اراد تحريم ايقاع الثلاث فعلم انه انما كان أوقعها لاعتقاده جواز ذلك ولذلك قال ان الناس قد استعجلوا فى شئ كانت لهم فيه أناة فلو أمضيناه عليهم وهذا كالصريح فى أنه غير حرام عنده وانما أمضاه لان المطلق كانت له فسحة من الله تعالى فى التفريق فرغب عما فسحه الله تعالى له الى الشدة والتغليظ فامضاه عمر رضى الله عنه عليه فلما تبين له بالآخرة مافيه من الشر والفساد ندم على أن لا يكون حرم عليهم ايقاع الثلاث ومنعهم منه وهذا هو مذهب الاكثرين مالك واحمد وأبى حنيفة رحمهم الله فرأى عمر رضى الله عنه ان المفسدة تندفع بالزامهم به فلما تبين له ان المفسدة لم تندفع بذلك وما زاد الامر الا شدة اخبر ان الاولى كان عدوله الى تحريم الثلاث الذى يدفع المفسدة من أصلها واندفاع هذه المفسدة بما كان عليه الامر فى زمن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأبى بكر وأول خلافة عمر رضى الله عنه أولى من ذلك كله ولا يندفع الشر والفساد بغيره البتة ولا يصلح الناس سواه ولهذا لما رغب عنه كثير من الناس احتاجوا الى أحد أمرين لابد لهم منهما إما الدخول فيما لعن رسول الله عليه السلام فاعله وتابع عليه اللعنة وإما التزام الآصار والاغلال ورؤية حبيبه حسرة والذى شرعه الله تعالى ورسوله عليه السلام ودلت عليه السنة الصحيحة الصريحة يخلص من هذا وهذا ولكن تأبى حكمة الله تعالى أن يفتح للظالمين المتعدين لحدوده الراغبين عن تقواه وطاعته أبواب الفرج واليسر والسهولة فان الله سبحانه وتعالى انما جعل ذلك لمن اتقاه والتزم طاعته وطاعة رسوله كما قال تعالى فى السورة التى بين فيها الطلاق وأحكامه وحدوده وما شرعه لعباده ومن يتق الله يجعل له مخرجا وقال فيها ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا وقال فيها ومن يتق الله يكفر عنه سيآته ويعظم له أجرا فمن طلق على غير تقوى الله كان حقيقا ان لا يجعل الله له مخرجا وان لا يجعل له من أمره يسرا وقد أشار الى هذا بعينه الصحابة حيث قال ابن عباس وابن مسعود لمن طلق ثلاثا جميعا انك لم تتق الله فيجعل لك مخرجا فقال شعبة عن ابن ابى نجيح عن مجاهد سئل ابن عباس عن رجل طلق امرأته مائة فقال عصيت ربك وبانت منك امرأتك انك لم تتق الله فيجعل لك مخرجا ومن يتق الله يجعل له مخرجا وقال الاعمش عن مالك عن ابن الحرث عن ابن عباس ان رجلا أتاه فقال ان عمى طلق امرأته ثلاثا فقال ان عمك عصى الله فاندمه الله تعالى وأطاع الشيطان فلم يجعل له مخرجا فقال أفلا يحللها له رجل فقال من يخادع الله يخدعه والله قد جرت سنته فى خلقه بان يحرم الطيبات شرعا وقدرا على من ظلم وتعدى حدوده وعصى أمره وان ييسر للعسرى من بخل بما أمره به فلم يفعله واستغنى عن طاعته باتباع شهواته وهواه كما أنه ييسر لليسرى من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فهذا نهاية اقدام الناس فى باب الطلاق ينبغى أن يقال فاذا

كل طائفة من الحق الى حق الطائفة الاخرى وتخير الى ماجاءت به الرسل على علم وبصيرة وهو تقرير لما جاؤا به بجميع طرق الحق تخلص من تلك المطالبات مع اقراره بان رب العالمين فعال لما يريد يفعل بمشيئته وقدرته وحكمته وان له المشيئة النافذة والحكمة البالغة وان تقدير تجريد النار عما خلقت عليه من الاحراق والماء عما خلق عليه والرياح والنفوس البشرية عما هيأت له وخلقت عليه مناف للحكمة المطلوبة المحبوبة للرب سبحانه وان هذا تقرير لعالم آخر وتعطيل الاسباب التى نصبها الله سبحانه مقتضيات لمسبباتها وان تلك الاسباب مظهر حكمته وحمده وموضع تصرفه لخلقه وأمره فتقدير تعطيلها تعطيل للخلق والامر وهو أشد منافاة للحكمة وابطالها واقتضاء هذه الاسباب لمسبباتها كاقتضاء الغايات لاسبابها فتعطيلها منها قدح فى الحكمة وتفويت لمصلحة العالم التى عليها نظامه وبها قوامه ولكن الرب سبحانه قد يخرق العائدة ويعطلها عن مقتضياتها أحيانا اذا كان فيه مصلحة راجحة على مفسدة فوات تلك المسببات كما عطل النار التى ألقى فيها ابراهيم وجعلها عليه بردا وسلاما عن الاحراق لما فى ذلك من المصالح العظيمة وكذلك تعطيل الماء عن اغراق موسى وقومه وعما خلق عليه من الاسالة والتقاء أجزائه بعضها ببعض هو لما فيه من المصالح العظيمة والآيات الباهرة والحكمة التامة التى ظهرت فى الوجود وترتب عليها من مصالح الدنيا والآخرة ما ترتب فهكذا سائر افعاله سبحانه مع أنه شهد عباده بذلك أنه مسبب الاسباب وان الاسباب خلقه وانه عطل تعطيلها عن مقتضياتها وآثارها وان كونها كذلك لم يكن من ذاتها وأنفسها بل هو الذى جعلها كذلك وأودع فيها من القوى والطبائع ما اقتضت به آثارها وانه ان شاء أن يسلبها اياها سلبها الا كما يقول أعداؤه من الفلاسفة والطبائعين وزنادقة الاطباء

خفى

انه ليس فى الامكان تجريد هذه الاسباب عن آثارها وموجباتها ويقولون لا تعطيل فى الطبيعة وليست الطبيعة عندهم مربوبة مقهورة تحت قهر قاهر وتسخير مسخر يصرفها كيف يشاء بل هى المتصرفة المدبرة ولا كما يقول من نقص علمه ومعرفته باسرار مخلوقاته وما أودعها من

خفى على أكثر الناس حكم الطلاق ولم يفرقوا بين الحلال والحرام منه جهلا وأوقعوا الطلاق المحرم يظنونه جائزا هل يستحقون العقوبة بالالزام به لكونهم لم يتعلموا دينهم الذى أمرهم به الله تعالى وأعرضوا عنه ولم يسألوا أهل العلم كيف يطلقون وماذا أبيح لهم من الطلاق وما يحرم عليهم منه أم لا فقال لا يستحقون العقوبة لان الله سبحانه لا يعاقب شرعا ولا قدرا الا بعد قيام الحجة ومخالفة أمره كما قال تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا أجمع الناس على ان الحدود لا تجب الا على من كان بالتحريم متعمدا لارتكاب أسبابها والتعزيرات ملحقة بالحدود فهذا موضع نظر واجتهاد وقد قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم التائب من الذنب كمن لا ذنب له فمن طلق على غير ما شرع الله تعالى وأباحه جهلا ثم علم فندم وتاب فهو حقيق بان لا يعاقب وان يفتى بالمخرج الذى جعله الله تعالى لمن اتقاه و يجعل له من أمره يسرا والمقصود ان الناس لا بد لهم فى باب الطلاق من أحد ثلاثة أبواب يدخلون منها أحدها باب العلم والاعتدال الذى بعث الله تعالى به رسوله عليه السلام وشرعه للامة رحمة بهم واحسانا اليهم والثانى باب الآصار والأغلال الذى فيه من العسر والشدة والمشقة ما فيه والثالث باب المكر والاحتيال الذى فيه من الخداع والتحيل والتلاعب بحدود الله تعالى واتخاذ آياته هزوا ما فيه ولكل باب من المطلقين وغيرهم جزء مقسوم

(فصل) ومن مكايده التى كاد بها الاسلام وأهله الحيل والمكر والخداع الذى يتضمن تحليل ما حرم الله واسقاط ما فرضه ومضادته فى أمره ونهيه وهى من الرأى الباطل الذى اتفق السلف على ذمه فان الرأى رأيان رأى يوافق النصوص وتشهد له بالصحة والاعتبار وهو الذى اعتبره السلف وعملوا به ورأى يخالف النصوص وتشهد له بالابطال والاهدار فهو الذى ذموه وأنكروه وكذلك الحيل نوعان نوع يتوصل به الى فعل ما أمر الله تعالى به وترك ما نهى عنه والتخلص من الحرام وتخليص المحق من الظالم المانع له وتخليص المظلوم من يد الظالم الباغى فهذا النوع محمود يثاب فاعله ومعلمه ونوع يتضمن اسقاط الواجبات وتحليل المحرمات وقلب المظلوم ظالما والظالم مظلوما والحق باطلا والباطل حقا فهذا النوع الذى اتفق السلف على ذمه وصاحوا باهله من أقطار الارض قال الامام أحمد رحمه الله لا يجوز شئ من الحيل فى ابطال حق مسلم وقال الميمونى قلت لابى عبد الله من حلف على يمين ثم احتال لابطالها فهل تجوز تلك الحيل قال نحن لا نرى الحيلة الا بما يجوز قلت أليس حيلتنا فيها أن نتبع ما قالوا واذا وجدنا لهم قولا فى شئ اتبعناه قال بلى هكذا هو قلت أوليس هذا منا نحن حيلة قال نعم فبين الامام أحمد ان من اتبع ما شرع له وجاء عن السلف فى معانى الاسماء التى علقت بها الاحكام ليس بمحتال الحيل المذمومة وان سميت حيلة فليس الكلام فيها وغرض الامام أحمد بهذا الفرق بين سلوك الطريق

القوى والطبائع والغرائز وبالاسباب التى ربط بها خلقه وأمره وثوابه وعقابه فجحد ذلك كله ورد الامر الى مشيئة محضة مجردة عن الحكمة والغاية وعن ارتباط العالم بعضه ببعض ارتباط الاسباب بمسبباتها والقوى بمحالها ثم الحذور اللازم من انكار الفاعل المختار الفعال لما يريد بقدرته ومشيئته فوق كل محذور فان القائل بذلك يجعل هذه الشرور باسرها لازمة له لزوم الطفل لحامله والحرارة للنار ولا يمكنه دفعها ولا تخليص الحرارة منها فهم فروا من اضافة الشر الى خلقه ومشيئته واختياره ثم ألزموه اياه وأضافوه اليه اضافة لا تمكن ازالتها مع تعطيل قدرته ومشيئته وخلقه وعلمه بتفاصيل أحوال عباده وفى ذلك تعطيل ربوبيته للعالمين ففروا من محذور بالتزام عدة محاذير واستجاروا من الرمضاء بالنار وهذا كما نزهه الجهمية عن استوائه على عرشه وعلوه على مخلوقاته فانه فرار من التحيز والجهة ثم جعلوه سبحانه فى كل مكان مخالطا للقاذورات والاماكن المكروهات وكل مكان يأنف العاقل من مجاورته ففروا من تخصيصه بالعلو فعمموا به كل مكان ولما علمت الفرعونية بطلان هذا المذهب فروا الى شر منه فاخلوا داخل العالم وخارجه منه البتة وقالوا ليس فوق العرش رب يعبد ولا اله يصلى له ويسجد ولا ترفع اليه الايدى ولا يصعد اليه الكلم الطيب والعمل الصالح ولا عرج بمحمد اليه بل عرج به الى عدم صرف ولا فرق بالنسبة اليه بين العرش وبين أسفل سافلين ومن المعلوم انه ليس موجودا فى أسفل سافلين فاذا لم يكن موجودا فوق العرش فهذا اعدام له البتة وتعطيل لوجوده فلما رأت الحلولية واخوانهم من الاتحادية أشباه النصارى ما فى ذلك من الاحالة قالوا بل هو هذا الوجود السارى فى الموجودات الظاهر فيها على اختلاف صورها وأنواعها بحسبها فهو فى الماء ماء وفى الخمر خمر وفى النار نار وهو حقيقة كل شئ وماهيته فنزهوه عن استوائه على عرشه وجعلوه وجود كل موجود خسيس أو شريف صغير أو كبير طيب أو غيره تعالى الله عما يقول أعداؤه علوا كبيرا وكذلك القائلون بقدم العالم نزهوه عن قيام الارادات والافعال المتجددة به ثم جعلوا جميع الحوادث لازمة له لا ينفك عنها ونزهوه

المشروعة التي شرعت لحصول مقصود الشارع وبين الطرق التي تسلك لابطال مقصوده فهذا هو سر الفرق بين النوعين وكلامنا الآن في النوع الثاني قال شيخنا فالدليل على تحريم هذا النوع وابطاله من وجوه (الوجه الاول) قوله سبحانه وتعالى ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون وقال تعالى ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وقال في أهل العهد وان يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله فأخبر سبحانه وتعالى ان هؤلاء المخادعين مخدوعون وهم لا يشعرون أن الله تعالى خادع من خدعه وانه يكفي المخدوع شر من خدعه والمخادعة هي الاحتيال والمراوغة باظهار الخير مع ابطان خلافه بتحصيل مقصود المخادع وهذا موافق لاشتقاق اللفظ في اللغة فانهم يقولون طريق خديع اذا كان مخالفا للقصد ولا يشعر به ولا يفطن له ويقال للسراب الخيدع لانه يغر من يراه وضب خديع أي مراوغ كما قالوا اخدع من ضب ومنه الحرب خدعة وسوق خادعة أي متلونة وأصله الاخفاء والستر ومنه سميت الحرابة مخدعا فلما كان القائل آمنت مظهرا لهذه الكلمة غير مريد حقيقتها المرعية المطلوبة شرعا بل مريد لحكمها وثمرتها فقط مخادعا كان المتكلم بلفظ بعت واشتريت وطلقت ونكحت وخالعت وأجرت وساقيت وأوصيت غير مريد لحقائقها الشرعية المطلوبة منها بل مريدا لامور أخرى غير ما شرعت له أو ضد ما شرعت له مخادعا اذاك مخادع في أصل الايمان وهذا مخادع في أعماله وشرائعه قال شيخنا وهذا ضرب من النفاق في آيات الله تعالى وحدوده كما أن الاول نفاق في أصل الدين يؤيد ذلك ما رواه سعيد بن منصور عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه أنه جاء رجل فقال ان ابن عمي طلق امرأته ثلاثا أيحلها له رجل قال من يخادع الله يخدعه وعن أنس بن مالك انه سئل عن العينة يعني بيع الحريرة فقال ان الله تعالى لا يخدع هذا ما حرم الله تعالى ورسوله رواه أبو جعفر محمد بن سليمان الحافظ المعروف بمطين في كتاب البيوع وعن ابن عباس انه سئل عن العينة يعني بيع الحريرة فقال ان الله لا يخدع هذا مما حرم الله تعالى ورسوله رواه الحافظ أبو محمد النخشي فسمى الصحابة من أظهر عقد التبايع ومقصوده به الربا خداعا لله وهم الرجوع اليهم في هذا الشأن والمعول عليهم في فهم القرآن وقد تقدم عن عثمان وعبد الله بن عمر وغيرهما انهما قالا في المطلقة ثلاثا لا يحلها الا نكاح رغبة لا نكاح دلسة قال أهل اللغة المدالسة المخادعة وقال أيوب السختياني في المحتالين يخادعون الله كأنما يخادعون الصبيان فلو أتوا الامر عيانا كان أهون علي وقال شريك بن عبد الله القاضي في كتاب الحيل هو كتاب المخادعة وكذلك المعاهدون اذ أظهروا للرسول صلى الله عليه وسلم انهم يريدون سلمه وهم يقصدون بذلك المكر به من حيث لا يشعر فيظهرون له أمانا ويبطنون له خلافه كما أن المحلل والمرابي يظهر

عن ارادته لخلق العالم وان يكون صدوره عن مشيئته وارادته وجعلوه لازما لذاته كالمضطر الى صدوره عنه وكذلك المعتزلة الجهمية نزهوه عن صفات كماله لئلا يقعوا في تشبيه ثم شبهوه بخلقه في أفعاله وحكموا عليه بحسن ما يحسن منهم وقبح ما يقبح منهم مع تشبيهه بها في سلب صفات كماله بالجمادات والناقصات وان من فر من اثبات السمع والبصر والكلام والحياة له لئلا يشبهه فقد شبهه بالاحجار التي لا تسمع ولا تبصر ولا تتكلم ومن عطله عن صفة الكلام لما يلزم من تشبيه بزعمه فقد شبهه بأصحاب الخرس والآفات الممتنع منهم الكلام ومن نزهه عن نزوله كل ليلة الى سماء الدنيا ودنوه عشية عرفة من أهل الموقف ومجيئه يوم القيامة للقضاء بين عباده فرارا من تشبيهه بالاجسام فقد شبهه بالجماد الذي لا يتصرف ولا يفعل ولا يجيء ولا يأتي ولا ينزل ومن نزهه عن ان يفعل لغرض أو حكمة أو داع الى الفعل حذرا من تشبيهه بالفاعلين لذلك فقد شبهه باهل السفه والعبث الذين لا يقصدون بافعالهم غاية محمودة ولا غرضا مطلوبا محبوبا ومن نزهه عن خلق أفعال عباده وتصرفه فيهم بالهداية والاضلال وتخصيص من شاء منهم بفضله أو منعه لمن شاء حذرا من الظلم بزعمه فقد وصفه باقبح الظلم والجور حيث يخلد في اطباق النيران من استنفد عمره كله في طاعته اذا فعل قبل الموت كبيرة واحدة فانها تحبط جميع ذلك الطاعات وتجعلها هباء منثورا وتخلد في جهنم مع الكفار ما لم يتب منها الى غير ذلك من أصولهم الفاسدة فروى منه فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم قاعدة كمال العبد وصلاحه يتخلف عنه من أحد جهتين اما أن يكون طبيعته يابسة قاسية غير لينة ولا منقادة ولا قابلة لما به كمالها وفلاحها واما ان تكون لينة منقادة سلسة القياد لكنها غير ثابتة على ذلك بل سريعة ان الانتقال عنه كثيرة التقلب فمتى رزق العبد انقيادا للحق وثباتا عليه فليبشر فقد بشر بكل خير وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء قاعدة اذا ابتلى الله عبده بشيء من أنواع البلايا والمحن فان رده ذلك الابتلاء والمحن الى ربه وجمعه عليه وطرحه ببابه فهو علامة سعادته وارادة الخير به

ان النكاح والبيع المقصودين ومقصود هذا الطلاق بعد استفراش المرأة ومقصود الآخر ما توطآ عليه قبل اظهار العقد من بيع الالف بالالف ومائتين الى أجل فمخالفة مايدل عليه العقد شرعا أو عرفا خديعة قال وتلخيص ذلك ان مخادعة الله تعالى حرام والحيل مخادعة لله بيان الاول ان الله تعالى ذم المنافقين بالمخادعة وأخبر أنه خادعهم وخدعه للعبد عقوبة تستلزم فعله للمحرم وبيان الثانى ان ابن عباس والشافعى وغيرهما من الصحابة والتابعين أفتوا ان التحليل ونحوه من الحيل مخادعة لله تعالى وهم أعلم بكتاب الله تعالى الثانى ان المخادعة اظهار شئ من الخير وابطان خلافه كما تقدم الثالث ان المنافق لما أظهر الاسلام ومراده غيره سمى مخادعا لله تعالى وكذلك المرابى فان النفاق والربا من باب واحد فاذا كان هذا الذى أظهر قولا غير معتقد ولا مريد لما يفهم منه وهذا الذى أظهر فعلا غير معتقد ولا مريد لما شرع له مخادعا فالمحتال لايخرج عن أحد القسمين إما اظهار فعل لغير مقصوده الذى شرع له أو اظهار قول لغير مقصوده الذى شرع له واذا كان مشاركا لهما فى المعنى الذى سميا به مخادعين وجب أن يشركهما فى اسم الخداع وعلم ان الخداع اسم لعموم الحيل لا لخصوص هذا النفاق (الوجه الثانى) ان الله تعالى ذم المستهزئين بآياته والمتكلم بالاقوال التى جعل الشارع لها حقائق ومقاصد مثل كلمة الايمان وكلمة الله تعالى التى يستحل بها الفروج ومثل العهود والمواثيق التى بين المتعاقدين وهو لايريد بها حقائقها المقومة لها ولا مقاصدها التى جعلت هذه الالفاظ محصلة لها بل يريد أن يراجع المرأة ليضرها ويسئ عشرتها ولا حاجة له فى نكاحها الا ليحلها لمطلقها الا ليتخذها زوجا أو يخلعها ليلبسها أو يبيع بيعا جائزا ومقصوده به ما حرمه الله تعالى ورسوله وهو ممن اتخذ آيات الله تعالى هزوا ويوضحه (الوجه الثالث) مارواه ابن ماجه باسناد حسن عن أبى موسى الاشعرى رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مابال أقوام يلعبون بحدود الله ويستهزؤن بآياته طلقتك راجعتك طلقتك راجعتك فجعل المتكلم بهذه العقود غير مريد لحقائقها وما شرعت له مستهزئا بآيات الله تعالى متلاعبا بحدوده ورواه ابن بطة باسناد جيد ولفظه خلعتك راجعتك خلعتك راجعتك (الوجه الرابع) مارواه النسائى عن محمود بن لبيد أن رجلا طلق امرأته ثلاثا على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم الحديث وقد تقدم فجعله لاعبا بكتاب الله مع قصده الطلاق لكنه خالف وجه الطلاق وأراد به غير ما اراد الله تعالى به فان الله سبحانه وتعالى أراد أن يطلق طلاقا يملك فيه رد المرأة اذا شاء فطلق طلاقا لايملك فيه ردها وأيضا فان المرتين والمرات فى لغة القرآن والسنة بل ولغة العرب بل ولغات سائر الامم لما كان مرة بعد مرة فاذا جمع المرتين والمرات فى مرة واحدة فقد تعدى حدود الله تعالى وما دل عليه كتابه فكيف

والشدة بتراء لا دوام لها وان طالت فتقلع عنه حين يقلع وقد عوض منها أجل عوض وأفضله وهو رجوعه الى الله بعد ان كان شاردا عنه واقباله عليه بعد ان كان نائيا عنه وانطراحه على بابه بعد ان كان معرضا وللوقوف على أبواب غيره متعرضا وكانت البلية فى حق هذا عين النعمة وان ساءته وكرهها طبعه ونفرت منها نفسه فربما كان مكروه النفوس الى محبوبها سببا ما مثله سبب وقوله تعالى فى ذلك هو الشفاء والعصمة وعسى أن تكرهوا شيأ وهو خير لكم وعسى ان تحبوا شيأ وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون وان لم يرده ذلك البلاء اليه بل شرد قلبه عنه ورده الى الخلق وأنساه ذكر ربه والضراعة اليه والتذلل بين يديه والتوبة والرجوع اليه فهو علامة شقاوته وارادة الشر به فهذا اذا أقلع عنه البلاء رده الى حكم طبيعته وسلطان شهوته ومرحه وفرحه فجاءت طبيعته عند القدرة بانواع الاشر والبطر والاعراض عن شكر المنعم عليه بالسراء كما أعرض عن ذكره والتضرع اليه فى الضراء فبلية هذا وبال عليه وعقوبة ونقص فى حقه وبلية الاول تطهير له ورحمة وتكميل وبالله التوفيق (قاعدة فى مشاهد الناس فى المعاصى والذنوب) الناس فى البلوى التى تجرى عليهم أحكامها بارادتهم وشهواتهم متفاوتون بحسب شهودهم لاسبابها وغاياتها أعظم تفاوت وجماع ذلك ثمانية مشاهد (أحدها) شهود السبب الموصل اليها والغاية المطلوبة منها فقط وهو شهود الحيوانات اذ لا تشهد الا طريق وطرها وبرد النفس بعد تناولها وهذا الضرب من الناس ليس بينه وبين الحيوان البهيم فى ذلك فرق الا بدقيق الحيلة فى الوصول اليها وربما زاد غيره من الحيوانات عليه مع تناولها ولذتها (المشهد الثانى) من يشهد مع ذلك مجرد الحكم القدرى وجريانه عليه ولا يجوز شهوده ذلك وربما رأى ان الحقيقة هى توفية هذا المشهد حقه ولا يتم له ذلك الا بالفناء عن شهود فعله هو جملة فيشهد الفاعل فيه غيره والمحرك سواه فلا ينسب الى نفسه فعلا ولا يرى لها اساءة ويزعم ان هذا هو التحقيق والتوحيد وربما زاد على ذلك انه يشهد نفسه مطيعا من وجه وان كان عاصيا من وجه آخر فيقول أنا

اذا اراد باللفظ الذى رتب عليه الشارع حكما ضد ما قصده الشارع (الوجه الخامس) ان الله سبحانه أخبر عن أهل الجنة الذين بلاهم بما بلاهم به فى سورة نون وانه عاقبهم بما أرسل على جنتهم طائف وهم نائمون فأصبحت كالصريم وذلك لما تحيلوا على اسقاط نصيب المساكين بان يصرموها مصبحين من قبل مجيء المساكين فكان فى ذلك عبرة لكل محتال على اسقاط حق من حقوق الله تعالى أو حقوق عباده (الوجه السادس) ان الله تعالى أخبر عن أهل السبت من اليهود بمسخهم قردة لما احتالوا على اباحة ما حرمه الله تعالى عليهم من الصيد بأن نصبوا الشباك يوم الجمعة فلما وقع فيها الصيد أخذوه يوم الاحد قال بعض الائمة ففى هذا ازجر عظيم لمن يتعاطى الحيل على المناهى الشرعية ممن يتلبس بعلم الفقه وهو غير فقيه اذ الفقيه من يخشى الله تعالى بحفظ حدوده وبعظم حرماته والوقوف عندها ليس المتحيل على اباحة محارمه واسقاط فرائضه ومعلوم انهم لم يستحلوا ذلك تكذيبا لموسى عليه السلام وكفرا بالتوراة وانما هو استحلال تأويل واحتيال ظاهره ظاهر الايفاء وباطنه باطن الاعتداء ولهذا والله أعلم مسخوا قردة لان صورة القرد فيها شبه من صورة الانسان وفى أوصافه شبه منهم وهو مخالف له فى الحد والحقيقة فلما نسخ أولئك المعتدون دين الله تعالى بحيث لم يتمسكوا الا بما يشبه الدين فى بعض ظاهره دون حقيقته مسخهم الله تعالى قردة يشبهونهم فى بعض ظواهرهم دون الحقيقة جزاء وفاقا يوضحه (الوجه السابع) ان بنى اسرائيل كانوا أكلوا الربا وأموال الناس بالباطل كما قصه الله تعالى فى كتابه وذلك أعظم من أكل الصيد الحرام فى يوم بعينه ولذلك كان الربا والظلم حراما فى شريعتنا والصيد يوم السبت غير محرم فيها ثم ان أكلة الربا وأموال الناس بالباطل لم يعاقبوا بالمسخ كما عوقب به مستحلو الحرام بالحيلة وان كانوا عوقبوا بجنس آخر كعقوبات أمثالهم من العصاة فيشبه والله أعلم ان هؤلاء لما كانوا أعظم جرما اذ هم بمنزلة المنافقين ولا يعترفون بالذنب بل قد فسدت عقيدتهم وأعمالهم كانت عقوبتهم أغلظ من عقوبة غيرهم فان من أكل الربا والصيد الحرام عالما بانه حرام فقد اقترن بمعصيته اعترافه بالتحريم وهو ايمان بالله تعالى وآياته ويترتب على ذلك من خشية الله تعالى ورجاء مغفرته وامكان التوبة ما قد يفضى الى خير ورحمة ومن أكله مستحلا بنوع احتيال تأول فيه فهو مصر على الحرام وقد اقترن به اعتقاده الفاسد فى حل الحرام وذلك قد يفضى به الى شر طويل وقد جاء ذكر المسخ فى عدة أحاديث قد تقدم بعضها فى هذا الكتاب كقوله فى حديث أبى مالك الاشعرى الذى رواه البخارى فى صحيحه ويمسخ آخرين قردة وخنازير الى يوم القيامة وقوله فى حديث أنس ليبيتن رجال على أكل وشرب وعزف فيصبحون على أرائكهم ممسوخين قردة وخنازير وفى حديث أبى امامة أيضا يبيت قوم من هذه الامة على طعم وشرب ولهو فيصبحون وقد مسخوا قردة

وخنازير

مطيع الارادة والمشيئة وان كنت عاصيا للامر وان كان ممن يرى الامر تلبيسا وضبطا للرعاع عن انخبطوا الحرمان مع حكم الطبيعة الحيوانية فقد رأى نفسه مطيعا لا عاصيا كما قال قائلهم فى هذا المعنى أصبحت منفعلا لما يختاره * منى ففعلى كله طاعات وأصحاب المشهد الاول أقرب الى السلامة من هؤلاء وخير منهم وهذا المشهد (١٨٦) بعينه هو المشهد الذى يشهده المشركون عباد الاصنام ووقفوا عنده كما قالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم وقالوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شئ واذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه فهذا مشهد من أشرك بالله ورد أمره وهو مشهد ابليس الذى انتهى اليه اذ يقول لربه رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الارض ولأغوينهم أجمعين والله أعلم (المشهد الثالث) مشهد الفعل الكسبى القائم بالعبد فقط ولا يشهد الا صدوره عنه وقيامه به ولا يشهد مع ذلك مشيئة الرب له ولا جريان حكمه القدرى به ولا عزة الرب فى قضائه ونفوذ أمره بل قد فنى بشهود معصيته بذنبه وقبح ما اجترمه عن شهود المشيئة النافذة والقدر السابق اما لعدم اتساع قلبه لشهود الامرين فقد امتلأ من شهود ذنبه وجرمه وفعله له مع انه مؤمن بقضاء الرب وقدره وان العبد أقل قدرا من أن يحدث فى نفسه ما لم يسبق به مشيئة بارئه وخالقه واما لانكاره القضاء والقدر جملة وتنزيهه للرب ان يقدر على العبد شيأ ثم يلومه عليه فاما الاول وان كان مشهده صحيحا نافعا له موجبا له ان لا يزال لائما لنفسه مزريا عليها ناسبا للذنب والعيب اليها معترفا بانه يستحق العقوبة والنكال وان الله سبحانه ان عاقبه فهو العادل فيه وانه هو الظالم لنفسه وهذا كله حق لا ريب فيه لكن صاحبه ضعيف مغلوب مع نفسه غير معان عليها بل هو معها كالمقهور المخذول فانه لم يشهد عزة الرب فى قضائه ونفوذ أمره الكونى ومشيئته وانه لو شاء لعصمه وحفظه وانه لا معصوم الا من عصمه ولا محفوظ الا من حفظه وانه هو محل لجريان أقضيته وأقداره مسوق اليها فى سلسلة ارادته وشهوته وان تلك السلسلة طرفها بيد غيره فهو أقادر على سوقه فيها الى ما فيه صلاحه وفلاحه

وخنازير وفى حديث عمران بن حصين يكون فى أمتى قذف ومسخ وخسف وكذلك فى حديث سهل بن سعد وكذلك حديث على بن أبى طالب وقوله فليرتقبوا عند ذلك ريحا حمراء وخسفا ومسخا وفى حديثه الآخر يمسخ طائفة من أمتى قردة وطائفة خنازير وفى حديث أنس رضى الله عنه ليكونن فى هذه الامة خسف وقذف ومسخ وفى حديث أبى هريرة رضى الله عنه يمسخ قوم من هذه الامة فى آخر الزمان قردة وخنازير قالوا يارسول الله أليس يشهدون أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله قال بلى ويصومون ويصلون ويحجون قال فما بالهم قال اتخذوا المعازف والدفوف والقينات فباتوا على شربهم ولهوهم فأصبحوا وقد مسخوا قردة وخنازير وفى حديث جبير بن نفير ليبتلين آخر هذه الامة بالرجف فان تابوا تاب الله عليهم وان عادوا عاد الله تعالى عليهم بالرجف والقذف والمسخ والصواعق وقال سالم بن أبى الجعد ليأتين على الناس زمان يجتمعون فيه على باب رجل ينظرون أن يخرج اليهم فيطلبوا اليه الحاجة فيخرج اليهم وقد مسخ قردا أوخنزيرا وليمرن الرجل على الرجل فى حانوته يبيع فيرجع اليه وقد مسخ قردا أوخنزيرا وقال أبو هريرة لاتقوم الساعة حتى يمشى الرجلان الى الامر يعملانه فيمسخ أحدهما قردا أوخنزيرا فلا يمنع الذى نجا منهما مارأى بصاحبه أن يمضى الى شأنه ذلك حتى يقضى شهوته وحتى يمشى الرجلان الى الامر يعملانه فيخسف بأحدهما فلا يمنع الذى نجا منهما مارأى بصاحبه أن يمضى لشأنه ذلك حتى يقضى شهوته منه وقال عبد الرحمن بن غنم يوشك أن يقعد اثنان على ثفال رحى يطحنان فيمسخ أحدهما والآخر ينظر وقال مالك بن دينار بلغنى أن ريحا يكون فى آخر الزمان وظلم فيفزع الناس الى علمائهم فيجدونهم قد مسخهم الله وقد ساق هذه الاحاديث والآثار وغيرها بأسانيدها ابن أبى الدنيا فى كتاب ذم الملاهى فالمسخ على صورة القردة والخنازير واقع فى هذه الامة ولابد وهو فى طائفتين علماء الشر الكذابين على الله ورسوله الذين قلبوا دين الله تعالى وشرعه فقلب الله تعالى صورهم كما قلبوا دينهم والمجاهرين المتهتكين بالفسق والمحارم ومن لم يمسخ منهم فى الدنيا مسخ فى قبره أو يوم القيامة وقد جاء فى حديث الله أعلم بحاله يحشر أكلة الربا يوم القيامة فى صورة الخنازير والكلاب من أجل حيلتهم على الربا كما مسخ أصحاب داود لاحتيالهم على أخذ الحيتان يوم السبت وبكل حال فالمسخ لاجل الاستحلال بالاحتيال وقد جاء فى أحاديث كثيرة قال شيخنا وانما ذاك اذا استحلوا هذه المحرمات بالتأويلات الفاسدة فانهم لو استحلوها مع اعتقاد أن الرسول حرمها كانوا كفارا ولم يكونوا من أمته ولو كانوا معترفين بأنها حرام لاوشك أن لا يعاقبوا بالمسخ كسائر الذين يفعلون هذه المعاصى مع اعترافهم بأنها معصية ولما قيل فيهم يستحلون فان المستحل للشئ هو الذى يفعله معتقدا حله فيشبه أن يكون استحلالهم للخمر يعنى انهم يسمونها

والى مافيه هلاكه وشقاوه فهو لغيبته عن هذا المشهد وغلبة شهود المعصية والكسب على قلبه لايعطى التوحيد حقه ولا الاستعاذة بربه والاستغاثة به والالتجاء اليه والافتقار والتضرع والابتهال حقه بحيث يشهد سر قوله صلى الله عليه وسلم أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بعفوك من عقوبتك وأعوذ بك منك فانه سبحانه رب كل شئ وخالق كل شئ والمستعاذ منه واقع بخلقه ومشيئته ولو شاء لم يكن فالفرار منه اليه والاستعاذة منه به ولا ملجأ منه الا اليه ولا مهرب منه الا اليه لا اله الا هو العزيز الحكيم وأما الثانى وهو منكر القضاء والقدر فمخذول محجوب عن شهود التوحيد مصدود عن شهود الحكمة الالهية موكول الى نفسه ممنوع عن شهود عزة الرب فى قضائه وكمال مشيئته ونفوذ حكمه وعن شهود عجزه هو وفقره وانه لاتوفيق له الا بالله وانه ان لم يعنه الله فهو مخذول وان لم يوفقه ويخلق له عزيمة الرشد وفعله فهو عنه ممنوع فحجابه عن الله غليظ فانه لاحجاب أغلظ من الدعوى ولا طريق الى الله أقرب من دوام الافتقار اليه (المشهد الرابع) مشهد التوحيد والامر فيشهد انفراد الرب بالخلق ونفوذ مشيئته وتعلق الموجودات باسرها بها وجريان حكمه على الخليقة وانتهاءها الى ماسبق لها فى علمه وجرى به قلمه ويشهد مع ذلك أمره ونهيه وثوابه وعقابه وارتباط الجزاء بالاعمال واقتضاءها له ارتباط المسببات باسبابها التى جعلت أسبابا مقتضية له شرعا وقدرا وحكمة فشهوده توحيد الرب وانفراده بالخلق ونفوذ مشيئته وجريان قضائه وقدره يفتح له باب الاستعاذة ودوام الالتجاء اليه والافتقار اليه وذلك يدنيه من عتبة العبودية ويطرحه بالباب فقيرا عاجزا مسكينا لايملك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا وشهوده أمره تعالى ونهيه وثوابه وعقابه يوجب له الجد والتشمير وبذل الوسع والقيام بالامر والرجوع على نفسه باللوم والاعتراف بالتقصير فيكون سيره بين شهود العزة والحكمة والقدرة الكاملة والعلم السابق والمنة العظيمة وبين شهود التقصير والاساءة منه وتطلب عيوب نفسه وأعمالها فهذا هو العبد الموفق المعان الملطوف به المصنوع له الذى أقيم مقام العبودية وضمن له التوفيق وهذا هو مشهد الرسل فهو

بغير اسمها كما جاء فى الحديث فيشربون الانبذة المحرمة فيه ولا يسمونه خمرا واستحلالهم المعازف باعتقادهم ان آلات اللهو مجرد سمع صوت فيه لذة وهذا لا يحرم كاصوات الطيور واستحلال الحرير وسائر أنواعه باعتقادهم انه حلال فى بعض الصور كحال الحرب وحال الحكة ونحوها فيقيسوا عليه سائر الاحوال و يقولون لا فرق بين حال وحال وهذه التأويلات ونحوها واقعة فى الطوائف الثلاثة الذين قال فيهم عبد الله بن المبارك

وهل أفسد الدين الا الملوك * وأحبار سوء و رهبانها

ومعلوم أنها لا تغنى عن أصحابها من الله شيأ بعد ان بلغ الرسول و بين تحريم هذه الاشياء قاطعا للعذر مقيما للحجة والحديث الذى رواه أبو داود باسناد صحيح من حديث عبد الله ابن غنم عن أبى مالك الاشعرى رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ليشربن ناس من أمتى الخمر يسمونها بغير اسمها يعزف على رؤسهم بالمعازف والقينات يخسف الله تعالى بهم الارض ويجعل منهم القردة والخنازير ((الوجه الثامن)) أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى الحديث وهو أصل فى ابطال الحيل و به احتج البخارى على ذلك فان من أراد أن يعامل معاملة يعطيه فيها ألفا بألف وخمسمائة الى أجل فاقرضه تسعمائة و باعه ثوبا بستمائة يساوى ألفا انما نوى باقتراض التسعمائة تحصيل الربح الزائد وانما نوى بالستمائة التى أظهر انها عين الربا والله يعلم ذلك من جذر قلبه وهو يعلمه ومن عامله يعلمه ومن اطلع على حقيقة الحال يعلمه فليس له من عمله الا ما نواه وقصده حقيقة من اعطاء الالف حالة وأخذ الالف وخمسمائة مؤجلة وجعل صورة القرض وصورة البيع محللا لهذا المحرم ((الوجه التاسع)) ما رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال البيعان بالخيار حتى يتفرقا الا أن يكون صفقة خيار ولا يحل له أن يفارقه خشية أن يستقيله رواه أهل السنن وحسنه الترمذى وقد استدل به الامام أحمد وقال فيه ابطال الحيل و وجه ذلك ان الشارع أثبت الخيار الى حين التفرق الذى يفعله المتعاقدان بداعية طباعهما فحرم صلى الله تعالى عليه وسلم أن يقصد المفارق منع الآخر من الاستقالة وهى طلب الفسخ سواء كان العقد جائزا أو لازما لانه قصد بالتفرق غير ما جعل التفرق فى العرف له فانه قصد به ابطال حق أخيه من الخيار ولم يوضع التفرق لذلك وانما جعل التفرق لذهاب كل منهما فى حاجته ومصلحته ((الوجه العاشر)) ما روى محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود وتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل رواه أبو عبد الله بن بطة حدثنا أحمد ابن محمد بن سلام حدثنا الحسن بن الصباح الزعفرانى حدثنا يزيد بن هارون حدثنا محمد بن عمر وهذا اسناد جيد يصحح مثله الترمذى فى تحريم استحلال محارم الله تعالى

بالحيل

مشهد أبيهم آدم اذ يقول ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ومشهد أول الرسل نوح اذ يقول رب انى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم والا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين ومشهد امام الحنفاء وشيخ الانبياء ابراهيم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين اذ يقول الذى خلقنى فهو يهدين والذى هو يطعمنى و يسقين واذا مرضت فهو يشفين والذى يميتنى ثم يحيين والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين وقال فى دعائه رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى و بنى أن نعبد الاصنام فعلم صلى الله عليه وسلم ان الذى يحول بين العبد وبين الشرك وعبادة الاصنام هو الله لا رب غيره فسأله ان يجنبه و بنيه عبادة الاصنام وهذا هو مشهد موسى اذ يقول فى خطابه لربه أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ان هى الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين أى ان ذلك الا امتحانك واختبارك كما يقال فتنت الذهب اذا امتحنته واختبرته وليس من الفتنة التى هى الفعل المسىء كما فى قوله تعالى ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات وكما فى قوله وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة فان تلك فتنة المخلوق فان موسى أعلم بالله أن يضيف اليه هذه الفتنة وانما هى كالفتنة فى قوله وفتناك فتونا أى ابتليناك واختبرناك وصرفناك فى الاحوال التى قصها الله علينا من لدن ولادته الى وقت خطابه له وانزاله عليه كتابه والمقصود ان موسى شهد توحيد الرب وانفراده بالخلق والحكم وفعل السفهاء ومباشرتهم الشرك فتضرع اليه بعزته وسلطانه وأضاف الذنب الى فاعله وجانيه ومن هذا قوله رب انى ظلمت نفسى فاغفر لى قال تعالى فغفر له انه هو الغفور الرحيم وهذا مشهد ذى النون اذ يقول لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين فوحده ونزهه عن كل عيب وأضاف الظلم الى نفسه وهذا مشهد صاحب سيد الاستغفار اذ يقول فى دعائه اللهم أنت ربى لا اله الا أنت خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبى فاغفر لى انه لا يغفر الذنوب الا أنت فاقر بتوحيد الربوبية المتضمن لانفراده سبحانه

بالحيل وانما ذكر عليه السلام أدنى الحيل تنبيها على أن مثل هذا المحرم العظيم الذى قد توعد الله تعالى عليه بمحاربة من لم ينته عنه فمن أسهل الحيل على من أراد فعله أن يعطيه مثلا ألفا الا درهما باسم القرض ويبيعه خرقة تساوى درهما بخمسمائة وكذلك المطلق ثلاثا من أسهل الاشياء عليه أن يعطى بعض السفهاء عشرة دراهم مثلا ويستعيره لينزو على مطلقته فتطيب له بخلاف الطريق الشرعى فانه يصعب معه عودها حلالا اذ من الممكن أن لا يطلق بل ان يموت المطلق أولا قبله ثم انه عليه السلام نهانا عن التشبه باليهود وقد كانوا احتالوا فى الاصطياد يوم السبت بان حفروا اخنادق يوم الجمعة يقع فيها الحيتان يوم السبت ثم يأخذونها يوم الاحد وهذا عند المحتالين جائز لان فعل الاصطياد لم يوجد يوم السبت وهو عند الفقهاء حرام لان المقصود هو الكف عما ينال به الصيد بطريق التسبب والمباشرة ومن احتيالهم أن الله سبحانه وتعالى لما حرم عليهم أكل الشحوم تأولوا أن المراد نفس ادخاله الفم وان الشحم هو الجامد دون المذاب فجملوه فباعوه وأكلوا ثمنه وقالوا ما أكلنا الشحم ولم ينظروا فى أن الله تعالى اذا حرم الانتفاع بشئ فلا فرق بين الانتفاع بعينه أو ببدله اذ البدل يسد مسده فلا فرق بين حال جوده وودكه فلو كان ثمنه حلالا لم يكن فى تحريمه كثير أمر وهذا هو (الوجه الحادى عشر) وهو ما روى ابن عباس قال بلغ عمر رضى الله عنه أن فلانا باع خمرا فقال قاتل الله فلانا ألم يعلم أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال قاتل الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها متفق عليه قال الخطابى جملوها معناه أذابوها حتى تصير ودكا فيزول عنها اسم الشحم يقال جملت الشحم وأجملته واجتملته والجميل الشحم المذاب وعن جابر بن عبد الله انه سمع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يقول ان الله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والاصنام فقيل يا رسول الله أرأيت شحوم الميتة فانه يطلى بها السفن ويدهن بها الجلود ويستصبح بها الناس فقال لا هو حرام ثم قال عليه السلام عند ذلك قاتل الله اليهود ان الله لما حرم شحومها جملوه ثم باعوه وأكلوا ثمنه رواه البخارى وأصله متفق عليه قال الامام أحمد فى رواية صالح وأبى الحارث فى أصحاب الحيل عمدوا الى السنن فاحتالوا فى نقضها فالشئ الذى قيل انه حرام احتالوا فيه حتى أحلوه ثم احتجوا بهذا الحديث وحديث لعن الله المحلل والمحلل له قال الخطابى وقد ذكر حديث الشحوم فى هذا الحديث بطلان حيلة يحتال بها المتوصل الى المحرم وانه لا يتغير حكمه بتغير هيآته وتبديل اسمه وقد مثلت حيلة أصحاب الشحوم بمن قيل له لا تقرب مال اليتيم فباعه وأخذ ثمنه فأكله وقال لم آكل نفس مال اليتيم أو اشترى شيأ فى ذمته ونقده وقال هذا قد ملكته وصار عوضه دينا فى ذمته فانما أكلت ماهو ملكى ظاهرا وباطنا ولولا أن الله سبحانه رحم هذه الامة بأن نبيها نبههم على ما لعنت به اليهود وكان السابقون منها فقهاء أتقياء علموا مقصود الشارع فاستقرت الشريعة بتحريم

بالخلق وعموم المشيئة ونفوذها وتوحيد الالهية المتضمن لحبه وعبادته وحده لا شريك له والاعتراف بالعبودية المتضمن للافتقار من جميع الوجوه اليه سبحانه ثم قال وأنا على عهدك ووعدك فتضمن ذلك التزام شرعه وأمره ودينه وهو عهده الذى عهده الى عباده وتصديق وعده وهو جزاؤه من ثوابه فتضمن التزام الامر والتصديق بالموعود وهو الايمان والاحتساب ثم لما علم ان العبد لا يوفى بهذا المقام حقه الذى يصلح له تعالى علق ذلك باستطاعته وقدرته التى لا يتعداها فقال ما استطعت أى ألتزم ذلك بحسب استطاعتى وقدرتى ثم شهد المشهدين المذكورين وهما مشهد القدرة والقوة ومشهد التقصير من نفسه فقال أعوذ بك من شر ما صنعت فهذه الكلمة تضمنت المشهدين معا ثم أضاف النعم كلها الى وليها وأهلها والمبتدئ بها والذنب الى نفسه وعمله فقال أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبى فانت المحمود والمشكور الذى له الثناء كله والاحسان كله ومنه النعم كلها فلك الحمد كله ولك الثناء كله ولك الفضل كله وأنا المذنب المسىء المعترف بذنبه المقر بخطئه كما قال بعض العارفين العارف يسير بين مشاهدة المنة من الله ومطالعة عيب النفس والعمل فشهود المنة توجب له المحبة لربه سبحانه وحمده والثناء عليه ومطالعة عيب النفس والعمل توجب استغفاره ودوام توبته وتضرعه واستكانته لربه سبحانه ثم لما قام هذا بقلب الداعى وتوسل اليه بهذه الوسائل قال فاغفر لى فانه لا يغفر الذنوب الا أنت

(فصل) ثم أصحاب هذا المشهد فيه قسمان أحدهما من يشهد تسليط عدوه عليه وقيادة اياه وسلسلة الهوى وكبحه اياه بلجام الشهوة فهو أسير معه بحيث يسوقه الى ضرب عنقه وهو مع ذلك ملتفت الى ربه وناصره ووليه عالم بان نجاته فى يديه وناصيته بين يديه وانه لو شاء طرده عنه وخلصه من يديه فكلما قاده عدوه وكبحه بلجامه أكثر الالتفات الى وليه وناصره والتضرع اليه والتذلل بين يديه وكلما أراد اغترابه وبعده عن بابه ذكر عطفه وبره واحسانه وجوده وكرمه وغناه وقدرته ورأفته ورحمته فانجذبت دواعى قلبه هاربة اليه متراميه على بابه منطرحة

المحرمات من الميتة والدم ولحم الخنزير وغيرها وان تبدلت صورها وبتحريم أثمانها لتطرق الشيطان لاهل الحيل ما طرق لهم في الايمان ونحوها اذ البابان باب واحد على ما لا يخفى ﴿الوجه الثاني عشر﴾ ان باب الحيل المحرمة مداره على تسمية الشئ بغير اسمه وعلى تغيير صورته مع بقاء حقيقته فمداره على تغيير الاسم مع بقاء المسمى وتغيير الصورة مع بقاء الحقيقة فان المحلل غير اسم التحليل الى اسم النكاح واسم المحلل الى الزوج وغير مسمى التحليل بأن جعل صورته صورة النكاح والحقيقة حقيقة التحليل ومعلوم قطعا ان لعن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على ذلك انما هو لما فيه من الفساد العظيم الذي اللعنة من بعض عقوبته وهذا الفساد لم يزل بتغيير الاسم والصورة مع بقاء الحقيقة ولا بتقديم الشرط من صلب العقد الى ما قبله فان المفسدة تابعة للحقيقة لا للاسم ولا لمجرد الصورة وكذلك المفسدة العظيمة التي اشتمل عليها الربا لا تزول بتغيير اسمه من الربا الى المعاملة ولا بتغيير صورته من صورة الى صورة والحقيقة معلومة متفق عليها بانهما قبل العقد يعلمها من قلوبهما عالم السرائر فقد اتفقا على حقيقة الربا الصريح قبل العقد ثم غيرا اسمه الى المعاملة وصورته الى التبايع الذي لا قصد لهما فيه البتة وانما هو حيلة ومكر ومخادعة لله تعالى ولرسوله عليه السلام وأي فرق بين هذا وبين ما فعلته اليهود من استحلال ما حرم عليهم من الشحوم بتغيير اسمه وصورته فانهم أذابوه حتى صار ودكا وباعوه وأكلوا ثمنه وقالوا انما أكلنا الثمن لا المثمن فلم نأكل شحما وكذلك من استحل الخمر باسم النبيذ كما في حديث أبي مالك الاشعري رضي الله عنه عن النبي عليه السلام أنه قال ليشربن ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها يعزف على رؤسهم بالمعازف والمغنيات يخسف الله بهم الارض ويجعل منهم القردة والخنازير وانما أتى هؤلاء حين استحلوا المحرمات بما ظنوه من انتفاء الاسم ولم يلتفتوا الى وجود المعنى المحرم وثبوته وهذا بعينه هو شبهة اليهود في استحلال بيع الشحم بعد جمله واستحلال أخذ الحيتان يوم الاحد بما أوقعوها به يوم السبت في الحفائر والشباك من فعلهم يوم الجمعة وقالوا ليس هذا صيد يوم السبت ولا استباحة لنفس الشحم بل الذي يستحل الشراب المسكر زاعما انه ليس خمرا مع علمه أن معناه معنى الخمر ومقصوده مقصوده وعمله عمله أفسد تأويلا فان الخمر اسم لكل شراب مسكر كما دلت عليه النصوص الصحيحة وقد جاء هذا الحديث عن النبي عليه السلام من وجوه أخرى منها ما رواه النسائي عنه عليه السلام يشرب ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها واسناده صحيح ومنها ما رواه ابن ماجه عن عبادة بن الصامت يرفعه يشرب ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها ورواه الامام أحمد ولفظه ليستحلن طائفة من أمتي الخمر ومنها ما رواه ابن ماجه أيضا من حديث أبي أمامة قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لا تذهب الليالي والايام حتى يشرب طائفة من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها فهؤلاء

انما

على ذاته قد شد كتفيه ويداه الى عنقه وقدم ليضرب عنقه وقد استسلم للقتل فنظر الى سيده أمامه وتذكر عطفه ورأفته به ووجد فرجة فوثب اليه منها وثبة طرح نفسه بين يديه ومد له عنقه وقال انا عبيدك ومسكينك وهذه ناصيتي بين يديك ولا خلاص لي من هذا العدو الا بك واني مغلوب فانتصر فهذا مشهد عظيم (١٩٠) المنفعة جليل الفائدة تحته من أسرار العبودية ما لا يناله الوصف وفوقه مشهد أجل منه وأعظم وأخص تجفو عنه العبارة وان الاشارة اليه بعض الاشارة وتقريبه الى الفهم يضرب مثل تعبر منه اليه وذلك مثل عبد أخذه سيده بيده وقدمه ليضرب عنقه بسيفه فرو قد أحكم ربطه وشد عينيه وقد أيقن العبد انه في قبضته وانه هو قاتله لا غيره وقد علم مع ذلك بره به ولطفه ورحمته ورأفته وجوده وكرمه فهو يناشده باوصافه ويدخل عليه به قد ذهب عن وهمه وشهوده كل سبب فانقطع تعلقه بشئ سواه فهو معرض عن عدوه الذي كان سبب غضب سيده عليه قد محى شهوده من قلبه فهو مقصور النظر الى سيده وكونه في قبضته ناظر الى ما يصنعه منتظر منه ما يقتضيه عطفه وبره وكرمه ومثل الاول مثل عبد أمسكه عدوه وهو يخنقه الموت وذلك العبد يشهد نوع عدوه له ويستغيث بسيده وسيده يغيثه ويرحمه ولكن ما يحصل للثاني في مشهده ذلك من الامور العجيبة فوق ما يحصل للاول وهو بمنزلة من قد أخذه محبوبه فهو يخنقه خنقة وهو لا يشهد الا خنقه له فهو يقول اخنق خنقك فانت تعلم ان قلبي يحبك وفي هذا المثل اشارة وكفاية ومن غلظ حجابه وكثفت طباعه لا ينفعه التدريج فضلا عن ضرب الامثال والله المستعان وعليه التكلان ولا قوة الا بالله فهذه ستة مشاهد (المشهد السابع) مشهد الحكمة وهو ان يشهد حكمة الله في تخليته بينه وبين الذنب واقداره عليه وتهيئته أسبابه له وانه لو شاء لعصمه وحال بينه وبينه ولكنه خلى بينه وبينه لحكمة عظيمة لا يعلم مجموعها الا الله أحدها انه يحب التوابين ويفرح بتوبتهم فلمحبته للتوبة وفرحه بها قضى على عبده بالذنب ثم اذا كان ممن سبقت له العناية قضى له بالتوبة الثاني تعريف العبد عزة الله سبحانه

تماشربوا الخمر استحلالا لما ظنوا أن المحرم مجرد ما وقع عليه اللفظ وان ذلك اللفظ لا يتناول ما استحلوه وكذلك شبهتهم في استحلال الحرير والمعازف فان الحرير أبيح للنساء وأبيح للضرورة وفي الحرب وقد قال تعالى قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والمعازف قد أبيح بعضها في العرس ونحوه وأبيح الحداء وأبيح بعض أنواع الغناء وهذه الشبهة أقوى بكثير من شبه أصحاب الحيل فاذا كان من عقوبة هؤلاء أن يمسخ بعضهم قردة وخنازير فما الظن بعقوبة من جرمهم أعظم وقبحهم أقبح فالقوم الذين يخسف بهم ويمسخون انما فعل ذلك بهم من جهة التأويل الفاسد الذي استحلوا به المحارم بطريق الحيلة وأعرضوا عن مقصود الشارع وحكمته في تحريم هذه الاشياء ولذلك مسخوا قردة وخنازير كما مسخ أصحاب السبت بما تأولوا من التأويل الفاسد الذي استحلوا به المحارم وخسف ببعضهم كما خسف بقارون لان في الخمر والحرير والمعازف من الكبر والخيلاء ما في الزينة التي خرج فيها قارون على قومه فلما مسخوا دين الله تعالى مسخهم ولما تكبروا عن الحق أذلهم الله تعالى فلما جمعوا بين الامرين جمع لهم بين هاتين العقوبتين وما هي من الظالمين ببعيد وقد جاء ذكر المسخ والخسف في عدة أحاديث تقدم ذكر بعضها

(فصل) وقد أخبر صلى الله تعالى عليه وسلم ان طائفة من أمته يستحل الربا باسم البيع كما أخبر عن استحلال الخمر باسم آخر فروى ابن بطة باسناده عن الاوزاعي عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يأتي على الناس زمان يستحلون الربا بالبيع يعني العينة وهذا وان كان مرسلا فانه صالح للاعتضاد به بالاتفاق وله من المسندات ما يشهد له وهي الاحاديث الدالة على تحريم العينة فانه من المعلوم ان العينة عند مستحلها انما يسميها بيعا وفي هذا الحديث بيان أنها ربا لا بيع فان الامة لم يستحل أحد منها الربا الصريح وانما استحل باسم البيع وصورته فصوروه بصورة البيع وأعاروه لفظه ومن المعلوم أن الربا لم يحرم لمجرد صورته ولفظه وانما حرم لحقيقته ومعناه ومقصوده وتلك الحقيقة والمعنى والمقصود قائمة في الحيل الربوية كقيامها في صريحه سواء والمتعاقدان يعلمان ذلك من أنفسهما ويعلمه من شاهد حالهما والله يعلم أن قصدهما نفس الربا وانما توسلا اليه بعقد غير مقصود وسمياه باسم مستعار غير اسمه ومعلوم ان هذا لا يدفع التحريم ولا يرفع المفسدة التي حرم الربا لاجلها بل يزيدها قوة وتأكيدا من وجوه عديدة منها انه يقدم على مطالبة الغريم المحتاج بقوة لا يقدم مثلها المربي صريحا لانه واثق بصورة العقد واسمه ومنها أنه يطالبه مطالبة يعتقد حل تلك الزيادة وطيبها بخلاف مطالبة المربي صريحا ومنها اعتقاده أن ذلك تجارة حاضرة مدارة والنفوس أرغب شئ في التجارة فهو في ذلك بمنزلة من أحب امرأة حبا شديدا ويمنعه من وصالها كونها محرمة عليه فاحتال الى أن وقع بينه وبينها صورة عقد لا حقيقة له يأمن به من بشاعة الحرام وشناعته فصار يأتيها آمنا وهما يعلمان في

في قضائه ونفوذ مشيئته وجريان حكمه الثالث تعريفه حاجته الى حفظه وصيانته وانه ان لم يحفظه ويصنه فهو هالك ولابد والشياطين قد مدت أيديها اليه تمزقه كل ممزق الرابع استجلابه من العبد استعانته به واستعاذته به من عدوه وشر نفسه ودعاءه والتضرع اليه والابتهال بين يديه الخامس ارادته من عبده تكميل مقام الذل والانكسار فانه متى يشهد صلاحه واستقامته شمخ بانفه وظن انه وأنه فاذا ابتلاه بالذنب تصاغرت عنده نفسه وذلت وتيقن وتمنى انه وانه السادس تعريفه بحقيقة نفسه وانها الخطائة الجاهلة وان كل ما فيها من علم أو عمل أو خير فمن الله من به عليه لا من نفسه السابع تعريفه عبده سعة حلمه وكرمه في ستره عليه فانه لو شاء لعاجله على الذنب ولهتكه بين عباده فلم يصف له معهم عيش الثامن تعريفه انه لا طريق الى النجاة الا بعفوه ومغفرته التاسع تعريفه كرمه في قبول توبته ومغفرته له على ظلمه واساءته العاشر اقامة الحجة على عبده فان له عليه الحجة البالغة فان عذبه فبعدله وببعض حقه عليه بل باليسير منه الحادي عشر أن يعامل عباده في اساءتهم اليه وزلاتهم معه بما يحب أن يعامله الله به فان الجزاء من جنس العمل فيعمل في ذنوب الخلق معه ما يحب أن يصنعه الله بذنوبه الثاني عشر أن يقيم معاذير الخلائق ويتسع رحمته لهم مع اقامة أمر الله فيهم فيقيم أمر الله فيهم رحمة لهم لا قسوة وفظاظة عليهم الثالث عشر أن يخلع صولة الطاعة والاحسان من قلبه فتتبدل برقة ورأفة ورحمة الرابع عشر أن يعريه من رداء العجب بعمله كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لو لم تذنبوا لخفت عليكم ما هو أشد منه العجب أو كما قال الخامس عشر أن يعريه من لباس الادلال الذي يصلح للملوك ويلبسه لباس الذل الذي لا يليق بالعبد سواه السادس عشر ان يستخرج من قلبه عبوديته بالخوف والخشية وتوابعهما من البكاء والاشفاق والندم السابع عشر ان يعرف مقداره مع معافاته وفضله في توفيقه وعصمته فان من تربى في العافية لا يعرف ما يقاسيه المبتلى ولا يعرف مقدار العافية الثامن عشر أن يستخرج منه محبته وشكره لربه اذا تاب اليه ورجع اليه فان الله يحبه ويوجب له بهذه التوبة مزيد محبة

الناظر أنها ليست زوجته وانما أظهرا صورة عقد يتوصلان به الى الغرض ومن المعلوم أن هذا يزيد المفسدة التى حرم الحليم الخبير لاجلها الربا والزنا قوة فان الله سبحانه وتعالى حرم الربا لما فيه من ضرر المحتاج وتعريضه للفقر الدائم والدين اللازم الذى لا ينفك عنه وتولد ذلك وزيادته الى غاية تجتاحه وتسلبه متاعه وأثاثه كما هو الواقع فى الواقع فالربا أخو القمار الذى يجعل المقمور حزينا محسورا فمن تمام حكمة الشريعة الكاملة المنتظمة لصلاح العباد تحريمه وتحريم الذريعة الموصلة اليه كما حرم التفرق فى الصرف قبل القبض وأن يبيعه درهما بدرهم الى أجل وان لم يكن هناك زيادة فكيف يظن بالشارع مع كمال حكمته أن يبيح التحيل والمكر على حصول هذه المفسدة ووقوعها زائدة متضاعفة باكل المحتال فيها مال المحتاج أضعافا مضاعفة ولو سلك مثل هذا بعض الاطباء مع المرضى لاهلكهم فان ما حرم الله تعالى ورسوله عليه السلام من المحرمات انما هو حمية لحفظ صحة القلب وقوة الايمان كما ان ما يمنع منه الطبيب مما يضر المريض حمية له فاذا احتال المريض أو الطبيب على تناول ذلك المؤذى بتغير صورته مع بقاء حقيقته وطبعه وتغيير اسمه مع بقاء مسماه ازداد المريض بتناوله مرضا الى مرضه ويؤدى به الى الهلاك ولم ينفعه تغير صورته ولا تبدل اسمه وأنت اذا تأملت الحيل المتضمنة لتحليل ما حرم الله سبحانه وتعالى واسقاط ما أوجب وحل ما عقد وجدت الامر فيها كذلك ووجدت المفسدة الناشئة منها أعظم من المفسدة الناشئة من المحرمات الباقية على صورها وأسمائها والوجدان شاهد بذلك فالله سبحانه انما حرم هذه المحرمات وغيرها لما اشتملت عليه من المفاسد المضرة بالدنيا والدين ولم يحرمها لاجل أسمائها وصورها ومعلوم أن تلك المفاسد تابعة لحقائقها لا تزول بتبدل أسمائها وتغير صورتها ولو زالت تلك المفاسد بتغير الصورة والاسماء لما لعن الله سبحانه اليهود على تغيير صورة الشحم واسمه باذابته حتى استحدث اسم الودك وصورته ثم أكلوا ثمنه وقالوا لم نأكله وكذلك تغيير صورة الصيد يوم السبت بالتغيير يوم الاحد فتغيير صور المحرمات وأسمائها مع بقاء مقاصدها وحقائقها زيادة فى المفسدة التى حرمت لاجلها مع تضمنه لمخادعة الله تعالى ورسوله ونسبة المكر والخداع والغش والنفاق الى شرعه ودينه وانه يحرم الشئ لمفسدة ويبيح ما هو أعظم منها ولهذا قال أيوب السختيانى يخادعون الله كما يخادعون الصبيان لو أتوا الامر على وجهه كان أهون وقال صلى الله تعالى عليه وسلم لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل وقال بشر بن السرى وهو من شيوخ الامام أحمد نظرت فى العلم فاذا هو الحديث والرأى فوجدت فى الحديث ذكر النبيين والمرسلين وذكر الموت وذكر ربوبية الرب تعالى وجلاله وعظمته وذكر الجنة والنار والحلال والحرام والحث على صلة الارحام وجماع الخير ونظرت فى الرأى فاذا فيه المكر والخديعة والتشاح

واستقصاء

وشكر ورضى لا يحصل بدون التوبة وان كان يحصل بغيرها من الطاعات أثرا آخر لكن هذا الاثر الخاص لا يحصل الا بالتوبة التاسع عشر انه اذا شهد اساءته وظلمه واستكثر القليل من نعمة الله لعلمه بان الواصل اليه منها كثير على مسىء مثله فاستقل الكثير من عمله لعلمه بان الذى يصلح له ان يغسل به نجاسته وذنوبه أضعاف أضعاف ما يفعله فهو دائما مستقل لعمله كائنا ما كان ولو لم يكن فى فوائد الذنب وحكمه الا هذا وحده لكان كافيا العشرون انه يوجب له التيقظ والحذر من مصايد العدو ومكايده ويعرفه من أين يدخل عليه وبماذا يحذر منه كالطبيب الذى ذاق المرض والدواء الحادى والعشرون ان مثل هذا ينتفع به المرضى لمعرفته بامراضهم وادوائها الثالث والعشرون انه يرفع عنه حجاب الدعوى ويفتح له طريق الفاقة فانه لا حجاب أغلظ من الدعوى ولا طريق أقرب من العبودية فان دوام الفقر الى الله مع التخليط خير من الصفا مع العجب الرابع والعشرون انه يكون فى القلب أمراض مزمنة لا يشعر بها فيطلب دواءها فيمن عليه اللطيف الخبير ويقضى عليه بذنب ظاهر فيجد ألم مرضه فيحتمى ويشرب الدواء النافع فتزول تلك الامراض التى لم يكن يشعر بها ومن لم يشعر بهذه اللطيفة فغلظ حجابه كما قيل

لعل عتبك محمود عواقبه
وربما صحت الاجسام بالعلل

الخامس والعشرون أن يذيقه ألم الحجاب والبعد بارتكاب الذنب ليكمل له نعمته وفرحه وسروره اذا أقبل بقلبه اليه وجمعه عليه وأقامه فى طاعته فيكون التذاذه فى ذلك بعد ان صدر منه ما صدر بمنزلة التذاذ الظمآن بالماء العذب الزلال والشديد الخوف بالامن والمحب الطويل الهجر بوصل محبوبه وان لطف الرب وبره واحسانه ليبلغ بعبده أكثر من هذا فيا بؤس من أعرض عن معرفة ربه ومحبته السادس والعشرون امتحان العبد واختباره هل يصلح لعبوديته وولايته أم لا فانه اذا وقع الذنب سلب حلاوة الطاعة والقرب ووقع فى الوحشة فان كان ممن يصلح اشتاقت نفسه الى لذة تلك المعاملة فحنت وأنت وتضرعت واستعانت بربها ليردها الى ما عودها من بره

ولطفه وان تركت عنها واستمر اعراضها ولم تحن الى تعهدها الاول وما ألفها ولم تحس بضرر ورثها وفاقتها الشديدة الى مراجعة قربها من ربها علم انها لا تصلح لله وقد جاء هذا بعينه فى أثر الهى لا أحفظه السابع والعشرون ان الحكمة الالهية اقتضت تركيب الشهوة والغضب فى الانسان أو بعضها ولو لم يخلق فيه هذه الدواعى لم يكن انسانا بل ملكا فالذنب من موجبات البشرية كما ان النسيان من

واستقصاء الحق والمماثلة فى الدين واستعمال الحيل والبعث على قطيعة الارحام والتجرؤ على الحرام وقال أبوداود سمعت أحمد بن حنبل وذكر أصحاب الحيل فقال يحتالون لنقض سنن رسول الله عليه السلام والرأى الذى اشتقت منه الحيل المتضمن لاسقاط ما أوجب الله تعالى واباحة ما حرم هو الذى اتفق السلف على ذمه وعيبه وروى حرب عن الشعبى قال قال ابن مسعود رضى الله عنه اياكم وأرأيت لرأيت فانما أهلك من كان قبلكم بأرأيت لرأيت ولا تقيسوا شيأ بشئ فتزل قدم بعد ثبوتها وعن الشعبى عن مسروق قال قال عبد الله ليس من عام الا الذى بعده شر منه لا أقول عام أخصب من عام ولكن ذهاب خياركم وعلمائكم ثم يحدث قوم يقيسون الامور برأيهم فينهدم الاسلام ويثلم وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه اياكم وأصحاب الرأى فانهم أعداء السنن أعيتهم الاحاديث أن يحفظوها وتفلتت منهم أن يعوها فاستحيوا حين سئلوا أن يقولوا لا نعلم فعارضوها برأيهم فاياكم واياهم وقال أحمد فى رواية أبى سعيد لا يجوز شئ من الحيل وفى رواية صالح ابنه الحيل لا نراها وقال فى رواية الأثرم وذكر حديث عبد الله بن عمر فى حديث البيعان بالخيار ولا يحل لواحد منهما أن يفارق صاحبه خشية أن يستقيله قال فيه ابطال الحيل وقال فى رواية أبى الحرث هذه الحيل التى وضعها هؤلاء احتالوا فى الشئ الذى قيل له انه حرام فاحتالوا فيه حتى أحلوه وقد قال عليه السلام لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فأذابوها وأكلوا أثمانها فانما أذابوها حتى أزالوا عنها اسم الشحوم وقد لعن عليه السلام المحلل والمحلل له وقال فى رواية ابنه صالح ينقضون الايمان بالحيل وقد قال الله تعالى ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقال تعالى يوفون بالنذر وقال فى رواية أبى طالب فى التحيل لاسقاط الحبل سبحان الله ما أعجب هذا أبطلوا كتاب الله والسنة جعل الله على الحرائر العدة من الحمل فليس من امرأة تطلق أو يموت زوجها الا تعتد من أجل الحمل فقرج يوطأ ثم يعتقها على المكان فيتزوجها فيطؤها فان كانت حاملا كيف يصنع يطؤها رجل اليوم ويطؤها الآخر غدا هذا نقض لكتاب الله والسنة قال صلى الله تعالى عليه وسلم لا توطأ حامل حتى تضع ولا غير ذات حمل حتى تحيض فلا تدرى هى حامل أم لا سبحان الله ما أسمج هذا وقال فى رواية حبيش بن سندى فى الرجل يشترى الجارية ثم يعتقها من يومه ويتزوجها أيطؤها من يومه فقال كيف يطؤها هذا من يومه وقد وطئها ذاك بالامس وغضب وقال هذا أخبث قول وقال فى رواية الميمونى اذا حلف على شئ ثم احتال بحيلة فصار اليه فقد صار الى ذلك بعينه وقال فى رواية الميمونى فيمن حلف على يمين ثم احتال لابطالها هل يجوز قال نحن لا نرى الحيلة الا بما يجوز فقال الميمونى أليس حيلتنا فيها أن نتبع ما قالوا فاذا وجدنا لهم فيها قولا اتبعناه قال بلى هكذا هو قلت أوليس هذا منا نحن حيلة قال نعم فقلت انهم يقولون فى رجل

موجباتها كما قال النبى صلى الله عليه وسلم كل بنى آدم خطاء وخير الخطائين التوابون ولا يتم الابتلاء والاختبار الا بذلك والله أعلم

الثامن والعشرون ان ينسيه رؤية طاعته ويشغله برؤية ذنبه فلا يزال نصب عينيه فان الله اذا أراد بعبد خيرا سلب رؤية أعماله الحسنة من قلبه والاخبار بها من لسانه وشغله برؤية ذنبه فلا يزال نصب عينيه حتى يدخل الجنة فان ما تقبل من الاعمال رفع من القلب رؤيته ومن اللسان ذكره وقال بعض السلف ان العبد ليعمل الخطيئة فيدخل بها الجنة ويعمل الحسنة فيدخل بها النار قالوا كيف قال يعمل الخطيئة فلا تزال نصب عينيه اذا ذكرها ندم واستقال وتضرع الى الله وبادر الى محوها وانكسر وذل لربه وزال عنه عجبه وكبره ويعمل الحسنة فلا تزال نصب عينيه يراها ويمن بها ويعتد بها ويتكبر بها حتى يدخل النار

التاسع والعشرون ان شهود ذنبه وخطيئته يوجب له ان لا يرى له على احد فضلا ولا له على أحد حقا فانه اذا شهد عيب نفسه بفاحشة وخطاياه وذنوبها لا يظن انه خير من مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر واذا شهد ذلك من نفسه لم ير لها على الناس حقوقا من الاكرام يتقاضاهم اياها ويذمهم على ترك القيام بها فانها عنده أخس قدرا وأقل قيمة من أن يكون لها على عباد الله حقوق يجب مراعاتها أو لها عليهم فضل يستحق ان يلزموه لاجله فيرى ان من سلم عليه أو لقيه بوجه منبسط قد أحسن اليه وبذل له مالا يستحقه فاستراح فى نفسه واستراح الناس من تعبه وشكايته فما أطيب عيشه وما أنعم باله وما أقر عينه وأين هذا ممن لا يزال عاتبا على الخلق شاكيا ترك قيامهم بحقه ساخطا عليهم وهم عليه أسخط فسبحان ذى الحكمة الباهرة التى بهرت

حلف على امرأته وهي على درجة ان صعدت أو نزلت فأنت طالق قالوا تحمل حملا ولا تنزل فقال هذا الحنث بعينه ليس هذا حيلة هذا هو الحنث وذكر لاحمد ان امرأة كانت تريد أن تفارق زوجها فيأبى عليها فقال لها بعض أرباب الحيل لو ارتدت عن الاسلام بنت منه ففعلت فغضب أحمد رحمه الله فقال من أفتى بهذا أو علمه أو رضى به فهو كافر وكذلك قال عبد الله بن المبارك ثم قال ما أرى الشيطان يحسن مثل هذا حتى جاء هؤلاء فتعلمه منهم وقال يزيد بن هارون أفتى أصحاب الحيل بشئ لو أفتى به اليهود والنصارى كان قبيحا أفتوا رجلا حلف أن لا يطلق امرأته بوجه من الوجوه فبذلت له مالا كثيرا في طلاقها فأفتوه بأن يقبل أمها أو يباشرها وذكرت الحيلة عند شريك فقال من يخادع الله يخدعه وقال النضر بن شميل في كتاب الحيل ثلثمائة وعشرون مسألة كلها كفر وقال حفص بن غياث ينبغي أن يكتب عليه كتاب الفجور وقال عبد الله بن المبارك في قصة بنت أبي روح حيث أمرت بالارتداد في أيام أبي غسان فارتدت ففرق بينهما وأودعت السجن فقال ابن المبارك وهو غضبان من أمر بهذا فهو كافر ومن كان هذا الكتاب عنده أو في بيته ليأمر به فهو كافر وان هو يه ولم يأمر به فهو كافر وقال أيوب السختياني ويل لهم من يخدعون يعني أصحاب الحيل وقال بعض أصحاب الحيل ما تنقمون منا الا انا عمدنا الى أشياء كانت عليكم حراما فاحتلنا فيها حتى صارت حلالا قلت ومن تأمل الشريعة ورزق فيها فقه نفس رآها قد أبطلت على أصحاب الحيل مقاصدهم وقابلتهم بنقيضها وسدت عليهم الطرق التي فتحوها للتحيل الباطل فمن ذلك أن الشارع منع المتحيل على الميراث بقتل مورثه ونقله الى غيره دونه لما احتال عليه بالباطل ومن ذلك بطلان وصية الموصى له بمال اذا قتل الموصي ومن ذلك بطلان تدبير المدبر اذا قتل سيده لتعجيل العتق ومن ذلك تحريم المنكوحة في عدتها على الزوج تحريما مؤبدا عند عمر بن الخطاب ومالك واحدى الروايتين عن أحمد لما احتال على وطئها بصورة العقد المحرم ومن ذلك ما لو احتال المريض على منع امرأته من الميراث بطلاقها فانها ترثه ما دامت في العدة عند طائفة وعند آخرين ترث وان انقضت عدتها ما لم تتزوج وعند طائفة ترث وان تزوجت ومن ذلك بطلان اقرار المريض لوارثه بمال لانه يتخذه حيلة على الوصية له ونظائر ذلك كثيرة فالمحتال بالباطل معامل بنقيض قصده شرعا وقدرا وقد شاهد الناس عيانا أنه من عاش بالمكر مات بالفقر ولهذا عاقب الله سبحانه وتعالى من احتال على اسقاط نصيب المساكين وقت الجذاذ بحرمانهم الثمرة كلها وعاقب من احتال على الصيد المحرم بان مسخهم قردة وخنازير وعاقب من احتال على أكل أموال الناس بالربا بان يمحق ماله كما قال تعالى يمحق الله الربا ويربي الصدقات فلابد أن يمحق مال المربي ولو بلغ ما بلغ وأصل هذا أنه سبحانه جعل عقوبات أصحاب الجرائم بضد ما قصدوا له بتلك الجرائم

عقول العالمين الثلاثون انه يوجب له الامساك عن عيوب الناس والفكر فيها فانه في شغل بعيبه ونفسه وطوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس وويل لمن نسي عيبه وتفرغ لعيوب الناس فالاول علامة السعادة والثاني علامة الشقاوة الحادي والثلاثون انه يوجب له الاحسان الى الناس والاستغفار لاخوانه الخاطئين من المؤمنين فيصير هجيراه رب اغفر لي ولوالدي وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات فانه يشهد أن اخوانه الخاطئين يصابون بمثل ما أصيب به محتاجون الى مثل ما هو محتاج اليه فكما يحب أن يستغفر له أخوه المسلم يحب أن يستغفر هو لاخيه المسلم وقد قال بعض السلف ان الله لما عتب على الملائكة في قولهم أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء وامتحن هاروت وماروت جعلت الملائكة بعد ذلك تستغفر لبني آدم ويدعون الله لهم الثاني والثلاثون انه يوجب له سعة بطانه وحلمه ومغفرته لمن أساء اليه فانه اذا شهد نفسه مع ربه سبحانه مسيئا خاطئا مذنبا مع فرط احسانه اليه وبره وشدة حاجته الى ربه وعدم استغنائه عنه طرفة عين وهذا حاله مع ربه فكيف يطمع ان يستقيم له الخلق ويعاملونه بمحض الاحسان وهو لم يعامل ربه بتلك المعاملة وكيف يطمع ان يطيعه مملوكه وولده وزوجته في كل ما يريد وهو مع ربه ليس كذلك وهذا يوجب ان يغفر لهم ويسامحهم ويعفو عنهم ويغضي عن الاستقصاء في طلب حقه قبلهم (قاعدة) كثيرا ما يتكرر في القرآن ذكر الانابة والامر بها كقوله تعالى وانيبوا الى ربكم وأسلموا له وقوله حكاية عن شعيب انه قال وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه أنيب وقوله تبصرة وذكرى لكل عبد منيب وقوله ان الله يضل من يشاء ويهدي اليه من أناب وقوله عن نبيه داود وخر راكعا وأناب والانابة الرجوع الى الله وانصراف دواعي القلب وجواذبه اليه وهي تتضمن المحبة والخشية فان المنيب محب لمن أناب اليه خاضع له خاشع ذليل والناس في انابتهم على درجات متفاوتة فمنهم المنيب الى الله بالرجوع اليه من المخالفات والمعاصي وهذه الانابة مصدرها مطالعة الوعيد والحامل عليها العلم والخشية والحذر ومنهم المنيب اليه بالدخول

فجعل

فجعل عقوبة الكاذب اهدار كلامه ورده عليه وجعل عقوبة الغال من الغنيمة لما قصد تكثير ماله بالغلول حرمان سهمه واحراق متاعه وجعل عقوبة من اصطاد فى الحرم أو الاحرام تحريم أكل ما صاده وتغريم نظيره وجعل عقوبة من تكبر عن قبول الحق والانقياد له أن ألزمه من الذل والصغار بحسب ما تكبر عنه من الحق وجعل من استكبر عن عبوديته وطاعته ان صيره عبد الاهل عبوديته وطاعته وجعل عقوبة من أخاف السبيل وقطع الطريق ان يقطع أطرافه ويقطع عليه الطرق كلها بالنفى من الارض فلا يسير فيها الا خائفا وجعل عقوبة من التذ بدنه كله وروحه بالوطء الحرام ايلام بدنه وروحه بالجلد والرجم فيصل الالم الى حيث وصلت اللذة وشرع صلى الله تعالى عليه وسلم عقوبة من اطلع فى بيت غيره أن يقلع عينه بعود ونحوه افساد العضو الذى خانه به وأولجه بيته بغير اذنه واطلع به على حرمه وعاقب كل خائن بانه يضل كيده ويبطله ولا يهديه لمقصوده وان نال بعضه فالذى ناله سبب لزيادة عقوبته وخيبته والله لا يهدى كيد الخائنين وعاقب من حرص على الولاية والامارة والقضاء بان شرع منعه وحرمانه ما حرص عليه كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم انا لا نولى عملنا هذا من سأله ولهذا عاقب أبا البشر عليه السلام بان أخرجه من الجنة لما عصاه بالاكل من الشجرة ليخلد فيها فكانت عقوبته اخراجه منها ضد ما أمله وعاقب من اتخذ معه الها آخر ينتصر به ويتعزز به بان جعله عليه ضدا يذل به ويخذل به كما قال تعالى واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا وقال تعالى واتخذوا من دونه آلهة لعلهم ينصرون لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون وقال تعالى لا تجعل مع الله الها آخر فتقعد مذموما مخذولا ضد ما أمله المشرك من اتخاذ الاله من النصر والمدح وعاقب الناس اذا بخسوا الكيل والميزان بجور السلطان عليهم يأخذ من أموالهم أضعاف ما يبخس به بعضهم بعضا وعاقبهم اذا منعوا الزكاة والصدقة ترفها لاموالهم بحبس الغيث عنهم فيمحق بذلك أموالهم ويستوى غنيهم وفقيرهم فى الحاجة وعاقبهم اذا أعرضوا عن كتابه وسنة نبيه وطلبوا الهدى من غيره بأن يضلهم ويسد عليهم باب الهدى كما قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى حديث على رضى الله عنه الذى رواه الترمذى وغيره وذكر القرآن من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله فان المعرض عن القرآن اما أن يعرض عنه كبرا فجزاؤه أن يقصمه الله أو طلبا للهدى من غيره فجزاؤه أن يضله الله وهذا باب واسع جدا عظيم التبع فمن تدبره يجده متضمنا لمعاقبة الرب سبحانه من خرج عن طاعته بأن يعكس عليه مقصوده شرعا وقدرا دنيا وأخرى وقد أطرد سنته الكونية سبحانه فى عباده بأن من مكر بالباطل مكر به ومن احتال احتيل عليه ومن خادع غيره خدع قال الله تعالى ان المنافقين يخادعون

فى أنواع العبادات والقربات فهو ساع فيها بجهده وقد حبب اليه فعل الطاعات وأنواع القربات وهذه الانابة مصدرها الرجاء ومطالعة الوعد والثواب ومحبة الكرامة من الله وهؤلاء أبسط نفوسا من أهل القسم الاول وأشرح صدورا وجانب الرجاء ومطالعة الرحمة والمنة أغلب عليهم والا فكل واحد من الفريقين منيب بالامرين جميعا ولكن خوف هؤلاء اندرج فى رجائهم فانابوا بالعبادات ورجاء الاولين اندرج تحت خوفهم فكانت انابتهم بترك المخالفات ومنهم المنيب الى الله بالتضرع والدعاء والافتقار اليه والرغبة وسؤال الحاجات كلها منه ومصدر هذه الانابة شهود الفضل والمنة والغنى والكرم والقدرة فانزلوا به حوائجهم وعلقوا به آمالهم فانابتهم اليه من هذه الجهة مع قيامهم بالامر والنهى ولكن انابتهم الخاصة انما هى من هذه الجهة وأما الاعمال فلم يرزقوا فيها الانابة الخاصة وأملهم المنيب اليه عند الشدائد والضراء فقط انابة اضطرار لا انابة اختيار كحال الذين قال الله فى حقهم واذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون الا اياه وقوله فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين وهؤلاء كلهم قد تكون نفس أرواحهم ملتفتة عن الله سبحانه معرضة عنه الى مألوف طبيعى نفسانى قد حال بينها وبين انابتها بذاتها الى معبودها والهها الحق فهى ملتفتة الى غيره ولها اليه انابة ما بحسب انتهائه ومعرفتها له فاعلى أنواع الانابات انابة الروح بجملتها اليه لشدة المحبة الخالصة المغنية لهم عما سوى محبوبهم ومعبودهم وحين أنابت اليه أرواحهم لم يتخلف منهم شئ عن الانابة فان الاعضاء كلها رعيته وملكها تبع للروح فلما أنابت الروح بذاتها اليه انابة محب صادق المحبة ليس فيه عرق ولا مفصل الا وفيه محب ساكن لمحبوبه أنابت جميع القوى والجوارح فأناب القلب أيضا بالمحبة والتضرع والذل والانكسار وأناب العقل بانفعاله لاوامر المحبوب ونواهيه وتسليمه لها وتحكيمه اياها دون غيرها فلم يبق فيه منازعة شبهة معترضة دونها وأنابت النفس بالانقياد والانخلاع عن العوائد النفسانية والاخلاق الذميمة والارادات الفاسدة وانقادت لاوامره خاضعة له وداعية فيه مؤثرة اياه على غيره فلم يبق فيها منازعة شهوة

الله وهو خادعهم وقال تعالى ولا يحيق المكر السيئ الا بأهله فلا تجد ماكرا الا وهو ممكور به ولا مخادعا الا وهو مخدوع ولا محتالا الا وهو محتال عليه

(فصل) واذا تدبرت الشريعة وجدتها قد أتت بسد الذرائع الى المحرمات عكس فتح باب الحيل الموصلة اليها فالحيل وسائل وأبواب الى المحرمات وسد الذرائع عكس ذلك فبين البابين أعظم تناقض والشارع حرم الذرائع وان لم يقصد بها المحرم لافضائها اليه فكيف اذا قصد بها المحرم نفسه فنهى الله تعالى عن سب آلهة المشركين لكونه ذريعة الى أن يسبوا الله سبحانه وتعالى عدوانا وكفرا على وجه المقابلة وأخبر عليه السلام ان من أكبر الكبائر شتم الرجل والديه قالوا وهل يشتم الرجل والديه قال نعم يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه ولما جاءت صفية رضى الله تعالى عنها تزوره صلى الله تعالى عليه وسلم وهو معتكف قام معها ليوصلها الى بيتها ورآهما رجلان من الانصار فقال على رسلكما انها صفية بنت حيي فقالا سبحان الله يا رسول الله فقال ان الشيطان يجرى من ابن آدم واني خشيت أن يقذف في قلوبكما شرا فسد الذريعة الى ظنهما السوء باعلامهما أنها صفية وأمسك عليه السلام عن قتل المنافقين مع ما فيه من المصلحة لكونه ذريعة الى التنفير وقول الناس ان محمدا يقتل أصحابه وحرّم القطرة من الخمر وان لم تحصل مفسدة الكثير لكون قليلها ذريعة الى شرب كثيرها وحرم امساكها للتخليل وجعلها نجسة لئلا يفضى مقاربتها بوجه من الوجوه الى شربها ونهى عن الخليطين وشرب العصير والنبيذ بعد ثلاث وعن الانتباذ في الاوعية التي لا يعلم بتخمير النبيذ فيها حسما للمادة وسدا للذريعة وحرم الخلوة بالاجنبية والسفر بها والنظر اليها لغير حاجة حسما للمادة وسدا للذريعة ومنع النساء اذا خرجن للمسجد من الطيب والبخور ومنعهن من التسبيح في الصلاة لنائبة تنوب بل جعل لهن التصفيق ومنع المعتدة من الوفاة من الزينة والطيب والحلى ومنع الرجال من التصريح بخطبتها في العدة وان كانت انما يعقد النكاح بعد انقضائها ونهى المرأة ان تصف لزوجها امرأة غيرها حتى كأنه ينظر اليها ونهى عن بناء المساجد على القبور ولعن فاعله ونهى عن تعلية القبور وأمر بتسويتها ونهى عن البناء عليها وتجصيصها والكتابة عليها والصلاة اليها وعندها وايقاد المصابيح عليها كل ذلك سدا لذريعة اتخاذها أوثانا وهذا كانه حرام على من قصده ومن لم يقصده بل على من قصد خلافه سدا للذريعة ونهى عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها لكون هذين الوقتين وقت سجود الكفار للشمس ففى الصلاة نوع تشبه بهم في الظاهر وذلك ذريعة الى الموافقة والمشابهة وأكد ذلك بالنهى عن الصلاة بعد العصر وبعد الوقت وان لم يحضر وقت سجود الكفار للشمس مبالغة في هذا المقصود وحماية لجانب التوحيد وسدا لذريعة الشرك بكل ممكن ومنع من التفرق في الصرف قبل

فرضيها دون الامر وخرجت عن تدبيرها واختيارها تفويضا الى مولاها ورضى بقضائه وتسليما لحكمه وقد قيل ان تدبير العبد لنفسه هو آخر الصفات المذمومة في النفس وأناب الجسد في الاعمال والقيام بها فرضها وسننها على أكمل الوجوه وأنابت كل جارحة وعضو انابتها الخاصة فلم يبق من هذا العبد المنيب عرق ولا مفصل الا وله انابة ورجوع الى الحبيب الحق الذى كل محبوب سوى محبته عذاب على صاحبها وان كانت عذبة في مباديها فانها عذاب في عواقبها فانابة العبد ولو ساعة من عمره هذه الانابة الخالصة أنفع له وأعظم ثمرة من انابة سنين كثيرة من غيره فاين انابة هذا من انابة من قبله وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء بل هذا روحه منيبة أبدا وان توارت عنه شهود انابتها باشتغال فهى كامنة فيها كمون النار في الزناد وأما أصحاب الانابات المتقدمة فان أناب أحدهم ساعة بالدعاء والذكر والابتهال فلنفسه وروحه وقلبه وعقله التفاتات عمن قد أناب اليه فهو ينيب ببعضه ساعة ثم يترك ذلك مقبلا على دواعى نفسه وطبعه والله الموفق المعين لا رب غيره ولا اله سواه (قاعدة) في ذكر طريق قريب يوصل الى الاستقامة في الاحوال والاقوال والاعمال وهى شيئان أحدهما حراسة الخواطر وحفظها والحذر من اهمالها والاسترسال معها فان اصل الفساد كله من قبلها يجيء لانها هى بذر الشيطان والنفس في أرض القلب فاذا تمكن بذرها تعاهدها الشيطان بسقيه مرة بعد أخرى حتى تصير ارادات ثم يسقيها حتى تكون عزائم ثم لا يزال بها حتى تثمر الاعمال ولا ريب ان دفع الخواطر أيسر من دفع الارادات والعزائم فيجد العبد نفسه عاجزا أو كالعاجز عن دفعها بعد ان صارت ارادة جازمة وهو المفرط اذا لم يدفعها وهى خاطر ضعيف كمن تهاون بشرارة من نار وقعت في حطب يابس فلما تمكنت منه عجز عن اطفائها فان قلت فما الطريق الى حفظ الخواطر قلت أسباب عدة أحدها العلم الجازم باطلاع الرب سبحانه ونظره الى قلبك وعلمه بتفصيل خواطرك الثاني حياؤك منه الثالث اجلالك له أن يرى مثل تلك الخواطر في بيته الذى خلق لمعرفته ومحبته الرابع خوفك منه أن تسقط من عينه بتلك الخواطر الخامس

التقابض وكذلك الربوى اذا بيع بربوى آخر من غير جنسه سد الذريعة النساء الذى هو صلب الربا ومعظمه بل منع من بيع الدرهم بالدرهمين نقدا اسدا الذريعة ربا النساء كما علل صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك فى الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه وهذا أحسن العلل فى تحريم الفضل وحرم الجمع بين السلف والبيع لما فيه من الذريعة الى الربح فى السلف باخذ أكثر مما أعطى والتوسل الى ذلك بالبيع أو الاجارة كما هو الواقع ومنع البائع أن يشترى السلعة من مشتريها باقل مما اشتراها به وهى مسئلة العينة وان لم يقصد الربا لكونه وسيلة ظاهرة واقعة الى بيع خمسة عشر نسيئة بعشرة نقدا وحرم جمع الشرطين فى البيع لكونه وسيلة الى ذلك وهو منطبق على مسألة العينة ويمنع من القرض الذى يجر النفع وجعله ربا ومنع المقرض من قبول هدية المقترض مالم يكن بينهما عادة جارية بذلك قبل القرض ففى سنن ابن ماجه عن يحيى بن أبى اسحق قال أنس بن مالك الرجل منا يقرض أخاه المال فيهدى اليه فقال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أقرض أحدكم قرضا فاهدى اليه أو حمله على الدابة فلا يركبها ولا يقبله الا أن يكون جرى بينهما قبل ذلك وروى البخارى فى تاريخه عن يزيد بن أبى يحيى الهنائى عن أنس ابن مالك قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اذا أقرض أحدكم فلا يأخذ هدية وفى صحيح البخارى عن أبى بردة بن أبى موسى قال قدمت المدينة فلقيت عبد الله بن سلام فقال انك بارض الربا فيها فاش فاذا كان لك على رجل حق فاهدى اليك حمل تبن أو حمل شعير أو حمل قت فلا تأخذه فانه ربا وروى سعيد فى سننه هذا المعنى عن أبى بن كعب وجاء عن ابن مسعود وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو نحوه وكل ذلك سدا لذريعة أخذ الزيادة فى القرض الذى موجبه المثل ونهى عن بيع الكالئ بالكالئ وهو الدين المؤخر بالدين المنجز لانه ذريعة الى ربا النسيئة فلو كان الدينان حالين لم يمتنع لانهما يسقطان جميعا من ذمتهما وفى الصورة المنهى عنها ذريعة الى تضاعف الدين فى ذمة كل منهما فى مقابلة تأجيله وهذه مفسدة ربا النساء بعينها ونهى سبحانه النساء ان يضربن بارجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن فلما كان الضرب بالرجل ذريعة الى ظهور صوت الخلخال الذى هو ذريعة الى ميل الرجل اليهن نهاهن وأمر سبحانه الرجال والنساء بغض أبصارهم لما كان النظر ذريعة الى الميل والمحبة التى هى ذريعة الى مواقعة المحظور وحرم التجارة فى الخمر وان كان انما يبيعها من كافر يستحل شربها فان التجارة فيها ذريعة الى اقتنائها وشربها ولهذا لما نزلت الآيات فى تحريم الربا قرأها عليهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقرن بها تحريم التجارة فى الخمر فان الربا ذريعة الى افساد الاموال والخمر ذريعة الى افساد العقول فجمع بين تحريم التجارة فى هذا وهذا ونهى عن استقبال رمضان بيوم أو يومين لئلا يتخذ ذريعة الى الزيادة فى الصوم الواجب كما فعل أهل الكتاب

ايثار له أن تساكن قلبك غير محبته السادس خشيتك ان تتولد تلك الخواطر ويستعر شرارها فتأكل ما فى القلب من الايمان ومحبة الله فتذهب به جملة وأنت لا تشعر السابع ان تعلم ان تلك الخواطر بمنزلة الحب الذى يلقى للطائر ليصاد به فاعلم ان كل خاطر منها فهو حبة فى فخ منصوب لصيدك وأنت لا تشعر الثامن ان تعلم أن تلك الخواطر الرديئة لا تجتمع هى وخواطر الايمان ودواعى المحبة والانابة أصلا بل هى ضدها من كل وجه وما اجتمعا فى قلب الا وغلب أحدهما صاحبه وأخرجه واستوطن مكانه فما الظن بقلب غلبت خواطر النفس والشيطان فيه خواطر الايمان والمعرفة والمحبة فأخرجتها واستوطنت مكانها لكن لو كان للقلب حياة لشعر بالم ذلك وأحس بمصابه التاسع أن يعلم أن تلك الخواطر بحر من بحور الخيال لا ساحل له فاذا دخل القلب فى غمراته غرق فيه وتاه فى ظلماته فيطلب الخلاص منه فلا يجد اليه سبيلا فقلب تملكه الخواطر بعيد من الفلاح معذب مشغول بما لا يفيد العاشر ان تلك الخواطر هى وادى الحمق وأمانى الجاهلين فلا يثمر لصاحبها الا الندامة والخزى واذا غلبت على القلب أورثته الوساوس وعزلته عن سلطانها وأفسدت عليه رعيته وألقته فى الاسر الطويل وكان هذا معلوما فى الخواطر النفسانية فهكذا الخواطر الايمانية الرحمانية هى أصل الخير كله فان أرض القلب اذا بذر فيها خواطر الايمان والخشية والمحبة والانابة والتصديق بالوعد ورجاء الثواب وسقيت مرة بعد مرة وتعاهدها صاحبها بحفظها ومراعاتها والقيام عليها أثمرت له كل فعل جميل وملأت قلبه من الخيرات واستعملت جوارحه فى الطاعات واستقر بها الملك فى سلطانه واستقامت له رعيته ولهذا لما تحققت طائفة من السالكين ذلك عملت على حفظ الخواطر فكان ذلك هو سيرها وجل عملها وهذا نافع لصاحبه بشرطين أحدهما ان لا يترك به واجبا ولا سنة الثانى ان لا يجعل مجرد حفظها هو المقصود بل لا يتم ذلك الا بان يجعل موضعها خواطر الايمان والمحبة والانابة والتوكل والخشية فيفرغ قلبه من تلك الخواطر ويعمره باضدادها والا فمتى عمل على تفريغه منهما معا كان خاسرا فلا بد من التفطن لهذا ومن ههنا غلط

ونهى عن التشبه باهل الكتاب وغيرهم من الكفار في مواضع كثيرة لان المشابهة الظاهرة ذريعة الى الموافقة الباطنة وانه اذا اشبه الهدى الهدى أشبه القلب القلب وقد قال صلى الله تعالى عليه وسلم خالف هدينا هدى الكفار وفي المسند مرفوعا من تشبه بقوم فهو منهم وحرم الجمع بين المرأة وعمتها وبين المرأة وخالتها لانها ذريعة الى قطيعة الرحم وبهذه العلة بعينها علل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال انكم اذا فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم وأمر بالتسوية بين الاولاد في العطية واخبر ان تخصيص بعضهم بها جور لا يصلح ولا ينبغي الشهادة عليه وأمر فاعله برده ووعظه بتقوى الله تعالى وأمره بالعدل لكون ذلك ذريعة ظاهرة قريبة جدا الى وقوع العداوة بين الاولاد وقطيعة الرحم بينهم كما هو المشاهد عيانا فلو لم تأت السنة الصحيحة الصريحة التي لا معارض لها بالمنع منه لكان القياس وأصول الشريعة وما تضمنته من المصالح ودرء المفاسد يقتضي تحريمه ومنع من نكاح الامة لكونه ذريعة الى استرقاق ولده ثم جوز وطأها بملك اليمين لزوال هذه المفسدة ومنع من تجاوز أربع زوجات لكونه ذريعة ظاهرة الى الجور وعدم العدل بينهن وقصر الرجال على الاربع فسحة لهم في التخلص من الزنا وان وقع منهم بعض الجور فاحتماله أقل مفسدة من مفسدة الزنا ومنع من عقد النكاح في حالة العدة وحالة الاحرام وان تأخر الدخول الى ما بعد انقضائها وحصول الحل لكون العقد ذريعة الوطء والنفوس لا تصبر غالبا مع قوة الداعي وشرط في النكاح شروطا زائدة على مجرد العقد لقطع شبهة بعض أنواع السفاح به كاشتراط اعلانه اما بالشهادة أو بترك الكتمان أو بهما واشتراط الولي ومنع المرأة أن تليه وندب الى اظهاره حتى استحب فيه الدف والصوت والوليمة وأوجب فيه المهر ومنع المرأة بهبة نفسها لغير النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وسر ذلك ان في ضد ذلك والاخلال به ذريعة الى وقوع السفاح بصورة النكاح كما في الاثر ان الزانية هي التي تزوج نفسها فانه لا تشاء زانية تقول زوجتك نفسي بكذا سرا من وليها بغير شهود ولا اعلان ولا وليمة ولا دف ولا صوت الا فعلت ومعلوم قطعا ان مفسدة الزنا لا تنتفي بقولها أنكحتك نفسي أو ابحتك مني كذا وكذا فلو انتفت مفسدة الزنا بذلك لكان هذا من أيسر الامور عليها والشارع أبطل هذا العقد وسد الذريعة الى مشابهة الزنا بكل طريق ثم أكد ذلك بان جعل له حريما من العدة يزيد على مقدار الاستبراء وأثبت له احكاما من المصاهرة وحرمتها ومن التوارث ولهذا كان الراجح في الدليل ان الزنا لا يثبت حرمة المصاهرة كما لا يثبت التوارث والنفقة وحقوق الزوجية ولا يثبت به النسب ولا العدة على الصحيح وانما تستبرأ بحيضة ليعلم براءة رحمها ولا يقع فيه طلاق ولا ظهار ولا ايلاء ولا يثبت المحرمية بينه وبين أمها وابنتها فلا يثبت حرمة المصاهرة ولا تحريمها فان الشارع جعل وصلة الصهر فيه مع وصلة

النسب

[illegible] وأطلعني الماء الحلو والمر وان التهاجة تبدو فيها الشيطان أنواع الشبه والخيالات فظنوها تحقيقا وفخار جانبا وهم فيها غالطون وانما هي خيالات شيطانية والميزان هو الكتاب الناطق والفطرة السليمة والعقل المؤيد بنور النبوة والله المستعان

(فصل) صدق التأهب للقاء الله من أنفع ما للعبد وأبلغه في حصول استقامته فان من استعد للقاء الله قطع قلبه عن الدنيا وما فيها ومطالبها وخمدت من نفسه نيران الشهوات وأخبت قلبه الى الله وعكفت همته على الله وعلى محبته وايثار مرضاته واستحدثت همة أخرى وعلوما أخر وولد ولادة أخرى تكون نسبة قلبه فيها الى الدار الآخرة كنسبة جسمه الى هذه الدار بعد ان كان في بطن أمه فيولد قلبه ولادة حقيقية كما ولد جسمه حقيقة وكما كان بطن أمه حجابا لجسمه عن هذه الدار فهكذا نفسه وهواه حجاب لقلبه عن الدار الآخرة فخروج قلبه عن نفسه بارزا الى الدار الآخرة كخروج جسمه عن بطن أمه بارزا الى هذه الدار وهذا معنى ما يذكر عن المسيح انه قال يا بني اسرائيل انكم لن تلجوا ملكوت السماء حتى تولدوا مرتين ولما كان أكثر الناس لم يولدوا هذه الولادة الثانية ولا تصوروها فضلا عن ان يصدقوا بها فيقول القائل كيف يولد الرجل الكبير أم كيف يولد القلب لم يكن لهم اليها همة ولا عزيمة اذ كيف يعزم على الشيء من لا يعرفه ولا يصدقه ولكن اذا كشف حجاب الغفلة عن القلب صدق بذلك وعلم انه لم يولد قلبه بعد والمقصود ان صدق التأهب للقاء الله هو مفتاح جميع الاعمال الصالحة والاحوال الايمانية ومقامات السالكين الى الله ومنازل السائرين اليه من اليقظة والتوبة والانابة والمحبة والرجاء والخشية والتفويض والتسليم وسائر أعمال القلوب والجوارح فمفتاح ذلك كله صدق التأهب والاستعداد للقاء الله والمفتاح بيد الفتاح العليم لا اله غيره ولا رب سواه (قاعدة شريفة) الناس قسمان علية وسفلية فالعلية من عرف الطريق الى ربه وسلكها قاصدا للوصول اليه وهذا هو الكريم على ربه والسفلة من لم يعرف الطريق الى ربه ولم يتعرفها فهذا هو اللئيم الذي قال الله فيه ومن يهن

الله فماله من مكرم والطريق الى الله في الحقيقة واحد لا تعدد فيه وهو صراطه المستقيم الذي نصبه موصلا لمن سلكه الله قال الله تعالى وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فوحد سبيله لانه في نفسه واحد لا تعدد فيه وجمع السبل المخالفة لانها كثيرة متعددة كما ثبت ان النبي صلى الله عليه وسلم خط خطا ثم قال هذا سبيل الله ثم خط خطوطا عن

يمينه وعن يساره ثم قال هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو اليه ثم قرأ وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ومن هذا قوله الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات فوحد النور الذي هو سبيله وجمع الظلمات التي هي سبل الشيطان ومن فهم هذا فهم السر في افراد النور وجمع الظلمات في قوله الحمد لله الذي خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور مع ان فيه سرا ألطف من هذا يعرفه من يعرف منبع النور ومن أين فاض وعماذا حصل وان أصله كله واحد وأما الظلمات فهي متعددة بتعدد الحجب المقتضية لها وهي كثيرة جدا لكل حجاب ظلمة خاصة ولا ترجع الظلمات الى النور الهادي جل جلاله أصلا لا وصفا وذاتا ولا اسما ولا فعلا وانما ترجع الى مفعولاته فهو جاعل الظلمات ومفعولاته متعددة متكثرة بخلاف النور فانه يرجع الى اسمه وصفته تعالى أن يكون كمثله شئ وهو نور السموات والارض قال ابن مسعود ليس عند ربكم ليل ولا نهار نور السموات والارض من نور وجهه ذكره الدارمي عنه وفي صحيح مسلم عن أبي ذر قلت يا رسول الله هل رأيت ربك قال نوراني أراه والمقصود ان الطريق الى الله واحد فانه الحق المبين والحق واحد مرجعه الى واحد وأما الباطل والضلال فلا ينحصر بل كل ما سواه باطل وكل طريق الى الباطل فهو باطل فالباطل متعدد وطرقه متعددة وأما ما يقع في كلام بعض العلماء ان الطريق الى الله متعددة متنوعة جعلها الله كذلك لتنوع الاستعدادات واختلافها رحمة منه وفضلا فهو صحيح لا ينافي ما ذكرناه من وحدة الطريق وكشف ذلك وايضاحه ان الطريق هي واحدة جامعة لكل ما يرضي الله وما

النسب وجمع بينهما في قوله فجعله نسبا وصهرا فاذا انتفت وصلة النسب انتفت وصلة الصهر وكانتصر القول بالتحريم ثم رأينا الرجوع الى عدم التحريم أولى لاقتضاء الدليل له وليس المقصود استيفاء أدلة المسئلة من الجانبين وانما الغرض التنبيه على ان من قواعد الشرع العظيمة قاعدة سد الذرائع ومن ذلك نهى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ان تقام الحدود في دار الحرب وان تقطع الايدي في الغزو لئلا يكون ذريعة الى لحاق المحدود بالكفار ومن ذلك ان المسلم اذا احتاج الى التزوج بدار الحرب وخاف على نفسه الزنا عزل عن امرأته نص عليه أحمد لئلا يكون ذلك ذريعة الى أن ينشأ ولده كافرا ومن ذلك ان الصحابة اتفقوا على قتل الجماعة الكثيرة بالواحد وان كان القصاص يقتضي المساواة لئلا يتخذ ذريعة الى اهدار الدماء وتعاون الجماعة على قتل المعصوم ومن ذلك أن السكران لو قتل اقتص منه وان كان في هذه الحالة لا قصد له لئلا يتخذ السكر ذريعة الى قتل المعصوم وسقوط القصاص ومن ذلك نهيه سبحانه رسوله عن الجهر بالقرآن بحضرة العدو لما كان ذريعة الى سبهم للقرآن ومن أنزله ومن ذلك أنه سبحانه نهى الصحابة أن يقولوا للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم راعنا مع قصدهم المعنى الصحيح وهو المراعاة لئلا يتخذ اليهود هذه اللفظة ذريعة الى السب ولئلا يتشبهوا بهم ولئلا يخاطب بلفظ يحتمل معنى فاسدا ومن ذلك أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كره الصلاة الى ما عبد دون الله وأحب لمن صلى الى عمود أو عود أو شجرة أن يجعله على احد حاجبيه ولا يصمد له صمدا شديدا لسد الذريعة التشبه بالسجود لغير الله تعالى ومن ذلك أنه أمر المؤمنين أن يصلوا جلوسا اذا صلى امامهم جالسا سدا لذريعة التشبيه بفارس والروم في قيامهم على ملوكهم وهم قعود ومن ذلك أن النبي عليه السلام منع الرجل من أخذ نظير حقه بصورة الخيانة لمن خانه وجحد حقه وان كان انما يأخذ حقه أو دونه فقال لمن سأله عن ذلك أد الامانة الى من ائتمنك ولا تخن من خانك لان ذلك ذريعة الى اساءة الظن به ونسبته الى الخيانة ولا يمكنه أن يحتج عن نفسه ويقيم عذره مع أن ذلك أيضا ذريعة الى أن لا يقتصر على قدر الحد وصفته فان النفوس لا تقتصر في الاستيفاء غالبا على قدر الحق ومن ذلك ان سلط الشريك على انتزاع الشقص المشفوع من يد المشتري سدا لذريعة المفسدة الناشئة من الشركة والمخالطة بحسب الامكان وقبل البيع ليس احدهما اولى بانتزاع نصيب شريكه من الآخر فاذا رغب عنه وعرضه للبيع كان شريكه أحق به لما فيه من ازالة الضرر عنه وعدم تضرره هو فانه يأخذه بالثمن الذي يأخذه به الاجنبي ولهذا كان الحق انه لا يحل الاحتيال لاسقاط الشفعة ولا يسقط بالاحتيال فان الاحتيال على اسقاطها يعود على الحكمة التي شرعت لنا بالنقض والابطال ومن ذلك أنه لا يقبل شهادة العدو ولا الظنين في تهمة أو قرابة ولا الشريك فيما هو شريك فيه ولا الوصي

فيما هو وصي فيه ولا الولد على ضرة أمه ولا يحكم القاضي بعلمه كل ذلك سدا لذريعة التهمة والغرض الفاسد ومن ذلك ان السنة مضت بكراهة افراد رجب بالصوم وافراد يوم الجمعة لئلا يتخذ ذريعة الى الابتداع في الدين بتخصيص زمان لم يخصه الشارع بالعبادة ومن ذلك أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمر بقطع الشجرة التي كانت تحتها البيعة وأمر باخفاء قبر دانيال سدا لذريعة الشرك والفتنة ونهى عن تعمد الصلاة في الامكنة التي كان رسول الله عليه السلام ينزل بها في سفره وقال أتريدون أن تتخذوا آثار أنبيائكم مساجد من أدركته الصلاة فيه فليصل والا فلا ومن ذلك جمع عثمان بن عفان رضي الله عنه الامة على حرف واحد من الاحرف السبعة لئلا يكون اختلافهم فيها ذريعة الى اختلافهم في القرآن ووافقه على ذلك الصحابة رضي الله عنهم ومن ذلك أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أمر الذي أرسل معه بهديه اذا عطب شئ منه دون المحل أن ينحره ويصبغ نعله الذي قلده به بدمه ويخلي بينه وبين المساكين ونهاه أن يأكل منه هو أو أحد من أهل رفقته قالوا لانه لو جاز له أن يأكل منه أو أحد من رفقته قبل بلوغ المحل لخادعته نفسه الى أن يقصر في علفه وحفظه حتى يشارف العطب فينحره فسد الشارع الذريعة ومنعه ورفقته من الاكل منه ومن ذلك نهيه عليه السلام عن الذرائع التي توجب الاختلاف والتفرق والعداوة والبغضاء كخطبة الرجل على خطبة أخيه وسومه على سومه وبيعه على بيعه وسؤال المرأة طلاق ضرتها وقال اذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما سدا لذريعة الفتنة والفرقة ونهى عن قتال الامراء والخروج على الأئمة وان ظلموا وجاروا ما أقاموا الصلاة سدا لذريعة الفساد العظيم والشر الكبير بقتالهم كما هو الواقع فانه حصل بسبب قتالهم والخروج عليهم من الشرور أضعاف أضعاف ما هم عليه والامة في بقايا تلك الشرور الى الآن ومن ذلك أن الشروط المضروبة على أهل الذمة تضمنت تميزهم عن المسلمين في اللباس والشعور والمراكب لئلا يفضي مشابهتهم للمسلمين في ذلك الى معاملتهم معاملة المسلمين في الاكرام والاحترام والمجالس ففي الزامهم بتميزهم عنهم سدا لهذه الذريعة ومن ذلك منعه صلى الله تعالى عليه وسلم من بيع القلادة التي فيها خرز وذهب بذهب لئلا يتخذ ذريعة الى بيع الذهب بالذهب متفاضلا اذا ضم الى أحدهما خرزا أو نحوه ولو لم يكن في هذا الباب الا أن الله سبحانه وتعالى أوجب اقامة الحدود سدا للذريعة الى الحرام اذا لم يكن عليها وازع طبيعي وجعل مقادير عقوباتها وأجناسها وصفاتها بحسب مفاسدها في نفسها وقوة الداعي اليها وتقاضي الطباع لها وبالجملة فالمحرمات قسمان مفاسد وذرائع موصلة اليها مطلوبة الاعدام كما ان المفاسد مطلوبة الاعدام والقربات نوعان مصالح للعباد وذرائع موصلة اليها ففتح باب الذرائع في النوع الاول كسد باب الذرائع في النوع الثاني وكلاهما مناقض لما جاءت به الشريعة فبين

[الهامش]

[illegible] متنوع فجميع ما رضيه طريق واحد ومراضيه متعددة متنوعة بحسب الازمان والاماكن والاشخاص والاحوال وكلها طرق مرضاته فهذه هي التي جعلها الله لرحمته وحكمته كثيرة متنوعة جدا لاختلاف استعدادات العباد وقوابلهم ولو جعلها نوعا واحدا مع اختلاف الاذهان والعقول وقوة الاستعدادات وضعفها لم يسلكها الا واحد بعد واحد ولكن لما اختلفت الاستعدادات تنوعت الطرق ليسلك كل امرئ الى ربه طريقا يقتضيها استعداده وقوته وقبوله ومن هنا يعلم تنوع الشرائع واختلافها مع رجوعها كلها الى دين واحد مع وحدة المعبود ودينه ومنه الحديث المشهور الانبياء أولاد علات دينهم واحد فاولاد العلات أن يكون الاب واحدا والامهات متعددة فشبه دين الانبياء بالاب الواحد وشرائعهم بالامهات المتعددة فانها وان تعددت فمرجعها الى أب واحد كلها واذا علم هذا فمن الناس من يكون سيد عمله وطريقه الذي يعد سلوكه الى الله طريق العلم والتعليم قد وفر عليه زمانه مبتغيا به وجه الله فلا يزال كذلك عاكفا على طريق العلم والتعليم حتى يصل من تلك الطريق الى الله ويفتح له فيها الفتح الخاص أو يموت في طريق طلبه فيرجى له الوصول الى مطلبه بعد مماته قال تعالى ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وقد حكى عن جماعة كثيرة ممن أدركه الاجل وهو حريص طالب للقرآن انه رؤى بعد موته وأخبر أنه في تكميل مطلوبه وانه يتعلم في البرزخ فان العبد يموت على ما عاش عليه ومن الناس من يكون سيد عمله الذكر وقد جعله زاده لمعاده ورأس ماله لمآله فمتى فتر عنه أو قصر رأى انه قد غبن وخسر ومن الناس من يكون سيد عمله وطريقه الصلاة فمتى قصر في ورده منها أو مضى عليه وقت وهو غير مشغول بها أو مستعد لها أظلم عليه وقته وضاق صدره ومن الناس من يكون طريقه الاحسان والنفع المتعدي كقضاء الحاجات وتفريج الكربات واغاثة اللهفات وأنواع الصدقات قد فتح له في هذا وسلك منه طريقا الى ربه ومن الناس من يكون طريقه الصوم فهو متى أفطر تغير عليه قلبه وساءت حاله ومن

باب

باب الحيل وباب سد الذرائع أعظم تناقض وكيف يظن بهذه الشريعة العظيمة الكاملة التي جاءت بدفع المفاسد وسد أبوابها وطرقها ان تجوز فتح باب الحيل وطرق المكر على اسقاط واجباتها واستباحة محرماتها والتذرع الى حصول المفاسد التي قصدت دفعها واذا كان الشيء الذي قد يكون ذريعة الى الفعل المحرم اما بان يقصد به ذلك المحرم أو بان لا يقصد به وانما يقصد به المباح نفسه لكن قد يكون ذريعة الى المحرم يحرمه الشارع بحسب الامكان مالم يعارض ذلك مصلحة راجحة تقتضي حله فالتذرع الى المحرمات بالاحتيال عليها أولى أن يكون حراما وأولى بالابطال والاهدار اذا عرف قصد فاعله وأولى ان لا يعان فاعله عليه وان يعامل بنقيض قصده وأن يبطل عليه كيده ومكره وهذا بحمد الله تعالى بين لمن له فقه وفهم في الشرع ومقاصده قال شيخ الاسلام وتجويز الحيل يناقض سد الذرائع مناقضة ظاهرة فان الشارع يسد الطريق الى ذلك المحرم بكل ممكن والمحتال يتوسل اليه بكل ممكن ولهذا اعتبر الشارع في البيع والصرف والنكاح وغيرها شروطا سد ببعضها التذرع الى الربا والزنا وكمل بها مقصود العقود ولم يمكن المحتال الخروج منها في الظاهر ومن يريد الاحتيال على ما منع الشارع منه فيأتي بها مع حيلة أخرى توصله بزعمه الى نفس ذلك الشيء الذي سد الشارع الذريعة اليه لم يبق لتلك الشروط التي يأتي بها فائدة ولا حقيقة بل يبقى بمنزلة العبث واللعب وتطويل الطريق الى المقصود من غير فائدة قال واعتبر هذا بالشفعة فان الشارع أباح انتزاع الشقص من مشتريه والشارع لا يخرج الملك عن مالكه بقيمة أو غيرها الا لمصلحة راجحة وكانت المصلحة ههنا تكميل العقار للشريك فانه بذلك يزول ضرر المشاركة والمقاسمة وليس في هذا التكميل ضرر على البائع لان مقصوده من الثمن يحصل باخذه من المشتري شريكا كان أو أجنبيا فالمحتال لاسقاطها مناقض لمقصود الشارع مضاد له في حكمه فالشارع يقول لا يحل له ان يبيع حتى يؤذن شريكه فان شاء أخذ وان شاء ترك والمحتال يقول للثاني تحيل على منع الشريك من الاخذ بانواع من الحيل التي ظاهرها مكر وخداع وباطنها منع الشريك مما أباحه له الشارع ومكنه منه وتفويت نفس مقصود الشارع والمصيبة الكبرى اظهار المحتال انه انما فعل ما أذن له الشارع في فعله وانه مكنه من الخداع والمكر والتحيل على اسقاط حق الشريك وهذا بين لمن تأمله قال والمقصود بيان تحريم الحيل وان صاحبها متعرض لسخط الله تعالى وأليم عقابه ويترتب على ذلك ان تنقض على صاحبها مقصوده منها بحسب الامكان وذلك في كل حيلة بحسبها فلا يخلو الاحتيال اما ان يكون من واحد أو اثنين فاكثر فان كان من اثنين فاكثر فان كان بينهما عقد بيع يواطئ عليه تحيلا على الربا كما في العينة حكم بفساد العقدين ويرد الى الاول رأس ماله كما قالت ام المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها وكان بمنزلة المقبوض بعقد ربا لا يحل الانتفاع به بل يجب

الناس من يكون طريقه تلاوة القرآن وهي الغالب على أوقاته وهي أعظم أوراده ومنهم من يكون طريقه الامر بالمعروف والنهي عن المنكر قد فتح الله له فيه ونفذ منه الى ربه ومنهم من يكون طريقه الذي نفذ فيه الحج والاعتمار ومنهم من يكون طريقه قطع العلائق وتجريد الهمة ودوام المراقبة ومراعاة الخواطر وحفظ الاوقات أن تذهب ضائعة ومنهم جامع المنفذ السالك الى الله في كل وادي الواصل اليه من كل طريق فهو جعل وظائف عبوديته قبلة قلبه ونصب عينيه يؤمها أين كانت ويسير معها حيث سارت قد ضرب مع كل فريق بسهم فأين كانت العبودية وجدته هناك ان كان علم وجدته مع أهله أو جهاد وجدته في صف المجاهدين أو صلاة وجدته في القانتين أو ذكر وجدته في الذاكرين أو احسان ونفع وجدته في زمرة المحسنين أو محبة ومراقبة وانابة الى الله وجدته في زمرة المحبين المنيبين يدين بدين العبودية أنى استقلت ركائبها ويتوجه اليها حيث استقرت مضاربها لو قيل له ما تريد من الاعمال لقال أريد أن أنفذ أوامر ربي حيث كانت وأين كانت جالبة ما جلبت مقتضية ما اقتضت جمعتني أو فرقتني ليس لي مراد الا تنفيذها والقيام بادائها مراقبا له فيها عاكفا عليه بالروح والقلب والبدن والسر قد سلمت اليه المبيع منتظرا منه تسليم الثمن ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنة فهذا هو العبد السالك الى ربه النافذ اليه حقيقة ومعنى النفوذ اليه أن يتصل به قلبه ويعلق به تعلق المحب التام المحبة بمحبوبه فيسلو به عن جميع المطالب سواه فلا يبقى في قلبه الا محبة الله وأمره وطلب التقرب اليه فاذا سلك العبد على هذا الطريق عطف عليه ربه فقربه واصطفاه وأخذ قلبه اليه وتولاه في جميع أموره في معاشه ودينه وتولى تربيته أحسن وأبلغ مما يربي الوالد الشفيق ولده فانه سبحانه القيوم المقيم لكل شيء من المخلوقات طائعها وعاصيها فكيف تكون قيوميته بمن أحبه وتولاه وآثره على ما سواه ورضي به من الناس حبيبا وربا ووكيلا وناصرا ومعينا وهاديا فلو كشف الغطاء عن الطافه وبره وصنعه له من حيث يعلم ومن حيث لا يعلم لذاب قلبه محبة له وشوقا اليه

ردّه ان كان باقيا وبدله ان كان تالفا وكذلك ان جمع بين بيع وقرض او اجارة وقرض أومضاربة أوشركة أومساقاة أومزارعة وقرض حكم بفسادها فيجب أن يرد عليه بدل ماله الذى جعله قرضا والعقد الآخر فاسد حكمه حكم العقود الفاسدة وكذلك ان كان نكاحا تواطآ عليه كان حكمه حكم الانكحة الفاسدة وكذلك ان تواطآ على هبة أو بيع لاسقاط الزكاة أو على هبة تصحيح نكاح فاسد أو وقف فاسد مثل أن تريد مواقعة مملوكها فتهبه لرجل فيزوجها به فاذا قضت وطرها منه استوهبت من الرجل فوهبها اياه فانفسخ النكاح فهذا البيع والهبة فاسدان فى جميع الاحكام وان كان الاحتيال من واحد فان كانت حيلة يستقل بها لم يحصل بها غرضه فان كانت عقدا كان فاسدا مثل أن يهب لابنه هبة يريد أن يرجع فيها لئلا يجب عليه الزكاة فان وجود هذه الهبة كعدمها ليست هبة فى شئ من الاحكام لكن ان ظهر المقصود ترتب الحكم عليه ظاهرا وباطنا والا كانت فاسدة فى الباطن فقط وان كانت حيلة لا يستقل بها مثل أن ينوى التحليل ولا يظهره للزوجة أو يرتجع المرأة اضرارا بها أو يهب ماله اضرارا للورثة ونحو ذلك كانت هذه العقود بالنسبة اليه والى من علم غرضه باطلة فلا يحل له وطء المرأة ولا يرثها لو ماتت واذا علم الموهوب له أو الموصى له غرضه لم يحصل له الملك فى الباطن فلا يحل له الانتفاع به بل يجب رده الى مستحقه وأما بالنسبة الى العاقد الآخر الذى لم يعلم فانه صحيح يفيد مقصود العقود الصحيحة ولهذا نظائر كثيرة فى الشريعة وان كانت الحيلة له وعليه كطلاق المريض صح الطلاق من جهة أنه أزال ملكه ولم يصح من جهة أنه يمنع الارث لا من ازالة ملك البضع وان كانت الحيلة فعلا يفضى الى غرض له مثل أن يسافر فى الصيف ليتأخر عنه الصوم الى الشتاء لم يحصل غرضه بل يجب عليه الصوم فى هذا السفر قلت ونظير هذا ما قالت المالكية أنه لا يستبيح رخصة المسح على الخفين اذا لبسهما النفس المتح فلو مسح لم يجزه وعليه اعادة الصلاة أبدا وانما تثبت الرخصة فى حق من لبسهما الحاجة كالبرد والركوب ونحوهما فيمسح عليهما لمشقة النزع وخالفهم باقى الفقهاء فى ذلك والمنع جار على أصول من راعى المقاصد قال شيخنا وان كان يفضى الى سقوط حق غيره مثل أن يطأ امرأة أبيه أو ابنه لينفسخ نكاحه أو مثل أن تباشر المرأة ابن زوجها أو أباه عند من يرى ذلك موجبا للتحريم فهذه الحيل بمنزلة الاتلاف للملك بقتل أو غصب لا يمكن ابطالها لان حرمة المرأة بهذا السبب حق الله تعالى يترتب عليه فسخ النكاح ضمنا والافعال الموجبة للتحريم لا يعتبر لها الفعل فضلا عن القصد وهذا بمنزلة أن يحتال على نجاسة مائع فان نجاسة المائعات وتحريم المصاهرة بالمباشرة أحكام تثبت بأمور حسية فلا ترفع الاحكام مع وجود تلك الاسباب قلت هذا قول الشيخ أولا ثم رجع الى أن تحريم المصاهرة لا يثبت بالمباشرة المحرمة وحينئذ فصورة ذلك أن ترضع ابنته الكبيرة أو أمه امرأته

الصغيرة

ويقطع شكر الله ولكن حجب القلوب عن مشاهدة ذلك اخلادها الى عالم الشهوات والتعلق بالاسباب فصدت عن كمال نعيمها وذلك تقدير العزيز العليم والا فاى قلب يذوق حلاوة معرفة الله ومحبته ثم يركن الى غيره و يسكن الى ماسواه هذا مالا يكون أبدا ومن ذاق شيأ من ذلك وعرف طريقا موصلة الى الله ثم تركها وأقبل على ارادته وراحاته وشهواته ولذاته وقع فى آثار المعاطب وأودع قلبه سجون المضايق وعذب فى حياته عذابا لم يعذب به أحد من العالمين فحياته عجز وغم وحزن وموته كدر وحسرة ومعاده أسف وندامة قد فرط عليه أمره وشتت عليه شمله وأحضر نفسه الغموم والاحزان فلا لذة الجاهلين ولا راحة العارفين يستغيث فلا يغاث و يشتكى فلا يشكى قد ترحلت افراحه وسروره مدبرة وأقبلت آلامه وأحزانه وحسراته فقد أبدل بانسه وحشة و بعزه ذلا وبغناه فقرا و بجمعيته تشتيتا وأبعدوه فلم يظفر بقربهم وأبدلوه من الانس ايحاشا ذلك بانه عرف طريقة الى الله ثم تركها ناكبا عنها مكبا على وجهه فابصر ثم عمى وعرف ثم أنكر وأقبل ثم أدبر ودعى فما أجاب وفتح له فولى ظهره الباب قد ترك طريق مولاه وأقبل بكليته على هواه فلو نال بعض حظوظه وتلذذ براحاته وشهواته فهو مقيد القلب عن انطلاقه فى فسيح التوحيد وميادين الانس ورياض المحبة وموائد القرب قد انحط بسبب اعراضه عن الهه الحق الى أسفل سافلين وحصل فى عداد الهالكين فنار الحجاب تطلع كل وقت على فؤاده واعراض الكون عنه اذ أعرض عن ربه حائل بينه وبين مراده فهو قبر يمشى على وجه الارض وروحه فى وحشة من جسمه وقلبه فى ملال من حياته يتمنى الموت ويشتهيه ولو كان فيه ما فيه حتى اذا جاءه الموت على تلك الحال والعياذ بالله فلا تسأل عما يحل به من العذاب الاليم بسبب وقوع الحجاب بينه وبين مولاه الحق واحراقه بنار البعد عن قربه والاعراض عنه وقد حيل بينه و بين سعادته وأمنيته فلو توهم العبد المسكين هذه الحال وصورتها له نفسه وأرته اياها على حقيقتها لتقطع واتلف قلبه ولم يلتذ بطعام ولا شراب ولخرج الى الصعدات يجأر الى الله و يستغيث به و يستعتبه فى زمن

الصغيرة لينفسخ نكاحها فان فسخ النكاح ههنا لا يتوقف على العقل ولا على القصد بل لو كانت المرضعة مجنونة يثبت التحريم فهو بمنزلة ان يلقى في مائعه ما ينجسه قال وان كانت الحيلة فعلا يفضي الى تحليل له أو لغيره مثل أن يقتل رجلا ليتزوج امرأته أو يزوجها غيره فههنا تحل المرأة لغير من قصد تزويجها فانها بالنسبة اليه كمن مات عنها زوجها أو قتل بحق أو في سبيل الله وأما بالنسبة الى من قصد بالقتل أن يتزوج المرأة بمواطأة منها أو بدونها فهذا شبيه من بعض الوجوه ما لو خلل الخمر بنقلها من موضع الى موضع من غير أن يطرح فيها شيئا والصحيح انها لا تطهر وان كانت تطهر اذا تخللت بفعل الله تعالى وكذلك هذا الرجل لو مات بدون هذا القصد حلت المرأة فاذا قتله لهذا القصد أمكن أن يقال تحرم عليه مع حلها لغيره ويشبه هذا الحلال اذا اصاد الصيد وذبحه لحرام فانه يحرم على ذلك المحرم ويحل للحلال ومما يؤيد هذا ان القاتل يمنع الارث ولا يمنعه غيره من الورثة لكن لما كان مال الرجل تتطلع عليه نفوس الورثة كان القتل مما يقصد به المال بخلاف الزوجة فان ذلك لا يكاد يقصد فان التفات الرجل الى امرأة غيره بالنسبة الى التفات الورثة الى مال الموروث قليل وكونه يقتله ليتزوجها فهذا أقل فلذلك لم يشرع من قتل رجلا حرمت عليه امرأته كما شرع أن من قتل موروثا منع ميراثه فاذا قتله ليتزوج بها فقد وجدت الحكمة فيه فيعاقب بنقيض قصده وأكثر ما يقال في رد هذا ان الافعال المحرمة لحق الله تعالى لا تفيد الحل كذبح الصيد وتخليل الخمر والتذكية في غير المحرم اما المحرم لحق الآدمي كذبح المغصوب فانه يفيد الحل أو يقال ان الفعل المشروع لثبوت الحكم يشترط فيه وقوعه على الوجه المشروع كالذكاة والقتل لم يشرع لحل المرأة وانما انقضى النكاح بانقضاء الحل فحصل الحل ضمنا وتبعا ويمكن أن يقال في جواب هذا ان قتل الآدمي حرام لحق الله تعالى وحق الآدمي ولهذا لا يستباح بالاباحة بخلاف ذبح المغصوب فانه حرم لمحض حق الآدمي ولهذا لو أباحه حل فالمحرم هناك انما هو تفويت المالية على المالك لا ازهاق الروح وقد اختلف في الذبح بالآلة المغصوبة وفيه عن أحمد روايتان واختلف العلماء في ذبح المغصوب وقد نص أحمد على أنه ذكي وفيه حديث رافع بن خديج في ذبح الغنم المنهوبة والحديث الآخر في المرأة التي أضافت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فذبحت له شاة أخذتها بدون اذن أهلها فقال اطعموها الاسارى وفي هذا دليل ان المذبوح بدون اذن أهله يمنع من أكله المذبوح له دون غيره كالصيد اذا ذبحه الحلال لحرام حرم على الحلال دون الحرام وقد نقل صالح عن أبيه فيمن سرق شاة فذبحها لا يحل أكلها يعني له قلت لابي فان ردها على صاحبها قال يأكل فهذه الرواية قد يؤخذ منها أنها حرام على الذابح مطلقا لان أحمد لو قصد التحريم من جهة المالك لم يأذن في الاكل ولم يختص الذابح بالتحريم فهذا القول الذي

الاستعتاب هذا مع أنه اذا آثر شهواته ولذاته الفانية التي هي كخيال طيف أو مزنة صيف نغصت عليه لذتم أحوج ما كان اليها وحيل بينه وبينها أقدر ما كان عليها وتلك سنة الله في خلقه كما قال تعالى حتى اذا أخذت الارض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالامس كذلك نفصل الآيات لقوم (٢٠٣) يتفكرون وهذا هو غب اعراضه وايثار شهوته على مرضاة ربه يعوق القدر عليه أسباب مراده فيخسر الامرين جميعا فيكون معذبا في الدنيا بتنغيص شهواته وشدة اهتمامه بطلب ما لم يقسم له وان قسم له منه شئ فحشوه الخوف والحزن والنكد والالم فهم لا ينقطع وحسرة لا تنقضي وحرص لا ينفد وذل لا ينتهي وطمع لا يقلع هذا في هذه الدار وأما في البرزخ فاضعاف اضعاف ذلك قد حيل بينه وبين ما يشتهي وفاته ما كان يتمناه من قرب ربه وكرامته ونيل ثوابه وأحضر جميع غمومه وأحزانه وأما في دار الجزاء فسجن أمثاله من المبعودين المطرودين فواغوثاه ثم واغوثاه بغياث المستغيثين وأرحم الراحمين فمن أعرض عن الله بالكلية أعرض الله عنه بالكلية ومن أعرض الله عنه لزمه الشقاء والبؤس والبخس في أحواله وأعماله وقارنه سوء الحال وفساده في دينه وماله فان الرب اذا أعرض عن جهة دارت بها النحوس وأظلمت أرجاؤها وانكسفت أنوارها وظهرت عليها وحشة الاعراض وصارت مأوى للشياطين وهدفا للشرور ومصبا للبلاء فالمحروم كل المحروم من عرف طريقا اليه ثم أعرض عنها أو وجد بارقة من حبه ثم سلبها لم ينفذ الى ربه منها خصوصا اذا مال بتلك الارادة الى شئ من اللذات وانصرف بجملته الى تحصيل الاغراض والشهوات عاكفا على ذلك في ليله ونهاره وغدوه ورواحه هابطا من الاوج الاعلى الى الحضيض الادنى قد مضت عليه برهة من أوقاته وكان همه الله وبغيته قربه ورضاه وايثاره على كل ما سواه على ذلك يصبح ويمسي ويظل ويضحي وكان الله في تلك الحال وليه لانه ولي من تولاه وحبيب من أحبه ووالاه فاصبح في سجن الهوى ثاويا وفي أسر العدو مقيما وفي بئر المعصية ساقطا وفي أودية الحيرة والتفرقة هائما معرضا عن المطالب العالية

ذل عليه الحديث فى الحقيقة حجة لتحريم مثل هذه المرأة على القاتل ليتزوجها دون غيره بطريق الاولى هذا كله كلام شيخنا وبعد فالتحريم مطرد على قواعد أحمد ومالك من وجوه متعددة منها مقابلة الفاعل بنقيض قصده كطلاق الفار وقاتل مورثه وقاتل الموصى والمدبر اذا قتل سيده ومنها سد الذرائع ومنها تحريم الحيل ومنها تخليل الخمر كما ذكره شيخنا والله تعالى أعلم قال فتلخص ان الحيل نوعان أقوال وأفعال فالاقوال يشترط لثبوت أحكامها العقل ويعتبر فيها القصد وتكون صحيحة تارة وفاسدة أخرى ثم ما ثبت حكمه منه ما يمكن فسخه ورفعه بعد وقوعه كالبيع والنكاح ومنه لا يمكن فيه ذلك كالعتق والطلاق فهذا الضرب اذا قصد به الاحتيال على فعل محرم أو اسقاط واجب أمكن بطلانه اما من جميع الوجوه واما من الوجه الذى يبطل مقصود المحتال بحيث لا يترتب عليه الحكم المحتال على حصوله كما حكم به الصحابة رضوان الله تعالى عليهم فى طلاق الفار وأما الافعال فان اقتضت الرخصة للمحتال لم يحصل كالسفر للقصر وان اقتضت تحريما على الغير فانه قد يقع وتكون بمنزلة اتلاف النفس والمال وان اقتضت حلا عاما اما بنفسها أو بواسطة زوال الملك فهذه مسألة القتل وذبح الصيد للحلال وذبح المغصوب للغاصب وبالجملة فاذا قصد بالفعل استباحة محرم لم يحل له وان قصد ازالة ملك الغير ليحل له فالاقيس أن لا يحل له أيضا وان حل لغيره وقد دخل فى القسم الاول احتيال المرأة على فسخ النكاح بالردة فهى لا يمشى غالبا الا عند من يقول الفرقة تنجز بنفس الردة أو يقول بأنها لا تقتل فالواجب فى مثل هذه الحيلة أن لا ينفسخ بها النكاح واذا علم الحاكم انها ارتدت لذلك لم يفرق بينهما وتكون مرتدة من حيث العقوبة والقتل غير مرتدة من جهة فساد النكاح حتى لو توفيت أو قتلت قبل الرجوع استحق ميراثها لكن لا يجوز له وطؤها فى حالة الردة فان الزوجة قد يحرم وطؤها باسباب من جهتها كما لو أحرمت لكن لو ثبت انها ارتدت ثم قالت انما ارتددت لفسخ لم يقبل هذا فانه قد يجعل ذريعة الى عود نكاح كل مرتدة بان تلقن انها ارتدت للفسخ ولانها متهمة فى ذلك ولان الاصل انها مرتدة فى جميع الاحكام

(فصل) وقد استدل البخارى فى صحيحه على بطلان الحيل بقوله صلى الله تعالى عليه وسلم لا يجمع بين متفرق ولا يفرق بين مجتمع خشية الصدقة فان هذا النهى يعم ما قبل الحول وبعده واحتج بقوله صلى الله تعالى عليه وسلم فى الطاعون اذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه وهذا من دقة فقهه رحمه الله فانه اذا كان قد نهى عليه السلام عن الفرار من قدر الله تعالى اذا نزل بالعبد رضا بقضاء الله تعالى وتسليما لحكمه فكيف بالفرار من أمره ودينه اذا نزل بالعبد وبانه صلى الله تعالى عليه وسلم نهى عن بيع فضل الماء ليمنع به الكلأ فدل على ان الشئ الذى هو فى نفسه غير محرم اذا قصد به أمر محرم صار

محرما

[...] الحسية الفانية كان قلبه يجول حول العرش فاصبح محبوسا فى أسفل الحش شعر

فاصبح كالبازى المنتف ريشه * يرى حسرات كلما طار طائر
وقد كان دهرا فى الرياض منعما * على كل ما يهوى من الصيد قادر

الى ان أصابته من الدهر نكبة لذا هو مقصوص الجناحين حاسر فيا من ذاق شيأ من معرفة ربه ومحبته ثم أعرض عنها واستبدل بغيرها منها يا عجباله بأى شئ تعوض وكيف قر قراره فما طلب الرجوع الى أحبته وما تعرض وكيف اتخذ سوى أحبته سكنا وجعل قلبه لمن عاداه مولاه من أجله وطنا أم كيف طاوعه قلبه على الاصطبار ووافقه على مساكنة الاغيار فيا معرضا عن حياته الدائمة ونعيمه المقيم ويا بائعا سعادته العظمى بالعذاب الاليم ويا مسخطا من حياته وراحته وفوزه فى رضاه وطالبا رضى من سعادته فى ارضاء سواه انما هى لذة فانية وشهوة منقضية تذهب لذاتها وتبقى تبعاتها فرح ساعة لا شهر وغم سنة بل دهر طعام لذيذ مسموم أوله لذة وآخره هلاك فالعامل عليها والساعى فى تحصيلها كدودة القز يسد على نفسه المذاهب بما نسج عليها من المعاطب فيندم حين لا تنفع الندامة ويستقيل حين لا تقبل الاستقالة فطوبى لمن أقبل على الله بكليته وعكف عليه بارادته ومحبته فان الله يقبل عليه بتوليه ومحبته وعطفه ورحمته وان الله سبحانه اذا أقبل على عبد استنارت جهاته وأشرقت ساحاته وتنورت ظلماتها وظهر عليه آثار اقباله من بهجة الجلال وآثار الجمال وتوجه اليه أهل الملأ الاعلى بالمحبة والموالاة لانهم تبع لولاهم فاذا أحب عبدا أحبوه واذا والى وليا والوه اذا أحب الله العبد نادى يا جبرائيل انى أحب فلانا فاحبه فينادى جبرائيل فى السماء ان الله يحب فلانا فاحبوه فيحبه أهل السماء ثم يحبه أهل الارض فيوضع له القبول بينهم ويجعل الله قلوب أوليائه تفد اليه بالود والمحبة والرحمة وناهيك من يتوجه اليه مالك الملك ذو الجلال والاكرام بمحبته ويقبل عليه بانواع كرامته ويلحظه الملأ الاعلى وأهل الارض بالتبجيل والتكريم وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم (قاعدة)

محرما واحتج أحمد رحمه الله على بطلان الحيل وتحريمها بلعنة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم للمحلل وبقوله لاترتكبوا ماارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله تعالى بأدنى الحيل واحتج على تحريم الحيل لاسقاط الشفعة بقوله فلايحل له أن يبيع حتى يؤذن شريكه واحتج ابن عباس وبعده أيوب السختيانى وغيره من السلف بأن الحيل مخادعة لله تعالى وقد قال الله تعالى يخادعون الله والذين آمنوا ومايخادعون الا أنفسهم قال ابن عباس ومن يخادع الله يخدعه ولاريب ان من تدبر القرآن والسنة ومقاصد الشارع جزم بتحريم الحيل وبطلانها فان القرآن دل على ان المقاصد والنيات معتبرة فى التصرف والعادات كما هى معتبرة فى التقربات والعبادات فيجعل الفعل حلالا أوحراما وصحيحا أوفاسدا وصحيحا من وجه فاسدا من وجه كما ان القصد والنية فى العبادات تجعلها كذلك وشواهد هذه القاعدة كثيرة جدا فى الكتاب والسنة فمنها قوله تعالى فى آية الرجعة ولاتمسكوهن ضرارا لتعتدوا وذلك نص فى ان الرجعة انما تثبت لمن قصد الصلاح دون الضرر اما اذاقصد الضرر لم يملكه الله تعالى الرجعة ومنها قوله تعالى فى آية الخلع ولايحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيأ الا أن يخافا أن لايقيما حدود الله فان خفتم أن لايقيما حدود الله فلاجناح عليهما فيما افتدت به وهذا دليل على ان الخلع المأذون فيه انما هو اذا خاف الزوجان أن لايقيما حدود الله وأن النكاح الثانى انما يباح اذا ظنا أن يقيما حدود الله فانه شرط فى الخلع عدم خوف اقامة حدوده وشرط فى العود ظن اقامة حدوده ومنها قوله تعالى فى آية الفرائض من بعد وصية يوصى بها أودين غير مضار فانه سبحانه وتعالى انما قدم على الميراث وصية من لم يضار الورثة فاذا كانت الوصية وصية ضرار كانت حراما وكان للورثة ابطالها وحرم على الموصى له أخذ ذلك بدون رضا الورثة وأكد سبحانه وتعالى ذلك بقوله تلك حدود الله فلاتعتدوها وتأمل كيف أكد سبحانه وتعالى الضرار فى هذه الآية دون التى قبلها لان الاولى تضمنت ميراث العمودين والثانية تضمنت ميراث الاطراف من الزوجين والاخوة والعادة أن الميت قد يضار زوجته واخوته ولايكاد يضار والديه وولده والضرار نوعان حيف واثم فانه قد يقصد الضرار وهو الاثم وقد يضار من غير قصد وهو الحيف فمن أوصى بزيادة على الثلث فهو مضار قصد أولم يقصد فللوارث رد هذه الوصية وان أوصى بالثلث فمادون ولم يعلم أنه قصد الضرار وجب امضاؤها فان علم الموصى له أن الموصى انما أوصى ضرارا لم يحل له الاخذ ولو عرف الوصى انه انما أوصى ضرارا لم تجز اعانته على امضاء هذه الوصية وقد جعل سبحانه وتعالى ابطال وصية الجنف والاثم وان يصلح الوصى أو غيره بين الورثة والموصى له فقال تعالى فمن خاف من موص جنفا أواثما فأصلح بينهم فلااثم عليه وكذلك اذاظهر للحاكم أوالوصى الجنف أوالاثم فى الوقف ومصرفه أو بعض شروطه فأبطل ذلك كان مصلحا لامفسدا وليس له أن يعين الواقف على

السائر الى الله والدار الآخرة بل كل سائر الى مقصد لايتم سيره ولايصل الى مقصوده الابقوتين قوة علمية وقوة عملية فبالقوة العلمية يعرف منازل الطريق ومواضع السلوك فيقصدها سائرا فيها ويجتنب أسباب الهلاك ومواضع العطب وطرق المهالك المنحرفة عن الطريق الموصل فقوته العلمية كنور عظيم بيده يمشى فى ليلة عظيمة مظلمة شديدة الظلمة فهو يبصر بذلك النور مايقع الماشى فى الظلمة فى مثله من الوهاد والمتالف ويعثر به من الاحجار والشوك وغيره ويبصر بذلك النور أيضا أعلام الطريق وأدلتها المنصوبة عليها فلايضل عنها فيكشف له النور عن الامرين أعلام الطريق ومعاطبها وبالقوة العملية يسير حقيقة بل السير هو حقيقة القوة العملية فان السير هو عمل المسافر وكذلك السائر الى ربه اذا أبصر الطريق واعلامها وأبصر المغاير والوهاد والطرق الناكبة عنها فقد حصل له شطر السعادة والفلاح وبقى عليه الشطر الآخر وهو ان يضع عصاه على عاتقه ويشمر مسافرا فى الطريق قاطعا منازلها منزلة بعد منزلة فكلما قطع مرحلة استعد لقطع الاخرى واستشعر القرب من المنزل فهان عليه مشقة السفر وكلما سكنت نفسه من كلال السير ومواصلة الشد والرحل وعدها قرب التلاقى وبرد العيش عند الوصول فيحدث لها ذلك نشاطا وفرحا وهمة فهو يقول يانفس أبشرى فقد قرب المنزل ودنا التلاقى فلا تنقطعى فى الطريق دون الوصول فيحال بينك وبين منازل الاحبة فان صبرت وواصلت المسرى وصلت حميدة مسرورة جذلة وتلقتك الاحبة بانواع التحف والكرامات وليس بينك وبين ذلك الاصبر ساعة فان الدنيا كلها كساعة من ساعات الآخرة وعمرك درجة من درج تلك الساعة فالله الله لاتنقطعى فى المفازة فهو والله الهلاك والعطب لو كنت تعلمين فان استصعبت عليه فليذكرها ماأمامها من أحبابها ومالديهم من الاكرام والانعام وماخلفها من أعدائها ومالديهم من الاهانة والعذاب وأنواع البلاء فان رجعت فالى أعدائها رجوعها وان تقدمت فالى أحبابها مصيرها وان وقفت فى طريقها أدركها أعداؤها فانهم وراءها فى الطلب ولابد لها من قسم من هذه الاقسام الثلاثة فلتختر أيها شاءت وليجعل حديث الاحبة حاديها

امضاء الجنف والاثم ولا يصح هذا الشرط ولا يحكم به فان الشارع قد رده وأبطله فليس له أن يصحح ما رده الشارع وحرمه فان ذلك مضادة له ومناقضة ومن ذلك قوله تعالى ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن الا أن يأتين بفاحشة مبينة فهذا دليل على أنه اذا عضلها لتفتدى نفسها منه وهو ظالم لها بذلك لا يحل له أخذ ما تدليه له ولا يملكه بذلك ومن ذلك قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن فحرم سبحانه وتعالى ان يأخذ منها شيأ مما أتاها اذا كان قد توسل اليه بالعضل ومن ذلك أن جذاذ النخل عمل مباح أى وقت شاء صاحبه لكن لما قصد به أصحابه فى الليل حرمان الفقراء عاقبهم الله تعالى باهلاكه ثم قال ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ثم جاءت السنة بكراهة الجذاذ بالليل لكونه ذريعة الى هذه المفسدة ونص عليه غير واحد من الائمة كاحمد بن حنبل وغيره قال أصحاب الحيل قد أسمعتمونا على بطلان الحيل وتحريمها ما فيه كفاية فاسمعوا الآن على جوازها واستحبابها ما نقيم عذرنا قال الله سبحانه وتعالى ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الارض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ووجه الاستدلال أنه سبحانه وتعالى انما عذرهم بتخلفهم وعجزهم اذا لم يستطيعوا حيلة يتخلصون بها من المقام بين أظهر الكفار وهو حرام فعلم أن الحيلة التى تخلص من الحرام مستحبة مأذون فيها وعامة الحيل التى تنكرونها علينا من هذا الباب فانها حيلة تخلص من الحرام ولهذا سمى بعض من صنف فى ذلك كتابه المخارج من الحرام والتخلص من الآثام واعتبر هذا بحيلة العينة فانها تخلص من الربا المحرم وكذلك الجمع بين الاجارة والمساقاة يخلص من بيع الثمرة قبل بدو صلاحها وهو حرام وكذلك خلع اليمين يخلص من وقوع الطلاق الذى هو حرام ومكروه أو من مواقعة المرأة بعد الحنث وهو حرام وكذلك هبة الرجل ماله قبل الحول لولده أو لامرأته يخلصه من اثم منع الزكاة كما يتخلص من اثم المنع باخراجها فهما طريقان للتخلص فالحيل تخلص من الحرج وتخلص من الاثم والله تعالى قد نفى الحرج عنا وعن ديننا الى التخلص منه ومن الآثام فمن أفضل الاشياء معرفة ما يخلصنا من هذا وهذا وتعليمه وفتح طريقه ألا ترى أن الرجل اذا حلف بالطلاق ليقتلن أباه أو ليشربن الخمر أو ليزنين بامرأة ونحو ذلك كانت الحيلة تخليصه من مفسدة فعل ذلك ومن مفسدة خراب بيته ومفارقة أهله فان من لا يرى الحيلة ليس له عنده مخرج الا بوقوع الطلاق فاذا علم انه يقع به الطلاق وزال فعل المحلوف عليه فأى شئ أفضل من تخليصه من هذا وهذا وكذلك من وقع عليه الطلاق الثلاث ولا صبر له عن امرأته ويرى ايصالها بغيره أشد من موته فاحتلنا له بأن زوجناها بعبد فوطئها ثم وهبناه

يوصله اليها ولو ربه معرفتهم وارشادهم هاديهم اودليلها وصدق ودادهم ودينهم غذاؤها وشرابها ودواؤها ولا يوحشه انفراده فى طريق سفره ولا يغتر بكثرة المنقطعين فألم انقطاعه وبعاده واصل اليه دونهم وحظه من القرب والكرامة يختص به دونهم فما معنى الاشتغال بهم والانقطاع معهم وليعلم أن هذه الوحشة لا تدوم بل هى من عوارض الطريق فسوف يبدو له الخيام وسوف يخرج اليه المتلقون يهنئونه بالسلامة والوصول اليهم فياقرة عينه اذ ذاك ويا فرحته اذ يقول ياليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين ولا يستوحش مما يجده من كثافة الطبع وذوب النفس وبطء سيرها وكلما أدمن على السير وواظب عليه غدوا ورواحا وسحرا اقترب من الدار وتلطفت تلك الكثافة وذابت تلك الخبائث والادران فظهرت عليه همة المسافرين وسيماهم فتبدلت وحشته انسا وكثافته لطافة ودرنه طهارة

(فصل) فمن الناس من يكون له القوة العلمية الكاشفة عن الطريق ومنازلها وأعلامها وعوارضها ومعاثرها وتكون هذه القوة أغلب القوتين عليه ويكون ضعيفا فى القوة العملية يبصر الحقائق ولا يعمل بموجبها ويرى المتالف والمخاوف والمعاطب ولا يتوقاها فهو فقيه ما لم يحضر العمل فاذا حضر العمل شارك الجهال فى التخلف وفارقهم فى العلم وهذا هو الغالب على أكثر النفوس المشتغلة بالعلم والمعصوم من عصمه الله ولا قوة الا بالله ومن الناس من تكون له القوة العملية الارادية وتكون أغلب القوتين عليه وتقتضى هذه القوة السير والسلوك والزهد فى الدنيا والرغبة فى الآخرة والجد والتشمير فى العمل ويكون أعمى البصر عند ورود الشبهات فى العقائد والانحرافات فى الاعمال والاقوال والمقامات كما كان الاول ضعيف العقل عند ورود الشهوات فداء هذا من جهله سنها وداء الاول من فساد ارادته وضعف عقله وهذا حال أكثر أرباب الفقر والتصوف السالكين على غير طريق العلم بل على طريق الذوق والوجد والعادة يرى أحدهم أعمى عن مطلوبه لا يدرى من يعبد ولا بماذا يعبده فتارة يعبده بذوقه ووجده وتارة يعبده بعادة قومه

منها فانفسخ نكاحه وحلت لزوجها المطلق بعد انقضاء العدة قالوا وقد قال الله تعالى لنبيه أيوب عليه السلام وقد حلف ليجلدن امرأته مائة وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث قال سعيد عن قتادة كانت امرأته قد عرضت له بأمر وأرادها ابليس على شئ فقال لها لو تكلمت بكذا وكذا وانما حملها عليها الجزع فحلف نبي الله لئن شفاه الله تعالى ليجلدنها مائة جلدة قال فأمر بأصل فيه تسعة وتسعون قضيبا والاصل تكملة المائة فيضربها به ضربة واحدة فأبر الله تعالى نبيه وخفف عن أمته وقال عبد الرحمن بن جبير لقيها ابليس فقال لها والله لو تكلم صاحبك بكلمة واحدة لكشف عنه كل ضر ولرجع اليه ماله وولده فأخبرت أيوب فقال ويلك ذاك عدو الله انما مثلك مثل المرأة الزانية اذا جاءها صديقها بشئ قبلته وأدخلته وان لم يأتها بشئ طردته وأغلقت بابها عنه لما أعطانا الله تعالى المال والولد آمنا به واذا قبض الذي أعطانا منا نكفر به ان أقامني الله تعالى من مرضي لأجلدنك مائة فأفتاه الله بما أخبر به أن يأخذ ضغثا وهو الحزمة من الشئ مثل الشماريخ الرطبة والعيدان ونحوها مما هو قائم على ساق فيضرب بها ضربة واحدة وهذا تعليم منه لعباده التخلص من الآثام والمخرج من الحرج بأيسر شئ وهذا أصلنا في باب الحيل فانا قسنا على هذا وجعلناه أصلا قالوا وقد أرشد النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الى التخلص من صريح الربا بأن يبيعه التمر بدراهم ثم يشتري بتلك الدراهم تمرا وروى أبو سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال جاء بلال الى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بتمر برني فقال له عليه السلام من أين هذا قال كان عندنا تمر رديء فبعت منه صاعين بصاع ليطعم النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فقال له عليه السلام عند ذلك أوه عين الربا لا تفعل ولكن اذا أردت أن تشتري بع التمر بالدراهم ثم اشتر به متفق عليه وفي لفظ بع الجمع بالدراهم ثم اشتر بالدراهم جنيبا والجمع والجنيب نوعان من التمر وفي لفظ لمسلم بعه بسلعة ثم ابتع بسلعتك أي التمر شئت فقد أمر أن يبيع التمر بالدراهم أو السلعة ثم يبتاع بها تمرا وهذا ضرب من الحيلة ولم يفرق بين بيعه ممن يشتري منه التمر أو من غيره وقد جاء قوله تعالى الا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم وهذا ارشاد الى حيلة العينة وما يشبهها فان السلعة تدور بين المتعاقدين للتخلص من الربا قالوا وقد دلت السنة على أنه يجوز للانسان أن يتخلص من القول الذي يأثم به أو يخاف بالمعاريض وهي حيلة في الاقوال كما أن تلك حيل في الاعمال وروى قيس بن الربيع عن سليمان التيمي عن أبي عثمان النهدي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال ان في معاريض الكلام ما يغني الرجل عن الكذب وقال الحكم عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنه ما يسرني بمعاريض الكلام حمر النعم وقال الزهري عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف عن أمه أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وكانت من المهاجرات الاول لم أسمع رسول الله صلى الله

وأصحابه من لبس معين أو كشف رأس أو حلق لحية ونحوها وتارة يعبده بالاوضاع التي وضعها بعض المتحذلقين وليس له أصل في الدين وتارة يعبده بما تحبه نفسه وتهواه كائنا ما كان وهنا طرق ومتاهات لا يحصيها الا رب العباد فهؤلاء كلهم عمي عن ربهم وعن شريعته ودينه لا يعرفون شريعته ودينه الذي بعث به رسله وأنزل به كتبه ولا يقبل من أحد دينا سواه كما انهم لا يعرفون صفات ربهم التي تعرف بها الى عباده على السنة رسله ودعاهم الى معرفته ومحبته من طريقها فلا معرفة بالرب ولا عبادة له فمن كانت له هاتان القوتان استقام له سيره الى الله ورجي له النفوذ وقوي على رد القواطع والموانع بحول الله وقوته فان القواطع كثيرة شأنها شديد لا يخلص من حبائلها الا الواحد بعد الواحد ولولا القواطع والآفات لكان الطريق معمورة بالسالكين ولو شاء الله لأزالها وذهب بها ولكن الله يفعل ما يريد والوقت كما قيل سيف فان قطعته والا قطعك فاذا كان السير ضعيفا والهمة ضعيفة والعلم بالطريق ضعيفا والقواطع الخارجة والداخلة كثيرة شديدة فانه جهد البلاء ودرك الشقاء وشماتة الاعداء الا ان يتداركه الله برحمة منه من حيث لا يحتسب فيأخذ بيده ويخلصه من أيدي القواطع والله ولي التوفيق (قاعدة) نافعة العبد من حين استقرت قدمه في هذه الدار فهو مسافر فيها الى ربه ومدة سفره هي عمره الذي كتب له فالعمر هو مدة سفر الانسان في هذه الدار الى ربه ثم قد جعلت الايام والليالي مراحل لسفره فكل يوم وليلة مرحلة من المراحل فلا يزال يطويها مرحلة بعد مرحلة حتى ينتهي السفر فالكيس الفطن هو الذي يجعل كل مرحلة نصب عينيه فيهتم بقطعها سالما غانما فاذا قطعها جعل الاخرى نصب عينيه ولا يطول عليه الامد فيقسو قلبه ويمتد أمله ويحضر بالتسويف والوعد والتأخير والمطل بل يعد عمره تلك المرحلة الواحدة فيجتهد في قطعها بخير ما بحضرته فانه اذا تيقن قصرها وسرعة انقضائها هان عليه العمل فطوعت له نفسه الانقياد الى التزود فاذا استقبل المرحلة الاخرى من عمره استقبلها كذلك فلا يزال هذا دأبه حتى يطوي مراحل عمره كلها فيحمد سعيه ويبتهج بما أعده ليوم فاقته وحاجته فاذا

تعالى عليه وسلم يرخص فى شئ مما يقول الناس انه كذب الا فى ثلاث الرجل يصلح بين الناس والرجل يكذب لامرأته والكذب فى الحرب ومعنى الكذب فى ذلك هو المعاريض لا صريح وقال منصور كان لهم كلام يدرؤن به عن أنفسهم العقوبة والبلايا وقد لقى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم طليعة للمشركين وهو فى نفر من أصحابه فقال المشركون ممن أنتم فقال عليه السلام نحن من ماء فنظر بعضهم الى بعض فقالوا أحياء اليمن كثير لعلهم منهم وانصرفوا وأراد عليه السلام بقوله نحن من ماء دافق ولما وطئ عبد الله بن رواحة جاريته أبصرته امرأته فأخذت السكين وجاءته فوجدته قد قضى حاجته فقالت لو رأيتك حيث كنت لوجأت بها فى عنقك فقال ما فعلت فقالت ان كنت صادقا فاقرأ القرآن فقال

شهدت بأن وعد الله حق * وأن النار مثوى الكافرينا
وان العرش فوق الماء طاف * وفوق العرش رب العالمينا
ويحمله ملائكة شداد * ملائكة الاله مسومينا

فقالت آمنت بكتاب الله وكذبت بصرى فبلغ رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فضحك حتى بدت نواجذه ويذكر عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال عجبت لمن يعرف المعاريض كيف يكذب ودعى أبو هريرة رضى الله عنه الى طعام فقال انى صائم ثم رؤى يأكل فقالوا ألم تقل انى صائم فقال ألم يقل رسول الله عليه السلام صيام ثلاثة أيام من كل شهر صيام الدهر وكان محمد بن سيرين اذا اقتضاه غريم ولا شئ معه قال أعطيك فى أحد اليومين ان شاء الله تعالى فيظن أنه أراد يومه والذى يليه وانما أراد يومى الدنيا والآخرة وذكر الاعمش عن ابراهيم أنه قال له رجل ان فلانا أمرنى أن آتى مكان كذا وكذا وأنا لا أقدر على ذلك المكان فكيف الحيلة فقال له قل والله ما أبصر الا ما سددنى غيرى يعنى الا ما بصرك ربك وقال حماد عن ابراهيم فى رجل أخذه رجل فقال ان لى معك حقا فقال لا فقال احلف بالمشى الى بيت الله فقال احلف بالمشى الى بيت الله واعن مسجد حيك وذكر هشام بن حسان عن ابن سيرين أن رجلا كان يصيب بالعين فرأى بغلة شريح فأراد أن يعينها ففطن له شريح فقال انها اذا ربضت لم تقم حتى تقام فقال الرجل أف أف وسلمت بغلته وانما أراد ان الله سبحانه وتعالى هو الذى يقيمها وقال الاعمش عن ابراهيم أنه سئل عن الرجل يبلغه عن الرجل الشئ يقوله فيه فيسأله عنه فقال قل والله ان الله ليعلم ما من ذلك من شئ يعنى لما الذى وقال عقبة بن المغيرة كنا نأتى ابراهيم وهو خائف من الحجاج فكنا اذا خرجنا من عنده يقول ان سئلتم عنى وحلفتم فاحلفوا بالله ما تدرون أين أنا ولا لنا به علم ولا فى أى موضع هو واعنوا أنكم لا تدرون فى أى موضع أنا قائم أو قاعد وقد صدقتم وجاءه رجل فقال انى اعترضت

طلع صبح الآخرة وانقشع ظلام الدنيا فحينئذ يحمد سراه وينجاب عنه كراه فما أحسن ما يستقبل يومه وقد لاح صباحه واستبان فلاحه ثم الناس فى قطع هذه المراحل قسمان فقسم قطعوها مسافرين فيها الى دار الشقاء فكلما قطعوا منها مرحلة قربوا من تلك الدار وبعدوا عن ربهم وعن دار كرامته فقطعوا تلك المراحل بمساخط الرب ومعاداته ومعاداة رسله وأوليائه ودينه والسعى فى اطفاء نوره وابطال دعوته واقامة دعوة غيرها فهؤلاء جعلت أيامهم يسافرون فيها الى الدار التى خلقوا لها واستعملوا بها فهم مصحوبون فيها بالشياطين الموكلة بهم يسوقونهم الى منازلهم سوقا كما قال تعالى ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا أى تزعجهم الى المعاصى والكفر ازعاجا وتسوقهم سوقا (القسم الثانى) قطعوا تلك المراحل سائرين فيها الى الله والى دار السلام وهم ثلاثة أقسام ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالخيرات باذن الله وهؤلاء كلهم مستعدون للسير موقنون بالرجعى الى الله ولكن متفاوتون فى التزود وتعبية الزاد واختياره وفى نفس السير وسرعته وبطئه فالظالم لنفسه مقصر فى الزاد غير آخذ منه ما يبلغه المنزل لا فى قدره ولا فى صفته بل مفرط فى زاده الذى ينبغى له أن يتزوده ومع ذلك فهو متزود ما يتأذى به فى طريقه ويجد غب أذاه اذا وصل المنزل بحسب ما تزود من ذلك المؤذى الضار والمقتصد اقتصر من الزاد على ما يبلغه ولم يشد مع ذلك احمال التجارة الرابحة ولم يتزود ما يضره فهو سالم غانم لكن فاتته المتاجر الرابحة وأنواع المكاسب الفاخرة والسابق بالخيرات همه فى تحصيل الارباح وشد أحمال التجارات لعلمه بمقدار الربح الحاصل فيرى خسرانا أن يدخر شيئا مما بيده ولا يتجر به فيجد ربحه يوم تغبط التجار بأرباح تجاراتهم فهو كرجل قد علم ان أمامه بلدة الدرهم يكسب فيها عشرة الى سبعمائة وأكثر وعنده حاصل وله خبرة بطريق ذلك البلد وخبرة بالتجارة فهو لو أمكنه بيع ثيابه وكل ما يملك حتى يجئ به تجارة الى ذلك البلد لفعل فهكذا حال السابق بالخيرات باذن الله يرى خسرانا بينا أن يمر عليه وقت فى غير متجر فنذكر بعون الله وفضله نبذة من متاجر الأقسام الثلاثة ليعلم

على

على دابة فنفقت فأخذت غيرها ويريدون أن يحلفوني أنها الدابة التي اعترضت عليها فقال اركبها واعترض عليها على بطنك ٧ راكبا ثم احلف انها الدابة التي أعرضت عليها وقال أبو عوانة عن أبي مسكين كنت عند ابراهيم وامرأته تعاتبه في جارية له وبيده مروحة فقال أشهدكم أنها لها فلما خرجنا قال على ما شهدتم قلنا شهدنا انك جعلت الجارية لها قال أما رأيتموني أشير الى المروحة انما قلت لكم اشهدوا أنها وأنا أعني المروحة وقال محمد بن الحسن عن عمر بن ذر الشعبي من حلف على يمين لا يستثني فالبر والاثم فيها على علمه قلت ما تقول في الحيل قال لا بأس بالحيل فيما يحل ويجوز وانما الحيل شئ يتخلص به الرجل من الحرام ويخرج به الى الحلال فما كان من هذا ونحوه فلا بأس به وانما نكره من ذلك أن يحتال الرجل في حق لرجل حتى يبطله أو يحتال في باطل حتى يموهه أو يحتال في شئ حتى يدخل فيه شبهة وأما ما كان على السبيل الذي قلنا فلا بأس بذلك وكان حماد رحمه الله اذا جاءه من لا يريد الاجتماع به وضع يده على ضرسه ثم قال ضرسي ضرسي ووجه الرشيد الى شريك رجلا ليحضره فسأله شريك أن ينصرف ويدافع بحضوره ففعل فحبسه الرشيد ثم أرسل اليه رسولا آخر فأحضره وسأله عن تخلفه لما جاءه رسوله فحلف له بالايمان المغلظة أنه ما رأى الرسول في اليوم الذي أرسله فيه وعنى بذلك الرسول الثاني فصدقه وأمر باطلاق الرجل وأحضر الثوري الى مجلس المهدي فأراد أن يقوم فمنع فحلف بالله أنه يعود فترك نعله وخرج ثم رجع فلبسها ولم يعد فقال المهدي ألم يحلف أنه يعود فقالوا انه عاد فأخذ نعله قالوا وليس مذهب من مذاهب الائمة المتبوعين الا وقد تضمن كثيرا من مسائل الحيل فأبعد الناس عن القول بها مالك وأحمد وقد سئل أحمد عن المروزي وهو عنده ولم يرد أن يخرج الى السائل فوضع أحمد أصبعه في كفه وقال ليس المروزي ههنا وقد سئل أحمد عن رجل حلف بالطلاق ليطأن امرأته في نهار رمضان فقال يسافر بها ويطأها في السفر وقال صاحب المستوعب وجدت بخط شيخنا أبي حكيم حكى أن رجلا سأل أحمد عن رجل حلف أن لا يفطر في رمضان فقال له اذهب الى بشر بن الوليد فاسأله ثم ائتني فأخبرني فذهب فسأله فقال له بشر اذا أفطر أهلك فاقعد معهم ولا تفطر فاذا كان وقت السحر فكل واحتج بقول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم هلم الى الغداء المبارك واستحسنه أحمد قالوا وقد علم الله سبحانه نبيه يوسف عليه السلام الحيلة التي توصل بها الى أخذ أخيه باظهار أنه سارق ووضع الصواع في رحله ولم يكن كذلك حقيقة لكن أظهر ذلك توصلا الى أخذ أخيه وجعله عنده وأخبر الله سبحانه ان ذلك كيد كاده سبحانه ليوسف ليأخذ أخاه ثم أخبر سبحانه وتعالى ان ذلك من العلم الذي يرفع به درجات من يشاء وان الناس متفاوتون فيه ففوق كل ذي علم عليم قال منكرو الحيل الحيل ثلاثة أنواع نوع هو قربة وطاعة وهو من أفضل الاعمال عند الله تعالى ونوع هو جائز مباح لا حرج

الغبن من أي التجار هو وأما الظالم لنفسه فانه اذا استقبل مرحلة يومه وليلته استقبلها وقد سبقت حظوظه وشهواته الى قلبه فحركت جوارحه طالبة لها فاذا زاحمها حق وقربه فتارة وتارة فترة يأخذ بالرخصة وتارة بالعزيمة ومرة يقدم على الذنب وترك الحق تهاونا ووعدا بالتوبة فهذا حال الظالم لنفسه مع حفظ التوحيد والايمان بالله ورسوله واليوم الآخر والتصديق بالثواب والعقاب فمرحلة هذا مقطوعة بالربح والخسران وهو الأغلب منهما فاذا ورد القيامة ميز ربحه من خسرانه وحصل ربحه وحده وخسرانه وحده وكان الحكم للراجح منهما وحكم الله من وراء ذلك لا يعدم منه فضله وعدله

(فصل) وأما المقتصدون فأدوا وظيفة تلك المرحلة ولم يزيدوا عليها ولا نقصوا منها فلا حصلوا على أرباح التجار ولا بخسوا الحق الذي عليهم فاذا استقبل أحدهم مرحلة يومه استقبلها بالطهور التام والصلاة التامة في وقتها بأركانها وواجباتها وشرائطها ثم ينصرف منها الى مباحاته ومعيشته وتصرفاته التي أذن الله فيها مشتغلا بها قائما بأعيانها مؤديا واجب الرب فيها غير متفرغ لنوافل العبادات وأوراد الأذكار والتوجه فاذا حضرت الفريضة الاخرى بادر اليها كذلك فاذا أكملها انصرف الى حاله الاول فهو كذلك سائر يومه فاذا جاء الليل فكذلك الى حين النوم يأخذ مضجعه حتى ينشق الفجر فيقوم الى غدائه ووظيفته فاذا جاء صوم الواجب قام بحقه وكذلك الزكاة الواجبة والحج الواجب وكذلك المعاملة مع الخلق يقوم فيها بالقسط لا يظلمهم ولا يترك حقه لهم

(فصل) وأما السابقون بالخيرات فهم نوعان أبرار ومقربون وهؤلاء الاصناف الثلاثة هم أهل اليمين وهم المقتصدون والابرار والمقربون وأما الظالم لنفسه فليس من أصحاب اليمين عند الاطلاق وان كان مآله الى أصحاب اليمين كما انه لا يسمى مؤمنا عند الاطلاق وان كان مصيره ومآله مصير المؤمنين بعد أخذ الحق منه وقد اختلف في قوله جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب الآية هل ذلك راجع الى الاصناف الثلاثة الظالم لنفسه والمقتصد والسابق

بالخيرات أو يختص بالقسمين الآخرين وهما المقتصد والسابق دون الظالم على قولين فذهبت طائفة الى أن الاصناف الثلاثة كلهم في الجنة وهذا يروى عن ابن مسعود وابن عباس وأبي سعيد الخدري وعائشة أم المؤمنين قال أبو اسحق السبيعي أما الذي سمعت منذ ستين سنة فكلهم ناج قال أبو داود الطائي نبأنا الصلت بن دينار ثنا عقبة بن صهبان الهنائي قال سألت عائشة عن قول الله فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات فقالت لي يا بني كل هؤلاء في الجنة فأما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله يشهد له رسول الله بالخيرة والرزق وأما المقتصد فمن تبع أثره من أصحابه حتى لحق به وأما الظالم لنفسه فمثلي ومثلك قال فجعلت نفسها معنا وقال ابن مسعود هذه الامة يوم القيامة أثلاث ثلث يدخلون الجنة بغير حساب وثلث يحاسبون حسابا يسيرا ثم يدخلون الجنة وثلث يجيئون بذنوب عظام فيقول الله ما هؤلاء وهو أعلم بهم فتقول الملائكة هم مذنبون الا أنهم لم يشركوا فيقول الله أدخلوهم في سعة رحمتي وقال كعب تحاذت مناكبهم ورب الكعبة وتفاضلوا بأعمالهم وقال الحسن السابق من رجحت حسناته والمقتصد من استوت حسناته وسيئاته والظالم من خفت موازينه واحتجت هذه الفرقة بأنه سبحانه سمى الكل مصطفين وأخبر انه اصطفاهم من جملة العباد ومحال من أن يكون الكافر والمشرك من المصطفين لان الاصطفاء هو الاختيار وهو الافتعال من صفوة الشيء وهو خياره فعلم أن هؤلاء الاصناف الثلاثة صفوة الخلق وبعضهم خير من بعض فسابقهم مصطفى عليهم ثم مقتصدهم مصطفى على ظالمهم ثم ظالمهم مصطفى على الكافر والمشرك واحتجت أيضا بالآثار ونحن نأتي بما ذهبت اليه فمنها ما رواه سليمان الشاذكوني ثنا حصين بن نمير عن أبي ليلى عن أخيه عن أبيه عن اسامة بن زيد عن النبي في هذه الآية قال كلهم في الجنة ومنها ما رواه الطبراني ثنا أحمد وابي ابن حماد بن زغبة ثنا يحيى بن بكير ثنا ابن لهيعة عن أحمد بن حازم المعافري عن صالح مولى التوأمة عن أبي الدرداء قال قرأ النبي هذه الآية فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله فقال أما السابق فيدخل الجنة بغير حساب وأما المقتصد فيحاسب حسابا يسيرا وأما الظالم فيجلس في طول المحبس ثم يتجاوز الله عنه ومنها ما رواه زكريا الساجي عن الحسن بن علي الواسطي عن أبي سعيد الخزاعي

على فاعله ولا على تاركه ويرجح فعله على تركه أو عكس ذلك تابع لمصلحته ونوع هو محرم مخادعة لله تعالى ورسوله متضمن لاسقاط ما أوجبه وابطال ما شرعه وتحليل ما حرمه وانكار السلف والائمة وأهل الحديث انما هو لهذا النوع فان الحيلة لا تذم مطلقا ولا تحمد مطلقا ولفظها لا يشعر بمدح ولا ذم وان غلب في العرف اطلاقها على ما يكون من الطرق الخفية الى حصول الغرض بحيث لا يتفطن له الا بنوع من الذكاء والفطنة وأخص من هذا تخصيصها بما يذم من ذلك وهذا هو الغالب على عرف الفقهاء المنكرين للحيل فان أهل العرف لهم تصرف وتخصيص في الالفاظ العامة ببعض موضوعاتها أو تقييد مطلقها ببعض أنواعه فان الحيلة فعلة من الحول وهو التصرف من حال الى حال وهي من ذوات الواو وأصلها حولة فسكنت الواو وانكسر ما قبلها فقلبت ياء كميزان وميقات وميعاد قال في المحكم الحول والحيل والحول والحيلة والمحالة والاحتيال والتحيل والتحول كل ذلك الحذق وجودة النظر والقدرة على وجه التصرفات قال والحول والحيل جمع حيلة ورجل حول وحولة وحوالي وحوالي وحولول شديد الاحتيال وما أحوله وأحيله وهو أحول منك انتهى فالحيلة فعلة من الحول وهو التحول من حال الى حال وكل من حاول أمرا يريد فعله أو الخلاص منه فما يحاوله به حيلة يتوصل بها اليه فالحيلة معتبرة بالامر المحتال بها عليه اطلاقا ومنعا ومصلحة ومفسدة وطاعة ومعصية فان كان المقصود أمرا حسنا كانت الحيلة حسنة وان كان قبيحا كانت الحيلة قبيحة وان كان طاعة وقربة كانت الحيلة عليه كذلك وان كانت معصية وفسوقا كانت عليه كذلك ولما قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله تعالى بأدنى الحيل صارت في عرف الفقهاء اذا أطلقت يقصد بها الحيل التي يستحل بها المحارم كحيل اليهود وكل حيلة تتضمن اسقاط حق لله تعالى أو لآدمي فهي مما يستحل بها المحارم ونظير ذلك لفظ الخداع فانه ينقسم الى محمود ومذموم فان كان بحق فهو محمود وان كان بباطل فهو مذموم ومن النوع المحمود قوله صلى الله تعالى عليه وسلم الحرب خدعة وقوله في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره كل الكذب يكتب على ابن آدم الا ثلاث خصال رجل كذب امرأته ليرضيها ورجل كذب بين اثنين ليصلح بينهما ورجل كذب في خدعة حرب ومن النوع المذموم قوله في حديث عياض بن حماد الذي رواه مسلم في صحيحه أهل النار خمسة ذكر منهم رجلا لا يصبح ولا يمسي الا وهو يخادعك عن أهلك ومالك وقوله تعالى يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون وقوله تعالى وان يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله ومن النوع المحمود خدع كعب بن الاشرف

عن الحسن بن سالم عن سعد بن طريف عن أبي هاشم الطائي قال قدمت المدينة فدخلت مسجدها فجلست الى سارية فجاء حذيفة فقال ألا أحدثك بحديث سمعته من رسول الله يقول يبعث الله تبارك وتعالى هذه الامة أو كما قال ثلاثة أصناف وذلك في قوله فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات فالسابق بالخيرات يدخل الجنة بلا حساب والمقتصد يحاسب حسابا يسيرا والظالم لنفسه يدخل الجنة برحمة الله ومنها مارواه الطبراني عن محمد بن اسحق بن راهويه ثنا أبي ثنا جرير عن الاعمش (٢١١) عن رجل سماه عن أبي الدرداء قال سمعت رسول الله يقول في قوله فمنهم ظالم لنفسه الآية قال السابق بالخيرات والمقتصد يدخلان الجنة بغير حساب والظالم لنفسه يحاسب حسابا يسيرا ثم يدخل الجنة ومنها مارواه ابن لهيعة عن أبي جعفر عن يونس بن عبد الرحمن عن أبي الدرداء قال سمعت رسول الله يقول في هذه الآية ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا الى قوله سابق بالخيرات قال فاما السابقون فيدخلون الجنة بغير حساب وأما المقتصد فيحاسب حسابا يسيرا وأما الظالمون فيحاسبون فيصيبهم عناء وكرب ثم يدخلون الجنة ثم يقولون الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ان ربنا لغفور شكور ومنها مارواه الحميدى ثنا سفيان ثنا طعيمة بن عمر والجعفرى عن رجل قال قال أبو الدرداء لرجل ألا أحدثك بحديث أخصك به لم أحدث به أحدا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد الآية جنات عدن قال دخلوا الجنة جميعا واحتجت أيضا بالآيات والاحاديث التي تشهد بنجاة الموحدين من أهل الكبائر ودخولهم الجنة واحتجت أيضا بان ظلم النفس انما يراد بها ظلمها بالذنوب والمعاصي فان الظلم ثلاثة أنواع ظلم في حق النفس باتباعها شهواتها وايثارها على طاعة ربها وظلم في حق الخلق بالعدوان عليهم ومنعهم حقوقهم وظلم في حق الرب بالشرك به فظلم النفس انما هو بالمعاصي وقد تواترت النصوص بان العصاة من الموحدين مآلهم الى الجنة وقالت طائفة بل الوعد بالجنات انما هو للمقتصد والسابق دون الظالم لنفسه فان الظالم لنفسه لا يدخل تحت الوعد المطلق والظالم لنفسه هنا هو الكافر والمقتصد المؤمن العاصي والسابق المؤمن التقي وهذا يروى عن عكرمة والحسن وقتادة وهو اختيار جماعة من المفسرين منهم صاحب الكشاف ومنذر بن سعيد في تفسيره والرماني وغيرهم قالوا وهذه الآية متناولة

وأبي رافع عدوى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حتى قتلا وقتل سفيان بن خالد الهذلي ومن أحسن ذلك خديعة معبد بن أبي معبد الخزاعي لابي سفيان وعسكر المسلمين حين هموا بالرجوع ليستأصلوا المسلمين وردهم من فورهم ومن ذلك خديعة نعيم بن مسعود الاشجعي ليهود بني قريظة ولكفار قريش والاحزاب حتى ألقى الخلاف بينهم وكان سبب تفرقهم ورجوعهم ونظائر ذلك كثيرة وكذلك المكر ينقسم الى محمود ومذموم فان حقيقته اظهار أمر واخفاء خلافه ليتوصل به الى مراده فمن المحمود مكره تعالى بأهل المكر مقابلة لهم بفعلهم وجزاءهم بجنس عملهم قال تعالى ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين وقال تعالى ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون وكذلك الكيد ينقسم الى نوعين قال تعالى وأملي لهم ان كيدي متين وقال تعالى كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك الا أن يشاء الله وقال تعالى انهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا

(فصل) واذا عرف ذلك فلا اشكال أنه يجوز للانسان أن يظهر قولا أو فعلا مقصوده به مقصود صالح وان كان ظاهره خلاف ما قصد به اذا كانت فيه مصلحة دينية مثل دفع الظلم عن نفسه أو غيره أو ابطال حيلة محرمة وانما المحرم أن يقصد بالعقود الشرعية غير ما شرعه الله تعالى ورسوله له فيصير مخادعا لله تعالى ورسوله كائدا لدينه ماكرا بشرعه فان مقصوده حصول الشئ الذي حرمه الله تعالى ورسوله بتلك الحيلة واسقاط الذي أوجبه بتلك الحيلة وهذا ضد الذي قبله فان ذلك مقصوده التوصل الى اظهار دين الله تعالى ودفع معصيته وابطال الظلم وازالة المنكر فهذا لون آخر وذاك لون آخر ومثال ذلك التأويل في اليمين فانه نوعان نوع لا ينفعه ولا يخلصه من الاثم وذلك اذا كان الحق عليه فجحده ثم حلف على انكاره متأولا فان تأويله لا يسقط عنه اثم اليمين والنية للمستحلف في ذلك باتفاق المسلمين بل لو تأول من غير حاجة لم ينفعه ذلك عند الاكثرين وأما المظلوم المحتاج فانه ينفعه تأويله ويخلصه من الاثم ويكون اليمين على نيته فاذا استحلفه ظالم بأيمان البيعة أو أيمان المسلمين فتأول الأيمان بجمع يمين وهي اليد أو حلفه بأن كل امرأة له طالق فتأول انها طالق من وثاق أو طالق عند الولادة أو طالق من غيرى ونحو ذلك أو استحلفه بأن كل مملوك له حر أو عتيق فتأول أنه عتيق من قولهم فرس عتيق أو استحلفه بأن تكون امرأته عليه كظهر أمه فتأول ظهر أمه بمركوبها فان ضيق عليه وألزمه أن يقول انه مظاهر من امرأته تأول بأنه قد ظاهر بين ثوبين أو جبة من عند امرأته وان استحلفه بالحرام تأول أن الحرام الذي حرمه الله تعالى عليه يلزمه تحريمه فان

ضيق عليه بأن يلزمه أن يقول الحرام يلزمني من زوجتي أو أن يكون علي حراما قيد ذلك بنيته اذا أحرمت أو صامت أو قامت الى الصلاة ونحو ذلك وان استحلفه بأن كل ماله أو كل ما يملكه صدقة تأول بأنه صدقة من الله تعالى عليه وان قال له قل وان جميع ما أملكه من دار وعقار وضيعة وقف على المساكين يؤول الفعل المضارع بما يملكه في المستقبل بعد كذا وكذا سنة فان ضيق عليه وقال بجميع ما هو جار في ملكي الآن نوى اضافة الملك الى الآن لا الى نفسه والآن لا يملك شيئا فان قال مما هو في ملكي في هذا الوقت يكون وقفا أخرج معنى لفظ الوقف عن المعهود الى معنى آخر والعرب تسمى سوار العاج وقفا وان استحلفه بالمشي الى بيت الله نوى مسجدا من مساجد المسلمين فان قال قل على الحج الى بيت الله نوى بالحج القصد الى المسجد فان قال الى البيت العتيق نوى المسجد القديم فان قال البيت الحرام نوى الحرام هدمه واتخاذه دارا أو حماما ونحو ذلك وان استحلفه بالامانة نوى بها الوديعة أو اللقطة ونحو ذلك وان استحلفه بصوم سنة نوى بالصوم الامساك عن كلام يمكنه الامساك عنه سنة أو دائما هذا كله في المحلوف به وأما المحلوف عليه فيجري هذا المجرى فاذا استحلفه ما رأيت فلانا نوى ما ضربت رئته أو كلمته نوى ما جرحته أو ما عاشرته ولا خالطته نوى بالمعاشرة والمخالطة معاشرة الزوجية والسرية أو ما بايعته ولا شاريته نوى بذلك ما بايعته بيعة اليمين ولا شاريته من المشاراة وهي اللجاج أو الغضب يقول شرى على حال علم اذا لج أو استشاط غضبا وان استحلفه لص أنه لا يدل عليه ولا يعلم به ولا يخبر به أحدا نوى أنه لا يفعل ذلك ما دام معه وان ضيق عليه وقال ما عاش أو ما بقي أو ما دام في هذه البلدة نوى قطع الطرف عما قبله وأن لا يكون متعلقا به أو نوى بما الذي أي لا أدل عليك الذي عاش أو بقي بعد أخذك وان استحلفه أن لا يطأ زوجته نوى وطأها برجله وان استحلفه أن لا يتزوج فلانة نوى أن لا يتزوجها نكاحا فاسدا وكذلك اذا استحلفه أن لا يبيع كذا أو لا يشتريه أو لا يؤجره ونحو ذلك وكذلك اذا استحلفه أن لا يدخل هذه الدار أو البلد أو المحلة قيد الدخول بنوع معين بالنية ولو استحلفه أنك لا تعلم أين فلان نوى مكانه الخاص من داره أو بلده أو سوقه ولو استحلفه أنه ليس عنده في داره نوى أنه ليس عنده اذا خرج من الدار فان ضيق عليه وقال الآن نوى أنه ليس حاضرا معه الآن وقدر وصدق وان استحلفه ليس لي به علم نوى ليس لي علم بسره وما ينطوي عليه وما يضمره أو ليس لي به علم على جهة التفصيل فان هذا لا يعلمه الا الله سبحانه وحده

(فصل) وللمظلوم المستحلف مخرجان يتخلص بهما يخرج بالتأويل حال الحلف فان فاته

بجميع أقسام الخلق شقيهم وسعيدهم وهي نظير آية الواقعة قوله وكنتم أزواجا ثلاثة فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة والسابقون السابقون قالوا فأصحاب الميمنة هم المقتصدون وأصحاب المشأمة الظالمون لأنفسهم والسابقون السابقون هم السابقون بالخيرات قالوا ولم يصطف الله من خلقه ظالما لنفسه بل المصطفون من عباده هم صفوته وخيارهم والظالمون لأنفسهم ليسوا خيار العباد بل شرارهم فكيف يوقع عليهم اسم المصطفين ويتناولهم فعل الاصطفاء قالوا وأيضا صفوة الله هم أحباؤه والله لا يحب الظالمين فلا يكونون مصطفين قالوا ولأن الظالم لنفسه وان كان ممن أورث الكتاب فهو بتركه العمل بما فيه قد ظلم نفسه والله سبحانه انما اصطفى من عباده من أورثه كتابه ليعمل بما فيه فأما من نبذه وراء ظهره فليس من المصطفين من عباده قالوا ولأن الاصطفاء افتعال من صفوة وهو خلاصته ولبه وأصله اصتفى فأبدلت التاء طاء لوقوعها بعد الصاد كالاصطباح والاصطلام ونحوه والظالم لنفسه ليس صفوة العباد ولا خلاصتهم ولا لبهم فلا يكون مصطفى قالوا ولأن الله سلم على المصطفين من عباده فقال قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى وهذا يقتضي سلامتهم من كل شر وكل عذاب والظالم لنفسه غير سالم من هذا ولا هذا فكيف يكون من المصطفين قالوا وأيضا فطريقة القرآن ان الوعد المطلق بالثواب انما يكون للمتقين لا للظالمين كقوله تعالى تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيا فان الظالم لنفسه هنا وقوله أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون وقوله وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض أعدت للمتقين وقوله ان للمتقين مفازا حدائق وأعنابا وكواعب أترابا وكأسا دهاقا لا يسمعون الى قوله حسابا والقرآن مملوء من هذا ولم يجئ فيه موضع واحد باطلاق الوعد بالثواب للظالم لنفسه أصلا قالوا وأيضا فلم يجئ في القرآن ذكر الظالم لنفسه الا في معرض الوعيد لا الوعد كقوله تعالى ان المجرمين في عذاب جهنم خالدون لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين وقوله فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق وقوله وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون قالوا وأيضا فالظالم لنفسه هو الذي خفت موازينه ورجحت سيئاته والقرآن كله يدل

فلم

فله مخرج يتخلص به بعده ان أمكنه كما اذا استحلفه قطاع الطريق أو اللصوص أن لا يخبر بهم أحدا فالحيلة يجمع الوالي المتهمين ثم يسأله عن واحد واحد فيبرئ البريء ويسكت عن المتهم وهذا المخرج أضيق من الاول فاذا استحلفه ظالم أن لا يشكو غريمه ولا يطالبه بحقه فحلف ولم يتأول أحال عليه بذلك الحق من يطالبه به ولم يحنث في يمينه واذا استحلفه ظالم أن يبيعه شيأ فله أن يملكه زوجته أو ولدها فاذا باعه بعد ذلك كان قد بر في يمينه ويمنع من تسليمه من ملكه اياه

(فصل) والحيل التي يتخلص بها من مكر غيره والغدر به امثلة الاول ان استأجر منه أرضا أو بستانا أو دارا سنين ثم لا يأمن من مكره اذا صلحت الارض والبستان بنوع من أنواع المكر والغدر ولو لم يكن الا بان يدعي أن أجرة المثل في هذه الحال أكثر مما سمى فالحيلة في أمنه من ذلك ان يسمي لكل سنة أجرا معلوما ويجعل أجرة السنين المتأخرة معظم الاجرة وأقلها السنين الاول فلا يسهل عليه المكر بعد ذلك وعكسه اذا خاف المؤجر مكر المستأجر وغدره في المستقبل جعل معظم الاجرة في السنين الاول وأقلها في الاواخر المثال الثاني ان يخاف المؤجر غيبة المستأجر فلا يتمكن من مطالبة امرأته بالاجرة ولا من اخراجها لانها في أيديهم فالحيلة في أمنه ذلك ان يؤجرها رب الدار من المرأة فان دخل عليه تعذر مطالبتها بالاجرة ضمن الزوج الاجرة أو أخذ بها رهنا فان كان قد أجرها من الزوج وخاف غيبته أشهد على اقرار المرأة ان الدار له وانها في يدها بحكم اجارة الزوج الى مدة كذا وكذا وان كفل المرأة وقت العقد انها ترد اليه الدار عند انقضاء المدة دفعه ذلك المثال الثالث أن يخاف المستأجر أن يزاد عليه في الاجرة ويفسخ عقده اما بكون العين المؤجرة وقفا عند من يرى ذلك أو يحيل عليه حتى يبطل عقده فالحيلة في أمنه وتخليصه أن يسمي الاجرة أكثر مما اتفقا عليه ثم يصادقه عليه بقدر المسمى ويدفعه اليه ويشهد عليه أنه قبض المسمى الذي وقع عليه العقد فاذا مكر به وطلب فسخ عقده طالبه بما قبضه من المسمى هذا اذا تعذر عليه رفع تلك الاجارة الى حاكم يحكم بلزومها وعدم فسخها للزيادة المثال الرابع أن يخاف أن يؤجره ما لا يملك فيأتي المالك ويفسخ العقد ويرجع عليه بالاجرة فالحيلة في تخلصه ان يضمن المؤجر درك العين المستأجرة وان ضمن من يخاف منه الاستحقاق ومطالبته كان أقوى المثال الخامس أن يخاف فلس المستأجر ولم يجد من يضمنه الاجرة فالحيلة في فسخه أن يشهد عليه في العقد انه متى تعذر عليه القيام باجرة شهر أو سنة فله الفسخ ويصح هذا الشرط ولو لم يشرط ذلك فانه يملك الفسخ عند تعذر قبض أجرة ذلك الشهر أو السنة ويكون حدوث الفلس عيبا في الذمة يتمكن به من الفسخ

على خسارة وانه غير ناج كقوله تعالى فمن ثقلت موازينه فاولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فاولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون وقوله ومن خفت موازينه فامه هاوية فكيف يذكر وعده بجناته وكرامته للظالمين أنفسهم الخفيفة موازينهم قالوا وأيضا فقوله تعالى جنات عدن مرفوع لانه بدل من قوله ذلك هو الفضل الكبير وهو بدل نكرة من معرفة كقوله لنسفعن بالناصية ناصية كاذبة وحسن وقوعه مجيء النكرة موصوفة لتخصيصها بالوصف وقربها من المعرفة ومعلوم ان المبدل منه وهو الفضل الكبير مختص بالسابقين بالخيرات والمعنى ان سبقهم بالخيرات باذنه ذلك هو الفضل الكبير وهو جنات عدن يدخلونها وجعل السبق بالخيرات نفس الجنات لانه سببها وموجبها قالوا وأيضا فانه وصف حليتهم فيها بانها أساورة من ذهب ولؤلؤ وهذه جنات السابقين لا جنات المقتصدين فان جنات الفردوس أربع كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال جنتان من ذهب آنيتهما وحليهما وما فيهما وجنتان من فضة آنيتهما وحليتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا الى ربهم الا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن ومعلوم أن الجنتين الذهبيتين أعلى وأفضل من الفضيتين فاذا كان الجنتان الذهبيتان للظالمين لانفسهم فمن يسكن الجنتين الفضيتين فعلم أن هذه الجنات المذكورة لا تتناول الظالمين لانفسهم قالوا وأيضا فان أقرب المذكورات الى ضمير الداخلين هم السابقون بالخيرات فوجب اختصاصهم بالدخول الى الجنات المذكورات قالوا وفي اختصاصهم بعد ذكر الاقسام بذكر ثوابهم والسكوت عن الآخرين ما هو معلوم من طريقة القرآن اذ يصرح بذكر ثواب الابرار والمتقين والمخلصين والمحسنين ومن رجحت حسناتهم ويذكر عقاب الكفار والفجار والظالمين لانفسهم ومن خفت موازينهم ويسكت عن القسم الذي فيه شائبتان وله مادتان هذه طريقة القرآن كقوله ان الابرار لفي نعيم وان الفجار لفي جحيم وقوله فاما من طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هي المأوى وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى وهذا كثير في القرآن قالوا وفي السكوت عن شأن صاحب الشائبتين تحذير عظيم وتخويف فان أمره مرجأ الى الله وليس عليه ضمان ولا له عنده وعد وليحذر كل الحذر وليبادر بالتوبة النصوح التي تلحقه بالمضمون لهم النجاة

كما يكون حدوث العيب فى العين المستأجرة مسوغا للفسخ وهذا ظاهر اذا سمى لكل شهر أو سنة قسطا معلوما ولا يعين مقدار المدة بل يقول أجرتك كل سنة بكذا أو كل شهر بكذا يقوم لى بالاجرة فى أول الشهر أو السنة فان أفلس قبل مضى شئ من المدة ملك المؤجر الفسخ وان أفلس بعد مضى شئ منها فهل يملك الفسخ على وجهين أحدهما لا يملكه لان مضى بعضها كتلف بعض المبيع وهو يمنع الرجوع والثانى يملكه وهو قول القاضى وهو الصحيح لان المنافع انما تملك شيأ فشيأ بخلاف الاعيان فانها تملك فى آن واحد فيقدر تجدد العقد عند تجدد المنافع المثال السادس اذا خاف المستأجر أن تنهدم الدار فيعمرها فلا يحسب عليه المؤجر بما أنفق فالحيلة فى ذلك أن يقول وقت العقد وأذن المؤجر للمستأجر أن يعمر ما تحتاج الدار الى عمارته من أجرتها و يقدر لذلك قدرا معلوما فيقول مثلا بمائة فما دونها أو يقول من عشرة الى مائة فان لم يفعل ذلك واحتاجت الى عمارة لا يتم الانتفاع الا بها اشهد على ذلك وعلى ما أنفق عليها وأنه غير متبرع به وحسب له من الاجرة وكذلك اذا استأجر منه دابة واحتاجت الى علف وخاف أن لا يحتسب له به المؤجر فعل مثل ذلك فان قال أذنت لك أن تنفق على الدار أو الدابة مما يحتاج اليه فادعى قدرا وأنكره فالقول قول المؤجر والحيلة فى قبول قول المستأجر ان يسلف رب الدار ما يعلم انها تحتاج اليه من العمارة و يشهد عليه بقبضه من الاجرة ثم يدفعه اليه و يوكله أن ينفق منه على الدار أو الدابة ما يحتاج اليه فالقول حينئذ قوله لانه أمين فان خاف المؤجر أن يستهلك المستأجر المال الذى قبضه و يقول انه تلف وهو أمانة فلا يلزمنى ضمانه فالحيلة فى أمنه من ذلك أن يقرضه اياه و يجعله فى ذمته ثم يوكله أن ينفق على العين ما يحتاج اليه من ذلك المثال السابع اذا آجره دابة أو دارا مدة معلومة وخاف أن يحبسها عنه بعد انقضاء المدة فطريق التخلص من ذلك ان يقول فاذا انقضت المدة فاجرتها بعدها لكل يوم دينار أو نحوه فلا يسهل عليه حبسها بعد انقضاء المدة المثال الثامن اذا كان له عليه دين فقال اشتر لى به كذا ففعل لم يبرأ من الدين بذلك لانه لا يكون مبرئا لنفسه من دين الغير بفعله وطريق التخلص أن يشهد على اقرار رب الدين أن من عليه الدين برئ منه بعد شرائه لمستحقه كذا وكذا والقياس أن يبرأ بالشراء وان لم يفعل ذلك لانه بتوكيله له قد أقامه مقام نفسه فكما قام مقامه فى التصرف قام مقامه فى الابراء فهو لم يبرأ بفعل نفسه لنفسه وانما برئ بفعله لموكله القائم مقام فعل الموكل المثال التاسع اذا أراد أن يستأجر الى مكان بأجرة معلومة فان لم يبلغه وأقام دونه فالاجرة كذا وكذا فقالوا لا يصح العقد لانا لا نعلم على أى المسافتين وقع العقد قالوا والحيلة فى تصحيحه أن يسمى للمكان الاقرب أجرة ثم يسمى

والفلاح قالوا وأيضا فمن المحال أن يقع على أحد من المصطفين اسم الظلم مطلقا وانما يقع اسم الظلم مطلقا على الكافر كما قال تعالى يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقنا كم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون وقال والظالمون ما لهم من ولى ولا نصير مع قوله الله ولى الذين آمنوا والظالم لا ولى له فلا يكون من المؤمنين قالوا وأيضا فمن تدبر الآيات وتامل سياقها وجدها قد استوعبت جميع أقسام الخلق ودلت على مراتبهم فى الجزاء فذكر سبحانه ان الناس نوعان ظالم ومحسن ثم قسم المحسن الى قسمين مقتصد وسابق ثم ذكر جزاء المحسن فلما فرغ منه ذكر جزاء الظالم فقال والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزى كل كفور وقال ومن يقل منهم انى اله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين فذكر أنواع العباد وجزاءهم قالوا وأيضا فهذه طريقة القرآن فى ذكر أصناف الخلق الثلاثة كما ذكرهم الله تعالى فى سورة الواقعة والمطففين وسورة الانسان فاما سورة الواقعة فذكرهم فى أولها وفى آخرها فقال فى أولها وكنتم أزواجا ثلاثة فاصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة والسابقون السابقون أولئك المقربون فى جنات النعيم فاصحاب المشأمة هم الظالمون وأما أصحاب اليمين فقسمان أبرار وهم أصحاب الميمنة وسابقون وهم المقربون وفى آخرها فاما ان كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم وأما ان كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين وأما ان كان من المكذبين الضالين فنزل من حميم وتصلية جحيم فذكر حالهم فى القيامة الكبرى فى أول السورة ثم ذكر حالهم فى القيامة الصغرى فى البرزخ فى آخر السورة ولهذا قدم قبله ذكر الموت ومفارقة الروح فقال فلولا اذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون ونحن أقرب اليه منكم منه ولكن لا تبصرون فلولا ان كنتم غير مدينين ترجعونها ان كنتم صادقين ثم قال فاما ان كان من المقربين الى آخره وأما فى أولها فذكر أقسام الخلق عقب قوله اذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة خافضة رافعة اذا رجت الارض رجا وبست الجبال بسا فكانت هباء منبثا وكنتم أزواجا ثلاثة وأما سورة الانسان فقال انا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا فهؤلاء الظالمون أصحاب المشأمة ثم قال ان الابرار

منه الى المكان الابعد أجرة أخرى فيقول مثلا أجرتك الى الرملة بمائة ومن الرملة الى مصر بمائة لكن لا يأمن المستأجر مطالبة المؤجر له بالاجرة الى المكان الاقصى ويكون قد أقام فى المكان الاقرب فالحيلة فى تخلصه أن يشترط عليه الخيار فى العقد الثانى ان شاء أمضاه وان شاء فسخه ويصح اشتراط الخيار فى عقد الاجارة اذا كانت على مدة لا تلى العقد والقياس يقتضى صحة الاجارة على انه ان وصل الى مكان كذا وكذا فالاجرة مائة وان وصل الى مكان كذا وكذا فالاجرة مائتان ولا غرر فى ذلك ولا جهالة وكذا ان خطت هذا الثوب روميا فلك درهم وان خطته فارسيا فلك نصف درهم فان العمل انما يقع على وجه واحد وكذلك قطع المسافة فانه اما أن يقطع القريبة أو البعيدة فلا يشبه هذا قوله بعتكه بعشرة نقدا أو عشرين نسيئة فاذا أخذه لا يدرى باى الثمنين أخذ فيقع التنازع ولا سبيل لنا الى العلم بالمعين منهما بخلاف عقد الاجارة فان استيفاء المعقود عليه لا يقع الا معينا فيجب أجره المثال العاشر اذا زرع أرضه ثم أراد ان يؤجرها والزرع قائم لم يجز لتعذر انتفاع المستأجر بالارض وطريق تصحيحها ان يبيعه الزرع ثم يؤجره الارض فان أحب بقاء الزرع على ملكه قدر لكماله مدة معينة ثم أجره الارض بعد تلك المدة اجارة مضادة فان خاف ان يفسخ عليه العقد حاكم يرى بطلان هذه الاجرة فالحيلة أن يبيعه الزرع ثم يؤجره الارض فاذا تم العقد اشترى منه الزرع فعاد الزرع الى ملكه وصحت الاجارة المثال الحادى عشر اذا أراد أن يؤجر الارض على أن خراجها على المستأجر لم يصح لان الخراج تابع لرقبة الارض فهو على مالكها الا على الشفيع بها من مستأجر ومستعير وطريق الجواز ان يؤجره اياها باجرة زائدة على أجر مثلها بقدر خراجها ثم يشهد عليه انه قد أذن للمستأجر ان يدفع من أجرة الارض فى الخراج كل سنة كذا وكذا وكذلك لو استأجر دابة على أن يكون علفها على المستأجر لم يصح وطريق الحيلة ان يستأجرها بشئ مسمى ثم يقدر له ما تحتاج اليه الدابة ويوكله فى انفاقه عليها والقياس يقتضى صحة العقد بدون ذلك فانا نصحح استئجار الاجير بطعامه وكسوته كما أجر موسى عليه السلام نفسه بعفة فرجه وشبع بطنه فكذلك يجوز اجارة الدابة بعلفها وكما يجوز أن يكون علفها جميع الاجرة يجوز أن يكون بعض الاجرة والبعض الآخر شئ مسمى المثال الثانى عشر لا يجوز اجارة الاشجار لان المقصود منها الفواكه وذلك بمنزلة بيعها قبل بدوها قالوا والحيلة فى جوازه أن يؤجره الارض ويساقيه على الشجر بجزء معلوم قال شيخ الاسلام وهذا لا يحتاج اليه بل الصواب اجارة الشجر كما فعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه بحديقة أسيد ابن حضير فانه آجرها سنتين وقضى بها دينه قال واجارة الارض لاجل ثمرها بمنزلة اجارة

يشربون من كأس كان مزاجها كافورا فهؤلاء المقتصدون أصحاب اليمين ثم قال عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا فهؤلاء المقربون السابقون ولهذا خصهم بالاضافة اليه وأخبر أنهم يشربون بتلك العين صرفا محضا وانها تمزج للابرار مزجا كما قال فى سورة المطففين فى شراب الابرار ومزاجه من تسنيم عينا يشرب بها المقربون وقال يشرب بها المقربون ولم يقل منها اشعارا بأن شربهم بالعين نفسها خالصة لا بها او بغيرها فضمن يشرب معنى يروى فعدى بالباء وهذا ألطف مأخذا وأحسن معنى من أن يجعل الباء بمعنى من ولكن يشرب الفعل معنى فعل آخر فيتعدى تعديته وهذه طريقة الحذاق من النحاة وهى طريقة سيبويه وأئمة أصحابه وقال فى الابرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا لان شرب المقربين لما كان أكمل استعير له الباء الدالة على شرب الرى بالعين خالصة ودلالة القرآن ألطف وأبلغ من أن يحيط بها البشر وقال تعالى فى سورة المطففين كلا ان كتاب الفجار لفى سجين وما أدراك ما سجين كتاب مرقوم الى قوله كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم انهم لصالوا الجحيم ثم يقال هذا الذى كنتم به تكذبون فهؤلاء الظالمون أصحاب الشمال ثم قال كلا ان كتاب الابرار لفى عليين وما أدراك ما عليون فهؤلاء الابرار المقتصدون وأخبر أن المقربين يشهدون كتابهم أى يكتب بحضرتهم ومشهدهم لا يغيبون عنه اعتناء به واظهارا لكرامة صاحبه ومنزلته عند ربه ثم ذكر سبحانه نعيم الابرار ومجالسهم ونظرهم الى ربهم وظهور نضرة النعيم فى وجوههم ثم ذكر شرابهم فقال يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ثم قال ومزاجه من تسنيم عينا يشرب بها المقربون والتسنيم أعلى أشربة الجنة فاخبر سبحانه ان مزاج شراب الابرار من التسنيم وان المقربين يشربون منه بلا مزاج ولهذا قال عينا يشرب بها المقربون كما قال فى سورة الانسان سواء قال ابن عباس وغيره يشرب بها المقربون صرفا وتمزج لاصحاب اليمين مزجا وهذا لان الجزاء وفاق العمل فكما خلصت أعمال المقربين كلها لله خلص شرابهم وكما مزج الابرار الطاعات بالمباحات مزج لهم شرابهم فمن أخلص أخلص شرابه ومن مزج مزج شرابه

يا لاهيا فى غمرة الجهل والهوى * صريعا على فرش الردى يتقلب
تأمل هداك الله ما ثم وانتبه * فهذا شراب القوم حقا يركب

الارض لمغلها فان المستأجر يقوم على الارض بالسقى والاصلاح والذبار ٧ فى الكرم حتى تحصل الثمرة كما يقوم على الارض بالحرث والسقى والبذر حتى يحصل المغل فثمرة الشجر تجرى مجرى مغل الارض فان قيل الفرق بين المسألتين ان المغل من البذر وهو ملك المستأجر والمعقود عليه ايداعه فى الارض وسقيه والقيام عليه بخلاف استئجار الشجر فان الثمرة من الشجرة وهى ملك المؤجر والجواب من وجوه أحدها ان هذا لا تأثير له فى صحة العقد وبطلانه وانما هو فرق عديم التأثير الثانى أن هذا يبطل باستئجار الارض لكلاها وعشبها الذى ينبته الله سبحانه وتعالى بدون بذر من المستأجر فهو نظير ثمرة الشجرة الثالث ان الثمرة انما حصلت بالسقى والخدمة والقيام على الشجر فهى متولدة من عمل المستأجر ومن الشجرة فالمستأجر سعى وعمل فى حصولها الرابع أن تولد الزرع ليس من البذر وحده بل من البذر والتراب والماء والهواء فحصول الزرع من التراب الذى هو ملك المؤجر كحصول الثمر من الشجرة والبذر فى الارض قائم مقام السقى للشجرة فهذا أودع فى أرض المؤجر عينا جامدة وهذا أودع فى شجره عينا مائعة ثم حصلت الثمرة من أصل هذا وماء المستأجر وعمله كما حصل المغل من أرض هذا وبذر المستأجر وعمله وهذا من أصح قياس على وجه الارض وبه تبين ان الصحابة أفقه الامة وأعلمهم بالمعانى المؤثرة فى الاحكام ولم ينكر أحد من الصحابة على عمر رضى الله عنه فهو اجماع منهم ثم ان هذه الحيلة التى ذكرها هو لا تتعذر غالبا اذا كان البستان ليتيم أو وقفا فان المؤجر ليس له أن يحابى فى المساقاة حينئذ ولا يخلص من ذلك محاباة المستحق فى اجارة الارض فانه اذا أربحه فى عقد لم يجز له ان يخسره فى عقد آخر ولا يخلص من ذلك اشتراط عقد فى عقد بان يقول انما أساقيك على جزء من ألف جزء بشرط ان أؤجرك الارض بكذا وكذا فان هذا لا يصح فعلى ما فعله الصحابة وهو مقتضى القياس الصحيح لا يحتاج الى هذه الحيلة وبالله التوفيق المثال الثالث عشر اذا اشترى دارا أو أرضا وخاف أن تخرج وقفا أو مستحقة فتؤخذ منه هى وأجرتها فالحيلة أن يضمن البائع أو غيره درك المبيع وانه ضامن لما غرمه المشترى من ذلك ويصح ضمان الدرك حتى عند من يبطل ضمان المجهول وضمان ما لم يجب للحاجة الى ذلك فان ضمن من يخاف استحقاقه كان أقوى فان خاف أن يظهر الاستحقاق على وارثه بعد موته ضمن الدرك ورثة البائع أو ورثة من يخاف استحقاقه ان أمكنه فان كان على ثقة انه متى استحق عليه المبيع رجع بثمنه ولكن يغرم قيمة المنفعة وهى أجرة المثل لمدة استيلائه على العين وهذا قول ضعيف جدا فان المشترى انما دخل على أن يستوفى المنفعة بلا عوض والعوض الذى بذله فى مقابلة العين

وو ينسيه فى هذه الدار ان تفت * فليس له بعد المنية مطلب فيا عجبا من معرض عن حياته * وعن حظه العالى ويلهو ويلعب
ولو علم المحروم أى بضاعة * أضاع لامسى قلبه يتلهب فان كان لا يدرى فتلك مصيبة * وان كان يدرى فالمصيبة أصعب
بلى سوف يدرى حين ينكشف الغطا * ويصبح مسلوبا ينوح ويندب ويعجب ممن باع شيئا بدونما * يساوى بلا علم وأمرك أعجب
لانك قد بعت الحياة وطيبها * بلذة حلم عن (٢١٦) قليل سيذهب فهلا عكست الامر ان كنت حازما * ولكن أضعت الحزم والحكم يغلب
تصد وتنأى عن حبيبك دائما فاين عن الاحباب ويحك تذهب
ستعلم يوم الحشر أى تجارة أضعت اذا تلك الموازين تنصب

قالوا فهكذا هذه الآيات التى فى سورة الملائكة ذكر فيها الاقسام الثلاثة الظالم لنفسه وهو من أصحاب الشمال وذكر المقتصد وهو من أصحاب اليمين وذكر السابقين وهم المقربون قالوا وليس فى الآية ما يدل على اختصاص الكتاب بالقرآن والمصطفين بهذه الامة بل الكتاب اسم جنس الكتب التى أنزلها على رسله فانه أورثها المصطفين من عباده من كل أمة وهم الانبياء هم الذين أورثوه أولا ثم أورثه المصطفون من أممهم بعدهم قال تعالى ولقد آتينا موسى الكتاب هدى وذكرى لاولى الالباب فاخبر أنه انما يكون هدى وذكرى لمن له لب عقل به الكتاب وعمل بما فيه والعامل بما فيه هو الذى أورثه الله علمه وتامل قوله تعالى وان الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب كيف حذف الفاعل هنا وبنى الفعل للمفعول لما كان فى معرض الذم لهم ونفى العلم عنهم ولما كان فى سياق ذكر نعمه وآلائه ومنته عليهم قال وأورثنا بنى اسرائيل الكتاب ونظير هذه الآية ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ومن ذلك قوله فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الادنى ويقولون سيغفر لنا لا
وان يأتهم عرض مثله يأخذوه وانه لما كان الكلام فى سياق ذمهم على اتباعهم شهواتهم وايثارهم العرض الفانى على حظهم من الآخرة وتماديهم فى ذلك لم ينسب التوريث اليه بل نسبه الى المحل فقال ورثوا الكتاب ولم يقل أورثناهم الكتاب وقد ذكرت نظير هذا فى قوله آتيناهم الكتاب انه للمدح وأورثوا الكتاب اما فى سياق الذم وأما منقسم فى كتاب التحفة المكية والمقصود ان الذين أورثهم الكتاب

لا الانتفاع فالزامه بالاجرة الزام بمـا لا يلتزمه وكذلك نقول فى المستعير اذا استحقت العين لم يلزمه عوض المنفعة لانه انمـا دخل على ان ينتفع مجانا بلا عوض بخلاف المسـتأجر فانه التزم الانتفاع بالعوض ولكن لا يلزمه الا المسمى الذى دخل عليه وكذلك الامة المشتراة اذا وطئها ثم استحقت لم يلزمه المهر لانه دخل على أن يطأها مجانا بخلاف الزوج فانه دخل على أن الوطء فى مقابلة المهر ولـكن لا يلزمه اذا استحقت الا المسمى وعلى هذا فليس للمستحق أن يطالب المغرور لانه معذور غير ملتزم للضمـان وهو محسن غير ظالم فـما عليه من سبيل وهذا هو الصواب فان طالبه على القول الآخر رجع على من غره بمـا يلتزم ضمانه خاصة ولا يرجع عليـه بمـا التزم غرامته فاذا غرم المودع أو المتهب قيمة العين والمنفعة رجع على الغار بهما واذا غرم المستأجر ذلك رجع بقيمة العين دون قيمة المنفـعة الا أنه يرجع بالزائد على المسمى حيث لم يلتزم ضمـانه واذا ضمن مشـتريا ومسـتعير قيمة العين والمنفـعة رجع بقيمـة المنفعة دون قيمة العين لـكنه يرجع بمـا زاد على الثمن المسمى والمقصود أن هـذا المشـترى متى خاف أن يطالب بقيمة المنفعة اذا استحق عليه المبيع فالحيلة فى تخلصه من ذلك ان يستأجر منه الدار أو الارض سـنين معلومة باجرة مسمـاة ثم يشتريها منه بعد ذلك ويشـهد عليـه أنه قبض الاجرة فتى استحقت العين وطولب بعوض المنفـعة طالب هو المؤجر بمـا قبضـه من الاجرة لمـا ظهرت الاجارة باطلة المثـال الرابع عشر اذا وكله أن يتزوج له امرأة معينة أو يشترى له جارية معينة ثم خاف الموكل ان تعجب وكيله فيتزوجها أو يشتريها لنفسه فطريق التخلص من ذلك فى الجارية ان يقول له ومتى اشتريتها لنفسك فهى حرة ويصح هـذا التعليق والعتق وأما الزوجـة فن صحح هذا التعليق كمالك وأبى حنيفـة نفعه وأما على قول الشافعى وأحمد فانه لا ينفعه فطريق التخلص ان يشهد عليه أنها لا تحل له وان بينهما سببا يقتضى تحريمها عليه وانه متى نكحها كان نـكاحه باطلا فان أراد الوكيل ان يتزوجها أو يشتريها لنفسه ولا يأثم فيمـا بينه وبين الله تعالى فالحيلة أن يعزل نفسه عن الوكالة ثم يعقد عليها لنفسه ولو عقد عليها لنفسه كان ذلك عزلا لنفسه عن الوكالة فان خاف ان لا يتم له ذلك بان يرفعه الى حاكم حنفى يرى أنه لا يملك الوكيل عزل نفسه فى غيبة الموكل فاراد التخلص من ذلك فالطريق فى ذلك أن يشتريها لنفسه بغير جنس ما أذن له فيه فانه اذا اشـتراها لنفسه بجنس ما أذن له فيه يتضمن ذلك عزل نفسه فى غيبة موكله وهو ممتنع فاذا اشتراها بغير الجنس حصـل الشراء له ولم يكن ذلك عزلا لنفسه المثال الخامس عشر اذا وكله فى بيع جارية ووكله آخر فى شرائها فان قلنا الوكيل يتولى طرفى العقد جاز أن يكون بائعا مشتريا لهما وان منعنا ذلك فالطريق ان يبيعها لمن يستوثق منه

هم المصطفون من عباده أولا وآخرا قالوا وأما قوله تعالى فمنهم ظالم لنفسه لا يرجع الى المصطفين بل اما أن يكون الكلام قد تم عنـد قوله من عبادنا ثم استأنف جملة أخرى وذكر فيها أقسام العباد وان منهم ظالم ومنهم مقتصد ومنهم سابق ويكون الكلام جملتين مستقلتين بين فى احداهما انه أورث كتابه من اصطفاه من عباده وبين فى الاخرى ان من عباده ظالما ومقتصدا وسابقا واما ان يكون المعنى تقسيم المرسل اليهم بالنسبة الى قبول الكتاب وان منهم من لم يقبله وهو الظالم لنفسه ومنهم من قبله مقتصـدا فيه ومنهم من قبله سابقا بالخـيرات باذن الله قالوا والذى يدل على هـذا الوجه انه سبحانه ذكر ارساله فى كل أمـة نذيرا ممن تقدم هذه الأمة فقال وان من أمة الا خـلا فيها نذير ثم ذكر ان رسـلهم جاءتهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنـير الآيات الدالة على صـدقهم وصحة رسالاتهـم والزبر الكتاب واحـدها زبور بمعنى مزبور أى مكتوب والكتاب المبـين من باب عطف الخاص على العام لتمـيزه عن المسمى العام بفضله وبشرف امتازبها واختص بها عن غيره وهو كعطف وجبريل وميكال على المـلائكة وكعطف أولى العزم على النبيـين من قوله وأخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى ابن مريم والكتاب المنـير ههنا التوراة والانجيل ثم ذكر اهلاك المكذبين لكتابه ورسـله فقال ثم أخـذت الذين كفروا فكيف كان نكير ثم ذكر التالين لكتابه وهم المتبعون له العاملون بشرائعه فقال ان الذين يتـلون كتاب الله وأقاموا الصلاة الى قوله غفور شكور ثم ذكر الكتاب الذى خص به خاتم أنبيائه ورسله محمدا فقال والذى أوحينا اليـك من الكتاب هو الحق مصـدقا لما بين يديه ان الله بعباده لخبير بصير ثم ذكر من أورثهم الكتاب بعـد أولئك وانه اصطفاهم لتوريث كتابه اذرده المكذبون ولم يقبلوا توريثه قالوا وأما قولكم ان الاصطفاء افتعال من الصفوة وهى الخيار وهى انمـا تكون فى السعداء فهذا بعينه حجة لنا فى ان الظالم لنفسـه ليس ممن اصطفاه الله من عباده وقد تقدم تقريره قالوا وأما الآثار التى رويتموها عن النبى فى ذلك فكلها ضعيفة الاسانيد ومنقطعة لا تثبت كيف وهى معارضـة بآثار مثلها أو أقوى منها قال ابن مردويه فى تفسيره ثنا الحسن بن عبد الله ثنا صالح بن أحمد ثنا أحمد بن محمد بن المعلى الآدمى ثنا حفص بن عمار ثنا

أنه يشتريها منه ثم يشتريها لموكله فان خاف أن لا يفي له المشتري الذي يوثق منه فالحيلة أن يبيعه اياها بشرط الخيار فان وفى له بالبيع والا كان متمكنا من الفسخ المثال السادس عشر لا يملك خلع ابنته بصداقها فان ظهرت المصلحة في ذلك فالطريق أن يملكه عليها ثم يختلعها من زوجها به فيكون قد اختلعها بماله والصحيح أنه لا يحتاج الى ذلك بل اذا ظهرت المصلحة في افتدائها من الزوج بصداقها جاز ذلك وكان بمنزلة افتدائها من الاسر بمالها وربما كان هذا خيرا لها المثال السابع عشر اذا وكله أن يشتري له متاعا فاشتراه ثم أراد أن يبعث به اليه فخاف أن يهلك فيضمنه الوكيل فطريق التخلص من ذلك أن يستأذن للوكيل أن يعمل في ذلك برأيه ويفوض اليه ذلك فاذا أذن له فبعث به فتلف لم يضمنه المثال الثامن عشر اذا أراد أن يسلم وعنده خمر أو خنازير وأراد أن لا يتلف عليه فالحيلة أن يبيعها الكافر قبل الاسلام ثم يسلم ويكون له المطالبة بالثمن سواء أسلم المشتري أو بقي على كفره نص على هذا أحمد في مجوسي باع مجوسيا خمرا ثم أسلما يأخذ الثمن الذي قد وجب له يوم باعه المثال التاسع عشر اذا كان له عصير فخاف أن يتخمر فلا يجوز له بعد ذلك أن يتخذه خلا فالحيلة أن يلقي فيه أولا ما يمنع تخمره فان لم يفعل حتى تخمر وجب عليه اراقته ولم يجز له حبسه حتى يتخلل فان فعل لم يطهر ولم يحل لان حبسه معصية وعوده حلالا نعمة فلا يستباح بالمعصية المثال العشرون اذا كان له على رجل دين مؤجل وأراد رب الدين السفر وخاف أن يتوي ماله أو احتاج اليه ولا يمكنه المطالبة قبل الحلول فاراد أن يضع عن الغريم البعض ويعجل له باقيه فقد اختلف السلف والخلف في هذه المسألة فاجازها ابن عباس وحرمها ابن عمر وعن أحمد فيها روايتان أشهرهما عنه المنع وهي اختيار جمهور أصحابه والثانية الجواز حكاها ابن أبي موسى وهي اختيار شيخنا وحكى ابن عبد البر في الاستذكار ذلك عن الشافعي قولا وأصحابه لا يكادون يعرفون هذا القول ولا يحكونه وأظن ان هذا ان صح عن الشافعي فانما هو فيما اذا جرى ذلك بغير شرط بل عجل له بعض دينه وذلك جائز فابرأه من الباقي حتى لو كان قد شرط ذلك قبل الوضع والتعجيل ثم فعلاه بناء على الشرط المتقدم صح عنده لان الشرط المؤثر في مذهبه هو الشرط المقارن لا السابق وصرح بذلك بعض أصحابه والباقون قالوا لو فعل ذلك من غير شرط جاز ومرادهم الشرط المقارن وأما مالك فانه لا يجوزه مع الشرط ولا بدونه سدا للذريعة وأما أحمد فيجوزه في دين الكتابة وفي غيره عنه روايتان واحتج المانعون بالآثار والمعنى أما الآثار ففي سنن البيهقي عن المقداد بن الاسود قال أسلفت رجلا مائة دينار ثم خرج سهمي في بعث بعثه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم

فقلت

مهدي بن حفصة عن عبدالله بن عمرو بن ... عن ... في قوله تعالى فمنهم ظالم لنفسه قال الكافر قالوا واما النصوص الدالة على ان اهل التوحيد يدخلون الجنة فصحيحة لا نتنازع فيها غير انها مطلقة ولها شروط وموانع كما ان النصوص الدالة على عذاب أهل الكبائر صحيحة متواترة ولها شروط وموانع يتوقف لحوق الوعيد عليها فكذلك نصوص الوعد يتوقف مقتضاها على شروطها وانتفاء موانعها قالوا وأما قولكم ان ظلم النفس انما يراد به ظلمها بالذنوب والمعاصي دون الكفر فليس بصحيح فقد ذكرنا في القرآن ما يدل على ان ظلم النفس يكون بالكفر والشرك ولو لم يكن في هذا الا قول موسى يا قوم انكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل وقوله وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق ونظائره كثيرة قالت الطائفة الاولى لو تدبرتم القرآن حق تدبره وأعطيتم الآيات حقها من الفهم وراعيتم وجوهه الدالة وسياق الكلام لعلمتم ان الصواب معنا وان هذا التقسيم الذي دلت عليه أخص من التقسيم المذكور في سورة الواقعة والانسان والمطففين فان ذلك تقسيم للناس الى شقي وسعيد وتقسيم السعداء الى أبرار ومقربين وتلك القسمة خالية عن ذكر العاصي الظالم لنفسه وأما هذه الآيات ففيها تقسيم الامة الى محسن ومسيء فالمسيء هو الظالم لنفسه والمحسن نوعان مقتصد وسابق بالخيرات فان الوجود شامل لهذا القسم بل هو أغلب أقسام الامة فكيف يخلو القرآن عن ذكره وبيان حكمه ثم لما استوفى أقسام الامة ذكر الخارجين عنهم وهم الذين كفروا فعمت الآية أقسام الخلق كلهم وعلى ما ذهبتم اليه تكون الآية قد أهملت ذكر القسم الاغلب الاكثر وكررت ذكر حكم الكافر أولا وآخرا ولا ريب ان ما ذكرناه أولى لبيان هذا القسم وعموم الفائدة وأيضا فان قوله ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا صريح في ان الذين أورثهم الكتاب هم المصطفون من عباده وقوله فمنهم ظالم لنفسه اما ان يرجع الى الذين اصطفاهم واما أن يرجع الى العباد ورجوعه الى الذين اصطفاهم لوجهين أحدهما ان قوله ومنهم مقتصد ومنهم سابق انما يرجع الى المصطفين لا الى العباد فكذلك قوله فمنهم ظالم لنفسه ولا يقال بل الضمائر كلها تعود على العباد لان سياق الآية والاتيان بالفاء والتقسيم المذكور كله يدل على ان المراد بيان أقسام الوارثين للكتاب لا بيان أقسام العباد اذ لو

أراد ذلك لأتى بلفظ يزيل الوهم ولا يلتبس به المراد بغيره وكان وجه الكلام على هذا ان يقال ومن عبادنا ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالخيرات ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا منهم وهذا معنى الكلام عندكم ولا ريب ان سياق الآية لا يدل عليه انما يدل على انه أورث الكتاب طائفة من عباده وان تلك الطائفة ثلاثة أقسام هذا وجه الكلام الذى يدل عليه ظاهره الثانى انك اذا قلت أعطيت مالى البالغين من أولادى فمنهم تاجر ومنهم حازن ومنهم مبذر ومسرف هل يفهم من هذا أحد قط ان هذا التقسيم لجملة أولاده بل لا يفهم منه الا ان أولاده كانوا فى أخذهم المال أقساما ثلاثة ولهذا أتى فيها بالفاء الدالة على تفصيل ما أجمله أولا كما اذا قلت خذ هذا المال فاعط فلانا كذا واعط فلانا كذا ونظائره متعددة ولا وجه للاتيان بالفاء ههنا الا تفصيل المذكور أولا لا تفصيل المسكوت عنه والآية قد سكتت عن تفصيل العباد الذين اصطفى منهم من أورثه الكتاب فالتفصيل المذكور ليس الا فتأمله فانه واضح قالوا وأما قولكم ان الله لا يصطفى من عباده ظالما لنفسه لان الاصطفاء هو الاختيار من الشئ صفوته وخياره الى آخر ما ذكرتم فجوابه أن كون العبد مصطفى لله ولياله ومحبوبا لله ونحو ذلك من الاسماء الدالة على شرف منزلة العبد وتقريب الله له لا ينافى ظلم العبد نفسه أحيانا بالذنوب والمعاصى بل أبلغ من ذلك أن صديقته لا تنافى ظلمه لنفسه ولهذا قال صديق الامة وخيارها للنبى علمنى دعاء أدعو به فى صلاتى فقال قل اللهم انى ظلمت نفسى ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب الا أنت فاغفر لى مغفرة من عندك وارحمنى انك أنت الغفور الرحيم وقد قال تعالى وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض أعدت للمتقين الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم وأخبر سبحانه عن صفات المتقين وانهم يقع منهم ظلم النفس والفاحشة لكن لا يصرون على ذلك وقال والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون لهم ما يشاؤن عند ربهم ذلك جزاء المحسنين ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون فهؤلاء الصديقون المتقون قد أخبر سبحانه ان لهم أعمالا سيئة يكفرها ولا ريب انها ظلم النفس وقال موسى رب انى

فقلت له عجل تسعين دينارا وأحط عشرة دنانير فقال نعم فذكر ذلك لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال أكلت ربا مقداد وأطعمته وفى سنده ضعف وصح عن ابن عمر رضى الله عنه أنه يكون له الدين على رجل الى أجل فيضع عنه صاحبه ويعجل له الاجر فكره ذلك ابن عمر ونهى عنه وصح عن أبى المنهال انه سأل ابن عمر رضى الله عنه فقال لرجل على دين فقال لى عجل لى لاضع عنك قال فنهانى عنه وقال نهى أمير المؤمنين يعنى عمر أن يبيع العين بالدين وقال أبو صالح مولى السفاح واسمه عبيد بعت برامن أهل السوق الى أجل ثم أردت الخروج الى الكوفة فعرضوا على أن أضع عنهم وينقدونى فسألت عن ذلك زيد بن ثابت فقال لا آمرك أن تأكل هذا ولا تؤكله رواه مالك فى الموطأ وأما المعنى فانه اذا تعجل البعض وأسقط الباقى فقد باع الاجل بالقدر الذى أسقطه وذلك عين الربا كما لو باع الاجل بالقدر الذى يريده أو أحل عليه الدين فقال زدنى فى الدين وأزيدك فى المدة فأى فرق بين أن يقول حط الاجل وأحط من الدين أو يقول زد فى الاجل وأزيد فى الدين قال زيد بن أسلم كان ربا الجاهلية أن يكون للرجل على الرجل الحق الى أجل فاذا حل الحق قال له غريمه أتقضى أم تربى فان قضاه أخذه والا زاده فى حقه وأخر عنه فى الاجل رواه مالك وهذا الربا مجمع على تحريمه وبطلانه وتحريمه معلوم من دين الاسلام كما يعلم تحريم الزنا واللواطة والسرقة قالوا فنقص الاجل فى مقابلة نقص العوض كزيادته فى مقابلة زيادته فكما أن هذا ربا فكذلك الآخر قال المبيحون صح عن ابن عباس رضى الله عنه أنه كان لا يرى بأسا أن يقول أعجل لك وتضع عنى وهو الذى روى أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لما أمر باخراج بنى النضير من المدينة جاءه ناس منهم فقالوا يا رسول الله انك أمرت باخراجهم ولهم على الناس ديون لم تحل فقال عليه السلام ضعوا وتعجلوا قال أبو عبد الله الحاكم هو صحيح الاسناد قلت هو على شرط السنن وقد ضعفه البيهقى واسناده ثقات وانما ضعف بمسلم بن خالد الزنجى وهو ثقة فقيه روى عنه الشافعى واحتج به وقال البيهقى باب من عجل له أدنى من حقه قبل محله فوضع عنه طيبة به أنفسهما وكان مراده أن هذا ان وقع بغير شرط بل هذا بعجل وهذا وضع ولا محذور فى ذلك قالوا وهذا ضد الربا فان ذلك يتضمن الزيادة فى الاجل والدين وذلك اضرار محض بالغريم ومسئلتنا تتضمن براءة ذمة الغريم من الدين وانتفاع صاحبه بما يتعجله وكلاهما حصل له الانتفاع من غير ضرر بخلاف الربا المجمع عليه فان ضرره لاحق بالمدين ونفعه مختص برب الدين فهذا ضد الربا صورة ومعنى قالوا ولان مقابلة الاجل بالزيادة فى الربا ذريعة الى أعظم الضرر وهو أن يصير الدرهم الواحد ألوفا مؤلفة فتشتغل الذمة بغير فائدة وفى الوضع

والتعجيل تتخلص ذمة هذا من الدين وينتفع ذاك بالتعجيل له قالوا والشارع له تطلع الى براءة الذمم من الديون وسمى الغريم المدين أسيرا ففي براءة ذمته تخليص له من الاسر وهذا ضد شغلها بالزيادة مع الصبر وهذا لازم لمن قال يجوز ذلك في دين الكتابة وهو قول أحمد وأبي حنيفة فان المكاتب مع سيده كالاجنبي في باب المعاملات ولهذا لا يجوز أن يبيعه درهما بدرهمين ولا يبايعه بالربا فاذا جاز له أن يتعجل بعض كتابته ويضع عنه باقيها لما له في ذلك من مصلحة تعجيل العتق وبراءة ذمته من الدين لم يمتنع ذلك في غيره من الديون ولو ذهب ذاهب الى التفصيل في المسألة وقال لا يجوز في دين القرض اذا قلنا بلزوم تأجيله ويجوز في ثمن المبيع والاجرة وعوض الخلع والصداق لكان له وجه فانه في القرض يجب رد المثل فاذا عجل له وأسقط باقيه خرج عن موجب العقد وكان قد أقرضه مائة فوفاه تسعين بلا منفعة حصلت للقرض بل اختص المقترض بالمنفعة فهو كالمربي سواء في اختصاصه بالمنفعة دون الاجر واما في البيع والاجارة فانهما يملكان فسخ العقد وجعل العوض حالا أنقص مما كان وهذا هو حقيقة الوضع والتعجيل لكن تحيلا عليه والعبرة في العقود بمقاصدها لا بصورها فان كان الوضع والتعجيل مفسدة فالاحتيال عليه لا يزيل مفسدته وان لم يكن مفسدة لم يحتج الى الاحتيال عليه فتلخص في المسألة أربعة مذاهب المنع مطلقا بشرط وبدونه في دين الكتابة وغيره كقول مالك وجوازه في دين الكتابة دون غيره كالمشهور من مذهب أحمد وأبي حنيفة وجوازه في الموضعين كقول ابن عباس وأحمد في الرواية الاخرى وجوازه بلا شرط وامتناعه مع الشرط المقارن كقول أصحاب الشافعي والله أعلم المثال الحادي والعشرون اذا كان له عليه ألف درهم فصالحه منها على مائة درهم يؤديها اليه في شهر كذا من سنة كذا فان لم يفعل فعليه مائتان فقال القاضي أبو يعلى هو جائز وقد أبطله قوم آخرون والحيلة في جوازه على مذهب الجميع أن يعجل رب المال حط ثمانمائة بتا ثم يصالح المطلوب من المائتين الباقيتين على مائة يؤديها اليه في شهر كذا على أنه ان أخرها عن هذا الوقت فلا صلح بينهما المثال الثاني والعشرون اذا كاتب عبده على ألف يؤديها اليه في سنتين فان لم يفعل فعليه ألف أخرى فهي كتابة فاسدة ذكره القاضي لانه علق ايجاب المال بخطر ولا يجوز ذلك والحيلة في جوازه أن يكاتبه على ألفي درهم ثم يصالحه منها على ألف درهم يؤديها اليه في سنتين فان لم يفعل فلا صلح بينهما فيكون قد علق الفسخ بخطر فتجوز وتكون كالمسألة التي قبلها المثال الثالث والعشرون اذا كان له عليه دين حال فصالحه على تأجيله أو تأجيل بعضه لم يلزمه التأجيل فان الحال لا يتأجل والصحيح أنه يتأجل كما

يتاجل

ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له انه هو الغفور الرحيم وقال آدم ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين وقال يونس لا اله الا أنت سبحانك اني كنت من الظالمين وقال تعالى اني لا يخاف لدي المرسلون الا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فاني غفور رحيم واذا كان ظلم النفس لا ينافي الصديقية والولاية ولا يخرج العبد عن كونه من المتقين بل يجتمع فيه الامران يكون وليا لله صديقا متقيا وهو مسيء ظالم لنفسه علم ان ظلمه لنفسه لا يخرجه عن كونه من الذين اصطفاهم الله من عباده وأورثهم كتابه اذ هو مصطفى من جهة كونه من ورثة الكتاب علما وعملا ظالم لنفسه من جهة تفريطه في بعض ما أمر به وتعديه بعض ما نهي عنه كما يكون الرجل وليا لله محبوبا له من جهة ومبغوضا له من جهة أخرى وهذا عبد الله حمار كان يكثر شرب الخمر والله يبغضه من هذه الجهة ويحب الله ورسوله ويحبه الله ويواليه من هذه الجهة ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن لعنته وقال انه يحب الله ورسوله ونكتة المسألة أن الاصطفاء والولاية والصديقية وكون الرجل من الابرار ومن المتقين ونحو ذلك كلها مراتب تقبل التجزء والانقسام والكمال والنقصان كما هو ثابت باتفاق المسلمين في أصل الايمان وعلى هذا فيكون هذا القسم مصطفى من وجه ظالم لنفسه من وجه آخر وظلم النفس نوعان نوع لا يبقى معه شيء من الايمان والولاية والصديقية والاصطفاء وهو ظلمها بالشرك والكفر ونوع يبقى معه حظه من الايمان والاصطفاء والولاية وهو ظلمها بالمعاصي وهو درجات متفاوتة في القدر والوصف فهذا التفصيل يكشف قناع المسألة ويزيل اشكالها بحمد الله قالوا وأما قولكم ان قوله تعالى جنات عدن مرفوع لانه بدل من قوله ذلك هو الفضل الكبير وهو مختص بالسابقين وذكر حليتهم فيها من أساور من ذهب يدل على ذلك الى آخره فجوابه من وجهين أحدهما ان هذا بعينه وارد عليكم فان المقتصدين أهل الجنات ومعلوم ان جنات السابقين بالخيرات أعلى وأفضل من جناته فما كان جوابكم عن المقتصد فهو الجواب بعينه عن الظالم لنفسه فان التفاوت حاصل بين جنات الاصناف الثلاثة ويختص كل صنف بما يليق بهم ويقتضيه مقامهم وعلمهم الجواب الثاني انه سبحانه ذكر جزاء السابقين بالخيرات ههنا مشوقا لعباده اليه منبها لهم على مقداره وشرفه وسكت عن جزاء الظالمين

يتأجل بدل القرض وان كان النزاع فى الصورتين فمذهب أهل المدينة فى ذلك هو الراجح وطريق الحيلة فى صحة التأجيل ولزومه أن يشهد على اقرار صاحب الدين أنه لا يستحق المطالبة به قبل الاجل الذى اتفقا عليه وانه متى طالب به قبله فقد طالب بما لا يستحق فاذا فعل هذا أمن رجوعه فى التأجيل المثال الرابع والعشرون اذا اشترى من رجل دارا بألف فجاء الشفيع يطلب الشفعة فصالحه المشترى على نصف الدار بنصف الثمن جاز ذلك لان الشفيع صالح على بعض حقه كما أنه لو صالح من ألف على خمسمائة فان صالحه على بيت من الدار بعينه بحصته من الثمن يقوم البيت ثم يخرج حصته من الثمن جاز أيضا لان حصته معلومة فى أثناء الحال فلا يضر كونها مجهولة حالة الصلح كما اذا اشترى شقصا وسيفا فللشفيع أن يأخذ الشقص بحصته من الثمن وان كانت مجهولة حال العقد لان مآلها الى العلم وقال القاضى وغيره من أصحابنا لا يجوز لانه صالحه على شئ مجهول ثم قال والحيلة فى تصحيح ذلك أن يشترى الشفيع هذا البيت من المشترى بثمن مسمى ثم يسلم الشفيع للمشترى ما بقى من الدار وشراء الشفيع لهذا البيت تسليم للشفعة ومساومته بالبيت تسليم للشفعة فان أراد الشفيع شراء البيت المعين وبقاءه على شفعته فى الباقى فالحيلة أن لا يبدأ بالمساومة بل يصبر حتى يبتدى المشترى فيقول هذا البيت أخذته بكذا وكذا فيقول الشفيع قد استوجبته بما أخذته به ولا يكون مسلما للشفعة فى باقى الدار وليس فى هذه الحيلة ابطال حق غيره وانما فيها التوصل الى حقه المثال الخامس والعشرون يجوز تعليق الوكالة على الشرط كما يجوز تعليق الولاية والامارة على الشرط وقد صح عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم تعليق الامارة بالشرط وهى وكالة وتفويض وتولية ولا محذور فى تعليق الوكالة بالشرط البتة والحيلة فى تصحيحها أن ينجز الوكالة ويعلق الاذن فى التصرف وهذا فى الحقيقة تعليق لها نفسها بالشرط فان مقصود الوكالة صحة التصرف ونفوذه والتوكل وسيلة وطريق الى ذلك فاذا لم يمتنع تعليق المقصود بالشرط فالوسيلة أولى بالجواز المثال السادس والعشرون يجوز تعليق الابراء بالشرط ويصح وفعله الامام أحمد وقال أصحابنا لا يصح قالوا فاذا قال ان مت فأنت فى حل مما لى عليك فان علق ذلك بموت نفسه صح لانه وصية وان علقه بموت من عليه الدين لم يصح لانه تعليق البراءة بالشرط ولا يصح كما لا يصح تعليق الهبة فيقال أولا الحكم فى الاصل غير ثابت بالنص ولا بالاجماع فما الدليل على بطلان تعليق الهبة بالشرط وقد صح عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه علق الهبة بالشرط فى حديث جابر لما قال لو قد جاء مال البحرين لاعطيتك هكذا وهكذا ثم هكذا ثلاث حثيات وأنجز ذلك له الصديق

لانفسهم والمقتصدين لحذر الظالمون ويحذر المقتصدون وذكر فى سورة الانسان جزاء الابرار ومنها على ما هو أعلى وأجل منه وهو جزاء المقربين السابقين ليدل على ان هذا اذا كان جزاء للابرار المقتصدين فما الظن بجزاء المقربين السابقين فقال ان الابرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا الى قوله ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قوارير قوارير من فضة الى قوله عاليهم ثياب سندس خضر واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا فذكرنا الاساور من الفضة والاكواب من الفضة فى جزاء الابرار وذكر فى سورة الملائكة الاساور من الذهب فى جزاء السابقين بالخيرات فعلم جزاء المقتصدين من سورة الانسان وعلم جزاء السابقين من سورة الملائكة فانتظمت السورتان جزاء المقربين على أتم الوجوه والله أعلم باسرار كلامه وحكمه قالوا وهذا هو الجواب عن قولكم ان الضمير يختص به أقرب مذكور اليه قالوا وأما قولكم انما الظالم لنفسه انما هو الكافر فقد تقدم جوابه وذكر ما يبطله قالوا وأما قولكم ان هذه الآيات نظير آيات الواقعة وسورة الانسان وسورة المطففين فى تقسيم الناس الى ثلاثة أقسام أصحاب الشمال وأصحاب اليمين والمقربون فلا ريب ان هذه الآية وافية بالاقسام الثلاثة مع مزيد تقسيم آخر وهو تقسيم أصحاب اليمين الى ظالم لنفسه ومقتصد فهى مشتملة على ثلاث الاقسام وزيادة قالوا وأما قولكم ان الآثار الدالة على أن الاصناف الثلاثة هم السعداء أهل الجنة ضعيفة لا تقوم بها حجة فجوابه انها قد بلغت فى الكثرة الى حد يشد بعضها بعضا ويشهد بعضها البعض ونحن نسوق منها آثارا غير ما ذكرناه يعلم به كثرتها وتعدد طرقها فروى ابن مردويه فى تفسيره من حديث سفيان عن الاعمش عن رجل عن أبى ثابت أن رجلا دخل المسجد فقال اللهم ارحم غربتى وآنس وحشتى وسق لى جليسا صالحا فقال أبو الدرداء ان كنت صادقا لانا أسعد بذلك منك سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات قال أما السابق بالخيرات فيدخله الجنة بغير حساب وأما المقتصد فيحاسب حسابا يسيرا وأما الظالم لنفسه فيحبس فى المقام حتى يدخله الهم والحزن ثم يدخل الجنة ثم قرأ هذه الآية الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ان ربنا لغفور شكور وقد ذكرنا فيما تقدم

رضى الله عنه لما جاء مال البحرين بعد وفاة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فان قيل كان ذلك وعدا قلنا نعم والهبة المعلقة بالشرط وعد وكذلك فعل صلى الله تعالى عليه وسلم لما بعث الى النجاشى بهدية من مسك وقال لام سلمة انى قد أهديت الى النجاشى حلة وأواقى من مسك ولا أرى النجاشى الا قد مات ولا أرى هديتى الا مردودة فان ردت على فهى لك وذكر الحديث رواه أحمد فالصحيح صحة تعليق الهبة بالشرط عملا بهذين الحديثين وأيضا فالوصية تمليك وهى فى الحقيقة تعليق للتمليك بالموت فانه اذا قال ان مت من مرضى هذا فقد وصيت لفلان بكذا فهذا تمليك معلق بالموت وكذلك الصحيح صحة تعليق الوقف بالشرط نص عليه فى رواية الميمونى فى تعلقه بالموت وسائر التعليق فى معناه ولا فرق البتة ولهذا طرده أبو الخطاب وقال لا يصح تعليقه بالموت والصواب طرد النص وانه يصح تعليقه بالموت وغيره وهو أحد الوجهين فى مذهب أحمد وهو مذهب مالك ولا يعرف عن أحمد نص على عدم صحته وانما عدم الصحة قول القاضى وأصحابه وفى المسألة وجه ثالث انه يصح تعليقه بشرط الموت دون غيره من الشروط وهذا اختيار الشيخ موفق الدين وفرق بأن تعليقه بالموت وصية والوصية أوسع من التصرف فى الحياة بدليل الوصية بالمجهول والمعدوم والمجهول والحمل والصحيح الصحة مطلقا ولو كان تعليقه بالموت وصية لامتنع على الوارث ولا خلاف أنه يصح تعليقه بالشرط بالنسبة الى البطون بطنا بعد بطن وان كونه وقفا على البطن الثانى مشروط بانقضاء الاول وقد قال تعالى يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود وقال صلى الله تعالى عليه وسلم المسلمون عند شروطهم والقياس الصحيح يقتضى صحة تعليقه فانه أشبه بالعتق منه بالتمليك ولهذا لا يشترط فيه القبول اذا كان على جهة اتفاقا وكذلك اذا كان على آدمى معين فى أقوى الوجهين وما ذاك الا لشبهه بالعتق والمقصود أن تعليق الابراء بالشرط أولى من ذلك كله فمنعه مخالف لموجب الدليل والمذهب ويقال ثانيا لا يلزم من بطلان تعليق الهبة بطلان تعليق الابراء بل القياس الصحيح يقتضى صحة تعليقه لانه اسقاط محض ولهذا لا يفتقر الى قبول المبرئ ولا رضاه فهو بالعتق والطلاق أشبه منه بالتمليك وعلى هذا فيستغنى بالصحة فى ذلك كله عن الحيلة فان احتاج الى التعليق وخاف أن ينقض عليه فالحيلة أن يقول لا شئ لى عليه بعد هذا الشهر أو العام أو لا شئ لى عليه عند قدوم زيد أو كل دعوى أدعيها عليه بعد شهر كذا أو عام كذا أو عند قدوم زيد بسبب كذا أو من دين كذا فهى دعوى باطلة أو يقول كل دعوى أدعيها فى تركته بعد موته من دين كذا أو ثمن كذا فهى دعوى باطلة وعلى ما قررناه لا يحتاج الى شئ من ذلك المثال السابع والعشرون اذا أعسر الزوج بنفقة المرأة ملكت

الفسخ

حديث أبى ليلى عن أخيه عيسى عن أبيه عن اسامة بن زيد فى قوله فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد قال قال رسول الله كلهم من هذه الامة وروى ابن مردويه أيضا من حديث الفضل بن عميرة العبسى عن ميمون بن سياه عن أبى عثمان النهدى قال سمعت عمر بن الخطاب يقول على المنبر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول سابقنا سابق ومقتصدنا ناج وظالمنا مغفور له وقرأ عمر فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات وروى أيضا من (١٢٢) حديث أبى داود عن شعبة عن الوليد بن العيزار قال سمعت رجلا من ثقيف يحدث عن رجل من كنانة عن أبى سعيد أن النبى قال فى هذه الآية ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا قال كلهم فى الجنة أو قال كلهم بمنزلة واحدة قال شعبة أحدهما ورواه داود بن ابراهيم عن شعبة به وقالوا دخلوا الجنة كلهم بمنزلة واحدة فهذا حديث صحيح الى شعبة واذا كان شعبة فى حديث لم يطرح بل شديد له ورواه يحيى بن سعيد عن الوليد بن العيزار فذكره بمثله وروى محمد بن سعد عن أبيه عن عمه ثنا أبى عن أبيه عن ابن عباس فى قوله ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا الآية قال جعل الله أهل الايمان على ثلاث منازل كقوله وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين والسابقون السابقون أولئك المقربون فهم على هذا المثال قلت يريد ابن عباس ان الله قسم أصحاب اليمين الى ثلاث منازل كما قسم الخلق فى الواقعة الى ثلاث منازل فان أصحاب الشمال المذكورين فى الواقعة هم الكفار المنكرون للبعث فكيف تكون هذه منزلة من منازل أهل الايمان ويجوز أن يريد ان الظالمين لانفسهم المستحقين للعذاب هم من أهل الشمال ولكن ايمانهم يجعلهم آخرا من أهل اليمين وروى من حديث معاوية ابن صالح عن على بن أبى طالب عن ابن عباس فى هذه الآية قال هم أمة محمد ورثهم الله كل كتاب أنزله فظالمهم يغفر له ومقتصدهم يحاسب حسابا يسيرا وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب وروى من حديث عثمان بن أبى شيبة ثنا الحسن ابن عبد الرحمن بن أبى ليلى ثنا عمران بن محمد بن أبى ليلى ثنا أبى عن الحكم عن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن البراء بن عازب أو عن رجل عن البراء بن عازب قال قال رسول الله فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله قال كلهم ناج وهى هذه الامة ورواه

الفريابي ثنا سفيان عن أبي ليلى عن الحكم عن رجل حدثه عن البراء قال قال رسول الله في هذه الآية ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا الآية قال كل ناج وقال آدم بن أبي اياس ثنا أبو فضالة عن الازهري عبد الله الحراز ثنا من سمع عثمان بن عفان يقول ألا ان سابقنا أهل جهادنا ألا وان مقتصدنا أهل حضرنا ألا وان ظالمنا أهل بدونا وقد تقدم حديث عائشة وأبي الدرداء وحذيفة قالوا فهذه الآثار يشد بعضها بعضا وانها قد تعددت طرقها واختلفت مخارجها وسياق الآية يشهد لها بالصحة (٢٢٣) فلا تعدل عنها والمقصود الكلام على مراحل

الفسخ فان تحملها عنه غيره لم يسقط ملكها للفسخ لان عليها في ذلك منة كما اذا أراد قضاء دين عن الغير فامتنع ربه من قبوله لم يجبر على ذلك وطريق الحيلة في ابطال حقها من الفسخ أن يحيلها بما وجب لها عليه من النفقة على ذلك الغير فتصح الحوالة ويلزم على أصلنا اذا كان المحال عليه غنيا وطريق صحة الحوالة أن يقر ذلك الغير للزوج بقدر معين لنفقتها سنة أو شهرا أو نحو ذلك ثم يحيلها الزوج عليه فان لم يمكنه الاجبار على القبول لعدم من يرى ذلك وكل الزوج الملتزم لنفقتها في الانفاق عليها والزوج مخير بين أن ينفق عليها بنفسه أو بوكيله وهكذا العمل في مسألة أداء الدين عن الغريم سواء المثال الثامن والعشرون اذا خاف المضارب أن يضمنه المالك بسبب من الاسباب التي لا يملكها بعقد المضاربة كخلط المال بغيره أو اشترائه بأكثر من رأس المال والاستدانة على مال المضاربة أو دفعه الى غيره مضاربة أو ابضاعا أو ايداعه أو السفر به فطريق التخلص من ضمانه في هذا كله أن يشهد على رب المال أنه قال له اعمل برأيك أو ما تراه مصلحة المثال التاسع والعشرون اذا كان لكل من الرجلين عروض وأرادا أن يشتركا فيها شركة عنان ففي ذلك روايتان احداهما تصح الشركة وتقوم العروض عند العقد ويكون قيمتها هو رأس المال فيقسم الربح على حسبه أو على ما شرطاه واذا أراد الفسخ رجع كل منهما الى قيمة عروضه واقتسما الربح على ما شرطاه وهذا القول هو الصحيح والرواية الثانية لا تصح الا على النقدين لانهما اذا تفاسخا الشركة وأراد كل واحد الرجوع الى رأس ماله ويقتسما الربح لم يعلم ما مقدار رأس مال كل منهما الا بالتقويم وقد تزيد قيمة العروض وتنقص قبل العمل فلا يستقر رأس المال وأيضا فمقتضى عقد الشركة أن لا ينفرد أحد الشريكين بربح مال الآخر وهذه الشركة تفضي الى ذلك لانه قد تزيد فيه عروض أحدهما ولا تزيد قيمة عرض الآخر فيشاركه من لم تزد قيمة عرضه وهذا انما يصح في المقومات كالرقيق والحيوان ونحوهما فأما المثليات فالصحيح الجواز في الموضعين لان مبنى عقد الشركة على العدل من الجانبين وكل من الشريكين متردد بين الربح والخسران فهما في هذا الجواز مستويان فتجويز ربح أحدهما دون الآخر في مقابلة عكسه فقد استويا في رجاء الغنم وخوف الغرم وهذا هو العدل كالمضاربة فانه يجوز أن يربحا وأن يخسرا وكذلك المساقاة والمزارعة وطريق الحيلة في تصحيح هذه المشاركة عند من لا يجوزها بالعروض أن يبيع كل منهما بعض عرضه ببعض عرض صاحبه فاذا كان عرض أحدهما يساوي خمسة آلاف وعرض الآخر يساوي ألفا فيشتري صاحب العرض الذي قيمته خمسة آلاف من صاحبه خمسة أسداس عرضه الذي يساوي ألفا

العالمين وكيفية قطعهم اياها فلترجع اليه فنقول اما الاشقياء فقطعوا تلك المراحل سائرين الى دار الشقاء متزودين غضب الرب سبحانه ومعاداة كتبه ورسله وما بعث سوابه ومعاداة أوليائه والصد عن سبيله ومحاربة من يدعو الى دينه ومقاتلة الذين يامرون بالقسط من الناس واقامة دعوة غير دعوة الله التي بعث بها رسله لتكون الدعوة له وحده فقطع هؤلاء الاشقياء مراحل أعمارهم في ضد ما يحبه الله ويرضاه وأما السائرون اليه فظالمهم قطع مراحل عمره في غفلاته وايثار شهواته ولذاته على مراضي الرب سبحانه وأوامره مع ايمانه بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر لكن نفسه مغلوبة معه ماسور مع حظه وهواه يعلم سوء حاله ويعترف بتفريطه ويعزم على الرجوع الى الله فهذا حال المسلم وأما من زين له سوء عمله فرآه حسنا وهو غير معترف ولا مقر ولا عازم على الرجوع الى الله والانابة اليه أصلا فهذا لا يكاد اسلامه أن يكون صحيحا أبدا ولا يكون هذا الا منسلخ القلب من الايمان ونعوذ بالله من الخذلان وأما الابرار المقتصدون فقطعوا مراحل سفرهم بالاهتمام باقامة أمر الله وعقد القلب على ترك مخالفته ومعاصيه فهممهم مصروفة الى القيام بالاعمال الصالحة واجتناب الاعمال القبيحة فاول ما يستيقظ أحدهم من منامه يسبق الى قلبه القيام الى الوضوء والصلاة كما أمره الله فاذا أدى فرض وقته اشتغل بالتلاوة والاذكار الى حين تطلع الشمس فيركع الضحى ثم ذهب الى ما أقامه الله فيه من الاسباب فاذا حضر فرض الظهر بادر الى التطهر والسعي الى الصف الاول من المسجد فادى فريضته كما أمر مكملا لها بشرائطها وأركانها وسننها وحقائقها الباطنة من الخشوع والمراقبة والحضور بين يدي الرب فينصرف من الصلاة وقد أثرت في قلبه وبدنه وسائر أحواله آثارا تبدو على

فتحفانه ولسانه وجوارحه ويجد ثمرتها فى قلبه من الانابة الى دار الخلود والتجافى عن دار الغرور وقلة التكالب والحرص على الدنيا وعاجلها قد نهته صلاته عن الفحشاء والمنكر وحبب اليه لقاء الله ونفرته من كل قاطع يقطعه عن الله فهو مغموم مهموم كانه فى سجن حتى تحضر الصلاة فاذا حضرت قام الى نعيمه وسروره وقرة عينه وحياة قلبه فهو لا تطيب له الحياة الا بالصلاة هذا وهم فى ذلك كله مراعون لحفظ السنن لا يخلون منها بشئ ما أمكنهم فيقصدون من الوضوء أكمله ومن الوقت أوله ومن الصفوف أولها عن يمين الامام أو خلف ظهره ويأتون بعد الفريضة بالاذكار المشروعة كالاستغفار ثلاثا وقول اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والاكرام وقوله لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد لا اله الا الله ولا نعبد الا اياه له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن لا اله الا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ثم يسبحون ويحمدون ويكبرون تسعا وتسعين ويختمون المائة بلا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير ومن أراد المزيد قرأ آية الكرسى والمعوذتين عقيب كل صلاة فان فيها أحاديث رواها النسائى وغيره ثم يركعون السنة على أحسن الوجوه هذا دأبهم فى كل فريضة فاذا كان قبل غروب الشمس توفروا على اذكار المساء الواردة فى السنة نظير اذكار الصباح الواردة فى أول النهار لا يخلون بها أبدا فاذا جاء الليل كانوا فيه على منازلهم من مواهب الرب سبحانه التى قسمها بين عباده فاذا أخذوا مضاجعهم أتوا باذكار النوم الواردة فى السنة وهى كثيرة تبلغ نحو اس أربعين فيأتون منها بما علموه وما يقدرون عليه من قراءة سورة الاخلاص والمعوذتين ثلاثا ثم يمسحون بها رؤسهم ووجوههم وأجسادهم ثلاثا ويقرؤن آية الكرسى وخواتيم سورة البقرة ويسبحون ثلاثا وثلاثين ويحمدون ثلاثا وثلاثين ويكبرون أربعا وثلاثين ثم يقول أحدهم اللهم انى أسلمت نفسى اليك ووجهت وجهى اليك وفوضت أمرى اليك وألجأت ظهرى اليك رغبة ورهبة اليك لا ملجأ ولا منجا منك الا اليك آمنت بكتابك الذى أنزلت ونبيك الذى أرسلت وان شاء قال باسمك ربى وضعت جنبى وبك أرفعه فان أمسكت نفسى فاغفر لها وان أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك

بسدس عرضه الذى يساوى خمسة آلاف فاذا فعلا ذلك صارا شريكين فيصير للذى ساوى متاعه ألفا سدس جميع المتاع وللآخر خمسة أسداسه أو يبيع كل منهما صاحبه بعض عرضه بثمن مسمى ثم يتقابضا فيصير مشتركا بينهما ثم يأذن كل واحد لصاحبه فى التصرف فما حصل من الربح يكون بينهما على ما شرطاه عند أحمد وعلى قدر رؤس أموالهما عند الشافعى والخسران على قدر المال اتفاقا المثال الثلاثون اذا تزوجها على أن لا يخرجها من دارها أو بلدها أو لا يتزوج عليها ولا يتسرى عليها فالنكاح صحيح والشرط لازم هذا اجماع الصحابة رضى الله عنهم فانه صح عن عمر وسعد ومعاوية ولا مخالف لهم من الصحابة واليه ذهب عامة التابعين وقال به أحمد وخالف فى ذلك الثلاثة فأبطلوا الشرط ولم يوجبوا الوفاء به فاذا احتاجت المرأة الى ذلك ولم يكن عندها من يرى صحة ذلك ولزومه فالحيلة لها فى حصول مقصودها أن تمتنع من الاذن الا أن يشرط بعد العقد انه ان سافر بها أو نقلها من دارها أو تزوج عليها فهى طالق أو لها الخيار فى المقام معه أو الفسخ فان لم تثق به أن يفعل ذلك فانها تطلب مهرا كثيرا جدا ان لم يفعل وتطلب ما دونه ان فعل فان شرط لها ذلك رضيت بالمهر الأدنى وان لم يشرط ذلك طالبته بالأعلى وجعلته حالا ولها أن تمنع نفسها حتى تقبضه أو يشرط لها ما سألته فان قيل فعلى أى المهرين يقع العقد قيل يقع على المهر الزائد لتتمكن من الزامه بالشرط فان خاف أن يشرط لها ما طلبت ويستقر عليه المهر الزائد فالحيلة أن يشهد عليها انها لا تستحق عليه بعد الاشتراط شيأ من المبلغ الزائد على الصداق الأدنى وانها متى ادعت به فدعواها باطلة فيستوثق منها بذلك ويكتب هو والشرط ولها أن تطالب بالصداق الزائد اذا لم يف لها بالشرط لانها لم ترض بان يكون الأدنى مهرا الا فى مقابلة منفعة أخرى تسلم لها وهى المقام فى دارها أو بلدها أو يكون الزوج لها وحدها وهذا جار مجرى بعض صداقها فاذا فاتها فلها المطالبة بالمهر الأعلى المثال الحادى والثلاثون اذا زوج ابنته بعبده صح النكاح فان حضره الموت يخاف هو والمرأة أن ترث جزأ منه فينفسخ النكاح فالحيلة فى بقائه أن يبيع العبد من أجنبى فان شاء قبض ثمنه وان شاء جعله دينا فى ذمته يكون حكمه حكم سائر ديونه فاذا ورثت نصيبها من ثمنه لم ينفسخ نكاحها وان باع العبد من أجنبى قبل العقد ثم زوجه الابنة أمن هذا المحذور أيضا وكذلك اذا أراد أن يزوج أمته بابنه وخاف أن يموت فيرث زوجته فينفسخ النكاح باعها من أجنبى ثم زوجها الابن أو يبيعها من الاجنبى بعد العقد المثال الثانى والثلاثون اذا أحاله بدينه وخاف المحتال أن يتوى ماله عند المحال عليه وأراد التوثق لماله فالحيلة فى ذلك

أن يقول لاتحاني بالمال ولكن وكلني في المطالبة به واجعل ما أقبضه في ذمتي قرضا فيبرآن جميعا بالمقاصد فان خاف المحيل أن يهلك المال في يد الوكيل قبل اقراضه فيرجع عليه بالدين فالحيلة له أن يقول للمحال عليه اضمن عني هذا الدين لهذا الطالب فيضمنه فاذا قبضه قبضه لنفسه فان امتنع المحال عليه من الضمان احتال الطالب عليه على أنه ان لم يوفه حقه الى وقت كذا وكذا فالمحيل ضامن لهذا المال ويصح تعليق الضمان بالشرط فان وفاه المحيل عليه والا رجع الى المحيل وآخذه بالمال المثال الثالث والثلاثون اذا كان له دين على رجل فرهنه به عبدا فخاف أن يموت العبد فيحاكمه الى من يرى سقوط الدين بتلف الرهن فالحيلة في تخلصه من هذا المحذور أن يشتري العبد منه بدينه ولا يقبض العبد فان وفاه دينه أقاله في البيع وان لم يوفه الدين طالبه بالتسليم وان تلف العبد كان من ضمان البائع ورجع المشتري الى دينه الذي هو ثمنه المثال الرابع والثلاثون اذا كان له عليه دين فرهنه به رهنا ثم خاف أن يستحق الرهن فتبطل الوثيقة فالحيلة فيه أن يضمن دينه لمن يخاف منه استحقاق الرهن فاذا استحقه عليه طالبه بالمال أو يضمنه درك الرهن أو يشهد عليه انه لا حق له فيه ومتى ادعى فيه حقا فدعواه باطلة المثال الخامس والثلاثون اذا كان له عليه مائة دينار خمسون منها بوثيقة وخمسون بغير وثيقة وجحده الغريم القدر الذي بغير وثيقة فالحيلة له في تخليص ماله أن يوكل رجلا غريبا بقبض المال الذي بالوثيقة ويشهد على وكالته علانية ثم يشهد شهودا آخرين أنه قد عزله عن الوكالة ثم يطالب الوكيل المطلوب بذلك المال وثبت شهودا وكالته فاذا قبض الخمسين دينارا دفعها الى مستحقها وغاب ثم يطالبه المستحق بهذه الخمسين فان قال دفعتها الى وكيلك أقام البينة انه كان قد عزله عن الوكالة فيلزمه الحاكم بالمال ويقول له اتبع القابض فخذ مالك منه فان كان الغريم حذرا لم يدفع الى الوكيل شيئا خشية مثل هذا ويقول لا أدفع اليك الا بحضرة الموكل واقراره انك وكيله فتبطل هذه الحيلة المثال السادس والثلاثون اذا حضره الموت ولبعض ورثته عليه دين وأراد تخليص ذمته فان أقر له به لم يصح اقراره وان وصى له به كانت وصية لوارث فالحيلة في خلاصه أن يواطئه على أن يأتي بمن يثق به فيقر له بذلك الدين فاذا قبضه أوصله الى مستحقه فان خاف الاجنبي أن يلزمه الحاكم أن يحلف أن هذا الدين واجب لك على الميت ولم يبرئه منه ولا من شيء منه لم يجز له ان يحلف على ذلك وانتقلنا الى حيلة أخرى وهي أن يقول له المريض بع دارك أو عبدك من وارثي بالمال الذي له علي فيفعل فاذا لزمته اليمين بعد هذا حلف على أمر صحيح فان لم يكن له ما يبيعه اياه وهب له الوارث عبدا أو أمة فقبضه ثم باعه من

الصالحين وان شاء قال اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم ربي ورب كل شيء فالق الحب والنوى منزل التوراة والانجيل والفرقان أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها أنت الاول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء اقض عني الدين وأغنني من الفقر بالجملة فلا يزال يذكر الله على فراشه حتى يغلبه النوم وهو يذكر الله فهذا منامه عبادة وزيادة له في قربه من الله فاذا استيقظ عاد الى عادته الاولى ومع هذا فهو قائم بحقوق العباد من عيادة المرضى وتشييع الجنائز واجابة الدعوة والمعاونة لهم بالجاه والبدن والنفس والمال وزيارتهم وتفقدهم وقائم بحقوق أهله وعياله فهو منتقل في منازل العبودية كيف نقله فيها الامر فاذا وقع منه تفريط في حق من حقوق الله بادر الى الاعتذار والتوبة والاستغفار ونحوه ومداواته بعمل صالح يزيل أثره فهذا وظيفته دائما وأما السابقون المقربون فنستغفر الله الذي لا اله الا هو أولا من وصف حالتهم وعدم الاتصاف به بل ما شممنا له رائحة ولكن محبة القوم تحمل على تعرف منزلتهم والعلم بها وان كانت النفوس متخلفة منقطعة عن اللحاق بهم ففي معرفة حال القوم فوائد عديدة منها أن لا يزال المتخلف المسكين مزريا على نفسه ذاما لها ومنها أن لا يزال منكسر القلب بين يدي ربه تعالى ذليلا له حقيرا يشهد منازل السابقين وهو في زمرة المنقطعين ويشهد بضائع التجار وهو في رفقة المحرومين ومنها انه عساه أن تنهض همته يوما الى التشبث والتعلق بساقة القوم ولو من بعيد ومنها انه لعله أن يصدق في الرغبة واللجأ الى من بيده الخير كله ان يلحقه بالقوم ويهيئه لاعمالهم فيصادف ساعة اجابة لا يسأل الله فيها شيئا الا أعطاه ومنها ان هذا العلم هو من أشرف علوم العباد وليس بعد علم التوحيد أشرف منه وهو لا يناسب الا النفوس الشريفة ولا يناسب النفوس الدنيئة المهينة فاذا رأى نفسه تناسب هذا العلم وتشتاق اليه وتحبه وتأنس باهله فليبشر بالخير فقد أهل له فليقل لنفسه يا نفس فقد حصل لك شطر السعادة فاحرصي على الشطر الآخر فان السعادة في العلم بهذا الشأن والعمل به فقد قطعت نصف المسافة فهلا تقطعين باقيها فتفوزين فوزا عظيما ومنها ان العلم بكل حال خير من الجهل فاذا كان اثنان احدهما عالم بهذا الشأن غير

الوارث بالدين الذى على الميت المثال السابع والثلاثون اذا نكح أمة حيث يجوز له نكاح الاماء وخاف ان يسترق سيدها ولده فالحيلة فى ذلك ان يسأل سيد الامة أن يقول كل ولد تلده منك فهو حر فاذا قال هذا فما ولدته منه فهم أحرار المثال الثامن والثلاثون اذا قال لامرأته ان سألتينى الخلع فانت طالق ثلاثا ان لم أخلعك وقالت المرأة كل مملوك لها حر ان لم أسألك الخلع اليوم فسئل أبو حنيفة عنها فقال للمرأة سليه الخلع فقالت أسألك ان تخلعنى فقال للزوج قل خلعتك على ألف درهم فقال ذلك فقال أبو حنيفة للمرأة قولى لا أقبل فقالت لا أقبل فقال أبو حنيفة قومى مع زوجك فقد بر كل منكما فى يمينه المثال التاسع والثلاثون سئل أبو حنيفة عن أخوين تزوجا أختين فزفت امرأة كل واحد منهما الى الآخر فوطئها ولم يعلموا بذلك حتى أصبحوا فقيل له ما الحيلة فى ذلك فقال أكل منهما راض بالتى دخل بها قالا نعم فقال ليطلق كل واحد منهما امرأته طلقة ففعلا فقال ليتزوج كل منكما المرأة التى وطئها فطابت أنفسهما المثال الاربعون اذا كان لرجل على رجل مال وللذى عليه المال عقار فاراد أن يجعل عقاره فى يد غريمه يستغله و يقبض غلته من دينه جاز ذلك لانه توكيل له فيه فان خاف الغريم أن يعزله صاحب العقار عن الوكالة فالحيلة أن يسترهنه منه و يستدين قبضه ثم يأذن له فى قبض أجرته من دينه ولو لم يأذن له فله أن يقبضها قصاصا وله حيلة أخرى ان يستأجره منه بمقدار دينه فما وجب له عليه من الاجرة سقط من دينه بقدره قصاصا المثال الحادى والاربعون اذا كان له جارية فاراد وطأها وخاف ان تحبل منه فتصير أم ولد لا يمكنه بيعها فالحيلة أن يبيعها لابيه أو أخيه أو أخته فاذا ملكها سأل أن يزوجه اياها فيطأها بالنكاح و يكون ولده منها احرارا يعتقون على البائع بالرحم وهذا اذا كان ممن يجوز له نكاح الاماء بان لا يكون تحته حرة عند أبى حنيفة أو يكون خائفا للعنت عادما الطول حرة عند الجمهور المثال الثانى والاربعون اذا بانت منه امرأته ببينونة صغرى وأراد ان يجدد نكاحها فخاف ان أعلمها لم تتزوج به فله فى ذلك حيل أحدها أن يقول قد حلفت بيمين ثم استفتيت فقيل لى جدد نكاحك فان كانت قد بانت منك عاد النكاح والا لم يضرك فان كان لها ولى جدد نكاحها والا فالحاكم أو نائبه ومنها أن يظهر أنه يريد سفرا وأنه يريد أن يجعل لها شيأ من ماله وان الاحتياط أن أجعله صداقا بعقد يظهره ومنها أن يظهر مرضا وانه يريد أن يقر لها بمال أو يوصى لها به وان ذلك لا يتم والاحوط ان يظهر عقد نكاح يجعل ذلك صداقا فيه فان قيل اذا بانت منه ملكت نفسها ولم يصح نكاحها الا برضاها ولعلها لو علمت الحال لم ترض بالنكاح الثانى قيل رضاها بتجديد العقد للغرض الذى يريده يتضمن

رضاها

فى صفه ولا قائم به وآخر جاهل به غير متصف به فهو خلو من الامرين فلا ريب ان العالم به خير من الجاهل وان كان العالم المتصف به خيرا منهما فينبغى أن يعطى كل ذى حق حقه و ينزل فى مرتبته ومنها انه اذا كان العلم بهذا الشأن همه ومطلوبه فلا بد ان ينال منه بحسب استعداده ولو لحظة ولو بارقة ولو انه يحدث نفسه بالنهضة اليه ومنها انه لعله يجرى منه على لسانه ما ينتفع به غيره بقصده أو بغير قصده والله لا يضيع مثقال ذرة فعسى ان يرحم بذلك العامل وبالجملة ففوائد العلم بهذا الشأن لا تنحصر فلا ينبغى أن تصغى الى من يثبطك عنه وتقول انه لا ينفع بل احذره واستعن بالله ولا تعجز ولكن لا تغتر وفرق بين العلم والحال واياك أن تظن ان بمجرد علم هذا الشان قد صرت من أهله هيهات ما أظهر الفرق بين العلم بوجوه الغنى وهو فقير و بين الغنى بالفعل و بين العالم باسباب الصحة وحدودها وهو سقيم و بين الصحيح بالفعل فاسمع الآن وصف القوم وأحضر ذهنك لشأنهم العجيب وخطرهم الجليل فان وجدت من نفسك حركة وهمة الى التشبه بهم فاحمد الله وادخل فالطريق واضح والباب مفتوح واذا أعجبتك خصال امرئ * فكنه تكن مثل ما يعجبك فليس على الجود والمكرمات اذا جئتها حاجب يحجبك فنبأ القوم عجيب وأمرهم خفى الاعلى من له مشاركة مع القوم فانه يطلع من حالهم على ما يريه اياه القدر المشترك وجملة أمرهم انهم قوم قد امتلأت قلوبهم من معرفة الله وغمرت بمحبته وخشيته واجلاله ومراقبته فسرت المحبة فى اجزائهم فلم يبق فيها عرق ولا مفصل الا وقد دخله الحب قد أنساهم حبه ذكر غيره وأوحشهم أنسهم به ممن سواه قد فنوا بحبه عن حب من سواه و بذكره عن ذكر من سواه وبخوفه و رجائه والرغبة اليه والرهبة منه والتوكل عليه والانابة اليه والسكون اليه والتذلل والانكسار بين يديه عن تعلق ذلك منهم بغيره فاذا وضع احدهم جنبه على مضجعه صعدت أنفاسهم الى الهه ومولاه واجتمع همه عليه متذكرا صفاته العلى واسماءه الحسنى مشاهدا له فى أسمائه وصفاته قد تجلت على قلبه انوارها فانصبغ قلبه بمعرفته ومحبته فبات جسمه فى فراشه يتجافى عن مضجعه وقلبه قد أوى الى مولاه وحبيبه فآواه اليه واسجده بين يديه خاضعا خاشعا ذليلا منكسرا من كل جهة من جهاته فيالها سجدة ما أشرفها من سجدة لا يرفع رأسه منها الى يوم اللقاء وقيل لبعض العارفين

رضاها بالنكاح وهي لو هزلت بالاذن صح اذنها وصح النكاح مع انها لم تقصده كما لو هزل الزوج بالقبول صح نكاحه وهنا قد قصدت بقاء النكاح ورضيت به فهو أولى بالصحة فان قيل فالرجل قاصد الى النكاح والمرأة غير قاصدة له قيل بل قصدت الى تجديد نكاح يتم به غرضها فلم يخرج بذلك عن القصد والرضا ولو قال رجل لرجل هزلا ومزاحا زوجني ابنتك على مائة درهم أو قال زوجني موليتك وهي تسمع فقال له مزاحا وهزلا قد زوجتكها انعقد النكاح وحل له وطؤها لحديث أبي هريرة الذي رواه أهل السنن عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ثلاث جدهن جد وهزلهن جد النكاح والطلاق والرجعة المثال الثالث والاربعون اذا كان الرجل حسن التصرف في ماله غير مبذر له فرفع الى الحاكم وشهد أنه مبذر فخاف أن يحجر عليه فقال ان حجرت علي فعبيدي أحرار ومالي صدقة على المساكين لم يملك القاضي ان يحجر عليه بعد ذلك لانه انما يحجر عليه صيانة لماله وفي الحجر عليه اتلاف ماله فهو يعود على مقصود الحجر بالابطال المثال الرابع والاربعون يصح الصلح عندنا وعند أبي حنيفة ومالك على الانكار فاذا ادعى عليه شيأ فانكره ثم صالحه على بعضه جاز والشافعي لا يصحح هذا الصلح لانه لم يثبت عنده شيء فبأي طريق يأخذ ما صالحه عليه بخلاف الصلح على الاقرار فانه اذا أقر له بالدين والعين فصالحه على بعضه كان قد وهبه أو أبرأه من البعض الآخر والجمهور يقولون قد دل الكتاب والسنة والقياس على صحة هذا الصلح فان الله سبحانه وتعالى ندب الى الاصلاح بين الناس وأخبر أن الصلح خير وقال انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين أخويكم وقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الصلح بين المسلمين جائز الا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا وأما القياس فان المدعى عليه يفتدي مطالبته باليمين واقامة البينة عليه وتوابع ذلك بشيء من ماله يبذله ليتخلص من الدعوى ولوازمها وذلك غرض صحيح مقصود عند العقلاء وغاية ما يقدر أن يكون المدعي كاذبا فهو يتخلص من تحليفه له وتعريضه للنكول فيقضى عليه به أو يرد اليمين بل عند الخرقي لا يصح الصلح الا على الانكار ولا يصح مع الاقرار قال لانه يكون هضما للحق فاذا صالحه مع الانكار فخاف أن يرفعه الى حاكم يبطل الصلح فالحيلة في تخلصه من ذلك أن يصالح أجنبي عن المنكر على مال ويقر الاجنبي لهذا المدعي بما ادعاه على غريمه ثم يصالحه من دعواه على مال ولا يفتقر الى اذن المدعى عليه ولا وكالته له ان كان المدعى دينا لانه يقول ان كان كاذبا فقد استنقذته من هذه الدعوى وذلك بمنزلة فكاك الاسير وان كان صادقا فقد قضيت عنه بعض دينه وأبرأه المدعي من باقيه وذلك لا يفتقر الى اذنه وان كان المدعى عينا لم يصح حتى

أيسجد القلب بين يدي ربه قال اي والله بسجدة لا يرفع رأسه منها الى يوم القيامة فشتان بين قلب يبيت عند ربه قد قطع في سفره اليه بيداء الاكوان وخرق حجب الطبيعة ولم يقف عند رسم ولا سكن الى علم حتى دخل على ربه في داره فشاهد عز سلطانه وعظمة جلاله وعلو شأنه وبهاء كماله وهو مستو على عرشه يدبر أمر عباده ويصعد اليه شؤن العبد ويعرض عليه حوائجهم وأعمالهم فيأمر فيها بما يشاء فينزل الامر من عنده نافذا كما أمر فيشاهد الملك الحق قيوما بنفسه مقيما لكل ما سواه غنيا (٢٣٧) عن كل من سواه فقيرا اليه يسأله من في السموات والارض كل يوم هو في شأن يغفر ذنبا ويفرج كربا ويفك عانيا وينصر ضعيفا ويجبر كسيرا ويغني فقيرا ويميت ويحيي ويسعد ويشقي ويضل ويهدي وينعم على قوم ويسلب نعمته عن آخرين ويعز أقواما ويذل آخرين ويرفع أقواما ويضع آخرين ويشهده كما أخبر عنه أعلم الخلق به وأصدقهم في خبره حيث يقول في الحديث الصحيح يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار أرأيتم ما أنفق منذ خلق الخلق فانه لم يغض ما في يمينه وبيده الاخرى الميزان يخفض ويرفع فيشاهده كذلك يقسم الارزاق ويجزل العطايا ويمن بفضله على من يشاء من عباده بيمينه وباليد الاخرى الميزان يخفض به من يشاء ويرفع به من يشاء عدلا منه وحكمة لا اله الا هو العزيز الحكيم فيشهده وحده القيوم بأمر السموات والارض ومن فيهن ليس له بواب فيستأذن ولا حاجب فيدخل عليه ولا وزير فيؤتى ولا ظهير فيستعان به ولا ولي من دونه فيشفع به اليه ولا نائب عنه فيعرفه حوائج عباده ولا معين له فيعاونه على قضائها أحاط سبحانه بها علما ووسعها قدرة ورحمة فلا يزيده كثرة الحاجات الا جودا وكرما فلا يشغله منها شأن عن شان ولا تغلطه كثرة المسائل ولا يتبرم بالحاح الملحين لو اجتمع أول خلقه وآخرهم وانسهم وجنهم وقاموا في صعيد واحد ثم سألوه فأعطى كلا منهم مسألته ما نقص ذلك مما عنده ذرة واحدة الا كما ينقص المخيط البحر اذا غمس فيه ولو ان أولهم وآخرهم وانسهم وجنهم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منهم ما زاد ذلك في ملكه شيأ ذلك بأنه الغني الجواد الماجد فعطاؤه كلام وعذابه كلام انما أمره اذا أراد شيأ أن يقول له كن فيكون ويشهده كما أخبر عنه أيضا الصادق المصدوق حيث يقول ان الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه يرفع اليه عمل الليل قبل عمل النهار

يقول قد وكاني المنكر لانه يقول قد اشتريت له هذه العين المدعاة بالمال الذي أصالحك عليه فان لم يعترف انه قد وكله والا لم يصح فان لم يعترف بوكالته فطريق الصحة أن يصالح الاجنبي لنفسه فيكون بمنزلة شراء العين المغصوبة فان اعترف بها للمدعي باطنا صار هو الخصم فيها وان لم يعترف بها له لم يسعه أن يخاصم فيها المدعى عليه و يكون اعترافه له بها ظاهرا حيلة على تصحيح الصلح وعلى هذا فاذا كان المدعي دارا خلفها الميت لابنه وامرأته فادعاها رجل فصالحاه من دعواه على مال فان كان صلحا على الانكار فالمال بينهما على ثمانية أسهم على المرأة الثمن وعلى الابن سبعة أثمان فان كان على الاقرار فالمال بينهما نصفان والدار لهما نصفان فاذا أرادا لزوم الصلح على الانكار صالح عنهما أجنبي على الاقرار فلزم الصلح وكان المال بينهما على سبعة أثمان وكذلك الدار فانهما لم يقرا له بالدار واقرار الاجنبي لا يلزمهما حكمه المثال الخامس والاربعون اذا ادعى عليه أرضا في يده أو دارا أو بستانا فصالحه على عشرة أذرع أو أقل أو أكثر جاز وكذلك لو صالحه على عشرة أذرع من أرض أو دار أخرى جاز لانه يقول قد أخذت بعض حقي وأسقطت البعض فان خاف أن يرفعه الى حاكم حنفي لا يرى جواز ذلك بناء على أنه لا يجوز بيع ذراع ولا عشرة من أرض أو دار فطريق الجواز أن يذرع الدار التي صالحه على هذا القدر منها ثم ينسبه الى المجموع فما أخرجته النسبة أوقع عقد الصلح عليه و يصح ذلك و يلزم المثال السادس والاربعون اذا أوصى لرجل بخدمة عبده مدة معينة أو ما عاش جاز ذلك فاذا أراد الوارث أن يشتري من الموصى له خدمة العبد لم يصح لان حق الموصى له انما هو في المنافع وبيع المنافع لا يجوز والحيلة في الجواز أن يصالحه الوارث من وصيته على مال معين فيجوز ذلك وكذلك لو أوصى له بحمل شاته أو أمته أو بما يحمل شجره عاما فأراد الوارث شراءه منه لم يصح وله أن يصالحه عليه فان الصلح وان كان فيه شائبة من البيع فهو أوسع منه المثال السابع والاربعون لو شجه رجل فعفا المشجوج عن الشجة وما يحدث منها ثم مات منها لم يلزم الشاج شئ ولو قال عفوت عن هذه الجراحة أو الشجة ولم يقل وما يحدث منها فكذلك في احدى الروايتين وفي الاخرى يضمن بقسطها من الدية ولو قال عفوت عن هذه الجناية فلا شئ في السراية رواية واحدة وعند أبي حنيفة له المطالبة بالدية في ذلك كله الا اذا قال عفوت عنها وعما يحدث منها فالحيلة في تخلص المعفو عنه أن يشهد على المجني عليه أنه عفا عن هذه الجناية أو الشجة وما يحدث منها فيخلص عند الجميع المثال الثامن والاربعون اذا مات وترك زوجة وورثة فأرادت الزوجة أن تصالحها الورثة على حقها نظرنا في التركة وفي الذي وقع عليه الصلح فان كان في التركة أثمان ذهب أو فضة

و[illegible] حجابه النور لو كشفه لاحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه وبالجملة فيشهده في كلامه فقد تجلى سبحانه وتعالى لعباده في كلامه وتراآى لهم فيه وتعرف اليهم فيه فبعدا وتبا للجاحدين والظالمين أفي الله شك فاطر السموات والارض لا اله الا هو الرحمن الرحيم فاذا صارت صفات ربه وأسماؤه مشهد القلب أنسته ذكر غيره وشغلته عن حب من سواه وحديث دواعي قلبه الى حبه تعالى بكل جزء من أجزاء قلبه وروحه وجسمه فحينئذ يكون الرب سبحانه سمعه الذي يسمع به و بصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها فبه يسمع وبه يبصر وبه يبطش وبه يمشي كما أخبر عن نفسه على لسان رسوله ومن غلظ حجابه وكثف طبعه وصلب عوده فهو عن فهم هذا بمعزل بل لعله أن يفهم منه ما لا يليق به تعالى من حلول أو اتحاد أو يفهم منه غير المراد منه فيحرف معناه ولفظه ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور وقد ذكرت معنى الحديث والرد على من حرفه وغلط فيه في كتاب التحفة المكية وبالجملة فيبقى قلب العبد الذي هذا شأنه عرشا للمثل الاعلى أي عرشا للمعرفة محبوبه ومحبته وعظمته وجلاله وكبريائه وناهيك بقلب هذا شأنه فيا له من قلب من ربه ما أدناه ومن قربه ما أحظاه فهو ينزه قلبه أن يساكن سواه أو يطمئن بغيره فهؤلاء قلوبهم قد قطعت الاكوان وسجدت تحت العرش وأبدانهم في فرشهم كما قال أبو الدرداء اذا نام العبد المؤمن عرج بروحه حتى تسجد تحت العرش فان كان طاهرا أذن لها في السجود وان كان جنبا لم يؤذن لها بالسجود وهذا والله أعلم هو السر الذي لاجله أمر النبي صلى الله عليه وسلم الجنب اذا أراد النوم أن يتوضأ وهو اما واجب على أحد القولين أو مؤكد الاستحباب على القول الآخر فان الوضوء يخفف حدث الجنابة ويجعله طاهرا من بعض الوجوه ولهذا روى الامام أحمد وسعيد بن منصور وغيرهما عن أصحاب رسول الله انهم اذا كان أحدهم جنبا ثم أراد أن يجلس في المسجد توضأ ثم جلس فيه وهذا مذهب الامام أحمد وغيره مع ان المساجد لا تحل لجنب على ان وضوءه رفع حكم الجنابة المطلقة الكاملة التي تمنع الجنب من الجلوس في بيت الله وتمنع الروح من السجود بين يدي الله سبحانه فتامل هذه المسالة وفقهها واعرف بها مقدار فقه الصحابة وعمق علومهم فهل ترى أحدا من المتاخرين وصل الى مبلغ هذا

فصل الجهم

فصالحهم على شيء من الاثمان لم يصح لافضائه الى الربا لان صلحها بيع نصيبها منهم وان صالحتهم على عرض أو عقار أو كان في التركة دراهم فصالحتهم بدنانير أو بالعكس جاز ولا تضر جهالة حقها لان عقد الصلح أوسع من البيع كما تقدم فان كان في التركة ديون لم يصح الصلح لان بيع الدين من غير الذي هو في ذمته لا يصح ويحتمل أن يقول بصحته كما يصح عن المجهول وان لم يصح بيعه فالحيلة في صلحها عن الدين أيضا أن يجعل لها حصتها من الدين بقرضها الورثة ذلك وتوكلهم باقتضائه ثم تصالحهم من الاعيان على ما اتفقوا عليه لانهم اذا أقرضوها حصتها من الدين ثم وكلتهم بقبض حصتها من الدين فاذا قبضوا حصتها من الدين فقد حصل في أيديهم بما لها من جنس ما لهم عليها فيتقاصان ويكون عقد الصلح قد وقع عن العروض والمتاع خاصة فان لم تطب أنفسهم أن يقرضوها قدر حصتها من الدين وأحبت تعجيل الصلح صالحتهم عن حقها من المتاع والعروض دون الديون وكلما قبض من الدين شيء أخذت حقها منه فان تعسر ذلك وشق عليها وأحبت الخلاص حاسبوها في الصلح من الاعيان بأكثر من حقها منها وأقرت أن الدين حق للورثة دونها من ثمن متاع باعه الميت لهم فان أرادوا قسمة الدين في الذمم فالمشهور أنه لا يصح لان الذمم لا تتكافأ وفيه رواية أخرى يجوز قسمته وهي الصحيحة فانه قد يكون مصلحة الورثة والغرماء في ذلك وتفاوت الذمم لا يمنع القسمة فان التفاوت في المحل والمقسوم واحد متماثل وان اختلفت محاله واذا كان الغرماء كلهم موسرين أو معسرين أو بعضهم موسرا وبعضهم معسرا فأخذ كل من الورثة موسرا ومعسرا كان هذا عدلا غير ممتنع وقد تراضوا به فلا وجه لبطلانه المثال التاسع والاربعون اذا كان لرجل على رجل دين فقال تصدق به عني ففعل لم يبرأ وكانت الصدقة عن المخرج ودينه باق قاله أصحابنا لانه لم يتعين ولانه لا يكون مبرئا لنفسه بفعله قالوا وطريق الصحة أن يقول تصدق عني بكذا بقدر دينه ويكون ذلك اقراضا منه فاذا فعل ثبت له في ذمته ذلك القدر وعليه له مثله فيتقاصان وكذلك لو قال له ضارب بالمال الذي عليك والربح بيننا لم يصح والحيلة في صحته أن يقول أذنت لك في دفعه الى ابنك أو وجتك وديعة ثم وكلتك في أخذه والمضاربة به والظاهر انه لا يحتاج الى شيء من ذلك ويكفي قبضه من نفسه لرب المال واذا تصدق عنه بالذي قال كان عن الآمر هذا هو الصحيح وهو تخريج لبعض أصحابنا ولا حاجة به الى هذه الحيلة فاذا عينه بالنية تعين وكان قابضا من نفسه لموكله وأي محذور في ذلك المثال الخمسون يجوز استئجار الاجير بطعامه وكسوته عندنا وكذلك الدابة بعلفها وكذلك المرضعة وهو مذهب مالك وقال الشافعي لا يجوز فيهما وجوزه أبو حنيفة في الظئر خاصة

الفقه الذي خص الله به خيار عباده وهم أصحاب نبيه وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم فاذا استيقظ هذا القلب من منامه صعد الى الله بهمه وحبه وأشواقه مشتاقا اليه طالبا له محتاجا اليه عاكفا عليه فحاله كحال المحب الذي غاب عن محبوبه الذي لا غنى له عنه ولا بد له منه وضرورته اليه أعظم من ضرورته الى النفس والطعام والشراب فاذا نام غاب عنه فاذا استيقظ عاد الى الحنين اليه والى الشوق الشديد والحب المقلق فحبيبه آخر خطراته عند منامه وأولها عند استيقاظه كما قال بعض المحبين لمحبوبه

آخر شيء أنت في كل هجعة
وأول شيء أنت عند هبوبي

فقد أفصح هذا المحب عن حقيقة المحبة وشروطها فاذا كان هذا في محبة مخلوق لمخلوق فما الظن في محبة المحبوب الاعلى فاف لقلب لا يصلح لهذا ولا يصدق به لقد صرف عنه خير الدنيا والآخرة

(فصل) فاذا استيقظ أحدهم وقد بدر الى قلبه هذا الشان فاول ما يجري على لسانه ذكر محبوبه والتوجه اليه واستعطافه والتملق بين يديه والاستعانة به أن لا يخلي بينه وبين نفسه وان لا يكله اليها فيكله الى ضيعة وعجز وذنب وخطيئة بل يكلؤه كلاءة الوليد الذي لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا فاول ما يبدأ به الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا واليه النشور متدبرا لمعناها من ذكر نعمة الله عليه بأن أحياه بعد نومه الذي هو أخو الموت وأعاده الى حاله سويا سليما محفوظا مما لا يعلمه ولا يخطر بباله من المؤذيات والمهلكات التي هو غرض وهدف لسهامها كلها تقصده بالهلاك أو الاذى التي من بعضها شياطين الانس والجن فانها تلتقي بروحه اذا نام فتقصد اهلاكه وأذاه فلولا ان الله سبحانه يدفع عنه لما سلم هذا ويلقى الروح في تلك الغيبة من أنواع الاذى والمخاوف والمكاره والتفزيعات ويحاربه الاعداء والتشويش والتخبيط بسبب ملابستها تلك الارواح فمن الناس من يشعر بذلك لرقة روحه ولطافتها ويجد آثار ذلك فيها اذا استيقظ من الوحشة والخوف والفزع والوجع الروحي الذي ربما غلب حتى سرى الى البدن ومن الناس من تكون روحه أغلظ وأكثف وأقسى من أن تشعر بذلك فهي مثخنة بالجراح مزمنة بالامراض ولكن لنومها لا تحس بذلك هذا وكم من مريد لاهلاك جسمه من الهوام وغيرها وقد حفظه منه فهي في أجحارها محبوسة عنه لو خليت وطبعها لاهلكته فمن ذا الذي كلأه وحرسه وقد غاب

فاذاعقد الاجارة كذلك ثم خاف أن يرفعه الى حاكم يرى بطلانها فيلزمه بأجرة مثله فالحيلة فى تصحيح ذلك أن يستأجره بنقد معلوم يكون مقدار الطعام والكسوة ثم يشهد عليه انه وكله فى انفاق ذلك على نفسه وكسوته وكذلك فى الدابة المثال الحادى والخمسون يجوز للمستأجر أن يؤجر مااستأجره لمؤجره كما يجوز لغيره وأبو حنيفة يبطل هذه الاجارة فالحيلة فى لزومها أن يؤجر ذلك لاجنبى غير المؤجر ثم يؤجر اياه الاجنبى المثال الثانى والخمسون اذا كفل اثنان واحدا فسلمه أحدهما برئ الآخر كما لو ضمنا دينا فقضاه أحدهما فان خاف أن يرفعه الى حاكم لا يرى ذلك ويلزم الآخر بتسليمه فالحيلة فى خلاصه أن يكفلا هذا المكفول به على انه اذا دفعه أحدهما فهما جميعا بريئان أو يشهدا عليهما ان كل واحد منهما وكيل صاحبه فى دفع المكفول به الى الطالب والتبرى اليه منه فيبرآن على قول الجميع المثال الثالث والخمسون يصح ضمان المجهول وضمان مالم يجب عندنا كما يصح ضمان الدرك فاذا قال ماأعطيت لفلان فأنا ضامن له صح ولزمه وقال الشافعى لا يصح فالحيلة فى صحته لئلا يبطل ذلك حاكم يرى بطلانه أن يقول ماأعطيت لفلان من درهم الى ألف فأنا ضامن له فان ضمنه اثنان وأطلقا جاز واستويا فى الغرم فان ضمناه على ان على أحدهما الثلث وعلى الآخر الثلثين جاز ذلك لان المال انما يجب على كل منهما بالتزامه فاذا التزماه على هذا الوجه صح فان أراد أحد الضامنين أن يضمن الآخر ما لزمه من هذا الضمان فيصير ضامنا جاز ذلك أيضا لان المال قد ثبت فى ذمة كل واحد منهما فاذا ضمنه أحدهما جاز كما يجوز فى الاصل المثال الرابع والخمسون اذا اشترك رجلان شركة عنان فسافر أحدهما بالمال باذن شريكه فخاف أن يموت المقيم فيشترى بالمال بعد موته متاعا فيضمن لانه قد انتقل الى الورثة وبطلت الشركة فالحيلة فى تخلصه من ذلك أن يشهد على شريكه المقيم أن حصته فى المال الذى بينه وبينه لولده الصغار وقد أوصى الى شريكه بالتصرف فيه وأمره أن يشترى لهم ماأحب فى حياته وبعد وفاته فان كان ولده كبارا أشهد على نفسه أن هذا المال لهم ثم يأمر ولده الكبار هذا الشريك أن يعمل لهم فى مالهم هذا بما يرى ويشترى لهم ماأحب المثال الخامس والخمسون اذا كان لرجلين على امرأة ألف درهم مثلا فتزوجها أحدهما على نصيبه فى المال الذى عليها صح النكاح وبرئت ذمة المرأة من ذلك المقدار ولم يلزم الزوج أن يضمن لصاحبه شيأ منه لانه لم يقبض شيأ من نصيبه ولم يحصل فى ضمانه فجرى مجرى ابرائه لها منه وبعض الفقهاء يضمنه نصيب شريكه من المهر ويجعله كالمقبوض لانه عاوض عليه بالبضع فهو كما لو اشترى منها به سلعة

يحسه وقلبه وسمعه وبصره فلولا جاءه البلاء من أى مكان بالم يشعر به ولهذا ذكر سبحانه عباده هذه النعمة وأعدها عليهم من جملة نعمه فقال من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن بل هم عن ذكر ربهم معرضون فاذا تصور العبد ذلك فقال الحمد لله كان حمده أبلغ وأكمل من حمد الغافل عن ذلك ثم تفكر فى ان الذى أعاده بعد هذه الاماتة حيا سليما قادر على أن يعيده بعد موتته الكبرى حيا كما كان ولهذا يقول بعدها واليه النشور ثم يقول لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة الا بالله ثم يدعو ويتضرع ثم يقوم الى الوضوء بقلب حاضر مستصحب لما فيه ثم يصلى ما كتب الله له صلاة محب ناصح لمحبوبه متذلل منكسر بين يديه لا صلاة مدل بها عليه يرى من أعظم نعم محبوبه عليه ان أقامه وأنام غيره واستزاره وطرد غيره وأهله وحرم غيره فهو يزداد بذلك محبة الى محبته يرى ان قرة عينه وحياة قلبه وجنة روحه ونعيمه ولذته وسروره فى تلك الصلاة فهو يتمنى طول ليله ويهتم بطلوع الفجر كما يتمنى المحب الفائز بوصل محبوبه ذلك فهو كما قيل

يود ان ظلام الليل دام له * وزيد فيه سواد القلب والبصر

فهو يتملق فيها مولاه تملق المحب لمحبوبه العزيز الرحيم ويناجيه بكلامه معطيا لكل آية حظها من العبودية فتجذب قلبه وروحه اليه آيات المحبة والوداد والآيات التى فيها الاسماء والصفات والآيات التى تعرف بها الى عباده بآلائه وانعامه عليهم واحسانه اليهم وتطيب له السير آيات الرجاء والرحمة وسعة البر والمغفرة فتكون له بمنزلة الحادى الذى يطيب له السير ويهونه عليه وتقلقه آيات الخوف والعدل والانتقام واحلال غضبه بالمعرضين عنه العادلين به غيره المائلين الى سواه فيجمعه عليه ويمنعه أن يشرد قلبه عنه فتأمل هذه الثلاثة وتفقه فيها والله المستعان فانه ولا حول ولا قوة الا بالله وبالجملة فيشاهد المتكلم سبحانه وقد تجلى فى كلامه ويعطى كل آية حظها من عبودية قلبه الخاصة الزائدة على مجرد تلاوتها والتصديق بانها كلام الله بل الزائدة على نفس فهمها ومعرفة المراد منها ثم شأن آخر لو فطن له العبد لعلم انه كان قبل يلعب كما قيل

وكنت أرى ان قد تناهى بى الهوى * الى غاية مابعدها لى مذهب
فلما تلاقينا وعاينت حسنها * تيقنت انى انما كنت ألعب

فانه يكون بينهما وههنا تعذر مشاركته فى البضع فيشاركه فى بدله وهو المهر فكأنها وفته نصيبه من الدين وطريق الحيلة فى تخليصه من ذلك أن يهب لها نصيبه مما عليها ثم يتزوجها بعد ذلك على خمسمائة فى ذمته ثم تهب له المرأة مالها عليه من الصداق فان أحد الشريكين اذا وهب نصيبه من المال المشترك لا يضمن لشريكه شيأ لانه متبرع فان خاف أن يهبها أو يبرئها فتعتد به ولا تتزوج به فالحيلة له أن يشهد على اقرارها انه يستحق عليها ذلك المبلغ مادامت أجنبية منه وانه لا يستحق على زوجته فلانة شيأ من ذلك المال وأكثر مافيه انه يسميها زوجة قبل العقد فاذا تم العقد برئت من الدين فان خاف ان لا تبرئه من الصداق وتطالبه به ويسقط حقه من المال الذى عليها فالحيلة له ان يشهد عليها فى العقد انه بريء اليها من الصداق وانها لا تستحق المطالبة به المثال السادس والخمسون اذا أراد ان يشترى جارية وعرض له آخر يريد شراءها فاستحلف أحدهما صاحبه انه ان اشتراها فهى بينه وبينه نصفين فأراد أن يشتريها وتكون له يتأول فى يمينه أنه ان اشتراها لنفسه فهى بينه وبينه فاذا وكل من يشتريها له كانت له وحده فان استحلفه انه ان ملكها فهو شريكه فيها بطلت هذه الحيلة فله أن يأمر من يثق به ان يشتريها لنفسه ويؤدى هو عنه الثمن ثم يزوجه اياها فاذا أراد بيعها استبرأها ثم أمر ذلك الرجل ان يبيعها ويرجع ثمنها اليه المثال السابع والخمسون اذا كان بينهما عرض من العروض فاشتراه منهما أجنبى بمائة درهم وقبضه ثم ان المشترى أراد أن يصالح أحدهما من جميع الثمن على بعضه على أن يضمن له الدرك من شريكه حتى يخلصه منه أو يرد عليه جميع الثمن الذى وقع العقد عليه فقال القاضى لا يجوز ذلك لان الضمان على شريكه انما يجب بقبضه المال وذلك لم يوجد فلا يكون مضمونا عليه فالحيلة للمشترى أن يكون بريئا وان أدركه درك من شريكه رجع به على الذى صالحه ان يحط الشريك المصالح عن المشترى نصيبه كله من الثمن ثم يدفع المشترى اليه نصيب صاحبه الذى قضى له على أنه ضامن لما أدركه من شريكه حتى يخلصه منه أو يرد عليه ما قبضه منه ويبرئه هو من نصيبه لانه اذا أبرأه من نصيبه لم يبق من الدين الا نصيب صاحبه فاذا قبضه كان مضمونا عليه لانه قبض دين الغير بغير أمره المثال الثامن والخمسون اذا كان عبد بين شريكين موسرين فأراد كل منهما عتق نصيبه وان لا يغرم لشريكه شيأ فالحيلة ان يوكلا رجلا فيعتقه عنهما ويكون ولاؤه بينهما المثال التاسع والخمسون اذا سأله عبده ان يزوجه أمته فحلف ان لا يفعل ثم بدا له فى تزويجه فالحيلة ان يبيع العبد والامة لمن يثق به ثم يزوجه المشترى فاذا تم العقد أقاله

فوا أسفاه واحسرتاه كيف ينقضى الزمان وينفد العمر والقلب محجوب ماشم لهذا رائحة وخرج من الدنيا كما دخل اليها وماذاق أطيب مافيها بل عاش فيها عيش البهائم وانتقل منها انتقال المفاليس فكانت حياته عجزا وموته كمدا ومعاده حسرة وأسفا اللهم فلك الحمد واليك المشتكى وأنت المستعان وبك المستغاث وعليك التكلان ولا حول ولا قوة الا بك

(فصل) فاذا صلى ما كتب الله جلس مطرقا بين يدى ربه هيبة له واجلالا واستغفره استغفار من قد تيقن انه هالك ان لم يغفر له ويرحمه فاذا قضى من الاستغفار وطرا وكان عليه بعد ليل اضطجع على شقه الايمن مجما نفسه مريحا لها مقويا لها على أداء وظيفة الفرض فيستقبله نشيطا بجده وهمته كانه لم يزل نائما طول ليلته لم يعمل شيأ فهو يريد أن يستدرك مافاته فى صلاة الفجر فيصلى السنة ويبتهل الى الله بينها وبين الفريضة فان لذلك الوقت شأنا يعرفه من عرفه ويكثر فيه من قول ياحى ياقيوم لا اله الا أنت فلهذا الذكر فى هذا الموطن تأثير عجيب ثم ينهض الى صلاة الصبح قاصدا الصف الاول عن يمين الامام أو خلف قفاه فان فاته ذلك قصد القرب منه مهما أمكن فان للقرب من الامام تأثيرا فى سر الصلاة ولهذا القرب تأثير فى صلاة الفجر خاصة يعرفه من عرف قوله تعالى وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهودا قيل يشهده الله عز وجل وملائكته وقيل يشهده ملائكة الليل وملائكة النهار فيتفق نزول هؤلاء البدل عند صعود أولئك فيجتمعون فى صلاة الفجر وذلك لانها هى أول ديوان النهار وآخر ديوان الليل فيشهدها ملائكة الليل والنهار واحتج لهذا القول بما فى الصحيح من حديث الزهرى عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال قال رسول الله فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة ويجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار فى صلاة الفجر لقول أبى هريرة واقرؤا ان شئتم وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهودا رواه البخارى فى الصحيح قال أصحاب القول الاول وهذا لا ينافى قولنا وهو ان يكون الله سبحانه وملائكة الليل والنهار يشهدون قرآن الفجر وليس المراد الشهادة العامة فان الله على كل شئ شهيد بل المراد شهادة خاصة وهى شهادة حضور ودنو متصل بدنو الرب ونزوله الى سماء الدنيا فى الشطر الاخير من الليل وقد روى الليث بن سعد حدثنى زيادة بن محمد بن كعب القرظى عن فضالة بن عبيد الانصارى عن أبى الدرداء عن رسول الله

في البيع ولا بأس بمثل هذه الحيلة فإنها لا تتضمن ابطال حق ولا تحليل محرم وذلك غير ممتنع على أصلنا لان الصفة وهي عقد النكاح قد وجدت في حال زوال ملكه فلا يتعلق بها حنث ولا يحنث أيضا باستدامة التزويج بعد ملكهما لان التزويج عبارة عن العقد وقد انقضى وانما بقي حكمه ولهذا لو حلف لا يتزوج فاستدام التزويج لم يحنث وهذا بخلاف ما اذا حلف على عبده انه لا يدخل الدار فباعه ودخلها ثم ملكه فان دخلها حنث لانه ابتدأ الدخول واليمين باقية ولو دخلها في حال زوال ملكه ثم ملكه وهو داخل فيها حنث لان الدخول عبارة عن الكون وذلك موجود بعد الملك الثاني فيحنث به كما لو كان موجودا في الملك الاول وقد قال أحمد في رواية مهنا في رجل قال لامرأته أنت طالق ان رهنت كذا وكذا فاذا هي رهنته قبل يمينه فقال أخاف أن يكون حنث قال القاضي وهذا محمول على انه قال ان كنت رهنته وهذا تأويل منه لكلام أحمد وظاهر كلامه انه جعل استدامة الرهن بمنزلة ابتدائه كالدخول المثال الستون اذا كان له عليه مال قرض المستحق وأراد ان يبرئه منه وهو يخرج من ثلثه فخاف ان يكتم الورثة ماله ويقولوا لم يدع الا الدين الذي على هذا فالحيلة في خلاصه ان يخرج المريض من ماله بقدر الدين الذي على غريمه فيملكه اياه ثم يستوفيه منه ويشهد على ذلك وكذلك اذا أراد المريض ان يعتق عبدا وله مال يخرج من ثلثه ويملكه ماله فخاف ان يقول الورثة لم يدع الميت شيأ غير هذا العبد وماله فالحيلة ان يبيع المريض العبد من رجل يثق به ويقبض الثمن فيهبه للمشتري ثم يعتقه المشتري فان كان على الميت دين وله وفاء وفضل يخرج العبد من ثلثه فخاف المريض أن يغيب الورثة ماله ثم يقولوا أعتق العبد ولا مال له غيره فلا يجوز له ما صنع من ذلك فالحيلة فيه أن يبيع العبد من نفسه ويقبض الثمن منه بحضرة من الشهود ثم يهب المريض للعبد ما قبض منه في السر فيأمن حينئذ من اعتراض الورثة فان لم يكن للعبد مال يشتري به نفسه وهبه السيد مالا في السر وأقبضه اياه فيشتري به العبد نفسه من سيده فان لم يرد السيد عتقه وأراد بيعه من بعض ورثته بمال للوارث على المريض ليست له به بينة فالحيلة في ذلك أن يقبض وارثه ماله عليه في السر ثم يبيعه العبد ويشهد له على ذلك ويقبض الثمن بحضرة من الشهود فيتخلص من اعتراض الورثة المثال الحادي والستون اذا أوصى الى رجل فخاف أن لا يقبل فقال ان لم يقبل فلان وصيتي فهي لفلان صح ذلك بسنة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الصحيحة الصريحة التي لا تجوز مخالفتها حيث علق الامارة بالشرط فتعليق الوصية أولى لانه يستفيد بالامارة أكثر مما يستفيد بالوصية وبعض الفقهاء يبطل ذلك فالحيلة في ذلك ان يشهد انهما جميعا وصياه فان

صلى الله عليه وسلم قال ان الله عز وجل ينزل في ثلاث ساعات يبقين من الليل فيفتح الذكر في الساعة الاولى الذي لم يره غيره فيمحو الله ما يشاء ويثبت ثم ينزل في الساعة الثانية الى جنة عدن وهي داره التي لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر وهي مسكنه لا يسكنها معه من بني آدم غير ثلاث وهم النبيون والصديقون والشهداء ثم يقول طوبى لمن دخلك ثم ينزل في الساعة الثالثة الى سماء الدنيا بروحه وملائكته فتنتفض فيقول قومي بعزتي ثم يطلع الى عباده فيقول (٢٣٢) هل من مستغفر فاغفر له ألا من سائل يسألني فأعطيه ألا من داع يدعوني فأجيبه حتى يكون صلاة الفجر ولذلك يقول الله عز وجل وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهودا يشهده الله عز وجل وملائكته ملائكة الليل والنهار ففي هذا الحديث أن النزول يدوم الى صلاة الفجر وعلى هذا فيكون شهود الله سبحانه لقرآن الفجر مع شهود ملائكة الليل والنهار له وهذه خاصة لصلاة الصبح ليست لغيرها من الصلاة وهذا لا ينافي دوام النزول في سائر الاحاديث الى طلوع الفجر ولا سيما وهو معلق في بعضها على انفجار الصبح وهو اتساع ضوئه وفي لفظ حتى يضيء الفجر وفي لفظ حتى يسطع الفجر وذلك هو وقت قراءة الفجر وهذا دليل على استحباب تقديمها مع مواظبة النبي وخلفائه الراشدين على تقديمها في أول وقتها فكان النبي يقرأ فيها بالستين الى المائة ويطيل ركوعها وسجودها وينصرف منها والنساء لا يعرفن من الغلس وهذا لا يكون الا مع شدة التقديم في أول الوقت لتقع القراءة في وقت النزول فيحصل الشهود المخصوص مع انه قد جاء في بعض الاحاديث مصرحا به دوام ذلك الى الانصراف من صلاة الصبح رواه الدارقطني في كتاب نزول الرب كل ليلة الى سماء الدنيا من حديث محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة أن رسول الله قال ينزل الله عز وجل الى سماء الدنيا نصف الليل الآخر أو الثلث الآخر يقول من ذا الذي يدعوني فاستجيب له لم

من ذا الذي يسألني فأعطيه من ذا الذي يستغفرني فأغفر له حتى يطلع الفجر أو ينصرف القارئ من صلاة الصبح رواه عن محمد جماعة منهم سليمان بن بلال واسمعيل بن جعفر والدراوردي وحفص بن غياث ويزيد بن هرون وعبد الوهاب بن عطاء ومحمد بن جعفر والنضر بن شميل كلهم قال أو ينصرف القارئ من صلاة الفجر فان كانت هذه اللفظة محفوظة عن النبي صلى الله عليه وسلم فهي صريحة في المعنى كاشفة

المراد وان لم تكن محفوظة وكانت من شك الراوي هل قال هذا أو هذا فقد قدمنا أنه لا منافاة بين اللفظين وان حديث الليث بن سعد عن محمد ابن زياد يدل على دوام النزول الى وقت صلاة الفجر وان تعليقه بالطلوع لكونه أول الوقت الذي يكون فيه الصعود كما رواه يونس بن أبي اسحق عن أبيه عن الاغر أبي مسلم قال شهدت على أبي هريرة وأبي سعيد الخدري أنهما شهدا على النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ان الله عز وجل يمهل حتى اذا كان ثلث الليل هبط الى هذه السماء ثم أمر بأبواب السماء ففتحت ثم قال هل من سائل فأعطيه هل من داع

لم يقبل أحدهما وقبل الآخر فالذي قبل منهما وصي وحده فان قبلا جميعا فلكل واحد منهما أن ينفرد بالتصرف عن صاحبه لانه رضي بتصرف كل واحد منهما قاله القاضي فان خاف أن يمنع ذلك من لا يرى انفراد أحدهما بالتصرف ويقول قد شرك بينهما وجعلهما بمنزلة وصي واحد فالحيلة في الجواز أن يقول أوصيت اليهما على الاجتماع والانفراد المثال الثاني والستون اذا تصرف الوصي وباع واشترى وأنفق على اليتيم فللحاكم أن يحاسبه ويسأله عن وجوه ذلك ولا يمنعه من محاسبته كونه أمينا فان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم حاسب عماله كما ثبت في صحيح البخاري أنه بعث ابن اللتبية عاملا على الصدقة فلما جاء حاسبه فان أراد الوصي ان يتخلص من ذلك فالحيلة له ان يجعل غيره هو الذي يتولى بيع التركة وقبض الدين والانفاق ولا يشهد على نفسه بوصول شيء من ذلك اليه فاذا سأله الحاكم قال لم يصل الى شيء من التركة ولا تصرفت فيها فان كانت التركة قد بيعت بامره وقبض ثمنها بامره وصرف بامره فحلفه الحاكم انه لم يقبض ولم يوكل من قبض وتصرف وأنفق فان كان محسنا قد وضع التركة موضعها ولم يخن وسعه ان يتأول في يمينه وان كان ظالما لم ينفعه تأويله المثال الثالث والستون يصح وقف الانسان على نفسه على أصح الروايتين ويجوز اشتراط النظر لنفسه ويجوز أن يستثنى الانفاق منه على نفسه ما عاش أو على أهله وغير أهله ما تنازعا في ذلك فاذا خاف من حاكم يبطل الوقف على هذا الوجه فالحيلة له أن يملكه لولده أو زوجته أو أجنبي يثق به عليه ويشترط له النظر فيه وان يقدم على غيره من الموقوف عليهم بغلته أو بالانفاق عليه فيصح حينئذ ولا يبقى للاعتراض عليه سبيل المثال الرابع والستون اذا اشترى جارية وقبضها فوجد بها عيبا ولم يكن نقد ثمنها فأراد ردها فصالحه البائع على ان يأخذ البائع الجارية باقل من الثمن الذي اشتراها به فقال القاضي لا يجوز ذلك لان هذا الصلح في معنى البيع وبيع المبيع من بائعه باقل من ثمنه لا يجوز لانه ذريعة الى الربا وهو كمسألة العينة فان كان قد حدث بالجارية عيب عند المشتري جاز ذلك لان مقدار الحط يكون بازاء العيب الذي حدث عند المشتري فلا يؤدي الى مسألة العينة والحيلة في جواز ذلك في الصورة الاولى على وجه لا يشبه العينة ان يخرج الجارية من ملكه فيبيعها الرجل بالثمن الذي يأخذها به البائع فيصالح الذي في يده الجارية البائع على أن يقبلها بدون الثمن الذي وقع عليه العقد ويجعل هذا الثمن الذي يأخذ به الجارية قضاء عن مشتري الجارية لان المشتري الثاني متى صالح البائع على ان يقبل الجارية بدون الثمن الذي اشتريت به فهو عقد جرى بينهما مبتدأ من غير بناء أحد العقدين على الآخر فاذا اشتراها

فأجيبه هل من مستغفر فأغفر له هل من مستغيث أغيثه هل من مضطر أكشف عنه فلا يزال ذلك مكانه حتى يطلع الفجر في كل ليلة من الدنيا ثم يصعد الى السماء قال الدارقطني فزاد فيه يونس بن اسحق زيادة حسنة والمقصود ذكر القرب من الامام في صلاة الفجر وتقديمها في أول وقتها والله أعلم

فصل فاذا فرغ من صلاة الصبح أقبل بكليته على ذكر الله والتوجه اليه بالاذكار التي شرعت أول النهار فجعلها وردا له لا يخل بها أبدا ثم يزيد عليها ما شاء من الاذكار الفاضلة أو قراءة القرآن حتى تطلع الشمس فاذا طلعت فان شاء ركع ركعتي الضحى وزاد ما شاء وان شاء قام من غير ركوع ثم يذهب متضرعا الى ربه سائلا له أن يكون ضامنا عليه متصرفا في مرضاته بقية يومه فلا ينقلب الا في شيء يظهر له فيه مرضاة ربه وان كان من الافعال العادية الطبيعية قلبه عبادة بالنية وقصد الاستعانة به على مرضاة الرب وبالجملة فيقف عند أول الداعي الى فعله فيفتش ويستخرج منه منفذا ومسلكا يسلك به الى ربه فينقلب في حقه عبادة وقربة وشتان كم بين هذا وبين من اذا عرض له أمر من أوامر الرب لابد له من فعله وفتش فيه على مراد لنفسه وغرض لطبعه ففعل لاجل ذلك وجعل الامر طريقا له ومنفذا لمقصده فسبحان من فاوت بين النفوس الى هذا الحد والغاية فهذا عباداته عادات والاول عاداته عبادات فاذا جاء فرض الظهر بادر اليه مكملا له ناصحا فيه لمعبوده كنصح المحب الصادق المحبة لمحبوبه الذي قد طلب منه أن يعمل له شيأ ما فهو لا يبقي مجهودا بل يبذل مقدوره كله في تحسينه وتزيينه واصلاحه واكماله ليقع موقعا من محبوبه فينال به رضاه عنه وقربه منه أفلا يستحي العبد من ربه ومولاه ومعبوده أن لا يكون في

البائع من هذا الثانى حصل ثمنها فى ذمته له وله هو على المشترى الأول ثمنها فاذا طالبه البائع بالثمن أحاله على المشترى الاول فيتقاصان المثال الخامس والستون الضمان لا تبرأ ذمة المضمون عنه بمجرده حيا كان المضمون عنه أو ميتا وفيه رواية أخرى انه يبرئ ذمة الميت دون الحى وهى مذهب أبى حنيفة وفيه قول ثالث انه يبرئ ذمة الحى والميت كالحوالة وهو مذهب داود فاذا أراد الضامن ان يكون ضمانه مبرئا لذمة المضمون عنه فالحيلة فى ذلك أن يقول لا أضمن ذمته الا بشرط أن تبرئه منه فتى أبرأته منه فانا ضامن له ويصح تعليق الضمان بالشرط فى أقوى الوجهين فاذا أبرأه صحت البراءة ولزم الدين الضامن وحده فان خاف رب الدين أن يرفعه الى حاكم لا يرى صحة الضمان المعلق فيبطل دينه من ذمة الاصل بالابراء ولا يثبت له فى ذمة الضامن فالحيلة له أن يكتب ضمانه ضمانا مطلقا ويشهد عليه به من غير شرط بعد اقراره ببراءة الاصل فيحصل مقصودهما المثال السادس والستون الحوالة تنقل الحق من ذمة المحيل الى ذمة المحال عليه فلا يملك مطالبة المحيل بعد ذلك الا فى صورة وهى ان يشترط ملاءة المحال عليه فيتبين مفلسا وعند أبى حنيفة اذا توى المال على المحال عليه بان يجحده حقه ويحلف عليه أو مات مفلسا رجع على المحيل وعند مالك ان ظن ملاءته فبان مفلسا رجع وان طرأ عليه الفلس لم يكن له الرجوع فاذا أراد صاحب الحق التوثق لنفسه وانه ان توى ماله على المحال عليه رجع على المحيل فالحيلة له فى ذلك أن يحتال حوالة قبض لا حوالة استيفاء فيقول للمحيل أحلنى على غريمك أن أقبض لك ماعليه من الدين فيجيبه الى ذلك فما قبضه منه كان على ملك المحيل فيأذن له فى استيفائه فان خاف المحيل أن يهلك هذا المال فى يد القابض ولا يغرمه لانه وكيل فى قبضه فالحيلة أن يقول له ماقبضته فهو قرض فى ذمتك فيثبت فى ذمته نظير ماله عليه فيتقاصان فالحوالة ثلاثة أنواع حوالة قبض محض فهى وكالة وحوالة استيفاء وهى التى تنقل الحق وحوالة اقراض فالاولى لا يثبت المقبوض فى ذمة المحال والثانية تجعل حقه فى ذمة المحال عليه والثالثة يثبت المأخوذ فى ذمته لحكم الاقتراض المثال السابع والستون اذا ضمن الدين ضامن فلمستحقه مطالبة أيهما شاء وعن مالك روايتان احداهما كذلك والثانية انه ليس له مطالبة الضامن الا اذا تعذر مطالبة الاصل فان أراد الضامن أن يضمن على هذا الوجه فالحيلة أن يقول ان تعذر مالك قبله فانا ضامن له ويصح تعليق الضمان على الشرط على الاصح فان أراد ان يصح ذلك على كل قول ويامن رفعه الى من يرى بطلان ذلك فالحيلة فيه ان يقول ضمنت ما يتوى لك على فلان أو يعجز عن أدائه فيصح ذلك ولا يتمكن من مطالبته الا اذا توى المال على الاصل أو

...وهو يرى المحبين فى أشغال محبوبهم من الخلق كيف يجتهدون فى ايقاعها على أحسن وجه وأكمله بل هو يجد من نفسه ذلك مع من يحبه من الخلق فلا أقل من أن يكون مع ربه بهذه المنزلة ومن أنصف نفسه وعرف أعماله استحى من الله أن يواجهه بعمله أو يرضاه له وهو يعلم من نفسه أنه لو عمل لمحبوب له من الناس لبذل فيه نصحه ولم يدع من حسنه شيأ الا فعله وبالجملة فهذا حال هذا العبد معربه فى جميع أعماله فهو يعلم أنه لا يوفى هذا المقام حقه فهو أبدا يستغفر الله عقيب كل عمل وكان النبى صلى الله عليه وسلم اذا سلم من الصلاة استغفر الله ثلاثا وقال تعالى وبالاسحار هم يستغفرون قال الحسن مدوا الصلاة الى السحر ثم جلسوا يستغفرون ربهم وقال تعالى ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله ان الله غفور رحيم فامر سبحانه بالاستغفار بعد الوقوف بعرفة والمزدلفة وشرع للمتوضئ أن يقول بعد وضوئه اللهم اجعلنى من التوابين واجعلنى من المتطهرين فهذه توبة بعد الوضوء وتوبة بعد الحج وتوبة بعد الصلاة وتوبة بعد قيام الليل فصاحب هذا المقام مضطر الى التوبة والاستغفار كما تبين فهو لا يزال مستغفرا تائبا وكلما كثرت طاعاته كثرت توبته واستغفاره

(فصل) وجماع الامر فى ذلك انما هو بتكميل عبودية الله فى الظاهر والباطن فتكون حركات نفسه وجسمه كلها فى محبوبات الله وكمال عبودية العبد موافقته لربه فى محبته ما أحبه وبذل الجهد فى فعله وموافقته فى كراهة ما كرهه وبذل الجهد فى تركه وهذا انما يكون للنفس المطمئنة لا للامارة ولا للوامة فهذا كمال من جهة الارادة والعمل وأما من جهة العلم والمعرفة فان تكون بصيرته منفتحة فى معرفة الاسماء والصفات والافعال له شهود خاص فيها مطابق لما جاء به الرسول لا مخالف له فان بحسب مخالفته له فى ذلك يقع الانحراف ويكون مع ذلك قائما بأحكام العبودية الخاصة التى تقتضيها كل صفة بخصوصها وهذا سلوك الاكياس الذين هم خلاصة العالم والسالكون على هذا الدرب أفراد من العالم طريق سهل قريب موصل طريق آمن أكثر السالكين فى غفلة عنه ولكن يستدعى رسوخا فى العلم ومعرفة تامة به واقداما على رد الباطل المخالف له ولو قاله من قاله وليس عند أكثر الناس سوى رسوم تلقوها عن قوم معظمين عندهم ثم لاحسان ظنهم بهم قد وقفوا عند أقوالهم ولم يتجاوزوها

عجز

بجزعنه المثال الثامن والستون اذا بذت عليه امرأته فقال الطلاق يلزمنى منك لا تقولين لى شيأ الا قلت لك مثله فقالت أنت طالق ثلاثا فقال بعضهم يقول لها أنت طالق ثلاثا بفتح التاء ولا تطلق لان الخطاب لا يصلح لها وهذا ضعيف جدا لان قوله أنت طالق اما أن يعنيها به أو يعنى غيرها فان لم يعنها لم يكن قد قال لها مثل ما قالت بل يكون القول لغيرها فلا يبر به وان عناها به طلقت للمواجهة وفتح التاء لا يمنع صحة الخطاب والمعنى أنت أيها الشخص أو الانسان ثم ما يقول هذا القائل اذا قالت له فعل الله بك فقال لها فعل الله بك وفتح الكاف هل يكون بارا فى يمينه بذلك فان قال لا يبر لزمه مثله فى الطلاق وان قال يبر كان قائلا لها ذلك فيكون مطلقا لها وأجود من هذا ان يكون قوله على التراخى ما لم يقيده بالفور بلفظه أو نيته وقالت طائفة يقول لها أنت طالق ثلاثا ان لم أفعل كذا وكذا أو ان فعلت ما لا تقدر هى عليه فيكون قد قال لها مثل ما قالت وزاد عليه وفى هذا ضعف لا يخفى لان هذه الزيادة تنقص الكلام فهى زيادة فى اللفظ ونقصان فى المعنى فانه اذا علق الطلاق بشرط خرج من التنجيز الى التعليق وصار كله كلاما واحدا وهى لم تعلق كلامها وانما نجزته فالمماثلة تقتضى تنجيزا مثله وأجود من هذا كله ان يقال لا يدخل هذا الكلام الذى صدر منها فى يمينه لانه لم يرده قطعا ولا خطر بباله فيمينه لم يتناوله فهو غير محلوف عليه بلا شك واللفظ العام يختص بالنية والعرف والعرف فى مثل هذا لا يدخل فيه قولها له ذلك والايمان يرجع فيها الى العرف والنية والسبب وهذا مطرد ظاهر على أصول مالك وأحمد فى اعتبارهم عرف الحالف ونيته وسبب يمينه والله أعلم المثال التاسع والستون يجوز ان يستأجر الشاة والبقرة ونحوهما مدة معلومة للبنها ويجوز ان يستأجرها لذلك بعلفها وبدراهم مسماة والعلف عليه هذا مذهب مالك وخالفه الباقون وقوله هو الصحيح واختاره شيخنا لان الحاجة تدعو اليه ولانه كاستئجار الظئر للبنها مدة ولان اللبن وان كان عينا فهو كالمنافع فى استخلافه وحدوثه شيأ بعد شئ ولان اجارة الارض لما نبت فيها من الكلا جائزة وهو عين ولان اللبن حصل بعلفه وخدمته فهو كحصول المغل ببذره وخدمته ولا فرق بينهما فان تولد اللبن من العلف كتولد المغل من البذر فهذا من أصح القياس وأيضا فانه يجوز ان يقفها فينتفع الموقوف عليه بلبنها وحق الواقف انما هو فى منفعة الموقوف مع بقاء عينه وأيضا فانه يجوز أن يمنحها غيره مدة معلومة لاجل لبنها وهى باقية على ملك المانح فيجرى منحتها مجرى اعارتها والعارية اباحة المنافع فاذا كان اللبن يجرى مجرى المنفعة فى الوقف والعارية تجرى مجراها فى الاجارة وأيضا فان الله سبحانه قال فان أرضعن لكم فآتوهن أجورهن فسمى ما تأخذه المرضعة فى مقابلة اللبن

فصارت حجابا لهم وأى حجاب فمن فتح الله عليه بصيرة قلبه وإيمانه حتى خرقها وجاوزها الى مقتضى الوحى والفطرة والعقل فقد أوتى خيرا كثيرا ولا يخاف عليه الا من ضعف همته فاذا انضاف الى ذلك الفتح همة عالية فذاك السابق حقا وأحد الناس فى زمانه لا يلحق شأوه ولا يشق غباره فشتان ما بين من يتلقى أحواله وارداته عن الاسماء والصفات وبين من يتلقاها عن الاوضاع الاصطلاحية والرسوم أو عن مجرد ذوقه ووجده اذا استحسن شيأ قال هذا هو الحق فالسير الى الله من طريق الاسماء والصفات شأنه عجب وفتحه عجب صاحبه قد سبقت له السعادة وهو مستلق على فراشه غير تعب ولا مكدود ولا مشتت عن وطنه ولا مشرد عن سكنه وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب وليس العجب من سائر فى ليله ونهاره وهو فى الثرى لم يبرح من مكانه وانما العجب من ساكن لا يرى عليه أثر السفر وقد قطع المراحل والمفاوز فسائر قد ركبته نفسه فهو حاملها سائر بها ملبوك يعاقبها وتعاقبه ويجرها وتهرب منه ويخطو بها خطوة الى أمامه فتجذبه خطوتين الى ورائه فهو معها فى جهد وهى معه كذلك وسائر قد ركب نفسه وملك عنانها فهو يسوقها كيف شاء وأين شاء لا تلتوى عليه ولا تنجذب ولا تهرب منه بل هى معه كالاسير الضعيف فى يد مالكه وآسره وكالدابة الريضة المنقادة فى يد سائسها وراكبها فهى منقادة معه حيث قادها فاذا رام التقدم به جدت به وأسرعت فاذا أرسلها سارت به وجرت فى الحلبة الى الغاية ولا يردها شئ فتسير به وهو ساكن على ظهرها ليس كالذى نزل عنها فهو يجرها بلجامها ويشحطها ولا تنشحط فشتان ما بين المسافرين فتأمل هذا المثل فانه مطابق لحال السائرين المذكورين والله يختص برحمته من يشاء

(فصل) ومن شأن القوم أن تنسلخ نفوسهم من التدبير والاختيار الذى يخالف تدبيره تعالى واختياره بل قد سلموا اليه سبحانه التدبير كله فلا يزاحم تدبيرهم تدبيره ولا اختيارهم اختياره لتيقنهم أنه الملك القاهر القابض على نواصى الخلق المتولى لتدبير أمر العالم كله وتيقنهم مع ذلك أنه الحكيم فى أفعاله الذى لا تخرج أفعاله عن الحكمة والمصلحة والرحمة فلم يدخلوا أنفسهم معه فى تدبيره لملكه وتصريفه أمور عباده بلو كان كذا وكذا ولا بعسى ولعل ولا بليت بل ربهم أجل وأعظم فى قلوبهم من أن يعترضوا عليه أو يتسخطوا تدبيره أو يتمنوا سواه وهم أعلم به وأعرف بأسمائه وصفاته من أن

أجراولم يسمه ثمنا وأيضافيجوزان يستأجر بئرامدة معلومة لمائهاوالماء لم يحصل بعمله فلان يجوز استئجار الشاة للبنها الحاصل بعلفه والقيام عليها أولى وأيضا فانه يجوز ان يستأجر بركة يعشش فيها السمك لاجله فهذا أولى بالجواز لانه معلوم بالعرف وهو حاصل بعلفه والقيام على الحيوان وقياس المنع على تحريم بيع اللبن فى الضرع قياس فاسد فان ذالك بيع مجهول لايعرف قدره ومايحصل منه وهو بيع معدوم فلايجوز والاجارة أوسع من البيع ولهذا تجوز على المنافع المعدومة المستخلفة شيأ بعد شئ فاللبن فى ذلك كالمنفعة سواء وان كان عينافهذا القول هو الصحيح فان خاف ان يرفعه الى حاكم يبطل هذا العقد فالحيلة فى لزومه ان يؤجره الحيوان مدة بدراهم مسماة ثم يأذن له فى علفه بهاو يبيحه اللبن وهذه الحيلة تتأتى فى اجارة البقرة والناقة والجاموس اذ يمكن الحرث عليها وركوبها وأما الشاة فلا يراد منها الاالدر والنسل فلاتتهيأ الاجارة على منفعتها فالطريق فى ذلك أن يستأجرها لرضاع سخلة له مدة معلومة ويوكله فى النفقة عليها باجرتها أو ببعضها ويبيحه اللبن المثال السبعون اذادفع اليه ثوبه وقال بعه بعشرة فمازاد فلك فنص أحمد على صحته تبعا لعبد الله بن عباس ووافقه اسحق ومنعه أكثرهم ووجه الخلاف أن فى هذا العقد شائبة الوكالة والاجارة والمضاربة فمن رجح جانب الوكالة صحح العقد ومن رجح جانب الاجارة أو المضاربة أبطله لان الاجرة والربح الذى جعل له مجهول والصحيح الجواز لان العشرة تجرى مجرى رأس المال فى المضاربة ومازاد فهو كالربح فاذاجعله كله له كان بمنزلة الابضاع اذادفع اليه مالايضارب به وقال ماربحت فهو لك فليس العقد من باب الاجارات بل هو بالمشاركات أشبه فان خاف ان يرفعه الى حاكم يرى بطلانه فالحيلة فى ذلك ان يقول وكلتك فى بيعه بعشرة فان بعته باكثر فلاحق لى فى الزيادة فيصح هذا وتكون الزيادة للوكيل المثال الحادى والسبعون قال الامام أحمد فى رواية مهنى لابأس ان يحصد الزرع ويصرم النخل بسدس مايخرج منه وهو أحب الىّ من المقاطعة يعنى ان يقاطعه على كل يوم بدراهم أو عروض وكذلك نص فى رواية الاثرم وغيره فى رجل دفع دابته الى آخر ليعمل عليها ومارزق الله بينهما نصفين ان ذلك جائز وقال أحمد أيضا لابأس بالثوب يدفع بالثلث والربع لحديث جابر ان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أعطى خيبر على الشطر ونقل عنه أبوداود فيمن يعطى فرسه على النصف من الغنيمة فارجو أن لايكون به بأس وقال فى رواية اسحق بن ابراهيم اذا كان على النصف والربع فهو جائز ونقل عنه أحمد بن سعيد فيمن دفع عبده الى رجل ليكتسب عليه ويكون له ثلث الكسب أو ربعه انه جائز ونقل عنه حرب فيمن دفع ثوبا الى خياط ليفصله قميصا

بهم فى تدبيره أو يظنوا انه الاخلال يقتضى حكمته وعدله بل هو ناظر بعين قلبه الى بارئ الاشياء وفاطرها ناظر الى اتقان صنعه مشاهد لحكمته فيه وان لم يخرج ذلك على مكاييل عقول البشر وعوائدهم ومألوفاتهم قال بعض السلف لوقرض جسمى بالمقاريض أحب الى من أن أقول لشئ قضاه الله ليته لم يقضه وقال آخر أذنبت ذنبا أبكى عليه منذ ثلاثين سنة وكان قد اجتهد فى العبادة قيل له وماهو قال قلت مرة لشئ كان ليته لم يكن وبعض العارفين يجعل عيب المخلوقات وتنقيصها بمنزلة العيب لصانعها وخالقها لانها صنعته وأثر حكمته وهو سبحانه أحسن كل شئ خلقه وأتقن كل شئ وهو أحكم الحاكمين وأحسن الخالقين له فى كل شئ حكمة بالغة وفى كل مصنوع صنع متقن والرجل اذا عاب صنعة رجل آخر وذمها سرى ذلك الى صانعها فمن عاب صنعة الرب سبحانه بلااذنه سرى ذلك الى الصانع لانه كذلك صنعها وعن حكمته أظهرها اذا كانت الصنعة مجبولة لم تصنع نفسها ولاصنع لها فى خلقها فالعارف لا يعيب الا ماعابه الله ولا يذم الا ماذمه واذا سبق الى قلبه ولسانه عيب مالم يعبه الله وذم مالم يذمه الله تاب الى الله منه كما يتوب صاحب الذنب من ذنبه فانه يستحى من الله أن يكون فى داره وهو يعيب آلات تلك الدار ومافيها فهو يرى نفسه بمنزلة رجل دخل الى دار ملك من الملوك ورأى مافيها من الآلات والبناء والترتيب فاقبل يعيب منها بعضها ويذمه ويقول لو كان كذا بدل كذا لكان خيرا ولو كان هذا فى مكان هذا لكان أولى وشاهد الملك يولى ويعزل ويحرم ويعطى فجعل يقول لو ولى هذا مكان فلان كان خيرا ولو عزل هذا المتولى لكان أولى ولو عوفى هذا ولو أغنى هذا فكيف يكون مقت الملك لهذا المعترض واخراجه له من قربه وكذلك لو أضافه صاحب له فقدم اليه طعاما فجعل يعيب صفته ويذمه أكان ذلك يهون على صاحب الطعام قالت عائشة ماعاب رسول الله صلى الله عليه وسلم طعاما قط ان اشتهى شيأ أكله والاتركه والمقصود ان من شان القوم ترك الاهتمام بالتدبير والاختيار بل همهم كله فى اقامة حقه عليهم وأما التدبير العام والخاص فقد سلموه لولى الامر كله ومالكه الفعال لمايريد ولعلك تقول من ذا الذى ينازع الله فى تدبيره فانظر الى نفسك فى عجزها وضعفها وجهلها كيف هى عرضت للمنازعة منازعة جاهل عاجز ضعيف لوقدر لظهر منه العجائب فسبحان من أذله

قيصا يبيعها وله نصف ربحها بحق عمله فهو جائز ونص في رجل دفع غزله الى رجل ينسجه ثوبا بثلث ثمنه أو ربعه انه جائز قال في المغني وعلى قياس قول أحمد يجوز ان يعطي الطحان أقفزة معلومة يطحنها بقفيز دقيق منها وحكى عن ابن عقيل المنع منه واحتج بان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم نهى عن قفيز الطحان قال الشيخ وهذا الحديث لا نعرفه ولا ثبت عندنا صحته وقياس قول أحمد جوازه لما ذكرنا عنه من المسائل وكذلك لو دفع شبكته الى صياد ليصيد بها والسمك بينهما نصفين قال في المغني فقياس قول أحمد صحة ذلك والسمك بينهما شركة وقال ابن عقيل السمك للصائد ولصاحب الشبكة أجرة مثلها ولو كان له على رجل مال فقال لرجل اقبضه منه ولك ربعه أو ثلثه أو ما قبضته منه فلك منه الربع أو الثلث فهو جائز وكذلك لو غصبت منه عين فقال لرجل خلصها الى ولك نصفها جاز أيضا ولو غرق متاعه في البحر فقال لرجل ما خلصته منه فلك نصفه أو ربعه جاز ولو أبق عبده فقال لرجل أو قال من رده على فله فيه نصفه أو ربعه أو شردت دابته فقال ذلك صح ذلك كله قلت وكذلك يجوز أن يقول له انقض لي هذا الزيتون بالسدس أو الربع أو اعصره بالثلث أو الربع أو اكسر هذا الحطب بالربع أو اخبز هذا العجين بالربع وما أشبه ذلك فكل هذا جائز على نصوصه وأصوله وهو أحب من المقاطعة في بعض الصور ولم يجوز الشافعي وأبو حنيفة شيأ من ذلك وأما مالك فقال أصحابه عنه اذا قال احصد زرعي ولك نصفه فذلك جائز وان قال احصد اليوم فما حصدت فلك نصفه لم يجز عند ابن القاسم وفي العينية انه يجوز فان قال القط زيتوني فما لقطت فلك نصفه فهو جائز عند ابن القاسم وروى سحنون انه لا يجوز ولو قال انقض زيتوني فما نفضت فلك نصفه لم يجز عند ابن القاسم وأجازه عبد الملك بن حبيب فان قال اقبض لي المائة دينار التي على فلان ولك عشرها جاز عند ابن القاسم وابن وهب وعند أشهب لا يجوز فلو قال اقبض ديني الذي على فلان ولك من كل عشرة واحد ولم يبين قدر الدين لم يجز عند ابن وهب وأجازه ابن القاسم وأصبغ والذين منعوا الجواز في ذلك جعلوه اجارة والاجر فيها مجهول والصحيح ان هذا ليس من باب الاجارات بل من باب المشاركات وقد نص أحمد على ذلك فاحتج على جواز دفع الثوب بالثلث والربع بحديث خيبر وقد دلت السنة على جواز ذلك كما في المسند والسنن عن رويفع بن ثابت قال ان كان أحدنا في زمن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ليأخذ نضو أخيه على ان له النصف مما يغنم ولنا النصف وان كان أحدنا ليطير له النصل والريش وللآخر القدح وأصل هذا كله ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم دفع أرض خيبر الى اليهود يعملونها بشطر ما يخرج منها من ثمر أو زرع

بعجزه وضعفه وجهله وأراه الغير في نفسه لو كان ذا بصر كيف هو عاجز القدرة جبار الارادة عبد مربوب مدبر مملوك ليس له من الامر شيء وهو مع ذلك ينازع الله ربوبيته وحكمته وتدبيره لا يرضى بما رضي الله به ولا يسكن عند مجاري أقداره بل هو عبد ضعيف مسكين يتعاطى الربوبية فقير مسكين في مجموع حالاته يرى نفسه غنيا جاهل ظالم يرى نفسه عارفا محسنا فما أجهله بنفسه وبربه وما أتركه لحقه وأشد اضاعته لحظه ولو أحضر رشده لرأى ناصيته ونواصي الخلائق بيد الله سبحانه وتعالى يخفضها ويرفعها كيف يشاء وقلوبهم بيده سبحانه وفي قبضته يقلبها كيف يشاء يزيغ منها من يشاء ويقيم من يشاء ولكان هذا غالبا على شهود قلبه فيغيب به عن مشيآته وارادته واختياره وليعرف ان التدبير والركون الى حول العبد وقوته من الجهل بنفسه وبربه فينفي العلم بالله الجهل عن قلبه فتمحى منه الارادات والمشيآت والتدبيرات ويفوضها الى مالك القلوب والنواصي فيصير بذلك عبد الربه تقلبه يد القدرة ويصير ابن وقته لا ينتظر وقتا آخر يدبر نفسه فيه لان ذلك الوقت بيد موقته فيرى نفسه بمنزلة الميت في قبره ينتظر ما يفعل به مستسلم لله منقطع المشيئة والاختيار هذا ما يجري على أحدهم من فعل الله وحكمه وقضائه الكوني فاذا جاء الامر جاءت الارادة والاختيار والجد والسعي واستفراغ الفكر وبذل الجهد فهو قوي حي فعال يشاهد عبودية مولاه في أمره فهو متحرك فيها بظاهره وباطنه قد أخرج مقدوره من القوة الى الفعل وهو مع ذلك مستعين بربه قائم بحوله وقوته ملاحظ لضعفه وعجزه قد تحقق بمعنى اياك نعبد واياك نستعين فهو ناظر بقلبه الى مولاه الذي حركه مستعين به في أن يوفقه لما يحبه ويرضاه عينه في كل لحظة شاخصة الى حقه المتوجه عليه لربه ليؤديه في وقته على أكمل أحواله فاذا وردت عليهم أقداره التي تصيبهم بغير اختيارهم قابلوها بمقتضاها من العبودية وهم فيها على مراتب ثلاثة احداها الرضا عنه فيها والمزيد من حبه والشوق اليه وهذا نشأ من مشاهدتهم للطفه فيها وبره واحسانه العاجل والآجل ومن مشاهدتهم حكمته فيها ونصبها بالمصالحهم وشوقهم بها الى حبه ورضوانه ولهم من ذلك مشاهد أخر لا تسعها العبارة وهي فتح من الله على العبد لا يبلغه علمه ولا عمله المرتبة الثانية شكره عليها كشكره على النعم وهذا فوق الرضا عنه بها ومنه ينتقل الى هذه

[illegible] مرتبتان لاهل هذا الشأن والثالثة المقتصدين وهي مرتبة الصبر التي اذا نزل منها نزل الى نقصان الايمان وفواته من التسخط والتشكي واستبطاء الفرج واليأس من الروح والجزع الذي لا يفيد الا فوات الاجر وتضاعف المصيبة فالصبر أول منازل الايمان ودرجاته وأوسطها وآخرها فان صاحب الرضا والشكر لا يعدم الصبر في مرتبته بل الصبر معه وبه يتحقق الرضا والشكر لا يتصور ولا يتحقق لهما دونه وهكذا كل مقام مع الذي فوقه كالتوكل (٢٣٨) مع الرضا وكالخوف والرجاء مع الحب فان المقام الاول لا ينعدم بالترقي الى الآخر ولو عدم لخلفه ضده وذلك رجوع الى نقص الطبيعة وصفات النفس المذمومة وانما يندرج حكمه في المقام الذي أعلى منه فيصير الحكم له كما يندرج مقام التوكل في مقام المحبة والرضا وليس هذا كمنازل سير الابدان الذي اذا قطع منها منزلا خلفه وراء ظهره واستقبل المنزل الآخر معرضا عن الاول بارتحاله بل هذا كمنزلة التاجر الذي كلما باع شيأ من ماله وربح فيه ثم باع الثاني وربح فقد ربح بهما معا وهكذا أبدا يكون ربحه في كل صفقة متضاعفا بانضمامه الى ما قبله فالربح الاول اندرج في الثاني ولم يعدم فتأمل هذا الموضع وأعطه حقه يزل عنك ما يعرض من الغلط في علل المقامات وتعلم ان دعوى المدعي انها من منازل العوام ودعوى انها معلولة غلط من وجهين أحدهما ان أعلى المقامات مقرون بادناها مصاحب له كما تقدم متضمن له تضمن الكل لجزئه أو مستلزم له استلزام الملزوم للازمه لا ينفك عنه أبدا ولكن لاندراجه فيه وانطواء حكمه تحته يصير المشهد والحكم للعالي الوجه الثاني ان تلك المقامات والمنازل انما هي منازل العوام وتعرض لها العلل بحسب متعلقاتها وغاياتها فان كان متعلقها وغاياتها بريئا من شوائب العلل وهو أجل متعلق وأعظمه فلا علة فيها بحال وهي من منازل الخواص حينئذ وان كان متعلقها حظ العبد أو أمرا مشوبا بحظه فهي معلولة من جهة تعلقها بحظه ولنذكر لذلك أمثلة المثال الاول الارادة فان الله جعلها من منازل صفوة عباده وأمر رسوله أن يصبر نفسه مع أهلها فقال واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه وقال وما لاحد عنده من نعمة تجزى الا ابتغاء وجه ربه الاعلى وقال حكاية عن أوليائه قولهم انما نطعمكم لوجه الله وهو لام التعليل الداخلة على الغايات المرادة وهي

لتصحح

وأجمع المسلمون على جواز المضاربة وانما دفع ماله لمن يعمل عليه بجزء من ربحه فكل عين تنمى فائدتها من العمل جاز لصاحبها دفعها لمن يعمل عليها بجزء من ربحها فهذا محض القياس وموجب الادلة وليس مع المانعين حجة سوى ظنهم ان هذا من باب الاجارات بعوض مجهول وبهذا أبطلوا المساقاة والمزارعة واستثنى قوم بعض صورها وقالوا المضاربة على خلاف القياس لظنهم انها اجارة بعوض لا يعلم قدره وأحمد رحمه الله جعل هذا الباب كله أطيب وأحل من المؤاجرة لانه في الاجارة يحصل المؤجر على سلامة العوض قطعا والمستأجر متردد بين سلامة المعوض وهلاكه فهو على خطر وقاعدة العدل في المعاوضات ان يستوي المتعاقدان في الرجاء والخوف وهذا حاصل في المزارعة والمساقاة والمضاربة وسائر هذه الصور الملحقة بذلك فان المنفعة ان سلمت سلمت لهما وان تلفت تلفت عليهما وهذا من أحسن العدل واحتج المتأخرون من المانعين بحديث أبي سعيد الذي رواه الدارقطني نهى عن قفيز الطحان وهذا الحديث لا يصح وسمعت شيخ الاسلام يقول هو موضوع وحمله بعض أصحابنا على ان المنهي عنه طحن الصبرة لا يعلم كيلها بقفيز منها لان ما عداه مجهول فهو كبيعها الا قفيزا منها فاما اذا كانت معلومة القفزان فقال اطحن هذه العشرة بقفيز منها صح حبا ودقيقا أما اذا كان حبا فقد استأجره على طحن تسعة أقفزة بقفيز حنطة وأما اذا كان دقيقا فقد شاركه في ذلك على أن العشر للعامل وتسعة الاعشار للآخر فيصير شريكه بالجزء المسمى فان قيل فالشركة عندكم لا تصح بالعروض قيل بل أصح الروايتين صحتها وان قلنا بالرواية الاخرى فالحاق هذه بالمساقاة والمزارعة أولى منها بالحاقها بالمضاربة على العروض لان العروض تتضمن التجارة والتصرف في رقبة المال بابداله بغيره بخلاف هذا فان قيل دفع حبه الى من يطحنه بجزء منه مطحونا أو غزله الى من ينسجه بجزء منه منسوجا يتضمن محذورين أحدهما ان يكون طحن قدر الاجرة ونسجه مستحقا على العامل بحكم الاجارة ومستحقا له بحكم كونه أجرة وذلك متناقض فان كونه مستحقا عليه يقتضي مطالبة المستأجر به وكونه مستحقا له يقتضي مطالبته للمؤجر به الثاني أن يكون بعض المعقود عليه هو العوض نفسه وذلك ممتنع قيل انما نشأ هذا من ظن كونه اجارة وقد بينا أنه مشاركة لا اجارة ولو سلم أنه من باب المؤاجرة فلا تناقض في ذلك فان جهة الاستحقاق مختلفة فانه يستحق له بغير الجهة التي يستحق بها عليه فأي محذور في ذلك وأما كون بعض المعقود عليه يكون عوضا فهو انما عقد على عمله فالمعقود عليه العمل والنفع بجزء من العين وهذا أمر متصور شرعا وحسا فظهر أن صحة هذا الباب هي مقتضى النص والقياس وبالله التوفيق وعلى هذا فلا يحتاج الى حيلة

كثيرة في القرآن فقالت طائفة الارادة حلية العوام وهي تجريد القصد وجزم النية والجد في الطلب وذلك غير في طريق الخواص وتفرق ورجوع الى النفس فان ارادة العبد عين حظه وهو رأس الدعوى وانما الجمع والوجود فيما يراد بالعبد لا فيما يريد كقوله تعالى وان يردك بخير فلا راد لفضله فيكون مراده ما يراد به واختياره ما اختير له اذ لا ارادة للعبد مع سيده ولا نظر كما قال

أريد وصاله ويريد هجري * فاترك ما أريد لما يريد ومن هذا قول أبي (٢٣٩) يزيد قيل لي ما تريد قلت أريد أن لا أريد لأني

لتصحيح ذلك الا اذا خيف غدر أحدهما وابطاله للعقد والرجوع الى أجرة المثل فالحيلة في التخلص من ذلك أن يدفع اليه ربع الغزل والحب أو نصفه ويقول انسج لي باقيه بهذا القدر فيصيران شريكين في الغزل والحب فاذا استأجر كافيه بعد ذلك صح وكان بينهما على قدر ما شرطاه والعجب أن المانعين جوزوا ذلك على هذا الوجه وجعلوه مشاركة لا مؤاجرة فهلا أجازوه من أصله كذلك وهل الاعتبار في العقود الا بمقاصدها ومعانيها دون صورها وألفاظها وبالله التوفيق المثال الثاني والسبعون اذا كان على رجل دين فتوارى عن غريمه وله هو دين على آخر فأراد الغريم أن يقبض دينه من الدين الذي له على ذلك لم يكن له ذلك الا بحوالة أو وكالة وقد توارى عنه غريمه فيتعذر عليه الحوالة والوكالة فالحيلة له في اقتضاء دينه من ذلك أن يوكله فيقول وكلتك في اقتضاء ديني الذي على فلان وبالخصومة فيه ووكلتك أن تجعل ماله عليك قصاصا بمالي عليه وأجزت أمرك في ذلك فيقبل الوكيل ويشهد عليه شهودا ثم يشهد الوكيل أولئك الشهود أو غيرهم ان فلانا وكلني بقبض ماله على فلان وان أجعله قصاصا بما لفلان علي وأجاز أمري في ذلك وقد قبلت من فلان ما جعل الي من ذلك وأشهدوا اني قد جعلت الالف درهم التي لفلان علي قصاصا بالالف التي لفلان موكلي عليه فيصير الالف قصاصا ويتحول ما كان للرجل المتواري على هذا الوكيل للرجل الذي وكله المثال الثالث والسبعون اذا كان لرجل على رجل مال فغاب الذي عليه المال وأراد الرجل أن يثبت ماله عليه حتى يحكم الحاكم عليه وهو غائب جاز للحاكم أن يحكم عليه في حال غيبته مع بقائه على حجته في أصح المذهبين وهو قول أحمد في الصحيح عنه ومالك والشافعي وعند أبي حنيفة لا يجوز الحكم على الغائب فاذا لم يكن في الناحية الا حاكم يرى هذا القول ويخشى صاحب الحق من ضياع حقه فالحيلة له أن يجيء برجل فيضمن لهذا الرجل الذي له المال جميع ماله على الرجل الغائب ويسميه وينسبه ويشهد على ذلك ثم يقدمه الى القاضي فيقر الضامن بالضمان ويقول قد ضمنت له ماله على فلان ابن فلان ولا أدري كم له عليه ولا أدري له عليه مال أم لا فان القاضي يكلف المضمون له أن يحضر بينته على ذلك بماله على فلان فاذا أحضر البينة قبلها القاضي بمحضر من هذا الضمين وحكم على الغائب وعلى هذا الضامن بالمال بموجب ضمانه ويجعل القاضي هذا الضمين بالمال خصما عن الغائب لانه قد ضمن ما عليه ولا يجوز الحكم على هذا الضمين حتى يحكم على المضمون عنه ثم يحكم بذلك على الضمين لانه فرعه فما لم يثبت المال على الاصل لا يثبت على الفرع المثال الرابع والسبعون اذا غصبه متاعا له ويقول له في السر بعينه ويجحده في العلانية ويريد تخليص ماله منه

أنا المراد وأنت المريد فيقال ليس المراد من العوام في كلامهم العامة الجهال وانما مرادهم بهذه اللفظة عموم السالكين دون أهل الخصوص الواصلين منازل الفناء وعين الجمع واذا عرف هذا فالكلام على ما ذكر في الارادة من وجوه أحدها ان الارادة هي مركب العبودية وأساس بنائها الذي لا تقوم الا عليه فلا عبودية لمن لا ارادة له بل أكمل الخلق أكملهم عبودية ومحبة وأصحهم حالا وأقومهم معرفة وأتمهم ارادة فكيف يقال انها حلية العوام أو من منازل العوام الوجه الثاني انه يلزم من هذا أن تكون المحبة من منازل العوام وتكون معلولة أيضا لانها ارادة تامة للمحبوب ووجود المحبة بلا ارادة كوجود الانسانية من غير حيوانية وكوجود مقام الاحسان بدون الايمان والاسلام فاذا كانت الارادة معلولة وهي من منازل العوام لزم أن تكون المحبة كذلك فان قيل المحبة التي لا علة فيها هي تجرد الحب عن الارادة وفناؤه بارادة محبوبه عن ارادته قيل هذا هو حقيقة الارادة أن يبقى مراده مراد محبوبه فلو لم يكن من المراد محبوبه لم يكن موافقا له في الارادة والمحبة هي موافقة المحبوب في ارادته فعاد الامر الى ما أشرنا اليه ان المعلول من ذلك ما تعلق بحظ المريد دون محبوبه فاذا صارت ارادته موافقة لارادة محبوبه لم تكن تلك الارادة من منازل العوام ولا معلولة بل هذه أشرف منازل الخواص وغاية مطالبهم وليس وراءها الا التجرد عن كل ارادة والفناء بشهوده عن ارادة ما يريد وهذا هو الذي يشير اليه السالكون الى منازل الفناء ويجعلونه غاية الغايات وهذا عند أهل الكمال نقص وتغير في وجه المحبة وهضم لجانب العبودية وفناء بحظ المحب من مشاهدة جمال محبوبه وفنائه فيه عن حق المحبوب ومراده فهو الوقوف مع نفس الحظ والهروب عن حق المحبوب ومراده هل مثل هذ

فالحيلة له أن يبيعه ممن يثق به و يشهد له على ذلك ببينة عادلة ثم يبيعه بعد ذلك من الغاصب و يكون بين البيعين من المدة ما يعرفه الشهود ليوقتوا بذلك عند الاداء فاذا أشهد للغاصب بالبيع فى الوقت المعين جاء الذى باع منه المغصوب قبله ببينته فيحكم له اسبق بينته فيرجع الغاصب على المغصوب منه بالثمن الذى دفعه اليه ويسلم العين للمغصوب منه وكذلك لو أقر بها المغصوب منه لرجل يثق به ثم باعها بعد ذلك للغاصب ثم جاء المقر له فأقام بينة على الاقرار السابق فان قيل فلو خاف الغاصب من هذه الحيلة وقال للمغصوب منه لست أبتاع منك هذه السلعة خشية هذا الصنع ولكن أؤمر من يبتاعها منك لى فأراد المغصوب منه حيلة ترجع اليه بها سلعته فالحيلة أن يبيعها أولا ممن يثق به ولا يكتب فى كتاب التبايع قبضه ثم يبيعها بعد ذلك من الرجل الذى يريد شراءها للغاصب و يكتب فى هذا الشراء الثانى قبض المشترى فانه اذا أقر وكيل الغاصب بقبض العين من المغصوب منه ثم جاء الرجل الذى كتب له المغصوب منه الشراء كان أولى بها من وكيل الغاصب لان وقت شرائه أقدم واقراره بقبضها وتسليمها الى الرجل المشترى لها أولا أولى ويرجع وكيل الغاصب على المغصوب منه بالثمن الذى دفعه اليه المثال الخامس والسبعون اذا أقرضه مالا وأجله لزم تأجيله على أصح المذهبين وهو مذهب مالك وقول فى مذهب أحمد والمنصوص عنه أنه لا يتأجل كما هو قول الشافعى وأبى حنيفة ويدل على التأجيل قوله تعالى أوفوا بالعقود وقوله تعالى يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون وقوله وأوفوا بالعهد وقوله صلى الله تعالى عليه وسلم المسلمون عند شروطهم وقوله آية المنافق ثلاث اذا حدث كذب واذا عاهد غدر وقوله ينصب لكل غادر لواء عند استه يوم القيامة بقدر غدرته وقوله لا تغدروا وقوله ان الغدر لا يصلح وقوله فى صفة المنافق اذا وعد أخلف واخلاف الوعد مما فطر الله العباد على ذمه واستقباحه وما رآه المؤمنون قبيحا فهو عند الله قبيح وعلى هذا فلا حاجة الى التحيل على لزوم التأجيل وعلى القول الآخر قد يحتاج الى حيلة يلزم بها التأجيل فالحيلة فيه أن يحيل المستقرض صاحب المال بماله الى سنة أو نحوها بقدر مدة التأجيل فيكون المال على المحتال عليه الى ذلك الاجل فان الحوالة تنقل الحق ولو أحال المحال عليه صاحب المال على رجل آخر الى ذلك الاجل جازت الحوالة فان مات المحال عليه الاول لم يكن لصاحب المال على تركته سبيل ولا على المحال عليه الثانى المثال السادس والسبعون اذا رهنه دارا أو سلعة على دين وليس عنده من يشهد له على قدر الدين ويكتبه فالقول قول المرتهن فى قدره ما لم يدع أكثر من قيمته هذا قول مالك وقال الشافعى

الاكمل رجلين ادعيا محبة ملك فحضرا بين يديه فقال ما تريدان فقال أحدهم أريد أن لا أريد شيئا بل أفنى عن ارادتى وأكون أنا المراد وأنت تريد بى ما تشاء وقال الآخر أريد أن أنفق أنفاسى وذراتى فى محابك ومرضاتك منفذا لاوامرك مشمرا فى طاعتك أتوجه حيث توجهنى وأفعل ما تأمرنى هذا الذى أريده فقال للآخر وأنا أريد منك أن تفعل مثل هذا فانى سابعثكما فى أشغالى ومهماتى فاما أحدهما فقال لا حظ لى سوى اتباع مرضاتك والقيام

بحقوقك وقال الآخر لا أريد الا مشاهدتك والنظر اليك والفناء فيك فهل يكونان فى نظره سواء وهل تستوى منزلتهما عنده ولو أنعموا النظر لعلموا ان صاحب الفناء هو طالب الحظ الواقف معه وان الآخر وان لم ينسلخ من الحظ ولكن حظه مراد المحبوب منه لا مراده هو من المحبوب وبين الامرين من الفرق كما بين الارض والسماء فالعجب ممن يفضل صاحب الحظ الذى يريده من محبوبه على من صار حظه مراد محبوبه منه بل الفناء الكامل أن يفنى بارادته عن ارادة من سواه وبحبه عن حب ما سواه وبرجائه عن رجاء ما سواه وبخشيته عن خشية ما سواه وبالتوكل عليه عن التوكل على ما سواه ليس ان تفنى بحظك منه عن مراده منك وهذا موضع يشتبه علما وحالا وذوقا الا على من فتح الله عليه بفرقان بين هذا وهذا الوجه الثالث ان الارادة انما تكون ناقصة بحسب نقصان المراد فاذا كان مرادها أشرف المرادات فارادته أشرف الارادات ثم اذا كانت الوسيلة اليه أجل الوسائل وأنفعها وأكملها فارادتها كذلك فلا تخرج ارادته عن ارادة أشرف الغايات وارادة أقرب الوسائل اليه وأنفعها فأى علة فى هذه الارادة وأى شئ فوقها للخواص الوجه الرابع ان نقصان الشئ يكون من وجهين أحدهما أن يوجب ضررا والثانى أن تكون له ثمرة نافعة لكن يشتغل عما هو أكمل منه وكلاهما منتف عن الارادة فكيف تكون ناقصة معلولة فان قيل لما كان الوقوف معها رجوعا الى النفس وتفرقا ووقوفا مع حظ المريد كانت ناقصة قيل هذا منشأ الغلط وجوابه بالوجه الخامس وهو أن يقال قوله ان الارادة تفرق فان أردتم بالتفرق شهود المريد لارادته ولمراده ولعبوديته ولمعبوده ولمحبته ولمحبوبه فلم قلتم ان هذا التفرق نقص وهل هذا الا عين الكمال وهل تتم العبودية الا بهذا فان من شهد عبوديته وغاب بها عن معبوده

واو

وأبو حنيفة وأحمد القول قول الراهن وقول مالك هو الراجح وهو اختيار شيخنا لان الله سبحانه جعل الرهن بدلا من الكتاب يشهد بقدر الحق والشهود التى تشهد به وقائما مقامه فلو لم يقبل قول المرتهن فى ذلك بطلت التوثقة من الرهن وادعى المرتهن أنه رهن على أقل شئ فلم يكن فى الرهن فائدة والله سبحانه قد قال فى آية المداينة التى أرشد بها عباده الى حفظ حقوق بعضهم على بعض خشية ضياعها بالجحود أو النسيان فأرشدهم الى حفظها بالكتاب وأكد ذلك بأن أمرهم بكتابة الدين وأمر الكاتب أن يكتب ثم أكد ذلك بأن نهاه أن يأبى أن يكتب ثم أعاد الامر بأن يكتب مرة أخرى وأمر من عليه الحق أن يملل ويتقى ربه ولا يبخس من الحق شيأ فان تعذر املاؤه لسفهه أو صغره أو جنونه أو عدم استطاعته فوليه مأمور بالاملاء عنه وأرشدهم الى حفظها باستشهاد شهيدين من الرجال أو رجل وامرأتين فأمرهم بالحفظ بالنصاب التام الذى لا يحتاج صاحب الحق معه الى يمين ونهى الشهود أن يأبوا اذا دعوا الى اقامة الشهادة ثم أكد ذلك بنهيهم أن يمتنعوا من كتابة الحقير والجليل من الحقوق سآمة وملالا وأخبر أن ذلك أعدل عنده وأقوم للشهادة فيتذكرها الشاهد اذا عاين خطه فيقيمها وفى ذلك تنبيه على أن له أن يقيمها اذا رأى خطه وتيقنه والا لم يكن للتعليل بقوله وأقوم للشهادة فائدة وأخبر أن ذلك أقرب الى اليقين وعدم الريب ثم دفع عنهم الجناح بترك الكتابة اذا كان بيعا حاضرا فيه التقابض من الجانبين يأمن به كل واحد من المتبايعين من جحود الآخر ونسيانه ثم أمرهم مع ذلك بالاشهاد اذا تبايعوا خشية الجحود وغدر كل واحد منهما بصاحبه فاذا أشهدا على التبايع أمنا ذلك ثم نهى الكاتب والشهيد عن أن يضارا اما بأن يمتنعا من الكتابة والشهادة تحملا وأداء أو أن يطلبا على ذلك جعلا يضر بصاحب الحق أو يكتم الشاهد بعض الشهادة أو يؤخر الكتابة والشهادة تأخيرا يضر بصاحب الحق أو يمطلاه ونحو ذلك أو هو نهى لصاحب الحق أن يضار الكاتب والشهيد بأن يشغلهما عن ضرورتهما وحوائجهما أو يكلفهما من ذلك ما يشق عليهما ثم أخبر ان ذلك فسوق بفاعله فهذا كله عند القدرة على الكتاب والشهود ثم ذكر ما يحفظ به الحقوق عند عدم القدرة على الكتاب والشهود وهو السفر فى الغالب فقال وان كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة فدل ذلك دلالة بينة أن الرهن قائم مقام الكتاب والشهود شاهدة مخبرة بالحق كما يخبر به الكتاب والشهود وهذا والله أعلم سر تقييد الرهن بالسفر لانه حال يتعذر فيها الكتاب الذى ينطق بالحق غالبا فقام الرهن مقامه وناب منابه وأكد ذلك بكونه مقبوضا للمرتهن حتى لا يتمكن الراهن من جحده فلا أحسن من هذه

كان محجوبا ومن شهد المعبود وغاب به عن شهود عبوديته وقيامه بما أمره به كان ناقص العبودية ضعيف الشهود وهل الكمال الا شهود المعبود مع شهود عبادته فانها عين حقه ومراده ومحبوبه من عبده فهل يكون شهود العبد لحق محبوبه ومراده منه وانه قائم به ممتثل له نقصا ويكون غيبته عن ذلك واعراضه عنه وفناؤه عن شهوده كمالا وهل هذا الا قلب الحقائق فغاية صاحب هذا الحال والمقام ان يكون معذورا بضيق قلبه عن شهود هذا وهذا اما لضعف المحل أو لغلبة الوارد وعجزه عن احتمال شئ آخر معه فاما ان يكون هذا هو الكمال المطلوب والآخر نقص فكلا وأين مقام من يشهد عبوديته ومنة الله عليه فيها وتوفيقه لها وجعله محلا وآلة وهو ناظر مع ذلك الى معبوده بقلبه شاهدا له فانيا عن شهود غيره فى عبوديته من مقام من لا يتسع لهذا وهذا وتأمل حال أكمل الخلق وأفضلهم وأشدهم حبا لله كيف كان فى عبادته جامعا بين الشهودين حتى كان لا يغيب عن احوال المأمومين فضلا عن شهود عبادته وكان يراعى أحوالهم وهو فى ذلك المقام بين يدى ربه سبحانه فالكمل من أمته على منهاجه وطريقته صلى الله عليه وسلم فى ذلك فالواجب التمييز بين المراتب واعطاء كل ذى حق حقه فقد جعل الله لكل شئ قدرا وان أردتم بالتفرق شتات القلب فى شعاب الحظوظ وأودية الهوى فهذه الارادة لا تستلزم شيأ من ذلك بل هى جمعية القلب على المحبوب وعلى محابه ومراداته ومثل هذا التفرق هو عين البقاء ومحض العبودية ونفس الكمال وما عداه محض حظ العبد لا حق محبوبه الوجه السادس ان قوله ان الارادة رجوع الى النفس وان ارادة العبد عين حظه كلام فيه اجمال وتفصيل فيقال ما تريدون بقولكم ان الارادة رجوع الى النفس أتريدون انها رجوع عن

ارادة الرب وارادة محابه الى ارادة النفس وحظوظها أم تريدون انها رجوع الى ارادة النفس لربها ولمرضاته فان أردتم الاول علم ان هذه الارادة معلولة ناقصة فاسدة ولكن ليست هذه الارادة التى يتكلم فيها وان أردتم المعنى الثانى فهو عين الكمال وانما النقصان خلافه الوجه السابع ان قولكم ان هذه الارادة عين حظ العبد قلنا نعم وهى أكبر حظ له وأجله وأعظمه وهل للعبد حظ أ[illegible] محبوبه ومراده فهذا هو الحظ الاوفر والسعادة العظمى ولكن لم قلتم ان

النصيحة وهذا الارشاد والتعليم الذي لو أخذ به الناس لم يضع في الاكثر حق أحد و يتمكن المبطل من الجحود والنسيان فهذا حكمه سبحانه المتضمن لمصالح العباد في معاشهم ومعادهم والمقصود انه لو لم يقبل قول المرتهن على الراهن في قدر الدين لم يكن وثيقة وا حافظا لدينه ولا بد لامن الكتاب والشهود فان الراهن يتمكن من أخذه منه و يقول انما رهنته منه على ثمن درهم ونحوه ومن يجعل القول قول الراهن فانه يصدقه على ذلك و يقبل قوله في الرهن الربيع والضيعة على هذا القدر فالذي نعتقده وندين الله به قول أهل المدينة فاذا أراد الرجل حفظ حقه وخاف أن يقع التحاكم عند حاكم لا يرى هذا المذهب فالحيلة في قبول قوله أن يسترهنه المرتهن على قيمته و يدفع اليه ما اتفقا عليه و يشهد الراهن أن الباقي من قيمته أمانة عنده أو قرض في ذمته يطالبه به متى شاء فيتمكن كل واحد منهما من أخذ حقه و يأمن ظلم الآخر له والله أعلم المثال السابع والسبعون اذا كان لرجل على رجل ألف درهم وفي يده رهن بالالف فطالب صاحب الدين الغريم بالالف وقدمه الى الحاكم وقال لي على هذا ألف درهم وخاف أن يقول وله عندي رهن بالالف وهو كذا وكذا فيقول الغريم ماله على هذه الالف التي يدعيها ولا شئ منها وهذا الذي ادعى أنه لي رهن في يده هو لي كما قال ولكنه ليس برهن بل وديعة أو عارية فيأخذه منه و يبطل حقه فالحيلة في أمنه من ذلك أن يدعي بالالف فيسأل الحاكم المطلوب عن المال فاما أن يقر به واما أن ينكره فان أقر به وادعى ان له رهنا لزمه المال ودفع الرهن الى صاحبه أو بيع في وفائه وان أنكره وقال ليس له علي شئ ولي عنده تلك العين اما الدار واما الدابة فليقل صاحب الحق للقاضي سله عن هذا الذي يدعي علي أي وجه هو عندي أعارية أم غصب أم وديعة أم رهن فان ادعى انه في يده على غير وجه الرهن حلف على ابطال دعواه وكان صادقا وان ادعى أنه في يده على وجه الرهن قال القاضي سله على كم هو رهن فان أقر بقدر الحق أقر له بالعين وطالب بحقه وان جحد بعضه حلف على نفي ما ادعاه وكان صادقا المثال الثامن والسبعون اذا باعه سلعة ولم يقبضه اياها أو آجره دارا ولم يتسلمها أو زوجه ابنته ولم يسلمها اليه ثم ادعى عليه بالثمن والاجرة أو المهر فخاف ان أنكر أن يستحلفه أو يقيم عليه البينة بجريان هذه العقود وان أقر لزمه ما ادعى عليه به فالحيلة في تخلصه أن يقول في الجواب ان ادعيت هذا المبلغ من ثمن مبيع لم أقبضه أو اجارة دار لم يسلمها الي أو نكاح امرأة لم يسلمها الي أو كانت المرأة هي التي ادعت فقال ان ادعيت هذا المبلغ من مهر أو كسوة أو نفقة من نكاح لم تسلمي الي نفسك فيه ولم تمكنيني من استيفاء المعقود عليه فانا مقر به وان كان غير ذلك فلا اقرار وهذا جواب صحيح يتخلص به فان قيل

اشتغال العبد بهذا الحظ نقص في حقه وهل فوق هذا الكمال فيطلبه العبد ثم يقال لو كان فوقه شيء اكمل منه لكان اشتغال العبد به وطلبه اياه اشتغالا بحظه أيضا فيكون ناقصا فأين الكمال فان قلتم في تركه حظوظه كلها قيل لكم وتركه هذا الحظ أيضا هو من حظوظه فانه لا يبقى معطلا فارغا من الارادة أصلا بل لا بد له من ارادة ومراد وكل ارادة لكم رجوع الى الحظ فاي اشتغل به وبارادته كان وقوفا عن حظه فيا العجب متى يكون عبدا محضا خالصا ربه يوضح هذا الوجه الثامن ان الحي لا ينفك عن الارادة ما دام شاعرا بنفسه وا ينفك عنها اذا غاب عنه شعوره بعارض من العوارض فالارادة من لوازم الحياة فدعوى ان الكمال في التجرد عنها دعوى باطلة مستحيلة طبعا وحسا بل الكمال في التجرد عن الارادة التي تزاحم مراد المحبوب لا عن الارادة التي توافق مراده الوجه التاسع قوله الجمع والوجود فيما يراد بالعبد لا فيما يريد الى آخره فيقال هذا على نوعين أحدهما ما يراد بالعبد من المقدور الذي يجري عليه بغير اختياره كالفقر والغنى والصحة والمرض والحياة والموت وغير ذلك فهذا لا ريب ان الكمال فناء العبد فيه عن ارادته ووقوفه مع ما يراد به لا يكون له ارادة تزاحم ارادة الله منه كحال الثلاثة الذين قال أحدهم أنا أحب الموت للقاء الله وقال الآخر أحب البقاء لطاعته وعبادته فقال الثالث غلطتما ولكن أنا أحب من ذلك ما يحب فان كان يحب اماتتي أحببت الموت وان كان يحب حياتي أحببت الحياة فأنا أحب ما يحبه من الحياة والموت فهذا أكمل منهما وأصح حالا فيما يراد بالعبد والنوع الثاني ما يراد من العبد من الاوامر والقربات فهذا ليس الكمال الا في ارادته وان فرقته فهو مجموع في تفرقته متفرق في جمعيته وهذا حال الكمل من الناس متفرق الارادة في الامر مجتمع على الآمر فهو مجموع عليه متفرق فيه ولا يكون فعل المرادات المختلفة بارادة واحدة بالعين وانما غايتها أن تكون هنا ارادتان أحدهما ارادة واحدة للمراد المحبوب والثاني ارادات متفرقة لحقه ومحابه وما أمر به فهو وان تعددت وتكثرت فمرجعها الى مراد واحد بارادة كلية وكل فعل منها له ارادة جزئية محضة الوجه العاشر ان قول أبي يزيد أريد أن لا أريد تناقض بين فانه قد أراد عدم الارادة فاذا قال أريد أن لا أريد يقال له فقد أردت وأحسن من هذا أن يكون الجواب أريد ما تريد

فهذا تعليق للاقرار بالشرط والاقرار لا يصح تعليقه كما لو قال ان شاء الله أو ان شاء زيد فله علي ألف قيل يصح تعليق الاقرار بالشرط في الجملة كقوله اذا جاء رأس الشهر فله علي ألف فهذا اقرار صحيح ولا يلزمه قبل مجيء الشهر وكذا لو قال ان شهد فلان علي بما ادعاه صدقته صح التعليق فاذا شهد به عليه فلان كان مقرا به ولا فرق بين تقديم الشرط وتأخيره كما في تعليق الطلاق والعتاق والخلع وفيه وجه آخر انه ان أخر الشرط لم ينفعه وكان اقرارا ناجزا وهذا ضعيف جدا فان الكلام بآخره ولو بطل الشرط الملحق به لبطل الاستثناء والبدل والصفة فان ذلك يغير الكلام ويخرجه من العموم الى الخصوص والشرط يخرجه من الاطلاق الى التقييد فهو أولى بالصحة وقد جاء تأخير الشرط في القرآن فيما هو أبلغ من الاقرار كقوله تعالى حاكيا عن نبيه شعيب أنه قال لقومه قد افترينا على الله كذبا ان عدنا في ملتكم وقد وافق صاحب هذا الوجه على أنه قال له علي ألف درهم اذا جاء رأس الشهر أنه يصح وجها واحدا وهذا يبطل تعليله بأن الحاق الشرط بعد الخبر كالرجوع عن الاقرار وعلى هذا فلو قال له علي ألف مؤجل صح الاقرار ولزمه الالف مؤجلا وقيل القول قول خصمه في حلوله وشبهة هذا انه مقر بالدين مدع لحلوله وهذا ظاهر البطلان فانه انما أقر به على هذه الصفة كما لو وصفها بنقد غير النقد الغالب أو استثنى منها شيأ وكذا لو قال له علي ألف من ثمن مبيع لم أقبضه أو أجرة عن دار لم أتسلمها أو قال هالك قبل التمكن من قبضه على أصح الوجهين لانه انما أقر به على هذه الصفة فلا يجوز الزامه به مطلقا وكذا لو قال كان له علي ألف فقضيته لم يلزمه لانه انما أقر به في الماضي لا في الآن هذا منصوص أحمد وليس الكلام بمتناقض في نفسه فيكون بمنزلة قوله له علي ألف لا يلزمني والفرق بين الكلامين أظهر من أن يحتاج الى بيان وعن أحمد رواية أخرى أنه مقر بالحق مدع لقضائه فلا يقبل منه الا ببينة وهذا قول الائمة الثلاثة وعنه رواية ثالثة ان هذا ليس بجواب صحيح فيطالب برد الجواب وعلى هذا فاذا قال له علي ألف قضيته اياه ففيه ثلاث روايات منصوصات احداهن أنه غير مقر كما لو قال كان له علي والثانية أنه مقر مدع للقضاء فلا يقبل منه الا ببينة والثالثة أنه لا يسمع منه دعوى القضاء ولو أقام به بينة بل يكون مكذبا لها وعلى هذا اذا قال كان له علي ولم يزد على هذا فهو مقر وخرج أنه غير مقر من نصه على انه اذا قال كان له علي وقضيته أنه غير مقر وهو تخريج في غاية الصحة فان أحمد لم يجعله غير مقر من قوله وقضيته فان هذا دعوى منه للقضاء وانما جعله كذلك من جهة أنه أخبر عن الماضي لا عن الحال فلا يلزم بكونه في ذمته في الحال وهو لم يقر به والمقصود أن المدعى عليه اذا كان مظلوما فالحيلة في تخلصه أن

لا ما أريد واذا كان لا بد من ارادة ففرق بين الارادتين ارادة سلب الارادة وارادة موافقة المحبوب في مراده والله أعلم الوجه الحادي عشر انه فسر الارادة بتجريد القصد وجزم النية والجد في الطلب وهذا هو عين كمال العبد وهو متضمن للصدق والاخلاص والقيام بالعبودية فأي نقص في تجريد القصد وهو تخليصه من كل شائبة نفسانية أو طبيعية وتجريده للمراد المحبوب وحده والجد في طلبه وطلب مرضاته وجزم النية وهو ان لا يعتريه وقفة ولا تأخير وهذا الامر هو غاية منازل الصديقين وصديقية العبد بحسب رسوخه في هذا المقام وكلما ازداد قربه وعلا مقامه قوي عزمه وتجرد صدقه فالصادق لا نهاية لطلبه ولا فتور لقصده بل قصده أتم وطلبه أكمل ونيته أجزم قال تعالى واعبد ربك حتى يأتيك اليقين واليقين هنا الموت باتفاق الاسلام فجاءه صلى الله عليه وسلم اذ جاءه وارادته وقصده ونيته في الذروة العليا ونهاية كمالها وتمامها فأين العلة في هذه الارادة ولكن العلة والنقص في الارادة التي يكون مصدرها النفس والهوى وغايتها نيل حظ المريد من محبوبه وان كان المحبوب يريد ذلك لكن غيره أحب اليه منه وهو ان يكون مراده محض حق محبوبه وحصول مرضاته فانيا عن حظه هو من محبوبه بل قد صار حظه منه نفس حقه ومراده فهذه هي الارادة والمحبة التي لا علة فيها ولا نقص نسأل الله تعالى أن يمن علينا ويحيينا ولو بنفس منها كما من بتعليمها ومعرفتها انه جواد كريم الوجه الثاني عشر أنه قال بعد هذا فصحة الارادة بذل الوسع واستفراغ الطاقة مع ترك الاختيار والسكون الى مجاري الاقدار فيكون كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف يشاء فان هذا من قوله وذلك في طريق الخواص نقص وتفرق وهل يكون بذل الوسع واستفراغ الطاقة الا مع تمام الارادة وانما الذي يعرض له النقص من الارادة نوعان أحدهما ارادة مصدرها طلب الحظ والثاني اختياره فيما يفعل به بغير اختياره فعن هاتين الارادتين ينبغي الفناء وفيهما يكون النقص فالكمال ترك الاختيار فيهما والسكون الى مراد المحبوب بحقه في الاولى والى مجاري أقداره وحكمه في الثانية فيكون في الاولى دافعا لا منازعا لقواطعه عن مراد محبوبه وفي الثانية كالميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف يشاء وبهذا التفصيل ينكشف سر هذه المسألة ويحصل التمييز بين محض العبودية وحظ النفس والله الموفق للصواب

فصل المثال الثاني

الزهد قال أبو العباس هو للعوام أيضا لأنه حبس النفس عن الملذوذات وإمساكها عن فضول الشهوات ومخالفة دواعي الهوى وترك ما لا يعني من الأشياء وهذا نقص في طريق الخاصة لأنه تعظيم للدنيا واحتباس عن انتقادها وتعذيب للظاهر بتركها مع تعلق الباطن بها والمبالاة بالدنيا عين الرجوع إلى ذاتك وتضييع الوقت في منازعة نفسك وشهود جنسك وبقائك معك ألا ترى إلى من أعطاه الله الدنيا بحذافيرها كيف قال هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب وذلك حيث عافى باطنه من شهودها وظاهره من التعلق بها فالزهد صرف الرغبة إليه وتعلق الهمة به والاشتغال به عن كل شيء يشتغل عنه ليتولى هو حسم هذه الأسباب عنك كما قيل إن بعض المريدين سأل بعض المشايخ فقال أيها الشيخ بأي شيء تدفع إبليس إذا قصدك بالوسوسة فقال الشيخ إني لا أعرف إبليس فأحتاج إلى دفعه نحن قوم صرفنا هممنا إليه فكفانا ما دونه وكما قيل

تسترت عن دهري بظل جناحه ... فعيني ترى دهري وليس يراني
فلو تسأل الأيام ما اسمي ما درت ... وأين مكاني ما عرفن مكاني

فيقال الكلام على هذا من وجوه أحدها أن جعل الزهد للعوام لما ذكره إنما يتم إذا كان الزهد ملزوما لمنازعة النفس ومجاذبتها لدواعي الشهوة والهوى وحينئذ فيكون قلبه مشغولا بتلك الدواعي والجواذب ونفسه تطالبه بها وزهده يأمره باجتنابها ولا ريب أن فوق هذا مقاما أعلى منه وهو طمأنينة نفسه وسكونها إلى محبوبها وانجذاب دواعيها إلى محابه ومرضاته وهذا للخواص من المؤمنين ولكن هذه المنازعة غير لازمة للزهد وإن كان لا بد منها في حكم الطبيعة لتحقق الابتلاء والامتحان وليتحقق ترك العبد حظه وهواه لربه إيثارا لله على هواه ونفسه الثاني أنه ولو كانت هذه المنازعة وحبس النفس عن الملذوذات من لوازم الزهد لم يكن فيها نقص ولا علة فإنها من لوازم الطبيعة وأحكام الجبلة وهي كالجوع والعطش والألم والتعب فحبس النفس عن إجابة دواعيها إيثارا لله ومرضاته عليها لا يكون نقصا ولا مستلزما لنقص وقد اختلف أرباب السلوك هنا في هذه المسألة وهي أيهما أفضل من له داعية وشهوة وهو يحبسها لله ولا يطيعها حبا له وحياء منه وخوفا أو من لا داعية له تنازعه بل نفسه خالية من تلك الدواعي والشهوة قد اطمأنت إلى ربها واشتغلت به عن غيره وامتلأت بحبه وإرادته

يقول إن ادعيت كذا من جهة كذا وكذا فأنا غير مقر به وإن ادعيته من جهة كذا وكذا فأنا مقر به كان جوابا صحيحا ولم يكن مقرا على الإطلاق المثال التاسع والسبعون قال أصحابنا لا يملك البائع حبس المبيع على قبض ثمنه بل يجبر على تسليمه إلى المشتري ثم إن كان الثمن معينا فتشاحنا في المبتدي بالتسليم جعل بينهما عدل يقبض منهما ويسلم إليهما وإن كان دينا أجبر البائع على التسليم ثم يجبر المشتري على دفع الثمن فإن كان ماله غائبا عن المجلس حجر عليه في ماله كله حتى يسلم الثمن وإن كان غائبا عن البلد فوق مسافة القصر ثبت للبائع الفسخ وإن كان دونها فهل يحجر عليه أو يثبت للبائع الفسخ على وجهين وإن كان المشتري معسرا فللبائع الفسخ والرجوع في عين ماله هذا منصوص أحمد والشافعي وللشافعية وجه أنه تباع السلعة ويقضى دينه من ثمنها فإن فضل له فضل أخذه وإن فضل عليه شيء استقر في ذمته والصحيح أن البائع يملك حبس السلعة على الثمن حتى يقبضه هذا هو موجب العدل والأفقه تمكين المشتري من القبض قبل الإقباض إضرار بالبائع فإنه قد يتلف المبيع بأن يكون طعاما أو شرابا فيستهلكه ويتعذر أو يتعسر عليه مطالبته بالثمن فيضر به ولا يزول ضرره إلا بحبس المبيع على ثمنه وعلى هذا لو دفع الثمن إلا درهما منه فله حبس المبيع كله على باقي الثمن كما يقول في الرهن وفيه قول آخر أنه يملك أن يتسلم من المبيع بقدر ما دفع من الثمن لأن كل جزء من المبيع في مقابلة كل جزء من أجزاء الثمن فإذا سلم بعض الثمن ملك وتسلم ما يقابله والفرق بينه وبين الرهن أن الرهن ليس بعوض من الدين وإنما هو وثيقة فملك حبسه إلى أن يستوفي جميع الدين والأول هو الصحيح لأنه إنما رضي بإخراج المبيع من ملكه إذا سلم له جميع الثمن ولم يرض بإخراجه ولا إخراج شيء منه ببعض الثمن فإذا خاف البائع أن يجبر على التسليم ثم يحال على تقاضي المشتري فالحيلة له في الأمن من ذلك أن يبيعه العين بشرط أن يرتهنها على ثمنها ويجوز شرط الرهن والضمين في عقد البيع ويصح رهنه قبل قبضه على ثمنه في أصح الوجهين كما يصح رهنه قبل القبض بدين آخر غير ثمنه ومن غير البائع بل رهنه على ثمنه أولى فإنه يملك حبسه على الثمن بدون الرهن كما تقدم فلأن يصح حبسه على الثمن رهنا أولى وأحرى وأيضا فإذا جاز التصرف فيه بالرهن من الأجنبي قبل القبض فجوازه من البائع أولى لأن المشتري يملك من التصرف مع البائع قبل القبض بالإقالة وغيرها ما لا يملكه مع الأجنبي ومن منع رهنه على ثمنه قبل قبضه لزمه أن يمنع رهنه على غير الثمن أو من الأجنبي فإن قيل الفرق بينهما أنه قبل القبض عرضه للتلف فيكون من ضمان البائع وكونه رهنا يقتضي أن يكون من ضمان راهنه فتنافى الأمران حيث يكون مضمونا له

ومضمونا

ومضمونا عليه من جهة واحدة وهذا بخلاف رهنه من أجنبي قبل القبض فانه يكون مضمونا عليه للاجنبي ومضمونا له من البائع ولا تنافي بين أن يكون مضمونا له لشخص ومضمونا عليه لغيره كالعين المؤجرة اذا أجرها المستأجر صارت المنافع مضمونة عليه للمستأجر الثاني ومضمونة له من المؤجر الاول وكذلك الثمار اذا بدا صلاحها جاز للمشتري بيعها وهي مضمونة له على البائع الاول ومضمونة عليه للمشتري الثاني قيل هذا الفرق الذي بني عليه هذا القول ممنوع ولكن يقال أي محذور في ذلك وان يكون مضمونا له وعليه وقولكم ان ذلك من جهة واحدة ليس كذلك فانه مضمون له من جهة كونه مشتريا فهو من ضمان البائع حتى يمكنه من قبضه ومضمونا عليه من جهة كونه راهنا فاذا تلف تلف من ضمانه حتى لو اتحدت الجهة لم يكن في ذلك محذور بحيث يكون مضمونا له وعليه من جهة واحدة كما قلتم انه يجوز للمستأجر اجارة ما استأجره لمؤجره فتكون المنافع مضمونة عليه وله فأي محذور في ذلك فان قيل فاذا تلف هذا الرهن فمن ضمان من يكون فالبائع يقول للمشتري تلف من ضمانك لانه رهن والمشتري يقول تلف من ضمانك لانه مبيع لم يقبض وليس أحدهما بترجيح جانبه أولى من الآخر قيل بل يكون تلفه من ضمان البائع لان ضمانه أسبق من ضمان الراهن لانه لما باعه كان من ضمانه حتى يسلمه فحبسه على ثمنه لا يسقط عنه ضمانه كما لو حبسه من غير ارتهان فارتهانه اياه لم يسقط عنه ما لزمه بعقد البيع من التسليم فانه انما احتاط لنفسه بعقد الرهن والراهن لم يتعوض عن الرهن بدين يكون الرهن في مقابلته فاذا تلف كان قد انتفع بالدين الذي أخذه في مقابلة الرهن فان أراد الحيلة في تصحيح الرهن والوثيقة وان لا يعرضه للبطلان فالحيلة له أن يقبضه من البائع ثم يرهنه اياه على ثمنه بعد قبضه فيصح الرهن ولا يتوالى هناك ضمانان فاذا تلف بعد ذلك تلف من ضمان المشتري ولا يسقط الثمن عنه فان خاف البائع أن يغيب المشتري أو يؤخر فكاك الرهن كتب كتابا وأشهد فيه شهودا انه ان مضى وقت كذا وكذا ولم يفتك الرهن فقد أذن له في بيعه وقبض دينه من ثمنه وما بقي منه فهو أمانة في يده فان خاف أن يبطل هذه الوكالة من يرى أنه لا يصح تعليقها بالشرط كتب في الكتاب أنه قد وكله الآن ويعلق تصرفه فيه بالبيع بمجيء الوقت فيعلق التصرف وينجز التوكيل فان خاف أن يعزله الموكل فلا ينفذ تصرفه فيه فالحيلة له أن يوكله وكالة دورية عند من يرى ذلك فيقول وكلما عزلته فقد وكلته وان شاء أن يقول وكلته وكالة لا تقبل العزل وان شاء أن يقول على أني متى عزلته فلا حق لي عنده ولا دعوى وما أدعيه عليه من جهة كذا وكذا فدعوى باطلة والله أعلم المثال

فليس فيها موضع لارادة غيره ولا حبه فرجحت طائفة الاول وقالت هذا يدل على قوة تعلقه وشدة محبته فهو يعاصي دواعي الطبع والشهوة ويقهرها سلطان محبته وارادته وخوفه من الله وهذا يدل على تمكنه من نفسه وتمكن حاله مع الله وغلبة داعي الحق عنده على داعي الطبع والنفس قالوا وأيضا فله مزيد في حاله وايمانه بهذا الايثار والترك مع حضور داعي الفعل عنده ومزيد مجاهدة عدوه الباطن ونفسه وهواه كما يكون له مزيد مجاهدة عدوه الظاهر قالوا والذوق والوجد يشهد لمزيده من الحب (٢٤٥) والانس والسرور والفرح بربه عند ايثاره على دواعي الهوى والنفس والمطمئن الذي ليس فيه هذا الداعي ليس له مزيد من هذه الجهة وان كان مزيده من جهة أخرى فهي مشتركة بينهما ويختص هذا بمزيده من الايثار والمجاهدة قالوا وأيضا فهذا مبتلى بهذه الدواعي والارادات وذاك معافى منها وقد جرت سنة الله في المؤمنين من عباده ان يبتليهم على حسب ايمانهم فمن ازداد ايمانه زيد في بلائه كما ثبت عن النبي انه قال يبتلى المرء على حسب دينه فان كان في دينه صلابة شدد عليه البلاء وان كان في دينه رقة خفف عنه البلاء والمراد بالدين هنا الايمان الذي يثبت عند نوازل البلاء فان المؤمن يبتلى على قدر ما يحمله ايمانه من وارد البلاء قالوا فالبلاء بمخالفة دواعي النفس والطبع من أشد البلاء فانه لا يصبر عليه الا الصديقون وأما البلاء الذي يجري على العبد بغير اختياره كالمرض والجوع والعطش ونحوها فالصبر عليه لا يتوقف على الايمان بل يصبر عليه البر والفاجر لا سيما اذا علم أنه لا معول له الا الصبر فانه ان لم يصبر اختيارا صبر اضطرارا ولهذا كان بين ابتلاء يوسف الصديق لما فعل به اخوته من الاذى والالقاء في الجب وبيعه بيع العبيد والتفريق بينه وبين أبيه وابتلائه بمراودة المرأة وهو شاب عزب غريب بمنزلة العبد لها وهي الداعية الى ذلك فرق عظيم لا يعرفه الا من عرف مراتب البلاء فان الشباب داع الى الشهوة والشاب قد يستحي من أهله ومعارفه من قضاء وطره فاذا صار في دار الغربة زال ذلك الاستحياء والاحتشام واذا كان عزبا كان أشد لشهوته واذا كانت المرأة هي الطالبة كان أشد واذا كانت جميلة كان أعظم فان كانت ذات منصب كان أقوى في الشهوة فان كان ذلك في دارها وتحت حكمها بحيث لا تخاف الفضيحة ولا الشهرة كان أبلغ فان استوثقت بتغليق الابواب والاحتفاظ من الداخل كان أقوى أيضا للطلب فان كان

الثمانون اذا ادعت عليه المرأة أنه لم ينفق عليها ولم يكسها مدة مقامها معه أو سنين كثيرة والحس والعرف يكذبها لم يحل للحاكم أن يسمع دعواها ولا يطالبه برد الجواب فان الدعوى اذا ردها الحس والعادة المعلومة كانت كاذبة وفى الصحيح عنه صلى الله تعالى عليه وسلم من ادعى ما ليس له فليس منا وليتبوأ مقعده من النار فلا يجوز لاحد حاكم ولا غيره أن يساعد من ادعى ما يشهد الحس والعرف والعادة أنه ليس له وان دعواه كاذبة ففى سماع دعواه واحضاره المدعى عليه واحلافه أعظم مساعدة ومعاونة على ما يكذبه الحس والعادة ثم كيف يسع الحاكم أن يقبل قول المرأة أنها هى التى كانت تنفق على نفسها وتكسو نفسها هذه المدة كلها مع شهادة العرف والعادة المطردة بكذبها ولا يقبل قول الزوج أنه هو الذى كان ينفق عليها و يكسوها مع شهادة العرف والعادة له ومشاهدة الجيران وغيرهم له أنه كل وقت يدخل الى بيته الطعام والشراب والفاكهة وغير ذلك فكيف يكذب من معه مثل هذه الشهادة و يقبل قول من يكذب دعواه ذلك وكيف يمكن الزوج أن يتخلص من مثل هذا البلاء الطويل والخطب الجليل الا بأن يشهد كل يوم بكرة وعشية شاهدى عدل على الانفاق وعلى الكسوة أو يفرض لها كل شهر دراهم معلومة يقبضها اياها باشهاد ثم اما أن يمكنها تخرج من بيته كل وقت تشترى لها ما يقوم بمصالحها أو يتصدى هو لخدمتها وشراء حوائجها فيكون هو العانى الاسير المالك وهى المالكة الحاكمة عليه وكل هذا ضد ما قصده الشارع من النكاح من الالفة والمودة والمعاشرة بالمعروف فان هذه المعاشرة من أنكر المعاشرة وأبعدها من المعروف ثم من العجب أنها اذا ادعت الكسوة والنفقة لمدة مقامها عنده فقال الزوج للحاكم سلها من أين كانت تأكل وتشرب وتلبس فيقول الحاكم لا يلزمها ذلك فيالله العجب اذا كانت غير معروفة بالدخول والخروج ولا يمكن الزوج أحدا يدخل عليها وهى فى منزله عدد سنين تأكل وتشرب وتلبس كيف لا يسألها الحاكم من الذى كان يقوم لك بذلك ومتى سأل الزوج سؤالها وجب عليه ذلك ومتى تركه كان تاركا للحق فان سمت أجنبيا غير الزوج كلفها الحاكم البينة على ذلك وان قالت أنا الذى كنت أطعم نفسى وأكسوها فى هذه المدة كان كذبها معلوما ولم يقبل قولها فان النفقة والكسوة واجبان على الزوج وهى تدعى أنها هى التى قامت عنه بهذا الواجب وأدته من مالها وهو يدعى أنه هو الذى فعل هذا الواجب وقام به وأسقطه عن نفسه ومعه الظاهر والاصل أما الظاهر فلا يمكن عاقلا أن يكابر فيه بل هو ظاهر ظهورا قريبا من القطع بل يقطع به فى حق أكثر الناس وأما الاصل فهو أيضا من جانب الزوج فانهما قد اتفقا على القيام بواجب حقها وهى تضيف ذلك الى نفسها أو الى

اجنبى

الرجل [illegible] كانت عليه الا مرة الناهية كان أبلغ فى الداعى فاذا كانت المرأة شديدة العشق والمحبة للرجل قد امتلأ قلبها من حبه فهذا الابتلاء الذى صبر معه مثل الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم صلوات الله عليهم أجمعين ولا ريب ان هذا الابتلاء أعظم من الابتلاء الاول بل هو من جنس ابتلاء الخليل بذبح ولده اذ كلاهما ابتلاء بمخالفة الطبع ودواعى النفس والشهوة ومفارقة حكم طبعه وهذا بخلاف البلوى التى أصابت ذا النون (٢٤٦) والتى أصابت أيوب قالوا وأيضا فان هذه هى النكتة التى من أجلها كان صالحو البشر أفضل من الملائكة لان الملائكة عبادتهم بريئة عن شوائب دواعى النفس والشهوات البشرية فهى صادرة عن غير معارضة ولا مانع ولا عائق وهى كالنفس للحى وأما عبادات البشر فمع منازعات النفوس وقمع الشهوات ومخالفة دواعى الطبع فكانت أكمل ولهذا كان أكثر الناس على تفضيلهم على الملائكة لهذا المعنى ولغيره فمن لم يخلق له تلك الدواعى والشهوات فهو بمنزلة الملائكة ومن خلقت له وأعانه الله على دفعها وقهرها وعصيانها كان أكمل وأفضل قالوا وأيضا فان حقيقة المحبة ايثار المحبوب ومرضاته على ما سواه قالوا وكيف يصح الايثار ممن لا تنازعه نفسه وطبعه الى غير المحبوب قالوا وليس العجب من قلب خال عن الشهوات والارادات قد ماتت دواعى طبعه وشهوته اذا عكف على محبوبه ومعبوده واطمأن اليه واجتمعت همته وانما العجب من قلب قد ابتلى بما ابتلى به من الهوى والشهوة ودواعى الطبيعة مع قوة سلطانها وغلبتها وضعفه وكثرة الجيوش التى تغير على قلبه كل وقت اذا آثر ربه ومرضاته على هواه وشهوته ودواعى طبعه فهو هارب الى ربه من بين تلك الجيوش وعاكف عليه فى تلك الزعازع والاهوية التى تغشى على الاسماع والابصار والافئدة يتحمل منها لاجل محبوبه ما لا تحمله الجبال الراسيات قالوا وأيضا فنهى النفس عن الهوى عبودية خاصة لها تأثير خاص وانما يحصل اذا كان ثم ما ينهى عنه النفس قالوا وأيضا فالهوى عدو الانسان فاذا قهر عدوه وصار تحت قبضته وسلطانه كان أقوى وأكمل ممن لا عدو له يقهره قالوا ولهذا كان حال النبى صلى الله عليه وسلم فى قهره قرينه حتى انقاد وأسلم له فلم يكن يأمره الا بخير أكمل من حال عمر حيث كان الشيطان اذا رآه يفر منه وكان اذا سلك فجا سلك غير فجه

أجنبي وهو يدعي انه هو الذي قام بهذا الواجب فقد اتفقا على وصول النفقة والكسوة اليها وهي تقول كان ذلك بطريق البدل والنيابة عنك وهو يقول لم يكن بطريق النيابة بل بطريق الاصالة وهذا بخلاف ما اذا لم يعلم وصول الحق الى مستحقه كالديون والاعيان المضمونة فان قبول قول المنكر متوجه ومعه الاصل ونظيره أن يعترف بقضاء الدين ووصوله اليه ثم ينكر أن يكون وصل اليه من جهة من عليه الدين فيقول وصل الى الدين الذي لى لكن ليس من جهتك بل غيرك أداه عنك فهل يقبل قوله ههنا أحد ويقال الاصل بقاء الدين فى ذمته وهذا نظير مسألة الانفاق سواء بسواء فانها مقرة بوصول النفقة اليها وأنكرت ما كذبها الحس ومدعية أن وصول ذلك اليها لم يكن من جهتك فدعواها تخالف الاصل والظاهر جميعا ولهذا لا يقبلها مالك وفقهاء أهل المدينة وقولهم هو الصواب والحق الذي ندين الله به ولا نعتقد سواه وأى قبيح أعظم من دعوى امرأة على الزوج ترك النفقة والكسوة ستين سنة أو أكثر وهي لا تدخل ولا تخرج ولا يمكنها تعيش عيش الملائكة فيطالب الزوج بنفقة جميع المدة التى ادعت ترك الانفاق فيها وقد تستغرق جميع ماله وداره وثيابه ودوابه فيؤخذ ذلك كله منه ويحبس على الباقي ويجعل دينا مستقرا فى ذمته تطالبه به متى شاءت وهي تعلم كذب دعواها ووليها يعلم ذلك وجيرانها والله وملائكته والذي يساعدها ويخاصم عنها ولما علم فقهاء العراق كأبى حنيفة وأصحابه ما فى ذلك من الشر والفساد والضرر الذي لا تأتي به شريعة أسقطوا النفقة والكسوة عن الزوج بمضي الزمان فلم يسمعوا دعوى المرأة بذلك كما يقوله منازعوهم فى نفقة القريب فنفسوا الخناق عن الازواج بهذا القول وأشموهم رائحة الحياة ونفسوا عنهم بعض الكرب ولقد أقام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعد أن أرسله الله تعالى الى الناس ثلاث عشرة سنة بمكة وعشرا بالمدينة فما ألزم زوجا قط بنفقة وكسوة ماضية ولا ادعتها عنده امرأة وكذلك خلفاؤه الراشدون من بعده وكذلك عصر الصحابة جميعهم وعصر التابعين ولا حبس على عهده وعهد أصحابه وتابعيهم رجل واحد على ذلك ولا على صداق امرأته مع صيانة نسائهم ولزومهم بيوتهن وعدم تبرجهن وتزينهن وخروجهن فى الاسواق والطرقات والازواج فى الحبوس وهن مسيبات يخرجن ويذهبن حيث أردن فوالله لو رأى هذا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لشق عليه غاية المشقة ولعظم عليه وعز عليه ولكان الى دفعه وانكاره أسرع منه الى غيره وبالجملة فالدعوى اذا كانت مما تردها العادة والعرف والظاهر لم يجز سماعها ومن ههنا قال أصحاب مالك اذا كان رجل حائزا لدار متصرفا فيها مدة السنين الطويلة بالبناء والهدم والاجارة والعمارة

وبهذا خرج الجواب عن السؤال المشهور وهو كيف لا يقف الشيطان لعمر بل يفر منه ومع هذا فقد تفلت على النبي وتعرض له وهو فى الصلاة وأراد ان يقطع عليه صلاته ومعلوم ان حال الرسول أكمل وأقوى والجواب ما ذكرناه ان شيطان عمر كان يفر منه فلا يقدر أحدهما على قهر صاحبه وأما الشيطان الذى تعرض للنبي فقد أخذه وأسره وجعله فى قبضته كالاسير وأين من يهرب منه عدوه فلا يظفر به الى من يظفر بعدوه فيجعله فى أسره وتحت يده وقبضته فهذا ونحوه مما احتج به أرباب هذا القول واحتج أرباب القول الثاني وهم الذين نجوا من لا منازعة فى طاعته ولا هوى له يغالبه بأن قالوا كيف تستوي النفس المطمئنة الى ربها العاكفة على حبه التي لا منازعة فيها أصلا ولا داعية تدعوها الى الاعراض عنه والنفس المشغولة بمحاربة هواها ودواعيها وجواذبها قالوا وأيضا فى الزمن الذى يشتغل هذا بنفسه ومحاربته هواه وطبعه يكون صاحب النفس المطمئنة قد قطع مراحل من سيره وفاز بقربه فات صاحب المحاربة والمنازعة قالوا وهذا كما لو كان رجلان مسافرين فى طريق فطلع على أحدهما قاطع اشتغل بدفعه عن نفسه ومحاربته ليتمكن من سيره والآخر سائر لم يعرض له قاطع بل هو على جادة سيره فان هذا يقطع من المسافة أكثر مما يقطع الاول ويقرب الى الغاية أكثر من قربه قالوا وأيضا فان للقلب قوة يسير بها فاذا صرف تلك القوة فى دفع العوارض والدواعي القاطعة له عن السير اشتغل قلبه بدفعها عن السير فى زمن المدافعة قالوا ولان المقصود بالقصد الاول انما هو السير الى الله والاشتغال بدفع العوارض مقصود لغيره والاشتغال بالمقصود لنفسه أولى وأفضل من الاشتغال بالوسيلة قالوا وأيضا فالعوارض المانعة للقلب من سيره هي من باب المرض واجتماع القلب على الله وطمأنينته به وسكونه اليه بلا منازع ولا جاذب ولا معارض هو صحته وحياته ونعيمه فكيف يكون القلب الذى يعرض له مرض وهو مشغول بدوائه أفضل من القلب الذى لا داء به ولا علة قالوا وأيضا فهذه الدواعي والميول والارادات التى فى القلب تقتضي جذبه وتعويقه عن وجه سيره وما فيه من داعي المحبة والايمان يقتضي جذبه عن طريقها فتتعارض الجواذب فان لم توقفه عوقته ولا بد فأين السير بلا معوق من السير مع المعوق قالوا وأيضا فالذي يسير العبد باذن ربه انما هو همته والهمة اذا علت وارتفعت لم تلحقها القواطع

و ينسبها الى نفسه و يضيفها الى ملكه وانسان حاضر يراه و يشاهد افعاله فيها طول هذه المدة وهو مع ذلك لا يعارضه فيها ولا يذكر أن له فيها حقا ولا مانع يمنعه من مطالبته من خوف سلطان أو نحو ذلك من الضر والمانع من المطالبة بالحقوق ولا بينه و بين المتصرف فى الدار قرابة ولا شركة فى ميراث وما أشبه ذلك مما يتسامح به القرابات وذوو الصهر بينهم فى اضافة أحدهم أموال الشركة الى نفسه بل كان عريا عن ذلك كله ثم جاء بعد طول هذه المدة يدعيها لنفسه و يزعم أنها له و يريد أن يقيم بذلك بينة فدعواه غير مسموعة أصلا فضلا عن بينة وتقر الدار بيد حائزها قالوا لان كل دعوى ينفيها العرف وتكذبها العادة فانها مرفوضة غير مسموعة قال تعالى وأمر بالعرف وأوجبت الشريعة الرجوع اليه عند الاختلاف فى الدعاوى وغيرها قلت ومما يدل على ذلك أن الظن المستفاد من هذا الظاهر أقوى بكثير من الظن المستفاد من شاهدين أوشاهد و يمين أو مجرد النكول أو الرد وأيضا فان البينة على المدعى والبينة هى كل ما يبين الحق والعرف والعادة والظاهر القوى الذى ان لم يقطع به فهو أقرب الى القطع يدل على صدق الزوج وكذب المرأة فى امساكها عن كسوتها والانفاق عليها مدة سنين متطاولة ولا يدخل عليها أحد ولا هى ممن تخرج تشترى لها ما تأكل وتلبس فالشريعة جاءت بما يعرف لا بما ينكر وقد أخبر سبحانه أن للزوجة مثل الذى عليها بالمعروف وليس من المعروف الزام الزوج بنفقة ستين سنة و كسوتها واجتياح ماله كله وسلبه نعمة الله عليه و جعله مسكينا ذا متربة وجعله أسيرا لها بنا فى مارغب به بل هذا من انكر المنكر ومما يراه المسلمون بل وغير المسلمين قبيحا وأيضا فالرجل له ولاية الانفاق على زوجته كما له ولاية حبسها ومنعها من الخروج من بيته فالشارع جعل اليه ذلك وأمره أن يقوم على المرأة ولا يؤتيها ماله بل يرزقها و يكسوها فيه وجعلها الله سبحانه فى ذلك بمنزلة الصغير والمجنون مع وليه كما قال تعالى ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما وارزقوهم فيها واكسوهم قال ابن عباس لا تعمد الى مالك الذى خولك الله وجعله لك معيشة فتعطيه امرأتك و بنيك فيكونوا هم الذين يقومون عليك فى كسوتهم ورزقهم ومؤنتهم فالسفهاء هم النساء والصبيان وقد جعل الله سبحانه الازواج قوامين عليهم كما جعل ولى الطفل قواما عليه والقوام على غيره أمين عليه ومن قبل قول الزوجة أو الطفل بعد البلوغ فى عدم ايصال النفقة اليهما فقد جعلهما قوامين على الازواج والاولياء ولولم يقبل قول الزوج لم يكن قواما على المرأة فان المرأة اذا كانت غريما مقبول القول دون الزوج كانت هى القوامة وبالجملة فللرجل على امرأته ولاية حتى فى مالها فان له أن يمنعها من التبرع لانه انما بذل لها المهر لمالها

...يرتفع فى الجو فات الرماة ولم يلحقه الحصا ولا البنادق ولا السهام وانما تدرك هذه الاشياء الطائر اذا لم يكن عاليا فكذلك الهمة العالية قد فاتت الجوارح والكواسر وانما تلحق الآفات والدواعى والارادات الهمة النازلة فاما اذا علت فلا تلحقها الآفات قالوا وأيضا فالحس والوجود شاهد بان قلب المحب متى خلا من غير المحبوب واجتمعت شؤنه كلها على محبوبه ولم يبق فيه التفات الى غيره كان أكمل محبة من القلب الملتفت الى الرقباء المقيم بمحاربتهم ومدافعتهم والهرب منهم والتوارى عنهم قالوا فكم بين محب يجتاز على الرقبا فيطرقون من هيبته وخشيته ولا يرفع أحدهم رأسه اليه و بين محب اذا اجتاز بالرقباء هاشوا عليه كالزنابير أو كالكلاب فاشتغل بدفعهم وحرابهم أو جد فى الهرب منهم فكيف يسوى هذا بهذا أم كيف يفضل عليه مع هذا التباين قالوا وأيضا فالمحبة الخالصة الصادقة حقيقتها انها نار تحرق من القلب ما سوى مراد المحبوب واذا احترق ما سوى مراده عدم وذهب أثره فاذا بقى فى القلب شئ من سوى مراده لم تكن المحبة تامة ولا صادقة بل هى محبة مشوبة بغيرها فالمحب الصادق ليس فى قلبه سوى مراد محبوبه حتى ينازعه و يدافعه والآخر فى قلبه بقية لغير المحبوب فهو جاهد على اخراجها واعدامها قالوا وأيضا فالواردات الالهية ترد على القلوب على قدر استعدادها وقبولها فاذا صادفت القلب خاليا فارغا من العوارض والمنازعات ودواعى الطبع والهوى ملأته على قدر فراغه واذا امتلأ منها لم يبق لاضدادها وأعدائها فيه مساغ واذا صادفت فيه موضعا مشغولا بغيره من الاغيار لم يساكن ذلك الموضع فيدخل الضد والعدو من تلك الثلمة كما قال القائل

لا كان من لسواك فيه بقية \
يجد السبيل بها اليه العذل

وقال

ومهما بقى للصحو فيه بقية * يجد نحوه اللاحى سبيلا الى العذل

قالوا وأيضا فدواعى الطبع ونفسها وارادات النفس وشهواتها مصدرها اما جهل واما ضعف فانها لا تصدر الا من جهل العبد بآثارها وموجباتها أو يكون عالما بذلك لكن فيه ضعف وعجز يمنعه عن محوها من قلبه بالكلية وما كان سببه جهلا أو عجزا لا يكون كمالا ولا مستلزما الكمال وأما القلب الخالى منها ومن الاشتغال بدفعها فقلب شريف قوى علوى رفيع قالوا وأيضا فهذه الارادات والدواعى لا تسير العبد بل اما أن تنكسه ان أجابها واما أن تعوقه

ونفسها فليس لها أن تتصرف فى ذلك بما يمنع الزوج من كمال استمتاعه وقد سوى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بين نفقة الزوجات ونفقة المماليك وجعل المرأة عانية عند الزوج والعانى هو الاسير وهو نوع من الرق فقال فى المرأة تطعمها مما تأكل وتكسوها مما تلبس وكذلك قال فى الرقيق سواء فهو أمين على نفقة امرأته ورقيقه وأولاده بحكم قيامه عليهم ولم يوجب الله سبحانه على الازواج تمليك النساء طعاما وادما ولا دراهم أصلا وانما أوجب اطعامهن وكسوتهن بالمعروف وايجاب التمليك مما لم يدل عليه كتاب ولا سنة ولا اجماع وكذلك فرض النفقة وتقديرها بدراهم لا أصل له من كتاب ولا سنة ولا قول صاحب ولا تابع ولا أحد من الائمة الاربعة فان الناس لهم قولان منهم من يرى تقديرها بالحب كالشافعى ومنهم من يردها الى العرف وهم الجمهور ولا يعرف عن أحد من السلف والائمة تقديرها بالدراهم البتة ثم ان فيه ايجاب المعاوضة على الواجب لها بغير رضا الزوج ومن يجيز اعتبار كون الدراهم قيمة الواجب لها من الحب أو الواجب بالعرف ففرض الدراهم مخالف لهذا وهذا ولاقوال جميع السلف والائمة وفيه من الفساد ما لا يحصيه الا الله فانه ان مكن المرأة تخرج كل وقت تشترى لها طعاما وادما دخل على الزوج والزوجة من الشر والفساد ما يشهد به العيان وان منعها من الخروج أضر بها وبالزوج وجعله كالاجير والاسير معها وبالجملة فبنى الحكم فى الدعاوى على غلبة الظن المستفاد من براءة الاصل تارة ومن الاقرار تارة ومن البينة تارة ومن النكول مع يمين الطالب المردودة أو بدونها وهذا كله مما يبين الحق ظاهرا فهو بينة وتخصيص البينة بالشهود عرف خاص والا فالبينة اسم لما يبين الحق فمن كان ظن الصدق من جانبه أقوى كان بالحكم أولى ولهذا قدمنا جانب المدعى عليه حيث لا بينة ولا اقرار ولا نكول ولا شاهد خلا استنادا الى الظن المستفاد من البراءة الاصلية فاذا كان فى جانب المدعى بينة شرعية قدم لقوة الظن فى جانبه بالبينة وكذلك اذا كان فى جانبه قرينة ظاهرة كاللوث قدم جانبه ولذلك قدم جانبه فى اللعان اذا نكلت المرأة فانها ترجم بايمانه لقوة الظن فى جانبه باقدامه على اللعان مع نكول المرأة عن دفع الحد والعار عنها باليمين وقد أجمع الناس على جواز وطء المرأة التى تزف الى الزوج ليلة العرس وان لم يكن رآها ولا وصفت له من غير اشتراط شاهدى عدل يشهدان أنها هى امرأته التى وقع عليها العقد اكتفاء بالظن الغالب بل بالقطع المستفاد من شاهد الحال وكذلك يجوز الا كل من الهدى المنحور اذا كان بالفلاة ولا أحد عنده اكتفاء بشاهد الحال وكذلك درج السلف والخلف على جواز أكل الفقير مما يدفعه اليه الصبى ويخرجه من البيت من كسرة

وتوقفه ان اشتغل بدافعها واما الارادات القلب السليم منها والنفس المطمئنة بربها فكل ارادة منها تسير به مراحل على مهله فهو يسير رويدا وقد سبق السعادة كما قيل

من لى بمثل سيرك المذلل * تمشى رويدا وتجى فى الاول

قالوا وأيضا فان هذه الدواعى والارادات انما تحمد عاقبتها اذا ردت صاحبها الى حال السليم منها فيكون كماله فى تشبهه به وسيره معه فكيف يكون أكمل ممن كماله انما هو فى تشبهه به قالوا وأيضا فالنفوس ثلاثة أمارة ولوامة ومطمئنة والنفس الامارة هى المطبعة لدواعى طباعها وشهواتها فبادى كونها أمارة هى تلك الدواعى والارادات فتستحكم فتصير عزمات ثم توجب الافعال فبدأ صفة الذم فيها تلك الدواعى وأما النفس المطمئنة فهى التى عدمت هذه المبادى فعدمت غاياتها فكيف تكون مبادى النفس الامارة مما توجب لها مزية على النفس المطمئنة فهذا ونحوه مما احتجت به هذه الطائفة أيضا لقولها والحق ان كلا الطائفتين على صواب من القول لكن كل فرقة لحظت غير ملحظ الفرقة الاخرى فكأنهما لم يتواردا على محل واحد بل الفرقة الاولى نظرت الى نهاية سير المجاهد لنفسه وارادته وما ترتب له عليها من الاحوال والمقامات فأوجب لها شهودها بانه رجحانه فحكمت بترجيحه واستحلت بتفضيله والفرقة الثانية نظرت الى بدايته فى شانه ذلك ونهاية النفس المطمئنة فأوجب لها شهود الامرين الحكم بترجيح القلب الخالى من تلك الدواعى ومجاهدتها وكل واحد من الطائفتين فقد أدلت بحجج لا تمانع وأتت ببينات لا ترد ولا تدافع وفصل الخطاب فى هذه المسألة يظهر بمسألة يتضح معها من لبابها ويخرج من مشكاتها وهى ان العبد اذا كان

له حال أو مقام مع الله ثم نزل عنه الى ذنب ارتكبه ثم تاب من ذنبه هل يعود الى مثل ما كان أو لا يعود بل ان رجع رجع الى أنزل من مقامه وأنقص من رتبته أو يعود خيرا مما كان فقالت طائفة يعود بالتوبة الى مثل حاله الاولى فان التائب من الذنب كمن لا ذنب له واذا محى أثر الذنب بالتوبة صار وجوده كعدمه فكأنه لم يكن فيعود الى مثل حاله قالوا ولان التوبة هى الرجوع الى الله بعد الاباق منه فان المعصية اباق العبد من ربه فاذا تاب الى الله فقد رجع اليه واذا كان مسمى التوبة هو الرجوع فلو لم يعد الى حالته الاولى

ونحوها اعتمادا على شاهد الحال وكذلك يكتفى بشاهد الحال فى بيع المحقرات بالمعاطاة وهو عمل الامة قديما وحديثا واكتفى الشارع بسكوت البكر فى الاستئذان وجعله دليلا على رضاها اكتفاء بشاهد الحال واكتفت الامة فى الاعتماد على المعاملات والهدايا والتبرعات بكونها بيد الباذل لان دلالتها على ملكه يورث ظنا ظاهرا واكتفت بمعامله مجهول الحرية والرشد واقراره وأكل طعامه وقبول هديته واباحة الدخول الى منزله اعتمادا على شاهد الحال والظن الغالب واكتفى الشارع بقول الخارص الواحد فى محل الظن والخرص نظرا الى الظن المستفاد من خرصه واكتفت الامة بقول المقومين فيما دق وجل اعتمادا على الظن المستفاد من تقويمهم وقد اكتفى الشارع بتقويم اثنين فى جزاء الصيد واكتفى بواحد فى الخرص واكتفى بواحد فى رؤية هلال رمضان واكتفت الامة بقول القاسم وحده أو بقول اثنين وكذلك القائف أو القائفين واكتفت بقول المؤذن الواحد وقد اكتفى كثير من الفقهاء بانتساب الصغير وميل طبعه الى من ادعاه من رجلين أو أكثر اعتمادا على الظن المستفاد من ميل طبعه وهو من أضعف الظنون ولذلك كان فى آخر رتب الالحاق عند عدم القائف وكذلك الاعتماد فى وجوب دفع اللقطة أو جوازه على الظن المستفاد من وصف الواصف لها وكذلك الاعتماد على أمارات الطهارة والنجاسة والقبلة والاعتماد على قول الكيال والوزان وقال كثير من الفقهاء يحبس المدعى عليه بشهادة المستورين الى أن يعدلا اذ الغالب من المستورين العدالة فاستجازوا عقوبة الرجل المسلم بمثل هذا الظن وقالوا تسمع الشهادة على المقر بالاقرار من غير اشتراط ذكر الشاهدين أهلية المقر حال اقراره اعتمادا على ظن الرشد والاختيار وقالوا اذا كان الجدار حائلا بين الجدار وبين ملك المدعى أو بين ملكه وبين موات اختص به المدعى لان الظاهر أن الطريق والموات لا يحاط عليهما وقالوا لو كان بين الملكين جدار متصل بأبنية أحد الملكين اتصالا بدواخل ورصيف اختص به صاحب الرصيف لقوة الظن من جانبه اذ معه دلالتان أحدهما الاتصال والثانية التداخل والرصيف فلو تداخل من أحد طرفيه فى ملك أحدهما ومن الطرف الآخر فى الملك الآخر اشتركا فيه لتساويهما فى الدلالتين وقالوا ان الابواب المشرعة فى الدروب غير النافذة دالة على الاشتراك فى الدرب الى حد كل باب منها فيكون الاول شريكا من أول الدرب الى بابه والثانى شريكا الى بابه والذى فى آخر الدرب شريك من أول الدرب الى بابه قولا واحدا والى آخر الدرب على الصحيح وكل ذلك بناء على الظن المستفاد من الاستطراق وانه محق وقالوا ان الاجنحة المطلة على ملك الجار

[illegible] توبة تامة والكلام انما هو فى التوبة النصوح قالوا ولان التوبة كما ترفع أثر الذنب فى الحال بالاقلاع عنه وفى المستقبل بالعزم على ان لا يعود فكذلك ترفع أثره فى الماضى جملة ومن أثره فى الماضى انحطاط منزلته عند الله ونقصانه عنده فلابد من ارتفاع هذا الاثر بالتوبة واذا ارتفع بها عاد الى مثل حاله قالوا ولانه لو بقى نازلا من مرتبته منحطا عن منزلته بعد التوبة كما كان قبلها لم تكن التوبة قد محت أثر الذنب ولا أفادت فى الماضى شيأ وان عاد الى دون منزلته ولم يبلغها فبلوغه تلك الدرجة انما كان بالتوبة فلو ضعف تأثير التوبة عن اعادته الى منزلته الاولى لضعف عن تبليغه تلك المنزلة التى وصل اليها ولو لم تكن التوبة ضعيفة التأثير عن تبليغه تلك المنزلة لم تكن ضعيفة التأثير عن اعادته الى المنزلة الاولى قالوا وأيضا سبحانه ربط الجزاء بالاعمال وربط الاسباب بمسبباتها فالجزاء من جنس العمل فكما رجع التائب الى الله بقلبه رجوعا تاما رجع الله عليه بمنزلته وحاله بل ما رجع العبد الى الله حتى رجع الله بقلبه اليه أولا فرجع الله اليه وتاب عليه ثانيا فتوبة العبد محفوفة بتوبتين من الله توبة منه اذنا وتمكينا فتاب بها العبد وتاب الله عليه قبولا ورضى فتوبة العبد بين توبتين من الله وهذا يدل على عنايته سبحانه وبره ولطفه بعبده التائب فكيف يقال انه لا يعيده مع هذا اللطف والبر الى حاله قالوا وأيضا فان التوبة من أجل الطاعات وأوجبها على المؤمنين وأعظمها اغناء عنهم وهم اليها أحوج من كل شئ وهى من أحب الطاعات الى الله فانه يحب التوابين ويفرح بتوبة عبده اذا تاب اليه أعظم فرح وأكمله واذا كانت بهذه المثابة فلا تنبها آت بما هو من أفضل القربات وأجل الطاعات فاذا كان قد حصل له بالمعصية انحطاط ونزول مرتبة فبالتوبة يحصل له مزيد تقدم وعلو درجة فان لم تكن درجته بعد التوبة أعلى فانها لا تكون أنزل قالوا وأيضا فانا اذا قابلنا بين جناية المعصية والتقرب بالتوبة وجدنا الحاصل من التوبة أرجح من الاثر الحاصل من المعصية والكلام انما هو فى التوبة النصوح الكاملة وجانب الفضل أرجح من جانب العدل ولهذا كان فى جانب العدل آحادا بآحاد وجانب الفضل آحاد بعشرات الى سبعمائة الى اضعاف كثيرة وهذا يدل على رجحان جانب الفضل وغلبته وكذلك مصدرهما من الغضب والرحمة فان رحمة الرب تغلب غضبه قالوا وأيضا فالذنب بمنزلة المرض

وعلى الدروب غير النافذة أنها ملك لأصحابها اعتمادا على غلبة الظن بذلك وانها وضعت باستحقاق وكذلك القنوات والجداول الجارية في ملك الغير دالة على اختصاصها بأرباب المياه بناء على الظن المستفاد من ذلك وان صورها دالة على أنها وضعت باستحقاق ومن ذلك دلالة الايدي على الاستحقاق اعتمادا على الظن الغالب مع القطع بكثرة وضع الايدي عدوانا وظلما ولاسيما ما اطردت العادة باجارته وخروجه عن يد مالكه الى يد مستأجره كالاراضي والدواب والحوانيت والرباع والحمامات وان الغالب فيها الخروج عن يد مالكها وقد اعتبرتم اليد وقد استشكل كثير من فضلاء أصحابكم هذا واعترف بأن جوابه مشكل جدا ولما كان الظن المستفاد من الاقرار أقوى من الظن المستفاد من هذه الوجوه قدم عليها ولما كان الظن المستفاد من الاقرار أقوى من الظن المستفاد من الشهود قدم الاقرار عليها وكذلك اكتفى كثير من الفقهاء بالمرة الواحدة في الاقرار بالزنا والسرقة لهذه القوة قالوا لان وازع المقر طبعي ووازع الشهود شرعي والوازع الطبعي أقوى من الوازع الشرعي ولذلك يقبل الاقرار من المسلم والكافر والبر والفاجر لقيام الوازع الطبعي ولما كان الوازع عن الكذب على نفسه مخصوصا بالمقر كان اقراره حجة قاصرة عليه وعلى من يتلقى عنه لكونه فرعه ولما كان الوازع الشرعي عاما بالنسبة الى جميع الناس كان حجة عامة فان خوف الله يزع الشاهد عن الكذب في حق كل أحد وكان قوله حجة عامة لكل أحد ولما كان وازع الكذب مختصا بالمقر قصر عليه فهو خاص قوي والشهادة عامة ضعيفة بالنسبة الى الاقرار قوية بالنسبة الى الايدي والى ما ذكرناه من الدلالات ومعلوم أن الظنون لا تقع الا بأسباب تثيرها وتحركها فمن أسبابها الاستصحاب واطراد العادة أو كثرة وقوعها أو قول الشاهد أو شاهد الحال ولا يقع في الظنون تعارض وانما يقع في أسبابها وعلاماتها فاذا تعارضت أسباب الظنون فان حصل الشك لم يحكم بشئ وان وجد الظن في أحد الطرفين حكم به والحكم للراجح لان مرجوحية مقابله تدل على ضعفه فاذا تعارض سببا ظن وكان كل واحد منهما مكذبا للآخر تساقطا كتعارض البينتين والامارتين وان لم يكن كل واحد منهما مكذبا للآخر عمل بهما على حسب الامكان كدابة عليها راكبان وعبد ممسك بيده اثنان ودار فيها ساكنان وخشبة لها حاملان وجدار متصل بملكين ونظائر هذا فان كان أحدهما أرجح من الآخر عمل بالراجح كالشاهد مع البراءة الاصلية ومع اليد يقدم عليهما لرجحانه ولما كانت اليد لها مراتب في القوة والضعف كان يد اللابس لثيابه وعمامته وخفه ومنطقته ونعله أقوى من يد الجالس على البساط والراكب على الدابة ويد

والتوبة بمنزلة العافية والعبد اذا مرض ثم عوفي وتكاملت عافيته رجعت صحته الى ما كانت بل ربما رجع أقوى وأكمل مما كانت عليه لانه ربما كان معه في حال العافية آلام وأسقام كامنة فاذا اعتل ظهرت تلك الاسقام ثم زالت بالعافية جملة فتعود قوته خيرا مما كانت وأكمل وفي مثل هذا قال الشاعر لعل عتبك محمود عواقبه * وربما صحت الاجسام بالعلل وهذا الوجه هو أحد ما احتج به من قال انه يعود بالتوبة خيرا مما كان قبل التوبة واحتجوا لقولهم أيضا بأن التوبة تثمر للعبد محبة من الله خاصة لا تحصل بدون التوبة بل التوبة شرط في حصولها وان حصل له محبة أخرى بغيرها من الطاعات فالمحبة الحاصلة له بالتوبة لا تنال بغيرها فان الله يحب التوابين ومن محبته له فرحه بتوبة أحدهم أعظم فرح وأكمله فاذا أثمرت له التوبة هذه المحبة ورجع بها الى طاعاته التي كان عليها أولا انضم أثرها الى أثر تلك الطاعات فقوي الاثران فحصل له المزيد من القرب والوسيلة وهذا بخلاف ما يظنه من نقصت معرفته بربه من انه سبحانه اذا غفر لعبده ذنبه فانه لا يعود الود الذي كان له منه قبل الجناية واحتجوا في ذلك بأثر اسرائيلي مكذوب ان الله قال لداود يا داود أما الذنب فقد غفرناه وأما الود فلا يعود وهذا كذب قطعا فان الود يعود بعد التوبة النصوح أعظم مما كان فانه سبحانه يحب التوابين ولو لم يعد الود لما حصلت له محبته وأيضا فانه يفرح بتوبة التائب ومحال أن يفرح بها أعظم فرح وأكمله وهو لا يحبه وتأمل سر اقتران هذين الاسمين في قوله انه هو يبدئ ويعيد وهو الغفور الودود تجد فيه من الرد والانكار على من قال لا يعود الود والمحبة منه لعبده أبدا ما هو من كنوز القرآن ولطائف فهمه وفي ذلك ما يهيج القلب السليم ويأخذ بمجامعه ويجعله عاكفا على ربه الذي لا اله الا هو ولا رب له سواه عكوف المحب الصادق على محبوبه الذي لا غنى له عنه ولا بد له منه ولا تندفع ضرورته بغيره أبدا واحتجوا أيضا بأن العبد قد يكون بعد التوبة خيرا منه قبل الخطيئة لان الذنب يحدث له من الخوف والخشية والانكسار والتذليل لله والتضرع بين يديه والبكاء على خطيئته والندم عليها والاسف والاشفاق ما هو من أفضل أحوال العبد وأنفعها له في دنياه وآخرته ولم تكن هذه الامور لتحصل بدون أسبابها اذ حصول الملزوم بدون لازمه محال والله يحب من عبده كسرته وتضرعه وذله بين يديه واستعطافه وسؤاله أن يعفو عنه

الرا كب أقوى من يد السائق والقائد ويد السا كن للدار أضعف من تلك الايدي و يد من هو داخل الحمام والخان أضعف من هذا كله فدم أقوى الايدي على أضعفها فلو كان في الدار اثنان وتنازعا فيها او في لباسهما الذي عليهما جعلت الدار بينهما لاستوائهما في اليد وكان القول قول كل منهما في لباسه المختص به لقوة يده بالقرب والاتصال ولو تنازع الزوجان في متاع البيت أو الصانعان في حانوت كان القول قول من يدعي منهما ما يصلح له وحده لغلبة الظن القريب من القطع باختصاصه به وكذلك لو رأينا رجلا حاسر الرأس وأمامه ذاعر على رأسه عمامة و بيده عمامة لا تليق به وهو هارب فتقديم يده على الظن المستفاد من كونها يدا عادية مما يقطع ببطلانه وكذلك فقيه له كتب في داره وامرأته غير معروفة بشئ من ذلك البتة فتقديم يدها على شاهد حال الفقيه في غاية البعد وأين الظن المستفاد من هذا وأمثاله الى الظن المستفاد من النكول ومن الظن المستفاد من اليد بل أين ذلك الظن من الظن المستفاد من الشاهد واليمين ومن الممتنع أن يرتب الشارع الاحكام على هذه الظنون ولا يرتبها على الظنون التي هي أقوى منها بمراتب كثيرة بل يكاد يقرب من القطع كما أنه من المحال أن يحرم التأفيف للوالدين و يبيح شتمهما وضربهما وهل تقديم قول المدعي في القسامة الا اعتمادا على الظن الغالب باللوث وقدم هذا الظن على ظن البراءة الاصلية لقوته وقد حكى الله سبحانه في كتابه عن الشاهد الذي شهد من أهل امرأة العزيز وحكم بالقرائن الظاهرة على براءة يوسف عليه السلام وكذب المرأة بقوله ان كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وان كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين فلما رأى قميصه قد من دبر قال انه من كيدكن ان كيدكن عظيم وسمى الله سبحانه ذلك آية وهي أبلغ من البينة فقال ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين وحكى سبحانه ذلك مقررا له غير منكر وذلك يدل على رضاه به ومن هذا حكم نبي الله سليمان بن داود عليه السلام بالولد الذي تنازع فيه المرأتان فقضى به داود للكبرى فخرجتا على سليمان فقصتا عليه القصة فقال سليمان عليه السلام ائتوني بالسكين أشقه بينكما فقالت الصغرى لا تفعل يا نبي الله هو ابنها فقضى به للصغرى ولم يكن سليمان ليفعل ولكن أوهمهما ذلك فطابت نفس الكبرى بذلك استرواحا منها الى راحة التسلي والتأسي بذهاب ابن الاخرى كما ذهب ابنها ولم يطب قلب الصغرى بذلك بل أدركتها شفقة الأم ورحمتها فناشدته أن لا يفعل استرواحا الى بقاء الولد ومشاهدته حيا وان اتصل الى الاخرى وتأمل حكم سليمان به للصغرى وقد أقرت به للكبرى تجد تحته ان الاقرار اذا ظهرت أمارات كذبه و بطلانه لم يلتفت اليه ولم يحكم به على المقر وكان وجوده كعدمه وهذا هو

[illegible] ولو [illegible] فترتبت عليه [illegible] آثار التوبة له كان ذلك القضاء خيرا له وليس ذلك الا للمؤمن ولهذا قال بعض السلف لو لم تكن التوبة أحب الاشياء اليه لما ابتلى بالذنب أكرم الخلق عليه وقيل ان في بعض الآثار يقول الله يا داود يا داود كنت تدخل على دخول الملوك على الملوك واليوم تدخل على دخول العبيد على الملوك قالوا وقد قال غير واحد من السلف كان داود بعد التوبة خيرا منه قبل الخطيئة قالوا (٢٥٢) ولهذا قال سبحانه فغفرنا له ذلك وان له عندنا لزلفى وحسن مآب فزاده على المغفرة أمرين الزلفى وهي درجة القرب منه وقد قال فيها سلف الامة وأئمتها ما لا تحتمله عقول الجهمية وفراخهم ومن أراد معرفتها فعليه بتفاسير السلف والثاني حسن المآب وهو حسن المنقلب وطيب المأوى عند الله قالوا ومن تأمل زيادة القرب التي أعطيها داود بعد المغفرة علم صحة ما قلنا وان العبد بعد التوبة يعود خيرا مما كان قالوا وأيضا فان للعبودية لوازم وأحكاما وأسرارا وكمالات لا تحصل الا بها ومن جملتها تكميل مقام الذل للعزيز الرحيم فان الله سبحانه يحب من عبده أن يكمل مقام الذل له وهذا هو حقيقة العبودية واشتقاقها يدل على ذلك فان العرب تقول طريق معبد أي مذلل بوطء الاقدام والذل أنواع أكملها ذل المحب لمحبوبه الثاني ذل المملوك لمالكه الثالث ذل الجاني بين يدي المنعم عليه المحسن اليه المالك له الرابع ذل العاجز عن جميع مصالحه وحاجاته بين يدي القادر عليها التي هي في يده و بامره وتحت هذا قسمان أحدهما ذل له في أن يجلب له ما ينفعه والثاني ذل له في أن يدفع عنه ما يضره على الدوام و يدخل في هذا ذل المصائب كالفقر والمرض وأنواع البلاء والمحن فهذه خمسة أنواع من الذل اذا وفاها العبد حقها وشهدها كما ينبغي وعرف ما يراد به منه وقام بين يدي ربه مستصحبا لها شاهدا الذله من كل وجه ولعزربه وعظمته وجلاله الحق كانت قليل أعماله قائمة مقام الكثير من أعمال غيره قالوا وهذه أسرار لا تدرك بمجرد الكلام فمن لا نصيب له منها فلا يضره أن يخلي المطي وحاديها و يعطي القوس باريها

فللكثافة أقوام لها خلقوا * وللمحبة أكباد وأجفان

قالوا وأيضا فقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لله أشد فرحا بتوبة عبده من أحدكم أضل راحلته قالوا وهذا أعظم ما يكون من الفرح وأكمله فان صاحب هذه الراحلة

الحق الذى لايجوز الحكم بغيره وكذلك اذا غلط المقر أو أخطأ أو نسى أو أقر بما لا يعرف مضمونه لم يؤاخذ بذلك الاقرار ولم يحكم به عليه كما لو أقر مكرها والله تعالى دفع المؤاخذة بلغو اليمين لكون الحالف لم يقصد موجبها وأخبر أنه انما يؤاخذ بكسب القلب والغالط والمخطئ والناسى والجاهل والمكره لم يكسب قلبه ما أقر به أو حلف عليه فلا يؤاخذ به والمقصود أن الزوج المظلوم المدعى عليه دعوى كاذبة ظالمة بأنه ترك النفقة والكسوة ثلاث السنين كلها أو مدة مقامها عنده اذا تبين كذب المرأة فى دعواها لم يجز للحاكم سماعها فضلا عن مطالبته برد الجواب فله طرق فى التخلص من هذه الدعوى أحدها هذا أن يقول كيف يسوغ سماع دعوى تكذبها العادة والعرف ومشاهدة الجيران الثانى أن يقول للحاكم سلها من كان ينفق عليها و يكسوها فى هذه المدة فان ادعت أن غيره كان يؤدى ذلك عنه لم يسمع دعواها وكانت الدعوى لذلك الغير ولا يقبل قولها على الزوج ان غيره قام بهذا الواجب عنه وهذا مما لا خفاء به ولا اشكال فيه وان قالت أنا كنت أنفق على نفسى قال الزوج سلها هل كانت هى التى تدخل وتخرج تشترى الطعام والادام فان قالت نعم ظهر كذبها ولا سيما ان كانت من ذوات الشرف والاقدار وان قالت كنت أوكل غيرى فى ذلك ألزمت ببيانه والا ظهر كذبها وظلمها وعدوانها وكانت معاونتها على ذلك معاونة على الاثم والعدوان فان أعوز الزوج حاكم عالم متحر للحق لا يأخذه فيه لومة لائم فليعدل الى التحيل بالخلاص بما يبطل دعواها الكاذبة اما بان يجحد استحقاقها لما ادعت به ولا يعدل الى الجواب المفصل فتحتاج الى اقامة البينة على سبب الاستحقاق وقد يتعذر أو يتعسر عليها ذلك فان أحضرت الصداق وأقامت البينة فان كانت لم تنتقل معه الى داره جحد تسليمها اليه والقول قوله اذا لم تكن معه فى منزله فان كانت قد انتقلت معه الى منزله وادعى نشوزها تلك المدة وأمكنه اقامة البينة بذلك سقطت نفقتها فى مدة النشوز وان لم يمكنه اقامة البينة وادعى عدم تمكينها له من الوطء وادعت انها مكنته فالقول قوله لان الاصل عدم التمكين وهذا غير دعواه النشوز فان النشوز هو العصيان والاصل عدمه وهذا انكار لاستيفاء حقه والاصل عدمه فتأمله فان كان له منها ولد لم يمكنه هذا الانكار ومتى احس بالشر والمكر احتال بان يجئ شاهدى عدل بحيث يسمعان كلامها ولا تراهما ثم يدفع اليها مالا أو ما ترضى به وتلطف بها ثم يقول أريد ان يجعل كل منا صاحبه فى حل حتى تطيب أنفسنا ولعل الموت يأتى بغتة ونحو ذلك من الكلام وان أمكنه ان يستنطقها بانها لا تستحق عليه الى ذلك الوقت نفقة ولا كسوة وانه يرضيها من الآن و يدفع اليها ما ترضى به كان أقوى ثم يأخذ خط الشاهدين بذلك و يكتمه منها فان أحجاه

كان عليها مادة حياته من الطعام والشراب وهى مركبه الذى يقطع به مسافة سفره فلو عدمه لانقطع فى طريقه فكيف اذا عدم مع مركبه طعامه وشرابه ثم انه عدمها فى أرض دوية لا أنيس بها ولا معين ولا من يأويه و يرحمه و يحمله ثم انها مهلكة لاماء بها ولا طعام فلما أيس من الحياة بفقدها وجلس ينتظر الموت اذا هو براحلته قد أشرفت عليه ودنت منه فأى فرحة تعدل فرحته هذا ولو كان فى الوجود فرح أعظم من هذا لمثل به النبى صلى الله عليه وسلم ومع هذا فلفرح الله بتوبة عبده اذا تاب اليه أعظم من فرح هذا براحلته وتحت هذا سر عظيم يختص الله بفهمه من يشاء فان كنت ممن غلظ حجابه وكثفت نفسه وطباعه فعليك بوادى الجفا وهو وادى المحرفين للكلم عن مواضعه الواضعين له على غير المراد منه فهو واد قد سلكه خلق وتفرقوا فى شعابه وطرقه ومتشاهاته ولم يستقر لهم فيه قدم ولا لجؤا منه الى ركن وثيق بل هم كحاطب الليل وحاطم السيل وان نجاك الله من هذا الوادى فتأمل هذه الالفاظ النبوية المعصومة التى مقصود المتكلم بها غاية البيان مع مصدرها عن كمال العلم بالله وكمال النصيحة للامة ومع هذه المقامات الثلاث أعنى كمال بيان المتكلم وفصاحته وحسن تعبيره عن المعانى وكمال معرفته وعلمه بما يعبر عنه وكمال نصحه وارادته لهداية الخلائق يستحيل عليه ان يخاطبهم بشئ وهو لا يريد منهم ما يدل عليه خطابه بل يريد منه أمرا بعيدا عن ذلك الخطاب انما يدل عليه كدلالة الالغاز والاحاجى مع قدرته على التعبير عن ذلك المعنى بأحسن عبارة وأوجزها فكيف يليق به أن يعدل عن مقتضى البيان الرافع للاشكال المزيل للاجمال و يوقع الامة فى أودية التاويلات وشعاب الاحتمالات والتجويزات سبحانك هذا بهتان عظيم وهل قدر الرسول حق قدره أو مرسله حق قدره من نسب كلامه سبحانه أو كلام رسوله الى مثل ذلك ففصاحة الرسول وبيانه وعلمه ومعرفته ونصحه وشفقته يحيل عليه أن يكون مراده من كلامه ما يحمله عليه المحرفون الكلم عن مواضعه المتأولون له غير تاويله وان يكون كلامه من جنس الالغاز والاحاجى والحمد لله رب العالمين فان قلت فهل من مسلك غير هذا الوادى الذى ذممته فنسلك فيه أو من طريق يستقيم عليه السالك قلت نعم بحمد الله الطريق واضحة المنار بينة الاعلام مضيئة للسالكين وأولها ان تحذف خصائص المخلوقين عن اضافتها الى صفات رب

الامر عن ذلك وأمكنه المبادرة برفعها الى حاكم مالكى أوحنفى بادر الى ذلك وبالجملة فالحازم من يستعد لحيلهن ويعد لها حيلا يتخلص بها منها وهذا لا بأس به ولا اثم فيه ولا فى تعليمه فان فيه تخليص المظلوم واغاثة الملهوف واخزاء الظالم المعتدى والله الموفق للصواب وانما أطلنا الكلام فى هذا المثال لشدة حاجة الناس الى ذلك ولعموم البلوى وكثرة الفجور وانتشار الضرر بتمكين المرأة من هذه الدعوى وسماعها وجعل القول قولها وفى ذلك كفاية والا فهى تحتمل أكثر من ذلك

(فصل) والمقصود بهذه الامثلة واضعافها مما لم نذكره ان الله سبحانه أغنانا بما شرعه لنا من الحنيفية السمحة وما يسره من الدين على لسان رسوله وسهله للامة عن الدخول فى الآصار والاغلال وعن ارتكاب طرق المكر والخداع والاحتيال كما أغنانا عن كل باطل ومحرم وضار بما هو أنفع لنا منه من الحق والمباح النافع فأغنانا باعياد الاسلام عن أعياد الكفار والمشركين من أهل الكتاب والمجوس والصابئين وعبدة الاصنام وأغنانا بوجوه التجارات والمكاسب الحلال عن الربا والميسر والقمار وأغنانا بنكاح ما طاب لنا من النساء مثنى وثلاث ورباع والتسرى بما شئنا من الاماء عن الزنا والفواحش وأغنانا بانواع الاشربة اللذيذة النافعة للقلب والبدن عن الاشربة الخبيثة المسكرة المذهبة للعقل والدين وأغنانا بانواع الملابس الفاخرة من الكتان والقطن والصوف عن الملابس المحرمة من الحرير والذهب وأغنانا عن سماع الابيات وقرآن الشيطان بسماع الآيات وكلام الرحمن وأغنانا عن الاستقسام بالازلام طلبا لما هو خير وأنفع لنا باستخارته التى هى توحيد وتفويض واستعانة وتوكل وأغنانا عن طلب التنافس فى الدنيا وعاجلها بما أحبه لنا وندبنا اليه من التنافس فى الآخرة وما أعد لنا فيها وأباح الحسد فى ذلك وأغنانا به عن الحسد على الدنيا وشهواتها وأغنانا بالفرح بفضله ورحمته وهما القرآن والايمان عن الفرح بما يجمعه أهل الدنيا من المتاع والعقار والاثمان فقال تعالى قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون وأغنانا بالتكبر على أعداء الله تعالى واظهار الفخر والخيلاء لهم عن التكبر على أولياء الله تعالى والفخر والخيلاء عليهم فقال لمن رآه يتبختر بين الصفين انها لمشية يبغضها الله الا فى مثل هذا الموطن وأغنانا بالفروسية الايمانية والشجاعة الاسلامية التى تأثيرها فى الغضب على أعدائه ونصرة دينه عن الفروسية الشيطانية التى يبعث عليها الهوى وحمية الجاهلية وأغنانا بالخلوة الشرعية حال الاعتكاف عن الخلوة البدعية التى يترك لها الحج والجهاد والجمعة والجماعة وكذلك أغنانا بالطرق الشرعية عن طرق المكر والاحتيال فلا تشتد

...الناس ان يحلها فما بعدها كما يسر منها ومن ذلك ما بعدها أشد منها وهل نفى أحد ما نفى من صفات الرب ونعوت جلاله الا لسبق نظره الضعيف اليها واحتجابه بها عن أصل الصفة وتجردها عن خصائص الحدث فان الصفة يلزمها لوازم باختلاف محالها فظن القاصر اذا رأى ذلك اللازم فى المحل المحدث انه لازم لتلك الصفة مطلقا فهو يفر من اثباتها للخالق سبحانه حيث لم يتجرد فى ظنه عن ذلك اللازم وهذا كما فعل من نفى عنه سبحانه الفرح والمحبة والرضى والغضب والكراهة والمقت والبغض ونحوها كلها الى الارادة فانه فهم فرحا مستلزما لخصائص المخلوق من انبساط دم القلب وحصول ما ينفعه وكذلك فهم غضبا هو غليان دم القلب طلبا للانتقام وكذلك فهم محبة ورضى وكراهة ورحمة مقرونة بخصائص المخلوقين فان ذلك هو السابق الى فهمه وهو المشهود فى عالمه الذى لم تصل معرفته الى سواه ولم يحط علمه بغيره ولما كان هو السابق الى فهمه لم يجد بدا من نفيه عن الخالق والصفة لم تتجرد فى عقله عن هذا اللازم فلم يجد بدا من نفيها ثم لاصحاب هذه الطريق مسلكان أحدهما مسلك التناقض البين وهو اثبات كثير من الصفات ولا يلتفت فيها الى هذا الخيال بل يثبتها مجردة عن خصائص المخلوق كالعلم والقدرة والارادة والسمع والبصر وغيرها فان كان اثبات تلك الصفات التى نفاها يستلزم المحذور الذى فر منه فكيف لم يستلزمه اثبات ما أثبته وان كان اثبات ما أثبته لا يستلزم محذورا فكيف يستلزمه اثبات ما نفاه وهل فى التناقض أعجب من هذا والمسلك الثانى مسلك النفى العام والتعطيل المحض هربا من التناقض والتزاما لاعظم الباطل وامحل المحال فاذا الحق المحض فى الاثبات المحض الذى أثبته الله لنفسه فى كلامه وعلى لسان رسوله من غير تشبيه ولا تمثيل ومن غير تحريف ولا تبديل ومنشأ غلط المحرفين انما هو ظنهم ان ما يلزم الصفة فى المحل المعين يلزمها لذاتها فينفون ذلك اللازم عن الله فيضطرون فى نفيه الى نفى الصفة ولا ريب ان الامور ثلاثة أمر يلزم الصفة لذاتها من حيث هى فهذا لا يجب بل لا يجوز نفيه كما يلزم العلم والسمع والبصر من تعلقها بمعلوم ومسموع ومبصر فلا يجوز نفى هذه التعلقات عن هذه الصفات اذ لا تحقق لها بدونها وكذلك الارادة مثلا تستلزم العلم لذاتها فلا يجوز نفى لازمها عنها وكذلك السمع والبصر والعلم يستلزم الحياة فلا يجوز نفى لوازمها حاجة

حاجة الامة الى شئ الا وفيما جاء به الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ما يقتضى اباحته وتوسعته بحيث لا يحوجهم فيه الى مكر واحتيال ولا يلزمهم الآصار والاغلال فلا هذا من دينه ولا هذا كما أغنانا بالبراهين والآيات التى أرشد اليها القرآن عن الطرق المتكلفة المتعسفة المعقدة التى باطلها أضعاف حقها من الطرق الكلامية التى الصحيح منها كلحم جمل غث على رأس جبل وعر لا سهل فيرتقى ولا سمين فينتقل ونحن نعلم علما لا نشك فيه ان الحيل التى تتضمن تحليل ما حرمه الله تعالى واسقاط ما أوجبه لو كانت جائزة لسنها الله سبحانه وندب اليها لما فيه من التوسعة والفرج للمكروب والاغاثة للملهوف كما ندب الاصلاح بين الخصمين وقد قال المبعوث بالحنيفية السمحة صلى الله تعالى عليه وسلم ما تركت من شئ يقربكم الى الجنة الا وقد حدثتكم به ولا تركت من شئ يبعدكم عن النار الا وقد حدثتكم به تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدى الا هالك فهلا ندب صلى الله تعالى عليه وسلم الى الحيل وحض عليها كما حض على اصلاح ذات البين بل لم يزل يحذر من الخداع والمكر والنفاق ومشابهة أهل الكتاب باستحلال محارمه بأدنى الحيل ولو كان مقصود الشارع اباحة تلك المحرمات التى رتب عليها أنواع الذم والعقوبات وسد الذرائع الموصلة اليها لم يحرمها ابتداء ولا رتب عليها العقوبة ولا سد الذرائع اليها ولكان ترك أبوابها مفتحة أسهل من المبالغة فى غلقها وسدها ثم يفتح لها أنواع الحيل حتى تنقب المحتال عليها من كل ناحية فهذا مما يصان عنه الشرائع فضلا عن أكملها شريعة وأفضلها دينا وقد قدمنا ان الضرر والمفاسد الحاصلة من تلك المحرمات لا يزول بالاحتيال والنقب عليها بل تتقوى وتشتد مفاسدها

(فصل) اذا عرف هذا فالطريق التى يتضمن نفع المسلمين والذب عن الدين ونصر المظلومين واغاثة الملهوفين ومعارضة المحتالين بالباطل ليدحضوا به الحق من أنفع الطرق وأجلها علما وعملا وتعليما فيجوز للرجل أن يظهر قولا أو فعلا مقصوده به مقصود صالح وان ظن الناس انه قصد به غير ما قصد به اذا كان فيه مصلحة دينية مثل دفع ظلم عن نفسه أو عن مسلم أو معاهد أو نصرة حق أو ابطال باطل من حيلة محرمة أو غيرها أو دفع الكفار عن المسلمين أو التوصل الى تنفيذ أمر الله تعالى ورسوله فكل هذه طرق جائزة أو مستحبة أو واجبة وانما المحرم أن يقصد بالعقود الشرعية غير ما شرعت له فيصير مخادعا لله فهذا مخادع لله ورسوله وذاك مخادع للكفار والفجار والظلمة وأرباب المكر والاحتيال فبين هذا الخداع وذاك الخداع من الفرق كما بين البر والاثم والعدل

وكذلك كون المرئى مرئيا حقيقة له لوازم لا ينفك عنها ولا سبيل الى نفى تلك اللوازم الا بنفى الرؤية وكذلك الفعل الاختيارى له لوازم لا بد فيه منها فمن نفى لوازمه نفى الفعل الاختيارى ولا بد ومن هنا كان أهل الكلام أكثر الناس تناقضا واضطرابا فانهم ينفون الشئ ويثبتون ملزومه ويثبتون الشئ وينفون لازمه فتناقض أقوالهم وأدلتهم ويقع السالك خلفهم فى الحيرة والشك ولهذا يكون نهاية أمر أكثرهم الشك والحيرة حائر من هو فى خفارة بلادته منهم أو من قد خرق تلك الخيالات وقطع تلك الشبهات وحكم الفطرة والشرعة والعقل المؤيد بنور الوحى عليها فنقدها نقد الصيارف فنفى زغلها وعلم ان الصحيح منها اما أن يكون قد تولت النصوص بيانه واما أن يكون فيها غنية عنه بما هو خير منه وأقرب طريقا وأسهل تناولا لا يستفيد المؤمن البصير بما جاء به الرسول العارف به من المتكلمين سوى مناقضة بعضهم بعضا ومعارضته وابداء بعضهم عوار بعض ومحاربة بعضهم بعضا فيتولى بعضهم محاربة بعض ويسلم ما جاء به الرسول فاذا رأى المؤمن العالم الناصح لله ولرسوله أحدهم قد تعدى الى ما جاء به الرسول يناقضه ويعارضه فليعلم انهم لا طريق لهم الى ذلك أبدا ولا يقع ردهم الا على آراء أمثالهم وأشباههم وأما ما جاء به الرسول فمحفوظ محروس مصون من تطرق المعارضة والمناقضة اليه فان وجدت شيأ من ذلك فى كلامهم فبدار بدار الى ابداء فضائحهم وكشف تلبيسهم ومحالهم وتناقضهم وتبين كذبهم على العقل والوحى فانهم لا يردون شيأ مما جاء به الرسول الا بزخرف من القول يغتر به ضعيف العقل والايمان فاكشفه ولا تهبنه تجده كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيأ ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ولولا ان كل مسائل القوم وشبههم التى خالفوا فيها النصوص بهذه المثابة لذكرنا من أمثلة ذلك ما تقر به عيون أهل الايمان السائرين الى الله على طريق الرسول وأصحابه وان وفق الله سبحانه جردنا لذلك كتابا مفردا وقد كفانا شيخ الاسلام ابن تيمية هذا المقصد فى عامة كتبه لا سيما كتابه الذى وسمه ببيان موافقة العقل الصريح للنقل الصحيح مزق فيه شملهم كل ممزق وكشف أسرارهم وهتك أستارهم فجزاه الله عن الاسلام وأهله من أفضل الجزاء واعلم انه لا ترد شبهة صحيحة قط على ما جاء به الرسول بل

والظلم والطاعة والمعصية فأين من قصده اظهار دين الله تعالى ونصر المظلوم وكسر الظالم الى من قصده ضد ذلك اذا عرف هذا فنقول الحيل أقسام أحدها الطرق الخفية التى يتوصل بها الى ما هو محرم فى نفسه فتى كان المقصود بها محرما فى نفسه فهى حرام باتفاق المسلمين وصاحبها فاجر ظالم آثم وذلك كالتحيل على هلاك النفوس وأخذ الاموال المعصومة وفساد ذات البين وحيل الشياطين على اغواء بنى آدم وحيل المخادعين بالباطل على ادحاض الحق واظهار الباطل فى الخصومات الدينية والدنيوية فكل ما هو محرم فى نفسه فالتوصل اليه محرم بالطرق الظاهرة والخفية بل التوصل اليه بالطرق الخفية أعظم اثما وأكبر عقوبة فان أذى المخادع وشره يصل الى المظلوم من حيث لا يشعر ولا يمكنه الاحتراز ولهذا اقطع السارق دون المنتهب والمختلس ومن هذا رأى مالك ومن وافقه أن القاتل غيلة يقتل وان قتل من لا يكافئه لمفسدة فعله وعدم امكان التحرز منه ومن هذا رأى عبد الله بن الزبير قطع يد الزغلى لعظم ضرره على الاموال وعدم امكان التحرز منه فهو أولى بالقطع من السارق وقوله قوى جدا ومن هذا رأى الامام أحمد قطع يد جاحد العارية لانه لا يمكن الاحتراز منه بخلاف جاحد الوديعة فانه هو الذى ائتمنه والعمدة فى ذلك على السنة الصحيحة التى لا معارض لها والقصد أن التوصل الى الحرام حرام سواء توصل اليه بحيلة خفية أو بامر ظاهر وهذا النوع من الحيل ينقسم قسمين أحدهما ما يظهر فيه أن مقصود صاحبه الشر والظلم كحيل اللصوص والظلمة والخونة والثانى ما لا يظهر ذلك فيه بل يظهر المحتال ان قصده الخير ومقصوده الظلم والبغى مثل اقرار المريض لوارث لا شئ له عنده قصد التخصيص بالمقر به أو اقراره بوارث وهو غير وارث اضرارا بالورثة وهذا حرام باتفاق الامة وتعليمه لمن يفعله حرام والشهادة عليه حرام اذا علم الشاهد صورة الحال والحكم بموجب ذلك حكم باطل حرام يأثم به الحاكم باتفاق المسلمين اذا علم صورة الحال فهذه الحيلة فى نفسها محرمة لانها كذب وزور والمقصود بها محرم لكونه ظلما وعدوانا ولكن لما أمكن أن يكون صدقا اختلف العلماء فى اقرار المريض لوارث هل هو باطل سدا للذريعة ورد اللاقرار الذى صادف حق الورثة فيما هو متهم فيه لانه شهادة على نفسه فيما تعلق به حقهم فيرد للتهمة كالشهادة على غيره أو هو مقبول احسانا للظن بالمقر ولاسيما عند الخاتمة ومن هذا الباب احتيال المرأة على فسخ نكاح الزوج مع امساكه بالمعروف بانكارها الاذن للولى أو اساءة عشرة الزوج ونحو ذلك واحتيال البائع على فسخ البيع بدعواه أنه كان محجورا عليه واحتيال المشترى على الفسخ بانه لم ير المبيع واحتيال المؤجر على المستأجر فى فسخ الاجارة أو احتيال المستأجر عليه بانه استأجر ما لم يره

واحتيال

الشبه التى توردها أهل البدع والضلال على أهل السنة لا تخلو من قسمين اما أن يكون القول الذى أوردت عليه ليس من أقوال الرسول بل يكون نسبته اليه غلطا وهذا لا يكون متفقا عليه بين أهل السنة أبدا بل يكون قد قاله بعضهم وغلط فيه فان العصمة انما هى لمجموع الامة لا لطائفة معينة منها واما أن يكون القول الذى أوردت عليه قولا صحيحا لكن لا ترد تلك الشبهة عليه وحينئذ فلا بد لها من أحد أمرين اما أن تكون لازمة واما أن لا تكون لازمة فان كانت لازمة لما جاء به الرسول فهى حق لا شبهة اذ لازم الحق حق ولا ينبغى الفرار منها كما يفعل الضعفاء من المنتسبين الى السنة بل كل ما لزم من الحق فهو حق يتعين القول به كائنا ما كان وهل تسلط أهل البدع والضلال على المنتسبين للسنة الا بهذه الطريق ألزموهم بلوازم تلزم الحق فلم يلتزموها ودفعوها وأثبتوا ملزوماتها فتسلطوا عليهم بما أنكروه لا بما أثبتوه فلو أثبتوا لوازم الحق ولم يفروا منها لم يجد أعداؤهم اليهم سبيلا وان لم تكن لازمة لهم فالزامهم اياها باطل وعلى النقدين فلا طريق لهم الى رد أقوالهم وحينئذ فلهم جوابان مركب مجمل ومفرد مفصل أما الاول فيقولون لهم هذه اللوازم التى تلزموننا بها اما أن تكون لازمة فى نفس الامر واما أن لا تكون لازمة فان كانت لازمة فهى حق اذ قد ثبت أن ما جاء به الرسول فهو الحق الصريح ولازم الحق حق وان لم تكن لازمة فهى مندفعة ولا يجوز الزامها ولا التزامها وأما الجواب المفصل فيفردون كل الزام بجواب ولا يردونه مطلقا بل ينظرون الى ألفاظ ذلك الالزام ومعانيه فان كان لفظها موافقا لما جاء به الرسول يتضمن اثبات ما أثبته ونفى ما نفاه فلا يكون المعنى الا حقا فيقبلون ذلك الالزام وان كان مخالفا لما جاء به الرسول متضمنا لنفى ما أثبته أو اثبات ما نفاه كان باطلا لفظا ومعنى فيقابلونه بالرد وان كان لفظا مجملا محتملا لحق وباطل لم يقبلوه مطلقا ولم يردوه مطلقا حتى يستفسروا قائله ماذا أراد به فان أراد معنى صحيحا مطابقا لما جاء به الرسول قبلوه ولم يطلقوا اللفظ المحتمل اطلاقا وان أراد معنى باطلا ردوه ولم يطلقوا نفى اللفظ المحتمل أيضا فهذه قاعدتهم التى بها يعتصمون وعليها يعولون وبسط هذه الكلمات تستدعى أسفارا لا سفرا واحدا ومن لا ضياء له لا ينتفع بها ولا بغيرها فلنقتصر عليها ولنعد الى المقصود فنقول وبالله التوفيق فرح الرب سبحانه هذا الفرح العظيم بتوبة عبده اذا تاب اليه

واحتيال الراهن على المرتهن في فسخ الرهن بأن يظهر أنه آجره قبل الرهن أو كان رهنه عند زوجته أو أمته ونحو ذلك فهذا النوع لا يستريب أحد أنه من كبائر الاثم وهو من أقبح المحرمات وهو بمنزلة لحم خنزير ميت حرام انه في نفسه معصية لتضمن الكذب والزور ومن جهة تضمنه ابطال الحق واثبات الباطل القسم الثالث ما هو مباح في نفسه لكن بقصد المحرم صار حراما كالسفر لقطع الطريق ونحو ذلك فههنا المقصود حرام والوسيلة في نفسها غير محرمة لكن لما توسل الى الحرام صارت حراما القسم الرابع أن يقصد بالحيلة أخذ حق أو دفع باطل لكن تكون الطريق الى حصول ذلك محرمة مثل أن يكون له على رجل حق فيجحده فيقيم شاهدين لا يعرفان غريمه ولم يرياه يشهدان له بما ادعاه فهذا محرم أيضا وهو عند الله تعالى عظيم لان الشاهدين يشهدان بالزور وشهادة الزور من الكبائر وقد حملهما على ذلك وكذلك لو كان له عند رجل دين فجحده اياه وله عنده وديعة فجحد الوديعة وحلف أنه لم يودعه أو كان له على رجل دين لا بينة له به ودين آخر به بينة لكنه اقتضاه منه فيدعي هذا الدين ويقيم به بينة وينكر الاستيفاء أو يكون قد اشترى منه شيأ فظهر به عيب تلف المبيع به فادعى عليه بثمنه فأنكر أصل العقد وانه لم يشتر منه شيأ أو تزوج امرأة فأنفق عليها مدة طويلة فادعت عليه انه لم ينفق عليها شيأ فجحد نكاحها بالكلية فهذا حرام أيضا لانه كذب ولا سيما ان حلف عليه ولكن لو تأول في يمينه لم يكن به بأس فانه مظلوم فان قيل فما تقولون لو عامله معاملة ربا فقبض رأس ماله ثم ادعى عليه بالزيادة المحرمة هل يسوغ له أن ينكر المعاملة أو يحلف عليها قيل يسوغ له الحلف على عدم استحقاقها وان دعواها دعوى باطلة فلو لم يقبل منه الحاكم هذا الجواب ساغ له التأويل في اليمين لانه مظلوم ولا يسوغ له الانكار والحلف من غير تأويل لانه كذب صريح فليس له أن يقابل الفجور بمثله كما أنه ليس له أن يكذب على من كذب عليه أو يقذف من قذفه أو يفجر بزوجة من فجر بزوجته أو بابن من فجر بابنه فان قيل فما تقولون في مسألة الظفر هل هي من هذا الباب أو من القصاص المباح قيل قد اختلف الفقهاء فيها على خمسة أقوال أحدها انها من هذا الباب وانه ليس له أن يخون من خانه ولا يجحد من جحده ولا يغصب من غصبه وهذا ظاهر مذهب أحمد ومالك والثاني يجوز له أن يستوفي قدر حقه اذا ظفر بماله سواء ظفر بجنسه أو غير جنسه وفي غير الجنس يدفعه الى الحاكم يبيعه ويستوفي ثمنه منه وهذا قول أصحاب الشافعي والثالث يجوز له أن يستوفي قدر حقه اذا ظفر بجنس ماله وليس له أن يأخذ من غير الجنس وهذا قول أصحاب أبي حنيفة والرابع أنه ان كان عليه دين لغيره لم يكن له الاخذ وان لم يكن عليه دين فله الاخذ وهذا

هو من ملزومات محبته ولوازمها أعني كونه محبا لعباده المؤمنين محبوبا لهم وإنما خلق خلقه لعبادته المتضمنة لكمال محبته والخضوع له ولهذا خلق الجنة والنار ولهذا أرسل الرسل وأنزل الكتب وهذا هو الحق الذي خلق به السموات والارض وأنزل به الكتاب قال تعالى وما خلقنا السموات والارض وما بينهما الا بالحق وقال تعالى ان ربكم الله الذي خلق السموات والارض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الامر ما من شفيع الا من بعد اذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون الى قوله هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك الا بالحق وقوله الم الله لا اله الا هو الحي القيوم نزل عليك الكتاب بالحق فهذا أمره وتنزيله مصدره الحق والاول خلقه وتكوينه مصدره الحق أيضا فبالحق كان الخلق والامر وعنه صدر الخلق والامر وقال وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون فأخبر سبحانه ان الغاية المطلوبة من خلقه هي عبادته التي أصلها كمال محبته وهو سبحانه كما انه يحب أن يعبد يحب أن يحمد ويثنى عليه ويذكر بأوصافه العلى وأسمائه الحسنى كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح لا أحد أحب اليه المدح من الله ومن أجل ذلك أثنى على نفسه وفي المسند من حديث الاسود بن سريع انه قال يا رسول الله اني حمدت ربي بمحامد فقال ان ربك يحب الحمد فهو يحب نفسه ومن أجل ذلك يثني على نفسه ويحمد نفسه ويقدس نفسه ويحب من يحبه ويحمده ويثني عليه بل كلما كانت محبة عبده له أقوى كانت محبة الله له أكمل وأتم فلا أحد أحب اليه ممن يحبه ويحمده ويثني عليه ومن أجل ذلك كان الشرك أبغض الاشياء اليه لانه ينقص هذه المحبة ويجعلها بينه وبين من أشرك به ولهذا لا يغفر الله أن يشرك به لان الشرك يتضمن نقصان هذه المحبة والتسوية فيها بينه وبين غيره ولا ريب أن هذا من أعظم ذنوب المحب عند محبوبه التي ينقص بها من عينه ويسقط بها من مرتبته عنده اذا كان من المخلوقين فكيف يحتمل رب العالمين أن يشرك بينه وبين غيره في المحبة والمخلوق لا يحتمل ذلك ولا يرضى به ولا يغفر هذا الذنب لمحبه أبدا وعساه أن يتجاوز لمحبه عن غيره من الهفوات والزلات في حقه ومتى علم بانه يحب غيره كما يحبه لم يغفر له هذا الذنب ولم يقربه اليه هذا مقتضى الطبيعة والفطرة أفلا يستحيي العبد

احدى الروايتين عن مالك والخامس أنه ان كان سبب الحق ظاهرا كالنكاح والقرابة وحق الضيف جاز للمستحق الاخذ بقدر حقه كما أذن فيه النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لهند أن تأخذ من مال أبي سفيان ما يكفيها ويكفي بنيها وكما أذن لمن نزل بقوم ولم يضيفوه أن يعقبهم في مالهم بمثل قراه كما في الصحيحين عن عقبة بن عامر قال قلت للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم انك تبعثنا فننزل بقوم لا يقروننا فما ترى فقال ان نزلتم بقوم فأمروا لكم بما ينبغي للضيف فاقبلوا وان لم يفعلوا فخذوا منهم حق الضيف الذي ينبغي لهم وفي المسند من حديث المقدام بن أبي كريمة أنه سمع النبي عليه السلام يقول من نزل بقوم فعليهم أن يقروه فان لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قراه وفي المسند لاحمد أيضا من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أيما ضيف نزل بقوم فأصبح الضيف محروما فله أن يأخذ بقدر قراه ولا حرج عليه وان كان سبب الحق خفيا بحيث يتهم بالاخذ وينسب الى الخيانة ظاهرا لم يكن له الاخذ ويعرض نفسه للتهمة والخيانة وان كان في الباطن آخذا حقه كما أنه ليس له أن يتعرض للتهمة التي تسلط الناس على عرضه وان ادعى أنه محق غير متهم وهذا القول أصح الاقوال وأسدها وأوفقها القواعد الشريعة وأصولها وبه تجتمع الاحاديث فانه قد روى أبو داود في سننه من حديث يوسف بن ماهك قال كنت أكتب لفلان نفقة أيتام كان وليهم فغالطوه بألف درهم فأداها اليهم فأدركت له من أموالهم مثلها فقلت اقبض الالف الذي ذهبوا به منك قال لا حدثني أبي أنه سمع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول أد الامانة الى من ائتمنك ولا تخن من خانك وهذا وان كان في حكم المنقطع فانه له شاهد من وجه آخر وهو حديث طلق بن غنام أخبرنا شريك وقيس عن أبي حصين عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال أد الامانة الى من ائتمنك ولا تخن من خانك وقيس هو ابن الربيع وشريك ثقة وقد قوى حديثه بمتابعة قيس له وان كان فيه ضعف وله شاهد آخر من حديث أيوب بن سويد عن أبي شوذب عن أبي التياح عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم نحوه وأيوب بن سويد وان كان فيه ضعف فحديثه يصلح للاستشهاد به وله شاهد آخر وان كان فيه ضعف فهو يقوى بانضمام هذه الاحاديث اليه رواه يحيى بن أيوب عن اسحاق بن أسيد عن أبي حفص الدمشقي عن مكحول أن رجلا قال لابي أمامة الباهلي الرجل استودعه الوديعة أو يكون لي عليه فيجحدني ثم يستودعني أو يكون له عندي الشئ فيجحدني ثم يستودعني أفأجحده فقال لا سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول أد الامانة الى من ائتمنك ولا تخن من خانك وله شاهد آخر وهو

[illegible] يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله فأخبر سبحانه ان من أحب شيئا دون الله كما يحب الله فقد اتخذه ندا وهذا معنى قول المشركين لمعبوديهم تالله ان كنا لفي ضلال مبين اذ نسويكم برب العالمين فهذه تسوية في المحبة والتأله لا في الذات والافعال والصفات والمقصود انه سبحانه يحب نفسه أعظم محبة ويحب من يحبه وخلق خلقه لذلك وشرع شرائعه وأنزل كتبه لاجل ذلك وأعد الثواب والعقاب لاجل ذلك وهذا هو محض الحق الذي به قامت السموات والارض وكان الخلق والامر فاذا قام به العبد فقد قام بالامر الذي خلق له فرضي عنه صانعه وبارئه وأحبه اذ كان يحب ويرضى فاذا صدف عن ذلك وأعرض عنه وأبق عن مالكه وسيده أبغضه ومقته لانه خرج عما خلق له وصار الى ضد الحال التي هو لها فاستوجب منه غضبه بدلا من رضاه وعقوبته بدلا من رحمته فكأنه استدعى من رحمته أن يعامله من نفسه بخلاف ما يحب فانه سبحانه عفو يحب العفو محسن يحب الاحسان جواد يحب الجود سبقت رحمته غضبه فاذا أبق منه العبد وخامر عليه ذاهبا الى عدوه فقد استدعى منه أن يجعل غضبه غالبا على رحمته وعقوبته على احسانه وهو سبحانه يحب من نفسه الاحسان والبر والانعام فقد استدعى من ربه فعل ما غيره أحب اليه منه وهو بمنزلة عبد السوء الذي يحمل أستاذه من المخلوقين المحسن اليه الذي طبيعته الاحسان والكرم على خلاف مقتضى طبيعته وسجيته فأستاذه يحب لطبعه الاحسان وهو باساءته ولؤمه يكلفه ضد طباعه ويحمله على خلاف سجيته فاذا راجع هذا العبد ما يحب سيده ورجع اليه وأقبل اليه ورجع عن عدوه فقد صار الى الحال التي تقتضي محبة سيده له وانعامه عليه واحسانه اليه فيفرح به ولا بد أعظم فرح ما
وهذا الفرح هو دليل غاية الكمال والغنى والمجد فليتدبر اللبيب وجود هذا الفرح ولوازمه وملزوماته يجد في طيه من المعارف الالهية ما لا يتسع له الا القلوب المهياة لهذا الشأن المخلوقة له وهذا فرح محسن بر لطيف جواد غني حميد لا فرح محتاج الى حصول متكمل به مستقيل له من غيره فهو عين الكمال اللازم للكمال ملزوم له وألطف من هذا الوجه ان الله سبحانه خلق عباده المؤمنين وخلق كل شئ لاجلهم كما قال تعالى

ما رواه الترمذي من حديث مالك بن نضلة قال قلت يا رسول الله الرجل أمر به فلا يقريني ولا يضيفني فيمر بي أفأجزيه قال لا اقره قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح وله شاهد آخر وهو ما رواه أبو داود من حديث بشر بن الخصاصية قال قلت يا رسول الله ان أهل الصدقة يعتدون علينا فنكتم من أموالنا بقدر ما يعتدون علينا فقال لا وله شاهد آخر من حديث بشر هذا أيضا قلت يا رسول الله ان لنا جيرانا لا يدعون لنا شاذة ولا فاذة الا أخذوها فاذا قدرنا لهم على شئ أنأخذه فقال اد الامانة الى من ائتمنك ولا تخن من خانك ذكره شيخنا في كتاب ابطال التحليل فهذه الآثار مع تعدد طرقها واختلاف مخارجها يشد بعضها بعضا ولا يشبه الاخذ فيها الاخذ في الموضعين اللذين أباح رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فيهما الاخذ لظهور سبب الحق فلا ينسب الآخذ الى الخيانة ولا يتطرق اليه تهمة ولتعسر الشكوى في ذلك الى الحاكم واثبات الحق والمطالبة به والذين جوزوه يقولون اذا أخذ قدر حقه من غير زيادة لم يكن ذلك خيانة فان الخيانة أخذ ما لا يحل له أخذه وهذا ضعيف جدا فانه يبطل فائدة الحديث فانه قال ولا تخن من خانك فجعل مقابلته له خيانة ونهاه عنها فالحديث نص بعد صحته فان قيل فهلا جعلتموه مستوفيا لحقه بنفسه اذ عجز عن استيفائه بالحاكم كالمغصوب ماله اذا رآه في يد الغاصب وقدر على أخذه منه قهرا فهل تقولون انه لا يحل له أخذ عين ماله وهو يشاهده في يد الظالم المعتدي ولا يحل له اخراجه من داره وأرضه وكذلك اذا غصب زوجته وحال بينه وبينها وعقد عليها ظاهرا بحيث لا يتهم فهل يحرم على الزوج الاول انتزاع زوجته منه خشية التهمة وهذا لا تقولونه أنتم ولا أحد من أهل العلم ولهذا قال الشافعي وقد ذكر حديث هند واذا دلت السنة واجماع كثير من أهل العلم على أن يأخذ الرجل حقه لنفسه سرا فقد دل أن ذلك ليس بخيانة الخيانة أخذ ما لا يحل أخذه فالجواب انا نقول يجوز له أن يستوفي قدر حقه لكن بطريق مباح فأما بخيانة وطريق محرمة فلا وقولكم ليس ذلك بخيانة قلنا بل هو خيانة حقيقة ولغة وشرعا وقد سماه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم خيانة وغايتها أنها خيانة مقابلة ومقاصة لا خيانة ابتداء فيكون كل منهما مسيئا الى الآخر ظالما له فان تساوت الخيانتان قدرا وصفة فقد يتساقط اثمهما والمطالبة في الآخرة أو يكون لكل منهما على الآخر مثل ما للآخر عليه وان بقي لاحدهما فضل رجع به فهذا في أحكام الثواب والعقاب وأما في أحكام الدنيا فليس كذلك لان الاحكام فيها مرتبة على الظواهر وأما السرائر فالى الله ولهذا قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم انكم تختصمون الي وانما أنا بشر أقضي بنحو مما أسمع ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فمن قضيت له بشئ من حق أخيه فلا يأخذه فانما

لصالحيهم وصفوتهم ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين وقال لموسى واصطنعتك لنفسي واتخذ منهم الخليلين والخلة أعلى درجات المحبة وقد جاء في بعض الآثار يقول تعالى ابن آدم خلقتك لنفسي وخلقت كل شئ لك فبحقي عليك لا تشتغل بما خلقته لك عما خلقتك له وفي أثر آخر يقول تعالى ابن آدم خلقتك لنفسي فلا تلعب وتكفلت برزقك فلا تتعب ابن آدم اطلبني تجدني فان وجدتني وجدت كل شئ وان فتك فاتك كل شئ وأنا أحب اليك من كل شئ فالله سبحانه خلق عباده له ولهذا اشترى منهم أنفسهم وهذا عقد لم يعقده مع خلق غيرهم فيما أخبر به على لسان رسوله ليسلموا اليه النفوس التي خلقها له وهذا الشراء دليل على أنها محبوبة له مصطفاة عنده مرضية لديه وقدر السلعة تعرف بجلالة قدر مشتريها وبمقدار ثمنها اذا جهل قدرها في نفسها فاذا عرف قدر السلعة وعرف مشتريها وعرف الثمن المبذول فيها علم شأنها ومرتبتها في الوجود فالسلعة أنت والله المشتري والثمن جنته والنظر الى وجهه وسماع كلامه في دار الأمن والسلام والله لا يصطفي لنفسه الا أعز الاشياء وأشرفها وأعظمها قيمة واذا كان قد اختار العبد لنفسه وارتضاه لمعرفته ومحبته وبنى له دارا في جواره وقربه وجعل ملائكته خدمه يسعون في مصالحه في يقظته ومنامه وحياته وموته ثم ان العبد أبق عن سيده ومالكه ذاهبا عنه معرضا عن رضاه ثم لم يكفه ذلك حتى خامر عليه وصالح عدوه ووالاه من دونه وصار من جنده مؤثرا لمرضاته على مرضاة وليه ومالكه فقد باع نفسه التي اشتراها منه الهه ومالكه وجعل ثمنها جنته والنظر الى وجهه من عدوه وأبغض خلقه اليه واستبدل غضبه برضاه ولعنته برحمته ومحبته فأي مقت خلي هذا المخدوع عن نفسه لم يتعرض له من ربه قال تعالى واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا فتأمل ما تحت هذه المعاتبة وما في طي هذا الخطاب من سوء هذا العبد وما تعرض له من المقت والخزي والهوان ومن استعطاف ربه واستعتابه ودعائه اياه الى العود الى وليه ومولاه الحق الذي هو أولى به فاذا عاد اليه وتاب اليه فهو بمثابة من أسره العدو وحبوا به واستولوا عليه وحالوا بينه وبينه فهرب منهم ذلك المحبوب وجاء الى محبه اختيارا وطوعا

حتى توسد عتبة بابه فخرج المحب من بيته فوجد محبوبه متوسدا عتبة بابه واستعاذته وذلته عليه فأى شىء يكون فرحه به ولله المثل الأعلى
ويكفى فى هذا المثل الذى ضربه رسول الله لمن فتح الله عين قلبه فأبصر ما فى طيه وما فى ضمنه وعلم أنه ليس كلام مجاز ولا مبالغة ولا تخييل بل كلام معصوم فى منطقه وعلمه وقصده وعمله كل كلمة منه فى موضعها ومنزلتها ومقرها لا يتعدى بها عنه ولا يقصر بها والذى يزيد هذا المعنى تقريرا ان محبة الرب لعبده سبقت محبة

العبد له سبحانه فانه لولا محبة الله له لما جعل محبته فى قلبه فانه ألهمه حبه وآثره

أقطع له قطعة من النار فأخبر صلى الله تعالى عليه وسلم أنه يحكم بينهم بالظاهر وأعلم المبطل فى نفس الامر أن حكمه لا يحل له أخذ ما يحكم له به وانه مع حكمه له به فانما يقطع له قطعة من النار فاذا كان الحق مع هذا الخصم فى الظاهر وجب على الحاكم أن يحكم له به ويقره بيده وان كانت يدا عادية ظالمة عند الله تعالى فكيف يسوغ لخصمه أن يحكم لنفسه ويستوفى لنفسه بطريق محرمة باطلة لا يحكم بمثلها الحاكم وان كان محقا فى نفس الامر وليس هذا بمنزلة من رأى عين ماله أو أمته أو زوجته بيد غاصب ظالم تخلصها منه قهرا فانه قد تعين حقه فى هذه العين بخلاف صاحب الدين فان حقه لم يتعين فى تلك العين التى يريد أن يستوفى منها ولانه لا يتكتم بذلك ولا يستخفى به كما يفعل الخائن بل يكابر صاحب اليد العادية ويغالبه ويستعين عليه بالناس فلا ينسب الى خيانة والاول متكتم مستخف متصور بصورة خائن وسارق فالحاق أحدهما بالآخر باطل والله أعلم

(فصل) القسم الخامس من الحيل أن يقصد حل ما حرمه الشارع أو سقوط ما أوجبه بأن يأتى بسبب نصبه الشارع سببا الى أمر مباح مقصود فيجعله المحتال المخادع سببا الى أمر محرم مقصود اجتنابه فهذه هى الحيل المحرمة التى ذمها السلف وحرموا فعلها وتعليمها وهذا حرام من جهتين من جهة غايته ومن جهة سببه أما غايته فان المقصود به اباحة ما حرمه الله ورسوله واسقاط ما أوجبه وأما من جهة سببه فانه اتخذ آيات الله هزوا وقصد بالسبب ما لم يشرع لاجله ولا قصده به الشارع بل ضده فقد ضاد الشارع فى الغاية والحكمة والسبب جميعا وقد يكون أصحاب القسم الاول من الحيل أحسن حالا من كثير من أصحاب هذا القسم فانهم يقولون ان ما نفعله حرام واثم ومعصية ونحن أصحاب تحيل بالباطل عصاة لله ورسوله مخالفون لدينه وكثير من هؤلاء يجعلون هذا القسم من الدين الذى جاءت به الشريعة وان الشارع جوز لهم التحيل بالطرق المتنوعة على اباحة ما حرمه واسقاط ما أوجبه فأين حال هؤلاء من حال أولئك ثم ان هذا النوع من الحيل يتضمن نسبة الشارع الى العيب وشرع ما لا فائدة فيه الا زيادة الكلفة والعناء فان حقيقة الامر عند أرباب الحيل الباطلة ان تصير العقود الشرعية عبثا لا فائدة فيها فانها لم يقصد بها المحتال مقاصدها التى شرعت لها بل لا غرض له فى مقاصدها وحقائقها ألبتة وانما غرضه التوصل بها الى ما هو ممنوع منه فجعلها سترة وجنة يتستر بها من ارتكاب ما نهى عنه صرفا فأخرجه فى قالب الشرع كما أخرجت الجهمية التعطيل فى قالب التنزيه وأخرج المنافقون النفاق فى قالب الاحسان والتوفيق والعقل المعيشى وأخرج الظلمة الفجرة الظلم والعدوان فى قالب السياسة وعقوبة الجناة وأخرج المكاسون أكل المكوس فى قالب اعانة

المجاهدين

به فلما أحبه العبد جازاه على تلك المحبة محبة أعظم منها فانه من تقرب اليه شبرا تقرب اليه ذراعا ومن تقرب اليه ذراعا تقرب اليه باعا ومن أتاه مشيا أتاه هرولة وهذا دليل على أن محبة الله لعبده الذى يحبه فوق محبة العبد له واذا تعرض هذا المحبوب لمساخط حبيبه فهو بمنزلة المحبوب الذى فر من محبه وآثر غيره عليه فاذا عاوده وأقبل اليه وتخلى عن غيره فكيف لا يفرح به محبة أعظم فرح وأكمله والشاهد أقوى شاهد بهذا والفطرة والعقل فلو لم يخبر الصادق المصدوق بما أخبر به من هذا الامر العظيم لكان فى الفطرة والعقل ما يشهد به فاذا انضافت الشرعة المنزلة الى العقل المنور فذلك الذى لا غاية له بعده وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم

(فصل) ومتى أراد العبد شاهد هذا من نفسه فلينظر الى الفرحة التى يجدها بعد التوبة النصوح والسرور واللذة التى تحصل له والجزاء من جنس العمل فلما تاب الى الله ففرح الله بتوبته أعقبه فرحا عظيما وههنا دقيقة قل من يتفطن لها الا فقيه فى هذا الشان وهى ان كل تائب لا بد له فى أول توبته من عصرة وضغطة فى قلبه من هم أو غم أو ضيق أو حزن ولو لم يكن الا تألمه بفراق محبوبه فينضغط لذلك وينعصر قلبه ويضيق صدره فما أكثر الخلق رجعوا من التوبة ونكسوا على رؤسهم لاجل هذه المحنة والعارف الموفق يعلم أن الفرحة والسرور واللذة الحاصلة عقيب التوبة تكون على قدر هذه العصرة فكلما كانت أقوى وأشد كانت الفرحة واللذة أكمل وأتم ولذلك أسباب عديدة منها ان هذه العصرة والقبض دليل على حياة قلبه وقوة استعداده ولو كان قلبه ميتا واستعداده ضعيفا لم يحصل له ذلك وأيضا فان الشيطان لص الايمان واللص انما يقصد

المكان المعمور وأما المكان الخراب الذي لا يرجو أن يظفر منه بشئ فلا يقصده فاذا قويت المعارضات الشيطانية والغصرة دل على أن في قلبه من الخير ما اشتد حرص الشيطان على نزعه منه وأيضا فان قوة المعارض والمضاد تدل على قوة معارضه وضده ومثل هذا اما أن يكون رأسا في الخير أو رأسا في الشر فان النفوس الأبية القوية ان كانت خيرة رأست في الخير وان كانت شريرة رأست في الشر وأيضا فان بحسب موافقته لهذا العارض وصبره عليه يثمر له ذلك من اليقين والثبات والعزم ما يوجب (٢٦١) زيادة انشراحه وطمأنينته وأيضا فانه كلما عظم المطلوب كثرت العوارض والموانع دونه هذه سنة الله في الخلق فانظر الى الجنة وعظمها والى الموانع والقواطع التي حالت دونها حتى أوجبت ان ذهب من كل ألف رجل واحد اليها وانظر الى محبة الله والانقطاع اليه والانابة اليه والتبتل اليه وحده والانس به واتخاذه وليا ووكيلا وكافيا وحسيبا هل يكتسب العبد شيأ أشرف منه وانظر الى القواطع والموانع الحائلة دونه حتى قد تعلق كل قوم بما تعلقوا به دونه والطالبون له منهم الواقف مع عمله والواقف مع علمه والواقف مع حاله والواقف مع ذوقه وجمعيته وحظه من ربه والمطلوب منهم وراء ذلك كله والمقصود أن هذا الامر الحاصل بالتوبة لما كان من أجل الامور وأعظمها نصبت عليه المعارضات والمحن ليتميز الصادق من الكاذب وتقع الفتنة ويحصل الابتلاء ويتميز من يصلح ممن لا يصلح قال تعالى الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين وقال ليبلوكم أيكم أحسن عملا ولكن اذا صبر على هذه العصرة قليلا أفضت به الى رياض الانس وجنات الانشراح وان لم يصبر لها انقلب على وجهه والله الموفق لا اله غيره ولا رب سواه والمقصود أن هذا الفرح من الله بتوبة عبده مع أنه لم يأت نظيره في غيرها من الطاعات دليل على عظم قدر التوبة وفضلها عند الله وأن التعبد له بها من أشرف التعبدات وهذا يدل على أن صاحبها يعود أكمل مما كان قبلها فهذا بعض ما احتج به لهذا القول وأما الطائفة التي قالت لا يعود الى مثل ما كان بل لا بد أن ينقص حاله فاحتجوا بأن الجناية توجب الوحشة وزوال المحبة ونقص العبودية بلا ريب فليس العبد الموفر أوقاته على طاعة سيده كالعبد المفرط في حقوقه وهذا مما لا يمكن جحده ومكابرته فاذا تاب الى ربه

المجاهدين وسد الثغور وعمارة الحصون وأخرج الروافض الالحاد والكفر والقدح في سادات الصحابة وحزب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأوليائه وأنصاره في قالب محبة أهل البيت والتعصب لهم وموالاتهم وأخرجت المباحية وفسقة المنتسبين الى الفقر والتصوف بدعهم وشطحهم في قالب الفقر والزهد والاحوال والمعارف ومحبة الله ونحو ذلك وأخرجت الاتحادية أعظم الكفر والالحاد في قالب التوحيد وان الوجود واحد لا اثنان وهو الله وحده فليس ههنا وجودان خالق ومخلوق ولا رب وعبد بل الوجود كله واحد وهو حقيقة الرب وأخرجت القدرية انكار عموم قدرة الله تعالى على جميع الموجودات أفعالها وأعيانها في قالب العدل وقالوا لو كان الرب قادرا على أفعال عباده لزم أن يكون ظالما لهم فأخرجوا تكذيبهم بالقدر في قالب العدل وأخرجت الجهمية جحدهم لصفات كماله سبحانه في قالب التوحيد وقالوا لو كان له سبحانه سمع وبصر وقدرة وحياة وارادة وكلام يقوم به لم يكن واحدا وكان آلهة متعددة وأخرجت الفسقة والذين يتبعون الشهوات الفسوق والعصيان في قالب الرجاء وحسن الظن بالله تعالى وعدم اساءة الظن بعفوه وقالوا تجنب المعاصي والشهوات ازراء بعفو الله تعالى واساءة للظن به ونسبة له الى خلاف الجود والكرم والعفو وأخرجت الخوارج قتال الأئمة والخروج عليهم بالسيف في قالب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وأخرجت أرباب البدع جميعهم بدعهم في قوالب متنوعة بحسب تلك البدع وأخرج المشركون شركهم في قالب التعظيم لله وانه أجل من أن يتقرب اليه بغير وسائط وشفعاء وآلهة تقربهم اليه فكل صاحب باطل لا يتمكن من ترويج باطله الا باخراجه في قالب حق والمقصود ان أهل المكر والحيل المحرمة يخرجون الباطل في القوالب الشرعية ويأتون بصور العقود دون حقائقها ومقاصدها

(فصل) وهذا القسم من أقسام الحيل أنواع أحدها الاحتيال لحل ما هو حرام في الحال كالحيل الربوية وحيلة التحليل الثاني الاحتيال على حيل ما انعقد سبب تحريمه فهو صائر الى التحريم ولا بد كما اذا علق طلاقها بشرط محقق تعليقا يقع به ثم أراد منع وقوع الطلاق عند الشرط فخالعها خلع الحيلة حتى بانت ثم تزوجها بعد ذلك الثالث الاحتيال على اسقاط ما هو واجب في الحال كالاحتيال على اسقاط الانفاق الواجب عليه واداء الدين الواجب بأن يملك ماله لزوجته أو ولده فيصير معسرا فلا يجب عليه الانفاق والاداء كمن يدخل عليه رمضان ولا يريد صومه فيسافر ولا غرض له سوى الفطر ونحو ذلك الرابع الاحتيال على اسقاط ما انعقد سبب وجوبه ولم يجب لكنه صائر الى الوجوب فيحتال حتى

يمتنع الوجوب كالاحتيال على اسقاط الزكاة بتمليكه ماله قبل مضي الحول لبعض أهله ثم استرجاعه بعد ذلك وهذا النوع ضربان أحدهما اسقاط حق الله تعالى بعد وجوبه أو انعقاد سببه والثاني اسقاط حق المسلم بعد وجوبه أو انعقاد سببه كالاحتيال على اسقاط الشفعة التي شرعت دفعا للضرر عن الشريك قبل وجوبها أو بعده الخامس الاحتيال على أخذ حقه أو بعضه أو بدله بخيانة كما تقدم وله صور كثيرة منها أن يجحده دينه كما جحد ومنها أن يخونه في وديعته كما خانه ومنها أن يغشه في بيع معيب كما غشه هو في بيع معيب ومنها أن يسرق ماله كما سرق ماله ومنها أن يستعمله باجرة دون أجرة مثله ظلما وعدوانا أو غرورا وخداعا أو غبنا فيقدر المستأجر له على مال فيأخذ تمام أجرته وهذا النوع يستعمله كثير من أرباب الديوان ونظار الوقوف والعمال وجباة الفيء والخراج والجزية والصدقة وأمثالهم فان كان المال مشتركا بين المسلمين رتعوا ورتعوا ورأى أحدهم من الغبن أن يفوته شيء منه وترى ان عزل أن له نصف ذلك المال ويسعى في السدس تكملة للثلثين كما قيل في بعضهم

له نصف بيت المال فرض مقرر * وفي سدس التكميل يسعى ليخلصا

من القوم لا تثنيهم عن مرادهم * عقوبة سلطان بسوط ولا عصا

(فصل) وقد عرف بما ذكرنا الفرق بين الحيل التي تخلص من الظلم والبغي والعدوان والحيل التي يحتال بها على اباحة الحرام واسقاط الواجبات وان جمعهما اسم الحيلة والوسيلة وعرف بذلك ان العينة لا تخلص من الحرام وانما يتوسل بها اليه وهو المقصود الذي اتفقا عليه ويعلمه الله تعالى من نفوسهما وهما يعلمانه ومن شاهدهما يعلمه وكذلك تمليك ماله لولده عند قرب الحول فرارا من الزكاة لا يخلص من الاثم بل يغمسه فيه لانه قصد الى اسقاط فرض قد انعقد سببه ولكن عذر من جوز ذلك انه لم يسقط الواجب وانما اسقط الوجوب وفرق بين الامرين فانه له أن يمنع الوجوب وليس له أن يمنع الواجب وهكذا القول في التحيل على اسقاط الشفعة قبل البيع فانه يمنع وجوب الاستحقاق ولا يمنع الحق الذي وجب بالبيع فذلك لا يجوز وهو نظير منع الزكاة بعد وجوبها فذلك لا يجوز بحيلة ولا غيرها وكذلك التحيل على منع وجوب الجمعة عليه بان يسكن في مكان لا يبلغه النداء أو لا يمكنه الذهاب منه الى الجمعة والرجوع في يومه أو السفر قبل دخول وقتها ولا يجوز له التحيل على تركها بعد وجوبها عليه وكذلك التحيل على منع وجوب الانفاق على القريب بان لا يكتسب ما لا يجب فيه الانفاق ولا يجوز له التحيل على اسقاط ما وجب من ذلك فهذا اسر الفرق الذي اعتمده أصحاب الحيل وأما المانعون فيجيبون عن ذلك بان هذا

ورجع اليه ربه بتوبته كمن تركه من أسبقه بالذنب في الهوى عنه وأما مقام القرب والمحبة فهيهات أن يعود قالوا ولان هذا في زمن اشتغاله بالمعصية قد فاته فيه السير الى الله فلو كان واقفا في موضعه لفاته التقدم فكيف وهو في زمن المعصية كان سيره الى وراء فاذا تاب واستقبل سيره فانه يحتاج الى سير جديد وقطع مسافة حتى يصل الى الموضع الذي تأخر منه قالوا ونحن لا ننكر انه قد يأتي بطاعات وأعمال تبلغه الى منزلته وهذا مما لا يكون فانه بالتوبة قد وجه وجهه الى الطريق فلا يصل الى مكانه الذي رجع منه الا بسير مستأنف يوصله اليه ونحن لا ننكر ان العبد بعد التوبة يعمل أعمالا عظيمة لم يكن ليعملها قبل الذنب توجب له التقدم قالوا وأيضا فلو رجع الى حاله التي كان عليها أو الى أرفع منها لكان بمنزلة المداوم على الطاعة أو أحسن حالا منه فكيف يكون هذا وأين مسير صاحب الطاعة في زمن اشتغال هذا بالمعصية وكيف يلتقي رجلان أحدهما سائر نحو المشرق والآخر نحو المغرب فاذا رجع أحدهما الى طريق الآخر والآخر مجد على سيره فانه لا يزال سابقه ما لم يعرض له فتور أو توان هذا مما لا يمكن جحده ودفعه قالوا وأيضا فمرض القلب بالذنوب على مثال مرض الجسم بالاسقام والتوبة بمنزلة شرب الدواء والمريض اذا شرب الدواء وصح فانه لا تعود اليه قوته قبل المرض وان عادت فبعد حين قالوا وأيضا فهذا في زمن معالجة التوبة ملبوك في نفسه مشغول بمداواتها ومعالجتها وفي زمن الذنب مشغول بشهوتها والسالم من ذلك مشغول بربه قد قربه منه في سيره فكيف يلحقه هذا فهذا ونحوه مما احتجت به هذه الطائفة لقولها وجرت هذه المسألة بحضرة شيخ الاسلام ابن تيمية فسمعته يحكي هذه الاقوال الثلاثة حكاية مجردة فاما سألته واما سئل عن الصواب منها فقال الصواب ان من التائبين من يعود الى مثل حاله ومنهم من يعود الى أكمل منها ومنهم من يعود الى أنقص مما كان فان كان بعد التوبة خيرا مما كان قبل الخطيئة وأشد حذرا وأعظم تشميرا وأعظم ذلا وخشية وانابة عاد الى أرفع مما كان وان كان قبل الخطيئة أكمل في هذه الامور ولم يعد بعد التوبة اليها عاد الى انقص مما كان عليه وان كان بعد التوبة مثل ما كان قبل الخطيئة رجع الى مثل منزلته هذا معنى كلامه قلت وههنا مسألة هذا الموضع أخص المواضع ببيانها وهي ان التائب اذا تاب الى الله توبة لو

لوأجدى على المتحيلين لم يعاقب الله تعالى سبحانه أصحاب الجنة الذين عزموا على صرامها ليلا لئلا يحضرهم المساكين فهؤلاء قصدوا دفع الوجوب بعد انعقاد سببه وهو نظير التحيل لاسقاط الزكاة بعد ثبوت سببها وبان هذا يبطل حكمة الايجاب فان الله سبحانه انما أوجبها فى أموال الاغنياء طهرة لهم وزكاة ورحمة للمساكين وسدا لفاقتهم فالتحيل على منع وجوبها يعود على ذلك كله بالابطال وبان الشارع لو جوز التحيل على منع الايجاب بعد انعقاد سببه لم يكن فى الايجاب فائدة اذ ما من أحد الا ويمكنه التحيل بادنى حيلة على الدفع فيكون الايجاب عديم الفائدة فانه اذا أوجبه وجوز اسقاطه بعد انعقاد سبب الايجاب عاد ذلك بنقض ما قصده وبانه اذا انعقد سبب الوجوب فقد تعلق الوجوب بالمكلف فلا يمكنه الشارع من قطع هذا التعلق ولاسيما اذا شارف وقت الوجوب وحضر حتى كأنه داخل فيه كما اذا بقى من الحول يوم أو ساعة فالاسقاط ههنا فى حكم الاسقاط بعد الحول سواء ومفسدته كمفسدته فان المصلحة الفائتة بالمنع بعد تلك الساعة كالمفسدة الحاصلة بالتسبب الى المنع قبلها من كل وجه وبان الحكم بعد انعقاد سببه كالثابت الذى قد صح ووجد وبان الوجوب قد تحقق بانعقاد سببه وانما جوز له التأخير الى تمام الحول توسعة عليه ولهذا يجوز له أداء الواجب قبل الحول ويكون واقعا موقعه ولان الفرار من الايجاب انما يقصد به الفرار من أداء الواجب وان يسقط ما فرضه الله عليه عند مضى الحول وليس هذا كمن ترك اكتساب المال الذى يجب فيه الزكاة فرارا من وجوبها عليه أو ترك بيع الشقص فرارا من أخذ الشفيع له أو ترك التزوج فرارا من وجوب الانفاق ونحو ذلك فان هذا لم ينعقد فى حقه السبب بل ترك ما يفضى الى الايجاب ولم يتسبب اليه وهذا تحيل بعد السبب على اسقاط ما تعلق به من أداء الواجب واحتال على قطع سببه بعد ثبوته وأيضا فان قطع سبب السبب تغيير لحكم الله واسقاط للسببية بالتحيل وليس ذلك للمكلف فان الله سبحانه هو الذى جعل هذا سببا لحكمه وحكمته فليس له أن يبطل هذا الجعل بالحيلة والمخادعة وهذا بخلاف ما اذا وهبه ظاهرا وباطنا أو أنفقه فانه لم يحتل باظهار أمر وابطان خلافه على منع الايجاب وأداء الواجب وأيضا فانه اذا احتال على منع الايجاب تضمن ذلك الحيلة على منع أداء الواجب ومعلوم ان منعه أداء الواجب فقط أيسر من تحيله على الامرين جميعا وأيضا فانه لا يصح فراره من الوجوب مع اتيانه لسببه فان الفار من الشئ فار من أسبابه وهذا أحرص شئ على المال الذى هو سبب وجوب الحق عليه ومن حرصه عليه تحيل على ترك الاخراج حرصا وشحا فهو فار من أداء الواجب ظانا أنه يفر من وجوبه عليه والاول حاصل له دون الثانى ونكتة الفرق من جهة الوسيلة

نصوحا فهل تمحى تلك السيئات ويذهب لا له ولا عليه أو اذا محيت أثبت له مكان كل سيئة حسنة هذا مما اختلف الناس فيه من المفسرين وغيرهم قديما وحديثا فقال الزجاج ليس يجعل مكان السيئة الحسنة لكن يجعل مكان السيئة التوبة والحسنة مع التوبة قال ابن عطية يجعل أعمالهم بدل معاصيهم الاولى طاعة فيكون ذلك سببا لرحمة الله اياهم قاله ابن عباس وابن جبير وابن زيد والحسن ورد على من قال هو فى يوم القيامة قال وقد ورد حديث فى كتاب مسلم من طريق أبى ذر يقتضى ان الله سبحانه يوم القيامة يجعل لمن يريد المغفرة له من الموحدين بدل سيئاته حسنات وذكره الترمذى والطبرى وهذا تأويل سعيد بن المسيب فى هذه الآية قال ابن عطية وهو معنى كرم العفو هذا آخر كلامه قلت سيأتى ان شاء الله ذكر الحديث بلفظه والكلام عليه قال المهدوى وروى معنى هذا القول عن سلمان الفارسى وسعيد بن جبير وغيرهما وقال الثعلبى قال ابن عباس وابن جريج والضحاك وابن زيد يبدل الله سيئاتهم حسنات يبدلهم الله بقبيح أعمالهم فى الشرك محاسن الاعمال فى الاسلام فيبدلهم بالشرك ايمانا وبقتل المؤمنين قتل المشركين وبالزنا عفة واحصانا وقال آخرون يعنى يبدل الله سيئاتهم التى عملوها فى حال اسلامهم حسنات يوم القيامة وأصل القولين ان هذا التبديل هل هو فى الدنيا أو يوم القيامة فمن قال انه فى الدنيا قال هو تبديل الاعمال القبيحة والارادات الفاسدة باضدادها وهى حسنات وهذا تبديل حقيقة والذين نصروا هذا القول احتجوا بان السيئة لا تنقلب حسنة بل غايتها أن تمحى وتكفر ويذهب أثرها فاما أن تنقلب حسنة فلا فانها لم تكن طاعة وانما كانت بغيضة مكروهة للرب فكيف تنقلب محبوبة مرضية قالوا وأيضا فالذى دل عليه القرآن انما هو تكفير السيئات ومغفرة الذنوب كقوله ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وقوله ويعفو عن السيئات وقوله ان الله يغفر الذنوب جميعا والقرآن مملوء من ذلك وفى الصحيح من حديث قتادة عن صفوان بن محرز قال قال رجل لابن عمر كيف سمعت رسول الله يقول فى النجوى قال سمعته يقول يدنى المؤمن يوم القيامة من ربه حتى يضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه فيقول هل تعرف فيقول رب أعرف قال فانى قد سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم فيعطى صحيفة حسناته وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤس الاشهاد هؤلاء الذين كذبوا على

والمقصود فان المحتال على المحرمات واسقاط الواجبات مقصوده فاسد وسيلته باطلة فانه توسل بالشئ الى غير مقصوده وتوسل به الى مقصود محرم فان الله سبحانه انما جعل النكاح وسيلة الى المودة والرحمة والمصاهرة والنسل وغض البصر وحفظ الفرج والتمتع والايواء وغير ذلك من مقاصد النكاح والمحلل لم يتوصل به الى شئ من ذلك بل الى تحليل ما حرمه الله تعالى فانه سبحانه حرمها على المطلق ثلاثا عقوبة له فتوسل هذا بنكاحها الى تحليل ما حرمه الله تعالى له ولم يتوسل به الى ما شرع له فكان القصد محرما والوسيلة باطلة وكذلك شرع البيع وسيلة الى انتفاع المشترى بالعين والبائع بالثمن فتوسل به المرابي الى محض الربا وأتى به لغير مقصوده فانه لا غرض له فى تملك تلك العين ولا الانتفاع بها وانما غرضه الربا فتوصل اليه بالبيع وكذلك شرع سبحانه الاخذ بالشفعة دفعا للضرر عن الشريك فتوصل المبطل لها باظهار الصرف الذى لا حقيقة له الى ابطالها فكانت وسيلته باطلة ومقصوده محرما وكذلك الزكاة فرضها رحمة منه للمساكين وطهرة للاغنياء فتوسل المسقط لها الى ابطال هذا المقصود باظهار عقد لا حقيقة له من بيع أو هبة وكذلك القرض شرع سبحانه فيه العدل وأن لا يزداد على مثل ما أقرض فاذا احتال المقرض على الزيادة فقد احتال على مقصود محرم بطريق باطلة وكذلك بيع الثمر قبل بدو صلاحها باطل لما يفضى اليه من أكل المال بالباطل فاذا احتال عليه بان شرط القطع ثم تركه حتى كمل كان قد احتال على مقصود محرم بشرط غير مقصود بل قد علم المتعاقدان وغيرهما انه لا يقطعه ولا سيما ان كان مما لا ينتفع به قبل الصلاح بوجه كالتوت والفرسك وغيرهما فاشتراط قطعه خداع محض وكذلك سائر الحيل التى تعود على مقصود الشارع وشرعه بالنقض والابطال غاياتها محرمة ووسائلها باطلة لا حقيقة لها وكذلك الفدية والخلع التى شرعها الله ليتخلص كل من الزوجين من الآخر اذا وقع الشقاق بينهما فجعلوه حيلة للحنث فى اليمين وبقاء النكاح والله سبحانه انما شرعه لقطع النكاح حيث يكون قطعه مصلحة لهما وبهذا يتبين لك الفرق بين الحيل التى يتوصل بها الى تنفيذ أمر الله تعالى ورسوله واقامة دينه والامر بالمعروف والنهى عن المنكر ونصر المحق وكسر المبطل والحيل التى يتوصل بها الى خلاف ذلك فتحصيل المقاصد المشروعة بالطرق التى جعلت موصلة اليها شئ وتحصيل المقاصد الفاسدة بالطرق التى شرعت لغيرها شئ آخر فالفرق بين النوعين ثابت من جهة الوسيلة والمقصود اللذين هما المحتال به والمحتال عليه فالطرق الموصلة الى الحلال المشروع هى الطرق التى لا خداع فى وسائلها ولا تحريم فى مقاصدها والله التوفيق

[...] الذى ندم [...] فهذا العبد انما فيه ستر ذنوبه عليه فى الدنيا ومغفرتها له يوم القيامة ولم يقل له وأعطيتك بكل سيئة منها حسنة فدل على ان غاية السيئات مغفرتها وتجاوز الله عنها وقد قال الله فى حق الصادقين ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ويجزيهم أجرهم باحسن الذى كانوا يعملون فهؤلاء خيار الخلق وقد أخبر عنهم انه يكفر عنهم سيآت أعمالهم ويجزيهم باحسن ما يعملون وأحسن ما عملوا انما هو الحسنات لا السيآت فدل على ان الجزاء بالحسنى انما يكون على الحسنات وحدها

وأما السيئات فتلغى ويبطل أثرها قالوا وأيضا فلو انقلبت السيئات أنفسها حسنات فى حق التائب لكان أحسن حالا من الذى لم يرتكب منها شيئا وأكثر حسنات منه لانه اذا أساء شاركه فى حسناته التى فعلها وامتاز عنه بتلك السيئات ثم انقلبت له حسنات ترجح عليه وكيف يكون صاحب السيئات أرجح ممن لا سيئة له قالوا وأيضا فكما ان العبد اذا فعل حسنات ثم أتى بما يحبطها فانها لا تنقلب سيئات يعاقب عليها بل يبطل أثرها ويكون لا له ولا عليه وتكون عقوبته عدم ترتب ثوابه عليها فهكذا من فعل سيئات ثم تاب منها فانها لا تنقلب حسنات فان قلتم وهكذا التائب يكون ثوابه عدم ترتب العقوبة على سيئاته لم ننازعكم فى هذا وليس هذا معنى الحسنة فان الحسنة تقتضى ثوابا وجوديا واحتجت الطائفة الاخرى التى قالت هو تبديل السيئة بالحسنة حقيقة يوم القيامة بان قالت حقيقة التبديل اثبات الحسنة مكان السيئة وهذا انما يكون فى السيئة المحققة وهى التى قد فعلت ووقعت فاذا بدلت حسنة كان معناه انها محيت وأثبت مكانها حسنة قالوا ولهذا قال تعالى سيئاتهم حسنات فاضاف السيئات اليهم لكونهم باشروها واكتسبوها ونكر الحسنات ولم يضفها اليهم لانها من غير صنعهم وكسبهم بل هى بمجرد فضل الله وكرمه قالوا وأيضا فالتبديل فى الآية انما هو فعل الله لا فعلهم فانه أخبر انه هو يبدل سيئاتهم حسنات ولو كان المراد ما ذكرتم لاضاف التبديل اليهم فانهم هم الذين يبدلون سيئاتهم حسنات والاعمال انما تضاف الى فاعلها وكاسبها كما قال تعالى فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم وأما ما كان من غير الفاعل فانه يجعله من تبديله هو كما قال تعالى فبدلناهم بجنتيهم جنتين فلما أخبر سبحانه انه هو الذى يبدل

فصل ۞

(فصل) وأما قولكم ان من حلف بطلاق زوجته ليشربن هذا الخمر أو ليقتلن هذا الرجل أو نحو ذلك كان في الحيلة تخليصه من هذه المفسدة ومن مفسدة وقوع الطلاق فيقال نعم والله قد شرع الله له ما يتخلص به والخلاص طرق عديدة فلا تتعين الحيلة التي هي خداع ومكر لتخليصه بل ههنا طرق عدة قد سلك كل طريق منها طائفة من الفقهاء من سلف الأمة وخلفها * الطريق الاولى طريقة من قال لا تنعقد هذه اليمين بحال ولا يجب فيها شئ سواء كانت بصيغة الحلف كقوله الطلاق يلزمني لأفعلن أو بصيغة التعليق المقصود كقوله ان طلعت الشمس أو ان حضت أو ان جاء رأس الشهر فأنت طالق أو التعليق المقصود به اليمين من الحض والمنع والتصديق والتكذيب كقوله ان لم أفعل كذا أو ان فعلت كذا فامرأتي طالق وهذا اختيار أجل أصحاب الشافعي الذين جالسوه أو من هو من أجلهم أبي عبد الرحمن وهو أجل من أصحاب الوجوه المنتسبين الى الشافعي وهذا مذهب أكثر أهل الظاهر فعندهم ان الطلاق لا يقبل التعليق كالنكاح ولم يرد مخالفو هؤلاء عليهم بحجة تشفي * الطريقة الثانية طريق من يقول لا يقع الطلاق المحلوف به ولا العتق المحلوف به ويلزمه كفارة اليمين اذا حنث فيه وهذا مذهب ابن عمر وابن عباس وأبي هريرة وعائشة وزينب بنت أم سلمة وحفصة في الحلف بالعتق الذي هو قربة الى الله تعالى بل من أحب القرب الى الله ويسري في ملك الغير فما يقول هؤلاء في الحلف بالطلاق الذي هو أبغض الحلال الى الله تعالى وأحب الاشياء الى الشيطان والسائل لهؤلاء الصحابة انما كان امرأة حلفت بأن كل مملوك لها حر ان لم يفرق بين عبدها وبين امرأته فقالوا لها كفري عن يمينك وخلي بين الرجل وبين امرأته وهؤلاء الصحابة أفقه في دين الله وأعلم من أن يفتوا بالكفارة في الحلف بالعتق ويرونه يمينا ولا يرون الحلف بالطلاق يمينا ويلزمون الحانث بوقوعه فانه لا يجد فقيه شم رائحة العلم بين البابين والتعليقين فرقا بوجه من الوجوه وانما لم يأخذ به أحد لانه لم يصح عنده الا من طريق سليمان التيمي واعتقد أنه تفرد به وقد تابعه عليه محمد بن عبد الله الانصاري وأشعث الحراني ولهذا لما ثبت عند أبي ثور قال به وظن الاجماع في الحلف بالطلاق على لزومه فلم يقل به * الطريقة الثالثة طريق من يقول ليس الحلف بالطلاق شيأ وهذا صحيح عن طاوس وعكرمة أما طاوس فقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن ابن جريج عن ابن طاوس عن أبيه انه كان لا يرى الحلف بالطلاق شيأ وقد رد بعض المتعصبين لتقليدهم ومذاهبهم هذا النقل بأن عبد الرزاق ذكره في باب يمين المكره فحمله على الحلف بالطلاق مكرها وهذا فاسد فان الحجة ليست في الترجمة وانما الاعتبار بما يروى في أثناء الترجمة ولاسيما المتقدمين

سيئاتهم حسنات دل على انه شئ فعله هو سبحانه بسيئاتهم لانهم فعلوه من تلقاء أنفسهم وان كان سببه منهم وهو التوبة والايمان والعمل الصالح قالوا ويدل عليه ما رواه مسلم في صحيحه من حديث الاعمش عن المعرور بن سويد عن أبي ذر قال قال رسول الله اني لاعلم آخر أهل الجنة دخولا الجنة وآخر اهل النار خروجا منها رجل يؤتى به يوم القيامة فيقال اعرضوا عليه صغار ذنوبه وارفعوا عنه كبارها فتعرض عليه صغار ذنوبه فيقال عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا وعملت يوم كذا وكذا كذا وكذا فيقول نعم لا يستطيع أن ينكر وهو مشفق من كبار ذنوبه ان تعرض عليه فيقال له فان لك مكان كل سيئة حسنة فيقول رب قد عملت أشياء لا أراها ههنا فلقد رأيت رسول الله ضحك حتى بدت نواجذه وقال الامام أحمد ثنا وكيع ثنا الاعمش عن المعرور بن سويد عن أبي ذر قال قال رسول الله يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال اعرضوا عليه صغار ذنوبه قال فتعرض عليه ويخبأ عنه كبارها فيقال عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا وهو مقر لا ينكر وهو مشفق من الكبار فيقال اعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة قال فيقول ان لي ذنوبا ما أراها قال فلقد رأيت رسول الله ضحك حتى بدت نواجذه قالوا وأيضا فروى أبو حفص المستملي عن محمد بن عبد العزيز ابن أبي رزمة ثنا الفضل بن موسى القطعي عن أبي العنبس عن أبيه عن أبي هريرة قال قال رسول الله ليتمنين أقوام انهم أكثروا من السيئات قيل من هم قال الذين بدل سيئاتهم حسنات قالوا وهؤلاء هم الابدال في الحقيقة فانهم انما سموا ابدالا لانهم بدلوا أعمالهم السيئة بالاعمال الحسنة فبدل الله سيئاتهم التي عملوها حسنات قالوا وأيضا فالجزاء من جنس العمل فكما بدلوا هم أعمالهم السيئة بالحسنة بدلها الله من صحف الحفظة حسنات جزاء وفاقا قالت الطائفة الاولى كيف يمكنكم الاحتجاج بحديث أبي ذر على صحة قولكم وهو صريح في ان هذا الذي قد بدلت سيئاته حسنات قد عذب عليها في النار حتى كان آخر أهلها خروجا منها فهذا قد عوقب على سيئاته فزال أثرها بالعقوبة فبدل مكان كل سيئة منها حسنة وهذا حكم غير ما نحن فيه فان الكلام في التائب من السيئات لا فيمن مات مصرا عليها غير تائب فاين أحدهما من الآخر وأما حديث الامام أحمد فهو الحديث بعينه اسنادا ومتنا الا أنه مختصر وأما حديث أبي هريرة فلا

كابن أبي شيبة وعبد الرزاق ووكيع وغيرهم فانهم يذكرون في أثناء الترجمة آثارا لا تطابق الترجمة وان كان لها بها نوع تعلق وهذا في كتبهم لمن تأمله أكثر وأشهر من أن يخفى وهو في صحيح البخاري وغيره وفي كتب الفقهاء وسائر المصنفين ثم لوفهم عبد الرزاق هذا وأنه في يمين المكره لم تكن الحجة في فهمه بل الاخذ بروايته وأي فائدة في تخصيص الحلف بالطلاق بذلك بل كل مكره حلف بأي يمين كانت فيمينه ليست بشئ وأما عكرمة فقال سنيد بن داود في تفسيره حدثنا عباد بن عباد المهلبي عن عاصم الاحول عن عكرمة في رجل قال لغلامه ان لم أجلدك مائة سوط فامرأتي طالق قال لا يجلد غلامه ولا يطلق امرأته هذا من خطوات الشيطان فاذا ضممت هذا الاثر الى أثر ابن طاوس عن أبيه الى أثر ابن عباس فيمن قالت لمملوكها ان لم أفرق بينك وبين امرأتك فكل مملوك لي حر الى الآثار المستفيضة عن ابن عباس في الحلف بتحريم الزوجة انها يمين يكفرها تبين لك ما كان عليه ابن عباس وأصحابه في هذا الباب فاذا ضممت ذلك الى آثار الصحابة في الحلف بالتعليقات كالحج والصوم والصدقة والهدي والمشي الى مكة حافيا ونحو ذلك انها أيمان مكفرة تبين لك حقيقة ما كان عليه الصحابة في ذلك فاذا ضممت ذلك الى القياس الصحيح الذي يستوي فيه حكم الاصل والفرع تبين لك توافق القياس وهذه الآثار فاذا ارتفعت درجة أخرى ووزنت ذلك بالنصوص من القرآن والسنة تبين لك الراجح من المرجوح ومع هذا كله فلا يزن ذلك بمقاواة السلطان ومن يقول حكمت وثبت عندي فالله المستعان * الطريقة الرابعة طريق من يفرق بين أن يحلف على فعل امرأته أو على فعل نفسه أو على غير الزوجة فيقول ان قال لامرأته ان خرجت من الدار أو كلمت رجلا أو فعلت كذا فانت طالق فلا يقع عليه الطلاق بفعلها ذلك وان حلف على فعل نفسه أو غير امرأته وحنث لزمه الطلاق وهذا قول أفقه أصحاب مالك على الاطلاق وهو أشهب بن عبد العزيز ومحله من الفقه والعلم غير خاف ومأخذ هذا ان المرأة اذا فعلت ذلك لتطلق نفسها لم يقع به الطلاق معاقبة لها بنقيض قصدها وهذا جار على أصول مالك وأحمد ومن وافقهما في معاقبة الفار من التوريث والزكاة وقاتل مورثه والموصي له ومن دبره بنقيض قصده وهذا هو الفقه لا سيما وهو لم يرد طلاقها انما أراد حضها أو منعها وأن لا تتعرض لما يؤذيه فكيف يكون فعلها سببا الاعظم أذاه وهو لم يملكها ذلك بالتوكيل والخيار ولا ملكها الله اياه بالفسخ فكيف تكون الفرقة اليها ان شاءت أقامت معه وان شاءت فارقته بمجرد حضها ومنعها وأي شئ أحسن من هذا الفقه وأطرد على قواعد الشريعة * الطريقة الخامسة طريق من يفصل بين الحلف بصيغة الشرط والجزاء والحلف بصيغة الالتزام

يثبت مثلا ومن أبو العنبس ومن أبو مختى يقبل منهما تفردهما بمثل هذا الامر الجليل وكيف يصح مثل هذا الحديث عن رسول الله مع شدة حرصه على التنفير من السيئات وتقبيح أهلها وذمهم وعيبهم والاخبار بأنها تنقص الحسنات وتضادها فكيف يصح عنه صلى الله عليه وسلم أنه يقول ليتمنين أقوام انهم أكثروا منها ثم كيف يتمنى المرء الاكثار منها مع سوء عاقبتها وسوء مغبتها وانما يتمنى الاكثار من الطاعات وفي الترمذي مرفوعا ليتمنين أقوام يوم القيامة ان جلودهم كانت تقرض بالمقاريض لما يرون من ثواب أهل البلاء فهذا فيه تمني البلاء يوم القيامة لاجل مزيد ثواب أهله وهو تمني الحسنات وأما تمني الحسنات فهذا لاريب فيه وأما تمني السيئات فكيف يتمنى العبد انه أكثر من السيئات هذا مالا يكون أبدا وانما يتمنى المسيء ان لو لم يكن أساء وأما تمنيه انه ازداد من اساءته فكلا قالوا وأما ما ذكرتم من ان التبديل هو اثبات الحسنة مكان السيئة فحق وكذلك نقول ان الحسنة المفعولة صارت في مكان السيئة التي لولا الحسنة لحلت محلها قالوا وأما احتجاجكم باضافة السيئات اليهم وذلك يقتضي ان تكون هي السيئات الواقعة وتنكيرا الحسنات وهو يقتضي ان تكون حسنات من فضل الله فهو حق بلا ريب ولكن من أين يبقى أن يكون فضل الله بها مقارنا لكسبهم اياها بفضله قالوا وأما قولكم ان التبديل مضاف الى الله لا اليهم وذلك يقتضي انه هو الذي بدلها من الصحف لانهم هم الذين بدلوا الاعمال باضدادها فهذا الدليل لكم فان الله خالق أفعال العباد فهو المبدل للسيئات حسنات خلقا وتكوينا وهم المبدلون لها فعلا وكسبا قالوا وأما احتجاجكم بأن الجزاء من جنس العمل فكما بدلوا سيئات أعمالهم بحسناتهم بدلها الله كذلك في صحف الاعمال فهذا حق وبه نقول وانه بدلت السيئات التي كانت مهيأة ومعدة ان تحل في الصحف بحسنات حلت موضعها فهذا فالاول منتهى أقدام الطائفتين ومحط نظر الفريقين واليك أيها المنصف الحكم بينهما فقد أدلى كل منهما بحجته وأقام بينته والحق لا يعدوهما ولا يتجاوزهما فأرشد الله من أعان على هدى فنال به درجة الداعين الى الله القائمين ببيان حججه ودينه أو عذر طالبا منفردا في طريق مطالبه قد انقطع رجاؤه من رفيق في الطريق فغاية أمنيته أن يخلي بينه وبين سيره وأن لا يقطع عليه طريقه فمن رفع له مثل هذا العلم ولم يشمر

فالاول كقوله ان فعلت كذا أو ان لم أفعله فأنت طالق والثاني كقوله الطلاق يلزمني أولي لازم أو علي الطلاق ان فعلت أو ان لم أفعل فلا يلزمه الطلاق في هذا القسم اذا حنث دون الاول وهذا أحد الوجوه الثلاثة لأصحاب الشافعي وهو المنقول عن أبي حنيفة وقدماء أصحابه ذكره صاحب الذخيرة وأبو الليث في فتاويه قال أبو الليث ولو قال طلاقك علي واجب أو لازم أو فرض أو ثابت فمن المتأخرين من أصحابنا من قال يقع واحدة رجعية نواه أو لم ينوه ومنهم من قال لا يقع وان نوى والفارق العرف قال صاحب الذخيرة وعلى هذا الخلاف اذا قال ان فعلت كذا فطلاقك علي واجب أو قال لازم ففعلت وذكر القدوري في شرحه أن قول أبي حنيفة لا يقع الطلاق في الكل وعند أبي يوسف ان نوى الطلاق يقع في الكل وعن محمد أنه يقع في قوله لازم ولا يقع في واجب واختار الصدر الشهيد الوقوع في الكل وكان ظهير الدين المرغيناني يفتي بعدم الوقوع في الكل هذا كله لفظ صاحب الذخيرة وأما الشافعية فقال ابن يونس في شرح التنبيه وان قال الطلاق والعتاق لازم لي ونواه لزمه لانهما يقعان بالكناية مع النية وهذا اللفظ محتمل فجعل كناية وقال الروياني الطلاق لازم لي صريح وعد ذلك في صرائح الطلاق ولعل وجهه غلبة استعماله لارادة الطلاق وقال القفال في فتاويه ليس بصريح ولا كناية حتى لا يقع به الطلاق وان نواه لان الطلاق لابد فيه من الاضافة الى المرأة ولم يتحقق هذا لفظه حكى شيخنا هذا القول عن بعض أصحاب أحمد فقد صار الخلاف في هذا الباب في المذاهب الاربعة بنقل أصحابها في كتبهم ولهذا التفريق مأخذ آخر أحسن من هذا الذي ذكره الشارح وهو أن الطلاق لا يصح التزامه وانما الملتزم التطليق فان الطلاق هو الواقع بالمرأة وهو اللازم لها وانما الذي يلتزمه الرجل هو التطليق فالطلاق لازم لها اذا وقع واذا تبين هذا فالتزام التطليق لا يوجب وقوع الطلاق فانه لو قال ان فعلت كذا فعلي أن أطلقك أو فلله علي أن أطلقك أو فتطليقك لازم لي أو واجب علي وحنث لم يقع عليه الطلاق فهكذا اذا قال ان فعلت كذا فالطلاق يلزمني لانه انما التزم التطليق ولا يقع بالتزامه والموقعون يقولون هو قد التزم حكم الطلاق وهو خروج البضع من ملكه وانما يلزمه حكمه اذا وقع فصار هذا الالتزام مستلزما لوقوعه فقال لهم الآخرون انما يلزمه حكمه اذا أتى بسببه وهو التطليق فحينئذ يلزمه حكمه وهو لم يأت بالتطليق منجزا بلا ريب وانما أتى به معلقا له والتزام التطليق بالتنجيز لا يلزم فكيف يلزم بالتعليق والمنصف المتبصر لا يخفى عليه الصحيح وبالله التوفيق

(فصل) وممن ذكر الفرق بين الطلاق وبين الحلف بالطلاق القاضي أبو الوليد هشام

اليه فقد رضي بالدون وحصل على صفقة المغبون ومن ثم اليه ورام أن لا يعارضه معارض ولا يتصدى له ممانع فقد منى نفسه المحال وان صبر على لأوائها وشدتها فهو والله الفوز المبين والحظ الجزيل وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه أنيب فالصواب ان شاء الله في هذه المسألة أن يقال لاريب ان الذنب نفسه لا ينقلب حسنة والحسنة انما هي أمر وجودي يقتضي ثوابا ولهذا كان تارك المنهيات انما يثاب على كف نفسه وحبسها عن موافقة المنهي وذلك الكف والحبس أمر وجودي وهو متعلق الثواب وأما من لم يخطر بباله الذنب أصلا ولم يحدث به نفسه فهذا كيف يثاب على تركه ولو أثيب مثل هذا على ترك هذا الذنب لكان مثابا على ترك ذنوب العالم التي لا تخطر بباله وذلك أضعاف حسناته بما لا يحصى فان الترك مستصحب معه والمتروك لا ينحصر ولا ينضبط فهل يثاب على ذلك كله وهذا مما لا يتوهم واذا كانت الحسنة لابد أن تكون أمرا وجوديا فالتائب من الذنوب التي عملها قد قارن كل ذنب منها ندما عليه وكف نفسه عنه وعزم على ترك معاودته وهذه حسنات بلا ريب وقد محت التوبة أثر الذنب وخلفه هذا الندم والعزم وهو حسنة قد بدلت تلك السيئة حسنة وهذا معنى قول بعض المفسرين يجعل مكان السيئة التوبة والحسنة مع التوبة فاذا كانت كل سيئة من سيئاته قد تاب منها فتوبته منها حسنة حلت مكانها فهذا معنى التبديل لا ان السيئة نفسها تنقلب حسنة وقال بعض المفسرين في هذه الآية يعطيهم بالندم على كل سيئة أساؤها حسنة وعلى هذا فقد زال بحمد الله الاشكال واتضح الصواب وظهر ان كل واحد من الطائفتين ما خرجت عن موجب العلم والحجة وأما حديث أبي ذر وان كان التبديل فيه في حق المصر الذي عذب على سيئاته فهو يدل بطريق الأولى على حصول التبديل للتائب المقلع النادم على سيئاته فان الذنوب التي عذب عليها المصر لما زال أثرها بالعقوبة بقيت كأن لم تكن فأعطاه الله مكان كل سيئة منها حسنة لان ما حصل له يوم القيامة من الندم المفرط عليها مع العقوبة لا يقتضي زوال أثرها وتبديلها حسنات فان الندم لم يكن في وقت ينفعه فلما عوقب عليها وزال أثرها بدلها الله له حسنات فزوال أثرها بالتوبة النصوح أعظم من زوال أثرها بالعقوبة فاذا بدلت بعد زوالها بالعقوبة حسنات فلأن تبدل بعد زوالها بالتوبة حسنات أولى وأحرى وتأثير التوبة في هذا المحو والتبديل

أقوى من تأثير العقوبة لان التوبة فعل اختيارى أتى به العبد طوعا ومحبة لله وفرقا منه وأما العقوبة فالتكفير بها من جنس التكفير بالمصائب التى تصيبه بغير اختياره بل بفعل الله ولا ريب ان تأثير الافعال الاختيارية التى يحبها الله ويرضاها فى محو الذنوب أعظم من تأثير المصائب التى تناله بغير اختياره ولنرجع الآن الى المقصود وهو ماذكره أبو العباس بن الصائغ فى علل المقامات فقد ذكرنا كلامه فى علة مقام الارادة وذكرنا ان الكلام على ذلك من وجوه هذا آخر الوجه الثانى منها الوجه الثالث أن يقال قوله الزهد تعظيم للدنيا واحتباس عن الانتفاع بها الى آخر الفصل ان أراد به ان زهده دليل على تعظيم الدنيا وان لها فى قلبه من القدر والمنزلة مايكره لاجله نفسه على تركها أو مستلزم لذلك فان الزهد لايدل على هذا التعظيم ولا يستلزمه وان كان من عوارض غلبات الطبع التى تذم مسا كنتها والمحجاب القلب بها بل زهده فيها دليل على خروج عظمها من قلبه ومبالاته بها ونزول الاهتبال بشأنها فكيف يكون هذا انقصا بوجه بل النقص فى الزهد يكون من أحد وجوه ثلاثة اما أن يزهد فيما ينفعه منها ويكون قوة له على سيره ومعونة له على سفره فهذا نقص فان حقيقة الزهد هى أن تزهد فيما لاينفعك والورع ان تجتنب ما قد يضرك فهذا الفرق بين الامرين الثانى ان يكون زهده مشوبا اما بنوع عجز أو ملالة وسآمة وتأذيه بها وباهلها وتعب قلبه بشغله بها ونحو هذا من المزهدات فيها كما قيل لبعضهم ما الذى أوجب زهدك فى الدنيا قال قلة وفائها وكثرة جفائها وخسة شركائها فهذا زهد ناقص فلو صفت للزاهد من تلك العوارض لم يزهد فيها بخلاف من كان زهده فيها لامتلاء قلبه من الآخرة ورغبته فى الله وقربه فهذا لانقص فى زهده ولا علة من جهة كونه زهدا الثالث ان يشهد زهده ويلحظه ولا يغنى عنه بما زهد لاجله فهذا نقص أيضا فالزهد كله ان تزهد فى رؤية زهدك وتغيب برؤية الفضل ومطالعة المنة وأن لاتقف عنده فتنقطع بل اعرض عنه جادا فى سيرك غير ملتفت اليه مستصغرا الحاله بالنسبة الى مطلوبك مع ان هذه العلة مطردة فى جميع المقامات على مافيها كما سننبه عليه ان شاء الله فان ربط هذا الشأن بالنصوص النبوية والعقل الصريح والفطرة الكاملة من أهم الامور فلا يحسن بالناصح لنفسه أن يقنع فيه بمجرد تقليد أهله فما أكثر غلطهم فيه وتحكيمهم

ابن عبد الله الازدى القرطبى فى كتابه مفيد الحكام فيما يعرض لهم من نوازل الاحكام فقال فى كتاب الطلاق من ديوانه وقد ذكر اختلاف أصحاب مالك فى الأيمان اللازمة ثم قال ولا ينبغى ان تتلقى هذه المسألة هكذا تلقيا تقليديا الاأن يشمها نور الفهم ويوضحها لسان البرهان وأنا أشير لك الى نكتة تسعد بالغرض فيها ان شاء الله تعالى منها الفرق بين الطلاق ايقاعا وبين اليمين بالطلاق وفى المدونة كتابان موضوعان أحدهما النفس الطلاق والثانى للايمان بالطلاق ووراء هذا الفن فقه على الجملة وذلك ان الطلاق صورته فى الشرع حل وارد على عقد واليمين بالطلاق عقد فليفهم هذا واذا كان عقدا لم يحصل منه حل الاأن تنقله من موضع العقد الى موضع الحل نية لتخرج بها اللفظ من حقيقة الى كناية فقد نجمت هذه المسألة فى أيام الحجاج بعد أن استقل الشرع باصوله وفروعه وحقائقه ومجازاته فى أيمان البيعة وليس فى أيمان الطلاق الا ماأذكره لك وذلك ان الطلاق على ضربين صريح وكناية فالصريح كل لفظ استقل بنفسه فى اثبات حكمه تحديدا والكناية على ضربين كناية غالبة وغير غالبة فالغالبة كل ما اشعر بثبوت الطلاق فى موضوع اللغة أو الشرع كقوله الحقى باهلك واعتدى وغير الغالبة كل مالا يشعر بثبوت الطلاق فى وضع اللغة والشرع كقولك ناولينى الثوب وقال أردت بذلك الطلاق فاذا عرضنا لفظ الأيمان تلزمنى على صريح الطلاق لم يكن من قسمه وان عرضناها على الكناية لم تكن من قسمها الابقرينة من شاهد حال أو جارى عرف أو نية تقارن اللفظ فان اضطرب شاهد الحال أو جارى العرف باحتمال يحتمله فقد تعذر الوقوف على النية ولا ينبغى لحاكم ولا لغيره أن يمد القلم فى فتوى حتى يتأمل مثل هذه المعانى فان الحكم ان لم يقع مستوضحا عن نور فكرى مشعر بالمعنى المربوط اضمحل ثم قال وأنا اذاكر لك مابلغنى فى هذه اليمين من كلام العلماء ورأيته من أقوال الفقهاء وهى يمين محدثة لم تقع فى الصدر الاول ثم ذكر اختلاف أهل العلم فى الحلف بالأيمان اللازمة والمقصود انه ذكر الفرق الفطرى العقلى الشرعى بين ايقاع الطلاق والحلف بالطلاق وانهما بابان مفترقان بحقائقهما ومقاصدهما وألفاظهما فيجب افتراقهما حكما أما افتراقهما بالحقيقة فما ذكره من ان الطلاق حل وفسخ واليمين عقد والتزام فهما اذا حقيقتان مختلفتان قال تعالى ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان ثم أشار الى الافتراق فى الحكم بقوله واذا كانت اليمين عقدا لم يحصل بها حل الا أن ينقل من موضع العقد الى موضع الحل ومن البين ان الشارع لم ينقلها من العقد الى الحل فيجب بقاؤها على ما وضعت عليه نعم لو قصد الحالف بها ايقاع الطلاق عند الحنث فقد استعملها فى العقد والحل فتصير كناية

كناية فى الوقوع وقد نواه فيقع به الطلاق لان هذا العقد صالح للكناية وقد اقترنت به النية فيقع الطلاق أما اذا نوى مجرد العقد ولم ينو الطلاق البتة بل هو شئ أكره اليه فلم يأت بما ينقل اليمين من موضوعها الشرعي ولا نقلها عنه الشارع فلا يلزمه غير موجب الايمان فليتأمل المنصف العالم هذا الفرق ويخرج قلبه ساعة من التعصب والتقليد واتباع غير الدليل والمقصود ان باب اليمين وباب الايقاع مختلفان فى الحقيقة والقصد واللفظ فيجب اختلافهما فى الحكم أما الحقيقة فما تقدم وأما القصد فلان الحالف مقصوده الحض والمنع أو التصديق أو التكذيب والمطلق مقصوده التخلص من الزوجة من غير أن يخطر بباله حض ولا منع ولا تصديق ولا تكذيب فالتسوية بينهما مالا يخفى حالها وأما اختلافهما لفظا فان لفظ اليمين لابد فيها من الزام قسمى يأتى فيه بجواب القسم أو تعليق شرطى يقصد فيه انتفاء الشرط والجزاء أو وقوع الجزاء على تقدير وقوع الشرط وان كان يكرهه ويقصد انتفاءه فالمقدم فى الصورة الاولى مؤخر فى الثانية والمنفى فى الاولى ثابت فى الثانية ولفظ الايقاع لا يتضمن شيأ من ذلك ومن تصور هذا حق التصور جزم بالحق فى هذه المسألة والله الموفق * الطريقة السادسة أن يزول المعنى الذى كانت اليمين لاجله فاذا فعل المحلوف عليه بعد ذلك لم يحنث لان امتناعه باليمين انما كان لعلة فيزول بزوالها وهذا مطرد على اصول الشرع وقواعد مذهب أحمد وغيره ممن لم يعتبر النية والقصد فى اليمين تعميما وتخصيصا واطلاقا وتقييدا فاذا حلف لا أكلم فلانة وكان سبب اليمين والذى هيجها كونها أجنبية يخاف الوقوع فى عرضه بكلامها فتزوجها لم يحنث بكلامها اذ الا سبب اليمين وما هيجها فى التقييد بكونها أجنبية هذا اذا لم يكن له نية ما دامت كذلك أما اذا كانت له نية فلا اشكال فى تقييد اليمين بها ونظيره أن يحلف لا يكلم فلانا ولا يعاشره لكونه صبيا فصار رجلا وكانت نيته وسبب يمينه لاجل صباه ونظيره أن يحلف لا دخلت هذه الدار لاجل من يظن به التهمة لدخولها فمات أو سافر فدخلها لم يحنث وبذلك أفتى أبو حنيفة وأبو يوسف من حلف لا دخلت دار فلان هذه ولا كلمت عبده هذا فباع العبد والدار ونظير هذا أن يحلف أن لا يكلم فلانا والحامل له على اليمين كونه تاركا للصلاة أو مرائيا او خمارا أو واليا فتاب من ذلك كله وزالت الصفة التى حلف لاجلها لم يحنث بكلامه وكذلك اذا حلف لا تزوجت فلانة والحامل له على اليمين صفة فيها مثل كونها بغيا أو غير ذلك فزالت تلك الصفة لم يحنث بتزوجها كل هذا مراعاة للمقاصد التى الالفاظ دالة عليها فاذا ظهر القصد كان هو المعتبر ولهذا لو حلف ليقضينه حقه فى غد وقصده أو السبب أن لا يجاوزه فقضاه قبله لم يحنث ولو حلف لا يبيع عبده الا بالف فباعه

بمجرد الذوق وجعل حكم ذلك الذوق كليا عاما فهذا ونحوه من مثارات الغلط الوجه الرابع ان الزهد على أربعة أقسام أحدها فرض على كل مسلم وهو الزهد فى الحرام وهذا متى أخل به انعقد سبب العقاب فلا بد من وجود مسببه مالم ينعقد سبب آخر يضاده الثانى زهد مستحب وهو على درجات فى الاستحباب بحسب المزهود فيه وهو الزهد فى المكروه وفضول المباحات والتفنن فى الشهوات المباحة الثالث زهد الداخلين فى هذا الشأن وهم المشمرون فى السير الى الله وهو نوعان أحدهما الزهد فى الدنيا جملة وليس المراد تخليها من اليد ولا اخراجها وقعوده صفرا منها وانما المراد اخراجها من قلبه بالكلية فلا يلتفت اليها ولا يدعها تساكن قلبه وان كانت فى يده فليس الزهد ان تترك الدنيا من يدك وهى فى قلبك وانما الزهد ان تتركها من قلبك وهى فى يدك وهذا كحال الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز الذى يضرب بزهده المثل مع ان خزائن الاموال تحت يده بل كحال سيد ولد آدم صلى الله عليه وسلم حين فتح الله عليه من الدنيا ما فتح ولا يزيده ذلك الا زهدا فيها ومن هذا الاثر المشهور وقد روى مرفوعا وموقوفا ليس الزهد فى الدنيا بتحريم الحلال ولا اضاعة المال ولكن الزهد فى الدنيا أن تكون بما فى يد الله أوثق منك بما فى يدك وان تكون فى ثواب المصيبة اذا أصبت بها أرغب منك فيها لو أنها بقيت لك والذى يصحح هذا الزهد ثلاثة أشياء أحدها علم العبد انها ظل زائل وخيال زائر وانها كما قال تعالى فيها انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الاموال والاولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وقال تعالى انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض مما يأكل الناس والانعام حتى اذا أخذت الارض زخرفها وازينت وظن أهلها انهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالامس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون وقال واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شئ مقتدرا وسماها سبحانه متاع الغرور ونهى عن الاغترار بها وأخبرنا عن سوء عاقبة المغترين وحذرنا مثل مصارعهم وذم من رضى بها واطمأن اليها وقال النبى صلى الله عليه وسلم مالى وللدنيا انما أنا كراكب قال فى ظل شجرة ثم راح وتركها وفى المسند عنه صلى الله عليه وسلم

بأكثر لم يحنث ولو حلف أن لا يخرج من البلد الا باذن الوالي والنية أو السبب يقتضي التقييد مادام كذلك فعزل لم يحنث بالخروج بغير اذنه وكذا الرحلف على زوجته أو عبده أو أمته أن لا تخرج الا باذنه فطلق أو أعتق أو باع لم يحنث بخروجهم بغير اذنه لان اقتضاء السبب والقصد للتقييد في غاية الظهور ونظائر ذلك كثيرة جدا وسائر الفقهاء يعتبرون ذلك وان خالفوه في كثير من المواضع وهذا هو الصواب لان الالفاظ انما اعتبرت لدلالتها على المقاصد فاذا ظهر القصد كان الاعتبار له وتقييد اللفظ به ولهذا لو دعي الى غداء فحلف ان لا يتغدى تقيدت يمينه بذلك الغداء وحده لان النية والسبب وبساط اليمين لا يقتضي غيره وقد أخبر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن الاعمال بالنيات وانما لكل امرئ مانوى ومالم ينوه بيمينه أو كان السبب لا يقتضيه لا يجوز أن لا يلزم به مع القطع بانه لم يرده ولا خطر على باله وقد افتى غير واحد من الفقهاء منهم ابن عقيل وشيخنا وغيرهما فيمن قيل له ان امرأتك قد خرجت من بيتك أو قد زنت بفلان فقال هي طالق ثم تبين له انها لم تخرج من البيت وان الذي رميت به في بلد بعيد لا يمكن وصوله اليها أو انه حين رميت به كان ميتا ونحو ذلك مما يعلم به أنها لم تزن فانه لا يقع عليه الطلاق لانه انما طلقها بناء على هذا السبب فهو كالشرط في طلاقها وهذا الذي قالوه هو الذي لا يقتضي المذهب وقواعد الفقه غيره فانهم قد قالوا لو قال لها أنت طالق وقال أردت ان قمت دين ولم يقع به الطلاق فهذا امثله سواء ونظير هذا ما قالوه ان المكاتب لو أدى الى سيده المال فقال أنت حر فبان ان المال الذي أعطاه مستحق أو زيوف لم يقع العتق وان كان قد صرح ذكره أصحاب أحمد والشافعي لانه انما اعتقه بناء على سلامة العوض ولم يسلم له وقواعد الشريعة كلها مبنية على أن الحكم اذا ثبت لعلة زال بزوالها وأمثلة ذلك أكثر من أن تحصر فهذه الطريقة تخلص من كثير من الحنث واذا تأملت هذه الطرق رأيت أنها سلكت أحسن من طرق الحيل التي يتحيلون بها على عدم الحنث وهي أنواع أحدها التسريح الثاني خلع اليمين الثالث التحيل لفساد النكاح اما بكون الولي كان قد فعل ما يفسق به أو الشهود كانوا جلوسا على مقعد حرير ونحو ذلك فيكون النكاح باطلا فلا يقع فيه الطلاق الرابع الاحتيال على فعل المحلوف عليه بتغيير اسمه أو صفته أو نقله من مالك الى مالك ونحو ذلك فاذا غلبوا عن شيء من هذه الحيل الاربعة فزعوا الى التيس المستعار فاستأجروه ليسفد ويأخذ على سفاده أجرا فليوازن من يعلم أنه موقوف بين يدي الله تعالى ومسؤل بين هذه الطرق وتلك الطرق التي قبلها وليقم لله ناظرا ومناظرا متجردا من العصبية والحمية فانه لا يكاد يخفى عليه الصواب وبالله التوفيق

عنوان ... أن الله جعل طعام ابن آدم وما يخرج منه مثلا للدنيا فانه وان قزحه وملحه فلينظر الى ماذا يصير فما اغتر بها ولا سكن اليها الا ذو همة دنية وعقل حقير وقدر خسيس الثاني علمه ان وراءها دارا أعظم منها قدرا وأجل خطرا وهي دار البقاء وان نسبتها اليها كما قال النبي ما الدنيا في الآخرة الا كما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بم يرجع فالزاهد فيها بمنزلة رجل في يده درهم زغل قيل له اطرحه فلك عوضه مائة ألف دينار مثلا فالقاه من يده رجاء ذلك العوض فالزاهد فيها لكمال رغبته فيما هو أعظم منها زاهد فيها الثالث معرفته ان زهده فيها لا يمنعه شيأ كتب له منها وان حرصه عليها لا يجلب له مالم يقض له منها فمتى تيقن ذلك وصار له علم يقين هان عليه الزهد فيها فانه متى تيقن ذلك وثلج له صدره وعلم ان مضمونه منها سيأتيه بقي حرصه وتعبه وكده ضائعا والعاقل لا يرضى لنفسه بذلك فهذه الامور الثلاثة تسهل على العبد الزهد فيها وتثبت قدمه في مقامه والله الموفق لمن يشاء النوع الثاني الزهد في نفسك وهو أصعب الاقسام وأشقها وأكثر الزاهدين انما وصلوا اليه ولم يلجوه فان الزاهد يسهل عليه الزهد في الحرام لسوء مغبته وقبح ثمرته وحماية لدينه وصيانة لايمانه وايثار اللذة والنعيم على العذاب وأنفة من مشاركة الفساق والفجرة وحمية من أن يستأسر لعدوه ويسهل عليه الزهد في المكروهات وفضول المباحات علمه بما يفوته بايثارها من اللذة والسرور الدائم والنعيم المقيم ويسهل عليه زهده في الدنيا معرفته بما وراءها وما يطلبه من العوض التام والمطلب الاعلى وأما الزهد في النفس فهو ذبحها بغير سكين وهو نوعان أحدهما وسيلة وبداية وهو ان تميتها فلا يبقى لها عندك من القدر شيأ فلا تغضب لها ولا ترضى لها ولا تنتصر لها ولا تنتقم لها قد سبلت عرضها ليوم فقرها وفاقتها فهي أهون عليك من أن تنتصر لها أو تنتقم لها أو تجيبها اذا دعتك أو تكرمها اذا عصتك أو تغضب لها اذا ذمت بل هي عندك أخس مما قيل فيها أو ترفهها عما فيه حظك وفلاحك وان كان صعبا عليها وهذا وان كان ذبحا لها وامانة عن طباعها وأخلاقها فهو عين حياتها وصحتها ولا حياة لها بدون هذا البتة وهذه العقبة هي آخر عقبة يشرف منها على منازل المقربين وينحدر منها الى وادي البقاء ويشرب من عين الحياة ويخلص روحه من سجون المحن والبلاء وأسر الشهوات وتتعلق بربها

فصل

(فصل) وأما قوله تعالى لايوب عليه السلام وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث فمن العجب أن يحتج بهذه الآية على من يقول انه لو حلف ليضربنه عشرة أسواط فجمعها وضربه بها ضربة واحدة لم يبر في يمينه هذا قول أصحاب أبي حنيفة ومالك وأصحاب أحمد وقال الشافعي ان علم أنها مسته كلها بر في يمينه وان علم أنها لم تمسه لم يبر وان شك لم يحنث ولو كان هذا موجبا لبر الحالف لسقط عن الزاني والقاذف والشارب بعدد الضرب بأن يجمع له مائة سوط أو ثمانين ويضرب به بها ضربة واحدة وهذا انما يجري في المرض كما قال الامام أحمد في المريض عليه الحد يضرب بعثكال يسقط عنه الحد واحتج بما رواه عن أبي امامة بن سهل عن سعيد بن سعد بن عبادة قال كان بين أبياتنا رويجل ضعيف مخدج فلم يرع الحي الا وهو على أمة من امائهم يخبث بها قال فذكر ذلك سعد بن عبادة لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وكان ذلك الرجل مسلما فقال اضربوه حده قالوا يا رسول الله انه أضعف مما يحسب لو ضربناه مائة قتلناه فقال خذوا له عثكالا فيه مائة شمراخ ثم اضربوه به ضربة واحدة ففعلوا وأما قصة أيوب فلها فقه دقيق فان امرأته كانت لشدة حرصها على عافيته وخلاصه من دائه تلتمس له الدواء بما تقدر عليه فلما لقيها الشيطان وقال ما قال أخبرت أيوب عليه السلام بذلك فقال انه الشيطان ثم حلف لئن شفاه الله تعالى ليضربنها مائة سوط فكانت معذورة محسنة في شأنه ولم يكن في شرعهم كفارة فانه لو كان في شرعهم كفارة لعدل الى التكفير ولم يحتج الى ضربها فكانت اليمين موجبة عندهم كالحدود وقد ثبت أن المحدود اذا كان معذورا خفف عنه بأن يجمع له مائة شمراخ أو مائة سوط فيضرب بها ضربة واحدة وامرأة أيوب كانت معذورة لم تعلم أن الذي خاطبها الشيطان وانما قصدت الاحسان فلم تكن تستحق العقوبة فأفتى الله نبيه أيوب عليه السلام أن يعاملها معاملة المعذور هذا مع رفقها به واحسانها اليه فجمع له بين البر في يمينه والرفق بامرأته المحسنة المعذورة التي لا تستحق العقوبة فظهر موافقة نص القرآن في قصة أيوب عليه السلام لنص السنة في شأن الضعيف الذي زنى فلا يتعدى بهما عن محلهما فان قيل فقولوا هذا في نظير ذلك ممن حلف ليضربن امرأته أو أمته مائة وكانا معذورين لا ذنب لهما أنه يبر بجمع ذلك في ضربه بمائة شمراخ قيل قد جعل الله له مخرجا بالكفارة ويجب عليه أن يكفر يمينه ويقضى الله بالبر في يمينه ههنا ولا يحل له أن يبر فيها بل بره فيها هو حنثه مع الكفارة ولا يحل له أن يضربهما لا مفرقا ولا مجموعا فان قيل فاذا كان الضرب واجبا كالحد هل تقولون ينفعه ذلك قيل اما أن يكون العذر مرجو الزوال كالحر والبرد الشديد والمرض اليسير فهذا ينتظر زواله ثم يحد الحد الواجب كما روى مسلم

ومعبودها ومولاها الحق فيا قرة عينيها به ويا نعيمها وسرورها بقربه ويا بهجتها بالخلاص من عدوها ومولاها ومالك أمرها ومتولي مصالحها وهذا الزهد هو أول نقده من مهر الحب فيا مفلس تأخر والنوع الثاني غاية وكمال وهو ان يبذلها للمحبوب جملة بحيث لا يستبقي منها شيئا بل يزهد فيها زهد المحب في قدر خسيس من ماله قد تعلقت رغبة محبوبه به فهل يجد من قلبه رغبة في امساك ذلك القدر وحبسه عن محبوبه فهكذا زهد المحب الصادق في نفسه قد خرج عنها وسلمها لربه فهو يبذلها له دائما بتعرض منه لقبولها وجميع مراتب الزهد المتقدمة مبادئ ووسائل لهذه المرتبة ولكن لا يصح الا بتلك المراتب فمن رام الوصول الى هذه المرتبة بدون ما قبلها فمتعن متمن كمن رام الصعود الى أعلى المنارة بلا سلم قال بعض السلف انما حرموا الوصول بتضييع الاصول فمن ضيع الاصول حرم الوصول واذا عرف هذا فكيف يدعى ان الزهد من منازل العوام وانه نقص في طريق الخاصة وهل الكمال الا في الزهد وما النقص الا في نقصانه والله الموفق للصواب

(فصل) المنزل الرابع التوكل قال أبو العباس هو للعوام أيضا لانه كلك أمرك الى مولاك والتجاؤك الى علمه ومعرفته لتدبير أمرك وكفاية همك وهذا في طريق الخواص عمى عن الكفاية به ورجوع الى الاسباب لانك رفضت الاسباب ووقفت مع التوكل فصار بدلا عن تلك الاسباب فانك معلق بما رفضته من حيث معتقدك الانفصال وحقيقة التوكل عند القوم التوكل في تخليص القلب من علة التوكل وهو أن يعلم ان الله لم يترك أمرا مهملا بل فرغ من الاشياء وقدرها وان اختلف منها شئ في العقول أو تشوش في المحسوس أو اضطرب في المعهود فهو المدبر له وشأنه سوق المقادير الى المواقيت والمتوكل من أراح نفسه من كل النظر في مطالعة السبب سكونا الى ما سبق من القسمة مع استواء الحالين عنده وهو ان يعلم ان الطالب لا يجمع والتوكل لا يمنع ومتى طالع بتوكله عرضا كان توكله مدخولا وقصده معلولا فاذا خلص من رق هذه الاسباب ولم يلاحظ في توكله سوى خالص حق الله كفاه الله كل مهم ثم ذكر حكاية عن موسى انه في رعايته نام عن غنمه فاستيقظ فوجد الذئب واضعا عصاه على عاتقه يرعاها فعجب من ذلك فاوحى الله اليه يا موسى كن لي كما أريد أكن لك كما تريد فيقال الكلام على هذا من وجوه أحدها ان جعله التوكل من منازل العوام باطل كما

في صحيحه عن علي رضي الله عنه ان أمة لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم زنت فأمرني أن أجلدها فأتيتها فاذا هي حديثة عهد بنفاس فخشيت ان جلدتها أن أقتلها فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال أحسنت اتركها حتى تماثل

(فصل) وأما حديث بلال في شأن التمر وقوله عليه السلام له بع التمر بالدراهم ثم اشتر بالدراهم جنيبا فقال شيخنا ليس فيه دلالة على الاحتيال بالعقود التي ليست مقصودة لوجوه أحدها أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أمره أن يبيع سلعته الاولى ثم يبتاع بثمنها سلعة أخرى ومعلوم أن ذلك انما يقتضي البيع الصحيح ومتى وجد البيعان على الوجه الصحيح جاز ذلك بلا ريب ونحن نقول كل بيع صحيح يفيد الملك لكن الشأن في بيوع قد دلت السنة وأقوال الصحابة على أن ظاهرها وان كان بيعا فانها ربا وهي بيع فاسد ومعلوم ان مثل هذه لا يدخل في الحديث ولو اختلف رجلان في بيع مثل هذا هل هو صحيح أو فاسد وأراد أحدهما ادخاله في هذا اللفظ لم يمكنه ذلك حتى يثبت أنه بيع صحيح ومتى أثبت أنه بيع صحيح لم يحتج الى الاستدلال بهذا الحديث فتبين انه لا حجة فيه على صورة من صور النزاع ألبتة قلت ونظير ذلك أن يحتج به محتج على جواز بيع الغائب أو على البيع بشرط الخيار أكثر من ثلاث أو على البيع بشرط البراءة وغير ذلك من أنواع البيوع المختلف فيها و يقول الشارع قد أطلق الاذن في البيع ولم يقيده وحقيقة الامر أن يقال ان الامر المطلق بالبيع انما يقتضي البيع الصحيح ونحن لا نسلم ان هذه الصورة التي تواطآ فيها على ذلك بيع صحيح الوجه الثاني ان الحديث ليس فيه عموم لانه قال وابتع بالدراهم جنيبا والامر بالحقيقة المطلقة ليس أمرا بشئ من قيودها لان الحقيقة مشتركة بين الافراد والقدر المشترك ليس هو ما يميز كل واحد من الافراد عن الآخر ولا هو مستلزما له فلا يكون الامر بالمشترك أمرا بالمميز بحال نعم هو يستلزم لبعض تلك القيود لا بعينه فيكون عاما لها على سبيل البدل لكن ذلك لا يقتضي العموم بالافراد على سبيل الجمع فهو المطلوب فقوله بع هذا الثوب لا يقتضي الامر ببيعه من زيد أو عمرو ولا بكذا وكذا ولا بهذه السوق أو هذه فان اللفظ لا دلالة له على شئ من ذلك لكن اذا أتى المسمى حصل ممتثلا من جهة وجود تلك الحقيقة لا من جهة وجود تلك القيود اذا تبين ذلك فليس في الحديث أنه أمره أن يبتاع من المشتري ولا أمره أن يبتاع من غيره ولا بنقد البلد ولا غيره ولا بثمن حال أو مؤجل فان هذه القيود خارجة عن مفهوم اللفظ ولو زعم زاعم أن اللفظ يعم هذا كله كان مبطلا لكن اللفظ لا يمنع الاجزاء اذا أتى بها وقد قال بعض الناس ان عدم الامر بالقيود يستلزم عدم الاجزاء اذا أتى بها الا بقرينة وهذا غلط بين فان اللفظ

يتقدم بل الخاصة أحوج اليه من العامة وتوكل الخواص أعظم من توكل العوام والتوكل مصاحب للصادق من أول قدم يضعه في الطريق الى نهايته وكلما ازداد قربه وقوي سيره ازداد توكله فالتوكل مركب السائر الذي لا يتأتى له السير الا به ومتى نزل عنه انقطع لوقته وهو من لوازم الايمان ومقتضياته قال الله تعالى وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين فجعل التوكل شرطا في الايمان فدل على انتفاء الايمان عند انتفاء التوكل وفي الآية (٢٧٢) الاخرى وقال موسى يا قوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين فجعل دليل صحة الاسلام التوكل وقال وعلى الله فليتوكل المؤمنون فذكر اسم الايمان ههنا دون سائر أسمائهم دليل على استدعاء الايمان للتوكل وان قوة التوكل وضعفه بحسب قوة الايمان وضعفه وكلما قوي ايمان العبد كان توكله أقوى واذا ضعف الايمان ضعف التوكل واذا كان التوكل ضعيفا فهو دليل على ضعف الايمان ولا بد والله تعالى يجمع بين التوكل والعبادة والتوكل والايمان وبين التوكل والتقوى وبين التوكل والاسلام وبين التوكل والهداية فأما التوكل والعبادة فقد جمع بينهما في سبعة مواضع من كتابه أحدها في سورة أم القرآن فقال اياك نعبد واياك نستعين الثاني قوله حكاية عن شعيب انه قال وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه أنيب الثالث قوله حكاية عن أوليائه وعباده المؤمنين انهم قالوا ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا واليك المصير الرابع قوله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم واذكر اسم ربك وتبتل اليه تبتيلا رب المشرق والمغرب لا اله الا هو فاتخذه وكيلا الخامس قوله ولله غيب السموات والارض واليه يرجع الامر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون السادس قوله فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير السابع قوله قل هو ربي لا اله لا الا هو عليه توكلت واليه متاب فهذه السبعة مواضع جمعت الاصلين التوكل وهي الوسيلة والانابة وهي الغاية فان العبد لا بد له من غاية مطلوبة ووسيلة موصلة الى تلك الغاية فأشرف غاياته التي لا غاية له أجل منها عبادة ربه والانابة اليه وأعظم وسائله التي لا وسيلة له غيرها ألبتة التوكل على الله والاستعانة به ولا سبيل له الى هذه الغاية الا بهذه الوسيلة فهذه أشرف الغايات وتلك أشرف الوسائل وأما الجمع بين

لاتعرض فيه للقيود بنفي ولا اثبات ولا الاتيان بها ولا تركها من لوازم الامتثال وان كان المأمور به لايخلو عن واحد منها ضرورة وقوعه جزما مشخصا فذلك من لوازم الواقع لا انه مقصود للامر وانما يستفاد الامر بتلك اللوازم أو النهي عنها من دليل منفصل وقد خرج بهذا الجواب عن قول من قال لو كان الابتياع من المشتري حراما لنهي عنه فان مقصوده صلى الله تعالى عليه وسلم انما هو بيان الطريق التي يحصل بها اشتراء التمر الجيد لمن عنده ردىء وهو أن يبيع الردىء بثمن ثم يبتاع بالثمن جيدا ولم يتعرض لشروط البيع وموانعه فلا يسعنا الاحتجاج بهذا الحديث على نفي شرط مخصوص كما لا يحتج به على نفي سائر الشروط وهذا بمنزلة الاحتجاج بقوله تعالى وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود على جواز أكل كل ذي ناب من السباع والمخلب من الطير وعلى حل ما اختلف فيه من الاشربة ونحو ذلك فالاستدلال بذلك استدلال غير صحيح بل هو من أبطل الاستدلال اذ لا تعرض للفظ لذلك ولا أريد به تحليل مأكول ومشروب وانما أريد به بيان وقت الاكل والشرب وانتهائه وكذلك من استدل بقوله تعالى وأنكحوا الأيامى منكم على جواز نكاح الزانية قبل التوبة وصحة نكاح المحلل وصحة نكاح الخامسة في عدة الرابعة أو نكاح المتعة أو الشغار أو غير ذلك من الانكحة الباطلة كان استدلاله باطلا وكذلك من استدل بقوله تعالى وأحل الله البيع على حل بيع الكلب أو غيره مما اختلف فيه فاستدلاله باطل فان الآية لم يرد بها بيان ذلك وانما أريد بها الفرق بين عقد الربا وبين عقد البيع وانه سبحانه حرم هذا وأباح هذا فاما أن يفهم منه أنه أحل بيع كل شيء فهذا غير صحيح وهو بمنزلة الاستدلال بقوله تعالى كلوا واشربوا ولا تسرفوا على حل كل مأكول ومشروب و بمنزلة الاستدلال بقوله من استطاع منكم الباءة فليتزوج على حل الانكحة المختلف فيها و بمنزلة الاستدلال بقوله اذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن على جواز جمع الثلاث ونفوذه وعلى صحة طلاق المكره والسكران و بمنزلة الاستدلال بقوله تعالى ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن على صحة النكاح بلا ولي و بلا شهود وغير ذلك من الصور المختلف فيها و بمنزلة الاستدلال بقوله تعالى فانكحوا ما طاب لكم من النساء على كل نكاح اختلف فيه فيستدل به على صحة نكاح المتعة والمحلل والشغار والنكاح بلا ولي و بلا شهود ونكاح الاخت في عدة أختها ونكاح الزانية والنكاح المنفي فيه المهر وغير ذلك وهذا كله استدلال فاسد في النظر والمناظرة ومن العجب ان ينكر من يسلكه على ابن حزم استدلاله بقوله تعالى وعلى الوارث مثل ذلك على وجوب نفقة الزوجة على زوجها اذا أعسر بالنفقة وكان لها ما تنفق منه فانها وارثة له وهذا أصح من تلك

الايمان والتوكل ففي مثل قوله قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا ونظيره قوله وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين وقوله وعلى الله فليتوكل المؤمنون وأما الجمع بين التوكل والاسلام ففي قوله وقال موسى ياقوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين وأما الجمع بين التقوى والتوكل ففي مثل قوله تعالى ياأيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين الى قوله وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه وأما الجمع بين التوكل والهداية ففي مثل قول الرسل لقومهم ومالنا أن لا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا وقال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم فتوكل على الله انك على الحق المبين فأمر سبحانه بالتوكل عليه وعقب هذا الامر بما هو موجب التوكل مصحح له مستدع لثبوته وتحققه وهو قوله انك على الحق المبين فان كون العبد على الحق يقتضي تحقيق مقام التوكل على الله والاكتفاء به والايواء الى ركنه الشديد فان الله هو الحق وهو ولي الحق وناصره ومؤيده وكافي من قام به فما لصاحب الحق أن لا يتوكل عليه وكيف يخاف وهو على الحق كما قالت الرسل لقومهم ومالنا أن لا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا فعجبوا من تركهم التوكل على الله وقد هداهم وأخبروا ان ذلك لا يكون أبدا وهذا دليل على ان الهداية والتوكل متلازمان فصاحب الحق لعلمه بالحق ولثقته بان الله ولي الحق وناصره مضطر الى توكله على الله لا يجد بدا من توكله فان التوكل يجمع أصلين علم القلب وعمله أما علمه فيقينه بكفاية وكيله وكمال قيامه بما وكله اليه وان غيره لا يقوم مقامه في ذلك وأما عمله فسكونه الى وكيله وطمأنينته اليه وتفويضه وتسليمه أمره اليه ورضاه بتصرفه له فوق رضاه بتصرفه هو لنفسه فبهذين الاصلين يتحقق التوكل وهما جماعه وان كان التوكل دخل في عمل القلب من علمه كما قال الامام أحمد التوكل عمل القلب ولكن لابد فيه من العلم وهو اما شرط فيه واما جزء من ماهيته والمقصود ان القلب متى كان على الحق كان أعظم لطمأنينته ووثوقه بان الله وليه وناصره وسكونه اليه فماله أن لا يتوكل على ربه واذا كان على الباطل علما وعملا أو أحدهما لم يكن مطمئنا واثقا به فانه لا ضمان له عليه ولا عهد له عنده فان الله لا يتولى الباطل ولا ينصره ولا ينسب اليه بوجه فهو منقطع النسب اليه بالكلية فانه

الاستدلالات فانها استدلال بعام لفظا ومعنى وقد علق الحكم فيه بمعنى مقصود يقتضى العموم وتلك مطلقة لاعموم فيها لفظا ولا معنى ولم يقصد بها تلك الصور التى استدلوا بها عليها اذا عرف هذا فالاستدلال بقوله بع التمر بالدراهم ثم ابتع بالدراهم جنيبا لا يدل على جواز بيع العينة بوجه من الوجوه فمن احتج به على جوازه وصحته فاحتجاجه باطل وليس الغالب أن بائع التمر بدراهم يبتاع بها من المشترى حتى يقال هذه الصورة غالبة بل الغالب أن من يفعل ذلك يعرضه على أهل السوق عامة أو حيث يقصد أو ينادى عليه واذا باعه لواحد منهم فقد يكون عنده السلعة التى يريدها وقد لا يكون ومثل هذا اذا قال الرجل فيه لوكيله بع هذا القطن واشتر بثمنه ثياب قطن أو بع هذه الحنطة العتيقة واشتر بثمنها جديدة لا يكاد يخطر بباله الاشتراء من ذلك المشترى بعينه بل يشترى من حيث وجد غرضه ووجود غرضه عند غيره أغلب من وجوده عنده فان قيل فهب ان الامر كذلك فهلا نهاه عن تلك الصورة وان لم يدخل فى لفظه فاطلاقه يقتضى عدم النهى قيل اطلاق اللفظ لا يقتضى المنع منها ولا الاذن فيها كما تقدم بيانه فحكمها اذنا ومنعا يستفاد من موضع آخر فغاية هذا اللفظ أن يكون قد سكت عنها فقد علم تحريمها من الادلة الدالة على تحريم العينة الوجه الثالث ان قوله بع الجمع بالدراهم انما يفهم منه البيع المقصود الخالى عن شرط يمنع كونه مقصودا بخلاف البيع الذى لا يقصد فانه لو قال بع هذا الثوب أو بعت هذا الثوب لم يفهم منه بيع المكره ولا بيع الهازل ولا بيع التلجئة وانما يفهم منه البيع الذى يقصد به فعل ملك العوضين وقد تقدم تقرير هذا يوضحه ان مثل هذين يتراوضان أولا على بيع التمر بالتمر متفاضلا ثم يجعلان الدراهم محللا غير مقصودة والمقصود انما هو بيع صاع بصاعين ومعلوم أن الشارع لا يأذن فى مثل هذا فضلا أن يأمر به ويرشد اليه الوجه الرابع أن النبى عليه السلام نهى عن بيعتين فى بيعة ومتى تواطآ على أن يبيعه بالثمن ثم يبتاع به منه فهو بيعتان فى بيعة فلا يكون داخلا فى الحديث اذ المنهى عنه لا يتناوله المأذون فيه يبين ذلك الوجه الخامس وهو أنه صلى الله عليه وسلم قال بع الجمع بالدراهم ثم ابتع بالدراهم جنيبا وهذا يقتضى بيعا ينشئه ويبتدئه بعد انقضاء البيع الاول ومتى واطأه من أول الامر على أن أبيعك وأبتاع منك فقد اتفقا على العقدين معا فلا يكون داخلا فى حديث الاذن بل فى حديث النهى الوجه السادس أنه لو فرض أن فى الحديث عموما لفظيا فهو مخصوص بصور لا تعد فان كل بيع فاسد فهو غير داخل فيه فتضعف دلالته ويخص منه الصورة التى ذكرناها

سبحانه هو الموفق وقوله الحق ودينه الحق ووعده حق ولقاؤه حق وفعله كله حق ليس فى أفعاله شئ باطل بل أفعاله سبحانه بريئة من الباطل كما أقواله كذلك فلما كان الباطل لا يتعلق به بل هو مقطوع البتة كان صاحبه كذلك ومن لم يكن له تعلق بالله العظيم وكان منقطعا عن ربه لم يكن الله وليه ولا ناصره ولا وكيله فتدبر هذا السر العظيم فى اقتران التوكل والكفاية بالحق والهدى وارتباط أحدهما بالآخر ولو لم يكن فى هذه الرسالة الا هذه الفائدة السرية لكانت حقيقة أن تودع فى خزانة القلب لشدة الحاجة اليها والله المستعان وعليه التكلان فظهر ان التوكل أصل لجميع مقامات الايمان والاحسان ولجميع أعمال الاسلام وان منزلته منها منزلة الجسد من الرأس فكما لا يقوم الرأس الا على البدن فكذلك لا يقوم الايمان ومقاماته وأعماله الا على ساق التوكل والله أعلم الوجه الثانى ان قوله فى التوكل انه فى طريق الخواص عمى عن الكفاية ورجوع الى الاسباب الى آخر كلامه مضمونه ان التوكل لا يتم الا برفض الاسباب والاعراض عنها جملة والتوكل من أقوى الاسباب وأعظمها فى حصول المطلوب فكأنه قد رفض سببا وتعلق بسبب وقد ناقض فى أمره ولهذا قال فصار بدلا عن تلك الاسباب وكأنك تعلقت بمارفضته فهذه هى النكتة التى لاجلها صار التوكل عنده من منازل العوام وهذه هى غير مسألة الجمع بين التوكل والسبب بل هذه مسألة تعليل نفس التوكل فيقال قولك انه عمى عن الكفاية ليس كذلك بل هو نظر الى نفس الكفاية وملاحظة لها ولا ريب ان الكفاية من الله لا تنال الا باسبابها من عبوديته وسببها المقتضى لها هو التوكل كما قال تعالى ومن يتوكل على الله فهو حسبه أى كافيه فجعل التوكل سببا للكفاية فربط الكفاية بالتوكل كربط سائر الاسباب بمسبباتها فكيف يقال ان التوكل عمى عن الكفاية وهل التوكل الا محض العبودية التى جزاؤها الكفاية وهى لا تحصل بدونه بل العلة ههنا شهود حصولها بفعلك وتوكلك غير ناظر الى مسبب الاسباب الذى أجرى عليك هذا السبب ليوصلك به الى الكفاية فأول الامر وآخره منه فهو المنعم بالسبب والمسبب جميعا ولكن لا يوجب نظر العبد الى المسبب المنعم بالسبب قطع نظره عن السبب والقيام به بل الواجب القيام بالامرين معا الوجه الثالث ان قوله انه رجوع الى الاسباب ان أراد به أنه رجوع الى سبب ينقص

ذكرناها بالادلة التي هي نصوص أو كالنصوص فاخراجها من العموم من أسهل الاشياء وبالله التوفيق.

(فصل) وقد تبين بهذا بطلان الاستدلال على جواز الحيل الباطلة بقوله الا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم وان هذا يتناول صورة العينة وغيرها فان المتبايعين يديران السلعة بينهما فان الله سبحانه قسم البياعات المقصودة التي شرعها لعباده ونصبها لاقامة مصالحهم في معاشهم ومعادهم الى بيوع مؤجلة وبيوع حالة ثم أمرهم أن يستوثقوا في البيوع المؤجلة بالكتاب والشهود وان عدموا ذلك في السفر استوثقوا بالرهن حفظا لاموالهم وتخلصا من بطلان الحقوق بجحود أو نسيان ثم أخبرهم أنه لا حرج عليهم في ترك ذلك في البيوع الحالة لامنهم فيها مفسدة التجاحد والنسيان فالمراد بالتجارة الدائرة البياعات التي تقع غالبا بين الناس ولم يفهم أحد من أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ولا من التابعين ولا تابعيهم ولا أهل التفسير ولا أئمة الفقهاء منها المعاملة الدائرة بالربا بين المترابيين بل فهموا تحريمها من نصوص تحريم الربا ولا ريب أن دخولها في تلك النصوص أظهر من دخولها في هذه الآية ومما يدل عليه أن هذه المعاملة الدائرة بينهما بالربا لا تكون في الغالب الا مع أجل بان يبتاع منه سلعة بثمن حال ثم يبيعها اياه بأكثر منه الى أجل وذلك في الغالب مما يطلب عليه الشهود والكتاب خشية الجحود والله سبحانه قال الا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح أن لا تكتبوها فاستثنى هذا من قوله يا أيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه وهذه المعاملة الربوية قد اتفقا فيها على التداين الى أجل مسمى واتفقا فيها على المائة بمائة وثلاثين ونحو ذلك فأين هي من التجارة الحاضرة التي يعرف الناس الفرق فيها بين التجارة والربا فالتجارة في كلام الله ورسوله ولغة العرب وعرف الناس انما تنصرف الى البياعات المقصودة التي يقصد فيها الثمن والمثمن وأما ما تواطآ فيه على الربا المحض ثم أظهرا بيعا غير مقصود لهما ألبتة يتوسلان به الى أن يعطيه مائة حالة بمائة وعشرين مؤجلة فهذا ليس من التجارة المأذون فيها بل من الربا المنهي عنه والله أعلم

(فصل) وأما استدلالكم بالمعاريض على جواز الحيل فما أبطله من استدلال فان المعاريض التي يتخلص بها الإنسان من الظلم والكذب الى الحيل التي يسقط بها ما فرض الله تعالى ويستحل بها ما حرم فالمعرض تكلم بحق ونطق بصدق فيما بينه وبين الله تعالى لا سيما اذا لم ينو باللفظ خلاف ظاهره في نفسه وانما كان الظهور من ضعف فهم السامع وقصوره في معرفة دلالة اللفظ ومعاريض النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ومزاحه عامته

العبودية ويضعف التوكل فليس كذلك وظاهر ان الامر ليس كذلك وان أراد به أنه رجوع الى سبب نصبه الله مقتضيا للكفاية منه ورتب عليه جزاء لا يحصل بدونه فهذا حق ولكن القيام بهذا السبب محض الكمال ونفس العبودية وهو كجعل الاسلام والايمان والاحسان أسبابا مقتضية للفلاح والسعادة بل كجعل سائر أعمال القلوب والجوارح أسبابا مقتضية لما رتب عليها من الجزاء وهل الكمال الا القيام بهذه الاسباب فالاسباب التي تكون مباشرتها نقصا هي الاسباب التي تضعف التوكل واما

أن يكون التوكل نفسه ناقصا لكون المتحقق به تحققا بالسبب فقلب للحقائق الوجه الرابع ان قوله لانك رفضت الاسباب ووقفت مع التوكل ان أراد به رفض الاسباب جملة فهذا كما انه ممتنع عقلا وحسا فهو محرم شرعا ودينا فان رفض الاسباب بالكلية انسلاخ من العقل والدين وان أراد به رفض الوقوف معها والوثوق بها وانه يقوم بها قيام ناظر الى سببها فهذا حق ولكن النقص لا يكون في السبب ولا في القيام به وانما يكون في الاعراض عن المسبب تعالى كما تقدم فمنع الاسباب أن تكون أسبابا قدح في العقل والشرع واثباتها والوقوف معها وقطع النظر عن مسببها قدح في التوحيد والتوكل والقيام بها وتنزيلها منازلها والنظر الى مسببها وتعلق القيام به جمع بين الامر والتوحيد وبين الشرع والقدر وهو الكمال والله أعلم الوجه الخامس قوله فصار التوكل بدلا عن تلك الاسباب هذا حق فان التوكل من أعظم الاسباب ولكنه بدل عنها كما تكون الطاعة بدلا عن المعصية والتوحيد بدلا عن الشرك فهو بدل واجب مأمور به مطلوب من العبد والمذموم أن يجعل العبد الاسباب بدلا عن التوكل لا ان يجعل التوكل بدلا عن الاسباب الوجه السادس قوله فكانك تعلقت بما رفضته من حيث معتقدك الانفصال ليس كذلك فان المرفوض هو التعلق بغير الله والالتفات الى سواه فهذا هو الذي رفضه وأما الذي تعلق به فهو التوكل على الله واللجأ اليه والتفويض اليه والاستعانة به فقد رفض المخلوق وتعلق بالخالق فكيف يقال انه تعلق بما رفضه الوجه السابع ان قوله من حيث معتقدك الانفصال يشير به الى ان التوكل نوع تفرقة وانفصال يشهد فيه مع الله غيره وهذا مناف للفناء في التوحيد وأن لا يشهد مع الله غيره أصلا وهذا قطب رحى السير الذي يشير اليه القوم والعلم الذي يشمرون اليه ولاجله يعملون

كان من هـذا الباب كقوله نحن من ماء وانا حاملوك على ولد الناقة وزوجك الذي في عينه بياض ولا يدخل الجنة عجوز وأكثر معاريض السلف كانت من هذا فالمعرض انما يقصد باللفظ ما جعل اللفظ دالا عليه ومثبتا له في الجملة فهو لم يخرج بتعريضه عن حدود الكلام فان الكلام فيه الحقيقة والمجاز والعام والخاص والمطلق والمقيد والمفرد والمشترك والمتباين والمترادف وتختلف دلالته تارة بحسب اللفظ المفرد وتارة بحسب التأليف فاين هذا من الحيل التي يقصد بالعقد فيها ما لم يشرع العقد له أصلا ولا هو مقتضاه ولا موجبه شرعا ولا حقيقة وفرق ثان وهو ان المعرض لو صرح بقصده لم يكن باطلا ولا محرما بخلاف المحتال فانه لو صرح بما قصده باظهار صورة العقد كان محرما باطلا فان المرابي بالحيلة لو قال بعتك مائة حالة بمائة وعشرين الى سنة كان حراما باطلا وذلك عين مقصوده ومقصود الآخر وكذلك المقرض لو قال اقرضك ألفا على أن تعيدها الي ومعها زيادة كذا وكذا كان حراما باطلا وذلك نفس مقصوده وكذلك المحلل لو قال تزوجتها على أن أحلها للمطلق ثلاثا والمعرض لو صرح بمقصوده لم يكن حراما فاين أحدهما من الآخر وفرق ثالث وهو ان المعرض قصد بالقول ما يحتمله اللفظ أو يقتضيه والمحتال قصد بالعقد ما لا يحتمله ولا جعل مقتضيا له لا شرعا ولا عرفا ولا حقيقة وفرق رابع وهو أن المعرض مقصده صحيح ووسيلته جائزة فلا حجر عليه في مقصوده ولا في توسله الى مقصوده بخلاف المحتال فان قصده أمر محرم ووسيلته باطلة كما تقدم تقريره وفرق خامس وهو أن التعريض المباح ليس من مخادعة الله سبحانه في شئ وانما غايته أنه مخادعة لمخلوق أباح الشارع مخادعته لظلمه جزاء له على ذلك ولا يلزم من جواز مخادعة الظالم جواز مخادعة المحق فما كان من التعريض مخالفا لظاهر اللفظ في نفسه كان قبيحا الا عند الحاجة وما لم يكن كذلك كان جائزا الا عند تضمن مفسدة والذي يدخل في الحيل المذمومة انما هو الاول فالمعرض قاصد لدفع الشر والمحتال بالباطل قاصد لدفع الحق والتعريض كما يكون بالقول يكون بالفعل كما يظهر المحارب أنه يريد وجها من الوجوه ويسافر الى تلك الناحية ليحسب العدو انه لا يريده ثم يكر عليه ومثل أن يستطرد المبارز بين يدي خصمه ليظن هزيمته ثم يعطف عليه ومثل أن يظهر ضعفا او عجزا يتخلص به من تسخيره وأذاه ونحو ذلك وقد يكون التعريض بالقول والفعل معا كما قال سليمان عليه السلام ائتوني بالسكين أشقه بينكما وقد يكون باظهار الصمم وانه لا يسمع وباظهار النوم واظهار الشبع واظهار الغنى بحيث يحسبه الجاهل غنيا وكما يقع الاجمال في الاقوال فكذلك يقع في الافعال كما أعطى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم عمر رضي الله عنه حلة من حرير فلما لبسها أنكر

كل ما دونه من المقامات معلولا ولا بد من فصل القول فيه بعون الله وتأييده فانه نهاية أقدامهم وغاية مرماهم فنقول وبالله التوفيق الفناء الذي يشار اليه على ألسنة السالكين ثلاثة أقسام فناء عن وجود السوى وفناء عن شهود السوى وفناء عن عبادة السوى وارادته وليس هنا قسم رابع فأما القسم الاول فهو فناء القائلين بوحدة الوجود فهو فناء باطل في نفسه مستلزم جحد الصانع وانكار ربوبيته وخلقه وشرعه وهو غاية الالحاد والزندقة وهذا هو الذي يشير اليه علماء الاتحاد ويسمونه التحقيق وغاية أحدهم فيه أن لا يشهد ربا وعبدا وخالقا ومخلوقا وآمرا ومأمورا وطاعة ومعصية بل الامر كله واحد فيكون السالك عندهم في بدايته يشهد طاعة ومعصية ثم يرتفع عن هذا الفرق بكشف عندهم الى أن يشهد الافعال كلها طاعة لله لا معصية فيها وهو شهود الحكم والقدر فيشهدها طاعة لموافقتها الحكم والمشيئة وهذا ناقص عندهم أيضا اذ هو متضمن للفرق ثم يرتفع عندهم عن هذا الشهود أن لا يشهد لا طاعة ولا معصية اذ الطاعة والمعصية انما تكون من غير لغير وما ثم غير فاذا تحقق بشهود ذلك وفني فيه فقد فني عن وجود السوى فهذا هو غاية التحقيق عندهم من لم يصل اليه فهو محجوب ومن أشعارهم في هذا قول قائلهم

وما أنت غير الكون بل أنت عينه
ويفهم هذا السر من هو ذائق

وقول الآخر

ما الامر الا نسق واحد
ما فيه من مدح ولا ذم
وانما العادة قد خصصت
والطبع والشارع بالحكم

وقول الآخر

وما الموج الا البحر لا شئ غيره
وان فرقته كثرة المتعدد

والقسم الثاني من أقسام الفناء هو الذي يشير اليه المتأخرون من أرباب السلوك وهو الفناء عن شهود السوى مع تفريقهم بين الرب والعبد وبين الطاعة والمعصية عليه
وجعلهم وجود الخالق غير وجود المخلوق ثم هم مختلفون في هذا الفناء على قولين أحدهما انه الغاية المطلوبة من السلوك وما دونه بالنسبة اليه ناقص ومن هنا يجعلون المقامات والمنازل معلولة والقول الثاني انه من لوازم الطريق لا بد منه للسالك ولكن البقاء أكمل منه وهؤلاء يجعلونه ناقصا ولكن لا بد منه وهذه طريقة كثير من المتقدمين وهؤلاء يقولون ان الكمال شهود العبودية مع شهود المعبود فلا

عليـه وقال لم أعطكها لتلبسها فكساها أخاله مشركا بمكة فكل من الاجمال والاشتراك والاشتباه يقع فى الالفاظ تارة وفى الافعال تارة وفيهما معا تارة ومن أنواع التعريض ان يتكلم المتكلم بكلام حق يقصد به حقيقته وظاهره و يوهم السامع نسبته الى غير قائله ليقبله ولا يرده عليه أو ليتخلص به من شره وظلمه كما أنشد عبـد الله بن رواحة رضى الله تعـالى عنه امرأته تلك الابيات وأوهمها انه يقرأ القرآن فتخلص بذلك من شرها وكذلك اذا كان الرجل يريد تنفيذ حق صحيح ولكن لا يقبل منه لكونه هو أو من لا يحسـن به الظن قائله فاذا عرض للمخاطب بنسـبة الكلام الى معظم يقبله منه كان من أحسـن التعريض كما علمه أبو حنيفة رحمه الله أصحابه حين شكوا اليه انا نقول لهـم قال أبو حنيفة فيبادرون بالانكار فقال قولوا لهـم المسألة فاذا استحسنوها ووقعت منهـم بموقع فقولوا هذا قول أبى حنيفة وكما يجرى لاصحابنا مع الجهمية وفروخهم كثيرا

(فصل) وأما استدلالهم بأن الله سبحانه علم نبيه يوسف عليه السلام الحيلة التى توصل بها الى أخذ أخيه الى آخره فهذا ظن بعض أرباب الحيل أنه حجة لهم فى هذا الباب وليس كما زعموا والاستدلال بذلك من أبطل الباطل فان المحتجين بذلك لا يجوزون شيأ مما فى هـذه القصة ألبتة ولا تجوزها شريعتنا بوجه من الوجوه فكيف يحتج المحتج بما يحرم العمل به ولا يسوغه بوجه من الوجوه والله سبحانه انمـا سوغ ذلك لنبيه يوسف عليه السلام جزاء لاخوته وعقوبة لهـم على ما فعلوا به ونصرا له عليهم وتصـديقا لرؤياه ورفعـة لدرجته ودرجة أبيه و بعد ففى قصته مع اخوته ضروب من الحيل المستحسنة أحدها قوله لفتيته اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم لعلهم يعرفونها اذا انقلبوا الى أهلهم لعلهم يرجعون فانه تسبب بذلك الى رجوعهم وقد ذكروا فى ذلك معانى منها أنه يخاف أن لا يكون عندهم ورق يرجعون بها ومنها أنه خشى أن يضر أخذ الثمن بهم ومنها أنه رأى لؤما أخذ الثمن منهـم ومنها أنه أراهـم كرمه فى رد البضاعة ليكون أدعى لهم الى العود وقد قيل انه علم أن أمانتهم تحوجهم الى الرجعة ليردوها اليه فهـذا المحتال به عمل صالح والمقصود رجوعهم ومجىء أخيـه وذلك أمر فيه منفعة لهـم ولأبيهم وهو مقصود صالح وانمـا لم يعرفهم نفسه لاسباب أخر فيها منفعة لهم ولابيهم وله وتمام لمـا أراده الله تعالى بهم من الخير فى هذا البلاء وأيضا فلو عرّفهم نفسـه فى أول مرة لم يقع الاجتماع بهم وبابيه ذلك الموقع العظيم ولم يحل ذلك المحل وهذه عادة الله سبحانه فى الغايات العظيمة الحميـدة اذا أراد أن يوصل عبـده اليها هيأ لهـا أسبابا من المحن والبلايا والمشاق فيكون وصوله الى تلك الغايات بعـدها كوصول أهل الجنة اليها بعـد الموت وأهوال البرزخ والبعث والنشور

يغيب بعبادته عن معبوده ولا بمعبوده عن عبادته ولكن لقوة الوارد وضعف المحـل وغلبة اسـتيلاء الوارد على القلب حتى يملكه من جميع جهاته يقع الفناء والتحقيق ان هـذا الفناء ليس بغاية ولا هو من لوازم الطريق بل هو عارض من عوارض الطريق يعرض لبعض السالكين دون جميعهم وسببه أمور ثلاثة أحدها قصده وارادته والعمل عليه فانه اذا علم أنه الغاية المطلوبة شمر سائرا اليه عاملا عليه فاذا أشرف عليه وقف معـه ونزل بواديه وطلب مساكنته فهؤلاء انما يحصـل لهم الفناء لان سـيرهم كان على طلب حظهـم ومرادهم من الله وهو الفناء لم يكن سـيرهم على تحصيل مراد الله منهم وهو القيام بعبوديته والتحقق بها والسائر على طلب تحصـيل مراد الله منه لا يكاد الفناء يحـل بساحته ولا يعتريه السبب الثانى قوة الوارد بحيث يغمره ويستولى عليه فلا يبقى فيه متسع لغيره أصلا السبب الثالث ضعف المحـل عن احتمال ما يرد عليـه فمن هـذه الاسـباب الثلاثة يعرض الفناء ولما رأى الصادق فى طريقـه السالك اليه ربه ان أكثر أصحاب الفرق محجوبون عن هذا المقام مشتتون فى أودية الفـرق وشهدوا نقصهم ورأوا ما هم فيه من الفناء أكمل ظنوا انه لا كمال وراء ذلك وانه الغاية المطـلوبة فمن هنا جعلوه غاية ولكن أكمل من ذلك وأعلى وأجل هو القسم الثالث وهـو الفناء عـن عبادة السوى وارادته ومحبته وخشيته ورجائه والتوكل عليه والسكون اليـه فيفنى بعبادة ربه ومحبته وخشيته ورجائه والتوكل عليه و بالسكون اليه عن عبادة غيره وعن محبته ورجائه والتوكل عليه مع شهود الغير ومعاينته فهـذا أكمل من فنائه عن عبودية الغير ومحبته مع عدم شهوده له وغيبته عنـه فاذا شهد الغـير فى مرتبته أوجب شهوده له زيادة فى محبته معبوده وتعظيماله وهرو باليه وضنابه فان نظر المحب الى مبادى محبوبه ومضاده يوجب زيادة حبه له وفى هذا المعنى قال القائل

واذا نظرت الى أميرى زادنى * حبا له نظرى الى الامراء

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقول فى دعائه اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت واليك أنبت وبك خاصمت واليك حاكمت وفى سجوده اللهم لك سجدت وبك آمنت وكذلك فى ركوعه اللهم لك ركعت وبك آمنت فهذا دعاء من قد جمع بين شهود عبوديتـه وشهود معبوده ولم يغب بأحـدهما عن الآخر وهل هذا الا كمال العبودية أن يشهد

والموقف والحساب والصراط ومقاساة تلك الاهوال والشدائد وكما أدخل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الى مكة ذلك المدخل العظيم بعد أن أخرجه الكفار ذلك المخرج ونصره ذلك النصر العزيز بعد أن قاسى مع أعداء الله ما قاساه وكذلك ما فعل برسله كنوح وابراهيم وموسى وهود وصالح وشعيب عليهم السلام فهو سبحانه يوصل الى الغايات الحميدة بالاسباب التى تكرهها النفوس وتشق عليها كما قال تعالى كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيأ وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيأ وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون وربما كان مكروه النفوس الى محبوبها سببا ما مثله سبب وبالجملة فالغايات الحميدة فى خبايا الاسباب المكروهة الشاقة كما أن الغايات المكروهة المؤلمة فى خبايا الاسباب المشتهاة المستلذة وهذا من حين خلق الله سبحانه الجنة وحفها بالمكاره والنار وحفها بالشهوات

(فصل) ومنها أنه لما جهزهم فى المرة الثانية بجهازهم جعل السقاية فى رحل أخيه وهذا القدر يتضمن اتهام أخيه بانه سارق وقد قيل انه كان بمواطأة من أخيه ورضا منه بذلك والحق كان له وقد أذن فيه وطابت نفسه به ودل على ذلك قوله تعالى فلما دخلوا على يوسف آوى اليه أخاه قال انى أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون فهذا يدل على أنه عرف أخاه نفسه وقد قيل انه لم يصرح له بانه يوسف وانه أراد بقوله انى أنا أخوك أى أنا مكان أخيك المفقود ومن قال هذا قال انه وضع السقاية فى رحل أخيه والاخ لا يشعر بذلك والقرآن يدل على خلاف هذا والعدل يرده وأكثر أهل التفسير على خلافه ومن لطيف الكيد فى ذلك انه لما أراد أخذ أخيه توصل الى أخذه بما يقر أنه حق وعدل ولو أخذه بحكم قدرته وسلطانه لنسب الى الظلم والجور ولم يكن له طريق فى دين الملك يأخذه بها فتوصل الى أخذه بطريق يعترف اخوته انها ليست ظلما فوضع الصواع فى رحل أخيه بمواطأة منه له على ذلك ولهذا قال لا تبتئس بما كانوا يعملون ومن لطيف الكيد أنه لم يفتش رحالهم وهم عنده بل أمهلهم حتى جهزهم بجهازهم وخرجوا من البلد أرسل فى آثارهم كذلك قال ابن أبى حاتم فى تفسيره حدثنا على بن الحسين حدثنا محمد بن عيسى حدثنا سلمة عن ابن اسحق قال أمهلهم حتى اذا انطلقوا فأمعنوا من القرية أمر فادركوا ثم جلسوا ثم ناداهم مناد أيتها العير انكم لسارقون فوقفوا وانتهى اليهم رسوله فقال لهم فيما يذكرون ألم يكرم ضيافتكم ويوفكم كيلكم ويحسن منزلتكم ويفعل بكم ما لم يفعله بغيركم وأدخلنا كم علينا فى بيوتنا ومنازلنا قالوا بلى وما ذاك قال انكم لسارقون وذكر عن السدى فلما ارتحلوا أذن مؤذن أيتها العير والسياق يقتضى ذلك اذ لو كان

ما يأتى به من العبودية ... موجهها الى المعبود الحق ... بحيث تبقى الحركات كأنها طبيعية غير واقعة بالارادة فهذا وان كان أكمل من حال الغائب بشهود عبوديته عن معبوده فحال الجامع بين شهود العبودية والمعبود أكمل منهما واذا عرفت هذه القاعدة ظهر ان تعليله التوكل بما ذكر تعليل باطل الوجه الثامن ان التوكل على الله نوعان أحدهما توكل عليه فى تحصيل حظ العبد من الرزق والعافية وغيرها والثانى توكل عليه فى تحصيل مرضاته فاما النوع الاول فغايته المطلوبة وان لم تكن عبادة لانها محض حظ العبد فالتوكل على الله فى حصوله عبادة فهو منشأ لمصلحة دينه ودنياه وأما النوع الثانى فغايته عبادة وهو فى نفسه عبادة فلا علة فيه بوجه فانه استعانة بالله على ما يرضيه فصاحبه متحقق باياك نعبد واياك نستعين فتركه ترك لشطر الايمان والعلة انما هى فى ضعف هذا التوكل فهب ان التوكل فى حصول الحظ معلول فيلزم من هذا أن يكون التوكل فى حصول مراد الرب سبحانه ومرضاته معلولا الوجه التاسع قوله وحقيقة التوكل عند القوم التوكل فى تخليص القلوب من علة التوكل فيقال اذا كان هذا التوكل عندك ليس بمعلول ولا هو عمى عن الكفاية ولا رجوع الى الاسباب بعد رفضها بطل تعليل التوكل بما عللته به وان كانت هذه العلة بعينها موجودة فى هذا التوكل بطل أن يكون علة فلزم بطلان كونه معلولا على التقديرين وظهر ان العلة فى التوكل لا تخرج عن أحد شيئين اما أن يكون متعلقه حظا من حظوظك واما وقوفك معه وركونك اليه فقط فاذا خلص التوكل من هذا وهذا فلا علة تلحقه ولا نقيصة تدركه الوجه العاشر ان علة التوكل عنده هى ترك التوكل كما فسره فكيف يتوكل فى ترك التوكل وهل هذا الا جمع بين متضادين الوجه الحادى عشر قوله وهو ان يعلم أن الله سبحانه لم يترك أمرا مهملا بل فرغ من الاشياء وقدرها وان اختلف منها شئ فى المعقول أو تشوش فى المحسوس أو اضطرب فى المعهود فهو المدبر له وشانه سوق المقادير الى المواقيت والمتوكل من أراح نفسه من كد النظر فى مطالعة السبب سكونا الى ما سبق من القسمة مع استواء الحالين عنده الى آخر كلامه فيقال هو سبحانه فرغ من الاشياء وقدرها باسبابها المفضية اليها فكما ان المسببات من قدره الذى فرغ منه فاسبابها أيضا من هذا

قدره الذي فرغ منه فتقديره المقادير بأسبابها لا ينافي القيام بتلك الاسباب بل يتوقف حصولها عليها وقد سئل النبي فقيل له أرأيت أدوية نتداوى بها ورقى نسترقي بها هل ترد من قدر الله شيئا فقال هي من قدر الله وسئل صلى الله عليه وسلم اعلم أهل الجنة والنار فقال نعم قالوا ففيم العمل قال اعملوا فكل ميسر لما خلق له فأمرهم بالاعمال وأخبرهم ان الله ييسر كل عبد لما خلق فجعل عمله سببا لنيل ما خلق له من الثواب والعقاب فلابد من اثبات السبب والمسبب جميعا الوجه الثاني عشر قوله المتوكل من أراح نفسه من كد النظر في مطالعة السبب سكونا الى ماسبق من القسمة مع استواء الحالين عنده فهذا الكلام ان أخذ على اطلاقه فهو باطل قطعا فان السكون الى ماسبق من القسمة وترك السبب في أعمال البر عين العجز وتعطيل الامر والشرع ولا يجوز شرعا ولا عقلا التسوية بين الحالين وأما السكون الى ماسبق من القسمة في أسباب المعيشة فهو حق ولكن الكمال أن يكون ساكنا الى ماسبق مع قيامه وهذه حال الكمل من الصحابة ومن بعدهم فالكمال هو تنزيل الاسباب منازلها علما وعملا لا الاعراض عنها ومحوها ولا الانتهاء اليها والوقوف عندها الوجه الثالث عشر قوله مع استواء الحالين عنده وهو ان يعلم ان الطلب لا يجمع والتوكل لا يمنع يشير به الى استواء الحالين في مباشرة السبب وتركه نظرا الى ماسبق وهذا ليس بمأمور ولا معذور فانه لا يستوي الحالتان شرعا ولا قدرا وكيف يستوي مالم يسوه الله شرعا ولا قدرا الوجه الرابع عشر قوله الطلب لا يجمع والتوكل لا يمنع فقد بين ان التوكل لا ينافي الطلب بل حقيقة التوكل وكماله مقارنته للطلب ومصاحبته للسبب وأما توكل مجرد عن الطلب والسبب فعجز وأما ان فتوكل الحراث انما هو بعد شق الارض وبذرها وحينئذ يصح منه التوكل في طلوع الزرع وأما توكله من غير حرث ولا بذر فعجز وبطالة الوجه الخامس عشر قوله ومتى طالع بتوكله عرضا كان توكله مدخولا وقصده معلولا فاذا تخلص من رق هذه الاسباب ولم يلاحظ في توكله سوى خالص حق الله كفاه كل مهم فيقال التوكل يكون في أحد شيئين اما في حصول حظ العبد ورزقه ونصره وعافيته واما في حصول مراد به منه وكلاهما عبادة مأمور بها والثاني أكمل من الاول بحسب المتوكل فيه ولكن توكله في الاول لا يكون معلولا من حيث هو توكل وانما يكون علته ان صرف توكله الى

هذا وهم بحضرته لم يحتج الى الاذان وانما يكون الاذان نداء لبعيد يطلب وقوفه وحبسه فكان في هذا من لطيف الكيد انه أبعد من التهمة للطالب بالمواطأة والموافقة وانه لا يشعر بما فقد له فكأنه لما خرج القوم وارتحلوا وفصلوا عن المدينة احتاج الملك الى صواعه لبعض حاجته اليه فالتمسه فلم يجده فسأل عنه الحاضرين فلم يجدوه فارسلوا في أثر القوم فهذا أحسن وأبعد من التفطن للحيلة من التفتيش في الحال قبل انفصالهم عنه بل كلما ازدادوا بعدا عنه كان أبلغ في هذا المعنى ومن لطيف الكيد انه أذن فيهم بصوت عال رفيع يسمعه جميعهم ولم يقل لواحد واحد منهم اعلاما بان ذهاب الصواع أمر قد اشتهر ولم يبق به خفاء وأنتم قد اشتهرتم بأخذه ولم يتهم به سواكم ومن لطيف الكيد أن المؤذن قال انكم لسارقون ولم يعين المسروق حتى سألهم عنه القوم فقالوا لهم ماذا تفقدون قالوا نفقد صواع الملك فاستقر عند القوم أن الصواع هو المتهم به وانهم لم يفقدوا غيره فاذا ظهر لم يكونوا ظالمين باتهامه بغيره وظهر صدقهم وعدلهم في اتهامهم به وحده وهذا من لطيف الكيد ومن لطيف الكيد قول المؤذن وأصحابه لاخوة يوسف عليه السلام فما جزاؤه ان كنتم كاذبين أي عقوبته من ظهر عليه أنه سرقه منكم ووجد معه أي ما عقوبته عندكم في دينكم قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه فأخذوهم بما حكموا به على نفوسهم لا بحكم الملك وقوته ومن لطيف الكيد أن الطالب لما همّ بتفتيش رواحلهم بدأ بأوعيتهم قبل وعاء من هو معه تطمينا لهم وبعدا عن التهمة فانه لو بدأ بوعاء من هو فيه لقالوا ومايدريه أنه في هذا الوعاء دون غيره من أوعيتنا وما هذا الا مواطأة وموافقة فأزال هذه التهمة بأن بدأ بأوعيتهم أولا فلما لم يجدوه فيها هم بالرجوع قبل تفتيش وعاء من فيه الصواع قال ما أراكم سارقين وما أظن هذا أيضا أخذ شيئا فقالوا لا والله لا ندعكم حتى تفتشوا متاعه فانه أطيب لقلوبكم وأظهر لبراءتنا فلما ألحوا عليهم بذلك فتشوا متاعه فاستخرجوا منه الصواع وهذا من أحسن الكيد فلهذا قال تعالى كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك الا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم فالعلم بالكيد الواجب أو المستحب الذي يتوصل به الى طاعة الله تعالى ورسوله ونصر المحق وكسر المبطل مما يرفع الله به درجة العبد وقد ذكروا في تسميتهم سارقين وجهين أحدهما انه من باب المعاريض وان يوسف عليه السلام نوى بذلك أنهم سرقوه من أبيه حيث غيبوه عنه بالحيلة التي احتالوا بها عليه وخانوه فيه والخائن يسمى سارقا وهو من الاستعمال المشهور الثاني أن المنادي هو الذي قال ذلك من غير أمر يوسف عليه السلام قال أبو يعلى وغيره أمر يوسف بعض أصحابه أن

غيره أولى بالتوكل منه وهذا انما يكون نقصا اذا أضعف توكله فى الامر ومراد الله منه وأما ان لم يضعفه بل أعطى كل مقام حقه من التوكل فهذا محض العبودية والله أعلم

(فصل) المثال الخامس الصبر قال أبو العباس وهو من منازل العوام أيضا لان الصبر حبس النفس على مكروه وعقل اللسان عن شكوى ومكابدة الغصص فى تحمله وانتظار الفرج عند عاقبته وهذا فى طريق الخاصة تجلد ومناواة وجراءة ومنازعة فان حاصله يرجع الى كتمان (٢٨٠) الشكوى فى تحمل الاذى بالبلوى وتحقيقه الخروج عن الشكوى بالتلذذ بالبلوى والاستبشار باختيار المولى وقيل انه على ثلاث مقامات مرتبة بعضها فوق بعض فالاول التصبر وهو تحمل مشقة وتجرع غصة والثبات على ما يجرى من الحكم وهذا هو التصبر لله وهو صبر العوام والثانى الصبر وهو نوع سهولة تخفف على المبتلى بعض الثقل وتسهل عليه صعوبة المراد وهو الصبر لله وهو نوع سهولة وهو صبر المريدين والثالث الاصطبار وهو التلذذ بالبلوى والاستبشار باختيار المولى وهذا هو الصبر على الله وهو صبر العارفين والكلام على هذا من وجوه أحدها أن يقال الصبر نصف الدين فان الايمان نصفان نصف صبر ونصف شكر قال تعالى ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور وقال النبى صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده لا يقضى الله للمؤمن قضاء الا كان خيرا له ان أصابته سراء شكر فكان خيرا له وان أصابته ضراء صبر فكان خيرا له وليس ذلك الا للمؤمن فمنازل الايمان كلها بين الصبر والشكر والذى يوضح هذا الوجه الثانى وهو ان العبد لا يخلو قط من أن يكون فى نعمة أو بلية فان كان فى نعمة ففرضها الشكر والصبر أما الشكر فهو قيدها وثباتها والكفيل بمزيدها وأما الصبر فعن مباشرة الاسباب التى تسلبها وعلى القيام بالاسباب التى تحفظها فهو أحوج الى الصبر فيها من حاجة المبتلى ومن هنا يعلم بما سر مسألة الغنى الشاكر والفقير الصابر وان كلا منهما محتاج الى الشكر والصبر وانه قد يكون صبر الغنى أكمل من صبر الفقير كما قد يكون شكر الفقير أكمل فافضلهما أعظمهما شكرا وصبرا فان فضل أحدهما فى ذلك فضل صاحبه فالشكر مستلزم للصبر لا يتم الا به والصبر مستلزم للشكر لا يتم الا به فمتى ذهب الشكر ذهب الصبر ومتى ذهب الصبر ذهب الشكر وان كان فى بلية ففرضها الصبر والشكر أيضا أما الصبر

يجعل الصاع فى رحل أخيه ثم قال بعض الموكلين به لما فقده ولم يدر من أخذه أيتها العير انكم لسارقون على ظن منهم أنهم كذلك ولم يأمرهم يوسف عليه السلام بذلك ولعل يوسف عليه السلام قال للمنادى هؤلاء قد سرقوا وعنى سرقته من أبيه والمنادى فهم سرقة الصواع وصدق فى قوله انكم لسارقون ولم يقل صواع الملك ثم لما جاء الى ذكر المفقود قال نفقد صواع الملك وهو صادق فى ذلك فحذف المفعول فى قوله لسارقون وذكره فى قوله نفقد صواع الملك وكذلك قال يوسف عليه السلام لما عرض عليه أن يأخذ أحدهم مكان أخيهم معاذ الله أن نأخذ الا من وجدنا متاعنا عنده ولم يقل أن نأخذ الا من سرق فان المتاع كان موجودا عنده ولم يكن سارقا وهذا من أحسن المعاريض وقد قال نصر بن حاجب سئل سفيان بن عيينة عن الرجل يعتذر الى أخيه من الشئ الذى قد فعله ويحرف القول فيه ليرضيه أيأثم فى ذلك فقال ألم تسمع قوله عليه السلام ليس بكاذب من أصلح بين الناس فكذب فيه فاذا أصلح بينه وبين أخيه المسلم كان خيرا من أن يصلح بين الناس بعضهم فى بعض وذلك أنه أراد به مرضاة الله وكراهية أذى المؤمن ويندم على ما كان منه ويدفع شره عن نفسه ولا يريد بالكذب اتخاذ المنزلة عندهم ولا طمعا فى شئ يصيب منهم فانه لم يرخص فى ذلك ورخص له اذا كره موجدتهم وخاف عداوتهم قال حذيفة بن اليمان رضى الله عنه انى أشترى دينى بعضه ببعض مخافة أن أقدم على ما هو أعظم منه قال سفيان وقال الملكان خصمان بغى بعضنا على بعض أرادا معنى شئ ٧ ولم يكونا خصمين فلم يصيرا بذلك كاذبين وقال ابراهيم عليه السلام انى سقيم وقال بل فعله كبيرهم هذا وقال يوسف عليه السلام انكم لسارقون أراد يعنى أخاهم فبين سفيان رحمه الله تعالى ان هذا كله من المعاريض المباحة مع تسميته كذبا وان لم يكن فى الحقيقة كذبا قال شيخنا وهذه الحجة ضعيفة فان يوسف عليه السلام لم يكن يملك حبس أخيه عنده بغير رضاه ولم يكن هذا الاخ ممن ظلم يوسف حتى يقال قد اقتص منه وانما سائر الاخوة هم الذين كانوا قد فعلوا ذلك نعم كان تخلفه عنهم مما يؤذيهم لتأذى أبيهم وللميثاق الذى أخذه عليهم وقد استثنى فى الميثاق بقوله الا أن يحاط بكم وقد أحيط بهم ويوسف عليه السلام لم يكن قصده باحتباس أخيه الانتقام من اخوته فانه كان أكرم من هذا وان كان فى ضمن ما فعل من تأذى أبيه أعظم من أذى اخوته فانما ذلك أمر أمره الله تعالى به ليبلغ الكتاب أجله ويتم البلاء الذى استحق به يوسف ويعقوب عليهما السلام كمال الجزاء وعلو المنزلة وتبلغ حكمة الله تعالى التى قدرها وقضاها نهايتها ولو فرض ان يوسف عليه السلام قصد الاقتصاص منهم

بما فعل فليس هذا موضع الخلاف بين العلماء فان الرجل له أن يعاقب بمثل ما عوقب به وانما موضع الخلاف هل له أن يخونه كما خانه أو يسرقه كما سرقه ولم تكن قصة يوسف عليه السلام من هذا النوع نعم لو كان يوسف عليه السلام أخذ أخاه بغير أمره لكان لهذا المحتج شبهة مع أنه لا شبهة له أيضا على هذا التقدير فان مثل هذا لا يجوز في شرعنا بالاتفاق ولو كان يوسف قد أخذ أخاه واعتقله بغير رضاه كان في هذا ابتلاء من الله تعالى لذلك المعتقل كأمر ابراهيم عليه السلام بذبح ابنه فيكون المبيح له على هذا التقدير وحيا خاصا كالوحي الى ابراهيم عليه السلام بذبح ابنه ويكون حكمته في حق الاخ امتحانه وابتلاءه لينال درجة الصبر على حكم الله والرضا بقضائه ويكون حاله في هذا كحال أبيه يعقوب عليه السلام في احتباس يوسف عليه السلام عنه وقد دل على هذا نسبة الله سبحانه ذلك الكيد الى نفسه بقوله كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك الا أن يشاء الله وهو سبحانه ينسب الى نفسه أحسن هذه المعاني وما هو منها حكمة وحق وصواب وجزاء للمسيء وذلك غاية العدل والحق كقوله انهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا وقوله ومكروا ومكر الله وقوله الله يستهزئ بهم وقوله ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وقوله وأملي لهم ان كيدي متين فهذا منه سبحانه في أعلى مراتب الحسن وان كان من العبد قبيحا سيأ لانه ظالم فيه وموقعه بمن لا يستحقه والرب تعالى عادل فيه وموقعه بأهله ومن يستحقه سواء قيل انه مجاز للمشاكلة الصورية أو للمقابلة أو سماه كذلك مشاكلة لاسم ما فعلوه أو قيل انه حقيقة وان مسمى هذه الافعال ينقسم الى مذموم ومحمود واللفظ حقيقة في هذا وهذا كما قد بسطنا هذا المعنى واستوفينا الكلام عليه في كتاب الصواعق

(فصل) اذا عرف ذلك فيوسف صلوات الله عليه وسلامه أكيد من وجوه عديدة أحدها أن اخوته كادوه حيث احتالوا في التفريق بينه وبين أبيه كما قال له يعقوب عليه السلام لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيدا وثانيها أنهم كادوه حيث باعوه بيع العبيد وقالوا انه غلام لنا أبق وثالثها كيد امرأة العزيز له بتغليق الابواب ودعائه الى نفسها ورابعها كيدها له بقولها ما جزاء من أراد بأهلك سوأ الا أن يسجن أو عذاب أليم فكادته بالمراودة أولا وكادته بالكذب عليه ثانيا ولهذا قال لها الشاهد لما تبين له براءة يوسف عليه السلام انه من كيدكن ان كيدكن عظيم وخامسها كيدها له حيث جمعت له النسوة وأخرجته عليهن تستعين بهن عليه وتستعذر اليهن من شغفها به وسادسها كيد النسوة له حتى استجار بالله تعالى من كيدهن

فظاهر وأما الشكر فالقيام بحق الله عليه في تلك البلية فان لله على العبد عبودية في البلاء كما له عليه عبودية في النعماء وعليه أن يقوم بعبوديته في هذا وهذا فعلم انه لا انفكاك له عن الصبر ما دام سائرا الى الله الوجه الثالث ان الصبر ثلاثة أقسام اما صبر عن المعصية فلا يرتكبها واما صبر على الطاعة حتى يؤديها واما صبر على البلية فلا يشكو ربه فيها واذا كان العبد لا بد له من واحد من هذه الثلاث فالصبر لازم له أبدا لا خروج له عنه البتة الوجه الرابع ان الله سبحانه ذكر الصبر في كتابه في نحو تسعين موضعا فمرة أمر به ومرة أثنى على أهله ومرة أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يبشرهم ومرة جعله شرطا في حصول النصر والكفاية ومرة أخبر انه مع أهله وأثنى به على صفوته من العالمين وهم أنبياؤه ورسله فقال عن نبيه أيوب انا وجدناه صابرا نعم العبد انه أواب وقال لخاتم أنبيائه ورسله فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل وقال واصبر وما صبرك الا بالله وقال يوسف الصديق وقد قال له اخوته أإنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين وهذا يدل على ان الصبر من أجل مقامات الايمان وان أخص الناس بالله وأولاهم به أشدهم قياما وتحققا به وان الخاصة أحوج اليه من العامة الوجه الخامس ان الصبر سبب في حصول كل كمال فأكمل الخلق أصبرهم ولم يتخلف عن أحد كماله الممكن الا من ضعف صبره فان كمال العبد بالعزيمة والثبات فمن لم يكن له عزيمة فهو ناقص ومن كانت له عزيمة ولكن لا ثبات له عليها فهو ناقص فاذا انضم الثبات الى العزيمة أثمر كل مقام شريف وحال كامل ولهذا في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم الذي رواه الامام أحمد وابن حبان في صحيحه اللهم اني أسألك الثبات في الامر والعزيمة على الرشد ومعلوم ان شجرة الثبات والعزيمة لا تقوم الا على ساق الصبر فلو علم العبد الكنز الذي تحت هذه الاحرف الثلاثة أعني اسم الصبر لما تخلف عنه قال النبي صلى الله عليه وسلم ما أعطي أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر وقال عمر بن الخطاب خير عيش أدركناه بالصبر وفي مثل هذا قال القائل

نزه فؤادك عن سوانا والقنا * فجنابنا حل لكل منزه
والصبر طلسم لكنز وصالنا * من حل ذا الطلسم فاز بكنزه

فالصبر طلسم على كنز السعادة من حله ظفر بالكنز

فقال والا تصرف عني كيدهن أصب اليهن وأكن من الجاهلين فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن انه هو السميع العليم ولهذا لما جاءه الرسول بالخروج من السجن قال له ارجع الى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ان ربي بكيدهن عليم فان قيل فما كان مكر النسوة اللاتي مكرن به وسمعت بها امرأة العزيز فان الله سبحانه لم يقصه في كتابه قيل بلى قد أشار اليه بقوله وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا انا لنراها في ضلال مبين وهذا الكلام متضمن لوجوه من المكر أحدها قولهن امرأة العزيز تراود فتاها ولم يسموها باسمها بل ذكروها بالوصف الذي ينادي عليها بقبيح فعلها بكونها ذات بعل فصدور الفاحشة منها أقبح من صدورها ممن لا زوج لها الثاني أن زوجها عزيز مصر ورئيسها وكبيرها وذلك أقبح لوقوع الفاحشة منها الثالث أن الذي تراوده مملوك لا حر وذلك أبلغ في القبح الرابع أنه فتاها الذي هو في بيتها وتحت كنفها فحكمه حكم أهل البيت بخلاف من طلب ذلك من الاجنبي البعيد الخامس أنها هي المراودة الطالبة السادس انها قد بلغ بها عشقها له كل مبلغ حتى وصل حبها له الى شغاف قلبها السابع ان في ضمن هذا أنه أعف منها وأبر وأوفى حيث كانت هي المراودة الطالبة وهو الممتنع عفافا وكرما وحياء وهذا غاية الذم لها الثامن انهن أتين بفعل المراودة بصيغة المستقبل الدالة على الاستمرار والوقوع حالا واستقبالا وان هذا شأنها ولم يقلن راودت فتاها وفرق بين قولك فلان أضاف ضيفا وفلان يقري الضيف ويطعم الطعام ويحمل الكل فان هذا يدل على أن هذا شأنه وعادته التاسع قولهن انا لنراها في ضلال مبين أي انا لنستقبح منها ذلك غاية الاستقباح فنسبن الاستقباح اليهن ومن شأنهن مساعدة بعضهن بعضا على الهوى ولا يكدن يرين ذلك قبيحا كما يساعد الرجال بعضهم بعضا على ذلك فحيث استقبحن منها ذلك كان هذا دليلا على انه من أقبح الامور وأنه مما لا ينبغي ان تساعد عليه ولا يحسن معاونتها عليه العاشر انهن جمعن لها في هذا الكلام واللوم بين العشق المفرط والطلب المفرط فلم تقتصد في حبها ولا في طلبها أما العشق فقولهن قد شغفها حبا أي وصل حبه الى شغاف قلبها وأما الطلب المفرط فقولهن تراود فتاها والمراودة الطلب مرة بعد مرة فنسبوها الى شدة العشق وشدة الحرص على الفاحشة فلما سمعت بهذا المكر منهن هيأت لهن مكرا أبلغ منه فهيأت لهن متكأ ثم أرسلت اليهن فجمعتهن وخبأت يوسف عليه السلام عنهن وقيل انها جملته وألبسته أحسن ما يقدر عليه وأخرجته عليهن فجأة فلم يرعهن الا وأحسن خلق الله وأجمله قد طلع عليهن بغتة فراعهن ذلك المنظر البهي وفي أيديهن مدى يقطعن بها ما

الوجه السادس قوله الصبر حبس النفس على مكروه وعقل اللسان عن الشكوى ومكابدة الغصص في تحمله وانتظار الفرج عند عاقبته فيقال هذا أحد أقسام الصبر وهو الصبر على البلاء وأما الصبر على الطاعة فقد يعرض فيه ذلك أو بعضه وقد لا يعرض فيه بل يتحلى بها ويأتي بها بمحبة ورضى ومع هذا فالصبر واقع عليها فانه حبس النفس على مداومتها والقيام بها قال تعالى واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي الآية وأما الصبر عن المعصية (٢٨٢) فقد يعرض فيه ذلك أو بعضه وقد لا يعرض فيه لتمكن الصابر من قهر داعيها وغلبته

واذا كان ما ذكر من الامور الاربعة انما يعرض في الصبر على البلية فقوله انه في طريق الخاصة تجلد ومناواة وجراءة ومنازعة ليس كذلك وانما فيه التجلد فان المناواة والجراءة والمنازعة واما لوازم الطبيعة من وجود ألم البلوى فلا ينقلب ولا يعدم فلا يصح أن يقال ان وجود التألم والتجلد عليه وحبس النفس عن التسخط واللسان عن الشكوى جراءة ومنازعة بل هو محض العبودية والاستكانة وامتثال الامر وهو من عبودية الله المفروضة على عبده في البلاء فالقيام بها عين كمال العبد ولوازم الطبيعة لا بد منها ومن رام ان لا يجد البرد والحر والجوع والعطش والالم عند تمام أسبابها وعللها فقد رام الممتنع وهل يكون الاجر الا على وجود تلك الآلام والمشاق والصبر عليها وقد ثبت عن النبي انه قال أشد الناس بلاء الانبياء ثم الامثل فالامثل وقيل له في مرضه انك لتوعك وعكا شديدا قال أجل ان لي أجر رجلين منكم يعني في وعكه ولا ريب ان ذلك الوعك مؤلم له صلى الله عليه وسلم وأيضا في مرض موته قال وارأساه وهذا انما هو من وجود ألم الصداع وكان يقول في غمرات الموت اللهم أعني على سكرات الموت وهذا كله لتكميل أجره وزيادة رفعة درجاته صلى الله عليه وسلم وهل كان ذلك الا محض العبودية وعين الكمال وهل الجراءة والمناواة باكلنه والمنازعة الا في ترك الصبر وفي التسخط والشكوى الوجه السابع قوله فان حامله يرجع الى كتمان الشكوى في تحامل الاذى بالبلوى والاستبشار باختيار المولى فيقال الذي يمكن الخروج عنه هو الشكوى واما أن يخرج عن ذوق البلوى فلا يجده أو يتلذذ بها فهذا غير ممكن ولا هو في الطبيعة وانما الممكن أن يشاهد العبد في تضاعيف البلاء لطف صنع الله به وحسن اختياره له وبره به في حمله عنه مؤنة حمله وتشغل

يأ كلنه فدهشن حتى قطعن أيديهنّ وهنّ لايشعرن وقد قيل انهن أبنّ أيديهن والظاهر خلاف ذلك وانما تقطيعهن أيديهنّ جرحها وشقها بالمدى لدهشهن بما رأين فقابلت مكرهن القولى بهذا المكر الفعلى وكانت هذه فى النساء غاية فى المكر والمقصود أن الله سبحانه كاد ليوسف عليه السلام بأن جمع بينه و بين أخيه وأخرجه من أيدى اخوته بغير اختيارهم كما أخرجوا يوسف من يد أبيه بغير اختياره وكاد له بأن أوقفهم بين يديه موقف الذليل الخاضع المستجدى فقالوا ياأيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا ان الله يجزى المتصدقين فهذا الذل والخضوع فى مقابلة ذله وخضوعه لهم يوم القائه فى الجب و بيعه بيع العبد وكاد له بان هيأ له الاسباب التى سجدوا له هم وأبوه وخالته فى مقابلة كيدهم له حذرا من وقوع ذلك فان الذى حملهم على القائه فى الجب خشيتهم أن يرتفع ذلك عليهم حتى يسجدوا له كلهم فكادوه خشية ذلك فكاد الله تعالى له حتى وقع ذلك كما رآه فى منامه وهذا كما كاد فرعون بنى اسرائيل يذبح أبناءهم و يستحيي نساءهم خشية أن يخرج فيهم من يكون زوال ملكه على يديه فكاده الله سبحانه بان أخرج له هذا المولود ورباه فى بيته وفى حجره حتى وقع به منه ما كان يحذره كما قيل

واذا خشيت من الامور مقدرا * وفررت منه فنحوه تتوجه

(فصل) وكيد الله سبحانه لايخرج عن نوعين أحدهما أن يفعل سبحانه فعلا خارجا عن قدرة العبد الذى كاد له فيكون الكيد قدرا محضا ليس من باب الشرع كما كاد الذين كفروا بان انتقم منهم بانواع العقوبات وكذلك كانت قصة يوسف عليه السلام فان يوسف أكثر ماقدر عليه أن ألقى الصواع فى رحل أخيه وأرسل مؤذنا يؤذن أيتها العير انكم لسارقون فلما أنكروا قال فما جزاؤه ان كنتم كاذبين قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه أى جزاؤه استعباد المسروق ماله للسارق اما مطلقا واما الى مدة وهذه كانت شريعة آل يعقوب عليه السلام حتى قيل ان مثل هذا كان مشروعا فى أول الاسلام أن المدين اذا أعسر بالدين استرقه صاحب الحق وعليه حمل حديث بيع النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الذى سرق وقيل بل كان بيعه اياه ايجاره لمن يستعمله وقضى دينه باجرته وعلى هذا فليس بمنسوخ وهو احدى الروايتين عن أحمد رحمه الله تعالى أن المفلس اذا بقيت عليه ديون وله صنعة أجبر على اجارته نفسه أو أجره الحاكم ووفى دينه من أجرته وكان الهام الله تعالى لاخوة يوسف عليه السلام قولهم من وجد فى رحله فهو جزاؤه كيدا من الله تعالى ليوسف عليه السلام أجراه على ألسن اخوته وذلك خارج عن قدرته

النفس باستخراج لطائف صنع الله به و بره وحسن اختياره عن شهود حمله فيحصل له لذة بما شهده من ذلك وفوق هذا مرتبة أرفع منه وهى أن يشهدان هذا مراد محبوبه وانه بمرأى منه ومستمع وانه هديته الى عبده وخلعته التى خلعها عليه ليرفل له فى أذيال التذلل والمسكنة والتضرع لعزته وجلاله فيعلم العبد ان حقيقة المحبة هى موافقة المحبوب فى محابه فيحب مايحبه محبوبه فيحب العبد تلك الحال من حيث موافقته لمحبوبه وان كرهها من حيث الطبع البشرى فان هذه الكراهة لاتنافى محبته (٢٨٣) لها كما يكره طبعه الدواء الكريه وهو يحبه من وجه آخر وهذا لاينكر فى المحبة المتعلقة بالمخلوق مع ضعفها وضعف أسبابها كما قال القائل فى ذلك

أهوى هواه وبعدى عنه يحبه
فالبعد قد صار لى فى حبه أربا

وقال الآخر

أريد وصاله و يريد هجرى
فاترك ماأريد لما يريد

وقال الآخر

وأهنتنى فاهنت نفسى جاهدا
ماهن يهون عليك ممن أكرم

وانه لتبلغ المحبة بالعبد الى حيث يفنى بمراد محبوبه عن مراده هو منه فاذا شهد مراد محبوبه أحبه وان كان كريها اليه فهذا لاينكر ولاينافى التألم بمراد المحبوب المنافى للطبع وصبره عليه بل يجتمع فى حقه الامران وتقوى هذه المحبة باستبشاره وعلمه بعاقبة تلك البلوى وافضائها الى غاية النعيم واللذة فكلما قوى علمه بذلك وقويت محبته لمن ذكره بابتلائه ازداد تلذذه بهامع الكراهة الطبيعية التى هى من لوازم الخلقة ولاسيما اذا علم المحب الذى أحب الاشياء اليه أن يجرى ذكره على بال محبوبه أن محبوبه قد ذكره بنوع من الامتحان فانه يفرح بذكره له وان أساءه ماذكره به كما قال القائل

لئن ساءنى ان نلتنى بمساءة
لقد سرنى انى خطرت ببالكا

الوجه الثامن قوله وهو على ثلاث مقامات مرتبة بعضها فوق بعض فالاول التصبر الى قوله وهو صبر العوام فيقال لاريب ان التصبر مؤذن بتكلف و بحمل على كره ولكن هذا لابد منه فى الصبر وهو سببه الذى ينال به فالتصبر من العبد والصبر ثمرته التى يفرغها الله اذا تعاطاه وتكلفه كما قال النبى صلى الله عليه وسلم ومن يتصبر يصبره الله فمنزلة التصبر من الصبر منزلة التعلم والتفهم من العلم والفهم فلابد منه فى حصول الصبر الوجه التاسع قوله والثانى الصبر وهو نوع سهولة يخفف على المبتلى بعض الثقل و يسهل عليه

وكان يمكنهم أن يتخلصوا من ذلك بان يقولوا لا جزاء عليه حتى يثبت أنه هو الذي سرق فان مجرد وجوده في رحله لا يوجب أن يكون سارقا وقد كان يوسف عليه السلام عادلا لا يأخذهم بغير حجة وكان يمكنهم التخلص أيضا أن يقولوا جزاؤه أن يفعل به ما تفعلونه بالسراق في دينكم وقد كان من دين ملك مصر فيما ذكر ان السارق يضرب ويغرم قيمة المسروق مرتين فلو قالوا له ذلك لم يمكنه أن يلزمهم بما لا يلزم به غيرهم فلذلك قال سبحانه كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك الا أن يشاء الله أي ما كان ليمكنه أخذه في دين ملك مصر لانه لم يكن في دينه طريق الى أخذه وقوله الا أن يشاء الله استثناء منقطع أي لكن ان شاء الله أخذه بطريق آخر ويجوز أن يكون متصلا والمعنى الا أن يهيئ الله سببا آخر يؤخذ به في دين الملك غير السرقة وفي هذه القصة تنبيه على الاخذ باللوث الظاهر في الحدود وان لم تقم بينة ولم يحصل اقرار فان وجود المسروق مع السارق أصدق من البينة فهو بينة لا يلحقها التهمة وقد اعتبر شرعنا ذلك في مواضع منها اللوث في القسامة والصحيح أنها تقاد بها كما دل عليه النص الصريح ومنها حد الصحابة رضي الله عنهم في الخمر بالرائحة والقيء ومنها حد عمر رضي الله عنه في الزنا بالحبل وجعله قسيم الاعتراف والشهادة فوجود المسروق مع السارق ان لم يكن أظهر من هذا كله فليس دونه فلما فتشوا متاعه فوجدوا فيه الصواع كان ذلك قائما مقام البينة والاعتراف فلهذا لم يمكنهم أن يتظلموا من أخذه ولو كان هذا ظلما لقالوا كيف يأخذه بغير بينة ولا اقرار وقد أشبعنا الكلام في ذلك في كتاب الاعلام باتساع طرق الاحكام والمقصود انه ليس في قصة يوسف عليه السلام شبهة فضلا عن الحجة لارباب الحيل فانا انما تكلمنا في الحيل التي يفعلها العبد وحكمها في الاباحة والتحريم لا فيما يكيد الله سبحانه لعبده بل في قصة يوسف عليه السلام تنبيه على ان من كاد غيره كيدا محرما فان الله سبحانه لابد أن يكيده وانه لابد أن يكيد للمظلوم اذا صبر على كيد كائده وتلطف به فالمؤمن المتوكل على الله اذا كاده الخلق فان الله تعالى يكيد له وينتصر له بغير حول منه ولا قوة فهذا أحد النوعين من كيده سبحانه لعبده النوع الثاني أن يلهمه أمرا مباحا أو مستحبا أو واجبا يوصله به الى المقصود الحسن فيكون على هذا الهامه يوسف عليه السلام أن يفعل ما فعل هو من كيده سبحانه أيضا فيكون قد كاد له نوعي الكيد ولهذا قال سبحانه نرفع درجات من نشاء وفي ذلك تنبيه على ان العلم الدقيق بلطيف الحيل الموصلة الى المقصود الشرعي الذي يحبه الله تعالى ورسوله من نصر دينه وكسر أعدائه ونصر المحق وقمع المبطل صفة مدح يرفع الله تعالى به درجة العبد كما ان العلم الذي يخصم به

المبطل

[illegible] كان به واجبا يكون اذا كان بالله

ما لم يكن به لا يكون وما لم يكن له لا ينفع ولا يثمر فكلاهما لا يحصل للمريد السالك مقصوده الا أن يكون بالله ولله قال تعالى في الصبر به واصبر وما صبرك الا بالله وقال في الصبر له واصبر لحكم ربك واختلف الناس أي الصبرين أعلى وأفضل الصبر له أو به فقالت طائفة منهم صاحب منازل السائرين وأضعف الصبر الصبر لله وهو صبر العامة وفوقه الصبر بالله وهو صبر العابد الذي تصبر نفسه لامر الله طلبا لمرضاته وثوابه فهو صابر على العمل صابر عن المحرمات وأما الصبر به فهو تبرؤ من الحول والقوة واضافة ذلك الى الله وهو صبر المريد وأما الصبر على الله فصبر السالك على ما يجيء به متعلق اقداره وأحكامه والصواب ان الصبر لله أكمل من الصبر به فان الصبر له متعلق بالهيته ومحبته والصبر به متعلق بربوبيته ومشيئته وما له أكمل مما به فان ما له هو الغاية وما به هو الوسيلة فالصبر به وسيلة والصبر له غاية وبينهما من التفاوت ما بين الغايات والوسائل وأيضا فان الصبر له متعلق بقوله اياك نعبد واياك نستعين وهاتان الكلمتان منقسمتان بين العبد وبين الله كما ثبت عن النبي فيما يروي عن ربه واياك نعبد هي التي لله واياك نستعين هي التي للعبد وما لله أكمل مما للعبد فما تعلق بما هو له أفضل مما تعلق بما هو للعبد وأيضا فالصبر له مصدره المحبة والصبر به مصدره الاستعانة والمحبة أكمل من الاستعانة وأما الصبر على الله فهو الصبر على أحكامه الدينية والكونية فهو يرجع الى الصبر على أوامره والصبر على ابتلائه فليس في الحقيقة قسما ثالثا والله أعلم فقد تبين ان الصبر بجميع أقسامه أصل مقامات الايمان وهو أصل لكمال العبد الذي لا كمال له بدونه

ولا يذم منه الا قسم واحد وهو الصبر عن الله فانه صبر المعرضين المحجوبين فالصبر عن المحبوب أقبح شيء وأسوؤه وهو الذي يسقط المحب من عين محبوبه فان المحب كلما كان أكمل محبة كان صبره عن محبوبه متعذرا الوجه العاشر قوله الثالث الاصطبار وهو التلذذ بالبلوى والاستبشار باختيار المولى وهذا هو الصبر على الله وهو صبر العارفين فيقال الاصطبار افتعال من الصبر كالاكتساب والاتخاذ وهو مشعر بزيادة المعنى على الصبر كأنه صار سجية وملكة فان هذا البناء مؤذن بالاتخاذ والاكتساب قال تعالى فارتقبهم واصطبر

المبطل ويدحض حجته صفة مدح يرفع بها درجة عبده كما قال سبحانه في قصة ابراهيم عليه السلام ومناظرته قومه وكسر حجتهم وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء وعلى هذا فيكون من الكيد ما هو مشروع ولكن ليس هو الكيد الذي يستحل به المحرمات ويسقط به الواجبات فان هذا كيد لله تعالى ودينه فالله سبحانه ودينه هو المكيد في هذا القسم فمحال أن يشرع الله سبحانه هذا النوع من الكيد وأيضا فان هذا الكيد لا يتم الا بفعل يقصد به غير مقصوده الشرعي ومحال أن يشرع الله تعالى لعبد أن يقصد بفعله ما لم يشرع الله ذلك الفعل له وأيضا فان الامر المشروع هو عام لا يختص به شخص دون شخص فالشئ اذا كان مباحا لشخص كان مباحا لكل من كان حاله مثل حاله فمن احتال بحيلة فقهية محرمة أو مباحة لم يكن له اختصاص بتلك الحيلة عمن لا يفهمها ولا يعلمها وانما خاصية الفقيه اذا حدثت حادثة أن يتفطن لاندراجها تحت الحكم العام الذي يعلمه هو وغيره والله سبحانه انما كاد ليوسف عليه السلام كيدا خاصا به جزاء له على صبره واحسانه وذكره في معرض المنة عليه وهذه الافعال التي فعلها يوسف عليه السلام والافعال التي فعلها الله سبحانه له اذا تأملها اللبيب رآها لا تخرج عن نوعين أحدهما الهام الله سبحانه له فعلا مباحا له أن يفعله الثاني فعل من الله تعالى به خارج عن مقدور العبد وكلا النوعين مباين للحيل المحرمة التي يحتال بها على اسقاط الواجبات واباحة المحرمات

(فصل) لعلك تقول قد أطلت الكلام في هذا الفصل جدا وقد كان يكفي الاشارة اليه فيقال بل الامر أعظم مما ذكرناه وهو بالاطالة أجدر فان بلاء الاسلام ومحنته عظمت من هاتين الطائفتين أهل المكر والمخادعة والاحتيال في العمليات وأهل التحريف والسفسطة والقرمطة في العلميات وكل فساد في الدين بل والدنيا فمنشؤه من هاتين الطائفتين وبالتأويل الباطل قتل عثمان رضي الله عنه وعاثت الأمة في دمائها وكفر بعضها بعضا وتفرقت على بضع وسبعين فرقة فجرى على الاسلام من تأويل هؤلاء وخداع هؤلاء ومكرهم ما جرى واستولت الطائفتان وقويت شوكتهما وعاقبوا من لم يوافقهم وانكر عليهم ويأبى الله الا أن يقيم لدينه من يذب عنه ويبين أعلامه وحقائقه لكيلا تبطل حجج الله وبيناته على عباده فلنرجع الى ما نحن بصدده من بيان مكايد الشيطان ومصايده

(فصل) ومن مكايده ومصايده ما فتن به عشاق الصور وتلك لعمر الله الفتنة الكبرى والبلية العظمى التي استعبدت النفوس لغير خلاقها وملكت القلوب لمن يسومها

فالاصطبار أبلغ من الصبر كما أن الاكتساب أبلغ من الكسب ولهذا كان في العمل الذي يكون على صاحبه والكسب فيما له قال تعالى لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت تنبيها على أن الثواب يحصل لها بأدنى سعي وكسب وان العقاب انما هو باكتسابها وتصرفها وما تعانيه واذا علم هذا فالتلذذ بالبلوى والاستبشار باختيار الله سبحانه لا يخص الاصطبار بل يكون مع الصبر ومع التصبر ولكن لما كان الاصطبار أبلغ من الصبر وأقوى كان بهذا التلذذ والاستبشار أولى والله أعلم (قاعدة) الصبر عن المعصية ينشأ من أسباب عديدة أحدها علم العبد بقبحها ورذالتها ودناءتها وان الله انما حرمها ونهى عنها صيانة وحماية عن الدنايا والرذائل كما يحمي الوالد الشفيق ولده عما يضره وهذا السبب يحمل العاقل على تركها ولو لم يعلق عليها وعيد بالعذاب السبب الثاني الحياء من الله سبحانه فان العبد متى علم بنظره اليه ومقامه عليه وانه بمرأى منه ومسمع وكان حييا استحيى من ربه أن يتعرض لمساخطه السبب الثالث مراعاة نعمه عليك واحسانه اليك فان الذنوب تزيل النعم ولا بد فما أذنب عبد ذنبا الا زالت عنه نعمة من الله بحسب ذلك الذنب فان تاب وراجع رجعت اليه أو مثلها وان أصر لم ترجع اليه ولا تزال الذنوب تزيل عنه نعمة نعمة حتى تسلب النعم كلها قال تعالى ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأعظم النعم الايمان وذنب الزنا والسرقة وشرب الخمر وانتهاب النهبة يزيلها ويسلبها وقال بعض السلف أذنبت ذنبا فحرمت قيام الليل سنة وقال آخر أذنبت ذنبا فحرمت فهم القرآن وفي مثل هذا قيل

اذا كنت في نعمة فارعها
فان المعاصي تزيل النعم

وبالجملة فان المعاصي نار النعم تأكلها كما تأكل النار الحطب عياذا بالله من زوال نعمته وتحويل عافيته السبب الرابع خوف الله وخشية عقابه وهذا انما يثبت بتصديقه في وعده ووعيده والايمان به وبكتابه وبرسوله وهذا السبب يقوى بالعلم واليقين ويضعف بضعفهما قال تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء وقال بعض السلف كفى بخشية الله علما وبالاغترار بالله جهلا السبب الخامس محبة الله وهي من أقوى الأسباب في الصبر عن مخالفته ومعاصيه فان المحب لمن يحب مطيع وكلما قوي سلطان المحبة في القلب كان اقتضاؤه للطاعة وترك المخالفة أقوى وانما تصدر المعصية والمخالفة من ضعف المحبة وسلطانها

وفرق بين من يحمله على ترك معصية سيده خوفه من سوطه وعقوبته وبين من يحمله على ذلك حبه لسيده وفي هذا قال عمر نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه يعني انه لو لم يخف من الله لكان في قلبه من محبة الله واجلاله ما يمنعه من معصيته فالمحب الصادق عليه رقيب من محبوبه يرعى قلبه وجوارحه وعلامة صدق المحبة شهود هذا الرقيب ودوامه وههنا لطيفة يجب التنبه لها وهي ان المحبة المجردة لا توجب هذا الاثر ما لم تقترن باجلال المحبوب وتعظيمه فاذا قارنها الاجلال والتعظيم أوجبت هذا الحياء والطاعة والا فالمحبة الخالية عنهما انما توجب نوع أنس وانبساط وتذكر واشتياق ولهذا يتخلف عنها أثرها وموجبها ويفتش العبد قلبه فيرى فيه نوع محبة لله ولكن لا يحمله على ترك معاصيه وسبب ذلك تجردها عن الاجلال والتعظيم فما عمر القلب شيء كالمحبة المقترنة باجلال الله وتعظيمه وتلك من أفضل مواهب الله لعبده أو أفضلها وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء

السبب السادس شرف النفس وزكاؤها وفضلها وأنفتها وحميتها ان تختار الاسباب التي تحطها وتضع قدرها وتخفض منزلتها وتحقرها وتسوي بينها وبين السفلة

السبب السابع قوة العلم بسوء عاقبة المعصية وقبح أثرها والضرر الناشئ منها من سواد الوجه وظلمة القلب وضيقه وغمه وحزنه وألمه وانحصاره وشدة قلقه واضطرابه وتمزق شمله وضعفه عن مقاومة عدوه وتعريه من زينته بالثوب الذي جمله الله وزينه به والعصمة التي تناله والقسوة والحيرة في أمره وتخلي وليه وناصره عنه وتولي عدوه المبين له وتواري العلم الذي كان مستعدا له عنه ونسيان ما كان حاصلا له أو ضعفه ولا بد ومرضه الذي اذا استحكم به فهو الموت ولا بد فان الذنوب تميت القلوب ومنها ذله بعد عزه ومنها انه يصير أسيرا في يد أعدائه بعد ان كان ملكا متصرفا يخافه أعداؤه ومنها انه يضعف تأثيره فلا يبقى له نفوذ في رعيته ولا في الخارج فلا رعيته تطيعه اذا أمرها ولا ينفذ في غيرهم ومنها زوال أمنه وتبدله به مخافة فأخوف الناس أشدهم اساءة ومنها زوال الانس والاستبدال به وحشة وكلما ازداد اساءة ازداد وحشة ومنها زوال الرضى واستبداله بالسخط ومنها زوال الطمانينة بالله والسكون اليه والايواء عنده واستبدال الطرد والبعد منه ومنها وقوعه في بئر الحسرات فلا يزال في حسرة دائمة كلما نال لذة نازعته نفسه الى نظيرها ان لم يقض منها وطرا

الهوان من عشاقها وألقت الحرب بين العشق والتوحيد ودعت الى موالاة كل شيطان مريد فصيرت القلب للهوى أسيرا وجعلته عليه حاكما وأميرا فأوسعت القلوب محنة وملأتها فتنة وحالت بينها وبين رشدها وصرفتها عن طريق قصدها ونادت عليها في سوق الرقيق فباعتها بأبخس الاثمان وأعاضتها بأخس الحظوظ وأدنى المطالب عن العالي من غرف الجنان فضلا عما هو فوق ذلك من القرب بالرحمن فسكنت الى المحبوب الخسيس الذي ألمها به أضعاف لذتها ونيله والوصول اليه أكبر أسباب مضرتها فما أوشكه حبيبا يستحيل عدوا عن قريب ويتبرأ منه محبه لو أمكنه حتى كأن لم يكن له بحبيب وان تمتع به في هذه الدار فسوف يجد به أعظم الألم بعد حين لاسيما اذا صار الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين فيا حسرة المحب الذي باع نفسه لغير الحبيب الاول بثمن بخس وشهوة عاجلة ذهبت لذتها وبقيت تبعتها وانقضت منفعتها وبقيت مضرتها فذهبت الشهوة وبقيت الشقوة وزالت النشوة وبقيت الحسرة فوارحمتاه لصب جمع له بين الحسرتين حسرة فوت المحبوب الأعلى والنعيم المقيم وحسرة ما يقاسيه من النصب في العذاب الاليم فهناك يعلم المخدوع أي بضاعة أضاع وان من كان مالك رقه وقلبه لم يكن يصلح أن يكون له من جملة الخدم والاتباع وأي مصيبة أعظم من مصيبة ملك أنزل عن سرير ملكه وجعل لمن لا يصلح أن يكون مملوكه أسيرا وجعل تحت أوامره ونواهيه مقهورا فلو رأيت قلبه وهو في يد محبوبه لرأيته

كعصفورة في كف طفل يسومها * حياض الردى والطفل يلهو ويلعب

ولو شاهدت حاله وعيشه لقلت

وما في الارض أشقى من محب * وان وجد الهوى حلو المذاق

تراه باكيا في كل حين * مخافة فرقة أو لاشتياق

فيبكي ان نأوا شوقا اليهم * ويبكي ان دنوا حذر الفراق

ولو شاهدت نومه وراحته لعلمت أن المحبة والمنام تعاهدا وتحالفا أن ليس يلتقيان

ولو شاهدت فيض مدامعه ولهيب النار في أحشائه لقلت

سبحان رب العرش متقن صنعه * ومؤلف الاضداد دون تعاند

قطر تولد عن لهيب في الحشا * ماء ونار في محل واحد

ولو شاهدت مسلك الحب في القلب وتغلغله فيه لعلمت أن الحب ألطف مسلكا فيه من الارواح في أبدانها فهل يليق بالعاقل أن يبيع هذا الملك المطاع لمن يسومه سوء

العذاب

أو الى غيرها ان قضى وطره منها وما يعجز عنه من ذلك اضعاف اضعاف ما يقدر عليه وكلما اشتد نزوعه وعرف عجزه اشتدت حسرته وحزنه فيالها نارا قد عذب بها القلب في هذه الدار قبل نار الله الموقدة التي تطلع على الافئدة ومنها فقره بعد غناه فانه كان غنيا بما معه من رأس مال الايمان وهو يتجر به ويربح الارباح الكثيرة فاذا سلب رأس ماله أصبح فقيرا معدما فاما ان يسعى بتحصيل رأس مال آخر بالتوبة النصوح والجد والتشمير فقد فاته ربح كثير بما أضاعه من رأس ماله ومنها نقصان رزقه فان العبد يحرم الرزق بالذنب يصيبه ومنها

العذاب ويوقع بينه وبين وليه ومولاه الحق الذي لا غناء له عنه ولا بدله منه أعظم الحجاب فالمحب بمن أحبه قتيل وهو له عبد خاضع ذليل ان دعاه لباه وان قيل له ما تتمنى فهو غاية ما يتمناه لا يأنس بغيره ولا يسكن الى سواه فحقيق أن لا يملك رقه الا لاجل حبيب وأن لا يبيع نصيبه منه بأخس نصيب

(فصل) اذا عرف هذا فاصل كل فعل وحركة في العالم من الحب والارادة فهما مبدأ لجميع الافعال والحركات كما ان البغض والكراهية مبدأ كل ترك وكف اذا قيل ان الترك والكف أمر وجودي كما عليه أكثر الناس وان قيل انه عدمي فيكفي في عدمه عدم مقتضيه والتحقيق ان الترك نوعان ترك هو أمر وجودي وهو كف النفس ومنعها وحبسها عن الفعل فهذا سببه أمر وجودي وترك هو عدم محض فهذا يكفي فيه عدم المقتضى فانقسم الترك الى قسمين قسم يكفي فيه عدم السبب المقتضى لوجوده وقسم يستلزم وجود السبب الموجب له من البغض والكراهة وهذا السبب لا يقتضي بمجرده كف النفس وحبسها والالتئام مسبب عن المحبة والارادة تقتضي أمرا هو أحب اليه من هذا الذي كف نفسه فيتعارض عنده الامران فيؤثر خيرهما وأعلاهما وأنفعهما له وأحبهما اليه على أدناهما فلا يترك محبوبا الا لمحبوب هو أحب اليه منه ولا يرتكب مبغوضا الا ليتخلص به من مبغوض هو أكره اليه منه ثم خاصية العقل واللب التمييز بين مراتب المحبوبات والمكروهات بقوة العلم والتمييز وايثار أعلى المحبوبين على أدناهما واحتمال أدنى المكروهين للتخلص من أعلاهما بقوة الصبر والثبات واليقين فالنفس لا تترك محبوبا الا لمحبوب ولا تتحمل مكروها الا لتحصيل محبوب أو للتخلص من مكروه آخر وهذا التخلص لا تقصده الا لمنافاته لمحبوبها فصار سعيها في تحصيل محبوبها بالذات وأسبابه بالوسيلة ودفع مبغوضها بالذات وأسبابه بالوسيلة فسعيه في تحصيل محبوبه لما له فيه من اللذة وكذلك سعيه في دفع مكروهه أيضا لما له في دفعه من اللذة كدفع ما يؤلمه من البول والنجو والدم والقيء وما يؤلمه من الحر والبرد والجوع والعطش وغير ذلك واذا علم ان هذا المكروه يفضي الى ما يحبه يصير محبوبا له وان كان يكرهه فهو يحبه من وجه ويكرهه من وجه وكذلك اذا علم ان هذا المحبوب يفضي الى ما يكرهه يصير مكروها له وان كان يحبه فهو يكرهه من وجه ويحبه من وجه فلا يترك الحي ما يحبه ويهواه مع قدرته الا لما يحبه ويهواه ولا يرتكب ما يكرهه ويخشاه الاحذار وقوعه فيما يكرهه ويخشاه لكن خاصة العقل أن يترك أدنى المحبوبين وأقلهما نفعا لاعلاهما وأعظمهما نفعا ويرتكب أدنى المكروهين ضررا ليتخلص به من أشدهما ضررا فتبين بذلك أن

ضعف بدنه ومنها زوال المهابة والحلاوة التي لبسها بالطاعة فتبدل بها مهانة وحقارة ومنها حصول البغضة والنفرة منه في قلوب الناس ومنها ضياع أعز الاشياء عليه وأنفسها وأعلاها وهو الوقت الذي لا عوض منه ولا يعود اليه أبدا ومنها اطماع عدوه فيه وظفره به فانه اذا رآه منقادا له مستجيبا لما يأمره اشتد طمعه فيه وحدث نفسه بالظفر به وجعله من حزبه حتى يصير هو وليه دون مولاه الحق ومنها الطبع والرين على قلبه فان العبد اذا أذنب نكت في قلبه نكتة سوداء فان تاب منها صقل قلبه وان أذنب ذنبا آخر نكت فيه نكتة أخرى ولا تزال حتى تعلو قلبه فذلك هو الران قال الله كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ومنها انه يحرم حلاوة الطاعة فاذا فعلها لم يجد أثرها في قلبه من الحلاوة والقوة ومزيد الايمان والعقل والرغبة في الآخرة فان الطاعة تثمر هذه الثمرات ولابد ومنها ان تمنع قلبه من ترحله من الدنيا ونزوله بساحة القيامة فان القلب لا يزال مشتتا ضيعا حتى يرحل من الدنيا وينزل في الآخرة فاذا نزل فيها أقبلت اليه وفود التوفيق والعناية من كل جهة واجتمع على جمع أطرافه وقضاء جهازه وتعبئة زاده ليوم معاده

وما لم يترحل الى الآخرة ويحضرها فالتعب والعناء والتشتت والكسل والبطالة لازمة له لا محالة ومنها اعراض الله وملائكته وعباده عنه فان العبد اذا أعرض عن طاعة الله واشتغل بمعاصيه أعرض الله عنه فاعرضت عنه ملائكته وعباده كما انه اذا أقبل على الله أقبل الله عليه وأقبل بقلوب خلقه اليه ومنها ان الذنب يستدعي ذنبا آخر ثم يقوى أحدهما بالآخر فيستدعيان ثالثا ثم تجتمع الثلاثة فتستدعي رابعا وهلم جرا حتى تغمره ذنوبه وتحيط به خطيئته قال بعض السلف ان من ثواب الحسنة الحسنة بعدها وان من عقوبة السيئة السيئة بعدها ومنها اعلامه

المحبة والارادة أصل للبغض والكراهة وعلة لهما من غير عكس فكل بغض فهو لمنافاة البغيض المحبوب ولولا وجود المحبوب لم يكن البغض بخلاف الحب للشئ فانه قد يكون لنفسه لا لاجل منافاته للبغيض وبغض الانسان لما يضاد محبوبه مستلزم لمحبته لضده وكلما كان الحب أقوى كانت قوة البغض للمنافي أشد ولهذا كان أوثق عرى الايمان الحب فى الله والبغض فى الله وكان من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الايمان فان الايمان علم وعمل والعمل ثمرة العلم وهو نوعان عمل القلب حبا وبغضا ويترتب عليهما عمل الجوارح فعلا وتركا وهما العطاء والمنع فاذا كانت هذه الاربعة لله تعالى كان صاحبها مستكمل الايمان وما نقص منها فكان لغير الله نقص من ايمانه بحسبه

(فصل) اذا عرف هذا فكل حركة فى العالم العلوى والسفلى فسببها المحبة والارادة وغايتها المحبة والارادة فان الحركات ثلاث ارادية وطبعية وقسرية فان المتحرك ان كان له شعور بحركته وارادته لها فحركته ارادية وان لم يكن له شعور بحركته أوله بها شعور وهو غير مريد لها فحركته اما على وفق طبعه أو على خلافه فالاولى طبعية والثانية قسرية وأظهر من هذا أن يقال مبدأ الحركة اما أن يكون أمرا مباينا للمتحرك أو قوة فيه فالاول الحركة فيه قسرية والثانى اما أن يكون له به شعور أم لا فالاول الحركة فيه ارادية والثانى طبيعية فالحركة متى لازمت الشعور والارادة فهى ارادية ومتى انتفى عنها الامران فان كانت بقوة فى المتحرك فهى الطبيعية وان كانت من قوة فى المحرك فهى القسرية وكل حركة فى السموات والارض من حركات الافلاك والنجوم والشمس والقمر والرياح والسحاب والنبات والحيوان فهى ناشئة عن الملائكة الموكلين بالسموات والارض كما قال تعالى فالمدبرات أمرا وقال فالمقسمات أمرا وهى الملائكة عند أهل الايمان واتباع الرسل عليهم السلام وأما المكذبون للرسل المنكرون للصانع فيقولون هى النجوم وقد أشبعنا الرد على هؤلاء فى كتابنا الكبير المسمى بالمفتاح وقد دل الكتاب والسنة على أصناف الملائكة وانها موكلة بأصناف المخلوقات وانه سبحانه وكل بالجبال ملائكة ووكل بالسحاب والمطر ملائكة ووكل بالرحم ملائكة تدبر أمر النطفة حتى يتم خلقها ثم وكل بالعبد ملائكة لحفظه وملائكة لحفظ ما يعمله واحصائه وكتابته ووكل بالموت ملائكة ووكل بالسؤال فى القبر ملائكة ووكل بالافلاك ملائكة يحركونها ووكل بالشمس والقمر ملائكة ووكل بالنار وايقادها وتعذيب أهلها وعمارتها ملائكة ووكل بالجنة وعمارتها وغراسها وعمل الانهار ملائكة فالملائكة أعظم جنود الله تعالى ومنهم المرسلات عرفا والناشرات

بفوات ما هو أحب اليه وخير له منها من جنسها وغير جنسها فانه لا يجمع الله لعبده بين لذة المحرمات فى الدنيا ولذة ما فى الآخرة كما قال تعالى ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فالمؤمن لا يذهب طيباته فى الدنيا بل لا بد أن يترك بعض طيباته للآخرة وأما الكافر فانه لا يؤمن بالآخرة فهو حريص على تناول حظوظه كلها وطيباته فى الدنيا ومنها علمه بأن أعماله هى زاده ووسيلته الى دار اقامته فان تزود من معصية الله أوصله ذلك الزاد الى دار العصاة والجناة وان تزود من طاعته وصل الى دار أهل طاعته وولايته ومنها علمه بأن عمله هو وليه فى قبره وأنيسه فيه وشفيعه عند ربه والمخاصم والمحاج عنه فان شاء جعله له وان شاء جعله عليه ومنها علمه بأن أعمال البر تنهض بالعبد وتقوم به وتصعد الى الله به فبحسب قوة تعلقه بها يكون صعوده مع صعودها وأعمال الفجور تهوى به وتجذبه الى الهاوية وتجره الى أسفل سافلين وبحسب قوة تعلقه بها يكون هبوطه معها ونزوله الى حيث يستقر به قال تعالى اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه وقال ان الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء فلما لم تفتح أبواب السماء لاعمالهم بل أغلقت عنها لم تفتح لارواحهم عند المفارقة بل أغلقت عنها وأهل الايمان والعمل الصالح لما كانت أبواب السماء مفتوحة لاعمالهم حتى وصلت الى الله سبحانه فتحت لارواحهم حتى وصلت اليه تعالى وقامت بين يديه فرحمها وأمر بكتابة اسمها فى عليين ومنها خروجه من حصن الله الذى لا ضيعة على من دخله فيخرج بمعصيته منه الى حيث يصير نهبا للصوص وقطاع الطريق فما الظن بمن خرج من حصن حصين لا تدركه فيه آفة الى خربة موحشة مأوى اللصوص وقطاع الطريق فهل يتركون معه شيئا من متاعه ومنها انه بالمعصية قد تعرض لمحق بركته وبالجملة فآثار المعصية القبيحة أكثر من أن يحيط بها العبد علما وآثار الطاعة الحسنة أكثر من أن يحيط بها علما فخير الدنيا والآخرة بحذافيره فى طاعة الله وشر الدنيا والآخرة بحذافيره فى معصيته وفى بعض الآثار يقول الله سبحانه من ذا الذى أطاعنى فشقى بطاعتى ومن ذا الذى عصانى فسعد بمعصيتى السبب الثامن قصر الامل وعلمه بسرعة انتقاله وانه كمسافر دخل قرية وهو مزمع على الخروج منها

والناشرات نشرا والفارقات فرقا والملقيات ذكرا ومنهم النازعات غرقا والناشطات نشطا والسابحات سبحا فالسابقات سبقا فالمدبرات أمرا ومنهم الصافات صفا فالزاجرات زجرا فالتاليات ذكرا ومنهم ملائكة الرحمة وملائكة العذاب وملائكة قد وكلوا بحمل العرش وملائكة قد وكلوا بعمارة السموات بالصلاة والتسبيح والتقديس الى غير ذلك من أصناف الملائكة التي لا يحصيها الا الله تعالى ولفظ الملك يشعر بانه رسول منفذ لامر غيره فليس لهم من الامر شئ بل الامر كله لله الواحد القهار وهم ينفذون أمره لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ولا تتنزل الا بأمره ولا تفعل شيأ الا من بعد اذنه فهم عباد له مكرمون منهم الصافون ومنهم المسبحون ليس فيهم الا من له مقام معلوم لا يتخطاه وهو على عمل قد أمر به لا يقصر عنه ولا يتعداه وأعلاهم الذين عنده سبحانه لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون ورؤساؤهم الاملاك الثلاث جبريل وميكائيل واسرافيل وكان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يقول اللهم رب جبريل وميكائيل واسرافيل فاطر السموات والارض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق باذنك انك تهدي من تشاء الى صراط مستقيم فتوسل اليه سبحانه بربوبيته العامة والخاصة لهؤلاء الاملاك الثلاثة الموكلين بالحياة فجبريل موكل بالوحي الذي به حياة القلب والارواح وميكائيل موكل بالقطر الذي به حياة الارض والنبات والحيوان واسرافيل موكل بالنفخ في الصور الذي به حياة الخلق بعد مماتهم فسأله رسوله بربوبيته لهؤلاء أن يهديه لما اختلف فيه من الحق باذنه لما في ذلك من الحياة النافعة وقد أثنى سبحانه على عبده جبريل في القرآن بأحسن الثناء ووصفه بأجل الصفات فقال فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون انه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين فهذا جبريل فوصفه بانه رسول وانه كريم عنده وانه ذو قوة ومكانة عند ربه سبحانه وأنه مطاع في السموات وانه أمين على الوحي فمن كرمه على ربه انه أقرب الملائكة اليه قال بعض السلف منزلته من ربه منزلة الحاجب من الملك ومن قوته انه رفع مدائن قوم لوط على جناحه ثم قلبها عليهم فهو قوي على تنفيذ ما يؤمر به غير عاجز عنه تطيعه أملاك السموات فيما يأمرهم به عن الله تعالى قال ابن جرير في تفسيره عن اسمعيل بن أبي خالد عن أبي صالح أمين على أن يدخل سبعين سرادقا من نور بغير اذن ووصفه بالامانة يقتضي صدقه ونصحه والقاءه الى الرسل ما أمر به من غير زيادة ولا نقصان ولا كتمان والمكانة

أو كراكب قال في ظل شجرة ثم سار وتركها فهو لعلمه بقلة مقامه وسرعة انتقاله حريص على ترك ما يثقله حمله ويضره ولا ينفعه حريص على الانتقال بخير ما بحضرته فليس للعبد أنفع من قصر الامل ولا أضر من التسويف وطول الامل السبب التاسع مجانبة الفضول في مطعمه ومشربه وملبسه ومنامه واجتماعه بالناس فان قوة الداعي الى المعاصي انما تنشأ من هذه الفضلات فانها تطلب لها مصرفا فيضيق عليها المباح فتتعداه الى الحرام ومن أعظم الاشياء ضررا على العبد بطالته وفراغه فان

النفس لا تقعد فارغة بل ان لم يشغلها بما ينفعها اشغلته بما يضره ولابد السبب العاشر وهو الجامع لهذه الاسباب كلها ثبات شجرة الايمان في القلب فصبر العبد عن المعاصي انما هو بحسب قوة ايمانه فكلما كان ايمانه أقوى كان صبره أتم واذا ضعف الايمان ضعف الصبر فان من باشر قلبه الايمان بقيام الله عليه ورؤيته له وتحريمه لما حرم عليه وبغضه له ومقته لفاعله وباشر قلبه الايمان بالثواب والعقاب والجنة والنار امتنع منه أن لا يعمل بموجب هذا العلم ومن ظن انه يقوى على ترك المخالفات والمعاصي بدون الايمان الراسخ الثابت فقد غلط فاذا قوي سراج الايمان في القلب وأضاءت جهاته كلها به وأشرق نوره في ارجائه سرى ذلك النور الى الاعضاء وانبعث اليها فاسرعت الاجابة لداعي الايمان وانقادت له طائعة مذللة غير متثاقلة ولا كارهة بل تفرح بدعوته حين يدعوها كما يفرح الرجل بدعوة حبيبه المحسن اليه الى محل كرامته فهو كل وقت يترقب داعيه ويتأهب لموافاته والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم

(فصل) والصبر على الطاعة ينشأ من معرفة هذه الاسباب ومن معرفته ما تجلبه الطاعة من العواقب الحميدة والآثار الجميلة

ومن أقوى أسبابها الايمان والمحبة فكلما قوي داعي الايمان والمحبة في القلب كانت استجابته للطاعة بحسبه وههنا مسألة تكلم فيها الناس وهي أي الصبرين أفضل صبر العبد عن المعصية أم صبره على الطاعة فطائفة رجحت الاول وقالت الصبر عن المعصية من وظائف الصديقين كما قال بعض السلف أعمال البر يفعلها البر والفاجر ولا يقوى على ترك المعاصي الا صديق قالوا ولان داعي المعصية أشد من داعي ترك الطاعة فان داعي المعصية الى أمر وجودي تشتهيه النفس وتلتذ به والداعي الى ترك الطاعة الكسل

والامانة والقوة القرب من الله ونظير الجمع له بين المكانة والامانة قول العزيز ليوسف عليه السلام انك اليوم لدينا مكين أمين والجمع بين القوة والامانة نظير قول ابنة شعيب في موسى عليهما السلام ان خير من استأجرت القوي الأمين وقال تعالى في وصفه علمه شديد القوى ذو مرة قال ابن عباس رضي الله عنه ذو منظر حسن وقال قتادة ذو خلق حسن وقال ابن جرير عني بالمرة صحة الجسم وسلامته من الآفات والعاهات والجسم اذا كان كذلك من الانسان كان قويا والمرة واحدة المرر وانما أريد به ذو مرة سوية ومنه قول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرة سوي قلت هذا حجة من قال المرة القوة في الآية وهو قول مجاهد وابن زيد وهو ضعيف لانه قد وصفه قبل ذلك بانه شديد القوى ولا ريب ان المرة في الحديث هو القوة لا المنظر الحسن فاما ان يقال المرة تقال على هذا وعلى هذا واما أن يقال وهو أظهر ان المرة هي الصحة والسلامة من الآفات والعاهات الظاهرة والباطنة وذلك يستلزم كمال الخلقة وحسنها وجمالها فان العاهة والآفة انما تكون من ضعف الخلقة والتركيب فهي قوة وصحة تتضمن جمالا وحسنا والله تعالى أعلم وقالت اليهود للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم من صاحبك الذي يأتيك من الملائكة فانه ليس من نبي الا يأتيه ملك بالخبر قال هو جبريل قالوا ذاك الذي ينزل بالحرب والقتال ذاك عدونا لو قلت ميكائيل الذي ينزل بالنبات والقطر والرحمة فانزل الله تعالى من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك الى قوله من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين والمقصود ان الله سبحانه وكل بالعالم العلوي والسفلي ملائكة فهي تدبر أمر العالم باذنه ومشيئته وأمره فلهذا يضيف التدبير الى الملائكة تارة لكونهم هم المباشرين للتدبير كقوله فالمدبرات أمرا ويضيف التدبير اليه كقوله ان ربكم الله الذي خلق السموات والارض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الامر وقوله قل من يرزقكم من السماء والارض أمن يملك السمع والابصار الى قوله يدبر الامر فسيقولون الله فهو المدبر أمرا واذنا ومشيئة والملائكة المدبرات مباشرة وامتثالا وهذا كما أضاف التوفي اليهم تارة كقوله توفته رسلنا واليه تارة كقوله الله يتوفى الانفس ونظائره والملائكة الموكلة بالانسان من حين كونه نطفة الى آخر أمره لهم وله شأن آخر فانهم موكلون بتخليقه ونقله من طور الى طور وتصويره وحفظه في أطباق الظلمات الثلاث وكتابة رزقه وعمله وأجله وشقاوته وسعادته وملازمته في جميع أحواله واحصاء أقواله وأفعاله وحفظه في حياته وقبض روحه عند وفاته وعرضها على خالقه وفاطره وهم الموكلون بعذابه ونعيمه في البرزخ وبعد البعث وهم الموكلون بعمل آلات

والبطالة والمهانة ولا ريب ان داعي المعصية أقوى قالوا ولان العصيان قد اجتمع عليه داعي النفس والهوى والشيطان وأسباب الدنيا وقرناء الرجل وطلب التشبه والمحاكاة وميل الطبع وكل واحد من هذه الدواعي تجذب العبد الى المعصية وتطلب أثره فكيف اذا اجتمعت وتظاهرت على القلب فأي صبر أقوى من صبر عن اجابتها ولولا ان الله يصبره لما تأتى منه الصبر وهذا القول كما ترى حجته في غاية الظهور ورجحت طائفة الصبر على الطاعة بناء منها على ان فعل المأمور أفضل من ترك المنهيات واحتجت على ذلك بنحو من عشرين حجة ولا ريب ان فعل المأمورات انما تتم بالصبر عليها فاذا كان فعلها أفضل كان الصبر عليها أفضل وفصل النزاع في ذلك ان هذا يختلف باختلاف الطاعة والمعصية فالصبر على الطاعة المعظمة الكبيرة أفضل من الصبر عن المعصية الصغيرة الدنية والصبر عن المعصية الكبيرة أفضل من الصبر على الطاعة الصغيرة وصبر العبد على الجهاد مثلا أفضل وأعظم من صبره عن كثير من الصغائر وصبره عن كبائر الاثم والفواحش أعظم من صبره على صلاة الضحى وصوم يوم تطوعا ونحوه فهذا فصل النزاع في المسألة والله أعلم (فصل) والصبر على البلاء ينشأ من أسباب عديدة أحدها شهود جزائها وثوابها الثاني شهود تكفيرها السيئات ومحوها لها الثالث شهود القدر السابق الجاري بها وانها مقدرة في أم الكتاب قبل أن تخلق فلا بد منها فجزعه لا يزيده الا بلاء الرابع شهوده حق الله عليه في تلك البلوى وواجبه فيها الصبر بلا خلاف بين الامة أو الصبر والرضا على أحد القولين فهو مأمور بأداء حق الله وعبوديته عليه في تلك البلوى فلا بد له منه والا تضاعفت عليه الخامس شهود ترتبها عليه بذنبه كما قال تعالى وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم فهذا عام في كل مصيبة دقيقة وجليلة فشغله شهود هذا السبب بالاستغفار الذي هو أعظم الاسباب في دفع تلك المصيبة قال علي بن أبي طالب ما نزل بلاء الا بذنب ولا رفع بلاء الا بتوبة السادس ان يعلم ان الله قد ارتضاها له النعيم واختارها وقسمها وان العبودية تقتضي رضاه بما رضي له به سيده ومولاه فان لم يوف قدر المقام حقه فهو لضعفه فلينزل الى مقام الصبر عليها فان نزل عنه نزل الى مقام الظلم وتعدي الحق السابع ان يعلم ان هذه المصيبة هي دواء نافع ساقه اليه الطبيب العليم بمصلحته الرحيم به فليصبر على تجرعه ولا يتقيأه بتسخطه وشكواه فيذهب نفعه باطلا الثامن ان يعلم ان في عقبى هذا الدواء من الشفاء والعافية والصحة وزوال الالم ما لا تحصل

يونه فاذا طالعت نفسه كراهة هذا الدواء ومرارته فلينظر الى عاقبته وحسن تأثيره وقال تعالى وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون وقال فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا وفي مثل هذا قال القائل

لعل عتبك محمود عواقبه * وربما صحت الاجسام بالعلل

التاسع أن يعلم ان المصيبة ماجاءت لتهلكه وتقتله وانما جاءت لتمتحن صبره وتبتليه فيتبين حينئذ هل يصلح لاستخدامه وجعله من أوليائه وحزبه أم لا فان ثبت اصطفاه واجتباه وخلع عليه خلع الاكرام وألبسه ملابس الفضل وجعل أولياءه وحزبه خدما له وعونا له وان انقلب على وجهه ونكص على عقبيه طرد وصفع قفاه وأقصي وتضاعفت عليه المصيبة وهو لا يشعر في الحال بتضاعفها وزيادتها ولكن سيعلم بعد ذلك بان المصيبة في حقه صارت مصائب كما يعلم الصابر ان المصيبة في حقه صارت نعما عديدة وما بين هاتين المنزلتين المتباينتين الا صبر ساعة وتشجيع القلب في تلك الساعة والمصيبة لا بد أن تقلع عن هذا وهذا ولكن تقلع عن هذا بانواع الكرامات والخيرات وعن الآخر بالحرمان والخذلان لان ذلك تقدير العزيز العليم وفضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم العاشر ان يعلم ان الله يربي عبده على السراء والضراء والنعمة والبلاء فيستخرج منه عبوديته في جميع الاحوال فان العبد على الحقيقة من قام بعبودية الله على اختلاف الاحوال وأما عبد السراء والعافية الذي يعبد الله على حرف فان أصابه خير اطمأن به وان أصابته فتنة انقلب على وجهه فليس من عبيده الذين اختارهم لعبوديته فلا ريب أن الايمان الذي يثبت على محل الابتلاء والعافية هو الايمان النافع وقت الحاجة وأما ايمان العافية فلا يكاد يصحب العبد و يبلغه منازل المؤمنين وانما يصحبه ايمان يثبت على البلاء والعافية فالابتلاء كير العبد ومحك ايمانه فاما أن يخرج تبرا أحمر واما أن يخرج زغلا محضا واما أن يخرج فيه مادتان ذهبية ونحاسية فلا يزال به البلاء حتى يخرج المادة النحاسية من ذهبه و يبقى ذهبا خالصا فلو علم العبد ان نعمة الله عليه في البلاء ليست بدون نعمة الله عليه في العافية لشغل قلبه بشكره ولسانه اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك وكيف لا يشكر من قيض له ما يستخرج خبثه ونحاسه وصيره تبرا خالصا يصلح لمجاورته والنظر

النعيم والعذاب وهم المثبتون للعبد المؤمن باذن الله والمعلمون له ما ينفعه والمقاتلون الذابون عنه وأولياؤه في الدنيا والآخرة وهم الذين يرونه في منامه ما يخافه ليحذره وما يحبه ليقوى قلبه ويزداد شكرا وهم الذين يعدونه بالخير ويدعونه اليه وينهونه عن الشر ويحذرونه منه فهم أولياؤه وأنصاره وحفظته ومعلموه وناصحوه والداعون له والمستغفرون له وهم الذين يصلون عليه مادام في طاعة ربه ويصلون عليه مادام يعلم الناس الخير ويبشرونه بكرامة الله تعالى في منامه وعند موته ويوم بعثه وهم الذين يزهدونه في الدنيا ويرغبونه في الآخرة وهم الذين يذكرونه اذا نسي وينشطونه اذا كسل ويثبتونه اذا جزع وهم الذين يسعون في مصالح دنياه وآخرته فهم رسل الله في خلقه وأمره وسفراؤه بينه وبين عباده تتنزل بالامر من عنده من أقطار العالم وتصعد اليه بالامر قد أطت بهم السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع الا وملك قائم أو راكع أو ساجد ويدخل البيت المعمور كل يوم منهم سبعون ألف ملك لا يعودون آخر ما عليهم والقرآن مملوء بذكر الملائكة وأصنافهم وأعمالهم ومراتبهم كقوله واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال اني أعلم مالا تعلمون وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبؤني باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم قال يا آدم أنبئهم باسمائهم فلما أنبأهم باسمائهم قال ألم أقل لكم اني أعلم غيب السموات والارض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم الى آخر القصة وقوله تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم وما بين هاتين السورتين من سور القرآن بل لا تخلو سورة من سور القرآن عن ذكر الملائكة صريحا أو تلويحا واشارة وأما ذكرهم في الاحاديث النبوية فاكثر واشهر من أن تذكر ولهذا كان الايمان بالملائكة عليهم السلام أحد الاصول الخمس التي هي أركان الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فلنرجع الى المقصود وهو ان حركات العالم العلوي والسفلي بالملائكة فالحركات الارادية كلها تابعة للارادة التي تحرك المريد الى فعل ما يفعله والحركة الطبيعية سببها ما في المتحرك من الميل والطلب بكماله وانتهائه كحركة النار وحركة النبات وحركة الرياح وكذلك حركة الجسم الثقيل الى أسفل فانه بطبعه يطلب مستقره من المركز ما لم يعقه عنه عائق وأما الحركة القسرية كحركته بالقسر الى العلو فتابعة لارادة القاسر له فلم يبق حركة أصلية الا عن الارادة والمحبة

(فصل) فاذا عرف ذلك فالمحبة هي التي تحرك المحب في طلب محبوبه الذي يكمل بحصوله له فتحرك محب الرحمن ومحب القرآن ومحب العلم والايمان ومحب المتاع والاثمان ومحب الاوثان والصلبان ومحب النسوان والمردان ومحب الاوطان ومحب الاخوان فتثير من كل قلب حركة الى محبوبه من هذه الاشياء فيتحرك عند ذكر محبوبه منها دون غيره ولهذا تجد محب النسوان والصبيان ومحب قرآن الشيطان بالاصوات والالحان لا يتحرك عند سماع العلم وشواهد الايمان ولا عند تلاوة القرآن حتى اذا ذكر له محبوبه اهتز له وربا وتحرك باطنه وظاهره شوقا اليه وطربا بالذكره فكل هذه المحاب باطلة مضمحلة سوى محبة الله وما والاها من محبة رسوله وكتابه ودينه وأوليائه فهذه المحبة تدوم وتدوم ثمرتها ونعيمها بدوام من تعلقت به وفضلها على سائر المحاب كفضل من تعلقت به على ما سواه واذا انقطعت علائق المحبين وأسباب توادهم وتحابهم لم تنقطع أسبابها قال تعالى اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الاسباب قال عطاء عن ابن عباس رضي الله عنه المودة وقال مجاهد تواصلهم في الدنيا وقال الضحاك يعني تقطعت بهم الارحام وتفرقت بهم المنازل في النار وقال أبو صالح الاعمال والكل حق فان الاسباب هي الوصل التي كانت بينهم في الدنيا تقطعت بهم أحوج ما كانوا اليها وأما أسباب الموحدين المخلصين لله فاتصلت بهم ودام اتصالها بدوام معبودهم ومحبوبهم فان السبب تبع لغايته في البقاء والانقطاع

(فصل) اذا تبين هذا فاصل المحبة المحمودة التي أمر الله تعالى بها وخلق خلقه لاجلها هي محبته وحده لا شريك له المتضمنة لعبادته دون عبادة ما سواه فان العبادة تتضمن غاية الحب بغاية الذل ولا يصلح ذلك الا لله عز وجل وحده ولما كانت المحبة جنسا تحته أنواع متفاوتة في القدر والوصف كان أغلب ما يذكر فيها في حق الله تعالى ما يختص به ويليق به كالعبادة والانابة والاخبات ولهذا لا يذكر فيها لفظ العشق والغرام والصبابة والشغف والهوى وقد يذكر لها لفظ المحبة كقوله يحبهم ويحبونه وقوله ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله وقوله والذين آمنوا أشد حبا لله ومدار كتب الله تعالى المنزلة من أولها الى آخرها على الامر بتلك المحبة ولوازمها والنهي عن محبة ما يضادها وملازمتها وضرب الامثال والمقاييس لاهل المحبتين وذكر قصصهم ومآلهم ومنازلهم وثوابهم وعقابهم ولا يجد حلاوة الايمان بل لا يذوق طعمه الا من كان الله ورسوله أحب اليه مما سواهما كما في الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان وفي لفظ لا يجد طعم الايمان الا من

اليه في ذكره فهذه الاسباب ونحوها تثمر الصبر على البلاء فان قويت أثمرت الرضا والشكر فنسأل الله أن يسترنا بعافيته ولا يفضحنا بابتلائه بمنه وكرمه (فصل) المثال السادس الحزن قال ابو العباس وهو من منازل العوام وهو انخلاع عن السرور وملازمة الكآبة لتأسف عن فائت أو توجع لممتنع وانما كان من منازل العوام لان فيه نسيان المنة والبقاء في رق الطبع وهو في مسالك الخواص حجاب لان معرفة الله جلا نورها كل ظلمة وكشف سرورها كل غمة فبذلك فليفرحوا وقيل أوحى الله الى داود يا داود بي فافرح وبذكري فتلذذ وبمعرفتي فافتخر فعما قليل أفرغ الدار من الفاسقين وأنزل نقمتي على الظالمين اعلم أن الحزن من عوارض الطريق ليس من مقامات الايمان ولا من منازل السائرين ولهذا لم يأمر الله به في موضع قط ولا أثنى عليه ولا رتب عليه جزاء ولا ثوابا بل نهى عنه في غير موضع كقوله ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الاعلون ان كنتم مؤمنين وقال ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون وقال فلا تأس على القوم الفاسقين وقال اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا فالحزن هو بلية من البلايا التي نسأل الله دفعها وكشفها ولهذا يقول أهل الجنة الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن فحمدوه على ان أذهب عنهم تلك البلية ونجاهم منها وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه كان يقول في دعائه اللهم اني أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل وضلع الدين وغلبة الرجال فاستعاذ صلى الله عليه وسلم من ثمانية اشياء كل شيئين منها قرينان فالهم والحزن قرينان وهما الالم الوارد على القلب فان كان على ما مضى فهو الحزن وان كان على ما يستقبل فهو الهم فالالم الوارد ان كان مصدره فوت الماضي أثر الحزن وان كان مصدره خوف الآتي أثر الهم والعجز والكسل قرينان فان تخلف مصلحة العبد وكماله عنه ان كان من عدم القدرة فهو عجز وان كان من عدم الارادة فهو كسل والجبن والبخل قرينان فان الاحسان يفرح القلب ويشرح الصدر ويجلب النعم ويدفع النقم وتركه يوجب الضيم والضيق ويمنع وصول النعم اليه فالجبن ترك الاحسان بالبدن والبخل ترك الاحسان بالمال وغلبة الدين وقهر الرجال قرينان فان القهر والغلبة الحاصلة للعبد اما منه واما من غيره وان شئت قلت اما بحق واما بباطل من غيره

كان فيــه ثلاث من كان الله و رسوله أحب اليه ممـا سواهما وان يحب المرء لا يحبه الا لله وان يكره أن يرجـع فى الـكفر بعد اذ أنقذه الله تعالى منــه كما يكره أن يلقى فى النار وفى الصحيحين أيضا عنه قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليــه من ولده ووالده والناس أجمعين ولهــذا اتفقت دعوة الرسل من أولهم الى آخرهم على عبادة الله وحده لا شريك له وأصــل العبادة وتمـامها وكمالها هو المحبــة وافراد الرب سبحانه بها فلا يشرك العبد به فيها غــيره والـكلمة المتضمنة لهــذين الاصلين هى الـكلمة التى لا يدخــل فى الاســلام الا بهـا ولا يعصم دمه وماله الا بالاتيان بها ولا ينجو من عذاب الله الا بتحقيقها بالقلب واللسان وذكرها أفضل الذكر كما فى صحيح ابن حبان عنه صلى الله تعالى عليه وســلم أفضل الذكر لا إله إلا الله والآية المتضمنة لها ولتفضيلها سـيدة آى القرآن والسورة المختصة بتحقيقها تعدل ثلث القرآن وبها أرســل الله سبحانه جميع رســله وأنزل جميع كتبه وشرع جميع شرائعه قياما بحقها وتـكميلا لها وهى التى يدخل بهـا العبد على ربه و يصــير فى جواره وهى مفزع أوليائه وأعدائه فان أعداءه اذا مسهم الضر فى البر والبحر فزعوا الى توحيده وتبرؤا من شركهم ودعوه مخلصين له الدين وأما أولياؤه فهى مفزعهم فى شدائد الدنيا والآخرة ولهــذا كانت دعوات المكروب لا إله إلا الله العظــيم الحليم لا إله إلا الله رب العرش العظــيم لا إله إلا الله رب السموات ورب الارض رب العرش الـكـريم ودعوة ذى النون التى ما دعا بها مكروب الا فرج الله كربه لا إله إلا أنت سـبحانك انى كنت من الظالمين وقال ثوبان رضى الله تعالى عنه كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم اذا راعه أمر قال الله ربى لا أشرك به شيأ وفى لفظ قال هو الله لا شريك له وقالت أسماء بنت عميس علمنى رسول الله صلى الله تعـالى عليه وسلم كلمـات أقولها عنــد الـكرب الله الله ربى لا أشرك به شيأ وفى الترمذى من حديث ابراهيم بن محمد بن سعد عن أبيه عن جده عن النبى صلى الله تعـالى عليه وسـلم قال دعوة يونس اذ نادى فى بطن الحوت لا إله إلا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين فانه لم يدع بها مسلم فى شئ الا استجيب له وفى مسند الامام أحــد مرفوعا دعوات المـكروب اللهــم رحمتك أرجو فلا تـكلنى الى نفسى طرفة عين وأصلح لى شأنى كله لا إله الا أنت فالتوحيــد ملجأ الطالبين ومفزع الهاربين ونجاة المكروبين وغياث الملهوفين وحقيقة افراد الرب سبحانه بالمحبة والاجلال والتعظيم والذل والخضوع

(فصل) فاذا عرف ان كل حركة فأصلها الحب والارادة فلا بد من محبوب مراد لنفسه لا يطلب و يحب غــيره اذ لو كان كل محبوب يحب لغــيره لزم الدور أو التسلسل فى العلل

والمقصود أن النبى جعل الحزن مما يستعاذ منــه وذلك إلا ان الحزن يضعف القلب ويوهن العزم و يضر الارادة ولا شئ أحب الى الشيطان من حزن المؤمن قال تعالى انما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا فالحزن مرض من أمراض القلب يمنعه من نهوضه وسيره وتشميره والثواب عليه ثواب المصائب التى يبتلى العبــد بها بغير اختياره كالمرض والالم ونحوهــما واما أن يكون عبادة مأمورا بتحصيلها وطلبها فلا ففرق بين ما يثاب عليه العبد من المامورات وما يثاب عليه من البليات ولكن يحمد فى الحزن سببه ومصدره ولازمه لا ذاته فان المؤمن اما أن يحزن على تفريطه وتقصيره فى خدمة ربه وعبوديته واما أن يحزن على تورطه فى مخالفته ومعصيته وضياع أيامــه وأوقاته وهذا يدل على صحة الايمان فى قلبه وعلى حياته حيث شــغل قلبه بمثل هذا الالم فحزن عليه ولو كان قلبه ميتا لم يحس بذلك ولم يحــزن ولم يتالم * فما لجرح بميت ايلام * وكلما كان قلبه أشد حياة كان شعوره بهــذا الالم أقوى ولـكن الحزن لا يجدى عليه فانه يضعفه كما تقدم بل الذى ينفعه أن يستقبل السير ويجد ويشمر ويبذل جهده وهذا نظير من انقطع عن رفقته فى السفر فجلس فى الطــريق حزينا كئيبا يشهد انقطاعــه ويحدث نفســه باللحاق بالقوم فـكلما فتر وحزن حــدث نفســه باللحاق برفقته ووعدها ان صبرت أن تلحق بهم و يزول عنها وحشــة الانقطاع فهكذا السالك الى منازل الابرار وديار المقــربين وأخص من هذا الحزن حزنه على قطع الوقت بالتفرقة المضــعفة للقلب عن تمام سيره وجده فى سلوكه فان التفرقة من أعظم البلاء على السالك ولاسيما فى ابتــداء أمره فالاول حزن على التفريط فى الاعمـال وهــذا حزن على نقص حاله مع الله وتفرقة قلبه وكيف صار وقته ظرفا للتفرقة حاله واشتغال قلبه بغير معبوده وأخص من هــذا الحزن حزنه على جزء من اجزاء قلبــه كيف هو خال عن محبة الله وعلى جزء من أجزاء بدنه كيف هو متصرف فى غــير محاب الله فهذا حزن الخاصــة و يدخل فى هذا حزنهم على كل معارض يشغلهم عما هم بصدده من خاطر أو ارادة أو شاغل من خارج فهذه المراتب من الحزن لا بد منها فى الطريق ولـكن الـكيس لا يدعها تملكه وتقــعده بل يجعل عوض فـكرته فيها فـكرته فــيما يدفعها به فان المـكروه اذا ورد على النفس فان كانت صــغيرة اشتغلت بفـكرها فيــه وفى حصوله عن الفـكرة فى الاســباب التى يدفعه به فأورثها الحزن وان كانت نفسا

كبيرة شريفة لم تفكر فيه بل تصرف فكرها الى ما ينفعها فان علمت منه مخرجا فكرت في طريق ذلك المخرج وأسبابه وان علمت انه لا مخرج منه فكرت في عبودية الله فيه وكان ذلك عوضا لها من الحزن فعلى كل حال لا فائدة لها في الحزن أصلا والله أعلم وقال بعض العارفين ليست الخاصة من الحزن في شيء وقوله معرفة الله جلا نورها كل ظلمة وكشف سرورها كل غمة كلام في غاية الحسن فان من عرف الله أحبه ولابد ومن أحبه انقشعت عنه سحائب الظلمات وانكشفت عن قلبه الهموم والغموم والاحزان وعمر قلبه بالسرور والافراح وأقبلت اليه وفود التهاني والبشائر من كل جانب فانه لا حزن مع الله أبدا ولهذا قال حكاية عن نبيه انه قال لصاحبه لا تحزن ان الله معنا فدل انه لا حزن مع الله وان من كان الله معه فماله وللحزن وانما الحزن كل الحزن لمن فاته الله فمن حصل الله له فعلى أي شيء يحزن ومن فاته الله فبأي شيء يفرح قال تعالى قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا فالفرح بفضله ورحمته تبع للفرح به سبحانه فالمؤمن يفرح بربه أعظم من فرح كل أحد بما يفرح به من حبيب أو حياة أو مال أو نعمة أو ملك يفرح المؤمن بربه أعظم من هذا كله ولا ينال القلب حقيقة الحياة حتى يجد طعم هذه الفرحة والبهجة فيظهر سرورها في قلبه ونضرتها في وجهه فيصير له حال من حال أهل الجنة حيث لقاهم الله نضرة وسرورا فلمثل هذا فليعمل العاملون وفي ذلك فليتنافس المتنافسون فهذا هو العلم الذي شمر اليه أولو الهمم والعزائم واستبق اليه أصحاب الخصائص والمكارم

تلك المكارم لا قعبان من لبن
شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

(فصل) والمثال السابع الخوف قال أبو العباس هو الانخلاع عن طمأنينة الامن والتيقظ لنداء الوعيد والحذر من سطوة العقاب وهو من منازل العوام أيضا وليس في منازل الخواص خوف لانه لا أمان للغافل انما يعبد مولاه على وحشة من نظره ونفرة من الانس به عند ذكره ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم وأما الخواص أهل الاختصاص فانهم جعلوا الوعيد منه وعدا والعذاب فيه عذبا لانهم شاهدوا المبتلي في البلاء والمعذب في العذاب فاستعذبوا ما وجدوا في جنب ما شاهدوا وفي ذلك قال قائلهم

سقمي في الحب عافيتي * ووجودي في الهوى عدمي

والغايات وهو باطل باتفاق العقلاء والشيء قد يحب من وجه دون وجه وليس شيء يحب لذاته من كل وجه الا الله عز وجل وحده الذي لا تصلح الالوهية الا له فلو كان في السموات والارض آلهة الا الله فسدتا والالهية التي دعت الرسل أممهم الى توحيد الرب بها هي العبادة والتأله ومن لوازمها توحيد الربوبية الذي أقر به المشركون فاحتج الله عليهم به فانه يلزم من الاقرار به الاقرار بتوحيد الالهية

(فصل) وكل حي فله ارادة وعمل بحسبه وكل متحرك فله غاية يتحرك اليها ولا صلاح له الا أن يكون غاية حركته ونهاية مطلبه هو الله وحده كما لا وجود له الا أن يكون الله وحده هو ربه وخالقه فوجوده بالله وحده وكماله أن يكون لله وحده فما لا يكون به لا يكون وما لا يكون له لا ينفع ولا يدوم ولهذا قال تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا ولم يقل لعدمتا اذ هو سبحانه قادر على أن يبقيهما على وجه الفساد لكن لا يمكن أن تكون صالحة الا بأن يكون فاطرهما وخالقهما هو المعبود وحده لا شريك له فان صلاح الاعمال والحركات بصلاح نياتها ومقاصدها فكل عمل فهو تابع لنية عامله وقصده وارادته وتقسم الاعمال الى صالح وفاسد هو باعتبارها في ذواتها تارة وباعتبار مقاصدها ونياتها تارة وأما تقسيم المحبة والارادة الى نافعة وضارة فهو باعتبار متعلقها ومحبوبها ومرادها فان كان المحبوب المراد هو الذي لا ينبغي أن يحب لذاته ويراد لذاته الا هو وهو المحبوب الاعلى الذي لا صلاح للعبد ولا فلاح ولا نعيم ولا سرور الا بأن يكون هو وحده محبوبه ومراده وغاية مطلوبه كانت محبته نافعة له وان كان محبوبه ومراده ونهاية مطلبه غيره كانت محبته ضارة له وعذابا وشقاء فالمحبة النافعة هي التي تجلب لصاحبها ما ينفعه من السعادة والنعيم والمحبة الضارة هي التي تجلب لصاحبها ما يضره من الشقاء والالم والعناء

(فصل) اذا تبين هذا فالحي العالم الناصح لنفسه لا يؤثر محبة ما يضره ويشقى به ويتألم به ولا يقع في ذلك الا من فساد تصوره ومعرفته أو من فساد قصده وارادته فالاول جهل والثاني ظلم والانسان خلق في الاصل ظلوما جهولا ولا ينفك عن الجهل والظلم الا بأن يعلمه الله ما ينفعه ويلهمه رشده فمتى أراد به الخير علمه ما ينفعه فخرج به من الجهل ونفعه بما علمه فخرج من الظلم ومتى لم يرد به خيرا أبقاه على أصل الخلقة كما في المسند من حديث عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال ان الله خلق خلقه في ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره فمن أصابه ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل فالنفس تهوى ما يضرها ولا ينفعها لجهلها بمضرته لها تارة ولفساد قصدها تارة ولمجموعهما تارة وقد ذم الله تعالى

في كتابه من أجاب داعي الجهل والظلم فقال فان لم يستجيبوا لك فاعلم انما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ان الله لا يهدي القوم الظالمين وقال ان يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى فأصل كل خير هو العلم والعدل وأصل كل شر هو الجهل والظلم وقد جعل الله سبحانه للعدل المأمور به حدا فمن تجاوزه كان ظالما وله من الذم والعقوبة بحسب ظلمه وعدوانه الذي خرج به عن العدل ولهذا قال تعالى كلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين وقال فمن ابتغى غير زوجته وملك يمينه فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون وقال ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين والمقصود أن محبة الظلم والعدوان سببها فساد العلم أو فساد القصد أو فسادهما جميعا وقد قيل ان فساد القصد من فساد العلم والا فلو علم ما في الضار من المضرة ولوازمها حقيقة العلم لما آثره ولهذا من علم من طعام شهي لذيذ انه مسموم فانه لا يقدم عليه فضعف علمه بما في الضار من وجوه المضرة وضعف عزمه على اجتنابه يوقعه في ارتكابه ولهذا كان الايمان الحقيقي هو الذي يحمل صاحبه على فعل ما ينفعه وترك ما يضره فاذا لم يفعل هذا ولم يترك هذا لم يكن ايمانه على الحقيقة وانما معه من الايمان بحسب ذلك فان المؤمن بالنار حقيقة الايمان حتى كأنه يراها لا يسلك طريقها الموصلة اليها فضلا عن أن يسعى فيها بجهده والمؤمن بالجنة حقيقة الايمان لا تطاوعه نفسه أن يقعد عن طلبها وهذا أمر يجده الانسان في نفسه فيما يسعى فيه في الدنيا من المنافع أو التخلص من المضار

(فصل) اذا تبين هذا فالعبد أحوج شئ الى معرفة ما يضره ليجتنبه وما ينفعه ليحرص عليه ويفعله فيحب النافع ويبغض الضار فتكون محبته وكراهته موافقتين لمحبة الله تعالى وكراهته وهذا من لوازم العبودية والمحبة ومتى خرج عن ذلك أحب ما يسخط ربه وكره ما يحبه فنقصت عبوديته بحسب ذلك وههنا طريقان العقل والشرع أما العقل فقد وضع الله سبحانه في العقول والفطر استحسان الصدق والعدل والاحسان والبر والعفة والشجاعة ومكارم الأخلاق وأداء الأمانات وصلة الأرحام ونصيحة الخلق والوفاء بالعهد وحفظ الجوار ونصر المظلوم والاعانة على نوائب الحق وقرى الضيف وحمل الكل ونحو ذلك ووضع في العقول والفطر استقباح أضداد ذلك ونسبة هذا الاستحسان والاستقباح الى العقول والفطر كنسبة استحسان شرب الماء البارد عند الظمأ وأكل الطعام اللذيذ النافع عند الجوع ولبس ما يدفئه عند البرد فكما لا يمكنه أن يدفع عن نفسه وطبعه استحسان ذلك ونفعه فكذلك لا يدفع عن نفسه وفطرته استحسان صفات

وعذاب ترضونه * فهي أحلى من النعم ومن كان مستغرقا في المشاهدة حل في بساط الانس فلا يبقى للخوف بساحته ألم لان المشاهدة توجب الانس والخوف يوجب القبض ثم ذكر حكاية المضروب الذي ضرب مائة سوط فلم يتألم لاجل نظر محبوبه اليه ثم ضرب سوطا فصاح لما توارى عنه محبوبه قال وقد قيل في قوله تعالى والكافرون لهم عذاب شديد دليل خطابه ان المؤمنين لهم عذاب ولكن ليس بشديد وانما كان عذاب الكافرين شديد الانهم لا يشاهدون المعذب لهم والعذاب على شهود المعذب عذب والثواب على الغفلة من المعطى صعب فالخوف اذا من منازل العوام والكلام على ما ذكره من وجوه أحدها ان الخوف أحد أركان الايمان والاحسان الثلاثة التي عليها مدار مقامات السالكين جميعها وهي الخوف والرجاء والمحبة وقد ذكره سبحانه في قوله قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه فجمع بين المقامات الثلاثة فان ابتغاء الوسيلة اليه هو التقرب اليه بحبه وفعل ما يحبه ثم قال ويرجون رحمته ويخافون عذابه فذكر الحب والخوف والرجاء والمعنى ان الذين يدعونهم من دون الله من الملائكة والانبياء والصالحين يتقربون الى ربهم ويخافونه ويرجونه فهم عبيده كما انكم عبيده فلماذا تعبدونهم من دونه وأنتم وهم عبيد له وقد أمر سبحانه بالخوف منه في قوله فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين فجعل الخوف منه شرطا في تحقق الايمان وان كان الشرط داخلا في الصيغة على الايمان فهو المشروط في المعنى والخوف شرط في حصوله وتحققه وذلك لان الايمان سبب الخوف الحاصل عليه وحصول المسبب شرط في تحقق السبب كما ان حصول السبب موجب لحصول مسببه فانتفاء الايمان عند انتفاء الخوف انتفاء للمشروط عند انتفاء شرطه وانتفاء الخوف عند انتفاء الايمان انتفاء للمعلول عند انتفاء علته فتدبره والمعنى ان كنتم مؤمنين فخافوني والجزاء محذوف مدلول عليه بالاول عند سيبويه وأصحابه أو هو المتقدم نفسه وهو جزاء وان تقدم كما هو مذهب الكوفيين وعلى التقديرين فاداة الشرط قد دخلت على السبب المقتضي للخوف وهو الايمان وكل منهما مستلزم للآخر لكن الاستلزام مختلف وكل منهما منتف عند

الكمال ونفعها واستقباح أضدادها ومن قال ان ذلك لا يعلم بالعقل ولا بالفطرة وانما عرف بمجرد السمع فقوله باطل قد بينا بطلانه فى كتاب المفتاح من ستين وجها وبينا هناك دلالة القرآن والسنة والعقول والفطر على فساد هذا القول والطريق الثانى لمعرفة الضار والنافع من الاعمال السمع وهو أوسع وأبين وأصدق من الطريق الاول لخفاء صفات الافعال وأحوالها ونتائجها وان العالم بذلك على التفصيل ليس هو الا الرسول صلوات الله وسلامه عليه فاعلم الناس وأصحهم عقلا ورأيا واستحسانا من كان عقله ورأيه واستحسانه وقياسه موافقا للسنة كما قال مجاهد أفضل العبادة الرأى الحسن وهو اتباع السنة قال تعالى ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل اليك من ربك هو الحق وكان السلف يسمون أهل الآراء المخالفة للسنة وما جاء به الرسول فى مسائل العلم الخبرية ومسائل الاحكام العملية أهل الشبهات والاهواء لان الرأى المخالف للسنة جهل لا علم وهوى لا دين فصاحبه ممن اتبع هواه بغير هدى من الله تعالى واتبع هواه بغير علم وغايته الضلال فى الدنيا والشقاء فى الآخرة وانما ينتفى الضلال والشقاء عمن اتبع هدى الله الذى أرسل به رسله وأنزل به كتبه كما قال تعالى فاما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى واتباع الهوى يكون فى الحب والبغض كما قال تعالى يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والاقربين ان يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وقال ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى والهوى المنهى عن اتباعه كما يكون هو هوى الشخص فى نفسه فقد يكون أيضا هوى غيره فهو منهى عن اتباع هذا وهذا المضادة كل منهما الهدى الله الذى أرسل به رسله وأنزل به كتبه

(فصل) فمن المحبة النافعة محبة الزوجة وما ملكت يمين الرجل فانها معينة على ما شرع الله سبحانه له النكاح وملك اليمين من اعفاف الرجل نفسه وأهله فلا تطمح نفسه الى سواها من الحرام ويعفها فلا تطمح نفسها الى غيره وكلما كانت المحبة بين الزوجين أتم وأقوى كان هذا المقصود أتم وأكمل قال تعالى هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها وقال ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة وفى الصحيح عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه سئل من أحب الناس اليك فقال عائشة ولهذا كان مسروق رحمه الله يقول اذا حدث عنها حدثتنى الصديقة بنت الصديق حبيبة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم المبرأة من فوق سبع

سموات

اتقاء الآخر لكن جهة الاتقاء مختلفة كما تقدم والمقصود ان الخوف من لوازم الايمان وموجباته فلا يختلف عنه وقال تعالى فلا تخشوا الناس واخشونى وقد أثنى سبحانه على أقرب عباده اليه بالخوف منه فقال عن أنبيائه بعد ان أثنى عليهم ومدحهم انهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا فالرغب الرجاء والرغبة والرهب الخوف والخشية وقال عن ملائكته الذين قد آمنهم من عذابه يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون وفى الصحيح (٢٩٦) عن النبى انه قال انى أعلمكم بالله وأشدكم له خشية وفى لفظ آخر انى أخوفكم لله وأعلمكم بما أتقى وكان صلى الله عليه وسلم يصلى ولصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء وقد قال تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء فكلما كان العبد بالله أعلم كان له أخوف قال ابن مسعود وكفى بخشية الله علما ونقصان الخوف من الله انما هو لنقصان معرفة العبد به فاعرف الناس أخشاهم لله ومن عرف الله اشتد حياؤه منه وخوفه له وحبه له وكلما ازداد معرفة ازداد حياء وخوفا وحبا فالخوف من أجل منازل الطريق وخوف الخاصة أعظم من خوف العامة وهم اليه أحوج وهو بهم أليق ولهم ألزم فان العبد اما أن يكون مستقيما أو مائلا عن الاستقامة فان كان مائلا عن الاستقامة فخوفه من العقوبة على ميله ولا يصح الايمان الا بهذا الخوف وهو ينشأ من ثلاثة أمور أحدها معرفته بالجناية وقبحها والثانى تصديق الوعيد وان الله رتب على المعصية عقوبتها والثالث انه لا يعلم لعله يمنع من التوبة ويحال بينه وبينها اذا ارتكب الذنب فبهذه الامور الثلاثة يتم له الخوف وبحسب قوتها وضعفها تكون قوة الخوف وضعفه فان الحامل على الذنب اما أن يكون عدم علمه بقبحه واما عدم علمه بسوء عاقبته واما أن يجتمع له الامران لكن يحمله عليه اتكاله على التوبة وهو الغالب من ذنوب أهل الايمان فاذا علم قبح الذنب وعلم سوء مغبته وخاف أن لا يفتح له بالتوبة بل يمنعها ويحال بينه وبينها اشتد خوفه هذا قبل الذنب فاذا عمله كان خوفه أشد وبالجملة فمن استقر فى قلبه ذكر الدار الآخرة وجزائها وذكر المعصية والتوعد عليها وعدم الوثوق باتيانه بالتوبة النصوح هاج من قلبه من الخوف ما لا يملكه ولا يفارقه حتى ينجو وأما ان كان مستقيما مع الله فخوفه يكون مع جريان الانفاس لعلمه بان الله مقلب القلوب وما من قلب الا وهو

بين اصبعين من أصابع الرحمن عز وجل فان شاء أن يقيمه أقامه وان شاء أن يزيغه أزاغه وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم و[illegible]
يمينه لا ومقلب القلوب لا ومقلب القلوب وقال بعض السلف القلب أشد تقلبا من القدر اذا استجمعت غليانا وقال بعضهم مثل القلب في
سرعة تقلبه كريشة ملقاة بارض فلاة تقلبها الرياح ظهرا لبطن ويكفي في هذا قوله تعالى واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه فاي قرار لمن هذه
حاله ومن أحق بالخوف منه بل خوفه لازم له في كل حال وان توارى عنه بغلبة حالة أخرى عليه فالخوف حشو قلبه لكن توارى
عنه بغلبة غيره فوجود الشئ غير العلم به فالخوف الاول ثمرة العلم بالوعد والوعيد وهذا الخوف ثمرة العلم بقدرة الله وعزته وجلاله وانه الفعال لما يريد وانه المحرك للقلب المصرف له المقلب له كيف يشاء لا اله الا هو الوجه الثاني قوله ليس في منازل الخواص خوف قد تبين فساده وان الخاصة أشد خوفا من العامة الوجه الثالث قوله العاقل يعبد ربه على وحشة من نظره ونفرة من الانس به عند ذكره ترى الظالمين مشفقين الآية فهذا انما هو وحشة ونفار وهو غير الخوف فان الوحشة انما تنشأ من عدم الخوف وأما الخوف فانه يوجب هروبا الى الله وجمعية عليه وسكونا اليه فهي مخافة مقرونة بحلاوة وطمأنينة وسكينة ومحبة بخلاف خوف المسيء الهارب من الله فانه خوف مقرون بوحشة ونفرة فخوف الهارب اليه سبحانه محشو بالحلاوة والسكينة والانس لا وحشة معه وانما يجد الوحشة من نفسه فله نظران نظر الى نفسه وجنايته فيوجب له وحشة ونظر الى ربه وقدرته عليه وعزه وجلاله فيوجب له خوفا مقرونا بانس وحلاوة وطمانينة الوجه الرابع ان استشهاده بقوله ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم ليس استشهادا
صحيحا فان هذا وصف لحالهم في الآخرة عند معاينة العذاب أو عند الموت فهذا اشفاق مقرون
بالاستيحاش لانه قد علم انه صائر اليه كمن قدم الى العقوبة ورأى أسبابها فهو مشفق منها اذا رآها العلمه بانه صائر اليها فليست الآية من
الخوف المامور به في شئ الوجه الخامس ان الخوف يتعلق بالافعال وأما الحب فانه يتعلق بالذات والصفات ولهذا يزول الخوف في الجنة
وأما الحب فيزداد ولما كان الحب يتعلق بالذات كان من أسمائه سبحانه الودود قال البخاري في صحيحه الحبيب وأما الخوف فانما تعلقه أفعالي

سموات وصح عنه صلى الله تعالى عليه وسلم حبب الى من دنياكم النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة فلا عيب على الرجل في محبته لاهله وعشقه لها الا اذا شغله ذلك عما هو أنفع له من محبة الله ورسوله وزاحم حبه وحب رسوله فان كل محبة زاحمت محبة الله ورسوله بحيث تضعفها وتنقصها فهي مذمومة وان أعانت على محبة الله ورسوله وكانت من أسباب قوتها فهي محمودة ولذلك كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يحب الشراب البارد الحلو ويحب الحلواء والعسل ويحب الخيل وكان أحب الثياب اليه القميص وكان يحب الدباء فهذه المحبة لا تزاحم محبة الله بل قد تجمع الهم والقلب على الفراغ لمحبة الله فهذه محبة طبيعية تتبع نية صاحبها وقصده بفعل ما يحبه فان نوى به القوة على أمر الله تعالى وطاعته كانت قربة وان فعل ذلك بحكم الطبع والميل المجرد لم يثب ولم يعاقب وان فاته درجة من فعله متقربا به الى الله فالمحبة النافعة ثلاثة أنواع محبة الله ومحبة في الله ومحبة ما يعين على طاعة الله تعالى واجتناب معصيته والمحبة الضارة ثلاثة أنواع المحبة مع الله ومحبة ما يبغضه الله تعالى ومحبة ما يقطع عن محبة الله تعالى أو ينقصها فهذه ستة أنواع عليها مدار محاب الخلق فمحبة الله عز وجل أصل المحاب المحمودة وأصل الايمان والتوحيد والنوعان الآخران تبع لها والمحبة مع الله أصل الشرك والمحاب المذمومة والنوعان الآخران تبع لها ومحبة الصور المحرمة وعشقها من موجبات الشرك وكلما كان العبد أقرب الى الشرك وأبعد من الاخلاص كانت محبته بعشق الصور أشد وكلما كان أكثر اخلاصا وأشد توحيدا كان أبعد من عشق الصور ولهذا أصاب امرأة العزيز ما أصابها من العشق لشركها ونجا منه يوسف الصديق عليه السلام باخلاصه قال تعالى كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين فالسوء العشق والفحشاء الزنا فالمخلص قد خلص حبه لله فخلصه من فتنة عشق الصور والمشرك قلبه متعلق بغير الله لم يخلص توحيده وحبه لله عز وجل

(فصل) ومن أبلغ كيد الشيطان وسخريته بالمفتونين بالصور أنه يمني أحدهم انه انما يحب ذلك الامرد أو تلك المرأة الاجنبية لله تعالى لا للفاحشة ويأمره بمواخاته وهذا من جنس المخادنة بل هو مخادنة باطنة كذوات الاخدان اللاتي قال الله تعالى فيهن محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان وقال في حق الرجال محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان فيظهرون للناس أن محبتهم تلك الصورة لله تعالى ويبطنون اتخاذها خدنا يلتذون بها فعلا أو تقبيلا أو تمتعا بمجرد النظر والمخادنة والمعاشرة واعتقادهم ان هذا لله وانه قربة وطاعة هو من أعظم الضلال والغي وتبديل الدين حيث جعلوا ما كرهه الله

سبحانه محبو باله وذلك من نوع الشرك والمحبوب المتخذ من دون الله طاغوت فان اعتقاد كون التمتع بالمحبة والنظر والمخادنة وبعض المباشرة لله وانه حب فيه كفر وشرك كاعتقاد محبي الاوثان في أوثانهم وقد يبلغ الجهل بكثير من هؤلاء الى أن يعتقد أن التعاون على الفاحشة تعاون على الخير والبر وان الجالب محسن الى العاشق جدير بالثواب وانه ساع في دوائه وشفائه وتفريج كرب العشق عنه وان من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة

(فصل) ثم هم بعد هذا الضلال والبغي أربعة أقسام قوم يعتقدون ان هذا لله وهذا كثير في طوائف العامة والمنتسبين الى الفقر والتصوف وكثير من الاتراك وقوم يعلمون في الباطن ان هذا ليس لله وانما يظهرون انه لله خداعا ومكرا وتسترا وهؤلاء من وجه أقرب الى المغفرة من أولئك لما يرجى لهم من التوبة ومن وجه أخبث لانهم يعلمون التحريم ويأتون المحرم وأولئك قد يشتبه الامر على بعضهم كما اشتبه على كثير من الناس أن استماع أصوات الملاهي قربة وطاعة ووقع في ذلك من شاء الله من الزهاد والعباد فلذلك اشتبه على من هو أضعف علما وايمانا أن التمتع بعشق الصور ومشاهدتها ومعاشرتها عبادة وقربة القسم الثالث مقصودهم الفاحشة الكبرى فتارة يكونون من أولئك الضالين الذين يعتقدون أن هذه المحبة التي لا وطء فيها لله تعالى وان الفاحشة معصية فيقولون نفعل شيأ لله تعالى ونفعل أمرا لغير الله تعالى وتارة يكونون من أهل القسم الثاني الذين يظهرون أن هذه المحبة لله وهم يعلمون أن الامر بخلاف ذلك فيجمعون بين الكذب والفاحشة وهم في هذه المخادنة والمواخاة مظاهرون للنكاح فانه يحصل بين هذين من الاقتران والازدواج والمخالطة نظير ما يحصل بين الزوجين وقد يزيد عليه تارة في الكم والكيف وقد ينقص عنه وقد يحصل بينهما من الاقتران ما يشبه اقتران المتواخيين المتحابين في الله لكن الذين آمنوا أشد حبا لله فان المتحابين في الله تعظم تحابهما ويقوى ويثبت بخلاف هذه المواخاة والمحبة الشيطانية ثم قد يشتد بينهما الاتصال حتى يسمونه زواجا ويقولون تزوّج فلان بفلان كما يفعله المستهزؤن بآيات الله تعالى ودينه من مجان الفسقة ويقرهما الحاضرون على ذلك ويضحكون منه ويعجبهم مثل ذلك المزاح والنكاح وربما يقول بعض زنادقة هؤلاء الامرد حبيب الله والملتحي عدو الله وربما اعتقد كثير من المردان أن هذا صحيح وأنه مراد بقوله اذا أحب الله العبد نادى ياجبريل اني أحب فلانا الحديث وأنه يوضع له المحبة في الارض فيحبه أن يحب ويفتخر بذلك بين الناس ويعجبه أن يقال هو معشوق أو حظوة البلد وان الناس يتغايرون على محبته

ونحو

الرب ولا يخرج عن كون سببه جناية العبد وان كانت جنايته من قدر الله ولهذا قال علي بن أبي طالب لا يرجون عبد الا ربه ولا يخافن عبد الا ذنبه فتعلق الخوف ذنب العبد وعاقبته وهي مفعولات للرب فليس الخوف عائدا الى نفس الذات والفرق بينه وبين الحب أن الحب سببه الكمال وذاته تعالى لها الكمال المطلق وهو متعلق الحب التام وأما الخوف فسببه توقع المكروه وهذا انما يكون في الافعال والمفعولات وبهذا يعلم بطلان قول من زعم أنه سبحانه يخاف لا لعلة ولا لسبب بل كما يخاف السيل الذي لا يدري العبد من أين يأتيه وهذا بناء من هؤلاء على نفي محبته سبحانه وحكمته وانه ليس الا محض المشيئة والارادة التي ترجح مثلا على مثل بلا مرجح ولا يراعى فيها حكمة ولا مصلحة وهؤلاء عندهم الخوف يتعلق بنفس الذات من غير نظر الى فعل العبد وانه سبب المخافة اذ ليس عندهم سبب ولا حكمة بل ارادة محضة يفعل بها ما يشاء من تنعيم وتعذيب وعند هؤلاء فالخوف لازم للعبد في كل حال أحسن أم أساء وليس لافعالهم تاثير في الخوف وهذا من قلة نصيبهم من المعرفة بالله وكماله وحكمته وأين هذا من قول أمير المؤمنين علي لا يرجون عبد الا ربه ولا يخافن الا ذنبه فجعل الرجاء متعلقا بالرب سبحانه لان رحمته من لوازم ذاته وهي سبقت غضبه وأما الخوف فتعلق بالذنب فهو سبب المخافة حتى لو قدر عدم الذنب بالكلية لم تكن مخافة فان قيل فما وجه خوف الملائكة وهم معصومون من الذنوب التي هي أسباب المخافة وشدة خوف النبي صلى الله عليه وسلم مع علمه بان الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وانه أقرب الخلق الى الله قيل عن هذا أربعة أجوبة الجواب الاول ان هذا الخوف على حسب القرب من الله والمنزلة عنده وكلما كان العبد أقرب الى الله كان خوفه منه أشد لانه يطالب بما لا يطالب به غيره و يجب عليه من رعاية تلك المنزلة وحقوقها ما لا يجب على غيره ونظير هذا في الشاهد ان الماثل بين يدي أحد الملوك المشاهد له أشد خوفا منه من البعيد عنه بحسب قربه منه ومنزلته عنده ومعرفته به وبحقوقه وانه يطالب من حقوق الخدمة وأدائها بما لا يطالب به غيره فهو أحق بالخوف من البعيد ومن تصور هذا حق تصوره فهم قوله صلى الله عليه وسلم اني أعلمكم بالله وأشدكم له خشية وفهم قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه أبو داود وغيره من

ونحو ذلك وقد آل الامر بكثير من هؤلاء الى ترجيح وطء المردان على نكاح النسوان وقالوا هو أسلم من الحبل والولادة ومؤنة النكاح والشكوى الى القاضي وفرض النفقة والحبس على الحقوق وربما قال بعضهم ان جماع النساء يأخذ من القوة أكثر ما يأخذ جماع الصبيان لان الفرج يجذب من القوة والماء أكثر ما يجذب المحل الآخر بحكم الطبيعة وقسمت هذه الطائفة المفعول به الى ثلاثة أقسام مؤاجر ومملوك ومعشوق خاص فالاول بازاء البغايا المؤجرات أنفسهن والثاني بازاء الأمة والسرية والثالث بازاء الزوجة أو الاجنبية المعشوقة ويعوض كل منهم بقسم عن نظيره من الاناث وربما فضل بعضهم اتخاذ المردان واستفراشهم على النساء من وجوه وهذا مضادة ومحادة لله ودينه وكتبه ورسله وصنف بعضهم كتابا في هذا الباب وقال في أثنائه باب في المذهب المالكي وذكر فيه الجماع في الدبر من الذكور والاناث وقد علم ان مالكا رحمه الله تعالى من أشد الناس وأسدهم مذهبا في هذا الباب حتى انه يوجب قتل اللوطي حدا بكرا كان أو ثيبا وقوله في ذلك هو أصح المذاهب كما دلت عليه النصوص واتفق عليه أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وان اختلفت أقوالهم في كيفية قتله كما سنذكره ان شاء الله تعالى وسبب غلط هذا وأمثاله انه قد نسب الى مالك رحمه الله تعالى القول بجواز وطء الرجل امرأته في دبرها وهو كذب على مالك وعلى أصحابه فكتبهم كلهم مصرحة بتحريمه ثم لما استقر عند هؤلاء أن مالكا يبيح ذلك نقلوا الاباحة من الاناث الى الذكور وجعلوا الباب واحدا وهذا كفر وزندقة من قائله باجماع الامة ونظير هذا ما يتوهمه كثير من الفسقة وجهال الترك وغيرهم ان مذهب أبي حنيفة رحمه الله تعالى ان هذا ليس من الكبائر وغايته أن يكون صغيرة من الصغائر وهذا من أعظم الكذب والبهت على الائمة فقد أعاذ الله أبا حنيفة وأصحابه من ذلك وشبهة هؤلاء الفسقة الجهلة أنهم لما رأوا أبا حنيفة رحمه الله تعالى لم يوجب فيه الحد كبوا على ذلك انه ليس من كبائر الذنوب بل من صغائرها وهذا ظن كاذب فان أبا حنيفة لم يسقط فيه الحد لخفة أمره وان جرمه عنده وعند جميع أهل الاسلام أعظم من جرم الزنا ولهذا عاقب الله سبحانه أهله بما لم يعاقب به أمة من الامم وجمع عليهم من أنواع العذاب ما لم يجمعه على غيرهم وشبهة من أسقط فيه الحد أن فحش هذا مركوز في طباع الامم فاكتفي فيه بالوازع الطبعي كما اكتفي بذلك في أكل الرجيع وشرب البول والدم ورتب الحد على شرب الخمر لكونه مما تدعو اليه النفوس والجمهور يجيبون عن هذا بان في النفوس الخبيثة المتعدية حدود الله أقوى الداعي لذلك فالحد فيه أولى من الحد في الزنا ولذلك وجب الحد على من وطئ أمه وابنته

حديث زيد بن ثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان الله تعالى لو عذب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ولو رحمهم كانت رحمته لهم خيرا من أعمالهم وليس المراد به لو عذبهم لتصرف في ملكه والمتصرف في ملكه غير ظالم كما يظنه كثير من الناس فان هذا يتضمن مدحا والحديث انما سيق للمدح بخبرا ستحقاق فان حقه سبحانه عليهم اضعاف اضعاف ما أتوا ولهذا قال بعده ولو رحمهم كانت رحمته خيرا لهم من أعمالهم يعني أن رحمته لهم ليست على قدر أعمالهم اذ أعمالهم لا تستقل باقتضاء الرحمة وحقوق عبوديته وشكره التي يستحقها عليهم لم يقوموا بها فلو عذبهم والحالة هذه لكان تعذيبا بحقه وهو غير ظالم لهم فيه ولا سيما فان أعمالهم لا توازي القليل من نعمه عليهم فتبقى نعمه الكثيرة لا مقابل لها من شكرهم فاذا عذبهم على ترك شكرهم وأداء حقه الذي ينبغي له سبحانه عذبهم ولم يكن ظالما لهم فان قيل فهم اذا فعلوا مقدورهم من شكره وعبوديته لم يكن ما عداه مما ينبغي له مقدورا لهم فكيف يحسن العذاب عليه قيل الجواب من وجهين أحدهما أن المقدور للعبد لا يأتي به كله بل لا بد من فتور واعراض وغفلة وتوان وأيضا ففي نفس قيامه بالعبودية لا يوفيها حقها الواجب لها من كمال المراقبة والاجلال والتعظيم والنصيحة التامة لله فيها بحيث يبذل مقدوره كله في تحسينها وتكميلها ظاهرا وباطنا فالتقصير لازم في حال الترك وفي حال الفعل ولهذا سأل الصديق النبي صلى الله عليه وسلم دعاء يدعو به في صلاته قال له قل اللهم اني ظلمت نفسي ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب الا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني انك أنت الغفور الرحيم فاخبر عن ظلمه لنفسه مؤكدا له بان المقتضية ثبوت الخبر وتحققه ثم أكده بالمصدر النافي للتجوز والاستعارة ثم وصفه بالكثرة المقتضية لتعدده وتكثره ثم قال فاغفر لي مغفرة من عندك أي لا ينالها عملي ولا سعيي بل عملي يقصر عنها وانما هي من فضلك واحسانك لا بكسبي ولا باستغفاري وتوبتي ثم قال وارحمني أي ليس معولي الا على مجرد رحمتك فان رحمتني والا فالهلاك لازم لي فليتدبر اللبيب هذا الدعاء وما فيه من المعارف والعبودية وفي ضمنه أنه لو عذبني لعدلت في ولم تظلمني واني لا أنجو الا برحمتك ومغفرتك ومن هذا قوله صلى الله عليه وسلم لن ينجي أحدا منكم عمله قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا الا أن

يتغمده الله برحمته منه وفضل فاذا كان عمل العبد لا يستقل بالنجاة فلو لم ينجه الله فلم يكن قد بخسه شيئا من حقه ولا ظلمه فانه ليس معه ما يقتضي نجاته وعمله ليس وافيا بشكر القليل من نعمه فهل يكون ظالما له لو عذبه وهل تكون رحمته له جزاء لعمله ويكون العمل ثمنا لها مع تقصيره فيه وعدم توفيته ما ينبغي له من بذل النصيحة فيه وكمال العبودية من الحياء والمراقبة والمحبة والخشوع وحضور القلب بين يدي الله في العمل له ومن علم هذا علم السر في (٣٠٠) كون أعمال الطاعات تختم بالاستغفار ففي صحيح مسلم عن ثوبان قال كان رسول الله اذا سلم من صلاته استغفر ثلاثا وقال اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والاكرام قال تعالى كانوا قليلا من الليل ما يهجعون وبالاسحار هم يستغفرون فاخبر عن استغفارهم عقيب صلاة الليل قال الحسن مدوا الصلاة الى السحر فلما كان السحر جلسوا يستغفرون الله وأمر تعالى عباده بالاستغفار عقيب الافاضة في الحج فقال ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله ان الله غفور رحيم وشرع صلى الله عليه وسلم للمتوضئ أن يختم وضوءه بالتوحيد والاستغفار فيقول أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين فهذا ونحوه مما يبين حقيقة الامر وان كل أحد محتاج الى مغفرة الله ورحمته وانه لا سبيل الى النجاة بدون مغفرته ورحمته أصلا الجواب الثاني انه لو فرض ان العبد يأتي بمقدوره كله من الطاعة ظاهرا وباطنا فالذي ينبغي لربه فوق ذلك واضعاف اضعافه فاذا عجز العبد عنه لم يستحق ما يترتب عليه من الجزاء والذي أتى به لا يقابل أقل النعم فاذا حرم جزاء العمل الذي ينبغي للرب من عبده كان ذلك تعذيبا له ولم يكن الرب ظالما له في هذا الحرمان ولو كان عاجزا عن أسبابه فانه لم يمنعه حقا يستحقه عليه فيكون ظالما بمنعه فاذا أعطاه الثواب كان مجرد صدقة منه وفضل تصدق بها عليه لا ينالها عمله بل هي خير من عمله وأفضل وأكثر ليست معاوضة عليه والله أعلم الجواب الثالث عن السؤال الاول ان العبد اذا علم ان الله سبحانه هو مقلب القلوب وانه يحول بين المرء وقلبه وانه تعالى كل يوم هو في شأن يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد وانه يهدي من يشاء ويضل من يشاء ويرفع من يشاء ويخفض من يشاء فما يؤمنه ان يقلب الله قلبه

وخالته وجدته وان كان في النفوس وازع وزاجر طبعي عن ذلك بل حد هذا القتل بكل حال بكرا كان أو محصنا في أصح الاقوال وهو مذهب أحمد وغيره وهذا ونفرة النفوس عن ذلك أعظم بكثير من نفرتها عن المردان ونظير هذا الظن الكاذب والغلط الفاحش ظن كثير من الجهال ان الفاحشة بالمملوك كالمباحة أو مباحة أو انها أيسر من ارتكابها من الحر وتأولت هذه الفرقة القرآن على ذلك وأدخلت المملوك في قوله الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم حتى ان بعض النساء لتمكن عبدها من نفسها وتتأول القرآن على ذلك كما رفع الى عمر بن الخطاب امرأة تزوجت عبدها وتأولت هذه الآية ففرق عمر رضي الله عنه بينهما وأدبها وقال ويحك انما هذا للرجال لا للنساء ومن تأول هذه على وطء الذكران من المماليك فهو كافر باتفاق الأمة قال شيخنا ومن هؤلاء من يتأول قوله تعالى ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم على ذلك قال قد سألني بعض الناس عن هذه الآية وكان ممن يقرأ القرآن فظن أن معناها في اباحة ذكران العبيد المؤمنين قال ومنهم من يجعل ذلك مسألة نزاع يبيحه بعض العلماء ويحرمه بعضهم ويقول اختلافهم شبهة وهذا كذب وجهل فانه ليس في فرق الامة من يبيح ذلك بل ولا في دين من أديان الرسل وانما يبيحه زنادقة العالم الذين لا يؤمنون بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر قال ومنهم من يقول هو مباح للضرورة مثل أن يبقى الرجل أربعين يوما لا يجامع الى أمثال هذه الامور التي خاطبني فيها وسألني عنها طوائف من الجند والعامة والفقراء قال ومنهم من قد بلغه خلاف بعض العلماء في وجوب الحد فيه فظن ان ذلك خلاف في التحريم ولم يعلم أن الشيء قد يكون من أعظم المحرمات كالميتة والدم ولحم الخنزير وليس فيه حد مقدر ثم ذلك الخلاف قد يكون قولا ضعيفا فيتولد من ذلك القول الضعيف الذي هو من خطأ بعض المجتهدين وهذا الظن الفاسد الذي هو خطأ بعض الجاهلين تبديل الدين وطاعة الشيطان ومعصية رب العالمين فاذا انضافت الاقوال الباطلة الى الظنون الكاذبة واعانتها الاهوية الغالبة فلا تسأل عن تبديل الدين بعد ذلك والخروج عن جملة الشرائع بالكلية ولما سهل هذا الامر في نفوس كثير من الناس صار كثير من المماليك يتمدح بانه لا يعرف غير سيده وانه لم يطأه سواه كما تتمدح الامة والمرأة بانها لا تعرف غير سيدها وزوجها وكذلك كثير من المردان يتمدح بانه لا يعرف غير خدينه وصديقه أو مؤاخيه أو معلمه وكذلك كثير من الفاعلين يتمدح بانه عفيف عما سوى خدنه الذي هو قرينه وغيره كالزوجة أو عما سوى مملوكه الذي هو كسريته ومنهم من يرى ان التحريم انما هو اكراه الصبي على فعل الفاحشة فاذا كان مختارا راضيا

و يحول بينه و بينه و يزيغه بعد اقامته وقد أثنى الله على عباده المؤمنين بقولهم ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا فلولا خوف الازاغة لما سألوه
أن لا يزيغ قلوبهم وكان من دعاء النبي اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك ومثبت القلوب ثبت قلوبنا على دينك وفي الترمذي
عنه صلى الله عليه وسلم انه كان يدعو أعوذ بعزتك أن تضلني أنت الحي الذي لا تموت وكان من دعائه اللهم انى أعوذ برضاك من سخطك
وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك فاستعاذ بصفة الرضا من صفة الغضب وبفعل العافية من فعل العقوبة واستعاذته

راضيا لم يكن بذلك بأس فكان المحرم عنده من ذلك انما هو الظلم والعدوان باكراه المفعول به قال شيخنا وحكى لى من أثق به ان بعض هؤلاء أخذ على هذه الفاحشة فحكم عليه بالحد فقال والله هو ارتضى بذلك وما أكرهته ولا غصبته فكيف أعاقب فقال نصير المشركين وكان حاضرا هذا حكم محمد بن عبد الله ليس لهؤلاء ذنب ومن هؤلاء من يعتقد ان العشق اذا بلغ بالعاشق الى حد يخاف معه التلف أبيح له وطء معشوقه للضرورة وحفظ النفس كما يباح له الدم والميتة ولحم الخنزير فى المخمصة وقد يبيح هؤلاء شرب الخمر على وجه التداوى وحفظ الصحة اذا سلم من معرة السكر ولا ريب ان الكفر والفسوق والمعاصى درجات كما ان الايمان والعمل الصالح درجات كما قال تعالى هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون وقال ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون وقال انما النسىء زيادة فى الكفر وقال فأما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا وهم يستبشرون وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا الى رجسهم ونظائره فى القرآن كثيرة ومن أخف هؤلاء جرما من يرتكب ذلك معتقدا تحريمه وانه اذا قضى حاجته قال أستغفر الله فكان ما كان لم يكن فقد تلاعب الشيطان باكثر هذا الخلق كتلاعب الصبيان بالكرة وأخرج لهم أنواع الكفر والفسوق والعصيان فى كل قالب وبالجملة فراتب الفاحشة متفاوتة بحسب مفاسدها فالمتخذ خدنا من النساء والمتخذة خدنا من الرجال أقل شرا من المسافح والمسافحة مع كل أحد والمستخفى بما يرتكبه أقل اثما من المجاهر المستعلن والكاتم له أقل اثما من المخبر المحدث للناس به فهذا بعيد من عافية الله تعالى وعفوه كما قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كل أمتى معافى الا المجاهرين وان من المجاهرة أن يستر الله تعالى عليه ثم يصبح يكشف ستر الله عنه يقول يا فلان فعلت البارحة كذا وكذا فيبيت ربه يستره و يصبح يكشف ستر الله عن نفسه أو كما قال وفى الحديث الآخر عنه صلى الله تعالى عليه وسلم من ابتلى من هذه القاذورات بشئ فليستتر بستر الله فانه من يبد لنا صفحته نقم عليه كتاب الله وفى الحديث الآخر ان الخطيئة اذا خفيت لم تضر الا صاحبها ولكن اذا أعلنت فلم تنكر ضرت العامة وكذلك الزنا بالمرأة التى لا زوج لها أيسر اثما من الزنا بذات الزوج لما فيه من ظلم الزوج والعدوان عليه وافساد فراشه عليه وقد يكون اثم هذا أعظم من اثم مجرد الزنا أو دونه والزنا بحليلة الجار أعظم اثما من الزنا ببعيدة الدار لما اقترن بذلك من أذى الجار وعدم حفظ وصية الله تعالى ورسوله به وكذلك الزنا بامرأة الغازى فى سبيل الله أعظم اثما عند الله من الزنا بغيرها ولهذا يقام له يوم القيامة ويقال خذ من حسناته ماشئت وكما تختلف درجاته بحسب المزنى بها فكذلك تتفاوت درجاته بحسب

منه باعتبارين وكان استعاذته منه جعالما فصله فى الجملتين قبله فان الاستعاذة به منه ترجع الى معنى الكلام قبلها مع تضمنها فائدة شريفة وهى كمال التوحيد وان الذى يستعيذ به العائذ ويهرب منه انما هو فعل الله ومشيئته وقدره فهو وحده المنفرد بالحكم فاذا أراد بعبده سوأ لم يعذه منه الا هو فهو الذى يريد به ما يسوءه وهو الذى يريد دفعه عنه فصار سبحانه مستعاذا به منه باعتبار الارادتين وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو فهو الذى يمس بالضر وهو الذى يكشفه لا اله الا هو فالمهرب منه اليه والفرار منه اليه والعياذ منه اليه كما ان الاستعاذة منه فانه لا رب غيره ولا مدبر للعبد سواه فهو الذى يحركه ويقلبه و يصرفه كيف يشاء الجواب الرابع ان الله سبحانه هو الذى يخلق أفعال العبد الظاهرة والباطنة فهو الذى يجعل الايمان والهدى فى القلب ويجعل فيه التوبة والانابة والاقبال والمحبة والتفويض واضدادها والعبد فى كل لحظة مفتقر الى هداية يجعلها الله فى قلبه وحركات يحركه بها فى طاعته وهذا الى الله سبحانه فهو خلقه وقدره وكان من دعاء النبى صلى الله عليه وسلم اللهم آت نفسى تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها
وعلم حصين بن المنذر أن يقول اللهم ألهمنى رشدى وقنى شر نفسى وعامة أدعيته صلى الله عليه وسلم متضمنة لطلب توفيق ربه
وتزكيته له واستعماله فى محابه فمن هداه وصلاحه وأسباب نجوته بيد غيره وهو المالك له ولها المتصرف فيه بما يشاء ليس من أمره
شئ من أحق بالخوف منه وهب انه قد خلق له فى الحال الهداية فهل هو على يقين وعلم ان الله سبحانه يخلقها له فى المستقبل ويلهمه رشده
أبدا فعلم ان خوف المقربين عند ربهم أعظم من خوف غيرهم والله المستعان ومن ههنا كان خوف السابقين من فوات الايمان

كما قال بعض السلف أنتم تخافون الذنب وأنا أخاف الكفر وكان عمر بن الخطاب يقول لحذيفة نشدتك الله هل سماني لك رسول الله يعني في المنافقين فيقول لا ولا أزكي بعدك أحدا يعني لا أفتح على هذا الباب في سؤال الناس لي وليس مراده انه لم يخلص من النفاق غيرك
الوجه السادس قوله وأما الخواص فانهم جعلوا الوعيد منه وعدا والعذاب فيه عذبا لانهم شاهدوا المبتلي والمعذب فاستعذبوا ما وجدوا في جنب ما شاهدوا الى آخر كلامه فيقال (٣٠٢) هذا الكلام ونحوه من رعونات النفس ومن الشطحات التي يجب انكارها فمن الذي

الزمان والمكان والاحوال وبحسب الفاعل فالزنا في رمضان ليلا أو نهارا أعظم اثما منه في غيره وكذلك في البقاع الشريفة المفضلة هو أعظم اثما منه فيما سواها وأما تفاوته بحسب الفاعل فالزنا من الحر أقبح منه من العبد ولهذا كان حده على النصف من حده ومن المحصن أقبح منه من البكر ومن الشيخ أقبح منه من الشاب ولهذا كان أحد الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم الشيخ الزاني ومن العالم أقبح منه من الجاهل لعلمه بقبحه وما يترتب عليه واقدامه على بصيرة ومن القادر على الاستغناء عنه أقبح من الفقير العاجز

(فصل) ومما ينبغي أن يعلم انه قد يقترن بالايسر اثما ما يجعله أعظم اثما مما هو فوقه مثاله انه قد يقترن بالفاحشة من العشق الذي يوجب اشتغال القلب بالمعشوق وتألهه له وتعظيمه والخضوع له والذل له وتقديم طاعته وما يأمر به على طاعة الله تعالى ورسوله وأمره فيقترن بمحبة خدنه وتعظيمه وموالاة من يواليه ومعاداة من يعاديه ومحبة ما يحبه وكراهة ما يكرهه ما قد يكون أعظم ضررا على صاحبه من مجرد ركوب الفاحشة فان المحبوبات لغير الله قد أثبت الشارع فيها اسم التعبد كقوله عليه السلام في الحديث الصحيح تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم تعس عبد القطيفة تعس عبد الخميصة تعس وانتكس واذا شيك فلا انتقش ان أعطي رضي وان منع سخط رواه البخاري فسمى هؤلاء الذين ان أعطوا رضوا وان منعوا سخطوا عبيدا لهذه الاشياء لانتهاء محبتهم ورضاهم ورغبتهم اليها فاذا شغف الانسان بمحبة صورة لغير الله بحيث يرضيه وصوله اليها وظفره بها ويسخطه فوات ذلك كان فيه من التعبد لها بقدر ذلك ولهذا يجعلون الحب مراتب أوله العلاقة ثم الصبابة ثم الغرام ثم العشق وآخر ذلك التتيم وهو التعبد للمعشوق فيصير العاشق عبدا لمعشوقه والله سبحانه انما حكى عشق الصور في القرآن عن المشركين فحكاه عن امرأة العزيز وكانت مشركة على دين زوجها وكانوا مشركين وحكاه عن اللوطية وكانوا مشركين فقال تعالى في قصتهم لعمرك انهم لفي سكرتهم يعمهون وأخبر سبحانه انه يصرفه عن أهل الاخلاص فقال كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين وقال عن عدوه ابليس انه قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين وقال تعالى ان عبادي ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين والغاوي ضد الراشد والعشق المحرم من أعظم الغي ولهذا كان اتباع الشعراء وأهل السماع الشعري غاوين كما سماهم تعالى بذلك في قوله والشعراء يتبعهم الغاوون فالغاوون يتبعون الشعراء وأصحاب السماع الشعري الشيطاني وهؤلاء

جعل وعيد الله وعدا وعقابه ثوابا وعذابه عذبا وهل هذا الانكار لوعيده وعذابه في الحقيقة وأي عذاب أشد من عذابه نعوذ بالله منه قال تعالى ولكن عذاب الله شديد وقال فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد وهذا أظهر في كل ملة من ان يحتاج الى الاستدلال عليه وانما ينسب هذا المذهب الى الملاحدة من القائلين بوحدة الوجود كما قال قائلهم

ولم يبق الا صادق الوعد وحده
فما لوعيد الحق غير تعاين
وان دخلوا دار الشقاء فانهم
على لذة فيها نعيم مباين
يسمى عذابا من عذوبة طعمه
وذاك له كالقشر والقشر صائن
نعيم جنان الخلد والامر واحد
وبينهما عند التجلي تباين

فهذا القائل خط على تلك النقطة التي نقطها أبو العباس ولعل الكلامين من مشكاة واحدة وهذا مباين للمعلوم بالاضطرار من دين الرسل وما أخبرت به عن الله وأخبر به على لسان رسوله فان قيل ليس مراده ما ذكرتم وفهمتم من كلامه وانما مراده انه سبحانه اذا ابتلى عبده في الدنيا فهو لكمال محبته له يتلذذ بتلك البلوى ويعدها نعمة وليس مراده عذاب الآخرة قيل قوله عن الخواص انهم جعلوا الوعيد منه وعدا ينفي ما ذكرتم من التأويل فان ابتلاء الدنيا غير الوعيد وأيضا فانه في مقام الخوف ونفيه عن الخاصة محتجا عليه بانهم يرون العذاب عذبا والوعيد وعدا فالهم والخوف هذا مقصوده من سياق كلامه واحتجاجه عليه بهذا الهذيان الذي يسخر منه العقلاء بل نحن لا ننكر ان العبد اذا تمكن حب الله في قلبه حتى ملأ جميع أجزائه فانه قد يتلذذ بالبلوى أحيانا وليس ذلك دائما ولا كثيرا ولكنه يعرض عند هيجان الحب وغلبة الشوق فيقهر شهود الالم ثم يراجع طبيعته فيذوق الالم ولكن أين هذا من

لا

لا ينفكون عن طلب وصال أو سؤال نوال كما قال أبو تمام لرجل أما تعرفني فقال ومن أعرف بك مني

أنت بين اثنتين تبرز للنا * س وكلتاهما بوجه مذال
لست تنفك طالبا لوصال * من حبيب أو راجيا لنوال
أي ماء يبقى لوجهك هذا * بين ذل الهوى وذل السؤال

والزنا بالفرج وان كان أعظم من الالمام بالصغيرة كالنظر والقبلة واللمس لكن اصرار الفاسق على محبة الفعل وتوابعه ولوازمه وتمنيه له وحديث نفسه به انه لا يتركه واشتغال قلبه بالمعشوق قد يكون أعظم ضررا من فعل الفاحشة مرة بشئ كثير فان الاصرار على الصغيرة قد يساوي اثمه اثم الكبيرة أو يربي عليها وأيضا فان تعبد القلب للمعشوق شرك وفعل الفاحشة معصية ومفسدة الشرك أعظم من مفسدة المعصية وأيضا فانه قد يتخلص من الكبيرة بالتوبة والاستغفار وأما العشق اذا تمكن من القلب فانه يعز عليه التخلص منه كما قال القائل

بالله ما أسرت لواحظك امرأ * الا وعز على الورى استنقاذه

بل يصير تعبدا لازما للقلب لا ينفك عنه ومعلوم ان هذا أعظم ضررا وفسادا من فاحشة يرتكبها مع كراهية لها وقلبه غير معبد لمن ارتكبها منه وقد أخبر الله سبحانه ان سلطان الشيطان انما هو على الذين يتولونه والذين هم به مشركون وان سلطانه انما هو على من اتبعه من الغاوين والغي اتباع الهوى والشهوات كما ان الضلال اتباع الظنون والشبهات وأصل الغي من الحب لغير الله فانه يضعف الاخلاص به ويقوي الشرك بقوته فأصحاب العشق الشيطاني لهم من تولي الشيطان والاشراك به بقدر ذلك لما فيهم من الاشراك بالله ولما فاتهم من الاخلاص له ففيهم نصيب من اتخاذ الانداد ولهذا ترى كثيرا منهم عبدا لذلك المعشوق متيما فيه يصرخ في حضوره ومغيبه انه عبده فهو أعظم ذكرا له من ربه وحبه في قلبه أعظم من حب الله فيه وكفى به شاهدا بذلك على نفسه فالانسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره فلو خير بين رضاه ورضا الله لاختار رضا معشوقه على رضا ربه ولقاء معشوقه أحب اليه من لقاء ربه وتمنيه لقربه أعظم من تمنيه لقرب ربه وهربه من سخطه عليه أشد من هربه من سخط ربه يسخط ربه بمرضاة معشوقه ويقدم مصالح معشوقه وحوائجه على طاعة ربه فان فضل من وقته فضلة وكان عنده قليل من الايمان صرف تلك الفضلة في طاعة ربه وان استغرق الزمان حوائج معشوقه ومصالحه صرف زمانه كله فيها وأهمل أمر الله تعالى يجود لمعشوقه بكل نفيسة ونفيس ويجعل

فجعل الوعيد وعدا والعذاب عذبا وان أحسن الظن بصاحب هذا الكلام ظن به انه ورد عليه وارد من الحب يخيل في نفسه ان محبوبه اذا تواعده كان ذلك منه وعدا وان عذبه كان عذابه عنده عذبا لموافقته مراد محبوبه وهذا خيال فاسد وتقدير في النفس والا فالحقيقة الخارجية تكذب هذا الخيال الباطل بل لو صب عليه أدنى شئ من عذابه لصاح واستغاث وطلب العفو والعافية وحكمة الله تقتضي تعجيز هذه النفوس الجاهلة الرعنة الحمقة بأدنى شئ يكون من الالم والوجع حتى يتبين لها دعاويها الكاذبة وشطحها الباطل وهذا سيد المحبين وسيد ولد آدم استعاذته بالله من عذابه وبلائه وسؤاله عافيته ومعافاته معلومة في أدعيته وتضرعه الى ربه وابتهاله اليه في ذلك وهي أكثر وأشهر من أن تذكر ههنا انما في سيد المحبين أسوة وقدوة ولكن قد ابتلي كثير من أهل الارادة بالشطح كما ابتلي كثير من أهل الكلام بالشك والمعافى من عافاه الله من هذا وهذا فنسأل الله عافيته ومعافاته الوجه السابع قوله ان عذاب الكافرين انما كان شديدا لانهم لا يشاهدون المعذب لهم والمؤمنون يشاهدونه فلم يكن عذابهم شديدا وليس كذلك فان عذاب الكافرين شديد في نفسه لغلظ جرمهم وهو الكفر وهو دائم لا انقطاع له وأما المؤمنون الذين يعذبون بذنوبهم فعذابهم أضعف من عذاب الكافرين لان عذابهم على الذنوب وهي دون الكفر وهو منقطع والآية لم يرد بها اثبات عذاب المؤمنين دون عذاب الكافرين وانما سيقت لبيان عذاب الكافرين حسب فهو مهانى العذاب عن المؤمنين لا اثبات عذاب غير شديد والله أعلم الوجه الثامن قوله وللخواص الهيبة وهي أقصى درجة يشار اليها في غاية الخوف والخوف يزول بالامن وينتهي به خوف الشخص على نفسه من العقاب فاذا أمن العقاب يزال الخوف والهيبة لا تزول أبدا لانها مستحقة للرب بوصف التعظيم والاجلال وذلك الوصف مستحق على الدوام وهذه المعارضة والهيبة تعارض المكاشف أوقات المناجاة وتصدم المشاهد أحيان المشاهدة وتعصم العائن بصدمة العزة ومنه قال قائلهم

اشتاقه فاذا بدا * أطرقت من اجلاله
لا خيفة بل هيبة * وصيانة لجماله
وأصد عنه تجلدا * وأروم طيف خياله

فيقال من العجائب ان المعنى الذي أمر الله به في كتابه وأثنى به على خاصة عباده وأقربهم اليه وهم أنبياؤه ورسله وملائكته يجعل ناقصا من منازل

لربه من ماله ان جعل له كل رذيلة وخسيس فلمعشوقه لبه وقلبه وهمه ووقته وخالص ماله وربه على الفضلة قد اتخذه وراءه ظهريا وصار لذكره نسيا ان قام فى خدمته فى الصلاة فلسانه يناجيه وقلبه يناجى معشوقه ووجه بدنه الى القبلة ووجه قلبه الى المعشوق ينفر من خدمة ربه حتى كأنه واقف فى الصلاة على الجمر من ثقلها عليه وتكلفه لفعلها فاذا جاءت خدمة المعشوق أقبل عليها بقلبه وبدنه فرحا بها ناصحا له فيها خفيفة على قلبه لا يستثقلها ولا يستطيلها ولا ريب أن هؤلاء من الذين اتخذوا من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله وعشقهم يجمع المحرمات الاربع من الفواحش الظاهرة والباطنة والاثم والبغى بغير الحق والشرك بالله مالم ينزل به سلطانا والقول على الله مالا يعلمون فان هذا من لوازم الشرك فكل مشرك يقول على الله مالا يعلم فكثيرا ما يوجد فى هذا العشق من الشرك الاكبر والاصغر ومن قتل النفوس تغايرا على المعشوق وأخذ أموال الناس بالباطل ليصرفها فى رضا المعشوق ومن الفاحشة والكذب والظلم مالا خفاء به وأصل ذلك كله من خلو القلب من محبة الله تعالى والاخلاص له والتشريك بينه وبين غيره فى المحبة ومن محبة ما يحب لغير الله فيقوم ذلك بالقلب ويعمل بموجبه بالجوارح وهذا هو حقيقة اتباع الهوى وفى الأثر ما تحت أديم السماء اله يعبد أعظم عند الله من هوى متبع وقال تعالى أفرأيت من اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون واذا تأملت حال عشاق الصور المتيمين فيها وجدت هذه الآية منطبقة عليهم مخبرة عن حالهم قال بعض العلماء ليس شئ من المحبوبات يستوعب محبة القلب الا محبة الله أو محبة بشر مثلك أما محبة الله فهى التى خلق لها العباد وبها غاية سعادتهم وكمال نعيمهم وأما البشر المماثل من ذكر أو أنثى فان فيه من المشاكلة والمناسبة بين العاشق وبينه ما ليس مثله بينه وبين جنس آخر من المخلوقات ولهذا لا يعرف فى محبة شئ من المحبوبات المخالفة للمحب فى الجنس ما يزيل العقل ويفسد الادراك ويوجب انقطاع الارادة لغير ذلك المحبوب وانما يعرف ذلك فى محبته لجنسه فتستوعب قلبه وتسلب لبه ويصير لمعشوقه سامعا مطيعا كما قال

ان هواك الذى بقلبى * صيرنى سامعا مطيعا

ويقوى هذا السمع والطاعة عند كثير من العشاق حتى يبذل نفسه ويسلمها للتلف فى طاعة معشوقه كما يبذل المجاهد نفسه لربه حتى يقتل فى سبيله واذا كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد قال فى الحديث الذى رواه أحمد وغيره شارب الخمر أو قال مدمن الخمر

العوام ويقصد الى معنى لم يذكره الله ولا رسوله ولا علق به على المدح والثناء فى موضع واحد فيجعل هو الكمال وهو الخواص من العباد فان فى القرآن والسنة ذكر الهيبة والامر بها ووصف خاصته بها ونحن لا ننكر أن الهيبة من لوازم الايمان وموجباته ولكن المنكر أن يكون الوصف الذى وصف به أنبياءه وملائكته ناقصا والوصف الذى لم يذكره هو الكامل التام وهذا المعنى المعبر عنه بالهيبة حق ولكن لم تجئ العبارة عنه فى القرآن والسنة بلفظ الهيبة وانما جاءت بلفظ الاجلال كقول النبى ان من اجلال الله اجلال ذى الشيبة المسلم وحامل القرآن غير الغالى فيه والجافى عنه والامام العادل فالاجلال هو التعظيم وكذلك الهيبة يوضح هذا الوجه التاسع وهو أن الهيبة والاجلال يجوز تعلقها بالمخلوق كما قال النبى صلى الله عليه وسلم ان من اجلال الله اجلال ذى الشيبة المسلم الحديث وقال ابن عباس عن عمر هبته وكان مهيبا وأما الخشية والمخافة فلا تصلح الا لله وحده قال تعالى فلا تخشوا الناس واخشونى وقال فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين وقال انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين فالخوف عبودية القلب فلا تصلح الا لله كالذل والمحبة والانابة والتوكل والرجاء وغيرها من عبودية القلب وكيف يجعل المهابة المشتركة أفضل منه وأعلى وتأمل قوله تعالى ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون كيف جعل الطاعة لله ولرسوله والخشية والتقوى له وحده وقال لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه كيف جعل التوقير والتعزير للرسول وحده والتوقير هو التعظيم الصادر عن الهيبة والاجلال هذا حقيقته فعلم ان الخوف من أجل مقامات الخواص وانهم اليه أحوج وبه أقوم من غيرهم الوجه العاشر قوله الخوف يزول بالامن والهيبة لا تزول أبدا الى آخره فيقال هذا حق فان الخوف انما يكون قبل دخول الجنة فاذا دخلوها زال عنهم الخوف الذى كان يصحبهم فى الدنيا وفى عرصات القيامة وبدلوا به أمنا لانهم قد أمنوا العذاب فزايلهم الخوف منه ولكن لا يدل هذا على انه كان مقاما ناقصا فى الدنيا كما ان الجهاد من أشرف المقامات وقد زال عنهم فى الآخرة وكذلك الايمان بالغيب أجل المقامات على الاطلاق وقد زال فى الآخرة وصار الامر شهادة وكذلك الصلاة

كعابد

كعابد وثن ومر علي بن أبي طالب رضي الله عنه بقوم يلعبون بالشطرنج فقال ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون فالظن بالعاشق المتيم الفاني في معشوقه ولهذا قرن الله سبحانه بين الخمر والانصاب وهي الاصنام التي تعبد من دون الله فقال يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ومعلوم أن شارب الخمر لا يدوم سكره بل لا بد أن يفيق ولعل أوقات افاقته أكثر من أوقات سكره وأما سكرة العشق فقل أن يستفيق صاحبها الا اذا جاءت الرسل بطلبه للقدوم على الله تعالى ولهذا استمرت سكرة اللوطية حتى فجأهم عذاب الله وعقوبته وهم في سكرتهم يعمهون فكيف اذا خرج العشق الى حد الجنون المطبق كما أنشد محمد بن جعفر الخرائطي في كتاب اعتلال القلوب قال أنشد الصيدلاني

قالت جننت على رأسي فقلت لها * العشق أعظم مما بالمجانين
العشق ليس يفيق الدهر صاحبه * وانما يصرع المجنون في الحين

فصاحبه أحق بان يشبه بعابد الوثن والعاكف على التماثيل فان عكوف قلب العاشق على صورة محبوبه وتمثاله يشبه عكوف عابد الصنم على صنمه واذا كان الشيطان يريد أن يوقع العداوة والبغضاء بين المسلمين في الخمر والميسر ويصدهم بذلك عن ذكر الله وعن الصلاة فالعداوة والبغضاء والصد الذي يوقعه بالعشق أعظم بكثير وجميع المعاصي يجتمع فيها هذان الوصفان وهما العداوة والبغضاء والصد عن ذكر الله وعن الصلاة فان التحاب والتآلف انما هو بالايمان والعمل الصالح كما قال تعالى ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا أي يلقي بينهم المحبة فيحب بعضهم بعضا فيتراحمون ويتعاطفون بما جعل الله لبعضهم في قلوب بعض وقال ابن عباس يحبهم ويحببهم الى عباده قال هرم بن حيان ما أقبل عبد بقلبه الى الله عز وجل الا أقبل الله بقلوب المؤمنين اليه حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم وأهل المعاصي والفسوق وان كان بينهم نوع مودة وتحاب فانها تنقلب عداوة وبغضا وفي الغالب يتعجل لهم ذلك في الدنيا قبل الآخرة وأما في الآخرة فالأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين وقال امام الحنفاء لقومه انما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا فالمعاصي كلها توجب ذلك وتصد عن ذكر الله وعن الصلاة وذكر ذلك في الخمر والميسر اللذين هما

والحج والامر بالمعروف والنهي عن المنكر وبذل النفس لله وهي من أشرف الاعمال وكلها تزول في الجنة وهذا لا يدل على نقصانها فان الجنة ليست دار سعي وعمل انما هي دار نعيم وثواب الوجه الحادي عشر ان الخوف انما زال في الجنة لان تعلقه انما هو بالاعمال لا بالذات كما تقدم وقد أمنهم ما كانوا يخافون منه فقد أمنوا أن لا يفعلوا ما يخافون منه وان يفعل بهم ما يخيفهم ولكن كان الخوف في الدنيا أنفع لهم فيه وصلوا الى الامن التام فان الله سبحانه لا يجمع على عبده مخافتين اثنتين فمن خافه في الدنيا أمنه يوم القيامة ومن أمنه في الدنيا ولم يخفه أخافه في الآخرة وناهيك شرفا وفضلا بمقام ثمرته الامن الدائم المطلق الوجه الثاني عشر ان الاجلال والمهابة والتعظيم انما لم تزل لانها متعلقة بنفس الذات وهي موجودة في دار النعيم وأما الخوف فانه انما زال لانه وسيلة الى توفية العبودية والقيام بالامر والوسيلة تزول عند حصول الغاية ولكن زوال الوسيلة عند حصول الغاية لا يدل على انها ناقصة واذا كانت تلك الغاية لا كمال للعبد بدونها فالوسيلة اليها كذلك الوجه الثالث عشر قوله وهذه المعارضة والهيبة تعارض المكاشف أوقات المناجاة وتصون المشاهد أخبار المشاهد وتعصم المعاني بصدمة العزة فيقال لا ريب ان الحب والانس المجرد عن التعظيم والاجلال يبسط النفس ويحملها على بعض الدعاوى والرعونات والاماني الباطلة واساءة الادب والجناية على حق المحبة فاذا قارنت المحبة مهابة المحبوب واجلاله وتعظيمه وشهود عز جلاله وعظيم سلطانه انكسرت نفسه له وذلت لعظمته واستكانت لعزته وتصاغرت لجلاله وصفت من رعونات النفس وحماقاتها ودعاويها الباطلة وأمانيها الكاذبة ولهذا في الحديث يقول الله عز وجل أين المتحابون بجلالي اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل الا ظلي فقال أين المتحابون بجلالي فهو حب بجلاله وتعظيمه ومهابته ليس حبا لمجرد جماله فانه سبحانه الجليل الجميل والحب الناشئ عن شهود هذين الوصفين هو الحب النافع الموجب لكونهم في ظل عرشه يوم القيامة فشهود الجلال وحده يوجب خوفا وخشية وانكسارا وشهود الجمال وحده يوجب حبا بانبساط وادلال ورعونة وشهود الوصفين معا يوجب حبا مقرونا بتعظيم واجلال ومهابة وهذا هو غاية كمال العبد والله أعلم وانشاده هذه الابيات

من أواخر المحرمات تنبيه على ما في غيرهما من ذلك مما حرم قبلها وهو أشد تحريما منهما فان ما يوقعه قتل النفوس وسرقة الاموال وارتكاب الفواحش من ذلك وما يصد به عن ذكر الله وعن الصلاة أضعاف أضعاف ما يقتضيه الخمر والميسر والواقع شاهد بذلك وكم وقع وهو واقع بين الناس بسبب عشق الصور من العداوة والبغضاء وزوال الالفة والمحبة وانقلابها عداوة وأما صده عن ذكر الله فقلب العاشق ليس فيه موضع لغير معشوقه كما قيل

ما في الفؤاد لغير حبك موضع * كلا ولا أحد سواك يحله

وأما صده عن الصلاة فهو وان لم يصد عن صورتها وأعمالها الظاهرة فانه يصد عن حقيقتها ومقاصدها الباطنة

(فصل) ومما يبين ان هذه الفواحش أصلها المحبة لغير الله تعالى سواء كان المطلوب المشاهدة أو المباشرة أو غير ذلك انها في المشركين أكثر منها في المخلصين ويوجد فيهم منها ما لا يوجد مثله في المخلصين قال تعالى يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما انه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم انا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل ان الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون فأخبر سبحانه أنه جعل الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون وهو قوله أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا وقال تعالى في الشيطان انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون وأخبر عنه أنه أقسم بعزة ربه أنه يغوي عباده أجمعين واستثنى أهل الاخلاص منهم وأخبر سبحانه عن أولياء الشيطان أنهم اذا فعلوا فاحشة احتجوا بتقليد أسلافهم وزعموا أن الله سبحانه أمرهم بها فاتبعوا الظن الكاذب والهوى الباطل قال شيخنا وفي هذا الوصف نصيب كثير لكثير من المنتسبين الى القبلة من الصوفية والعباد والامراء والاجناد والمتفلسفة والمتكلمين والعامة وغيرهم يستحلون من الفواحش ما حرمه الله ورسوله ظانين ان الله أباحه أو تقليدا لاسلافهم وأصله العشق الذي يبغضه الله فكثير منهم يجعله دينا و يرى أنه يتقرب به الى الله إما لزعمه أنه يزكي النفس و يهذبها و إما لزعمه أنه يجمع بذلك قلبه على آدمي ثم ينتقل الى عبادة الله وحده و إما لزعمه أن الصور الجميلة مظاهر الحق ومشاهده و يسميها مظاهر الجمال الاحدي و إما لاعتقاده حلول الرب فيها أو اتحاده بها ولهذا تجد بين نساك هؤلاء وفقرائهم وأمرائهم وأصحابهم توافقا وتآلفا على اتخاذ أنداد من دون الله يحبهم كحب الله إما تدينا و إما شهوة

واما

الثلاثة في هذا المقام في غاية القبح فان هذا المحب لوى خوفه من محبوبه و يعرض عنه اظهار التجلد اما على محبوبه وذلك قبيح في حكم المحبة فان التذلل للمحبوب بتملقه واستعطافه والانكسار له أولى بالمحب من تجلده وتعززه كما قيل اخضع وذل لمن تحب فليس في * شرع الهوى أنف يشال و يعقد ثم أخبر انه يروم طيف خياله فهو طالب لحظه من محبوبه لا لمراد محبوبه منه فهذا محب لنفسه وقد جعل طيف محبوبه وسيلة الى حصول مراده فاحبه حب الوسائل بخلاف من قد أحب محبوبه لذات المحبوب ففنى عن مراده هو منه بمراد محبوبه فصار مراده مراد محبوبه فحصل الاتحاد في المراد لا في الارادة ولا في المريد هذا ان كان صبره عنه تجلدا عليه وان كان تجلدا على الرقيب خوفا منه فهو ضعيف المحبة لان فيه بقية ليست مع محبوبه بل مع رقيبه فهلا ملأ الحب قلبه فلم يبق فيه بقية يلاحظ بها الرقيب والعاذل كما قيل

لا كان من لسواك فيه بقية

يجد السبيل بها اليه العذل

وبالجملة فهذه أبيات ناقصة المعنى لا يصلح الاستشهاد بها والله أعلم

(فصل) والمقصود الكلام على علل المقامات وبيان ما فيها من خطأ وصواب ولما كان أبو العباس بن العريف قد تعرض لذلك في كتابه محاسن المجالس ذكرنا كلامه فيه وماله وما عليه ثم ذكر بعد هذا فصلا في المحبة وفصلا في الشوق فنذكر كلامه في ذلك وما يفتح الله به تتميما للفائدة ورجاء للمنفعة وان عن الله العزيز الوهاب بفضله ورحمته و يرقى عبده من العلم الى الحال ومن الوصف الى الاتصاف انه قريب مجيب قال أبو العباس وأما المحبة فقد أشار أهل التحقيق في العبارة عنها وكل نطق بحسب ذوقه وانفسح بمقدار شوقه قلت الشئ اذا كان من الامور الوجدانية الذوقية التي انما تعلم بآثارها وعلاماتها وكان مما يقع فيه التفاوت بالشدة والضعف وكان له لوازم وآثار وعلامات متعددة اختلفت العبارات عنه بحسب اختلاف هذه الاشياء وهذا شان المحبة فانها ليست بحقيقة معاينة ترى بالابصار فيشترك الواصفون لها في الصفة وهي في نفسها متفاوتة أعظم تفاوت كما بين العلامة التي هي تعلق القلب بالمحبوب والحالة التي هي أعلى مراتب الحب و بينهما درجات متفاوتة تفاوتا لا ينحصر ولها آثار توجبها وعلامات تدل عليها فكل أدرك بعض علاماتها فعبر بحسب

و إما جامعا بين الامرين ولهذا يتألفون و يجتمعون على السماع الشيطاني الذي يهيج الحب المشترك فيهيج من كل قلب ما فيه من الحب وسبب ذلك خلو القلب مما خلق له من عبادة الله تعالى التي تجمع محبته وتعظيمه والخضوع والذل له والوقوف مع أمره ونهيه ومحابه ومساخطه فاذا كان القلب وجد حلاوة الايمان وذوق طعمه أغناه ذلك عن محبة الانداد وتألهها واذا خلا القلب من ذلك احتاج الى أن يستبدل به ما يهواه و يتخذه إلهه وهذا من تبديل الدين و تغيير فطرة الله التي فطر عليها عباده قال تعالى فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله أي نفس خلق الله لا تبديل له فلا يخلق الخلق الا على الفطرة كما أن خلقه للاعضاء على السلامة من الشق والقطع ولا تبديل لنفس هذا الخلق ولكن يقع التغيير في المخلوق بعد خلقه كما قال عليه السلام كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه و ينصرانه و يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها فالقلوب مفطورة على حب الهها وفاطرها وتألهه فصرف ذلك التأله والمحبة الى غيره تغيير للفطرة ولما تغيرت فطر الناس بعث الله الرسل بصلاحها وردها الى حالتها التي خلقت عليها فمن استجاب لهم رجع الى أصل الفطرة ومن لم يستجب لهم استمر على تغيير الفطرة وفسادها

(فصل) والفتنة بعشق الصور تنافي أن يكون دين العبد كله لله بل ينقص من كون دينه لله بحسب ما حصل له من فتنة العشق وربما أخرجت صاحبه من أن يبقى معه شئ من الدين لله قال تعالى وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة و يكون الدين كله لله فناقض بين كون الفتنة و بين كون الدين كله فكل منهما يناقض الآخر والفتنة قد فسرت بالشرك فما حصلت به فتنة القلوب فهو إما شرك و إما من أسباب الشرك وهي جنس تحته أنواع من الشبهات والشهوات وفتنة الذين اتخذوا من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله من أعظم الفتن ومنه فتنة أصحاب العجل كما قال تعالى لموسى انا فتنا قومك من بعدك وكذلك فتنة العشق من أعظم الفتن قال تعالى ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا نزلت في الجد بن قيس لما غزا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم تبوك قال له هل لك يا جد في جلاد بني الاصفر يتخذ منهم السراري والوصفاء فقال جد ائذن لي في القعود عنك فقد عرف قومي أني مغرم بالنساء وأني أخشى ان رأيت بنات الاصفر أن لا أصبر عنهن فأنزل الله تعالى هذه الآية قال ابن زيد يريد لا تفتني بصباحة وجوههن وقال أبو العالية لا تعرضني للفتنة وقوله تعالى ألا في الفتنة سقطوا قال قتادة ما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم والرغبة بنفسه عنه أعظم فالفتنة التي

ما أدركه وهي وراء ذلك كله ليس اسمها كمسماها ولا لفظها مبينا لمعناها وكذلك اسم المصيبة والبلية والشدة والالم انما تدل أسماؤها عليها نوع دلالة لا تكشف حقيقتها ولا تعلم حقيقتها الا بذوقها ووجودها وفرق بين الذوق والوجود وبين التصور والعلم فالحدود والرسوم التي قيلت في المحبة صحيحة غير وافية بحقيقتها بل هي اشارات وعلامات وتنبيهات (فصل) قال وهي على الاجمال قبل ان تنتهي الى التفصيل وجود تعظيم في القلب يمنع الانقياد لغير محبوبه فيقال هذا التعظيم المانع من الانقياد لغير (٣٠٧) المحبوب هو أثر من آثار المحبة وموجب من موجباتها لا انه نفس المحبة فان المحبة اذا كانت صادقة أوجبت للمحب تعظيما لمحبوبه تمنعه من انقياده الى غيره وليس مجرد التعظيم هو المانع له من الانقياد الى غيره بل التعظيم المقارن للحب هو الذي يمنع من الانقياد الى غير المحبوب فان التعظيم اذا كان مجردا عن الحب لم يمنع انقياد القلب الى غير المعظم وكذلك اذا كان الحب خاليا عن التعظيم لم يمنع الحب ان ينقاد الى غير محبوبه فاذا اقترن الحب بالتعظيم وامتلأ القلب بهما امتنع انقياده الى غير المحبوب والمحبة المشتركة ثلاثة أنواع أحدها محبة طبيعية مشتركة كمحبة الجائع الطعام والظمآن الماء وغير ذلك وهذه لا تستلزم التعظيم والنوع الثاني محبة رحمة واشفاق كمحبة الوالد لولده الطفل ونحوها وهذه أيضا لا تستلزم التعظيم والنوع الثالث محبة أنس وألف وهي محبة المشتركين في صناعة أو علم أو مرافقة أو تجارة أو سفر لبعضهم بعضا وكمحبة الاخوة بعضهم بعضا فهذه الانواع الثلاثة هي المحبة التي تصلح للخلق بعضهم من بعض ووجودها فيهم لا يكون شركا في محبة الله سبحانه ولهذا كان رسول الله يحب الحلواء والعسل وكان أحب الشراب اليه الحلو البارد وكان أحب اللحم اليه الذراع وكان يحب نساءه وكانت عائشة أحبهن اليه وكان يحب أصحابه وأحبهم اليه الصديق وأما المحبة الخاصة التي لا تصلح الا لله وحده ومتى أحب العبد بها غيره كان شركا لا يغفره الله فهي محبة العبودية المستلزمة للذل والخضوع والتعظيم وكمال الطاعة وايثاره على غيره فهذه المحبة لا يجوز تعلقها بغير الله أصلا وهي التي سوى المشركون بين آلهتهم وبين الله فيها كما قال تعالى ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله وأصح القولين ان المعنى يحبونهم كما يحبون الله وسووا بين الله وبين أندادهم في الحب ثم

فرّمنهابزعمه هي فتنة محبة النساء وعدم صبره عنهن والفتنة التى وقع فيهاهى فتنة الشرك
والكفر فى الدنيا والعذاب فى الآخرة ولفظ الفتنة فى كتاب الله تعالى يراد بها الامتحان
الذى لم يفتتن صاحبه بل خلص من الافتتان ويراد بها الامتحان الذى حصل معه افتتان
فمن الاول قوله تعالى لموسى عليه السلام وفتناك فتونا ومن الثانى قوله تعالى وقاتلوهم
حتى لاتكون فتنة وقوله الافى الفتنة سقطوا ويطلق على مايتناول الامرين كقوله تعالى
الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناوهم لايفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم
فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ومنه قول موسى عليه السلام ان هى
الافتنتك تضل بهامن تشاء وتهدى من تشاء أى امتحانك وابتلاؤك أضل بهامن وقع
فيهاوهدى من نجامنهاوتطلق الفتنة على أعم من ذلك كقوله تعالى انماأموالكم وأولادكم
فتنة قال مقاتل أى بلاء وشغل عن الآخرة قال ابن عباس فلاتطيعوهم فى معصية
الله تعالى وقال الزجاج اعلمهم الله عزوجل ان الاموال والاولاد مما يفتنون به وهذا عام
فى جميع الاولاد فان الانسان مفتون بولده لانه ربما عصى الله تعالى بسببه وتناول الحرام
لاجله ووقع فى العظائم الا من عصمه الله تعالى ويشهد لهذا ماروى أن النبى صلى الله
تعالى عليه وسلم كان يخطب فجاء الحسن والحسين رضى الله عنهما وعليهما قميصان
أحمران يعثران فنزل النبى صلى الله تعالى عليه وسلم اليهما فأخذهما فوضعهما فى حجره
على المنبر وقال صدق الله انماأموالكم وأولادكم فتنة رأيت هذين الصبيين فلم أصبر عنهما
وقال ابن مسعود رضى الله عنه لايقولن أحدكم اللهم انى أعوذبك من الفتنة فانه ليس
منكم أحد الاوهو مشتمل على فتنة لان الله تعالى يقول انماأموالكم وأولادكم فتنة فأيكم
استعاذ فليستعذ بالله تعالى من مضلات الفتن ومنه قوله تعالى وجعلنا بعضكم لبعض
فتنة وهذا عام فى جميع الخلق امتحن بعضهم ببعض فامتحن الرسل بالمرسل اليهم ودعوتهم
الى الحق والصبر على أذاهم وتحمل المشاق فى تبليغهم رسالات ربهم وامتحن المرسل اليهم
بالرسل هل يطيعونهم وينصرونهم ويصدقونهم أم يكفرون بهم ويردون عليهم
ويقاتلونهم وامتحن العلماء بالجهال يعلمونهم وينصحونهم ويصبرون على تعليمهم
ونصحهم وارشادهم ولوازم ذلك وامتحن الجهال بالعلماء هل يطيعونهم ويهتدون بهم
وامتحن الملوك بالرعية والرعية بالملوك وامتحن الاغنياء بالفقراء والفقراء بالاغنياء
وامتحن الضعفاء بالاقوياء والاقوياء بالضعفاء والسادة بالاتباع والاتباع بالسادة
وامتحن المالك بمملوكه ومملوكه به وامتحن الرجل بامرأته وامرأته به وامتحن
الرجال بالنساء والنساء بالرجال والمؤمنين بالكفار والكفار بالمؤمنين وامتحن

فى ذلك عن المؤمنين فقال والذين آمنوا أشد حبالله فان الذين آمنوا أخلصوا حبهم لله لم يشركوا به معه غيره وأما المشركون فلم يخلصوه لله
والمقصود من الخلق والامر انما هو هذه المحبة وهى أول دعوة الرسل وآخر كلام العبد المؤمن الذى اذامات عليه دخل الجنة اعترافه واقراره
بهذه المحبة وافراد الرب بها فهو أول مايدخل به فى الاسلام وآخر مايخرج به من الدنيا الى الله وجميع الاعمال كالادوات والآلات لها وجميع
المقامات وسائل اليها وأسباب لتحصيلها (٣٠٨) وتكميلها وتحصينها من الشوائب والعلل فهى قطب رحى السعادة وروح
الايمان وساق شجرة الاسلام
ولاجلها أنزل الله الكتاب والحديد
فالكتاب هاد اليها ودال عليها
ومفصل لها والحديد لمن خرج
عنها وأشرك فيها مع الله غيره
ولاجلها خلقت الجنة والنار
فالجنة دار أهلها الذين أخلصوها
لله وحده فاخلصهم لها والنار دار
من أشرك فيها مع الله غيره
وسوى بينه وبين الله فيها كما أخبر
تعالى عن أهلها انهم يقولون
فى النار لآلهتهم تالله ان كنالفى
ضلال مبين اذنسويكم برب
العالمين وهذه التسوية لم تكن
منهم فى الافعال والصفات بحيث
اعتقدوا انها مساوية لله سبحانه
فى أفعاله وصفاته وانما كانت
تسوية منهم بين الله وبينها
فى المحبة والعبودية فقطع مع
اقرارهم بالفرق بين الله وبينها
فتصحيح هذه هو تصحيح شهادة
أن لااله الاالله فحقيق لمن نصح
نفسه وأحب سعادتها ونجاتها
أن يتيقظ لهذه المسئلة علما وعملا
وحالا وتكون أهم الاشياء عنده
وأجل علومه وأعماله فان الشأن
كله فيها والمدار عليها والسؤال يوم
القيامة عنها قال تعالى فوربك
لنسألنهم أجمعين عما كانوا
يعملون قال غير واحد من السلف
هو عن قول لااله الاالله وهذا حق
فان السؤال كله عنها وعن أحكامها
وحقوقها وواجباتها ولوازمها
فلا يسأل أحد قط الاعنها وعن واجباتها ولوازمها وحقوقها قال أبو العالية كلمتان يسأل عنهما الاولون والآخرون ماذا
كنتم تعبدون وماذا أجبتم المرسلين فالسؤال عما اذا كانوا يعبدون هو السؤال عنها نفسها والسؤال عما ذا أجابوا المرسلين سؤال عن الوسيلة
والطريق المؤدية اليها هل سلكوها وأجابوا الرسل لما دعوهم اليها فعاد الامر كله اليها وأمر هذا شأنه حقيق بان تنثنى عليه الخناصر
ويعض عليها بالنواجذ ويقبض فيه على الجمر ولا يؤخذ باطراف الانامل ولا يطلب على فضلة بل يجعل هو المطلب الاعظم وماسواه انما

الآمرين بالمعروف بمن يأمرونهم وامتحن المأمورين بهم وكذلك فقراء المؤمنين
وضعفاؤهم من اتباع الرسل فتنة لاغنيائهم ورؤسائهم امتنعوا من الايمان بعد معرفتهم
بصدق الرسل وقالوا لو كان خيرا ما سبقونا اليه هؤلاء وقالوا لنوح عليه السلام أنؤمن لك
واتبعك الأرذلون قال تعالى وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله
عليهم من بيننا فاذا رأى الشريف الرئيس المسكين الذليل قد سبقه الى الايمان ومتابعة
الرسول حمى وأنف أن يسلم فيكون مثله وقال أسلم فأكون أنا وهذا الوضيع على حد
سواء قال الزجاج كان الرجل الشريف ربما أراد الاسلام فيمتنع منه لئلا يقال أسلم قبله
من هو دونه فيقيم على كفره لئلا يكون للمسلم السابقة عليه في الفضل ومن كون بعض
الناس لبعضهم فتنة ان الفقير يقول لم لم أكن مثل الغني ويقول الضعيف هلا كنت
مثل القوي ويقول المبتلى هلا كنت مثل المعافى وقال الكفار لن نؤمن حتى نؤتى مثل
ما أوتي رسل الله وقال مقاتل نزلت في افتتان المشركين بفقراء المهاجرين نحو بلال
وخباب وصهيب وأبي ذر وابن مسعود وعمار كان كفار قريش يقولون انظروا الى
هؤلاء الذين تبعوا محمدا من موالينا وأراذلنا قال تعالى انه كان فريق من عبادي
يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم
ذكري وكنتم منهم تضحكون اني جزيتهم اليوم بما صبروا انهم هم الفائزون فأخبر
سبحانه انه جزاهم على صبرهم كما قال وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون قال الزجاج
أي أتصبرون على البلاء فقد عرفتم ما وجد الصابرون قلت فقرن الله سبحانه الفتنة بالصبر
ههنا وفي قوله ثم ان ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا فليس لمن
قد فتن بفتنة دواء مثل الصبر فان صبر كانت الفتنة ممحصة له ومخلصة من الذنوب
كما يخلص الكير خبث الذهب والفضة فالفتنة كير القلوب ومحك الايمان وبها يتبين
الصادق من الكاذب قال تعالى ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا
وليعلمن الكاذبين فالفتنة قسمت الناس الى صادق وكاذب ومؤمن ومنافق وطيب
وخبيث فمن صبر عليها كانت رحمة في حقه ونجا بصبره من فتنة أعظم منها ومن لم يصبر
عليها وقع في فتنة أشد منها فالفتنة لا بد منها في الدنيا والآخرة كما قال تعالى يوم هم على
النار يفتنون ذوقوا فتنتكم هذا الذي كنتم به تستعجلون فالنار فتنة من لم يصبر على فتنة
النار قال تعالى في شجرة الزقوم انا جعلناها فتنة للظالمين قال قتادة لما ذكر الله تعالى
هذه الشجرة افتتن بها الظلمة فقالوا يكون في النار شجرة والنار تأكل الشجر فأنزل الله
عز وجل انها شجرة تخرج في أصل الجحيم فأخبرهم ان غذاءها من النار أي غذيت بالنار

يطلب على الفضلة والله الموفق لا اله غيره ولا رب سواه (فصل) قال وقيل المحبة ايثار المحبوب على غيره وهذا الحد أيضا من جنس
ماقبله فان ايثار المحبوب على غيره موجب المحبة ومقتضاها فاذا استقرت المحبة في القلب استدعت من المحب ايثار محبوبه على غيره وهذا
الايثار علامة ثبوتها وصحتها فاذا آثر غير المحبوب عليه لم يكن محبا له وان زعم انه محب فانما هو محب لنفسه ولحظه ممن يحبه فاذا رأى حظا
آخر هو أحب اليه من حظه الذي يريده من محبوبه آثر ذلك الحظ المحبوب اليه فهذا موضع يغلط فيه الناس كثيرا اذ
أكثرهم انما هو يحب لحظه
ومراده فاذا علم انه عند غيره
أحب ذلك الغير حب الوسائل
لا حباله لذاته ويظهر هذا عند
حالتين أحدهما انه يرى حظا له
آخر عند غيره فيؤثر ذلك الحظ
ويترك محبوبه الثانية انه اذا نال
ذلك الحظ من محبوبه فترت محبته
وسكن قلبه وترحل قاطن المحبة
من قلبه كما قيل من ود لأمر ولى
عند انقضائه فهذه محبة مشوبة
بالعلل بل المحبة الخالصة أن يحب
المحبوب لكماله وانه أهل ان يحب
لذاته وصفاته وان الذي يوجب
هذه المحبة فناء العبد عن ارادته لمراد
محبوبه فيكون عاملا على مراد
محبوبه منه لا على مراده هو من
محبوبه فهذه هي المحبة الخالصة
من درن العلل وشوائب النفس
وهي التي تتزايد وفي مثل هذا قيل

تعصي الاله وأنت تزعم حبه
هذا محال في القياس شنيع
لو كان حبك صادقا لأطعته
ان المحب لمن يحب مطيع

وههنا دقيقة ينبغي التفطن لها
وهي ان ايثار المحبوب نوعان ايثار
معاوضة ومتاجرة وايثار حب
وارادة فالاول يؤثر محبوبه على
غيره طلبا لحظه منه فهو يبذل
ما يؤثره ليعاوضه بخير منه والثاني
يؤثره اجابة لداعي محبته فان المحبة
الصادقة تدعوه دائما الى ايثار
محبوبه فايثاره هو أجل حظوظه فحظه في نفس الايثار لا في العوض المطلوب بالايثار وهذا لا يفهمه الا النفس اللطيفة الوارعة المشرقة
وأما النفس الكثيفة فلا خبر عندها من هذا وما هو بعشها فلتدرج والدين كله والمعاملة في الايثار فانه تقديم وتخصيص لمن تؤثره بما
تؤثره به على نفسك حتى ان من شرطه الاحتياج من جهة المؤثر اذ لو لم يكن محتاجا اليه لكان بذله سخاء وكرما وهذا انما يصح في ايثار المخلوق
والله سبحانه يؤثر عبده على غيره من غير احتياج منه سبحانه فانه الغني الحميد وفي الدعاء المرفوع اللهم زدنا ولا تنقصنا وأعطنا ولا تحرمنا

قال ابن قتيبة قد تكون شجرة الزقوم نبتا من النار ومن جوهر لا تأكله النار وكذلك سلاسل النار وأغلالها وأنكالها وعقاربها وحياتها ولو كانت على ما يعلم لم تبق على النار وانما دلنا الله تعالى على الغائب عنده بالحاضر عندنا فالاسماء متفقة الدلالة والمعانى مختلفة وما فى الجنة من ثمرها وفرشها وشجرها وجميع آلاتها على مثل ذلك والمقصود أن هذه الشجرة فتنة لهم فى الدنيا بتكذيبهم بها وفتنة لهم فى الآخرة بأكلهم منها وكذلك اخباره سبحانه بان عدة الملائكة الموكلين بالنار تسعة عشر كان فتنة للكفار حيث قال عدو الله أبو جهل أيخوفكم محمد بتسعة عشر وأنتم الدهم أفيعجز كل مائة منكم أن يبطشوا بواحد منهم ثم تخرجون من النار فقال أبو الاسد يا معشر قريش اذا كان يوم القيامة فأنا أمشى بين أيديكم على الصراط فأدفع عشرة بمنكبى الأيمن وتسعة بمنكبى الايسر فى النار ونمضى فندخل الجنة فكان ذكر هذا العدد فتنة لهم فى الدنيا وفتنة لهم يوم القيامة والكافر مفتون بالمؤمن فى الدنيا كما ان المؤمن مفتون به ولهذا سأل المؤمنون ربهم أن لا يجعلهم فتنة للذين كفروا كما قال الحنفاء ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا واليك المصير ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا وقال أصحاب موسى عليه السلام ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين قال مجاهد المعنى لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك فيقولون لو كان هؤلاء على الحق ما أصابهم هذا وقال الزجاج معناه لا تظهرهم علينا فيظنوا أنهم على حق فيفتتنوا بذلك وقال الفراء لا تظهر علينا الكفار فيروا أنهم على حق وانا على باطل وقال مقاتل لا تقتر علينا الرزق وتبسطه عليهم فيكون ذلك فتنة لهم وقد أخبر سبحانه انه فتن كلا من الفريقين بالفريق الآخر فقال وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا فقال تعالى أليس الله بأعلم بالشاكرين والمقصود أنه سبحانه فتن أصحاب الشهوات بالصور الجميلة وفتن أولئك بهم فكل من النوعين فتنة للآخر فمن صبر منهم على تلك الفتنة نجا مما هو أعظم منها ومن اصابته تلك الفتنة سقط فيما هو شر منها فان تدارك ذلك بالتوبة النصوح والا فبسبيل من هلك ولهذا قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ما تركت بعدى فتنة أضر من النساء على الرجال أو كما قال فالعبد فى هذه الدار مفتون بشهواته ونفسه الامارة وشيطانه المغوى المزين وقرنائه ومايراه ويشاهده مما يعجز صبره عنه ويتفق مع ذلك ضعف الايمان واليقين وضعف القلب ومرارة الصبر وذوق حلاوة العاجل وميل النفس الى زهرة الحياة الدنيا وكون العوض مؤجلا فى دار أخرى

وأكرمنا ولا تهنا وآثرنا ولا تؤثر علينا وارضنا وارض عنا وقيل من آثر الله على غيره آثره الله على غيره والفرق بين الايثار والاثرة ان الايثار تخصيص الغير بما تريده لنفسك والاثرة اختصاصك به على الغير وفى الحديث بايعنا رسول الله على السمع والطاعة فى عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا واثرة علينا فاذا عرف هذا فالايثار اما ان يتعلق بالخلق واما أن يتعلق بالخالق وان تعلق بالخلق فكماله أن تؤثرهم على نفسك بما لا يضيع عليك وقتا ولا يفسد عليك حالا ولا يهضم لك دنيا ولا يسد عليك طريقا ولا يمنع لك واردا فان كان فى ايثارهم شئ من ذلك فايثار نفسك عليهم أولى فان الرجل من لا يؤثر بنصيبه من الله أحدا كائنا من كان وهذا فى غاية الصعوبة على السالك والاول أسهل منه فان الايثار المحمود الذى أثنى الله على فاعله الايثار بالدنيا لا بالوقت والدين وما يعود بصلاح القلب قال تعالى ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون فأخبر ان ايثارهم انما هو بالشئ الذى اذا وقى الرجل الشح به كان من المفلحين وهذا انما هو فضول الدنيا لا الاوقات المصروفة فى الطاعات فان الفلاح كل الفلاح فى الشح بها فمن لم يكن شحيحا بوقته تركه الناس على الارض عيانا مفلسا فالشح بالوقت هو عمارة القلب وحفظ رأس ماله ومما يدل على هذا انه سبحانه أمر بالمسابقة فى أعمال البر والتنافس فيها والمبادرة اليها وهذا ضد الايثار بها قال تعالى وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والارض وقال فاستبقوا الخيرات وقال وفى ذلك فليتنافس المتنافسون وقال النبى صلى الله عليه وسلم لو يعلم الناس ما فى النداء والصف الاول لكانت قرعة والقرعة انما تكون عند التزاحم والتنافس لا عند الايثار فلم يجعل الشارع الطاعات والقربات محلا للايثار بل محلا للتنافس والمسابقة ولهذا قال الفقهاء لا يستحب الايثار بالقربات والسر فيه والله أعلم ان الايثار انما يكون بالشئ الذى يضيق عن الاشتراك فيه فلا يسع المؤثر والمؤثر بل لا يسع الا أحدهما وأما أعمال البر والطاعات فلا ضيق على العباد فيها فلو اشترك الالوف المؤلفة فى الطاعة الواحدة لم يكن عليهم فيها ضيق ولا تزاحم ووسعتهم كلهم وان قدر التزاحم فى عمل واحد أو مكان لا يمكن أن يفعله الجميع بحيث اذا فعله واحد فات على غيره فان فى العزم والنية الجازمة على فعله من الثواب ما لفاعله كما ثبت عن النبى

غير

في غير حديث فاذا قدر فوت مباشرته له فلا يفوت عليه عزمه ونيته لفعله وأيضا فانه اذا فات عليه كان في غيره من الطاعات والقربات عوض منه امامساوله واما أزيد واما دونه فتى أتى بالعوض وعلم الله من نيته وعزيمته الصادقة ارادته لذلك العمل الفائت أعطاه الله ثوابه وثواب ما تعوض به عنه فجمع له الامرين وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم وأيضا فان المقصود رغبة العبد في التقرب الى الله وابتغاء الوسيلة اليه والمنافسة في محابه والايثار بهذا التقرب يدل على رغبته عنه وتركه له وعدم المنافسة فيه وهذا بخلاف ما يحتاج اليه العبد من طعامه وشرابه ولباسه اذا كان أخوه محتاجا اليه فاذا اختص به أحدهما فات الآخر فندب الله عبده اذا وجد من نفسه قوة وصبرا على الايثار به مالم يخرم عليه دينا أو يجلب له مفسدة أو يقطع عليه طريقا عزم على سلوكه الى ربه أو شوش عليه قلبه بحيث يجعله متعلقا بالخلق فمفسدة ايثار هذا أرجح من مصلحته فاذا ترجحت مصلحة الايثار بحيث تتضمن انقاذ نفسه من هلكة أو عطب أو شدة ضرورة وليس للمؤثر نظيرها تعين عليه الايثار فان كان به نظيرها لم يتعين عليه الايثار ولكن لو فعله لكان غاية الكرم والسخاء والاحسان فانه من آثر حياة غيره على حياته وضرورته على ضرورته فقد استولى على أمد الكرم والسخاء وجاوز أقصاه وضرب فيه بأوفر الحظ وفي هذا الموضع مسائل فقهية ليس هذا موضع ذكرها فان قيل فالذي يسهل على النفس هذا الايثار فان النفس مجبولة على الاثرة لا على الايثار قيل يسهله أمور أحدها رغبة العبد في مكارم الاخلاق ومعاليها فان من أفضل أخلاق الرجل وأشرفها وأعلاها الايثار وقد جبل الله القلوب على تعظيم صاحبه ومحبته كما جبلها على بغض المستأثر ومقته لا تبديل لخلق الله والاخلاق ثلاثة خلق الايثار وهو خلق الفضل وخلق القسمة والتسوية وهو خلق العدل وخلق الاستئثار والاستبداد وهو خلق الظلم فصاحب الايثار محبوب مطاع مهيب وصاحب العدل لا سبيل للنفوس الى أذاه والتسليط عليه ولكنها لا تنقاد اليه انقيادها لمن يؤثرها وصاحب الاستئثار النفوس الى أذاه والتسليط عليه أسرع من السيل في حدوره وهل أزال الممالك وقلعها الا الاستئثار فان النفوس لا صبر لها عليه ولهذا أمر رسول الله أصحابه بالسمع والطاعة لولاة الامر وان استأثروا عليهم لما في طاعة المستأثر من المشقة أو لكره

غير هذه الدار وفيها نشأ فهو مكلف بان يترك شهوته الحاضرة المشاهدة لغيب طلب منه الايمان به

فوالله لولا الله يسعد عبده * بتوفيقه والله بالعبد أرحم
لما ثبت الايمان يوما بقلبه * على هذه العلات والامر أعظم
ولا طاوعته النفس في ترك شهوة * مخافة نار جمرها يتضرم
ولا خاف يوما من مقام الهه * عليه بحكم القسط اذ ليس يظلم

(فصل) والفتنة نوعان فتنة الشبهات وهي أعظم الفتنتين وفتنة الشهوات وقد يجتمعان للعبد وقد ينفرد باحداهما ففتنة الشبهات من ضعف البصيرة وقلة العلم ولا سيما اذا اقترن بذلك فساد القصد وحصول الهوى فهنالك الفتنة العظمى والمصيبة الكبرى فقل ماشئت في ضلال سيء القصد الحاكم عليه الهوى لا الهدى مع ضعف بصيرته وقلة علمه بما بعث الله به رسوله فهو من الذين قال الله تعالى فيهم ان يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس وقد أخبر سبحانه أن اتباع الهوى يضل عن سبيل الله فقال يا داود انا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب وهذه الفتنة مآلها الى الكفر والنفاق وهي فتنة المنافقين وفتنة أهل البدع على حسب مراتب بدعهم فجميعهم انما ابتدعوا من فتنة الشبهات التي اشتبه عليهم فيها الحق بالباطل والهدى بالضلال ولا ينجي من هذه الفتنة الا تجريد اتباع الرسول وتحكيمه في دق الدين وجله ظاهره وباطنه عقائده وأعماله حقائقه وشرائعه فيتلقى عنه حقائق الايمان وشرائع الاسلام وما يثبته لله من الصفات والافعال والاسماء وما ينفيه عنه كما تلقى عنه وجوب الصلوات واوقاتها وأعدادها ومقادير نصب الزكاة ومستحقيها ووجوب الوضوء والغسل من الجنابة وصوم رمضان فلا يجعله رسولا في شيء دون شيء من امور الدين بل هو رسول في كل شيء تحتاج اليه الامة في العلم والعمل لا يتلقى الا عنه ولا يؤخذ الا منه فالهدى كله دائر على أقواله وأفعاله وكل ما خرج عنها فهو ضلال فاذا عقد قلبه على ذلك واعرض عما سواه ووزنه بما جاء به الرسول فان وافقه قبله لا لكون ذلك القائل قاله بل لموافقته للرسالة وان خالفه رده ولو قاله من قاله فهذا الذي ينجيه من فتنة الشبهات وان فاته ذلك أصابه من فتنتها بحسب ما فاته منه وهذه الفتنة تنشأ تارة من فهم فاسد وتارة من نقل كاذب وتارة من حق ثابت على الرجل فلم يظفر به وتارة من غرض فاسد وهوى متبع فهي في عمى في البصيرة وفساد في الارادة

(فصل) وأما النوع الثانى من الفتنة ففتنة الشهوات وقد جمع سبحانه بين ذكر الفتنتين فى قوله كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم أى تمتعوا بنصيبهم من الدنيا وشهواتها والخلاق هو النصيب المقدر ثم قال وخضتم كالذى خاضوا فهذا الخوض بالباطل وهو الشبهات فأشار سبحانه فى هذه الآية الى مايحصل به فساد القلوب والاديان من الاستمتاع بالخلاق والخوض بالباطل لان فساد الدين اما أن يكون باعتقاد الباطل والتكلم به أو بالعمل بخلاف العلم الصحيح فالاول هو البدع وما والاها والثانى فسق الاعمال فالاول فساد من جهة الشبهات والثانى من جهة الشهوات ولهذا كان السلف يقولون احذروا من الناس صنفين صاحب هوى قد فتنه هواه وصاحب دنيا أعمته دنياه وكانوا يقولون احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل فان فتنتهما فتنة لكل مفتون وأصل كل فتنة انما هو من تقديم الرأى على الشرع والهوى على العقل فالاول أصل فتنة الشبهة والثانى أصل فتنة الشهوة ففتنة الشبهات تدفع باليقين وفتنة الشهوات تدفع بالصبر ولذلك جعل سبحانه امامة الدين منوطة بهذين الامرين فقال وجعلناهم أئمة يهدون بامرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون فدل على أنه بالصبر واليقين تنال الامامة فى الدين وجمع بينهما أيضا فى قوله وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر فتواصوا بالحق الذى يدفع الشبهات وبالصبر الذى يكف عن الشهوات وجمع بينهما فى قوله واذكر عبادنا ابراهيم واسحق ويعقوب أولى الايدى والابصار فالايدى القوى والعزائم فى ذات الله والابصار البصائر فى أمر الله وعبارات السلف تدور على ذلك قال ابن عباس اولى القوة فى طاعة الله والمعرفة بالله وقال الكلبى أولى القوة فى العبادة والبصر فيها وقال مجاهد الايدى القوة فى طاعة الله والابصار البصر فى الحق وقال سعيد بن جبير الايدى القوة فى العمل والابصار بصرهم بما هم فيه من دينهم وقد جاء فى حديث مرسل ان الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات فبكمال العقل والبصر تدفع فتنة الشهوة وبكمال البصيرة واليقين تدفع فتنة الشبهة والله المستعان

(فصل) اذا سلم العبد من فتنة الشبهات والشهوات حصل له أعظم غايتين مطلوبتين بهما سعادته وفلاحه وكماله وهما الهدى والرحمة قال تعالى عن موسى وفتاه فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما فجمع له بين الرحمة والعلم وذلك نظير قول أصحاب الكهف ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا فان الرشد هو العلم بما ينفع والعمل به والرشد والهدى اذا افرد كل منهما تضمن الآخر واذا قرن أحدهما

الاستئثار الثانى النفرة من أخلاق اللئام ومقت الشح وكراهته له الثالث تعظيم الحقوق التى جعلها الله سبحانه للمسلمين بعضهم على بعض فهو يرعاها حق رعايتها و يخاف من تضييعها و يعلم أنه ان لم يبذل فوق العدل لم يمكنه الوقوف مع حده فان ذلك عسر جدا بل لا بد من مجاوزته الى الفضل والتقصير عنه الى الظلم فهو لخوفه من تضييع الحق والدخول فى الظلم يختار الايثار بما لا ينقصه ولا يضره و يكتسب به جميل الذكر فى الدنيا وجزيل الاجر فى الآخرة مع ما يجلبه له الايثار من البركة وفيضان الخير عليه فيعود عليه من ايثاره أفضل مما بذله ومن جرب هذا عرفه ومن لم يجربه فليستقرأحوال العالم والموفق من وفقه الله سبحانه

(فصل) والايثار المتعلق بالخالق أجل من هذا وأفضل وهو ايثار رضاه على رضى غيره وايثار حبه على حب غيره وايثار خوفه ورجائه على خوف غيره ورجائه وايثار الذل له والخضوع والاستكانة والضراعة والتملق على بذل ذلك لغيره وكذلك ايثار الطلب منه والسؤال وانزال الفاقات به على تعلق ذلك بغيره فالاول آثر بعض العبيد على نفسه فيما هو محبوب له وهذا آثر الله على غيره ونفسه من أعظم الاغيار فآثر الله عليها فترك محبوبها لمحبوب الله وعلامة هذا الايثار شيئان أحدهما فعل مايحب الله اذا كانت النفس تكرهه وتهرب منه الثانى ترك مايكرهه اذا كانت النفس تحبه وتهواه فبهذين الامرين يصح مقام الايثار ومؤنة هذا الايثار شديدة لغلبة الاغيار وقوة داعى العادة والطبع فالمحنة فيه عظيمة والمؤنة فيه شديدة والنفس عنه ضعيفة ولا يتم فلاح العبد وسعادته الا به وانه ليسير على من يسره الله عليه فحقيق بالعبد أن يسمو اليه وان صعب المرتقى وأن يشمر اليه وان عظمت فيه المحنة ويحتمل فيه خطرا يسيرا لملك عظيم وفوز كبير فان ثمرة هذا فى العاجل والآجل ليست تشبه ثمرة شئ من الاعمال ويسير منه يرقى العبد ويسيره بالآخر مالا يرقى غيره اليه فى المدد المتطاولة وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ولا تحقق المحبة الا بهذا الايثار والذى يسهله على العبد أمور أحدها أن تكون طبيعته لينة منقادة سلسة ليست بجافية ولا قاسية بل تنقاد معه بسهولة الثانى أن يكون ايمانه راسخا و يقينه قويا فان هذا ثمرة الايمان ونتيجته الثالث قوة صبره وثباته فبهذه الثلاثة الامور ينهض الى هذا المقام و يسهل عليه دركه والنقص والتخلف فى النفس

فمن هذا يكون من أمرين أحدهما أن تكون جامدة غير سريعة الادراك بل بطيئة ولا تكاد ترى حقيقة الشئ الا بعد عسر وان رأتها اقترنت به الاوهام والشكوك والشبهات والاحتمالات فلا يتخلص له رؤيتها وعيانها الثانى أن تكون القريحة وقادة دراكة لكن النفس ضعيفة مهينة اذا أبصرت الحق والرشد ضعفت عن ايثاره فصاحبها يسوقها سوق العليل المريض كلما ساقه خطوة وقف خطوة أو كسوق الطفل الصغير الذى تعلقت نفسه بشهواته ومألوفاته فهو يسوقه الى رشده وهو ملتفت الى لهوه ولعبه لا ينساق

بالآخر فالهدى هو العلم بالحق والرشد هو العمل به وضدهما الغى واتباع الهوى وقد يقابل الرشد بالضر والشر قال تعالى قل انى لا أملك لكم ضرا ولا رشدا وقال مؤمنو الجن وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الارض أم أراد بهم ربهم رشدا فالرشد يقابل الغى كما فى قوله وان يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وان يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا ويقابل الضر والشر كما تقدم وذلك لان الغى سبب لحصول الشر والضر ووقوعهما بصاحبه فالضرر والشر غاية الغى وثمرته كما ان الرحمة والفلاح غاية الهدى وثمرته فلهذا يقابل كل منهما بنقيضه وسبب نقيضه فيقابل الهدى بالضلال كقوله يضل من يشاء ويهدى من يشاء وقوله ان تحرص على هداهم فان الله لا يهدى من يضل وهو كثير ويقابل بالغضب والعذاب كقوله فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى فقابل الهدى بالضلال والشقاء ويجمع سبحانه بين الهدى والفلاح والهدى والرحمة كما يجمع بين الضلال والشقاء والضلال والعذاب كقوله ان المجرمين فى ضلال وسعر فالضلال ضد الهدى والسعر العذاب وهو ضد الرحمة وقال ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى والمقصود ان من سلم من فتنة الشبهات والشهوات جمع له بين الهدى والرحمة والهدى والفلاح قال تعالى عن أوليائه ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب وقال تعالى ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون وقال تعالى هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يوقنون وقال تعالى لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الالباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شئ وهدى ورحمة لقوم يؤمنون وقال تعالى يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين فقوله هذا بصائر من ربكم عام مطلق وقوله وهدى ورحمة لقوم يوقنون خاص بأهل اليقين ونظير ذلك قوله يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ونظيره فى الخصوص قوله هدى للمتقين وقوله يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ونظيره أيضا قوله هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين وقد أخبر انه هدى عام لجميع المكلفين فقال ان يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى فأخبر سبحانه أن القرآن بصائر لجميع الناس والبصائر جمع بصيرة وهى فعيلة بمعنى مفعلة أى مبصرة لمن تبصر ومنه قوله تعالى وآتينا ثمود الناقة مبصرة أى مبينة موجبة للتبصر وفعل الابصار يستعمل لازما ومتعديا يقال أبصرته بمعنى رأيته وأبصرته بمعنى أريته فمبصرة فى الآية بمعنى مرئية لا بمعنى رائية

معه الا كرها فاذا رزق العبد قريحة وقادة وطبيعة منقادة اذا زجرها انزجرت واذا قادها انقادت بسهولة وسرعة ولين وارتدى مع ذلك بعلم نافع وايمان راسخ أقبلت اليه وفود السعادة من كل جانب ولما كانت هذه القرائح والطبائع ثابتة للصحابة رضى الله عنهم وكملها الله لهم بنور الاسلام وقوة اليقين ومباشرة الايمان لقلوبهم كانوا أفضل العالمين بعد الانبياء والمرسلين وكان من بعدهم لو أنفق مثل جبل أحد ما بلغ مد احدهم ولا نصيفه ومن تصور هذا الموضع حق تصوره علم من أين يلزمه النقص والتأخر ومن أين يتقدم ويتأخر ويترقى فى درجات السعادة وبالله التوفيق والله أعلم

(فصل) قال وقيل المحبة موافقة المحبوب فيما ساء وسر ونفع وضر كما قيل

وأهنتنى فاهنت نفسى صاغرا
ما من يهون عليك ممن أكرم

فقال وهذا الحد أيضا من جنس ما قبله فان موافقة المحبوب من موجبات المحبة وثمراتها وليست نفس المحبة بل المحبة تستدعى الموافقة وكلما كانت المحبة أقوى كانت الموافقة أتم قال تعالى قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله قال الحسن قال قوم على عهد النبى انا نحب ربنا فانزل الله

تعالى هذه الآية قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله قال الجنيد ادعى قوم محبة الله فانزل الله آية المحنة قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله يعنى ان متابعة الرسول هى موافقة حبيبكم فانه المبلغ عنه ما يحبه وما يكرهه قال مالك فى هذه الآية من أحب طاعة الله أحبه الله وحببه الى خلقه وانما كان موافقة المحبوب دليلا على محبته لان من أحب حبيبا فلا بد أن يحب ما يحبه و يبغض ما يبغضه والا لم يكن محباله محبة صادقة بل ان تخلف ذلك عنه لم يكن محباله بل يكون محبا لمراده منه أحبه محبوبه أم

والذين ظنوها بمعنى رائية غلطوا في الآية وتحيروا في معناها فانه يقال بصر به وأبصره فيعدى بالباء تارة والهمزة تارة ثم يقال أبصرته كذا أي أريته اياه كما يقال بصرته به وبصر هو به فههنا بصيرة وتبصرة ومبصرة فالبصيرة المبينة التي تبصر والتبصرة مصدر مثل التذكرة وسمي بها ما يوجب التبصرة فيقال هذه الآية تبصرة لكونها آلة التبصر وموجبه فالقرآن بصيرة وتبصرة وهدى وشفاء ورحمة بمعنى عام وبمعنى خاص ولهذا يذكر سبحانه هذا وهذا فهو هدى للعالمين وموعظة للمتقين فهو في نفسه هدى ورحمة وشفاء وموعظة فمن اهتدى به واتعظ واشتفى كان بمنزلة من استعمل الدواء الذي يحصل به الشفاء فهو دواء له بالفعل وان لم يستعمله فهو دواء بالقوة وكذلك الهدى فالقرآن هدى بالفعل لمن اهتدى به وبالقوة لمن لم يهتد به فانما يهتدي به ويرحم ويتعظ المتقون الموقنون والهدى في الاصل مصدر هدى يهدي هدى فمن لم يعمل بعلمه لم يكن مهتديا كما في الأثر من ازداد علما ولم يزدد هدى لم يزدد من الله تعالى الا بعدا ولكن سمي هدى لان من شأنه أن يهدي وهذا أحسن من قول من قال انه هدى بمعنى هاد فهو مصدر بمعنى الفاعل كعدل بمعنى العادل وزور بمعنى الزائر ورجل صوم أي صائم فان الله سبحانه قد أخبر أنه يهدي به فالله الهادي وكتابه الهدى الذي يهدي به على لسان رسوله فههنا ثلاثة أشياء فاعل وقابل وآلة فالفاعل هو الله تعالى والقابل قلب العبد والآلة هو الذي يحصل به الهدى وهو الكتاب المنزل والله سبحانه يهدي خلقه هدى كما يقال دلهم دلالة وأرشدهم ارشادا وبين لهم بيانا والمقصود ان المحل القابل هو قلب العبد المتقي المنيب الى ربه الخائف منه الذي يبتغي رضاه ويهرب من سخطه فاذا هداه الله بكتابه وصل أثر فعله الى محل قابل فيتأثر به فصار هدى له وشفاء ورحمة وموعظة بالوجود والفعل والقبول واذا لم يكن المحل قابلا وصل اليه الهدى فلم يؤثر فيه كما يصل الغذاء الى محل غير قابل للاغتذاء فانه لا يؤثر فيه شيأ بل لا يزيده الا ضعفا وفسادا الى فساده كما قال تعالى في الآية التي نزلها فأما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا وهم يستبشرون وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا الى رجسهم وقال وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا فتخلف الاهتداء يكون لعدم قبول المحل تارة ولعدم آلة الهدى تارة ولعدم فعل الفاعل وهو الهادي ولا يحصل الهدى على الحقيقة الا عند اجتماع هذه الثلاثة وقد قال سبحانه ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون فأخبر سبحانه انه قطع عنهم مادة الاهتداء وهو اسماع قلوبهم وافهامها ما ينفعها لعدم قبول المحل فانه لا خير فيه فان الرجل انما ينقاد للحق بالخير الذي فيه والميل

...في ذلك المراد فلو حصل له سخطه من غيره ... [illegible] تستدعي حب ما يحبه المحبوب وبغض ما يبغضه فلابد ان يوافقه فيه ولكن ههنا مسألة يغلط فيها كثير من المدعين للمحبة وهي ان موافقة المحبوب في مراده ليس المعني بها مراده الخلقي الكوني فان كل الكون مراده وكل ما يفعله الخلائق فهو موجب مشيئته وارادته الكونية فلو كانت موافقته في هذا المراد هي (٣١٤) محبته لم يكن له عدو أصلا وكانت الشياطين والكفار والمشركون عباد الاوثان والشمس والقمر أولياءه وأحبابه تعالى عن ذلك علوا كبيرا وانما يظن ذلك من يظنه من أعدائه الجاحدين لمحبته ودينه الذين يسوون بين أوليائه وأعدائه قال تعالى أفنجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الارض أم نجعل المتقين كالفجار وقال أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون وقال أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون وبين المطيعين والمفسدين مع ان الكل تحت المراد الكوني والمشيئة العامة وسمعت شيخ الاسلام ابن تيمية يقول قال لي بعض شيوخ هؤلاء المحبة نار تحرق من القلب ما سوى مراد المحبوب والكون كله مراده فاي شئ أبغض منه قال فقلت له فاذا كان المحبوب قد أبغض بعض ما في الكون فأبغض قوما ومقتهم ولعنهم وعاداهم فأحببتهم أنت وواليتهم تكون مواليا للمحبوب موافقا له أو مخالفا له معاديا ربه قال فكأنما ألقم حجرا ويبلغ الجهل والكفر ببعض هؤلاء الى حد بحيث اذا فعل محظورا يزعم انه مطيع لله سبحانه ويقول أنا مطيع لارادته وينشد في ذلك

أصبحت منفعلا لما يختاره * مني ففعلي كله طاعات

ويقول أحدهم ابليس وان عصى الامر لكنه أطاع الارادة يعني ان فعله طاعة لله من حيث موافقة ارادته وهذا انسلاخ من ربقة العقل والدين وخروج عن الشرائع كلها فان الطاعة انما هي موافقة الامر الديني الذي يحبه الله ويرضاه وأما دخوله تحت القدر الكوني الذي يبغضه ويسخطه ويكفر فاعله ويعاقبه فهي المعصية والكفر ومعاداته ومعاداة دينه ولا ريب ان المسرفين على أنفسهم المنهمكين في الذنوب والمعاصي المعترفين

اليه والطلب له ومحبته والحرص عليه والفرح بالظفر به وهؤلاء ليس فى قلوبهم شئ من ذلك فوصل الهدى اليها ووقع عليها كما يصل الغيث النازل من السماء و يقع على الارض الغليظة العالية التى لا تمسك ماء ولا تنبت كلا فلا هى قابلة للماء ولا للنبات فالماء فى نفسه رحمة وحياة ولكن ليس فيها قبول له ثم أكد هذا المعنى فى حقهم بقوله ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون أى فيهم مع عدم القبول والفهم آفة أخرى وهى الكبر والاعراض وفساد القصد فلو فهموا لم ينقادوا ولم يتبعوا الحق ولم يعملوا به فالهدى فى حق هؤلاء هدى بيان واقامة حجة لا هدى توفيق وارشاد فلم يتصل الهدى فى حقهم بالرحمة وأما المؤمنون فاتصل الهدى فى حقهم بالرحمة فصار القرآن لهم هدى و رحمة ولأولئك هدى بلا رحمة والرحمة المقارنة للهدى فى حق المؤمنين عاجلة وآجلة فأما العاجلة فما يعطيهم الله تعالى فى الدنيا من محبة الخير والبر وذوق طعم الايمان ووجدان حلاوته والفرح والسرور بأن هداهم الله تعالى لما أضل عنه غيرهم ولما اختلف فيه من الحق باذنه فهم يتقلبون فى نور هداه ويمشون به فى الناس ويرون غيرهم متحيرا فى الظلمات فهم أشد الناس فرحا بما آتاهم ربهم من الهدى قال تعالى قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون فأمر سبحانه عباده المؤمنين المهتدين أن يفرحوا بفضله ورحمته وقد دارت عبارات السلف على ان الفضل والرحمة هو العلم والايمان والقرآن واتباع الرسول وهذا من أعظم الرحمة التى يرحم الله بها من يشاء من عباده فان الأمن والعافية والسرور ولذة القلب ونعيمه وبهجته وطمأنينته مع الايمان والهدى الى طريق الفلاح والسعادة والخوف والهم والغم والبلاء والالم والقلق مع الضلال والحيرة ومثل هذا بمسافرين أحدهما قد اهتدى لطريق مقصده فسار آمنا مطمئنا والآخر قد ضل الطريق فلم يدر أين يتوجه كما قال تعالى قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد اذ هدانا الله كالذى استهوته الشياطين فى الارض حيران له أصحاب يدعونه الى الهدى ائتنا قل ان هدى الله هو الهدى فالرحمة التى تحصل لمن حصل له الهدى هى بحسب هداه فكلما كان نصيبه من الهدى أتم كان حظه من الرحمة أوفر وهذه هى الرحمة الخاصة بعباده المؤمنين وهى غير الرحمة العامة بالبر والفاجر وقد جمع سبحانه لاهل هدايته بين الهدى والرحمة والصلاة عليهم فقال تعالى أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون قال عمر ابن الخطاب رضى الله تعالى عنه نعم العدلان ونعمت العلاوة فبالهدى خلصوا من الضلال وبالرحمة نجوا من الشقاء والعذاب وبالصلاة عليهم نالوا منزلة القرب والكرامة

بانهم عصاة مذنبون أقرب الى الله من هؤلاء العارفين المنسلخين عن دين الانبياء كلهم الذين لا عقل لهم ولا دين فنسأل الله أن يثبت قلوبنا على دينه وأما البيت الذى استشهد به فهو من أبيات لابى الشيص يقول فيها

وقف الهوى بى حيث أنت فليس لى * متأخر عنه ولا متقدم
وأهنتنى فاهنت نفسى جاحدا * ما من يهون عليك ممن يكرم
أشبهت أعدائى فصرت أحبهم * اذ كان حظى منك حظى منهم
أجد الملامة فى هواك لذيذة * حبا لذكرك فليلمنى اللوم

وقد ناقض فيها فى دعواه مناقضة بينة فانه أخبر ان هواه قد صار وقفا عليها لا يزول عنها ولا يتحول بتقدم ولا تأخر ثم أخبر انه قد بلغ به حبها وهواها الى أن صار مرادها من نفسه غير مراده هو فلما أرادت اهانته بالصد والهجران والبعد سعى هو فى اهانة نفسه بجهده موافقة لها فى ارادتها فصارت اهانته لنفسه مرادة محبوبة له من حيث هى مرادة محبوبة لها وزعم انه لو أكرم نفسه لكان مخالفا لمحبوبته مكرما لمن اهانته ثم نقض هذا الغرض من حيث شبهها باعدائه الذين هم أبغض شئ اليه ووجه هذا التشبيه انه لم يحصل منها من حظه ومراده على شئ بل الذى يحصل له منها مثل ما يحصل له من أعدائه من اهانتهم له وأذاه فصار حظه منها ومن أعدائه واحدا فصارت شبيهة بهم فأين هذا من الموافقة التامة لها فى مرادها بحيث يهين نفسه لمحبتها فى اهانته ثم أخبر ان له منها حظا ومرادا وان ذلك الحظ الذى يريده لم يحصل له وانما حصل له منه نظير ما يحصل له من أعدائه وهذه شكاية فى الحقيقة واخبار عن محبه بخلوه بالحظ وشكاية للحبيب بتفويته عليه ثم انه أخبر عن جناية أخرى وهو انه شرك بينها وبين أعدائه فى حبه لها فصار حبه منقسما بعضه له وبعضه لاعدائه لشبههم اياها ثم ان فى الشعر جناية أخرى عليها وهو انه شبهها بمن جبلت القلوب على بغضه وهو العدو والذوق تشبيه الحبيب بما هو أحب الاشياء الى النفس كالسمع والبصر والحياة والروح والعافية كما هو عادة الشعراء والناس فى نظمهم ونثرهم كما هو معروف بينهم وهو جادة كلامهم ثم أخبر بمحبته لاعدائه لشبههم بها فتضمن كلامه معادات من يحبه ومحبة من يعاديه فانها اذا أشبهت أعداءه لزم أن يحصل لها نصيب من معاداته واذا أشبهها أعداؤه لزم أن يحصل لهم نصيب من محبته كما صرح به فى جانبهم وترك التصريح فى جانبها وهو مفهوم من كلامه ثم أخبر انه يلتذ بملامة اللوام فى هواها

والضالون حصل لهم ضد هذه الثلاثة الضلال عن طريق السعادة والوقوع في ضد الرحمة من الألم والعذاب والذم واللعن الذي هو ضد الصلاة ولما كان نصيب كل عبد من الرحمة على قدر نصيبه من الهدى كان أكمل المؤمنين ايمانا أعظمهم رحمة كما قال تعالى في أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم وكان الصديق رضي الله تعالى عنه من أرحم الامة وقد روى عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال أرحم أمتي بأمتي أبو بكر رواه الترمذي وكان أعلم الصحابة باتفاق الصحابة كما قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه وكان أبو بكر رضي الله عنه أعلمنا به يعني النبي عليه السلام فجمع الله له بين سعة العلم والرحمة وهكذا الرجل كلما اتسع علمه اتسعت رحمته وقد وسع ربنا كل شئ رحمة وعلما فوسعت رحمته كل شئ وأحاط بكل شئ علما فهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها بل هو أرحم بالعبد من نفسه كما هو أعلم بمصلحة العبد من نفسه والعبد لجهله بمصالح نفسه وظلمه لها يسعى فيما يضرها ويؤلمها وينقص حظها من كرامته وثوابه ويبعدها من قربه وهو يظن أنه ينفعها ويكرمها وهذا غاية الجهل والظلم والانسان ظلوم جهول فكم من مكرم لنفسه بزعمه وهو لها مهين ومرفه لها وهو لها متعب ومعطيها بعض غرضها ولذتها وقد حال بينها وبين جميع لذاتها فلا علم له بمصالحها التي هي مصالحها ولا رحمة عنده لها فما يبلغ عدوه منه ما يبلغ هو من نفسه قد بخسها حظها وأضاع حقها وعطل مصالحها وباع نعيمها الباقي ولذتها الدائمة الكاملة بلذة فانية مشوبة بالنقص انما هي كأضغاث أحلام أو كطيف زار في المنام وليس هذا بعجيب من شأنه وقد فقد نصيبه من الهدى والرحمة فلو هدى ورحم لكان شأنه غير هذا الشأن ولكن الرب تعالى أعلم بالمحل الذي يصلح للهدى والرحمة فهو الذي يؤتيهما العبد كما قال عن عبده الخضر فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما وربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا

(فصل) ومما ينبغي أن يعلم أن الرحمة صفة تقتضي ايصال المنافع والمصالح الى العبد وان كرهتها نفسه وشقت عليها فهذه هي الرحمة الحقيقية فأرحم الناس بك من شق عليك في ايصال مصالحك ودفع المضار عنك فمن رحمة الاب بولده أن يكرهه على التأدب بالعلم والعمل ويشق عليه في ذلك بالضرب وغيره ويمنعه شهواته التي تعود بضرره ومتى أهمل ذلك من ولده كان لقلة رحمته به وان ظن أنه يرحمه ويرفهه ويريحه فهذه رحمة مقرونة بجهل كرحمة الأم ولهذا كان من تمام رحمة أرحم الراحمين تسليط أنواع البلاء على

ـــــــــــــــــــ

[...] يدل على قوة محبتها وسماع ذكرها وهذا غرض صحيح مع انه مدخول أيضا فان محبوبه قد يكره ذلك لما يتضمن من فضيحته به وجعلها مضغة للماضغين فيكون محبا لنفس ما يكرهه وهذه محبة فاسدة معلولة ناقضة لدعواه موافقتها في محابها

(فصل) قال وقيل المحبة القيام بين يديه وأنت قاعد ومفارقة المضجع وأنت راقد والسكوت وأنت ناطق ومفارقة المألوف والوطن وأنت مستوطن فيقال وهذا أيضا أثر من آثار المحبة وموجب من موجباتها وحكم من أحكامها وهو صحيح فان المحبة توجب سفر القلب نحو المحبوب دائما والمحبة وطنه وتوجب مثوله وقيامه بين يدي محبوبه وهو قاعد وتجافيه عن مضجعه ومفارقته اياه وهو فيه راقد وفراغه لمحبوبه كله وهو مشغول في الظاهر بغيره كما قال بعضهم

وأديم نحو محدثي ليرى
ان قد عقلت وعندكم عقلي

وقال بعض المريدين لشيخه أيسجد القلب بين يدي الله فقال نعم سجدة لا يرفع رأسه منها الى يوم القيامة فهذه سجدة متصلة بقيامه وقعوده وذهابه ومجيئه وحركته وسكونه وكذلك يكون جسده في مضجعه وقلبه قد قطع المراحل مسافرا الى حبيبه فاذا أخذ مضجعه اجتمع عليه حبه وشوقه فهزه المضجع الى سكنه كما قال تعالى في حق المحبين تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا فلما تجافت جنوبهم عن المضاجع جافت الجنوب عنها واستخدمتها وأمرتها فأطاعتها وقال القائل

نهاري نهار الناس حتى اذا بدا
لى الليل هزتني اليك المضاجع

ويحكى ان بعض الصالحين اجتاز بمسجد فرأى الشيطان واقفا ببابه لا يستطيع دخوله فنظر فاذا فيه رجل نائم وآخر قائم يصلي فقال له أيمنعك هذا المصلي من دخوله فقال كلا انما يمنعني ذلك الاسد الرابض ولولا مكانه لدخلت وبالجملة فقلب المحب دائما في سفر لا ينقضي نحو محبوبه كلما قطع مرحلة له ومنزلة تبدت له أخرى كما قيل اذا قطعت علما بدى علم فهو مسافر بين أهله وظاعن وهو في داره وغريب وهو بين اخوانه وعشيرته يرى كل أحد عنده ولا يرى نفسه عند أحد فقوة تعلق المحب بمحبوبه توجب له أن لا يستقر قلبه دون الوصول اليه وكلما هدأت حركاته وقلت شواغله اجتمعت عليه شؤون قلبه فله قوى سيره الى محبوبه ومحك هذا الحال يظهر في مواطن أربعة أحدها عند أخذ مضجعه وتفرغ

العبد فانه أعلم بمصلحته فابتلاؤه له وامتحانه ومنعه من كثير من أغراضه وشهواته من رحمته به ولكن العبد لجهله وظلمه يتهم ربه ولا يعلم احسانه اليه بابتلائه وامتحانه وقد جاء في الأثر ان المبتلى اذا دعي له اللهم ارحمه يقول الله سبحانه كيف أرحمه من شئ به أرحمه وفي أثر آخر ان الله اذا أحب عبده حماه الدنيا وطيباتها وشهواتها كما يحمي أحدكم مريضه فهذا من تمام رحمته به لا من بخله عليه كيف وهو الجواد الماجد الذي له الجود كله وجود جميع الخلائق في جنب جوده أقل من ذرة في جبال الدنيا ورمالها فمن رحمته سبحانه بعباده ابتلاؤهم بالاوامر والنواهي رحمة وحمية لا حاجة منه اليهم بما أمرهم به فهو الغني الحميد لا بخلا منه عليهم بما نهاهم عنه فهو الجواد الكريم ومن رحمته ان نغص عليهم الدنيا وكدرها لئلا يسكنوا اليها ولا يطمئنوا اليها ويرغبوا في النعيم المقيم في داره وجواره فساقهم الى ذلك بسياط الابتلاء والامتحان فمنعهم ليعطيهم وابتلاهم ليعافيهم وأماتهم ليحييهم ومن رحمته بهم ان حذرهم نفسه لئلا يغتروا به ويعاملوه بما لا يحسن معاملته به قال تعالى ويحذركم الله نفسه والله رؤف بالعباد قال غير واحد من السلف من رحمته بالعباد حذرهم من نفسه لئلا يغتروا به ولما كان تمام النعمة على العبد انما هو بالهدى والرحمة كان لهما ضدان الضلال والغضب فأمرنا الله سبحانه أن نسأله كل يوم وليلة مرات عديدة أن يهدينا صراط الذين أنعم عليهم وهم أولو الهدى والرحمة ويجنبنا طريق المغضوب عليهم ضد المرحومين وطريق الضالين ضد المهتدين ولهذا كان هذا الدعاء من أجمع الدعاء وأفضله وأوجبه وبالله التوفيق

(فصل) اذا كان كل عمل فاعله المحبة والارادة والمقصود به التنعم بالمراد المحبوب فكل حي انما يعمل لما فيه تنعمه ولذته فالتنعم هو المقصود الاول من كل قصد وكل حركة كما ان العذاب والتألم هو المكروه أولا بكل نقص وكل امتناع وكف لكن وقع الجهل والظلم من بني آدم بجنسين بالدين الفاسد والدنيا الفاجرة طلبوا بهما النعيم وفي الحقيقة فانما فيهما ضده ففاتهم النعيم من حيث طلبوه وآثروه ووقعوا في الألم والعذاب من حيث هربوا منه وبيان ذلك ان الاعمال التي يعملها جميع بني آدم إما ان يتخذوها دينا أولا يتخذوها دينا والذين يتخذونها دينا إما أن يكون الدين بها دين حق وإما أن يكون دينا باطلا فنقول النعيم التام هو في الدين الحق علما وعملا فاهله هم أصحاب النعيم الكامل كما أخبر الله تعالى بذلك في كتابه في غير موضع كقوله اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين وقوله عن المتقين المهتدين بالكتاب اولئك على هدى من ربهم واولئك هم المفلحون وقوله فاما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل

حواسه وجوارحه من الشواغل واجتماع قلبه على ما يحبه فانه لا ينام الا على ذكر من يحبه وشغل قلبه به الموطن الثاني عند انتباهه من النوم أول شئ يسبق الى قلبه ذكر محبوبه فانه اذا استيقظ وردت اليه روحه ورد معها اليه ذكر محبوبه الذي كان قد غاب عنه في النوم ولكن كان قد خالط روحه وقلبه فلما ردت اليه الروح أسرع من الطرف رد اليه ذكر محبوبه متصلا بها مصاحبا لها فورد عليه قبل كل وارد وهجم عليه قبل كل طارق فاذا وردت عليه الشواغل والقواطع وردت على محل ممتلئ بمحبة ما يحبه فوردت على ساحته من ظاهرها فاذا قضى وطره منها قضاه بمصاحبته لما في قلبه من الحب فانه قد لزمه ملازمة الغريم لغريمه وكذلك يسمى غراما وهو الحب اللازم الذي لا يفارق فسمع بمحبوبه وأبصر به وبطش به ومشى به فصار محبوبه في وجوده في محل سمعه الذي سمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها هذا مثل محبوبه في وجوده وهو غير متحد به بل هو قائم بذاته مباين له وهذا المعنى مفهوم بين الناس لا ينكره منهم الا اغاليط الحجاب أو قليل العلم ضعيف العقل يجد محبوبه قد استولى على قلبه وذكره فيظن انه هو نفس ذاته الخارجية قد اتحدت به أو حلت فيه فينشأ من قسوة الاول وكثافته وغلظ حجابه وقلة علم الثاني ومعرفته وضعف تمييزه ضلال الحلول والاتحاد وضلال الانكار والتعطيل والحرمان ويخرج من بين فرث هذا ودم هذا لبن الفطرة الاولى خالصا سائغا للشاربين الموطن الثالث عند دخوله في الصلاة فانها محك الاحوال وميزان الايمان بها يوزن ايمان الرجل ويتحقق حاله ومقامه ومقدار قربه من الله ونصيبه منه فانها محل المناجاة والقربة ولا واسطة فيها بين العبد وبين ربه فلا شئ أقر لعين المحب ولا ألذ لقلبه ولا أنعم لعيشه منها اذا كان محبا فانه لا شئ آثر عند المحب ولا أطيب له من خلوته بمحبوبه ومناجاته له ومثوله بين يديه وقد أقبل محبوبه عليه وكان قبل ذلك معذبا بمقاساة الاغيار ومواصلة الخلق والاشتغال بهم فاذا قام الى الصلاة هرب من سوى الله اليه وآوى عنده واطمأن بذكره وقرت عينه بالمثول بين يديه ومناجاته فلا شئ أهم اليه من الصلاة كانه في سجن وضيق وغم حتى تحضر الصلاة فيجد قلبه قد انفسح وانشرح واستراح كما قال النبي لبلال يا بلال ارحنا بالصلاة ولم يقل أرحنا منها كما يقول المبطلون الغافلون وقال بعض السلف ليس بمستكمل الايمان من لم يزل في هم وغم حتى تحضر

ولايشقى وفى الآية الأخرى فمن تبع هداى فلاخوف عليهم ولاهم يحزنون وقوله ان الابرار لفى نعيم والقرآن مملوء من هذا فوعد أهل الهدى والعمل الصالح بالنعيم التام فى الدار الآخرة ووعيد أهل الضلال والفجور بالشقاء فى الدار الآخرة مما اتفقت عليه الرسل من أولهم الى آخرهم وتضمنته الكتب ولكن نذكرههنا نكتة نافعة وهى ان الانسان قد يسمع و يرى مايصيب كثيرا من أهل الايمان فى الدنيا من المصائب وماينال كثيرا من الكفار والفجار والظلمة فى الدنيا من الرياسة والمال وغير ذلك فيعتقد أن النعيم فى الدنيا لايكون الا للكفار والفجار وان المؤمنين حظهم من النعيم فى الدنيا قليل وكذلك قد يعتقد أن العزة والنصرة فى الدنيا قد تستقر للكفار والمنافقين على المؤمنين فاذا سمع فى القرآن قوله تعالى ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين وقوله وان جندنا لهم الغالبون وقوله كتب الله لأغلبن أنا ورسلى وقوله والعاقبة للمتقين ونحو هذه الآيات وهو ممن يصدق بالقرآن حمل ذلك على أن حصوله فى الدار الآخرة فقط وقال أما الدنيا فانا نرى الكفار والمنافقين يغلبون فيها ويظهرون ويكون لهم النصر والظفر والقرآن لايرد بخلاف الحس و يعتمد على هذا الظن اذا أديل عليه عدو من جنس الكفار والمنافقين أو الفجرة الظالمين وهو عند نفسه من أهل الايمان والتقوى فيرى أن صاحب الباطل قد علا على صاحب الحق فيقول انا على الحق وأنا مغلوب فصاحب الحق فى هذه الدنيا مغلوب مقهور والدولة فيها للباطل فاذا ذكر بما وعده الله تعالى من حسن العاقبة للمتقين والمؤمنين قال هذا فى الآخرة فقط واذا قيل له كيف يفعل الله تعالى هذا بأوليائه وأحبائه وأهل الحق فان كان ممن لا يعلل أفعال الله تعالى بالحكم والمصالح قال يفعل الله فى ملكه مايشاء و يحكم مايريد لايسأل عما يفعل وهم يسألون وان كان ممن يعلل الافعال قال فعل بهم ليعرضهم بالصبر عليه لثواب الآخرة وعلو الدرجات وتوفية الاجر بغير حساب ولكل أحد مع نفسه فى هذا المقام مباحثات وايرادات واشكالات وأجوبة بحسب حاصله و بضاعته من المعرفة بالله تعالى وأسمائه وصفاته وحكمته والجهل بذلك فالقلوب تغلى بما فيها كالقدر اذا استجمعت غليانا فلقد بلغنا وشاهدنا من كثير من هؤلاء من التظلم للرب تعالى واتهامه مالا يصدر الا من عدو فكان جهم يخرج بأصحابه فيقفهم على الجذامى وأهل البلاء و يقول انظروا أرحم الراحمين يفعل مثل هذا انكارا لرحمته كما أنكر حكمته فليس الله عند جهم وأتباعه حكيما ولارحيما وقال آخر من كبار القوم ما على الخلق أضر من الخالق وكان بعضهم يتمثل

اذا كان هذا فعله لمحبه * فماذا تراه فى أعاديه يصنع

الصلاة فيزول همه وغمه أو كما قال فالصلاة قرة عيون المحبين وسرور أرواحهم ولذة قلوبهم وبهجة نفوسهم يحملون هم الفراغ منها اذا دخلوا فيها كما يحمل الفارغ البطال همها حتى يقضيها بسرعة فلهم فيها شأن وللنقادين شان يشكون الى الله سوء صنيعهم بهم اذا ائتموا بهم كما يشكو الغافل المعرض تطويل امامه فسبحان من فاضل بين النفوس وفاوت بينها هذا التفاوت العظيم و بالجملة فمن كانت قرة عينه فى الصلاة فلاشئ أحب اليه ولا أنعم عنده منها و يود أن لو قطع عمره بها غير مشتغل بغيرها وانما يسلى نفسه اذا فارقها بانه سيعود اليها عن قرب فهو دائما يثوب اليها ولا يقضى منها وطرا فلا يزن العبد ايمانه ومحبته لله بمثل ميزان الصلاة فانها الميزان العادل الذى وزنه غير عائل الموطن الرابع عند الشدائد والاهوال فان القلب فى هذا الموطن لايذكر الا أحب الاشياء اليه ولايهرب الا الى محبوبه الاعظم عنده ولهذا كانوا يفتخرون بذكرهم من يحبونهم عند الحرب واللقاء وهو كثير فى اشعارهم كما قال

ذكرتك والخطى يخطر بيننا
وقد نهلت منا المثقفة السمر

وقال غيره

ولقد ذكرتك والرماح كأنها
أشطان بئر فى لبان الادهم

وقد جاء فى بعض الآثار يقول تبارك وتعالى ان عبدى كل عبدى الذى يذكرنى وهو ملاق قرنه والسر فى هذا والله أعلم ان عند مصائب الشدائد والاهوال يشتد خوف القلب من فوات أحب الاشياء اليه وهى حياته التى لم يكن يؤثرها الا لقربه من محبوبه فهو انما يحب حياته لتنعمه بمحبوبه فاذا خاف فوتها بدر الى قلبه ذكر المحبوب الذى يفوت بفوات حياته ولهذا والله أعلم كثيرا مايعرض للعبد عند موته لهجه بما يحبه وكثرة ذكره له وربما خرجت روحه وهو يلهج به وذكر ابن أبى الدنيا فى كتاب المحتضرين عن زرارة انه جعل يقول عند موته لها ثلاثة أخماس الصداق لها ربع الصداق لها كذا ومات لامتلاء قلبه من محبة الفقه وانت والعلم وأيضا فانه عند الموت تنقطع شواغله وتبطل حواسه فيظهر مافى القلب و يقوى سلطانه فيبدو مافيه من غير حاجب ولا مدافع وكثيرا ماسمع من بعض المحتضرين عند الموت شامات ٧ وسمع من آخر بيت شعر لم يزل يغنى به حتى مات وكان مغنيا وأخبرنى رجل عن قرابة له انه حضره عند الموت وكان تاجرا يبيع القماش قال فجعل يقول هذه قطعة جيدة هذه على قدرك هذه مشتراها رخيص يساوى كذا وكذا حتى

مات والحكايات في هذا كثيرة جدا فمن كان مشغولا بالله وبذكره ومحبته في حال حياته وجد ذلك أحوج ما هو اليه عند خروج روحه الى الله ومن كان مشغولا بغيره في حال حياته وصحته فيعسر عليه اشتغاله بالله وحضوره معه عند الموت ما لم تدركه عناية من ربه ولاجل هذا كان جديرا بالعاقل أن يلزم قلبه ولسانه ذكر الله حيثما كان لاجل تلك اللحظة التي ان فاتت شقي شقاوة الابد فنسال الله أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته

وأنت تشاهد كثيرا من الناس اذا أصابه نوع من البلاء يقول يا ربي ما كان ذنبي حتى فعلت بي هذا وقال لي غير واحد اذا تبت اليه وأنبت وعملت صالحا ضيق علي رزقي ونكد معيشتي واذا رجعت الى معصيته وأعطيت نفسي مرادها جاءني الرزق والعون ونحو هذا فقلت لبعضهم هذا امتحان منه ليرى صدقك وصبرك هل أنت صادق في مجيئك اليه واقبالك عليه فتصبر على بلائه فيكون لك العاقبة أم أنت كاذب فترجع على عقبك وهذه الاقوال والظنون الكاذبة الحائدة عن الصواب مبنية على مقدمتين احداهما حسن ظن العبد بنفسه ودينه واعتقاده أنه قائم بما يجب عليه وتارك ما نهي عنه واعتقاده في خصمه وعدوه خلاف ذلك وانه تارك للمأمور مرتكب للمحظور وانه نفسه أولى بالله ورسوله ودينه منه والمقدمة الثانية أن الله تعالى سبحانه قد لا يؤيد صاحب الدين الحق وينصره وقد لا يجعل له العاقبة في الدنيا بوجه من الوجوه بل يعيش عمره مظلوما مقهورا مستضاما مع قيامه بما أمر به ظاهرا وباطنا وانتهائه عما نهي عنه باطنا وظاهرا فهو عند نفسه قائم بشرائع الاسلام وحقائق الايمان وهو تحت قهر أهل الظلم والفجور والعدوان فلا إله الا الله كم فسد بهذا الاغترار من عابد جاهل ومتدين لا بصيرة له ومنتسب الى العلم لا معرفة له بحقائق الدين فانه من المعلوم أن العبد وان آمن بالآخرة فانه طالب في الدنيا لما لا بد له من جلب النفع ودفع الضر بما يعتقد أنه مستحب أو واجب أو مباح فاذا اعتقد أن الدين الحق واتباع الهدى والاستقامة على التوحيد ومتابعة السنة ينافي ذلك وانه يعادي جميع أهل الارض ويتعرض لما لا يقدر عليه من البلاء وفوات حظوظه ومنافعه العاجلة لزم من ذلك اعراضه عن الرغبة في كمال دينه وتجرده لله ورسوله فيعرض قلبه عن حال السابقين المقربين بل قد يعرض عن حال المقتصدين أصحاب اليمين بل قد يدخل مع الظالمين بل مع المنافقين وان لم يكن هذا في أصل الدين كان في كثير من فروعه وأعماله كما قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بادروا بالاعمال فتنا كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا ويمسي كافرا ويصبح مؤمنا يبيع دينه بعرض من الدنيا وذلك انه اذا اعتقد أن الدين الكامل لا يحصل الا بفساد دنياه من حصول ضرر لا يحتمله وفوات منفعة لا بد له منها لم يقدم على احتمال هذا الضرر ولا تفويت تلك المنفعة فسبحان الله كم صدت هذه الفتنة لكثير من الخلق بل أكثرهم عن القيام بحقيقة الدين وأصلها ناشئ من جهلين كبيرين جهل بحقيقة الدين وجهل بحقيقة النعيم الذي هو غاية مطلوب النفس وكمالها وبه ابتهاجها والتذاذها فيتولد من بين هذين الجهلين اعراضه عن القيام بحقيقة الدين

(فصل) وقد قيل في المحبة حدود كثيرة غير ما ذكره أبو العباس فقال المحبة ميل القلب الى محبوبه وهذا الحد لا يعطي تصور حقيقة المحبة فان المحبة أعرف عند القلب من الميل وأيضا فان الميل لا يدل على حقيقة المحبة فانها أخص من مجرد ميل القلب اذ قد يميل قلب العبد الى الشئ ولا يكون محبا له لمعرفته بضرته له فان سمي هذا الميل محبة فهو اختلاف عبارة وقيل المحبة علم المحب بجمال المحبوب ومحاسنه وهذا حد قاصر فان العلم بجماله ومحاسنه هو السبب الداعي الى محبته فعبر عن المحبة بسببها وقيل المحبة تعلق القلب بالمحبوب وقيل انصباب القلب الى المحبوب وقيل سكون القلب اليه وقيل اشتغال القلب بالمحبوب بحيث لا يتفرغ قلبه لغيره وقيل المحبة بذل المجهود في معرفة محبوبك وبذل المجهود في مرضاته وقيل هيجان القلب عند ذكر المحبوب وقيل شجرة تنبت في القلب تسقى بماء المراقبة وايثار رضى المحبوب وقيل المحبة حفظ الحدود فليس بصادق من ادعى محبة الله ولم يحفظ حدوده وقيل المحبة ارادة لا تنقص بالجفاء ولا تزيد بالبر وقيل فطام الجوارح عن استعمالها في غير مرضاة المحبوب وقيل المحبة هي السخاء بالنفس للمحبوب وقيل المحبة أن لا يزال عليك رقيب من المحبوب لا يمكنك من الانصراف عنه أبدا وأنشد في ذلك

أبت غلبات الشوق الا تقربا * اليك ويأبى العذل الا تجنبا
وما كان صدي عنك صد ملامة * ولا ذاك الاعراض الا تقربا
وما كان ذاك العذل الا نصيحة * ولا ذاك الاغضاء الا تهيبا
على رقيب منك حل بمهجتي * اذا رمت تسهيلا علي تصعبا

وقيل المحبة سقوط كل محبة من القلب سوى محبة حبيبك وقيل المحبة صدق المجاهدة في أوامر الله وتجريد المتابعة لسنة رسول الله وقيل المحبة أن لا يفتر من ذكره ولا يانس بغيره وقال أبو يزيد المحبة استقلال الكثير من نفسك واستكثار القليل من حبيبك وقيل المحبة أن يمتك حبيبك ويحييك به وقال أبو عبد الله

وعن طلب حقيقة النعيم ومعلوم أن كمال العبد أن يكون عارفا بالنعيم الذي يطلبه والعمل الذي يوصل اليه وان يكون مع ذلك فيه ارادة جازمة لذلك العمل ومحبة صادقة لذلك النعيم والا فالعلم بالمطلوب وطريقه لايحصله ان لم يقترن بذلك العمل والارادة الجازمة لا توجب وجود المراد الا اذا لازمها الصبر فصارت سعادة العبد وكمال لذته ونعيمه موقوفا على هذه المقامات الخمسة علمه بالنعيم المطلوب ومحبته له وعلمه بالطريق الموصل اليه وعمله به وصبره على ذلك قال الله تعالى والعصر ان الانسان لفي خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر والمقصود أن المقدمتين اللتين تثبت عليهما هذه الفتنة أصلهما الجهل بأمر الله ودينه وبوعده ووعيده فان العبد اذا اعتقد انه قائم بالدين الحق فقد اعتقد انه قد قام بفعل المأمور باطنا وظاهرا وترك المحظور باطنا وظاهرا وهذا من جهله بالدين الحق وما لله عليه وما هو المراد منه فهو جاهل بحق الله عليه جاهل بما معه من الدين قدرا ونوعا وصفة واذا اعتقد أن صاحب الحق لا ينصره الله تعالى في الدنيا والآخرة بل قد تكون العاقبة في الدنيا للكفار والمنافقين على المؤمنين وللفجار الظالمين على الابرار المتقين فهذا من جهله بوعد الله تعالى ووعيده فأما المقام الاول فان العبد كثيرا ما يترك واجبات لا يعلم بها ولا بوجوبها فيكون مقصرا في العلم وكثيرا ما يتركها بعد العلم بها وبوجوبها اما كسلا وتهاونا واما النوع تأويل باطل أو تقليد أو لظنه انه مشتغل بما هو أوجب منها أو لغير ذلك فواجبات القلوب أشد وجوبا من واجبات الابدان وآكد منها وكأنها ليست من واجبات الدين عند كثير من الناس بل هي من باب الفضائل والمستحبات فتراه يتحرج من ترك فرض أو من ترك واجب من واجبات البدن وقد ترك ما هو من أهم واجبات القلوب وأفرضها ويتحرج من فعل أدنى المحرمات وقد ارتكب من محرمات القلوب ما هو أشد تحريما وأعظم اثما بل ما أكثر من يتعبد لله عز وجل بترك ما أوجب عليه فيتخلى وينقطع عن الامر بالمعروف والنهي عن المنكر مع قدرته عليه ويزعم انه متقرب الى الله تعالى بذلك مجتمع على ربه تارك ما لا يعنيه فهذا من أمقت الخلق الى الله تعالى وأبغضهم له مع ظنه انه قائم بحقائق الايمان وشرائع الاسلام وانه من خواص أوليائه وحزبه وما أكثر من يتعبد لله بما حرمه الله عليه ويعتقده انه طاعة وقربة وحاله في ذلك شر من حال من يعتقد ذلك معصية واثما كأصحاب السماع الشعري الذي يتقربون به الى الله تعالى ويظنون انهم من أولياء الرحمن وهم في الحقيقة من أولياء الشيطان وما أكثر من يعتقد أنه هو المظلوم المحق من كل وجه ولا يكون الامر كذلك بل يكون معه نوع من الحق ونوع من الباطل والظلم ومع خصمه نوع من الحق والعدل وحبك الشئ يعمي ويصم

[...] وقيل ان تمحو من قلبك ما سوى المحبوب وقال المحبة نسيان حظك من محبوبك وتعرك بكلك الحبة وقال النصرابادي المحبة مجانبة السلو على كل حال وقال الحرث بن أسد المحبة ميلك الى المحبوب بكليتك ثم ايثارك له على نفسك وروحك ومالك ثم موافقتك له سرا وجهرا ثم علمك بتقصيرك في حبه وقيل المحبة سكر لا يصحو الا بمشاهدة المحبوب وقيل المحبة اقامتك بالباب على الدوام وقيل المحبة حرفان حاء وباء فالحاء الخروج عن الروح وبذلها للمحبوب والباء الخروج عن البدن وصرفه في طاعة المحبوب وقال أبو عمر الزجاجي سألت الجنيد عن المحبة فقال تريد الاشارة قلت لا قال تريد الدعوى قلت لا قال فايش تريد قلت عين المحبة فقال ان تحب ما يحب الله في عباده وتكره ما يكره الله في عباده وقيل المحبة معية القلب والروح مع المحبوب معية لا تفارقه فان المرء مع من أحب وقد قيل في المحبة حدود أكثر من هذا كل هذا تعن ولا توصف المحبة ولا تحد بحد أوضح من المحبة ولا أقرب الى الفهم من لفظها وأما ذكر الحدود والتعريفات فانما يكون عند حصول الاشكال والاستعجام على الفهم فاذا زال الاشكال وعدم الاستعجام فلا حاجة الى ذكر الحدود والتعريفات كما قال بعض العارفين ان كل لفظ يعبر به عن الشئ فلا بد أن يكون ألطف وأرق منه والمحبة ألطف وأرق من كل ما يعبر به عنها

(فصل) قال أبو العباس وقال قوم ليس للمحبة صيغة يعبر بها عن حقيقتها فان الغيرة من أوصاف المحبة والغيرة تأبى الا التستر والاختفاء وكل من بسط لسانه بالعبارة عنها والكشف عن سرها فليس له منها ذوق وانما حركه وجدان الرائحة ولو ذاق منها شيئا لغاب عن الشرح والوصف فان المحبة لا تظهر على المحب بلفظه وانما تظهر عليه بشمائله ونحوله ولا يفهم حقيقتها والانسان من المحب سوى المحبوب بموضع اقتداح الاسرار من القلوب كما قيل

تشير فادري ما تقول بطرفها * وأطرق طرفي عند ذاك فتعلم

تكلم منا في الوجوه عيوننا * فنحن سكوت والهوى يتكلم

قلت كل معنى فله صيغة تعبر به عنه ولا سيما اذا كانت من المعاني المعروفة للخاص والعام ولكن العبارة قد تكون كاشفة للمعنى مطابقة له كلفظ الدراهم والخبز والماء واللبن

والانسان مجبول على حب نفسه فهو لا يرى الا محاسنها ومبغض لخصمه فهو لا يرى الا مساويه بل قد يشتد به حبه لنفسه حتى يرى مساويها محاسن كما قال تعالى أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا ويشتد به بغض خصمه حتى يرى محاسنه مساوى كما قال

نظروا بعين عداوة ولو انها * عين الرضا لاستحسنوا ما استقبحوا

وهذا الجهل مقرون بالهوى والظلم غالبا فان الانسان ظلوم جهول وأكثر ديانات الخلق انما هي عادات أخذوها عن آبائهم وأسلافهم وقلدوهم فيها فى الاثبات والنفي والحب والبغض والموالاة والمعاداة والله سبحانه انما ضمن نصر دينه وحزبه وأوليائه القائمين بدينه علما وعملا لم يضمن نصر الباطل ولو اعتقد صاحبه انه محق وكذلك العزة والعلو انما هما لاهل الايمان الذى بعث به رسله وأنزل به كتبه وهو علم وعمل وحال قال تعالى وأنتم الأعلون ان كنتم مؤمنين فللعبد من العلو بحسب ما معه من الايمان وقال ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين فله من العزة بحسب ما معه من الايمان وحقائقه فاذا فاته حظ من العلو والعزة ففى مقابلة ما فاته من حقائق الايمان علما وعملا ظاهرا وباطنا وكذلك الدفع عن العبد هو بحسب ايمانه قال تعالى ان الله يدافع عن الذين آمنوا فاذا ضعف الدفع عنه فهو من نقص ايمانه وكذلك الكفاية والحسب هي بقدر الايمان قال تعالى يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين أى الله حسبك وحسب اتباعك أى كافيك وكافيهم فكفايته لهم بحسب اتباعهم لرسوله وانقيادهم له وطاعتهم له فما نقص من الايمان عاد بنقصان ذلك كله ومذهب أهل السنة والجماعة أن الايمان يزيد وينقص وكذلك ولاية الله تعالى لعبده هي بحسب ايمانه قال تعالى والله ولي المؤمنين وقال الله تعالى الله ولي الذين آمنوا وكذلك معيته الخاصة هي لاهل الايمان كما قال وان الله لمع المؤمنين فاذا نقص الايمان وضعف كان حظ العبد من ولاية الله له ومعيته الخاصة بقدر حظه من الايمان وكذلك النصر والتأييد الكامل انما هو لاهل الايمان الكامل قال تعالى انا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد وقال فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين فمن نقص ايمانه نقص نصيبه من النصر والتأييد ولهذا اذا أصيب العبد بمصيبة فى نفسه أو ماله أو بادالة عدوه عليه فانما هي بذنوبه اما بترك واجب أو فعل محرم وهو من نقص ايمانه وبهذا يزول الاشكال الذى يورده كثير من الناس على قوله تعالى ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا ويجيب عنه كثير منهم بأنه لن يجعل لهم عليهم

ونحوها وهي أكبر الالفاظ وقد يكون المعنى فوق ما يشير اليه اللفظ ويعبر عنه وهو أجل من أن يدل لفظه على كمال ماهيته وهذا كأسماء الرب سبحانه وأسماء كتابه وكذلك اسم الحب فانه لا يكشف اسمه مسماه بل مسماه فوق لفظه وكذلك اسم الشوق والعشق والموت والبلاء ونحوها وقد يكون المعنى دون اللفظ بكثير واللفظ أجل منه وأعظم وهذا كلفظ الجوهر الفرد الذى هو عبارة عن أقل شئ وأصغره وأدقه وأحقره فليس معناه على قدر لفظه واذا عرف هذا فقولهم ليس للمحبة صيغة يعبر بها عن حقيقتها المراد به ان لفظها لا يفهم حقيقة معناها ومعناها فوق ما يفهم من لفظها وقوله الغيرة من أوصاف المحبة وهي تأبى الا التستر والاختفاء هذا كلام فى حكم المحبة ومقتضاها لا فى حقيقتها ومعناها والمحبون متباينون فى هذا الحكم فمنهم من يجعل الغيرة من لوازم المحبة وعلامة ثبوتها وتمكنها ويجعل نداء المرء عليها وبسط لسانه بالاخبار بها دليلا على انه دعي فيها وان ما معه منها رائحتها لا حقيقتها وحقيقتها تأبى الا التستر والكتمان وهذه طريقة الملامين كما قيل

لا تنكري جحدي هواك فانما * ذاك الجحود عليه ستر مسبل

ولهذا قيل المحبة كتمان الارادة واظهار الموافقة وهذه الطائفة رأت ان كمال المحبة بكتمانها لاسباب عديدة أحدها ان الحب كلما كان مكتوما كان أشد وأعظم سريانا وسكونا فى أجزاء القلب كلها كما قيل الحب أقتله أكتمه فاذا أفشاه المحب وأظهره وباح به ونادى عليه ضعف أثره وصار عرضة للزوال الثانى ان الحب كنز من الكنوز بل هو أعظم الكنوز المودعة فى سر العبد وقلبه فلا طريق للصوص عليه فاذا باح به ونادى عليه فقد دل قطاع الطريق واللصوص على موضع كنزه وعرضهم لسلبه منه فان النفوس غيارة مغيرة تغار على المحبوب أن يشاركها فى حبه أحد فاذا غارت عليه أغارت على القلوب التى فيها حبه فانتزعت منه وهذه الآفة قد ابتلى بها كثير من السالكين الذين هم فى الحقيقة قطاع الطريق على السالكين الى الله وسولت لهم أنفسهم ان هذه غيرة منهم على محبوبهم ان يحب مثل هذه النفوس المتلوثة بالدنيا وغرتهم أنفسهم ومنتهم انهم يغارون على الله ويحولون بين تلك النفوس وبين المحبة فغاروا وأغاروا ونهبوا واستلبوا وهذه الطريقة عند المحبين المخلصين أولياء الله الداعين الى الله عداوة لله فى الحقيقة ومعاونة للشيطان وقعود على طريق الله المستقيم الذى خلق عباده لاجله وأمرهم به فالحذر من هؤلاء القطاع اللصوص حمل أهل المحبة على المبالغة فى كتمانها واظهار التخلي منها باسباب يلامون عليها ظاهرا وقلوبهم معمورة بالمحبة مأهولة بها وهذا الذى

سبيلا فى الآخرة ويجيب آخرون بأنه لن يجعل لهم عليهم سبيلا فى الحجة والتحقيق انها مثل هذه الآيات وان انتفاء السبيل عن أهل الايمان الكامل فاذا ضعف الايمان صار لعدوهم عليهم من السبيل بحسب ما نقص من ايمانهم فهم جعلوا لهم عليهم السبيل بما تركوه من طاعة الله تعالى فالمؤمن عزيز عال مؤيد منصور مكفى مدفوع عنه بالذات أين كان ولو اجتمع عليه من بأقطارها اذا قام بحقيقة الايمان وواجباته ظاهرا وباطنا وقد قال تعالى للمؤمنين فلا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم فهذا الضمان انما هو بايمانهم وأعمالهم التى هى جند من جنود الله يحفظهم بها ولا يفردها عنهم ويقتطعها عنهم فيبطلها عليهم كما يتر الكافرين والمنافقين أعمالهم اذ كانت لغيره ولم تكن موافقة لأمره وأما المقام الثانى الذى وقع فيه الغلط فكثير من الناس يظن أن أهل الدين الحق فى الدنيا يكونون أذلاء مقهورين مغلوبين دائما بخلاف من فارقهم الى سبيل أخرى وطاعة أخرى فلا يثق بوعد الله بنصر دينه وعباده بل اما أن يجعل ذلك خاصا بطائفة دون طائفة أو بزمان دون زمان أو يجعله معلقا بالمشيئة وان لم يصرح بها وهذا من عدم الوثوق بوعد الله تعالى ومن سوء الفهم فى كتابه والله سبحانه قد بين فى كتابه انه ناصر المؤمنين فى الدنيا والآخرة قال تعالى انا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد وقال تعالى ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون وقال تعالى ان الذين يحادون الله ورسوله أولئك فى الأذلين كتب الله لأغلبن أنا ورسلى وهذا كثير فى القرآن وقد بين سبحانه فيه ان ما أصاب العبد من مصيبة أو ادالة عدو أو كسر وغير ذلك فبذنوبه فبين فى كتابه كلا المقدمتين فاذا جمعت بينهما تبين لك حقيقة الامر وزال الاشكال بالكلية واستغنيت عن تلك التكلفات الباردة والتأويلات البعيدة فقرر سبحانه المقام الاول بوجوه من التقرير منها ما تقدم ومنها انه ذم من يطلب النصر والعز من غير المؤمنين كقوله يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم الى قوله فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة الى قوله ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون فأنكر على من طلب النصر من غير حزبه وأخبر ان حزبه هم الغالبون ونظير هذا قوله بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فان العزة لله جميعا وقال تعالى يقولون لئن رجعنا

فلو قسمه هو من تلبيس الشيطان وخدعه لهم ومكره بهم وانما هو حسد حملهم على ان يردوه وصالوا به وسموه غيرة وانما غيرة المحبين لله أن يغار أحدهم لمحارم الله اذا انتهكت فيغار لله لا على الله كما قال النبى صلى الله عليه وسلم ان الله يغار وان المؤمن يغار وغيرة الله ان يأتى العبد ما حرم عليه فغيرة المحب هى الموافقة لغيرة محبوبه وهى ان يغار مما يغار منه المحبوب واذا كان المحبوب ممن يحبه وهذا يغار ممن يحبه الله فهو فى الحقيقة ساع فى خلاف مراد محبوبه فى اعدام ما يحبه محبوبه فاين هذا من الغيرة لمحبوبه لله وانما هذه غيرة من أخيه المسلم كيف خصه الله بعطائه وألبسه ثوب نعمائه فهى غيرة منه لا غيرة على الله فان الله لا يغار عليه بل يغار له وسنفرد ان شاء الله الغيرة فصلا نذكر فيه أقسامها وحقيقتها الثالث ان المحبة التامة تستدعى شغل القلب بالمحبوب وعدم تفرغه للشرح والوصف فلو صدقت محبته لاستغرق فيها عن شرح حاله ووصفه فهذه طريقة هؤلاء ومنهم من يجعل تهتكه وبوحه بها واعلامه لها من تمامها وقوتها ومن علامات قهرها له وانها غلبت على سره حتى لم يطق صبره كتمانها كما قال النورى المحبة هتك الاستار وكشف الاسرار فهذا حال النورى واضرابه وعند هؤلاء التكتم ضعف فى المحبة وجور فيها وحقيقتها ان تخليها ومقتضاها من ظهور آثارها على الجوارح والبدن فان أثرت حركة لم يسكنها وان أثرت دمعة لم يمسكها وان أثرت تنفسا لم يكظمه وان أثرت بذلا وايثارا لم يمسكه وكمال المحبة عندهم أن تنادى عليه أعضاؤه وألفاظه وألحاظه وحركاته وسكناته بالحب نداء لا يملك انكاره وقال على بن عبيد وكتب يحيى بن معاذ الى أبى يزيد سكرت من كثرة ما شربت من كأس محبته فكتب اليه أبو يزيد غيرك شرب بحور السموات والارض ما روى بعد ولسانه خارج وهو يقول هل من مزيد فلم يرهذان العارفان التكتم بها واخفاءها وجحدها وهما هما وكان الاستاذ أبو على الدقاق ينشد كثيرا

لى سكرتان وللندمان واحدة * شئ خصصت به من بينهم وحدى

وجاء رجل الى عبد الله بن المبارك فقال رأيت فى المنام كانك تموت الى سنة فقال عبد الله لقد أجلتنى الى أجل بعيد أعيش الى سنة لقد كان لى الى اسوة ببيت سمعته من أبى على

يامن شكى شوقه من طول فرقته * لعلك تلقى من تحب غدا

وقال الشبلى المحب اذا سكت هلك والعارف ان لم يسكت هلك والتحقيق ان هذا هو حال المتمكن فى حبه الذى تزول الجبال الراسيات وقلبه على الود لا يلوى ولا يتغير والاول حال المريد المبتدى الذى قد علقت نار المحبة فى قلبه ولم يتمكن استعمالها فهو يخاف عليها عواصف الرياح ان تطفئها فهو يخبؤها ويكتمها

ويسترها من الرياح جهده فاذا اشتد اشتعالها وتمكن وقودها فى القلب لم تزدها كثرة الرياح الا وقودا واشتعالا انتهى وهذا يختلف باختلاف الناس
وتفاوتهم فى قوة المحبة وضعفها والمقصود ان من بسط لسانه بالعبارة عنها والكشف عن سرها وأحكامها لن يؤمن أن يكون من أهل العلم
بالمحبة لا من المتصفين بها حالا فكم بين العلم بالشئ والاتصاف به ذوقا وحالا فعلم المحبة شئ ووجودها فى القلب شئ وكثير من المحبين الذين
امتلأت قلوبهم محبة لو سئل عن حده وأحكامها وحقيقتها لم يطق أن يعبر عنها ولا يتهيأ له أن يصفها ويصف أحكامها وأكثر المتكلمين
فيها انما تكلموا فيها بلسان العلم لا بلسان الحال وهذا والله أعلم هو معنى قول بعض المشايخ أعظم الناس حجابا عن الله أكثرهم
اليه اشارة فانه انما حظه منه الاشارة
اليه لا علوق القلب عليه كالفقير
الذى دأبه وصف الاغنياء وأموالهم
ووصف الدنيا وممالكها وهو
خلو من ذلك ولا ريب ان وجود
الحب فى القلب وترك الكلام
علما خير من كثرة الكلام فى
هذه المسألة وخلو القلب منها
وخير من الرجلين من امتلأ قلبه
منها حالا وذوقا وفاضت على لسانه
ارشادا وتعليما ونصيحة للامة
فهذا حال الكمل من الناس والله
المسؤل من فضله وكرمه قوله
والمحبة لا تظهر على المحب بلفظه
وانما تظهر عليه بشمائله ونحوله
هذا أحق فان دلالة الحال على المحبة
أعظم من دلالة المقال عليها بل
الدلالة عليها فى الحقيقة هو شاهد
الحال لا صريح المقال ففرق بين من
يقول لك بلسانه انى أحبك ولا
شاهد عليه من حاله وبين ما هو
ساكت لا يتكلم وأنت ترى
شواهد أحواله كلها ناطقة بحبه
لك قال جعفر قال الجنيد دفع
السرى الى رقعة وقال هذه خير
لك من سبعمائة قصة وكذا فاذا فيها
ولما ادعيت الحب قالت كذبتنى
فمالى أرى الاعضاء منك كواسيا
فما الحب حتى يلصق القلب بالحشا
وتذبل حتى لا تجيب المناديا
وتنحل حتى لا يبقى لك الهوى * سوى مقلة تبكى بها وتناجيا وبالجملة فشاهد الحب الذى لا يكذب هو شاهد الحال وأما شاهد
المقال فصادق وكاذب قوله ولا يفهم حقيقتها من المحب سوى المحبوب لموضع امتزاج الاسرار من القلوب يعنى ان حقيقة المحبة وسرها لا يفهمه
من المحب الا محبوبه وذلك لشدة الاتصال الذى بينه وبين محبوبه فى الباطن فروحه أقرب شئ اليه وأما الغير وان علم انه محب بظهور أثر
المحبة عليه وقيام شاهدها لكن لا يدرك تلك اللطيفة والحقيقة التى يدركها المحبوب من محبه لموضع اتصال سره به وقرب ما بين الزوجين
ولا سيما اذا كانت المحبة من الطرفين فهناك التحبب والمناجاة والملاطفة والاشارة والعتاب والشكوى وهما ساكنان لا يدرى جليسهما

الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين
لا يعلمون وقال تعالى من كان يريد العزة فلله العزة جميعا اليه يصعد الكلم الطيب والعمل
الصالح يرفعه أى من كان يريد العزة فليطلبها بطاعة الله من الكلم الطيب والعمل الصالح
وقال تعالى هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وقال يا أيها
الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون
فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم الى قوله وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر
المؤمنين أى ويعطيكم فوق مغفرة الذنوب ودخول الجنة وهى النصر والفتح الى قوله
فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين وقال تعالى للمسيح انى متوفيك
ورافعك الى ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى
يوم القيامة فلما كان للنصارى نصيب ما من اتباعه كانوا فوق اليهود الى يوم القيامة ولما
كان المسلمون أتبع له من النصارى كانوا فوق النصارى الى يوم القيامة وقال تعالى
للمؤمنين ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا سنة الله التى
قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا فهذا خطاب للمؤمنين الذين قاموا بحقائق
الايمان ظاهرا وباطنا وقال تعالى والعاقبة للمتقين وقال والعاقبة للتقوى والمراد
العاقبة فى الدنيا قبل الآخرة لانه ذكر ذلك عقيب قصة نوح ونصره على قومه فقال
تعالى تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر
ان العاقبة للمتقين أى عاقبة النصر لك ولمن معك كما كانت لنوح عليه السلام ومن آمن
معه وكذلك قوله وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة
للتقوى وقال تعالى وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيأ وقال بلى ان تصبروا
وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين وقال
إخبارا عن يوسف عليه السلام انه نصر بتقواه وصبره فقال أنا يوسف وهذا أخى قد من الله
علينا انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين وقال يا أيها الذين آمنوا ان تتقوا
الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيآتكم والفرقان هو العز والنصر والنجاة والنور
الذى يفرق بين الحق والباطل وقال تعالى ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث
لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه ان الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شئ قدرا
وقد روى ابن ماجه وابن أبى الدنيا عن أبى ذر رضى الله عنه عن النبى صلى الله تعالى عليه

وسلم قال لو عمل الناس كلهم بهذه الآية لوسعتهم فهذا في المقام الاول وأما المقام الثاني فقال تعالى في قصة أحد أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم وقال تعالى ان الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان انما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا وقال تعالى وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير وقال ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون وقال وانا اذا أذقنا الانسان منا رحمة فرح بها وان تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فان الانسان كفور وقال واذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وان تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم اذاهم يقنطون وقال أو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير وقال ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ولهذا أمر سبحانه رسوله والمؤمنين باتباع ما أنزل اليهم وهو طاعته وهو المقدمة الاولى وأمر بانتظار وعده وهو المقدمة الثانية وأمر بالاستغفار والصبر لان العبد لابدّ أن يحصل له نوع تقصير وسرف يزيله الاستغفار ولابد في انتظار الوعد من الصبر فبالاستغفار تتم الطاعة وبالصبر يتم اليقين بالوعد وقد جمع سبحانه بينهما في قوله فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والابكار وقد ذكر سبحانه في كتابه قصص الانبياء واتباعهم وكيف نجاهم بالصبر والطاعة ثم قال لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب

(فصل) وتمام الكلام في هذا المقام العظيم يتبين بأصول نافعة جامعة *الاول ان ما يصيب المؤمنين من الشرور والمحن والأذى دون ما يصيب الكفار والواقع شاهد بذلك وكذلك ما يصيب الابرار في هذه الدنيا دون ما يصيب الفجار والفساق والظلمة بكثير *الاصل الثاني أن ما يصيب المؤمنين في الله تعالى مقرون بالرضا والاحتساب فان فاتهم الرضا فعولهم على الصبر وعلى الاحتساب وذلك يخفف عنهم ثقل البلاء ومؤنته فانهم كلما شاهدوا العوض هان عليهم تحمل المشاق والبلاء والكفار لا رضا عندهم ولا احتساب وان صبروا فكصبر البهائم وقد نبه تعالى على ذلك بقوله ولا تهنوا في ابتغاء القوم ان تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون فاشتركوا في الألم وامتاز المؤمنون برجاء الاجر والزلفى من الله تعالى *الاصل الثالث أن المؤمن اذا أوذي في الله فانه محمول عنه بحسب طاعته واخلاصه ووجود حقائق الايمان في قلبه حتى يحمل عنه من الأذى ما لو كان شئ منه على غيره لعجز عن حمله وهذا من دفع الله عن عبده المؤمن

بينهما (فصل) قال وأما محبة العوام فهي محبة تنشأ من مطالعة المنة وتثبت باتباع السنة وتنمو على الاجابة للفاقة وهي محبة تقطع الوسواس وتلذذ الخدمة وتسلي عن المصائب وهي في طريق العوام عمدة الايمان فيقال لاريب ان المحبة درجات متفاوتة بعضها أكمل من بعض وكل درجة خاصة بالنسبة الى ما تحتها عامة بالنسبة الى ما فوقها فليس انقسامها الى خاص وعام انقساما حقيقيا متميزا بالنسبة بفصل يميز أحد النوعين عن الآخر وانما تنقسم باعتبار الباعث عليها وسببها وتنقسم بذلك الى قسمين أحدهما محبة تنشأ من الاحسان ومطالعة الآلاء والنعم فان القلوب جبلت على حب من أحسن اليها وبغض من أساء اليها ولا أحد أعظم احسانا من الله سبحانه فان احسانه على عبده في كل نفس ولحظة وهو يتقلب في احسانه في جميع احواله ولا سبيل له الى ضبط أجناس هذا الاحسان فضلا عن أنواعه أو عن افراده ويكفي ان من بعض أنواعه نعمة النفس التي لا تكاد تخطر ببال العبد وله عليه في كل يوم وليلة فيه أربعة وعشرون ألف نعمة فانه يتنفس في اليوم والليلة أربعة وعشرين ألف نفس وكل نفس نعمة منه سبحانه فاذا كان أدنى نعمة عليه في كل يوم أربعة وعشرون ألف نعمة فما الظن بما فوق ذلك وأعظم منه وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها هذا الى ما يصرف عنه من المضرات وأنواع الأذى التي تقصده ولعلها توازن النعم في الكثرة والعبد لا شعور له بأكثرها أصلا والله سبحانه يكلأه منها بالليل والنهار كما قال تعالى قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن وسواء كان المعنى من يكلؤكم ويحفظكم منه اذا أراد بكم سوأ ويكون يكلؤكم مضمنا معنى يجيركم وينجيكم من بأسه أو كانت من البدلية أي من يكلؤكم بدل الرحمن أي هو الذي يكلؤكم وحده لا كالئ لكم غيره ونظير من هذه قوله ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الارض يخلفون على أحد القولين أي عوضكم وبدلكم واستشهدوا على ذلك بقول الشاعر وجارية لم تأكل المرققا * ولم تذق من البقول الفستقا اي لم تأكل الفستق بدل البقول وعلى كلا القولين فهو سبحانه منعم عليهم بكلاءتهم وحفظهم وحراستهم مما يؤذيهم بالليل والنهار وحده لا حافظ لهم غيره هذا مع غناه التام عنهم وفقرهم التام اليه سبحانه فانه غني عن خلقه من كل وجه وهم فقراء محتاجون اليه من كل وجه وفي بعض الآثار يقول تعالى انا الجواد ومن أعظم مني جودا وكرما أبيت أكلأ عبادي في مضاجعهم وهم يبارزونني بالعظائم وفي الترمذي ان النبي صلى الله عليه وسلم لما رأى السحاب قال هذه روايا الارض يسوقها الله الى قوم لا يذكرونه ولا

يعبدونه وفى الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم انه قال لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله انهم ليجعلون له الولد وهو يرزقهم ويعافيهم وفى بعض الآثار يقول الله ابن آدم خيرى اليك نازل وشرك الى صاعد كم أتحبب اليك بالنعم وأنا غنى عنك وكم تتبغض الى بالمعاصى وأنت فقير الى ولا يزال الملك الكريم يعرج الى منك بعمل قبيح ولو لم يكن من تحببه الى عباده واحسانه اليهم وبره بهم الا أنه خلق لهم ما فى السموات والارض وما فى الدنيا والآخرة ثم أهلهم وكرمهم وأرسل اليهم رسله وأنزل عليهم كتبه وشرع لهم شرائعه وأذن لهم فى مناجاته كل وقت أرادوا وكتب لهم بكل حسنة يعملونها عشرة أمثالها الى سبعمائة ضعف الى أضعاف كثيرة وكتب لهم (٣٢٥) بالسيئة واحدة فان تابوا منها محاها وأثبت مكانها حسنة واذا بلغت ذنوب أحدهم عنان السماء ثم استغفره غفر له ولو لقيه بقراب الارض خطايا ثم لقيه بالتوحيد لا يشرك به شيأ لاتاه بقرابها مغفرة وشرع لهم التوبة الهادمة للذنوب فوفقهم لفعلها ثم قبلها منهم وشرع لهم الحج الذى يهدم ما قبله فوفقهم لفعله وكفر عنهم سيئاتهم به وكذلك ما شرعه لهم من الطاعات والقربات هو الذى أمرهم بها وخلقها لهم وأعطاهم اياها ورتب عليها جزاءها فمنه السبب ومنه الجزاء ومنه التوفيق ومنه العطاء أولا وآخرا وهم محل احسانه فقط ليس منهم شئ انما الفضل كله والنعمة كلها والاحسان كله منه أولا وآخرا أعطى عبده ماله وقال تقرب بهذا الى أقبله منك فالعبد له والمال له والثواب منه فهو المعطى أولا وآخرا فكيف لا يحب من هذا شانه وكيف لا يستحى العبد أن يصرف شيئا من محبته الى غيره ومن أولى بالحمد والثناء والمحبة منه ومن أولى بالكرم والجود والاحسان منه فسبحانه وبحمده لا اله الا هو العزيز الحكيم ويفرح سبحانه بتوبة أحدهم اذا تاب اليه أعظم فرح وأكمله ويكفر عنه ذنوبه ويوجب له محبته بالتوبة وهو الذى ألهمه اياها ووفقه لها وأعانه عليها وملأ سبحانه سمواته من ملائكته واستعملهم فى الاستغفار لاهل الارض واستعمل حملة العرش منهم فى الدعاء لعباده المؤمنين والاستغفار لذنوبهم ووقايتهم عذاب الجحيم والشفاعة اليه باذنه أن يدخلهم جناته فانظر الى هذه العناية وهذا الاحسان وهذا التحنن والعطف والتحبب الى العباد واللطف التام بهم ومع هذا كله بعد ان أرسل اليهم رسله وأنزل عليهم كتبه وتعرف اليهم بأسمائه وصفاته وآلائه ينزل كل ليلة الى سماء الدنيا يسأل عنهم ويستعرض حوائجهم بنفسه ويدعوهم الى سؤاله فيدعو مسيئهم الى التوبة ومريضهم الى أن يسأله أن يشفيه وفقيرهم الى أن يساله غناه وذا حاجتهم يساله قضاها كل ليلة ويدعوهم الى التوبة وقد حاربوه وعذبوا أولياءه

فانه يدفع عنه كثيرا من البلاء واذا كان لا بد له من شئ منه دفع عنه ثقله ومؤنته ومشقته * الاصل الرابع أن المحبة كلما تمكنت فى القلب ورسخت فيه كان أذى المحب فى رضا محبوبه مستحلى غير مسخوط والمحبون يفتخرون عند أحبابهم بذلك حتى قال قائلهم

لئن ساءنى ان نلتنى بمساءة * لقد سرنى انى خطرت ببالك

فما الظن بمحبة المحبوب الأعلى الذى ابتلاؤه لحبيبه رحمة منه له واحسان اليه * الاصل الخامس أن ما يصيب الكافر والفاجر والمنافق من العز والنصر والجاه دون ما يحصل للمؤمنين بكثير بل باطن ذلك ذل وكسر وهوان وان كان فى الظاهر بخلافه قال الحسن رحمه الله انهم وان هملجت بهم البغال وطقطقت بهم النعال ان ذل المعصية لفى قلوبهم أبى الله الا أن يذل من عصاه * الاصل السادس أن ابتلاء المؤمن كالدواء يستخرج منه الادواء التى لو بقيت فيه أهلكته أو نقصت ثوابه وأنزلت درجته فيستخرج الابتلاء والامتحان منه تلك الادواء ويستعد به لتمام الاجر وعلو المنزلة ومعلوم أن وجود هذا خير للمؤمن من عدمه كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم والذى نفسى بيده لا يقضى الله للمؤمن قضاء الا كان خيرا له وليس ذلك الا للمؤمن ان أصابته سراء شكر فكان خيرا له وان أصابته ضراء صبر فكان خيرا له فهذا الابتلاء والامتحان من تمام نصره وعزه وعافيته ولهذا كان أشد الناس بلاء الانبياء ثم الاقرب اليهم فالاقرب يبتلى المرء على حسب دينه فان كان فى دينه صلابة شدد عليه البلاء وان كان فى دينه رقة خفف عنه ولا يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشى على وجه الارض وما عليه خطيئة * الاصل السابع أن ما يصيب المؤمن فى هذه الدار من ادالة عدوه عليه وغلبته له وأذاه له فى بعض الاحيان أمر لازم لا بد منه وهو كالحر الشديد والبرد الشديد والامراض والهموم والغموم فهذا أمر لازم للطبيعة والنشأة الانسانية فى هذه الدار حتى للاطفال والبهائم لما اقتضته حكمة أحكم الحاكمين فلو تجرد الخير فى هذا العالم عن الشر والنفع عن الضر واللذة عن الألم لكان ذلك عالما غير هذا ونشأة غير هذه النشأة وكانت تفوت الحكمة التى مزج لاجلها بين الخير والشر والألم واللذة والنافع والضار وانما يكون تخليص هذا من هذا وتمييزه فى دار أخرى غير هذه الدار كما قال تعالى ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله فى جهنم أولئك هم الخاسرون * الاصل الثامن أن

وجوههم بالنار قال تعالى ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق وقال بعض السلف انظروا الى كرمه كيف عذبوا أولياءه وحرقوهم بالنار ثم هو يدعوهم الى التوبة فهذا الباب يدخل منه كل أحد الى محبته سبحانه فان نعمته على عباده مشهودة لهم يتقلبون فيها على عدد الانفاس واللحظات وقد روى فى بعض الاحاديث مرفوعا أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبونى بحب الله فهذه محبة تنشأ من مطالعة المنن والاحسان ورؤية النعم والآلاء وكلما سافر القلب فيها ازدادت محبته وتأكدت ولا نهاية لها فيقف سفر القلب عندها بل كلما ازداد فيها نظرا (٣٢٦) ازداد فيها اعتبارا وعجزا عن ضبط القليل منها فيستدل بما عرفه على مالم يعرفه والله سبحانه دعا عباده اليه من هذا الباب حتى اذا دخلوا منه دعوا من الباب الآخر وهو باب الاسماء والصفات الذى انما يدخل منه اليه خواص عباده وأوليائه وهو باب المحبين حقا الذين لا يدخل منه غيرهم ولا يشبع من معرفته أحد منهم بل كلما بدا له منه علم ازداد شوقا ومحبة وظمأ فاذا انضم داعى الاحسان والانعام الى داعى الكمال والجمال لم يتخلف عن محبة من هذا شأنه الا أردى القلوب وأخبثها وأشدها نقصا وأبعدها من كل خير فان الله فطر القلوب على محبة المحسن الكامل فى أوصافه وأخلاقه واذا كانت هذه فطرة الله التى فطر عليها قلوب عباده فمن المعلوم انه لا أحد أعظم احسانا منه سبحانه ولا شئ أكمل منه ولا أجمل فكل كمال وجمال فى المخلوق من آثار صنعه سبحانه وهو الذى لا يحد كماله ولا يوصف جلاله وجماله ولا يحصى أحد من خلقه ثناء عليه بجميل صفاته وعظيم احسانه وبديع أفعاله بل هو كما أثنى على نفسه واذا كان الكمال محبوبا لذاته ونفسه وجب أن يكون الله هو المحبوب لذاته وصفاته اذ لا شئ أكمل منه وكل اسم من أسمائه وصفة من صفاته تستدعى محبة خاصة فان أسماءه كلها حسنى وهى مشتقة من صفاته وأفعاله دالة عليها فهو المحبوب المحمود على كل ما فعل وعلى كل ما أمر اذ ليس فى أفعاله عبث ولا فى أوامره سفه بل أفعاله كلها لا تخرج عن الحكمة والمصلحة والعدل والفضل والرحمة وكل واحد من ذلك يستوجب الحمد والثناء والمحبة عليه وكلامه كله صدق وعدل وجزاؤه كله فضل وعدل فانه ان أعطى فبفضله ورحمته ونعمته وان منع أو عاقب فبعدله وحكمته

ما للعباد عليه حق واجب * كلا ولا سعى لديه ضائع
ان عذبوا فبعدله أو نعموا * فبفضله وهو الكريم الواسع

(فصل) وبعد

ولا يتصور نشر هذا المقام حق تصوره فضلا عن أن يوفاه حقه فاعرف خلقه به وأحبهم له يقول لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك

ابتلاء المؤمنين بغلبة عدوهم لهم وقهرهم وكسرهم لهم أحيانا فيه حكمة عظيمة لا يعلمها على التفصيل الا الله عز وجل فمنها استخراج عبوديتهم وذلهم لله وانكسارهم له وافتقارهم اليه وسؤاله نصرهم على أعدائهم ولو كانوا دائما منصورين قاهرين غالبين لبطروا وأشروا ولو كانوا دائما مقهورين مغلوبين منصورا عليهم لما قامت للدين قائمة ولا كانت للحق دولة فاقتضت حكمة أحكم الحاكمين ان صرفهم بين غلبهم تارة وكونهم مغلوبين تارة فاذا غلبوا تضرعوا الى ربهم وأنابوا اليه وخضعوا له وانكسروا له وأنابوا اليه واذا غلبوا أقاموا دينه وشعائره وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وجاهدوا عدوهم ونصروا أولياءه ومنها أنهم لو كانوا دائما منصورين غالبين قاهرين لدخل معهم من ليس قصده الدين ومتابعة الرسول فانه انما ينضاف الى من له الغلبة والعزة ولو كانوا مقهورين مغلوبين دائما لم يدخل معهم أحد فاقتضت الحكمة الالهية ان كانت لهم الدولة تارة وعليهم تارة فيتميز بذلك من يريد الله ورسوله ومن ليس له مراد الا الدنيا والجاه ومنها أنه سبحانه يحب من عباده تكميل عبوديتهم على السراء والضراء وفى حال العافية والبلاء وفى حال ادالتهم والادالة عليهم فلله سبحانه على العباد فى كلتا الحالين عبودية بمقتضى تلك الحال لا تحصل الا بها ولا يستقيم القلب بدونها كما لا تستقيم الابدان الا بالحر والبرد والجوع والعطش والتعب والنصب وأضدادها فتلك المحن والبلايا شرط فى حصول الكمال الانسانى والاستقامة المطلوبة منه ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنع ومنها أن امتحانهم بادالة عدوهم عليهم يمحصهم ويخلصهم ويهذبهم كما قال تعالى فى حكمة ادالة الكفار على المؤمنين يوم أحد ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الاعلون ان كنتم مؤمنين ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الايام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين الى قوله وسيجزى الله الشاكرين فذكر سبحانه أنواعا من الحكم التى لاجلها اديل عليهم الكفار بعد أن ثبتهم وقواهم وبشرهم بأنهم الأعلون بما أعطوا من الايمان وسلاهم بأنهم وان مسهم القرح فى طاعته وطاعة رسوله فقد مس أعداءهم القرح فى عداوته وعداوة رسوله ثم أخبرهم أنه سبحانه بحكمته يجعل الايام دولا بين الناس فيصيب كلا منهم نصيبه منها كالارزاق والآجال ثم أخبرهم أنه فعل ذلك ليعلم المؤمنين منهم وهو سبحانه بكل شئ عليم قبل كونه

و بعد كونه ولكنه أراد أن يعلمهم موجودين مشاهدين فيعلم ايمانهم واقعا ثم أخبر أنه يحب أن يتخذ منهم شهداء فان الشهادة درجة عالية عنده ومنزلة رفيعة لا تنال الا بالقتل فى سبيله فلولا ادالة العدو لم تحصل درجة الشهادة التى هى من أحب الاشياء اليه وأنفعها للعبد ثم أخبر أنه سبحانه يريد تمحيص المؤمنين أى تخليصهم من ذنوبهم بالتوبة والرجوع اليه واستغفاره من الذنوب التى أديل بها عليهم العدو وانه مع ذلك يريد أن يمحق الكافرين ببغيهم وطغيانهم وعدوانهم اذا انتصروا ثم أنكر عليهم حسبانهم وظنهم دخول الجنة بغير جهاد ولا صبر وان حكمته تأبى ذلك فلا يدخلونها الا بالجهاد والصبر ولو كانوا دائما منصورين غالبين لما جاهدهم أحد ولما ابتلوا بما يصبرون عليه من أذى أعدائهم فهذا بعض حكمه فى نصرة عدوهم عليهم وادالته فى بعض الاحيان * الاصل التاسع انه سبحانه انما خلق السموات والارض وخلق الموت والحياة وزين الارض بما عليها لابتلاء عباده وامتحانهم ليعلم من يريده ويريد ما عنده ممن يريد الدنيا وزينتها قال تعالى وهو الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا وقال انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا وقال هو الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وقال تعالى ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون وقال تعالى ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم وقال تعالى الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين فالناس اذا أرسل اليهم الرسل بين أمرين إما أن يقول أحدهم آمنت أولا يؤمن بل يستمر على السيئات والكفر ولا بد من امتحان هذا وهذا فاما من قال آمنت فلا بد أن يمتحنه الرب و يبتليه ليتبين هل هو صادق فى قوله آمنت أو كاذب فان كان كاذبا رجع على عقبيه وفر من الامتحان كما يفر من عذاب الله وان كان صادقا ثبت على قوله ولم يزده الابتلاء والامتحان إلا إيمانا على إيمانه قال تعالى ولما رأى المؤمنون الاحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما وأما من لم يؤمن فانه يمتحن فى الآخرة بالعذاب و يفتن به وهى أعظم المحنتين هذا ان سلم من امتحانه بعذاب الدنيا ومصائبها وعقوباتها التى أوقعها الله بمن لم يتبع رسله وعصاهم فلا بد من المحنة فى هذه الدار وفى البرزخ وفى القيامة لكل أحد ولكن المؤمن أخف محنة وأسهل بلية فان الله يدفع عنه بالايمان و يحمل عنه به

ولو شهد بقلبه صفة واحدة من أوصاف كماله لاستدعت منه المحبة التامة عليها وهل مع المحبين محبة الامن آثار صفات كماله فانهم لم يروه فى هذه الدار وانما وصل اليهم العلم بآثاره فعاينوا آثار صنعه فاستدلوا بما علموه على ما غاب عنهم فلو شاهدوه ورأوا جلاله وجماله وكماله سبحانه لكان لهم فى حبه شأن آخر وانما تفاوت منازلهم ومراتبهم فى محبته على حسب تفاوت مراتبهم فى معرفته والعلم به فاعرفهم له أشدهم حبا له ولهذا كانت رسله أعظم الناس حبا له والخليلان من بينهم أعظمهم حبا وأعرف الامة أشدهم له حبا ولهذا كان المنكرون لحبه من أجهل الخلق به فانهم منكرون لحقيقة الهيته ولخلة الخليلين ولفطرة الله التى فطر الله (٣٢٧) عباده عليها ولو رجعوا الى قلوبهم لوجدوا واجبه فيها و وجدوا معتقدهم نفى محبته يكذب فطرهم وانما بعثت الرسل بتكميل هذه الفطرة واعادة ما أفسد منها الى الحالة الاولى التى فطرت عليها وانما دعوا الى القيام بحقوقها ومراعاتها لئلا تفسد وتنتقل عما خلقت له وهل الاوامر والنواهى الا خدم وتوابع ومكملات ومصلحات لهذه الفطرة وهل خلق سبحانه خلقه الا لعبادته التى هى غاية محبته والذل له وهل هى الانسان الالها كما قيل

قد هيؤك لامر لو فطنت له
فاربأ بنفسك ان ترعى مع الهمل

وهل فى الوجود محبة حق غير باطلة الا محبته سبحانه فان كل محبة متعلقة بغيره فباطلة زائلة ببطلان متعلقها وأما محبته سبحانه فهو الحق الذى لا يزول ولا يبطل كما لا يزول متعلقها ولا يفنى وكل ما سوى الله باطل ومحبة الباطل باطل فسبحان الله كيف ينكر المحبة الحق التى لا محبة أحق منها و يعترف بوجود المحبة الباطلة المتلاشية وهل تعلقت المحبة بوجود محدث لا لكمال فى وجوده بالنسبة الى غيره وهل ذلك الكمال الا من آثار صنع الله الذى أتقن كل شئ وهل الكمال كله الا له فكل من أحب شيئا لكمال ما يدعوه الى محبته فهو دليل وعبرة على محبة الله وانه أولى بكمال الحب من كل شئ ولكن اذا كانت النفوس صغارا كانت محبوباتها على قدرها وأما النفوس الكبار الشريفة فانها تبذل حبها لاجل الاشياء وأشرفها والمقصود ان العبد اذا اعتبر كل كمال فى الوجود وجده من آثار كماله سبحانه فهو دال على كمال مبدعه كما ان كل علم فى الوجود فمن آثار علمه وكل قدرة فمن آثار قدرته ونسبة الكمالات الموجودة فى العالم العلوى والسفلى الى كماله كنسبة علوم الخلق وقدرهم وقواهم وحياتهم الى علمه سبحانه وقدرته وقوته وحياته فاذا لا نسبة أصلا بين كمالات العلم وكمال الله سبحانه فيجب أن لا يكون بين محبته ومحبة غيره من الموجودات له بل يكون حب العبد له أعظم من حبه لكل شئ بما لا نسبة بينهما ولهذا قال تعالى

والذين آمنوا أشد حباً لله فالمؤمنون أشد حباً لربهم ومعبودهم من كل محب لكل محبوب هذا مقتضى عقد الايمان الذى لا يتم الا به وليست هذه المسألة من المسائل التى للعبد عنها غنى أو منها بد كدقائق العلم والمسائل التى يختص بها بعض الناس دون بعض بل هذه تفرض مسألة على العبد وهى أصل عقد الايمان الذى لا يدخل فيه الداخل الا بها ولا فلاح للعبد ولا نجاة له من عذاب الله الا بها فليشتغل بها العبد أو ليعرض عنها ومن لم يتحقق بها علماً وحالاً وعملاً لم يتحقق بشهادة أن لا اله الا الله فانها سرها وحقيقتها ومعناها وان أبى ذلك الجاحدون وقصر عن علمه الجاهلون فان الاله هو المحبوب المعبود الذى تألهه القلوب بحبها وتخضع له وتذل له وتخافه وترجوه وتنيب اليه فى شدائدها وتدعوه فى مهماتها وتتوكل عليه فى مصالحها وتلجأ اليه وتطمئن بذكره وتسكن الى حبه وليس ذلك الا الله وحده ولهذا كانت أصدق الكلام وكان أهلها أهل الله وحزبه والمنكرون لها أعداؤه وأهل غضبه ونقمته فهذه المسألة قطب رحى الدين الذى عليه مداره واذا صحت صح بها كل مسألة وحال وذوق واذا لم يصححها العبد فالفساد لازم له فى علومه وأعماله وأحواله وأقواله ولا حول ولا قوة الا بالله فلنرجع الى شرح كلامه فقوله وأما محبة العوام فهى محبة تنبت من مطالعة المنة يعنى أن لهذه المحبة منشأ وثبوتاً ونمواً فنشوؤها الاحسان ورؤية فضل الله ومنته على عبده وثبوتها باتباع أوامره التى شرعها على لسان رسوله ونموها وهى زيادتها يكون باجابة العبد لدواعى فقره وفاقته الى ربه فكلما دعاه فقره وفاقته الى ربه أجاب هذا الداعى وهو فقير بالذات فلا يزال فقره يدعوه اليه فاذا دام استجابته له بدوام الداعى لم تزل المحبة تنمو وتتزايد فكلما أخطر الرب فى قلبه خواطر الفقر والفاقة بادر قلبه بالاجابة والانكسار بين يديه ذلاً وفاقة وحباً وخضوعاً وانما كانت هذه محبة العوام عنده لان منشأها من الافعال لا من الصفات والجمال ولو قطع الاحسان عن هذه القلوب لتغيرت وذهبت محبتها أو ضعفت فان باعثها انما هو الاحسان ومن ود لأمر ولى عند انقضائه فهو برؤية الاحسان مشغول وبتوالى النعم عليه محمول قوله وهى محبة تقطع الوسواس وتلذذ الخدمة وتسلى على المصائب وهى فى طريق العوام عمدة للايمان انما كانت هذه المحبة قاطعة للوسواس لاحضار المحب قلبه بين يدى محبوبه والوسواس انما ينشأ من الغيبة والبعد وأما الحاضر المشاهد فماله وللوسواس فالموسوس يجاهد نفسه وقلبه ليحضر بين يدى معبوده والمحب لم يغب قلبه عن محبوبه فيجاهده على احضاره فالوسواس والمحبة متنافيان ومن وجه آخر ان المحب قد انقطعت عن قلبه وساوس

ويرزقه من الصبر والثبات والرضا والتسليم ما يهون به عليه محنته وأما الكافر والفاجر فتشتد محنته وبليته وتدوم ومحنة المؤمن خفيفة منقطعة ومحنة الكافر والمنافق شديدة متصلة فلابد من حصول الألم والمحنة هل نفس آمنت أو كفرت لكن المؤمن يحصل له الألم فى الدنيا ابتداء ثم تكون له عاقبة الدنيا والآخرة والكافر والمنافق والفاجر تحصل له اللذة والنعمة ابتداء ثم يصير الى الألم فلا يطمع أحد أنه يخلص من المحنة والألم البتة يوضحه * الاصل العاشر وهو أن الانسان مدنى بالطبع لابد له أن يعيش مع الناس والناس لهم ارادات وتصورات واعتقادات فيطلبون منه أن يوافقهم عليها فان لم يوافقهم آذوه وعذبوه وان وافقهم حصل له الأذى والعذاب من وجه آخر فلابد له من الناس ومخالطتهم ولا ينفك عن موافقتهم أو مخالفتهم وفى الموافقة ألم وعذاب اذا كانت على باطل وفى المخالفة ألم وعذاب اذا لم يوافق أهواءهم واعتقاداتهم ولا ريب أن ألم المخالفة لهم فى باطلهم أسهل وأيسر من الألم المترتب على موافقتهم واعتبر هذا بمن يطلبون منه الموافقة على ظلم أو فاحشة أو شهادة زور أو المعاونة على محرم فان لم يوافقهم آذوه وظلموه وعادوه لكن تكون له العاقبة والنصرة عليهم ان صبر واتقى وان وافقهم فراراً من ألم المخالفة أعقبه ذلك من الألم أعظم مما فر منه والغالب أنهم يسلطون عليه فيناله من الألم منهم أضعاف ما ناله من اللذة أولاً بموافقتهم فمعرفة هذا ومراعاته من أنفع ما للعبد فألم يسير يعقب لذة عظيمة دائمة أولى بالاحتمال من لذة يسيرة تعقب ألماً عظيماً دائماً والتوفيق بيد الله الاصل الحادى عشر ان البلاء الذى يصيب العبد فى الله لا يخرج عن أربعة أقسام فانه اما أن يكون فى نفسه أو فى ماله أو فى عرضه أو فى أهله ومن يحب والذى فى نفسه قد يكون بتلفها تارة وبتألمها بدون التلف فهذا مجموع ما يبتلى به العبد فى الله وأشد هذه الاقسام المصيبة فى النفس ومن المعلوم أن الخلق كلهم يموتون وغاية هذا المؤمن أن يستشهد فى الله وتلك أشرف الموتات وأسهلها فانه لا يجد الشهيد من الألم الا مثل ألم القرصة فليس فى قتل الشهيد مصيبة زائدة على ما هو معتاد لبنى آدم فمن عد مصيبة القتل أعظم من مصيبة الموت على الفراش فهو جاهل بل موت الشهيد من أيسر الميتات وأفضلها وأعلاها ولكن الفار يظن انه بفراره يطول عمره فيتمتع بالعيش وقد أكذب الله سبحانه هذا الظن حيث يقول قل لن ينفعكم الفرار ان فررتم من الموت أو القتل واذا لا تمتعون الا قليلاً فأخبر أن الفرار من الموت بالشهادة لا ينفع فلا فائدة فيه وانه لو نفع لم ينفع الا قليلاً اذ لابد له من الموت فيفوته

بهذا القليل ماهو خير منه وأنفع من حياة الشهيد عند ربه ثم قال قل من ذا الذى يعصمكم من الله ان أراد بكم سوأ أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا فأخبر أن العبد لا يعصمه أحد من الله ان أراد به سوأ غير الموت الذى فر منه فانه فر من الموت لما كان يسوءه فأخبر الله سبحانه أنه لو أراد به سوأ غيره لم يعصمه أحد من الله وانه قد يفر مما يسوءه من القتل فى سبيل الله فيقع فيما يسوءه مما هو أعظم منه واذا كان هذا فى مصيبة النفس فهكذا الامر فى مصيبة المال والعرض والبدن فان من بخل بماله أن ينفق فى سبيل الله تعالى واعلاء كلمته سلبه الله اياه أو قيض له انفاقه فيما لا ينفعه دنيا ولا أخرى بل فيما يعود عليه بمضرته عاجلا وآجلا وان حبسه وادخره منعه التمتع به ونقله الى غيره فيكون له مهنأه وعلى مخلفه وزره وكذلك من رفه بدنه وعرضه وآثر راحته على التعب لله وفى سبيله أتعبه الله سبحانه أضعاف ذلك فى غير سبيله ومرضاته وهذا أمر يعرفه الناس بالتجارب قال أبو حازم لما يلقى الذى لا يتقى الله من معالجة الخلق أعظم مما يلقى الذى يتقى الله من معالجة التقوى واعتبر ذلك بحال ابليس فانه امتنع من السجود لآدم فرارا أن يخضع له ويذل وطلب اعزاز نفسه فصيره الله أذل الاذلين وجعله خادما لأهل الفسوق والفجور من ذريته فلم يرض بالسجود له ورضى أن يخدم هو وبنوه فساق ذريته وكذلك عباد الاصنام أنفوا أن يتبعوا رسولا من البشر ورضوا أن يعبدوا الها من الاحجار وكذلك كل من امتنع أن يذل لله أو يبذل ماله فى مرضاته أو يتعب نفسه فى طاعته لا بد أن يذل لمن لا يسوى ويبذل له ماله ويتعب نفسه وبدنه فى طاعته ومرضاته عقوبة له كما قال بعض السلف من امتنع أن يمشى مع أخيه خطوات فى حاجته أمشاه الله تعالى أكثر منها فى غير طاعته

(فصل) فى خاتمة لهذا الباب هى الغاية المطلوبة وجميع ما تقدم كالوسيلة اليها وهى أن محبة الله سبحانه والأنس به والشوق الى لقائه والرضا به وعنه أصل الدين وأصل أعماله واراداته كما أن معرفته والعلم بأسمائه وصفاته وأفعاله أجل علوم الدين كلها فمعرفته أجل المعارف وارادة وجهه أجل المقاصد وعبادته أشرف الأعمال والثناء عليه بأسمائه وصفاته ومدحه وتمجيده أشرف الأقوال وذلك أساس الحنيفية ملة ابراهيم وقد قال تعالى لرسوله ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين وكان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يوصى أصحابه اذا أصبحوا أن يقولوا أصبحنا على فطرة

الاطماع لامتلاء قلبه من محبة حبيبه فلا يتوارد على قلبه جواذب الاطماع والامانى لاشتغاله بما هو فيه وأيضا فان الوسواس والامانى انما تنشأ من حاجته وفاقته الى ما تعلق طمعه به وهذا عبد قد حبى من الاحسان وأعطى من النعم ما سد حاجته وأغنى فاقته فلم يبق له طمع ولا وسواس بل بقى حبه للمنعم عليه وشكره له وذكره اياه فى محل وساوسه وخواطره لمطالعة نعم الله عليه وشهوده منها مالم يشهد غيره وقوله وتلذذا لخدمة هو صحيح فان المحب يتلذذ بخدمة محبوبه وتصرفه فى طاعته وكلما كانت المحبة أقوى كانت لذة الطاعة والخدمة أكمل فليزن العبد ايمانه ومحبته لله بهذا الميزان ولينظر هل هو ملتذ بخدمة محبوبه أو متكره لها يأتى بها على السآمة والملل والكراهة فهذا محك ايمان العبد ومحبته لله قال بعض السلف انى أدخل فى الصلاة فأحمل هم خروجى منها ويضيق صدرى اذا فرغت انى خارج منها ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم جعلت قرة عينى فى الصلاة ومن كانت قرة عينه فى شئ فانه يود أن لا يفارقه ولا يخرج منه فان قرة عين العبد نعيمه وطيب حياته به وقال بعض السلف انى لافرح بالليل حين يقبل لما يلتذ به عيشى وتقر به عينى من مناجاة من أحب وخلوتى بخدمته والتذلل بين يديه واغتم للفجر اذا طلع لما اشتغل به بالنهار عن ذلك فلا شئ ألذ للمحب من خدمة محبوبه وطاعته وقال بعضهم تعذبت بالصلاة عشرين سنة ثم تنعمت بها عشرين سنة وهذه اللذة والتنعم بالخدمة انما تحصل بالمصابرة على التكره والتعب أولا فاذا صبر عليه وصدق فى صبره أفضى به الى هذه اللذة قال أبو يزيد سقت نفسى الى الله وهى تبكى فمازلت أسوقها حتى انساقت اليه وهى تضحك ولا يزال السالك عرضة الآفات والفتور والانتكاس حتى يصل الى هذه الحالة فحينئذ يصير نعمه فى سيره ولذته فى اجتهاده وعذابه فى فتوره ووقوفه فترى أشد الاشياء عليه ضياع شئ من وقته ووقوفه عن سيره ولا سبيل الى هذا الا بالحب المزعج وقوله وسلى عن المصائب صحيح فان المحب يتسلى بمحبوبه عن كل مصيبة يصاب بها دونه فاذا سلم له محبوبه لم يبال بما فاته فلا يجزع على ما ناله فانه يرى فى محبوبه عوضا عن كل شئ ولا يرى فى شئ غيره عوضا منه أصلا فكل مصيبة عنده هينة اذا أبقت عليه محبوبه ولهذا لما خرجت تلك المرأة الانصارية يوم أحد تنظر ما فعل برسول الله صلى الله عليه وسلم مرت بابيها وأخيها مقتولين فلم تقف عندهما وجاوزتهما تقول ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل لها ها هو ذا حى فلما نظرت اليه قالت ما أبالى اذا سلمت هلك من هلك ولو لم يكن فى المحبة من الفوائد الا هذه الفائدة وحدها لكفى بها شرفا فان

وما تشاؤون الا أن يشاء الله رب العالمين واذا عرف هذا فالعبد في حال معصيته واشتغاله عنه بشهوته ولذته تكون تلك اللذة والحلاوة الايمانية قد استترت عنه وتوارت أو نقصت أو ذهبت فانها لو كانت موجودة كاملة لما قدم عليها لذة وشهوة لا نسبة بينها وبينها بوجه ما بل هي أدنى من حبة خردل بالنسبة الى الدنيا وما فيها ولهذا قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن فان ذوق حقيقة الايمان ومباشرته لقلبه تمنعه أن يؤثر عليه ذلك القدر الخسيس وينهاه عما يشعثه وينقصه ولهذا تجد العبد اذا كان مخلصا لله منيبا اليه مطمئنا به كره مشتاقا الى لقائه منصرفا عن هذه المحرمات لا يلتفت اليها ولا يعول عليها ويرى استبداله بها عما هو فيه كاستبدال البعر الخسيس بالجوهر النفيس وبيعه الذهب بأعقاب الجزر وبيعه المسك بالرجيع ولا ريب أن في النفوس البشرية من هو بهذه المثابة انما يصبو الى ما يناسبه ويميل الى ما يشاكله ينفر من المطالب العالية واللذات الكاملة كما ينفر الجعل من رائحة الورد وشاهد ناممن يمسك بأنفه عند وجود رائحة المسك ويتكره بها لما ينالهم بها من المضرة فمن خلق للعمل في الدباغة لا يجيء منه العمل في صناعة الطب ولا يليق ولا يتأتى منه والنفس لا تترك محبوبا الا لمحبوب هو أحب اليها منه أو لمخوف من مكروه هو أشق عليها من فوات ذلك المحبوب فالذنب يعدم لعدم المقتضي له تارة لاشتغال القلب بما هو أحب اليه منه ولوجود المانع تارة من خوف فوات محبوب هو أحب اليه منه فالاول حال من حصل من ذوق حلاوة الايمان وحقائقه والتنعم به ما عوض قلبه عن ميله الى الذنوب والثاني حال من عنده داع وارادة لها وعنده ايمان وتصديق بوعد الله تعالى ووعيده فهو يخاف إن واقعها أن يقع فيما هو أكره عليه وأشق عليه فالاول النفوس المطمئنة الى ربها والثاني لاهل الجهاد والصبر وهاتان النفسان هما المخصوصتان بالسعادة والفلاح قال تعالى في النفس الاولى يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي وقال في الثانية ثم ان ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا ان ربك من بعدها لغفور رحيم فالنفوس ثلاثة مطمئنة الى ربها وهي أشرف النفوس وأزكاها ونفس مجاهدة صابرة ونفس مفتونة بالشهوات والهوى وهي النفس الشقية التي حظها الألم والعذاب والبعد عن الله تعالى والحجاب

فيها وأمثاله مما يدل على أن المرتبة الثانية التي أشار اليها أكمل من الثالثة وأتم وهكذا في جميع أبواب الكتاب والله أعلم وكافى بك تقول لا يقبل في هذا الا كلام من قطع هذه المفاوز حالا وذوقا وأما الكلام فيها بلسان العلم المجرد فغير مقبول والمحبون أصحاب الحال والذوق في المحبة لهم شأن وراء الادلة والحجج فاعلم أولا أن كل حال وذوق ووجد وشهود لا يشرق عليه نور العلم المؤيد بالدليل فهو من عيش النفس وحظوظها فلو قدر ان المتكلم انما تكلم بلسان العلم المجرد فلا ريب ان ما كشفه العلم الصحيح المؤيد بالحجة أنفع من حال يخالف العلم والعلم يخالفه وليس من الانصاف رد العلم الصحيح بمجرد الذوق والحال وهذا أصل الضلالة ومنه دخل الداخل على كثير من السالكين في تحكيم أذواقهم ومواجيدهم على العلم فكانت فتنة في الارض وفساد كبير وكم قد ضل وأضل محكم الحال على العلم بل الواجب تحكيم العلم على الحال ورد الحال اليه فما زكاه شاهد العلم فهو المقبول وما جرحه شاهد العلم فهو المردود وهذه وصية أرباب الاستقامة من مشايخ الطريق يوصون بذلك ويخبرون ان كل ذوق ووجد لا يقوم عليه شاهدان اثنان من العلم فهو باطل ويقال ثانيا ليس من شرط قبول العلم بالشيء من العالم به أن يكون ذائقا له أفتراك لا تقبل معرفة الآلام والاوجاع وأدويتها الا ممن قد مرض بها وتداوى بها أفيقول هذا عاقل ويقال ثالثا أتريد بالذوق ان يكون القائل قد بلغ الغاية القصوى في هذه المرتبة فلا يقبل الا ممن هذا شأنه أو تريد انه لا بد ان يكون له أذواق أهله من حيث الجملة فان أردت الاول لزمك أن لا يقبل من أحد اذ ما من ذوق الا وفوقه أكمل منه وان أردت الثاني فمن أين لك نفيه عن صاحب العلم ولكن لاعراضك عن العلم وأهله صرت تظن ان أهل العلم لهم العلم والكلام والوصف وللمعرضين عنه الذوق والحال والاتصاف والظن يخطئ تارة ويصيب والله أعلم

فصل

(فصل) قال أبو العباس فعند القوم كل ما هو من العبد فهو علة تليق بعجز العبد وفاقته وانما عين الحقيقة عندهم انما يكون قائما باقامته له محبا بمحبته له ناظرا بنظره لا من غير ان يبقى معه بقية تناط باسم أو تقف على رسم أو تتعلق بنظر أو تنعت بنعت أو توصف بوصف أو تنسب الى وقت صم بكم عمي لديه محضرون * فيقال هذا هو مقام الفناء الذي يشير اليه كثير من المتأخرين ويجعلونه غاية الغايات ونهاية النهايات وكل ما دونه فرقاة اليه وعلة عليه ولهذا كانت المحبة عندهم آخر منازل الطريق وأول أودية الفناء والعقبة التي ينحدر منها على منازل المحق وهي آخر منزل يلتقي فيه مقدمة العامة ساقة الخاصة وما دونها

(فصل) فى بيان كيد الشيطان لنفسه قبل كيده للأبوين ثم لم يقتصر على ذلك حتى كاد ذرية نفسه وذرية آدم فكان مشوما على نفسه وعلى ذريته وأوليائه وأهل طاعته من الجن والانس اما كيده لنفسه فان الله سبحانه لما أمره بالسجود لآدم عليه السلام كان فى امتثال أمره وطاعته سعادته وفلاحه وعزه ونجاته فسولت له نفسه الجاهلة الظالمة أن فى سجوده لآدم عليه السلام غضاضة عليه وهضما للنفسه اذ يخضع ويقع ساجدا لمن خلق من طين وهو مخلوق من نار والنار بزعمه أشرف من الطين فالمخلوق منها خير من المخلوق منه وخضوع الافضل لمن هو دونه غضاضة عليه وهضم لمنزلته فلما قام بقلبه هذا الهوس وقارنه الحسد لآدم لما رأى ربه سبحانه قد خصه به من أنواع الكرامة فانه خلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وعلمه أسماء كل شئ وميزه بذلك عن الملائكة وأسكنه جنته فبلغ الحسد من عدو الله كل مبلغ وكان عدو الله يطيف به وهو صلصال كالفخار فيتعجب منه و يقول لأمر عظيم قد خلق هذا ولئن سلط على لأعصينه ولئن سلطت عليه لأهلكنه فلما تم خلق آدم عليه السلام فى أحسن تقويم وأكمل صورة وأجملها وكملت محاسنه الباطنة بالعلم والحلم والوقار وتولى ربه سبحانه خلقه بيده فجاء فى أحسن خلق وأتم صورة طوله فى السماء ستون ذراعا قد ألبس رداء الجمال والحسن والمهابة والبهاء فرأت الملائكة منظرا لم يشاهدوا أحسن منه ولا أجل فوقعوا كلهم سجودا له بأمر ربهم تبارك وتعالى فشق الحسود قميصه من دبر واشتعلت فى قلبه نيران الحسد المتين فعارض النص بالمعقول بزعمه كفعل أوليائه من المبطلين وقال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين فأعرض عن النص الصريح وقابله بالرأى الفاسد القبيح ثم أردف ذلك بالاعتراض على العليم الحكيم الذى لا تجد العقول الى الاعتراض على حكمته سبيلا فقال أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتن الى يوم القيامة لأحتنكن ذريته الا قليلا وتحت هذا الكلام من الاعتراض معنى أخبرنى لم كرمته على وغور هذا الاعتراض أن الذى فعلته ليس بحكمة ولا صواب وان الحكمة كانت تقتضى أن يسجد هو لى لان المفضول يخضع للفاضل فلم خالفت الحكمة ثم أردف ذلك بتفضيل نفسه عليه وازدرائه به فقال أنا خير منه ثم قرر ذلك بحجته الداحضة فى تفضيل مادته وأصله على مادة آدم عليه السلام وأصله فأنتجت له هذه المقدمات إباءه وامتناعه من السجود ومعصية الرب المعبود فجمع بين الجهل والظلم والكبر والحسد والمعصية ومعارضة النص بالرأى والعقل فأهان نفسه كل

اعراض الاعواض فجعلوا المحبة منزلا من المنازل ليست غاية وجعلوها أول الاودية التى سلك فيها أصحاب الفناء فهى أول أوديتهم والعقبة التى ينحدرون منها الى منازل الفناء والمحو فليست هى الغاية عندهم وأصحابها عندهم مقدمة العامة وساقة أصحاب الفناء عندهم مقدمون عليهم سابقون لهم فانهم ساقة الخاصة وهؤلاء مقدمة العامة فهذا كله بناء على ان الفناء هو الغاية التى لا غاية للعبد وراءها ولا كمال له يطلبه فوقها وقد تبين ما فى ذلك وما هو الصواب بحمد الله فقوله كل ما هو من العبد فهو علة يليق بعجز العبد وفاقته يقال اذا كان ما منه العبودية التى يحبها الله كسبا ومباشرة فهو قائم بها شاهد لمقيمه فيها مطالع لمنته وفضله فاى علة هنا سوى وقوفه مع شهودها منه وغيبته عن شهود اقامة الله وتحريكه اياه وتوفيقه له فالعلة هى بهذا الشهود وهذه الغيبة المنافية لكمال الافتقار والفاقة الى الله وأما شهود فقره وفاقته ومجموع حالاته وحركاته وسكناته الى وليه وباريه مستعينا به أن يقيمه فى عبودية خالصة له فلا علة هناك قوله واعاين الحقيقة أن يكون قائما باقامته له الى آخر كلامه يقال ان أردت أنه يشهد اقامة الله له حتى قام ومحبته له حتى أحبه ونظره الى عبده حتى أقبل عبده عليه ناظرا اليه بقلبه فهذا حق فان ما من الله سبق ما من العبد فهو الذى أحب عبده أولا فاحبه العبد وأقام العبد فى طاعته فقام باقامته ونظر اليه فاقبل العبد عليه وتاب عليه أولا فتاب اليه العبد وان أردت أنه لا يشهد فعله البتة بل يفنى عنه جملة ويشهد ان الله وحده هو الذاكر لنفسه الموحد لنفسه المحب لنفسه وان هذه الاسباب والرسوم تصير عدما صرفا فى شهوده وان لم يفن ويعدم فى الخارج وهذا هو مراد القوم فدعوى ان هذا هو الكمال الذى لا كمال فوقه ولا غاية وراءه دعوى مجردة لا يستدل عليها مدعيها بأكثر من الذوق والوجد وقد تقدم ان هذا ليس بغاية وانما غايته أن يكون من عوارض الطريق وان شهود الاشياء فى مراتبها ومنازلها التى أنزلها سبحانه اياها أكمل وأتم ويكفى فى بعض هذا الاحتجاج عليه بصفات الكفار فان الله ذمهم بانهم صم بكم عمى فهذه صفات نقص وذم لا صفات كمال ومدحة وهل الكمال الا فى حضور السمع والبصر والعقل وكمال التمييز وتنزيل الخلق والامر منازلهما والتفريق بين ما فرق الله بينه فالامر كله فرقان وتمييز وتبيين فكلما كان تمييز العبد وفرقانه أتم كان حاله أكمل وسيره أصح وطريقه أقوم وأقرب والحمد لله رب العالمين

(فصل) (قال أبو العباس وأما الشوق فهو هبوب القلب الى غائب وانزعاج الصبر عن فقده وارتياح السر الى طلبه وهو من مقامات العوام وأما الخواص فهو عندهم مخلة

الاهانة من حيث أراد تعظيمها ووضعها من حيث أراد رفعتها وأذلها من حيث أراد عزتها وآلمها كل الألم من حيث أراد لذتها ففعل بنفسه مالو اجتهد أعظم أعدائه في مضرته لم يبلغ منه ذلك المبلغ ومن كان هذا غشه لنفسه فكيف يسمع منه العاقل ويقبل ويواليه قال تعالى واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا

(فصل) وأما كيده للابوين فقد قص الله سبحانه علينا قصته معهما وانه لم يزل يخدعهما ويعدهما ويمنيهما الخلود في الجنة حتى حلف لهما بالله جهد يمينه انه ناصح لهما حتى اطمأنا الى قوله وأجاباه الى ماطلب منهما فجرى عليهما من المحنة والخروج من الجنة ونزع لباسهما عنهما ماجرى وكان ذلك بكيده ومكره الذي جرى به القلم وسبق به القدر ورد الله سبحانه كيده عليه وتدارك الابوين برحمته ومغفرته فأعادهما الى الجنة على أحسن الاحوال وأجملها وعاد عاقبة مكره عليه ولا يحيق المكر السيء الا بأهله وظن عدو الله بجهله ان الغلبة والظفر له في هذا الحرب ولم يعلم بكمين جيش ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ولا باقبال دولة ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى وظن اللعين بجهله ان الله سبحانه يتخلى عن صفيه وحبيبه الذي خلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وعلمه أسماء كل شيء من أجل أكلة أكلها وماعلم ان الطبيب قد علم المريض الدواء قبل المرض فلما أحس بالمرض بادر الى استعمال الدواء لما رماه العدو بسهم وقع في غير مقتل فبادر الى مداواة الجرح فقام كان لم يكن به قلبة بلى العدو بالذنب فاصر واحتج وعارض الامر وقدح في الحكمة ولم يسأل الاقالة ولاندم على الزلة وبلى الحبيب بالذنب فاعترف وتاب وندم وتضرع واستكان وفزع الى مفزع الخليقة وهو التوحيد والاستغفار فأزيل عنه العتب وغفر له الذنب وقبل منه المتاب وفتح له من الرحمة والهداية كل باب ونحن الابناء ومن أشبه أباه فما ظلم ومن كانت شيمته التوبة والاستغفار فقد هدى لاحسن الشيم ثم كاد أحد ولدي آدم ولم يزل يتلاعب به حتى قتل أخاه وأسخط أباه وعصى مولاه فسن للذرية قتل النفوس وقد ثبت في الصحيح عنه صلى الله تعالى عليه وسلم انه قال مامن نفس تقتل ظلما الا كان على ابن آدم كفل من دمها لانه أول من سن القتل فكاد العدو هذا القاتل بقطيعة رحمه وعقوق والديه واسخاط ربه وبغض عدوه وظلم نفسه وعرضه لاعظم العقاب وحرمه حظه من جزيل الثواب ثم جرى الامر على السداد والاستقامة

بقلبه لان الشوق انما يكون الى غائب ومذهب هذه الطائفة انما قام على المشاهدة والطريق عندهم أن يكون العبد غائبا والحق ظاهرا ولهذا المعنى لم ينطق بالشوق كتاب ولا سنة صحيحة الا ان الشوق مخبر عن بعد ومشير الى غائب وهو يطلع الى ادراك وهو معكم أينما كنتم وقيل ولامعنى لشكوى الشوق يوما الى من لا يزول عن العيان) اختلف الناس في الشوق والمحبة أيهما أعلى فقالت طائفة المحبة أعلى من الشوق هذا قول ابن عطاء وغيره واحتجوا بان الشوق غايته أن يكون أثرا من آثار المحبة ومتولدا عنها فهي أصله وهو فرعها قالوا والمحبة توجب آثارا كثيرة من آثارها الشوق وقالت طائفة منهم سري السقطي وغيره والشوق أعلى قال الجنيد سمعت السري يقول الشوق أجل مقامات العارف اذا تحقق في الشوق لها عن كل شيء يشغله عن يشتاق اليه وانما يظهر سر المسألة بذكر فصلين الفصل الاول في حقيقة الشوق والثاني في الفرق بينه وبين المحبة ويتبع ذلك خمس مسائل احداها هل يجوز اطلاقه على الله كما يطلق عليه انه يحب عباده أم لا الثانية هل يجوز اطلاقه على العبد فيقال يشتاق الى الله كما يقال يحبه الثالثة انه هل يقوى بالوصول والقرب أم يضعف بهما فاي الشوقين أعلا شوق القريب الداني أم شوق البعيد الطالب الرابعة ما الفرق بينه وبين الاشتياق فهل هما بمعنى واحد أم بينهما فرق الخامسة في بيان مراتبه وأقسامها ومنازل أهله فيه الفصل الاول في حقيقة الشوق هو سفر القلب في طلب محبوبه بحيث لا يقر قراره حتى يظفر به ويحصل له وقيل هو لهيب ينشأ بين أثناء الحشا سببه الفرقة فاذا وقع اللقاء أطفأ ذلك اللهيب وقيل الشوق هبوب القلب الى محبوب غائب وقال ابن خفيف الشوق ارتياح القلوب بالوجد ومحبة اللقاء والقرب وقيل الشوق تروح القلب نحو المحبوب من غير منازع ويقال الشوق انتظار اللقاء بعد البعاد فهذه الحدود ونحوها مشتركة في أن الشوق انما يكون مع الغيبة من المحبوب وأما مع حضوره وبقائه فلا شوق وهذه حجة من جعل المحبة أعلى منه فان المحبة لاتزول باللقاء وبهذا يتبين الكلام في الفصل الثاني وهو الفرق بينه وبين المحبة والفرق بينهما فرق ما بين الشيء وأثره فان الحامل على الشوق هو المحبة ولهذا يقال لمحبي له اشتقت اليه وأحببته فاشتقت الى لقائه ولا يقال اشتقت اليه فأحببته ولا اشتقت الى لقائه فأحببته فالمحبة بذر في القلب والشوق بعض ثمرات ذلك البذر وكذلك من ثمراتها حمد المحبوب والرضى عنه وشكره وخوفه ورجاؤه والتنعم بذكره والسكون اليه والانس به والوحشة بغيره وكل هذه من أحكام المحبة

وثمراتها وهو حياتها فمنزلة الشوق من المحبة منزلة الهرب من البغضاء والكراهة فان القلب اذا أبغض الشئ وكرهه جد في الهرب منه واذا أحبه جد في الهرب اليه وطلبه فهو حركة القلب في الظفر بمحبوبه ولشدة ارتباط الشوق بالمحبة يقع كل واحد منهما موقع صاحبه ويفهم منه ويعبر به عنه

(فصل) وأما المسائل فاحداها هل يجوز اطلاقه على الله فهذا مما لم يرد به القرآن ولا السنة بصريح لفظه قال صاحب منازل السائرين وغيره وسبب ذلك أن الشوق انما يكون لغائب ومذهب هذه الطائفة انما قام على المشاهدة ولهذا السبب عندهم لم يجئ في حق الله ولا في حق العبد وجوزت طائفة اطلاقه كما يطلق عليه سبحانه (٣٣٥) ورووا في أثر أنه يقول طال شوق الابرار الى لقائي وأنا الى لقائهم أشوق قالوا وهذا الذي يقتضيه الحقيقة وان لم يرد به لفظ صريح فالمعنى حق فان كل محب فهو مشتاق الى لقاء محبوبه قالوا وأما قولكم ان الشوق انما يكون الى غائب وهو سبحانه لا يغيب عن عبده ولا يغيب العبد عنه فهذا حضور العلم وأما اللقاء والقرب فامر آخر فالشوق يقع بالاعتبار الثاني وهو قرب الحبيب ولقاؤه والدنو منه وهذا له أجل مضروب لا ينال قبله قال تعالى من كان يرجوا لقاء الله فان أجل الله لآت قال أبو عثمان الحيري هذا تعزية للمشتاقين معناه اني أعلم أن اشتياقكم الي غالب وأنا أجلت للقائكم أجلا وعن قريب يكون وصولكم الى من تشتاقون اليه والصواب ان يقال اطلاقه متوقف على السمع ولم يرد به فلا ينبغي اطلاقه وهذا كلفظ العشق أيضا فانه لما لم يرد به سمع فانه يمتنع اطلاقه عليه سبحانه واللفظ الذي اطلقه سبحانه على نفسه وأخبر به عنها أتم من هذا وأجل شأنا وهو لفظ المحبة فانه سبحانه يوصف من كل صفة كمال بأكملها وأجلها وأعلاها فيوصف من الارادة بأكملها وهو الحكمة وحصول كل ما يريد بارادته كما قال تعالى فعال لما يريد وبارادة اليسر لا العسر كما قال يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر وبارادة الاحسان واتمام النعمة على عباده كقوله والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما فارادة التوبة وارادة الميل لمبتغي الشهوات وقوله ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون وكذلك الكلام يصف نفسه منه بأعلا أنواعه كالصدق والعدل والحق وكذلك الفعل يصف نفسه منه بأكمله وهو العدل والحكمة والمصلحة والنعمة وهكذا المحبة وصف نفسه منها بأعلاها وأشرفها فقال يحبهم ويحبونه ويحب التوابين ويحب المتطهرين ويحب المحسنين ويحب الصابرين ولم يصف نفسه بغيرها من

والاستقامة والامة واحدة والدين واحد والمعبود واحد قال تعالى وما كان الناس الا أمة واحدة فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم فيما فيه يختلفون وقال تعالى كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه قال سعيد عن قتادة ذكر لنا انه كان بين آدم ونوح عليهما السلام عشرة قرون كلهم على الهدى وعلى شريعة من الحق ثم اختلفوا بعد ذلك فبعث الله عز وجل نوحا وكان أول رسول بعثه الله تعالى الى أهل الارض وبعث عند الاختلاف بين الناس وترك الحق وقال ابن عباس كان الناس أمة واحدة كانوا على الاسلام كلهم وهذا هو القول الصحيح في الآية وقد روى عطية عن ابن عباس رضي الله عنه كانوا أمة واحدة كانوا كفارا وهذا قول الحسن وعطاء قالا كان الناس من وقت وفاة آدم الى مبعث نوح عليهما السلام أمة واحدة على ملة واحدة وهي الكفر كانوا كفارا أمثال البهائم فبعث الله نوحا وابراهيم والنبيين وهذا القول ضعيف جدا وهو منقطع عن ابن عباس والصحيح خلافه قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا شيبان ابن فروخ حدثنا همام حدثنا قتادة عن عكرمة عن ابن عباس قال كانوا على الاسلام كلهم وهذا هو الصواب قطعا فان في قراءة أبي بن كعب فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ويشهد لهذه القراءة قوله تعالى في سورة يونس وما كان الناس الا أمة واحدة فاختلفوا والمقصود أن العدو كادهم وتلاعب بهم حتى انقسموا قسمين كفارا ومؤمنين فكادهم بعبادة الاصنام وانكار البعث وكان أول ما كادهم به عبادة الاصنام من جهة العكوف على القبور وتصاوير أهلها ليتذكروهم بها كما قص الله سبحانه قصصهم في كتابه فقال وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا قال البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنه هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان الى قومهم أن انصبوا الى مجالسهم التي كانوا يجلسون انصابا وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى اذا هلك أولئك ونسخ العلم عبدت وقال ابن جرير عن محمد بن قيس قال كانوا قوما صالحين من بني آدم وكان لهم اتباع يقتدون بهم فلما ماتوا قال أصحابهم لو صورناهم كان أشوق لنا الى العبادة يقتدون بهم فلما ماتوا وجاء آخرون دب اليهم ابليس فقال انما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم وقال هشام بن محمد بن السائب الكلبي أخبرني أبي قال أول ما عبدت الاصنام

ان آدم عليه السلام لما مات جعلوه بنو شيث بن آدم فى معارة فى الجبل الذى أهبط عليه آدم عليه السلام بأرض الهند ويقال للجبل بوذ وهو أخصب جبل فى الارض قال هشام فأخبرنى أبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال فكان بنو شيث عليه السلام يأتون جسد آدم عليه السلام فى المغارة فيعظمونه ويترحمون عليه فقال رجل من بنى قابيل يا بنى قابيل ان لبنى شيث دوّارا يدورون حوله ويعظمونه وليس لكم شئ فنحت لهم صنما فكان أوّل من عملها قال هشام وأخبرنى أبى قال كان ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر قوما صالحين فماتوا فى شهر فجزع عليهم ذوو اقاربهم فقال رجل من بنى قابيل هل لكم أن أعمل لكم خمسة أصنام على صورهم غير انى لا أقدر أن أجعل فيها أرواحا قالوا نعم فنحت لهم خمسة أصنام على صورها ونصبها لهم فكان الرجل يأتى أخاه وعمه وابن عمه فيعظمه ويسعى حوله حتى ذهب ذلك القرن الاوّل وكانت عملت على عهد يرد بن مهلاييل بن قينان بن انوش بن شيث بن آدم ثم جاء قرن آخر فعظمهم أشد من تعظيم القرن الاوّل ثم جاء من بعدهم القرن الثالث فقالوا ما عظم أوّلونا هؤلاء الا وهم يرجون شفاعتهم عند الله تعالى فعبدوهم وعظموا أمرهم واشتد كفرهم فبعث الله اليهم ادريس عليه السلام فدعاهم فكذبوه فرفعه الله مكانا عليا ولم يزل أمرهم يشتد فيما قال الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس حتى أدرك نوح عليه السلام فبعثه الله تعالى نبيا وهو يومئذ ابن أربعمائة وثمانين سنة فدعاهم الى الله تعالى فى نبوته عشرين ومائة سنة فعصوه وكذبوه فامره الله تعالى أن يصنع الفلك ففرغ منها وركبها وهو ابن ستمائة سنة وغرق من غرق ومكث بعد ذلك ثلثمائة وخمسين سنة فكان بين آدم ونوح ألفا سنة ومائتا سنة وأهبط الماء هذه الاصنام من أرض الى أرض حتى قذفها الى أرض جدة فلما نضب الماء بقيت على الشط فسفت الريح عليها حتى وارتها قلت ظاهر القرآن يدل على خلاف هذا وان نوحا عليه السلام لبث فى قومه ألف سنة الا خمسين عاما وان الله عز وجل أهلكهم بالغرق بعد ان لبث فيهم هذه المدة قال الكلبى وكان عمرو بن لحى كاهنا وله رئى من الجن فقال له عجل السير والظعن من تهامة بالسعد والسلامة ائت جدة تجد فيها أصناما معدة فأوردها تهامة ولا تهب ثم ادع العرب الى عبادتها تجب فأتى نهر جدة فاستثارها ثم حملها حتى ورد تهامة وحضر الحج فدعا العرب الى عبادتها قاطبة فأجابه عوف بن عذرة بن زيد اللات فدفع اليه ودا فحمله فكان بوادى القرى بدومة الجندل وسمى ابنه عبد ود فهو أوّل من سمى به وجعل عوف ابنه عامرا

سادنا

الملائمة والميل والصبابة والعشق والغرام ونحوها فان مسمى المحبة أشرف وأكمل من هذه المسميات فجاء فى حقه اطلاقه دونها وهذه المسميات لا تنفك عن لوازم ومعان تنزه تعالى عن الاتصاف بها وهكذا جميع ما أطلقه على نفسه من صفاته العلى أكمل معنى ولفظا مما لم يطلقه فالعليم الخبير أكمل من الفقيه والعارف والكريم الجواد أكمل من السخى والخالق البارئ المصور أكمل من الصانع الفاعل ولهذا لم تجئ هذه فى أسمائه الحسنى والرحيم والرؤف أكمل من الشفيق فعليك بمراعاة ما أطلقه سبحانه على نفسه من الاسماء والصفات والوقوف معها وعدم اطلاق ما لم يطلقه على نفسه ما لم يكن مطابقا لمعنى أسمائه وصفاته وحينئذ فيطلق المعنى لمطابقته له دون اللفظ ولا سيما اذا كان مجملا أو منقسما الى ما يمدح به وغيره فانه لا يجوز اطلاقه الا مقيدا وهذا كلفظ الفاعل والصانع فانه لا يطلق عليه فى أسمائه الحسنى الا اطلاقا مقيدا أطلقه على نفسه كقوله تعالى فعال لما يريد ويفعل الله ما يشاء وقوله صنع الله الذى أتقن كل شئ فان اسم الفاعل والصانع منقسم المعنى الى ما يمدح عليه ويذم ولهذا المعنى والله أعلم لم تجئ فى الاسماء الحسنى المريد كما جاء فيها السميع البصير ولا المتكلم ولا الآمر الناهى لانقسام مسمى هذه الاسماء بل وصف نفسه بكمالاتها وأشرف أنواعها ومن هنا يعلم غلط بعض المتأخرين وزلقه الفاحش فى اشتقاقه له سبحانه من كل فعل أخبر به عن نفسه اسما مطلقا فادخله فى أسمائه الحسنى فاشتق له اسم الماكر والخادع والفاتن والمضل والكاتب ونحوها من قوله ويمكر الله ومن قوله وهو خادعهم ومن قوله لنفتنهم فيه ومن قوله يضل من يشاء وقوله كتب الله لاغلبن وهذا خطأ من وجوه أحدها انه سبحانه لم يطلق على نفسه هذه الاسماء فاطلاقها عليه لا يجوز الثانى انه سبحانه أخبر عن نفسه بافعال مختصة مقيدة فلا يجوز أن ينسب اليه مسمى الاسم عند الاطلاق الثالث ان مسمى هذه الاسماء منقسم الى ما يمدح عليه المسمى به والى ما يذم فيحسن فى موضع ويقبح فى موضع فيمتنع اطلاقه عليه سبحانه من غير تفصيل الرابع ان هذه ليست من الاسماء الحسنى التى يسمى بها سبحانه فلا يجوز أن يسمى بها فان أسماء الرب سبحانه كلها حسنى كما قال ولله الاسماء الحسنى وهى التى يحب سبحانه أن يثنى عليه ويحمد ويمجد بها دون غيرها الخامس ان هذا القائل لو سمى بهذه الاسماء وقيل هذه مدحتك وثناء عليك فانت الماكر الفاتن الخادع المضل اللاعن الفاعل الصانع ونحوها لما كان يرضى باطلاق هذه الاسماء عليه ويعدها مدحة ولله المثل الاعلى

سبحانه وتعالى عما يقول الجاهلون به علوا كبيرا السادس ان هذا القائل يلزمه أن يجعل من أسمائه اللاعن والجائي والآتي والذاهب والتارك والمقاتل والصادق والمنزل والنازل والمدمدم والمدمر واضعاف اضعاف ذلك فيشتق له اسما من كل فعل أخبر به عن نفسه والا تناقض تناقضا بينا ولا أحد من العقلاء طرد ذلك فعلم بطلان قوله والحمد لله رب العالمين

(فصل) وأما المسألة الثانية وهي هل يطلق على العبد انه يشتاق الى الله والى لقائه فهذا غير ممتنع فقد روى الامام أحمد في مسنده والنسائي وغيرهما من حديث حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن أبيه قال صلى بنا عمار بن ياسر صلاة فأوجز فيها فقلت خففت (٣٣٧) يا أبا اليقظان فقال وما على من ذلك ولقد دعوت الله بدعوات سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما قام تبعه رجل من القوم فسأله عن الدعوات فقال اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني ما علمت الحياة خيرا لي وتوفني اذا علمت الوفاة خيرا لي اللهم اني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا وأسألك القصد في الفقر والغنى وأسألك نعيما لا ينفد وقرة عين لا تنقطع وأسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت وأسألك لذة النظر الى وجهك والشوق الى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة اللهم زينا بزينة الايمان واجعلنا هداة مهتدين فهذا فيه اثبات لذة النظر الى وجهه الكريم وشوق أحبابه الى لقائه فان حقيقة الشوق اليه هو الشوق الى لقائه قال أبو القاسم القشيري سمعت الاستاذ أبا علي يقول في قوله صلى الله عليه وسلم أسألك الشوق الى لقائك قال كان الشوق مائة جزء فتسعة وتسعون له وجزء متفرق في الناس فاراد أن يكون ذلك الجزء له أيضا فقال ان يكون شطيه من الشوق بين غيره ٧ قال وسمعته يقول في قول موسى وعجلت اليك رب لترضى قال معناه شوقا اليك فستره بلفظ الرضا وهذا أكثر مشايخ الطريق يطلقونه ولا يمتنعون منه وقيل ان شعيبا بكى حتى عمي بصره فأوحى الله اليه ان كان هذا الاجل الجنة فقد أبحتها لك وان كان لاجل النار فقد أجرتك منها فقال لا بل شوقا اليك قال بعض العارفين من اشتاق الى الله اشتاق اليه كل شيء وقال بعضهم قلوب العاشقين منورة بنور الله فاذا تحرك اشتياقهم أضاء النور ما بين السماء والارض فيعرضهم الله على الملائكة فيقول هؤلاء المشتاقون الى أشهدكم اني اليهم أشوق واذا كان الشوق هو سفر القلب في طلب محبوبه ونزوعه اليه فهو من أشرف مقامات العبيد وأجلها وأعلاها ومن أنكر شوق العبد الى ربه فقد أنكر محبته له لان المحبة تستلزم

سادناله فلم يزل بنوه يسدنونه حتى جاء الله بالاسلام قال الكلبي فحدثني مالك بن حارثة أنه رأى ودا قال وكان أبي يبعثني باللبن اليه فيقول اسقه الهك فأشربه قال ثم رأيت خالد بن الوليد رضي الله عنه كسره فجعله جذاذا وكان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعث خالد بن الوليد لهدمه فحالت بينه وبين هدمه بنو عذرة وبنو عامر فقاتلهم فقتلهم وهدمه وكسره قال الكلبي فقلت لمالك بن حارثة صف لي ودا حتى كأني أنظر اليه قال كان تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال قد دبر أي نقش عليه حلتان متزر بحلة مرتد بأخرى عليه سيف قد تقلده وقد تنكب قوسا وبين يديه حربة فيها لواء قبضة فيها نبل بغير جعبة وأجابت عمرو بن لحي مضر بن نزار فدفع الى رجل من هذيل يقال له الحرث ابن تميم بن سعد بن هذيل بن مدركة بن الياس بن مضر سواعا فكان بأرض يقال لها رهاط من بطن نخلة يعبده من يليه من مضر وفي ذلك يقول رجل من العرب

تراهم حول قبلتهم عكوفا * كما عكفت هذيل على سواع

وأجابته مذحج فدفع الى أنعم بن عمرو المرادي يغوث وكان بأكمة باليمن يعبده مذحج ومن والاها وأجابته همدان فدفع الى مالك بن مرثد بن جشم يعوق فكان بقرية يقال لها خيوان فعبدته همدان ومن والاها من اليمن وأجابت حمير فدفع الى رجل من ذي رعين يقال له معدي كرب نسرا فكان بموضع من أرض سبا يقال له بلخع تعبده حمير ومن والاها فلم يزل يعبدونه حتى هودهم ذو نواس فلم تزل هذه الاصنام تعبد حتى بعث الله النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فهدمها وكسرها قلت هذا شرح ما ذكره البخاري في صحيحه عن ابن عباس قال صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب تعبد أما ود فكانت لكلب بدومة الجندل وأما سواع فكانت لهذيل وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجرف عند سبا وأما يعوق فكانت لهمدان وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع قال وهؤلاء أسماء رجال صالحين من قوم نوح وذكر ما تقدم وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار وكان أول من سيب السوائب وفي لفظ وغير دين ابراهيم وقال ابن اسحق حدثني محمد بن ابراهيم بن الحرث التيمي أن أبا صالح السمان حدثه أنه سمع أبا هريرة يقول سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول لأكثم بن الجون الخزاعي يا أكثم رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف يجر قصبه في النار فما رأيت رجلا أشبه

بر جل منك به ولا به منك فقال أكتم عني أن يضر بي شبهه يا رسول الله قال لا انك مؤمن وهو كافر إنه كان أول من غير دين اسمعيل فنصب الاوثان وبحر البحيرة وسيب السائبة ووصل الوصيلة وحمى الحام قال ابن هشام وحدثني بعض أهل العلم أن عمرو بن لحي خرج من مكة الى الشام في بعض أموره فلما قدم مآب من أرض البلقاء وبها يومئذ العماليق وهم ولد عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح رآهم يعبدون الاصنام فقال لهم ماهذه الاصنام التي تعبدون فقالوا نستمطر بها فتمطرنا ونستنصرها فتنصرنا فقال أفلا تعطوني منها صنما فأسير به الى أرض العرب فيعبدونه فأعطوه صنما يقال له هبل فقدم به مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه قال هشام وحدثني أبي وغيره أن اسمعيل عليه السلام لما سكن مكة وولد بها أولاده فكثروا حتى ملؤا مكة ونفوا من كان بها من العماليق ضاقت عليهم مكة ووقعت بينهم الحروب والعداوات وأخرج بعضهم بعضا فتفسحوا في البلاد والتماس المعاش فكان الذي حملهم على عبادة الاوثان والحجارة أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن الا احتمل معه حجرا من حجارة الحرم تعظيما للحرم وصبابة بمكة فحيثما حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالبيت حبا للبيت وصبابة به وهم على ذلك يعظمون البيت ومكة ويحجون ويعتمرون على ارث ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ثم عبدوا ما استحسنوا ونسوا ما كانوا عليه واستبدلوا بدين ابراهيم غيره فعبدوا الأوثان وصاروا الى ما كانت عليه الأمم من قبلهم واستخرجوا ما كان يعبد قوم نوح عليه السلام وفيهم على ذلك بقايا من عهد ابراهيم واسماعيل يتمسكون بها من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة والوقوف بعرفة والمزدلفة واهداء البدن وكانت نزار تقول في اهلالها لبيك اللهم لبيك لا شريك لك الا شريك هو لك تملكه وما ملك وكان أول من غير دين اسمعيل فنصب الأوثان وسيب السائبة ووصل الوصيلة وحمى الحام عمرو بن ربيعة وهو لحي بن حارثة وهو أبو خزاعة وكانت أم عمرو فهيرة بنت عامر بن الحرث وكان الحرث هو الذي يلي أمر الكعبة فلما بلغ عمرو بن لحي نازعه في الولاية وقاتل جرهم ببني اسماعيل فظفر بهم وأجلاهم عن الكعبة ونفاهم من بلاد مكة وتولى حجابة البيت ثم انه مرض مرضا شديدا فقيل له ان بالبلقاء من الشام حمة ان أتيتها برأت فأتاها فاستحم فيها فبرأ ووجد أهلها يعبدون الاصنام فقال ماهذه فقالوا نستسقي بها المطر ونستنصر بها على العدو فسألهم أن يعطوه منها ففعلوا فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة واتخذت العرب الاصنام فكان

الشوق والحب داعما اشتياق الى لقاء محبوبه لا يهدأ قلبه ولا يقر قراره الا بالوصول اليه فاما قوله ان الشوق عند الخواص علة عظيمة لان الشوق انما يكون الى غائب ومذهب هذه الطائفة انما قام على المشاهدة فيقال المشاهدة نوعان مشاهدة عرفان ومشاهدة عيان وبينهما من التفاوت ما بين اليقين والعيان ولا ريب ان مشاهدة العرفان متفاوتة بحسب تفاوت الناس بالمعرفة ورسوخهم فيها وليس للمعرفة نهاية تنتهي اليها بحيث اذا وصل اليها العارف سكن قلبه عن الطلب بل كل ما وصل منها الى معلم ومنزلة اشتد شوقه الى ما وراءه وكلما ازداد معرفة ازداد شوقا فشوق العارف أعظم الشوق فلا يزال في مزيد من الشوق مادام في مزيد من المعرفة فكيف يكون الشوق عنده علة عظيمة هذا من المحال البين بل من عرف الله اشتاق اليه واذا كانت المعرفة لا نهاية لها فشوق العارف لا نهاية له هذا مع الشوق الناشئ عن طلب اللقاء والرؤية والمعرفة العيانية فاذا كان القلب حاضرا عند ربه وهو غير غائب عنه لم يوجب له هذا ان لا يكون مشتاقا الى لقائه ورؤيته بل هذا يكون أتم لشوقه وأعظم فظهر ان قوله ان الشوق علة عظيمة في طريق الخواص كلام باطل على كل تقدير وان الشوق بالحقيقة انما هو شوق الخواص العارفين بالله والعبد اذا كان له مع الله حال أو مقام وكشف له عما هو أفضل منه وأجل اشتاق اليه بالضرورة ولم يكن شوقه علة له ونقصا في حاله بل زيادة وكمالا ويكون ترك الشوق هو العلة وقد تقدم أن لا غاية للمعرفة تنتهي اليها فيبطل الشوق بنهايتها بل لا يزال العارف في مزيد من معرفته وشوقه والله المستعان

(فصل) وأما المسألة الثالثة وهي هل يزول الشوق باللقاء أم يقوى فقالت طائفة الشوق يزول باللقاء لانه طلب فاذا حصل المطلوب زال الطلب لان تحصيل الحاصل محال ولا معنى للشوق الى شيء حاصل وانما يكون الشوق الى شيء مراد الحصول محبوب الادراك وقالت طائفة أخرى ليس كذلك بل الشوق يزيد اقدمها بالوصل واللقاء ويتضاعف بالدنو ولهذا قال القائل

وأعظم ما يكون الشوق يوما * اذا دنت الديار من الديار

ولهذا قال بعضهم شوق أهل القرب أتم من شوق المحجوبين واحتجت هذه الطائفة بان الشوق من آثار الحب ولوازمه فكما ان الحب لا يزول باللقاء فهكذا الشوق الذي لا يفارقه قالوا ولهذا لا يزول الرضى والحمد والاجلال والمهابة التي هي من آثار المحبة باللقاء فهكذا الشوق يتضاعف ولا يزول والقولان حـ وفصل الخطاب في المسألة ان الحب اذا اشتاق الى لقاء محبوبه فاذا حصل له اللقاء زال ذلك الشوق الذي كان متعلقا بلقائه وخلفه شوق آخر

أعظم منه وأبلغ اليه ما يزيد قربه والحظوة عنده وأما اذا قدر انه لقيه ثم احتجب عنه ازداد شوقه الى لقاء آخر ولا يزل يحصل له الشوق كلما احتجب عنه فهذا لا ينقطع شوقه أبدا فهو اذا رآه بل شوقه برؤيته واذا زال عنه الطرف اودعه الشوق كما قيل

ما يرجع الطرف عنه عند رؤيته * حتى يعود اليه الطرف مشتاقا

وانما الشان فى دوام الشوق حال الوصول واللقاء فاعلم ان الشوق نوعان شوق الى اللقاء فهذا يزول باللقاء وشوق فى حال اللقاء وهو تعلق الروح بالمحبوب تعلقا لا ينقطع أبدا فلا تزال الروح مشتاقة الى مزيد هذا التعلق وقوته اشتياقا لا يهدأ وقد أفصح بعض المحبين للمخلوق عن هذا المعنى (٣٣٦) بقوله أعانقها والنفس بعد مشوقة اليها وهل بعد العناق تدانى والثم فاها كى تزول صبابتى فيشتد ما ألقى من الهيمان فالشوق فى حال الوصل والقرب الى مزيد النعيم واللذة لا ينقطع والشوق فى حال السير الى اللقاء ينقطع ونستغفر الله من الكلام فيما لسنا باهل له فالخوف أولى بالمسىء اذا تاله والحزن والحب يجمل بالتقاء وبالنقاء من الدرن لكن اذا ما لم يحب كم المسىء اذن فمن واذا تخون فعلنا فعل المحبة مؤتمن أيحب شئ غيركم وخيانتكم كالاولن أيحب من تأتى محبته بانواع المحن والسعد فيهما ذابح والقلب فيهما ممتحن دون الذى فى خبه نيل السعادة والمنن ويحل بدر كمالها سعدا لسعود هو الوطن والقلب حين يحل فى تلك المنازل والدمن يمسى ويصبح من رضا ه ومن مناه فى وطن أيحبهم قلب ويخ شى أن يضام فلا اذن

(فصل) وأما المسئلة الرابعة وهى الفرق بين الشوق والاشتياق فقال أبو عبد الرحمن السلمى سمعت النصراباذى يقول للخلق كلهم مقام الشوق وليس لهم مقام الاشتياق ومن دخل فى حال الاشتياق هام فيه حتى لا يرى له أثر ولا قرار وهذا يدل على ان الاشتياق عنده غير الشوق ولا ريب ان الاشتياق مصدر اشتاق يشتاق اشتياقا كما ان الشوق مصدر تشوق تشوقا والشوق فى الاصل اسم مصدر شاقه يشوقه شوقا مثل شاقه شوقا اذا دعاه الى الاشتياق فالاشتياق مطاوع شاقه يقال شاقنى فاشتقت اليه ثم صار الشوق اسم مصدر الاشتياق وغلب عليه حتى لا يفهم عند الاطلاق الا الاشتياق القائم بالمشوق والمشوق هو الصب المشتاق والشائق هو الذى قام به وادعى الشوق فههنا ألفاظ الشوق والاشتياق والتشوق والشائق

أقدمها مناة وكان منصوبا على ساحل البحر من ناحية المسلك بقديد بين مكة والمدينة وكانت العرب جميعها تعظمه وكانت الأوس والخزرج ومن ينزل المدينة ومكة وما قارب من المواضع يعظمونه ويذبحون له ويهدون له ولم يكن أحد أشد اعظاما له من الأوس والخزرج قال هشام وحدثنا رجل من قريش عن أبى عبيد بن عبد الله بن أبى عبيد ابن محمد بن عمار بن ياسر قال كانت الأوس ومن جاورهم من غرب أهل يثرب وغيرها يحجون فيقفون مع الناس المواقف كلها ولا يحلقون رؤسهم فاذا نفروا أتوه فحلقوا عنده رؤسهم وأقاموا عنده لا يرون لحجهم تماما الا بذلك وكانت مناة لهذيل وخزاعة فبعث رسول الله عليه السلام عليا فهدمها عام الفتح ثم اتخذوا اللات بالطائف وهى أحدث من مناة وكانت صخرة مربعة وكانت سدنتها من ثقيف وكانوا قد بنوا عليها وكانت قريش وجميع العرب تعظمها وبها كانت العرب تسمى زيد اللات وتيم اللات وكانت فى موضع منارة مسجد الطائف اليسرى اليوم فلم يزل كذلك حتى أسلمت ثقيف فبعث عليه السلام المغيرة بن شعبة فهدمها وحرقها بالنار ثم اتخذوا العزى وهى أحدث من اللات اتخذها ظالم ابن أسعد وكانت بواد من نخلة فوق ذات عرق وبنوا عليها بيتا وكانوا يسمعون منه الصوت قال هشام وحدثنى أبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال كانت العزى شيطانة تأتى ثلاث سمرات ببطن نخلة فلما افتتح رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مكة بعث خالد بن الوليد فقال ائت بطن نخلة فانك ستجد ثلاث سمرات فاعضد الأولى فأتاها فعضدها فلما جاء اليه قال هل رأيت شيأ قال لا قال فاعضد الثانية فأتاها فعضدها ثم أتى عليه السلام فقال هل رأيت شيأ قال لا قال فاعضد الثالثة فأتاها فاذا هو بحبشية نافشة شعرها واضعة يديها على عاتقها تصرف بأنيابها وخلفها سادنها فقال خالد يا عزى كفرانك لا سبحانك * انى رأيت الله قد أهانك ثم ضربها ففلق رأسها فاذا هى حممة ثم عضد الشجرة وقتل السادن ثم أتى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فأخبره فقال تلك العزى ولا عزى بعدها للعرب قال هشام وكانت لقريش أصنام فى جوف الكعبة وحولها وأعظمها عندهم هبل وكان فيما بلغنى من عقيق أحمر على صورة انسان مكسور اليد اليمنى أدركته قريش كذلك فجعلوا له يدا من ذهب وكان أول من نصبه خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر وكان فى جوف الكعبة وكان قدامه قداح مكتوب فى أحدها صريح وفى الآخر ملصق فاذا شكوا فى مولود أهدوا له هدية ثم ضربوا بالقداح فان خرج صريح ألحقوه وان كان

وكانت العرب قد اتخذت مع الكعبة طواغيت وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة لها سدنة وحجاب ويهدى لها كما يهدى للكعبة ويطوف بها كما تطوف بالكعبة وتنحر عندها كما ينحر عند الكعبة وكان الرجل اذا سافر فنزل منزلا أخذ أربعة أحجار فنظر الى أحسنها فاتخذه ربا وجعل الثلاثة أثافي لقدره فاذا ارتحل تركه فاذا نزل منزلا آخر فعل مثل ذلك قال حنبل حدثنا حسن بن الربيع قال حدثنا مهدي بن ميمون قال سمعت أبا رجاء العطاردي يقول لما بعث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فسمعنا به سمعنا بمسيلمة الكذاب فلحقنا بالنار قال وكنا نعبد الحجر في الجاهلية فاذا وجدنا حجرا هو أحسن منه نلقي ذلك ونأخذه فاذا لم نجد حجرا جمعنا حثية من تراب ثم جئنا بغنم فحلبناها عليه ثم طفنا به وقال أبو رجاء أيضا كنا نعمد الى الرمل فنجمعه ونحلب عليه فنعبده وكنا نعمد الى الحجر الابيض فنعبده زمانا ثم نلقيه وقال أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا يزيد بن هرون أخبرنا الحجاج بن أبي زينب قال سمعت أبا عثمان النهدي يقول كنا في الجاهلية نعبد حجرا فسمعنا مناديا ينادي يا أهل الرحال ان ربكم قد هلك فالتمسوا ربا قال فخرجنا على كل صعب وذلول فبينا نحن كذلك نطلبه اذا نحن بمناد ينادي إنا قد وجدنا ربكم أو شبهه فاذا حجر فنحرنا عليه الجزر وقال محمد ابن سعد أخبرنا محمد بن عمر قال حدثني الحجاج بن صفوان عن ابن أبي حسين عن شهر بن حوشب عن عمرو بن عنبسة قال كنت امرأ ممن يعبد الحجارة فينزل الحي ليس معهم إله فيخرج الرجل منهم فيأتي بأربعة أحجار فينصب ثلاثة لقدره ويجعل أحسنها إلها يعبده ثم لعله يجد ما هو أحسن منه قبل أن يرتحل فيتركه ويأخذ غيره ولما فتح رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم مكة وجد حول البيت ثلثمائة وستين صنما فجعل يطعن بسية قوسه في وجوهها وعيونها ويقول جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا وهي تتساقط على رؤسها ثم أمر بها فأخرجت من المسجد وحرقت

﴿فصل﴾ وتلاعب الشيطان بالمشركين في عبادة الاصنام له أسباب عديدة تلاعب بكل قوم على قدر عقولهم فطائفة دعاهم الى عبادتها من جهة تعظيم الموتى الذين صوروا تلك الاصنام على صورهم كما تقدم عن قوم نوح عليه السلام ولهذا لعن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم المتخذين على القبور المساجد والسرج ونهى عن الصلاة الى القبور وسأل ربه سبحانه أن لا يجعل قبره وثنا يعبد ونهى أمته أن يتخذوا قبره عيدا وقال اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد وأمر بتسوية القبور وطمس التماثيل فأبى

المشركون

[بالله] الحق ومقام الفناء الذي هو غاية الغايات عندهم وقد تقدم الكلام عليه وان مقام الصحو والبقاء أفضل منه وأتم عبودية و ينبغي أن يعرف ان مراعاة مقام الفناء الذي جعلوه غاية آل بكثير من طالبيه الى ترك القيام بالاعمال جملة ورأوا انها علل قاطعة عنه واشتد نكير الشيوخ والائمة عليهم حتى قال شيخ الطائفة الجنيد ان الذي يزني ويسرق خير من هؤلاء وهم نوعان نوع جردوا الفناء في شهود الحكم وهو الحكم القدري ورأوا انه نهاية التوحيد فآل بهم استغراقهم فيه الى اطراح الاسباب حتى قال قائلهم العارف لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا لاستبصاره بسر الله في القدر والنوع الثاني أصحاب تجريد الفناء والارادة فجردوا الفناء والارادة تجريدا آل بهم الى ترك الاسباب جملة والطائفتان منحرفتان ضالتان خارجتان عن العلم والدين ولهذا قال لهم شيخ القوم الجنيد عليكم بالفرق الثاني يعني ان الفرق فرقان فرق بالطبع والهوى وهو الفرق الذي شهدوه وفروا منه الى معنى الجمع ولكن بعد الجمع فرق ثان وهو الفرق بالامر والمحبة لا بالشهوة والطبع وهو دين الرسل فان دينهم مبناه على الفرق الامري الشرعي بين محبوب الرب ومأموره وبين مسخوطه ومنهيه فمن لم يشهد هذا الفرق ولم يكن من أهله لم يكن من أتباع الرسل فان الكمال شهود الجمع في هذا الفرق فيشهد انفراد الله وحده بالخلق والامر ويشهد الفرق بين ما يحبه ويؤثره ويقدمه وبين ما يبغضه فيتركه ويجتنبه فيصير له هذا الفرق في محل فرقه الطبعي الحسي بين ما يلائمه وينافره ومن المعلوم ان صاحب الجمع لا بد أن يفرق بطبعه وحسه وان ادعى عدم التفريق طبعا فانه كاذب مفتر واذا كان لا بد من الفرق فالفرق الشرعي الايماني الذي بعث الله به رسله أولى به من الفرق الطبعي الحيواني الذي شاركه فيه سائر البهائم وأبطل من هذا الجمع الجمع في الوجود وهو ان يرى الوجود كله واحدا لا فرق فيه أصلا وانما التفريق بالعادة والوهم فقط كما يقوله زنادقة القائلين بوحدة الوجود الذين لا يفرقون بين الخالق والمخلوق بل يجعلون وجود أحدهما وجود الآخر بل ليس عندهم فرق بين أحدهما والآخر اذ ما ثم غير فهذا جمع في الوجود وجمع أولئك جمع في الشهود وهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه فكانوا أصحاب الجمع في الفرق ففرقوا بين ما فرق الله سنة باذنه وجمعوا الاشياء كلها في خلقه وأمره وجمعوا ارادتهم ومحبتهم وشهودهم فيه فكانوا أصحاب جمع في فرق وفرق في جمع فهؤلاء خواص الخلق فنسأل الله العظيم من فضله وكرمه فهؤلاء هم الذين لم يبق لهم مع الحق ارادة بل صارت ارادتهم تابعة لارادته

تفصل الاتحاد فى المراد فقط لا فى الارادة ولا فى المريد فاصحاب الوحـــدة ظنوا الاتحاد فى المريد وأصحاب الحـــلول توهـــموا الاتحاد فى الارادة وهـــدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه فعلموا ان المراد واحـــد فالاتحاد وقع فى المراد فقط لا فى الارادة ولا فى المريد وقوله فيعتقـــد دون ان ما دونه قاطع عنه انما يكون ما دونه قاطعا عنه اذا وقف العبد معه وتعلقت ارادته به وانصرف طلبه اليه وأما اذا جعله وسيلة الى الله وطريقا يصل بها اليه لم يكن قاطعا ولا حجابا بل يكون حاجبا موصلا اليه وقوله تعالى قل أى شئ أكبر شهادة قل الله شهيد بينى وبينكم المراد بالآية شهادته سبحانه لرسوله بتصديقه على رسالته فان المشركين قالوا لرسول الله من يشـــهد لك على ما تقول فانزل الله سبحانه آيات شهادته له وشهادة ملائكته وشـــهادة علماء أهـــل الكتاب به فقال تعالى قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ومن عنـــده علم الكتاب أى ومن عنده علم الكتاب يشهد لى وشـــهادته مقبولة لانها شهادة بعلم قال تعالى لكن الله يشهد بما أنزل اليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا وقال قل أى شئ أكبر شـــهادة قل الله شهيد بينى وبينكم فاخبر سبحانه فى هـــذه المواضع بشهادته لرسوله وكفى بشهادته اثباتا لصدقه وكفى به شـــهيدا فان قيـــل وما شهادته لرسوله قيل هى ما أقام على صدقه من الدلالات والآيات المستلزمة لصـــدقه بعد العـــلم بها ضرورة فدلالتها على صدقه أعظم من دلالة كل بينة وشاهد على حق فشهادته سبحانه لرســـوله أصـــدق شهادة وأعظمها وأدلها على ثبـــوت المشهود به فهذا وجه ووجه آخر انه صـــدقه بقـــوله وأقام الادلة القاطعة على صدقه فيما يخبر به عنه فاذا أخبر عنه انه شهد له قولا لزم ضرورة صـــدقه فى ذلك الخبر وصحت الشـــهادة له به قطعا فهذا معـــنى الآية وكان أجنبيا عما اســـتدل به المصـــنف ونظير هذا استشهادهم بقوله تعالى وعلمتم مالم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قـــل الله ثم ذرهم حتى رتب على ذلك بعضهم ان الذكر بالاسم المفرد وهو الله الله أفضـــل من الذكر بالجملة المركبة كقوله سبحان الله والحـــمد لله ولا اله الا الله والله أكبر وهذا فاسد مبنى على فاسد فان الذكر بالاسم المفرد غير مشروع أصلا ولا مفيـــد شيئا ولا هو كلام أصلا ولا يدل على مدح ولا تعظيم ولا يتعلق به ايمان ولا ثواب ولا يدخل به الذاكر فى عقد الاســـلام جملة فلو قال الكافر الله الله من أول عمره الى آخره فـــلم يصر بذلك مسلما فضلا من أن يكون من جملة الذكر أو يكون أفضل الاذكار وبالغ بعضهم فى ذلك حتى قال الذكر بالاسم المضمر أفضـــل من الذكر بالاسم الظاهر فالذكر بقوله هو هو أفضل من الذكر بقولهم الله الله وكل هذا من أنواع الهوس والخيالات الباطلة المفضية باهلها

المشركون الاخلاف فى ذلك كله اما جهلا واما عنادا لأهل التوحيد ولم يضرهم ذلك شيأ وهـــذا السبب هو الغالب على عوام المشركين وأما خواصـــهم فانهم اتخذوها بزعمهم على صور الكواكب المؤثرة فى العالم عنـــدهم وجعلوا لهـــا بيوتا وســـدنة وحجابا وحجا وقربانا ولم يزل هذا فى الدنيا قديمـــا وحـــديثا فمنها بيت على رأس جبل باصـــبهان كان به أصنام أخرجها بعض ملوك المجوس وجعـــله بيت نار ومنها بيت ثان وثالث ورابع بصنعاء بناه بعض المشركين على اسم الزهرة نخربه عثمان بن عفـــان رضى الله تعـــالى عنه ومنها بيت بناه قابوس الملك على اسم الشمس بمدينة فرغانة نخربه المعتصم وأشد الاسم فى هذا النوع من الشرك الهند قال يحيى بن بشر ان شريعة الهند وضعها لهم رجل يقال له برهمن ووضع لهم أصناما وجعل أعظم بيوتها بيتا بمدينة من مدائن السند وجعل فيه صنمهم الأعظم وزعم أنه بصورة الهيولى الأكبر وفتحت هذه المدينة فى أيام الحجاج واسمها الملتان فأراد المســـلمون قلع الصنم فقيل فيها ان تركتموه ولم تقلعوه جعلنا لكم ثلث ما يجتمع له من المـــال فأمر عبد الملك بن مروان بتركه فالهند تحج اليـــه من نحو ألفى فرسخ ولا بد لمن يحجه أن يحمل معه من النقد ما يمكنه من مائة الى عشرة الالوف لا يكون أقل من هـــذا ولا أكثر فيلقيه فى صندوق عظيم هناك ويطوف بالصنم فاذا ذهبوا ورجعوا الى بلادهم قسم ذلك المـــال فثلثه للمسلمين وثلثه لعمارة المدينة وحصونها وثلثه لســـدنة الصنم ومصالحه وأصل هذا المذهب من مشركى الصـــابئة وهم قوم ابراهيم عليه السلام الذين ناظرهم فى بطلان الشرك وكسر حجتهم بعلمه وآلهتهم بيده فطلبوا تحريقه وهو مذهب قديم فى العالم وأهله طوائف شتى فمنهم عباد الشمس زعموا أنها ملك من الملائكة لهـــا نفس وعقل وهى أصل نور القمر والكواكب وتكون الموجودات السفلية كلها عندهم منها وهى عندهم ملك الفلك فيستحق التعظيم والسجود والدعاء ومن شريعتهم فى عبادتها أنهم اتخذوا لها صنما بيده جوهر على لون النـــار وله بيت خاص قد بنوه باسمه وجعـــلوا له الوقوف الكثيرة من القرى والضياع وله سدنة وقوام وحجبة يأتون البيت ويصلون فيه لها ثلاث كرات فى اليوم ويأتيه أصحاب العاهات فيصومون لذلك الصنم ويصلون ويدعون ويستسقون به وهم اذا طلعت الشمس سجدوا كلهم واذا غربت واذا توسطت الفلك ولهـــذا يقارنها الشيطان فى هذه الاوقات الثلاثة لتقع عبادتهم وسجودهم له ولهذا نهى النبى صلى الله تعـــالى عليه وســـلم عن تحرى الصلاة فى هذه الاوقات قطعا لمشـــابهة الكفار ظاهرا وسدا

لذريعة الشرك وعبادة الأصنام

(فصل) وطائفة أخرى اتخذت للقمر صنما وزعموا أنه يستحق التعظيم والعبادة واليه تدبير هذا العالم السفلي ومن شريعة عباده أنهم اتخذوا لهم صنما على شكل عجل ويجره أربعة ويبد الصنم جوهرة ويعبدونه ويسجدون له ويصومون له أياما معلومة من كل شهر ثم يأتون اليه بالطعام والشراب والفرح والسرور فاذا فرغوا من الأكل أخذوا في الرقص والغناء وأصوات المعازف بين يديه ومنهم من يعبد أصناما تخذوها على صورة الكواكب وروحانيتها بزعمهم وبنوا لها هياكل ومتعبدات لكل كوكب منها هيكل يخصه وصنم يخصه وعبادة تخصه ومتى أردت الوقوف على هذا فانظر في كتاب السر المكتوم في مخاطبة النجوم المنسوب الى ابن خطيب الري تعرف عبادة الأصنام وكيفية تلك العبادة وشرائطها وكل هؤلاء مرجعهم الى عبادة الأصنام فانهم لا تستقر لهم طريقة الا بشخص خاص على شكل خاص ينظرون اليه ويعكفون عليه ومن ههنا اتخذ أصحاب الروحانيات والكواكب أصناما زعموا أنها على صورها فوضع الصنم انما كان في الاصل على شكل معبود غائب فجعلوا الصنم على شكله وهيأته وصورته ليكون نائبا منابه وقائما مقامه والا فمن المعلوم أن عاقلا لا ينحت خشبة أو حجرا بيده ثم يعتقد أنه الهه ومعبوده ومن أسباب عبادتها أيضا أن الشياطين تدخل فيها وتخاطبهم منها وتخبرهم ببعض المغيبات وتدلهم على بعض ما يخفى عليهم وهم لا يشاهدون الشيطان فجهلتهم وسقطهم يظنون أن الصنم نفسه هو المتكلم المخاطب وعقلاؤهم يقولون ان تلك روحانيات الاصنام وبعضهم يقول انها الملائكة وبعضهم يقول انها العقول المجردة وبعضهم يقول هي روحانيات الاجرام العلوية وكثير منهم لا يسأل عما عهد بل اذا سمع الخطاب من الصنم اتخذه الها ولا يسأل عما وراء ذلك وبالجملة فأكثر أهل الارض مفتونون بعبادة الأصنام والأوثان ولم يتخلص منها الا الحنفاء اتباع ملة ابراهيم عليه السلام وعبادتها في الارض من قبل نوح عليه السلام كما تقدم وهياكلها ووقوفها وسدنتها وحجابها والكتب المصنفة في شرائع عبادتها طبق الارض قال امام الحنفاء واجنبني وبني أن نعبد الأصنام رب انهن أضللن كثيرا من الناس والأمم التي أهلكها الله بأنواع الهلاك كلهم يعبدون الأصنام كما قص الله تعالى ذلك عنهم في القرآن وأنجى الرسل وأتباعهم من الموحدين ويكفي في معرفة كثرتهم وانهم أكثر أهل الارض ما صح عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن بعث

الى أنواع من الضلالات فهذا فساد هذا البناء الهار وأما فساد المبني عليه فانهم ظنوا ان قوله تعالى قل الله أي قل هذا الاسم فقل الله الله وهذا من عدم فهم القوم لكتاب الله فان اسم الله ههنا جواب لقوله قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا الى ان قال قل الله أي قل الله أنزله فان السؤال معاد في الجواب فيتضمنه فيحذف اختصارا كما يقول من خلق السموات والارض فيقال الله أي الله خلقهما فيحذف الفعل لدلالة السؤال عليه فهذا معنى الآية الذي لا تحتمل غيره قوله وانما زهدهم بجمع الهمة عن تفرقات الكون لان الحق عافاهم بنور الكشف عن التعلق بالاحوال فيقال الكشف الذي أوجب لهم هذا الجمع وقطع هذا التعلق هو الكشف الايماني القرآني فهو في الحقيقة الكشف النافع الجاذب لصاحبه الى سلوك منازل الابرار والوصول الى مقامات القرب ولا سيما اذا قارنه الكشف عن عيوب النفس وعلى الاعمال فناهيك به من كشف والكرامة المرتبة عليه هي لزوم الاستقامة ودوام العبودية فهذا أفضل كشف يعطاه العبد وهذه أفضل كرامة يكرم بها الولي رزقنا الله من فضله وبره وأما استشهاده بقوله انا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار فهذه الآية يخبر فيها سبحانه عما أخلص له أنبياءه ورسله من اختصاصهم بالآخرة وفيها قولان أحدهما ان المعنى نزعنا من قلوبهم حب الدنيا وذكرها وايثارها والعمل بها والقول الثاني انا أخلصناهم بأفضل ما في الدار الآخرة واختصصناهم به عن العالمين قوله وتوكلهم ورضاهم بتدبير الحق وتخلصهم من تدبيرهم وفراغ همهم من احتيالها في اصلاح شؤونها بوقوفهم على فراغ المدبر منها ومرها على علمه بمصالحهم فيها ونفوسهم مطمئنة بذلك يا أيتها النفس المطمئنة الآية قد تقدم الكلام على التوكل وبينا انه من مقامات العارفين وانه لا انفكاك للمؤمن منه وذكر العلة فيه ما هي وقوله وتوكلهم ورضاهم تدبير الحق الرضا بالتدبير ثمرة التوكل وموجبه لانه نفس التوكل في المقدور يكشفه أمران التوكل قبل وقوعه والرضا به بعد وقوعه ومن هنا قال بعضهم حقيقة التوكل الرضا لانه لما كان ثمرته وموجبها ستدل به عليه استدلالا بالاثر على المؤثر وبالمعلول على العلة ولهذا قال في الحديث الذي رواه الامام أحمد والنسائي وغيرهما عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال في دعائه اللهم اني أسألك بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني ما كانت الحياة خيرا لي وتوفني اذا كانت الوفاة خيرا لي اللهم وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا

النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون وقد قال تعالى فأبى أكثر الناس الا كفورا وقال ان تطع أكثر من في الارض يضلوك عن سبيل الله وقال وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين وقال وما وجدنا لأكثرهم من عهد وان وجدنا أكثرهم لفاسقين ولو لم تكن الفتنة بعبادة الأصنام عظيمة لما أقدم عبادها على بذل نفوسهم وأموالهم وأبنائهم دونها فهم يشاهدون مصارع اخوانهم وما حل بهم ولا يزيدهم ذلك الا حبا لها وتعظيما ويوصي بعضهم بعضا بالصبر عليها وتحمل أنواع المكاره في نصرتها وعبادتها وهم يسمعون أخبار الأمم التي فتنت بعبادتها وما حل بهم من عاجل العقوبات ولا يثنيهم ذلك عن عبادتها ففتنة عبادة الاصنام أشد من فتنة عشق الصور وفتنة الفجور بها والعاشق لا يثنيه عن مراده خشية عقوبته في الدنيا ولا في الآخرة وهو يشاهد ما يحل بأصحاب ذلك من الآلام والعقوبات والضرب والحبس والنكال والفقر غير ما أعد الله له في الآخرة وفي البرزخ ولا يزيده ذلك الا اقداما وحرصا على الوصول والظفر بحاجته فهكذا الفتنة بعبادة الاصنام وأشد فان تأله القلوب لها أعظم من تألهها للصور التي يريد منها الفاحشة بكثير والقرآن بل وسائر الكتب الالهية من أولها الى آخرها مصرحة ببطلان هذا الدين وكفر أهله وانهم أعداء الله ورسله وانهم أولياء الشيطان وعباده وانهم هم أهل النار الذين لا يخرجون منها وهم الذين حلت بهم المثلات ونزلت بهم العقوبات وان الله سبحانه بريء منهم هو وجميع رسله وملائكته وانه سبحانه لا يغفر لهم ولا يقبل لهم عملا وهذا معلوم بالضرورة من الدين الحنيف وقد أباح الله عز وجل لرسوله واتباعه من الحنفاء دماء هؤلاء وأموالهم ونساءهم وأبناءهم وأمرهم بتطهير الارض منهم حيث وجدوا وذمهم بسائر أنواع الذم وتوعدهم بأعظم أنواع العقوبة فهؤلاء في شق ورسل الله تعالى في شق

(فصل) ومن أسباب عبادة الاصنام الغلو في المخلوق واعطاؤه فوق منزلته حتى جعل فيه حظ من الالهية وشبهوه بالله سبحانه وهذا هو التشبيه الواقع في الأمم الذي أبطله الله سبحانه وبعث رسله وأنزل كتبه بانكاره والرد على أهله فهو سبحانه ينفي وينهى أن يجعل غيره مثلا له وندا وشبها له لا أن يشبه هو بغيره اذ ليس في الأمم المعروفة أمة جعلته سبحانه مثلا لشيء من مخلوقاته فجعلت المخلوق أصلا وشبهت به الخالق فهذا لا يعرف في طائفة من طوائف بني آدم وانما الاول هو المعروف في طوائف أهل الشرك غلوا فيمن

وأسألك القصد في الفقر والغنى وأسألك نعيما لا ينفد وأسألك قرة عين لا تنقطع وأسألك الرضا بعد القضاء وأسألك برد العيش بعد الموت الحديث وقد تقدم فقال وأسألك الرضا بعد القضاء وأما التوكل فانما يكون قبله وقوله وتخليصهم من تدبيرهم هذا مقام كبير اما يشير اليه السالكون وهو ترك التدبير وينبغي أن لا يؤخذ على اطلاقه بل لابد فيه من التفصيل فيقال العبد دائر بين مأمور يفعله ومحظور يتركه وقدر يجري عليه بلا ارادة منه ولا كسب فوظيفته في المأمور كمال التدبير والجد والتشمير وان يدبر الحيلة في تنفيذه بكل ما يمكنه فترك التدبير هنا تعطيل للأمر بل يدبر فعله ناظرا الى تدبير الحق له وان تدبيره انما يتم بتدبير الله فلا يكون هنا قدريا مجوسيا ناظرا الى الى فعله جاحدا لتدبير الله وتقديره ومعونته ولا قدريا جبريا ولا واقفا مع القدر جاحدا لفعله وتدبيره ومبطلا أمر الله ونهيه فان فعله الاختياري هو محل الامر والنهي فمن جحد فعل نفسه فقد عطل الامر والنهي وجحد محلهما ووظيفته في المحظور الفناء عن ارادته وفعله فان عارضته اسباب الفعل فالواجب عليه الجد في الهرب والتشمير في الكف والبعد وهذا تدبير للنهي وأما القدر الذي يصيبه بغير ارادته فهذا الذي يحسن فيه اسقاط التدبير جملة وصبره ورضاه بما قسم له من محبوب ومكروه فعلى هذا التفصيل ينبغي أن يوضع اسقاط التدبير وجماع ذلك انك تسقط التدبير في حظك وتكون قائما بالتدبير في حق ربك وهكذا ينبغي أن تفرغ لهمتك من اجالتها في اصلاح شانك فان اصلاح شأنك بحصول حظوظك يحصل فيه فراغ الهمة وترك التدبير وأما اصلاح شانك بأداء حق الله فالواجب شغل الهمة واجالتها في القيام به وقوله بوقوفهم على فراغ المدبر منه ومرها على علمه بمصالحهم فيها فلا ريب ان الله سبحانه قضى القضية وفرغ من تدبير أمور الخلائق ولكن قدرها بأسبابها المفضية اليها فلا يكون وقوف العبد على فراغه سبحانه من أقضيته في خلقه وتدبيره مانعا له من قيامه بالأسباب التي جعلها طرقا لحصول ما قضاه منها وكذلك يباشر العبد الاسباب التي بها حفظ حياته من الطعام والشراب واللباس والمسكن ولا يكون وقوفه مع فراغ المدبر منها مانعا له من تعاطيها وكذلك يباشر الاسباب الموجبة لبقاء النوع من النكاح والتسري ولا يكون وقوفه مع فراغ الله من خلقه مانعا له وهكذا جميع مصالح الدنيا والآخرة وان كانت مفروغا منها قضاء وقدرا فهي منوطة بأسبابها التي يتوقف حصولها عليها شرعا وخلقا وأما استدلاله بقوله تعالى يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك فالنفس المطمئنة هي التي اطمأنت الى ربها وسكنت الى حبه

وقامت بتدبيرها بنفسها ... ورضيت بقضائه وهي ضد النفس الامارة بالسوء فلم تكن طمأنينتها بمجرد اسقاط تدبيرها بل بالقيام بحقه والطمأنينة بحبه وبذكره ﴿فصل﴾ قال (وصبرهم صونهم قلوبهم عن خاطر السوء ان انه قضى قضاء عاريا عن المرافقة خارجا عن الخيرة قال تعالى وليبلي المؤمنين منه بلاء حسنا) قد تقدم الكلام في الصبر وأقسامه وبيان مرتبته من الايمان وماذكره في تفسيره ههنا غير مطابق لمعناه وهو تفسير بعيد جدا فان الصبر من أعمال القلوب وهو حبس النفس وكفها عن السخط وأما صون القلب عن اعتقاد مالايليق بالله فلا يقال له صبر بل هذا من لوازم الايمان وهو كاعتقاده سبحانه حكيم رحيم عليم سميع بصير الى غير ذلك من صفات كماله فلا يقال الصبر صون القلب عن اعتقاد أضدادها هذا بعيد جدا وتكلف زائد لتفسير الصبر وهل فهم أحد قط هذا المعنى من قوله يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا وقوله واصبر لحكم ربك وقوله واصبر وما صبرك الا بالله وقوله فاصبر على مايقولون واصبروا ان الله مع الصابرين وسائر نصوص الصبر ومن العجب جعل الصبر الذي هو نصف الايمان من منازل العوام وتفسيره بهذا التفسير نعم يجب على كل مسلم أن ينزه الله سبحانه عن أن يقضي قضاء ينافي حكمته وعدله وفضله وبره واحسانه بل كل أقضيته لاتخرج عن الحكمة والرحمة والعدل والمصلحة وان كان كثير من المتكلمين ينازع هذا الاصل ويقول الذي ينزه الله عنه من الاقضية هو المستحيل الممتنع وأما الممكن فلا يقبح منه شئ وهؤلاء لايمكن صون القلب عن خواطر السوء المتعلقة بما يقضيه الله عندهم الا صونها عن خواطر الممتنعات والمستحيلات فقط وبالجملة هذا مقام آخر غير مقام الصبر بل هذا باب من أبواب المعرفة والعلم ولكل مقام مقال وأما استشهاده بقوله وليبلي المؤمنين منه بلاء حسنا فالبلاء الحسن هنا هو النعمة بالظفر والغنيمة والنصر على الاعداء وليس من الابتلاء الذي عن هو الامتحان بالمكروه بل من ابلاه بلاء حسنا اذا أنعم عليه يقال أبلاك الله ولا ابتلاك فابلاه بالخير وابتلاه بالمكاره غالبا كما في الحديث اني مبتليك ومبتل بك ﴿فصل﴾ قال (وحزنهم يأسهم عن أنفسهم الامارة بالسوء ان الانسان لربه لكنود) وقد تقدم أيضا الكلام على ماذكره في الحزن وأما تفسيره اياه بأنه يأسهم عن أنفسهم الامارة بالسوء فليس بالبين فان الحزن هو الاسف على فوت محبوب وحصول مكروه وان تعلق ذلك بالماضي كان حزنا وان تعلق بالمستقبل كان خوفا وهما واما اليأس عن النفس الامارة بالسوء فليس بحزن ويمكن ان يكون

يعظمونه ويحبونه حتى شبهوه بالخالق وأعطوه خصائص الالهية بل صرحوا أنه اله وأنكروا اجعل الآلهة إلها واحدا وقالوا اصبروا على آلهتكم وصرحوا بأنه اله معبود يرجى ويخاف ويعظم ويسجد له ويحلف باسمه ويقرب له القرابين الى غير ذلك من خصائص العبادة التي لاتنبغي الا لله تعالى فكل مشرك فهو مشبه لالهه ومعبوده بالله سبحانه وان لم يشبهه به من كل وجه حتى ان الذين كفروا وصفوه سبحانه بالنقائص والعيوب كقولهم ان الله فقير وأن يد الله مغلولة وانه استراح لما فرغ من خلق العالم والذين جعلوا له ولدا وصاحبة تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا لم يكن قصدهم أن يجعلوا المخلوق أصلا ثم يشبهون به الخالق بل وصفوه بهذه الاشياء استقلالا لا قصدا أن يكون غيره أصلا فيها وهو مشبه به ولهذا كان وصفه سبحانه بهذه الامور من أبطل الباطل لكونها في نفسها نقائص وعيوبا ليس جهة البطلان في اتصافه بها هو التشبيه والتمثيل فلا يتوقف في نفيها عنه على ثبوت انتفاء التشبيه كما يفعله بعض أهل الكلام الباطل حيث صرح بأنه لا يقوم دليل عقلي على انتفاء النقائص والعيوب عنه وانما تنفى عنه لاستلزامها التشبيه والتمثيل وهؤلاء اذا قال لهم الواصفون لله سبحانه بهذه الصفات نحن نثبتها له على وجه لايماثل فيها خلقه بل نثبت له فقرا وصاحبة وولدا لايماثل فيه خلقه كما تثبتون أنتم له علما وقدرة وحياة وسمعا وبصرا لايماثل فيه خلقه فقولنا في هذا كقولكم فيما أثبتموه سواء لم يتمكنوا من ابطال قولهم ويصيرون أكفاء لهم في المناظرة فانهم قد أعطوهم أنه لا يقوم دليل عقلي على انتفاء النقائص والعيوب وانما تنفى ما نفى عنه لاجل التشبيه والتمثيل وقد أثبتوا له صفات على وجه لا يستلزم التشبيه فقال أولئك وهكذا نقول نحن ولما اعترف بعضهم أن هذا لازم استروح الى دليل الاجماع وقال انما نفينا النقائص والعيوب عنه بالاجماع وعندهم أن الاجماع أدلته ظنية لا تفيد اليقين فليس عند القوم يقين وقطع بأن الله سبحانه منزه عن النقائص والعيوب وأهل السنة يقولون ان تنزهه سبحانه عن العيوب والنقائص واجب لذاته كما أن اثبات صفات الكمال والحمد واجب له لذاته وهو أظهر في العقول والفطر وجميع الكتب الالهية وأقوال الرسل من كل شئ ومن العجب أن هؤلاء جاؤا الى ما علم بالاضطرار أن الرسل جاؤا به ووصفوا الله سبحانه به ودلت عليه العقول والفطر والبراهين فنفوه وقالوا اثباته يستلزم التجسيم والتشبيه فلم يثبت لهم قدم البتة فيما يثبتونه له سبحانه وينفونه عنه وجاؤا الى ما علم بالاضطرار والفطر والعقول وجميع الكتب الالهية من تنزيه الله سبحانه

مراده أن حزنهم ينشأ عن النفس الامارة بالسوء لا عن المطمئنة فان المطمئنة لا تحزن وانما تحزن الامارة لفوات محبوبها وليس هذا كما قال فان النفس المطمئنة تحزن على تقصيرها في أداء الحق وعلى تضييعها الوقت وايثارها غير الله عليه في الاحيان وهذا الحزن لا بد منه اذ التقصير والتضييع لازم وأما استشهاده بقوله ان الانسان لربه لكنود فعلى ذلك فوجهه ان الكنود هو الكفور وهو الذي يذكر المصائب وينسى النعم ولا ريب ان الحزن ينشأ عن هذين ولا ريب ان الحزن الناشئ عن الكنود حزن ناشئ عن النفس الامارة بالسوء وأما الحزن على تقصيره وتضييع وقته فليس من هذا وقد تقدم ذلك وذكر أقسام الحزن ومتعلقاته والله أعلم

(فصل)

قال (وخوفهم هيبة الجلال لا خوف العذاب فان خوفهم مناضلة عن النفس وظن بها وهيبة الجلال تعظيم الحق ونسيان النفس يخافون ربهم من فوقهم وقال في حق العوام يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والابصار) وقد تقدم أيضا على ماذكره في الحديث وعلته وقوله هو هيبة الجلال لا خوف العذاب تقدم بيان بطلانه وان الله سبحانه أثنى على خاصة أوليائه من الملائكة والانبياء وغيرهم ممن عبدهم المشركون بأنهم يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه فكيف يقال ان خوف العذاب نقص ومناضلة عن النفس هذا من الترهات والزعومات ودعاوى الانفس وقوله ان الخوف مناضلة عن النفس فسبحان الله هل يقال لمن خاف الله وخاف عقوبته انه مناضل ربه ولو كان مناضلة فهو مناضلة العدو والهوى والشهوة وهذه المناضلة من أعظم أنواع العبودية فان من خاف شيئا ناضل عنه فهو مناضلة عن العذاب وأسبابه وما ثم الا مناضلة والقاء باليد الى التهلكة ولولا هذه المناضلة لحصل الاستسلام للعقوبة والمناضلة المذكورة المناضلة عن محبوبات الرب وأوامره وليس الضن بالنفس عن عذاب الله نقص بل الكمال والفوز والنعيم في ضن العبد بنفسه عن أن يسلمها لعذاب الله ومن لم يضن بنفسه فليس فيه خير ألبتة والضن بالنفس انما يذم اذا ضن بها عن بذلها في محبوب الرب وأوامره وأما اذا ضن بها عن عذابه فهل يكون هذا علة وهل العلة كلها الا في عدم هذه المناضلة والضن قوله وهيبة الجلال تعظيم الحق ونسيان النفس قد تقدم الكلام في الهيبة والتعظيم وانهما غير الخوف والخشية ولا تستلزم هذه الهيبة أيضا نسيان النفس ولا يكون شعور العبد بنفسه في هذا المقام نقصا ولا علة كما تقدم بل هو أكمل لاستلزامه البقاء الذي هو أقوى وأكمل من الفناء وأما قوله يخافون ربهم من فوقهم فهو حجة عليه كما تقدم ولا يصح تفسير الخوف هنا

عن كل نقص وعيب فقالوا ليس في أدلة العقل ما ينفيه وانما ننفيه بما ينفي به التشبيه وليس في الخذلان فوق هذا بل اثبات هذه العيوب والنقائص يضاد كماله المقدس وهو سبحانه موصوف بما يضادها ويناقضها من كل وجه ونفيها أظهر وأبين في العقول من نفي التشبيه فلا يجوز أن يثبت له على وجه لا يشابه فيه خلقه والمقصود أنه لم يكن في الأمم من مثله بخلقه وجعل المخلوق أصلا ثم شبهه به وانما كان التمثيل والتشبيه في الأمم حيث شبهوا أوثانهم ومعبودهم به في الالهية وهذا التشبيه هو أصل عبادة الأصنام فأعرض عنه وعن بيان بطلانه أهل الكلام وصرفوا العناية الى انكار تشبيهه بالخلق الذي لم يعرف أمة من الأمم عليه وبالغوا فيه حتى نفوا به عنه صفات الكمال وهذا موضع مهم نافع جدا به يعرف الفرق بين ما نزه الرب سبحانه نفسه عنه وذم به المشركين المشبهين العادلين به خلقه وبين ما ينفيه الجهمية المعطلة من صفات كماله ويزعمون أن القرآن دل عليه وأريد به نفيه والقرآن مملوء من ابطال أن يكون في المخلوقات من يشبه الرب تعالى أو يماثله فهذا هو الذي قصد بالقرآن ابطاله ما عليه المشركون والمشبهون العادلون بالله تعالى غيره قال تعالى فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون وقال ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله فهؤلاء جعلوا المخلوق مثلا للخالق فالند الشبه يقال فلان ند فلان ونديده أي مثله وشبهه ومنه قول حسان

أتهجوه ولست له بند * فشركما لخيركما الفداء

ومنه قول النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لمن قال له ما شاء الله وشئت أجعلتني لله ندا وقال جرير

أتيما تجعلون الى ندا * وما تيم لذي حسب نديد

قال ابن مسعود وابن عباس لا تجعلوا لله أكفاء من الرجال تطيعونهم في معصية الله وقال ابن زيد الانداد الآلهة التي جعلوها معه وقال الزجاج أي لا تجعلوا لله أمثالا فالذي أنكره الله سبحانه عليهم تشبيه المخلوق به حتى جعلوه ندا لله تعالى يعبدونه كما يعبدون الله وكذلك قوله في الآية الأخرى ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله فأنكر هذا التشبيه عليهم وهو أصل عبادة الأصنام ونظير هذا قوله سبحانه الحمد لله الذي خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون أي يعدلون به غيره فيجعلون له من خلقه عدلا وشبها قال ابن عباس يريد

عدلوا الى من خلق الحجارة والأصنام بعد أن أقروا بنعمتي وربوبيتي قال الزجاج أعلم الله سبحانه أنه خالق ما ذكر في هذه الآية وأن خالقها لا شئ مثله واعلم أن الكفار يجعلون له عديلا والعدل التسوية يقال عدل الشئ بالشئ اذا سواه ومعنى يعدلون به يشركون به غيره قاله مجاهد قال الاحمر يقال عدل الكافر بربه عدلا وعدولا اذا سوى به غيره تعبده وقال الكسائي عدلت الشئ بالشئ أعدله عدولا اذا ساويته به ومثله قوله تعالى عن هؤلاء المشبهين أنهم يقولون في النار لآلهتهم تالله ان كنا لفي ضلال مبين اذ نسويكم برب العالمين فاعترفوا أنهم كانوا في أعظم الضلال وأبينه اذ جعلوا لله شبها وعدلا من خلقه سووهم به في العبادة وا تعظيم وقال تعالى رب السموات والارض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا قال ابن عباس شبها ومثلا وهو من يساميه وذلك نفي عن المخلوق أن يكون مشابها للخالق ومماثلا له بحيث يستحق العبادة والتعظيم ولم يقل سبحانه هل تعلمه سميا أو مشبها لغيره فان هذا لم يقله أحد بل المشركون المشبهون جعلوا بعض المخلوقات مشابها لله مساميا ونداوعدلا فانكر عليهم هذا التشبيه والتمثيل وكذلك قوله ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السموات والارض شيأ ولا يستطيعون فلا تضربوا لله الأمثال فنهاهم أن يضربوا له مثلا من خلقه ولم ينههم أن يضربوه هو مثلا لخلقه فان هذا لم يقله أحد ولم يكونوا يفعلونه فان الله سبحانه أجل وأعظم وأكبر من كل شئ في فطر الناس كلهم ولكن المشبهون المشركون يغلون فيمن يعظمونه فيشبهونه بالخالق والله تعالى أجل في صدور جميع الخلق من أن يجعلوا غيره أصلا ثم يشبهونه سبحانه بغيره فان الذي يشبهه بغيره ان قصد تعظيمه لم يكن في هذا تعظيم لانه مثل أعظم العظماء بما هو دونه بل بما ليس بينه وبينه نسبة في العظمة والجلالة وعاقل لا يفعل هذا وان قصد التنقيص شبهه بالناقصين المذمومين لا بالكاملين الممدوحين ومن هنا يعلم أن اثبات صفات الكمال له لا يتضمن التشبيه والتمثيل لا بالكاملين ولا بالناقصين وان نفي تلك الصفات يستلزم تشبيهه بأنقص الناقصين فانظر الى الجهمية وأتباعهم جاؤا الى التشبيه المذموم فأعرضوا عنه صفحا وجاؤا الى الكمال والمدح فجعلوه تشبيها وتمثيلا عكس ما بينه القرآن وجاء به من كل وجه ومن هذا قوله تعالى ولم يكن له كفوا أحد هو سلب عن المخلوق مكافأته ومماثلته للخالق سبحانه ولم يقل ولم يكن هو كفوا لاحد فينفي عن نفسه مشابهته للمخلوق ومكافأته له اذ كان ذلك أبين وأظهر من أن يحتاج الى نفيه

[...] ورحمته الا على بلا [...] ان هذا وصف للملائكة وقد وصفهم سبحانه بقوله وخشيته فالخوف في هذه الآية والخشية في قوله يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون فوصفهم بالخشية والاشفاق ووصفهم بخوف العذاب في قوله يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه وهم خواص خلقه فاياك ورعونات النفس وحماقاتها وجهالاتها ولا تكن ممن لا يقدر الله حق قدره وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم ان الله لو عذب أهل سمواته وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم فاذا علم المقرب العارف ان الله لو عذبه لم يظلمه فمن أحق بالخوف منه قوله وقال في حق العوام يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والابصار هذا من الشطحات القبيحة الباطلة فان هذا صفة خواص عباده وعرفائهم وهم الذين قال فيهم رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والابصار ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله فهؤلاء خواص الخلق وهم أصحاب رسول الله ومن تبعهم باحسان أفلا يستحي من جعل هذا الوصف للعوام ولا ريب ان هذا مصدره اما جهل مفرط واما تقليد القائل لا يدري لازم قوله هذا ان أحسن الظن لقائله وان كان مصدره غير ذلك فادهى وأمر ولولا ان هذه الكلمات ونحوها مهاو ومعاطب في الطريق لكان الاعراض عنها الى ما هو أهم منها أولى والله المستعان (فصل) قال (ورجاؤهم ظمؤهم الى الشراب الذي هم فيه غرقى وبه سكرى ألم تر الى ربك كيف مد الظل) وهذا أيضا من ذلك النمط ورجاء الانبياء والرسل فمن دونهم انما هو طمعهم في رحمته ومغفرته وانظر الى دعوى هؤلاء والى قول امام الحنفاء خليل الرحمن والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين كيف علق رجاءه وطمعه بمغفرة الله له قال تعالى عن خاصة خلقه وأعلمهم به انهم يرجون رحمته ويخافون عذابه ومن العجب استدلاله بقوله تعالى ألم تر الى ربك كيف مد الظل فالهذه الآية وما للرجاء ولا سيما اذ ذكره المصنف في تفسيره رجاء القوم والاستشهاد بهذا من جنس الالغاز ومعنى الآية التنبيه على هذه الدلالة الباهرة على قدرة الرب سبحانه وعجائب مخلوقاته الدالة عليه والمعنى أنظر كيف بسط ربك الظل والظل ما قبل الزوال والفئ بعده فمده سبحانه وبسطه عند طلوع الشمس فانه يكون ممدودا أطول ما يكون وجعل الشمس دليلا عليه فانها هي التي تظهره وتبينه ثم كلما ارتفعت الشمس شيأ انقبض من الظل جزء فلا يزال ينقص يسيرا حتى ينتهي الى غايته فاذا أخذت

... إذا انبسط بعد انقباضه شيأ فشيأ حتى يصير كهيئته عند طلوعها ولهذا كان الزوال يعرف بانتهاء الظل في قصره فاذا أخذ في الزيادة بعد تناهي قصره فقد تحقق الزوال ولو شاء الله لجعله ساكنا دائما على حالة واحدة فلا يتحرك بالزيادة والنقصان فالظل أحد أدلة الدالة على الخالق سبحانه وأما دلالة هذه الآية على الرجاء فيحتاج الى اشارة وتكلف غير مقصود بها وآيات الرجاء في القرآن أكثر وأظهر وأصرح في المقصود ظاهرة واستنباطا فالظاهرة كقوله فمن كان يرجو لقاء ربه وقوله ويرجون رحمته وقوله من كان يرجو لقاء الله والمستنبطة كآيات البشارة كلها كقوله وبشر المؤمنين (٣٤٩) وبشر الصابرين فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات (فصل) قال (وشكرهم سرور وهم بوجودهم واستبشارهم بلقائه فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به) وهذا أيضا من النمط المتقدم وشكر القوم هو عملهم بطاعة الله واستعانتهم بنعمه على محابه قال تعالى اعملوا آل داود شكرا وقال النبي صلى الله عليه وسلم لما قيل له أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال أفلا أكون عبدا شكورا فسمى الاعمال شكرا وأخبر ان شكره قيامه بها ومحافظته عليها فحقيقة الشكر هو الثناء على المنعم ومحبته والعمل بطاعته كما قال

أفادتكم النعماء عندي ثلاثة
يدي ولساني والضمير المحجبا

فاليد للطاعة واللسان للثناء والضمير للحب والتعظيم وأما السرور به وان كان من أجل المقامات فان العبد انما يسر بمن هو أحب الاشياء اليه وعلى قدر حبه له يكون سروره وهذا السرور ثمرة الشكر لا أنه نفس الشكر فكذلك الاستبشار والفرح بلقائه انما هو ثمرة الشكر وموجبه وهو كالرضا من التوكل وكالشوق من المحبة وكالانس من الذكر وكالخشية من العلم وكالطمأنينة من اليقين فانها ثمرات لها وآثار وموجبات فعلى قدر شكره لله بالاعمال الظاهرة والباطنة وتصحيح العبودية يكون سروره واستبشاره بلقائه وأما قوله تعالى فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به فهذا انما قاله للشاكرين الذين يقاتلون في سبيله فيقتلون ويقتلون ثم وصفهم بعد ذلك بقيامهم باعمال الشكر فقال التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله فهؤلاء المستبشرون ببيعهم جعلنا الله منهم بمنه وكرمه (فصل) (ومحبتهم فناؤهم في محبة الحق فماذا بعد الحق الا الضلال) وقد تقدم الكلام على هذا بما فيه كفاية وبينا ان البقاء في المحبة

وسر ذلك أن المقصود أن المخلوق لا يماثله سبحانه في شئ من صفاته وخصائصه وأما كونه سبحانه هو ولا يماثل المخلوق ولا يشابهه ولا هو نده ولا هو له ولا كفؤا فليس فيه مدح لما فانه لو مدح بعض الملوك أو غيرهم بأنه لا يشبه الحيوانات ولا الحجارة ولا الخشب ونحو ذلك لم يعد هذا امدحا ولا ثناء عليه ولا كمالا له بخلاف ما اذا قيل لا تجعل للملك ندا ولا كفؤا ولا شبيها من رعيته تعظمه كتعظيمه وتطيعه كطاعته فانه ليس في رعيته من يساميه ولا يماثله ولا يكافئه كان هذا غاية المدح وكذلك قوله سبحانه ليس كمثله شئ وهو السميع البصير انما قصد به نفي أن يكون معه شريك أو معبود يستحق العبادة والتعظيم كما يفعله المشبهون والمشركون لم يقصد به نفي صفات كماله وعلوه على خلقه وتكلمه بكتبه وتكليمه لرسله ورؤية المؤمنين له جهرة بأبصارهم كما يرى الشمس والقمر في الصحو فانه سبحانه انما ذكر هذا في سياق رده على المشركين الذين اتخذوا من دونه أولياء يوالونهم من دونه فقال تعالى والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل وكذلك أوحينا اليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ولكن يدخل من يشاء في رحمته والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير أم اتخذوا من دونه أولياء فالله هو الولي وهو يحيي الموتى وهو على كل شئ قدير وما اختلفتم فيه من شئ فحكمه الى الله ذلكم الله ربي عليه توكلت واليه أنيب فاطر السموات والارض جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الانعام أزواجا يذرؤكم فيه ليس كمثله شئ وهو السميع البصير فتأمل كيف ذكر هذا النفي تقريرا للتوحيد وابطالا لما عليه أهل الشرك من تشبيه آلهتهم وأوليائهم به حتى عبدوهم معه فحرفها المحرفون وجعلوها ترسا لهم في نفي صفات كماله وحقائق أسمائه وأفعاله وهذا التشبيه الذي أبطله الله سبحانه نفيا ونهيا هو أصل شرك العالم وعبادة الأصنام ولهذا نهى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أن يسجد أحد لمخلوق مثله أو يحلف بمخلوق أو يصلي الى قبر أو يتخذ عليه مسجدا أو يعلق عليه قنديلا أو يقول القائل ما شاء الله وشاء فلان ونحو ذلك حذرا من هذا التشبيه الذي هو أصل الشرك وأما اثبات صفات الكمال فهو أصل التوحيد فتبين أن المشبهة هم الذين يشبهون المخلوق بالخالق في العبادة والتعظيم والخضوع والحلف به والنذر له والسجود له والعكوف عند بيته وحلق الرأس له والاستغاثة به والتشريك بينه وبين الله في قولهم ليس لي الا الله وأنت وأنا متكل على الله

وعليك وهذا من الله ومنك وأنا في حسب الله وحسبك وماشاء الله وشئت وهذا لله ولك وأمثال ذلك فهؤلاء هم المشبهة حقا لا أهل التوحيد المثبتون لله ما أثبت لنفسه والنافون عنه مانفاه عن نفسه الذين لا يجعلون له ندا من خلقه ولا عدلا ولا كفؤا ولا سميا وليس لهم من دونه ولي ولا شفيع فمن تدبر هذا الفصل حق التدبر تبين له كيف وقعت الفتنة في الارض بعبادة الأصنام وتبين له سر القرآن في الانكار على هؤلاء المشبهة الممثلة ولا سيما اذا جمعوا الى هذا التشبيه تعطيل الصفات والافعال كما هو الغالب عليهم فيجمعون بين تعطيل الرب سبحانه عن صفات كماله وتشبيه خلقه به

(فصل) ومن كيده وتلاعبه ما تلاعب بعباد النار حتى اتخذوها إلها معبودة وقد قيل ان هذا كان من عهد قابيل كما ذكر أبو جعفر بن جرير انه لما قتل قابيل هابيل وهرب من أبيه آدم عليه السلام أتاه ابليس فقال له ان هابيل انما قبل قربانه وأكلته النار لانه كان يخدمها ويعبدها فانصب أنت نارا تكون لك ولعقبك فبنى بيت نار فهو أول من نصب النار وعبدها وسرى هذا المذهب في المجوس فبنوا لها بيوتا كثيرة واتخذوا لها الوقوف والسدنة والحجاب فلا يدعونها تخمد لحظة واحدة فاتخذ لها افريدون بيتا بطوس وآخر ببخارى واتخذ لها بهمن بيتا بسجستان واتخذ لها أبو قباذ بيتا بناحية بخارى واتخذت لها بيوت كثيرة وعباد النار يفضلونها على التراب ويعظمونها ويصوبون رأي ابليس وقد رمي بشار بن برد بهذا المذهب لقوله في قصيدته

الارض سافلة سوداء مظلمة * والنار معبودة مذ كانت النار

ويقولون انها أوسع العناصر حيزا وأعظمها جرما وأوسعها مكانا وأشرفها جوهرا وألطفها جرما ولا كون في العالم الا بها ولا نمو ولا انعقاد الا بممازجتها ومن عبادتهم لها أن يحفروا لها أخدودا مربعا في الارض ويطوفون به وهم أصناف مختلفة فمنهم من يحرم القاء النفوس فيها واحراق الابدان بها وهم أكثر المجوس وطائفة أخرى منهم تبلغ بهم عبادتهم لها الى أن يقربوا أنفسهم وأولادهم لها وهؤلاء أكثر ملوك الهند وأتباعهم ولهم سنة معروفة في تقريب نفوسهم والقائهم فيها فيجيء الرجل الذي يريد يفعل ذلك بنفسه أو بولده أو حبيبه فيجمله ويلبسه أحسن اللباس وأفخر الحلي ويركب أعلى المراكب وحوله المعازف والطبول والبوقات فيزف الى النار أعظم من زفافه ليلة عرسه حتى اذا ما قابلها ووقف عليها وهي تأجج طرح نفسه فيها فضج الحاضرون ضجة واحدة بالدعاء له

[illegible] من الفناء [illegible] وأن الفناء [illegible] وأما الأقوياء فهم مع شدة محبتهم في مقام البقاء والتمييز وأما استدلاله بقوله تعالى فماذا بعد الحق الا الضلال فالآية انما سيقت في الكلام على من يعبد غير الله ويشرك به قال تعالى قل من يرزقكم من السماء والارض أمن يملك السمع والابصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الامر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق الا الضلال فأنى تصرفون عبد غير الله ما عبد الا الضلال المحض والباطل البحت وأما من عبد الله بأمره وكان في مقام التمييز (٣٥٠) بين محابه ومساخطه مفرقا بينهما يحب هذا ويبغض هذا ناظرا بقلبه الى ربه عاكفا بهمته عليه منفذا لاوامره فهو مع الحق المحض والله أعلم

(فصل) قال (وشوقهم هزمهم من رسمهم وسماتهم استجابة للوصول الى غاية المنا وعجلت اليك رب لترضى) قد تقدم الكلام في الشوق مستوفى وليس الهرب من الغير والضد هو الشوق بل هنا مهروب منه ومهروب اليه فالشوق هو سفر القلب نحو المحبوب وهذا لا يتم الا بالهرب من ضده فليس الشوق هو نفس الهرب من الرسوم والسمات (فصل) قال (والارادة والزهد والتوكل والصبر والحزن والخوف والرجاء والشكر والمحبة والشوق من منازل أهل الشرع السائرين الى عين الحقيقة فاذا شاهدوا عين الحقيقة اضمحلت فيها أحوال الشاهدين حتى يفنى مالم يكن ويبقى مالم يزل) قلت الحقائق التي أشار اليها على لسان اهل السلوك ثلاثة حقيقة ايمانية نبوية وهي حقيقة العبودية التي هي كمال الحب وكمال الذل وسير أهل الاستقامة انما هو الى هذه الحقيقة ومنازل السير التي ينزلون فيها هي منازل الايمان الموصلة اليها والمنحرفون لا يرضون بهذه الحقيقة ولا يقفون معها ويرونها منزلة من منازل العامة

الحقيقة الثانية حقيقة كونية قدرية يشاهدون فيها انفراد الرب سبحانه بالتكوين وانفراده وحده وان العالم وغبطته كالميت يقلبه ويصرفه كيف يشاء وهم يعظمون هذا المشهد ويرون الفناء فيه غاية ما بعدها شئ وهذا من اغلاطهم في المعرفة والسلوك فان هذا المشهد لا يدخل صاحبه في الايمان فضلا عن أن يكون أفضل مشاهد أولياء الله المقربين فان عباد الاصنام شهدوا هذا المشهد ولم ينفعهم وحده قال تعالى قل لمن الارض ومن فيها ان كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكرون قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون قل من بيده ملكوت كل شئ وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون سيقولون لله قل فأنى تسحرون

ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا وهــذا كثير فى القرآن
قالغنا فى هذا المشهد لا يدخل العبد فى دائرة الاســلام فكيف يجعل هو الحقيقة التى ينتهى اليها ســير السالكين ويجعل حقيقة الايمان
ودعوة الرسل منزلة من المنازل العامة وهل هذا الا غاية الانحراف والبعد عن الصراط المستقيم وقلب للحقائق وكم قد هلك فى هــذه الحقيقة
من أمم لا يحصيهم الا الله وكم عطل لاجلها الواقفون معها من الشرائع وخربوا من المنازل وما نجا من معاطبها الا من شملته العناية الربانية
ونفذ تبصره من هــذه الحقيقة الى الحقيقة الايمانية النبوية حقيقة رسل الله وأنبيائه وأتباعهم وذلك فضل الله يؤتيه من
يشاء والحقيقــة الثالثة حقيقة
اتحادية بل وحدية لا يفرق فيها بين
الرب والعبد ولا بين القديم والمحدث
ولا بين صانع ومصنوع بل الامر كله
واحد والامر المخلوق هو عين الامر
الخالق وهذه الحقيقة التى يشير الى
عينها طائفة الاتحادية و يعدون
من لم يكن من أهلها محجوبا وهذه
حقيقة كفرية اتحادية وهى مع
ذلك خيال فاسد وعقل منكوس
وذوق من عين مفتنة وكفر أهلها
أعظم من كفر كل أمة فانهــم
جحــدوا الصانع حقا وان أثبتوه
جعلوا وجوده وجود كل موجود
والذين أثبتوا الصانع وعــدلوا به
غيره وسووا بينــه و بين غــيره فى
العبادة مقالتهــم خير من مقالة
هؤلاء الذين جعــلوه وجود كل
موجود وعين كل شئ تعالى الله
عما يقول الكاذبون المفــترون
علوا كبيرا فعليك بالفــرق بين
السائرين الى هــذه الحقيقــة
والسائرين الى عــين الحقيقــة
الكونية الحكمية والسائرين
الى عــين الحقيقــة المحمــدية
الابراهيمــية الحنيفيــة التى هى
حقيقة جميع الانبياء والمرسلين
وفيها تفاوتت مراتب السالكين
ومنازلهم من القرب من رب العالمين
قال شيخ هــذه الحقيقة لما تحقق
فناء تلك الرســوم وانولها الى
وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض حنيفا وما أنا من المشركين وهذا التوجه يتضمن محبته دون غيره وعبادته وطاعته دون
غيره فهــذه هى الحقيقــة حقا وما سواها باطل حقيقة قال تعالى لا كرم خلقه عليه ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا وما كان
من المشركين فامره تعالى أن يقتدى بابيه ابراهيم فى هذه الحقيقة وكان صــلى الله عليه وسلم يعلم أصحابه اذا أصبحوا واذا أمسوا أن يقولوا
أصبحنا على فطرة الاسلام وكلمة الاخــلاص ودين نبينا محمد وملة أبينا ابراهيم حنيفا مسلما وما كان من المشركين فنسال الله العظيم أن يهب
لنا هذه الحقيقة و يثبتنا عليها ويعيذنا مما سواها انه قريب مجيب بمنه وكرمه والله أعلم ‏ (فصل) فى مراتب المكلفين فى الدار الآخرة

وغبطته على ما فعــل فلم يلبث الا يسيرا حتى يأتيهم الشــيطان فى صورته وشكله وهيأته لا ينكرون منه شيأ فيأمرهم بأمره و يوصيهم بما يوصيهم به و يوصيهم بالتمسك بهذا الدين و يخبرهم أنه صار الى جنة ورياض وأنهار وانه لم يتألم بمس النار فلا يهولنهم ذلك ولا يمنعهم عن أن يفعلوا مثله ومنهم زهاد وعباد يجلسون حول النار صائمين عاكفين عليها ومن سنتهم الحث على الاخــلاق الجميلة كالصدق والوفاء وأداء الامانة والعفة والعــدل وترك أضدادها ولهؤلاء شرائع فى عبادتها ونواميس وأوضاع لا يخلون بها

(فصل) ومن كيده وتلاعبه تلاعبــه بطائفة أخرى تعبد الماء من دون الله وتسمى الجلبانية وتزعم أن المــاء لما كان أصل كل شئ وبه كل ولادة ونمو ونشو وطهارة وعبادة وما من عمل فى الدنيا الا ويحتاج الى الماء كان حقه أن يعبــد ومن شريعتهم فى عبادته أن الرجــل منهم اذا أراد عبادته تجرد وستر عورته ثم دخل فيه حتى يصير الى وسطه فيقيم هناك ساعتين أو أكثر بقدر ما أمكنه و يكون معه ما يمكنه أخذه من الرياحين فيقطعها صغارا فيلقيها فيه شيأ فشيأ وهو يسبحه و يمجده فاذا أراد الانصراف حرك المــاء بيده ثم أخذ منه فيضعه على رأسه ووجهه وجسده ثم يسجد و ينصرف

(فصل) ومن تلاعبه تلاعبــه بعباد الحيوانات فطائفة عبــدت الخيل وطائفة عبدت البقر وطائفة عبــدت البشر الاحياء والاموات وطائفة تعبــد الشجر وطائفة تعبد الجن كما قال سبحانه و يوم نحشرهم جميعا ثم نقول للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبــدون قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون وقال تعالى ألم أعهد اليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشــيطان انه لكم عدو مبين وأن اعبدونى هــذا صراط مستقيم وقال تعالى و يوم نحشرهم جميعا يا معشر الجن قد استكــثرتم من الانس وقال أولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها الا ما شاء الله ان ربك حكيم عليم يعــنى قد استكــثرتم من اضلالهم واغوائهم قال ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم أضللتم منهم كثيرا فيجيبه سبحانه أولياؤهم من الانس بقولهم ربنا استمتع بعضــنا ببعض يعنون استمتاع كل نوع بالنوع الآخر فاستمتاع الجن بالانس طاعتهم لهم فيما يأمرونهم به من الكفر والفسوق والعصيان فان هــذا أكبر اغراض الجن من الانس فاذا أطاعوهــم فيه فقــد أعطوهــم مناهم واستمتاع الانس بالجن انهم أعانوهم على معصية الله تعالى والشرك به بكل ما يقدرون

[illegible] وهي العليا على الاطلاق مرتبة الرسالة فاكرم الخلق على الله واخصهم بالزلفى لديه رسله وهم المصطفون من عباده الذين سلم عليهم في العالمين كما قال تعالى وسلام على المرسلين وقال سلام على نوح في العالمين وقال سلام على ابراهيم كذلك نجزي المحسنين سلام على الياسين وقال قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى وكامة الـ [illegible] ثم هنا تحتمل ان تكون داخلة في حيز القول فتكون معطوفة على الجملة الخبرية وهي الحمد ويكون الامر بالقول متناولا للجملتين معا وعلى هذا فيكون الوقف على الجملة الاخيرة ويكون محلها النصب محكية (٣٥٢) بالقول ويحتمل أن تكون جملة مستقلة معطوفة على جملة الطلب وعلى هذا فلا محل لها من الاعراب وهذا التقدير أرجح وعليه يكون السلام من الله عليهم وهو المطابق لما تقدم من سلامه سبحانه على رسله صلى الله عليهم وسلم وعلى التقدير الاول يكون أمرا بالسلام عليهم ولكن يقال على هذا كيف يعطف الخبر على الطلب مع تنافر ما بينهما فلا يحسن أن يقول قم وذهب زيد ولا اخرج وقعد عمرو أو يجاب عن هذا بان جملة الطلب قد حكيت بجملة خبرية ومع هذا لا يمتنع العطف فيه بالخبر على الجملة الطلبية لعدم تنافر الكلام فيه وتباينه وهذا نظير قوله تعالى قل انظروا ماذا في السموات والارض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون فقوله وما تغني الآيات ليس معطوفا بالقول وهو انظروا بل معطوف على الجملة الكبرى على ان عطف الخبر على الطلب كثير كقوله تعالى قل رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون وقوله وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين والمقصود انه على هذا القول يكون الله سبحانه قد سلم على المصطفين من عباده والرسل أفضلهم وقد أخبر سبحانه انه أخلصهم بخالصة ذكرى الدار وانهم عندنا لمن المصطفين الاخيار ويكفي في فضلهم وشرفهم ان الله سبحانه اختصهم بوحيه وجعلهم أمناء على رسالته وواسطة بينه وبين عباده وخصهم بانواع [illegible] والدم كراماته فمنهم من اتخذه خليلا ومنهم من كلمه تكليما ومنهم من رفعه مكانا عليا على سائرهم درجات ولم يجعل لعباده وصولا الا من طريقهم ولا دخولا الى جنته الا خلفهم ولم يكرم أحدا منهم بكرامة الا على أيديهم فهم أقرب الخلق اليه وسيلة وأرفعهم عنده درجة وأحبهم اليه وأكرمهم عليه وبالجملة فخير الدنيا والآخرة انما ناله العباد على أيديهم وبهم عرف الله وبهم عبد وأطيع وبهم حصلت محابه تعالى في الارض وأعلاهم منزلة أولو العزم منهم المذكورون في قوله تعالى شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى

عليه من التحصين والتعزيم والدعاء وقضاء كثير من حوائجهم واستخدامهم بالسحر والعزائم وغيرها فاطاعهم الانس فيما يرضيهم من الشرك والفواحش والفجور وأطاعتهم الجن فيما يرضيهم من التأثيرات والاخبار ببعض المغيبات فتمتع كل من الفريقين بالآخر وهذه الآية منطبقة على أصحاب الاحوال الشيطانية الذين لهم كشوف شيطاني وتأثير شيطاني فيحسبهم الجاهل أولياء الرحمن وانما هم من أولياء الشيطان أطاعوه في الاشراك ومعصية الله والخروج عما بعث به رسله وانزل به كتبه فأطاعهم في أن خدمهم باخبارهم بكثير من المغيبات والتأثيرات واغتر بهم من قل حظه من العلم والايمان فوالى أعداء الله وعادى أولياءه وحسن الظن بمن خرج عن سبيله وسنته وأساء الظن بمن اتبع سنة الرسول وما جاء به ولم يدعها لاقوال المختلفين وآراء المتحيرين وشطحات المارقين وترهات المتصوفين والبصير الذي نور الله بصيرته بنور الايمان والمعرفة اذا عرف حقيقة ما عليه أكثر هذا الخلق وكان ناقدا للمروج عليه الزغل تبين له انهم داخلون تحت حكم هذه الآية وهي منطبقة عليهم فالفاسق يستمتع بالشيطان باعانته له على أسباب فسوقه والشيطان يستمتع به في قبوله منه وطاعته له فيسره ذلك ويفرح به منه والمشرك يستمتع به الشيطان بشركه به وعبادته له ويستمتع هو بالشيطان في قضاء حوائجه واعانته له ومن لم يحط علما بهذا لم يعلم حقيقة الايمان والشرك وسر امتحان الرب سبحانه كلا من الثقلين بالآخر ثم قالوا وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا وهو يتناول أجل الموت وأجل البعث فكلاهما أجل أجله الله تعالى لعباده وهما الأجلان اللذان قال الله فيهما ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده وكأن هذا والله أعلم اشارة منهم الى نوع استعطاف وتوبة فكأنهم يقولون هذا أمر قد كان الى وقت وانقطع بانقطاع أجله ولم يستمر ولم يدم فبلغ الامر الذي كان أجله وانتهى الى غايته ولكل شيء آخر فقال تعالى النار مثواكم خالدين فيها فانه وان انقطع زمن التمتع وانقضى أجله فقد بقي زمن العقوبة فلا يتوهم أنه اذا انقضى أجل الكفر والشرك وتمتع بعضكم ببعض أن مفسدته زالت بزواله وانتهت بانتهائه والمقصود أن الشيطان تلاعب بالمشركين حتى عبدوه واتخذوه وذريته أولياء من دون الله

(فصل) ومن تلاعبه بهم أن زين لقوم عبادة الملائكة فعبدوهم بزعمهم ولم تكن عبادتهم في الحقيقة لهم ولكن كانت للشياطين فعبدوا أقبح خلق الله وأحقهم باللعن

والذم قال تعالى ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون وقال تعالى ويوم نحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفا ولا نصرا ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا وهذه الآيات تحتاج الى تفسير وبيان فقوله سبحانه ويوم نحشرهم وما يعبدون من دون الله عام في كل عابد ومن عبده من دون الله وأما قوله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل فقال مجاهد فيما رواه ورقاء عن ابن أبي نجيح عنه قال هذا خطاب لعيسى وعزير والملائكة وروى عنه ابن جريج نحوه وأما عكرمة والضحاك والكلبي فقالوا هو عام في الأوثان وعبدتها ثم يأذن سبحانه لها في الكلام فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء قال مقاتل يقول سبحانه أأنتم أمرتموهم بعبادتكم أم هم ضلوا السبيل أي أم هم أخطؤا الطريق فأجاب المعبودون بما حكى الله عنهم من قولهم سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء وهذا الجواب انما يحسن من الملائكة والمسيح وعزير ومن عبدهم المشركون من أولياء الله ولهذا قال ابن جرير يقول تعالى قالت الملائكة وعيسى الذين كان هؤلاء المشركون يعبدونهم من دون الله ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء نواليهم بل أنت ولينا من دونهم وقال ابن عباس ومقاتل نزهوا الله وعظموه أن يكون معه إله وفيه قراءتان أشهرهما نتخذ بفتح النون وكسر الخاء على البناء للفاعل وهي قراءة السبعة والثانية نتخذ بضم النون وفتح الخاء وهي قراءة الحسن ويزيد بن القعقاع وعلى كل واحدة من القراءتين اشكال فأما قراءة الجمهور فان الله سبحانه انما سألهم هل أضلوا المشركين بأمرهم اياهم بعبادتهم أم هم ضلوا السبيل باختيارهم وأهوائهم وكيف يكون هذا الجواب مطابقا للسؤال فانه لم يسألهم هل اتخذتم من دوني من أولياء حتى يقولوا ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء وانما سألهم هل أمرتم عبادي هؤلاء بالشرك أم هم أشركوا من قبل أنفسهم فالجواب المطابق أن يقولوا لم نأمرهم بالشرك وانما هم آثروه وارتضوه أولم نأمر بعبادتنا كما قال في الآية الأخرى عنهم تبرأنا اليك ما كانوا ايانا يعبدون فلما رأى أصحاب القراءة الأخرى ذلك فروا الى بناء الفعل للمفعول وقالوا الجواب يصح على ذلك ويطابق اذ المعنى

وهؤلاء هم الطبقة العليا من الخلائق وعليهم تدور الشفاعة حتى يردوها الى خاتمهم وأفضلهم * الطبقة الثانية من عداهم من الرسل على مراتبهم من تفضيلهم بعضهم على بعض * الطبقة الثالثة الذين لم يرسلوا الى أممهم وانما كان لهم النبوة دون الرسالة فاختصوا عن الامة بايحاء الله اليهم وارساله ملائكته اليهم واختصت الرسل عنهم بارسالهم الى الامة يدعونهم الى الله بشريعته وأمره واشتركوا في الوحي ونزول الملائكة عليهم * الطبقة الرابعة ورثة الرسل وخلفاؤهم في أممهم وهم القائمون بما بعثوا به علما وعملا ودعوة للخلق الى الله على طريقهم ومنهاجهم وهذه أفضل مراتب الخلق بعد الرسالة والنبوة وهي مرتبة الصديقية (٣٥٣) ولهذا قرنهم الله في كتابه بالأنبياء فقال ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا فجعل درجة الصديقية معطوفة على درجة النبوة وهؤلاء هم الربانيون وهم الراسخون في العلم وهم الوسائط بين الرسول وأمته فهم خلفاؤه وأولياؤه وحزبه وخاصته وحملة دينه وهم المضمون لهم أنهم لا يزالون على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك وقال الله تعالى والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم وقد قيل ان الوقف على قوله هم الصديقون ثم يبتدي والشهداء عند ربهم فيكون الكلام جملتين أخبر في احداهما عن المؤمنين بالله ورسله أنهم هم الصديقون والايمان التام يستلزم العلم والعمل والدعوة الى الله بالتعليم والصبر عليه وأخبر في الثانية أن الشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم ومرتبة الصديقين فوق مرتبة الشهداء ولهذا قدمهم عليهم في الآيتين هنا وفي سورة النساء وهكذا جاء ذكرهم مقدما على الشهداء في كلام النبي في قوله أثبت أحد فانما عليك نبي وصديق وشهيد ولهذا كان نعت الصديقية وصفا لأفضل الخلق بعد الأنبياء والمرسلين أبو بكر الصديق ولو كان بعد النبوة درجة أفضل من الصديقية لكانت نعته رضي الله عنه وقيل ان الكلام كله جملة واحدة وأخبر عن المؤمنين أنهم هم الصديقون والشهداء عند ربهم وعلى هذا فالشهداء هم الذين يستشهدهم الله على الناس يوم القيامة وهو قوله لتكونوا شهداء على الناس وهم المؤمنون فوصفهم بأنهم صديقون في الدنيا وشهداء على الناس يوم القيامة ويكون الشهداء وصفا لجملة المؤمنين الصديقين وقيل الشهداء هم الذين قتلوا في سبيل الله وعلى هذا القول يترجح أن يكون الكلام جملتين ويكون قوله والشهداء مبتدأ خبره ما بعده لأنه ليس كل مؤمن صديق شهيدا في

ليس يصلح لنا أن نعبد ونتخذ آلهة فكيف نأمرهم بما لا يصلح لنا ولا يحسن منا ولكن لزم هؤلاء من الاشكال أمر آخر وهو قوله من أولياء فان زيادة من لا يحسن الامع قصد العموم كما تقول ما قام من رجل وما ضربت من رجل فأما اذا كان النفي واردا على مخصوص فانه لا يحسن زيادة من فيه وهم انما نفوا عن أنفسهم ما نسب اليهم من دعوى المشركين انهم أمروهم بالشرك فنفوا عن أنفسهم ذلك بانه لا يحسن منهم ولا يليق بهم أن يعبدوا فكيف ندعو عبادك الى أن يعبدونا فكان الواجب على هذا ان يقرأ ما كان ينبغي لنا أن نتخذ أولياء من دونك أو من دونك أولياء فاجاب أصحاب القراءة الاولى بوجوه أحدها أن المعنى ما كان ينبغي لنا أن نعبد غيرك ونتخذ غيرك وليا ومعبودا فكيف ندعو الى عبادتنا أي اذا كنا نحن لا نعبد غيرك فكيف ندعو أحدا الى أن يعبدنا والمعنى انهم اذا كانوا لا يرون لأنفسهم عبادة غير الله تعالى فكيف يدعون غيرهم الى عبادتهم وهذا جواب الفراء وقال الجرجاني هذا بالتدريج يصير جوابا للسؤال الظاهر وهو ان من عبد شيأ فقد تولاه واذا تولاه العابد صار المعبود وليا للعابد يدل على هذا قوله تعالى ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم فدل على أن العابد يصير وليا للمعبود ويصير المعنى كأنهم قالوا ما كان ينبغي لنا أن نأمر غيرنا باتخاذنا أولياء وأن نتخذ من دونك وليا يعبدنا وهذا بسط لقول ابن عباس في هذه الآية قال يقولون ما توليناهم ولا أحببنا عبادتهم وقال و يحتمل أن يكون قولهم ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك أولياء أن يريدوا معشر العبيد لا أنفسهم أي نحن وهم عبيدك ولا ينبغي لعبيدك أن يتخذوا من دونك أولياء ولكنهم أضافوا ذلك الى أنفسهم تواضعا منهم كما يقول الرجل لمن أتى منكرا ما كان ينبغي لي أن أفعل مثل هذا أي أنت مثلي عبد محاسب فاذا لم يحسن من مثلي أن يفعل هذا لم يحسن منك أيضا قال ولهذا الاشكال قرأ من قرأ نتخذ بضم النون وهذه القراءة أقرب في التأويل لكن قال الزجاج هذه القراءة خطأ لانك تقول ما اتخذت من أحد وليا ولا يجوز ما اتخذت أحدا من ولي لان من انما دخلت لانها تنفي واحدا من معنى جميع تقول ما من أحد قائما وما من رجل محبا لما يضره ولا يجوز ما رجل من محب لما يضره قال ولا وجه عندنا لهذا البتة ولو جاز هذا لجاز في ما من أحد عنه حاجزين ما أحد عنه من حاجزين فلو لم تدخل من لصحت هذه القراءة قال صاحب النظم العلة في سقوط هذه القراءة أن من

[illegible]

تجزمهم ثلاثة أشياء أحدها أنهم هم الصديقون والثاني انهم هم الشهداء والثالث ان لهم أجرهم ونورهم وذلك يتضمن عطف الخبر الثاني على الاول ثم ذكر الخبر الثالث مجردا عن العطف وهذا كما تقول زيد كريم وعالم له مال والاحسن في هذا تناسب الاخبار بان تجردها كلها من العطف أو تعطفها جميعا فتقول زيد كريم عالم له مال أو كريم وعالم وله مال فتأمله ويرجحه أيضا ان الكلام يصير جملا مستقلة فقد ذكر فيها أصناف خلقه السعداء وهم الصديقون (٣٥٤) والشهداء والصالحون وهم المذكورون في الآية وهم المتصدقون الذين أقرضوا الله قرضا حسنا فهؤلاء ثلاثة أصناف ثم ذكر الرسل في قوله تعالى لقد أرسلنا رسلنا بالبينات فتناول ذلك الاصناف الاربعة المذكورة في سورة النساء فهؤلاء هم السعداء ثم ذكر الاشقياء وهم نوعان كفار ومنافقون فقال والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم وذكر المنافقون في قوله يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم فهؤلاء أصناف العالم كلهم وترك سبحانه ذكر المخلط صاحب الشائبتين على طريق القرآن في ذكر السعداء والاشقياء دون المخلطين غالبا لسر اقتضته حكمته فليحذر صاحب التخليط فانه لا ضمان له على الله ولا هو من أهل وعده المطلق ولا ييأس من روح الله فانه ليس من الكفار الذين قطع لهم بالعذاب ولكنه بين الجنة والنار واقف بين الوعد والوعيد كل منهما يدعوه الى موجبه لانه أتى بسببه وهذا هو الذي لحظه القائلون بالمنزلة بين المنزلتين ولكن غلطوا في تخليده في النار ولو نزلوه منزلة بين المنزلتين ووكلوه الى المشيئة وقالوا بانه يخرج من النار بتوحيده وايمانه لاصابوا ولكن منزلة بين منزلتين وصاحبها مخلد في النار مما لا يقتضيه عقل ولا سمع بل النصوص الصريحة المعلومة الصحة تشهد ببطلان قولهم والله أعلم وأيضا فصاحب الشائبتين يعلم حكمه من نصوص الوعد والوعيد فان الله سبحانه رتب على كل عمل جزاء في الخير والشر فاذا أتى العبد بما كان فيه سبب الجزاءين والله لا يضيع مثقال ذرة فان كان عمل الشر مما يوجب سقوط أثر الحسنة كالكفر كان التأثير وان لم يسقطه كالمعصية ترتب في حقه الاثران ما لم يسقط أحدهما بسبب من الاسباب التي نذكرها ان شاء الله فيما بعد والمقصود ان درجة الصديقية والربانية ووراثة النبوة وخلافة الرسالة هي أفضل درجات الامة ولو لم يكن من فضلها وشرفها الا ان كل من علم بتعليمهم وارشادهم أو علم غيره

لا تدخل الا على مفعول لا مفعول دونه فاذا كان قبل المفعول مفعول سواه لم يحسن دخول من كقوله ما كان لله أن يتخذ من ولد فقوله من ولد لا مفعول دونه سواه ولو قال ما كان لله أن يتخذ أحدا من ولد لم يحسن فيه دخول من لان فعل الاتخاذ مشغول بأحد وصحح آخرون هذه القراءة لفظا ومعنى وأجروها على قواعد العربية قالوا وقد قرأ بها من لا يرتاب في فصاحته فقرأ بها زيد بن ثابت وأبو الدرداء وأبو جعفر ومجاهد ونصر بن علقمة ومكحول وزيد بن علي وأبو رجاء والحسن وحفص بن حميد ومحمد بن علي على خلاف عن بعض هؤلاء ذكر ذلك أبو الفتح بن جني ثم وجهها بأن يكون من أولياء في موضع الحال أي ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك أولياء ودخلت من زائدة لمكان النفي كقولك اتخذت زيدا وكيلا فاذا نفيت قلت ما اتخذت زيدا من وكيل وكذلك أعطيت درهما وما أعطيته من درهم وهذا في المفعول فيه قلت يعني أن زيادتها مع الحال كزيادتها مع المفعول ونظير ذلك أن تقول ما ينبغي لي أن أخدمك متثاقلا فاذا أكدت قلت من متثاقل فان قيل فقد صحت القراءتان لفظا ومعنى فأيهما أحسن قلت قراءة الجمهور أحسن وأبلغ في المعنى المقصود والبراءة مما لا يليق بهم فانهم على قراءة الضم يكونون قد نفوا حسن اتخاذ المشركين لهم أولياء وعلى قراءة الجمهور يكونون قد أخبروا أنهم لا يليق بهم ولا يحسن منهم أن يتخذوا ولياء من دونه بل أنت وحدك ولينا ومعبودنا فاذا لم يحسن بنا أن نشرك بك شيئا فكيف يليق بنا أن ندعو عبادك الى أن يعبدونا من دونك وهذا المعنى أجل من الاول وأكبر فتأمله والمقصود أنه على القراءتين فهذا الجواب من الملائكة ومن عبد من دون الله من أوليائه وأما كونه من الاصنام فليس بظاهر وقد يقال ان الله سبحانه أنطقها بذلك تكذيبا لهم وردا عليهم وبراءة منهم كقوله اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا وفي الآية الأخرى تبرأنا اليك ما كانوا ايانا يعبدون ثم ذكر المعبودون سبب ترك العابدين الايمان بالله تعالى بقولهم ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا قال ابن عباس أطلت لهم العمر وأفضلت عليهم ووسعت لهم في الرزق وقال الفراء ولكنك متعتهم بالأموال والأولاد حتى نسوا ذكرك وكانوا قوما بورا أي هلكى فاسدين قد غلب عليهم الشقاء والخذلان والبوار الهلاك والفساد يقال بارت السلعة وبارت المرأة اذا كسدت ولم يحصل لها من يتزوجها قال قتادة والله ما نسي قوم ذكر الله عز وجل الا باروا وفسدوا والمعنى ما أضللناهم ولكنهم ضلوا قال الله تعالى فقد كذبوكم بما تقولون أي كذبكم

... ... مثل أجره ما دام ذلك جاريا له الى آباد الدهور وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لعلي بن أبي طالب والله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم وصح عنه صلى الله عليه وسلم انه قال من سن في الاسلام سنة حسنة فعمل بها بعده كان له مثل أجر من عمل بها لا ينقص من أجورهم شيئا وصح عنه أيضا انه قال اذا مات العبد انقطع عمله الا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له وصح عنه انه قال من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين وفي السنن عنه انه قال ان العالم يستغفر له من في السموات ومن في الارض حتى النملة في جحرها وعنه انه قال ان الله وملائكته يصلون على معلم الناس (٣٠٥) الخير وعنه انه قال ان العلماء ورثة الانبياء وان الانبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وانما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ عظيم وافر وعنه العالم والمتعلم شريكان في الاجر ولا خير في سائر الناس بعد وعنه انه قال نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها وأداها كما سمعها والاحاديث في هذا كثيرة وقد ذكرنا مائتي دليل على فضل العلم وأهله في كتاب مفرد فيالها من مرتبة ما أعلاها ومنقبة ما أجلها وأسناها ان يكون المرء في حياته مشغولا ببعض أشغاله أو في قبره قد صار أشلاء متمزقة وأوصالا متفرقة وصحف حسناته متزايدة يملى فيها الحسنات كل وقت وأعمال الخير مهداة اليه من حيث لا يحتسب تلك والله المكارم والغنائم وفي ذلك فليتنافس المتنافسون وعليه يحسد الحاسدون وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم وحقيق بمرتبة هذا شأنها ان تنفق نفائس الانفاس عليها ويسبق السابقون اليها وتوفر عليها الاوقات وتتوجه نحوها الطلبات فنسأل الله الذي بيده مفاتيح كل خير أن يفتح علينا خزائن رحمته ويجعلنا من أهل هذه الصفة بمنه وكرمه وأصحاب هذه المرتبة يدعون عظماء في ملكوت السماء كما قال بعض السلف من علم وعمل وعلم فذلك يدعى عظيما في ملكوت السماء وهؤلاء هم العدول حقا بتعديل رسول الله لهم اذ يقول فيما يروى عنه من وجوه شد بعضها بعضا يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين وما أحسن ما قال فيهم الامام أحمد في خطبة كتابه في الرد على الجهمية الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل الى الهدى ويصبرون منهم على الأذى يبصرون بنور الله أهل العمى فكم من قتيل لابليس قد أحيوه ومن ضال جاهل قد هدوه فما أحسن أثرهم على الناس وأقبح أثر الناس عليهم ينفون عن كتاب الله تأويل الجاهلين وتحريف الغالين وانتحال المبطلين وذكر ابن وضاح هذا

المعبودون بقولكم فيهم انهم آلهة وانهم شركاء أو بما تقولون انهم أمروكم بعبادتهم ودعوكم اليها وقيل الخطاب للمؤمنين في الدنيا أي فقد كذبكم أيها المؤمنون هؤلاء المشركون بما تقولونه مما جاء به محمد بن عبد الله من التوحيد والايمان والأول أظهر وعليه يدل السياق ومن قرأها بالياء آخر الحروف فالمعنى فقد كذبوكم بقولهم ثم قال فما تستطيعون صرفا ولا نصرا اخبار عن حالهم يومئذ وانهم لا يستطيعون صرف العذاب عن أنفسهم ولا نصرها من الله قال ابن زيد ينادي مناد يوم القيامة حين يجتمع الخلائق ما لكم لا تناصرون قال من عبد من دون الله لا ينصر اليوم من عبده والعابد لا ينصر الهه بل هم اليوم مستسلمون فهذا حال عباد الشيطان يوم لقاء الرحمن فواسوء حالهم حين امتيازهم عن المؤمنين اذا سمعوا النداء وامتازوا اليوم أيها المجرمون ألم أعهد اليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون

(فصل) ومن تلاعبه وكيده تلاعبه بالثنوية وهم طائفة قالوا الصانع اثنان ففاعل الخير نور وفاعل الشر ظلمة وهما قديمان لم يزالا ولن يزالا قويين حساسين مدركين سميعين بصيرين وهما مختلفان في النفس والصورة متضادان في الفعل والتدبير فالنور فاضل حسن نقي طيب الريح حسن المنظر ونفسه خيرة كريمة حكيمة نفاعة منها الخيرات والمسرات والصلاح وليس فيها شيء من الضرر ولا من الشر والظلمة على ضد ذلك من الكدر والنقص ونتن الريح وقبح المنظر ونفسها نفس شريرة بخيلة سفيهة منتنة مضرة منها الشر والفساد ثم اختلفوا فقالت فرقة منهم ان النور لم يزل فوق الظلمة وقالت فرقة بل كل واحد منهما الى جانب الآخر وقالت فرقة النور لم يزل مرتفعا في ناحية الشمال والظلمة منحطة في الجنوب ولم يزل كل واحد منهما مباينا لصاحبه وزعموا أن لكل واحد منهما أربعة أبدان وخامس هو الروح فأبدان النور الاربعة الماء والنور والريح والماء وروحه النسيم ولم يزل يتحرك في هذه الأبدان وأبدان الظلمة الاربعة الحريق والظلمة والسموم والضباب وروحها الدخان وسموا أبدان النور ملائكة وسموا أبدان الظلمة شياطين وعفاريت وبعضهم يقول الظلمة تتولد شياطين والنور يتولد ملائكة والنور لا يقدر على الشر ولا يجيء منه والظلمة لا تقدر على الخير ولا يجيء منها ولهم مذاهب سخيفة جدا وفرض عليهم صوم سبع العمر وأن لا يؤذي أحدهم ذا روح البتة ومن شريعتهم أن لا

[illegible] السبل ويستقيم بهم العالم ويستنصر بهم الضعيف ويذل بهم الظالم ويأمن بهم الخائف ويقام بهم الحدود ويدفع بهم الفساد ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقام بهم حكم الكتاب والسنة وتطفأ بهم نيران البدع والضلالة وهؤلاء الذين تنصب لهم المنابر من النور عن يمين الرحمن عز وجل يوم القيامة فيكونون عليها والولاة الظلمة قد صهرتهم حر الشمس وقد بلغ منهم العرق مبلغه وهم يحملون أثقال مظالمهم العظيمة على ظهورهم الضعيفة في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ثم يرى سبيل أحدهم اما الى الجنة واما الى النار قال النبي صلى الله عليه وسلم المقسطون على منابر من نور يوم القيامة عن يمين الرحمن تبارك وتعالى وكلتا يديه يمين الذين يعدلون في حكمهم وأهلهم وما ولوا وعنه صلى الله عليه وسلم ان أحب الخلق الى الله وأقربهم منزلة منه يوم القيامة امام عادل وان أبغض الخلق الى الله وأبعدهم منه منزلة يوم القيامة امام جائر أو كما قال وهم أحد السبعة الاصناف الذين يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل الا ظله كما كان الناس في ظل عدلهم في الدنيا كانوا في ظل عرش الرحمن يوم القيامة ظلا بظل جزاء وفاقا ولو لم يكن من فضلهم وشرفهم الا أن أهل السموات والارض والطير في الهواء يصلون عليهم ويستغفرون لهم ويدعون لهم وولاة الظلم يلعنهم من بين السموات والارض حتى الدواب والطير كما أن معلم الناس الخير يصلي عليه الله وملائكته وكاتم العلم والهدى الذي أنزله الله وحامل أهله على كتمانه يلعنه الله وملائكته ويلعنه اللاعنون فيالها من منقبة ومرتبة ما أجلها وأشرفها أن يكون الوالي والامام على فراشه ويعمل بالخير وتكتب الحسنات في صحائفه فهي متزايدة ما دام يعمل عدله ولساعة واحدة منه خير من عبادة أعوام من غيره فأين هذا من الغاش لرعيته الظالم لهم قد حرم الله عليه الجنة وأوجب له النار ويكفي في فضله وشرفه انه يكف عن يدخروا الله دعوة المظلوم كما في الاثر أيها الملك المسلط المغرور اني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ولكن بعثتك لتكف عني دعوة المظلوم اني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض فاني لا أحجبها ولو كانت من كافر فأين من هو نائم وأعين العباد ساهرة تدعو الله وآخر أعينهم ساهرة تدعو عليه * الطبقة السادسة المجاهدون في سبيل الله وهم جند الله الذين يقيم بهم دينه ويدفع بهم بأس أعدائه ويحفظ بهم منصة الاسلام ويحمي بهم حوزة الدين وهم الذين يقاتلون أعداء الله ليكون الدين كله لله وتكون كلمة الله هي العليا قد بذلوا أنفسهم في محبة الله ونصر دينه واعلاء

كلمته ودفع أعدائه وهم شركاء لكل من يغزونه بسيوفهم في أعمالهم التي يعملونها وإن باتوا في ديارهم ولهم مثل أجور من عبد الله بسبب جهادهم وفتوحهم فإنهم كانوا هم السبب فيه والشارع قد نزل المتسبب منزلة الفاعل التام في الأجر والوزر ولهذا كان الداعي إلى الهدى والداعي إلى الضلال لكل منهما بتسببه مثل أجر من تبعه وقد تظاهرت آيات الكتاب وتواترت نصوص السنة على الترغيب في الجهاد والحض عليه ومدح أهله والإخبار عما لهم عند ربهم من أنواع الكرامات والعطايا الجزيلات ويكفي في ذلك قوله يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم فتشوفت النفوس إلى هذه التجارة الرابحة التي الدال عليها رب العالمين العليم الحكيم فقال تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم فكأن النفوس ضنت بحياتها وبقائها فقال ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون يعني أن الجهاد خير لكم من قعودكم للحياة والسلامة فكأنها قالت فما لنا في الجهاد من الحظ فقال يغفر لكم ذنوبكم ومع المغفرة يدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم فكأنها قالت هذا في الآخرة فما لنا في الدنيا فقال وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين فلله ما أحلى هذه الألفاظ وما ألصقها بالقلب وما أعظمها جذبا وتسييرا للحرب بها وما ألطف وقعها من قلب كل محب وما أعظم غنى القلب وأطيب عيشه حين يباشره معانيها فنسأل الله من فضله إنه جواد كريم ومن هذا قوله أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبدا إن الله عنده أجر عظيم فأخبر سبحانه أنه لا يستوي عنده عمار المسجد الحرام وهم عماره بالاعتكاف والطواف والصلاة هذه هي عمارة مساجده المذكورة في القرآن وأهل سقاية الحاج لا يستوون هم وأهل الجهاد في سبيل الله وأخبر أن المؤمنين المجاهدين أعظم درجة عنده وأنهم هم الفائزون وأنهم أهل البشارة بالرحمة والرضوان والجنات فنفى التسوية بين المجاهدين وعمار المسجد الحرام مع أنواع العبادة مع ثنائه على عماره بقوله إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين فهؤلاء هم عمار المساجد ومع هذا فأهل الجهاد أرفع درجة عند الله منهم وقال تعالى لا يستوي

يدخروا الاقوت يوم ويجتنب الكذب والبخل والسحر وعبادة الأوثان والزنا والسرقة واختلفوا هل الظلمة قديمة أو حادثة فقالت فرقة منهم هي قديمة لم تزل مع النور وقالت فرقة بل النور هو القديم ولكنه فكر فكرة رديئة حدثت منها الظلمة فدار مذهبهم على أصلين من أبطل الباطل أحدهما أن شر الموجودات وأخبثها وأردأها كفؤ لخير الموجودات وضده ومناوئه يعارضه ويضاده ويناقضه دائما ولا يستطيع دفعه وهذا أعظم من شرك عباد الأصنام الذين عبدوها لتقربهم إلى الله تعالى فإنهم جعلوها مملوكة له مربوبة مخلوقة كما كانوا يقولون في تلبيتهم لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك والأصل الثاني أنهم نزهوا النور أن يصدر منه شر ثم جعلوه منبع الشر كله وأصله ومولده وأثبتوا إلهين وربين وخالقين فجمعوا بين الكفر بالله تعالى وأسمائه وصفاته ورسله وأنبيائه وملائكته وشرائعه وأشركوا به أعظم الشرك وحكى أرباب المقالات عنهم أن قوما منهم يقال لهم الديصانية زعموا أن طينة العالم كانت طينة خشنة وكانت تحاكي جسم النور الذي هو الباري عندهم زمانا فتأذى بها فلما طال ذلك عليه قصد تنحيتها عنه فتوحل فيها واختلط بها فتركب من بينهما هذا العالم المشتمل على النور والظلمة فما كان من جهة الصلاح فمن النور وما كان من جهة الفساد فمن الظلمة قال وهؤلاء يغتالون الناس ويخنقونهم ويزعمون أنهم يحسنون إليهم بذلك وأنهم يخلصون الروح النورانية من الجسد المظلم وقال بعضهم إن الباري سبحانه لما طالت وحدته استوحش ففكر فكرة سوء فتجسمت فكرته فاستحالت ظلمة فحدث منها إبليس فرام الباري إبعاده عن نفسه فلم يستطع فتحرز منه بخلق الجنود وانا برات فشرع إبليس في خلق الشر وأصل عقد مذهبهم الذي عليه خواصهم إثبات القدماء الخمسة الباري والزمان والخلاء والهيولى وإبليس فالباري خالق الخيرات وإبليس خالق الشرور وكان محمد بن زكريا الرازي على هذا المذهب لكنه لم يثبت إبليس فجعل مكانه النفس وقال بقدم الخمسة مع ما رسخه به من مذاهب الصابئة والدهرية والفلاسفة والبراهمة فكان قد أخذ من كل دين شر ما فيه وصنف كتابا في إبطال النبوات ورسالة في إبطال المعاد فركب مذهبا مجموعا من زنادقة العالم وقال أنا أقول إن الباري والنفس والهيولى والمكان والزمان قدماء وإن العالم محدث فقيل له فما العلة في إحداثه فقال إن النفس اشتهت أن تحل في هذا العالم وحركتها الشهوة لذلك ولم تعلم ما يلحقها من الوبال إذا حلت فيه فاضطربت وحركت الهيولى

حركات مشؤمة مضطربة على غير نظام وعجزت عما أرادت فأعانها البارى على احداث هذا العالم وحملها على النظام والاعتدال وعلم أنها اذا ذاقت وبال ما كدبته عادت الى عالمها وسكن اضطرابها وزالت شهواتها واستراحت فأحدثت هذا العالم بمعاونة البارى لها قال ولولا ذلك لما قدرت على احداث هذا العالم ولولا هذه العلة لما حدث هذا العالم ولولا أن الله سبحانه يحكى عن المشركين والكفار أقوالا أسخف من هذا وأبطل لاستحى العاقل من حكاية مثل هذا ولكن الله سبحانه سن لنا حكاية أقوال أعدائه وفى ذلك من قوة الايمان وظهور جلالته ومعرفة قدره وتمام نعمة الله تعالى على أهله به ومعرفة قدر خذلانه للعبد والى أى شئ يصيره الخذلان حتى يصير ضحكة لكل عاقل وأى ضلال وأى خذلان أعجب ممن يفنى عمره فى النظر والبحث وهذا غاية علمه بالله عز وجل وبالمبدأ والمعاد

(فصل) والمجوس تعظم الانوار والنيران والماء والارض ويقرون بنبوة زرادشت ولهم شرائع يصيرون اليها وهم فرق شتى منهم المزدكية أصحاب مزدك الموبذ والموبذ عندهم العالم القدوة وهؤلاء يرون الاشتراك فى النساء والمكاسب كما يشترك فى الهواء والطرق وغيرها ومنهم الخرمية أصحاب بابك الخرمى وهم شر طوائفهم لا يقرون بصانع ولا معاد ولا نبوة ولا حلال ولا حرام وعلى مذهبهم طوائف القرامطة والاسماعيلية والنصيرية والبشكية والدرزية والحاكمية وسائر العبيدية الذين يسمون أنفسهم الفاطمية وهم من أكفر الكفار كما ستأتى ترجمتهم فكل هؤلاء يجمعهم هذا المذهب ويتفاوتون فى التفصيل فالمجوس شيوخ هؤلاء كلهم وأئمتهم وقدوتهم وان كان المجوس قد يتقيدون بأصل دينهم وشرائعهم وهؤلاء لا يتقيدون بدين من ديانات العالم ولا بشريعة من الشرائع (ذكر تلاعبه بالصابئة) هذه أمة كبيرة من الأمم الكبار وقد اختلف الناس فيهم اختلافا كثيرا بحسب ما وصل اليهم من معرفة دينهم وهم منقسمون الى مؤمن وكافر قال تعالى ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون فذكرهم فى الأمم الأربعة الذين ينقسم كل أمة منهم الى ناج وهالك وذكرهم أيضا فى الأمم الستة الذين انقسمت جملتهم الى ناج وهالك كما فى قوله ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا ان الله يفصل بينهم يوم القيامة فذكر الأمتين

[illegible] عليهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيما فنفى سبحانه التسوية بين المؤمنين القاعدين عن الجهاد وبين المجاهدين ثم أخبر عن تفضيل المجاهدين على القاعدين درجة ثم أخبر عن تفضيلهم عليهم درجات وقد أشكل فهم هذه الآية على طائفة من الناس من جهة ان القاعدين الذين فضل عليهم المجاهدون بدرجات ان كان هم القاعدون الذين فضل عليهم أولى الضرر فالمجاهدون يفضلون عليهم بدرجات وهم غير أولى الضرر فيكون المجاهدون أفضل من القاعدين مطلقا وعلى هذا فما وجه استثناء أولى الضرر من القاعدين وهم لا يستوون والمجاهدون أصلا فيكون حكم المستثنى والمستثنى منه واحدا فهذا وجه الاشكال ونحن نذكر ما يزيل الاشكال بحمد الله فاختلف القراء فى اعراب غير فقرئ رفعا ونصبا وهما فى السبعة وقرئ بالجر فى غير السبعة وهى قراءة أبى حيوة فأما قراءة النصب فعلى الاستثناء لان غيرا يعرب فى الاستثناء اعراب الاسم الواقع بعد الا وهو النصب هذا هو الصحيح وقالت طائفة اعرابها نصب على الحال أى لا يستوى القاعدون غير مضرورين أى لا يستوون فى حال صحتهم هم والمجاهدون والاستثناء أصح فان غير لا تكاد تقع حالا فى كلامهم الا مضافة الى نكرة كقوله فمن اضطر غير باغ وقوله أحلت لكم الانعام الا ما يتلى عليكم غير محلى الصيد وقوله صلى الله عليه وسلم مرحبا بالوفد غير خزايا ولا ندامى فان أضيفت الى معرفة كانت تابعة لما قبلها كقوله تعالى صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولو قلت مرحبا بالوفد غير الخزايا ولا الندامى لجررت غيرا هذا هو المعروف من كلامهم والكلام فى عدم تعرف غير بالاضافة وحسن وقوعها اذ ذاك حالا له مقام آخر وأما الرفع فعلى النعت للقاعدين هذا الذى هو الصحيح وقال أبو اسحاق وغيره هو خبر مبتدا محذوف تقديره الذين هم غير أولى الضرر والذى حمله على هذا ظنه ان غيرا لا يقبل التعريف بالاضافة فلا تجرى صفة للمعرفة وليس مع من ادعى ذلك حجة يعتمد عليها سوى ان غيرا توغلت فى الابهام فلا تتعرف بما يضاف اليه وجواب هذا انها اذا دخلت بين متقابلين لم يكن فيها ابهام لتعينها ما تضاف اليه وأما قراءة الجر ففيها وجهان أيضا أحدهما والصحيح انه نعت للمؤمنين والثانى وهو قول المبرد انه بدل منه بناء على انه نكرة فلا ينعت به المعرفة وعلى الاقوال كلها فهو مفهم معنى الاستثناء وان فى

اللتين لا كتاب لهم ولا ينقسمون الى شقي وسعيد وهما المجوس والمشركون في آية الفصل ولم يذكرهم في آية الوعد بالجنة وذكر الصابئين فيها فعلم ان فيهم الشقي والسعيد وهؤلاء كانوا قوم ابراهيم الخليل وهم أهل دعوته وكانوا بحران فهي دار الصابئة وكانوا قسمين صابئة حنفاء وصابئة مشركين والمشركون منهم يعظمون الكواكب السبعة والبروج الاثنى عشر ويصورونها في هياكلهم وانلك الكواكب عندهم هياكل مخصوصة وهي في المتعبدات الكبار كالكنائس للنصارى والبيع لليهود فلهم هيكل كبير للشمس وهيكل للقمر وهيكل للزهرة وهيكل للمشترى وهيكل للمريخ وهيكل لعطارد وهيكل لزحل وهيكل للعلة الأولى ولهذه الكواكب عندهم عبادات ودعوات مخصوصة ويصورونها في تلك الهياكل ويتخذون لها أصناما تخصها ويقربون لها القرابين ولها صلوات خمس في اليوم والليلة نحو صلوات المسلمين وطوائف منهم يصومون شهر رمضان ويستقبلون في صلواتهم الكعبة ويعظمون مكة ويرون الحج اليها ويحرمون الميتة والدم ولحم الخنزير ويحرمون من القرابات في النكاح ما يحرمه المسلمون وعلى هذا المذهب كان جماعة من أعيان الدولة ببغداد منهم هلال بن المحسن الصابي صاحب الديوان الانشائي وصاحب الرسائل المشهورة وكان يصوم مع المسلمين ويعيد معهم ويزكي ويحرم المحرمات وكان الناس يعجبون من موافقته للمسلمين وليس على دينهم وأصل دين هؤلاء فيما زعموا أنهم يأخذون بمحاسن ديانات العالم ومذاهبهم ويخرجون من قبيح ما هم عليه قولا وعملا ولهذا سموا صابئة أي خارجين فقد خرجوا عن تقيدهم بجملة كل دين وتفصيله الا ما رأوه فيه من الحق وكانت كفار قريش تسمي النبي صلى الله تعالى عليه وسلم الصابئ وأصحابه الصباة يقال صبأ الرجل بالهمز اذا خرج من شئ الى شئ وصبا يصبو اذا مال ومنه قوله والا تصرف عني كيدهن أصب اليهن أي أمل والمهموز والمعتل يشتركان فالمهموز ميل عن الشئ والمعتل ميل اليه واسم الفاعل من المهموز صابئ بوزن قارئ ومن المعتل صاب بوزن قاض وجمع الاول صابئون كقارئون والثاني صابون كقاضون وقد قرئ بهما والمقصود أن هذه الامة شاركت جميع الامم وفارقتهم فالحنفاء منهم شاركوا أهل الاسلام في الحنيفية والمشركون شاركوا عباد الاصنام ورأوا أنهم على صواب وأكثر هذه الامة فلاسفة والفلاسفة يأخذون بزعمهم بمحاسن ما دلت عليه العقول وعقلاؤهم يوجبون اتباع الانبياء وشرائعهم وبعضهم لا يوجب ذلك ولا يحرمه وسفهاؤهم

التسوية فيما بينهما فيما نفي اليه ضميره وقوله فضل الله المجاهدين على القاعدين درجة هو مبين لمعنى نفي المساواة قالوا والمعنى فضل الله المجاهدين على القاعدين من أولي الضرر درجة واحدة لامتيازه عنه بالجهاد بنفسه وماله ثم أخبر سبحانه ان الفريقين كليهما موعود بالحسنى فقال وكلا وعد الله الحسنى أي المجاهد والقاعد المضرور ولا اشتراكهم في الايمان قالوا وفي هذا دليل على تفضيل الغني المنفق على الفقير لان الله أخبر ان المجاهد بماله ونفسه أفضل من القاعد وقدم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس وأما الفقير فنفي عنه الحرج بقوله ولا على الذين اذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه فأين مقام من حكم له بالتفضيل الى مقام من نفي عنه الحرج قالوا فهذا حكم القاعد من أولي الضرر والمجاهد وأما القاعد من غير أولي الضرر فقال تعالى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيما وقوله درجات قيل هو نصب على البدل من قوله أجرا عظيما قيل تأكيد له وان كان غير لفظه لانه في معنى قال قتادة كان يقال الاسلام درجة والهجرة في الاسلام درجة والجهاد في الهجرة درجة والقتل في الجهاد درجة وقال ابن زيد الدرجات التي فضل الله بها المجاهد على القاعد سبع وهي التي ذكرها الله تعالى في براءة اذ يقول تعالى ذلك بانهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطؤن موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا الا كتب لهم به عمل صالح ان الله لا يضيع أجر المحسنين فهذه خمس ثم قال ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا الا كتب لهم به عمل صالح فهاتان اثنتان وقيل الدرجات سبعون درجة ما بين الدرجتين حضر الفرس الجواد المضمر سبعين سنة والصحيح ان الدرجات هي المذكورة في حديث أبي هريرة الذي رواه البخاري في صحيحه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة وصام رمضان فان حقا على الله أن يدخله الجنة هاجر في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها قالوا يا رسول الله أفلا نخبر الناس بذلك قال ان في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله كل درجتين كما بين السماء والارض فاذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فانه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة قالوا وجعل سبحانه التفضيل الاول بدرجة فقط وجعله ههنا بدرجات ومغفرة ورحمة وهذا يدل على انه يفضل على غير أولي الضرر فهذا تقرير هذا القول وايضاحه ولكن بقي أن يقال اذا كان المجاهدون أفضل من القاعدين مطلقا لزم أن لا يستوي مجاهد وقاعد مطلقا فلا يبقى في تقييد القاعد بكونهم من غير

وسفلتهم يمنعون ذلك كما سيأتى (ذكر تلاعب الشيطان بهم بعد هذا) ولهذا لم يكن هؤلاء ولا الصابئة من الأمم المستقلة التى لها كتاب ونبي وان كانوا من أهل دعوة لرسل فما من أمة الا وقد أقام الله سبحانه عليها حجته وقطع عنه حجتها لئلا يكون للناس على الله حجة ويكون حجته عليهم والمقصود أن الصابئة فرق فصابئة حنفاء وصابئة مشركون وصابئة فلاسفة وصابئة يأخذون بمحاسن ما عليه أهل الملل والنحل من غير ان تقيد بملة ولا نحلة ثم منهم من يقر بالنبوات جملة ويتوقف فى التفصيل ومنهم من يقر بها جملة وتفصيلا ومنهم من ينكرها جملة وتفصيلا وهم يقرون أن للعالم صانعا فاطرا حكيما مقدسا عن العيوب والنقائص ثم قال المشركون منهم لا سبيل لنا الى الوصول الى جلاله الا بالوسائط فالواجب علينا أن نتقرب اليه بتوسطات الروحانية القريبة منه وهم الروحانيون المقربون المقدسون عن المواد الجسمانية وعن القوى الجسدانية بل قد جبلوا على الطهارة فنحن نتقرب اليهم ونتقرب بهم اليه فهم أربابنا وآلهتنا وشفعاؤنا عند رب الارباب واله الآلهة فما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى فالواجب علينا أن نطهر نفوسنا عن الشهوات الطبيعية ونهذب أخلاقنا عن علائق القوى الغضبية حتى تحصل المناسبة بيننا وبين الروحانيات وتتصل أرواحنا بهم فحينئذ نسأل حاجتنا منهم ونعرض أحوالنا عليهم ونصبو فى جميع أمورنا اليهم فيشفعون لنا الى الهنا والههم وهذا التطهير والتهذيب لا يحصل الا باستمداد من جهة الروحانيات وذلك بالتضرع والابتهال بالدعوات من الصلوات والزكوات وذبح القرابين والبخورات والعزائم فحينئذ يحصل لنفوسنا استعداد واستمداد من غير واسطة الرسل بل نأخذ من المعدن الذى أخذت منه الرسل فيكون حكمنا وحكمهم واحدا ونحن واياهم بمنزلة واحدة قالوا والانبياء أمثالنا فى النوع وشركاؤنا فى المادة وأشكالنا فى الصورة يأكلون مما نأكل ويشربون مما نشرب وما هم الا بشر مثلنا يريدون أن يتفضلوا علينا وزادت الاتحادية اتباع ابن عربى وابن سبعين والصفيق التلمسانى واضرابهم على هؤلاء بما قاله شيخ الطائفة محمد بن عربى ان الولى أعلى درجة من الرسول لانه يأخذ من المعدن الذى يأخذ منه الملك الذى يوحى الى الرسول فهو أعلى منه بدرجتين فجعل هؤلاء الملاحدة أنفسهم وشيوخهم أعلى فى التلقى من الرسل بدرجتين واخوانهم من المشركين جعلوا أنفسهم فى ذلك التلقى بمنزلة الانبياء ولم يدعوا أنهم فوقهم والمقصود أن هؤلاء كفروا بالاصلين اللذين جاءت بهما جميع الرسل والانبياء

[illegible] أولى الضرر ... لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر ... القاعدين ... الآية ... ومع التفضيل عليهم هم غير أولى الضرر لا القاعدون الذين هم أولو الضرر فانهم لم يذكر حكمهم فى الآية بل استثناهم وبين ان التفضيل على غيرهم فالاثم فى القاعدين للعهد والمعهود هم غير أولى الضرر ولا المضرورون وأيضا فالقاعد من المجاهدين لضرورة منعته من الجهاد له مثل أجر المجاهد كما ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال اذا مرض العبد أو سافر كتب له من العمل ما كان يعمل صحيحا مقيما وقال ان بالمدينة أقواما ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا الا وهم معكم (٣٦٠) قالوا وهم بالمدينة قال وهم بالمدينة حبسهم العذر وعلى هذا فالصواب أن يقال الآية دلت على ان القاعدين من غير أولى الضرر عن الجهاد لا يستوون هم والمجاهدون وسكت عن حكمهم بطريق منطوقها ولا يدل مفهومها على مساواتهم للمجاهدين بل هذا النوع منقسم الى معذور من أهل الجهاد غلبه عذره وأقعده عنه ونيته جازمة لم يتخلف عنها مقدورها وانما أقعده العجز فهذا الذى تقتضيه أدلة الشرع ان له مثل أجر المجاهد وهذا القسم لا يتناوله الحكم بنفى التسوية وهذا لان قاعدة الشريعة ان العزم التام اذا اقترن به ما يمكن من القول أو مقدمات الفعل نزل صاحبه فى الثواب والعقاب منزلة الفاعل التام كما دل عليه قوله صلى الله عليه وسلم اذا تواجه المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول فى النار قالوا هذا القاتل فما بال المقتول قال انه كان حريصا على قتل صاحبه وفى الترمذى ومسند الامام أحمد حديث أبى كبشة الانمارى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال انما الدنيا لاربعة نفر عبد رزقه الله مالا وعلما فهو يتقى فى ماله ربه ويصل به رحمه ويعلم لله فيه حقا فهذا بأحسن المنازل وعبد رزقه الله علما ولم يرزقه مالا فهو يقول لو ان لى مالا لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته وهما فى الاجر سواء وعبد رزقه الله مالا ولم يرزقه علما فهو لا يتقى فى ماله ربه ولا يصل رحمه ولا يعلم لله فيه حقا فهذا بأسوأ المنازل عند الله وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علما فهو يقول لو ان لى مالا لعملت بعمل فلان فهو بنيته وهما فى الوزر سواء فاخبر صلى الله عليه وسلم ان وزر الفاعل والناوى الذى ليس مقدوره الا بقوله دون فعله سواء لانه أتى بالنية ومقدوره التام وكذلك أجر الفاعل والناوى الذى اقترن قوله بنيته وكذلك المقتول الذى اقترن قوله بنيته وكذلك المقتول الذى سل السيف وأراد به قتل أخيه المسلم فقتل نزل منزلة القاتل لنيته التامة التى اقترن بها مقدورها من السعى والحركة ومثل هذا قوله صلى الله عليه وسلم من دل على خير فله مثل أجر فاعله فانه بدلالته ونيته نزل منزلة الفاعل ومثله من دعا الى هدى

فللمضل التبع ومن اتبعه ومن دعى الى ضلالة كان عليه من الوزر مثل آثام من اتبعه لاجل نيته واقتران مقدور رهابها من الدعوة ومثله اذا بلغ المصلي الى المسجد ليصلي جماعة فادركهم وقد صلوا فصلى وحده كتب له مثل أجر صلاة الجماعة بنيته وسعيه كما قد جاء مصرحا به في حديث مروي ومثل هذا من كان له ورد يصليه من الليل فنام ومن نيته أن يقوم اليه فغلبت عينه نوم كتب له أجر ورده وكان نومه عليه صدقة ومثله المريض والمسافر اذا كان له عمل يعمله فشغل عنه بالمرض والسفر كتب له مثل عمله وهو صحيح مقيم ومثله من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله سبحانه منازل الشهداء ولو مات على فراشه ونظائر ذلك كثيرة والقسم الثاني معذور (٣٦١) ليس من نيته الجهاد ولا هو عازم عليه

من أولهم الى آخرهم أحدهما عبادة الله وحده لا شريك له والكفر بما يعبد من دونه من اله والثاني الايمان برسله وما جاؤا به من عند الله تصديقا واقرارا وانقيادا وامتثالا وليس هذا مختصا بمشركي الصابئة كما غلط فيه كثير من أرباب المقالات بل هذا مذهب المشركين من سائر الامم لكن شرك الصابئة كان من جهة الكواكب والعلويات ولذلك ناظرهم امام الحنفاء صلوات الله وسلامه عليه في بطلان الهيتها بما حكاه الله سبحانه في سورة الانعام أحسن مناظرة وأبينها أظهرت فيها حجته ودحضت حجتهم فقال بعد ان بين بطلان الهية الكواكب والقمر والشمس بأفولها وأن الاله لا يليق به أن يغيب ويأفل بل لا يكون الا شاهدا غير غائب كما لا يكون الا غالبا قاهرا غير مغلوب ولا مقهور نافعا لعابده يملك لعابده الضر والنفع فيسمع كلامه ويرى مكانه ويهديه ويرشده ويدفع عنه كل ما يضره ويؤذيه وذلك ليس الا الله وحده فكل معبود سواه باطل فلما رأى امام الحنفاء أن الشمس والقمر والكواكب ليست بهذه المثابة صعد منها الى فاطرها وخالقها ومبدعها فقال اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض وفي ذلك اشارة الى أنه سبحانه خالق أمكنتها ومحالها التي هي مفتقرة اليها ولا قوام لها الا بها فهي محتاجة الى محل تقوم به وفاطر يخلقها ويدبرها ويربها والمحتاج المخلوق المربوب المدبر لا يكون الها ثم حاجه قومه في الله ومن حاج في عبادة الله فحجته داحضة فقال ابراهيم عليه السلام أتحاجوني في الله وقد هدان وهذا من أحسن الكلام أي أتريدون أن تصرفوني عن الاقرار بربي وبتوحيده وعن عبادته وحده وتشككوني فيه وقد أرشدني وبين لي الحق حتى استبان لي كالعيان وبين لي بطلان الشرك وسوء عاقبته وان آلهتكم لا تصلح للعبادة وان عبادتها توجب لعابدها غاية الضرر في الدنيا والآخرة فكيف تريدون مني ان انصرف عن عبادته وتوحيده الى الشرك به وقد هداني الى الحق وسبيل الرشاد فالمحاجة والمجادلة انما فائدتها طلب الرجوع والانتقال من الباطل الى الحق ومن الجهل الى العلم ومن العمى الى الابصار وبمجادلتكم اياي في الاله الحق الذي كل معبود سواه باطل تتضمن خلاف ذلك وخوفوه بآلهتهم أن تصيبه بسوء كما يخوف المشرك الموحد بالهه الذي يعبده مع الله أن ينال بسوء فقال الخليل ولا أخاف ما تشركون به فان آلهتكم أقل وأحقر من أن تضر من كفر بها وجحد عبادتها ثم رد الامر الى مشيئة الله وحده وأنه هو الذي يخاف ويرجى فقال الا أن يشاء ربي شيئا وهذا استثناء منقطع والمعنى لا أخاف آلهتكم

عزما تاما فهذا لا يستوي هو والمجاهد في سبيل الله بل قد فضل الله المجاهدين عليه وان كان معذورا لانه لا نية له تلحقه بالفاعل التام كنية أصحاب القسم الاول وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في حديث عثمان بن مظعون ان الله قد أوقع أجره على قدر نيته فلما كان القسم المعذور فيه هذا التفصيل لم يجز أن يساوي بالمجاهد مطلقا ولا ينفي عنه المساواة مطلقا ودلالة المفهوم لا عموم لها فان العموم انما هو من أحكام الصيغ العامة وعوارض الالفاظ والدليل الموجب للقول بالمفهوم لا يدل على أن له عموما يجب اعتباره فان دلالة المفهوم ترجع الى شيئين أحدهما التخصيص والثاني التعليل فأما التخصيص فهو أن تخصيص الحكم بالمذكور يقتضي نفي الحكم عما عداه والا بطلت فائدة التخصيص وهذا لا يقتضي العموم وسلب حكم المنطوق عن جميع صور المفهوم لان فائدة التخصيص قد تحصل بانقسام صور المفهوم الى ما يسلب الحكم عنه والى ما يثبت بعينها ثبوته مثل فيه فيثبت له حكم المنطوق على وجه دون وجه اما بشرط لا يجب مراعاته في المنطوق واما في وقت دون وقت بخلاف

حكم المنطوق فانه ثابت أبدا ونحو ذلك من فوائد التخصيص واذا كانت فائدة التخصيص حاصلة بالتفصيل والانقسام فدعوى لزوم العموم من التخصيص دعوى باطلة لاثباته مجردا للحكم وأما التعليل فانهم قالوا ترتيب الحكم على هذا الوصف المناسب له يقتضي نفي الحكم عما عداه والا لم يكن الوصف المذكور علته وهذا أيضا لا يستلزم عموم النفي عن كل ما عداه وانما غاية ما تقتضيه في الحكم المرتب على ذلك الوصف عن صور النفي عن الوصف وثبوت الحكم جملة فلا يجوز ثبوته بوصف آخر وعلة أخرى فان الحكم الواحد بالنوع يجوز تعليله بعلل مختلفة في الواحد لعين كما ذكر ليس هذا موضعه ومثل هذا ما نحن فيه لان قوله

... الضرر والقاعد به لا يدل على مساواة القاعد غير أولي الضرر للمجاهد بل مطلقا من حيث الضرورة بل ان
ثبتت المساواة فانما هي بصلة ووصف آخر وهي النية الجازمة والعزم التام والضرر المانع من الجهاد في ذلك الحال لا يكون مانعا من المساواة في
الاجر والله أعلم والمقصود الكلام على طبقات الناس في الآخرة وأما النصوص والادلة الدالة على فضل الجهاد وأهله فاكثر من أن
تذكر ههنا ولعلها ان تفرد في كتاب على هذا النمط ان شاء الله فهذه الدرجات الثلاث هي درجات السبق أعني درجة العلم والعدل والجهاد
وبها سبق الصحابة وأدركوا من قبلهم وفاتوا من بعدهم واستولوا على الامد البعيد وحازوا قصبات السبق وهم كانوا السبب
في وصول الاسلام الينا وفي تعليم كل خير وهدى وسبب ينال به السعادة والنجاة وهم أعدل الامة فيما ولوه وأعظمها جهادا في سبيل الله والامة في آثار علمهم وعدلهم وجهادهم الى يوم القيامة ولا ينال أحد منهم مسئلة علم نافع الا على أيديهم ومن طريقهم ينالها ولا يسكن بقعة من الارض آمنا الا بسبب جهادهم وفتوحهم ولا يحكم امام ولا حاكم بعدل وهدى الا كانوا هم السبب في وصولهم اليه فهم الذين فتحوا البلاد بالسيف والقلوب بالايمان وعمروا البلاد بالعدل والقلوب بالعلم والهدى فلهم من الاجر بقدر أجور الامة الى يوم القيامة مضافا الى أجر أعمالهم التي اختصوا بها فسبحان من يختص بفضله ورحمته من يشاء وانما نالوا هذا بالعلم والجهاد والحكم بالعدل وهذه مراتب السبق التي يهبها الله لمن يشاء من عباده * الطبقة السابعة أهل الايثار والصدقة والاحسان الى الناس بأموالهم على اختلاف حاجاتهم ومصالحهم من تفريج كرباتهم ودفع ضروراتهم وكفايتهم في مهماتهم وهم أحد الصنفين الذين قال النبي فيهم لا حسد الا في اثنين رجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي
بها ويعلمها الناس ورجل آتاه الله مالا وسلطه على هلكته في الحق يعني انه لا ينبغي لاحد أن يغبط أحدا على نعمة ويتمنى ولا
مثلها الا أحد هذين وذلك لما فيهما من منافع النفع العام والاحسان المتعدي الى الخلق فهذا ينفعهم بعلمه وهذا ينفعهم بماله والخلق كلهم
عيال الله وأحبهم اليه أنفعهم لعياله ولا ريب ان هذين الصنفين من أنفع الناس لعيال الله ولا يقوم أمر الناس الا بهذين الصنفين ولا يعمر
العالم الا بهما قال تعالى الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم
يحزنون وقال الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون وقال ان المصدقين

فانها لا مشيئة لها ولا قدرة لكن ان شاء ربي شيأ نالني وأصابني لا آلهتكم التي لا تشاء ولا تعلم شيأ وربي له المشيئة النافذة وقد وسع كل شيء علما فمن أولى بان يخاف ويعبد هو سبحانه أم هي ثم قال أفلا تتذكرون فتعلمون بطلان ما أنتم عليه من اشراك من لا مشيئة له ولا يعلم شيأ بمن له المشيئة التامة والعلم التام ثم قال وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون انكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا وهذا من أحسن قلب الحجة وجعل حجة المبطل بعينها دالة على فساد قوله وبطلان مذهبه فانهم خوفوه بآلهتهم التي لم ينزل الله عليهم سلطانا بعبادتها وقد تبين بطلان الهيتها ومضرة عبادتها ومع هذا فلا تخافون شرككم بالله وعبادتكم معه آلهة أخرى فأي الفريقين أحق بالأمن وأولى بان يلحقه الخوف فريق الموحدين أم فريق المشركين فحكم الله سبحانه بين الفريقين بالحكم العدل الذي لا حكم أصح منه فقال الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أي بشرك أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ولما نزلت هذه الآية شق أمرها على الصحابة وقالوا يا رسول الله وأينا لم يظلم نفسه فقال انما هو الشرك ألم تسمعوا قول العبد الصالح ان الشرك لظلم عظيم فحكم سبحانه للموحدين بالهدى والأمن وللمشركين بضد ذلك وهو الضلال والخوف ثم قال وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ان ربك حكيم عليم قال أبو محمد بن حزم وكان الذي ينتحله الصابئون أقدم الأديان على وجه الدهر والغالب على الدنيا الى ان أحدثوا الحوادث وبدلوا شرائعه فبعث الله اليهم ابراهيم خليله بدين الاسلام الذي نحن عليه اليوم وتصحيح ما أفسدوه بالحنيفية السمحة التي أتانا بها محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من عند الله تعالى وكانوا في ذلك الزمان وبعده يسمون الحنفاء قلت هم قسمان صابئة مشركون وصابئة حنفاء وبينهم مناظرات وقد حكى الشهرستاني بعض مناظرتهم في كتابه

(فصل) في ذكر تلاعبه بالدهرية وهؤلاء قوم عطلوا المصنوعات عن صانعها وقالوا ما حكاه الله عنهم فقالوا ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر وهؤلاء فرقتان فرقة قالت ان الخالق سبحانه لما خلق الافلاك متحركة أعظم حركة دارت عليه فاحرقته ولم يقدر على ضبطها وامساك حركاتها وفرقة قالت ان الانسان ليس له أول البتة وانما يخرج من القوة الى الفعل فاذا خرج ما كان بالقوة الى الفعل تكونت الاشياء مركباتها أو بسائطها من ذاتها الا من شيء آخر وقالوا ان العالم دائم لم يزل ولا يزال لا يتغير

وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا يضاعف لهم ولهم أجر كريم وقال من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة والله يقبض ويبسط واليه ترجعون وقال من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه وله أجر كريم فصدر سبحانه الآية بألطف أنواع الخطاب وهو الاستفهام المتضمن لمعنى الطلب وهو أبلغ في الطلب من صيغة الامر والمعنى هل أحد يبذل هذا القرض الحسن فيجازي عليه أضعافا مضاعفة وسمى ذلك الانفاق قرضا حسنا حثا للنفوس وبعثا لها على البذل لان الباذل متى علم ان عين ماله يعود اليه ولا بد طوعت له نفسه بذله وسهل عليه اخراجه فان علم أن المستقرض مليء وفي محسن كان أبلغ (٣٠٣) في طيب قلبه وسماحة نفسه فان علم ان المستقرض يتجر له بما اقترضه وينميه له ويثمره حتى يصير اضعاف ما بذله كان بالقرض أسمح وأسمح فان علم انه مع ذلك كله يزيده من فضله وعطائه أجرا آخر من غير جنس القرض فان ذلك الاجر حظ عظيم وعطاء كريم فانه لا يتخلف عن قرضه الا لآفة في نفسه من البخل والشح أو عدم الثقة بالضمان وذلك من ضعف ايمانه ولهذا كانت الصدقة برهانا لصاحبها وهذه الامور كلها تضمنتها هذه الالفاظ التي تضمنتها الآية فانه سماه قرضا وأخبر انه هو المقترض لا قرض حاجة ولكن قرض احسان الى المقرض واستدعاء لمعاملته وليعرف مقدار الربح وهو الذي أعطاه ماله واستدعى منه معاملته به ثم أخبر عما يرجع اليه بالقرض وهو الاضعاف المضاعفة ثم أخبر عما يعطيه فوق ذلك من الزيادة وهو الاجر الكريم وحيث جاء هذا القرض في القرآن قيده بكونه حسنا وذلك يجمع أمورا ثلاثة أحدها أن يكون من طيب ماله لا من رديئه وخبيثه الثاني أن يخرجه طيبة به نفسه ثابتة عند بذله ابتغاء مرضاة الله الثالث ان لا يمن به ولا يؤذي فالاول يتعلق بالمال والثاني يتعلق بالمنفق بينه وبين الله والثالث بينه وبين الآخذ وقال تعالى مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم وهذه الآية كأنها كالتفسير والبيان لمقدار الاضعاف التي يضاعفها للمقرض ومثله سبحانه بهذا المثل احضارا لصورة التضعيف في الاذهان بهذه الحبة التي غيبت في الارض فانبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة حتى كأن القلب ينظر الى هذا التضعيف ببصيرته كما تنظر العين الى هذه السنابل التي من الحبة الواحدة فينضاف الشاهد العياني الى الشاهد الايماني القرآني فيقوى ايمان المنفق وتسخو نفسه بالانفاق وتأمل كيف جمع السنبلة في هذه الآية على سنابل وهي من جموع الكثرة اذ المقام

ولا يضمحل ولا يجوز أن يكون المبدع يفعل فعلا يبطل ويضمحل الا وهو يبطل ويضمحل مع فعله وهذا العالم هو الممسك لهذه الاجزاء التي فيه وهؤلاء هم المعطلة حقا وهم فحول المعطلة وقد سرى هذا التعطيل الى سائر فرق المعطلة على اختلاف آرائهم وتباينهم في التعطيل كما سرى داء الشرك تأصيلا وتفصيلا في سائر فرق المشركين على اختلاف مذاهبهم فيه وكما سرى جحد النبوات تأصيلا وتفصيلا في سائر من جحد النبوة أو صفة من صفاتها أو أقر بها جملة وجحد مقصودها وزبدتها أو بعضه فهذه الفرق الثلاثة سرى داؤها وبلاؤها في الناس ولم ينج منه الا اتباع الرسل العارفون بحقيقة ما جاء به المتمسكون به دون ما سواه ظاهرا وباطنا فداء التعطيل وداء الاشراك وداء مخالفة الرسول وجحد ما جاء به أو شيء منه هو أصل بلاء العالم ومنبع كل شر وأساس كل باطل فليست فرقة من فرق أهل الالحاد والباطل والبدع الا وقولها مشتق من هذه الاصول الثلاثة أو من بعضها

فان تنج منها تنج من ذي عظيمة * والا فاني لا أظنك ناجيا

(فصل) فسرت هذه البلايا الثلاثة في كثير من طوائف الفلاسفة لا في جميعهم فان الفلسفة من حيث هي لا تعطي ذلك فان معناها محبة الحكمة والفيلسوف أصله فيلاسوفا أي محب الحكمة ففيلا هو المحب وسوفا هي الحكمة والحكمة نوعان قولية وفعلية فالقولية قول الحق والفعلية فعل الصواب وكل طائفة من الطوائف لهم حكمة يتقيدون بها وأصح الطوائف حكمة من كانت حكمتهم أقرب الى حكمة الرسل التي جاؤا بها عن الله تعالى قال تعالى عن نبيه داود عليه السلام وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب وقال عن المسيح عليه السلام ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل وقال عن يحيى عليه السلام وآتيناه الحكم صبيا والحكم هو الحكمة وقال لرسوله محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وقال يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وقال لاهل بيت رسوله واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة فالحكمة التي جاءت بها الرسل هي الحكمة الحق المتضمنة للعلم النافع والعمل الصالح للهدى ودين الحق لاصابة الحق اعتقادا وقولا وعملا وهذه الحكمة فرقها الله سبحانه بين أنبيائه ورسله وجمعها لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم كما جمع له من المحاسن ما فرقه في الانبياء قبله وجمع في كتابه من العلوم والاعمال ما فرقه في الكتب قبله فلو

... وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ... ولا مقتضى
... والله يضاعف لمن يشاء قيل المعنى والله يضاعف هذه المضاعفة لمن يشاء لا لكل منفق بل يختص برحمته من يشاء وذلك
لتفاوت أحوال الانفاق فى نفسه لصفات المنفق وأحواله وفى شدة الحاجة وعظيم النفع وحسن الموقع وقيل والله يضاعف لمن يشاء فوق ذلك
فلا يقتصر به على السبعمائة بل يجاوز فى المضاعفة هذا المقدار الى اضعاف كثيرة واختلف فى تقدير الآية فقيل مثل نفقة الذين ينفقون
فى سبيل الله كمثل حبة وقيل مثل الذين ينفقون فى سبيل الله كمثل باذر حبة ليطابق الممثل للممثل به فههنا أربعة أمور منفق

جمعت كل حكمة صحيحة فى العالم من كل طائفة لكانت فى الحكمة التى أوتيها صلوات الله وسلامه عليه جزأ يسيرا جدا لا يدرك البشر نسبته والمقصود أن الفلاسفة اسم جنس لمن يحب الحكمة ويؤثرها وقد صار هذا الاسم فى عرف كثير من الناس مختصا بمن خرج عن ديانات الانبياء ولم يذهب الا الى ما يقتضيه العقل فى زعمه وأخص من ذلك انه فى عرف المتأخرين اسم لاتباع ارسطو وهم المشاؤن خاصة وهم الذين هذب ابن سينا طرقهم وبسطها وقررها وهى التى يعرفها بل لا يعرف سواها المتأخرون من المتكلمين وهؤلاء فرقة شاذة من فرق الفلاسفة ومقالتهم واحدة من مقالات القوم حتى قيل انه ليس فيهم من يقول بقدم الافلاك غير ارسطو وشيعته فهو أول من عرف أنه قال بقدم هذا العالم والأساطين قبله كانوا يقولون بحدوثه واثبات الصانع ومباينته للعالم كما حكاه عنهم أعلم الناس فى زمانه بمقالاتهم أبو الوليد بن رشد فى كتابه مناهج الادلة

(فصل) وكذلك كان أساطينهم ومتقدموهم العارفون فيهم معظمين للرسل والشرائع موجبين لاتباعهم خاضعين لاقوالهم معترفين بأن ما جاؤا به طور آخر وراء طور العقل وان عقول الرسل وحكمتهم فوق عقول العالمين وحكمتهم وكانوا لا يتكلمون فى الالهيات ويسلمون باب الكلام فيها الى الرسل ويقولون علومنا انما هى الرياضيات والطبيعيات وتوابعها وكانوا يقرون بحدوث العالم وقد حكى أرباب المقالات أن أول من عرف عنه القول بقدم هذا العالم ارسطو وكان مشركا يعبد الأصنام وله فى الالهيات كلام كله خطأ من أوله الى آخره قد تعقبه بالرد عليه طوائف المسلمين حتى الجهمية والمعتزلة والقدرية والرافضة وفلاسفة الاسلام أنكروه عليه وجاء فيه بما يسخر منه العقلاء وأنكر أن يكون الله سبحانه يعلم شيأ من الموجودات وقرر ذلك بأنه لو علم شيأ لكمل بمعلوماته ولم يكن كاملا فى نفسه وبأنه كان يلحقه التعب والكلال من تصور المعلومات فهذا غاية عقل هذا المعلم والاستاذ وقد حكى ذلك أبو البركات وبالغ فى ابطال هذه الحجج وردها فحقيقة ما كان عليه هذا المعلم لأتباعه الكفر بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ودرج على أثره اتباعه من الملاحدة ممن يتستر باتباع الرسل وهو منحل من كل ما جاؤا به وأتباعه يعظمونه فوق ما يعظم به الانبياء ويرون عرض ما جاءت به الانبياء على كلامه فما وافقه منها قبلوه وما خالفه لم يعبؤا به شيأ ويسمونه المعلم الاول لانه أول من وضع لهم التعاليم المنطقية كما ان الخليل بن أحمد أول من وضع عروض الشعر

ونفقة وباذر وبذر فذكر سبحانه من كل شق أهم قسميه فذكر من شق الممثل المنفق اذ المقصود ذكر حاله وشانه وسكت عن ذكر النفقة لدلالة اللفظ عليها وذكر من شق الممثل به البذر اذ هو المحل الذى حصلت فيه المضاعفة وترك ذكر الباذر لان الغرض لا يتعلق بذكره فتأمل هذه البلاغة والفصاحة والايجاز المتضمن لغاية البيان وهذا كثير فى أمثال القرآن بل عامتها ترد على هذا النمط ثم ختم الآية باسمين من أسمائه الحسنى مطابقين لسياقها وهما الواسع العليم فلا يستبعد العبد هذه المضاعفة ولا يضيق عنها عطنه فان المضاعف واسع العطاء واسع الغنى واسع الفضل ومع ذلك فلا يظن ان سعة عطائه تقتضى حصولها لكل منفق فانه عليم بمن تصلح له هذه المضاعفة وهو أهل لها ومن لا يستحقها ولا هو أهل لها فان كرمه وفضله تعالى لا يناقض حكمته بل يضع فضله مواضعه لسعته ورحمته ويمنعه من ليس من أهله بحكمته وعلمه ثم قال الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون هذا بيان للقرض الحسن ما هو
وهو أن يكون فى سبيله أى فى مرضاته والطريق الموصلة اليه ومن أنفعها سبيل الجهاد سبيل الله خاص وعام والخاص جزء من السبيل العام وأن لا يتبع صدقته بمن ولا أذى فالمن نوعان أحدهما من بقلبه من غير أن يصرح له بلسانه وهذا ان لم يبطل الصدقة فهو من نقصان شهود منة الله عليه فى عطائه المال وحرمان غيره وتوفيقه للبذل ومنع غيره منه فلله المنة عليه من كل وجه فكيف يشهد قلبه منة لغيره والنوع الثانى ان يمن عليه بلسانه فيعتد على من أحسن اليه باحسانه ويريه انه اصطنعه وانه أوجب عليه حقا وطوقه منة فى عنقه فيقول اما أعطيتك كذا وكذا ويعدد أياديه عنده قال سفيان يقول أعطيتك فما شكرت وقال عبد الرحمن بن
وزعم

وبعضهم يقول اذا أعطيت رجلا شيأ ورأيت ان سلامك يثقل عليه فكف سلامك عنه وكانوا يقولون اذا اصطنعتم صنيعة فانسوها واذا أسدى اليكم صنيعة فلا تنسوها وفى ذلك قيل وان امرأ أهدى الى صنيعة ه وذكرنيها مرة لبخيل وقيل صفوان من منح سائله ومن ومن منع نائله وضن وحظر الله على عباده المن بالصنيعة واختص به صفة لنفسه لان من العباد تكدير وتعيير ومن الله سبحانه افضال وتذكير وأيضا فانه هو المنعم فى نفس الامر والعباد وسائط فهو المنعم على عبده فى الحقيقة وأيضا فالامتنان استعباد وكسر واذلال لمن يمن عليه ولا تصلح العبودية والذل الا لله وأيضا فالمنة أن يشهد المعطى انه هو رب الفضل والانعام وانه ولى (٣٦٥) النعمة ومسديها وليس ذلك فى الحقيقة الا لله وأيضا فالمان بعطائه يشهد نفسه مترفعا على الآخذ مستعليا عليه غنيا عنه عزيزا ويشهد ذل الآخذ وحاجته اليه وفاقته ولا ينبغى ذلك للعبد وأيضا فان المعطى قد تولى الله ثوابه ورد عليه اضعاف ما أعطى فبقى عوض ما أعطى عند الله فأى حق بقى له قبل الآخذ فاذا امتن عليه فقد ظلمه ظلما بينا وادعى ان حقه فى قبله ومن هنا والله أعلم بطلت صدقته بالمن فانه لما كانت معاوضته ومعاملته مع الله وعوض تلك الصدقة عنده فلم يرض به ولاحظ العوض من الآخذ والمعاملة عنده فمن عليه بما أعطاه بطل معاوضته مع الله ومعاملته له فتأمل هذه النصائح من الله لعباده ودلالته على ربوبيته والهيته وحده وانه يبطل عمل من نازعه فى شئ من ربوبيته والهيته لا اله غيره ولا رب سواه ونبه بقوله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى على ان المن والاذى ولو تراخى عن الصدقة وطال زمنه ضر صاحبه ولم يحصل له مقصود الانفاق ولو أتى بالواو وقال ولا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لاوهمت تقييد ذلك بالحال واذا كان المن والاذى المتراخى مبطلا لاثر الانفاق مانعا من الثواب فالمقارن أولى وأحرى وتأمل كيف جرد الخبر هنا عن الفاء فقال لهم أجرهم عند ربهم وقرنه بالفاء فى قوله الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم فان الفاء الداخلة على خبر المبتدا الموصول أو الموصوف تفهم معنى الشرط والجزاء وانه مستحق بما تضمنه المبتدا من الصلة أو الصفة فلما كان هنا يقتضى بيان حصر المستحق للجزاء دون غيره جرد الخبر عن الفاء فان المعنى ان الذى ينفق ماله لله ولا يمن ولا يؤذى هو الذى يستحق الاجر المذكور لا الذى ينفق لغير الله ويمن ويؤذى بنفقته فليس المقام مقام شرط وجزاء بل مقام بيان للمستحق دون غيره وفى الآية الاخرى ذكر الانفاق بالليل والنهار سرا وعلانية فذكر عموم الاوقات وعموم الاحوال فأتى بالفاء فى الخبر ليدل على ان الانفاق فى أى وقت وجد من ليل أو نهار وعلى أى حالة وجد من سر وعلانية

وزعم ارسطو واتباعه أن المنطق ميزان المعانى كما أن العروض ميزان الشعر وقد بين نظار الاسلام فساد هذا الميزان وعوجه وتعويجه للعقول وتخبيطه للاذهان وصنفوا فى رده وتهافته كثيرا وآخر من صنف فى ذلك شيخ الاسلام ابن تيمية ألف فى رده وابطاله كتابين كبيرا وصغيرا بين فيه تناقضه وتهافته وفساد كثير من أوضاعه ورأيت فيه تصنيفا لابى سعيد السيرافى والمقصود أن الملاحدة درجت على أثر هذا المعلم الاول حتى انتهت نوبتهم الى معلمهم الثانى أبى نصر الفارابى فوضع لهم التعاليم الصوتية كما أن المعلم الاول وضع لهم التعاليم الحرفية ثم وسع الفارابى الكلام فى صناعة المنطق وبسطها وشرح فلسفة ارسطو وهذبها وبالغ فى ذلك وكان على طريقة سلفه من الكفر بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فكل فيلسوف لا يكون عند هؤلاء كذلك فليس بفيلسوف فى الحقيقة واذا رأوه مؤمنا بالله وملائكته وكتبه ورسله وآياته مقلدا لشريعة الاسلام نسبوه الى الجهل والغباوة فان كان ممن لا يشكون فى فضيلته ومعرفته نسبوه الى التلبيس والتدليس بناموس الدين استمالة لقلوب العوام فالزندقة والالحاد عند هؤلاء جزء مسمى الفضيلة أو شرط ولعل الجاهل يقول انا تحاملنا عليهم فى نسبة الكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله اليهم وليس هذا من جهله بمقالات القوم وجهله بحقائق الاسلام ببعيد فاعلم ان الله سبحانه عما يقولون عندهم كما قرره أفضل متأخريهم ولسانهم وقدوتهم الذى يقدمونه على الرسل أبو على بن سينا هو الوجود المطلق بشرط الاطلاق وليس له عندهم صفة ثبوتية تقوم به ولا يفعل شيأ باختياره ألبتة ولا يعلم شيأ من الموجودات أصلا لا يعلم عدد الافلاك ولا شيأ من المغيبات ولا له كلام يقوم به ولا صفة ومعلوم أن هذا انما هو خيال مقدر فى الذهن لا حقيقة له وانما غايته أن يفرضه الذهن ويقدره كما يفرض الاشياء المقدرة وليس هذا هو الرب الذى دعت اليه الرسل وعرفته الامم بل بين هذا الرب الذى دعت اليه الملاحدة وجردته عن الماهية وعن كل صفة ثبوتية وكل فعل اختيارى وأنه لا داخل العالم ولا خارجه ولا متصل به ولا مباين له وبين رب العالمين واله المرسلين من الفرق ما بين الوجود والعدم والنفى والاثبات فأى موجود فرض كان أكمل من هذا الاله الذى دعت اليه الملاحدة ونحتته أفكارهم بل منحوت الايدى من الاصنام له وجود وهذا الرب ليس له وجود ويستحيل وجوده الا فى الذهن هذا وقول هؤلاء الملاحدة أصلح من قول معلمهم الاول ارسطو فان هؤلاء أثبتوا وجودا

[illegible] به خيره ورحمته ولا يؤخر نفقة الليل الى النهار ولا نفقة النهار الى الليل ولا يؤخر نفقة العلانية وقت السر ولا نفقة السر وقت العلانية فان نفقته فى أى وقت وعلى أى حال وجدت بلا أجره وثوابه فتدبر هذه الاسرار فى القرآن فلعلك لا تظفر بها تمر بك فى التفاسير والمنة والفضل لله وحده لا شريك له ثم قال قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى حليم فاخبر ان القول المعروف وهو الذى تعرفه القلوب ولا تنكره والمغفرة وهى العفو عمن أساء اليك خير من الصدقة بالاذى فالقول المعروف احسان وصدقة بالقول والمغفرة احسان بترك المؤاخذة والمقابلة فهما نوعان من أنواع الاحسان والصدقة المقرونة بالاذى حسنة مقرونة بما يبطلها ولا ريب ان حسنتين خير من حسنة باطلة ويدخل فى المغفرة مغفرته للسائل اذا وجد منه بعض الجفوة والاذى لك بسبب رده فيكون عفوه عنه خيرا من أن يتصدق عليه ويؤذيه هذا على المشهور من القولين فى الآية والقول الثانى ان المغفرة من الله أى مغفرة لكم من الله بسبب القول المعروف والرد الجميل خير من صدقة يتبعها أذى وفيها قول ثالث أى مغفرة وعفو من السائل اذا رد وتعذر المسؤل خير من أن ينال بنفسه صدقة يتبعها أذى وأوضح الاقوال هو الاول ويليه الثانى والثالث ضعيف جدا لان الخطاب انما هو للمنفق المسؤل لا للسائل الآخذ والمعنى ان قول المعروف له والتجاوز والعفو خير لك من أن تصدق عليه وتؤذيه ثم ختم الآية بصفتين مناسبتين لما تضمنته فقال والله غنى حليم وفيه معنيان أحدهما ان الله غنى عنكم لن يناله شئ من صدقاتكم وانما الحظ الاوفر لكم فى الصدقة فنفعها عائد عليكم لا اليه سبحانه فكيف يمن بنفقته ويؤذى مع غنى الله التام عنها وعن كل ما سواه ومع هذا فهو حليم اذ لم يعاجل المان بالعقوبة وفى ضمن هذا الوعيد والتحذير والمعنى الثانى انه سبحانه مع غناه التام من كل وجه فهو الموصوف بالحلم والتجاوز والصفح مع عطائه الواسع وصدقاته العميمة فكيف يؤذى أحدكم بمنه وأذاه مع قلة ما يعطى ونزارته وفقره ثم قال يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فاصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شئ مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين فضمنت هذه الآية الاخبار بان المن والاذى يحبط الصدقة وهذا دليل على ان الحسنة قد تحبط بالسيئة مع قوله يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون

واجبا ووجودا ممكنا هو معلول له وصادر عنه صدور المعلول عن العلة وأما ارسطو فلم يثبته الا من جهة كونه مبدأ عقليا للكثرة وعلة غائية لحركة الفلك فقط وصرح بانه لا يعقل شيأ ولا يفعل باختياره وأما هذا الذى يوجد فى كتب المتأخرين من حكاية مذهبه فانما هو من وضع ابن سينا فانه قرب مذهب سلفه الملاحدة من دين الاسلام بجهده وغاية ما أمكنه أن قربه من أقوال الجهمية الغالين فى التجهم فهم فى غلوهم فى تعطيلهم ونفيهم أسد مذهبا وأصح قولا من هؤلاء فهذا عند هؤلاء من خبر الايمان بالله عزوجل وأما الايمان بالملائكة فهم لا يعرفون الملائكة ولا يؤمنون بهم وانما الملائكة عندهم ما يتصوره النبي بزعمهم فى نفسه من أشكال نورانية هى العقول عندهم وهى مجردات ليست داخل العالم ولا خارجه ولا فوق السموات ولا تحتها ولا هى أشخاص تتحرك ولا تصعد ولا تنزل ولا تدبر شيأ ولا تتكلم ولا تكتب أعمال العبد ولا لها احساس ولا حركة ألبتة ولا تنتقل من مكان الى مكان ولا تصف عند ربها ولا تصلى ولا لها تصرف فى أمر العالم ألبتة فلا تقبض نفس العبد ولا تكتب رزقه وأجله وعمله ولا عن اليمين وعن الشمال قعيد كل هذا لا حقيقة له عندهم ألبتة وربما تقرب بعضهم الى الاسلام فقال الملائكة هى القوى الخيرة الفاضلة التى فى العبد والشياطين هى القوى الشريرة الرديئة هذا اذا تقربوا الى الاسلام والى الرسل وأما الكتب فليس لله عندهم كلام أنزله الى الارض بواسطة الملك فانه ما قال شيأ ولا يقول ولا يجوز عليه الكلام ومن يقرب منهم الى المسلمين يقول الكتب المنزلة فيض فاض من العقل الفعال على النفس المستعدة الفاضلة الزكية فتصورت تلك المعانى وتشكلت فى نفسه بحيث توهمها أصواتا تخاطبه وربما قوى الوهم حتى يراها أشكالا نورانية تخاطبه وربما قوى ذلك حتى يخيلها لبعض الحاضرين فيرونها او يسمعون خطابها ولا حقيقة لشئ من ذلك فى الخارج وأما الرسل والانبياء فالنبوة عندهم ثلاث خصائص من استكملها فهو نبى أحدها قوة الحدس بحيث يدرك الحد الأوسط بسرعة الثانية قوة التخيل والتخييل بحيث يتخيل فى نفسه اشكالا نورانية تخاطبه ويسمع الخطاب منها ويخيلها الى غيره الثالثة قوة التأثير بالتصرف فى هيولى العالم وهذا يكون عندهم بتجرد النفس عن العلائق واتصالها بالمفارقات من العقول والنفوس المجردة وهذه الخصائص تحصل بالاكتساب ولهذا طلب النبوة من تصوف على مذهب هؤلاء كابن سبعين وابن هود واضرابهما والنبوة عند

وقد تقدم الكلام على هذه المسألة فى أول هذه الرسالة فلا حاجة الى اعادته وقد يقال ان المن والاذى المقارن للصدقة هو الذى يبطلها دون ما يلحقها بعدها الا انه ليس فى اللفظ ما يدل على هذا التقييد والسياق يدل على ابطالها به مطلقا وقد يقال تمثيله بالمرائى الذى لا يؤمن بالله واليوم الآخر يدل على ان المن والاذى المبطل هو المقارن كالرياء وعدم الايمان فان الرياء لو تأخر عن العمل لم يبطله ويجاب عن هذا بجوابين أحدهما ان التشبيه وقع فى الحال التى يحبط بها العمل وهى حال المرائى والمان المؤذى فى ان كل واحد منهما يحبط العمل الثانى ان الرياء لا يكون الا مقارنا للعمل لانه فعال من الرؤية التى صاحبه يعمل ليرى الناس عمله فلا (٣٦٧) يكون متراخيا وهذا بخلاف المن والاذى فانه يكون مقارنا ومتراخيا وتراخيه أكثر من مقارنته وقوله كالذى ينفق اما أن يكون المعنى كابطال الذى ينفق فيكون قد شبه الابطال بالابطال أو المعنى لا تكونوا كالذى ينفق ماله رئاء الناس فيكون تشبيها للمنفق بالمنفق وقوله فمثله أى مثل هذا المنفق الذى قد بطل ثواب نفقته كمثل صفوان وهو الحجر الاملس وفيه قولان أحدهما انه واحد والثانى جمع صفوة عليه تراب فاصابه وابل وهو المطر الشديد فتركه صلدا وهو الاملس الذى لا شئ عليه من نبات ولا غيره وهذا من أبلغ الامثال وأحسنها فانه يتضمن تشبيه قلب هذا المنفق المرائى الذى لم يصدر انفاقه عن ايمان بالله واليوم الآخر بالحجر لشدته وصلابته وعدم الانتفاع به وتضمن تشبيه ما علق به من أثر الصدقة بالغبار الذى علق بذلك الحجر والوابل الذى أزال ذلك التراب عن الحجر فاذهبه بالمانع الذى أبطل صدقته وأزالها كما يذهب الوابل التراب الذى على الحجر فيتركه صلدا فلا يقدر المنفق على شئ من ثوابه لبطلانه وزواله وفيه معنى آخر وهو ان المنفق لغير الله هو فى الظاهر عامل عملا يرتب عليه الاجر ويزكو له كما تزكو الحبة التى اذا بذرت فى التراب الطيب أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ولكن وراء هذا الانفاق مانع يمنع من نموه وزكائه كما ان تحت التراب حجرا يمنع من نبات ما يبذر من الحب فيه فلا ينبت ولا يخرج شيأ ثم قال ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فان لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير هذا مثل الذى مصدر نفقته عن الاخلاص والصدق فان ابتغاء مرضاته سبحانه هو الاخلاص والتثبيت من النفس هو الصدق فى البذل فان المنفق يعترضه عند انفاقه آفتان ان نجا منهما كان مثله ما ذكره فى هذه الآية احداهما طلبه بنفقته محمدة أو ثناء أو غرضا من اغراضه الدنيوية وهذا حال

هؤلاء صنعة من الصنائع بل من أشرف الصنائع كالسياسة بل هى سياسة العامة وكثير منهم لا يرضى به أو يقول الفلسفة نبوة الخاصة والنبوة فلسفة العامة وأما الايمان باليوم الآخر فهم لا يقرون بانفطار السموات وانتثار الكواكب وقيامة الابدان ولا يقرون بان الله خلق السموات والارض فى ستة أيام وأوجد هذا العالم بعد عدمه فلا مبدأ عندهم ولا معاد ولا صانع ولا نبوة ولا كتب نزلت من السماء تكلم الله بها ولا ملائكة تنزلت بالوحى من الله تعالى فدين اليهود والنصارى بعد النسخ والتبديل أهون من دين هؤلاء وحسبك جهلا بالله تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله من يقول انه سبحانه لو علم الموجودات لحقه الكلال والتعب واستكمل بغيره وحسبك خذلانا وضلالا وعمى السير خلف هؤلاء واحسان الظن بهم وانهم أولو العقول وحسبك عجبا من جهلهم وضلالهم ما قالوه فى سلسلة الموجودات وصدور العالم عن العقول والنفوس الى ان انتهوا بصدور ذلك الى واحد من كل جهة لا علم له بما صدر عنه ولا قدرة له عليه ولا ارادة وأنه لم يصدر عنه الا واحد فذلك الصادر ان كان فيه كثرة بوجه ما فقد بطل ما اصلوه وان لم يكن فيه كثرة البتة لزم أن لا يصدر عنه الا واحد مثله وتكثر الموجودات وتعددها يكذب هذا الرأى الذى هو ضحكة للعقلاء وسخرية لأولى الألباب مع أن هذا كله من تخليط ابن سينا وارادته تقريب هذا المذهب من الشرائع وهيهات والا فالمعلم الاول لم يثبت صانعا للعالم البتة فالرجل معطل مشرك جاحد للنبوات والمعاد لا مبدأ عنده ولا معاد ولا رسول ولا كتاب والرازى وفروخه لا يعرفون من مذاهب الفلاسفة غير طريقته ومذاهبهم وآراؤهم كثيرة جدا قد حكاها أصحاب المقالات كالاشعرى فى مقالاته الكبيرة وأبى عيسى الوراق والحسن بن موسى النوبختى وأبو الوليد بن رشد يحكى مذهب ارسطو غير ما حكاه ابن سينا ويغلطه فى كثير من المواضع وكذلك أبو البركات البغدادى يحكى نفس كلامه على غير ما يحكيه ابن سينا

(فصل) والفلاسفة لا تختص بأمة من الأمم بل هم موجودون فى سائر الأمم وان كان المعروف عند الناس الذين اعتنوا بحكاية مقالاتهم هم فلاسفة اليونان فهم طائفة من الطوائف الفلاسفة وهؤلاء أمة من الأمم لهم مملكة وملوك وعلماؤهم فلاسفتهم ومن ملوكهم الاسكندر المقدونى وهو ابن فيلبس وليس بالاسكندر ذى القرنين الذى قص الله تعالى نبأه فى القرآن بل بينهما قرون كثيرة وبينهما فى الدين أعظم تباين فذو القرنين

وتثبيتا من أنفسهم تصديقا وتثبيتا للاقدام بهم على البذل وهذا هو صدقها وطلب مرضات الله ارادة وجهه وحده وعدم التلاصها فاذا كان مصدر الانفاق عن ذلك كان مثله كجنة وهي البستان الكثير الاشجار فهو مجتنم أي مستتر ليس قاعا ولا غارا والجنة بربوة وهو المكان المرتفع لانها أكمل من الجنة التي بالوهاد والحضيض لانها اذا ارتفعت كانت بمدرجة الاهوية والرياح وكانت ضاحية للشمس وقت طلوعها واستوائها وغروبها فكانت أنضج ثمرا وأطيبه وأحسنه وأكثره فان الثمار تزداد طيبا وزكاء بالرياح والشمس بخلاف الثمار التي تنشأ في الظلال واذا كانت الجنة بمكان مرتفع لم يخش عليها الا من قلة الماء والشراب فقال تعالى أصابها وابل وهو المطر الشديد العظيم القدر فادت ثمرتها وأعطت بركتها فاخرجت ثمرتها ضعفي ما يثمر غيرها أو ضعفي ما كانت تثمر بسبب ذلك الوابل فهذا حال السابقين المقربين فان لم يصبها وابل فطل فهو دون الوابل فهو يكفيها لكرم منبتها وطيب مغرسها تكتفي في اخراج بركتها بالطل وهذا حال الابرار المقتصدين في النفقة وهم درجات عند الله فاصحاب الوابل أعلاهم درجة وهم الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة وأصحاب الطل مقتصدوهم فمثل حال القسمين وأعمالهم بالجنة على الربوة ونفقتهم الكثيرة بالوابل والطل وكما أن كل واحد من المطرين يوجب زكاء ثمر الجنة ونموه بالاضعاف فكذلك نفقتهم كثيرة كانت أو قليلة بعد ان صدرت عن ابتغاء مرضات الله والتثبيت من نفوسهم فهي زاكية عند الله نامية مضاعفة واختلف في الضعفين فقيل ضعفا الشيء مثلاه زائدا عليه وضعفه مثله وقيل ضعفه مثلاه وضعفاه ثلاثة أمثاله وثلاثة اضعافه أربعة أمثاله كلما زاد ضعفا زاد مثلا والذي حمل هذا القائل على ذلك فراره من استواء دلالة المفرد والتثنية فانه رأى ضعف الشيء هو مثله الزائد عليه فاذا زاد الى المثل صار مثلين وهما الضعف فلو قيل لها ضعفان لم يكن فرق بين المفرد والمثنى فالضعفان عنده مثلان مضافان الى الاصل ويلزم من هذا أن يكون ثلاثة أضعافه ثلاثة أمثال مضافة الى الاصل وهكذا أبدا والصواب ان الضعفين هما المثلان فقط الاصل ومثله وعليه يدل قوله فآتت أكلها ضعفين أي مثلين وقوله يضاعف لها العذاب ضعفين أي مثلين ولهذا قال في الحسنات نؤتها أجرها مرتين وأما ما توهمه من استواء

كان رجلا صالحا موحدا لله تعالى يؤمن بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وكان يغزو عباد الاصنام وبلغ مشارق الارض ومغاربها وبنى السد بين الناس وبين يأجوج ومأجوج وأما هذا المقدوني فكان مشركا يعبد الاصنام هو وأهل مملكته وكان بينه وبين المسيح نحو ألف وستمائة سنة والنصارى تؤرخ له وكان أرسطاطاليس وزيره وكان مشركا يعبد الأصنام وهو الذي غزا دارا بن دارا ملك الفرس في عقر داره فثل عرشه ومزق ملكه وفرق جمعه ثم دخل الصين والهند وبلاد الترك فقتل وسبى وكان لليونانيين في دولته عز وسطوة بسبب وزيره ارسطو فانه كان مشيره ووزيره ومدبر مملكته وكان بعده لليونان عدة ملوك يعرفون بالبطالسة واحدهم بطليموس كما كان كسرى ملك الفرس وقيصر ملك الروم ثم غلبهم الروم واستولوا على ممالكهم فصاروا رعية لهم وانقرض ملكهم فصارت المملكة للروم وصارت المملكة واحدة وهم على شركهم من عبادة الاصنام وهو دينهم الظاهر ودين آبائهم فنشأ فيهم سقراط أحد تلامذة فيثاغورس وكان من عبادهم ومتألهيهم وجاهرهم بخلافهم في عبادة الأصنام وقابل رؤساءهم بالأدلة والحجج على بطلان عبادتها فثار عليه العامة واضطروا الملك الى قتله فاودعه السجن ليكفهم عنه ثم لم يرض المشركون الا بقتله فسقاه السم خوفا من شرهم بعد مناظرات طويلة جرت له معهم ومذهبه في الصفات قريب من مذهب أهل الاثبات فقال انه اله كل شيء وخالقه ومقدره وهو عزيز أي منيع ممتنع ان يضام وحكيم أي محكم أفعاله على النظام وقال ان علمه وقدرته وجوده وحكمته بلا نهاية لا يبلغ العقل أن يصفها وقال ان تناهي المخلوقات بحسب احتمال القوابل لا بحسب الحكمة والقدرة فلما كانت المادة لا تحتمل صورا بلا نهاية تناهت الصور لا من جهة بخل في الواجب بل لقصور في المادة قال وعن هذا اقتضت الحكمة الالهية أنها وان تناهت ذاتا وصورة وحيزا ومكانا الا أنها لا تتناهى زمانا في آخرها الا من نحو أولها فاقتضت الحكمة استبقاء الأشخاص باستبقاء الأنواع وذلك بتجدد أمثالها ليحفظ الاشخاص ببقاء الأنواع ويستبقي الأنواع بتجدد الاشخاص فلا تبلغ القدرة الى حد النهاية ولا الحكمة تقف على غاية ومن مذهبه ان أخص ما يوصف به الرب سبحانه هو كونه حيا قيوما لان العلم والقدرة والجود والحكمة يندرج تحت كونه حيا قيوما فهما صفتان جامعتان للكل وكان يقول هو حي ناطق من جوهره أي من ذاته وحياتنا

ونطقنا الامن بجوهرنا ولهذا يتطرق الى حياتنا ونطقنا العدم والدثور والفساد ولا يتطرق ذلك الى حياته ونطقه وكلامه فى المبدأ والصفات والمبدأ أقرب الى كلام الانبياء من كلام غيره وبالجملة فهو أقرب القوم الى تصديق الرسل ولهذا قتله قومه وكان يقول اذا أقبلت الحكمة خدمت الشهوات العقول واذا أدبرت خدمت العقول الشهوات وقال لا تكرهوا أولادكم على آثاركم فانهم مخلوقون لزمان غير زمانكم وقال ينبغى ان يغتم بالحياة ويفرح بالموت لان الانسان يحيى ليموت ثم يموت ليحيى وقال قلوب العارفين فى المعرفة بالحقائق منابر الملائكة وقلوب المؤثرين للشهوات مقاعد للشياطين وقال للحياة حدان أحدهما الامل والآخر الأجل فبالاول بقاؤها وبالآخر فناؤها وكذلك أفلاطون كان معروفا بالتوحيد وانكار عبادة الاصنام واثبات حدوث العالم وكان تلميذ سقراط ولما هلك سقراط قام مقامه وجلس على كرسيه وكان يقول ان للعالم صانعا محدثا مبدعا أزليا واجبا بذاته عالما بجميع المعلومات قال وليس فى الوجود رسم ولا طلل الا ومثاله عند البارى تعالى يشير الى وجود صور المعلومات فى علمه فهو مثبت للصفات وحدوث العالم ومنكر لعبادة الاصنام ولكن لم يواجه قومه بالرد عليهم وعيب آلهتهم فسكتوا عنه وكانوا يعرفون له فضله وعلمه وصرح أفلاطون بحدوث العالم كما كان عليه الأساطين وحكى ذلك عنه تلميذه ارسطو وخالفه فيه فزعم أنه قديم وتبعه على ذلك ملاحدة الفلاسفة من المنتسبين الى الملل وغيرهم حتى انتهت النوبة الى أبى على بن سينا فرام بجهده تقريب هذا الرأى من قول أهل الملل وهيهات اتفاق النقيضين واجتماع الضدين فرسل الله تعالى وكتبه واتباع الرسل فى طرف وهؤلاء القوم فى طرف وكان ابن سينا كما أخبر عن نفسه قال أنا وأبى من أهل دعوة الحاكم فكان من القرامطة الباطنية الذين لا يؤمنون بمبدأ ولا معاد ولا رب خالق ولا رسول مبعوث جاء من عند الله تعالى وكان هؤلاء زنادقة يتسترون بالرفض ويبطنون الالحاد المحض وينتسبون الى أهل بيت الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم وهو وأهل بيته برآء منهم نسبا ودينا وكانوا يقتلون أهل العلم والايمان ويدعون أهل الالحاد والشرك والكفران لا يحرمون حراما ولا يحلون حلالا وفى دينهم ولخواصهم وضعت رسائل اخوان الصفا ولما انتهت النوبة الى نصير الشرك والكفر الملحد وزير الملاحدة النصير الطوسى وزير هولاكو فاشتفى نفسه من اتباع الرسول وأهل دينه فعرضهم على السيف حتى شفا اخوانه من الملاحدة واشتفى هو فقتل الخليفة والقضاة والفقهاء

دلالة الفرق والتنبيه فوهم منشاه ظن ان الضعف هو المثل مع الاصل وليس كذلك بل المثل له اعتباران ان اعتبر وحده فهو ضعف وان اعتبر مع نظيره فهما ضعفان والله أعلم واختلف فى رافع قوله فطل فقيل هو مبتدأ خبره محذوف أى وطله يكفيها وقيل خبر مبتدؤه محذوف فالذى يرويها ويصيبها طل والضمير فى أصابها ما أن يرجع الى الجنة أو الى الربوة وهما متلازمات ثم قال أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الانهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فاصابها اعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون قال الحسن هذا مثل قل والله من يعقله من الناس (٣٦٩) شيخ كبير ضعف جسمه وكثر صبيانه أفقر ما كان الى جنته وان أحدكم والله أفقر ما يكون الى عمله اذا انقطعت عنه الدنيا وفى صحيح البخارى عن عبيد بن عمير قال قال عمر يوما لاصحاب النبى فيم هم يرون هذه الآية نزلت أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل الآية قالوا الله أعلم فغضب عمر فقال قولوا نعلم أو لا نعلم فقال ابن عباس فى نفسى منها شئ يا أمير المؤمنين فقال عمر قل يا ابن أخى ولا تحقر نفسك قال ابن عباس ضربت مثلا لعمل قال عمر أى عمل قال ابن عباس لعمل قال عمر لرجل غنى يعمل بطاعة الله ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصى حتى أغرق أعماله فقوله تعالى أيود أحدكم أخرجه مخرج الاستفهام الانكارى وهو أبلغ من النفى والنهى وألطف موقعا كما ترى غيرك يفعل فعلا قبيحا فتقول لا يفعل هذا عاقل يفعل هذا من يخاف الله والدار الآخرة وقال أيود أحدكم بلفظ الواحد لتضمنه معنى الانكار العام كما تقول أيفعل أحد فيه خير وهو أبلغ فى الانكار من أن يقول أتودون وقوله أيود أبلغ فى الانكار من لو قيل أيريد لان محبة هذا الحال المذكورة وتمنيها أقبح وأنكر من مجرد ارادتها وقوله ان تكون له جنة من نخيل وأعناب خص هذين النوعين من الثمار بالذكر لانهما أشرف أنواع الثمار وأكثرهم نفعا فانه منهما القوت والغذاء والدواء والشراب والفاكهة والحلو والحامض ويؤكلان رطبا ويابسا ومنافعهما كثيرة جدا وقد اختلف فى الانفع والافضل منهما فرجحت طائفة النخيل ورجحت طائفة العنب وذكرت كل طائفة حججا قولها ذكرناها فى غير هذا الموضع وفصل الخطاب ان هذا يختلف باختلاف البلاد فان الله سبحانه أجرى العادة بان سلطان أحدهما لا يحل حيث يحل سلطان الآخر فالارض التى يكون فيها سلطان النخيل لا يكون العنب بها طائلا ولا كثيرا لانه انما يخرج فى الارض الرخوة

الجنة المشتملة على النخيل فبهما تكثر واما النخل فنموه وكثرته فى الارض الحارة السبخة وهى لا تناسب العنب فالنخل فى ارضه

وموضعه أنفع وأفضل من العنب فيها والعنب فى أرضه ومعدنه أفضل من النخل فيها والله أعلم والمقصود ان هذين النوعين هما أفضل أنواع

الثمار وأكرمها فالجنة المشتملة عليهما من أفضل الجنات ومع هذا فالانهار تجرى تحت هذه الجنة وذلك أكمل لها وأعظم فى قدرها ومع

ذلك لم يعدم شيأ من أنواع الثمار المشتهاة بل فيها من كل الثمرات ولكن معظمها وعمودها النخيل والاعناب فلا تنافى بين كونها من

نخيل وأعناب وفيها من كل الثمرات (٣٧٠) ونظيره قوله واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لاحدهما جنتين من أعناب وحففناهما

بنخل وجعلنا بينهما زرعا الى قوله وكان له ثمر وهذا يدل على ان الثمار هنا وفى آية البقرة المراد بها المنافع والاموال والثانى يدل على انها الثمار المعروفة لانه يرشد قوله هنا له فيها من كل الثمرات ثم قال فأصابها أى الجنة اعصار فيه نار فاحترقت وفى الكهف وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها وما ذلك الا ثمار الجنة ثم قال وأصابه الكبر هذا اشارة الى شدة حاجته الى جنته وتعلق قلبه بها من وجوه أحدها انه قد كبر سنه عن الكسب والتجارة ونحوها الثانى ان ابن آدم عند كبر سنه يشتد حرصه الثالث ان له ذرية فهو حريص على بقاء جنته لحاجته وحاجة ذريته الرابع انهم ضعفاء فهم كل عليه لا ينفعونه بقوتهم وتصرفهم الخامس ان نفقتهم عليه لضعفهم وعجزهم وهذا نهاية ما يكون من تعلق القلب بهذه الجنة لخطرها فى نفسها وشدة حاجته وذريته اليها فاذا تصورت هذه الحال وهذه الحاجة فكيف تكون مصيبة هذا الرجل اذا أصاب جنته اعصار وهو الريح التى تستدير فى الارض ثم ترتفع فى طبقات الجو كالعمود

وفيها نار مرت بتلك الجنة فاحرقتها وصيرتها رمادا فصدق والله الحسن هذا مثل قل من يعقله من الناس ولهذا نبه سبحانه على عظم فكان

هذا المثل وحدا القلوب الى التفكر فيه لشدة حاجتها اليه فقال كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون فلو فكر العاقل فى هذا المثل

وجعله قبلة قلبه لكفاه وشفاه فهكذا العبد اذا عمل بطاعة الله ثم اتبعها بما يبطلها ويفسدها من معاصى الله كانت كالاعصار ذى النار المحرق

للجنة التى غرسها بطاعته وعمله الصالح ولولا ان هذه المواضع أهم مما كنا بصدده من ذكر مجرد الطبقات لم نذكرها ولكنها من أهم المهم

والله المستعان الموفق لمرضاته فلو تصور العامل بمعصية الله بعد طاعته هذا المعنى حق تصوره وتأمله كما ينبغى لما سولت له نفسه والله احراق

والملحدين واستبقى الفلاسفة والمنجمين والطبائعيين والسحرة ونقل أوقاف المدارس والمساجد والربط اليهم وجعلهم خاصته وأولياءه ونصر فى كتبه قدم العالم وبطلان المعاد وانكار صفات الرب جل جلاله من علمه وقدرته وحياته وسمعه واتخذ للملاحدة مدارس ورام جعل اشارات امام الملحدين ابن سينا مكان القرآن فلم يقدر على ذلك فقال هى قرآن الخواص وذاك قرآن العوام ورام تغيير الصلاة وجعل صلاتين فلم يتم له الامر وتعلم السحر فى آخر الامر فكان ساحرا يعبد الاصنام وصارع محمد الشهرستانى ابن سينا فى كتاب سماه المصارعة أبطل فيه قوله بقدم العالم وانكار المعاد ونفى علم الرب تعالى وقدرته وخلقه العالم فقام له نصير الالحاد وقعد ونقضه بكتاب سماه مصارعة المصارع ووقفنا على الكتابين نصر فيه أن الله تعالى لم يخلق السموات والارض فى ستة أيام وانه لا يعلم شيأ وانه لا يفعل شيأ بقدرته واختياره ولا يبعث من فى القبور وبالجملة فكان هذا الملحد هو وأتباعه من الكافرين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والفلسفة التى يقرأها أتباع هؤلاء القوم هى مأخوذة عنه وعن امامه ابن سينا وبعضها عن أبى نصر الفارابى ويسير منها من كلام ارسطو وهو مع قلته وغباوته وركاكة ألفاظه كثير التطويل لا فائدة فيه وخيار ما عند هؤلاء الذى عند مشركى العرب من كفار قريش وغيرهم أهون منه فانهم يدانون حتى يثبتوا واجب الوجود ومع اثباتهم له فهو عندهم وجود مطلق لا صفة له ولا نعت ولا فعل يقوم به لم يخلق السموات والارض بعد عدمها ولا له قدرة على فعل ولا يعلم شيأ وعباد الاصنام كانوا يثبتون ربا خالقا عالما قادرا حيا ويشركون به فى العبادة فنهاية أمر هؤلاء الوصول الى شئ برز عليهم فيه عباد الاصنام وهم فرق شتى لا يحصيهم الا الله عز وجل وأحصى المعتنون بمقالات الناس منهم اثنى عشر فرقة كل فرقة منها مختلفة اختلافا كثيرا فمنهم أصحاب الرواق وأصحاب المظلة والمشاؤن وهم شيعة ارسطو وفلسفتهم هى الدائرة اليوم بين الناس وهى التى يحكيها ابن سينا والفارابى وابن الخطيب وغيرهم ومنهم الفيثاغورية والافلاطونية ولا تكاد تجد منهم اثنين متفقين على رأى واحد بل قد تلاعب بهم الشيطان كتلاعب الصبيان بالكرة ومقالاتهم أكثر من ان نذكرها على التفصيل وبالجملة فملاحدتهم هم أهل التعطيل المحض فانهم عطلوا الشرائع وعطلوا المصنوع عن الصانع والصانع عن صفات كماله وعطلوا العالم عن الحق الذى خلق له وبه فعطلوه عن مبدئه ومعاده وعن فاعله وغايته ثم سرى هذا الداء منهم فى الامم وفى فرق المعطلة

فكان منهم امام المعطلين فرعون فانه أخرج التعطيل الى العمل وصرح به وأذن به بين قومه ودعا اليه وأنكر أن يكون لقومه اله غيره وأنكر أن يكون الله تعالى كلم عبده موسى تكليما وكذب موسى في ذلك وطلب من وزيره هامان أن يبني له صرحا ليطلع بزعمه الى اله موسى عليه السلام وكذبه في ذلك فاقتدى به كل جهمي مكذب أن يكون مكلما متكلما أو يكون على العرش استوى ودرج قومه وأصحابه على ذلك حتى أهلكهم الله تعالى بالغرق وجعلهم عبرة لعباده المؤمنين ونكالا لاعدائه المعطلين ثم استقر الامر على عهد نبوة موسى كليم الرحمن على التوحيد واثبات الصفات وتكليم الله لعبده موسى تكليما الى ان توفي موسى عليه السلام ودخل الداخل على بني اسرائيل ورفع التعطيل رأسه بينهم وأقبلوا على علوم المعطلة أعداء موسى عليه السلام وقدموها على نصوص التوراة فسلط الله تعالى عليهم من أزال ملكهم وشردهم من أوطانهم وسبى ذراريهم كما هي عادته سبحانه وسنته في عباده اذا أعرضوا عن الوحي وتعوضوا عنه بكلام الملاحدة والمعطلة من الفلاسفة وغيرهم كما سلط النصارى على بلاد الغرب لما ظهرت فيها الفلسفة والمنطق واشتغلوا بها فاستولت النصارى على أكثر بلادهم وأصاروهم رعية لهم وكذلك لما ظهر ذلك ببلاد المشرق سلط عليهم عساكر التتار فأبادوا أكثر البلاد الشرقية واستولوا عليها وكذلك في أواخر المائة الثالثة وأول الرابعة لما اشتغل أهل العراق بالفلسفة وعلوم أهل الالحاد سلط عليهم القرامطة الباطنية فكسروا عسكر الخليفة عدة مرات واستولوا على الحاج واستعرضوهم قتلا وأسرا واشتدت شوكتهم واتهم بموافقتهم في الباطن كثير من الأعيان من الوزراء والكتاب والأدباء وغيرهم واستولى أهل دعوتهم على بلاد الغرب واستقرت دار مملكتهم بمصر وبنيت في أيامهم القاهرة واستولوا على الشام والحجاز واليمن والغرب وخطب لهم على منبر بغداد والمقصود أن هذا الداء لما دخل في بني اسرائيل كان سبب دمارهم وزوال مملكتهم ثم بعث الله سبحانه عبده ورسوله وكلمته المسيح ابن مريم فجدد لهم الدين وبين لهم معالمه ودعاهم الى عبادة الله تعالى وحده والتبري من تلك الاحداث والآراء الباطلة فعادوه وكذبوه ورموه وأمه بالعظائم وراموا قتله فطهره الله تعالى منهم ورفعه اليه فلم يصلوا اليه بسوء وأقام الله تعالى للمسيح أنصارا دعوا الى دينه وشريعته حتى ظهر دينه على من خالفه ودخل فيه الملوك وانتشرت دعوته واستقام الامر على السداد بعده نحو ثلثمائة سنة ثم أخذ دين المسيح في التبديل والتغيير

الجنة الصلفة وأشباهها ولكن لابد أن يغيب عنه علمه عند المعصية ولهذا استحق اسم الجهل فكل من عصى الله فهو جاهل فان قيل الواو في قوله وأصابه الكبر واو الحال أم واو العطف واذا كانت العطف فعلام عطفت ما بعدها قلت فيه وجهان أحدهما انه واو الحال اختاره الزمخشري والمعنى أيود أحدكم ان تكون له جنة شأنها كذا وكذا في حال كبره وضعف ذريته والثاني أن تكون للعطف على المعنى فان فعل التمني وهو قوله أيود أحدكم لطالب الماضي كثيرا فكان المعنى أيود لو كانت له جنة من نخيل وأعناب وأصابه الكبر فجرى عليها ما ذكر وتأمل كيف ضرب سبحانه المثل للمنفق المرائي الذي لم يصدر انفاقه عن الايمان بالصفوان الذي عليه التراب فانه لم يثبت شيأ أصلا بل ذهب بذره ضائعا لعدم ايمانه واخلاصه ثم ضرب المثل لمن عمل بطاعة الله مخلصا بنيته لله ثم عرض له ما أبطل ثوابه بالجنة التي هي من أحسن الجنان وأطيبها وأزهرها ثم سلط عليها الاعصار الناري فاحرقها فان هذا نبت له شئ وأثمر له عمله ثم احترق والاول لم يحصل له شئ يدركه الحريق فتبارك من جعل كلامه حياة للقلوب وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة ثم قال يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الارض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون أضاف سبحانه الكسب اليهم وان كان هو الخالق لافعالهم لانه فعلهم القائم بهم وأسند الاخراج اليه لانه ليس فعلا لهم ولا هو مقدورا لهم فأضاف مقدورهم اليهم وأضاف مفعوله الذي لا قدرة لهم عليه ففي ضمنه الرد على من سوى بين النوعين وسلب قدرة العبد وفعله وتأثيره عنها بالكلية وخص سبحانه هذين النوعين وهما الخارج من الارض والحاصل بكسب التجارة دون غيرهما من المواشي اما بحسب الواقع فانهما كانا أغلب أموال القوم اذ ذاك فان المهاجرين كانوا أصحاب تجارة وكسب والانصار كانوا أصحاب حرث وزرع فخص هذين النوعين بالذكر لحاجتهم الى بيان حكمهما وعمومه وجودهما واما لانهما أصول الاموال وما عداهما فعنهما يكون ومنهما ينشأ فان الكسب يدخل فيه التجارات كلها على اختلاف أصنافها وأنواعها من الملابس والمطاعم والرقيق والحيوانات والآلات والامتعة وسائر ما تتعلق به التجارة والخارج من الارض يتناول حبها وثمارها وركازها ومعدنها وهذان هما أصول الاموال وأغلبها على أهل الارض فكان ذكرهما أهم ثم قال ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون فنهى سبحانه عن قصد اخراج الردئ كما هو عادة أكثر النفوس تمسك الجيد لها وتخرج الردئ للفقير ونهيه سبحانه عن قصد ذلك وتيممه فيه ما يشبه

[illegible] تبصرون موقع الحال أى لا تبصرون منه شيئاً منه ثم قال ولستم بآخذيه الا أن تغمضوا فيه أى

لو كنتم أنتم المستحقين له وبذل لكم لم تأخذوه فى حقوقكم الا بأن تتسامحوا فى أخذه وتترخصوا فيه من قولهم أغمض فلان عن بعض حقه ويقال للبائع اغمض أى لا تستقص كأنك لا تبصر وحقيقته من اغماض الجفن فكان الرائى لكراهته له لا يملأ عينه منه بل يغمض من بصره ويغمض عنه بعض نظره (٣٧٢) بغضا ومنه قول الشاعر لم يفتنا بالوتر قوم وللضيم رجال يرضون بالاغماض

وفيه معنيان أحدهما كيف تبذلون لله وتهدون له مالا ترضون ببذله لكم ولا يرضى أحدكم من صاحبه أن يهديه له والله أحق من يخير له خيار الاشياء وأنفسها والثانى كيف تجعلون له ما تكرهون لانفسكم وهو سبحانه طيب لا يقبل الا طيبا ثم ختم الآيتين بصفتين يقتضيهما سياقهما فقال واعلموا ان الله غنى حميد فغناه وحمده يأبى قبوله الردىء فان قابل الردىء الخبيث اما أن يقبله لحاجته اليه واما أن نفسه لا تأباه لعدم كمالها وشرفها وأما الغنى عنه الشريف القدر الكامل الاوصاف فانه لا يقبله ثم قال تعالى الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم هذه الآية تتضمن الحض على الانفاق والحث عليه بأبلغ الالفاظ وأحسن المعانى فانها اشتملت على بيان الداعى الى البخل والداعى الى البذل والانفاق وبيان ما يدعوه اليه داعى البخل وما يدعو اليه داعى الانفاق وبيان ما يدعو به داعى الامرين فأخبر سبحانه ان الذى يدعوهم الى البخل والشح هو الشيطان وأخبر ان دعوته هى بما يعدهم به ويخوفهم من الفقر ان أنفقوا أموالهم وهذا هو الداعى الغالب على الخلق فانه يهم بالصدقة والبذل فيجد فى قلبه داعيا يقول له متى أخرجت هذا دعتك الحاجة اليه وافتقرت اليه بعد اخراجه وامساكه خير لك حتى لا تبقى مثل الفقير فغناك خير لك من غناه فاذا صور له هذه الصورة أمره بالفحشاء وهى البخل الذى هو من أقبح الفواحش وهذا اجماع من المفسرين ان الفحشاء هنا البخل فهذا وعده وهذا أمره وهو الكاذب فى وعده الغار الفاجر فى أمره فالمستجيب لدعوته مغرور مخدوع مغبون فانه يدلى من يدعوه بغرور ثم يورده شر الموارد كما قال

دلاهم بغرور ثم أوردهم * ان الخبيث لمن والاه غرار

هذا وان وعده له الفقر ليس شفقة عليه ولا نصيحة له كما ينصح الرجل أخاه ولا

مخلوق

حتى تناسخ واضمحل ولم يبق بأيدى النصارى منه شئ بل ركبوا دينا بين دين المسيح ودين الفلاسفة عباد الأصنام وراموا بذلك أن يتلطفوا للأمم حتى يدخلوهم فى النصرانية فنقلوهم من عبادة الاصنام المجسدة الى الصور التى لا ظل لها ونقلوهم من السجود للشمس الى السجود الى جهة الشرق ونقلوهم من القول باتحاد العاقل والمعقول والعقل الى القول باتحاد الاب والابن وروح القدس هذا ومعهم بقايا من دين المسيح كالختان والاغتسال من الجنابة وتعظيم السبت وتحريم الخنزير وتحريم ما حرمته التوراة الا ما أحل لهم بنصها ثم تناسخت الشريعة الى أن استحلوا الخنزير وأحلوا السبت وعوضوا منه يوم الاحد وتركوا الختان والاغتسال من الجنابة وكان المسيح يصلى الى بيت المقدس فصلوا هم الى الشرق ولم يعظم المسيح عليه السلام صليبا قط فعظموا هم الصليب وعبدوه ولم يصم المسيح عليه السلام صومهم هذا أبدا ولا شرعه ولا أمر به البتة بل هم وضعوه على هذا العدد ونقلوه الى زمن الربيع فجعلوا ما زادوا فيه من العدد عوضا عن نقله من الشهور الهلالية الى الشهور الرومية وتعبدوا بالنجاسات وكان المسيح عليه السلام فى غاية الطهارة والطيب والنظافة وأبعد الخلق عن النجاسة فقصدوا بذلك تغيير دين اليهود ومراغمتهم فغيروا دين المسيح وتقربوا الى الفلاسفة وعباد الاصنام بأن وافقوهم فى بعض الأمر ليرضوهم به وليستنصروا بذلك على اليهود ولما أخذ دين المسيح عليه السلام فى التغيير والفساد اجتمعت النصارى عدة مجامع تزيد على ثمانين مجمعا ثم يتفرقون عن الاختلاف والتلاعن يلعن بعضهم بعضا حتى قال فيهم بعض العقلاء لو اجتمع عشرة من النصارى يتكلمون فى حقيقة ما هم عليه لتفرقوا عن أحد عشر مذهبا حتى جمعهم قسطنطين الملك آخر ذلك من الجزائر والبلاد وسائر الاقطار فجمع كل بترك وأسقف وعالم فكانوا ثلثمائة وثمانية عشر فقال أنتم اليوم علماء النصرانية وأكابر النصارى فاتفقوا على أمر تجتمع عليه كلمة النصرانية ومن خالفه لعنتموه وحرمتموه فقاموا وقعدوا وفكروا وقدروا واتفقوا على وضع الامانة التى بأيديهم اليوم وكان ذلك بمدينة نيقية سنة خمس عشرة من ملك قسطنطين وكان أحد أسباب ذلك ان بطريق الاسكندرية منع اريوس من دخول الكنيسة ولعنه فخرج اريوس الى قسطنطين الملك مستعديا عليه ومعه أسقفان فشكوه اليه وطلبوا مناظرته بين يدى الملك فاستحضره الملك وقال لاريوس اشرح مقالتك فقال اريوس أقول ان الأب كان اذ لم يكن الابن ثم أحدث الابن فكان كلمة له الا انه محدث

... الى أحب الناس فقره وطلبته وإغناء وعده بالفقر وأمره اياه بالبخل ليبقى ملته به ويترك ما عنده من الانفاق لوجهه ليستوجب منه الحرمان واما الله سبحانه فانه يعد عبده مغفرة منه لذنوبه وفضلا بان يخلف عليه أكثر مما أنفق وأضعافه اما في الدنيا أو في الدنيا والآخرة فهذا وعد الله وذاك وعد الشيطان فلينظر البخيل والمنفق أى الوعدين هو أوثق والى أيهما يطمئن قلبه وتسكن نفسه والله يوفق من يشاء ويخذل من يشاء وهو الواسع العليم وتامل كيف ختم هذه الآية بهذين الاسمين فانه واسع العطاء عليم بمن يستحق فضله ومن يستحق عدله فيعطى هذا بفضله ويمنع هذا بعدله وهو بكل شئ عليم فتامل هذه الآيات ولا تستطل بسط الكلام فيها فان لها شانا لا يعقله الا من عقل عن الله خطابه وفهم مراده وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون وتامل ختم هذه السورة التى هى سنام القرآن باحكام الاموال واقسام الاغنياء وأحوالهم وكيف قسمهم الى ثلاثة أقسام محسن وهم المتصدقون فذكر جزاءهم ومضاعفته وما لهم فى قرض أموالهم لملىء الوفى ثم حذرهم مما يبطل ثواب صدقاتهم ويحرقها بعد استوائها وكمالها من المن والاذى وحذرهم مما يمنع ترتب أثرها عليها ابتداء من الرياء ثم أمرهم أن يتقربوا اليه باطيبها ولا يتيمموا أردأها وخبيثها ثم حذرهم من الاستجابة لداعى البخل والفحش وأخبران استجابتهم لدعوته وثقتهم بوعده أولى بهم وأخبران هذا من حكمته التى يؤتيها من يشاء من عباده وان من أوتيها فقد أوتى خيرا كثيرا أوتى ما هو خير وأفضل من الدنيا كلها لانه سبحانه وصف الدنيا بالقلة فقال قل متاع الدنيا قليل وقال ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا فدل على ان ما يؤتيه عبده من حكمته خير من الدنيا وما عليها ولا يعقل هذا كل أحد بل لا يعقله الا من له لب وعقل زكى فقال وما يذكر الا أولوا الالباب ثم أخبران كل ما أنفقوه من نفقة أو تقربوا به اليه من نذر فانه يعلمه فلا يضيع لديه بل يعلم ما كان لوجهه ويكل جزاء من عمل لغيره الى من عمل له فانه ظالم لنفسه وماله من نصير ثم أخبر سبحانه عن أحوال المتصدقين لوجهه فى صدقاتهم وانه يثيبهم عليها ان أبدوها أو كتموها بعد ان تكون خالصة لوجهه فقال ان تبدوا الصدقات فنعما هى أى فنعم شئ هى وهذا مدح لها موصوفة بكونها ظاهرة بادية فلا يتوهم مبديها بطلان أثره وثوابه فيمنعه ذلك من اخراجها او ينتظر بها الاخفاء فتفوت أو يعترضه الموانع ويحال بينه وبين قلبه أو بينه وبين اخراجها فلا يؤخر صدقته العلانية بعد حضور وقتها الى وقت السر وهذه كانت حال الصحابة ثم قال وان تخفوها وتؤتوها الفقراء

مخلوق ثم فوض الأمر الى ذلك الابن المسمى كلمة فكان هو خالق السموات والارض وما بينهما كما قال فى انجيله اذ يقول وهب لى سلطانا على السماء والارض فكان هو الخالق لهما بما أعطى من ذلك ثم أن تلك الكلمة بعد اتحدت من مريم العذراء ومن روح القدس فصار ذلك مسيحا واحدا فالمسيح الآن معنيان كلمة وجسد الا انهما جميعا مخلوقان فقال بطريق الاسكندرية خبرنا أيما أوجب علينا عندك عبادة من خلقنا أو عبادة من لم يخلقنا فقال اريوس بل عبادة من خلقنا فقال فعبادة الابن الذى خلقنا وهو مخلوق أوجب من عبادة الأب الذى ليس بمخلوق بل تصير عبادة الأب الخالق كفرا وعبادة الابن المخلوق ايمانا فاستحسن الملك والحاضرون مقالته وأمرهم الملك أن يلعنوا اريوس وكل من يقول بمقالته فلما انتصر البطريق قال للملك استحضر البطارقة والاساقفة حتى يكون لنا مجمع ونصنع قصة نشرح فيها الدين ونوضحه للناس فحشرهم قسطنطين من سائر الآفاق فاجتمع عنده بعد سنة وشهرين ألفان وثمانية وأربعون أسقفا وكانوا مختلفى الآراء متباينين فى أديانهم فلما اجتمعوا كثر اللغط بينهم وارتفعت الاصوات وعظم الاختلاف فتعجب الملك من شدة اختلافهم فاجرى عليهم الانزال وأمرهم أن يتناظروا حتى يعلم الدين الصحيح مع من منهم فطالت المناظرة بينهم فاتفق منهم ثلثمائة وثمانية عشر اسقفا على رأى واحد فناظروا بقية الاساقفة فظهروا عليهم فعقد الملك لهؤلاء الثلثمائة مجلسا خاصا وجلس فى وسطه وأخذ خاتمه وسيفه وقضيبه فدفعه اليهم وقال لهم قد سلطتكم على المملكة فاصنعوا ما بدا لكم مما فيه قوام دينكم وصلاح أمتكم فباركوا عليه وقلدوه سيفه وقالوا له أظهر دين النصرانية وذب عنه فدفعوا اليه الامانة التى اتفقوا على وضعها فلا يكون عندهم نصرانى من لم يقر بها ولا يتم لهم قربان الا بها وهى هذه نؤمن بالله الواحد الأب مالك كل شئ صانع ما يرى وما لا يرى وبالرب الواحد يسوع المسيح ابن الله الواحد بكر الخلائق كلها الذى ولد من أبيه قبل العوالم كلها وليس بمصنوع اله حق من اله حق من جوهر أبيه الذى بيده أتقنت العوالم وخلق كل شئ الذى من أجلنا معشر الناس ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد من روح القدس وصار انسانا وحمل به ثم ولد من مريم البتول والم وأشج وقتل وصلب ودفن وقام فى اليوم الثالث وصعد الى السماء وجلس عن يمين أبيه وهو مستعد للمجئ تارة أخرى للقضاء بين الاموات والاحياء ونؤمن بروح القدس الواحد روح الحق الذى يخرج من أبيه

روح محبته وبمعمودية واحدة لغفران الخطايا وبجماعة واحدة قدسية جاثلقية وبقيامة أبداننا والحياة الدائمة الى أبد الآبدين فهذا العقد الذى أجمع عليه الملكية والنسطورية واليعقوبية وهذه الامانة التى ألفها أولئك البتاركة والاساقفة والعلماء وجعلوها شعار النصرانية وكان رؤساء هذا المجمع بترك الاسكندرية وبترك انطاكية وبترك بيت المقدس فافترقوا عليها وعلى لعن ما خالفها والتبرى منه وتكفيره ثم ذهب اريوس يدعو الى مقالته وينفر النصارى عن أولئك الثلثمائة فجمع جمعا عظيما وصاروا الى بيت المقدس وخالف كثير من النصارى لاولئك المجمع فلما اجتمعوا قال اريوس ان أولئك النفر تعدوا علىّ وظلمونى ولم ينصفونى فى الحجاج وحرمونى ظلما وعدوانا ووافقه كثير من الذين معه وقالوا صدق فوثبوا عليه فضربوه حتى كاد أن يقتل لولا ابن أخت الملك تخلصه وافترقوا على هذه الحال ثم كان لهم مجمع ثالث بعد ثمان وخمسين سنة من المجمع الاول اجتمع الوزراء والقواد الى الملك وقالوا ان مقالة الناس قد فسدت وغلب عليهم مقالة اريوس فاكتب الى جميع البتاركة والاساقفة أن يجتمعوا ويوضحوا دين النصرانية فكتب الملك الى سائر بلاده فاجتمع بقسطنطينية مائة وخمسون اسقفا وكان مقدموهم بترك اسكندرية وبترك انطاكية وبترك بيت المقدس فنظروا فى مقالة اريوس وكان من مقالته أن روح القدس مخلوق مصنوع ليس باله فقال بترك الاسكندرية ليس لروح القدس عندنا معنى غير روح الله تعالى وليس روح الله تعالى شيأ غير حياته فاذا قلنا ان روح القدس مخلوق فقد قلنا ان روح الله مخلوق واذا قلنا ان روح الله مخلوقة فقد قلنا ان حياته مخلوقة فقد جعلناه غير حى ومن جعله غير حى كفر ومن كفر وجب عليه اللعن فلعنوا بأجمعهم اريوس وأشياخه وأتباعه والبتاركة الذين قالوا بمقالته وبينوا أن روح القدس خالق غير مخلوق اله حق من طبيعة الاب والابن جوهر واحد وطبيعة واحدة وزادوا فى الامانة التى وضعها الثلثمائة وثمانية عشر ونؤمن بروح القدس الرب المحيى الذى من الاب منبثق الذى مع الابن والاب وهو مسجود وممجد وكان فى الامانة الاولى وبروح القدس فقط وبينوا أن الاب والابن وروح القدس ثلاثة أقانيم وثلاث وجوه وثلاثة خواص وحدة فى تثليث وتثليث فى وحدة وزادوا ونقصوا فى الشريعة وأطلق بترك الاسكندرية للرهبان والاساقفة والبتاركة أكل اللحم وكانوا على مذهب مانى لا يرون أكل ذوات الارواح فانفض هذا

هو خير لكم فأخبر أن اعطاءها الفقير فى خفية خير للمنفق من اظهارها واعلانها وتأمل تقييده تعالى الاخفاء بايتاء الفقراء خاصة ولم يقل
إن تخفوها فهو خير لكم فان من الصدقة ما لم يمكن اخفاؤها كتجهيز جيش وبناء قنطرة واجراء نهر او غير ذلك وأما ايتاؤها الفقراء ففى
اخفائها من الفوائد الستر عليه وعدم تخجيله بين الناس واقامته مقام الفضيحة وان يرى الناس ان يده هى اليد السفلى وانه لا شئ له فيزهدوا
فى معاملته ومعاوضته وهذا قدر زائد من الاحسان اليه بمجرد الصدقة مع تضمنه الاخلاص وعدم المراياة وطلبهم المحمدة من الناس
وكان اخفاؤها للفقير خيرا من اظهارها بين الناس ومن هذا مدح النبى صدقة السر وأثنى على فاعلها وأخبر انه أحد السبعة
الذين هم فى ظل عرش الرحمن يوم القيامة ولهذا جعله سبحانه خيرا للمنفق وأخبر انه يكفر عنه بذلك الانفاق من سيئاته ولا يخفى عليه سبحانه أعمالكم ولا نياتكم فانه بما تعملون خبير ثم أخبر ان هذا الانفاق انما نفعه لانفسهم يعود عليهم أحوج ما كانوا اليه فكيف يبخل أحدكم عن نفسه بما نفعه مختص بها عائد اليها وان نفقة المؤمنين انما تكون ابتغاء وجهه خالصا لانها صادرة عن ايمانهم وان نفقتهم ترجع اليهم وافية كاملة ولا يظلمون منها مثقال ذرة وصدر هذا الكلام بان الله هو الهادى الموفق لمعاملته وايثار مرضاته وانه ليس على رسوله هداهم بل عليه ابلاغهم وهو سبحانه الذى يوفق من يشاء لمرضاته ثم ذكر المصرف الذى توضع فيه الصدقة فقال للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضربا فى الارض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس الحافا فوصفهم بست صفات احداها الفقر الثانية حبسهم أنفسهم فى سبيله تعالى وجهاد أعدائه ونصر دينه وأصل الحصر المنع فمنعوا أنفسهم من
تصرفها فى أشغال الدنيا وقصروها على بذلها لله وفى سبيله الثالثة عجزهم عن الاسفار للتكسب والضرب فى
الارض هو السفر قال تعالى علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون فى الارض يبتغون من فضل الله وقال واذا ضربتم فى الارض
فليس عليكم جناح ان تقصروا من الصلاة الرابعة شدة تعففهم وهو حسن صبرهم واظهارهم الغنى يحسبهم الجاهل أغنياء من تعففهم
وعدم تعرضهم وكتمانهم حاجتهم الخامسة انهم يعرفون بسيماهم وهى العلامة الدالة على حالتهم التى وصفهم الله بها وهذا لا ينافى
بحسبان الجاهل أنهم أغنياء لان الجاهل له ظاهر الامر والعارف هو المتوسم المتفرس الذى يعرف الناس بسيماهم فالمتوسمون خواص

الجمع

الجمع وقد لعنوا فيه أكثر أساقفتهم وبتاركتهم ومضوا على تلك الامانة ثم كان لهم مجمع رابع بعد احدى وخمسين سنة من هذا المجمع على نسطورس وكان مذهبه أن مريم ليست بوالدة الاله على الحقيقة ولكن ثمة اثنان الاله الذي هو موجود من الأب والآخر انسان الذي هو موجود من مريم وأن هذا الانسان الذي نقول انه المسيح متوحد مع ابن الاله وابن الاله ليس ابنا على الحقيقة ولكن على سبيل الموهبة والكرامة واتفاق الاسمين فبلغ ذلك بتاركة سائر البلاد فجرت بينهم مراسلات واتفقوا على تخطئته واجتمع منهم مائتا أسقف في مدينة افسيس وارسلوا الى نسطورس للمناظرة فامتنع ثلاث مرات فاوجبوا عليه الكفر فلعنوه ونفوه وحرموه وثبتوا أن مريم ولدت الها وان المسيح اله حق وانسان معروف بطبيعتين متوحد في الاقنوم فلما لعنوا نسطورس غضب له بترك انطاكية فجمع أساقفته الذين قدموا معه وناظرهم فقطعهم فتقاتلوا ووقع الحرب والشر بينهم وتفاقم أمرهم فلم يزل الملك حتى أصلح بينهم فكتب أولئك صحيفة بأن مريم القديسة ولدت الها وهو ربنا يسوع المسيح الذي هو مع أمه في الطبيعة ومع الناس في الناسوت وأنفذوا لعن نسطورس فلما نفي نسطورس سار الى أرض مصر وأقام باخميم سبع سنين ودفن بها ودرست مقالته الى ان أحياها ابن صرما مطران نصيبين وبثها في بلاد المشرق فاكثر نصارى العراق والمشرق نسطورية وانفض ذلك المجمع أيضا على لعن نسطورس ومن قال بقوله وكل مجامعهم كانت تجتمع على الضلال وتفترق على اللعن فلا ينفض المجمع الا وهم ما بين لاعن وملعون ثم كان لهم مجمع خامس وذلك انه كان بالقسطنطينية طبيب راهب يقال له أوطيوس يقول ان جسد المسيح ليس هو مع أجسادنا في الطبيعة وان المسيح قبل التجسد طبيعتين وبعد التجسد طبيعة واحدة وهذه مقالة اليعقوبية فرحل اليه أسقف دولته فناظره فقطعه ودحض حجته ثم صار الى قسطنطينية فاخبر بتركها بالمناظرة وبانقطاعه فارسل بترك الاسكندرية اليه فاستحضره وجمع جمعا عظيما وسأله عن قوله فقال ان قلنا ان المسيح طبيعتان فقد قلنا بقول نسطورس ولكنا نقول ان المسيح طبيعة واحدة واقنوم واحد لانه من طبيعتين كانتا قبل التجسد فلما تجسد زالت عنه الاثنينية وصار طبيعة واحدة واقنوما واحدا فقال له بترك القسطنطينية ان كان المسيح طبيعة واحدة فالطبيعة القديمة هي الطبيعة المحدثة وان كان القديم هو المحدث فالذي لم يزل هو الذي لم يكن ولو جاز أن يكون القديم هو المحدث لكان

المؤمنين قال تعالى ان في ذلك لآيات للمتوسمين السادسة تركهم مسألة الناس فلا يسألونهم والالحاف هو الالحاح والنفي منصب عليهما معا أي لا يسألون ولا يلحفون فليس يقع منهم سؤال يكون بسببه الحاف وهذا كقوله على لاحب لا يهتدى لمناره أي ليس فيه منار فيهتدى به وفيه كالتنبيه على ان المذموم من السؤال هو سؤال الالحاف فاما السؤال بقدر الضرورة من غير الحاف فالافضل تركه ولا يحرم فهذه ست صفات للمستحقين للصدقة فالغاها أكثر الناس وخطوا منها ظاهر الفقر وزيه من غير حقيقته وأما سائر الصفات المذكورة فعزيز أهلها ومن يعرفهم أعز والله يختص بتوفيقه من يشاء فهؤلاء هم المحسنون في أموالهم * القسم الثاني الظالمون وهم ضد هؤلاء وهم الذين يذبحون المحتاج المضطر فاذا دعته الحاجة اليهم لم ينفسوا كربته الا بزيادة على ما يبذلونه له وهم أهل الربا فذكرهم تعالى بعد هذا فقال يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا ان كنتم مؤمنين فصدر الآية بالامر بتقواه المضادة للربا وأمر بترك ما بقي من الربا بعد نزول الآية وعفا لهم عما قبضوه به قبل التحريم ولولا ذلك لردوا ما قبضوه به قبل التحريم وعلق هذا الامتثال على وجود الايمان منهم والمعلق على شرط منتف عند انتفائه ثم أكد عليهم التحريم باغلظ شئ وأشده وهي محاربة المرابي لله ورسوله فقال فان لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله ففي ضمن هذا الوعيد ان المرابي محارب لله ورسوله قد أذنه الله بحربه ولم يجئ هذا الوعيد في كبيرة سوى الربا وقطع الطريق والسعي في الارض بالفساد لان كل واحد منهما مفسد في الارض قاطع الطريق على الناس هذا بقهره لهم وتسلطه عليهم وهذا بامتناعه من تفريج كرباتهم الا بتحميله كربات أشد منها فاخبر عن قطاع الطريق بانهم يحاربون الله ورسوله وآذن هؤلاء ان لم يتركوا الربا بحربه وحرب رسوله ثم قال وان تبتم فلكم رؤس أموالكم يعني ان تركتم الربا وتبتم الى الله منه وقد عاقدتم عليه فانما لكم رؤس أموالكم لا تزدادون عليها فتظلمون الآخذ ولا تنقصون منها فيظلمكم من أخذها فان كان هذا القابض معسرا فالواجب انظاره الى ميسرة وان تصدقتم عليه وأبرأتموه فهو أفضل لكم وخير لكم فان أبت نفوسكم وشحت بالعدل الواجب أو الفضل المندوب فذكروها يوما ترجعون الى الله وتلقون ربكم فيوفيكم جزاء أعمالكم أحوج ما أنتم اليه فذكر سبحانه المحسن وهو المتصدق ثم عقبه بالظالم وهو المرابي ثم ذكر العادل في آية التداين فقال يا أيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الآية ولولا ان هذه الآية تستدعي

سفراوسدها الذكرت بعض تفسيرها والغرض انما هو التنبيه والاشارة وقد ذكرنا بها العادل وهو آخذ رأس ماله من غير زيادة ولا نقصان ثم نختم الـ وربع هذه الخاتمة العظيمة التي هي من كنز تحت عرشه والشيطان يفر من البيت الذي تقرأ فيه وفيها من العلوم والمعارف وقواعد الاسلام وأصول الايمان ومقامات الاحسان ما يستدعي بيانه كتابا مفردا والمقصود ذكر طبقات الخلائق في الدار الآخرة ولنعد الى المقصود فان هذا من سبي القلم ولعله أهم مما نحن بصدده فهذه الطبقات الاربعة من طبقات الامة هم أهل الاحسان والنفع المتعدي وهم العلماء وأئمة العدل وأهل الجهاد وأهل الصدقة وبذل الاموال في مرضاة الله فهؤلاء ملوك الآخرة وصحائف حسناتهم

القائم هو القاعد والحاره والبارد فأبى أن يرجع عن مقالته فلعنوه واستعدى الى الملك وزعم أنهم ظلموه وسأله أن يكتب الى جميع البتاركة للمناظرة فاستدعى الملك البتاركة والاساقفة من سائر البلاد الى مدينة افس فثبت بطريق الاسكندرية مقالة أوطيسوس وقطع بتارك القسطنطينية وانطاكية وبيت المقدس وسائر البتاركة والاساقفة وكتب الى بترك رومية والى جماعة البتاركة والاساقفة فحرمهم ومنعهم من القربان ان لم يقبلوا مقالة أوطيسوس ففسدت الامانة وصارت المقالة مقالة أوطيسوس وخاصة بمصر والاسكندرية وهو مذهب اليعقوبية فافترق هذا المجمع الخامس وهم بين لاعن وملعون وضال ومضل وقائل يقول الصواب مع اللاعنين وقائل يقول الحق مع الملاعين ثم كان لهم بعد هذا المجمع سادس في دولة مرقيون فانه اجتمع اليه الاساقفة من سائر البلاد فأعلموه ما كان من ظلم ذلك المجمع وقلة الانصار وان مقالة أوطيسوس قد غلبت على الناس وأفسدت دين النصرانية فاجتمع عنده ستمائة وثلاثون أسقفا فنظروا في مقالة أوطيسوس وبترك الاسكندرية التي قطع بها جميع البتاركة فأفسدوا مقالتهما ولعنوهما وأثبتوا أن المسيح اله وانسان ومع الله في اللاهوت ومعنا في الناسوت له طبيعتان تامتان فهو تام باللاهوت تام بالناسوت وهو مسيح واحد وثبتوا قول الثلثمائة وثمانية عشر اسقفا وقبلوا قولهم بأن الابن مع الله في المكان وانه اله حق من اله حق ولعنوا اريوس وقالوا ان روح القدس اله وقالوا ان الاب والابن وروح القدس واحد بطبيعة واحدة وأقانيم ثلاثة وثبتوا قول أهل المجمع الثالث وقالوا ان مريم العذراء ولدت الها ربنا يسوع المسيح الذي هو مع الله في الطبيعة ومعنا في الناسوت وقالوا ان المسيح طبيعتان واقنوم واحد ولعنوا نسطورس وبترك الاسكندرية فانفض هذا المجمع وهم بين لاعن وملعون ثم كان لهم بعد هذا مجمع سابع في أيام انسطاس الملك وذلك ان سورس القسطنطيني جاء الى الملك فقال ان أصحاب ذلك المجمع الستمائة وثلاثين قد أخطؤا والصواب ما قاله أوطيسوس وبترك الاسكندرية فلا تقبل ممن سواهما واكتب الى جميع بلادك أن العنوا الستمائة وثلاثين وان يأخذوا الناس بطبيعة واحدة ومشيئة واحدة واقنوم واحد فأجابه الملك الى ذلك فلما بلغ بترك بيت المقدس جمع الرهبان فلعنوا انسطاس الملك وسورس ومن يقول بمقالتهما فبلغ ذلك الملك فغضب وبعث فنفى البترك الى ايلة وبعث يوحنا بتركا على بيت المقدس لانه كان قد ضمن للملك أن يلعن الستمائة وثلاثين فلما قدم الى بيت

المقدس

متزايدة تمل فيها الحسنات وهم في بطون الارض ما دامت آثارهم في الدنيا فيالها من نعمة ما أجلها وكرامة ما أعظمها يختص الله بها من يشاء من عباده * الطبقة الثامنة من فتح الله له بابا من أبواب الخير القاصر على نفسه كالصلاة والحج والعمرة وقراءة القرآن والصوم والاعتكاف والذكر ونحوها مضافا الى أداء فرائض الله عليه فهو جاهد في تكثير حسناته واملاء صحيفته واذا عمل خطيئة تاب الى الله منها فهذا على خير عظيم وله ثواب أمثاله من أعمال الآخرة ولكن ليس له الا عمله فاذا مات طويت صحيفته فهذه طبقة أهل الربح والحظوة أيضا عند الله * الطبقة التاسعة طبقة أهل النجاة وهي طبقة من يؤدي فرائض الله ويترك محارم الله مقتصرا على ذلك لا يزيد عليه ولا ينقص منه فلا يتعدى الى ما حرم الله عليه ولا يزيد على ما فرض عليه هذا من المفلحين بضمان رسول الله ان أخبره بشرائع الاسلام فقال والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه فقال أفلح ان صدق وأصحاب هذه الطبقة مضمون لهم على الله تكفير سيئاتهم اذا أدوا فرائضه واجتنبوا كبائر ما نهاهم عنه قال تعالى ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما وصح عنه صلى الله عليه وسلم انه قال الصلوات الخمس ورمضان الى رمضان والجمعة الى الجمعة مكفرات لما بينهن ما لم تغش كبيرة فان غشي أهل هذه الطبقة كبيرة وتابوا منها توبة نصوحا لم يخرجوا من طبقتهم وكانوا بمنزلة من لا ذنب له فتكفير الصغائر يقع بشيئين أحدهما الحسنات الماحية والثاني اجتناب الكبائر وقد نص عليهما سبحانه في كتابه فقال وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل ان الحسنات يذهبن السيئات وقال ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم * الطبقة العاشرة طبقة قوم أسرفوا على أنفسهم وغشوا كبائر ما نهى الله عنه ولكن رزقهم

[...] نصوح قبل الموت فنالوا على توبة نصيحة فهؤلاء ناجون من عذاب الله اما قطعا عند قوم واما رجاء وظنا عند آخرين وهم موكولون الى المشيئة ولكن نصوص القرآن والسنة تدل على نجاتهم وقبول توبتهم وهو وعد وعدهم الله اياه والله لا يخلف الميعاد فان قيل فما الفرق بين أهل هذه الطبقة والتي قبلها فان الله اذا كفر عنهم سيئاتهم وأثبت لهم بكل سيئة حسنة كانوا كمن قبلهم أو أرجح قيل قد تقدم الكلام على هذه المسألة بما فيه كفاية فعليك بمعاودته هنالك وكيف يستوي عند الله من أنفق عمره في طاعته ولم يغش كبيرة ومن لم يدع كبيرة الا ارتكبها وفرط في أوامره ثم تاب فهذا غايته ان تمحى سيئاته ويكون لا له ولا عليه واما أن يكون هو ومن قبله سواء أو أرجح منه فكلا الطبقة الحادية عشر طبقة أقوام خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا فعملوا حسنات وكبائر ولقوا الله مصرين عليها غير تائبين منها لكن حسناتهم أغلب من سيئاتهم فاذا وزنت بها رجحت كفة الحسنات فهؤلاء أيضا ناجون فائزون قال تعالى والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون قال حذيفة وعبد الله بن مسعود وغيرهما من الصحابة يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف فمن رجحت حسناته على سيئاته بواحدة دخل الجنة ومن رجحت سيئاته على حسناته بواحدة دخل النار ومن استوت حسناته وسيئاته فهو من أهل الاعراف وهذه الموازنة تكون بعد القصاص واستيفاء المظلومين حقوقهم من حسناته فاذا بقي شيء منها وزن هو وسيئاته ولكن هنا مسألة وهي اذا وزنت السيئات بالحسنات فرجحت الحسنات هل يلغى المرجوح جملة ويصير الأثر للراجح فيثاب على حسناته كلها أو يسقط من الحسنات ما قابلها من السيئات المرجوحة ويبقى التأثير للرجحان فيثاب عليه وحده فيه قولان هذا عند من يقول بالموازنة والحكمة وأما من ينفي ذلك فلا عبرة عنده بهذا وانما هو موكول الى محض المشيئة وعلى القول الاول فيذهب أثر السيئات جملة

المقدس اجتمع الرهبان وقالوا اياك أن تقتل سورس ولكن قاتل عن الستمائة وثلاثين ونحن معك ففعل وخالف الملك فلما بلغه أرسل قائدا وأمره أن يأخذ يوحنا بلعنة أولئك فان لم يفعل أزاله عن الكرسي ونفاه فقدم القائد وطرح يوحنا في الحبس فصار اليه الرهبان في الحبس وأشاروا عليه بان يضمن للقائد أن يفعل ذلك فاذا حضر فليقر بلعنة كل من لعنه الرهبان فاجتمع الرهبان فكانوا عشرة آلاف راهب فلعنوا أوطيوس ونسطورس وسورس ومن لا يقبل من أولئك الستمائة وثلاثين ففزع رسول الملك من الرهبان وبلغ ذلك الملك وهم بنفي يوحنا فاجتمع الرهبان والاساقفة فكتبوا الى الملك انهم لا يقبلون مقالة سورس ولو اريقت دماؤهم وسألوه أن يكف أذاه عنهم وكتب بترك رومية الى الملك بقبح فعله وبلعنه فانفض هذا الجمع على اللعنة أيضا وكان لسورس تلميذ يقال له يعقوب البراذعي لانه كان يلبس من قطع براذع الدواب يرقع بعضها ببعض واليه ينسب اليعاقبة فافسد أمانة القوم ثم هلك انسطاس الملك وولي بعده قسطنطين فرد كل من نفاه انسطاس الى موضعه وكتب الى بيت المقدس بامانته فاجتمع الرهبان وأظهروا كتابه وفرحوا به وأثبتوا قول الستمائة وثلاثين اسقفا وغلبت اليعقوبية على الاسكندرية وقتلوا بتركا لهم يقال له بولس وكان ملكانيا فولي الملك اسطيانوس فارسل قائدا ومعه عسكر عظيم الى الاسكندرية فدخل الكنيسة في ثياب البتركة وتقدم وقدس فرموه بالحجارة حتى كادوا يقتلونه فانصرف وتوارى لهم ثم ظهر لهم بعد ثلاثة أيام انه أتاه كتاب من الملك وأمر الحرس أن يجمعوا الناس لسماعه فلم يبق أحد بالاسكندرية حتى حضر لسماعه وكان قد جعل بينه وبين جنده علامة اذا هو فعلها وضعوا السيف في الناس فصعد المنبر وقال يا معشر أهل الاسكندرية ان رجعتم الى الحق وتركتم مقالة اليعاقبة والا لم تأمنوا أن يوجه الملك اليكم من يسفك دماءكم فرموه بالحجارة حتى خاف على نفسه فأظهر العلامة فوضعوا السيوف على من بالكنيسة فقتل خلق لا يحصيهم الا الله تعالى حتى خاض الجند في الدماء وظهرت مقالة الملكانية بالاسكندرية ثم كان لهم بعد ذلك مجمع ثامن وذلك ان أسقف منبج كان يقول بالتناسخ وانه ليس ثمة قيامة ولا بعث وكان أسقف الرها وأسقف المصيصة وأسقف ثالث يقولون ان جسد المسيح خيال غير حقيقة فحشرهم الملك الى قسطنطينية فقال لهم بتركها ان كان جسده خيالا فيجب أن يكون فعله خيالا وقوله خيالا وكل جسد تعاينه لاحد من الناس أو فعل أو قول فهو كذلك وقال له ان المسيح قد قام من الموتى وأعلمنا انه كذلك يقوم الناس يوم الدين واحتج بنصوص من الانجيل كقوله ان كل من في القبور اذا سمعوا قول الله سبحانه يحيون فأوجب عليهم اللعن وأمر الملك أن يكون لهم مجمع يلعنوا فيه واستحضر بتاركة البلاد فاجتمع عنده مائة وأربعة وستون اسقفا فلعنوا أسقف منبج وأسقف المصيصة وثبتوا

على ان جسد المسيح حقيقة لاخيال وانه اله تام وانسان تام معروف بطبيعتين ومشيئتين وفعلين أقنوم واحد وان الدنيا زائلة وان القيامة كائنة وان المسيح باق يجيء بعد عظيم فتسد بن الأحياء والأموات كما قال الثلثمائة وثمانية عشر الاوائل فتبردوا الى ذلك ثم كان لهم مجمع تاسع على عهد معاوية رضي الله عنه تلاعنوا فيه وذلك أنه كان بروميه راهب له تلميذان فجاء الى قسطا الوالي فوبخه على قبح مذهبه وشناعة كفره فأمر به فبدا فقطعت يداه ورجلاه ونزع لسانه وفعل بأحد التلميذين كذلك وضرب الآخر بالسياط ونفاه فبلغ ذلك ملك قسطنطينية فأرسل اليه أن يوجه اليه من أفاضل الاساقفة ليعلم وجه هذه الشبهة ومن كان ابتداءها ويعلم من يستحق اللعن فبعث اليه مائة وأربعين أسقفا وثلثمائة شماس فلما وصلوا اليه جمع الملك مائة وثمانية وستين أسقفا فصاروا مائتين واثنين وتسعين وأسقطوا الشمامسة وكان رئيس هذا المجمع بترك قسطنطينية وبترك انطاكية فلعنوا من تقدم من القديسين والبتاركة واحدا واحدا فلما لعنوهم جلسوا فلخصوا الامانة وزادوا فيها ونقصوا فقالوا نؤمن بأن الواحد من الناسوت الابن الوحيد الذي هو الكلمة الازلية الدائم المستوي مع الاب الاله في الجوهر الذي هو ربنا أيسوع المسيح بطبيعتين تامتين وفعلين ومشيئتين في أقنوم واحد ووجه واحد تاما بلاهوته تاما بناسوته وشهدت ان الاله الابن في آخر الايام اتخذ من العذراء السيدة مريم القديسة جسدا انسانا بنفس ناطقة عقلية وذلك برحمة الله تعالى محب البشر ولم يلحقه اختلاط ولا فساد ولا فرقة ولا فصل ولكن هو واحد يعمل بما يشبه الانسان أن يعمل في طبيعته وما يشبه الاله أن يعمله في طبيعته الذي هو الابن الوحيد والكلمة الازلية المتجسدة التي صارت في الحقيقة لحما كما يقول الانجيل المقدس من غير أن ينتقل من مجده الازلي وليست بمتغيرة لكنها بفعلين ومشيئتين وطبيعتين الهي وانسي الذي بهما يكمل قول الحق وكل واحدة من الطبيعتين تعمل مع شركة صاحبتها مشيئتين غير متضادتين ولا متصارعتين ولكن مع المشيئة الانسية المشيئة الالهية القادرة على كل شيء هذه أمانة هذا المجمع فوضعوها ولعنوا من لعنوه وبين المجمع الخامس الذي اجتمع فيه الستمائة والثلاثون وبين هذا المجمع مائة سنة ثم كان لهم مجمع عاشر وذلك لما مات الملك وولي ابنه بعده فاجتمع أهل المجمع السادس وزعموا ان اجتماعهم كان على الباطل فجمع الملك مائة وثلاثين أسقفا فثبتوا قول أهل المجامع الخمسة ولعنوا من لعنهم وخالفهم وانصرفوا بين لاعن وملعون فهذه عشرة مجامع كبار من مجامعهم مشهورة اشتملت على أكثر من أربعة عشر ألفا من البتاركة والاساقفة والرهبان كلهم ما بين لاعن وملعون فهذه حال المتقدمين مع قرب زمانهم من أيام المسيح ووجود أخباره فيهم والدولة دولتهم والكلمة كلمتهم وعلماؤهم اذ ذاك أوفر ما كانوا واهتمامهم بأمر دينهم واحتفالهم به كما ترى وهم

ياستنتلف الرجحه وعلى القول الثاني يقول تأثيرها في نقصان ثوابه لا في حصول العقابه ويترجح هنا القول الثاني بأن السيئات لو تحبط ما قبلها من الحسنات وكان العمل والتأثير للحسنات كلها لم يكن فرق بين وجودها وعدمها ولكان لا فرق بين المحسن الذي معظم عمله حسنات وبين من خلط عملا صالحا وآخر سيئا وقد يجاب عن هذا بأنها أثرت في نقصان ثوابه ولا بد فانه لو اشتغل في زمن ايقاعها بالحسنات لكان أرفع لدرجته وأعظم لثوابه واذا كان كذلك فقد ترجح القول الاول بان الحسنات لما غلبت السيئات ضعف تأثير المغلوب المرجوح وصار الحكم للغالب دونه لاستهلاكه في جنبه كما يستهلك يسير النجاسة في الماء الكثير والماء اذا بلغ قلتين لم يحمل الخبث والله أعلم الطبقة الثانية عشر قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم فتقابل أثراهما فتقاوما فمنعتهم حسناتهم المساوية من دخول النار وسيئاتهم المساوية من دخول الجنة فهؤلاء هم أهل الاعراف لم يفضل لاحدهم حسنة يستحق بها الرحمة من ربه ولم يفضل عليه سيئة يستحق بها العذاب وقد وصف الله سبحانه أهل هذه الطبقة في سورة الاعراف بعد ان ذكر دخول أهل النار وتلاعنهم فيها ومخاطبة اتباعهم لرؤسائهم وردهم عليهم ثم مناداة أهل الجنة أهل النار فقال تعالى وبينهما حجاب وعلى الاعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون واذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين فقوله تعالى وبينهما حجاب أي بين أهل الجنة والنار حجاب قيل هو السور الذي يضرب بينهم له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب باطنه الذي يلي المؤمنين فيه الرحمة وظاهره الذي يلي الكفار من جهته العذاب والاعراف جمع عرف وهو المكان المرتفع وهو سور عال بين الجنة والنار عليه أهل الاعراف قال حذيفة وعبد الله بن عباس هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فقصرت بهم سيئاتهم عن الجنة وتجاوزت بهم حسناتهم عن النار فوقفوا هنالك حتى يقضي الله فيهم ما يشاء ثم

حيارى تائهون ضالون مضلون لا يثبت لهم قدم ولا يستقر لهم قول في الههم بل كل منهم قد اتخذ الهه هواه وصرح بالكفر والتبري ممن اتبع سواه قد تفرقت بهم في نبيهم والههم الاقاويل وهم كما قال الله تعالى قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل فلو سألت أهل البيت عن دينهم ومعتقدهم في ربهم ونبيهم لاجابك الرجل بجواب وامرأته بجواب وابنه بجواب والخادم بجواب فما ظنك بمن في عصرنا هذا وهم نخالة الماضين وزبالة الغابرين وبقاية المتحيرين وقد طال عليهم الامد وبعد عهدهم بالمسيح ودينه وهؤلاء هم الذين أوجبوا لاعداء الرسل من الفلاسفة والملاحدة أن يتمسكوا بما هم عليه فانهم شرحوا لهم دينهم الذي جاء به المسيح على هذا الوجه ولا ريب أن هذا دين لا يقبله عاقل فتواصى أولئك بينهم أن يتمسكوا بما هم عليه وساءت ظنونهم بالرسل والكتب ورأوا أن ما هم عليه من الآراء أقرب الى المعقول من هذا الدين وقال لهم هؤلاء الحيارى الضلال ان هذا هو الحق الذي جاء به المسيح فتركب من هذين الظنين الفاسدين اساءة الظن بالرسل واحسان الظن بما هم عليه ولهذا قال بعض ملوك الهند وقد ذكرت له الملل الثلاث فقال أما النصارى فان كان محاربوهم من أهل الملل يحاربونهم بحكم شرعي فاني أرى ذلك بحكم عقلي وان كنا لا نرى بحكم عقولنا قتالا ولكن استثني هؤلاء القوم من بين جميع العوالم لانهم قصدوا مضادة العقل وناصبوه العداوة وتحلوا ببيت الاستحالات وحادوا عن المسلك الذي انتهجه غيرهم من أهل الشرائع فشذوا عن جميع مناهج العالم الصالحة العقلية والشرعية واعتقدوا كل مستحيل ممكنا وبنوا على ذلك شريعة لا تؤدي البتة الى صلاح نوع من أنواع العالم الا انها تصير العاقل اذا تشرع بها أخرق والرشيد سفيها والمحسن مسيئا لان من كان أصل عقيدته التي جرى نشوه عليها الاساءة الى الخالق والنيل منه ووصفه بضد صفاته الحسنى فأخلق به أن يستسهل الاساءة الى مخلوق مع ما بلغنا عنهم من الجهل وضعف العقل وقلة الحياء وخساسة الهمة فهذا وقد ظهر له من باطلهم وضلالهم غيض من فيض وكانوا اذ ذاك أقرب عهدا بالنبوة وقال أفلاطون رئيس سدنة الهيا كل بمصر وليس بأفلاطون تلميذ سقراط ذاك أقدم من هذا لما ظهر محمد عليه السلام بتهامة ورأينا أمره يعلو على الأمم المجاورة له رأينا أن نقصد اصطمر البابلي لنعلم ما عنده ونأخذ برأيه فلما اجتمعنا على الخروج من مصر رأينا ان نصير الى قراطيس معلمنا وحكيمنا لنودعه فلما دخلنا عليه ورأى جمعنا أيقن ان الهيا كل قد خلت منا فغشي عليه حينا غشية ظننا أنه فارق الحياة فيها فبكينا فأومأ الينا أن كفوا عن البكاء فتصبرنا جهدنا حتى هدأ وفتح عينيه وقال هذا ما كنت أنهاكم عنه وأحذركم منه انكم قوم غيرتم فغير بكم أطعتم جهالا من ملوككم فغلطوا عليكم في الادعية فقصدتم البشر من التعظيم بما هو للخالق وحده فكنتم في ذلك كمن أعطى القلم مدح الكاتب وانما حركة القلم بالكاتب

ثقلت موازينه فاولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فاولئك الذين خسروا أنفسهم ثم قال ان الميزان يخف بمثقال حبة أو يرجح قال ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الاعراف فوقفوا على الصراط ثم عرفوا أهل الجنة وأهل النار فاذا نظروا الى الجنة نادوا سلام عليكم واذا صرفوا أبصارهم الى أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين فأما أصحاب الحسنات فانهم يعطون نورا يمشون به بين أيديهم وبأيمانهم ويعطى كل عبد يومئذ نورا فاذا أتوا على الصراط سلب الله تعالى نور كل منافق ومنافقة فلما رأى أهل الجنة ما لقي المنافقون قالوا ربنا أتمم لنا نورنا وأما أصحاب الاعراف فان النور لم ينزع من أيديهم فيقول انه لم يدخلوها وهم يطمعون فكان الطمع للنور الذي في أيديهم ثم ادخلوا الجنة وكانوا آخر أهل الجنة دخولا يريد آخر أهل الجنة دخولا ممن لم يدخل النار وقيل هم قوم خرجوا في الغزو بغير اذن آبائهم فقتلوا فاعتقوا من النار لقتلهم في سبيل الله وحبسوا عن الجنة لمعصية آبائهم وهذا من جنس القول الاول وقيل هم قوم رضي عنهم أحد الابوين دون الآخر يحبسون على الاعراف حتى يقضي الله بين الناس ثم يدخلهم الجنة وهي من جنس ما قبله فلا تناقض بينهما وقيل هم أصحاب الفترة وأطفال المشركين وقيل هم أولو الفضل من المؤمنين علوا على الاعراف فيطلعون على أهل النار وأهل الجنة جميعا وقيل هم الملائكة لا من بني آدم والثابت عن الصحابة هو القول الاول وقد رويت فيه آثار كثيرة مرفوعة لا تكاد تثبت أسانيدها وآثار الصحابة في ذلك المعتمدة وقد اختلف في تفسير الصحابي هل له حكم المرفوع أو الموقوف على قولين الاول اختيار أبي عبد الله الحاكم والثاني هو الصواب ولا نقول على رسول الله ما لم نعلم انه قاله وقوله تعالى وعلى

ومن المعلوم أن هذه الأمة ارتكبت محذورين عظيمين لا يرضى بهما ذو عقل ولا معرفة أحدهما الغلو في المخلوق حتى جعلوه شريك الخالق وجزأ منه وإلها آخر معه وأنفوا أن يكون عبدا له والثاني تنقص الخالق وسبه ورميه بالعظائم حيث زعموا أنه سبحانه وتعالى عن قولهم علوا كبيرا نزل من العرش عن كرسي عظمته ودخل في فرج امرأة وأقام هناك تسعة أشهر يتخبط بين البول والدم والنجو وقد علته أطباق المشيمة والرحم والبطن ثم خرج من حيث دخل رضيعا صغيرا يمص الثدي ولف في القمط وأودع السرير يبكي ويجوع ويعطش ويبول ويتغوط ويحمل على الأيدي والعواتق ثم صار إلى أن لطمت اليهود خديه وربطوا يديه وبصقوا في وجهه وصفعوا قفاه وصلبوه جهرا بين لصين وألبسوه إكليلا من الشوك وسمروا يديه ورجليه وجرعوه أعظم الآلام هذا وهو الإله الحق الذي بيده أتقنت العوالم وهو المعبود المسجود له ولعمر الله إن هذه مسبة لله سبحانه ما سبه بها أحد من البشر قبلهم ولا بعدهم كما قال تعالى فيما يحكي عنه رسوله الذي نزهه ونزه أخاه المسيح عن هذا الباطل الذي تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا فقال شتمني ابن آدم وما ينبغي له ذلك وكذبني ابن آدم وما ينبغي له ذلك أما شتمه إياي فقوله اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد الذي لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفوا أحد وأما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه في هذه الأمة أهينوهم ولا تظلموهم فلقد سبوا الله عز وجل مسبة ما سبه إياها أحد من البشر ولعمر الله إن عباد الأصنام مع أنهم أعداء الله عز وجل على الحقيقة وأعداء رسله عليهم السلام وأشد الكفار كفرا يأنفون أن يصفوا آلهتهم التي يعبدونها من دون الله تعالى وهي من الحجارة والحديد والخشب بمثل ما وصفت به هذه الأمة رب العالمين وإله السموات والأرضين وكان الله تعالى في قلوبهم أجل وأعظم من أن يصفوه بذلك أو بما يقاربه وإنما شرك القوم أنهم عبدوا من دونه آلهة مخلوقة مربوبة محدثة وزعموا أنها تقربهم إليه لم يجعلوا شيأ من آلهتهم كفوا له ولا نظيرا ولا ولدا ولم ينالوا من الرب تعالى ما نالت منه هذه الأمة وعذرهم في ذلك أقبح من قولهم فإن أصل معتقدهم أن أرواح الأنبياء عليهم السلام كانت في الجحيم في سجن إبليس من عهد آدم إلى زمن المسيح فكان إبراهيم وموسى ونوح وصالح وهود معذبين مسجونين في النار بسبب خطيئة آدم عليه السلام وأكله من الشجرة وكان كلما مات واحد من بني آدم أخذه إبليس وسجنه في النار بذنب أبيه ثم إن الله سبحانه وتعالى لما أراد رحمتهم وخلاصهم من العذاب تحيل على إبليس بحيلة فنزل عن كرسي عظمته والتحم ببطن مريم حتى ولد وكبر وصار رجلا فمكن أعداءه اليهود من نفسه حتى صلبوه وسمروه وتوجوه بالشوك على رأسه فخلص أنبياءه ورسله وفداهم بنفسه ودمه فهرق دمه في مرضاة جميع ولد آدم

الأعراف فنزل بالصريح في أنهم من بني آدم ليسوا من الملائكة وقوله يعرفون كلا بسيماهم أي يعرفون الفريقين بسيماهم ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم أي نادى أهل الأعراف أهل الجنة بالسلام وقوله لم يدخلوها وهم يطمعون الضميران في الجملتين لأصحاب الأعراف لم يدخلوا الجنة بعد وهم يطمعون في دخولها قال أبو العالية ما جعل الله ذلك الطمع فيهم إلا كرامة يريدها بهم وقال الحسن الذي جعل الطمع في قلوبهم يوصلهم إلى ما يطمعون وفي هذا رد على قول من قال إنهم أفاضل المؤمنين علوا على الأعراف يطالعون أحوال الفريقين فعاد الصواب إلى تفسير الصحابة وهم أعلم الأمة بكتاب الله ومراده منه ثم قال تعالى وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين هذا دليل على أنه مكان مرتفع بين الجنة والنار فإذا أشرفوا على أهل الجنة نادوهم بالسلام وطمعوا في الدخول إليها وإذا أشرفوا على النار سألوا الله أن لا يجعلهم معهم ثم قال ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم يعني من الكفار الذين في النار فقالوا لهم ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون يعني ما نفعكم جمعكم وعشيرتكم وتجبركم على الخلق ولا استكباركم وهذا إما نفي وإما استفهام وتوبيخ وهو أبلغ وأفحم ثم نظروا إلى الجنة فرأوا من الضعفاء الذين كان الكفار يستذلونهم في الدنيا ويزعمون أن الله لا يختصهم دونهم بفضله كما لم يختصهم دونهم في الدنيا فيقول لهم أهل الأعراف أهؤلاء الذين أقسمتم أيها المشركون أن الله تعالى لا ينالهم برحمة فهاهم في الجنة يتمتعون ويتنعمون وفي رياضها يحبرون ثم يقال لأهل الأعراف ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون وقيل إن أصحاب الأعراف إذا عيروا الكفار وأخبروهم أنهم لم يغن عنهم جمعهم اذ واستكبارهم عيرهم الكفار بتخلفهم عن الجنة وأقسموا أن الله لا ينالهم برحمة لما رأوا من تخلفهم عن الجنة وأنهم يصيرون إلى النار فتقول لهم الملائكة حينئذ أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون والقولان قويان محتملان

اذ كان ذنبه باقيا فى أعناق جميعهم فخلصهم منه بان مكن أعداءه من صلبه وتسميره وصفعه الا من أنكر صلبه أوشك فيه أوقال بان الاله يجل عن ذلك فهو فى سجن ابليس معذب حتى يقر بذلك وان الهه صلب وصفع وسمر فنسبوا الاله الحق سبحانه الى ما يأنف اسقط الناس وأقلهم أن يفعل بمملوكه وعبده والى ما يأنف عباد الأصنام أن ينسب اليه أوثانهم وكذبوا الله عز وجل فى كونه تاب على آدم عليه السلام وغفر له خطيئته ونسبوه الى اقبح الظلم حيث زعموا أنه سجن أنبياءه ورسله وأولياءه فى الجحيم بسبب خطيئة أبيهم ونسبوه الى غاية السفه حيث خلصهم من العذاب بتمكينه أعداءه من نفسه حتى قتلوه وصلبوه وأراقوا دمه ونسبوه الى غاية العجز حيث عجزوه أن يخلصهم بقدرته من غير هذه الحيلة ونسبوه الى غاية النقص حيث سلط أعداءه على نفسه وابنه ففعلوا به ما فعلوا وبالجملة فلا نعلم أمة من الأمم سبت ربها ومعبودها والهها بما سبت به هذه الأمة كما قال عمر رضى الله عنه انهم سبوا الله مسبة ما سبه اياها أحد من البشر وكان بعض أئمة الاسلام اذا رأى صليبا أغمض عينه عنه وقال لا أستطيع أملأ عينى ممن سب الهه ومعبوده باقبح السب ولهذا قال عقلاء الملوك ان جهاد هؤلاء واجب شرعا وعقلا فانهم عار على بنى آدم مفسدون للعقول والشرائع وأما شريعتهم ودينهم فليسوا متمسكين بشئ من شريعة المسيح ولا دينه البتة فاول ذلك أمر القبلة فانهم ابتدعوا الصلاة الى مطلع الشمس مع علمهم ان المسيح عليه السلام لم يصل الى المشرق أصلا بل قد نقل مؤرخوهم أن ذلك حدث بعد المسيح بنحو ثلثمائة سنة والا فالمسيح انما كان يصلى الى قبلة بيت المقدس وهى قبلة الانبياء قبله واليها كان يصلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مدة مقامه بمكة وبعد هجرته ثمانية عشر شهرا ثم نقله الله تعالى الى قبلة أبيه ابراهيم ومن ذلك أن طوائف منهم وهم الروم وغيرهم لا يرون الاستنجاء بالماء فيبول أحدهم ويتغوط ويقوم باثر البول والغائط الى صلاته بتلك الرائحة فيستقبل الشرق ويصلب على وجهه ويحدث من يليه بانواع الحديث كذبا كان أو فجورا أو غيبة أو سبا وشتما ويخبره بسعر الخمر ولحم الخنزير وما شاكل ذلك فى الصلاة ولا يبطلها وان دعته الحاجة الى البول فى الصلاة بال وهو يصلى صلاته وكل عاقل يعلم أن مواجهة اله العالمين بهذه العبادة قبيح جدا وصاحبها الى استحقاق غضبه وعقابه أقرب منه الى الرضا والثواب ومن العجب أنهم يقرؤن فى التوراة ملعون من تعلق بالصليب وهم قد جعلوا شعار دينهم ما يلعنون عليه ولو كان لهم أدنى عقل لكان الاولى بهم أن يحرقوا الصليب حيث وجدوه ويكسروه ويضمخوه بالنجاسة فانه قد صلب عليه الههم ومعبودهم بزعمهم وأهين عليه وفضح وخزى فيا للعجب باى وجه بعد هذا يستحق الصليب التعظيم لولا ان القوم أضل من الأنعام وتعظيمهم للصليب مما ابتدعوه فى دين المسيح بعده بزمان ولا ذكر له فى الانجيل البتة وانما ذكر فى التوراة

والله أعلم فهؤلاء الطبقات هم أهل الجنة الذين لم تمسهم النار الطبقة الثالثة عشر طبقة أهل المحنة والبلية نعوذ بالله وان كانت آخرتهم الى عفو وخير وهم قوم مسلمون خفت موازينهم ورجحت سيئاتهم على حسناتهم فغلبتها السيئات فهذه الطبقة التى اختلفت فيها أقاويل الناس وكثر فيها خوضهم وتشعبت مذاهبهم وتشتت آراؤهم فطائفة كفرتهم وأوجبت لهم الخلود فى النار وهذا مذهب أكثر الخوارج بل يكفرون من هو أحسن حالا منهم وهو مرتكب الكبيرة الذى لم يتب منها ولو استغرقتها حسناته وطائفة أوجبت لهم الخلود فى النار ولم تطلق عليهم اسم الكفر بل سموهم منافقين وهذا المذهب ينسب الى البكرية أتباع بكر ابن أخت عبد الواحد وطائفة نزلتهم منزلة بين منزلة الكفار والمؤمنين فجعلوا أقسام الخلق ثلاثة مؤمنين وكفارا وقسما لا مؤمنين ولا كفارا بل بينهما واوجبت لهم الخلود فى النار وهذا هو الرأى الذى عليه أهل الاعتزال وهو أحد أصولهم الخمس التى هى قواعد مذهبهم وهى التوحيد الذى مضمونه جحد صفات الخالق ونعوت كماله والتعطيل المحض والعدل الذى مضمونه نفى عموم قدرة الله وانه لا قدرة له على أفعال الحيوانات بل هى خارجة عن ملكه وخلقه وقدرته وانه يريد ما لا يكون ويكون ما لا يريد فانه لا يقدر أن يهدى ضالا ولا يضل مهتديا ولا يجعل المصلى مصليا والذاكر ذاكرا والطائف طائفا تعالى الله عن افكهم وشركهم علوا كبيرا والمنزلة بين المنزلتين التى مضمونها ايجاب القول بالنار للمسلم المبالغ فى طاعة ربه الذى أفنى عمره فى عبادته وطاعته ومات مصرا على كبيرة واحدة تعالى الله عما نسبوه اليه من ذلك وجل عن هذا الافتراء والامر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى مضمونه الخروج على أئمة الجور بالسيف وخلع اليد من طاعتهم ومفارقة جماعة المسلمين والاصل الخامس النبوة مع انهم لم يوفوها حقها بل هضموها غاية الهضم من وجوه كثيرة ليس هذا موضعها والمقصود ان مذهبهم تخليد هذه الطبقة فى النار وان لم يسموهم كفارا فوافقوا الخوارج فى الحكم وخالفوهم فى الاسم ولهذا تسمى

باللعن لمن تعلق به فاتخذته هذه الأمة معبودا يسجدون له واذا اجتهد أحدهم في اليمين بحيث لا يحنث ولا يكذب حلف بالصليب و يكذب اذا حلف بالله ولا يكذب اذا حلف بالصليب ولو كان لهذه الأمة أدنى مسكة من عقل لكان ينبغي لهم أن يلعنوا الصليب من أجل معبودهم وإلههم حين صلب عليه كما قالوا ان الارض لعنت من أجل آدم حين أخطأ وكما لعنت الارض حين قتل قابيل أخاه وكما في الانجيل إن اللعنة تنزل على الارض اذ كان أمراؤها الصبيان فلو عقلوا لكان ينبغي لهم أن لا يحملوا صليبا ولا يمسوه بأيديهم ولا يذكروه بألسنتهم واذا ذكر لهم سدوا مسامعهم من ذكره ولقد صدق القائل عدو عاقل خير من صديق أحمق لانهم بحمقهم قصدوا تعظيم المسيح فاجتهدوا في ذمه وتنقصه والازدراء به والطعن عليه وكان مقصودهم بذلك التشنيع على اليهود وتنفير الناس عنهم واغراءهم بهم فنفروا الامم عن النصرانية وعن المسيح ودينه أعظم تنفير وعلموا أن الدين لا يقوم بذلك فوضع لهم رهبانهم وأساقفتهم من الحيل والمخارق وأنواع الشعبذة مما استمالوا به الجهال وربطوهم به وهم يستجيزون ذلك و يستحسنونه و يقولون يشد دين النصرانية وكأنهم انما عظموا الصليب لما رأوه قد ثبت لصلب إلههم ولم ينشق ولم يتطاير ولم يتكسر من هيبته لما حمل عليه وقد ذكروا ان الشمس اسودت وتغيرت حال السماء والارض فلما لم يتغير الصليب ولم يتطاير استحق عندهم التعظيم وأن يعبد ولقد قال بعض عقلائهم إن تعظيمنا للصليب جار مجرى تعظيم قبور الأنبياء فانه كان قبر المسيح وهو عليه ثم لما دفن صار قبره في الارض وليس وراء هذا الحمق حمق فان السجود لقبور الأنبياء وعبادتها شرك بل من أعظم الشرك وقد لعن امام الحنفاء وخاتم الانبياء صلى الله تعالى عليه وسلم اليهود والنصارى حيث اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد وأصل الشرك وعبادة الأوثان من العكوف على القبور واتخاذها مساجد ثم يقال فأنتم تعظمون كل صليب لا تخصون التعظيم بذلك الصليب بعينه فان قلتم الصليب من حيث هو يذكر بالصليب الذي صلب عليه إلهنا قلنا وكذلك الحفر يذكر بحفرته فعظموا كل حفرة واسجدوا لها لانها حفرته أيضا بل أولى لان خشبة الصليب لم يستقر عليها استقراره في الحفرة ثم يقال اليد التي مسته أولى أن تعظم من الصليب فعظموا أيدي اليهود لمسهم اياه وامساكهم له ثم انقلوا ذلك التعظيم الى سائر الأيدي فان قلتم منع من ذلك مانع العداوة فعندكم انه هو الذي رضي بذلك واختاره ولو لم يرض به لم يصلوا اليه منه فعلى هذا فينبغي لكم أن تشكروهم وتحمدوهم اذ فعلوا مرضاته واختياره الذي كان سبب خلاص جميع الأنبياء والمؤمنين والقديسين من الجحيم ومن سجن ابليس فما أعظم منة اليهود عليكم وعلى آبائكم وعلى سائر النبيين من لدن آدم عليه السلام الى زمن المسيح والمقصود أن هذه الأمة جمعت بين الشرك وعيب الاله وتنقصه وتنقص نبيهم وعيبه ومفارقة دينه بالكلية فلم يتمسكوا

هذه المسألة من مسائل الأسماء والأحكام فهذه ثلاث تفرق آراؤهم ثبتت لهذه الطائفة الخلود في النار وللكل لم يجعلها مع من قبلها آرائهم لا يدري ما يفعل الله بهم فيجوزون أن يعذبهم كلهم وأن يعفو عنهم كلهم وأن يعذب بعضهم و يعفو عن بعضهم فيرأيهم لا يقطعون لأحد منهم في النار يجوزوا أن يلحق بعضهم بمن ترجحت حسناته على سيئاته بل يجوزوا أن يرفع عليه في الدرجة فهم موكولون عندهم الى محض المشيئة لا يدري ما يفعل الله بهم بل يرجى أمرهم الى الله وحكمه وهذا قول كثير من المتكلمين والفقهاء والصوفية وغيرهم فهذه الاقوال التي يعرفها أكثر الناس ولا يحكي أهل الكلام غيرها وقول الصحابة والتابعين وأئمة الحديث لا يعرفونه ولا يحكونه وهو الذي ذكرناه عن ابن عباس وحذيفة وابن مسعود ان من ترجحت سيئاته بواحدة دخل النار وهؤلاء هم القسم الذين جاءت فيهم الاحاديث الصحيحة الثابتة عن رسول الله فانهم يدخلون النار فيكونون فيها على مقدار أعمالهم فمنهم من تأخذه النار الى كعبيه ومنهم من تأخذه النار الى انصاف ساقيه ومنهم من تأخذه النار الى ركبتيه و يلبثون فيها على قدر أعمالهم ثم يخرجون منها فيلبثون على أنهار الجنة فيفيض عليهم أهل الجنة من الماء حتى تنبت أجسادهم ثم يدخلون الجنة وهم الطبقة الذين يخرجون من النار بشفاعة الشافعين وهم الذين يأمر الله سيد الشفعاء مرارا أن يخرجهم من النار بما معهم من الايمان وأخبار النبي صلى الله عليه وسلم انهم يكونون فيها على قدر أعمالهم مع قوله تعالى جزاء بما كنتم تعملون وهل تجزون الا ما كنتم تعملون وقوله وتوفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون وأضعاف ذلك من نصوص القرآن والسنة يدل على ما قاله أفضل الامة وأعلمها بالله وكتابه وأحكام الدار بين أصحاب محمد والعقل والفطرة تشهد له وهو مقتضى حكمة العزيز الحكيم الذي بهرت حكمته العقول فليس الامر سبهللا جاريا بلا ضبط والحكمة بل مربوط بالاسباب والحكم مرتب عليها أكمل ترتيب جار على نظام اقتضاه السبب واستدعته الحكمة وأي الطريق

يتمسكوا بشئ مما كان عليه المسيح لا فى صلاتهم ولا فى صيامهم ولا أعيادهم بل هم فى ذلك اتباع كل ناعق مستجيبون لكل مخرق ومبطل أدخلوا فى الشريعة ما ليس منها وتركوا ما أتت به واذا شئت أن ترى التغيير فى دينهم فانظر الى صيامهم الذى وضعه لهم ملوكهم وعظماؤهم فلهم صيام للحواريين وصيام لمارمريم وصيام لمار جرجس وصيام للميلاد وتركهم أكل اللحم فى صيامهم مما أدخلوه فى دين المسيح والا فهم يعلمون أن المسيح عليه السلام كان يأكل اللحم ولم يمنعهم منه فى صوم ولا فطر وأصل ذلك أن المانوية كانوا لا يأكلون ذا روح فلما دخلوا فى النصرانية خافوا أن يتركوا أكل اللحم فيقتلوا وشرعوا لأنفسهم صياما فصاموا للميلاد والحواريين ومارمريم وتركوا فى هذا الصوم أكل اللحم محافظة على ما اعتادوه من مذهب مانى فلما طال الزمان تبعهم على ذلك النسطورية واليعقوبية فصارت سنة متعارفة بينهم ثم تبعهم على ذلك الملكانية

(فصل) ثم انك اذا كشفت عن حالهم وجدت أئمة دينهم ورهبانهم قد نصبوا حبائل الحيل ليقتنصوا بها عقول العوام ويتوصلوا بالتمويه والتلبيس الى استمالتهم وانقيادهم واستدرار أموالهم وذلك أشهر وأكثر من أن يذكر فمن ذلك ما يعتمدونه فى العيد الذى يسمونه عيد النور ومحله بيت المقدس فيجتمعون من سائر النواحى فى ذلك اليوم ويأتون الى بيت فيه قنديل معلق لا نار فيه فيتلو أحبارهم الانجيل ويرفعون أصواتهم ويبتهلون فى الدعاء فبيناهم كذلك واذا نارة نزلت من سقف البيت فتقع على ذبالة القنديل فيشرق ويضئ ويشتعل فيضجون ضجة واحدة ويضربون على وجوههم ويأخذون فى البكاء والشهيق قال أبو بكر الطرطوشى كنت ببيت المقدس وكان واليها اذ ذاك رجلا يقال له سقمان فلما نما خبر هذا العيد اليه أنفذ الى بتاركتهم وقال أنا نازل اليكم فى يوم هذا العيد لأكشف عن حقيقة ما تقولون فان كان حقا ولم يتضح لى وجه الحيلة فيه أقررتكم عليه وعظمته معكم وان كان مخرفة على عوامكم أوقعت بكم ما تكرهونه فصعب ذلك عليهم جدا وسألوه أن لا يفعل فأبى ولج فحملوا اليه مالا عظيما فأخذه وأعرض عنهم قال الطرطوشى ثم اجتمعت بأبى محمد بن الأقدم بالاسكندرية فحدثنى أنهم يأخذون خيطا رقيقا من نحاس وهو الشريط ويجعلونه فى وسط قبة البيت الى رأس الفتيلة التى فى القنديل ويدهنونه بدهن اللبان والبيت مظلم بحيث لا يدرك الناظرون الخيط النحاس وقد عظموا ذلك البيت فلا يمكنون كل أحد من دخوله وفى رأس القبة رجل فاذا قدسوا ودعوا ألقى على ذلك الخيط النحاس شيأ من نار النفط فتجرى النار مع دهن اللبان الى آخر الخيط النحاس فيلقى الفتيلة فيتعلق بها فلو نصح أحدهم نفسه وفتش على نجاته لتتبع هذا القدر وطلب الخيط النحاس وفتش رأس القبة ليرى الرجل والنفط ويرى ان منبع ذلك النور من ذلك المخرق الملبس وانه لو نزل من السماء

سلكها سالك غير هذه الطريق من الطرق المتقدمة أفضت به الى ترك بعض النصوص ولابد فانها تتناقض فى حقه لما أصله من الاصل الذى لا يلتئم عليه جميع النصوص فلابد ان يرد بعضها ببعض أو يستشكلها أو يتطلب لها مستنكر التأويلات ووجوه التحريفات كما رد الخوارج والمعتزلة النصوص المتواترة الدالة على خروج أهل الكبائر من النار بالشفاعة وكذبوا بها وقالوا لا سبيل لمن دخل النار الى الخروج منها بشفاعة ولا غيرها ولما بهرتهم نصوص الشفاعة وصاح بهم أهل السنة وأئمة الاسلام من كل قطر وجانب ورموهم بسهام الرد عليهم أحالوا بالشفاعة على زيادة الثواب فقط لا على الخروج من النار فردوا السنة المتواترة قطعا وصاروا ضحكة فى أفواه الامة وعارا فى فرقها فان أمر الشفاعة أظهر عند الامة من أن يقبل شكا أو نزاعا وهو عندهم مثل الصراط والحساب ونحوهما مما يعلم اخبار الرسول به قطعا ولكن أمثال القوم لانهم فى غاية البعد عما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم أجانب منه ليسوا من الورثة وأما الخوارج فكذبوا الصحابة صريحا وأما المرجئة فانهم يجوزون أن لا يدخل النار أحد من أهل التوحيد وهذا بخلاف المعلوم المتواتر من نصوص السنة بدخول بعض أهل الكبائر النار ثم خروجهم منها بالشفاعة ومع هذا التواتر الذى لا يمكن دفعه لا يجوز أن يقال بجواز أن لا يدخل أحد منهم النار بل لابد من دخول بعضهم وذلك البعض هو الذى خفت موازينه ورجحت سيئاته كما قال الصحابة وحكى أبو محمد بن حزم هذا اجماعا من أهل السنة ولولا أن المقصود ذكر الطبقات لذكرنا ما لهذه المذاهب وما عليها وبينا تناقضها وما وافقوا فيه الحق وما خالفوه بالعلم والعدل لا بالجهل والظلم فان كل طائفة منها معها حق وباطل فالواجب موافقتهم فيما قالوه من الحق ورد ما قالوه من الباطل ومن فتح الله له بهذه الطريق فقد فتح له من العلم والدين كل باب ويسر عليه فيهما الاسباب والله المستعان الطبقة الرابعة عشر قوم لا طاعة لهم ولا معصية ولا كفر ولا ايمان وهؤلاء أصناف منهم من لم تبلغه الدعوة بحال ولا سمع لها بخبر ومنهم المجنون الذى لا يعقل

لظهر من فوق ولم يكن ظهوره من الفتيلة ومن حيلهم أيضا انه كان بأرض الروم في زمان المتوكل كنيسة اذا كان يوم عيدها يحج الناس اليها ويجتمعون عند صنم فيها فيشاهدون ثدي ذلك الصنم في ذلك اليوم يخرج منه اللبن وكان يجتمع للسادن ذلك اليوم مال عظيم فبحث الملك عنها فانكشف له أمرها فوجد القيم قد نقب من وراء الحائط ثقبا الى ثدي الصنم وجعل فيها انبوبة من رصاص وأصلحها بالجبس ليخفى أمرها فاذا كان يوم العيد فتحها وصب فيها اللبن فيجري الى الثدي فيقطر منه فيعتقد الجهال ان هذا سر في الصنم وانه علامة من الله تعالى لقبول قربانهم وتعظيمهم له فلما انكشف له ذلك أمر بضرب عنق السادن ومحو الصور من الكنائس وقال ان هذه الصور مع أمام الأصنام فمن سجد للصورة فهو كمن سجد للأصنام ولقد كان من الواجب على ملوك الاسلام أن يمنعوا هؤلاء من هذا وأمثاله لما فيه من الاعانة على الكفر وتعظيم شعائره فالمساعد على ذلك والمعين عليه شريك للفاعل لكن لما هان عليهم دين الاسلام وكان السحت الذي يأخذونه منهم أحب اليهم من الله عز وجل ورسوله عليه السلام أقروهم على ذلك ومكنوهم منه

(فصل) والمقصود ان دين الأمة الصليبية بعد أن بعث الله عز وجل محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم بل قبله بنحو ثلثمائة سنة مبني على معاندة العقول والشرائع وتنقص اله العالمين ورميه بالعظائم فكل نصراني لا يأخذ بحظه من هذه البلية فليس بنصراني على الحقيقة فليس هو الدين الذي أسسه أصحاب المجامع المتلاعنين على أن الواحد ثلاثة والثلاثة واحد فيا عجبا كيف رضي العاقل أن يكون هذا مبلغ عقله ومنتهى علمه أترى لم يكن في هذه الأمة من يرجع الى عقله وفطرته ويعلم أن هذا عين المحال وان ضربوا له الامثال واستخرجوا له الاشباه فلا يذكرون مثالا ولا شبها الا وفيه بيان خطئهم وضلالهم كتشبيه بعضهم اتحاد اللاهوت بالناسوت وامتزاجه به باتحاد النار والحديد وتمثيل غيرهم ذلك باختلاط الماء باللبن وتشبيه آخرين ذلك بامتزاج الغذاء واختلاطه بأعضاء البدن الى غير ذلك من الأمثال والمقاييس التي تتضمن امتزاج حقيقتين واختلاطهما حتى صارا حقيقة أخرى تعالى الله عز وجل عن افكهم وكذبهم ولم يقنعهم هذا القول في رب السموات والارض حتى اتفقوا بأسرهم على أن اليهود أخذوه وساقوه بينهم ذليلا مقهورا وهو يحمل خشبته التي صلبوه عليها واليهود يبصقون في وجهه ويضربونه ثم صلبوه وطعنوه بالحربة حتى مات وتركوه مصلوبا حتى التصق شعره بجلده لما يبس دمه بحرارة الشمس ثم دفن وأقام تحت التراب ثلاثة أيام ثم قام بلاهوتيته من قبره هذا قول جميعهم ليس فيهم من ينكر منه شيأ فيا للعقول كيف كان حال هذا العالم الأعلى والأسفل في هذه الايام الثلاثة ومن كان يدبر أمر السموات والارض ومن

[illegible] أطفال المشركين [illegible] في حكم [illegible] السابقة اختلافا كثيرا والمسألة التي وسعوا فيها الكلام هي مسألة أطفال المشركين وأما أطفال المسلمين فقال الامام [illegible] أحد في انهم في الجنة وحكى ابن عبد البر عن جماعة انهم توقفوا فيهم وان جميع الولدان تحت المشيئة [illegible] هذا القول جماعة كثيرة من أهل الفقه والحديث منهم حماد بن زيد وحماد بن سلمة وابن المبارك واسحاق بن راهويه قالوا وهو شبيه ما رسم مالك في موطئه في أبواب القدر وما أورده من الاحاديث في ذلك وعلى ذلك أكثر أصحابه وليس عن مالك فيه شئ منصوص الا ان المتأخرين من أصحابه ذهبوا الا ان أطفال المسلمين في الجنة وأطفال المشركين خاصة في المشيئة وأما أطفال المشركين فللناس فيهم ثمانية مذاهب أحدها الوقف فيهم وترك الشهادة بانهم في الجنة أو في النار بل يوكل علمهم الى الله تعالى ويقال الله أعلم ما كانوا عاملين واحتج هؤلاء بحجج منها ما خرجا في الصحيحين من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما من مولود يولد الا على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه كما تنتج البهيمة من بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء قالوا يا رسول الله أفرأيت من يموت وهو صغير قال الله أعلم بما كانوا عاملين ومنها ما في الصحيحين أيضا عن ابن عباس ان النبي سئل عن أولاد المشركين فقال الله أعلم بما كانوا عاملين وفي صحيح أبي حاتم وابن حبان من حديث جرير بن حازم قال سمعت أبا رجاء يقول وهو على المنبر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يزال أمر هذه الامة قواما أو مقاربا ما لم يتكلموا في الولدان والقدر قال أبو حاتم الولدان أراد به أطفال المشركين وفي استدلال هذه الفرقة الذي على ما ذهبت اليه من الوقف بهذه النصوص نظر فان النبي صلى الله عليه وسلم لم يجب فيهم بالوقف وانما وكل علم ما كانوا يعملون لو عاشوا الى الله سبحانه والمعنى الله أعلم بما كانوا يعملون لو عاشوا فهو سبحانه يعلم القابل للهدى العامل به لو عاش والقابل منهم للكفر المؤثر له لو عاش

الذي خاف الرب سبحانه وتعالى في هذه المدة ومن كان الذي يمسك السماء أن تقع على الارض وهو مدفون في قبر ويا عجبا هل دفنت الكلمة معه بعد ان قتلت وصلبت أم فارقته وخذلته أحوج ما كان الى نصرها له كما خذله أبوه وقومه فان كانت قد فارقته وتجرد منها فليس هو حينئذ المسيح وانما هو كغيره من آحاد الناس وكيف يصح مفارقتها له بعد ان اتحدت به ومازجت لحمه ودمه وأين ذهب الاتحاد والامتزاج وان كانت لم تفارقه وقتلت وصلبت ودفنت معه فكيف وصل المخلوق الى قتل الاله وصلبه ودفنه ويا عجبا أي قبر يسع اله السموات والارض هذا وهو الملك القدوس السلام المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون الحمد لله ثم الحمد لله تعالى الذي هدانا للاسلام وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ياذا الجلال والاكرام كما هديتنا على الاسلام أسألك أن لا تنزعه عنا حتى تتوفانا على الاسلام

أعباد المسيح لنا سؤال * نريد جوابه ممن وعاه *
اذا مات الاله بصنع قوم * أماتوه فما هذا الاله *
وهل أرضاه ما نالوه منه * فبشراهم اذا نالوا رضاه
وان سخط الذي فعلوه فيه * فقوتهم اذا أوهت قواه
وهل بقي الوجود بلا اله * سميع يستجيب لمن دعاه
وهل خلت الطباق السبع لما * ثوى تحت التراب وقد علاه
وهل خلت العوالم من اله * يدبرها وقد سمرت يداه
وكيف تخلت الاملاك عنه * بنصرهم وقد سمعوا بكاه
وكيف أطاقت الخشبات حمل الـ * ـاله الحق شد على قفاه
وكيف دنا الحديد اليه حتى * يخالطه ويلحقه أذاه
وكيف تمكنت أيدي عداه * وطالت حيث قد صفعوا قفاه
وهل عاد المسيح الى حياة * أم المحيي له رب سواه
ويا عجبا لقبر ضم ربا * وأعجب منه بطن قد حواه
أقام هناك تسعا من شهور * لدى الظلمات من حيض غذاه
وشق الفرج مولودا صغيرا * ضعيفا فاتحا للثدي فاه
ويأكل ثم يشرب ثم يأتي * بلازم ذاك هل هذا اله
تعالى الله عن افك النصارى * سيسأل كلهم عما افتراه
أعباد الصليب لأي معنى * يعظم أو يقبح من رماه
وهل تقضي العقول بغير كسر * واحراقٍ له ولمن بغاه
اذا ركب الاله عليه كرها * وقد شدت لتسمير يداه

ولا يدل هذا على الجبر بينهم بمجرد علمه فيهم بلا عمل يعملونه وانما يدل على انه يعلم منهم ماهم عاملون بتقدير حياتهم وهذا الجواب خرج من النبي [stain] لأحدهما جواب لهم اذ سألوه عنهم ما حكمهم فقال الله أعلم بما كانوا عاملين وهو في هذا الوجه يتضمن ان الله سبحانه يعلم من يؤمن منهم ومن يكفر بتقدير الحياة وأما المجازاة على العلم فلم

يتضمنها جوابه صلى الله عليه وسلم وفي صحيح أبي عوانة الاسفرايني عن هلال بن خباب عن عكرمة عن ابن عباس كان النبي في بعض مغازيه فسأله رجل ما تقول في اللاهين فسكت عنه فلما فرغ من غزوة الطائف اذا هو بصبي يبحث في الارض فأمر مناديه فنادى أين السائل عن اللاهين فاقبل الرجل فنهى رسول الله عن قتل الاطفال وقال الله أعلم بما كانوا عاملين والوجه الثاني جواب لهم حين أخبرهم انهم من آبائهم فقالوا بلا عمل فقال الله أعلم بما كانوا عاملين كما روى أبو داود عن عائشة قالت قلت يا رسول الله ذراري المؤمنين قال من آبائهم قلت يا رسول الله بلا عمل قال الله أعلم بما كانوا عاملين ففي هذا الحديث ما يدل على ان الذين يلحقون بآبائهم منهم هم الذين علم الله انهم لو عاشوا لاختاروا الكفر وعملوا به فهؤلاء مع آبائهم ولا يقتضي ان كل واحد من الذرية مع أبيه في النار فان الكلام في هذا الجنس سؤالا وجوابا والجواب يدل على التفصيل فان قوله الله أعلم بما كانوا عاملين يدل على انهم متباينون في التبعية بحسب تباينهم في معلوم الله فيهم بقي أن يقال فالحديث يدل على انهم يلحقون بآبائهم من غير عمل ولهذا فهمت ذلك منه عائشة فقالت بلا عمل فاقرها عليه فقال الله أعلم بما كانوا عاملين ويجاب عن هذا بان الحديث انما دل على انهم يلحقون بهم بلا عمل عملوه في الدنيا وهو الذي فهمته عائشة ولا ينفي هذا أن يلحقوا بهم باسباب أخر يمتحنون بها في عرصات القيامة كما سيأتي بيانه ان شاء الله فحينئذ يلحقون بآبائهم ويكونون منهم بلا عمل عملوه في الدنيا وعائشة انما استشكلت لحاقهم بهم بلا عمل عملوه مع الآباء وأجابها النبي بان الله سبحانه يعلم منهم ماهم عاملوه ولم يقل

فذاك المركب الملعون حقا * يدسه لا تقبله إذ تراه

يهان عليه رب الخلق طرا * وتعبده فإنك من عداه

فإن عظمته من أجل أن قد * حوى رب العباد وقد علاه

وقد فقد الصليب فإن رأينا * له شكلا تذكرنا سناه

فهلا للقبور سجدت طرا * لضم القبر ربك في حشاه

فيا عبد المسيح أفق فهذا * بدايته وهذا منتهاه

(فصل) قد بان لكل ذى عقل ان الشيطان تلاعب بهذه الامة الضالة كل التلاعب ودعاهم فأجابوه واستخفهم فأطاعوه فتلاعب بهم فى شأن المعبود سبحانه وتعالى وتلاعب بهم فى أمر المسيح وتلاعب بهم فى شأن الصليب وعبادته وتلاعب بهم فى تصوير الصور فى الكنائس وعبادتها فلا تجد كنيسة من كنائسهم تخلو عن صورة مريم والمسيح وجرجس وبطرس وغيرهم من القديسين عندهم والشهداء وأكثرهم يسجدون ويدعونها من دون الله تعالى حتى لقد كتب بطريق الاسكندرية الى ملك الروم كتابا يحتج فيه للسجود للصور بأن الله تعالى أمر موسى عليه السلام أن يصور فى قبة الزمان صورة الساروس وبان سليمان بن داود لما عمل الهيكل عمل صورة الساروس من ذهب ونصبها داخل الهيكل ثم قال فى كتابه وانما مثال هذا مثال الملك يكتب الى بعض عماله كتابا فيأخذه العامل ويقبله ويضعه بين عينيه ويقوم له لا تعظيما للقرطاس والمداد بل تعظيما للملك كذلك السجود للصور تعظيم لاسم ذلك المصور لا للاصباغ والالوان وبهذا المثال بعينه عبدت الاصنام وماذكره هذا المشرك عن موسى وسليمان عليهما السلام لو صح لم يكن فيه دليل على السجود للصور وغايته أن يكون بمثابة ما يذكر عن داود أنه نقش خطيئته فى كفه كيلا ينساها فأين هذا مما يفعله هؤلاء المشركون من التذلل والخضوع والسجود بين يدى تلك الصور وانما المثال المطابق لما يفعله هؤلاء المشركون مثال خادم من خدام الملك دخل على رجل فوثب من مجلسه وسجد له وعبده وفعل به ما لا يصلح أن يفعل الا مع الملك وكل عاقل يستجهله ويستحمقه فى فعله اذ قد فعل مع عبد الملك ما كان ينبغى له أن يخص به الملك دون عبيده من الاكرام والخضوع والتذلل ومعلوم أن هذا الى مقت الملك له وسقوطه من عينه أقرب منه الى اكرامه له ورفع منزلته كذلك حال من سجد لمخلوق أو لصورة مخلوق لانه عمد الى السجود الذى هو غاية ما يتوصل به العبد الى رضى الرب ولا يصلح الا له ففعله لصورة عبد من عبيده وسوى بين الله وبين عبده فى ذلك وليس وراء هذا فى القبح والظلم شئ ولهذا قال تعالى ان الشرك لظلم عظيم وقد فطر الله سبحانه عباده على استقباح معاملة عبيد الملك وخدمه بالتعظيم والاجلال والخضوع والذل الذى يعامل به الملك فكيف حال من فعل ذلك بأعداء الملك فان الشيطان عدو الله

[illegible] فى التابعين بن عباس عن ابن [illegible]
شئ وان قد رسه ابن حبان فى صحيحه وهو يدل على ذم من تكلم فيهم بغير علم أو ضرب النصوص بعضها ببعض فيهم كذم من تكلم فى القدر بمثل ذلك وأما من تكلم فيهم بعلم وحق فلا (٣٨٦) المذهب الثانى انهم فى النار وهذا قول جماعة من المتكلمين وأهل التفسير وأحد الوجهين لاصحاب أحمد وحكاه القاضى نصا عن أحمد واحتج هؤلاء بحديث عائشة المتقدم واحتجوا بما رواه أبو عقيل يحيى ابن المتوكل عن بهية عن عائشة سألت رسول الله عن أولاد المسلمين أين هم قال فى الجنة وسألته عن أولاد المشركين أين هم يوم القيامة قال فى النار فقلت لم يدركوا الاعمال ولم تجر عليهم الاقلام قال ربك أعلم بما كانوا عاملين قلت يحيى بن المتوكل لا يحتج بحديثه فانه فى غاية من الضعف وأما حديث عائشة المتقدم فهو من حديث عمر بن ذر وتفرد به عن يزيد عن أبى أمية ان البراء بن عازب أرسل الى عائشة يسألها عن الاطفال فذكرت الحديث هكذا قال مسلم بن قتيبة وقال غيره عن عمر بن ذر عن يزيد عن رجل عن البراء ورواه الامام أحمد فى مسنده من حديث عتبة بن ضمرة بن حبيب حدثنى عبد الله بن أبى قيس مولى عطيف انه سأل عائشة فذكر الحديث وعبد الله هذا ينظر فى حاله وليس بالمشهور واحتجوا بما رواه عبد الله بن أحمد فى مسند أبيه عن عثمان ابن أبى شيبة عن محمد بن فضيل بن غزوان عن محمد بن عثمان عن زاذان عن على قال سألت خديجة رسول الله عن ولدين لها ماتا فى الجاهلية فقال لها هما فى النار فلما رأى الكراهية فى وجهها قال لو رأيت مكانهما لابغضتهما قالت يا رسول الله فولدى منك قال ان المؤمنين وأولادهم فى الجنة وان المشركين والمشرك وأولادهم فى النار ثم قرأ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بايمان ألحقنا بهم ذريتهم وهذا معلول من وجهين أحدهما ان محمد بن عثمان مجهول الثانى ان زاذان لم يدرك عليا . قال جماعة عن داود بن أبى هند عن الشعبى عن علقمة عن سلمة بن قيس الاشجعى قال أتيت أنا وأخى

والمشرك انما شرك به لا يوالي الله ورسوله بل رسول الله وأولياؤه بريئون ممن أشرك بهم معادون لهم أشد الناس مقتا لهم فهم في نفس الأمر انما أشركوا بأعداء الله وسووا بينهم وبين الله في العبادة والتعظيم والسجود والذل ولهذا كان بطلان الشرك وقبحه معلوما بالفطرة السليمة والعقول الصحيحة والعلم بقبحه أظهر من العلم بقبح سائر القبائح والمقصود ذكر تلاعب الشيطان بهذه الأمة في أصول دينهم وفروعه كتلاعبه بهم في صيامهم فان أكثر صومهم لا أصل له في شرع المسيح بل هو مختلق مبتدع فمن ذلك أنهم زادوا جمعة في بدء الصوم الكبير يصومونها لهرقل ملك بيت المقدس وذلك أن الفرس لما ملكوا بيت المقدس وقتلوا النصارى وهدموا الكنائس أعانهم اليهود على ذلك وكانوا أكثر قتلا وفتكا في النصارى من الفرس فلما سار هرقل اليه استقبله اليهود بالهدايا وسألوه أن يكتب لهم عهدا ففعل فلما دخل بيت المقدس شكا اليه من فيه من النصارى ما كان اليهود صنعوه بهم فقال لهم هرقل وما تريدون مني قالوا تقتلهم قال كيف أقتلهم وقد كتبت لهم عهدا بالأمان وأنتم تعلمون ما يجب على ناقض العهد فقالوا له انك حين أعطيتهم الأمان لم تدر ما فعلوه من قتل النصارى وهدم الكنائس وقتلهم قربان الى الله تعالى ونحن نتحمل عنك هذا الذنب ونكفره عنك ونسأل المسيح أن لا يؤاخذك به ونجعل لك جمعة كاملة في بدء الصوم نصومها لك ونترك فيها أكل اللحم مادامت النصرانية ونكتبه الى جميع الآفاق غفرانا لما سألناك فأجابهم وقتل من اليهود حول بيت المقدس وجبل الخليل ما لا يحصى كثرة فصيروا أول جمعة من الصوم الذي يترك فيه الملكية أكل اللحم يصومونها لهرقل الملك غفرانا لنقضه العهد وقتل اليهود وكتبوا بذلك الى الآفاق وأهل بيت المقدس وأهل مصر يصومونها وبقية أهل الشام والروم يتركون أكل اللحم فيها ويصومون الأربعاء والجمعة وكذلك لما أرادوا نقل ذلك الى فصل الربيع المعتدل وتغيير شريعة المسيح زادوا فيه عشرة أيام عوضا وكفارة لنقلهم له ومن ذلك تلاعبه بهم في أعيادهم وكلها موضوعة مختلقة محدثة بآرائهم واستحسانهم فمن ذلك عيد ميكائيل وسببه أنه كان بالاسكندرية صنم وكان جميع من بمصر والاسكندرية يعيدون له عيدا أعظم يا ويذبحون له الذبائح فولي بترك الاسكندرية واحد منهم فأراد أن يكسره ويبطل الذبائح فامتنعوا عليه فاحتال عليهم فقال ان هذا الصنم لا ينفع ولا يضر فلو جعلتم هذا العيد لميكائيل ملك الله تعالى وجعلتم هذه الذبائح له كان يشفع لكم عند الله وكان خيرا لكم من هذا الصنم فأجابوه الى ذلك فكسروا الصنم وصيروه صلبانا وسمى الكنيسة كنيسة ميكائيل وسماها قيسارية ثم احترقت الكنيسة وخربت وصيروا العيد والذبائح لميكائيل فنقلهم من كفر الى كفر ومن شرك الى شرك فكانوا في ذلك كمجوسي أسلم فصار رافضيا فدخل الناس عليه يهنؤنه فدخل عليه رجل وقال انك انما

النبي صلى الله عليه وسلم فقلنا ان أمنا ماتت في الجاهلية وكانت تقري الضيف ٧ لنا في الجاهلية فلم يبلغوا الحنث فقال الوائدة والموؤدة في النار الا أن تدرك الوائدة الاسلام فتسلم وهذا اسناد لا بأس به وحديث خديجة انها سألت رسول الله عن أولادها الذين ماتوا في الشرك فقال ان شئت أسمعتك تضاغيهم في النار قال شيخنا وهذا الحديث باطل موضوع وأما ما رواه البخاري في صحيحه في حديث احتجاج الجنة والنار عن النبي انه قال وأما النار فينشئ الله لها خلقا يسكنهم اياها قالوا فهؤلاء ينشؤن للنار بغير عمل فلأن يدخلها من ولد في الدنيا بين كافرين أولى وهذه حجة باطلة فان هذه اللفظة وقعت غلطا من بعض الرواة وبينها البخاري في الحديث الآخر وهو الصواب فقال في صحيحه حدثني عبد الله ابن محمد نا عبد الرزاق نا معمر عن همام عن أبي هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم تحاجت الجنة والنار فقالت النار أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين وقالت الجنة ما لي لا يدخلني الا ضعفاء من الناس وسقطهم قال الله عز وجل للجنة أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي وقال للنار أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي ولكل واحدة منكما ملؤها فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع الجبار عز وجل رجله فتقول قط قط فهنالك تمتلئ ويزوى بعضها الى بعض ولا يظلم الله من خلقه أحدا وأما الجنة فان الله ينشئ لها خلقا فهذا هو الذي قاله رسول الله بلا ريب وهو الذي ذكره في التفسير وفي باب ما جاء في قول الله ان رحمت الله قريب من المحسنين نا عبيد الله ابن سعد نا يعقوب نا أبي عن صالح ابن كيسان عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي قال اختصمت الجنة والنار الى ربهما فقالت الجنة يارب ما لها لا يدخلها الا ضعفاء الناس وسقطهم وقالت النار الخ فقال للجنة أنت رحمتي وقال للنار أنت عذابي أصيب بك من أشاء ولكل واحدة منكما ملؤها قال فأما الجنة فان الله تعالى لا يظلم من خلقه أحدا وانه ينشئ للنار من يشاء فيلقون فيها فتقول هل من مزيد ثلاثا حتى يضع قدمه فيها فتمتلئ ويرد بعضها الى بعض فتقول قط قط قط فهذا غير محفوظ وهو مما انقلب لفظه على بعض الرواة قطعا كما انقلب ٧ بياض بالأصل

على بعضهم قوله صلى الله عليه وسلم ان بلالا يؤذن بليل فكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أم مكتوم فقال ان ابن أم مكتوم يؤذن بليل فكلوا
واشربوا حتى يؤذن بلال وله نظائر وحديث الاعرج عن أبي هريرة هذا لم يحفظنا كما ينبغي وسياقه يدل على ان الراوي به لم يقم متنه بخلاف
حديث همام عن أبي هريرة واحتجوا بما رواه أبو داود عن عامر الشعبي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الوائدة
والموؤدة في النار قال يحيى بن زكريا حدثني أبو اسحاق السبيعي ان عامرا حدثه بذلك عن علقمة عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم ويأتي الجواب عن هذا الحديث ان شاء الله والله أعلم

*المذهب الثالث انهم في الجنة وهذا قول طائفة من المفسرين والمتكلمين وغيرهم واحتج هؤلاء بما رواه البخاري في صحيحه عن سمرة بن جندب قال كان رسول الله مما يكثر أن يقول لاصحابه هل رأى أحد منكم رؤيا قال فيقص عليه ما شاء الله ان يقص وانه قال لنا ذات غداة انى أتانى الليلة آتيان فذكر الحديث وفيه فأتينا على روضة معتمة فيها من كل لون الربيع واذا بين ظهرى الروضة رجل طويل لا أكاد أرى رأسه طولا في السماء واذا حول الرجل من أكثر ولدان رأيتهم قط وفيه وأما الولدان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة فقال بعض المسلمين يارسول الله وأولاد المشركين فقال رسول الله وأولاد المشركين فهذا الحديث الصحيح صريح في انهم في الجنة ورؤيا الانبياء وحي وفي مستخرج البرقاني عن البخاري من حديث عوف الاعرابي عن أبي رجاء العطاردي عن سمرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال كل مولود ولد على الفطرة فقال الناس
يارسول الله وأولاد المشركين قال وأولاد المشركين وقال أبو بكر بن حمدان القطيعي ثنا بشر بن موسى ثنا هوذة الحال
ابن خليفة ثنا عوف عن خنساء بنت معاوية قالت حدثتني عمى قالت يارسول الله من في الجنة قال النبي في الجنة والشهيد في الجنة والموؤدة
في الجنة وكذلك رواه بندار عن غندر عن عوف واحتجوا بقوله تعالى واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وبقوله لا يصلاها الا

انتقلت من زاوية من النار الى زاوية أخرى ومن ذلك عيد الصليب وهو مما اختلقوه وابتدعوه فان ظهور الصليب انما كان بعد المسيح بزمن كثير وكان الذى أظهره زور وكذب أخبرهم به بعض اليهود ان هذا هو الصليب الذى صلب عليه الههم وربهم فانظر الى هذا السند وهذا الخبر فاتخذوا ذلك الوقت الذى ظهر فيه عيدا وعيد الصليب ولو أنهم فعلوا كما فعل أشباههم من الرافضة حيث اتخذوا وقت قتل الحسين رضى الله عنه مأتما وحزنا لكان أقرب الى العقول وكان من حديث الصليب انه لما صلب المسيح على زعمهم الكاذب وقتل ودفن ورفع من القبر الى السماء وكان التلاميذ كل يوم يصيرون الى القبر الى موضع الصلب ويصلون فقالت اليهود ان هذا الموضع لا يخفى وسيكون له نبأ واذا رأى الناس القبر خاليا آمنوا به فطرحوا عليه التراب والزبل حتى صار مزبلة عظيمة فلما كان في أيام قسطنطين الملك جاءت زوجته الى بيت المقدس تطلب الصليب فجمعت من اليهود والسكان ببيت المقدس والخليل مائة رجل واختارت منهم عشرة واختارت من العشرة ثلاثة اسم أحدهم يهودا فسألتهم أن يدلوها على الموضع فامتنعوا وقالوا لا علم لنا بالموضع فطرحتهم في الحبس في جب لا ماء فيه فأقاموا سبعة أيام لا يطعمون ولا يسقون فقال يهودا لصاحبيه ان أباه عرفه بالموضع الذى يطلب فصاح الاثنان فأخرجوهما فخبراها بما قال يهودا فأمرت بضربه بالسياط فأقر وخرج الى الموضع الذى فيه المقبرة وكان مزبلة عظيمة فصلى وقال اللهم ان كان في هذا الموضع فاجعله أن يتزلزل ويخرج منه دخان فتزلزل الموضع وخرج منه دخان فأمرت الملكة بكنس الموضع من التراب فظهرت المقبرة وأصابوا ثلاثة صلبان فقالت الملكة كيف لنا أن نعلم صليب سيدنا المسيح وكان بالقرب منهم عليل شديد العلة قد أيس منه فوضع الصليب الاول عليه ثم الثانى ثم الثالث فقام عند الثالث واستراح من علته فعلمت أنه صليب المسيح فجعلته في غلاف من ذهب وحملته الى قسطنطين وكان من ميلاد المسيح الى ظهور هذا الصليب ثلثمائة وثلاثة وعشرون سنة هذا كله نقله سعيد بن بطريق النصرانى في تاريخه والمقصود أنهم ابتدعوا هذا العيد بنقل علمائهم بعد المسيح بهذه المدة وبعد فسند هذه الحكاية من بين يهودى ونصرانى مع انقطاعها وظهور الكذب فيها لمن له عقل من وجوه كثيرة ويكفى في كذبها وبيان اختلاقها أن ذلك الصليب الذى يشفى العليل كان أولى أن لا يميت الاله الرب المحيى المميت ومنها أنه اذا بقى تحت التراب خشب ثلثمائة وثمانية وعشرون سنة فانه ينخر ويبلى لدون هذه المدة فان قال عباد الصليب انه لما مس جسم المسيح حصل له الثبات والقوة والبقاء قيل لهم فما بال الصليبين الباقيين لم يتفتتا واشتبها به ولعلهم يقولون لما مست صليبه مسها البقاء والثبات وجهل القوم وحمقهم أعظم من ذلك والرب سبحانه لما تجلى للجبل تدكدك الجبل وساخ في الارض ولم يثبت لتجليه فكيف تثبت الخشبة لركوبه عليها في تلك

الحال ولقد صدق القائل ان هذه الامة عار على بنى آدم أن يكونوا منهم فان كانت هذه الحكاية صحيحة فما أقربها من حيل اليهود التى تخلصوا بها من الحبس والهلاك وحيل بنى آدم تصل الى أكثر من ذلك بكثير ولا سيما لما علم اليهود أن ملكة دين النصرانية قاصدة الى بيت المقدس وانها تعاقبهم حتى يدلوها على موضع القتل والصلب وعلموا أنهم ان لم يفعلوا لم يتخلصوا من عقوبتها ومنها أن عباد الصليب يقولون ان المسيح لما قتل غار دمه ولو وقع منه قطرة على الارض ليبست ولم تنبت فياعجبا كيف يحيى الميت ويبرأ العليل بالخشبة التى شهر عليها وصلب أهذا كلها من بركتها وفرحها به وهو مشدود عليها يبكى ويستغيث ولقد كان الاليق أن يفتت الصليب ويضمحل اهيبة من صلب عليه وعظمته وانخسفت الارض بالحاضرين عند صلبه والمتماثلين عليه بل تتفطر السموات وتنشق الارض وتخر الجبال هدا ثم يقال لعباد الصليب لا يخلو أن يكون المصلوب الناسوت وحده أو مع اللاهوت فان كان المصلوب هو الناسوت وحده فقد فارقته الكلمة وبطل اتحادها به وكان المصلوب جسدا من الاجساد ليس باله ولا فيه شئ من الالهية والربوبية البتة وان قلتم ان الصلب وقع على اللاهوت والناسوت معا فقد أقررتم بصلب الاله وقتله وموته وقدرة الخلق على أذاه وهذا أبطل الباطل وأمحل المحال فبطل تعلقكم بالصليب من كل وجه عقلا وشرعا وأما تلاعبه بهم فى صلاتهم فمن وجوه أحدها صلاة كثير منهم بالنجاسة والجنابة والمسيح برئ من هذه الصلاة وسبحان الله أن يتقرب اليه بمثل هذه الصلاة فقدره أعلى وشانه أجل من ذلك ومنها صلاتهم الى مشرق الشمس وهم يعلمون أن المسيح لم يصل الى الشرق أصلا وانما كان يصلى الى قبلة بيت المقدس ومنها تصليبهم على وجوههم عند الدخول فى الصلاة والمسيح برئ من ذلك فصلاة مفتاحها النجاسة وتحريمها التصليب على الوجه وقبلتها الشرق وشعارها الشرك كيف تخفى على العاقل انها لا يأتى بها شريعة من الشرائع البتة ولما علمت الرهبان والمطارنة والاساقفة أن مثل هذا الدين تنفر عنه العقول أعظم نفرة شدوه بالحيل والصور فى الحيطان بالذهب واللازورد والزنجفر وبالارغل وبالاعياد المحدثة ونحو ذلك مما يروج على السفهاء وضعفاء العقول والبصائر وساعدهم ما عليه اليهود من القسوة والغلظة والمكر والكذب والبهت وما عليه كثير من المسلمين من الظلم والفواحش والفجور والبدعة والغلو فى المخلوق حتى يتخذه الها من دون الله واعتقاد كثير من الجهال أن هؤلاء من خواص المسلمين وصالحيهم فتركب من هذا وأمثاله تمسك القوم بما هم فيه ورؤيتهم أنه خير من كثير مما عليه المنتسبون الى الاسلام من البدع والفجور والشرك والفواحش ولهذا لما رأى النصارى الصحابة وما هم عليه آمن أكثرهم اختيارا وطوعا وقالوا ما الذين صحبوا المسيح بأفضل من هؤلاء ولقد دعونا نحن وغيرنا كثيرا من أهل الكتاب الى الاسلام فاخبروا أن المانع لهم

الاشق وبقوله أعدت للكافرين وقوله وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وهؤلاء لم تقم عليهم حجة الله بالرسل فلا يعذبهم واحتجوا بقوله وما كان ربك ليهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلوا عليهم آياتنا وما كنا مهلكى القرى الا وأهلها ظالمون فاذا كان سبحانه لا يهلك القرى فى الدنيا ويعذب أهلها الا بظلمهم فكيف يعذب فى الآخرة العذاب الدائم من لم يصدر منه ظلم ولا يقال كما أهلكه فى الدنيا تبعا لابويه وغيرهم فكذلك يدخله النار تبعا لهم لان مصائب الدنيا اذا وردت لا تخص الظالم وحده بل تصيب الظالم وغيره ويبعثون على نياتهم وأعمالهم كما قال تعالى واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة وكالجيش الذى يخسف بهم جميعهم وفيهم المكره والمستبصر وغيره فاما عذاب الآخرة فلا يكون الا للظالمين خاصة ولا يتبعهم فيه من لا ذنب له أصلا قال تعالى فى النار كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شئ وقال لابليس لاملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين واذا امتلأت بابليس وأتباعه فاين يستقر فيها من لم يتبعه قالوا وأيضا فالقرآن مملوء من الاخبار بان دخول النار انما يكون بالاعمال كقوله هل تجزون الا ما كنتم تعملون وقوله ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون وقوله وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين الى غير ذلك من النصوص قالوا وقد أخبر النبى ان كل مولود يولد على الفطرة وانما يهوده وينصره أبواه فاذا مات قبل التهويد والتنصير مات على الفطرة فكيف يستحق النار وفى صحيح مسلم عن حديث عياض بن حماد عن النبى قال يقول الله انى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وقال محمد بن اسحق عن ثور بن يزيد عن يحيى بن جابر عن عبد الرحمن بن عائذ عن عياض عن النبى قال ان الله خلق آدم وبنيه حنفاء مسلمين وأعطاهم المال حلالا لا حراما فزاد مسلمين قالوا وأيضا فان النار دار عدله والجنة دار فضله فلهذا ينشئ للجنة من لم يعمل عملا قط وأما النار فانه لا يعذب بها الا من عمل بعمل أهلها قالوا

ما يرون عليه المنتسبين الى الاسلام من تعظيمهم الحيال من البدع والظلم والفجور والمكر والاحتيال ونسبة ذلك الى الشرع ومن جاء به فالله عليم بطاعة من يرى بحق الله وحقهم فهذه اشارة يسيرة جدا الى تلاعب الشيطان بعباد الصليب يدل على ما بعدهم والله الهادي الموفق

(فصل) في ذكر تلاعبه بالامة الغضبية وهم اليهود قال تعالى في حقهم بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباؤا بغضب على غضب وقال تعالى قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وقال تعالى ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون وقد أمرنا سبحانه أن نسأله في صلواتنا أن يهدينا صراط الذين أنعم عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين وثبت عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون فأول تلاعب الشيطان بهذه الامة في حياة نبيها وقرب العهد بانجائهم من فرعون واغراقه واغراق قومه فلما جاوزوا البحر رأوا قوما يعكفون على أصنام لهم فقالوا ياموسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة فقال لهم موسى عليه السلام انكم قوم تجهلون ان هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون فأي جهل فوق هذا والعهد قريب واهلاك المشركين أمامهم برأي عيونهم فطلبوا من موسى عليه السلام أن يجعل لهم الها فطلبوا من مخلوق أن يجعل لهم الها مخلوقا وكيف يكون الاله مجعولا فان الاله هو الجاعل لكل ما سواه والمجعول مربوب مصنوع فيستحيل أن يكون الها وما أكثر الخلف لهؤلاء في اتخاذ اله مجعول فكل من اتخذ الها غير الله فقد اتخذ الها مجعولا وقد ثبت عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه كان في بعض غزواته فمروا بشجرة يعلق عليها المشركون أسلحتهم وشارتهم وثيابهم يسمونها ذات أنواط فقال بعضهم يارسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال الله أكبر قلتم كما قال قوم موسى لموسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة ثم قال لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة

(فصل) ومن تلاعبه بهم عبادتهم العجل من دون الله تعالى وقد شاهدوا ما حل بالمشركين من العقوبة والاخذة الرابية ونبيهم حي لم يمت هذا وقد شاهدوا صانعه يصنعه ويصوغه ويصليه النار ويدقه بالمطرقة ويسطو عليه بالمبرد ويقلبه بيديه ظهرا لبطن ومن عجيب أمرهم انهم لم يكتفوا بكونه الههم حتى جعلوه اله موسى فنسبوا موسى عليه السلام الى الشرك وعبادة غير الله تعالى بل عبادة أبلد الحيوانات وأقلها دفعا عن نفسه بحيث يضرب به المثل في البلادة والذل فجعلوه اله كليم الرحمن ثم لم يكتفوا بذلك حتى

وأيضا فان التلاوة ... ولم يحضر الله ... كيف يجازي بالدار الدائمة الابدية ... قالوا وأيضا فلو عذبهم ولم يكن تعذيبهم امام تكليفهم ... أو بدون التكليف والقسمان ممتنعان أما الاول فلاستحالة تكليف من لا تمييز له ولا عقل أصلا وأما الثاني فيمتنع أيضا بالنصوص التي ذكرناها وأمثالها من ان الله لا يعذب أحدا الا بعد قيام الحجة عليه قالوا وأيضا فلو كان تعذيب هؤلاء لاجل عدم الايمان المانع من العذاب لاشتركوا هم وأطفال المسلمين في ذلك لاشتراكهم في عدم الايمان الفعلي علما وعملا فان قلتم أطفال المسلمين منعهم تبعهم لآبائهم من العذاب بخلاف أطفال المشركين قلنا الله لا يعذب أحدا بذنب غيره قال تعالى ولا تزر وازرة وزر أخرى وقال فاليوم لا تظلم نفس شيئا ولا تجزون الا ما كنتم تعملون وهذه حجج كما ترى قوة وكثرة ولا سبيل الى دفعها وسيأتي ان شاء الله فصل النزاع في هذه المسئلة والقول بموجب هذه الحجج الصحيحة كلها على ان عادتنا في مسائل الدين كلها دقها وجلها ان نقول بموجبها ولا نضرب بعضها ببعض ولا نتعصب لطائفة على طائفة بل نوافق كل طائفة على ما معها من الحق ونخالفها فيما معها من خلاف الحق لا نستثني من ذلك طائفة ولا مقالة ونرجو من الله أن نحيا على ذلك ونموت عليه ونلقاه به ولا قوة الا بالله * المذهب الرابع انهم في منزلة بين المنزلتين بين الجنة والنار فانهم ليس لهم ايمان يدخلون به الجنة ولا لآبائهم فوز يلحقهم به أطفالهم تكميلا لثوابهم وزيادة في نعيمهم وليس لهم من الاعمال ما يستحقون به دخول النار وهذا قول طائفة من المفسرين قالوا وهم أهل الاعراف وقال عبد العزيز بن يحيى الكناني هم الذين ماتوا في الفترة والقائلون بهذا ان أرادوا ان هذا المنزل مستقرهم أبدا فباطل فانه لا دار للقرار الا الجنة أو النار وان أرادوا أنهم يكونون فيه مدة ثم يصيرون الى دار القرار فهذا ليس ممتنع * المذهب الخامس انهم تحت مشيئة الله تعالى يجوز أن يعمهم بعذابه وان يعمهم برحمته وان يرحم بعضا ويعذب بعضا بمحض الارادة والمشيئة ولا سبيل الى اثبات شئ من هذه

... المعبر اليه ولا حكم فيهم الا بمحض المشيئة وهذا قول الجبرية نفاة الحكمة والتعليل وقول كثير من مثبتى القدر وغيرهم * المذهب السادس انهم خدم أهل الجنة ومماليكهم وهم معهم بمنزلة أرقائهم ومماليكهم فى الدنيا واحتج هؤلاء بما رواه يعقوب بن عبد الرحمن القارى عن أبى حازم المدنى عن يزيد الرقاشى عن أنس قال الدارقطنى ورواه عبد العزيز الماجشون عن ابن المنكدر عن يزيد الرقاشى عن أنس عن النبى قال سألت ربى اللاهين من ذرية البشر أن لا يعذبهم فأعطانيهم فهم خدام أهل الجنة يعنى الصبيان فهذه طريقة وله طريق ثالث عن فضيل ابن سليمان عن عبد الرحمن بن اسحق عن الزهرى عن أنس قال ابن قتيبة اللاهون من لهيت عن الشئ اذا غفلت عنه وليس هو من لهوت وهذه الطرق ضعيفة فان يزيد الرقاشى واه وفضيل بن سليمان متكلم فيه وعبد الرحمن بن اسحق ضعيف * المذهب السابع ان حكمهم حكم آبائهم فى الدنيا والآخرة فلا يفردون عنهم بحكم فى الدارين فكما هم منهم فى الدنيا فهم منهم فى الآخرة والفرق بين هذا المذهب وبين مذهب من يقول هم فى النار ان صاحب هذا المذهب يجعلهم معهم تبعا لهم حتى لو أسلم الابوان بعد موت أطفالهما لم يحكم لافراطهما بالنار وصاحب القول الآخر يقول هم فى النار لكونهم ليسوا بمسلمين ولم يدخلوها تبعا وهؤلاء يحتجون بحديث عائشة الذى تقدم ذكره واحتجوا بما فى الصحيحين عن الصعب بن جثامة قال سئل رسول الله عن أهل الدار من المشركين يبيتون فيصيبون من نسائهم وذراريهم فقال هم منهم ومثله من حديث الاسود بن سريع وقد تقدم حديث أبى وائل عن ابن مسعود يرفعه الوائدة والموؤدة فى النار وهذا يدل على انها كانت فى النار تبعا لها قالوا ويدل عليه قوله والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بايمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شئ كل امرئ بما كسب رهين فهذا يدل على ان اتباع الذرية لآبائهم ونجاتهم انما كان اكراما لآبائهم وزيادة فى ثوابهم وان الاتباع انما يستحق بايمان الآباء فاذا انتفى ايمان الآباء انتفى اتباع النجاة وبقى اتباع العذاب يفسره قوله صلى الله عليه

جعلوا موسى عليه السلام ضالا مخطئا فقالوا فنسى قال ابن عباس أى أضل وأخطأ الطريق وفى رواية عنه أى ان موسى ذهب يطلب ربه فضل ولم يعلم مكانه وعنه أيضا نسى أن يذكر لكم ان هذا الهه والهكم وقال السدى أى ترك موسى الهه ههنا وذهب يطلبه وقال قتادة أى ان موسى انما يطلب هذا ولكنه نسيه وخالفه فى طريق آخر على هذا القول المشهور ان قوله فنسى من كلام السامرى وعباد العجل معه وعن ابن عباس رواية أخرى ان هذا من اخبار الله تعالى عن السامرى انه نسى أى ترك ما كان عليه من الايمان والصحيح القول الاول والسياق يدل عليه ولم يذكر البخارى فى التفسير غيره فقال يقول أخطأ الرب فانه لما جعله اله موسى استحضر سؤالا من بنى اسرائيل يوردونه عليه فيقولون له اذا كان هذا اله موسى فلأى شئ ذهب عنه لموعد الهه فأجاب عن هذا السؤال قبل ايراده عليه بقوله فنسى وهذا من أقبح تلاعب الشيطان بهم فانظر الى هؤلاء كيف اتخذوا الها مصنوعا مصبوغا من جوهر أرضى انما يكون تحت التراب محتاجا الى سبك بالنار وتصفية وتخليص لخبثه منه مدقوقا بمطارق الحديد مقلبا فى النار مرة بعد مرة قد نحت بالمبارد وأحدث الصانع صورته وشكل على صورة الحيوان المعروف بالبلادة والذل والضيم وجعلوه اله موسى ونسبوه الى الضلال حيث ذهب يطلب الها غيره قال محمد بن جرير وكان سبب اتخاذهم العجل ما حدثنى به عبد الكريم بن الهيثم قال حدثنى ابراهيم بن بشار الرمادى حدثنا سفيان بن عيينة حدثنا أبو سعيد عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله تعالى عنه قال لما هجم فرعون على البحر هو وأصحابه وكان فرعون على فرس أدهم حصان فلما هجم على البحر هاب الحصان أن يقتحم فى البحر فتمثل له جبريل على فرس أنثى فلما رآها الحصان تقحم خلفها قال وعرف السامرى جبريل فقبض قبضة من أثر فرسه قال أخذ من تحت الحافر قبضة قال سفيان وكان ابن مسعود يقرأها فقبضت قبضة من أثر فرس الرسول قال عكرمة عن ابن عباس وألقى فى روع السامرى انك لا تلقيها على شئ فتقول كن كذا وكذا الا كان فلم تزل القبضة معه فى يده حتى جاوز البحر فلما جاوزه موسى وبنو اسرائيل البحر وغرق الله آل فرعون قال موسى لأخيه هرون اخلفنى فى قومى وأصلح ومضى موسى لموعد ربه قال وكان مع بنى اسرائيل حلى من حلى آل فرعون قد استعاروه فكأنهم تأثموا منه فأخرجوه لتنزل النار فتأكله فلما جمعوه قال السامرى بالقبضة التى كانت فى يده هكذا فقذفها فيه وقال كن عجلا جسدا له خوار فصار عجلا جسدا له خوار فكان يدخل الريح من دبره ويخرج من فيه يسمع له صوت فقال هذا الهكم واله موسى فعكفوا على العجل يعبدونه فقال هرون يا قوم انما فتنتم به وان ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى وقال السدى لما أمر الله موسى أن

يخرج بني اسرائيل من أرض مصر أمر موسى بني اسرائيل أن يخرجوا وأمرهم أن يستعيروا الحلي من القبط فلما نجى الله موسى ومن معه من بني اسرائيل من البحر وغرق آل فرعون أتى جبريل الى موسى ليذهب به الى الله فأقبل على فرس فرآه السامري فأنكره ويقال انه فرس الحياة فقال حين رآه ان لهذا الشأنا فأخذ من تربة حافر الفرس فانطلق موسى عليه السلام واستخلف هرون على بني اسرائيل وواعدهم ثلاثين ليلة فأتمها الله تعالى بعشر فقال لهم هرون يا بني اسرائيل ان الغنيمة لا تحل لكم وان حلي القبط انما هي غنيمة فأجمعوها جميعا واحفروا لها حفرة فادفنوها فان جاء موسى فأحلها أخذتموها والا كان شيئا لم تأكلوه فجمعوا ذلك الحلي في تلك الحفرة وجاء السامري بتلك القبضة فقذفها فأخرج الله من الحلي عجلا جسدا له خوار فلما رأوه قال لهم السامري هذا الهكم واله موسى فنسي يقول ترك موسى الهه ههنا وذهب يطلبه فعكفوا عليه يعبدونه وكان يخور ويمشي فقال لهم هرون يا بني اسرائيل انما فتنتم به يقول انما ابتليتم بالعجل وان ربكم الرحمن فأقام هرون ومن معه من بني اسرائيل لا يقاتلونهم وانطلق موسى الى الله يكلمه فلما كلمه قال له ما أعجلك عن قومك يا موسى قال هم أولاء على أثري وعجلت اليك رب لترضى قال فانا قد فتنا قومك من بعدك فأخبره خبرهم قال موسى يا رب هذا السامري أمرهم أن يتخذوا العجل فالروح من نفخها فيه قال الرب تعالى أنا قال يا رب أنت اذا أضللتهم وقال ابن اسحق عن حكيم بن جبير عن سعيد عن ابن عباس رضي الله عنه قال كان السامري من قوم يعبدون البقر فكان يحب عبادة البقر في نفسه وكان قد أظهر الاسلام في بني اسرائيل فلما ذهب موسى الى ربه قال لهم هرون أنتم قد حملتم أوزارا من زينة القوم آل فرعون وأمتعة وحليا فتطهروا منها فانها نجس وأوقد لهم نارا فقال اقذفوا ما كان معكم من ذلك فيها فجعلوا يأتون بما كان معهم من تلك الأمتعة والحلي فيقذفون به فيها حتى اذا انكسر الحلي فيها ورأى السامري أثر فرس جبريل فأخذ ترابا من أثر حافره ثم أقبل الى النار فقال لهرون يا نبي الله ألقي ما في يدي ولا يظن هرون الا انه كبعض ما جاء به غيره من الحلي والأمتعة فقذفه فيها فقال كن عجلا جسدا له خوار فكان البلاء والفتنة فقال هذا الهكم واله موسى فعكفوا عليه وأحبوه حبا لم يحبوا شيئا مثله قط يقول الله عز وجل فنسي أي ترك ما كان عليه من الاسلام يعني السامري أفلا يرون أن لا يرجع اليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا فلما رأى هرون ما وقعوا فيه قال يا قوم انما فتنتم به وان ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى فأقام هرون فيمن معه من المسلمين ممن لم يفتتن وأقام من يعبد العجل على عبادة العجل وتخوف هرون ان سار بمن معه من المسلمين أن يقول له موسى فرقت بين بني اسرائيل ولم ترقب قولي وكان له هائبا مطيعا فقال تعالى مذكرا بني اسرائيل بهذه القصة التي

[...] حديث

الصعب والاسود بن سريع وليس فيه أمر من العذاب بتبني ولا اثبات وانما فيه انهم تبع لآبائهم في الحكم وانهم اذا أصيبوا في الجهاد والبيات لم يضمنوا بدية ولا كفارة وهذا (٣٩٢) مصرح به في حديث الصعب والاسود انه في الجهاد وأما حديث عائشة الآخر

فضعفه غير واحد قالوا وعبد الله بن أبي قيس مولى غطيف راويه عنها ليس بالمعروف فيقبل حديثه وعلى تقدير ثبوته فليس فيه تصريح بان السؤال وقع عن الثواب والعقاب والنبي قال هم من آبائهم ولم يقل هم معهم وفرق بين الحرفين وكونهم منهم لا يقتضي أن يكونوا معهم في أحكام الآخرة بخلاف كونهم منهم فانه يقتضي أن يثبت لهم أحكام الآباء في الدنيا من التوارث والحضانة والنسب وغير ذلك من أحكام الايلاد والله سبحانه يخرج الطيب من الخبيث والمؤمن من الكافر وأما حديث ابن مسعود فليس فيه ان هذا حكم كل واحد من أطفال المشركين وانما يدل على ان بعض أطفالهم في النار وان من هذا الجنس وهن الموؤدات من يدخل النار وكونها موؤدة لا يمنع من دخولها النار بسبب آخر وليس المراد ان كونها موؤدة هو السبب الموجب لدخول النار حتى يكون اللفظ عاما في كل موؤدة وهذا ظاهر ولكن كونها موؤدة لا يدفعها النار اذا استحقتها بسبب كما سيأتي بيانه بعد هذا ان شاء الله وأحسن من هذا ان يقال هي في النار ما لم يوجد سبب يمنع من دخولها النار كما سنذكره ان شاء الله ففرق بين ان يكون جهة كونها موؤدة هي التي استحقت بها دخول النار وبين كونها غير مانعة من دخول النار بسبب آخر واذا كان تعالى يسأل الوائدة عن وأدولدها بغير استحقاق ويعذبها على وأدها كما قال تعالى واذا الموؤدة سئلت فكيف يعذب الموؤدة بغير ذنب والله سبحانه لا يعذب من وأدها بغير ذنب وأما قوله والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بايمان ألحقنا بهم ذرياتهم فهذه الآية تدل على ان الله سبحانه يلحق ذرية المؤمنين بهم في الجنة وانهم يكونون معهم في درجتهم ومع هذا فلا

بوهم وللآباء الى درجة الذرية فان الله لم يلتهم أي لم ينقصهم من أعمالهم شيأ بل رفع ذرياتهم الى درجاتهم مع توفير أجور الآباء عليهم ولما كان الحاق الذرية بالآباء فى الدرجة انما هو بحكم التبعية لا بالاعمال ربما توهم متوهم ان ذرية الكفار يلحقون بهم فى العذاب تبعا وان لم يكن لهم أعمال الآباء فقطع تعالى هذا التوهم بقوله كل امرئ بما (٣٩٣) كسب رهين وتأمل قوله والذين آمنوا واتبعناهم ذرياتهم بايمان كيف أتى بالواو العاطفة فى اتباع الذرية وجعل الخبر عن المؤمنين الذين هذا شأنهم فجعل الخبر مستحقا بأمرين أحدهما ايمان الآباء والثانى اتباع الله ذريتهم اياهم وذلك لا يقتضى ان كل مؤمن يتبعه كل ذريته ولو أريد هذا المعنى لقيل والذين آمنوا تتبعهم ذرياتهم فعطف الاتباع بالواو يقتضى أن يكون المعطوف بها قيدا وشرطا فى ثبوت الخبر لا حصوله لكل افراد المبتدا وعلى هذا يخرج مارواه مسلم فى صحيحه عن عائشة قالت أتى النبى صلى الله عليه وسلم بصبى من الانصار يصلى عليه فقلت يارسول الله طوبى لهذا لم يعمل شرا ولم يدر به قال أو غير ذلك ياعائشة ان الله خلق الجنة وخلق لها أهلا وخلقها لهم وهم فى أصلاب آبائهم وخلق النار وخلق لها أهلا وخلقها لهم وهم فى أصلاب آبائهم فهذا الحديث يدل على انه لا يشهد لكل طفل من أطفال المؤمنين بالجنة وان أطلق على أطفال المؤمنين فى الجملة انهم فى الجنة لكن الشهادة للمعين ممتنعة كما يشهد للمؤمنين مطلقا انهم فى الجنة ولا يشهد لمعين بذلك الا من شهد له النبى صلى الله عليه وسلم فهذا وجه الحديث الذى يشكل على كثير من الناس ورده الامام أحمد وقال لا يصح ومن يشك ان أولاد المسلمين فى الجنة وتأوله قوم تأويلات بعيدة * المذهب الثامن انهم يمتحنون فى عرصات القيامة ويرسل اليهم هنالك رسول والى كل من لم يبلغه الدعوة فمن أطاع الرسول دخل الجنة ومن عصاه أدخله النار وعلى هذا فيكون بعضهم فى الجنة وبعضهم فى النار وبهذا يتألف شمل الادلة كلها وتتوافق الاحاديث ويكون معلوم الله الذى أحال عليه النبى صلى الله عليه وسلم حيث يقول الله أعلم بما كانوا

جرت لاسلافهم مع نبيهم واذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده يعنى من بعد ذهابه الى ربه وليس المراد من بعد موته وأنتم ظالمون أى بعبادة غير الله تعالى لان الشرك أظلم الظلم لان المشرك وضع العبادة فى غير موضعها فلما قدم موسى عليه السلام ورأى ما أصاب قومه من الفتنة اشتد غضبه وألقى الالواح عن رأسه وفيها كلام الله الذى كتبه له وأخذ برأس أخيه ولحيته ولم يعتب الله عليه فى ذلك لانه حمله عليه الغضب لله وكان الله عز وجل قد أعلمه بفتنة قومه ولكن لما رأى الحال مشاهدة حدث له غضب آخر فانه ليس الخبر كالمعاينة

(فصل) ومن تلاعب الشيطان بهذه الامة فى حياة نبيهم أيضا ما قصه الله تعالى فى كتابه حيث يقول واذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة أى عيانا قال ابن جرير ذكرهم الله تعالى بذلك اختلاف آبائهم وسوء استقامة أسلافهم لانبيائهم مع كثرة معاينتهم من آيات الله ما يثلج بأقلها الصدور وتطمئن بالتصديق معها النفوس وذلك مع تتابع الحجج عليهم وسبوغ النعم من الله تعالى لديهم وهم مع ذلك مرة يسألون نبيهم أن يجعل لهم الها غير الله ومرة يعبدون العجل من دون الله ومرة يقولون لا نصدقك حتى نرى الله جهرة وأخرى يقولون له اذا دعوا الى القتال اذهب أنت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون ومرة يقال لهم قولوا حطة وادخلوا الباب سجدا نغفر لكم خطاياكم فيقولون حبة فى شعرة ويدخلون من قبل استاههم ومرة يعرض عليهم العمل بالتوراة فيمتنعون من ذلك حتى نتق الله تعالى عليهم الجبل كأنه ظلة الى غير ذلك من أفعالهم التى آذوا بها نبيهم التى يكثر احصاؤها فأعلم ربنا تبارك وتعالى الذين خاطبهم بهذه الآيات من يهود بنى اسرائيل الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم انهم لن يعدوا أن يكونوا فى تكذيبهم محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم وجحودهم نبوته وتركهم الاقرار به وبما جاء به مع علمهم به ومعرفتهم بحقيقة أمره كأسلافهم وآبائهم الذين قص الله علينا قصصهم وقال محمد بن اسحق لما رجع موسى الى قومه فرأى ما هم فيه من عبادة العجل وقال لاخيه وللسامرى ما قال وحرق العجل وذراه فى اليم اختار موسى منهم سبعين رجلا الخير فالخير وقال انطلقوا الى الله عز وجل فتوبوا الى الله مما صنعتم واسألوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم فصوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم فخرج بهم الى طور سيناء لميقات وقته له ربه وكان لا يأتيه الا باذن منه فقال له السبعون فيما ذكر لى حين صنعوا ما أمرهم به وخرجوا للقاء الله ياموسى اطلب لنا الى ربك أن نسمع كلام ربنا فقال أفعل فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه الغمام حتى تغشى الجبل كله ودنا موسى ودخل فيه وقال للقوم ادنوا وكان موسى عليه السلام اذا كلمه ربه وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بنى آدم أن ينظر اليه فضرب دونه الحجاب ودنا القوم حتى اذا دخلوا فى الغمام

وقعوا سجودا فسمعوه تعالى وهو يكلم نبيه موسى يأمره وينهاه افعل ولا تفعل فلما فرغ الله من أمره انكشف عن موسى الغمام فأقبل اليهم فقالوا لموسى عليه السلام لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة فماتوا جميعا وقام موسى عليه السلام يناشد ربه ويدعوه ويرغب اليه ويقول رب لو شئت أهلكتهم من قبل واياى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا فان قيل فما مقصود موسى بقوله لو شئت أهلكتهم من قبل فقد ذكر فيه وجوه فقال السدى لما ماتوا قام موسى يبكى ويقول يا رب ما أقول لبنى اسرائيل اذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم وقال محمد بن اسحق اختير منهم سبعين رجلا الخير فالخير أرجع اليهم وليس معى رجل منهم واحد فما الذى يصدقونى أو يأمنونى عليه بعد هذا وعلى هذا فالمعنى لو شئت أهلكتهم من قبل خروجنا فكان بنو اسرائيل يعاينون ذلك ولا يتهمونى وقال الزجاج المعنى لو شئت أمتهم من قبل أن تبتليهم بما أوجب عليهم الرجفة قلت وهؤلاء كلهم حاموا حول المقصود والذى يظهر والله أعلم بمراده ومراد نبيه أن هذا استعطاف من موسى عليه السلام لربه وتوسل اليه بعفوه عنهم من قبل حين عبد قومهم العجل ولم يشكروا عليهم يقول موسى انهم قد تقدم منهم ما يقتضى هلاكهم ومع هذا فوسعهم عفوك ومغفرتك ولم تهلكهم فليسعهم اليوم ما وسعهم من قبل وهذا كمن واخذه سيده بجرم يقول لو شئت واخذتنى قبل هذا بما هو أعظم من هذا الجرم ولكن وسعنى عفوك أولا فليسعنى اليوم ثم قال نبى الله أتهلكنا بما فعل السفهاء منا فقال ابن الانبارى وغيره هذا استفهام على معنى الجحد أى لست تفعل ذلك والسفهاء هنا عبدة العجل قال الفراء ظن موسى انهم أهلكوا باتخاذ قومهم العجل فقال أتهلكنا بما فعل السفهاء منا وانما كان اهلاكهم بقولهم أرنا الله جهرة ثم قال ان هى الا فتنتك وهذا من تمام الاستعطاف أى ما هى الا ابتلاؤك واختبارك لعبادك فأنت ابتليتهم وامتحنتهم فالامر كله لك وبيدك لا يكشفه الا أنت كما لم يمتحن به ويختبر الا أنت فنحن عائذون بك منك ولاجئون منك اليك

(فصل) ومن تلاعب الشيطان بهذه الامة وكيده لهم انه قيل لهم وهم مع نبيهم والوحى ينزل عليه من الله تعالى ادخلوا هذه القرية قال قتادة وابن زيد والسدى وابن جرير وغيرهم هى قرية بيت المقدس فكلوا منها حيث شئتم رغدا أى هنيئا واسعا وادخلوا الباب سجدا قال السدى هو باب من أبواب بيت المقدس وكذلك قال ابن عباس رضى الله تعالى عنه قال والسجود بمعنى الركوع وأصل السجود الانحناء لمن يعظمه فكل منحن لشئ تعظيما له فهو ساجد قاله ابن جرير وغيره قلت وعلى هذا فانحناء المتلاقين عند السلام أحدهما لصاحبه من السجود المحرم وفيه نهى صريح عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ثم قيل لهم قولوا حطة أى حط عنا خطايانا هذا قول الحسن وقتادة وعطاء وقال

فالذين يظهر حينئذ ويقع الثواب والعقاب عليه حال كونه معلوما لا مجردا ويكون النبى صلى الله عليه وسلم قد رد جوابهم الى علم الله فيهم والله يرد ثوابهم وعقابهم الى معلومه منهم فالخبر عنهم مردود الى علمه ومصيرهم مردود الى معلومه وقد جاءت بذلك آثار كثيرة يؤيد بعضها بعضا فمنها ما رواه الامام أحمد فى مسنده والبزار أيضا باسناد صحيح فقال الامام أحمد حدثنا معاذ بن هشام عن أبيه عن قتادة عن الاحنف بن قيس عن الاسود بن سريع أن النبى صلى الله عليه وسلم قال أربعة يحتجون يوم القيامة رجل أصم لا يسمع ورجل هرم ورجل أحمق ورجل مات فى الفترة أما الاصم فيقول رب لقد جاء الاسلام وأنا ما أسمع شيئا وأما الاحمق فيقول رب لقد جاء الاسلام والصبيان يحذفونى بالبعر وأما الهرم فيقول رب لقد جاء الاسلام وما أعقل وأما الذى فى الفترة فيقول رب ما أتانى رسول فيأخذ مواثيقهم ليطيعنه فيرسل اليهم رسولا أن ادخلوا النار فوالذى نفسى بيده لو دخلوها لكانت عليهم بردا وسلاما قال معاذ وحدثنى أبى عن قتادة عن الحسن عن أبى رافع عن أبى هريرة بمثل هذا الحديث وقال فى آخره فمن دخلها كانت عليه بردا وسلاما ومن لم يدخلها رد اليها وهو فى مسند اسحق عن معاذ بن هشام أيضا ورواه البزار ولفظه عن الاسود ابن سريع عن النبى صلى الله عليه وسلم قال يعرض على الله تبارك وتعالى الاصم الذى لا يسمع شيئا والاحمق والهرم ورجل مات فى الفترة فيقول الاصم رب جاء الاسلام وما أسمع شيئا والاحمق يقول رب جاء الاسلام وما أعقل شيئا ويقول الذى مات فى الفترة رب ما أتانى لك رسول وذكر الهرم وما يقول قال فيأخذ مواثيقهم ليطيعنه فيرسل اليهم ادخلوا النار فوالذى نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم بردا وسلاما قال الحافظ عبد الحق فى حديث الاسود قد جاء هذا الحديث وهو عندكم صحيح فيما أعلم والآخرة ليست دار تكليف ولا عمل ولكن الله يخص من يشاء بما يشاء ويكلف من شاء ما شاء وحيث ما شاء لا يسأل عما يفعل وهم يسألون قلت وسيأتى الكلام على وقوع التكليف فى الدار الآخرة وامتحانهم عن قريب ان شاء الله ورواه على بن المدينى عن معاذ بنحوه قال

عكرمة وغيره أي قولوا لا إله إلا الله وكان أصحاب هذا القول اعتبروا الكلمة التي تحط بها الخطايا وهي كلمة التوحيد وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس أمروا بالاستغفار وعلى القولين فيكونون مأمورين بالدخول بالتوحيد والاستغفار وضمن لهم بذلك مغفرة خطاياهم فتلاعب الشيطان بهم فبدلوا قولا غير الذي قيل لهم وفعلا غير الذي أمروا به فروى البخاري في صحيحه ومسلم أيضا من حديث همام بن منبه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قيل لبني اسرائيل ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم فبدلوا القول والفعل معا فأنزل الله عليهم رجزا من السماء قال أبو العالية هو الغضب وقال ابن زيد هو الطاعون وعلى هذا فالطاعون بالرصد لمن بدل دين الله قولا وعملا

(فصل) ومن تلاعب الشيطان بهم أنهم كانوا في البرية قد ظلل عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى فملوا ذلك وذكروا عيش الثوم والبصل والعدس والبقل والقثاء فسألوه موسى عليه السلام وهذا من سوء اختيارهم لأنفسهم وقلة بصرهم بالأغذية النافعة الملائمة واستبدال الأغذية الضارة القليلة التغذية منها ولهذا قال لهم موسى عليه السلام أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصرا أي مصرا من الأمصار فإن لكم ما سألتم فكانوا في أفسح الأمكنة وأوسعها وأطيبها هواء وأبعدها عن الأذى ومجاورة الانتان والأقذار سقفهم الذي يظلهم من الشمس الغمام وطعامهم السلوى وشرابهم المن قال ابن زيد كان طعام بني اسرائيل في التيه واحدا وشرابهم واحدا كان شرابهم عسلا ينزل من السماء يقال له المن وطعامهم طير يقال له السلوى يأكلون الطير ويشربون العسل لم يكن لهم خبز ولا غيره ومعلوم فضل هذا الغذاء والشراب على غيرهما من الأغذية والأشربة وكان مع ذلك ينفجر لهم من الحجر اثنتا عشرة عينا من الماء فطلبوا الاستبدال بما هو دون ذلك بكثير فذموا على ذلك فكيف بمن استبدل الضلال بالهدى والغي بالرشاد والشرك بالتوحيد والسنة بالبدعة وخدمة الخالق بخدمة المخلوق والعيش الطيب في المساكن الطيبة في جوار الله تعالى بحظه من العيش النكد الفاني في هذه الدار

(فصل) ومن تلاعبه بهم أنهم لما عرضت عليهم التوراة لم يقبلوها وقد شاهدوا من الآيات ما شاهدوه حتى أمر الله سبحانه جبريل فقلع جبلا من أصله على قدرهم ثم رفعه فوق رؤسهم وقيل لهم ان لم تقبلوها ألقيناه عليكم فقبلوها كرها قال الله تعالى وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون قال عبد الله بن وهب قال ابن زيد لما رجع موسى من عند ربه بالألواح قال لبني اسرائيل ان هذه الألواح فيها كتاب الله وأمره الذي أمركم به ونهيه الذي نهاكم عنه فقالوا

البيهقي ثنا علي بن محمد بن بشران أنا أبو جعفر الرزاز أنا حنبل بن إسحق أنا علي بن عبد الله وقال هذا اسناد صحيح وأما حديث علي بن زيد بن جدعان عن أبي رافع عن أبي هريرة عن النبي نحوه ورواه معمر عن عبد الله بن طاوس عن أبيه عن أبي هريرة قوله وروى محمد بن المبارك الصوري ثقة ثنا عمرو بن واقد ضعيف ثنا يونس بن ميسرة ثقة عن أبي ادريس الخولاني (٣٩٥) عن معاذ يرفعه يؤتى يوم القيامة بالممسوخ عقلا وبالهالك في الفترة وبالهالك صغيرا فيقول الممسوخ عقلا يا رب لو آتيتني عقلا ما كان من آتيته عقلا بأسعد مني ويقول الهالك في الفترة يا رب لو أتاني منك عهد ما كان من أتاه منك عهد بأسعد بعهده مني ويقول الهالك صغيرا يا رب لو آتيتني عمرا ما كان من آتيته عمرا بأسعد مني فيقول الرب سبحانه لئن أمرتكم بأمر فتطيعوني فيقولون نعم وعزتك فيقول اذهبوا فادخلوا النار فلو دخلوها ما ضرتهم قال فيخرج عليهم قوابص يظنون أنها قد أهلكت ما خلق الله من شيء فيرجعون ويقولون يا ربنا خرجنا وعزتك نريد دخولها فخرجت علينا قوابص من نار ظننا أنها قد أهلكت ما خلق الله من شيء فيأمرهم ثانية فيرجعون كذلك ويقولون مثل قولهم فيقول الله قبل أن تخلقوا علمت ما أنتم عاملون وعلى علمي خلقتكم وإلى علمي تصيرون فتأخذهم النار فهذا وان كان عمرو بن واقد لا يحتج به فله أصل وشواهد والأصول تشهد له وفي الباب أحاديث غير هذا وقد رويت أحاديث الامتحان في الآخرة من حديث الأسود بن سريع وصححه عبد الحق والبيهقي من حديث أبي هريرة وأنس ومعاذ وأبي سعيد فأما حديث الأسود فرواه معاذ بن هشام عن أبيه عن قتادة عن الأحنف بن قيس عن الأسود بن سريع أن النبي صلى الله عليه وسلم قال معاذ وحدثني أبي عن قتادة عن الحسن عن أبي رافع عن أبي هريرة ورواه أحمد وإسحق عن معاذ ورواه حماد بن سلمة عن علي بن زيد بن جدعان عن أبي رافع عن أبي هريرة ورواه معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن أبي هريرة موقوفا عليه وهذا لا يضر الحديث فإنه ان سلك طريق ترجيح الزيادة فواضح وان سلك طريق المعارضة فغايتها تحقق الوقف ومثل هذا لا يقدم عليه بالرأي اذ لا مجال له فيقبل بجزم بأن هذا توقيف لا

ومن يأخذ بقولك أنت لا والله حتى نرى الله جهرة حتى يطلع الله الينا فيقول هذا كتابي فخذوه فماله لا يكلمنا كما كلمك أنت ياموسى فيقول هذا كتابي فخذوه فجاءت غضبة من الله تعالى فجاءتهم صاعقة فصعقتهم فماتوا أجمعون قال ثم أحياهم الله تعالى بعد موتهم فقال لهم موسى خذوا كتاب الله فقالوا لا فقال أى شئ أصابكم قالوا متنا ثم حيينا فقال خذوا كتاب الله قالوا لا قال فبعث الله ملائكته فنتقت الجبل فوقهم فقيل لهم أتعرفون هذا قالوا نعم الطور قال خذوا الكتاب والا طرحناه عليكم قال فأخذوه بالميثاق وقال السدى لما قال الله تعالى لهم ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة فأبوا أن يسجدوا فأمر الله الجبل أن يرتفع فوق رؤسهم فنظروا اليه وقد غشيهم فسقطوا سجدا على شق ونظروا بالشق الآخر فكشفه عنهم ثم تولوا من بعد هذه الآيات وأعرضوا ولم يعملوا بما فى كتاب الله ونبذوه وراء ظهورهم فقال تعالى مذكرا لهؤلاء بما جرى من أسلافهم واذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ثم توليتم من بعد ذلك فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين

(فصل) ومن تلاعبه بهم أن الله سبحانه أنجاهم من فرعون وسلطانه وظلمه وفرق بهم البحر وأراهم الآيات والعجائب ونصرهم وآواهم وأعزهم وآتاهم مالم يؤت أحدا من العالمين ثم أمرهم أن يدخلوا القرية التى كتب الله لهم وفى ضمن هذا بشارتهم بأنهم منصورون ومفتوح لهم وان تلك القرية لهم فأبوا طاعته وامتثال أمره وقابلوا هذا الأمر والبشارة بقولهم اذهب أنت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون وتأمل لطف نبى الله تعالى موسى عليه السلام بهم وحسن خطابه لهم وتذكيرهم بنعم الله عليهم وبشارتهم بوعد الله لهم بان القرية مكتوبة لهم ونهيهم عن معصيته بارتدادهم على أدبارهم وانهم ان عصوا أمره ولم يمتثلوا انقلبوا خاسرين فجمع لهم بين الأمر والنهى والبشارة والنذارة والترغيب والترهيب والتذكير بالنعم السالفة فقابلوه أقبح المقابلة فعارضوا أمر الله تعالى بقولهم ياموسى ان فيها قوما جبارين فلم يوقروا رسول الله وكليمه حتى نادوه باسمه ولم يقولوا يانبى الله وقالوا ان فيها قوما جبارين ونسوا قدرة جبار السموات والارض الذى يذل الجبابرة لاهل طاعته وكان خوفهم من أولئك الجبارين الذين نواصيهم بيد الله أعظم من خوفهم من الجبار الأعلى سبحانه وكانوا أشد رهبة فى صدورهم منه ثم صرحوا بالمعصية والامتناع من الطاعة فقالوا انا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فأكدوا معصيتهم بأنواع من التأكيد أحدها تمهيد عذر العصيان بقولهم ان فيها قوما جبارين والثانى تصريحهم بأنهم غير مطيعين وصدروا الجملة بحرف تأكيد وهو ان ثم حققوا النفى بأداة لن الدالة على نفى المستقبل أى لا ندخلها الآن ولا فى المستقبل ثم علقوا دخولها

وأما حديث أنس فرواه [illegible] بن عبد الحميد عن ليث بن أبي سليم عن عبد الوارث عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم يؤتى يوم القيامة بأربعة بالمولود وبالمعتوه وبمن مات فى الفترة وبالشيخ الفانى كلهم يتكلم بحجته فيقول الرب سبحانه لعنق من جهنم ابرزى ويقول لهم انى كنت أبعث الى عبادى رسولا من أنفسهم وانى رسول نفسى اليكم قال ويقول لهم ادخلوا هذه ويقول من كتب عليه الشقاء أنى ندخلها ومنها كنا نفر قال وأما من كتب عليه السعادة فيمضى فيقتحم فيها فيقول الله فأنتم لرسلى أشد تكذيبا فيدخل هؤلاء الى الجنة وهؤلاء الى النار وهذا وان لم يعتمد عليه بمجرده لمكان ليث بن أبي سليم عن عبد الرزاق عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم وأما حديث معاذ فتقدم الكلام عليه وأما حديث أبي سعيد فرواه محمد بن يحيي الذهلى اخبرنا سعيد بن سليمان عن فضيل بن مرزوق عن عطية عن أبي سعيد قال قال رسول الله الهالك فى الفترة والمعتوه والمولود يقول الهالك فى الفترة لم يأتنى كتاب ويقول المعتوه رب لم تجعل لى عقلا أعقل به خيرا ولا شرا ويقول المولود رب لم أدرك العقل فيرفع لهم نارا فيقول ردوها قال فيردها من كان فى علم الله سعيدا لو أدرك العمل ويمسك عنها من كان فى علم الله شقيا لو أدرك العمل فيقول اياى عصيتم فكيف لو رسلى أتتكم تابعه الحسن بن موسى عن فضيل ورواه أبو نعيم عن فضيل بن مرزوق فوقفه فهذا وان كان فيه عطية فهو ممن يعتبر بحديثه ويستشهد به وان لم يكن حجة وأما الوقف فقد تقدم نظيره من حديث أبي هريرة فهذه الاحاديث يشد بعضها بعضا ويشهد لها أصول الشرع وقواعده والقول بمضمونها هو مذهب السلف والسنة نقله عنهم الاشعرى رحمه الله فى المقالات وغيرها فان قيل قد أنكر ابن عبد البر هذه الاحاديث وقال أهل العلم ينكرون أحاديث هذا الباب لان الآخرة ليست دار عمل ولا ابتلاء وكيف يكلفون دخول النار وليس ذلك فى وسع المخلوقين والله لا يكلف نفسا الا وسعها فالجواب من وجوه أحدها ان أهل العلم لم يتفقوا على انكارها بل ولا أكثرهم وان أنكرها بعضهم فقد صحح غيره بشروط

بشروط خروج الجبارين منها فقال لهم رجلان من الذين أنعم الله عليهما بطاعته والانقياد الى أمره من الذين يخافون الله هذا قول الاكثرين وهو الصحيح وقيل من الذين يخافونهم من الجبارين اسلما واتبعا موسى عليه السلام ادخلوا عليهم الباب أى باب القرية فاهجموا عليهم فانهم قد ملئوا منكم رعبا فاذا دخلتموه فانكم غالبون ثم أرشداهم الى ما يحقق النصر والغلبة لهم وهو التوكل فكان جواب القوم أن قالوا ياموسى انا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون فسبحان من عظم حلمه حيث يقابل أمره بمثل هذه المقابلة ويواجه رسوله بمثل هذا الخطاب وهو يحلم عنهم ولا يعاجلهم بالعقوبة بل وسعهم حلمه وكرمه وكان أقصى ما عاقبهم به أن ردهم فى برية التيه أربعين عاما يظلل عليهم الغمام من الحر وينزل عليهم المن والسلوى وفى الصحيحين عن عبد الله ابن مسعود رضى الله عنه قال لقد شهدت من المقداد بن الاسود مشهدا لأن أكون صاحبه أحب الى مما عدل به أتى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وهو يدعو على المشركين فقال لا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون ولكنا نقاتل عن يمينك وشمالك وبين يديك ومن خلفك فرأيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أشرق وجهه لذلك وسر به فلما قابلوا نبى الله بهذه المقابلة قال رب انى لا أملك الا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين قال فانها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الارض فلا تأس على القوم الفاسقين

(فصل) ومن تلاعبه بهم فى حياة نبيهم أيضا ما قصه الله سبحانه وتعالى فى كتابه من قصة القتيل الذى قتلوه وتدافعوا فيه حتى أمروا بذبح بقرة وضربه ببعضها وفى هذه القصة أنواع من العبر منها الاخبار بها من أعلام نبوة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ومنها الدلالة على نبوة موسى وأنه رسول رب العالمين ومنها الدلالة على صحة ما اتفقت عليه الرسل من أولهم الى خاتمهم من معاد الابدان وقيام الموتى من قبورهم ومنها اثبات الفاعل المختار وانه عالم بكل شئ قادر على كل شئ عدل لا يجوز عليه الظلم والجور حكيم لا يجوز عليه العبث ومنها اقامة أنواع الآيات والبراهين والحجج على عباده بالطرق المتنوعات زيادة فى هداية المهتدى واعذارا وانذارا للضال ومنها أنه لا ينبغى مقابلة أمر الله تعالى بالتعنت وكثرة الاسئلة بل يبادر الى الامتثال فانهم لما أمروا أن يذبحوا بقرة كان الواجب عليهم أن يبادروا الى الامتثال بذبح أى بقرة اتفقت فان الامر بذلك لا اجمال فيه ولا اشكال بل هو بمنزلة قوله أعتق رقبة وأطعم مسكينا وصم يوما ونحو ذلك ولذلك غلط من احتج بالآية على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب فان الآية غنية عن البيان المنفصل مبينة بنفسها ولكن لما تعنتوا وشددوا شدد عليهم قال أبو جعفر عن الربيع عن أبى العالية لو أن القوم حين أمروا أن يذبحوا بقرة استعرضوا بقرة من البقر فذبحوها

بعضها كما تقدم الثانى ان أبا الحسن الاشعرى حكى هذا المذهب عن أهل السنة والحديث فدل على انهم ذهبوا الى موجب هذه الاحاديث الثالث ان اسناد حديث الاسود أجود من كثير من الاحاديث التى يحتج بها فى الاحكام ولهذا رواه الائمة أحمد واسحق وعلى بن المدينى الرابع انه قد نص جماعة من الائمة على وقوع الامتحان فى الدار الآخرة وقالوا لا ينقطع التكليف الا بدخول دار القرار ذكره البيهقى عن غير واحد من السلف الخامس ما ثبت فى الصحيحين من حديث أبى هريرة وأبى سعيد فى الرجل الذى هو آخر أهل الجنة دخولا اليها ان الله سبحانه يأخذ عهوده ومواثيقه أن لا يسأله غير الذى يعطيه وانه يخالفه ويسأله غيره فيقول الله تعالى ما أغدرك وهذا الغدر منه هو لمخالفته للعهد الذى عاهد ربه عليه السادس قوله وليس ذلك فى وسع المخلوقين جوابه من وجهين أحدهما ان ذلك ليس تكليفا بما ليس فى الوسع وانما هو تكليف بما فيه مشقة شديدة وهو كتكليف بنى اسرائيل قتل أولادهم وأزواجهم وآبائهم حين عبدوا العجل وكتكليف المؤمنين اذا رأوا الدجال ومعه مثال الجنة والنار أن يقعوا فى الذى يرونه نارا الثانى انهم لو أطاعوه ودخلوها لم يضرهم وكانت بردا وسلاما فلم يكلفوا بممتنع ولا بما لم يستطع السابع انه قد ثبت انه سبحانه يأمرهم فى القيامة بالسجود ويحول بين المنافقين وبينه وهذا تكليف بما ليس فى الوسع قطعا فكيف ينكر التكليف بدخول النار فى رأى العين اذا كانت سببا للنجاة كما جعل قطع الصراط الذى هو أدق من الشعرة وأحد من السيف سببا كما قال أبو سعيد الخدرى بلغنى انه أدق من الشعرة وأحد من السيف رواه مسلم فركوب هذا الصراط الذى هو فى غاية المشقة كالنار ولهذا كلاهما يفضى منه الى النجاة والله أعلم الثامن ان هذا استبعاد مجرد لا ترد بمثله الاحاديث والناس لهم طريقان فمن سلك طريق المشيئة المجردة لم يمكنه أن يستبعد هذا التكليف ومن سلك طريق الحكمة والتعليل لم يكن معه حجة تنفى أن يكون هذا التكليف موافقا للحكم بل الادلة الصحيحة تدل على انه مقتضى الحكمة كما ذكرناه التاسع ان فى أصح هذه الاحاديث وهو

لكانت اياها ولكنهم شددوا على أنفسهم فشدد عليهم ومنها أنه لا يجوز مقابلة أمر الله الذى لا يعلم المأمور وجه الحكمة فيه بالانكار وذلك نوع من الكفر فان القوم لما قال لهم نبيهم ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قابلوا هذا الأمر بقولهم أتتخذنا هزوا فلما لم يعلموا وجه الحكمة فى ارتباط هذا الأمر بما سألوه عنه قالوا أتتخذنا هزوا وهذا من غاية جهلهم بالله ورسوله فانه أخبرهم عن أمر الله لهم بذلك ولم يكن هو الآمر به ولو كان هو الآمر به لم يجز لمن آمن بالرسول أن يقابل أمره بذلك فلما قال لهم أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين وتيقنوا أن الله سبحانه أمره بذلك أخذوا فى التعنت بسؤالهم عن عينها ولونها فلما أخبروا عن ذلك رجعوا الى السؤال مرة ثالثة عن عينها فلما تعينت لهم ولم يبق اشكال توقفوا فى الامتثال ولم يكادوا يفعلون ثم من أقبح جهلهم وظلمهم قولهم لنبيهم الآن جئت بالحق فان أرادوا بذلك انك لم تأت بالحق قبل ذلك فى أمر البقرة فتلك ردة وكفر ظاهر وان أرادوا انك الآن بينت لنا البيان التام فى تعيين البقرة المأمور بذبحها فذلك جهل ظاهر فان البيان قد حصل بقوله ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة فانه لا اجمال فى الأمر ولا فى الفعل ولا فى المذبوح فقد جاء رسول الله بالحق من أول مرة قال محمد بن جرير وقد كان بعض من سلف يزعم أن القوم ارتدوا عن دينهم وكفروا بقولهم لموسى الآن جئت بالحق وزعم أن ذلك نفى منهم أن يكون موسى عليه السلام أتاهم بالحق فى أمر البقرة قبل ذلك وأن ذلك كفر منهم قال وليس الأمر كما قال عندنا لانهم قد أذعنوا بالطاعة بذبحها وان كان قولهم الذى قالوا لموسى جهلا منهم وهفوة من هفواتهم

(فصل) ومن الأخبار عن قسوة قلوب هذه الأمة وغلظها وعدم تمكن الايمان فيها قال عبد الصمد بن معقل عن وهب كان ابن عباس يقول ان القوم بعد ان أحيا الله تعالى الميت فأخبرهم بقاتله أنكروا قتله وقالوا والله ما قتلناه بعد ان رأوا الآيات والحق قال تعالى ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة ومنها مقابلة الظالم الباغى بنقيض قصده شرعا وقدرا فان قصده ميراث المقتول ودفع القتل عن نفسه ففضحه الله تعالى وهتكه وحرمه ميراث المقتول ومنها أن بنى اسرائيل فتنوا بالبقرة مرتين من بين سائر الدواب ففتنوا بعبادة العجل وفتنوا بالأمر بذبح البقرة والبقر من أبلد الحيوان حتى يضرب به المثل والظاهر أن هذه القصة كانت بعد قصة العجل ففى الأمر بذبح البقرة تنبيه على أن هذا النوع من الحيوان الذى لا يمتنع من الذبح والحرث والسقى لا يصلح أن يكون الها معبودا من دون الله تعالى وانه انما يصلح للذبح والحرث والسقى والعمل

(فصل) ومن تلاعبه بهذه الأمة أيضا ما قصه الله تعالى علينا من قصة أصحاب السبت حتى مسخهم قردة لما تحيلوا على استحلال محارم الله تعالى ومعلوم أنهم كانوا يعصون الله تعالى

يسجد بيت الاخدود لثم يطلبون زعمهم الموائق ليطيعه فيما يأمرهم به فيأمرهم تنبيه أن يدخلوا النار الامتحان ليتركوا الشرك لمعصية لا امره لا لعجزهم عنه فكيف يقال انه ليس فى الوسع فان قيل فالآخرة دار جزاء وليست دار تكليف فكيف يمتحنون فى غير دار التكليف فالجواب ان التكليف انما ينقطع بعد دخوله دار القرار وأما فى البرزخ وعرصات القيامة فلا ينقطع وهذا معلوم بالضرورة من الدين من وقوع التكليف بمسئلة الملكين فى البرزخ وهى تكليف وأما فى عرصة القيامة فقال تعالى يوم يكشف عن ساق ويدعون الى السجود فلا يستطيعون فهذا صريح فى ان الله يدعو الخلائق الى السجود يوم القيامة وان الكفار يحال بينهم وبين السجود اذ ذاك ويكون هذا التكليف بما لا يطاق حينئذ حسا عقوبة لهم لانهم كلفوا به فى الدنيا وهم يطيقونه فلما امتنعوا منه وهو مقدور لهم كلفوا به وهم لا يقدرون عليه حسرة عليهم وعقوبة لهم ولهذا قال تعالى وقد كانوا يدعون الى السجود وهم سالمون دعوا اليه فى وقت حيل بينهم وبينه كما فى الصحيح من حديث زيد بن أسلم عن عطاء عن أبى سعيد ان ناسا قالوا يارسول الله هل نرى ربنا فذكر الحديث بطوله الى ان قال فيقول تتبع كل أمة ما كانت تعبد فيقول المؤمنون فارقنا الناس فى الدنيا أفقر ما كنا اليهم ولم نصاحبهم فيقول أنا ربكم فيقولون نعوذ بالله منك لا نشرك بالله شيئا مرتين أو ثلاثا حتى ان بعضهم ليكاد أن ينقلب فيقول هل بينكم وبينه آية تعرفونه بها فيقولون نعم فيكشف عن ساق فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه الا أذن الله له بالسجود ولا يبقى من كان يسجد اتقاء ورياء الا جعل الله ظهره طبقة واحدة كلما أراد أن يسجد خر على قفاه ثم يرفعون رؤسهم وذكر الحديث وهذا التكليف نظير تكليف البرزخ بالمسئلة فمن أجاب فى الدنيا طوعا واختيارا أجاب فى البرزخ ومن امتنع من الاجابة فى الدنيا منع منها فى البرزخ ولم يكن تكليفه فى الحال وهو غير قادر قبيحا بل هو مقتضى الحكمة الالهية لانه مكلف وقت القدرة وأبى فاذا كلف وقت العجز وقد حيل بينه وبين الفعل كان عقوبة له وحسرة

تعالى با كل الحرام واستباحة الفروج بالحرام والدم الحرام وذلك أعظم اثما من مجرد العمل يوم السبت ولكن لما استحلوا محارم الله تعالى بادنى الحيل وتلاعبوا بدينه وخادعوه مخادعة الصبيان ومسخوا دينه بالاحتيال مسخهم الله تعالى قردة وكان الله تعالى قد أباح لهم الصيد فى كل أيام الاسبوع الا يوما واحدا فلم يدعهم حرصهم وجشعهم حتى تعدوا الى الصيد فيه وساعد القدر بان عوقبوا بامساك الحيتان عنهم فى غير يوم السبت وارسالها عليهم يوم السبت وهكذا يفعل سبحانه بمن تعرض لمحارمه فانه يرسلها عليه بالقدر حتى يذوق ٧ اليه بابها سدا فانظر مافعل الحرص وما أوجب من الحرمان بالكلية ومن ههنا قيل من طلبه كله فاته كله

(فصـل) ومن تلاعب الشيطان بهم أيضا انهم لما حرمت عليهم الشحوم أذابوها ثم باعوها وأ كلوا اثمانها وهذا من عدم فقههم وفهمهم عن الله تعالى دينه فان ثمنها بدل منها فتحريمها تحريم لبدلها والمعاوضة عنها كما ان تحريم الخمر والميتة ولحم الخنزير يتناول تحريم أعيانها وابدالها ومن تلاعبه بهم اتخاذ قبور أنبيائهم مساجد وقد لعنهم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على ذلك ولعنته تتناول فعلهم ومن تلاعبه بهم انهم كانوا يقتلون الأنبياء الذين لاتنال الهداية الاعلى أيديهم ويتخذون أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله تعالى يحرمون عليهم ويحلون لهم فيأخذون بتحريمهم وتحليلهم ولا يلتفتون هل ذلك التحريم والتحليل من عند الله تعالى أولا قال عدى بن حاتم اتيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فسألته عن قوله اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله فقلت يارسول الله ما عبدوهم فقال حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاطاعوهم فكانت تلك عبادتهم اياهم رواه الترمذى وغيره وهذا من أعظم تلاعب الشيطان بالانسان أن يقتل أو يقاتل من هداه على يديه ويتخذ من لم يضمن له عصمته ندا يحرم عليه ويحلل له ومن تلاعبه بهم ما كان منهم فى شان زكريا ويحيى عليهما السلام وقتلهم اياهما حتى سلط عليهم بختنصر وسنجاريب وجنودهما فنالوا منهم مانالوه ثم كان منهم فى شان المسيح ورميه وأمه بالعظائم وهم يعلمون أنه رسول الله تعالى اليهم فكفروا به بغيا وعنادا وراموا قتله وصلبه فصانه الله تعالى من ذلك ورفعه اليه وطهره منهم فاوقعوا القتل والصلب على شبهه وهم يظنون أنه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فانتقم الله تعالى منهم ودمر عليهم أعظم تدمير وألزمهم كلهم حكم الكفر بتكذيبهم بالمسيح كما ألزم النصارى معهم حكم الكفر بتكذيبهم بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم ولم يزل أمر اليهود بعد تكذيبهم بالمسيح وكفرهم به فى سفال ونقص الى ان قطعهم الله تعالى فى الارض أمما ومزقهم كل ممزق وسلبهم عزهم وملكهم فلم يقم لهم بعد ذلك ملك الى أن بعث الله تعالى محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم فكفروا به وكذبوه فاتم عليهم غضبه ودمرهم غاية التدمير وألزمهم ذلا

والمقصود ان التكليف لا ينقطع الا بعد دخول الجنة أو النار وقد تقدم ان حديث الاسود بن سريع صحيح وفيه التكليف فى عرصة القيامة فهو مطابق لما ذكرنا من النصوص الصحيحة الصريحة فعلم ان الذى تدل عليه الادلة الصحيحة وتأتلف به النصوص ومقتضى الحكمة هذا القول والله أعلم وقد حكى بعض أهل المقالات عن عامر بن أشرس انه ذهب الى ان الاطفال يصيرون فى يوم القيامة ترابا وقد نقل عن ابن عباس ومحمد بن الحنفية والقاسم بن محمد وغيرهم انه كرهوا الكلام فى هذه المسئلة جملة * الطبقة الخامسة عشر طبقة الزنادقة وهم قوم أظهروا الاسلام ومتابعة الرسل وأبطنوا الكفر ومعاداة الله ورسله وهؤلاء المنافقون وهم فى الدرك الاسفل من النار قال تعالى ان المنافقين فى الدرك الاسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا فالكفار المجاهرون بكفرهم أخف وهم فوقهم فى دركات النار لان الطائفتين اشتركتا فى الكفر ومعاداة الله ورسله وزادت المنافقون عليهم بالكذب والنفاق وبلية المسلمين بهم أعظم من بليتهم بالكفار المجاهرين ولهذا قال تعالى فى حقهم هم العدو فاحذرهم ومثل هذا اللفظ يقتضى الحصر أى لاعدو الا هم ولكن لم يرد ههنا حصر العداوة فيهم وانهم لاعدو للمسلمين سواهم بل هذا من اثبات الاولوية والاحقية لهم فى هذا الوصف وانه لايتوهم بانتسابهم الى المسلمين ظاهرا وموالاتهم بهم ومخالطتهم اياهم انهم ليسوا باعدائهم بل هم أحق بالعداوة ممن باينهم فى الدار ونصب لهم العداوة وجاهرهم بها فان ضرر هؤلاء المخالطين لهم المعاشرين لهم وهم فى الباطن على خلاف دينهم أشد عليهم من ضرر من جاهرهم بالعداوة وألزم وأدوم لان الحرب مع أولئك ساعة أو أياما ثم ينقضى ويعقبه النصر والظفر وهؤلاء معهم فى الديار والمنازل صباحا ومساء يدلون العدو على عوراتهم ويتربصون بهم الدوائر ولا يمكنهم مناجزتهم فهم أحق بالعداوة من المباين المجاهر فلهذا قيل هم العدو فاحذرهم لا على معنى انه لا عدو لكم سواهم بل على معنى انهم أحق بان يكونوا لكم عدوا من الكفار المجاهرين ونظير ذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم ليس المسكين الطواف الذى ترده اللقمة

وصغارا لا يرفع عنهم الى أن ينزل أخوه المسيح بن مريم من السماء فيستأصل شأفتهم ويطهر الارض منهم ومن عباد الصليب قال تعالى بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباؤا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين فالغضب الاول بسبب كفرهم بالمسيح والغضب الثانى بسبب كفرهم بمحمد صلوات الله وسلامه عليهما

(فصل) ومن تلاعب الشيطان بهذه الأمة أنه ألقى اليهم أن الرب تعالى محجور عليه فى نسخ الشرائع فحجروا عليه أن يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد وجعلوا هذه الشبهة الشيطانية ترسا لهم فى جحد نبوة رسول الله عليه السلام وقرروا ذلك بان النسخ يستلزم البداء وهو على الله تعالى محال وقد أكذبهم الله تعالى فى نص التوراة كما أكذبهم فى القرآن قال الله تعالى كل الطعام كان حلا لبنى اسرائيل الا ما حرم اسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون قل صدق الله فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين فتضمنت هذه الآيات بيان كذبهم صريحا فى ابطال النسخ فانه سبحانه وتعالى أخبر أن الطعام كله كان حلا لبنى اسرائيل قبل نزول التوراة سوى ما حرم اسرائيل على نفسه منه ومعلوم أن بنى اسرائيل كانوا على شريعة أبيهم اسرائيل وملته وان الذى كان لهم حلالا انما هو بإحلال الله تعالى له على لسان اسرائيل والأنبياء بعده الى حين نزول التوراة ثم جاءت التوراة بتحريم كثير من المآكل عليهم التى كانت حلالا لبنى اسرائيل وهذا محض النسخ وقوله تعالى من قبل أن تنزل التوراة وهم يعلمون ذلك ثم قال تعالى قل فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين هل تجدون فيها أن اسرائيل حرم على نفسه ما حرمته التوراة عليكم أم تجدون فيها تحريم ما خصه بالتحريم وهى لحوم الابل وألبانها خاصة واذا كان انما حرم هذا وحده وكان ما سواه حلالا له ولبنيه وقد حرمت التوراة كثيرا منه ظهر كذبكم وافتراؤكم فى انكار نسخ الشرائع والحجر على الله تعالى فى نسخها فتأمل هذا الموضع الشريف الذى حام حوله أكثر المفسرين وما وردوه وهذا أولى من احتجاج كثير من أهل الكلام عليهم بأن التوراة حرمت أشياء كثيرة من المناكح والذبائح والافعال والاقوال وذلك نسخ بحكم البراءة الاصلية فان هذه المناظرة ضعيفة جدا فان القوم لم ينكروا رفع البراءة الاصلية بالتحريم والايجاب اذ هذا شأن كل الشرائع وانما أنكروا تحريم ما أباحه الله تعالى فيجعله حراما أو تحليل ما كان حرمه فيجعله مباحا وأما رفع البراءة والاستصحاب فلم ينكره أحد من أهل الملل ثم يقال لهذه الأمة الغضبية هل تقرون انه كان قبل التوراة شريعة أم لا فهم لا ينكرون أن يكون قبل التوراة شريعة فيقال لهم فهل رفعت التوراة شيأ من أحكام تلك الشرائع المتقدمة أم لا فان قالوا لم ترفع

شيئا

بالقشاش ... الفقير ... الذى لا يسأل الناس ولا يفطن له فيتصدق عليه فليس هذا نفيا لاسم المسكين عن الطواف بل اخبار بان هذا القانع الذى لا يسمونه مسكينا أحق بهذا الاسم من الطواف الذى يسمونه مسكينا ونظيره قوله ليس الشديد بالصرعة ولكن الذى يملك نفسه عند الغضب ليس نفيا للاسم عن الصرعة ولكن اخبار بان من يملك نفسه عند الغضب أحق منه بهذا الاسم ونظيره قوله ما تعدون المفلس فيكم قالوا من لا درهم له ولا متاع قال المفلس من يأتى يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال ويأتى قد لطم هذا وضرب هذا وأخذ مال هذا فيأخذ هذا من حسناته وهذا من حسناته فان فنيت حسناته قبل ان يقضى ما عليه أخذ من سيئاتهم ثم طرح عليه ثم ألقى فى النار ونظيره قوله ما تعدون الرقوب فيكم قالوا من لا يولد له قال الرقوب من لم يقدم من ولده شيئا ومنه عندى قوله صلى الله عليه وسلم الربا فى النسيئة وفى لفظ انما الربا فى النسيئة هو اثبات لان هذا النوع هو أحق باسم الربا من ربا الفضل وليس فيه نفى اسم الربا عن ربا الفضل فتأمله والمقصود ان هذه الطبقة أشقى الاشقياء ولهذا يستهزأ بهم فى الآخرة ويعطى نورا يتوسطون به على الصراط ثم يطفئ الله نورهم ويقال لهم ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا ويضرب بينهم وبين المؤمنين بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الامانى حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور وهذا أشد ما يكون من الحسرة والبلاء أن يفتح للعبد طريق النجاة والفلاح حتى اذا ظن انه ناج ورأى منازل السعداء اقتطع عنهم وضربت عليهم الشقوة ونعوذ بالله من غضبه وعقابه وانما كانت هذه الطبقة فى الدرك الاسفل لغلظ كفرهم فانهم خالطوا المسلمين وعاشروهم وباشروا من اعلام الرسالة وشواهد الايمان ما لم يباشره البعداء ووصل اليهم من معرفته وصحته ما لم يصل الى المنابذين بالعداوة فاذا كفروا مع هذه المعرفة والعلم كانوا أغلظ كفرا وأخبث قلوبا وأشد عداوة لله ولرسوله وللمؤمنين من البعداء عنهم وان كان البعداء متصدين لحرب

شيأ من أحكام تلك الشرائع فقد جاهروا بالكذب والبهت وان قالوا قد رفعت بعض الشرائع المتقدمة فقد أقروا بالنسخ قطعا وأيضا فيقال للأمة الغضبية هل أنتم اليوم على ما كان عليه موسى عليه السلام فان قالوا نعم قلنا أليس من مس عظم ميت أو وطئ قبرا أو حضر ميتا عند موته فانه يصير من النجاسة بحال لا يخرج له منها الا رماد البقرة التى كان الامام الهارونى يحرقها فلا يمكنهم انكار ذلك فيقال لهم فهل أنتم اليوم على ذلك فان قالوا لا نقدر عليه فنقول لهم لم جعلتم أن من مس العظم والقبر والميت طاهرا يصلح للصلاة والذى في كتابكم خلافه فان قالوا لانا عدمنا أسباب الطهارة وهى رماد البقرة وعدمنا الامام المطهر المغفر فيقال لهم فهل أغناكم عدمه عن فعله أو لم يغنكم فان قالوا أغنانا عدمه عن فعله قيل لهم قد تبدل الحكم الشرعى من الوجوب الى اسقاطه لمصلحة التعذر فيقال وكذلك يتبدل الحكم الشرعى بنسخه لمصلحة النسخ فانكم ان بنيتم على اعتبار المصالح والمفاسد في الأحكام فلا ريب أن الشئ يكون مصلحة في وقت دون وقت وفي شريعة دون أخرى كما كان تزويج الأخ بالأخت لمصلحته فى شريعة آدم عليه السلام ثم صارت مفسدة في سائر الشرائع وكذلك اباحة العمل يوم السبت كان مصلحة في شريعة ابراهيم عليه السلام ومن قبله ومفسدة فى شريعة موسى عليه السلام وأمثال ذلك كثيرة وان منعتم مراعاة المصالح في الأحكام ومنعتم تعليلها بها فالأمر حينئذ أظهر فانه سبحانه يحلل ما شاء والتحليل والتحريم تبع لمجرد مشيئته لا يسأل عما يفعل وان قلتم لا نستغنى فى الطهارة عن ذلك المطهر الذى كان عليه أسلافنا فقد أقررتم بأنكم لا أنجاس أبدا ولا سبيل لكم الى حصول الطهارة فان قلوا نعم لأمر كذلك قيل لهم فاذا كنتم أنجاسا على مقتضى أصولكم فما بالكم تعتزلون الحائض بعد انقطاع الحيض وارتفاعه سبعة أيام اعتزالا تخرجون فيه الى حد لو أن أحدكم لمس ثوبه ثوب المرأة نجستموه مع ثوبه فان قلتم ذلك من أحكام التوراة قيل لكم ليس فى التوراة أن ذلك يراد به الطهارة فاذا كانت الطهارة قد تعذرت عندكم والنجاسة التى أنتم عليها لا ترتفع بالغسل فهى اذا أشد من نجاسة الحيض ثم انكم ترون أن الحائض طاهر اذا كانت من غير ملتكم ولا تنجسون من لمسها ولا الثوب الذى تلمسه فتخصيص هذا الأمر بطائفتكم ليس فى التوراة

(فصل) قالت الامة الغضبية التوراة قد حظرت أمورا كانت مباحة من قبل ولم تأت باباحة محظور والنسخ الذى ننكره ونمنع منه هو ما أوجب اباحة محظور لان تحريم الشئ انما هو لاجل ما فيه من المفسدة فاذا جاءت شريعة بتحريمه كان ذلك من مؤكداتها ومقرراتها فاذن من أباحه علمنا باباحته المفسدة انه غير نبى بخلاف تحريم ما كان مباحا فانا نكون متعبدين بتحريمه قالوا وشريعتكم جاءت باباحة كثير مما حرمته التوراة مع أنه انما حرم لما فيه من المفسدة فهذه النكتة هى التى تعتمد عليها الأمة الغضبية ويتلقاها

المسلمين ولهذا قال تعالى في المنافقين ذلك بانهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون وقال فيهم صم بكم عمى فهم لا يرجعون وقال فى الكفار صم بكم عمى فهم لا يعقلون فالكافر لم يعقل والمنافق أبصر ثم عمى وعرف ثم تجاهل وأقر ثم أنكر وآمن ثم كفر ومن كان هكذا أشد كفرا وأخبث قلبا وأعتى على الله ورسله فاستحق الدرك الاسفل وفيه معنى آخر أيضا وهو ان الحامل لهم على النفاق طلب العز والجاه بين الطائفتين فيرضوا المؤمنين ليعزوهم ويرضوا الكفار ليعزوهم أيضا ومن ههنا دخل عليهم البلاء فانهم أرادوا العزتين من الطائفتين ولم يكن لهم غرض فى الايمان والاسلام ولا طاعة لله ورسوله بل كان ميلهم وصغوهم ووجهتهم الى الكفار فقوبلوا على ذلك باعظم الذل وهو أن جعل مستقرهم فى أسفل السافلين تحت الكفار فما اتصف به المنافقون من مخادعة الله ورسوله والذين آمنوا والاستهزاء باهل الايمان والكذب والتلاعب بالدين واظهارهم من المؤمنين وابطنوا قلوبهم على الكفر والشرك وعداوة الله ورسوله أمر اختصوا به عن الكفار فتغلظ كفرهم به فاستحقوا الدرك الاسفل من النار ولهذا لما ذكر تعالى أقسام الخلق فى أول سورة البقرة فقسمهم الى مؤمن ظاهرا وباطنا وكافر ظاهرا وباطنا ومؤمن فى الظاهر كافر فى الباطن وهم المنافقون ذكر فى حق المؤمنين ثلاث آيات وفى حق الكفار آيتين فلما انتهى الى ذكر المنافقين ذكر فيهم بضع عشرة آية ذمهم فيها غاية الذم وكشف عوراتهم وقبحهم وفضحهم وأخبر بهم انهم هم السفهاء المفسدون فى الارض المخادعون المستهزؤن المغبونون فى اشترائهم الضلالة بالهدى وانهم صم بكم عمى فهم لا يرجعون وانهم مرضى القلوب وان الله يزيدهم مرضا الى مرضهم فلم يدع ذما ولا عيبا الا ذمهم به وهذا يدل على شدة مقته سبحانه لهم وبغضه اياهم وعداوته لهم وانهم أبغض أعدائه اليه فظهرت حكمته الباهرة فى تخصيص هذه الطبقة بالدرك الاسفل فى النار نعوذ بالله من مثل حالهم ونسأله معافاته ورحمته ومن تأمل ما وصف الله به المنافقين فى القرآن من صفات

خالف منهم عن سالف والمتكلمون لم يخوضوا في جوابها والمتأخرون منهم الكلام في رفع البراءة الأصلية بالشرائع وفي نسخ الإباحة بالتحريم والتحريم بالإباحة... لأن رفع البراءة الأصلية ورفع الإباحة بالتحريم هو تغيير لما كان عليه الحكم الاستصحابي أو الشرعي بحكم آخر لمصلحة اقتضت تغييره ولا فرق في اقتضاء المصلحة بين رفع الإباحة بالتحريم أو التحريم بالإباحة والشبهة التي عرضت لهم في أحد الموضعين هي بعينها في الموضع الآخر فإن إباحة الشيء في الشريعة تابع لعدم مفسدته إذ لو كانت فيه مفسدة راجحة لم تأت الشريعة بإباحته فإذا حرمته الشريعة الأخرى وجب قطعاً أن يكون تحريمه هو المصلحة كما كان إباحته في الشريعة الأولى هي المصلحة فإن تضمن إباحة المحرم في الشريعة الأولى إباحة المفاسد وحاشا الله تضمن تحريم المباح في الشريعة الأولى تحريم المصالح وكلاهما باطل قطعاً فإذا جاز أن تأتي شريعة التوراة بتحريم ما كان إبراهيم ومن تقدمه يستبيحه فجائز أن تأتي شريعة أخرى بتحليل بعض ما كان في التوراة محظوراً وهذه الشبهة الباطلة الداحضة هي التي ردت بها الأمة الغضبية نبوة سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم هي بعينها ردت بها أسلافهم نبوة المسيح وتوارثوها كابراً عن كافر وقالوا لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم كما قال أسلافهم للمسيح لا نقر بنبوة من غير شريعة التوراة فيقال لهم فكيف أقررتم لموسى بالنبوة وقد جاء بتغيير بعض شرائع من تقدمه فإن قدح ذلك في المسيح ومحمد عليهما السلام قدح في موسى فلا يقدحون في نبوتهما بأمر إلا ومثله في نبوة موسى سواء كما أنكم لا تثبتون نبوة موسى ببرهان إلا وأضعافه شاهد على نبوة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فمن أبين المحال أن يكون موسى رسولاً صادقاً ومحمد ليس برسول أو يكون المسيح رسولاً ومحمد صلى الله تعالى عليه وسلم ليس برسول ويقال للأمة الغضبية أيضاً لا يخلو المحرم إما أن يكون تحريمه لعينه وذاته بحيث يمنع إباحته في زمان من الأزمنة وإما أن تحريمه لما تضمنه من المفسدة في زمان دون زمان ومكان دون مكان وحال دون حال فإن كان الأول لزم أن يكون ما حرمته التوراة محرماً على جميع الأنبياء في كل زمان ومكان من عهد نوح إلى خاتم الأنبياء عليهم السلام وإن كان الثاني ثبت أن التحريم والإباحة تابعان للمصالح وأنها تختلف باختلاف الزمان والمكان والحال فيكون الشيء الواحد حراماً في ملة دون ملة وفي وقت دون وقت وفي مكان دون مكان وفي حال دون حال وهذا معلوم بالاضطرار من الشرائع ولا يليق بحكمة أحكم الحاكمين غير ذلك ألا ترى أن تحريم السبت لو كان لعينه لكان حراماً على إبراهيم ونوح وسائر النبيين وكذلك ما حرمته التوراة من المطاعم والمناكح وغيرها لو كان حراماً لعينه وذاته لوجب تحريمه على كل نبي وفي كل شريعة وإذا كان الرب تعالى لا حجة عليه بل يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ويبتلي عباده بما يشاء ويحكم ولا يحكم عليه فالذي يحيل عليه ويمنعه أن يأمر أمة من

للمؤمنين أنهم أحق بالدرك الأسفل فإنه وصفهم بمخادعته ومخادعة عباده ووصف قلوبهم بالمرض وهو مرض الشبهات والشكوك ووصفهم بالإفساد في الأرض وبالاستهزاء بدينه وعباده وبالطغيان واشتراء الضلالة بالهدى والصمم والبكم والعمى والحيرة والكسل عند عبادته والزنا وقلة ذكره والتردد وهو (٤٠٢) المذبذب بين المؤمنين والكفار فلا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء والحلف باسمه تعالى كذباً وباطلاً وبالكذب وبغاية الجبن وبعدم الفقه في الدين وبعدم العلم وبالبخل وبعدم الإيمان بالله وباليوم الآخر وبالريب وبأنهم مضرة على المؤمنين ولا يحصل لهم بصحبتهم إلا الشر من الخبل والإسراع بينهم بالشر وإلقاء الفتنة وكراهتهم لظهور أمر الله ومجيء الحق وأنهم يحزنون بما يحصل للمؤمنين من الخير والنصر ويفرحون بما يحصل لهم من المحنة والابتلاء وأنهم يتربصون الدوائر بالمسلمين وبكراهتهم الإنفاق في مرضاة الله وسبيله وبعيب المؤمنين ورميهم بما ليس فيهم فيلمزون المتصدقين ويعيبون مزهدهم ويرمون بالرياء وإرادة الثناء في الناس مكثرهم وأنهم عبيد الدنيا إن أعطوا منها رضوا وإن منعوا سخطوا وبأنهم يؤذون رسول الله وينسبونه إلى ما برأه الله منه ويعيبونه بما هو من كماله وفضله وأنهم يقصدون إرضاء المخلوقين ولا يطلبون إرضاء رب العالمين وأنهم يسخرون من المؤمنين وأنهم يفرحون إذا تخلفوا عن رسول الله ويكرهون الجهاد في سبيل الله وأنهم يتحيلون على تعطيل فرائض الله عليهم بأنواع الحيل وأنهم يرضون بالتخلف عن طاعة الله ورسوله وأنهم مطبوع على قلوبهم وأنهم يتركون ما أوجب الله عليهم مع قدرتهم عليه وأنهم أحلف الناس بالله قد اتخذوا أيمانهم جنة تقيهم من إنكار المسلمين عليهم وهذا شأن المنافق أحلف الناس بالله كذباً قد اتخذ يمينه جنة ووقاية يتقي بها إنكار المسلمين عليه ووصفهم بأنهم رجس والرجس من كل جنس أخبثه وأقذره فهم أخبث بني آدم وأقذرهم وأرذلهم وبأنهم فاسقون وبأنهم مضرة على أهل الإيمان يقصدون التفريق بينهم ويأوون من حاربهم وحارب الله ورسوله وأنهم يتشبهون بهم ويضاهونهم

اواس

أوامر الشريعة ثم ينهى امة اخرى عنه أو يحرم محرما على امة ويبيحه لأمة اخرى بل أى شئ يمنعه سبحانه أن يفعل ذلك فى الشريعة الواحدة فى وقتين مختلفين بحسب المصلحة وقد بين ذلك سبحانه وتعالى بقوله ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شئ قدير ألم تعلم أن الله له ملك السموات والارض فأخبر سبحانه أن عموم قدرته وملكه وتصرفه فى مملكته وخلقه لا يمنعه أن ينسخ ما يشاء ويثبت ما يشاء كما انه يمحو من أحكامه القدرية الكونية ما يشاء ويثبت فهكذا أحكامه الدينية الامرية ينسخ منها ما يشاء ويثبت منها ما يشاء فمن أكفر الكفر وأظلم الظلم أن يعارض الرسول الذى جاء بالبينات والهدى وتدفع نبوته وتجحد رسالته بكونه أتى باباحة بعض ما كان محرما على من قبله أو تحريم بعض ما كان مباحا لهم وبالله التوفيق يضل من يشاء ويهدى من يشاء ومن العجب أن هذه الأمة الغضبية تحجر على الله تعالى أن ينسخ ما يشاء من شرائعه وقد تركوا شريعة موسى عليه السلام فى أكثر ما هم عليه وتمسكوا بما شرعه لهم أحبارهم وعلماؤهم فمن ذلك انهم يقولون فى صلاتهم ما ترجمته هكذا اللهم اضرب ببوق عظيم لفيفنا واقبضنا جميعا من أربعة أقطار الارض الى قدسك سبحانك يا جامع شتات قومه اسرائيل ويقولون كل يوم ما ترجمته هكذا أردد حكامنا كالاولين ومربينا كالابتداء وابن اورشليم قرية قدسك فى أيامنا وعزنا بابتنائها سبحانك يا بانى اورشليم فهذا قولهم فى صلاتهم مع علمهم بأن موسى وهارون عليهما السلام لم يقولا شيأ من ذلك ولكنها فصول لفقوها بعد زوال دولتهم وكذلك صيامهم كصوم أحل وبيت المقدس وصوم أحصا وصوم كدليا التى جعلوها فرضا لم يصمها موسى ولا يوشع بن نون وكذلك صوم صلب هامان ليس شئ من ذلك فى التوراة وانما وضعوها لاسباب اقتضت وضعها عندهم هذا مع انه فى التوراة لا تزيدوا على الامر الذى أنا موصيكم به شيأ ولا ترفضوا منه شيأ وقد تضمنت التوراة أوامر كثيرة جدا هم مجمعون على تعطيلها والغائها فاما أن تكون منسوخة بنصوص أخر من التوراة أو بنقل صحيح عن موسى عليه السلام أو باجتهاد علمائهم وأحبارهم وعلى التقادير الثلاث فقد بطلت شبهتهم فى انكار النسخ ثم من العجب ان أكبر تلك الاوامر التى هم مجمعون على عدم القول والعمل بها انما يستندون فيها الى أقوال علمائهم وأمرائهم وقد اتفقوا على تعطيل الرجم للزانى وهو نص التوراة وتعطيل أحكام كثيرة منصوصة فى التوراة ومن تلاعب الشيطان بهم انهم يزعمون ان الفقهاء اذا أحلوا لهم الشئ صار حلالا واذا حرموه صار حراما وان كان نص التوراة بخلافه وهذا تجويز منهم لنسخهم ما شاء من شريعة التوراة فحجروا على الرب تعالى وتقدس أن ينسخ ما يريد من شريعته وجوزوا ذلك لاحبارهم وعلمائهم كما مكر ابليس أن يسجد لآدم ورأى ان ذلك نقص منه ثم رضى أن يكون قوادا لكل عاص وفاسق وكما أبى عباد الاصنام أن يكون النبى المرسل

قلوبهم لينوصلوا بما منوا الى الاضرار بهم وتفريق كلمتهم وهذا شأن المنافقين أبدا وبأنهم فتنوا أنفسهم بكفرهم بالله ورسوله وتربصوا بالمسلمين دوائر السوء وهذا عادتهم فى كل زمان وارتابوا فى الدين فلم يصدقوا به وغرتهم الامانى الباطلة وغرهم الشيطان وانهم أحسن الناس أجساما تعجب الرائى أجسامهم والسامع منطقهم فاذا باورت أجسامهم وقوامهم رأيت خشبا مسندة لا ايمان ولا فقه ولا علم ولا صدق بل خشب قد كسيت كسوة تروق الناظر وليسوا وراء ذلك شيئا واذا عرض عليهم التوبة والاستغفار أبوها وزعموا انهم لا حاجة لهم اليها اما لان ما عندهم من الزندقة والجهل المركب مغن عنها وعن الطاعات جملة كحال كثير من الزنادقة واما حقارا وازدراء بمن يدعوهم الى ذلك ووصفهم سبحانه بالاستهزاء به وبآياته وبرسوله وبانهم مجرمون وبانهم يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم عن الانفاق فى مرضاته ونسيان ذكره وبانهم يتولون الكفار ويدعون المؤمنين وبان الشيطان قد استحوذ عليهم وغلب عليهم حتى أنساهم ذكر الله فلا يذكرونه الا قليلا وانهم حزب الشيطان وانهم يوادون من حاد الله ورسوله وبانهم يتمنون ما يعنت المؤمنين ويشق عليهم وان البغضاء تبدو لهم من أفواههم وعلى فلتات ألسنتهم وبانهم يقولون بافواههم ما ليس فى قلوبهم ومن صفاتهم التى وصفهم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم الكذب فى الحديث والخيانة فى الامانة والغدر عند العهد والفجور عند الخصام والخلف عند الوعد وتأخير الصلاة الى آخر وقتها ونقرها عجلة واسراعا وترك حضورها جماعة وان أثقل الصلوات عليهم الصبح والعشاء ومن صفاتهم التى وصفهم الله بها الشح على المؤمنين بالخير والجبن عند الخوف فاذا ذهب الخوف وجاء الامن سلقوا المؤمنين بالسنة حداد فهم أحد الناس ألسنة عليهم كما قيل جهلا علينا وجبنا عن عدوكم * لبئست الخلتان الجهل والجبن وانهم عند المخاوف تظهر كأن صدورهم ومخبآتها وأما عند الامن فيعجب ستره فاذا لحق المسلمين خوف دبت عقارب قلوبهم وظهرت الخبيئات وبدت الاسرار

الهم بشرا ثم رضوا أن يكون الههم ومعبودهم تراوكا بزعم.. الذى ربى بنبا ركانهم عن لولد والصاحبة ولم يتحاشوا من نسبة ذلك الى الله سبحانه وتعالى

(فصل) ومن تلاعب الشيطان بهم ما شددوه على أنفسهم في ... ونحوها مما ليس له أصل عن موسى عليه السلام ولا هو في التوراة وانما هو من ... علمائهم وآرائهم وهم فقهاؤهم وقد كان لهذه الامة في قديم الزمان بالشام والعراق والمدائن مدارس وفقهاء كثيرون وذلك في زمن دولة الساسانيين والفرس ودولة اليونان والروم حتى اجتمع فقهاؤهم وهم في بعض تلك الدول على تأليف ... التلمود وأما المشنا فهو الكتاب الأصغر ومبلغ حجمه نحو ثمانمائة ورقة وأما التلمود فهو الكتاب الاكبر ومبلغه نحو نصف حمل بغل لكبره ولم يكن الفقهاء الذين ألفوه في عصر واحد وانما ألفوه جيلا بعد جيل فلما نظر المتأخرون منهم الى هذا التأليف وانه كلما مر عليه الزمان زادوا فيه وان في الزيادات المتأخرة ما يناقض أوائل هذا التأليف علموا أنهم ان لم يقطعوا ذلك ويمنعوا من الزيادة فيه أدى الى الخلل الذى لا يمكن سده قطعوا الزيادة فيه ومنعوا منها وحظروا على الفقهاء الزيادة فيه واضافة شئ آخر اليه وحرموا من يضيف اليه شيأ آخر فوقف على ذلك المقدار وكانت أئمتهم قد حرموا عليهم في هذين الكتابين مؤاكلة الاجانب وهم من كان على غير ملتهم وحظروا عليهم الاكل من ذبيحته ولم يكن على دينهم لان علماءهم علموا أن دينهم لا يبقى في هذه الجلوة مع كونهم ... ردية لأن يصدوهم عن مخالطة من هو على غير ملتهم فحرموا عليهم الاكل من ذبائحهم ومناكحتهم ولم يمكن تقرير ذلك الا بحجة يبتدعونها من أنفسهم ويكذبون على الله تعالى لان التوراة انما حرمت عليهم مناكحة غيرهم من الامم لئلا يوافقوا الازواج في عبادة الاصنام والشرك وحرم عليهم في التوراة أكل ذبائح الامم التى يذبحونها قربانا الى الاصنام لانه قد سمى عليها اسم غير الله تعالى فأما الذبائح التى لم تذبح قربانا للاصنام فلم تنطق التوراة بتحريمها وانما نطقت باباحة الاكل من أيدى غيرهم من الامم وموسى عليه السلام انما نهاهم عن مناكحة عباد الاصنام وأكل ما يذبحونها على اسمها فما بال هؤلاء لا يأكلون من ذبائح المسلمين وهم لا يذبحون للاصنام ولا يذكرون اسمها عليها فلما نظر أئمتهم الى أن التوراة غير ناطقة بتحريم مآكل الأمم عليهم الا عباد الاصنام وان التوراة قد صرحت بأن تحريم موا كلهم ومخالطتهم خوف استدراج المخالطة الى المناكحة وان مناكحتهم انما منع منها خوف استتباعها الى الانتقال الى أديانهم وعبادة أوثانهم ووجدوا جميع هذا واضحا في التوراة اختلقوا كتابا في علم الذباحة ووضعوا فيه من التشديد والآصار والاغلال ماشغلوهم به عما هم فيه من الذل والمشقة وذلك انهم أمروهم أن ينفخوا الرئة حتى يملؤها هواء ويتأملونها هل يخرج الهواء من ثقب منها أم لا فان خرج منها الهواء حرموها وان

ومن صفاتهم انهم أعتب الناس السنة وأمرهم قلوبا وأعظم الناس مخالفة أعمالهم وأقوالهم ومن صفاتهم أنهم لا يجتمع فيهم حسن سمت وفقه في دين أبدا ومن صفاتهم ان أعمالهم تكذب أقوالهم وباطنهم يكذب ظاهرهم وسرائرهم تناقض علانيتهم ومن صفاتهم ان المؤمن لا يثق بهم في شئ فانهم قد أعدوا لكل أمر بخرجا منه بحق أو بباطل بصدق أو بكذب ولهذا سمى منافقا أخذا من نافقاء اليربوع وهو بيت يحفره ويجعل له أسرابا مختلفة فكل ما طلب من سرب خرج من سرب آخر فلا يمكن طالبه من حصره في سرب واحد قال الشاعر

ويستخرج اليربوع من نافقائه
ومن بيته ذو الشيحة المتقصع ٧

فانت منه كقابض على الماء ليس معك منه شئ ومن صفاتهم كثرة التلون وسرعة التقلب وعدم الثبات على حال واحد بينا تراه على حال تعجبك من دين أو عبادة أو هدى صالح أو صدق اذ انقلب الى ضد ذلك كأنه لم يعرف غيره فهو أشد الناس تلونا وتقلبا وتنقلا جيفة بالليل قطرب بالنهار ومن صفاتهم انك اذا دعوتهم عند المنازعة للتحاكم الى القرآن والسنة أبوا ذلك وأعرضوا عنه ودعوك الى التحاكم الى طواغيتهم قال تعالى ألم تر الى الذين يزعمون انهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا فكيف اذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاؤك يحلفون بالله ان أردنا الا احسانا وتوفيقا أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا ومن صفاتهم معارضة ما جاء به الرسول بعقول الرجال وآرائهم ثم تقديمها على ما جاء به فهم معرضون عنه معارضون له زاعمون ان ـــان الهدى فى آراء الرجال وعقولهم دون ما جاء به فلو أعرضوا عنه وتعوضوا بغيره لكانوا منافقين فكيف اذا جمعوا مع ذلك معارضته وزعمهم انه لا يستفاد منه هدى ومن صفاتهم كتمان الحق والتلبيس على أهله ورميهم لهم بادوائهم فيرمونهم اذا أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر

كان بعض أطراف الرئة لاصقة ببعض لم يأكلوه وأمروا الذي يتفقد الذبيحة أن يدخل يده في الذبيحة ويتأمل بأصابعه فان وجد القلب ملتصقا الى الظهر أو أحد الجانبين ولو كان الالتصاق بعرق دقيق كالشعرة حرموه ولم يأكلوه وسموه طريفا ويفتون بذلك انه نجس وأكله حرام وهذه التسمية هي أصل بلائهم وذلك أن التوراة حرمت عليهم أكل الطريف والطريف هي الفريسة التي يفترسها الاسد أو الذئب أو غيرهما من السباع وهو الذي عبر عنه القرآن بقوله تعالى وما أكل السبع والدليل على ذلك انه قال في التوراة ولحم في الصحراء فريسة لا تأكلوا للكلاب ألقوه وأصل لفظ طريفا طوارف وقد جاءت هذه اللفظة في التوراة في قصة يوسف عليه السلام لما جاء اخوته على قميصه بدم كذب وزعموا ان الذئب افترسه وقال في التوراة ولحم في الصحراء فريسة لا تأكلوا والفريسة انما توجد غالبا في الصحراء وكان سبب نزول هذا عليهم انهم كانوا ذوي أخبية يسكنون البراري مكثوا يترددون في التيه أربعين سنة وكانوا لا يجدون طعاما الا المن والسلوى وهو طائر صغير يشبه السمانا وفيه من الخاصة ان أكل لحمه يلين القلب ويذهب بالخرق والقساوة فان هذا الطائر يموت اذا سمع صوت الرعد كما ان الخطاف يقتله البرد فألهمه الله سبحانه وتعالى أن يسكن جزائر البحر التي لا يكون بها مطر ولا رعد الى انقضاء أوان المطر والرعد فيخرج من الجزائر وينتشر في الارض فجلب الله تعالى اليهم هذا الطائر ليتغذوا به ويكون اغتذاؤهم به كالدواء لغلظ قلوبهم وقساوتها والمقصود ان مشايخهم تعدوا في تفسير الطريف عن موضوعها وما أريد بها ولذلك فقهاؤهم اختلقوا من أنفسهم هذيانات وخرافات تتعلق بالرئة والقلب وقالوا ما كان من الذبائح سليما من تلك الشروط فهو دخيا ومعنى هذه اللفظة انه طاهر وما كان خارجا عن هذه الشروط فهو طريفا وتفسيرها انه حرام قالوا ومعنى نص التوراة ولحم فريسة في الصحراء لا تأكلوه للكلاب القوه أي انكم اذا ذبحتم ذبيحة ولم يوجد فيها هذه الشروط فلا تأكلوها بل بيعوها على من ليس من أهل ملتكم وفسروا قوله للكلاب ألقوه أي لمن ليس من أهل ملتكم فاطعموه وبيعوه وهم أحق بهذا اللقب وأشبه بالكلاب ثم ان هذه الامة الغضبية فرقتان احداهما عرفوا ان أولئك السلف الذين ألفوا المشنا والتلمود وهم فقهاء اليهود كذبوا على الله وعلى موسى وهم أصحاب حماقات وتنطع ودعاوى كاذبة يزعمون أنهم كانوا اذا اختلفوا في شئ من تلك المسائل يوحي الله تعالى اليهم صوت يسمعه جمهورهم يقول الحق في هذه المسألة مع فلان ويسمون هذا الصوت بت قول فلما نظرت اليهود القرابون وهم أصحاب عانان وسمامين الى هذه المحالات الشنيعة وهذا الافتراء الفاحش والكذب البارد انفصلوا بأنفسهم عن الفقهاء وعن كل من يقول بمقالاتهم وكذبوهم في كل ما افتروا به على الله وزعموا انه لا يجوز قبول شئ من أقوالهم حيث ادعوا ان الله تعالى كان يوحي اليهم كما

دعوا الى الله ورسوله بانهم أهل ذمة مفسدون في الارض وقد علم الله ورسوله والمؤمنون بانهم أهل الفتن المفسدون في الارض واذا دعاه ورثة الرسول الى كتاب الله وسنة رسوله خالصة غير مشوبة رموهم بالبدع والضلال واذا رأوهم زاهدين في الدنيا راغبين في الآخرة متمسكين بطاعة الله ورسوله رموهم بالزوكرفوا التلبيس والمحال واذا رأوا معهم حقا ألبسوه لباس الباطل وأخرجوه لضعفاء العقول في قالب لينفروهم عنه واذا كان معهم باطل ألبسوه لباس الحق وأخرجوه في قالبه ليقبل منهم وجملة أمرهم انهم في المسلمين كالزغل في النقود يروج على أكثر الناس لعدم بصيرتهم بالنقد ويعرف حاله الناقد البصير من الناس وقليل ما هم وليس على الاديان أضر من هذا الضرب من الناس وانما تفسد الاديان من قبلهم ولهذا جلا الله أمرهم في القرآن وأوضح أوصافهم وبين أحوالهم وكرر ذكرهم لشدة المؤنة على الامة بهم وعظم البلية عليهم بوجودهم بين أظهرهم وفرط حاجتهم الى معرفتهم والتحرز من مشابهتهم والاصغاء اليهم فكم قطعوا على السالكين الى الله طرق الهدى وسلكوا بهم سبيل الردى وعدوهم ومنوهم ولكن وعدوهم الغرور ومنوهم الويل والثبور فكم لهم من قتيل ولكن في سبيل الشيطان وسلب ولكن للباس التقوى والايمان وأسير لا يرجى له الخلاص وفار من الله لا اليه وهيهات ولات حين مناص صحبتهم توجب العار والشنار ومودتهم تحل غضب الجبار وتوجب دخول النار من علقت به كلاليب كلابهم ومخاليب رأيهم مزقت منه ثياب الدين والايمان وقطعت له مقطعات من البلاء والخذلان فهو يسحب من الحرمان والشقاوة أذيالا ويمشي على عقبيه القهقرى ادبارا منه وهو يحسب ذلك اقبالا فهم والله قطاع الطريق حقا فيا أيها الركب المسافرون الى منازل السعداء حذارا منهم حذارا وهم الجزارون ألسنتهم شفار البلاء ففرارا منهم أيها الغنم فرارا ومن البلية انهم الاعداء حقا وليس لنا بد من مصاحبتهم وخلطتهم أعظم الداء وليس بد من مخالطتهم قد جعلوا على أبواب جهنم دعاة بها فبعدا لمستجيبين لهم وانشبوا كلهم حوالها على ما حفت به من الشهوات فويل

يوحى الى الانبياء وأما تلك الترهات التى ألفها الحخاميم وهم فقهاؤهم ونسبوها الى التوراة والى موسى فان القرائين اطرحوها كلها وألغوها ولم يحرموا شيئا من الذبائح التى يتولون ذبحها البتة ولم يحرموا سوى لحم الجدى بلبن أمه فقط مراعاة لنص التوراة لا ينضج الجدى بلبن أمه وليسوا بأصحاب قياس بل أصحاب ظاهر وأما الفرقة الثانية فهم الربانيون وهم أصحاب القياس وهم أكثر عددا من القرائين وفيهم الحخاميم المفترون على الله الذين زعموا أن الله تعالى كان يخاطب جميعهم فى كل مسألة بالصواب الذى يقولونه وهذه الطائفة أشد اليهود عداوة لغيرهم من الامم لان الحخاميم أوهموهم ان المأكولات انما تحل للناس ان استعملوا فيها هذا العلم الذى ينسبونه الى موسى عليه السلام والى الله تعالى وان سائر الامم لا يعرفون هذا وانهم انما شرفهم الله تعالى بهذا وأمثاله من الترهات فصار أحدهم ينظر الى من ليس على مذهبه وملته كما ينظر الى الحيوان البهيم وينظر الى مأكل الأمم وذبائحهم كما ينظر الى العذرة وهذا من كيد الشيطان لهم ولعبه فان الحخاميم قصدوا بذلك المبالغة فى مخالفتهم الأمم والازراء عليهم ونسبتهم الى قلة العلم وانهم اختصوا دون الأمم بهذه الآصار والأغلال والتشديدات وكلما كان الحخاميم فيهم أكثر تكلفا وأشد آصارا وأكثر تحريما قالوا هذا هو العالم الربانى ودعاهم الى التضييق والتشديد انهم متبددون فى شرق الارض وغربها فما من جماعة منهم فى بلدة الا اذا قدم عليهم رجل من أهل دينهم من بلاد بعيدة يظهر لهم الخشونة فى دينهم والمبالغة فى الاحتياط فان كان من المتفقهة فهو يسرع فى انكار أشياء عليهم ويوهمهم التنزه عليهم وينسبهم الى قلة الدين وينسب ما ينكره عليهم الى مشايخه والى أهل بلده ويكون فى أكثر الاشياء كاذبا وقصده بذلك اما الرياسة عليهم واما تحصيل بعض ما يريده منهم ولاسيما ان أراد المقام عندهم فتراه أول ما ينزل بهم لا يأكل من أطعمتهم ولا من ذبائحهم ويتأمل سكين ذابحهم وينكر عليهم بعض أمرهم ويقول أنا لا آكل الا من ذبيحة يدى فتراهم معه فى عذاب لا يزال ينكر عليهم المباح ويوهمهم تحريمه بأشياء يخترعها حتى لا يشكون فى ذلك فان قدم عليهم قادم آخر خاف المقيم أن ينقض عليه القادم تلقاه وأكرمه وسعى فى موافقته وتصديقه فيستحسن ما فعله الاول ويقول لهم لقد عظم الله تعالى ثواب فلان اذ قوى ناموس الدين فى قلوب هذه الجماعة وسد نتاج الشرع عندهم واذا لقيه يظهر من مدحه وشكره والدعاء له ما يؤكد أمره وان كان القادم منكرا لما جاء به الاول من التشديد والتضييق لم يقع عندهم بموقع وينسبونه اما الى الجهل واما الى رقة الدين لانهم يعتقدون ان تضييق المعيشة وتحريم الحلال هو المبالغة فى الدين وهم أبدا يعتقدون الصواب والحق مع من يشدد ويضيق عليهم هذا ان كان القادم من فقهائهم فاما ان كان من عبادهم وأحبارهم فههنا ترى العجب العجاب من

المغترين نصبوا الشباك ومدوا الاشراك وأذنوا بهم أشباه الانعام سوقهم الى الهلاك حتى علق الشباك فاستبقوا اليهم وسوقوا الى المغار وردهم حياض العذاب لا الموارد العذاب وأساموهم من الخسف والبلاء أعظم خطة وقال ادخلوا باب الهوان صاغرين ولا تقولوا حطة فليس يوم حطة فواعجبا لمن نجا من اشراكهم لا من علق وانى ينجو من ثابت عليه شقاوته وإنما اللائق بأهل هذه الطبقة أن يحلوا بالمحل الذى أحلهم الله من دار الهوان وان ينزلوا فى أردأ منازل أهل العناد والكفران وبحسب إيمان العبد ومعرفته يكون خوفه أن يكون من أهل هذه الطبقة ولهذا اشتد خوف سادة الأمة وسابقوها على أنفسهم ان يكونوا منهم فكان عمر بن الخطاب يقول يا حذيفة ناشدتك الله هل سمانى رسول الله صلى الله عليه وسلم مع القوم فيقول لا ولا أزكى بعدك أحدا يعنى لا أفتح على هذا الباب فى تزكية الناس وليس معناه انه لم يبرأ من النفاق غيرك وقال ابن أبى مليكة أدركت ثلاثين من أصحاب رسول الله كلهم يخاف النفاق على نفسه ما منهم أحد يقول انه على ايمان جبرائيل وميكائيل * الطبقة السادسة عشر رؤساء الكفر وأئمته ودعاته الذين كفروا وصدوا عباد الله عن الايمان وعن الدخول فى دينه رغبة ورهبة فهؤلاء عذابهم مضاعف ولهم عذابان عذاب بالكفر وعذاب بصد الناس عن الدخول فى الايمان قال تعالى الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب فأحد العذابين بكفرهم والعذاب الآخر بصدهم عن سبيل الله وقد استقرت حكمة الله وعدله أن يجعل على الداعى الى الضلال مثل آثام من اتبعه واستجاب له ولا ريب ان عذاب هذا يتضاعف ويتزايد بحسب من اتبعه وضل به وهذا النوع فى الاشقياء مقابل دعاة الهدى فى السعداء فأولئك يتضاعف ثوابهم وتعلو درجاتهم بحسب من اتبعهم واهتدى بهم وهؤلاء عكسهم ولهذا كان فرعون وقومه فى أشد العذاب قال تعالى فى حقهم النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون أشد العذاب وهذا تنبيه على ان فرعون نفسه فى الاشد من ذلك لانهم انما ادخلوا أشد العذاب تبعا له فانه هو الذى اضلهم

الناموس الذي يعتقده والسنن الذي يعتقدونه ويلحقها بالفرائض فتراهم مسلمين له منقادين وهو يحتلب درهم ويحتلب خمرهم حتى اذا بلغه أن يهوديا جلس على قارعة الطريق يوم السبت أو اشترى لبنا من مسلم نادى بنفيه وسبه في مجمع اليهود وأباح عرضه ونسبه الى قلة الدين

(فصل) ومن تلاعب الشيطان بهذه الأمة الغضبية انهم اذا رأوا الأمر أو النهي بما أمروا به ونهوا عنه شاقا عليهم طلبوا الخلاص منه بوجوه الحيل فان أعيتهم الحيل قالوا هذا كان علينا لما كان لنا الملك والرياسة فمن ذلك انهم اذا قام اخوان في موضع واحد ومات أحدهما ولم يعقب ولدا فلا تخرج امرأة الميت الى رجل أجنبي بل ولد جوها ينكحها وأول ولد من ينكحها ينسب الى أخيه الدارج فان أبى أن ينكحها خرجت مشتكية منه الى شيعته تقول قد أبى ابن حمي أن يستبقي اسما لأخيه في اسرائيل ولم يرد نكاحي فيحضره هناك ويكلفه أن يقف ويقول ما أردت نكاحها فتتناول المرأة نعله فتخرجه من رجله وتمسكه بيدها وتبصق في وجهه وتنادي عليه كذا فليصنع الرجل الذي لا يبني بيت أخيه ويدعى فيما بعد بالمخلوع النعل وينبز بنوه ببني مخلوع النعل هذا كله مفترض عليهم فيما يزعمون في التوراة وفيه حكمة ملجئة للرجل الى نكاح زوجة أخيه الدارج فانه اذا علم أن ذلك يناله ان لم ينكحها آثر نكاحها عليه فان كان مبغضا لها زاهدا في نكاحها أو كانت هي زاهدة في نكاحها مبغضة له استخرج له الفقهاء حيلة تقاص منها وتتخلص منه فيلزمونها الحضور عند الحاكم بحضرة من مشايخهم ويلقنونها أن تقول أبى ابن حمي أن يقيم لأخيه اسما في اسرائيل لم يرد نكاحي فيلزمونها بالكذب عليه لأنه أراد نكاحها وكرهته واذا لقنوها هذه الألفاظ قالتها يأمرونه بالكذب وان يقوم ويقول ما أردت نكاحها ولعله بعد ذلك سؤله ومنيته فيأمرونه بأن يكذب ولم يكفهم ان كذبوا عليه وألزموه أن يكذب حتى سلطوها على الاخراق به والبصاق في وجهه ويسمون هذه مسألة اليياما والجالوس وقد تقدم من التنبيه على حيلهم في استباحتهم محارم الله تعالى بعض ما فيه كفاية فالقوم بيت الحيل والمكر والخبث وقد كانوا يتنوعون في عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بأنواع الحيل والكيد والمكر عليه وعلى أصحابه ويرد الله سبحانه وتعالى ذلك كله عليهم فتحيلوا عليه وأرادوا قتله مرارا والله تعالى ينجيه من كيدهم فتحيلوا عليه وصعدوا فوق سطح وأخذوا رحا أرادوا طرحها عليه وهو جالس في ظل حائط فأتاه الوحي فقام منصرفا وأخذ في حربهم واجلائهم ومكروا به وظاهروا أعداءه من المشركين فظفره الله تعالى بهم وبمكروا به وأخذوا في جمع العدى فظفره الله تعالى برأسهم فقتله ومكروا به وأرادوا قتله بالسم فأعلمه الله تعالى به ونجاه منه ومكروا به فسحروه حتى كان يخيل اليه أنه يفعل الشيء ولم يفعله فشفاه الله تعالى وخلصه

اسم كفرهم لا تبعوه ولهذا يكون يوم القيامة امامهم وفرطهم في هذا الورد قال تعالى يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار والمقصود انهم استحقوا أشد العذاب لغلظ كفرهم وصدهم عن سبيل الله وعقوبتهم من آمن بالله فليس عذاب الرؤساء في النار كعذاب أتباعهم ولهذا كان في كتاب النبي صلى الله عليه وسلم لهرقل فان توليت فان عليك اثم الاريسيين والصحيح في اللفظ انهم الاتباع ولهذا كان عدو الله ابليس أشد أهل النار عذابا وهو أول من يكسى حلة من النار لأنه امام كل كفر وشرك وشر فما عصي الله الا على يديه وبسببه ثم الامثل فالامثل من نوابه في الارض ودعاته ولا ريب ان الكفر يتفاوت فكفر أغلظ من كفر كما ان الايمان يتفاوت فايمان أفضل من ايمان فكما ان المؤمنين لم يستووا في درجة واحدة بل هم درجات عند الله فكذلك الكفار لم يستووا في طبقة واحدة ودرك واحد بل النار دركات كما ان الجنة درجات ولا يظلم الله من خلقه أحدا وهو الغني الحميد

(فصل) وغلظ الكفر الموجب لغلظ العذاب يكون من ثلاثة أوجه أحدها من حيث العقيدة الكافرة في نفسها كمن جحد رب العالمين بالكلية وعطل العالم عن الرب الخالق المدبر له فلم يؤمن بالله ولا ملائكته ولا كتبه ولا رسله ولا اليوم الآخر ولهذا لا يقر أرباب هذا الكفر بالجزية عند كثير من العلماء ولا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم اتفاقا لتغلظ كفرهم وهؤلاء هم المعطلة والدهرية وكثير من الفلاسفة وأهل الوحدة القائلين بانه لا وجود للرب سبحانه غير وجود هذا العالم الجهة الثانية تغلظه بالعناد والضلال عمدا على بصيرة ككفر من شهد قلبه ان الرسول حق لما رآه من آيات صدقه وكفر عنادا وبغيا كقوم ثمود وقوم فرعون واليهود الذين عرفوا الرسول كما عرفوا أبناءهم وكفر أبي جهل وأمية بن أبي الصلت وأمثال هؤلاء الجهة الثالثة السعي في اطفاء نور الله وصد عباده عن دينه بما تصل اليه قدرتهم فهؤلاء أشد الكفار عذابا بحسب تغلظ كفرهم ومنهم من يجتمع في حقه الجهات الثلاث ومنهم من يكون فيه جهتان منها أو واحدة فليس عذاب هؤلاء كعذاب من هو دونهم في الكفر ممن هو دابر على جهله والمؤمنون من

إذا لقي . لامة لا ينالهم منه أذى ولم يتغلظ كفره كتغلظ هؤلاء بل هو مقر بالله وبوحدانيته وملائكته وبجنس الكتب والرسل واليوم الآخر وإن شارك أولئك في كفرهم بالرسول فقد زادوا عليه بأنواع من الكفر وهل يستوي في النار عذاب أبي طالب وأبي لهب وأبي جهل وعقبة بن أبي معيط وأبي بن خلف (٤٠٨) والذين ... هذا ... طبقة الرؤساء الدعاة الصادين عن دين الله ليست كطبقة من دونهم وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أهون أهل النار عذابا أبو طالب ومعلوم ان كفر أبي طالب لم يكن مثل كفر أبي جهل وأمثاله

الطبقة السابعة عشر طبقة المقلدين وجهال الكفرة وأتباعهم وحميرهم الذين هم معهم تبعا لهم يقولون انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على أسوتهم ومع هذا فهم متاركون لأهل الاسلام غير محاربين لهم كنساء المحاربين وخدمهم وأتباعهم الذين لم ينصبوا أنفسهم لما نصبه أولئك أنفسهم من السعي في اطفاء نور الله وهدم دينه واخماد كلماته بل هم بمنزلة الدواب وقد اتفقت الامة على ان هذه الطبقة كفار وان كانوا جهالا مقلدين لرؤسائهم وأئمتهم الا ما يحكى عن بعض أهل البدع انه لم يحكم لهؤلاء بالنار وجعلهم بمنزلة من لم تبلغه الدعوة وهذا مذهب لم يقل به أحد من أئمة المسلمين والصحابة ولا التابعين ولا من بعدهم وانما يعرف عن بعض أهل الكلام المحدث في الاسلام وقد صح عن النبي انه قال ما من مولود الا وهو يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه فأخبر ان أبويه ينقلانه عن الفطرة الى اليهودية والنصرانية والمجوسية ولم يعتبر في ذلك غير المربا والمنشأ على ما عليه الابوان وصح عنه انه قال ان الجنة لا يدخلها الا نفس مسلمة وهذا المقلد ليس بمسلم وهو عاقل مكلف والعاقل المكلف لا يخرج عن الاسلام أو ... وأما الكفر ... من لم تبلغه الدعوة فليس بمكلف في تلك الحال وهو بمنزلة الاطفال والمجانين وقد تقدم الكلام عليهم والاسلام هو توحيد الله وعبادته وحده لاشريك له والايمان بالله وبرسوله واتباعه فيما جاء به فما لم يأت العبد بهذا فليس بمسلم وان لم يكن كافرا معاندا فهو كافر

ومكروا به في قولهم آمنوا به أول النهار واكفروا آخره يريدون بذلك ان يكيدوا المسلمين في نبوته فانهم اذا أسلموا أول النهار اطمأن المسلمون اليهم وقالوا قد اتبعوا الحق وظهرت لهم أدلته فيكفرون آخر النهار ويجحدون نبوته ويقولون لم نقصد الا الحق فلما تبين لنا انه ليس به رجعنا عن الايمان به وهذا من أعظم خبثهم ومكرهم فلم يزالوا مجتهدين في المكر والخبث الى أن أخزاهم الله بيد رسوله واتباعه صلى الله تعالى عليه وسلم ورضي عنهم أعظم الخزي ومزقهم كل ممزق وشتت شملهم كل مشتت وكانوا يعاهدونه عليه السلام ويصالحونه فاذا خرج لحرب عدو نقضوا عهده ولما سلط الله تعالى هذه الأمة عليهم وأخرجوهم وأذلوهم وقطعوهم في الارض أمما ... من التدمير بالقدرة والسلطان الى التدبير بالمكر والدهاء والخداع كما قال ... مكره وخداعه وبهته وكذبه ولذلك كان النساء ... المكر والخداع ... كما قال تعالى عن شاهد يوسف عليه السلام أنه قال انه من كيدكن ان كيدكن عظيم

ومن تلاعب الشيطان بهذه الأمة انهم يمثلون أنفسهم بعنقود الكرم وسائر الأمم بالشوك المحيط بأعالي حيطان الكرم من نهاية جهلهم وسفههم فان العنقود من عنب الكرم انما يجعل على أعالي حيطانه الشوك حفظ له وحياطة ... من سائر الأمم الا الضرر والذل والصغار كما يفعل الناس بالشوك ... ينتظرون مسيحا من ولد داود النبي اذا حرك شفتيه بالدعاء مات جميع الأمم ... المنتظر بزعمهم هو المسيح الذي كفروا به وهم في الحقيقة انما ينتظرون مسيح الضلالة الدجال فهم أكثر اتباعه والا فمسيح الهدى عيسى بن مريم عليه السلام يقتلهم ولا يبقي منهم أحدا والأمم الثلاث تنتظر منتظرا يخرج في آخر الزمان فانهم وعدوا به في كل ملة والمسلمون ينتظرون عيسى بن مريم من السماء لكسر الصليب وقتل الخنزير وقتل أعداء الله من اليهود وعباده من النصارى وينتظرون خروج المهدي من أهل بيت النبوة يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا

(فصل) ومن تلاعب الشيطان بهذه الأمة الغضبية انهم في العشر الأول من الشهر الأول من كل سنة يقولون في صلاتهم كم يقول الايم لا بن الهيم انتبه كم تنام يارب استيقظ من رقدتك وهؤلاء انما أقدموا على هذه الكفريات من شدة ضجرهم من الذل والعبودية وانتظار فرج لا يزداد منهم الا بعدا فأوقعهم ذلك في الكفر والتزندق الذي لا يستحسنه الا أمثالهم وتجرؤا على الله سبحانه وتعالى بهذه المناجاة القبيحة كأنهم يريدون بذلك لتنخي لهم ويحمي انفسه فكأنهم يخبرونه سبحانه وتعالى بأنه قد اختار الخمول لنفسه ولاحبابه ولابناء أنبيائه فيستحثونه للنباهة واشتهار الصيت فترى أحدهم اذا تلا هذه الكلمات في الصلاة يقشعر جلده ولا يشك أن هذه المناجاة تقع عند الله تعالى بموقع عظيم

وانها تؤثر فيه وتحركه وتهزه وتخفيه ومن ذلك انهم ينسبون الى الله سبحانه وتعالى الندم على الفعل فمن ذلك قولهم فى التوراة التى بأيديهم وندم الله سبحانه وتعالى على خلق البشر الذين فى الارض وشق عليه وعاد فى رأيه وذلك عندهم فى قصة قوم نوح وزعموا أن الله سبحانه وتعالى وتقدس لما رأى فساد قوم نوح وان شركهم وكفرهم قد عظم ندم على خلق البشر وكثير منهم يقول انه بكى على الطوفان حتى مرض وعادته الملائكة وانه عض على أنامله حتى جرى الدم وقالوا أيضا ان الله تعالى ندم على تمليكه شاول على بنى اسرائيل وانه قال ذلك لشمويل وعندهم أيضا أن نوحا عليه السلام لما خرج من السفينة بدأ ببناء مذبح لله تعالى وقرب عليه قرابين وان الله تعالى استنشق رائحة القتار فقال الله تعالى فى ذاته ان أعاود لعنة الارض بسبب الناس لان خاطر البشرى مطبوع على الرداءة ولن أهلك جميع الحيوان كما صنعت وواجهوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه رضى الله تعالى عنهم بأمثال هذه الكفريات فقال قائل منهم للنبى عليه السلام ان الله سبحانه وتعالى خلق السموات والارض فى ستة أيام ثم استراح فشق ذلك على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فأنزل الله تعالى تكذيبا لهم ولقد خلقنا السموات والارض فى ستة أيام وما مسنا من لغوب وتأمل قوله تعالى عقيب ذلك فاصبر على ما يقولون فان أعداء الرسول عليه السلام نسبوه الى ما لا يليق به وقالوا فيه ما هو منزه عنه فأمره الله تعالى سبحانه أن يصبر على قولهم ويكون له اسوة بربه سبحانه وتعالى حيث قال أعداؤه فيه ما لا يليق وكذلك قال فنحاص لابى بكر رضى الله عنه ان الله فقير ونحن أغنياء ولهذا استقرضنا من أموالنا فأنزل الله سبحانه وتعالى لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الانبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق وقالوا أيضا يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء ويقولون فى العشر الاول من الشهر الاول من كل سنة يا الهنا واله آبائنا املك على جميع أهل الارض ليقول كل ذى نسمة الله اله اسرائيل قد ملك ومملكته فى الكل متسلطة ويقولون فى هذه الصلاة أيضا وسيكون لله تعالى الملك وفى ذلك اليوم يكون الله تعالى واحدا واسمه واحدا ويعنون بذلك أنه لا يظهر أن يكون الملك لله تعالى الا اذا صارت الدولة الى اليهود الذين هم صفوته وأمته فأما ما دامت الدولة لغير اليهود فانه سبحانه وتعالى خامل الذكر عند الامم مطعون فى ملكه مشكوك فى قدرته

(فصل) ومن تلاعب الشيطان بهم انهم يقولون بالقدح فى الانبياء وأذيتهم وقد آذوا موسى عليه السلام فى حياته ونسبوه الى ما برأه الله تعالى منه ونهى الله سبحانه هذه الامة عن الاقتداء بهم فى ذلك حيث يقول يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا

بيا فى لغاية هذه الطبقة انهم كفار جهال غير معاندين وعدم عنادهم لا يخرجهم عن كونهم كفارا فان الكافر من جحد توحيد الله وكذب رسوله اما عنادا أو جهلا وتقليدا لاهل العناد فهذا وان كان غايته انه غير معاند فهو متبع لاهل العناد وقد أخبر الله فى القرآن فى غير موضع بعذاب المقلدين لاسلافهم من الكفار وان الاتباع مع متبوعهم وانهم يتحاجون فى النار وان الاتباع يقولون ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون وقال واذ يتحاجون فى النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا انا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار قال الذين استكبروا انا كل فيها ان الله قد حكم بين العباد وقال تعالى ولو ترى اذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم الى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد اذ جاءكم بل كنتم مجرمين وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار اذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا فهذا اخبار من الله وتحذير بان المتبوعين والتابعين اشتركوا فى العذاب ولم يغن عنهم تقليدهم شيأ وأصرح من هذا قوله تعالى اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الاسباب وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرؤا منا وصح عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال من دعا الى ضلالة كان عليه من الاثم مثل أوزار من اتبعه لا ينقص من أوزارهم شيأ وهذا يدل على ان كفر من اتبعهم انما هو بمجرد اتباعهم وتقليدهم نعم لابد فى هذا المقام من تفصيل به يزول الاشكال وهو الفرق بين مقلد تمكن من العلم ومعرفة الحق فاعرض عنه ومقلد لم يتمكن من ذلك بوجه والقسمان واقعان فى الوجود فالمتمكن المعرض مفرط تارك للواجب عليه لا عذر له عند الله وأما العاجز عن السؤال والعلم الذى لا يتمكن من العلم بوجه فهم قسمان أيضا أحدهما مريد للهدى مؤثر له محب له غير قادر عليه ولا على طلبه لعدم من

موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها وثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة
رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال كانت بنو اسرائيل يغتسلون
عراة ينظر بعضهم الى سوأة بعض وكان موسى عليه السلام يغتسل وحده فقالت بنو
اسرائيل والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا الا انه آدر فذهب موسى يغتسل فوضع ثوبه
على حجر ففر الحجر بثوبه قال فجمح موسى باثره يقول ثوبي حجر ثوبي حجر حتى نظرت بنو
اسرائيل الى سوأة موسى وقالوا والله ما بموسى من بأس فقام الحجر حتى نظر اليه بنو
اسرائيل وأخذ ثوبه وطفق بالحجر ضربا قال أبو هريرة والله ان بالحجر ندبا ستة أو سبعة
ضرب موسى الحجر وأنزل الله تعالى هذه الآية يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين
آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا الآية وقال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا يعقوب بن
جعفر عن سعيد قالت بنو اسرائيل ان موسى آدر وقالت طائفة هو أبرص من شدة
تستره وقال ابن سيرين عن أبي هريرة عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان موسى
حييا ستيرا لا يكاد يرى من جلده شئ استحياء منه فآذاه من آذاه من بني اسرائيل وقالوا
ما يتستر هذا التستر الا من عيب بجلده اما برص واما ادرة واما آفة وان الله تعالى أراد
أن يبرئه مما قالوا وذكر الحديث وقال سفيان بن حسين عن الحكم عن ابن جبير عن ابن
عباس عن علي بن أبي طالب في قوله تعالى لا تكونوا كالذين آذوا موسى قال صعد
موسى وهارون الجبل فمات هارون فقالت بنو اسرائيل أنت قتلته وكان أشد حبا لنا
منك وألين لنا منك وآذوه بذلك فأمر الله تعالى الملائكة فحملته حتى مروا به على بني
اسرائيل وتكلمت الملائكة بموته حتى عرف بنو اسرائيل انه مات فبرأه الله تعالى من
ذلك فانطلقوا به فدفنوه فلم يطلع على قبره أحد من خلق الله تعالى الا الرخم فجعله الله
تعالى أصم أبكم وقال تعالى واذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول
الله اليكم وتأمل قوله وقد تعلمون أني رسول الله اليكم فانها جملة في موضع الحال أي تؤذونني
وأنتم تعلمون أني رسول الله اليكم وذلك أبلغ في العناد وكذلك المسيح قال يا بني اسرائيل اني
رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد
فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين فهذا قليل من كثير من أذاهم لأنبيائهم وأما
أذاهم لهم بالقتل والبغي فأشهر من أن يذكر ولقد بالغوا في أذى النبي صلى الله تعالى
عليه وسلم بالقول والفعل حتى ردهم الله تعالى خاسئين ومن قدحهم في الانبياء ما نسبوه
الى نص التوراة انه لما أهلك أمة لوط لفسادها ونجى لوطا بابنتيه فقط ظن ابنتاه ان الارض
قد خلت ممن يستبقين منه نسلا فقالت الصغرى للكبرى ان أبانا شيخ ولم يبق في الارض
انسان يأتينا كسبيل البشر فهلمي نسقي أبانا خمرا ونضاجعه لنستبقي من أبينا نسلا ففعلتا

ذلك

يرشد فيها لمستحكم أو باب الفترات ومن لم تبلغه الدعوة الثاني معرض لا ارادة له ولا يحدث نفسه بغير ما هو عليه فالاول يقول يا رب لو أعلم
لك دينا خيرا مما أنا عليه لدنت به وتركت ما أنا عليه ولكن لا أعرف سوى ما أنا عليه ولا أقدر على غيره فهو غاية جهدي ونهاية معرفتي والثاني
راض بما هو عليه لا يؤثر غيره عليه ولا تطالب نفسه سواه ولا فرق عنده بين حال عجزه وقدرته وكلاهما عاجز وهذا لا يجب أن
يلحق بالاول لما بينهما من الفرق
فالاول كمن طلب الدين في الفترة
ولم يظفر به فعدل عنه بعد
استفراغ الوسع في طلبه عجزا أو
جهلا والثاني كمن لم يطلبه بل
مات على شركه وان كان لو طلبه
لعجز عنه ففرق بين عجز الطالب
وعجز المعرض فتأمل هذا الموضع
والله يقضي بين عباده يوم القيامة
بحكمه وعدله ولا يعذب الا من
قامت عليه حجته بالرسل فهذا
مقطوع به في جملة الخلق وأما
كون زيد بعينه وعمرو قامت
عليه الحجة أم لا فذلك مما لا يمكن
الدخول بين الله وبين عباده فيه
بل الواجب على العبد أن يعتقد أن
كل من دان بدين غير دين الاسلام
فهو كافر وان الله سبحانه لا يعذب
أحدا الا بعد قيام الحجة عليه بالرسول
هذا في الجملة والتعيين موكول الى
علم الله وحكمه هذا في أحكام
الثواب والعقاب وأما في أحكام
الدنيا فهي جارية على ظاهر الامر
فأطفال الكفار ومجانينهم كفار
في أحكام الدنيا لهم حكم أوليائهم
وبهذا التفصيل يزول الاشكال
في المسألة وهو مبني على أربعة
أصول أحدها ان الله سبحانه
لا يعذب أحدا الا بعد قيام الحجة
عليه كما قال وما كنا معذبين حتى
نبعث رسولا وقال رسلا مبشرين
ومنذرين لئلا يكون للناس على الله
حجة بعد الرسل وقال كلما ألقي فيها
فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير
قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شئ وقال فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير وقال يا معشر
الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا
وشهدوا على أنفسهم انهم كانوا كافرين وهذا كثير في القرآن يخبر بأنه انما يعذب من جاءه الرسول وقامت عليه الحجة وهو المذنب الذي

ذلك بزعمهم فنسبوا النبي عليه السلام الى انه سكر حتى لم يعرف ابنتيه ثم وطئهما وأحبلهما وهو لا يعرفهما فولدت احداهن ولدا سمته مواب يعني انه من الاب والثانية سمت ولدها ابن عمي يعني انه من قبيلها وقد أجاب بعضهم عن هذا بأنه كان قبل نزول التوراة فلم يكن نكاح الاقارب حراما والتوراة تكذبهم فان فيها ان ابراهيم الخليل خاف في ذلك العصر أن يقتله المصريون حسدا له على زوجته سارة فأخفى نكاحها وقال هي أختي علما منه بأنه اذا قال ذلك لم يبق للظنون اليها سبيل وهذا أظهر دليل على ان تحريم نكاح الاخت كان ثابتا في ذلك الزمان فاظنك بنكاح البنت الذي لم يشرع ولا في زمن آدم عليه السلام وعندهم أيضا في التوراة التي بأيديهم قصة أعجب من هذا وهي ان يهوذا بن يعقوب النبي زوج ولده الاكبر من امرأة يقال لها تامار فكان يأتيها مستدبرا فغضب الله تعالى من فعله فأماته فزوج يهوذا ولده الآخر بها فكان اذا دخل بها أنزل على الارض علما منه بأنه ان أولدها كان أول الاولاد مدعوا باسم أخيه ومنسوبا الى أخيه فكره الله تعالى ذلك من فعله فأماته أيضا فأمرها يهوذا باللحاق ببيت أبيها الى أن يكبر شيلا ولده وهم في غفلة حذرا من أن يصيبه ما أصاب أخويه فأقامت في بيت أبيها ثم ماتت من بعد زوجة يهوذا وصعد الى منزل ليجز غنمه فلما أخبرت امرأة ثامار باصعاد حموها الى المنزل لبست زي الزواني وجلست في مستشرف على طريقه لعلمها بشيمه فلما مر بها خالها زانية فراودها فطالبته بالاجرة فوعدها بجدي ورهن عندها عصاه وخاتمه ودخل بها فعلقت منه فلما أخبر يهوذا ان كنته علقت من الزنا اذن باحراقها فبعثت اليه بخاتمه وعصاه فقالت من رب هذين أنا حامل فقال صدقت ومني ذلك واعتذر بأنه لم يعرفها ولم يستحل معاودتها ولا تسليمها الى ولده وعلقت من هذا الزنا بفارض قالوا ومن ولدها داود النبي ففي ذلك من نسبتهم الزنا والكفر الى بيت النبوة ما يقارب ما نسبوه الى لوط عليه السلام وهذا كله عندهم وفي نص كتابهم وهم يجعلون هذا نسبا لداود وسليمان عليهما السلام ولمسيحهم المنتظر ومن العجب انهم يجعلون المسلمين أولاد زنا ويسمونهم ممزريم واحدهم ممزر وهو اسم لولد الزنا لان شرعهم أن الزوج اذا راجع زوجته بعد ان نكحت زوجا غيره فأولادهما أولاد زنا وزعموا أن ما جاءت به شريعة الاسلام من ذلك هو من موضوعات عبد الله بن سلام قصد به أن يجعل أولاد المسلمين ممزريم بزعمهم قالوا وكان محمد صلى الله تعالى عليه وسلم قد رأى أحلاما تدل على أنه صاحب دولة فسافر الى الشام في تجارة لخديجة واجتمع بأحبار اليهود وقص عليهم أحلامه فعلموا أنه صاحب دولة فأصحبوه عبد الله بن سلام فقرأ عليه علوم التوراة وفقهها مدة ونسبوا الفصاحة والاعجاز اللذين في القرآن الى عبد الله بن سلام وان من جملة ما دبره عبد الله بن سلام أن الزوجة لا تحل للمطلق ثلاثا الا بعد أن ينكحها رجل

يعترف بذنبه وقال تعالى وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين والظالم من عرف ما جاء به الرسول أو تمكن من معرفته بوجه وعجز عن ذلك فكيف يقال انه ظالم الاصل الثاني ان العذاب يستحق بسببين أحدهما الاعراض عن الحجة وعدم ارادتها والعمل بها وبموجبها الثاني العناد لها بعد قيامها وترك ارادة موجبها فالاول كفر اعراض والثاني كفر عناد وأما كفر الجهل مع عدم قيام الحجة وعدم التمكن من معرفتها فهذا الذي نفى الله التعذيب عليه حتى تقوم حجة الرسل الاصل الثالث ان قيام الحجة يختلف باختلاف الازمنة والامكنة والاشخاص فقد تقوم حجة الله على الكفار في زمان دون زمان وفي بقعة وناحية دون أخرى كما انها تقوم على شخص دون آخر اما لعدم عقله وتمييزه كالصغير والمجنون واما لعدم فهمه كالذي لا يفهم الخطاب ولم يحضر ترجمان يترجم له فهذا بمنزلة الاصم الذي لا يسمع شيأ ولا يتمكن من الفهم وهو أحد الاربعة الذين يدلون على الله بالحجة يوم القيامة كما تقدم في حديث الاسود وأبي هريرة وغيرهما الاصل الرابع ان أفعال الله سبحانه تابعة لحكمته التي لا يخل بها وانها مقصودة لغاياتها المحمودة وعواقبها الحميدة وهذا الاصل هو أساس الكلام في هذه الطبقات الا من عرف ما في كتب الناس ووقف على أقوال الطوائف في هذا الباب وانتهى الى غاية مراتبهم ونهاية اقدامهم والله الموفق للسداد الهادي الى الرشاد وأما من لم يثبت حكمة ولا تعليلا ورد الامر الى محض المشيئة التي ترجح أحد المثلين على الآخر بلا مرجح فقد أراح نفسه من هذا المقام الضنك واقتحام عقبات هذه المسائل العظيمة وأدخلها كلها تحت قوله لا يسئل عما يفعل وهم يسألون وهو الفعال لما يريد وصدق الله وهو أصدق القائلين لا يسأل عما يفعل لكمال حكمته وعلمه ووضعه الاشياء مواضعها وانه ليس في أفعاله خلل ولا عبث ولا فساد يسأل عنه كما يسأل المخلوق وهو الفعال لما يريد ولكن لا يريد أن يفعل الا ما هو خير ومصلحة ورحمة وحكمة فلا يفعل الشر ولا الفساد ولا الجور ولا خلاف مقتضى حكمته لكمال أسمائه وصفاته وهو الغني الحميد العليم الحكيم (فصل) الطبقة الثامنة عشر طبقة الجن وقد اتفق المسلمون

قول انه منهم المؤمن والكافر والبر والفاجر وقال تعالى اخبارا عنهم وانا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا قال مجاهد يعنون مسلمين وكافرين وقال الحسن والسدى أمثالكم فمنهم قدرية ومرجئة ورافضة وقال سعيد بن جبير ألوانا شتى وقال ابن كيسان شيعا وفرقا ومعنى الكلام أصنافا مختلفة ومذاهب متفرقة ثم قيل فى اعراب الآية ومنا دون ذلك قوم دون ذلك فحذف الموصوف

وأقام صفته مقامه كقوله وما منا الا له مقام معلوم أى الا من له مقام معلوم وكقوله ومن الذين هادوا سماعون للكذب أى فريق سماعون وكقوله الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه أى فريق يحرفون وكقوله على أظهر القولين ومن الذين أشركوا يود أحدهم أى فريق يود أحدهم وقال الشاعر

فظلوا ومنهم دمعه سابق لهم
وآخر يذرى دمعة العين بالمهل

أى ومنهم من دمعه وقولهم كنا طرائق قددا بيان لقولهم منا الصالحون ومنا دون ذلك أى كنا ذوى طرائق وهى المذاهب واحدها طريقة وهى المذهب والقدد جمع قدة كقطعة وقطع وزنا ومعنى وهى من القد وهو القطع وقيل كنا فى اختلاف أحوالنا مثل الطرائق المختلفة فى اختلافها وعلى هذا فالمعنى كنا طرائق قددا وليس بشئ وأضعف منه قول من قال ان طرائق منصوب على الظرف أى كنا فى طريق مختلفة كقوله عسل الطريق الثعلب وهذا مما لا يحمل عليه أفصح الكلام وقيل المعنى كانت طرائقنا طرائق قددا فحذف المضاف وأقام المضاف اليه مقامه وقال تعالى اخبارا عنهم وانا منا المسلمون ومنا القاسطون فالمسلمون الذين آمنوا بالله ورسوله منهم والقاسطون الجائرون العادلون

عن الحق قال ابن عباس هم الذين جعلوا لله أندادا يقال اقسط الرجل اذا عدل فهو مقسط ومنه واقسطوا ان الله يحب المقسطين وقسط اذا جار فهو قاسط وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا وقد تضمنت هذه الآيات انقسامهم الى ثلاث طبقات صالحين ودون الصالحين وكفار وهذه الطبقات بازاء طبقات بنى آدم فانها ثلاثة أبرار ومقتصدون وكفار فالصالحون بازاء الابرار ومن دونهم بازا ايضا

آخر ليجعل أولاد المسلمين أولاد زنا ولا ريب أن مثل هذا البهت يروج على كثير من حميرهم وقد خلق الله تعالى لكل باطل وبهت حملة كما جعل للحق حملة ولا من وراء هذا البهت بهت وليس بمستنكر لأمة قدحت فى معبودها والهها ونسبته الى ما لا يليق بعظمته وجلاله ونسبت أنبياءه الى ما لا يليق بهم ورمتهم بالعظائم أن ينسبوا محمدا صلى الله تعالى عليه وسلم وشرف وكرم وعظم الى ذلك وعداوته لهم وملاحمه فيهم واجلاؤه لهم من ديارهم وأموالهم وسبى ذراريهم ونسائهم معلوم غير مجهول وقد نسبت هذه الأمة الغضبية عيسى بن مريم الى انه ساحر ولد غية ونسبت أمه الى الفجور ونسبت لوطا الى انه وطئ ابنتيه وأولدهما وهو سكران من الخمر ونسبوا سليمان عليه السلام الى انه كان ملكا ساحرا وكان أبره عندهم ملكا مسيحا ونسبوا يوسف عليه السلام الى أنه حل تكة سراويله وتكة سراويل سيدته وانه قعد منها مقعد الرجل من امرأته وان الحائط انشق له فرأى أباه يعقوب عليه السلام عاضا على أنامله فلم يقم حتى نزل جبريل عليه السلام فقال يا يوسف تكون من الزناة وأنت معدود عند الله تعالى من الانبياء فقام حينئذ ومعلوم أن ترك الفاحشة عن هذا لا مدح فيه فان أفسق الناس لو رأى هذا لولى هاربا وترك الفاحشة ومنهم من يزعم أن المسيح كان من العلماء وانه كان يداوى المرضى بالأدوية ويوهمهم أن الانتفاع انما حصل لهم بدعائه ابتدأ وجماعة من المرضى فى يوم السبت فأنكرت عليه اليهود ذلك فقال لهم اخبرونى عن الشاة من الغنم ان وقعت فى بئر أما تنزلون اليها وتحلون السبت لتخليصها قالوا بلى قال فلم أحللتم السبت لتخليص الغنم ولا تحلونه لتخليص الانسان الذى هو أكبر حرمة من الغنم فافحموا ويحكون أيضا عنه أنه مشى مع قوم من تلاميذه فى حقل ولم يحضرهم الطعام فاذن لهم فى تناول الحشيش يوم السبت فأنكرت عليه اليهود قطع الحشيش فى يوم السبت فقال لهم أرأيتم لو أن أحدكم كان وحيدا مع قوم غير ملته وأمرهم بقطع النبات والقائه لدوابهم لا يقصدون بذلك ابطال السبت ألستم تجيزون له قطع النبات قالوا بلى قال فان هؤلاء القوم أمرتهم بقطع النبات ليأكلوه وليتغذوا به لا لقطع السبت ومن العجب أن عندهم فى التوراة الى بأيديهم لا يزول الملك من آل يهودا والراسم من بين ظهرانيهم الى أن يأتى المسيح وهم لا يقدرون أن يجحدوا ذلك فيقال لهم انكم كنتم أصحاب دولة حتى ظهر المسيح ثم انقضى ملككم ولم يبق لكم اليوم ملك وهذا برهان على أن المسيح مرسل ومن حين بعث المسيح وكفروا به وطلبوا قتله استولت ملوك الروم على اليهود وبيت المقدس وانقضت دولتهم وتفرق شملهم فيقال لهم ما تقولون فى عيسى بن مريم فيقولون انه ولد يوسف النجار لغية لا لرشدة وقد كان عرف اسم الله الاعظم يسحر به كثيرا من الاشياء وعند هذه الامة الغضبية

ايضا ان الله تعالى كان قد اطلع موسى عليه السلام على الاسم المركب من اثنين وان يعبر حرفاو به شق البحر وعمل المعجزات فيقال لهم فاذا كان موسى قد عمل المعجزات باسم الاله فلم صدقتم نبوته واقررتم بها وجحدتم نبوة عيسى وقد عمل المعجزات بالاسم الاعظم فاجاب بعضهم عن هذا الالزام بأن الله سبحانه وتعالى علم موسى ذلك الاسم فعلمه بالوحى وعيسى انما تعلم من حيطان بيت المقدس وهذا هو اللائق ببهتهم وكذبهم على الله تعالى وانبيائه وهو يسد عليهم العلم بنبوة موسى لان كلا الرسولين اشتركا فى المعجزات والآيات الظاهرة التى لا يقدر أحد أن ياتى بمثلها فان كان أحدهما قد تعلمها بحيلة أو بعلم فالآخر يمكن ذلك فى حقه وقد أخبرا جميعا أن الله سبحانه وتعالى هو الذى أجرى ذلك على أيديهما وانه ليس من صنعهما فتكذيب أحدهما وتصديق الآخر تفريق بين المتماثلين وايضا فانه لا دليل لهم على أن موسى تلقى تلك المعجزات عن الله تعالى الا وهو يدل على أن عيسى عليه السلام تلقاها أيضا عن الله تعالى فان أمكن القدح فى معجزات عيسى عليه السلام أمكن القدح فى معجزات موسى عليه السلام وان كان ذلك باطلا فهذا أيضا باطل واذا كان هذا شان معجزات هذين الرسولين مع بعد العهد وتشتت شمل أمتيهما فى الارض وانقطاع معجزاتهما فما الظن بنبوة من معجزاته وآياته تزيد على الالف والعهد بها قريب وناقلوها أصدق الخلق وأبرهم ونقلها ثابت بالتواتر قرنا بعد قرن وأعظمها معجزة باق غض طرى لم يتغير ولم يتبدل منه شئ بل كانه منزل الآن وهو القرآن العظيم وما أخبر به يقع كل وقت على الوجه الذى أخبر به كانه كان يشاهده عيانا

(فصل) ولا يمكن البتة أن يؤمن يهودى بنبوة موسى عليه السلام ان لم يؤمن بنبوة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ولا يمكن نصرانيا أن يقر بنبوة المسيح الا بعد اقراره بنبوة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وبيان ذلك أن يقال لهاتين الامتين أنتم لم تشاهدوا هذين الرسولين ولا شاهدتم آياتهما وبراهين نبوتهما فكيف يسع العاقل أن يكذب نبيا ذا دعوة سابقة وكلمة قائمة وآيات باهرة ويصدق من ليس مثله ولا قريبا منه فى ذلك لانه لم ير احد النبيين ولا شاهد معجزاته فاذا كذب نبوة أحدهما لزمه التكذيب بنبوتهما وان صدق أحدهما لزمه التصديق بنبوتهما فمن كفر بنبى واحد فقد كفر بالانبياء كلهم ولم ينفعه ايمانه به قال تعالى ان الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف نؤتيهم أجورهم وكان الله غفورا رحيما وقال تعالى آمن الرسول

[illegible] والقاسطون بإزاء الكفار وهكذا كما انقسم منجانة بنى اسرائيل الى هذه الاقسام الثلاثة فى قوله وقطعناهم فى الارض أمما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك فهؤلاء الناجون منهم ثم ذكر الظالمين وهم خلف السوء الذين خلفوا بعدهم ولما كان الانس أكمل من الجن وأتم عقولا ازدادوا عليهم بثلاثة أصناف أخر ليس شئ منها للجن وهم الرسل والانبياء والمقربون فليس فى الجن صنف من هؤلاء بل حليتهم الصلاح وذهب شذوذ من الناس الى ان فيهم الرسل والانبياء محتجا على ذلك بقوله تعالى يا معشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم وبقوله واذ صرفنا اليك نفرا من الجن الى قوله منذرين وقد قال تعالى رسلا مبشرين ومنذرين وهذا قول شاذ لا يلتفت اليه ولا يعرف به سلف من الصحابة والتابعين وأئمة الاسلام وقوله ألم يأتكم رسل منكم لا يدل على ان الرسل من كل واحدة من الطائفتين بل اذا كانت الرسل من الانس وقد أمرت الجن باتباعهم صح أن يقال للانس والجن ألم يأتكم رسل منكم ونظيره هذا ان يقال للعرب والعجم ألم يأتكم رسل منكم يا معشر العرب والعجم فهذا لا يقتضى أن يكون من هؤلاء رسل ومن هؤلاء وقال تعالى وجعل القمر فيهن نورا وليس فى كل سماء سماء وقوله ولوا الى قومهم منذرين فالانذار أعم من الرسالة والاعم لا يستلزم الاخص قال تعالى فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم فهؤلاء نذر وليسوا برسل قال غير واحد من السلف الرسل من الانس وأما الجن ففيهم النذر قال تعالى وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحى اليهم من أهل القرى فهذا يدل على انه لم يرسل جنيا ولا امرأة ولا بدويا وأما تسميته تعالى الجن رجالا فى قوله وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فلم يطلق عليهم الرجال بل هى تسمية مقيدة بقوله من الجن فهم رجال من الجن ولا يستلزم ذلك دخولهم فى الرجال عند الاطلاق كما تقول رجال من حجارة ورجال من خشب ونحوه (فصل) وقد اتفق المسلمون على ان كفار الجن فى النار وقد دل على ذلك القرآن فى غير موضع كقوله ولكن حق القول منى لاملأن جهنم الآية وقوله لاملأن جهنم منك وممن تبعك الآية فملؤها منهم

بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله فنقول للمغضوب عليه هل رأيت موسى على نبينا معجزاته فبالضرورة يقول لا فنقول له بأى شئ عرفت نبوته وصدقه فله جوابان أحدهما أن يقول أبى عرفنى ذلك وأخبرنى به الثانى أن يقول التواتر وشهادات الأمم حقق ذلك عندى كما حققت شهادتهم وجود البلاد النائية والبحار والأنهار المعروفة وان لم أشاهدها فان اختار الجواب الاول وقال ان شهادة أبى واخباره اياى بنبوة موسى هى سبب تصديقى بنبوته قلنا ولم كان أبوك عندك صادقا فى ذلك معصوما عن الكذب وأنت ترى الكفار يعلمهم آباؤهم ما هو كفر عندك فاذا كنت ترى الاديان الباطلة والمذاهب الفاسدة يأخذها أربابها عن آبائهم كأخذك مذهبك عن أبيك وأنت تعلم أن الذين هم عليه ضلال فلزمك أن تبحث عما أخذته عن أبيك خوفا ان تكون هذه حاله فان قال ان الذى أخذته عن أبى أصح من الذى أخذه الناس عن آبائهم كان معارضة غيره له بمثل قوله فان قال أبى أصدق من آبائهم وأفضل عارضه الناس فى آبائهم بنظير ذلك وان قال أنا أعرف حال أبى ولا أعرف حال غيره قيل له فما يؤمنك أن يكون غير أبيك أصدق من أبيك وأفضل وأعرف وبكل حال فان كان تقليد أبيه حجة صحيحة كان تقليد غيره لأبيه كذلك وان كان ذلك باطلا كان تقليده لابيه باطلا فان رجع عن هذا الجواب واختار الجواب الثانى وقال انما علمت موسى بالتواتر قرنا بعد قرن فانهم أخبروا بظهوره وبمعجزاته وآياته وبراهين نبوته التى يضطر الى تصديقه فيقال له لا ينفعك هذا الجواب لانك قد أبطلت ما شهد به التواتر من نبوة عيسى ومحمد عليهما السلام فان قلت تواتر ظهور موسى ومعجزاته وآياته ولم يتواتر ذلك فى المسيح ومحمد عليهما السلام قيل هذا هو اللائق ببهت الامة الغضبية فان الأمم جميعهم قد عرفوا انهم قوم بهت والا فمن المعلوم أن الناقلين لمعجزات المسيح ومحمد صلى الله تعالى عليه وسلم اضعاف أضعافكم بكثير والمعجزات التى شاهدها والا انهم لا تنقص عن المعجزات التى أتى بها موسى عليه السلام وقد نقلها عنهم أهل التواتر جيلا بعد جيل وقرنا بعد قرن وأنت لا تقبل خبر التواتر فى ذلك وترده فيلزمك أن لا تقر به فى أمر موسى عليه السلام ومن المعلوم بالضرورة ان من أثبت شيأ ونفى نظيره فقد تناقض واذا اشتهر النبى فى عصر وصحت نبوته فى ذلك العصر بالآيات التى ظهرت عليه لأهل عصره ووصل خبره الى أهل عصر آخر وجب عليهم تصديقه والايمان به وموسى ومحمد والمسيح فى هذا سواء ولعل تواتر الشهادات بنبوة موسى أضعف من تواتر الشهادات بنبوة عيسى ومحمد لان الامة الغضبية قد مزقها الله تعالى كل ممزق وقطعها فى الارض وسلبها ملكها وعزها فلا عيش لها الا تحت قهر سواها من الأمم لها بخلاف أمة عيسى عليه السلام فانها قد انتشرت فى

[illegible] وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون الى قوله حطبا وقال تعالى ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس وقال فكبكبوا فيها هم والغاوون الآية وجنوده ابليس جنس الشياطين فهم داخلون فى عمومه وبالجملة فهذا أمر معلوم بالاضطرار من دين الاسلام وهو يستلزم تكليف الجن بشرائع الانبياء ووجوب اتباعهم لهم فاما شريعتنا فاجمع المسلمون على ان محمدا بعث الى الجن والانس وانه يجب على الجن طاعته كما يجب على الانس وأما قبل نبينا صلى الله عليه وسلم فقوله تعالى ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والانس فى النار يدل على ان الامم الخالية من كفار الجن فى النار وذلك انما يكون بعد اقامة الحجة عليهم بالرسالة وقد دلت سورة الرحمن على تكليفهم بالشرائع كما كلف الانس ولهذا يقول فى أثر كل آية فبأى آلاء ربكما تكذبان ودل ذلك على أن السورة خطاب الثقلين معا ولهذا قرأها رسول الله على الجن قراءة تبليغ وأخبر أصحابه انهم كانوا أحسن ردا منهم فانهم جعلوا يقولون كلما قرأ عليهم فبأى آلاء ربكما تكذبان لا نكذب بشئ من آلائك ربنا فلك الحمد ولما كان أبوهم هو أول من دعا الى معصية الله وعلى يده حصل كل كفر وفسوق وعصيان فهو الداعى الى النار وكان أول من يكسى حلة من النار يوم القيامة يسحبها وينادى واثبوراه فاتباعه من أولاده وغيرهم خلفه ينادون واثبورهم حتى قيل ان كل عذاب يقسم على أهل النار يبدأ به فيه ثم يصير اليهم

(فصل) وأما حكم مؤمنيهم فى الدار الآخرة فجمهور السلف والخلف على انهم فى الجنة وترجم على ذلك البخارى فى صحيحه فقال باب ثواب الجن وعقابهم لقوله تعالى يا معشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى الآية بخسا نقصا قال مجاهد وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا قال كفار قريش الملائكة بنات الله وأمهاتهم بنات سروات الجن قال الله ولقد علمت الجنة الآية يستحضر للحساب ثم ذكر حديث أبى سعيد اذا كنت فى غنمك وباديتك فاذنت بالصلاة فارفع صوتك بالنداء فانه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا الارض

الارض وفيهم الملوك ولهم السياسة وأما الخلفاء فممالكهم قد طبقت مشارق الارض ومغاربها وملؤا الدنيا سهلا وجبلا فكيف يكون نقلهم لما نقلوه كذبا ونقل الامة الغضبية الخاملة القليلة الزائلة صدقا فثبت أنه لا يمكن يهوديا على وجه الارض أن يصدق بنبوة موسى عليه السلام الا بتصديقه واقراره بنبوة محمد عليهما السلام ولا يمكن نصرانيا البتة الايمان بالمسيح عليه السلام الا بعد الايمان بمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم ولا ينفع هاتين الامتين شهادة المسلمين بنبوة موسى والمسيح لانهم آمنوا بهما على يد محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وكان ايمانهم بهما من الايمان بمحمد وبما جاء به فلولاه ما عرفنا نبوتهما وآمنا بهما ولا سيما فان أمة الغضب والضلال ليس بأيديهم عن أنبيائهم ما يوجب الايمان بهم فلولا القرآن ومحمد عليه السلام ما عرفنا شيأ من آيات الانبياء المتقدمين فمحمد صلى الله تعالى عليه السلام وكتابه هو الذى قرر نبوة موسى ونبوة المسيح لا اليهود والنصارى بل كان نفس ظهوره ومجيئه تصديقا لنبوتهما فانهما أخبرا بظهوره وبشرا به قبل ظهوره فلما بعث كان بعثه تصديقا لهما وهذا أحد المعنيين فى قوله تعالى ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون بل جاء بالحق وصدق المرسلين أى مجيئه تصديق لهم من جهتين من جهة اخبارهم بمجيئه ومبعثه ومن جهة اخباره بمثل ما أخبروا ومطابقة ما جاء به لما جاؤا به فان الرسول الاول اذا أتى بأمر لا يعلم الا بالوحى ثم جاء نبى آخر لم يقاربه فى الزمان ولا فى المكان ولا تلقى عنه بمثل ما جاء به سواء دل ذلك على صدق الرسولين الاول والآخر وكان ذلك بمنزلة رجلين أخبر أحدهما بخبر عن عيان ثم جاء آخر من غير بلده وناحيته بحيث يعلم انه لم يجتمع به ولا تلقى عنه ولا عمن تلقى عنه فأخبر بمثل ما أخبر به الاول سواء فانه يضطر السامع الى تصديق الاول والثانى والمعنى الثانى انه لم يأت مكذبا لمن قبله من الانبياء مزريا عليهم كما يفعل الملوك المتغلبة على الناس بمن تقدمهم من الملوك بل جاء مصدقا لهم شاهدا بنبوتهم ولو كان كاذبا متقولا منشئا من عنده سياسة لم يصدق من قبله بل كان يزرى بهم ويطعن عليهم كما يفعل أعداء الانبياء

(فصل) وقد اختلف أقوال الناس فى التوراة التى بأيديهم هل هى مبدلة أم التبديل والتحريف وقع فى التأويل دون التنزيل على ثلاثة أقوال طرفين ووسط فأفرطت طائفة وزعمت أنها كلها أو أكثرها مبدلة مغيرة ليست التوراة التى أنزلها الله تعالى على موسى عليه السلام وتعرض هؤلاء لتناقضها وتكذيب بعضها البعض وغلا بعضهم فجوز الاستجمار بها من البول وقابلهم طائفة أخرى من أئمة الحديث والفقه والكلام فقالوا بل التبديل وقع فى التأويل لا فى التنزيل وهذا مذهب أبى عبد الله محمد بن اسمعيل البخارى قال فى صحيحه يحرفون يزيلون وليس أحد يزيل لفظ كتاب من كتب الله

ولامن الاشهد له يوم القيامة بالتوحيد سمعته من رسول الله هذا ما ذكره فى الباب وقد ذهب جمهور الناس الى ان مؤمنيهم فى الجنة وحكى عن أبى حنيفة وغيره ان ثوابهم نجاتهم من النار واحتج لهذا القول بقوله تعالى حكاية عنهم ياقومنا أجيبوا داعى الله الآية فجعل غاية ثوابهم ايجارتهم من العذاب الاليم وأما الجمهور فقالوا مؤمنهم فى الجنة كما ان كافرهم فى النار ثم اختلفوا فاطلق أكثر الناس دخول الجنة ولم يقيدوه وقال سهل ابن عبد الله يكونون فى ربض الجنة يراهم المؤمنون من حيث لا يرونهم فهذه مذاهب الناس فى أحكامهم فى الآخرة وأما أحكامهم فى الدنيا فاختلف الناس هل هم مكلفون بالامر والنهى أم هم مضطرون على أفعالهم على قولين حكاهما أبو الحسن الاشعرى فى كتاب المقالات له فقال واختلف الناس فى الجن هل هم مكلفون أم مضطرون فقال قائلون من المعتزلة وغيرهم هم مأمورون منهيون وقد أمروا ونهوا وهم مختارون وزعم زاعمون انهم مضطرون قلت الصواب الذى عليه جمهور أهل الاسلام انهم مأمورون منهيون مكلفون بالشريعة الاسلامية وأدلة القرآن والسنة على ذلك أكثر من أن تحصر فاضافة هذا القول الى المعتزلة بمنزلة أن يقال ذهبت المعتزلة الى القول بمعاد الابدان ونحو ذلك مما هو من أقوال سائر أهل الاسلام وقال تعالى أولئك الذين حق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والانس انهم الآية فاخبر ان منهم من حق عليه القول أى وجب عليه العذاب وانه خاسر ولا يكون ذلك الا فى أهل التكليف المستوجبين العقاب بأعمالهم ثم قال بعد ذلك ولكل درجات مما عملوا أى فى الخير والشر يوفونها ولا يظلمون شيئا من أعمالهم وهذا ظاهر جدا فى ثوابهم وعقابهم وان مسيئهم كما يستحق العذاب باساءته فمحسنهم يستحق الدرجات باحسانه ولكل درجات مما عملوا فدل ذلك لا محالة انهم كانوا مأمورين بالشرائع متعبدين بها فى الدنيا ولذلك استحقوا الدرجات بأعمالهم فى الآخرة فى الخير والشر وقال تعالى وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والانس الآية ومعنى الآية ان الله قيض للمشركين أى

تعالى ولكنهم يحرفونه يتأولونه على غير تأويله وهذا اختيار الرازى فى تفسيره وسمعت شيخنا يقول وقع النزاع فى هذه المسألة بين بعض الفضلاء فاختار هذا المذهب ووهن غيره فأحضر لهم خمسة عشر نقلا به ومن حجة هؤلاء أن التوراة قد طبقت مشارق الأرض ومغاربها وانتشرت جنوبا وشمالا ولا يعلم عدد نسخها الا الله تعالى ومن الممتنع أن يقع التواطؤ على التبديل والتغيير فى جميع تلك النسخ بحيث لا يبقى فى الارض نسخة الا مبدلة مغيرة والتغيير على منهاج واحد وهذا مما يحيله العقل ويشهد ببطلانه قالوا وقد بين الله تعالى لنبيه عليه السلام محتجا على اليهود بها قل فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين قالوا وقد اتفقوا على ترك فريضة الرجم ولم يمكنهم تغييرها من التوراة ولهذا لما قرؤها على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وضع القارئ يده على آية الرجم فقال له عبد الله بن سلام ارفع يدك عن آية الرجم فرفعها فاذا هى تلوح تحتها فلو كانوا قد بدلوا ألفاظ التوراة لكان هذا من أهم ما يبدلونه قالوا وكذلك صفات النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ومخرجه هو فى التوراة بين جدا ولم يمكنهم ازالته وتغييره وانما ذمهم الله تعالى بكتمانهم وكانوا اذا احتج عليهم بما فى التوراة من نعته وصفته يقولون ليس هو ونحن ننتظر به قالوا وقد روى أبو داود فى سننه عن ابن عمر قال أتى نفر من اليهود فدعوا رسول الله عليه السلام الى القف فأتاهم فى بيت المدراس فقالوا يا أبا القاسم ان رجلا منا زنى بامرأة فاحكم فوضعوا لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وسادة فجلس عليها ثم قال ائتونى بالتوراة فأتى بها فنزع الوسادة من تحته ووضع التوراة عليها ثم قال آمنت بك وبمن أنزلك ثم قال ائتونى بأعلمكم فأتى بفتى شاب ثم ذكر قصة الرجم قالوا فلو كانت مبدلة مغيرة لم يضعها على الوسادة ولم يقل آمنت بك وبمن أنزلك قالوا وقد قال تعالى وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم والتوراة من كلامه قالوا والآثار التى فى كتمان اليهود صفة رسول الله عليه السلام فى التوراة ومنعهم أولادهم وعوامهم الاطلاع عليها مشهورة ومن اطلع عليها منهم قالوا له ليس به فهذا بعض ما احتجت به [illegible] وتوسطت طائفة ثالثة وقالوا قد زيد فيها وغير ألفاظ يسيرة ولكن أكثرها باق على ما أنزل عليه والتبديل فى يسير منها جدا وممن اختار هذا القول شيخنا فى كتابه الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح قال وهذا كما فى التوراة عندهم ان الله سبحانه وتعالى قال لابراهيم عليه السلام اذبح ولدك بكرك أو واحدك اسحق فاسحق زيادة منهم فى لفظ التوراة قلت وهى باطلة قطعا من عشرة أوجه أحدها ان بكره ووحيده هو اسمعيل باتفاق الملل الثلاث فالجمع بين كونه مأمورا بذبح بكره وتعيينه باسحق جمع بين النقيضين الثانى ان الله سبحانه وتعالى أمر ابراهيم أن ينقل

بسبب لهم قرناء من الشياطين يزينون لهم ما بين أيديهم وما خلفهم من التكذيب بالآخرة ما فيها من الثواب والعقاب ومن ... ات ما بين أيديهم ٧ هو التكذيب بالآخرة ورغبتهم فى الدنيا وحرصهم عليها وقال الحسن ما بين أيديهم هو حب ما كان عليه آباؤهم من الشرك وتكذيب الرسل وما خلفهم (٤١٦) تكذيبهم بالبعث وما بعده وفى الآية قول رابع وهو ان التزيين كله راجع الى أعمالهم فزينوا لهم ما بين أيديهم أعمالهم التى عملوها وما خلفهم الاعمال التى هم عازمون عليها ولما يعملوها بعد وكان لفظ التزيين بهذا القول أليق ومن جعل ما خلفهم هو الآخرة لم يستقم قوله الا باضمار أى زينوا لهم التكذيب بالآخرة ومع هذا فهو قول مستقيم ظاهر فانهم زينوا لهم ترك العمل لها والاستعداد للقائها ولهذا كان عليه جمهور أهل التفسير حتى لم يذكر البغوى غيره وحكاه عن الزجاج فقال الزجاج سببنا لهم قرناء نظراء من الشياطين حتى أضلوهم فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم من أمر الدنيا حتى آثروه على الآخرة وما خلفهم من أمر الآخرة فدعوهم الى التكذيب به وانكار البعث والمقصود ان قوله تعالى وحق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والانس انهم كانوا خاسرين أى وجب عليهم العذاب مع أمم قد مضت من قبلهم من الجن والانس ففى هذا أبين دليل على تكليف الثقلين وتعلق الامر والنهى بهم وكذلك تعلق بهم الثواب والعقاب وقال تعالى ويوم نحشرهم جميعا يا معشر الجن قد استكثرتم من الانس وقال أولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا الى قوله الا ما شاء الله وهذا صريح فى تكليفهم فان هذا القول يقال للجن فى القيامة فذكر الانس استمتاع بعضهم ببعض فى الدنيا وذلك الاستمتاع هو ما بين الجن والانس من طاعتهم اياهم فى معصية الله هاجر عبادتهم لهم دون الله ليستعينوا بهم على شهواتهم واغراضهم فانهم كانوا يستوحونهم ويعوذون بهم ويذبحون لهم وباسمائهم يوالونهم من دون الله كما هو شأن أكثر المشركين من أولياء الشيطان فهذا هو استمتاع بعضهم ببعض ولهذا يقول تعالى للملائكة يوم

هاجر وابنها اسمعيل عن سارة ويسكنها في برية مكة لئلا تتغير سارة فأمر بابعاد السرية وولدها عنها قطعا لتألمها ودفعا لأذى الغيرة عنها فكيف سبحانه وتعالى بعد هذا يأمر بذبح ابن سارة وابقاء ابن السرية فهذا مما لا تقتضيه الحكمة الثالثة ان قصة الذبح كانت بمكة قطعا ولهذا جعل الله تعالى ذبح الهدايا والقرابين بمكة تذكيرا للأمة بما كان من قصة أبيهم ابراهيم مع ولده الرابع ان الله سبحانه بشر سارة أم اسحق باسحق ومن ورائه يعقوب فبشرها بهما جميعا فكيف بعد ذلك يذبح اسحق وقد بشر أبويه بولد ولده الخامس ان الله سبحانه وتعالى لما ذكر قصة الذبيح وتسليمه نفسه لله تعالى واقدام ابراهيم على ذبحه وفرغ من قصته قال بعدها وبشرناه باسحق نبيا من الصالحين فشكر الله تعالى له استسلامه لأمره وبذل ولده له وجعل من اثابته على ذلك ان آتاه اسحق فنجى اسمعيل من الذبح وزاده عليه اسحق السادس ان ابراهيم صلوات الله تعالى وسلامه عليه سأل ربه الولد فأجاب دعاءه وبشره فلما بلغ معه السعي أمره بذبحه قال تعالى وقال اني ذاهب الى ربي سيهدين رب هب لي من الصالحين فبشرناه بغلام حليم فهذا دليل على ان هذا الولد انما بشر به بعد دعائه وسؤاله ربه أن يهب له ولدا وهذا المبشر به هو المأمور بذبحه قطعا بنص القرآن وأما اسحق فانه بشر به من غير دعوة منه بل على كبر السن وكون مثله لا يولد له وانما كانت البشارة به لامرأته سارة ولهذا تعجبت من حصول الولد منها ومنه قال تعالى ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ فلما رأى أيديهم لا تصل اليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف انا أرسلنا الى قوم لوط وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها باسحق ومن وراء اسحق يعقوب قالت يا ويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا ان هذا لشيء عجيب قالوا أتعجبين من أمر الله فتأمل سياق هذه البشارة وتلك تجدهما بشارتين متفاوتتين تخرج أحدهما عن مخرج الاخرى والبشارة الاولى كانت له والثانية كانت لها والبشارة الاولى هي التي أمر بذبح من بشر به فيها دون الثانية السابع ان ابراهيم عليه السلام لم يقدم باسحق الى مكة البتة ولم يفرق بينه وبين أمه كيف يأمره الله تعالى أن يذهب بابن امرأته فيذبحه بموضع ضرتها في بلدها ويدع ابن ضرتها الثامن ان الله تعالى لما اتخذ ابراهيم خليلا والخلة تتضمن أن يكون قلبه كله متعلقا بربه ليس فيه شعبة لغيره فلما سأل الولد وهبه اسماعيل فتعلق به شعبة من قلبه فأراد خليله سبحانه أن تكون تلك الشعبة له ليست لغيره من الخلق فامتحنه بذبح ولده فلما أقدم على الامتثال خلصت تلك الخلة وتمحضت لله وحده فنسخ الأمر بالذبح

القيامة وقد جمع العابدين والمعبودين أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون فهؤلاء عباد الجن وأولياء الشياطين وأكثرهم يعلم ذلك ويرضى به لما يناله به من المتعة بمعبوده وكثير منهم ملبوس عليه فهو يعبد الشيطان ولا يشعر وقد أشار زيد بن عمرو بن نفيل في شعره الى هذا الشرك بالجن فقال حنانيك ان الجن كانت رجاءهم وأنت الهي ربنا ورجاؤنا ولهذا يقولون في القيامة ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال الله تعالى النار مثواكم خالدين فيها الا ما شاء الله فهذا خطاب للصنفين وهو صريح في اشتراكهم في التكليف كما هو صريح في اشتراكهم في العذاب وهو كثير في القرآن ومما يدل على تكليفهم أيضا قوله يا معشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي الى قوله كافرين فلما اعترفوا بانهم كانوا كافرين وشهدوا على أنفسهم بالكفر دل ذلك على تكليفهم وتوجه الخطاب اليهم وقال واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا الى قوله أولئك في ضلال مبين فهذا يدل على تكليفهم من وجوه متعددة أحدها ان الله سبحانه صرفهم الى رسوله يستمعون القرآن ليؤمنوا به ويأتمروا بأوامره وينتهوا عن نواهيه الثاني انهم ولوا الى قومهم منذرين والانذار هو الاعلام بالمخوف بعد انعقاد أسبابه فعلم انهم منذرون لهم بالنار ان عصوا الرسول الثالث انهم أخبروا انهم سمعوا القرآن وعقلوه وفهموه وانه يهدي الى الحق وهذا القول منهم يدل على انهم عالمون بموسى وبالكتاب المنزل عليه وان القرآن مصدق له وانه هاد الى صراط مستقيم وهذا يدل على تمكنهم من العلم الذي تقوم به الحجة وهم قادرون على امتثال ما فيه والتكليف انما يستلزم العلم والقدرة الرابع انهم قالوا لقومهم يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به وهذا صريح في انهم مكلفون مأمورون باجابة الرسول وهي تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر الخامس انهم قالوا يغفر لكم من ذنوبكم والمغفرة لا تكون الا عن ذنب وهو مخالفة الأمر السادس

لحصول المقصود وهو العزم وتوطين النفس على الامتثال ومن المعلوم ان هذا انما يكون في أول الاولاد لا في آخرها فلما حصل هذا المقصود من الولد الاول لم يحتج في الولد الآخر الى مثله فانه لو زاحمت محبة الولد الآخر الخلة لامر بذبحه كما أمر بذبح الاول فلو كان المامور بذبحه هو الولد الآخر لكان قد أقره في الاول على مزاحمة الخلة به مدة طويلة ثم أمره بما يزيل المزاحم بعد ذلك وهذا خلاف مقتضى الحكمة فتأمله التاسع ان ابراهيم عليه السلام انما رزق اسحق عليه السلام على الكبر واسمعيل عليه السلام رزقه في عنفوانه وقوته والعادة ان القلب أعلق بأول الاولاد وهو اليه أميل وله أحب بخلاف من رزقه على الكبر ومحل الولد بعد الكبر كمحل الشهوة للمرأة العاشر ان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كان يفتخر بقوله انا ابن الذبيحين يعني أباه عبد الله وجده اسماعيل والمقصود ان هذه اللفظة مما زادوها في التوراة ونحن نذكر السبب الموجب لتغيير ما غير منها والحق أحق ما اتبع فلا نعول على المستهتكين بها المستجمرين بها بل معاذ الله من ذلك ولا نقول انها باقية كما أنزلت من كل وجه كالقرآن فنقول وبالله التوفيق علماء اليهود وأحبارهم يعتقدون أن هذه التوراة التي بأيديهم هي التي أنزلها الله تعالى على موسى بن عمران بعينها لان موسى عليه السلام صان التوراة عن بني اسرائيل خوفا من اختلافهم من بعده في تأويلها المؤدي الى تفرقهم أحزابا وانما سلمها الى عشيرته أولاد لاوي ودليل ذلك قوله في التوراة وكتب موسى هذه التوراة ودفعها الى الائمة بني لاوي وكان بنو هرون قضاة اليهود وحكامهم لان الامانة وخدمة القرابين وبيت المقدس كانت موقوفة عليهم ولم يبذل موسى عليه السلام من التوراة لبني اسرائيل الا نصف سورة وهي التي قال فيها وكتب موسى هذه السورة وعلمها بني اسرائيل هذا نص التوراة عندهم قال وتكون لي هذه السورة شاهدة على بني اسرائيل وفيها قال الله تعالى ان هذه السورة لا تنسى من أفواه أولادهم وهذه السورة مشتملة على ذم طبائعهم وانهم سيخالفون شرائع التوراة وان السخط يأتيهم بعد ذلك وتخرب ديارهم ويسبون في البلاد فهذه السورة تكون متداولة في أفواههم كالشاهد عليهم الموقف لهم على صحة ما قيل لهم فلما نصت التوراة أن هذه السورة لا تنسى من أفواه أولادهم دل ذلك على أن غيرها من السور ليس كذلك وانه يجوز أن ينسى من أفواههم وهذا يدل على ان موسى عليه السلام لم يعط بني اسرائيل من التوراة الا هذه السورة فاما بقيتها فدفعها الى أولاد هارون وجعلها فيهم وصانها عمن سواهم وهؤلاء الائمة الهارونيون الذين كانوا يعرفون التوراة ويحفظون أكثرها

انهم قالوا من ذنوبكم والذنب مخالفة الأمر السابع انهم قالوا ويجركم من عذاب أليم وهذا يدل على ان من لم يجب منهم داعي الله لم يجره من العذاب الاليم وهذا صريح في تعلق الشريعة الاسلامية بهم الثامن انهم قالوا ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الارض وليس له من دونه أولياء وهذا تهديد شديد لمن تخلف عن اجابة داعي الله منهم وقد استدل بها انهم كانوا متعبدين بشريعة موسى كما هم متعبدون بشريعة محمد وهذا ممكن والآية تستلزمه ولكن قوله يامعشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم الآية يدل على ان الجن كانوا متعبدين بشرائع الرسل قبل محمد والآيات المتقدمة تدل على ذلك أيضا وعلى هذا فيكون اختصاص النبي صلى الله عليه وسلم بالبعثة الى الثقلين هو اختصاصه بالبعثة الى جميعهم لا الى بعضهم ومن قبله كان يبعث الى طائفة مخصوصة وأيضا فقد قال تعالى عن نبيه سليمان ومن الجن من يعمل بين يديه باذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير وهذا محض التكليف وقد تقدم قوله تعالى حكاية عنهم وانا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم الى قوله لجهنم حطبا وقد صح ان رسول الله قرأ عليهم القرآن وانهم سالوه الزاد لهم ولدوابهم فجعل لهم كل عظم ذكر اسم الله عليه وكل بعرة علف لدوابهم ونهانا عن الاستنجاء بهما ولو لم يكن في هذا الا قوله وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وقد أخبر انه يعذب كفرة الجن لكفى به حجة على انهم مكلفون باتباع الرسل ومما يدل على انهم مامورون منهيون بشريعة الاسلام ما تضمنته سورة الرحمن فانه سبحانه ذكر خلق النوعين في قوله خلق الانسان من صلصال كالفخار الى قوله من مارج من نار ثم خاطب النوعين بالخطاب المتضمن لاستدعاء الايمان منهم وانكار تكذيبهم بالآية وترغيبهم في وعده وتخويفهم من وعيده وتهديدهم قتلهم بقوله سنفرغ لكم أيه الثقلان وتخويفهم من عواقب ذنوبهم وانه لعلمه بها لا يحتاج أن يسألهم عنها سؤال استعلام بل يعرف المجرمون منهم بسيماهم فيؤخذ بالنواصي بنواصيهم والاقدام ثم ذكر عقاب الصنفين وثوابهم وهذا كله صريح في انهم هم المكلفون المأمورون

قتلهم بختنصر على دم واحد يوم فتح بيت المقدس ولم يكن حفظ التوراة فرضا عليهم ولا سنة كان كل واحد من الهارونيين يحفظ فصلا من التوراة فلما رأى عزير أن القوم قد أحرق هيكلهم وزالت دولتهم وتفرق جمعهم ورفع كتابهم جمع من محفوظاته ومن الفصول التي تحفظها الكهنة ما اجتمعت منه هذه التوراة التي بأيديهم ولذلك بالغوا في تعظيم عزير هذا غاية المبالغة فزعموا أن النور الآن يظهر على قبره وهو عند بطائح العراق لانه جمع لهم ما يحفظ دينهم وغلا بعضهم فيه حتى قال هو ابن الله ولذلك نسب الله تعالى ذلك الى اليهود الى جنسهم لا الى كل واحد منهم فهذه التي بأيديهم في الحقيقة كتاب عزير وفيها كثير من التوراة التي أنزلها الله تعالى على موسى عليه الصلاة والسلام ثم تداولتها أمة قد مزقها الله تعالى كل ممزق وشتت شملها فلحقها ثلاثة أمور أحدها بعض الزيادة والنقصان الثاني اختلاف الترجمة الثالث اختلاف التأويل والتفسير ونحن نذكر من ذلك أمثلة تبين حقيقة الحال المثال الاول ما تقدم من قوله ولحم في الصحراء لا تأكلوا وللكلاب ألقوا وتقدم بيان تحريفهم هذا النص وحمله على غير محمله المثال الثاني قوله في التوراة سأقيم لهم من اخوتك مثلك به فليؤمنوا فحرفوا تأويله اذلم يمكنهم أن يبدلوا تأويله وقالوا هذه بشارة بنبي من بني اسرائيل وهذا باطل من وجوه أحدها أنه لو أراد ذلك لقال من أنفسهم كما قال في حق محمد عليه السلام لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم وقال تعالى لقد جاءكم رسول من أنفسكم ولم يقل من أخوتكم الثاني ان المعهود في التوراة ان أخوتهم غير بني اسرائيل ففي الجزء الاول من السفر الخامس أنتم عابرون في تخوم اخوتكم بني العيص المقدس في سيعير اياكم أن تطمعوا في شئ من أرضهم فاذا كان بنو العيص اخوة لبني اسرائيل لان العيص واسرائيل ولدا اسحق والروم هم بنو العيص واليهود هم بنو اسرائيل وهم اخوتهم فكذلك بنو اسمعيل اخوة لجميع ولد ابراهيم الثالث أن هذه البشارة لو كانت بشمويل اعتبره من بني اسرائيل لم يصح أن يقال بنو اسرائيل اخوة بني اسرائيل وانما المفهوم من هذا أن بني اسمعيل أو بني العيص هم اخوة بني اسرائيل الرابع أن سأقيم لهم نبيا مثلك وفي موضع آخر أنزل عليه توراة مثل توراة موسى ومعلوم أن شمويل وغيره من أنبياء بني اسرائيل لم يكن فيهم مثل موسى لاسيما وفي التوراة لا يقوم في بني اسرائيل مثل موسى وأيضا فليس في بني اسرائيل من أنزل عليه توراة مثل توراة موسى الا محمد والمسيح عليهم السلام والمسيح كان من

سيرون المثابون المعاقبون وفي الترمذي من حديث محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال خرج رسول الله على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها الى آخرها فسكتوا فقال لقد قرأتها على الجن ليلة الجن وكانوا أحسن مردودا منكم كنت كلما أتيت على آية فبأي آلاء ربكما تكذبان قالوا لا بشئ من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد وهذا يدل على ذ كائهم وفطنتهم ومعرفتهم بمؤنة الخطاب وعلمهم انهم مقصودون به وقوله في هذه السورة سنفرغ لكم أيها الثقلان وعيد للصنفين المكلفين بالشرائع قال قتادة معناه فراغ الدنيا وانقضاؤها ومجيء الآخرة والجزاء فيها وانه سبحانه لا يشغله شئ عن شئ والفراغ في اللغة على وجهين فراغ من الشغل وفراغ بمعنى القصد وهو في هذا الموضع بالمعنى الثاني وهو قصد لمجازاتهم بأعمالهم يوم الجزاء وقوله يا معشر الجن والانس ان استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والارض فانفذوا فيه قولان أحدهما ان استطعتم أن تنفذوا مافي السموات والارض علما أي أن تعلموا ما فيهما فاعلموا ولن تعلموه الا بسلطان أي الا ببينة من الله وعلى هذا فالنفوذ هو نفوذ علم الثقلين في السموات والارض الثاني ان استطعتم أن تخرجوا عن قهر الله ومحل سلطانه ومملكته بنفوذكم من أقطار السموات والارض وخروجكم عن محل حكم الله وسلطانه فافعلوا ومعلوم ان هذا من الممتنع عليكم فانكم تحت سلطاني وفي محل ملكي وقدرتي أين كنتم وقال الضحاك معنى الآية ان استطعتم أن تهربوا عند الموت فاهربوا فانه مدرككم وهذه الاقوال على أن يكون الخطاب لهم بهذا القول في الدنيا وفي الآية تقرير آخر وهو أن يكون هذا الخطاب في الآخرة اذا أحاطت الملائكة بأقطار الارض وأحاط سرادق النار بالآفاق فهرب الخلائق فلا يجدون مهربا ولا منفذا كما قال تعالى ويا قوم اني أخاف عليكم يوم التناد يوم تولون مدبرين قال مجاهد فارين غير معجزين وقال الضحاك اذا سمعوا زفير النار ندوا هربا فلا يأتون قطرا من الاقطار الا وجدوا الملائكة صفوفا فيرجعون الى المكان الذي كانوا فيه فذلك قوله والملك على أرجائها وقوله يا معشر الجن والانس ان استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والارض

فانفذوا وهذا القول أظهر والله أعلم فاذا بدء الخلائق ولو امدبرين يقال لهم ان استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والارض فانفذوا أي ان قدرتم أن تجاوزوا أقطار السموات والارض فتعجزوا ربكم حتى لا يقدر على عذابكم فافعلوا وكان ما قبل هذه الآية وما بعدها يدل على هذا القول فان قبلها سنفرغ الآية وهذا في الآخرة وبعدها فاذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان وهذا في الآخرة

أنفس بني اسرائيل لا من اخواتهم بخلاف محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فانه من اخوتهم بني اسمعيل وأيضا فان في بعض ألفاظها النص كلكم له تسمعون وانه لم يأت بزيادة ولا بنسخ لانه انما أرسل ليقوي أيديهم على أهل فلسطين فردهم الى شرع التوراة فلم يأت بشريعة جديدة ولا كتاب جديد وانما احكمه حكم انبياء بني اسرائيل فانهم كانوا يسوسهم الانبياء كلما مات نبي قام فيهم نبي فان كانت هذه البشارة بشمويل فهي بشارة بسائر الأنبياء الذين بعثوا فيهم ويكون كلهم مثل موسى عليه السلام وكلهم قد أنزل عليهم كتاب مثل كتاب موسى عليه السلام المثل الثالث قوله في التوراة جاء الله تعالى من طور سيناء وأشرق نوره من سعير واستعلن من جبال فاران ومعه ربوات المقدسين وهم يعلمون أن جبل سعير جبل [illegible] الذي [illegible] بنو العيص الذين آمنوا بعيسى ويعلمون أن في هذا الجبل كان مقام المسيح [illegible] ان سيناهو جبل الطور وأما جبال فاران فهم يحملونها على جبال الشام وهذا من بهتهم وتحريف التأويل فان جبال فاران هي جبال مكة وفاران اسم من أسماء مكة وقد دل على هذا نص التوراة ان اسمعيل لما فارق أباه سكن برية فاران ونص [illegible] التوراة ان اسمعيل أقام في برية فاران وأنكحته أمه امرأة من أرض مصر فدل [illegible] التوراة أن جبال فاران مسكن لولد اسمعيل واذا كانت التوراة قد أشارت الى نبوة تنزل على جبال فاران انها تنزل على ولد اسمعيل لانهم سكانها ومن المعلوم بالضرورة انها لم تنزل على غير محمد صلى الله تعالى عليه وسلم من ولد اسمعيل عليه السلام وهذا من أظهر الأمور بحمد الله تعالى

(فصل) ومما يدل على غلط افهام هذه الأمة الغضبية وقلة فقههم وفساد آرائهم وعقولهم كما جاء في التوراة انهم شعب عادمو الرأي فليس فيهم فطانة أنهم سمعوا في التوراة يكون ثمار أرضك تحمل الى بيت الله ربك ولا ينضج الجدي بلبن أمه والمراد بذلك انهم أمروا عقيب افتراض الحج الى بيت المقدس عليهم أن يستصحبوا معهم اذا حجوا أبكار أغنامهم وأبكار مستغلات أرضهم لانه كان فرض عليهم قبل ذلك أن تبقى عندهم أولاد الغنم والبقر وراء أمهاتها سبعة أيام وفي اليوم الثامن فصاعدا يصلح أن تكون قربانا فأشار في هذا النص بقوله لا ينضج الجدي بلبن أمه انهم لا يبالغون في اطالة مكث بكور أولاد البقر والغنم وراء أمهاتها بل يستصحبون أبكارهم اللاتي قد عبرت سبعة أيام منذ ميلادهن معهم اذا حجوا الى بيت المقدس ليتخذوا منها القرابين فتوهم المترجم البليد ان الشرع

وأيضا فان هذا خطاب لجميع الانس والجن فانه أتى فيه بصيغة العموم وهي قوله يامعشر الجن والانس فلابد ان يشترك الكل في سماع هذا الخطاب ومضمونه وهذا انما يكون اذا جمعهم الله في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر وقال تعالى ان استطعتم ولم يقل ان استطعتما لارادة الجماعة كما في آية أخرى يامعشر الجن والانس ألم يأتكم وقال يرسل عليكما ولم يقل يرسل عليكم لارادة الصنفين أي لا يختص به صنف عن صنف بل يرسل ذلك على الصنفين معا وهذا وان كان مرادا بقوله ان استطعتم فخطاب الجماعة في ذلك بلفظ الجمع أحسن أي من استطاع منكم وحسن الخطاب بالتثنية في قوله عليكما أمر آخر وهو موافقة رؤس الآي فاتصلت التثنية بالتثنية وفيه التسوية بين الصنفين في العذاب بالتنصيص عليهما فلا يحتمل اللفظ ارادة أحدهما والله أعلم قال ابن عباس الشواظ اللهب الذي لا دخان فيه والنحاس الدخان الذي لا لهب فيه وقوله فيومئذ لا يسأل عن ذنبه انس ولا جان فاضاف الذنوب الى الثقلين وهذا دليل على انهما سويا في التكليف واختلف في هذا السؤال المنفي فقيل هو وقت البعث والمصير الى الموقف لا يسألون حينئذ ويسألون بعد اطالة الوقوف واستشفاعهم الى الله أن يحاسبهم ويريحهم من مقامهم ذلك وقيل المنفي سؤال الاستعلام والاستخبار لا سؤال المحاسبة والمجازاة أي قد علم الله ذنوبهم فلا يسألهم يريد عنها سؤال من يريد علمها وانما يحاسبهم عليها (فصل) فاذا علم تكليفهم بشرائع الانبياء ومطالبتهم بها وحشرهم يوم القيامة للثواب والعقاب علم ان محسنهم في الجنة كما ان مسيئهم في النار وقد دل على ذلك قوله تعالى حكاية عن مؤمنيهم وانا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن

يريد بالانضاج انضاج الطبيخ في القدر وانهم نهوا أن يطبخوا لحم الجدي باللبن ولم يكفهم هذا الغلط حتى حرموا أكل سائر اللحمان باللبن فالعوا الفظ الجدي وألغوا لفظ أمه وحملوا النص مالا يحتمله واذا أرادوا أن يأكلوا اللحم واللبن أكلوا كلا منهما على حدة والأمر في هذا ونحوه قريب

(فصل) ولا يستبعد اصطلاح كافة هذه الأمة على المحال واتفاقهم على أنواع الضلال فان الدولة اذا انقرضت عن أمة باستيلاء غيرها عليها وأخذها انطمست معالم دينها واندرست آثارها فان الدولة انما يكون زوالها بتتابع الغارات والمصافات واخراب البلاد واحراقها ولاتزال هذه الامور متواترة عليها الى أن يعود علمها جهلا وعزها ذلا وكثرتها قلة وكلما كانت الامة أقدم واختلفت عليها الدول المتناولة لها بالذل والصغار كان حظها من اندراس معالم دينها وآثارها أوفر وهي أوفر الأمم حظا من هذا الامر لانها من أقدم الأمم ولكثرة الأمم التي استولت عليها من الكلدانيين والدانيين والبابليين والفرس واليونان والنصارى وآخر ذلك المسلمون وما من هذه الأمم الا من طلب استئصالهم وبالغ في احراق بلادهم وكتبهم وقطع آثارهم الا المسلمين فانهم أعدل الأمم فيهم وفي غيرهم حفظا الوصية الله تعالى بهم حيث يقول يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى وصادف الاسلام هذه الامة تحت ذمة الفرس وذمة النصارى بحيث لم يبق لهم مدينة ولا جيش وأعز ما صادفه الاسلام من هذه الأمة يهود خيبر وما جاورها فانهم انما قصدوا تلك الناحية لما كانوا وعدوا به من ظهور رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وكانوا يقاتلون المشركين من العرب فيستنصرون عليهم بالايمان برسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قبل ظهوره ويعدونهم بأنه سيخرج نبي نتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وارم فلما بعث الله عز وجل نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم سبقهم اليه من كانوا يحاربونهم من العرب فحملهم الحسد والبغي على الكفر به وتكذيبه واشتد على هذه الامة من ذلك ما نالهم من ملوك العصاة وغيرهم من ملوك الاسرائيليين الذين قتلوا الانبياء وبالغوا في تطلبهم وعبدوا الاصنام وأحضروا من البلاد سدنتها ليعلموا رسومها في العبادة وبنوا لها البيع والهياكل وعكفوا على عبادتها وتركوا أحكام التوراة أعصارا متصلة فاذا كان هذا تواتر الآفات على دينهم من قبل ملوكهم فما الظن بالآفات التي نالتهم من غير ملوكهم واحراقهم كتبهم ومنعهم من القيام بدينهم فان الفرس

ربه الآية وبهذه الجملة احتج البخاري ووجه الاحتجاج به ان البخس المنفي هو نقصان الثواب والرهق الزيادة في العقوبة على ما عمل فلا ينقص من ثواب حسناته ولا يزاد في سيئاته ونظير هذا قوله ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن الآية أي لا يخاف زيادة سيئاته ولا نقصان حسناته وأيضا فقد قال تعالى في سورة الرحمن ولمن خاف مقام ربه جنتان فبأي آلاء (٤٢١) ربكما تكذبان وذكر ما في الجنتين الى قوله لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان وهذا يدل على ان ثواب محسنهم الجنة من وجوه أحدها ان من من صيغ العموم فتتناول كل خائف الثاني انه رتب الجزاء المذكور على خوف مقامه فدل على استحقاقه به وقد اختلف في اضافة المقام الى الرب هل هي من اضافة المصدر الى فاعله أو الى مفعوله على قولين أحدهما أن المعنى ولمن خاف مقامه بين يدي ربه فعلى هذا هو من اضافة المصدر الى المفعول والثاني أن المعنى ولمن خاف مقام ربه عليه واطلاعه عليه فهو من باب اضافة المصدر الى فاعله وكذلك القولان في قوله وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ونظيره قوله ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد فهذه ثلاثة مواضع وقد يقال الراجح هو الاول وان المعنى خاف مقامه بين يدي ربه لوجوه أحدها ان طريقة القرآن في التخويف أن يخوفهم بالله وباليوم الآخر فاذا خوفهم به علق الخوف به لا بقيامه عليهم كقوله تعالى ولا تخافوهم وخافون وقوله ذلك لمن خشي ربه وقوله يخافون ربهم من فوقهم وقوله ان الذين يخشون ربهم الآية ففي هذا كله لم يذكر خشية قيامه عليهم وانما مدحهم بخوفه وخشيته وقد يذكر الخوف متعلقا بعذابه كقوله يرجون رحمته ويخافون عذابه وأما خوف قيامه عليهم فهو وان كان كذلك فليس طريقة القرآن الثاني ان هذا نظير قوله وانذر به الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم فخوفهم أن يحشروا اليه هو خوفهم من مقامهم بين يديه والقرآن يفسر بعضه بعضا الثالث ان خوف مقام العبد بين يدي ربه في الآخرة لا يكون الا ممن يؤمن بالله وباليوم الآخر وبالبعث بعد الموت وهذا هو الذي يستحق الجنتين المذكورتين فانه لا يؤمن بذلك حق الايمان الا من آمن بالرسل وهو

كثيرا مامنعوهم من الصلاة لمعرفتهم بأن معظم صلاة هذه الطائفة دعاء على الأمم بالبوار وعلى العالم بالخراب فلما رأت هذه الأمة الجد من الفرس فى منعهم من الصلاة اخترعوا أدعية سموها الحزانة وصاغوا بها ألحانا وصاروا يجتمعون فى أوقات صلاتهم على تلحينها وتلاوتها وسموا العالم بها الحزان والفرق بينها و بين الصلاة ان الصلاة بغير لحن والمصلى يتلو فى الصلاة وحده ولا يجهر معه غيره والحزان يشاركه غيره فى الجهر بالحزانة و يعاونونه فى الألحان فكانت الفرس اذا أنكرت ذلك منهم قالت اليهود انا نغنى أحيانا ونتوح على أنفسنا فيتر كونهم وذلك فلما قام الاسلام وأقرهم على صلاتهم استصحبوا تلك الحزانة ولم يعطلوها فهذه فصول مختصرة فى كيد الشيطان وتلاعبه بهذه الأمة يعرف بها المسلم الحنيف قدر نعمة الله تعالى عز وجل عليه وما منّ به عليه من العلم والايمان و يهتدى من أراد الله تعالى هدايته من طالبى الحق من هذه الأمة ومن الله التوفيق والارشاد الى سواء الطريق اللهم صلّ وسلم على جميع الأنبياء والمرسلين خصوصا من بينهم محمدا وآله بأفضل الصلاة والتسليم اللهم صلّ وسلم على سيدنا محمد كلما ذكره الذاكرون وصلّ وسلم على سيدنا محمد كلما غفل عن ذكره الغافلون

آمين آمين

آمين

تم

من الالتفات بالكتب التى جاءت به الرسل وأما مقام الله على عبده فى الدنيا واطلاعه عليه وقدرته ... وأكثر الكفار يخافون جزاء الله لهم فى الدنيا لما رأوه من مجازاة الظالم بظلمه والمحسن باحسانه وأما مقام العبد بين يدى ربه فى الآخرة فلا يؤمن به الا المؤمن بالرسل فان قيل اذا كان المعنى انه خاف مقام ربه عليه فى الآخرة بالجزاء فقد استوى التفسيران فمن أين رجحتم أحدهما قيل التخويف بمقام العبد بين يدى ربه أبلغ من التخويف بمقام الرب على العبد ولهذا خوفنا تعالى فى قوله يوم يقوم الناس لرب العالمين ولانه مقام مخصوص مضاف الى الله وذلك فى يوم القيامة بخلاف مقام الله على العبد فانه كل وقت وأيضا فانه لا يقال لقدرة الله على العبد واطلاعه عليه وعلمه به مقام الله ولا هذا من المالوف اطلاقه على الرب وأيضا فان المقام فى القرآن والسنة انما يطلق على المكان كقوله عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا وقوله كم تركوا من جنات وعيون الآية وقوله خير مقاما وأحسن نديا والمقصود ان قوله ولمن خاف مقام ربه جنتان يتناول الصنفين من وجوه تقدم منها وجهان الثالث قوله عقيب هذا الوعد فباى آلاء ربكما تكذبان الرابع انه ذكر فى وصف نسائهم انهن لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان وهذا والله أعلم معناه انه لم يطمث نساء الانس أنس قبلهم ولا نساء الجن جن قبلهم ومما يدل على ان ثوابهم الجنة قوله تعالى ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات انا لا نضيع الى قوله من تحتهم الانهار وأمثال هذه من العمومات وقد ثبت ان منهم المؤمنين فيدخلون فى العموم كما ان كافرهم يدخل فى الكافرين المستحقين للوعيد ودخول مؤمنهم فى آيات الوعد أولى من دخول كافرهم فى آيات الوعيد فان الوعد فضله والوعيد عدله وفضله من رحمته وهى تغلب غضبه وأيضا فان دخول عاصيهم النار انما كان لمخالفته أمر الله فاذا أطاع الله أدخل الجنة وأيضا فانه لادار للمكلفين سوى الجنة والنار وكل من لم يدخل النار من المكلفين فالجنة مثواه وأيضا فقد ثبت انهم اذا أجابوا داعى الله غفر لهم وأجارهم من عذابه وكل من غفر له دخل الجنة ولابد وليس فائدة المغفرة الا الفوز بالجنة والنجاة من النار وأيضا فانه قد ثبت ان الرسول مبعوث

اليهم وانهم مكلفون باتباعه كان مطيعهم "تقوو رسوله مع الذين أنعم الله عليهم لقوله تعالى ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم الآية فقد أخبر سبحانه عن ملائكته حملة العرش ومن حولهم انهم يستغفرون للذين آمنوا وانهم يقولون فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم الى قوله وعدتهم فدل على ان كل مؤمن غفر الله له ووقاه عذاب الجحيم فقد وعده الجنة وقد ثبت فى حق مؤمنهم الايمان ومغفرة الذنب ووقاية النار كما تقدم فتعين دخولهم الجنة والله أعلم واذا ثبت تكليفهم بانقسامهم الى المسلمين والكفار والصالحين ودون ذلك فهم فى الموازنة على نحو طبقات الانس المتقدمة الا انهم ليس فيهم رسول وأفضل درجاتهم درجة الصالحين ولو كان لهم درجة أفضل منها لذكروها فقد دل القرآن على انقسامهم الى ثلاثة أقسام صالحين ودونهم وكفار وزاد عليهم الانس بدرجة الرسالة والنبوة ودرجة المقربين والله أعلم فهذا ما وصل اليه الاحصاء من طبقات المكلفين فى الدار الآخرة وهى ثمانى عشرة طبقة وكل طبقة منها لها أعلى وأدنى ووسط وهم درجات عند الله والله تعالى يحشر الشكل مع شكله والنظير مع نظيره ويقرن بينهما فى الدرجة قال تعالى أحشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله قال الامام أحمد وقبله عمر بن الخطاب أزواجهم أشباههم ونظراؤهم وقال تعالى واذا النفوس زوجت روى النعمان بن بشير عن عمر بن الخطاب انه سئل عن هذه الآية فقال يقرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح فى الجنة ويقرن الرجل السوء مع الرجل السوء فى النار وقال الحسن وقتادة يلحق كل امرئ بشيعته اليهودى باليهودى والنصرانى بالنصرانى وقال الربيع بن خثيم يحشر الرجل مع صاحب عمله وفى الآية ثلاثة أقوال أخر أحدها أن تزوج النفوس اقترانها باجسادها وردها اليها الثانى تزويجها اقترانها باعمالها الثالث انه تزويج المؤمنين الحور العين وتزويج الكفار بالشياطين والقول الاول أظهر الاقوال والله أعلم والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(يقول راجى غفران المساوى * مصححه محمد الزهرى الغمراوى)

الحمد لله رب ما أنعم من اظهار معالم دينه وبين من الحجج الدافعة للشبهات عن مسالك يقينه والصلاة والسلام على سيدنا محمد الجامع لأشتات الفضائل المبعوث بالحنيفية السمحاء الدامغة للأباطيل والرذائل وعلى آله السالكين سبيله وصحبه الحافظين فعله وقيله (أما بعد) فقد تم بحمده تعالى طبع كتاب (اغاثة اللهفان فى مصايد الشيطان) وهو كتاب أماط عن الحق لثامه واستعمل فى نصرته أقلامه بين ما للشيطان من مداخل فى سائر فرق العالم وما للشريعة من الحق الصريح الذى لا يقاوم فانجر به الأمر الى مزالق أقدام عز فيها التحقيق بجعل الصواب على طرف الثمام وأهان الباطل بلوامع أنواره فكان فى غاية الاهتضام فله فى نصرة الحق أثبت قدم وأعلى حجة وأغلى قلم سرد عقائد الخلق وأعمالهم وبين ما فيهما من عوج ونصح لهم وكيف وهو خاتمة المحققين ووارث علوم المجتهدين الامام الحجة شمس الدين محمد بن أبى بكر الحنبلى المعروف بابن قيم الجوزيه رحمه الله وأثابه رضاه ومعرفة المرء بالتعريف غير معرفته بكلامه فهو وان بالغ الانسان فيه ما يستفاد من كلامه أعرف لمقامه وقد حليت طرره ووشيت غرره بكتاب طريق الهجرتين وباب السعادتين وهو كتاب فى التصوف المؤيد بنور الشريعة وفيه ما يبهر العقل ببيان حقائق تحلى لكل أذن سميعه وهو للمؤلف المذكور ضاعف الله له الأجور

وذلك بالمطبعة الميمنيه بمصر المحروسة المحميه

بجوار سيدى أحمد الدردير قريبا من

الجامع الازهر المنير فى شهر شعبان

سنة ١٣٣٠ هجريه على

صاحبها أفضل الصلاة

وأزكى التحيه

آمين

